A R E F   A L - A R E F

تاريخ مدن
CITIES - HISTORY

عارف العارف

المفصّل في تاريخ القدس



المفصّل
في تاريخ القدس

المفصّل في تاريخ القدس / تاريخ مدن
عارف العارف / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
الإشراف الفنّي :
صورة الغلاف والصور الداخليّة :
ستوديو غارو - القدس / فلسطين
الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
مصطفى قانصوه للتجارة والطباعة / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-750-7

محتويات الكتاب

الباب الأول

القدس في العهود الغابرة

الباب الثاني

الفتح الإسلامي

القدس وعمر بن الخطاب

الباب الثالث

الحروب الصليبية

الباب الرابع
القدس في عهد المماليك

الباب الخامس

القدس في عهد الاتراك العثمانيين

الباب السادس
الاحتلال البريطاني

الباب السابع

القدس كما رأيتها في مطلع عام ١٩٤٧

الباب الثامن
الأماكن المقدسة

الأماكن المسيحية المقدسة

الأماكن اليهودية المقدسة

مصادر الكتاب

الإهداء

...إلى أبي وأمي

المقدمة

حينما أخرجتُ كتابي : (الموجز في تاريخ القدس) . وقد تولّت إخراجه يومئذ (دار المعارف) بمصر . . قطعتُ على نفسي عهداً أن أُتبعَه - متى آنَ الأوان - بكتاب آخر يرسمُ معالمها بشيء أكثرَ من الوضوح ، ويسردُ أخبارها بقدر أكبرَ من التحقيق والتحليل . . وهأنذا ، برّاً بوعدي ، أضعُ بين يديك ، أيها القارىء الكريم ، كتابي هذا ؛ وقد سميّتُهُ : المفصل في تاريخ القدس .

وقد حدَّثتُك فيه عن أخبار هذه المدينة : من اليوم الذي بناها فيه اليبوسيون إلى يومنا هذا .

وسواءٌ أقرأتَ هذا الكتاب أم ذاك ، فإنّك - وأنتَ تُمعنُ النظر في صفحاته - لن تجدَ مناصاً من التسليم - كما سلَّمتُ أنا من قبلك - أن القدس ليست مدينة تاريخيةً قديمةً فحسب ، بل إنها من أقدم المدن التي عرفها التاريخ .

وإنه لتاريخٌ مجيد . . تاريخها .

ذلك لأنها صَمَدَت لنوائب الزمان بجميع أنواعها ، وطوارئ الحدثان بجميع ألوانها . حتى أنه لم يبق فاتحٌ من الفاتحين ، أو غاز من الغزاة المتقدمين والمتأخرين ، الذين صالوا في هذا الجزء من الشرق ، إلاّ ونازلته ؛ فإمّا أن يكونَ قد صَرَعَها ، أو تكون هي قد صَرَعَتْه . .

إنها مدينةٌ مقدسة . واسمها هذا . . القدس . . معناه في اللغة الطهر والبركة والقداسة . . . وقداستها هذه وإن كان قد رفعتْ قدرها وشرّفتْ اسمها وأذاعتْ في الخافقين صيتَها ؛ إلاّ أنها ، في الوقت نفسه ، كانت - ويا للأسف - السببَ في معظم البلايا والإحن التي أصابتها!! . فكم ، وكم من مرة في التاريخ - القديم منه والحديث - هوجمت ، واستبيح حماها! . . وكم ، وكم من مرة سُفكت دماءُ أبنائها ، ودُمر بنيانها تدميراً ، فجعل عاليها سافلها! . . لا ، لسبب ؛ سوى أنها مقدسة! . .

وراح الناس من جميع أطراف المعمورة يفدون إليها ، يريدون امتلاكها! . . غير مكتفين بالصلاة والعبادة! . . وكان القول الفصل ، في أغلب الأحيان ، للسيف والمدفع! .

وكثيراً ما شعرتُ بالرغبة تحدوني لمعرفة الحقيقة : مَن مِن هؤلاء الغزاة والفاتحين كان على حق؟ ومَن منهم كان على باطل؟ ومَن الذي كان أرحم من غيره في غزوه؟

وما هو الأثر الذي تركه هذا وذاك في هذه الديار؟

وثَم حافز آخر . . هو الذي حفزني إلى دراسة تاريخها . . إنه حُبي . . بلى وربك . إني أحبها : لجمالها ، وطيب نسيمها ، وجودة تربها ، ودم الآباء والأجداد الذي يَعْبقُ أريجُه ويفوح عبيرهُ في كل ذروة من ذُراها . ولا بدع : فإنها بلدي . . ومسقط رأسي . . ومرتع قومي وعشيرتي . . ففيها أبصرتْ عيناي النور لأول مرة في حياتي . . وعلى هواها درجتُ منذ نعومة أظفاري .

ولّما شببتُ عن الطوق ؛ رحت أكثر من التجوال في ساحاتها ، وأسرح ملياً في معالمها . وكلما أطلت الوقوف والتأمل في أثر من آثارها ، ازددت حباً لها وشغفاً بها .

ورمتني يد الأقدار بعدئذ . . ولحين من الدهر . . في ديار الغربة ؛ فجبت الشرقين : الأوسط والأقصى . وما كانت غربتي إلا لتزيدني حباً على حب ، وحنيناً على حنين : لتربها ، وأهلي وأهلها . . وكثيراً ما كنت أتذكر – وأنا أتنقل من بلد إلى بلد . . سواء في الأستانة حيث أتممت دراستي الجامعية أو في سيبريا حيث كنت أسيراً – أن للأرض التي وُلدت فيها أمومة الأم التي ولدتني ، ولقومي أبوةً الأب الذي جاء بي إلى هذه الحياة .

ورحم الله شوقي ، حين قال :

وطني لو شُغلت بالخُلد عنه

نازعتْني إليه في الخلد نفسي

ولما عدتُ إلى وطني بعد غربة استمرت سبع سنين رأيت من واجبي أن أدرس تاريخها . . القديم منه والجديد . . من جديد . ولبثت على تلك الحال عشرين عاماً أو يزيد . . منصرفاً أحياناً إلى عملي الرسمي وقضاء حاجتي وحاجة بيتي وعيالي ، وأحياناً أخرى إلى البحث عن تاريخ بلدي . وقد يسّر لي مهمتي السنوات الخمس التي قضيتها رئيساً لبلدية القدس ، والثقة التي حباني بها أبناء بلدي الذين لم يضنوا عليّ بما لديهم من وثائق وأخبار . الأمر الذي شجعني على المضي في عملي .

فلم أترك باباً ، إلا وطرقتُه ؛ ولا معبداً ، إلا وولجتُه ؛ ولا كلمة منقوشة على الأسوار أو الجدران ، إلا أنعمت النظر فيها ؛ ولا كتاباً صُنف في تاريخ هذه المدينة وسمعت به ، إلا ورجعتُ إليه أنهلُ من معينه ، سواء كان ذلك الكتاب مطبوعاً أو لا

يزال مخطوطاً ؛ ولا طللاً من طلولها البالية ، إلاّ وقفت عليه أستنطقُ الأثر وأستطلع الخبر .

إلى أن تجمع لديَّ ، مع طول الوقت وتراخي الزمن ، من أخبارها الشيء الكثير . بعضه متمم للبعض الآخر . وإن كان البعض واضحاً ، لا لبس فيه ولا إبهام . . والبعض الآخر من الغموض بحيث يحتاج إلى إيضاح وتحديد . وقد أوضحته قدر المستطاع .

وقد استعنتُ بعدد غير قليل من الكتب التي وضعَها المؤرخون القُدامى ، وإني لأذكرُهم الآن وأذكرُ فضلهم بالشكر والتقدير[١] . فتتبعتُ ما كتبوا . وأمعنتُ النظرَ فيما قالوا . ونقلتُ ما قالوا وكتبوا بأمانة وإخلاص . فإن هم اتفقوا في رواية ، اقتبست تلك الرواية على علاّتها ، كأنها حقيقةٌ مسلَّمة ؛ وأثبتها في كتابي ، دون الإشارة إلى قائليها . وإلا ، نقلتُ الروايات المتناقضة وذكرت الأسباب التي تدعوني لترجيح إحداها على الأخرى .

وحاولت جهدي ألاّ أنهج في بحوثي نهج الرواة والمؤرخين الذي اتّبعوا أهواءهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية ؛ فحادوا عن محجة الصواب . إذ اكتفوا بذكر ما يرضيهم ويرضي عترتهم وعشيرتهم . وأما أنا ، فقد حاولت تجنب ذلك النهج ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . فَذكرت جميع الأمم التي استوطنت هذه المدينة ، وما فعلته فيها من خير وشر . وعنيت عناية خاصة بالإشارة إلى ما تركته هذه الأمم من طابع فيها . ولم أبال إن كان هذا الطابع نافعاً أم ضاراً ، وإن كان مما يرضي هذا الفريق أو يغضب ذاك :

﴿إن يمسسْكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[٢] .

فإذا كنت قد وُفقتُ في عملي ، ورأى فيه بنو قومي ما ينفعهم في بحوثهم لدراسة تاريخ هذا البلد المقدس ، كان ذلك ما أبغي . . وإذا فاتني شيء مما كان ينبغي

---

(١) اقرأ ما كتبته عنهم وعن كتبهم في الفصل الذي أعددته للمصادر . وقد ثبته في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤٠ .

أن أضيفه ، ولم أفعل . . أو قَصُرَ بين الجهد عن إخراجه على الوجه الأمثل . . فشفيعي في زلتي طيب قصدي . . والله من وراء القصد . . وحسبي منهم أن يرشدوني إلى خطأي : عاذرين ، لا عاذلين . فإن أعقلَ الناس أعذرُهم للناس . والعصمة لله وحده .

عارف العارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لقد ظل كتاب (المفصل) المرجع الرئيسي لنا قرابة ربع قرن لم يؤلف قبله ولا بعده ما يبزه لا في العربية ولا في اللغات الغربية ، حسب علمنا ، في إحاطته بأحداث خمسة آلاف سنة ودقته وإنصافه .

أولها : أن عارف العارف رحمه الله وأكرم مثواه كان مؤرخاً بالفطرة يميل منذ شبابه إلى تدوين المذكرات ومتابعة الأحداث في أي بلد كان . وثبت كتبه البالغ عددها ثمانية عشر كتاباً دليل صدق على ذلك مضافاً إليها ثلاثة مخطوطات هي :

١ . كنت أسيراً في سيبيريا .

٢ . ثلاثة أعوام في عمان .

٣ . الكويت حاضرها وماضيها .

نتمنى أن تطبع .

والسبب الثاني : أن عارف العارف كان موهوباً في تعلم اللغات . فقد ألم بست منها إلماماً حسناً مكنه من مراجعة المصادر المؤلفة بهذه اللغات الأمر الذي لم يتحقق لمؤرخينا القدامى والمحدثين جميعاً .

والسبب الثالث : أنه شغل مناصب عالية ، وخاصة رئاسة بلدية القدس مدة خمس سنوات فتحت أمامه الأبواب المغلقة في وجه غيره فاستعان بعدد كبير من الوثائق في الأديرة والجوامع والمكتبات القديمة وخاصة الحجج الشرعية كما هو واضح من الحواشي المثبتة في الكتاب . وكذلك اطلع على عدد كبير من المخطوطات والمطبوعات في مختلف اللغات الأمر الذي لم يتيسر لأحد غيره من عرب وغربيين .

والسبب الرابع : يرجع إلى التزامه المنهج العلمي الحديث الذي يوجب إثبات المصادر والمراجع بأمانة ودقة وعرض الأحداث بأسلوب موضوعي بريء من العصبية رغم الموضوعات الدقيقة التي تداخلت فيها السياسة بالدين والنزعات الفردية بالنزعات القومية الأمر الذي شوه كثيراً من الكتب التي ألفت بعده وحط من مكانتها العلمية .

إن هذه الأسباب مجتمعة جعلت من كتاب (المفصل) كتاباً فريداً لا نظير له في

اللغة العربية ولا في اللغات الغربية .

والله سبحانه وتعالى يرحم المؤلف ويجزل ثوابه إنه نعم المولى ونعم النصير .

القدس

إسحق موسى الحسيني

«إني رأيت أنه لا يكتبُ إنسانٌ كتاباً في يومه ، إلاّ قال في غده : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يُستحسن ، ولو قُدم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُملة البشر» .

العماد الأصفهاني

الباب الأول
القدس
في العهود الغابرة

- القدس مدينة يبوسية
- حضارة اليبوسيين والكنعانيين
- القدس في زمن الفراعنة
- القدس وبنو إسرائيل
- القدس في عهد الآشوريين
- القدس وبابل
- القدس في زمن الفرس
- القدس في عهد اليونان
- القدس في عهد الرومان (قبل المسيح)
- القدس في عهد السيد المسيح
- القدس في عهد الرومان (بعد المسيح)
- القدس في العهد البيزنطي

القدس مدينة يبوسية

واليبوسيون من القبائل الكنعانية. والكنعانيون من ذرية سام

اليبوسيون ، بُناة القدس الأولون . وكانت على عهدهم تدعى : (يبوس) . إنهم بطن من بطون العرب الأوائل . نشأوا في قلب الجزيرة العربية ، وترعرعوا في أرجائها ، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية . وإلى هذه القبائل ينتمون . إنهم أول من استوطن هذه الديار . وهم أول من وضع لبنة في بناء القدس . وكان ذلك حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد .

عندما رحل الكنعانيون عن الجزيرة رحلوا جماعات منفصلة : بعضهم حط رحله هنا . . . في هذه البقعة من الأرض . . وقد سميت بعدئذ باسمهم . فراحت تدعى : (أرض كنعان) . والبعض الآخر نزل ما بين النهرين . وهم البابليون . فسميت البقعة التي نزلوها باسمهم : (بابل) .

والذين هبطوا أرض كنعان أيضاً هبطوا في أنحاء مختلفة : بعضهم اعتصموا بالجبال . والبعض الآخر بالسهول والوديان . وقد عاشوا ، بادئ بدء ، متفرقين . حتى المدن التي أنشأوها ، ومنها يبوس[١] وشكيم[٢] وبيت شان[٣] ومجدو[٤] وبيت ايل[٥] وجيزر[٦] وأشقلون[٧] وتعنك وغزة . . وما إلى ذلك من مدن لا تزال حتى يومنا هذا قائمة في هذا الوجود . . فإن كل واحدة منها كانت تعيش منفردة ومستقلة عن الأخرى .

هكذا كان الكنعانيون في بادئ الأمر متفرقين . ولكنهم ما عتموا أن اتحدوا بحكم الطبيعة وغريزة الدفاع عن النفس ؛ فكوَّنوا قوة ، واستطاعوا بعدئذ أن يغزوا

---

(١) القدس .

(٢) نابلس .

(٣) بيسان .

(٤) تل المتسلم .

(٥) بيتين .

(٦) تل الجزر .

(٧) عسقلان .

البلاد المجاورة لهم . فأسسوا لهم كياناً ووطدوا مجداً داما حيناً من الدهر .

كانوا بُناة مدن . وقد سكنوا المدن التي بنوها . وكانوا ماهرين في فن البناء . وفي قطع الحجارة الضخمة . وكانت مدنهم حصينة ومحاطة بالأسوار .

إنهم أول من عرف زراعة الزيتون في هذه البلاد . حتى إنهم علّموا الأقوام الذين جاءوا من بعدهم ، ومن هؤلاء بنو إسرائيل ، هذا النوع من الزراعة .

وكذلك قل عن صناعة الفخار والنسيج . وعرفوا أيضاً المعادن والتعدين . وسنوا الشرائع والقوانين . ولما جاء بنو إسرائيل من بعدهم ، أخذوا عنهم الشيء الكثير من سننهم وقوانينهم ومن أفكارهم ومبادئهم وحضارتهم . ومن أعمالهم أنهم اخترعوا حروف الهجاء وأوجدوا الكتابة ونشروها في بلادهم .

وعلمنا من آثارهم أنه كانت لهم كتب ومؤلفات في عدد من العلوم والفنون . وكانت لهم أسفار . ومن هذه الكتب نفهم أنهم كانوا يعبدون الأصنام . ومن أصنامهم (بعل) ومعناه الرب أو السيد . إنه إله الشمس . ولا تزال كلمة (بعل) تستعمل في العربية بمعنى الزوج والسيد .

كانت (يبوس) في ذلك العهد حصنة . وكانت آهلة بالسكان . وكانت المواشي تسرح في جنباتها . وكانت تزرع فيها أشجار العنب والزيتون . وقد اشتهر عنبها ، كما اشتهر زيتها وزيتونها . وقصارى القول : كانت أرض كنعان بوجه عام ويبوس بوجه خاص تفيض يومئذ لبناً وعسلاً . الأمر الذي حدا بالأقدمين على تشبيهها بـ(الجنة) .

وعرف الكنعانيون عن طريق البابليين – وهؤلاء أيضاً كما سبق وقلنا من القبائل الكنعانية التي تدفقت من جزيرة العرب – أنواعاً من المعادن ، فاستعملوها . وإنّا لذاكرون منها النحاس والبرونز . كما عرفوا ألواناً من الخضار والحيوانات الداجنة . وكذلك قل عن الخضار والحيوانات وبعض المعادن الأخرى التي عرفوها عن طريق المصريين وعن طريق الحيثيين . وعن الفنيقيين المجاورين لهم عرفوا الخشب واستعملوه .

وبعبارة أوجز تعلم الكنعانيون الشيء الكثير من الأقوام التي سبقتهم من حيث العيش والاستقرار في الرقعة الممتدة من جبل لبنان إلى النيل ، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى ما بين النهرين .

ليس هذا فحسب . فإن الكنعانيين الذين اقتبسوا من البابليين والمصريين

والحيثيين والفنيقيين حضارتهم ، أعملوا تفكيرهم في الأشياء التي اقتبسوها فزادوها نفعاً وإتقاناً (٢٦٠٠-٢٠٠٠ق .م) . وفي بعض هذه الأشياء - ولا سيما في الأسلحة والثياب - تفوقوا على غيرهم من الأقوام المجاورة لهم .

وقصارى القول : أسس الكنعانيون - ومنهم اليبوسيون - حضارة كنعانية ذات طابع خاص . ورد ذكرها في ألواح (تل العمارنة) .

وقد ظهر بينهم ، مع الزمن ، ملوك . وبنى أولئك الملوك القلاع والحصون . وأنشأوا حول الحصون أسواراً من طين (٢٠٠٠-١٦٠٠ق .م) . ومكثوا ردحاً من الزمن في عز ومنعة واستقلال .

ومن ملوكهم الذين حفظ لنا التاريخ أسماءهم (ملكي صادق)[١] . وعلى قول أنه هو أول من اختط (يبوس) وبناها[٢] وكان قبل ذلك يسكن في كهف من الكهوف المنبثة في جبالها . وكانت له سلطة على من جاوره من الملوك والرؤساء . وكان بنو قومه يطلقون عليه لقب : (كاهن الرب الأعظم) .

ذكره ابن العبري في تاريخه[٣] فقال إنه هو الذي بنى (قرية السلام) . ومن هنا جاء اسمها (سالم) و(شاليم)[٤] و(أورو - سالم) . فسكنها باقي أيامه لاهجاً بالعبارة . فما غشى امرأة ، ولا أراق دماً ، وما أكل سوى الخبز والخمر . كان يطلق عليه : (ملك السلام) . وقد اجتمع بإبراهيم عند مجيئه إلى هذه البلاد[٥] في طريقه إلى مصر . فخرج ملكها (ملكي صادق) لاستقباله . فهنأه بسلامة الوصول ، وقدم إليه بعض الهدايا ومنها الخبز والخمر .

ومن ملوكهم (سالم اليبوسي) . فقد زاد هذا في بنيانها . وشيّد على جبل صهيون برجاً للدفاع عن المدينة . وكانت على عهده محصنة تحصيناً تاماً . حتى أنها

---

(١) إن هذا الاسم مؤلف من كلمتين : (ملك) وهي فينيقية الأصل ومعناها القادر . و(صادق) ومعناها المستقيم .

(٢) كتاب (السير السليم في تاريخ يافا والرملة وأورشليم) للآباء الفرنسيسين . ص ٥١ .

(٣) كتاب (مختصر الدول) ، ص ١٦ .

(٤) سفر التكوين . الإصحاح الرابع عشر . العدد ١٨ .

(٥) اختلف المؤرخون في تعيين التاريخ الذي وقع فيه هذا الاجتماع . فمنهم من قال إن ذلك جرى خلال القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد . ومنهم من قال إنه وقع سنة ١٩١٣ ق .م .

ناطحت بني إسرائيل وقاومتهم مقاومة عنيفة . ومكثت تناطحهم زمناً طويلاً .

كانت يبوس في ذلك العهد ذات أهمية من الناحية التجارية . وكانت من أنشط المدن الكنعانية التي سمعنا بها . ذلك لأنها واقعة على طرق التجارة التي تربط حبرون[1] ببيت أيل[2] . وفي بيت أيل كانت الطريق تتشعب إلى فرعين : فرع يسير نحو شكيم[3] والآخر صوب أريحا ووادي الأردن .

وكانت ذات أهمية أيضاً من الناحية الحربية . إذ إنها مبنية على أربعة تلال هي :ـ

صهيون[4] وموريا[5] وأوفل[6] وبزيتا[7] .

وكانت يبوس تمتد من هذه التلال شرقاً حتى المرتفعات المطلة على بركة السلطان غرباً . وكان يحدها من الجنوب (وادي حنوم) ونسميه في يومنا هذا وادي الربابة . ومن الشرق (وادي قدرون[8]) وكانت محاطة بسورين .

وحفر اليبوسيون تحت الأرض نفقاً يمكنهم من الوصول إلى (عين روجل) وهي التي نسميها الآن (عين أم الدرج) . ولا سيما أثناء الحصار .

وكان فيها على عهد اليبوسيين واد يسمونه (وادي الترويين) يفصل بين تل أوفل وتل موريا المتقدم ذكرهما . ويظهر أن هذا الوادي كان يمتد إلى مسافات شاسعة نحو الشمال . وكانت تقوم عليه ممرات طبيعية يمر المرء بواسطتها من الجانب الواحد إلى الآخر . وكان هذا على عمق يتراوح بين الخمسين قدماً والتسعين من سطح الأرض في يومنا هذا . غير أنه أمليء مع الزمن . ولم يأت إملاؤه عفواً . وإنما أتى بقرار

---

(١) الخليل .

(٢) قرية (بيتين) من أعمال رام الله .

(٣) نابلس .

(٤) التل الذي يقوم عليه الآن (١٩٤٧) حي النبي داود وحارة الأرمن .

(٥) الهضبة التي يقوم عليها الآن مسجد الصخرة .

(٦) التل الكائن بين سور الحرم وقرية سلوان . وفيه الآن حواكير عرفت باسم (الظمور) .

(٧) البقعة التي تقوم عليها الآن أحياء باب حطة وباب الساهرة وما بينهما .

(٨) هكذا كان الأقدمون يسمونه . أما الآن (١٩٤٧) فالمسلمون يسمونه (وادي جهنم) واليهود (وادي أبيشالوم) والمسيحيون (وادي مريم) .

وتصميم . والمعتقد أن (طريق الواد) الكائنة غربي الحرم أملئت على هذا النمط . لا ، بل هناك من يعتقد أنها فرع من وادي التروبين المتقدم ذكره .

عندما خرج بنو إسرائيل من مصر ، وأطلوا على أرض كنعان ؛ رأوا فيها ما رأوا من خيرات وبركات . . وكانوا قد سمعوا عنها ما سمعوا . . راحوا يغيرون عليها بقصد امتلاكها . . . قائلين : إنها هي الأرض التي وعدهم الله بها! عندئذ أيقن الكنعانيون أن مصلحتهم تقضي عليهم بنسيان الماضي - يوم كانوا في احتراب مع المصريين - فطلبوا العون من مصر . لاعتقادهم أن المصريين أولى من بني إسرائيل . ذلك لأن بني إسرائيل كان دأبهم ، كلما احتلوا مدينة ، أن يعملوا فيها وفي سكانها السيف والنار . وأما المصريون فقد كانوا يكتفون بالجزية . فلا يتعرضون لسكان البلاد وعاداتهم ومعتقداتهم .

ولم يتوان المصريون في مد يد العون إلى الكنعانيين . فراحوا يدفعون الأذى عنهم . ونجحوا في صد الغارات التي كان يشنها عليهم العبريون .

هناك بين ألواح تل العمارنة التي وجدت في هيكل الكرنك بصعيد مصر لوح يستدل منه على أن (عبد حيبا) أحد رجال السلطة المحلية في أورو - سالم[1] أرسل (١٥٥٠ق م) إلى فرعون مصر تاحوتمس الأول رسالة تتضمن خضوعه . وقد طلب إليه أن يحميه من شر قوم دعاهم في رسالته بـ(الخبيري) أو (الحبيري)[2] . فقد كان هؤلاء من وقت إلى آخر يهاجمون أورو - سالم . ولم يكن فيها يومئذ سوى حامية صغيرة .

ولقد عثر المنقبون في إحدى الحجر من مقابر بني حسن على صورة تمثل قبيلة كنعانية مؤلفة من ٣٧ شخصاً من رجال ونساء وأطفال وفدوا من فلسطين إلى مصر في أيام الملك سنوسرت الثاني .

جاء في كتب التاريخ أن (أرض كنعان) تعرضت في تلك البرهة من الزمن إلى غزوتين شديدتين : أولاهما وقعت حوالي سنة ١٦٠٠ ق م والثانية - وكانت هذه أشد من الأولى - وقعت حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م . وأن المصريين وإن تمكنوا في بادىء الأمر من صد هجمات العبريين وإرجاعهم ، إلا أن الغُزاة عادوا - عندما

(١) هذا هو الاسم الثاني الذي عرفت به (القدس) يومئذ ، بعد اسمها الأول (يبوس) .

(٢) إنهم هم العبريون الذين ذكرناهم في السطور السابقة .

انشغل المصريون بمشاغل أخرى - فتقووا على الكنعانيين .

وفي قول أن النزاع ظل قائماً بين الكنعانيين والعبريين حتى عام ١٠٠٠ ق .م حين تمكن هؤلاء من استلاب الحكم والسيادة منهم . وما كانوا ليوفقوا لولا تفرق كلمة الكنعانيين وانشغال مصر في شؤون أخرى . فقتلوا ملوكهم ودمروا مدنهم . وكان في أرض كنعان يومئذ ١١٨ مدينة ذكرت كلها في ألواح (تل العمارنة) . تلك الألواح التي ذكرناها في السطور المتقدمة .

إن النصر الذي ناله داود وابنه سليمان من بعده قضى على الكنعانيين من الناحية السياسية . ولكنه لم يقض عليهم من الناحية الفسيولوجية والاجتماعية . فقد جاء في الإصحاح العاشر من سفر التكوين ما يأتي :

«وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني . وكانت تخومه من صيدون حينما تجيء نحو جرار[١] إلى غزة . . وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبويم إلى لاشع . .»

ويعتقد قوندر وكوارنت وكليرمان غانو وغيرهم من الكتاب والمؤرخين أن سكان القرى القائمة حول مدينة القدس في يومنا هذا هم من بقايا الكنعانيين القدماء .

ويقول هؤلاء إن اللغة التي كانت منتشرة في المدن الكنعانية هي : الكنعانية . ثم انضمت إليها اللغة البابلية ، وذلك عندما اجتاحها البابليون . فأصبحت هذه لغة البلاد الرسمية . وظلت الكنعانية لغة التخاطب بين الشعب .

---

(١) كانت هذه (أي جرار) عاصمة (ابيمالك) ملك الفلسطينيين القدماء . وكانت تقوم في الموضع الذي يقوم عليه الآن (١٩٤٧) التل المعروف بـ(تل جمة) على بعد عشرة أميال من مدينة (بير السبع) ومنها إلى الشمال الغربي .

إن التاريخ وإن كان قد حدثنا عن (مرن رع) أنه فتح الشام (٣٢٣٥ ق .م) ، وعن (سنوسرت الثالث) أنه غزا البلاد الواقعة في جنوب سوريا ؛ إلا أننا لم نعثر بين طياته على ذكر لمدينة يبوس[١] في عهد الفراعنة ، إلا في زمن تاحوتمس الأول . فقد عثر المنقبون بين ألواح (تل العمارنة) على رسالة أرسلها أحد رجال السلطة المحلية في يبوس ، عبد حيبا[٢] ، إلى فرعون مصر تاحوتمس الأول (١٥٥٠ ق .م) يبدي فيها خضوعه ، ويطلب منه أن يحميه ضد غارات المعتدين من أعدائه العبرانيين . فجاء هذا لنجدته . واكتسح البلاد . وكان آخر انتصار له في مجدو[٣] التي استولى عليها . وأصبح الكنعانيون خاضعين لمصر .

ويفهم من ألواح تل العمارنة أن فرعون مصر (تاحوتمس الثالث) أيضاً وهو من السلالة الثامنة عشر (١٤٧٩-١٤٤٧ق .م) وطد الحكم المصري في هذه البلاد ، وأن السيادة المصرية دامت فيها مئتي عام .

ولقد ورد ذكر لمثل الرسالة المتقدم ذكرها حوالي الشطر الأخير من القرن الخامس عشر قبل الميلاد . إذ بعث أمير يبوس ١٤١٣ق .م إلى فرعون مصر (أمين حوتب الثالث) رسوله ليخبره أن أمة معادية قوية قد استولت على أكثر المدن الكنعانية ، وأخذت تهدده بالفناء . وأعاد هذا الأمير الكرة على عهد (أمين حوتب الرابع) فشكا إليه أمره .

وعثر المنقبون بين ألواح تل العمارنة على ثماني رسائل بهذا المعنى ، أُرسلت كلها من يبوس .

ويبدو من قراءة تلك الألواح أن يبوس لم تكن وحدها يومئذ خاضعة لسلطة الفراعنة ، بل كان معها بقية المدن الكنعانية ؛ وكذلك قل عن سورية وفينيقيا . فقد كانت تدفع الجزية لمصر .

وكان المصريون قد اتخذوا يبوس مخفراً أمامياً لقربها من البادية . فكان لهم فيها

---

(١) القدس .

(٢) وفي رواية أخرى (عبد حيبيا) .

(٣) (تل المتسلم) من أعمال جنين .

قشلاق كبير وجند كثيرون وموظفون وجباة . وكانوا على اتصال بالشعوب التي تقطن الصحراء . وكان يهمهم حماية طرق التجارة .

إن خضوع (أرض كنعان) لمصر في ذلك الحين عاد عليها بالنفع . إذ أنا نقرأ في كتب التاريخ أنها كانت يومئذ مزدهرة . . وكان فيها عدد غير قليل من المعابد والقصور .

جاء في السجلات الملكية التي كتبت في عهد أخناتون (١٣٧٥-١٣٥٨ق .م) والتي اكتشفت في تل العمارنة ذكر ليابيشي(١) . ويقول (بيك باشا) الذي أشار إلى هذا الموقع في كتابه (تاريخ شرقي الأردن وقبائلها) ص ١١ لعله يابش جلعاد المعروف حديثاً بالدير في وادي اليابس في منطقة عجلون . وأما (سيلاه ميرل) فإنه لا يرى هذا الرأي ، بل يرجح أنها هي (يبوس) . وهذا هو الاسم القديم للقدس . وقد جاء في ألواح تل العمارنة أن حاكم يبوس استغاث بملك مصر ، وأن هذا أغاثه . غير أن القائد المصري الذي عهد إليه بإدارة هذه البلاد يومئذ لم يتمكن من مقاومة الثورات التي انفجرت فيها ، فطلب المدد من فرعون ، فلم يلب هذا طلبه ، فقتل هو وخادمه .

وحدثنا التاريخ أن الاتصال بين مصر وهذه البلاد لم ينقطع بعد أخناتون . فقد سيطر (توت عنخ آمون) على سورية (١٣٥١ ق .م) . وغزا (رعمسيس الثاني) سورية فحارب الحيثيين والكنعانيين حرباً دامت قرابة عشرين عاماً . ولقد عقد هذا معاهدة مع الحيثيين اقتسم الفريقان بموجبها البلاد (١٢٩٢ - ١٢٢٥ق .م) .

وعلى ذكر (رعمسيس الثاني) هذا نقول إن إقامة بني إسرائيل في مصر - تلك الإقامة التي استمرت أربعة قرون(٢) - قد انتهت في عهده . وإنه هو (فرعون مصر) الذي ورد ذكره في القرآن . وقد ارتقى عرش مصر بعد موت أبيه الملك سيتي الأول (عام ١٢٨٨ قبل الميلاد) .

ونسب لنفسه الألوهية ، وحكم البلاد سبعة وستين عاماً . وفي زمنه ولد موسى . وفي منزله ترعرع .

ولما توفي رعمسيس الثاني (١٢٢١ ق .م) خلفه (مرن بتاح) . وفي زمنه خرج بنو إسرائيل من مصر . وتخلصت مصر منهم . خرجوا عن طريق البحر الأحمر . فتبعهم

---

(١) "A History of the Ancient Egyptians" by James H. Breasted.

(٢) نذكر أن بني إسرائيل نزلوا مصر في أواخر عهد الرعاة المعروفين بـ(الهكسوس) .

فرعون وجنوده ، وفي ذلك نزلت الآية الكريمة[1] :

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر . فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا . حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وأن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ .

رأى سليمان الملك أنه خير له أن يكون على وفاق مع فرعون مصر ليأمن شره . فصاهره وتزوج بنته . وبهذه الوسيلة تمكن من التخلي لأعمال العمران في مملكته . وقد أكمل بناء بيته ، والهيكل ، والسور الذي كان أبوه قد شرع في بنائه .

ولما مات الملك سليمان واعتلى عرش الملك (٩٧٠ق .م) ولده رحبعام (وهو من امرأته العمونية) وراح غلامه يربعام يكيد المكائد ويدس الدسائس ضد أخيه وانقسم أسباط بني إسرائيل إلى مملكتين : مملكة إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب ؛ ضعفت شوكة اليهود .

فاستغل شيشاق ملك مصر هذه الفرصة . وزحف على أورشليم (٩٧٠ق .م) . فأخذها من رحبعام . ونهب خزائن الهيكل ، واستولى على الدروع السليمانية ، وعلى موجودات القصور الملكية . ثم سار إلى مجدو فافتتحها . وبعد عودته إلى مصر نقش صورته على هيكل الكرنك ، كما نقش عليه أسماء المدن التي افتتحها ومنها أورشليم ، والملوك الذين أخضعهم ومنهم رحبعام بن سليمان الملك .

وصورة رحبعام يراها الرائي بشكل أسير مكتوف اليدين ، وفي عنقه حبل .

وفقد اليهود استقلالهم بعد ذلك التاريخ . فعاشوا خاضعين للأقوياء من الغزاة والفاتحين .

واشتهر الملك (يوآ حاز) بارتكاب المعاصي والمنكرات . فأتاه فرعون مصر نحو حوالي سنة ٦١٠ قبل الميلاد . فأدبه . وغرّم المدينة مئة قنطار من الفضة وقنطاراً من الذهب . وبعد أن أقام أخاه (الياقيم) ملكاً على أورشليم ، أخذه هو مكتوفاً إلى مصر . فمات هناك .

وغزا فرعون مصر بساماتيخوس الثاني فلسطين عام ٥٩٠ق .م . فتحالف مع سكانها وسكان البلاد المجاورة لها من أجل القيام بثورة عامة ضد بابل . وثار هؤلاء

---

(١) سورة يونس ، الآية ٩٠ .

بالفعل . ولكن الغلبة كانت لبابل . فافتتح نبوخذ نصر القدس (٥٨٦ق .م) . هذه هي الأخبار التي وصلتنا عن وضع القدس في عهد الفراعنة .

وكانت هذه البلاد على عهدهم مليئة بالغابات الكثيفة . ولا سيما ذلك الجزء من البلاد الممتد من الجبال إلى البحر . وكان المصريون يأخذون منها الحطب والأخشاب اللازمة لصناعتهم .

أجل . كان المصريون يكتفون بالجزية . وما كانوا ليكترثوا بعادات القوم ودياناتهم . لا ، ولا بشؤونهم الاجتماعية الأخرى .

وما كانوا يصدون أي فريق من سكان البلاد عن عقد معاهدة مع الفريق الآخر . لا ، بل كانوا ينجدونهم في حروبهم مع أعدائهم .

ولم يسعوا لتمصير البلاد ، خلافاً لما فعل الرومان من بعدهم ، إذ جعلوها رومانية . وكثيراً ما تمرد الكنعانيون على المصريين . وأبوا أن يدفعوا لهم الجزية .

القدس وبنو إسرائيل

عندما خرج بنو إسرائيل من مصر على عهد فرعونها رعمسيس الثاني وولده مرن بتاح ، وكان ذلك عام ١٣٥٠ ق .م ، اجتازوا بقيادة زعيمهم موسى صحراء سينا وقد تاهوا فيها أربعين عاماً . حاولوا في بادئ الأمر دخول فلسطين من ناحيتها الجنوبية ، فوجدوا فيها قوماً جبارين .

عندئذ ذهبوا إلى جبال آدوم وموآب والبلاد الواقعة شرقي الأردن . في تلك الآونة كان موسى قد مات . وقبل أن يموت موسى حمل إلى جبل نبو بالقرب من مأدبا حيث ألقى نظرة على أرض الميعاد .

«قال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها . قد أريتك إياها بعينيك . ولكنك إلى هناك لا تعبر»[١] .

وقد دفن في واد قريب من بيت فغور . ولم يعرف إنسان قبره إلى الآن .

تولى قيادتهم بعد موسى يشوع بن نون وهو أحد الذين أرسلهم موسى لارتياد فلسطين . فرجعوا إليه قائلين : إن فيها قوماً جبارين . فعبر بهم نهر الأردن (١١٨٩ق .م) واحتل أريحا بعد حصار دام ستة أيام . والأسباط التي كان يقودها يومئذ أربعة : راشيل وأفرايم ومنسه وبنيامين .

عندما احتل بنو إسرائيل أريحا بقيادة يشوع بن نون «حرَّموا[٢] كل ما فيها من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . . ثم احرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها . .» ولم يسلم من سكانها سوى راحاب تلك المرأة الزانية لأنها قد خبأت الجاسوسين اللذين أرسلهما يشوع بن نون ليجوسا خلال الديار . وأما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد فقد نهبت كلها . واتخذوا السلب والنهب ديناً لهم . عندئذ حمي غضب الرب على بني إسرائيل فقال يشوع[٣] : «قد أخطأ إسرائيل . بل تعدوا عهدي الذي أمرتهم به . بل أخذوا من الحرام . بل سرقوا . بل أنكروا . بل وضعوا في أمتعتهم . فلم يتمكن بنو إسرائيل للثبوت أمام أعدائهم .»

---

(١) سفر التثنية الإصحاح ٣٤ .

(٢) سفر يشوع : الإصحاح ٦ ، عدد ٢١-٢٥ .

(٣) سفر يشوع : الإصحاح ٧ عدد ١١-١٢ .

ولقد تمكنوا بعد حين من احتلال (عاي)[١] . ففعلوا بها كما فعلوا بأريحا . أحرقوها ، وأبادوا من سكانها اثني عشر ألفاً بين رجال ونساء ، وأما البهائم والغنم فقد نهبوها لأنفسهم[٢] .

ثم احتلوا الجلجال[٣] وشيلوه[٤] وشكيم[٥] وبعض المدن الكنعانية الأخرى . وكل مدينة احتلوها جعلوها طعمة للنار ، وقتلوا سكانها ، ونهبوا كل ما رأوه فيها من مال وماشية .

كان الكنعانيون قد أعدوا العدة لمقاومة بني إسرائيل عندما وصلت إليهم أنباء خروجهم من مصر . فاستنفر ملك أورو - سالم (أضوني صادق) قومه . وعقد حلفاً مع الملوك المجاورين له وكان عددهم واحداً وثلاثين . وعلى قول يوسيفوس أن الجيش الذي ألفه الحلفاء سكان البلاد الأصليين لمقاومة بني إسرائيل كان مؤلفاً من ثلاثمائة ألف[٦] مقاتل من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان . وكان معهم عشرون ألف مركبة للنقل . ولذلك لم يتمكن يشوع من إخضاع الكنعانيين والفلسطينيين . ومات دون أن يتمكن من احتلال أورو - سالم لأنها كانت محصنة تحصيناً تاماً . وكانت تحيط بها أسوار منيعة .

مات يشوع بعد أن حكم سبعاً وعشرين سنة بعد موت موسى . وكان له من العمر ، يوم حضرته الوفاة ١٢٦ سنة[٧] . وبعد موته تولى قيادة بني إسرائيل (يهوذا) وأخوه شمعون . وقد غزا بنو إسرائيل على عهدهما الكنعانيين مرة أخرى . وحاولوا إخضاعهم . وتمكنوا من الزحف إلى أورشليم . «فأخذوها ، وضربوها بحد السيف ،

---

(١) أعتقد أنها هي خربة (الحيان) الواقعة على مسافة ميلين إلى الجنوب الشرقي من قرية بيتين من أعمال قضاء رام الله .

(٢) سفر يشوع : الإصحاح ٨ العدد ١٨-٢٧ .

(٣) قيل إنها (قليلة الجلجولة) على بعد ميل ونصف من أريحا للشرق . وقيل أنها كانت بالقرب من المكان المعروف بالخان الأحمر على الطريق بين أريحا والقدس .

(٤) على مسافة ثلاثة أميال من جنوب اللبن وميل واحد من ترمسميا إلى الشمال الغربي .

(٥) نابلس .

(٦) أعتقد أن هذه الأرقام مبالغ فيها . وقد أشتهر يوسيفوس بالمبالغة في أحاديثه ولا سيما في الأرقام .

(٧) الطبري ، ج١ ، ص ٥١٥ .

وأشعلوا المدينة بالنار[١] .» ورغم أن الكنعانيين فقدوا في هذه المعركة عشرة آلاف رجل ، وأن ملكهم (أضوني صادق) فقد أباهم يديه ورجليه إلا أن بني إسرائيل أُرغموا على مغادرة المدينة تحت ضغط اليبوسيين ، وظل هؤلاء يهزأون بحملات العبرانيين عدة قرون[٢] .

إن لانهزام بني إسرائيل هذا أسباباً أخرى حدثنا عنها المؤرخ اليهودي يوسيفوس في سطوره التالية[٣] :

«شعر بنو إسرائيل ، بادئ ذي بدء ، بالراحة والغنى . واستولى عليهم الغرور بالبلاد التي احتلوها ، والأراضي التي استغلوها . وبعد فترة وجيزة ، مالوا إلى عيشة البذخ والترف ، واستسلموا إلى الدعة والخمول . ثم تمردوا فما عادوا يكترثون لأوامر قوادهم . وزاد في بلوائهم أنهم لم يتفقوا كيف يقتسمون الأموال التي سلبوها من سكان البلاد . فحدث بينهم تنافر وانقسام . وراح بعضهم يحارب البعض الآخر» .

وإنا لنقرأ شيئاً من هذا في سفر القضاة . فقد جاء فيه[٤] ما يأتي :

«وفعل بنو إسرائيل الشرَّفي عيني الرب ، فعبدوا (البعل) و(عشتروت) وتركوا الرب إله آبائهم . . فحمي غضب الرب عليهم ، فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم ، وباعهم بيد أعدائهم . حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر . . فضاق بهم الأمر جداً . وأقام لهم الرب قضاة ليخلصوهم . ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا . بل زنوا . . وحادوا سريعاً عن الطريق التي سار بها آباؤهم . وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم . . ولذلك قال الرب : من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدي الذي أوصيت به آباءهم ولم يسمعوا لصوتي فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنساناً من أمامهم . . فترك الرب أولئك الأمم . .» .

ظلت يبوس زمناً طويلاً ممتنعة على بني إسرائيل . لا يقدرون على ولوجها ، حتى ولا المرور منها ، دع عنك احتلالها وإدارة شؤونها . فقد حدثتنا أسفار العهد القديم[٥] .

---

(١) سفر القضاة ، الإصحاح الأول ، عدد ٨ .

(٢) برستد .

(٣) يوسيفوس ، ص ٢٥ .

(٤) سفر القضاة : الإصحاح الثاني ، عدد ١١-٢٣ .

(٥) سفر القضاة . الإصحاح ١٩ ، عدد ١١-١٢ .

إن رجلاً لاوياً متغرباً كان في جبل أفرايم . فاتخذ له امرأة سرية من بيت لحم . فزنت عليه سريته وذهبت من عنده إلى بيت أبيها . فقام رجلها وسار وراءها ليطلب قلبها ويردها . . وبعد اللتيا والتي أخذها . وجاءا إلى مقابل يبوس . ومعه غلامه وحماران مشدودان وسريته . . وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر . قال الغلام لسيده : تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها . فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا . فباتوا في جبعة .

عاش بنو إسرائيل على الفوضى والضلال طيلة حكم القضاة وعددهم ١٤ وكان تاريخهم عبارة عن مشاغبات وانقسامات . إذا خلوا من مصيبة نسوا الله ، وإذا نزلت بهم كارثة رجعوا إليه وعبدوه . يطيعونه عاماً ، ويعصونه أعواماً . يلتفون حول القائد الذي يتولى قيادة أمورهم سنة ، ثم ينقلبون عليه ، ويعصون أوامره سنين .

وفي خلال هذه الفوضى لم يذوقوا طعم الحرية والاستقلال أبداً . إذ حاربهم الكنعانيون ، وأقضوا مضاجعهم أجيالاً طوالاً . كانت الحرب بينهما سجالا . ثم حاربهم المؤابيون ، وأذلوهم . ثم حاربهم المديانيون ، والعمونيون ، والفلسطينيون وكانت حروبهم مع الفلسطينيين أشد هذه الحروب فتكاً وأبعدها أثراً .

أشار برستد في كتابه (العصور القديمة) إلى النضال المتقدم ذكره ، فقال :

«عندما دخل العبرانيون فلسطين وأخذوا يحاربون الكنعانيين ، كانت مصر في طور التأخر والانحطاط (١١٠٠ق .م) . وآشور لم تكن قد نشطت لاكتساح الغرب . ولكن شعباً جديداً من شعوب البحر المتوسط يعرف بالفلسطينيين كان قد هاجر من جزيرة كريت إلى الساحل البحري عند الزاوية الجنوبية الغربية من أرض فلسطين . وفي سنة ١١٠٠ ق .م كانوا قد بلغوا درجة سامية من المدنية وتألفوا أمة حربية قوية . وكان الاتحاد الفلسطيني مؤلفاً من خمس مدن . وأما زعماء العبرانيين أو قضاتهم فلم يكن تأليف الأمة أمراً هيناً عليهم لشدة ما كانوا يعانون من مضايقة الفلسطينيين لهم .

«ولما اشتبك العبرانيون مع الفلسطينيين في قتال تغلب الفلسطينيون عليهم .»

فقد بنو إسرائيل في هذه المعركة ثلاثين ألف مقاتل ، وفقدوا في المعركة التي قبلها أربعة آلاف . وفقد الفلسطينيون في إحدى معاركهم مع شأول قائد العبرانيين ستين ألفاً . ولكن الدائرة دارت عليه . فعمد إلى الانتحار (١٠٩٥ق .م) . وعلى قول أن شأول قتل قتلاً هو وأولاده الثلاثة (يوناثان وانبياد أب وملكيشوع) . كما قتل قائد جيشه وجمع كبير من رجاله معه .

يفهم مما تقدم أنه ليس بصحيح ما يزعمه اليهود من أنهم ، في هذه البلاد أقدم عهداً من العرب . فالكنعانيون وقد جاءوا إلى هذه البلاد من الجزيرة العربية أقدم عهداً فيها من اليهود . وكذلك قل عن اليبوسيين وهم فرع من الكنعانيين . ولقد حارب هؤلاء العبرانيين عند مجيئهم إليها حرباً لا هوادة فيها .

حدثتنا الموسوعة البريطانية[١] أن بني إسرائيل عندما هبطوا هذه البلاد كان فيها أقوام وشعوب من بين عناق وبني كلاب من أبناء الجزيرة العربية . وأن هؤلاء (أي بني عناق وبني كلاب) امتازوا بالجرأة وعدم الخوف . وأنهم تغلبوا على داود وأتباعه الذين جاءوا واستوطنوا المنطقة الواقعة جنوبي الخليل . وعندما جاءوا إلى الشمال اصطدموا ببني كلاب .

وليس بصحيح أيضاً ما يزعمه اليهود من أن لهم حضارة في هذه البلاد . فقد جاءوا إليها بالحديد والنار والخراب والدمار . فكسروا ، ونهبوا ، وقتلوا ، وفتكوا وأتوا بجميع أنواع الفظائع والمنكرات عندما احتلوا هذه البلاد . وهذه هي وصية يشوع إلى قومه عندما احتلوا أريحا والتي ورد ذكرها في أسفار العهد القديم[٢] فإنها أصدق شاهد على ما نقول . وكذلك قل عن احتلالهم للمدن الأخرى . ولقد حدثتنا أسفار العهد القديم أنه عندما جاءوا إليها كان في البلاد أنواع عديدة من الفواكه والأثمار نذكر منها التين والزيتون والخوخ والعنب والرمان . ولم يذكر لنا التاريخ أن العبرانيين أضافوا إلى هذه الأشجار أي نوع من الأشجار الأخرى .

ويقول برستد أن المدن التي عجز العبرانيون عن فتحها كانت ذات حضارة قديمة نشأت منذ ألف وخمسماية سنة . ومنازل متقنة حوت كثيراً من أسباب الراحة والرفاهية . وحكومة وصناعة وتجارة وعلم ومعرفة بالكتابة وديانة . حضارة اقتبسها أولئك العبرانيون السذج من مواطنيهم لأنهم لم يستطيعوا أن يعيشوا بمعزل عن أهل المدن الكنعانية التي عجزوا عن افتتاحها . وقد أحدث هذا الامتزاج تغيرات جوهرية في حياة العبرانيين . فغادر بعضهم سكنى الخيام . وشرعوا يبنون بيوتاً كبيوت الكنعانيين . وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها وهم في البادية . ولبسوا عوضاً عنها الثياب الكنعانية . المصنوعة من منسوجات صوفية زاهية . هذا ما جرى

---

(١) Encyclopaedia Britannica Vol. 13, p. 44.

(٢) سفر يشوع . الإصحاح ٦ ، العدد ٢١ .

للعبرانيين الذين أقاموا في الشمال الخصيب . وأما أولئك الذين أقاموا في الجنوب الماحل من فلسطين فقد حافظوا على أسلوب معيشتهم البدوية القديمة . فكان الواقف على أسوار أورشليم يشاهد حياة البداوة عن كثب . إذ يرى الرعاة قائمين على رعاية قطعانهم ومواشيهم .

ولقد زاد في الطين بلة المنازعات الداخلية التي قامت بين أسرتي شأول وداود . فقد كانت هناك منافسة جديدة بين هاتين الأسرتين . أما داود فقد حالف الفلسطينيين وعقد معهم حلفاً . وأما شأول فإنه لم يحالفهم ، بل أراد أن يحصل على استقلاله بالقوة . ولكنه غلب على أمره . ومات مقهوراً . وظل النزاع قائماً بين الأسرتين إلى أن مسح داود[1] ملكاً (١٠٤٩ق .م) . سكن هذا في بادىء الأمر في حبرون[2] ، ثم زحف بجيشه المؤلف من ثلاثين ألف مقاتل والذي كان يرأسه ابن أخته (يوآب) إلى يبوس قاصداً احتلالها . فقاومه اليبوسيون مقاومة عنيفة ، وتمكنوا في بادىء الأمر من صده عنها . لكنه عندما أعاد الكرة تمكن من احتلال (تل أوفل)[3] المطل على قرية سلوام[4] فحصر (عين روجل)[5] بيده . وكانت هذه هي المنبع الوحيد الذي يستقي منه اليبوسيون . فتمكن بذلك من التغلب عليهم ، واحتلال حصونهم القائمة على تل صهيون .

قال بولتون[6] : «إن جنود داود وقائدهم يوآب ، عبروا النفق الذي كان اليبوسيون حفروه قبل ذلك بسنين ، ليتمكنوا من ورود الماء الذي ينبع في عين روجل . عبره يوآب وجنده . وبهذا تمكنوا من الوصول إلى قلب المدينة . فسقطت هذه بأيديهم .»

والذي اكتشف هذا النفق هو اللفتنانت وارن Warren فقال إنه كان يمتد من تل أوفل في الغرب إلى وادي قدرون في الشرق ، وأنه هو الذي بناه اليبوسيون ، ليتمكنوا

---

(١) ولد في بيت الحم . وكان في صغره يرعى غنم أبيه . كان في الثلاثين من عمره حين ملك . وظل على كرسي الملك أربعين سنة . قضى ثلاثا وثلاثين منها في أورشليم .

(٢) الخليل .

(٣) هو التل المطل على قرية سلوان والذي يسميه السلاونة (الضهور) .

(٤) سلوان .

(٥) هي العين المعروفة اليوم بعين أم الدرج في قرية سلوان .

(٦) Palestine, by W. Boultion p. 102

من ورود الماء أثناء الحصار .

ولما سقط النفق سقطت يبوس بيد داود وقائد جيشه يوآب .

أقام داود في بادىء الأمر في الحصن الذي كان على جبل صهيون وسماه (مدينة داود)[1] . ثم بنى لنفسه قصراً على الجانب الشرقي من تل أوفل وبنى لرجاله من حوله البيوت . وقد أتى بالخشب اللازم لهذه الأبنيةمن لبنان ، أرسلها إليه حيرام ملك صور ، وأرسل معها عدداً من الصناع الفينيقيين الماهرين . فاتسعت أورشليم ، واتخذها داود قاعدة ملكه . واشتهرت على عهده من جميع النواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية .

أحصى داود سكان أورشليم وسكان البلاد التي احتلتها ، فكانت النتيجة أنه كان مع بني إسرائيل يومئذ ٨٠٠,٠٠٠ رجل وعند بني يهوذا ٥٠٠,٠٠٠ رجل . فثار عليه من أجل ذلك قومه ونقموا . قالوا له : (الله الذي خلقنا يعرفنا ، فلماذا أحصيتنا) . وصادف في تلك الأثناء أن حل ببني إسرائيل وباء عظيم فتك بهم فتكاً ذريعاً[2] ، فقالوا إن هذا البلاء ما كان ليحل بهم لولا أن أحصاهم داود . فحل بذلك عليه غضب ربه) .

يظهر أن داود ندم على عمله . ذلك لأن الشعب أخذ ينفضُّ من حوله بعد عملية الإحصاء هذه . ولكي يرضي شعبه أظهر الندم ، ورغب في بناء هيكل ليكفر عن ذنبه ؛ فاشترى من (أرنان)[3] اليبوسي أرضه الكائنة على (جبل موريا) وكان قد اتخذها هذا بيدراً . اشتراها هي والبقر الذي كان يحرث به أرضه بخمسين شاقل من الفضة . وشرع داود في بناء الهيكل فعلاً . فأتى بالحجارة التي اقتطعها من محجر هو الذي تراه على يمينك إذا ما خرجت من باب العمود ، وعلى بعد بضعة أمتار من الباب المذكور ، ويسميه الناس الآن (محجر سليمان) لأن سليمانَ أخذ منه الحجارة التي استعملها بعدئذ لإتمام العمارة نفسها .

وحصن داود القسم الخارجي للمدينة الواقع حول حصن (ميلو) وربطه بالقلعة أي بالقسم العلوي الذي ذكره يوسيفوس . وسمي ذلك الحصن بعدئذ (حصن داود) .

---

(١) سفر صموئيل الثاني : الإصحاح٥ ، العدد ٩ .

(٢) قيل إن الذين ماتوا من الطاعون يومئذ سبعون ألفاً .

(٣) قال ابن العبري ص ٥٣ ، أن هذا الأس ذكر بالسريانية «آران» .

وفي قول آخر أنه وصل أكمة الهيكل حيث يقوم اليوم الحرم القدسي بأكمة أوفل حيث تقوم اليوم الحواكير المطلة على سلوان والمعروفة بالضهور .

ولكن رغم هذه التحصينات لم يطل هناء أورشليم كثيراً . إذ حدث في بادىء الأمر أن اقتتل اثنان من أبناء داود ، أبشالوم وأمنون ، من أجل حادث حدث لتامار شقيقة الأول . فقتل أبشالوم أمنوناً لأنه واطأ أخته الجميلة (تامارا) . قتله ، ثم هرب من وجه أبيه ، وظل طريداً ثلاثة أعوام ، إلى أن عفا عنه ، فرجع إلى أورشليم . ولكنه ما لبث أن أشعل نار الفتنة ضد أبيه ، لأنه كان يطمع في الاستيلاء على ملكه . ويظهر أن الشطر الأكبر من الشعب كان راضياً عن هذه المؤامرة . إذ كان داود قد أسخطهم بمشروع الإحصاء الذي تقدم ذكره ، وبالضرائب الكثيرة التي فرضها عليهم ليتمكن من القيام بمشاريعه العمرانية .

ولما هدأت الفتنة ومات أبشالوم ، رجع الملك داود إلى أورشليم ، وعاش فيها مدة . ورجعت الحرب . وكانت هذه سجالاً بينه وبين الفلسطينيين . فاستغل نجله الرابع (آدونيا) الفرصة وراح يتآمر على خلع أبيه . واجتمع باتباعه عند صخرة (زحيلت)[1] على أمل أن يعلنوه ملكاً على بني إسرائيل . ولما سمع داود الملك بهذه المؤامرة راح يعمل على إحباطها . وقد أحبطها بالفعل . وكان ذلك بمساعدة نجله الأكبر سليمان .

عندما مات داود سنة ١٠١٥ق .م دفن في المكان الذي أسماه في حياته باسمه (مدينة داود)[2] . وبعد موته مسح أبنه سليمان ملكاً على بني إسرائيل . وجرى مسحه على مقربة من ماملا .

على عهد سليمان النبي تم بناء الهيكل . ولقد قضى في بنائه سبع سنين ونصف . واستغل الصداقة التي كانت بين أبيه داود وحيرام ملك صور فطلب من هذا أن يرسل إليه من لبنان كمية من خشب الأرز ، ففعل ، وأرسلها في مراكبه بحراً إلى يافا . ومن هناك نقلها العمال إلى أورشليم . واستعمل هذا الخشب في بناء الهيكل .

---

(١) إنها (زحوية) الكائنة تجاه عين أم الدرج بسلوان .

(٢) هذا ما ورد في أسفار العهد القديم . سفر الملوك الأول الإصحاح الثاني العدد ١٠ ، ويقول مجير الدين أن من الناس من يعتقد (ومنهم وهب) أنه دفن بالمكان المعروف بالجسمانية في واد يقع شرقي بيت المقدس . ويؤيد هذه الرواية اللقمي في مخطوطه : (سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس) ، ص١٥٣ .

ثم بنى لنفسه قصراً . وشرع في بناء سور حصين حول المدينة . ولكي يتمكن من بناء الهيكل والقيام بهذه المشاريع التي تحتاج إلى أموال طائلة اضطر إلى زيادة الضرائب والرسوم[1] زيادة فاحشة .

يحدثونك عن (هيكل سليمان) أحاديث فيها شيء من المبالغة . فيقولون[2] إنه شرع في بنائه في العام الرابع من حكمه وأنه استخدم من أجل بنائه ١٨٣,٦٠٠ عاملاً : منهم ٣٠,٠٠٠ من اليهود اشتغلوا بالمناوبة (عشرة آلاف في كل شهر) . ومنهم ١٣٥,٦٠٠ من الكنعانيين . ومن هؤلاء ٢٠,٠٠٠ خصصوا لنقل الأخشاب والحجارة وغيرها . و٨٠,٠٠٠ نحاتين ونجارين . والباقون لمناظرة العمل والإشراف عليه . وقد أنجز البناء في سبع سنين ونصف (١٠١٢-١٠٠٥ق .م) .

مع أن الوصف الذي يصفونه به لا يدل على أنه كان كبير الحجم . فقد قيل لنا أن طوله كان ٧٠ ذراعاً (منها ١٠ أذرع للرواق و٤٠ للقدس و٢٠ لقدس الأقداس) وعرضه ٢٠ ذراعاً . وكان علو الرواق ٢٠ ذراعاً وعلو القدس وقدس الأقداس ٣٠ ذراعاً . وكان يحجب بين القدس وقدس الأقداس حاجز .

وكان الهيكل محوَّطاً بدارين كبيرتين : الداخلية تسمى (دار الكهنة) والخارجية (دار إسرائيل) . وكان له داران أخريان : واحدة تسمى (دار الشعب) والأخرى (دار النساء) . وفي سفر أخبار الأيام تجد وصف الهيكل من الداخل . وكان للهيكل سوران لا يسمح باجتيازهما إلا للكهنة .

كان سليمان الملك رجلاً حكيماً . إذ رأى بعين ثاقبة أن يكون على وفاق مع فرعون مصر ليأمن شره . فصاهره وتزوج من ابنته . وبهذه الوسيلة تمكن من التخلي لأعمال العمران في مملكته . وقد بنى لابنة فرعون قصراً جميلاً (٩٩٢ق .م) . وكان هذا يقوم على الطرف القبلي لجبل موريا . وقصارى القول انتعشت أورشليم ، على

---

(١) إليك أنواع الضرائب والرسوم التي كانت معروفة في ذلك الحين :- (التعشير) ضريبة أدخلها موسى في شريعته ، وقد أعطيت العشور للاويين الذين لم يكن لهم نصيب في الأرض ، وكانوا يعشرون النعنع والكمون . (الحيرية) أيضاً ضريبة فرضها موسى في شريعته ، وهي نصف شاقل عن كل معدود . (الخراج) ضريبة فرضت على الأرض ولقد وصلت هذه الضريبة في عهد سليمان حداً لا يطاق . (الحيوانات) ضريبة فرضت على البقر والمواشي وقد كانوا يعشرونها .

(٢) مجلة الآثار (٥ - ٦ ص ٢٤٢) للأستاذ عيسى المعلوف .

عهده واتسع ملكه من الفرات حتى حدود مصر ، وعقد معاهدات سلمية مع جيرانه . وهو فضلاً عن الهيكل الذي أتم بناءه والقصور التي أنشأها لنفسه ونسائه ، ولكهنته ، حصَّن القلعة ، وبنى حول هذه الأبنية كلها سوراً . وفي قول أنه جدد ما كان هناك من أسوار . وأمر بإملاء الواد الذي يفصل الجبلين بالتراب . ومن آثاره الباقية إلى يومنا هذا إسطبله الكائن تحت المسجد الأقصى وبرك سليمان الواقعة جنوبي بيت لحم .

وقد تزوج سليمان في أواخر سني حكمه نساء غير ابنة فرعون من الأمم القريبة التي نهى الله بني إسرائيل عن مخالطتها . ومال إلى آلهتهن . وعبد أصنامهن . وبنى بيتاً للأوثان بالجبل الذي أمام أورشليم طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعاً وعلوه ثلاثون ذراعاً . ويعزو بنو إسرائيل خراب ملكه بعد موته إلى عمله هذا .

ولمامات سليمان تولى ابنه رحبعام (٩٧٥ق .م) . فلم يكن هذا حسن الإدارة . وكانت البلاد أساساً تئن من فداحه الضرائب التي فرضها أبوه . فما كان ينقضي على ذلك ثلاثة أعوام حتى دبت عوامل الفساد والخراب في مملكته . وأخذت تسير في طريق الاضمحلال .

وانقسمت إلى شطرين . مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم ، ومملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة . ونشبت حرب عوان بين رحبعام[(١)] ملك يهوذا ويربعام[(٢)] ملك إسرائيل . وراح كل منهما يفرض الضرائب والأشغال الجبرية على شعبه ليتغلب على خصمه . ولقد منع يربعام قومه من زيارة أورشليم . وبنى لهم مذبحاً في بيت أيل .

عندئذ استغل شيشاق ملك مصر هذه الفرصة . وزحف على أورشليم ، فاحتلها (٩٧٠ق .م) . ونهب خزائنها . وقفل راجعاً إلى مصر .

وقصارى القول إن المدة التي قضاها رحبعام ملكاً - وهي سبعة عشر عاماً - قضاها في حرب خارجية مع مصر ، وحرب داخلية مع يربعام .

بعد موت رحبعام جاء ابنه (ابيا) فلم ينفع قومه إلا بتغلبه على يربعام .

ومن بعده جاء ابنه (آسا) فظلت الحرب على عهده دائرة بين مملكة يهوذا

---

(١) ابن سليمان من امراته العمونية .

(٢) إنه هو الغلام النجيب الذي كان لسليمان . وقد ذكره ابن العبري في الصفحة ٥٥ من كتابه (تاريخ مختصر الدول) .

(٩٥٥ق .م) بقيادته هو ، وبين إسرائيل بقيادة (با آشا) . وقد حاصر هذا الأخير أورشليم ، وكاد يستولي عليها . إذ كان ملك سوريا حليفاً له . ولكن هذا الملك ما عتم أن انضم إلى صفوف آسا ، فحارب معه . وانقلبت الآية . فتغلب آسا على خصمه ، ودفع عنه عادية المعتدين . وتمكن بهذه الوسيلة أيضاً من دفع غارة قامت بها قوة من المصريين والأحباش .

ولما مات تولى الملك من بعده ولده (يهوشافاط) .

حصّن يهوشافاط المدينة . وبنى حولها القلاع . وسعى لتوحيد كلمة بني إسرائيل . ولكنه لم ينجح . وفي زمنه كتب ذلك الكتاب المشهور عند اليهود بكونه (كتاب الشريعة الموسوية) .

عاش ستين سنة . وحكم خمساً وعشرين سنة . ولما مات دفن في أورشليم . وإنك لترى قبره في (وادي قدرون) الذي يسميه المسلمون (وادي جهنم) بين سور الحرم وجبل الطور . وفيه مقبرة أول من استعملها هو يهوشفاط . ولذلك يسميه اليهود : (وادي يهوشافاط) . ومعناه : (الله يقضي) .

ومن بعده جاء ابنه (يهورام) . وكان هذا ضعيفاً وسخيفاً . كما كان ظالماً وحسوداً . وحلت نقمته على إخوته وأصدقاء أبيه فقتلهم كلهم . حتى وقع جميع أفراد أسرته ، خلا واحد من ابنائه ، أسرى بيد العرب والفلسطينيين الذين غزوا أورشليم واحتلوها . ثم استولوا على خزائنها (٨٩٥ق .م) .

بعد موت يهورام (٨٨٥ق .م) تولى الملك ولده (أحازيا) . وكان هذا أسوأ خلقاً من أبيه . ولم يدم حكمه طويلاً ، ومات قتيلاً .

ولما كان ابن أحازيا صغيراً فالحكم كان بيد أمه (آثاليا) وما كانت هذه من سلالة داود . ولقد حاكت مؤامرة لأجل القضاء على جميع أفراد البيت من أسرة داود . إلا أن الحاخاميين والجند الذين كانوا يحرسون الملك اطلعوا على هذه المؤامرة . فأحبطوها . وقاموا هم بمؤامرة ضدها . دامت المؤامرة ست سنوات . إلى أن تمكنوا من قتل آثاليا . وأجلسوا الملك الشاب (يهوشع) على عرش الملك . هكذا كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ . فما كان يأتي ملك سيء ويموت ، إلا ويخلفه ملك أسوأ منه ويجور .

وكان كبير الحاخاميين (يهوفيادا) على الدوام بجانب الملك . ولما مات هذا أمر الملك برجم ابنه (زخريا) ـأي ابن كبير الحاخاميين) . وقد رجم في داخل الهيكل .

رغم أنه كان صديقه ورفيقه في المدرسة . فتألم الشعب لهذا العمل الوحشي . وهناك في وادي قدرون قبر زخريا إلى يومنا هذا . ولكنه هو أيضاً (أي يهوشع) قتل بعد زمن قصير من لدن عبيده (٨٣٩ ق .م) .

بعد يهوشع تولى الحكم ابنه (أمصيا) . فكان أول عمل قام به أن قتل العبيد الذين قتلوا أباه . وتجددت الحروب بينه وبين ملك إسرائيل . ولكنه غلب على أمره . فدخل ملك إسرائيل (يوآش) القدس ظافراً (٧٩٠ ق .م) . فدك سورها . وبعد أن نهب كل ما كان في الهيكل وفي قصر الملك من كنوز ثمينة رجع إلى عاصمته السامرة .

ولكن هناء أمصيا في أورشليم لم يدم طويلاً . إذ ثار عليه الأورشليميون ففر من أمامهم . فلحقوا به . وقتلوه في الطريق . وجاءوا به محمولاً على ظهور الخيل .

خلفه ابنه (عزيا) ٧٨٠ ق .م . إنه مستقيم وعادل . وقد ا هتم بشؤون بلاده . فحصن أورشليم . وبنى حولها الأبراج . وحفر الآبار . ولكنه اختلف مع الكهنة والحاخاميين من أجل الهيكل . إذ ادعى أن له الحق في دخول قدس الأقداس . وأما الحاخاميون فإنهم أنكروا عليه هذا الحق . ويظهر أن هذا هو السبب الذي حدا بيوسيفوس[١] لأن يعزو المصائب التي أصابت القدس على أثر الزلزال[٢] الذي جاء ذكره في سفر عاموس إلى سوء إدارة (عزيا) وظلمه .

فاستمع إلى سفر عاموس إذ جاء فيه :[٣]

«وقد أقسم الرب . . أني لن أنسى إلى الأبد جميع أعمالهم . أليس من أجل هذا ترتعد الأرض ، وينوح كل ساكن فيها ، وتطمو كلها كنهر ، وتفيض وتنضب كنيل مصر . . أني أغيب الشمس في الظهر ، وأقتم الأرض في يوم نور . وأحول اعيادكم نواحاً ، وجميع أغانيكم مراثي . .»

ولما مرض عزيا تولى مكانه ابنه (يوثام) ٧٥٨ ق .م .

ولما قضى هذا نحبه تولى الملك ابنه (أحاز) . ولكن هذا أيضاً جلب الخراب إلى البلاد . وغلب على أمره تجاه جيش مملكة إسرائيل ، وحليفه الجيش السوري . ولكي

---

(١) الفصل العاشر من الباب التاسع الفقرة الرابعة من كتابه .

(٢) يوم انشق الجبل إلى قسمين فغارت الطريق ودكت البلد .

(٣) الإصحاح ٨ ، العدد ٧-١٠ .

ينتقم لنفسه استنجد بتغلات بلازر ملك الآشوريين . فناداه إلى بلاده . وجاء هذا مسرعاً . وبعد أن أخضع سوريا وشمال فلسطين أخضع القدس . وخضع آحاز له . واعتنق دينه . فعبد الأصنام . وأغلق الهيكل .

هناك رواية أخرى عن احتلال الأشوريين لأورشليم في عهد آحاز . ننقلها عن كتاب (السير السليم[١]) بالسطور التالية :

«عندما غُلب (أحاز) ملك يهوذا على أمره في حروبه مع الآراميين ومع ملك إسرائيل ، راحت أورشليم وما حولها من البلدان نهباً مقسماً بين المغيرين : فاغتنم الأشوريون هذه الفرصة وغزوا البلاد . فوفد (سنحاريب) ملك آشور سنة ٧١٣ق .م . ودخل يهوذا . ونزل على المدن المحصنة طامعاً في افتتاحها . عندئذ كان آحاز قد توفي ، وكان ابنه حزقياً قد خلفه . فأرسل سنحاريب عبيده إلى حزقيا ملك أورشليم طالباً إليه التسليم . فأخذ حزقياً يسعى لتحصين القدس وتقوية وسائل الدفاع عنها . وجر الماء إلى داخل المدينة بشكل يحول دون استعماله من لدن الآشوريين .

وفيما كان حزقيا يستشير إشعيا النبي فيما يجب عليه أن يصنع انسحب سنحاريب من أمام أسوار أورشليم (٧٠١ق .م) . ولكن الآشوريين رجعوا إلى أورشليم . فأسروا الملك (منسه) الذي تولى الملك بعد أبيه حزقيا . فأرسلوه إلى بابل مصفداً بالأغلال . ثم ردوه إلى أورشليم . فبنى حولها سوراً . ومات فيها (٦٤٣ق .م) .

ثم ملك ابنه (أمون) ولما قتل هذا بيد عبيده قام ابنه (يوشيا)[٢] مكانه ٦٤١ق .م . وفي سنة ٦١٠ق .م . مر فرعون مصر نيخو من هذه البلاد في طريقه إلى كركميش ؛ فعارضه الملك (يوشيا) ، فنصح إليه نيخو أن لا يفعل ، فأصر يوشيا ، وتشدد ؛ فقاتله فرعون مصر ، وقتله .

بعد يوشيا تولى الملك ابنه (يوآحاز) . فسار هذا على خطة أبيه من حيث ارتكاب المنكرات والمعاصي . فأتاه فرعون مصر نيخو ، وكتفه ، وغرم المدينة مئة قنطار فضة وقنطاراً ذهباً ، وأقام (الياقيم) أخاه ملكاً مكانه ؛ وأخذه هو مكتوفاً إلى مصر ، فمات هناك .

---

(١) ص ٥٨ .

(٢) «يوشع» أو «يهوشع» .

غيّر الياقيم اسمه ، فجعله (يوياقيم) . ومال هذا أيضاً إلى الشر والفحشاء . وعلى عهده غزا (نبوخذ نصر) ملك بابل هذه البلاد ، واسترقّه عبداً ثلاث سنين .

ولما مات يوياقيم تولى الملك ابنه (يوياكين) . وعلى عهده أرسل نبوخذ نصر جيشاً عرمرماً بقيادة نبوزردان ، فتح به أورشليم . وسبى جميع من فيها ، فأرسلهم إلى بابل ، وأقام على كرسي الملك مكانه عمه (صدقيا) .

خضع صدقيا إلى نبوخذ نصر قرابة تسع سنين . ثم تمرد عليه . عندئذ زحف إليه ووصل إلى أورشليم عام ٥٩٠ ق .م . كانت هذه يومئذ محصنة تحصيناً منيعاً . فحاصرها وبنى الأبراج حولها . ودام حصاره لها سنتين ، ذاقت خلالها الجوع والمرض . إلى أن اختار اليهود جانب الهرب . فثلموا جانباً من السور وهربوا منه وعلى رأسهم ملكهم (صدقيا) . فادركهم الكلدانيون في البرية . وألقوا القبض على الملك وبنيه ، وأتوا بهم إلى نبوخذ نصر مصفدين بالأغلال . فقتل بنيه على عينه ، وفقأ بصره هو (أي صدقيا) وأرسله إلى بابل . وراحت كلمة بابل هي العليا في أورشليم . فنهبها ، وأحرق الهيكل ، ودك أسوارها ، وجلا شعبها إلى بابل . فقتل بعضهم هناك ومن لم يقتل استعبد . وهكذا انقرضت مملكة بني يهوذا وكان ذلك حوالي سنة ٥٨٦ق .م .

يعزو المؤرخون انقراض اليهود يومئذ إلى طبيعتهم ، وطمعهم ، وعدم امتزاجهم بغيرهم من الأقوام المجاورة لهم والأمم التي يعيشون بين ظهرانيها ، واعتقادهم بأنهم (شعب الله المختار) دون أن يتصفوا بالصفات التي تؤهلهم لهذا المقام الممتاز . إن فيهم طباعاً رديئة للغاية . وهذه الطباع لا تؤهلهم لأن يعيشوا مستقلين . ومن هذه الصفات الطمع ، والحسد ، وعدم الاتفاق ، والانهماك في الخلاعة والملذات ، والتردي في مختلف المعاصي ، وعدم الترفع عن اقتراف الدنايا في سبيل المال ، وفي سبيل الغاية التي يرمون إليها .

ولما تبوأ كورش عرش الفرس (٥٣٨ق .م) عطف على اليهود . وأذن لمن شاء منهم أن يعود إلى القدس ، وسمح لهم بتجديد الهيكل ، وبناء المدينة ، فجاءوا إليها ، وكان عددهم عند رجوعهم اثنين وأربعين ألفا .

قال ابن خلدون[1] إن ملك الفرس كورش عندما سمح لليهود بالعودة إلى

(١) ابن خلدون ، ص ٧١١ .

أورشليم وتعمير السور ردّ إليهم الأواني التي كان قد أخذها منهم .

وقال ابن العميد أن هذه الأواني كانت خمسة آلاف وأربعماية قطعة من الذهب والفضة . ولكنه عاد فمنعهم من تعمير السور ، وذلك عندما اعترض العمونيون والأشدوديون والعرب . وكان اعتراضهم شديداً . وكانت حجة المعترضين أنه «إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها فإن اليهود الذين جاءوا إليها من السبي وسكنوا فيها لا يؤدون جزية ولا خراجاً ولا خفارة» . وفي رسائلهم التي بعثوا بها إلى ملك الفرس نبهوه إلى ماضي اليهود في أورشليم ، تلك المدينة التي وصفوها بالعاصمة والمضرة . كما هددوه بالعصيان ، وقطع العلاقات الودية إذا هو لم يمتثل لنصائحهم ولم يمنع اليهود عن عملهم . وقد أصدر أمره بمنع اليهود عن تجديد بناء السور . وظل العمل متوقفاً إلى السنة الثانية من ملك داريوس (وهو المعروف عند العرب باسم دارا) . وفي عهد هذا الملك تم بناء السور (٤٤٥ق .م) . وما كان ليتم لولا حراب الفرس . وإنك لواجد بياناً طويلاً عن هذا الحادث في العدد الأول من الإصحاح الأول من سفر نحميا .

فاسمع ماذا يقول :

« . . حدث في شهور كسلو في السنة العشرين بينما كنت في شوشن القصر أنه جاء حناني واحد من إخوتي هو ورجال يهوذا . فسألتهم عن اليهود الذين نجوا الذي بقوا من السبي وعن أورشليم . فقالوا لي إنهم في شر عظيم وعار ، وسور أورشليم متهدم ، وأبوابها محروقة بالنار . فلما سمعت هذا الكلام جلست وبكيت ونحت أياماً وصمت وصليت أمام إله السماء وقلت : أيها الرب إله السماء . . اسمع صلاة عبدك الذي يصلي إليك الآن . . لأجل عبيدك بني إسرائيل . . لقد أخطأنا . . لقد أفسدنا . . ولم نحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أمرت بها عبدك موسى . . أعط النجاح اليوم لعبدك ، وامنحه رحمة أمام هذا الرجل . لأني كنت ساقياً للملك[1] . .» .

وفي الإصحاح الثاني من سفره قال نحميا ما يأتي :

«وفي شهر نيسان في السنة العشرين لارتحشتا الملك كانت خمر أمامه فحملت الخمر وأعطيت الملك . ولم أكن قبل مكمداً أمامه . فقال لي الملك لماذا وجهك مكمد

(١) الملك ارتحشتا ملك الفرس .

وأنت غير مريض . . . فخفت كثيراً جداً ، وقلت للملك : ليحيى الملك إلى الأبد . كيف لا يكمد وجهي والمدينة بيت مقابر أبي خراب وأبوابها قد أكلتها النار . فقال لي الملك ماذا طالب أنت . . فصليت إلى إله السماء وقلت : . . ترسلني إلى يهوذا ، إلى مدينة قبور آبائي ، فأبنيها . فقال لي الملك والملكة جالسة بجانبه إلى متى يكون سفرك ومتى ترجع . فحسن لدى الملك وأرسلني ، فعينت له زماناً . . وأعطاني رسائل إلى ولاة عبر النهر لكي يجيزوني حتى أصل إلى يهوذا ، ورسالة إلى آساف حارس فردوس الملك لكي يعطيني أخشاباً لسقف أبواب القصر الذي للبيت ولسور المدينة وللبيت الذي أدخل إليه . . وأرسل الملك معي رؤساء جيش وفرسانا . .»

وفي الإصحاح نفسه (أي الثاني) من سفر نحميا نقرأ السطور التالية :

«فجئت إلى أورشليم ، وكنت هناك ثلاثة أيام . ثم قمت ليلاً أنا ورجال قليلون معي . ولم أخبر أحداً بما سأعمله في أورشليم . ولم يكن معي سوى البهيمة التي كنت راكبها . وخرجت من باب الوادي ليلاً أمام (عين التنّين) إلى باب الدمن . وصرت أتفرس في أسوار أورشليم المتهدمة وأبوابها التي أكلتها النار . . ورجعت . . ولم أخبر إلى ذلك الوقت اليهود والكهنة والأشراف والولاة والعمال . . ثم قلت لهم : أنتم ترون الشر الذي نحن فيه : كيف أن أورشليم خربة ، وأبوابها قد أحرقت بالنار . هلم فنبني السور ولا تكون بعد عاراً . . . وأخبرتهم عن كلام الملك . . . فشدوا أياديهم للخير . وقالوا : لنقم ولنبن» .

ويظهر أن العرب وباقي السكان والمجاورين من حورونيين وعمونيين كانوا أقوياء ، وكان اليهود يخشون بطشهم ، بدليل أن الملك اعطى نحميا عند سفره (رؤساء جيش وفرسانا) وأنه لم يجرؤ على كشف ما في السور من خراب نهاراً ، بل جاء ليلاً ؛ وبدليل الحادث الآتي الذي ننقله من سفر نحميا نفسه[1] :

« . . ولما سمع سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني وجشم العربي ساءهم ذلك مساءة عظيمة . . وهزأوا بنا واحتقرونا . . وقالوا ما هذا الأمر الذي أنتم عاملون . . ثم تأمروا جميعهم معاً أن يأتوا ويحاربوا أورشليم . . فصلينا إلى الهنا واقمنا حراساً ضدهم ليلاً ونهاراً . . ومن ذلك اليوم كان نصف غلماني يشتغلون في العمل ونصفهم يمسكون الرماح والأتراس والقسي والدروع . البانون على السور بنوا ، وحاملو

---

(١) الاصحاح الثاني – العدد ١٩ .

الأحمال حملوا . باليد الواحدة يعملون العمل ، وبالأخرى يمسكون السلاح[١] الرؤساء وراء كل بيت يهوذا . وكان النافخ بالبوق بجانبي . . ولم أكن أنا ولا إخوتي ولا غلماني ولا الحراس الذين ورائي نخلع ثيابنا . وكان كل واحد يذهب بسلاحه إلى الماء . .»

وفي الإصحاح الثالث من السفر نفسه يذكر لنا نحميا كيف عمر كل فريق من بني قومه ما خصص له من السور ، وفي الغالب كان يقوم كل رئيس عائلة بتعمير الجانب القريب من منزله . ويقول نحميا إنه كان يعمل معه من الولاة مئة وخمسون رجلاً . وقد تبرع الأغنياء بقسم من أموالهم لهذا العمل . وقد جاء ذكره لعدة أبواب في السور منها : باب الضأن ، وباب السمك ، وباب العتيق ، وباب الوادي ، وباب الدمن ، وباب العين ، وباب الماء ، وباب الخيل ، وباب الشرق ، وباب العد . .

«وكمل السور في الخامس والعشرين من أيلول في اثنين وخمسين يوماً . (الإصحاح السادس العدد ١٥ من سفر نحميا) .

ولكن العداء بين العمونيين والعرب كان قد ازداد ، وخوف اليهود من هؤلاء كان قد اشتد ، رغم وجود السور . إذ يقول نحميا في الإصحاح السابع من سفره : « . . وقلت لهما[٢] : لا تفتح أبواب أورشليم حتى تحمي الشمس ، وما داموا وقوفاً فليغلقوا المصاريع ويقفلوها . واقيم حراسات من سكان أورشليم كل واحد على حراسته وكل واحد مقابل بيته . وكانت المدينة واسعة الجناب وعظيمة والشعب قليلاً في وسطها ولم تكن البيوت قد بنيت . (العدد ١-٤) .»

ورفع أعداء اليهود شكواهم إلى ارتحشتا ملك الفرس ، فقالوا له[٣] : «ليعلم الملك أن اليهود الذين صعدوا من عندك إلينا قد أتوا إلى أورشليم ويبنون المدينة العاصية الرديئة وقد أكملوا أسوارها ورمموا أسسها . ليكن الآن معلوماً لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون جزية ولا خراجاً ولا خفارة فأخيراً تضر الملوك . والآن بما أننا نأكل ملح الملك ولا يليق بنا أن نري ضرراً للملك ، لذلك أرسلنا فأعلمنا الملك لكي نعيش في سفر اخبار آبائك فتعلم أن هذه المدينة مدينة عاصية ومضرة

---

(١) الإصحاح الرابع - العدد ١٧ .

(٢) أي لرئيس القصر ورئيس الكهنة

(٣) هيكل سليمان ص ١٤٨ .

للملوك والبلاد وقد عملوا عصياناً في وسطها منذ الأيام القديمة . لذلك خربت هذه المدينة . ونحن نعلم الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يكون لك عند ذلك نصيب في عبر النهر .»

فأجابهم الملك بما يلي :

« . . . الرسالة التي أرسلتموها إلينا قد قرئت بوضوح أمامي . وقد خرج من عندي أمر ، ففتشوا ، ووجد أن هذه المدينة منذ الأيام القديمة تقوم على الملوك . وقد جرى فيها تمرد وعصيان . وقد كان ملوك مقتدرون على أورشليم ، وتسلطوا على الجميع عبر النهر . وقد أعطوا جزية وخراجاً وخفارة . لان أخرجوا أمراً بتوقيف أولئك الرجال . فلا نبني هذه المدينة حتى يصدر أمر مني . فاحذروا من أن تقصروا عن عمل ذلك . . .» .

« . . . ولما قرئت رسالة أرتحشتا الملك قام العرب والعمونيون والأشدوديون وذهبوا بسرعة إلى أورشليم . وكان على رأسهم (رحوم) صاحب القضاء و(شمتاي) الكاتب وأوقفوا اليهود عن العمل بذراع وقوة . . .» وظل العمل متوقفاً إلى السنة الثانية من ملك دارا ملك الفرس .

عندما رجع اليهود من السبي على عهد دارا ملك الفرس (٥٣٨ق .م) وضعوا لهم مجموعة قوانين دينية . وجعلوا في هذه المرة رئيس الكهنة الذي يقيم في أورشليم متسلطاً عليهم بدل الملك . وأصبحوا عبارة عن جماعة من المتدينين يرأسهم كاهن .

وظلوا كذلك حتى الفتح اليوناني .

عندما تسلم (انطيوخس الرابع) أريكة الحكم اضطهد اليهود وحرمهم من القيام بشعائرهم الدينية . فمنعهم من الختان ، وأحرق كتبهم الدينية ، وبطل شرائعهم ، وأرغمهم على انتهاك حرمة السبت وعلى أكل لحم الخنزير .

وكان (ابو لينياس) عامل انطيوخس على القدس منفذاً لسياسة سيده هذه . ولكن بصورة تدريجية . فثار اليهود وقتلوا عمال الملك . واحتلوا أورشليم (١٦٤ق .م) . وقيل إنه قتل من جيش انطيوخس يومئذ أربعون ألفاً من المشاة وسبعة آلاف من الفرسان .

وإليك بعض المعلومات(١) عن هذه الثورة ، وكيفية نشوبها ، وانتهائها :

---

(١) البرغوثي وطوطح .

قرَّب أنيطوخس الكاهن يشوع إليه ، وجعله الحبر الأعظم . وكان هذا ربيب الحضارة اليونانية . حتى أنه استبدل اسمه اليهودي (يشوع) باسم يوناني (ياسون) . فحسده أخوه أونياس . وراح يسعى للتقرب من الملك . وعرض عليه هذا شروطاً قاسية من شأنها أن تذل قومه . فقبلها نكاية بأخيه . واستبدل اسمه اليهودي (أونياس) باسم يوناني (منلاوس) . ثم جاء إلى أورشليم ليتسلم من أخيه وظيفته . فأبى هذا أن يسلمه المدينة . فتحاربا ، ولم يتمكن أحدهما من قهر الآخر ، حتى جاء أنطيوخوس وأعلن الحكم العرفي . فأباح المدينة ونهب الهيكل . وعين قائده (فيلبس) حاكماً عليهم . ثم أمر بإلغاء الدين اليهودي من أصله . وأكرههم على عبادة الآلهة اليونانية وحظر الاختتان . وأكرههم على الشغل في أيام السبت . وكان عقاب من يخالف أوامره الموت . ولما اشتد الظلم نهض الكاهن (متاتياس[1]) وأعلن الثورة . هو وأولاده الخمسة . ومنهم (يهوذا مكابيوس) أحد المكابيين .

فاز المكابيون في بادئ الأمر ، واستقلوا (١٦٧ق .م) . وقد ظهر منهم خمسة رؤساء وسبعة ملوك إليك أسماءهم :

(أ) الرؤساء :

١ . متاتياس	٦٧ ق . م
٢ . يهوذا (ابنه)	١٦٦ ق . م
٣ . يوناثان (أخو يهوذا)	١٦٠ ق . م
٤ . سيمون (أخو يهوذا)	١٤٣ ق . م
٥ . هركانوس الأول	١٣٤ ق . م

(ب) الملوك :

١ . أريسطوبولس الأول وابن هركانوس	١٠٥ ق . م
٢ . الكسندر (أخو أريسطوبولس)	١٠٤ ق . م
٣ . الكسندرا (امرأته)	٧٧ ق . م
٤ . هركانوس الثاني (ابن الكسندر)	٦٩ ق . م
٥ . أريسطوبولس الثاني (ابن الكسندر)	٦٧ ق . م

(١) متيا بن حانان .

٦ . هركانوس الثاني أيضاً ٦٢ ق . م
٧ . انتيكانس (ابن اريسطوبولس الثاني) ٣٧ ق . م

عندما احتل يهوذا المكابي القدس (١٦٦ ق . م) لم يستطع احتلال القلعة التي بناها انيطوخس ابيفانوس (عام ١٦٨ ق . م) . على الاكمة المعروفة بـ(عكره) . ولذلك بنى المكابيون سوراً من شأنه أن يحجز بينهم وبين القلعة وأن يحول دون تسلط القلعة على المدينة والهيكل .

ولما جاء سيمون المكابي (١٤٣ ق .م) هدم القلعة المتقدم ذكرها ، وأزال قسماً من الأكمة التي بنيت فوقها القلعة . إنه فعل ذلك خشية أن يتعرض الهيكل للخطر .

إن النقد اليهودي المعروف بـ(الشاقل) ضرب في أيام سيمون هذا[١] . وقيمة الشاقل الذهب في ذلك الحين تساوي ليرتين ذهبيتين من نقود العصر الحاضر .

ثم جاء (جون هركانوس) ١٣٤ ق . م وهو من الحكام المكابيين الذين حكموا القدس بعقل وسياسة . وكان إلى جانب ذلك محباً للبناء والعمران . إنه هو الذي بنى القلعة الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية من منطقة الهيكل وقد أسماها (بارس[٢]) . وهو الذي بنى في الحي الفوقاني من المدينة وعلى التل الواقع غربيها قصراً حصيناً باسم العائلة الحشمونية المالكة . وكان هذا القصر ، على قول كاست ، متصلاً بمنطقة الهيكل بجسر يمر عن الواد المعروف بوادي التروبين .

وقيل إن جون هركانوس اضطر إلى نبش قبر داود الملك ، ونهب ما كان فيه من كنز دفين ، وبيعه كي يتمكن من إنشاء الأبنية المتقدم ذكرها .

إن هذا التقدم في العمران الذي تم في القدس على عهد الحشمونيين ، والنصر الذي أصابوه على أعدائهم هنا وهناك ، ساقهم إلى الغرور ، كعادة اليهود بوجه عام ، فصرفهم عن عبادة ربهم (يهوه) وجعلهم يقيمون لأنفسهم إلهاً أرضياً . فما اعتبروا من حوادث الماضي ، ولا قدروا أبداً أن العز لا يدوم ، وأن الغرور قتّال ، وأن هذا النوع من التفكير يؤول إلى الانقسام فالدمار .

---

(١) مجلة الآثار (٥ : ١٠ ص ٥٠٩) .

(٢) هو البناء الذي وسعه هيرودس بعدئذ ، وأضاف إليه برجاً كبيراً ، وأسماه (برج انطونيا) . والمعتقد أنه كان يقوم في المكان الذي تقوم عليه الآن (مدرسة الروضة) إلى الشمال الغربي الذي من سور الحرم .

ما كاد جون هركانوس يقضي نحبه حتى راح أولاده الثلاثة يقتتلون من أجل الزعامة والملك . وكانت المبادىء اليونانية (الهيلينية) سائدة يومئذ بين اليهود بدرجة أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة ترك اسمه اليهودي واتخذ لنفسه اسماً يونانياً (هيلينياً) فسموا أنفسهم : اريسطوبولس ، وأنتيكانس ، والكسندر ، وما إلى ذلك .

نصب أريسطوبولس[1] هركانوس نفسه ملكاً على اليهود (١٠٥ ق .م) . ولكنه خلال المدة القصيرة التي قضاها في الملك لم يفعل شيئاً لمصلحة البلاد سوى أنه سجن أمه وجعلها تجوع إلى أن ماتت[2] . ثم قتل أخاه انتيكانس من الخوف والحسد . فاستولى أخوه الأصغر الكسندر على الملك وأسمى نفسه (الكسندريانوس) ١٠٤ ق .م . وراحت القدس على عهده تذوق مرة أخرى مرارة الفوضى والحروب الأهلية والدمار .

إن الكسندر يانوس وإن ملك اليهود يومئذ بالاسم ، إلا أن امرأته الكسندرا كانت في الحقيقة هي الحاكمة .

بعد وفاة الملكة (٧٠ ق .م) تولى الملك ابنها هركانوس . وكان يعرف بهر كانوس الثاني . ولكنه بعد ذلك بقليل اضطر للتخلي عن التاج وعن رياسة الكهنوت لأخيه أريسطوبولس[3] الذي حاربه وتغلّب عليه (٦٩ ق .م) .

وراح الأخوان ينشدان مساعدة الدول المجاورة لهما : أما هركانوس فراح يستنجد ملك العرب أريطاس (الحارث) . وأما أخوه أريسطوبولس فقد استمد القوة من روما .

وزاد في تخاذلهما بذور الفساد والشقاق التي كان يلقيها بينهما انتيباتر[4] ابو هيرودس . وكان بمبايوس (بومبي) في ذلك الحين (٦٤ ق .م) قد انتهى من محاربة الأرمن وأتى إلى سورية . فاستدعاه أريسطوبولس . وهو في دمشق ، فلبّى دعوته . وأتاه جم غفير من اليهود[5] يسألونه أن يريحهم من ولاية كليهما . لأنه لم يكن من عادتهم أن يتولاهم ملوك . بل أن يسوسهم رئيس كهنة ويقضي بينهم بحسب

---

(١) (اريسطوبولس) أو (ارستوبونس) كلمة يونانية معناها (المشير الصالح) . ومن معانيها (ابن ارسطو) .

(٢) Jerusalem p. 79, by Lionel Cust.

(٣) (تاريخ اليهود) ليوسيفوس . كتاب ٣ ، فصل ٢٤ ، وكتاب ١٤ فصل ١ .

(٤) كان هذا الرجل من الأدوميين الذين أجبرهم هركانوس على التهود ، فتهودوا .

(٥) (تاريخ سورية) للمطران الديسي . ج٣ ، ص ٢٦٦ .

سنتهم . ويظهر أنه استحضر الأخوين . وبحث معهما أسباب الخلاف .

أما هركانوس فشكا إليه أن أخاه انتزع الملك منه خلافاً للحق . لأنه البكر . وليس له إلا حقول قليلة لا تقوم بأوده . وأن أخاه كاللص يسطو على جيرانه ، وينهب مالهم .

وأما أريسطوبولس فأجاب أنه انتزع الملك من أخيه لأنه لم يكن أهلاً له . وقد أزدراه الشعب لأنه رجل بليد مكسال .

إنك إذا ما درست الوقائع التي سبقت انهيار الحكم المكابي والحشموني بالقدس علمت بكل تأكيد أنه كان للمرأة ولتدخلها في أمور الدولة ونفوذها الذي لا يتناهى على الحكام دخلاً كبيراً فيما جرى . وإذا تعمقت في الدرس وجدت سبباً آخر ، ألا وهو الاختلافات المزمنة التي تأصلت بين المتدينين الذين كانوا يدعون بـ(الحسيديم) وبين خصومهم الحشمونيين . تلك الاختلافات التي ذر قرنها على عهد يهوذا المكابي .

أضف إلى هذين السببين سبباً ثالثاً (وهذا السبب وحده يكفي لتدمير مملكة عظيمة كإمبراطورية الرومان دع عنك مملكة صغيرة كمملكة القدس في عهد المكابيين) وهو تفرق الأحزاب وتنازع القواد ، ولا سيما أبناء العائلة الواحدة ، من أجل الزعامة والملك .

ولهذا لم يكن المستر ليونيل كاست فريداً بين المؤرخين في حكمه عندما قال إن الاختلافات التي قامت بين اليهود في مدينة القدس والدماء التي سالت في شوارعها كانت صفحة سوداء في تاريخهم . وهي التي أدت إلى انهيار كيانهم .

فاهتبل بومبي هذه الفرصة ، وقضى على استقلالهم (عام ٦٥ ق .م) . وبعمله هذا قضى على حرية الشعب اليهودي قضاءً تاماً . فراح اليهود بعد ذلك التاريخ يعيشون في ظل الشعوب والأمم الأخرى(١) .

---

(١) اقرأ ، بعد هذا ، ما كتبناه عن اليهود في الفصل الذي خصصناه للقدس في عهد الرومان ، وفي عهد الاحتلال البريطاني ، وبعد قرار التقسيم الذي أصدرته هيئة الأمم بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ .

القدس في عهد الآشوريين

لم ينفك الآشوريون عن الإغارة على فلسطين ؛ مذ وطدوا استقلالهم ، وأخذوا يفكرون في توسيع حدود مملكتهم . وازدادت غاراتهم شدة بعد موت سليمان ، وتنازع رحبعام ويربعام من أجل الملك ، وانقسام الأسباط إلى مملكتين : إسرائيل في الشمال ، ويهوذا في الجنوب . عندئذ ضعفت شوكة اليهود فهاجمهم المصريون من الجنوب والآشوريون من الشمال . وغدت البلاد يومئذ نهباً مقسماً بين هؤلاء وأولئك .

عندما تولى (آحاز بن يوثام) قيادة اليهود كان التحاسد والانقسام قد بلغا أشدهما بين الفريقين ، فاحتربا . وكان النصر لمملكة إسرائيل في الشمال . فانهزمت مملكة يهوذا في الجنوب . وغلب آحاز على أمره . ولما كان الجيش السوري حليف خصومه الشماليين وقائدهم (بيكح) Pekah ولولاهم لما تغلبوا عليه ، راح هو يفكر في طريقة للانتقام . فلم يجد أسهل من الالتجاء إلى الآشوريين . فأرسل رسله (٧٣٤ ق .م) إلى ملكهم (تيغلات بلازر[١]) يستنجد به ويجيشه لينقذه من أعدائه . فما كان من هذا إلا أن استجاب للنداء . وجاء يغزو البلاد . والحقيقة أن هذا وقومه كانوا يرتقبون مثل هذه الفرصة ، لا من أجل القدس وحدها ولكن من أجل ما يعدها من بلاد كمصر ، وليبيا ، والحبشة ، والبلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض والبحر الأحمر . ولهذا بعد أن افتتح تيغلات بلازر سوريا تغلب على مملكة إسرائيل واحتل عاصمتها (السامرة[٢]) فانقرضت مملكة إسرائيل في الشمال . وتحقق ما تنبأ به عاموس[٣] قبل ذلك بقليل .

---

(١) اعتلى عرش آشور سنة ٧٤٥ ق . م .

(٢) جاء في تاريخ العصور القديمة لبرستد أن هذا الاحتلال جرى في ٧٢٢ ق .م . بينما ذكر في الموسوعة البريطانية أنه جرى حوالي سنة ٧٣٥ ق .م . وعندي أن الرأي الأخير هو الأصح . إذ أن تيغلات بلازر مات سنة ٧٢٧ ق .م .

(٣) «اسمعوا هذا القول الذي أنا أنادي به عليكم مرثاة يا بيت إسرائيل . سقطت عذراء إسرائيل لا تعود تقوم . انطرحت على أرضها ليس من يقيمها . لأنه هكذا قال السيد الرب» . عاموس ٥-١ .

وفي قول آخر[1] «إن (شلمنصر) ملك الآشوريين غزا القدس (٧٣٠ ق .م) وسبى سكانها وأنه عاد فحاربهم سنة ٧٢٣ ق . م وظل يحاربهم حتى سنة ٧٢١ ق .م» . بيد أنه ، على ما يظهر ، لم يتمكن من تثبيت أقدام قومه في القدس . فبقي القسم الجنوبي من فلسطين راضخاً لسلطان الفراعنة . وقد جاء في كتب التاريخ أن العرب والعمونيين والفنيقيين وباقي سكان البلاد المجاورة كانوا في الوقت نفسه يعملون على دفع غارة الآشوريين . ولولا ذلك ما تمكن اليهود من دفع غائلة الآشوريين . ولكن هذا الحال لم يدم طويلاً . إذ أراد بنو إسرائيل أن ينفردوا في الأمر . فما كاد (سنحاريب[2]) يعتلي عرش آشور حتى اعتزم أن يحتل فلسطين كلها : شمالها وجنوبها .

وقد أرسل إليها هذا جيشه بقيادة القائد الآشوري المشهور (ربشاقي[3]) . فحاصرها (٧١٣ ق . م) . وراح يدك أسوارها . وكان رجاله مزودين بالسيوف ، والنبال ، والتروس ، والأقواس ، والرماح . وكانت لهم مركبات خفيفة ، يجر الواحدة منها حصانان . وكانت لهم وسائل نقل منظمة . واستعملوا في حصار القدس أجهزة متينة ومعدات متقنة منها السلالم والمنجنيقات .

وقد نصب القائد الآشوري مخيمه شرقي بركة ماملا . وراح من هناك يصب جام غضبه على المدينة ويضيق الخناق على سكانها .

إن الخوف والذعر قد استوليا على اليهود . فلم تجد فيهم نصائح ملكهم (حزقيا) الذي تولى الملك بعد أبيه آحاز سنة ٧٢٦ ق .م . وبقي فيه حتى سنة ٦٩٨ ق .م . وراح حزقيا يشحذ قريحته لاستنباط وسيلة ينجي بها نفسه وقومه من الهلاك . والحق أنه نفع اليهود ، إذ إنه عندما سمع باقتراب جيش سنحاريب ، أسرع في إنشاء سور حول الأحياء المنتشرة في جبل صهيون إلى الشمال وفي منطقة الهيكل .

ومن الأعمال التي قام بها (حزقيا) النفق الذي حفره في الصخر بين بركة سلوان وعين أم الدرج ، ذلك النفق الذي يبلغ طوله ١٧٠٠ قدماً . والغاية منه أن

---

(١) تاريخ القدس الشريف لسركيس ص ١٩ .

(٢) يسميه بعض المؤرخين (سنحريب) . ويقول الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف إنها كلمة بابلية معناها (أرسل أخوة كثيرين) أو (ليس بابن أبيه الأكبر) .

(٣) وفي رواية أخرى (رباكس) .

يتمكن سكان المدينة من الوصول إلى رأس النبع من داخل السور دون أن يعرضوا أنفسهم لمهاجمة أعدائهم في أيام الحصار . وأسال الماء ـمن بركة ماملا . .) في مجرى حفرة تحت الأرض إلى بركة حفرها بين السور القديم والسور الحديث . سميت هذه البركة يومئذ (بركة حزقيا) . ويسميها الناس في يومنا هذا (بركة حمام البطرك) أو (بركة حارة النصارى) .

ولكن لا هذه المشاريع التي قام بها حزقيا لتزويد المدينة بالماء ، ولا أسوار القدس التي كانت تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ؛ حتى ولا الخطب التي كان يلقيها (إشعيا[1]) النبي في شوارع أورشليم ليحمس الجماهير على القتال والمقاومة ؛ أجل ما كان هذا بكاف لينقذ القدس من الآشوريين الذين كانوا يرابطون أمامها بجيش قوي ضخم . ولكن الذي أنقذها هو (الطاعون) الذي جاءهم من مستنقعات دلتا النيل والذي انتشر حتى كاد يقضي عليهم ، فانسحبوا بعد أن فقدوا في هذه الحملة ١٨٥ ألفاً من رجالهم .

يظهر أن الآشوريين عادوا إلى القدس مرة أخرى ، فاحتلوها . واعتقلوا الملك (منسه) الذي تولى الملك بعد أبيه حزقيا ؛ فأرسلوه إلى بابل مصفداً بالاغلال (٦٧٨-٦٤٤ ق .م) . ولكنهم بعد حين أطلقوا سراحه فرجع إلى القدس ، وبنى السور الثاني .

بعد مدة وجيزة دب الضعف والانحلال في صفوف الآشوريين ، فتخلوا عن هذه البلاد إلى البابليين .

فاق الآشوريون البابليين والمصريين من حيث التنظيم الإداري . فقد سنوا الأنظمة المتقنة للبلاد التي احتلوها ، وكانوا يضيقون نطاق الولايات مخافة أن تتقوى الواحدة ، فتنفصل عنهم . وكانوا حين نشوب ثورة في إحدى هذه الولايات يعزلون أميرها الوطني ، وينصبون مكانه واحداً منهم . وكان من واجبات هذا الحاكم أن يحفظ النظام ؛ ويرسل التقارير عن حالة مقاطعته إلى الحكومة المركزية ؛ وأن يجمع الضرائب ويرسلها إلى العاصمة ؛ بعد أن يبقى منها مقدار ما يحتاج إليه في إدارة البلاد التي جمعت منها . ولكنهم لم يهتموا بترقية الشؤون الصناعية والتجارية . وكان جل اهتمامهم منصرفاً إلى سلب البلاد ، وجمع ما فيها من ذهب وفضة وأمتعة نفيسة .

---

(١) أشعياء الإصحاح العاشر ٢ -٣ «ماذا تفعلون في يوم العقاب حين تأتي التهلكة من بعيد . إلى من تهربون للمعونة . وأين تتركون مجدكم . إما يجثون بين الأسرى ، أو يسقطون تحت القتلى» .

جاء في أكثر الكتب التجارية أن البابليين استولوا على القدس وأخذوها من الآشوريين . والحقيقة أنهم أخذوها من المصريين . إذ كانت ، يوم احتلالهم إياها ، منحازة إلى ملوك مصر . خاصعة لسلطانهم . تدفع الجزية لهم ، وتأتمر بأوامرهم . وكان ظل الآشوريين قد زال عن هذه الربوع قبل ذلك بأعوام . فأخذ البابليون والمصريون يتنازعون السلطة والسيادة . وكان على سكان أورشليم ومملكة يهوذا أن يختاروا أحد الفريقين : فإما أن ينحازوا إلى جانب المصريين أو أن يقفوا في صفوف البابليين .

كان ملك أورشليم في ذلك الحين (يهوياقيم)[١] ٥٩٩ ق . م . ولقد خضع هذا لنبوخذ نصر . وسلمه المدينة وعاش عبداً له ثلاثة سنين[٢] . ثم عاد فتمرد عليه[٣] . فأقاله نبوخذ نصر وأقام مكانه أبنه (يهوياكين) ٥٩٧ ق .م . ثم عاد فأقال هذا أيضاً بعد ثلاثة شهور لأنه كان مثل أبيه شريراً[٤] وأخذه إلى بابل بعد أن أقام مقامه صدقيا (٥٩٧ ق .م) وأخذ معه عدداً كبيراً من عظماء بني إسرائيل .

أراد صدقيا في بادىء الأمر أن يتعاون مع البابليين عملاً بوصية النبي أرميا الذي نصحه بالتعاون قائلاً إنه لا فائدة من الخيانة ، إلا أن الرؤساء مالوا إلى شق عصا الطاعة والخروج على البابليين . وكان ذلك بتشويق من مصر . فخرجوا (٥٩٣ ق .م) وكانت العاقبة وبالا عليهم .

عندما بلغ نبوخذ نصر[٥] انتفاض بني إسرائيل أمر قائده نبوزردان أن يقيم بموضعه حتى يوافيه ، وأن يضرب أعناق الرهائن الذين معه . ثم سار هو حتى أتى بيت المقدس ٥٨٨ ق . م .

فحاصرها (٥٨٧ ق . م) وقد انضم إليه الأدوميون نكاية ببني إسرائيل . وهذا

---

(١) (النهج القويم في التاريخ القديم) لهارفي بورتر أستاذ التاريخ في المكنيسة الإنجليلية . طبع في بيروت سنة ١٨٨٤ .

(٢) سفر الملوك الثاني : ٢٤ - ١ .

(٣) سفر الملوك الثاني : ٢٤-٤ .

(٤) سفر الملوك الثاني : ٢٤-٩ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك للطبري . ج١ ، ص ٣٨٢ . طبع في مصر سنة ١٩٣٩ .

العداء بين الفريقين (أي بين الأدوميين وبني إسرائيل) كان قد تأصل منذ أن مر بنو إسرائيل من بلادهم على عهد موسى .

كانت القدس يومئذ محصنة تحصيناً متيناً . ولما حاصرها نبوخذ نصر ، بني الأبراج من حولها . ودام حصاره لها سنتين وفي قول آخر سبعة شهور . ذاقت خلالها الأمرين : الجوع والمرض ؛ إلى أن اختار اليهود جانب الهرب . فثلموا جانباً من السور ، وهربوا وعلى رأسهم ملكهم (صديقا) . فأدركهم الكلدانيون في البرية . وألقوا القبض على الملك ربنيه . وأتوا بهم إلى نبوخذ نصر مصفدين بالأغلال . فقتل ابنه على عينه . وفقأ بصره هو (أي صدقيا) وأرسله إلى بابل[1] . وراحت كلمة بابل هي العليا في أورشليم . فنهبها ، ودمر الهيكل الذي بناه سليمان ، ودك أسوارها ، وجلا شعبها إلى بابل . فقتل معظمهم هناك . ومن لم يقتل استعبده . وهكذا انقرضت مملكة يهوذا (٥٨٦ ق .م) . الأمر الذي ذكرناه في موضع آخر من هذا الكتاب .

جاء في أسفار العهد القديم[٢] أن نبوخذ نصر سبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس وجميع الصناع والأقيان . ولم يبق أحد إلا مساكين الشعب . . وارميا النبي فإنه أحسن إليه ولم يصبه بأذى . ذلك لأنه كان قد نصح قومه ألا يثوروا في وجه البابليين . فكذبوه . ولما قصَّ على نبوخذ نصر قصته قال له هذا : «بئس القوم قوم عصوا رسول ربهم» . ثم خلى سبيله .

ويظهر أن الذين استبقاهم نبوخذ نصر في القدس ، ولم ينفهم إلى بابل ، لضعفهم أو فقرهم هربوا إلى مصر . فكتب إلى ملك مصر يطلب إرجاعهم قائلا[٣] :

«إن عبيداً لي هربوا مني إليك . فأرجعهم إليّ ، وإلا غزوتك . وأوطأت بلادك الخيل» . ولما رفض هذا طلبه غزاه فقتله . وسبى أهل مصر ، كما سبى عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد .

فمن هو نبوخذ نصر[٤] هذا؟

---

(١) سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٥ العدد ٦ .

(٢) سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٤ ، العدد ١٤ .

(٣) الطبري ، ج١ ، ص ٣٨٣ .

(٤) هناك من يسميه (نبوخذ رزر) أو (نبوخاد رزار) وفي التوراة (نبوخذ ناصر) . وعلى قول الطبري (ج١ ص ٣٨٢) بختنصر . وهي كلمة بابلية معناها : (ليحمي بنو التاج) أو (دموع القضاء) .

إنه أعظم ملوك الكلدانيين . دام على عرش بابل من ٦٠٤ إلى ٥٦١ ق .م . وقامت بينه وبين فرعون مصر نيخو (اونخاؤس) الثاني عند الفرات معارك دامية (٦٠٤ ق .م) كان النصر فيها حليف البابليين . فتغلبوا على المصريين . وكان نصر البابليين عظيماً بدرجة أن نيخو لم يحاول الاشتباك معهم في حرب مرة أخرى . فتخلى المصريون عن سوريا وفلسطين . ودخلت هذه تحت الحكم البابلي .

ذهب المسعودي(١) إلى أن (بختنصر) الذي فتح بيت المقدس وسبى بني إسرائيل لم يكن ملكاً كما وصفه أهل التواريخ في كتبهم ؛ وإنما كان مرزبان(٢) العراق والمغرب ، وكان تابعاً لملك الفرس (كيخسرو) حفيد كيكاوس ؛ ذلك الملك الذي نال بني إسرائيل منه محن فشتتهم في البلاد وكانت له معهم أقاصيص يطول ذكرها(٣) . فصلب وجلد وأحرق وباع ذراريهم ونساءهم .

قيل إنه قتل في المعركة التي دارت رحاها بين نبوخذ نصر وبين بني إسرائيل أربعة وعشرون ألف نسمة(٤) .

لم تقم لبني إسرائيل قائمة بعد ذلك التاريخ . وقد أشار القرآن(٥) إلى هذا الحادث التاريخي في الآية الكريمة التي جاء فيها : ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد . فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين﴾ .

وأصبحت هذه البلاد من أدناها إلى أقصاها مستعمرة بابلية . إنها كانت تدفع الضرائب لبابل . وقد ازدادت العوامل التجارية والاقتصادية مع بابل . وانتشرت الكتابة المسمارية . وشاعت اللغة البابلية في السياسة والتجارة . وظلت هذه لغة البلاد الرسمية حتى الفتح الفارسي . وأما اللغة التي كانت دارجة بين سكان البلاد فقد كانت الكنعانية .

---

(١) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي مؤلف (مروج الذهب ومعادن الجوهر) المتوفى سنة ٣٤٦هـ .

(٢) أي صاحب جزء من المملكة أو صاحب ناحية من نواحيها وواليها .

(٣) مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٩٢ .

(٤) وفي ذلك جاءت الآية : ﴿وإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾ .

(٥) فضائل بيت المقدس لابن المرجي بن إبراهيم المقدسي . مخطوط ص ٢٢ .

القدس في زمن الفرس

عندما تغلب (كورش)[1] ملك الفرس على البابليين، وأخضع بابل وآشور (٥٣٩ ق. م)؛ سار في فتوحاته قدماً حتى احتل سوريا، ثم جاء إلى القدس فاحتلها (٥٣٨ ق. م). واتسعت إمبراطورية الفرس على عهده من الهند إلى بحر إيجه ومصر. إن القائد الذي تمت هذه الفتوحات على يده هو (غوبرياس). وهو الذي فتح القدس باسم الفرس.

تزوج كورش[2] أخت زربابيل[3] بن شلائيل بن يهوياكين بن يهويا قيم ملك يهوذا الذي ذكرناه في موضع آخر من هذا الكتاب. ولما دخل بها ارتفعت عنده. فقال لها: اطلبي مني ما تشائين. فطلبت منه أن يسمح لبني إسرائيل الذين نفاهم نبوخذ نصر إلى بابل بالعودة إلى أورشليم. فأذن بذلك (٥٣٨ ق. م). على أنه خيّرهم بين الرحيل أو البقاء إذا شاءوا. فآثر[4] فريق منهم البقاء وهم الذين أصابوا نجاحاً في منفاهم، واختار ما يقرب من خمسين ألفاً من الرجال (غير النساء والأطفال) الرحيل.

ويقول البرغوثي وطوطح في كتابهما (تاريخ القدس) في تحليل ذلك أن كورش كان يطمع بافتتاح مصر والمغرب. واعتقد أن حلمه لا يتحقق إلا إذا أرجع اليهود إلى بلادهم، ليتكىء عليهم.

هذا ما ورد ذكره في أكثر كتب التاريخ وهو أن رجوع اليهود من المنفى كان على يد كورش. وأما الطبري[5] فإنه يقول: إن ذلك تم على يد (اخشويرش)[6] بن كيرش

---

(١) قال المسعودي: إنه بهمن بن اسفنديار بن بشتاسب بن لهراسب. وكان الناس يسمونه كورش. تولى الملك عام ٥٥٣ ق. م. ودام فيه تسعة وعشرين عاماً. كان الفرس يحبونه ويلقبونه بأبي الشعب.

(٢) ابن العبري، ص ٨١.

(٣) كلمة عبرية معناها: (غرب عن بابل).

(٤) تاريخ العصور القديمة لبرستد.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٦٥٣.

(٦) ورد هذا الاسم في أسفار العهد القديم (احشويروش). ومن يدري؟ لعله هو نفسه كورش الذي ورد ذكره في الأسطر المتقدمة.

الذي ملك بابل وناحيتها من قبل بهمن ، وإن هذا قاتل الثوار الذين ثاروا على بهمن وتغلب عليهم ، وأنه جمع الأشراف من حوله وأطعم الناس اللحم وأسقاهم الخمر ، وأنه كان يأتمر بأمره مئة وعشرون قائداً ومع كل قائد ألف رجل من الأبطال ، وأنه تزوج امرأة من سبي بني إسرائيل تدعى أشتر(١) .

ولهذا الزواج حكاية نقرأها بالتفصيل في سفر (استير) من أسفار العهد القديم . وهي تتلخص في السطور التالية(٢) :

بينما كان اليهود في بابل أخذوا يفكرون في أنجع الوسائل للتخلص من السبي . ولما كانت إحدى وصايا حكماء صهيون أن يتوسلوا لبلوغ أربهم بجميع الوسائل الممكنة ومنها الجمال ، عملاً بالقاعدة المأثورة «الغاية تبرر الواسطة» فقد لجأ (مرد خاري بن بائير بن شمعي بن قيس) ، وهو أحد الرجال الذين جاءوا من أورشليم مع السبي ، إلى هذه الوسيلة وهي أنه قدّم أستير بنت عمه الجميلة إلى الملك (احشويروش) الذي كان غاضباً على امرأته (وشتي) لأنها رفضت امراً من أوامره . ولما رأى الملك أستير ، وشاهد ما كانت عليه من جمال ؛ وضع تاج الملك على رأسها ، وملكها مكان وشتى . راحت استير وابن عمها مرد خاي يدسان الدسائس ضد هامان وزير الملك الذي أراد أن يبطش باليهود . فبطش الملك به ، وبكثيرين من أتباعه . وهكذا تمكن اليهود ، عن طريق الحيلة والجمال ، من تخفيف ويلات السبي ، ومن رجوع فريق منهم إلى فلسطين . غير أنهم عاشوا فيها كرعايا أذلاء ، لا كحكام مسيطرين . وظلوا كذلك بضعة أجيال .

بعد كورش(٣) اعتلى عرش الفرس (ارتحشتا(٤)) ٥٢٢ ق .م . فأراد هذا أن يحول دون رغبات اليهود ، حتى أنه أمر بإيقاف حركات البناء التي أقاموها في الهيكل . ولكن (داريوس(٥)) خال كورش ، وهو الذي خلف ارتحشتا ، أتاح لهم ذلك (٥١٩ ق .م) .

---

(١) ورد هذا الاسم في أسفار العهد القديم (استير) .

(٢) هيكل سليمان ص ١٤٠ .

(٣) تاريخ القدس الشريف لسركيس ، ص ٢٤ .

(٤) كلمة فارسية أصلها : (ارنخشترا) . ومعناها : (نور ولعنة) .

(٥) كلمة فارسية يلفظها العرب : (دارا) . ومعناها (مانع) .

في عهد داريوس (٥٣١-٤٨٥ ق .م) جزئت الإمبراطورية الفارسية إلى عشرين ولاية . وكان على كل ولاية حاكم يدعى (مرزبان) . وكانت فلسطين إحدى هذه الولايات . وكانت البلاد الواقعة شرقي الأردن وقبرص جزءاً من الولاية الفلسطينية وكان ولاة الفرس وعمالهم يتمتعون بشيء قليل من السلطة .

ومن ملوك الفرس الذين كان لهم شأن في هذه البلاد (ارتاكسر كس[1]) الأول . فقد قامت على عهده عدة ثورات في البلاد . وحارب اليونانيين (٤٦٠ ق .م) والمصريين (٤٥٤ ق . م) .

بعث هذا الملك إلى (عزرا) الذي كان سيم كاهناً في بابل ورجع مع من رجع من اليهود إلى القدس أمراً (٤٥٨ ق . م) أقربه الدين اليهودي . ثم عين (نحاميا) حاكماً على القدس (٤٤٥ ق .م) . وأقام عليها اثني عشر عاماً .

كان نحاميا من أنصار الفرس ومن المقربين إلى الملك . فمنحه هذا سلطة واسعة . وأتاح له بناء ما تهدم من السور . ويظهر أن السور كان يحيط يومئذ بجبل صهيون من الناحية الجنوبية والغربية ، وبجبل موريا حتى شرقي الهيكل . وقد تمت عمارته في اثنين وخمسين يوماً .

ظلت القدس خاضعة لملوك الفرس ، تدفع لهم الضرائب والعوائد ، وتسهل لهم سبل العبور إلى مصر ؛ إلى أن احتلها الفاتح المقدوني الكبير (الإسكندر) ٣٣٢ ق .م .

ونود أن نذكر فيما يلي نبذة عن طريقة حكم الفرس لهذه البلاد :

اشتهر الفرس[2] ، إلى عهد كورش ، بالتقشف والقناعة في معيشتهم . يقتاتون في الغالب الخبز المجرد والماء . وربما أضافوا إلى ذلك شيئاً من البقول وينامون على القاع . ومن عوائدهم أن يتزوج الأخ أخته والأب بنته والابن أمه . وكانوا جهلاء . ولكنهم كانوا في نفس الوقت أقوياء . ولما فتحوا البلاد والأمصار ، وتخلصوا من الآشوريين والبابليين ، واختلطوا بالقبائل الغريبة عنهم ؛ ارتخت عزائمهم ، وتغيرت طبائعهم ، وجنحوا إلى حب الملاهي ورغد العيش .

---

(١) تولى الملك في ٤٦٥ ق .م . والذي رفعه إلى العرش (أرتابان) قاتل أبيه . وقد أدرك بعد مدة وجيزة أهمية الجريمة ؛ فقتله بيده وقتل أولاده معه في قصره . دام ملكة قرابة أربعين عاماً . ومات في ٤٢٥ ق .م .

(٢) مختصر التواريخ القديمة للقس بولس رحماني السرياني . ص ١٦٩ ، (سنة ١٨٧٦) .

كان لهم جيش منظم . وكان هذا مقسماً إلى أقسام .

كان ملوكهم مطلقي الإرادة . ولما جاء دارا قيد سلطة الملوك بمجلس مهمته إسداء المشورة لهم . وأقام على الملك موظفاً لقبه (حامل التاج) ، مهمته إيقاظ الملك في كل صباح . لا ترفع للملك إلا الدعاوي الجسام . وأما الشؤون الأخرى فكان يقضيها قضاة ينتخبون من الشيوخ .

كانت لهم[1] في البدء نقود مسكوكة من معدن الالكتروم[2] . ولما توسع ملكهم ، على عهد دارا ، وأصبحوا أسياد مناجم الذهب في الهند ؛ شرعوا يضربون نقودهم من معدني الذهب والفضة .

إن هذا النقد[3] المنسوب إلى دارا كان مكتوباً وكان مصوراً وكان عليه رسم دارا ممتطياً جواداً وبيديه قوس وسهم .

بحثنا في السطور المتقدمة عن عهد احتلال الفرس الأول لمدينة القدس . وهو الذي جرى قبل الميلاد . ونورد أن نبحث في السطور التالية عن عهد احتلالهم الثاني الذي جرى بعد الميلاد ؛ فنقول :

إنا وإن كنا قرأنا في تاريخ الفرس : إن كسرى الأول الملقب بـ(كسرى انوشروان) والذي تولى عرش الأكاسرة في ٥٣١ بعد الميلاد ، كان من أشهر الملوك الساسانيين بل أشهرهم طراً ، وأنه احتل سوريا وعقد حلفاً مع الرومان لخمسين سنة ، وأعان اليمن على طرد الأحباش ونبذ سلطاتهم من بلاده ؛ ولكنا لا نعلم بالضبط ما إذا كان الفرس قد اهتموا بالقدس على عهده .

ولكنا نعلم بالتأكيد أن حفيده (كسرى الثاني) وهو ابن هرمز الرابع قد صالح الرومان (٥٩١م) وغزا بر الأناضول وسوريا . فاستولى على دمشق (٦١٣م) وعلى القدس (٦١٤م) . ثم سار إلى مصر فاحتلها . ولم يستطع الرومان مقاومته . إذ كانوا مشتغلين باختلافاتهم الداخلية . وإن القائد الذي تمت هذه الفتوحات على يده هو (شهر باراز) . وهو الذي فتح القدس باسم الفرس (٤ ايار سنة ٦١٤ للميلاد) .

هذا ما ذكرته الموسوعة البريطانية . وأما المؤرخون العرب فقالوا إن القائد الذي

---

(١) (تجارة العراق قديماً وحديثاً) لرزق الله غنمة البغدادي ، ص ٢٤ .

(٢) إنه معدن مزيج من الذهب والفضة والنحاس .

(٣) مجلة الآثار (٥-٥ ص ١٩٩) للأستاذ عيسى اسكندر المعلوف .

احتلها كان يدعى (حرزويه) . وقد جاء في (تاريخ القدس الشريف لسركيس ص ١٥٧) أن غزوة القدس هذه تمت سنة ٥٩١ ، يوم أرسل برويز بن كسرى مرزبانه (خسرويه) إلى القدس ؛ فاحتلها ، وخرب كنائسها ، ونهب خزائنها ، وقتل من النصارى خلقاً كثيراً . وسواء كان الفاتح هذا أوذاك ، فإن المعروف عن القدس أنها كانت يومئذ (٦١٤ ب . م) من المدن الكبيرة . كانت التجارة رائجة والصناعة متقدمة إلى درجة أن كان يفد إليها تجار من جميع الجهات : من آسيا الصغرى إلى بلاد فارس ، ومن هذه إلى إفريقيا . وبعد أن كانت تعيش في رغد من العيش ، أرسل كسرى ملك الفرس قائده (شهر باراز)[١] على رأس جيش عرم فافتتحها (في ٢٠ أيار ٦١٤) بعد حصار دام عشرين يوماً . استعمل الفرس أثناء ذلك الحصار جميع الوسائط اللازمة للاستيلاء على المدينة . فأقاموا الأبراج حولها ، ووضعوا عليها المنجنيقات . وفي اليوم العشرين قاموا بهجوم عام فدخلوا المدينة . فهرب الجنود ، واستتر الكثيرون في الخنادق وآبار المياه ، واحتمى المسيحيون بالكنائس والأديرة . أما الفرس فقد أعملوا سيوفهم في كل من عثروا عليه . وذبحوا من المسيحيين سبعين ألفاً . منهم ٢٤٥١٨[٢] دفنوا في ماملا و٩٨٠٩ في حفر السور و٢٠٠٠ أمام أبواب صهيون و٤٢١٩ في دير يوحنا والباقون في السوق الكبير ، والسوق الصغير ، وسوق اللحم ، وبالقرب من باب الضأن ، وعين سلوان ، وعلى درجات كنيسة القيامة ، وعلى جبل الزيتون ، وفي الكنيسة التي بناها جوستانيان .

وقصارى القول دك الفرس عند احتلالهم المدينة أسوارها . وكان معهم يومئذ ستة وعشرون ألف يهودي[٣] انضموا إليهم من طبريا والناصرة والجليل . فلم يكتف اليهود بتحريض الفرس على قتل المسيحيين ، بل راحوا يشتركون معهم في أعمال الهدم والتدمير . فأحرقوا كنيسة القيامة وكنائس هيلانة والجسمانية وقسطنطين والأكرانيون

---

(١) وقيل إن قائد الفرس يومئذ كان (سابور) .

(٢) هناك من يعتقد أن هذا العدد مبالغ فيه كثيراً . ولقد نشر بيترز في الصفحة ٣٨ من المجلد التاسع من مجلة (جامعة القديس يوسف) التي صدرت في بيروت سنة ١٩٢٣ أن عدد الذين دفنوا في ماملا يومئذ أربعة آلاف وستماية وثمانية عشر شخصاً فقط .

(٣) (تاريخ كنيسة القيامة) لثاوفانس شار .

والقبر المقدس . وبالجملة أحرقوا جميع الكنائس والأديار التي وجدوها فيها[١] . كما أحرقوا جميع كنائس فلسطين . ويقدر المؤرخون عدد القتلى من المسيحيين في القدس بتسعين ألف نسمة . جاء في تاريخ القدس لعمر البرغوثي وخليل طوطح أن عددهم ٦٢ ألفاً . ويقول المستر بيرسون أن عدد القتلى من المسيحيين (٢٤٥١٨) بالتمام .

اطلعت في مكتبة دير الروم الأرثوذكس بالقدس على كتاب صدر حديثاً باللغة اليونانية ذكر فيه عدد الذين قتلوا في مدينة القدس يوم احتلها الفرس عام ٦١٤ بعد الميلاد ، وذلك نقلاً عن الراهب (انديوقس ستراتيوس) الذي حضر تلك الموقعة . ويقول هذا الراهب أن عدد المقتولين ٦٧٥٩٤ منهم ٢٤٥١٨ قتلوا عند بركة ماملا و٩٨٠٩ عند الثغرة التي فتحوها في السور وعبروا منها إلى المدينة و٦٩١٧ في المغر والكهوف والبساتين و٤٢١٩ في دير مار يوحنا و٢٨١٨ بجانب بركة سلوان و٢٢٧٠ عند بوابة صيهون و٢٢١٢ في كنيسة قوزمو داميانوس (بالقرب من المكان المعروف بالازبكية الآن) و٢٢١٠ بجانب برج داود و٢١٠٧ عند باب ستنا مريم و١٢٠٩ على جبل الزيتون و١٠٩٨ في ملاجىء العجزة و٩٢١ في سوق القصابين و٩١٢ في معبد السامريين و٦٧٠ في كنيسة السيدة (على مقربة من المسجد الأقصى في الوقت الحاضر) و٤٧٧ في كنيسة القديسة صوفيا و٣٣٨ في كنيسة مار سرابيون و٣١٧ في السوق الكبير و٣٠٨٠ في الزقاق المؤدي إلى مار يعقوب و٣٠٠ عند درج القيامة و٢١٢ في دير البنات تجاه خان الأقباط و٢٠٢ في السوق الصغير و١٩٦ إلى الغرب من تل صهيون و٨٠ تجاه الجلجلة و٢٨ في ساحة الولاية و٧ في كنيسة الخضر و٣٢٣٩ في اتجاهات مختلفة أخرى من المدينة .

وقيل إن أجساد القتلى جمعت يومئذ وألقيت في بركة ماملا .

بعد احتلال القدس انصرف الفرس آخذين معهم البطريك زخريا أسيراً . وهو البطريرك الثاني عشر من البطاركة الذين اعتلوا الكرسي الأورشليمي . وقد مات في السبي . كما أخذوا عود الصليب الذي كانت الملكة هيلانة تركته في موضعه . وعلى قول إن (مريم بن موريق الملك) استوهبت عود الصليب والبطريك ، وأناساً آخرين ممن سبوا ، فوهبها ما تريد .

ولما تولى الإمبراطور هرقل عرش القياصرة البيزنطيين (٦١٠م) نزل إلى الميدان

(١) يقول ناوفانس شار إنه كان في القدس يومئذ نحو ثلاثمائة كنيسة ودير .

ليحد من شوكة كسرى الثاني . وفي ٦٢٧م تغلب عليه وكسر جيشه في نينوى . فهرب كسرى . وبعد أربعة أيام اغتيل (٦٢٨م) من قبل شعبه ، لأنه كان مستبداً . وفي ١٤ سبتمبر سنة ٦٢٩م أعيد الصليب إلى هرقل . فسادت كلمة الروم في مصر والشام . وأفل نجم الفرس .

ولقد أشار الشاعر العربي إلى أفول نجم الفرس في قصيدة جاء فيها :

أين كسرى خير الملوك أنو شر
وان أم أين قبله سابور
لم يهبه ريب المنون فولى الـ
ملك عنه فبابه مهجور
حين ولوا كأنهم ورق جف
فألوت به الصبا والدبور

وقد غزا الفرس مدينة القدس[1] ، للمرة الثالثة . . على عهد الدولة الفاطمية ، وكان ذلك حوالي سنة ١٠٧٧ م . يوم أرسل شاه العجم قائداً من قادة جيشه إلى الولايات السورية . فاكتفى هذا بنهبها ، ثم ارتد . الأمر الذي سنذكره في موضعه إن شاء الله .

(١) سركيس ، ص ١٦٩ .

القدس في عهد اليونان

احتل الفاتح المقدوني الكبير (الإسكندر[1]) القدس عام ٣٣٢ ق .م[2] . أخذها من الفرس بعد أن قضى على إمبراطوريتهم المترامية الأطراف . وكان ملك الفرس يومئذ دارا .

---

(١) إنه إسكندر الثالث بن فيليب الثاني ملك مقدونيا واوليمبيا . ولد عام ٣٥٦ ق .م . وتعلم على يد الفيلسوف اليوناني المشهور اريسطوطاليس . وقد دخل الحرب لأول مرة عام ٣٣٨ ق . م . عندما قاد جيشاً أرسله أبوه لمكافحة الثوار في الجبال . وكان يومئذ في السادسة عشرة من عمره . جاء في تفسير القرطبي أنه (ذو القرنين) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم . أقرأ سورة الكهف : ﴿ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا . قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا . فما استطاعوا أن يظهروه ومااستطاعوا له نقبا . قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقا﴾ .

قال ابن اسحق نقلاً عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان الكلاعي إن رسول الله ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال : «ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب» .

وفي حديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذي القرنين : «إن أول أمره كان غلاماً من الروم ، فأعطي ملكا ، فسار حتى أتى أرض مصر ، فابتنى فيها مدينة يقال لها الإسكندرية . .»

وأما سبب تسميته (بذي القرنين) فقيل : إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما . وقيل : إنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس فقص ذلك ، ففسر أنه سيغلب ما ذرت عليه الشمس ، فسمي بذلك ذا القرنين . وقيل : لأنه ملك فارس والروم . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً . وقيل : إنما سمي ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أمه وابيه . وهذا هو الأرجح .

وأما كلمة (اسكندر) فإنها يونانية . معناها : (المعين) و(المدافع) .

(٢) هذا ما ذهب إليه أكثر المؤرخين . وقال آخرون ومنهم المستر بيرسون ، ٣٣٤ ق .م .

ترى كم كان عدد جيشه ، ومن أين أتى القدس ، وكيف احتلها ، وهل فتحها عنوة أم دخلها صلحاً؟ وإذا كان قد دخلها صلحاً فكيف تيسر له ذلك؟ هذه أسئلة نرى في تحليلها والإجابة عليها مصلحة وفائدة . فنقول :

كان مع الإسكندر[١] أثناء دخوله القدس أربعون طبلخانة[٢] القصد منها إرهاب العدو في ساحة الحرب . ويقدر بعض المؤرخين هذه القوة بأربعين ألفاً .

جاء في كتاب (تاريخ القدس وفلسطين) لطوطح وشحادة أن الإسكندر التقى بشيوخ بني إسرائيل وكهنتهم على جبل سكوبس[٣] ، إلى الشمال من مدينة القدس . وهذا هو الواقع . وأما يوسيفوس المؤرخ اليهودي ، فيقول[٤] :

«ولما سمع اليهود باقتراب الإسكندر وجيشه هرعوا لاستقباله خارج المدينة . هرعوا كلهم حتى لم يبق منهم فيها أحد من السكان ، ولما وصلوا إلى مكان يسمى (صفا[٥]) التقوا بالإسكندر . وصفا هذه كلمة يونانية معناها الرجاء أو الأمل . ومنها يتمكن القادم من رؤية القدس وهيكلها معاً .

وأما الفتح نفسه فقد تم صلحاً . فلم تقطر من أجله نقطة دم . وإذا أردت أن تعرف السبب في ذلك فاستمع إلى القصة الآتية نقصها عليك بوجه الاختصار منقولة عن يوسيفوس نفسه ، ذلك المؤرخ اليهودي الذي عرف نفسية قومه أكثر من غيره المؤرخين . قال[٦] :

كان الفرس ، على عهد ملكهم دارا ، قد أقاموا على السامرة حاكماً يديرها

---

(١) (كتاب السياسة) لأرسطو .

(٢) بيت الطبل ، ويشتمل على طبول متعددة . معها أبواق وزمارات .

(٣) كلمة يونانية . معناها : «الهدف» و«الاشراف» .

(٤) راجع الفصل الثامن من الكتاب الحادي عشر . الصفحة ٣٢٤ .

(٥) يقول المؤرخ الانجليزي المعروف ويليام في كتابه (Holy City) ، ج١ ، ص ٦٩ أن صفا Sapha هذه هي بيت صفافا الكائنة قبلي القدس . وأن اليهود التقوا بالإسكندر عندها يوم جاء من غزة إلى القدس بقصد تخريبها ، وأنهم استقبلوه لابسين ثياباً بيضاء ، وتضرعوا إليه أن لا يؤذيهم . فقبل تضرعهم ولم يؤذهم ولم يؤذها .

(٦) "The Antiquities of the jews" by Flavius Josephus, translated by william whistion, printed in London & New York, Book XI' Chap. VIII, pp. 323-325.

باسمهم . وكان هذا الحاكم يدعى (سنبلاط) . وله بنت تزوجها (منسه) أخو (جدوع[١]) كاهن اليهود الأعظم بالقدس . وكان اليهود غير راضين عن منسه هذا لاقترانه باجنبية . وكذلك كان إخوة جدوع . لا ، بل كان هذا أشد كرهاً لأخيه بسبب أنه كان يرمي لأن تكون وظيفة الكهنوت في يده . ولطالما تشاجرا من أجل ذلك . فذهب وفد من اليهود إلى منسه بتحريض من أخيه جدوع ، وطلبوا إليه أن يطلق إمرأته ، أو أن لا يقترب من منبر الوعظ . فأصر منسه على الاحتفاظ بامرأته . وراح الفريقان يدسان الدسائس لبعضهما البعض ويجمعان الأنصار . وأراد سنبلاط نسيب منسه ، أن يرشي خصوم صهره بالمال . ولكن دون جدوى . وكان هذا يعلل نفسه باقتراب جيش دارا ليتكئ عليه في تحقيق آماله . ولكن آماله لم تتحقق . إذ إن الحروب التي دارت رحاها بين دارا والإسكندر كانت عاقبتها وبالاً على الفرس . فتمكن الإسكندر من قهرهم . وراح يفتتح المدن والأمصار التي كانت بيدهم . فاحتل دمشق وصيدا . ثم راح يحاصر مدينة صور . وفيما كان يحاصرها أرسل رسله إلى الحاخام الأكبر بالقدس ، طالباً منه أن يمده بعدد من المتطوعين ، وأن يكون على صلات حسنة مع المكدونيين ، كما كان قبل ذلك مع الفرس . ولما لم يأته جواب يرضيه استشاط الإسكندر غضباً . وكانت صور قد سقطت في يده . فولى وجهه نحو القدس . وأقسم أن لا يهنأ له بال حتى يدخلها ويوقف رئيس الكهنة عند حده ، فيجعله عبرة لمن اعتبر» .

عندئذ رأى سنبلاط الفرصة سانحة ، فانتهزها . وقلب لدارا ظهر المجن . فأخذ معه سبعة آلاف رجل من أتباعه ، وجاء إلى الإسكندر وهو منهمك في حصار غزة[٢] فقال له : إنه وقومه يؤثرون الدخول تحت رايته على البقاء في حكم دارا . وقد حدثه سنبلاط بما كان يدور في خلده في ذلك الحين عن صهره منسه وعن أخيه الكاهن الأعظم جدوع . وأكد له أنه من مصلحة الملك أن تكون قوى اليهود منشطرة إلى شطرين ، كي لا يتفقوا ويتحدوا . وإلا فإنهم يكونون مصدر شغب وتعب لملوك اليونان كما كانوا في السابق مصدر شغب وتعب لملوك آشور» .

---

(١) وفي قول آخر إن اسم الكاهن الأعظم يدوع وليس بجدوع . انظر إلى الجزء الثاني من المجلد الثالث من (تاريخ سورية) للمطران يوسف الدبس . ص ٦٤ . طبع بيروت ١٨٩٨ .

(٢) انظر إلى ما كتبناه عن هذا الحصار في كتابنا : (تاريخ غزة) .

في هذه الأثناء كان الإسكندر قد نجح في احتلال غزة وأمّ القدس قاصداً تدميرها .

ولما سمع اليهود باقتراب الإسكندر وجيشه من المدينة هرعوا لاستقباله في ظاهرها . هرعوا كلهم حتى لم يبق في المدينة أحد من السكان . ولما مثلوا بين يديه في مدخل المدينة ، قابله الكهنة والشيوخ بحلل بيضاء ، وراحوا يتضرعون إليه طالبين العفو .

كان الفينيقيون والمقدونيون المنخرطون في جيش الإسكندر يؤملون أن يسمح لهم قائدهم نهب المدينة ، وقتل الكهنة وتدمير الهيكل . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . إذ صاح اليهود بصوت واحد مرحبين بمقدم الإسكندر . وأراه الكاهن سفر دانيال من أسفار التوراة وقد جاء فيه «أن أحد اليونان سيتغلب على الفرس وسيقوض عرش الاكاسرة» .

من هذا نرى أن فتح القدس قد تم صلحاً . وكان عدد سكانها يومئذ مئة وعشرين ألفاً . ويقول يوسيفوس بعد إيراد قصة الفتح بالشكل المتقدم ، أن الإسكندر طلب من الكاهن الأعظم أن يعلمه عما يبتغي . فقال له هذا إنه لا يبتغي شيئاً سوى أن يتاح له العمل بقوانين أجداده ، وأن لا يدفع الجزية في السنة السابعة . فمنحه الإسكندر ما يشاء . وقد طلب منه ومن باقي أفراد الشعب اليهودي أن ينخرطوا في جيشه ، وأن يرافقوه في حروبه . فتطوع عدد منهم لهذه الغاية .

ليس هذا فحسب . بل قيل(١) إن الإسكندر سأل رئيس الكهنة قائلاً : «إنني ذاهب لمحاربة دارا وقومه الفرس . فهل ذلك بإرادة الله أم لا ، فأرجع إلى بلادي . فقال له رئيس الكهنة : «اذهب أيها الملك العظيم ، فإن الله معك(٢)» .

منح الإسكندر اليهود الحرية . وسمح لهم بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . وأعفاهم من دفع الجزية مرة في كل سبع سنين . وقد سكوا على عهده نقوداً نقشوا عليها : أورشليم المقدسة . خلاص صهيون . عصا هارون . إناء على شكل كوب بدون

---

(١) تاريخ القدس الشريف لسركيس ، ص ٢٩ و٣٢ .

(٢) تذكر أيها القارىء الكريم أن دارا الذي يحرضه على محاربته هو الذي أنقذ اليهود وقومه من النفي ، وهو الذي أرجعهم إلى أورشليم وحماهم وأتاح لهم بناء الهيكل؟ . . ولله في خلقة شؤون .

مقبض . وقد نقش عليها من الخلف باللغة العبرية : شاقل إسرائيل[١] . نصف شاقل . ربع شاقل .

عندما مات الإسكندر (٣٢٣ق .م) اقتسم ملكه قواده الأربعة ، يهمنا منهم اثنان :

(أ) (سلوقس) حاكم سورية .

(ب) (بطليموس) حاكم مصر .

وكانت القدس من نصيب بطليموس[٢] .

حكم بطليموس اليهود رغم أنوفهم . أرادوا مقاومته ، إلا أنهم لم يفلحوا . إذ شخص إليهم بجيشه . وحاصر القدس . فامتنعت عليه في بادئ الأمر . ثم علم أن اليهود يحترمون السبت ، ولا يأتون بعمل فيه ؛ فهاجم المدينة في يوم سبت . وقعد اليهود عن الدفاع . فافتتح المدينة ، ودك قسماً من حصونها ، وعامل أهلها كما عامل اليهود في سائر أنحاء البلاد معاملة قاسية . وأخذ منهم أكثر من مئة ألف أسير إلى مصر . ثم عاد فلان في معاملتهم واستخدم فريقاً منهم في أعمال الحراسة .

ولم يتدخل في عاداتهم وتقاليدهم . غير أنه أثقل كاهلهم بالضرائب . ومما هوجدير بالذكر أن بطليموس انتدب رجلاً يهودياً يدعى (يوسف بن طوبياس[٣] مديراً للمال ورئيساً للجباة في سوريا والبلاد الفينيقية . وخوله - بناء على طلبه - سلطة واسعة ، وأرفقه بألفي جندي مستأجر لهذه الغاية ، ليتمكن من تحصيل الضرائب بالقوة عند اللزوم . فأصبح مدير المال هذا هو الحاكم الفعلي المسيطر على جميع بلاد فلسطين . وظل الناس كذلك مدة ذاقوا خلالها مر العيش . إذ إنه جمع الضرائب بالقوة من جميع البلاد دون أن يجد أية مقاومة تذكر .

ولقد وردت حكاية الضرائب هذه في بعض الكتب الأخرى على غير هذا الوجه . فقال المطران يوسف الدبس في كتابه (تاريخ سورية) الجزء الثاني ، المجلد

---

(١) الشاقل عشرون جبيره ويساوي حوالي ١٥ جراماً .

(٢) قال الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف أن (بطليموس) كلمة يونانية معناها : (العكاوي) نسبة إلى (بطولمايوس) اسم عكا اليوناني . ومن الخطأ القول (بطلميوس) كما يفعل الكثيرون . وتجمع على بطالمة وبطالسة .

(٣) (تاريخ غزة) للمؤلف .

الثالث ، الصفحة ١٢٣ ، نقلاً عن (تاريخ اليهود) ليوسيفوس ك ١٢ فصل ٣ و٤ ما يأتي :

«إن اونيا رئيس أحبار اليهود تقاعد عن دفع الجزية المعتاد دفعها كل سنة لبطليموس ، وقدرها عشرون وزنة[١] . أرسل بطليموس اتينيون أحد عماله إلى أورشليم ، ليرغم أهلها على الدفع ، وهددهم بالطر . فعظم القلق في أورشليم . وأوفدوا يوسف ابن أخي اونيا الحبر . وكان هذا قد اشتهر بذكائه . فبرأ ساحة عمه . ثم طرحت ضرائب سورية واليهودية والسامرة في المزاد . فالتزمها يوسف بستة عشر ألف وزنة أي ضعفي البديل المعروض . فأقطعه الملك تلك الأعمال عشر سنين . فقام بما فرض عليه .»

ويظهر أن السلوقيين ، حفدة الإسكندر في سورية ، عادوا فتغلبوا على البطالسة . وصارت القدس من أملاكهم . ومن حكامهم الذين كان لهم شأن في إدارتها انطوخس الرابع ويعرف بـ(انطيوخوس ابيفانوس[٢]) . فقد احتلها سنة ١٦٨ ق .م[٣] وهدم أسوارها ودك حصونها ونهب هيكلها . ثم ضربه . وقتل من اليهود ثمانين ألفاً في ثلاثة أيام لا فرق بين الشاب والشيخ أو بين المرأة والطفل وأتى بجند من اليونان لحمايتها ضد غارات الأعداء . وبنى لهم فيها حصناً . بناء بشكل يمكنه من الإشراف على التل الشرقي وعلى المدينة القديمة . وقد وسع القسم السفلي للمدينة ، وكان هذا داخلاً في مدينة داود . وحصنه ، فجعله قشلاقاً للجيش السوري ، أقام فيه اليهود الجاحدين (المرتدين) . وقصارى القول عامل أنطيوخوس اليهود شر معاملة فذبح على مذبحهم الخنازير ، ونصب فوقه التماثيل .

وكان دليله في أكثر أعماله منلاوس[٤] رئيس الأحبار اليهود الذي خان قومه وحصل على مركزه بواسطة الخيانة والنفاق .

---

(١) كناية عن مئة وعشرة الآف فرنك .

(٢) (انطيوخوس) كلمة يونانية . معناها : (المصادم) . ويجوز لفظها : (انتيوخوس) . و(ابيقانوس) أيضاً كلمة يونانية . معناها : (الظاهر) .

(٣) يقول المستر بيرسون ١٧٨ ق . م .

(٤) تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس . ج٢ ، ص ١٦٦ .

ومما ذكره ابن العبري[1] عن أعمال انطيوخوس: «إنه نصب في مكان الهيكل صنم زاوس وهو المشتري، وألزم كاهن اليهود أن يضحي لهذا الصنم الأضحية. ولأنه أبى، عاقبه بالموت. ثم قيل له إن امرأة اسمها (اشموني) مع سبعة من بنيها قد سبوا الأصنام. فأحضرهم بين يديه، وأماتهم شر ميتة. ودفنوا في أورشليم».

ليس هذا فحسب. بل حرم[2] عليهم القيام بشعائرهم الدينية. فأحرق كتبهم، وحظر عليهم الختان، وأرغمهم على انتهاك حرمة السبت، وأكل الخنزير. وأهلك منهم خلقاً كثيراً. وسبى النساء والأطفال. ومن نجا من الموت هرب من المدينة.

إن العامل الذي كان في القدس في ذلك الحين (١٦٧ق.م) والذي قام بتنفيذ سياسة مولاه حرفاً بحرف هو (ابولينياس[3]). كان هذا رئيساً للجزية. وكان يعمل تحت إمرته اثنان وعشرون الفاً من الجند. وكانت عاقبة هذه السياسة أن قامت في القدس الثورة المعروفة بثورة المكابيين. تلك الثورة التي ضعضعت حكم اليونان (١٦٥ ق.م). وقد فصلناها تفصيلاً في غير هذا المكان.

بعد وفاة انطيوخوس الرابع تولى الملك ابنه انطيوخوس الخامس ولقب (اوباتور) أي الشريف أباً. ودام في الملك سنتين (١٦٤-١٦٢ ق.م). ولما كان صغير السن تولى الأمر (ليسياس)، الوصي على العرش، الذي نصبه أبوه قبل موته. فسالم هذا سكان البلاد. وسمح لليهود[4] بمباشرة فروضهم الدينية، على شرط أن يخلصوا للدولة والملك. هذا كان في بادئ الأمر، ولكن ليسياس لم يكن مخلصاً في تصرفه. بل، كان ينتظر اليوم الذي يستطيع فيه أن ينفذ وصية انطيوخوس ابيفانوس، فيبيد اليهود[5] من الوجود. وراح يؤيد الحزب المناوئ للمكابيين الذي يرأسه رئيس الكهنة منلاوس. لا، ولا كان يهوذا المكابي بمرتاح لهذه الهدنة. وكان يتوقع من ورائها شراً.

ولقد حرض الوصي على العشر سكان يافا فتآمر هؤلاء على اليهود، ووعدوهم أن يركبوا هم ونساؤهم وأولادهم قوارب أعدوها لهم. ولما أمعنوا في البحر أغرقوهم. وقامت بين المكابيين والعرب على أثر ذلك وقائع كثيرة. وانتشرت هذه فشملت

---

(١) ص ١٠١.

(٢) تاريخ (شرق الأردن وقبائلها)، لبيك باشا. ص٤١.

(٣) جاء ذكره في بعض الكتب (ابو للينوس) و(ابو لونيوس).

(٤) سفر المكابيين الثاني - فصل ١١ عدد ١٣.

اليونان واليهود، فراحوا مرة أخرى يتحاربون. وحاصر جيش انطيوخوس الخامس أورشليم. وكان هذا مؤلفاً من مئة ألف من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان[1]. حاصرها أياماً طويلة وأذاقها مر العذاب. وأمر الملك بهدم السور، فهدم (١٦٣ ق.م). وكاد يفتك باليهود لولا أنه اضطر للرجوع إلى أنطاكية بسبب الثورة التي نشبت في سوريا، والتي انتهت بانتصار خصمه ديمتريوس الأول الملقب بـ(سويتر[2]). فرفع الحصار وتنفست أورشليم الصعداء.

أقام الملك ديمتريوس على رأس الإدارة في أورشليم (بكيديس[3]). وقلد (الكيمس[4]) رياسة الأحبار. ووضع تحت تصرف الاثنين جيشاً كبيراً ليحكما به البلاد. أراد بكيديس، في بادى الأمر، أن يجنح إلى السلم. ولكنه عاد فجنح للبطش، عندما أيقن أن اليهود قوم مشاغبون. وأن سياسة السلم واللين لا تجدي معهم. فقبض على ستين رجلاً منهم، وقتلهم في يوم واحد. ثم قبض على كثيرين آخرين وذبحهم[5]. وقامت بعد ذلك وقائع كثيرة بين اليهود أنفسهم: (أنصار الكيمس من ناحية والمكابيين من الناحية الأخرى) سالت فيها دماء كثيرة.

ثم استبدل الوالي بكيديس بوالٍ غيره يدعى (نكانور). فهبط هذا أورشليم. وكان معه جيش كبير. فأراد هذا أيضاً، بادئ ذي بدئ، أن يجنح إلى السلم. ولكن موقفه هذا لم يعجب رئيس الأحبار الذي راح يشيء به إلى الملك. فأمره الملك بإلقاء القبض على رئيس المكابيين وإرساله إليه. فقامت بين الفريقين حرب من جديد. وسالت فيها دماء. وقتل نكانور. وخشي المكابيون أن يبطش بهم ديمتريوس، فأرسلوا رسولين من رجالهم إلى روما. وعقدوا مع الرومان حلفاً (١٦١ ق.م) الغاية منه اتقاء

---

(٤) (تاريخ سورية) للمطران يوسف الدبس، ج٢، ص ١٩٢.

(١) (تاريخ شرق الأردن وقبائلها)، لبيك باشا. ص ٤٢.

(٢) أي المخلص أو المنقذ.

(٣) أحد امناء الملك، وكان قبل ذلك والياً عبر الفرات.

(٤) يهودي من بني هارون الذين لا تحق لهم الرياسة. كان اسمه (يواقيم) ثم استبدله بـ(الكيمس) تشبهاً بالأسماء اليونانية وتزلفاً إلى الحكام اليونان. فاختاره الملك لرياسة الأحبار. وقد حرض الملك ضد المكابيين. وكان السبب فيما جرى بعدئذ من حروب (يوسيفوس ك ١٢ فصل ٩).

(٥) (تاريخ سورية) للمطران يوسف الدبس، ص ٢٠٢.

شر اليونان .

بعد مقتل نكانور عاد الملك ديمتريوس فأرسل إلى أورشليم الوالي السابق بكيديس ورئيس الأحبار الكيمس ، وأرفقهما بجيش كبير ، نزلا به أورشليم . وقامت بين اليونان والمكابيين حروب جديدة ، قتل فيها يهوذا المكابي (١٦٠ ق .م) . وألقى الوالي بكيديس القبض على أبناء الزعماء وجعلهم رهائن ، وزجهم في قلعة أورشليم . ثم أرسلهم إلى روما . عندئذ هدأ اليهود . وجنحوا إلى السلم . فاصطلح الفريقان . واستتب الهدوء إلى حين . وكانت (انطاكية) يومئذ العاصمة التي يرجع إليها مندوب الملك الذي يقيم فيها في مختلف الشؤون .

ثم جرى قتال من أجل الحكم بين الملك ديمتريوس ومنافسه (إسكندر بن انطيوخوس ابيفانوس) . كان النصر فيها حليف الإسكندر (١٥٠ق .م) . فاستغل اليهود هذا التنافس . وراحوا يعرضون خدماتهم على من يؤمن لهم مصالحهم . أما الاسكندر فقد اعترف بيوناثان الذي قاد المكابيين بعد مقتل أخيه يهوذا ، رئيساً للأحبار . وأما ديمتريوس فقد وعد سكان أورشليم بالوعود التالية[١] .

وعدهم[٢] بأن يعفيهم من الجزية ، ومن مكس الملح (الذي كان مفروضاً على ما ينفق منه أو يباع) ، ومن ضريبة الأكاليل (كان مفروضاً على كل واحد من الرعية أن يدفع حصة معينة من ثمن الأكليل الذي يقدمه للملك) . ووعدهم أن يترك لهم ثلث الزرع (قيل إن المقصود من ذلك البذر ، فمن بذر مثلاً اثني عشر مداً لزمه أن يدفع للملك أربعة أمداد من الحبوب) . وأعفاهم أيضاً من دفع نصف آتاء الشجر (أي ثمارها) . ووعدهم بإعفائهم من العشور والضرائب ، ومن أتاوة المواشي .

هذا فيما يتعلق بالضرائب والمكوس .

ثم وعدهم بأن تكون أورشليم مقدسة وحرة هي وتخومها ، وأن يطلق سراح المعتقلين ، ويعفو عن المجرمين ، وأن لا يثقل عليهم في أي أمر كان . وقبل أن يكتتب في جيش الملك ثلاثون ألف رجل منهم ، وأن يدخل خدمات الدولة من شاء منهم . ووهبهم واردات عكا وما يتبعها ، لينفقوها في سبيل معابدهم ، على أن يزيد عليها

---

(١) أتينا على ذكرها خصيصاً لان فيها ما يدلنا علي طبيعة اليهود من ناحية وعلى نوع الضرائب والرسوم التي كانت تفرض على سكان أورشليم في ذلك العصر من الناحية الأخرى .

(٢) (تاريخ سورية) للمطران الدبس . الجزء الثاني . المجلد الثالث . ص ٢١٠ .

كل سنة خمسة عشر ألف مثقال من الفضة ، تعطى لهم من دخل الملك الخاص وما يفيض من مال الحكومة . ويدفع الملك من جيشه الخاص جميع النفقات اللازمة لبناء الأسوار وأعمال التجديد والترميم .

ولكن كفة الإسكندر كانت هي الراجحة .

إنك ترى مما تقدم أن القدس كانت خلال القرن الثاني قبل الميلاد ، كريشة في مهب الريح . لا تعلم أين ، ولا متى تستقر؟ يخطفها القوي من الضعيف . فلا تكاد تخضع لسورية يوماً أو بعض يوم حتى تمسي وإذا هي في أحضان مصر . تارة مع السلوقيين وطورا مع البطالسة .

وفي خلال هذا التنافس كان المكابيون يظهرون على مسرح الوجود تارة ، وأخرى يختفون . ولكنهم كانوا في أغلب الأحيان يختلفون ويدسون الدسائس لبعضهم البعض . فتضعضعوا . وفي سنة ٧٠ ق . م . أخذ اريسطوبولس المكابي التاج عنوة من أخيه هركانوس الثاني . فقامت بين الأخوين حرب أهلية . وراح كل منهما يستنجد بدولة أجنبية من الدول المجاورة له ليتغلب على أخيه . فاستنجد هركانوس(١) بالحارث ملك العرب . فأنجده هذا وأمده بجيش قوامه خمسون ألف مقاتل ، وتغلب على اريسطوبولس(٢) وجيشه ، وحاصر القدس ، وكاد أن يحتلها ، لولا أن جيش روما الذي كان استنجد به اريسطوبولس والذي جاء يقوده (بومبي) كان أكثر عدداً . فكان النصر حليفه . ودخل بومبي القدس ظافراً (٦٣ ق .م) . وبهذا الفتح تم القضاء لا على الحكم اليوناني فحسب ، بل وعلى الغطرسة المكابية أيضاً . وما كان بومبي لينجح في هذه المهمة ، لولا أن البلاد كانت منقسمة على نفسها ، وأن الفوضى كانت تجتاحها من أدناها إلى أقصاها .

قبل أن نختم هذا الفصل ، نرى لزاماً علينا أن نقول كلمة في الطابع الذي تركه

---

(١) (التاريخ القديم) ص ٣٤٦ .

(٢) قال المستر كاست أن الطبقة المتدينة من اليهود كانت تعضد اريسطوبولس في خطته . وأن هذه الطبقة كانت ترمي إلى التغلب على اعوان هوكانوس وإلى دفع عادية العرب . وأما المطران الدبس فقد ذكره في كتابه (تاريخ اليهود) ليوسيفوس كتاب ١٣ فصل ٢٤ وكتاب ١٤ فصل ٤١ قال : «أتى جم غفير من اليهود يسألون بومبي أن يريحهم من ولاية كليهما . لأنه لم يكن من عاداتهم أن ينولاهم ملوك بل أن يسوسهم رئيس كهنة ويقضي بينهم بحسب سنتهم» .

عصر اليونان في هذه البلاد ، والآثار القديمة التي وجدت فيها ، ولها صلة بذلك العصر .

أما مميزات عصر اليونان في هذه البلاد فهي :

(أ) ظهور العنصر اليوناني وانتشاره في جميع البلاد بكثرة تلفت الأنظار . حتى أنهم امتزجوا بسكان البلاد الأصليين ، وناسبوهم .

(ب) انتشار اللغة اليونانية انتشاراً أصبحت معه لغة البلاد الرسمية ، ولغة العلم والمدارس . وأما اللغة التي كان يستعملها أهل البلاد الأصليين فقد كانت يومئذ اللغة الآرامية . وقد ظلت الحال كذلك حتى خراب القدس الأول على يد تيطس وخرابها الثاني على يد أدريان .

(ج) اقتباس أهل البلاد الصناعات اليونانية ، ولا سيما صناعة الفسيفساء التي انتشرت بكثرة في الأبنية ، سواء أكانت هذه في المدن أم في القرى .

(د) انتشار الحضارة اليونانية والثقافة . فقد أسس اليونان المدارس ، وبذلوا ما في وسعهم لينشروا عن هذه الطريقة آدابهم وأفكارهم ومبادئهم وتقاليدهم ، حتى ومعتقداتهم الدينية .

(هـ) انتشار النقود اليونانية(١) ، وكانت على عهد الإسكندر بديعة السك والنقش كنقودنا الحالية وإن كانت من النحاس(٢) . وقد نقشت عليها رموز مختلفة للآلهة والألعاب الأولمبية ، كما نقشت عليها صور الملوك والقواد .

(و) انتشار التجارة اليونانية . فقد أنشأوا المصارف (البنوك) واتخذوا السفاتج (البوالس) فاقتبس ذلك عنهم أهل البلاد .

---

(١) (مجلة الآثار) لصاحبها الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ٥٠ -٩ ص ٤٦٢ .

(٢) بقيت النقود اليونانية التي سكها الإسكندر على هذا الشكل في عهد خلفائه . وظلت كذلك حتى أوائل العهد المسيحي .

القدس في عهد الرومان
(قبل المسيح)

قلنا في آخر فصل اليونان إن المكابيين الذين سيطروا على مقدرات القدس زمناً، راحوا يدسون الدسائس لبعضهم البعض، فتضعضعوا؛ وإن اريسطوبولس المكابي أخذ التاج عنوة (٧٠ ق.م) من أخيه هير كانوس الثاني؛ وأنه قامت بين الأخوين حرب أهلية كان من نتائجها أن تدخلت روما في الأمر. فجاء (بومبي)[١] - وكان يومئذ في سورية يقضي على ما تبقى من الدولة السلوقية - وحاصرها (٦٣ق.م). قيل إنه جاءها عن طريق أريحا، وأنه هاجمها من الناحية الشمالية للهيكل.

دام الحصار ثلاثة شهور[٢]، ضربت القدس خلالها بالمنجنيقات. وقال يوسيفوس أنه كان هناك جسر يربط منطقة الهيكل بحارة صهيون، فهدمه بومبي[٣] وظل يضرب المدينة حتى أحدث ثقوباً في أسوارها، وتمكن من احتلالها.

عندما تم للرومان ما أرادوا، راحوا إلى الهيكل؛ فدخلوه، واستباحوا حماه، وأعملوا في سكانه السيف بلا شفقة ولا رحمة. وراح بومبي يتوغل في ردهاته ومخادعه، إلى أن توصل إلى قدس الأقداس، الأمر الذي يعتبره اليهود تدنيساً لهيكلهم. وزاد في طين اليهود بلة أن ذلك كله جرى في يوم سبت.

ولما تم احتلال المدينة واستتب الأمن وعادت المياه إلى مجاريها؛ غادرها بومبي، بعد أن أقام حاكماً عاماً عليها (اسكارس[٤]). وخوله أن يحكم باسم روما جميع البلاد السورية من الفرات إلى تخوم مصر. حكم هذا المدينة بشدة: فألغى المجمع العام، وهدم الأسوار، وقضى على حرية الشعب اليهودي قضاء تاماً. ففرض عليهم أن يقدموا عند هيكلهم في كل يوم ذبيحة تكريماً لقيصر ولروما. ذلك رمز الولاء والخضوع. وكان اليهود يفعلون ذلك مكرهين.

والأنكى من ذلك كله أنه أسر اريسطوبولس الذي استنجد به. أسره هو

---

(١) إن اسمه الحقيقي عند الرومان (كنايوس بومبيوس).

(٢) التاريخ القديم، ص ٣٤٦.

(٣) Valentine, p. 33

(٤) أو (اسكورس) وهو الذي تولى قيادة جيش الاحتلال.

وأولاده . وأرسلهم إلى روما مصفدين بالأغلال ، ليشهدوا استعراض جيشه ؛ ذلك الاستعراض الذي أقامه احتفاء بالنصر .

عندما قضى بومبي نحبه في روما ، واستولى على العرش (يوليوس قيصر[١]) ٤٩ ق .م . تنفس اليهود الصعداء . ذلك لأن يوليوس كان معروفاً بميله إليهم . فولى (انتيباتر[٢]) الحكم ، وجعله كوال (Procurator) منتدباً من قبل روما لإدارة البلاد (٤٦ ق .م) . وأقام من تحته (هركانوس) الحشموني حاكماً على القدس . ولكن النفوذ المكابي القديم كان قد ضعف ، وسلطة الحشمونيين كانت قد تضاءلت حيال سلطة (انتيباتر) الآدومي .

ولما مات انتيباتر تسلم زمام الإدارة في القدس ابنه (فصايل) . وكان أخوه هيرودس زاليا في الجليل . فراح الحشمونيون بقيادة هيركانوس ، والآدوميون بقيادة فصايل يقتتلون في شوارع القدس . فكانت الغلبة ، في بادئ الأمر ، للحشمونيين . وهرب هيرودس إلى روما . وكان يوليوس قيصر قد مات .

تمكن (هيرودس)[٣] من إقناع روما بصواب رأيه . وحصل ، بمعونة ماركوس انطونيوس واوقتافيوس[٤] على لقب : (ملك اليهود) . ولكن هذا كان خاضعاً في جميع حركاته وسكناته إلى روما . وكانت كلمتها هي العليا . وبعبارة أخرى كانت فلسطين على عهده مستقلة استقلالاً داخلياً تحت السيادة الرومانية .

لنقف الآن برهة نصف خلالها هذا الرجل (هيرودس) الذي أشغل حيزاً من كتب التاريخ . فنقول :

إنه آدومي الأصل . اعتنق الديانة اليهودية ، ثم خرج على المكابيين انتقاماً لأبيه الذي قتله هؤلاء . والتجأ إلى الرومان ، فنصبوه ملكاً على فلسطين . وقد أمده انطونيوس بالجند ، فقضى على المكابيين ، وقتل آخر ملوكهم انتيكانوس بن اريسطوبولس الثاني (٣٧ ق .م) . وكان اليهود يكرهونه بالرغم من أنه أمدهم بالمال

---

(١) (قيصر) كلمة لاتينية ، اصلها : سيزر . ومعناها (المشقوق عنه) . ذلك لأنهم شقوا بطن أمه يوم ولد . و(يوليوس) السميد .

(٢) يهودي المذهب آدومي الأصل روماني التابعية .

(٣) (هيرودس) كلمة يونانية . معناها : (هبة هيرا) زوجة المشتري .

(٤) صار بعدئذ امبراطور الرومان . ولقب بـ(اغسطس قيصر) .

والحبوب أثناء المجاعة التي أصابتهم عام ٢٢ ق .م . ورمم بناء الهيكل (١٨ ق . م) وقد كانوا يعتبرونه أجنبياً ، ذلك لأنه كان يحب التقاليد الرومانية .

ومن صفاته[١] أنه رجل حرب وكفاح . وهو ذكي وقوي الإرادة . لكنه ظالم يضحي بكل شيء في سبيل غاياته . وقد قتل[٢] امرأته (مريمنا) وثلاثة من أولاده هم اسكندر واريسطوبولس وانتيباتر . قتل الاثنين الأولين بوشاية انتيباتر الذي زعم أن أخويه تآمرا على أبيهما من أجل الملك . ثم قتل انتيباتر عندما أيقن أنه هو أيضاً قد تآمر مع الفريسيين على قتل أبيه . وشهد كثيرون على أنه حاول أن يدس له سماً . ولما قتل هيرودس أولاده قال قوله المشهور[٣] : «يحلو للمرء أن يكون خنزيراً لهيرودس على أن يكون ابناً له .» وكان ذلك قبل الميلاد بسنة .

حاول هيرودس التوفيق بين اليهود والرومان . ولما فشل في مهمته شايع الرومان ضد قومه . ولقد ساعدهم على توطيد أقدامهم في البلاد . ولما رأى أن الشعب يبغضه حاول إرضاءه ، وذلك بتجديد بناء الهيكل[٤] . فشرع في السنة التاسعة عشرة من حكمه بالعمل . وقد تم تدشين البناء الجديد قبل ميلاد السيد المسيح بإحدى عشرة سنة . ويقال إن قسماً من سور الحرم الحالي بني يومئذ . وقصارى القول احتقر هيرودس اليهود . فكان يضحكهم تارة ، ويبكيهم أخرى .

ومن أعماله أنه بنى (القلعة) الكائنة بباب الخليل ، وبنى حولها ثلاثة أبراج . والحجارة الضخمة التي نراها الآن في أساسها من بنائه . وكان له بجانب القلعة قصر كبير . وقد شاد (حصن انطونيا[٥]) . وفي وسط هذا الحصن بنى لنفسه قصراً ملوكياً

---

(١) البرغوثي وطوطح .

(٢) (تاريخ سورية(للمطران يوسف الدبس ، ج٢ ، ص ٢٩٦ .

(٣) يوسيفوس ، ك ١٦ .

(٤) هذا هو الهيكل الثالث . الأول هو الذي بناه سليمان الحكيم . والثاني هو الذي بناه زربابل بعد رجوع اليهود من السبي . ويقول بعض المؤرخين أن هيرودس لم يبن هيكلاً جديداً وإنما أضاف إلى الهيكل القديم بعض الأروقة .

(٥) كان هذا الحصن يدعى قبل ذاك التاريخ : (انانيا) وفي قول آخر : (برج بارس) . بناه في الأصل المكابيون . وكان قصراً لملوكهم . فاحالة هيرودس إلى حصن واسع أسماه (حصن انطونيا) كما قلنا ، ذلك تعظيماً لاسم صديقه وحاميه مارك انطونيوس .

فخماً ، كما شاد عدداً آخر من الأبراج والقلاع والهياكل والتماثيل والحمامات . وشاد ملعباً على الطراز الروماني (انفيثياتر[١]) . ومن الحصون التي بناها حصن كائن عند الزاوية الجنوبية الغربية للقسم العلوي من المدينة ، وعلى التل المعروف بجبل صهيون .

وفي آخر سنة من سني حكمه ولد السيد المسيح في بيت لحم . ولما كان هيرودس قد أمر بقتل كل طفل يولد في بيت لحم ؛ فقد هربت به أمه ، وهرب معهما يوسف النجار ، إلى مصر ، خشية أن يبطش به ذلك الملك العنيد الجبار . وفي السنة التي تلتها مات هيرودس بعد أن عاش في دست الحكم أربعين عاماً . وقيل إنه مات في السنة الرابعة للميلاد .

ومن الوقائع الجديرة بالذكر على عهده أن القدس وما حولها من البلدان أصيبت بوباء جارف وقحط شديد لانحباس المطر . فجاع الناس ، ومات كثيرون ، فلك هيرودس ما كان عنده من الذهب والفضة ، وأرسله إلى مصر ، فابتاع به تسعين ألف كرّ من الحنطة ، وزعها على المحتاجين . وأعطى الزراع قسماً منها ليستعملوه بذاراً ، على أن يردوه إليه بمقدار ما أخذوا . ولكي لا يجوع العمال أوجد لهم أشغالاً . ويقال إن هذا هو السبب[٢] الذي حدا به لبناء المدن[٣] والقلاع والقصور والحصون .

سكت على عهد هيرودس (٤٠ ق .م) نقود في أورشليم . نقشت عليها باللغة اليونانية اسم الملك هيرودس . وأشكال مختلفة منها : خوذة بين نخلتين يعلوهما نجم . ومجن مزخرف . وقرنان . وقرنان يحيطان برمانة . ونسر يشبه النسر الذي يشاهد على نقود البطالسة .

أقام الرومان ، على أثر وفاة هيرودس الملك ، ابنه (ارشيلاوس) مكانه ٤ ق .م - ٦ ب . م . ولكن هذا عجز عن إدارة البلاد . فقامت فيها ، ولا سيما في أورشليم ، ثورات وقلاقل انتهت بإقالته وقام كثير من رؤساء الأحزاب فنادوا بأنفسهم ملوكاً . فانتشرت الفوضى . وكثرت حوادث القتل والنهب والحرق والسلب . واضطر الوالي

---

(١) جاء ذكر هذا الملعب في رسائل بيلاطس ص ٥٩ إلا أنني لم أعثر له على أثر .

(٢) (تاريخ اليهود) ليوسيفوس . ك ١٥ فصل ٢١٢ وتاريخ سورية للمطران الدبس . ج٢ ، ص ، ص ٢٩٢ .

(٣) هو الذي بنى (قيصرية) وجدد بناء السامرة وسماها (سبسطية) .

(سابينوس[1]) إلى أن يستنجد بـ(فاروس) والي سورية ، وبـ(اريتاس[2]) ملك العرب . فأنجده كل منهما بعشرين ألف فارس . فخمدت الثورة . وأخذ الرومان من اليهود ألفي أسير فقتلوهم فوراً . وذاق اليهود الذل مرة أخرى .

وفيما كانت الأمور تجري في أورشليم على هذا الشكل ، كان ارشيلاوس وإخوته في روما يتشاكون أمام اغسطوس ، ويسعى كل منهم لقهر الآخر . الأمر الذي جعل أغسطوس يحتقرهم كلهم . وصادف أن وصل في ذلك الوقت إلى روما وفد يهودي مؤلف من خمسين رجلاً يشكون[3] من آل هيرودس ، ويرجون قيصر روما أن يضم بلادهم إلى سورية ، وأن يجعلها إقليماً رومانياً ، وأن لا يبقى لليهود إلا استقلالهم في الشؤون المذهبية . وانضم إلى هذا الوفد ثمانية آلاف يهودي من سكان روما . فضموا أصواتهم إلى صوت الوفد .

فكانت النتيجة أن أبقى الرومان جنودهم في أورشليم . وألحقوا فلسطين بسورية ، وجعلوها ولاية تابعة لمملكتهم . واتخذوا (قيسارية) عاصمة لولاتهم[4] . لقربها من البحر من ناحية وللحط من شأن أورشليم من الناحية الأخرى . ذلك أن أورشليم كانت مصدراً للقلاقل والفتن . وعلى هذا الحال انقلب الحكم الروماني من استقلال داخلي إقطاعي إلى نظام استعماري . وراح الحكام الرومانيون يتعاقبون الحكم على هذا الأساس .

وإنا لذاكرون منهم مايلي :

كوبونيوس	(٦-٩م)
مارك ابيفيوس[5]	(٩-١٢م)
اينوس روفوس	(١٢-١٤م)

---

(١) كان خازن اغسطوس . وقد ارسله هذا إلى اورشليم ، ليأخذ خزائن هيرودس . فنشبت نار الثورة في أورشليم وهو فيها . وعهد إليه بمهمة حفظ السلام .

(٢) هو (الحارث) ملك البتراء العربية .

(٣) (تاريخ سورية) للمطران الدبس . ج٣،٢ ، ص ٣١٣ .

(٤) كان هؤلاء الحكام في بادىء الأمر يخابرون روما عن طريق سورية . ثم صاروا يخابرون روما رأساً . وراح الواحد منهم يلقب ب (نائب الملك) .

(٥) وفي رواية أخرى : (ماربوس امبيفيوس) .

فالريوس غراتوس (١٤-٢٦م)
بونتيوس بيلاطس[١] (٢٦-٣٦م)

كان هذا الوالي حاكماً وقائداً عاماً وجابياً للضرائب .

وعلى عهده بيلاطس ، صلب السيد المسيح[٢] وحدثت في القدس حوادث جسام ذكرها في تقريره[٣] ، الذي رفعه إلى قيصر روما (طيباريوس قلوذيوس) الذي تسلم العرش ١٤م وظل فيه عشر سنين . ومن ذلك التقرير نستنتج الحقائق التالية :

أولاً – كان التباغض بين الرومان واليهود شديداً إلى درجة أن رئيس الكهنة اليهودي وحاشيته رفضوا تلبية الدعوة التي وجهها إليهم بيلاطس ليحضروا الوليمة التي أقامها للوجوه والأعيان . وقد استقبلوه عند مجيئه للقدس بوجوم .

ثانياً – وصف الوالي الروماني اليهود بالمكر والخبث والرياء . وحذر القيصر منهم قائلاً : إنهم يضحون بكل رخيص وغال في سبيل مصلحتهم .

ثالثاً – إن القدس من أصعب المدن المحتلة من ناحية الحكم . كان يقول عنها[٤] «إنها عش الدسائس والفتن» . شوارعها ضيقة . وهي مرصوفة رصيفاً سيئاً . موارد المياه والمجاري فيها من النوع المخجل . والأمراض منتشرة فيها انتشاراً فظيعاً .

رابعاً – كان للهيكل سور . وكان الرومان يحكمون بالموت على الجندي الذي يتخطى هذا السور[٥] .

خامساً – إن القوة العسكرية الرومانية التي كانت مرابطة في القدس كانت ضئيلة بدرجة أن الوالي الروماني فيها طلب إلى زميله في سوريا أن يمده بقوة من عنده ؛ فأبى هذا قائلاً إن ما لديه من الجند لا يكفي للمحافظة على الأمن العام في كورته .

سادساً – تنبأ بيلاطس بقرب اضمحلال سطوة الرومان في الشرق ، بسبب قلة الجند

---

(١) يسميه العرب : (بيلاطس النبطي) . كذا ورد في (مختصر الدول) لابن العبري ، ص ١١٥ .

(٢) انظر إلى ما ذكرناه عن حادث الصلب في الفصل الذي خصصناه للقدس في عهد السيد المسيح .

(٣) جاء ذكر هذا التقرير في رسائل بيلاطس للأستاذ كروزير .

(٤) رسائل بيلاطس . ص ٥١ .

(٥) رسائل بيلاطس . ص ٦١ .

اللازمين لحماية إمبراطوريتهم المترامية الأطراف .

استحضر بيلاطس مهندسين : واحداً من أنطاكية ، والآخر من الإسكندرية . ورسم له هذان المهندسان الخرائط اللازمة لإنشاء الطريقين اللتين تصلان القدس من الشمال والشرق . وقد أنشأهما : الأولى من الساحل . والثانية من الأردن وأريحا . وكانت أريحا يومئذ ذات أهمية من الناحية التجارية . وكانت فيها مصلحة جمركية . هذا وإن أعظم عمل قام به هذا الوالي الروماني بالقدس هو قناة الماء التي بناها من الحجارة ، وأسال فيها الماء من برك سليمان إلى القدس . وقد كان في القدس يومئذ خمسون ألفاً من السكان . ولم يكن فيها سوى بضعة آبار . ولقد عثر المنقبون على آثار هذه القناة بالقرب من قبة راحيل ، عند مفترق الطريق بين بيت لحم والخليل . واستعمل من أجل ذلك خزائن الهيكل . فثار اليهود من أجل ذلك . وكانوا ضد مشروع القناة . ولكنه أخمد ثورتهم ، وشتت شملهم بالقوة . الأمر الذي ذكرناه بوجه التفصيل في فصلي (القدس في عهد المسيح) و(مياه القدس في التاريخ) فيلرجع إليهما من شاء .

كان بيلاطس يجلس أحياناً في قصر هيرودس للقضاء بين الناس . ذلك القصر الذي كان قائماً في المكان الذي تقوم عليه الآن الكنيسة الإنكليزية المعروفة بكنيسة المسيح عند باب الخليل من الداخل وثكنة البوليس ودير مار يعقوب للأرمن ، ويقال إن محاكمة السيد المسيح جرت في هذا القصر ، وليس في القصر الآخر المعروف ببرج انطونيا في حارة السعدية حيث يقوم الآن دير راهبات صهيون .

هذا من حيث مقر القضاء . وأما من حيث الدار التي كان يسكنها بيلاطس ، فيقولون إنها كانت إلى الشمال من الحرم ، وفي البقعة التي يقوم عليها الآن الفرن المعروف بفرن عبد ربه من الحارة السعدية ، وبجانب المئذنة المعروفة بالمئذنة الحمراء .

كان بيلاطس يقضي معظم الوقت في التجوال : مفتشاً مراكز الحدود ، مشاوراً موظفي الإيرادات ، مصغياً للمظالم . وقد رأى بعينه تأثير الجدب والمحل وتعاسة الفلاحين ؛ فألغى الضرائب ، وأرسل إليهم بعض الإعانات من قيسارية عاصمة البلاد .

أخرج بيلاطس من الإدارة أكثر الموظفين الذين كانوا على عهد سلفه . ولكنه احتفظ باثنين منهم هما : ماركيوس رونوس ضابط الحرب الأول ، والكسندر سكرتيره اليهودي . وقد كان هذا بمثابة جاسوس عليه . حتى أن بيلاطس نفسه قال عنه في

رسائله[١] : «هناك اثنان لا ينبغي لي إغضابهما في أي حال : القيصر (لتحفظه الآلهة) والكسندري اليهودي» .

كان لليهود في عهد بيلاطس مجلس أعلى في القدس يسمونه (السنهدريم) ، ويبلغ عدد أعضائه السبعين . وهذا المجلس هو الذي كان يحكم اليهود تحت سلطان الرومان . وهو مؤلف من الكهنة والموظفين والفلاسفة وكبار المحامين . وكان للفريسيين[٢] . والصدوقيين[٣] مقاعد معينة في هذا المجلس . ولكن الأغلبية فيه كانت للفريسيين .

رغم كرهه لليهود كان بيلاطس يداريهم بقدر الإمكان . ذلك لأنه كان يخشى من دسائسهم ضده لدى قيصر ، ولدى من يعطف على اليهود من أصدقاء قيصر . استمع إليه يحدثك عن هذه الناحية[٤] :

«إنني رجل فقير . ورغم ما سمعته عن تهديداتي لليهود ، خلال السنوات الثلاثة المنصرمة ، تراني أحاول الابتعاد عن أذاهم . أفضل أن أقضي السنوات الباقية لي في منصبي هذا ، في هدوء ، إلى أن ينقلني قيصر .» ومع هذا كله فقد انتهت ولايته بالعزل .

---

(١) رسائل بيلاطس . ص ١٢ .

(٢) الذين يحافظون على الشرع اليهودي ، ويقاومون اليونانيين وغيرهم من الأجانب .

(٣) أكثر مرونة من الفريسيين في أمور الدنيا والدين ، ويعرفون بالفئة المعتدلة .

(٤) رسائل بيلاطس ، ص ١٢٢ .

القدس في عهد السيد المسيح

قلنا في الفصل السابق أن (بيلاطس بونتيوس) هو الوالي الروماني الذي انتدب لإدارة القدس على عهد الرومان، وأنه أدارها من سنة ٢٦ إلى سنة ٣٦ للميلاد. وفي زمنه صلب السيد المسيح.

كان في بادىء الأمر يقيم في قيسارية (قيصرية) التي جعلها قاعدة حكمه. إذ كان يكره القدس. وقد قال عنها في الصفحة ٥١ من رسائله[١]: «إنها عش الدسائس والفتن». وفي مكان آخر من رسائله وصفها بأنها «مدينة تعسة. ليس فيها شيء يستحق الاهتمام سوى الأبنية الضخمة التي شيدها هيرودس». وكان فيها يومئذ خمسون ألفاً من السكان.

عاش بيلاطس في قيصرية ردحاً من الزمن. كان يبعث منها بأوامره إلى اليهود. فلم يعبأوا به في بادىء الأمر. بل ثاروا عليه. فساق عليهم كوكبة من جنده بقيادة القائد ماركيوس. فسار الجند إلى القدس، حاملين الأعلام الرومانية. ومع الأعلام صور القياصرة الثلاثة: طيباريوس (الذي كان بيلاطس يحكم باسمه) واغسطس ويوليوس قيصر. ولما وصلوا إليها، واحتلوا الأماكن المعدة لهم في ثكنة (انطونيا[٢])، هاج اليهود وماجوا، ثم راحوا يهاجمون الرومان في ثكناتهم حاملين العصي الغليظة والحجارة، وطلبوا نزع الأعلام حالاً.

ولما لم يلب القائد طلبهم راحوا إلى قيصرية يشكون أمرهم إلى الوالي بيلاطس. وكان على رأسهم الكاهنان حنان والعازر ورئيسهما قيافا. وكان بين الجموع المحتشدة عدد غير قليل من المتعصبين والمتوحشين الذين وصفهم بيلاطس في الصفحة ٨٢ من رسائله بقوله: «إنهم اعتادوا الصراخ والشغب، وأنهم يستسيغون الشجار من أجل الدين، فيعتبرونه طعاماً سائغاً وشراباً».

كان بيلاطس يومئذ قادراً على قمع ثورتهم وتشتيت شملهم. ولكنه ضبط نفسه

---

(١) هذه الرسائل أرسلها بيلاطس إلى صديقه سيكا في روما وقد جمعها الأستاذ و. ب. كروزبر أستاذ كلية تربنتي بجامعة أوكسفورد. وقد عربت ونشرت في جريدة (فلسطين) سنة ١٩٤٥.

(٢) حيث يقوم الآن حبس المسيح وجزء من دير راهبات صهيون على درج الآلام ومدرسة الروضة إلى الشمال الغربي من الحرم.

خشية أن يلومه قيصر ، أو يشي به أعداؤه في روما فيشوهون حقيقة عمله ويكونون السبب في إبعاده عن منصة الحكم . ورغم أنه كان يكره اليهود كرهاً لا مزيد عليه ؛ فقد اعتزم مداراتهم بقدر الإمكان ، وصرفهم بالتي هي أحسن . ذلك لأنه كان يخشى دسائسهم واليهود مشهورون بالدس . وما كان ليخشى دسائسهم لولا أنه كان فقيراً ، وكان في حاجة للمال الذي يربحه من وراء منصبه . لقد ذكر بيلاطس نفسه هذه الحقيقة في الصفحة ١٢٢ من رسائله فقال : «إنني فقير ، والأفضل أن أقضي السنوات الباقية لي في منصبي هذا ، في هدوء ، إلى أن ينقلني قيصر» .

إن هذا السبب هو الذي جعله يحتفظ بسكرتيره اليهودي الكسندر . رغم أنه أقال أكثر الموظفين الذين كانوا على عهد سلفه . ولقد ذكر ذلك في الصفحة ١٢ من رسائله فقال :

«هناك اثنان لا ينبغي لي أن أغضبهما في أى حال : قيصري (حفظه الله) والكسندر اليهودي . . .» . وكان هذا يقوم بأعمال التجسس له بين أبناء قومه .

ولما اشتعلت نيران الثورة بالقدس ، وعجز القائد ماركيوس عن تهدئتها ، كتب إلى بيلاطس . فجاء هذا إلى القدس . ونزل في القصر الذي بناه هيرودس الملك[(١)] . وفي هذا القصر جرت محاكمة السيد المسيح . وهناك من يعتقد أن المحاكمة جرت في القصر الذي كان يعرف يومئذ بـ(برج انطرنيا) وقد ذكرناه في الأسطر المتقدمة .

قابل اليهود بيلاطس ببرودة تامة ووجوم . لأنهم كانوا يكرهونه . ولم يكتفوا بذلك ، بل رفض رئيس الكهنة ورجال حاشيته الدعوة التي وجهها إليهم بمناسبة وصوله للمدينة وتسلمه الحكم فيها .

رغم هذا كله لم يثر . لا ، بل إنه لم ينبس ببنت شفة . بل راح يعمل من أجل إصلاح حالة السكان الزراعية والاقتصادية . وكانت هذه في حاجة إلى الإصلاح . فأخذ يقضي معظم وقته في التجوال : متفقداً لمظالم الشعب . وقد رأى بعينه تأثير الجدب والمحل وتعاسة الفلاحين ، فألغى الضرائب ، ومنحهم الهبات المالية .

ثم أخذ يفكر في تعمير المدينة نفسها ، وقد كانت في حاجة إلى التعمير . إذ كانت شوارعها ضيقة وطرقها مرصوفة رصفاً سيئاً . ماؤها قليل ، ومجاريها قذرة .

---

(١) كان ذلك البناء يومئذ قائماً في المكان الذي تقوم عليه الآن كنيسة المسيح Christ Church وثكنة البوليس ودير مار يعقوب للأرمن .

والأمراض منتشرة فيها بشكل مخيف . فرأى بيلاطس بعين ثاقبة أنه لا يتيسر له إصلاح هذه الحال إلا إذا أتى إليها بالماء . فأخذ يفكر في سحب مياه (العروب) في أقنية حجرية . ولقد ظن ، وبعض الظن أثم ، إن هذا العمل سيتقبله اليهود بالارتياح ، لأنه في مصلحتهم . وما درى أنهم من الحماقة لدرجة أنهم سيقاومونه . أجل ، رفض اليهود مساعدة بيلاطس في إنشاء قناة الماء ، رغم أنه حاول أن يقنعهم بأن القدس سترد لأول مرة في التاريخ الماء القراح ، وأن هذا أمر حيوي ، هو في صالحهم من الوجهتين : العمرانية والدينية . ولكنهم أبوا . وقد قتلوا حاخاماً اشتبهوا بأنه ينظر للمشروع بعين الرضا . ورفضوا أن يقدموا أية مساعدة مالية : لا من جيوبهم ولا من خزائن الهيكل ، حتى ولو على سبيل القرض .

لا . بل راحوا إلى أبعد من ذلك . وأخذوا يهددون بيلاطس بهدم القناة (انظر إلى الصفحة ١٠٢ من رسائل بيلاطس) . ورجموا الوالي نفسه بالحجار . عندئذ فقد بيلاطس صوابه . وأصدر أمره . فهاجمهم الجند . وشتتوهم بالقوة . وكان عدد القتلى كبيراً . ولقد حرم عليهم التظاهرات والاجتماعات العامة والتجمع في الشوارع وإلقاء الخطب المهيجة . فتفرقوا أيدي سبأ . شأنهم أمام القوة . وبهذه الوسيلة تمكن بيلاطس من قمع ثورتهم ، ومن الوصول إلى هيكلهم ؛ فنهب أمواله ، وأتم بها مشروع القناة .

هذه توطئة لم نر بداً منها . أوردناها لنعطيك فكرة عن القدس بوجه خاص وعن اليهود والرومان بوجه عام ، عندما قام السيد المسيح بنشر رسالته وبث تعاليمه . ولولاها لكان بحثنا عن السيد المسيح نفسه وعما أصابه من أذى في ذلك العهد ناقصاً .

كانت القدس ، على عهد السيد المسيح ، أكبر وأوسع مما كانت عليه في زمن سليمان الحكيم . وكان عدد سكانها قد ازداد كثيراً . وسورها قد اتسع ، فراح يشمل التلال الكائنة إلى الغرب من الوادي المعروف بوادي الترويين(١) . وكان يقوم على الوادي المذكور ، في مواضع عديدة ، جسور مقنطرة كبيرة يعبرها المشاة . وكان في المدينة وفي أطرافها يومئذ عدد غير قليل من الكروم ، يزرع فيها العنب والتين والزيتون ، وتقوم في وسطها المناظر . وكانت وسائط النقل للبضائع والآدميين منحصرة في الحمير من الدواب .

---

(١) هي الحي المعروف بـ(الواد) في يومنا هذا .

وكانت في القدس أبنية ضخمة هي التي شيدها هيرودس الملك على التلال الغربية : سيما قصره الجميل ، والحصن الذي أقامه على مقربة من الهيكل ، والهيكل نفسه الذي جدد عمارته ، والمدرج (امفيثياتر) الذي أنشأه في وسط المدينة .

قصارى القول : كان كل شيء في المدينة يدل على السعة والثراء . إلا في منطقة الهيكل ، فكان حماته يقومون بأعمال لا ترضي الرب ولا العقل السليم . وفي هذا الظرف ظهر السيد المسيح .

هبط السيد المسيح القدس ، وكانت على عهده تدعى أورشليم . هبطها مرة في نعومة أظفاره ، وثلاث مرات بعد نشر رسالته : الأولى في الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة ٢٨ للميلاد . والثانية بعد ذلك بشهرين ، أي في ديسمبر من تلك السنة . وفي الثالثة اعتقل ، وسيق إلى المحاكمة ، وحكم عليه بالموت .

المعروف عند الكثيرين أن الذي اعتقله ، وأدانه ، وصلبه هو (بيلاطس بونتيوس) الوالي الروماني الذي تقدم ذكره . وقد ورد اسمه في الكتب العربية بيلاطس النبطي . ولطالما اتهموه ، لهذا السبب ، بالغدر والظلم وعدم التسامح والاستبداد . ولكن الذي يطالع كتب التاريخ وأسفاره المختلفة ، يرى أن ما أصاب السيد المسيح كان اليهود هم السبب فيه . اليهود . . القوم الذي نشأ منهم ، وليس الوالي الروماني ، ولا الرومان . وإليك البيان كما رواه لنا التاريخ وروته الأسفار :

عندما ظهر المسيح وأخذ يلقي تعاليمه على الناس كان في الثلاثين من عمره . ولم تكن تعاليمه سياسية البتة . ولم يكن يستهدف بنشرها السلطة الرومانية التي كانت مسيطرة على البلاد في ذلك الحين . وإنما كان يتوخى إصلاح المجتمع الذي يعيش فيه ، إنقاذه من حمأة الشرور التي كان منغمساً فيها فكان يقول : «وهذه هي وصيتي ، أن تحبوا بعضكم بعضاً ، كما أحببتكم . ليس لاحد حب أعظم من هذا أن يضيع أحد نفسه لأجل أحبائه .» وقوله : «من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له الأيسر .» وكان أكثر غضبه منصباً على حماة الهيكل ورؤساء الكهنة من بني إسرائيل الذين وصفهم «بالذئاب الكاسرة» . وقال عنهم : «إنهم جعلوا الهيكل مغارة للصوص والعصابات» لكثرة الضرائب التي كانوا يجبونها والأموال التي يبتزونها من الزائرين . ولأنهم كانوا يبيعون الغنم والحمام والبقر في داخل الهيكل ، حيث يقوم صيارفتهم .

إنه كان يعرف اليهود معرفة تامة ، ولا سيما يهود أورشليم . فقد كان يكرههم ،

ولا يأتمنهم على نفسه[١] . وكثيراً ما كان يقول : «الخلاص هو من اليهود[٢]» .

(أ) حوّل الماء إلى خمر في عرس أقيم في (قانا) من أعمال الجليل .

(ب) أبرأ ابن خادم الملك الذي كان مريضاً في (كفر ناحوم) . أبرأه بعد أن عز شفاؤه ، ولم يره .

(جـ) أطعم جمعاً من الناس التقى بهم عند بحيرة طبرية ، ويقدر عددهم بنحو خمسة آلاف نسمة ، طعاماً لا يزيد على خمسة أرغفة وسمكتين . فأكل الجميع حتى شبعوا . وجمعوا الكسر التي تبقت ، فجاءت اثنتي عشرة قفة .

(د) مشى على الماء . فركد البحر ، بعد أن كان هائجاً .

(هـ) أبرأ المريض المقعد الذي مكث ثلاثين سنة ينتظر دوره ليغسل في بركة (حسدا)[٣] بالقرب من (باب الضأن)[٤] . فقال له : «قم . احمل سريرك . وامش» . فقام في الحال وحمل سريره ومشى .

(و) أبرأ الأعمى[٥] . فرد إليه بصره .

(ز) أحيا الميت[٦] . فأخرجه من قبره .

---

(١) انجيل يوحنا ، الاصحاح ٣ ، عدد ٢٤ .

(٢) انجيل يوحنا ، الاصحاح ٤ ، عدد ٢٢ .

(٣) إنها هي البركة الكائنة بداخل المدرسة الصلاحية للروم الكاثوليك عند باب الأسباط .

(٥) يعرف الآن بباب الأسباط .

(٣) رأى إنساناً أعمى منذ ولادته . فسأله تلاميذه قائلين : يا معلم من أخطأ . هذا أم أبوه ، حتى ولد أعمى . فقال لهم : «لا هذا أخطأ ، ولا أبوه . ولكن لتظهر أعمال الله فيه» . قال هذا وتفل على الأرض . وصنع من التفل طيناً ، وطلى عيني الأعمى . وقال له : اذهب واغتسل في بركة سلوام . فمضى واغتسل وغدا بصيراً (إنجيل يوحنا - الإصحاح ٩ ، عدد ١-٧) .

(٦) كان في بيت عنا (القرية التي نسميها الآن العيزرية) رجل مريض يدعى «العازر» . وكان له أختان تدعيان : مريم ومرتا . وكان يسوع يحب مرتا وأختها والعازر . فاخبرتاه بمرض أخيهما . فجاء إليهما ولكن متأخراً . ولما أتى يسوع وجد أنه قد صار له أربعة أيام في القبر . وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مريم ومرتا معزين . فلما سمعت مرتا أن يسوع آت لاقته . وأما مريم فاستمرت جالسة في البيت . فقالت مرتا ليسوع : «يا سيدي لو كنت ههنا لم يمت أخي . لكنني الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيكه الله» . فصرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً : «العازر هلم خارجاً» . فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب» . (إنجيل يوحنا - الإصحاح ١١ ، عدد ١ -٤٤) .

ولقد جاء ذكر بعض هذه المعجزات في القرآن . إذ جاء في سورة (آل عمران)[1] مايلي :

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم ، أني أخلقُ لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخُ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأُبرىء الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله ، وأُنبئكمْ بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ .

وجاء في سورة (الزخرف[2]) مايلي :

﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون﴾ .

إن هذه الأقوال من جهة ، والمعجزات من جهة أخرى ، ولا سيما المعجزة الأخيرة (قيام العازر من قبره حياً) أثارت غضب اليهود وكهنتهم ، سيما وأنه قام ببعض أعماله ومعجزاته في يوم سبت . وللسبت حرمته عند اليهود . فقاموا لذلك وقعدوا . وراحوا يفكرون في رفع أمره إلى السلطات الرومانية عسى أن تخلصهم منه . ولكن لا بد من وجود تهمة تبرر سوقه إلى القضاء ، وإدانته . فما هي هذه التهمة :

(أ) أتوا إليه مرة بامرأة زانية ، فسألوا عن حكمه فيها . فقال لهم : «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها . وإلا فليخرج» . فخرجوا كلهم . ولم يبق هناك سواه والمرأة الزانية . فقال لها يسوع : ولا أنا أدينك . اذهبي ولا تخطئي أيضاً[3] . فاتهموه بتشجيع الخطيئة .

(ب) سألوه عن رأيه في (زكا) . ذلك الرجل العشار الذي كان رئيساً لجباة الأموال في أريحا ، والذي جمع أموالاً طائلة عن طريق الرشوة والظلم . فامتدحه ، ولم يترفع عن النزول في بيته ، والأكل على مائدته ، واتخاذه من أخلص الأولياء مدى الدهر ، على أمل أن يرتدع عن فعاله . وقد ارتدع : فوهب نصف ماله لفعل الخير . وصار تقياً . حتى رسم أسقفاً على قيسارية . فاتهموه بتشجيع الرشوة ، والظلم ، وابتزاز المال .

---

(١) الآية ٤٩ .

(٢) الآية : ٦٣ .

(٣) انجيل يوحنا - الاصحاح ٨ ، عدد ١ - ١١ .

(جـ) أرادوا أن يوقعوا بينه وبين السلطة الرومانية . فسألوه يوماً عن رأيه في الضرائب التي تجمعها تلك السلطة منهم ، وعما إذا كان يجب عليهم أن يدفعوها . فقال لهم : «ما دمتم تستعملون العملة التي عليها صورة قيصر ، فإنكم تعترفون بسلطانه عليكم . أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله» .

إنك ترى مما تقدم أن اليهود لم يتمكنوا بادئ ذي بدء من ايقاع السيد المسيح في الشرك الذي نصبوه له . إلى أن بحث عن ألوهيته ، وقال لهم أن الله أبوه ، وأنه والآب واحد(١) . عندئذ هاجوا وماجوا ، ورأو فيه رجلاً ثورياً يريد تحطيم أمانيهم . فهجموا عليه ، وكادوا يقتلونه . ففر من أمامهم . وغادر المدينة . وفيما كان يسير على جبل الزيتون ، التفت إلى أورشليم التي أقصوه عنها . وخاطبها قائلاً :

«يا أورشليم . يا أورشليم . يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين . كم مرة أردت أن أجمع أولادك ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هوذا بيتكم يترك لكم خراباً . . .»

كان السيد المسيح يكره أورشليم . وكان يذيع رسالته في ريفها ، خشية أن يغدو به اليهود . ومن أقواله المأثورة في هذا الباب(٢) : «لا كرامة لنبي في وطنه .»

ولما دخل القدس في (عيد المظال) لينشر رسالته ، ويسمع صوته للعالم اليهودي مغتنماً فرصة العيد ، وخرج منها على الشكل الذي وصفناه فيما سبق ، لم يجد ملجأ آمن من (بيت عنا)(٣) . تلك القرية التي كان يحبها وطالما التجأ إليها في أيام ضيقة . وبعد أن مكث في بيت الأختين ، مرنا ومريم ، اللتين كان يحبهما وأخاهما (العازر) الذي أحياه من الموت ، خرج إلى البرية . وراح يتجول في التلال والسهول الواقعة بين أورشليم ونهر الأردن . وقد قال يوماً لأحد تلاميذه : «للثعالب أوجار ولطيور السماء أوكار . وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه» .

اجتمع مجلس السنهدريم على أثر قصة العازر وقيامه من القبر . فكروا في أمر يسوع . وقالوا : «إذا ظل سائراً على خطته هذه ، يفلت زمام الشعب من بين أيدينا . وتلجأ جماهير الفصح إلى التمرد والعصيان ، فتتوجه ملكا . وعندئذ يقوم الرومان

---

(١) حياة يسوع صفحة ٣٠١ .

(٢) انجيل يوحنا - الاصحاح ٤ ، عدد ٤٤ .

(٣) العيزرية ، وهي قرية تبعد عن القدس نحو ميل واحد إلى الشرق .

فيدمرون هيكلنا وأمتنا .» أي أنهم في الظاهر كانوا يخشون سطوة روما ، وفي الباطن يخافون انهيار سلطتهم الدينية ، فيحرمون الخيرات الكثيرة التي كانت تدرها عليهم تلك السلطة .

قال قيافا رئيس الكهنة : «خيراً أن يموت إنسان واحد عن الشعب حتى لا تهلك الأمة كلها . هذا الإنسان يجب أن يموت .»

هذا هو القرار النهائي : يجب أن يموت في غير إبطاء . سواء أكان ذلك باغتياله سراً أو بادانته قانونياً .

ولكن كان على السلطات أن تسير في حذر . لأن كل محاولة لإلقاء القبض عليه جهرة ستعجل الثورة . وكان يسوع في الواقع قد اختفى عن الأنظار . ويقال إن نيقوديموس ، ذلك الشيخ العجوز الذي كان عضواً في مجلس الشنهدريم ، أرسل إليه سرا منبئاً إياه بالقرار . فعاش في البرية شرقي أورشليم . ولكنه عاد فرجع إليها في عيد الفصح ودخلها للمرة الثالثة . لقد جاءها في هذه المرة علناً ، ودخلها جهاراً . وكان يعلم أن مصيره سيكون في هذه المرة الموت المحتم .

جاء المسيح مع تلاميذه إلى مكان عبر (وادي قدرون) حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه . وفي تلك الليلة قام عن عشائه[1] وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها ، ثم صب ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ[2] ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها . ثم قال لهم : «إنكم تدعونني معلماً وسيداً . وحسناً تقولون . لأني أنا كذلك . فإذا كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم ، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض . . الحق أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيده ، ولا رسول أعظم من مرسله . إن علمتم هذا ، فطوبى لكم إن علمتموه .)

---

(١) اختلفت الروايات حول المكان الذي تناول فيه السيد المسيح عشاءه الأخير . فمن قائل إنه تناوله في بستان الجثمانية حيث داهمه الجند بدلالة يهوذا الاسخريوطي ، وقبضوا عليه . ومن قائل إنه تناوله في المكان الذي تقوم عليه الآن الكنيسة المعروفة بكنيسة نياحة العذراء «دورميتيون» في حي النبي داود . ولكن الرواية الثانية وهي من تقاليد القرن الرابع عشر ضعيفة . لأن ذلك البناء لم يقم إلا بعد المسيح بعدة قرون .

(٢) من هنا نشأ العيد المعروف بـ«خميس الغسل» في القدس حيث يجتمع المسيحيون في ساحة الكنيسة ويشاهدون البطريرك يغسل أرجل أساقفته اقتداء بالمسيح .

كان يهوذا سمعان الاسخريوطي[1] يعرف ذلك الموضع . لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه . فأخذ يهوذا الجند وخداماً من رؤساء الكهنة والفريسيين ، وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح . وكان مع تلميذه سمعان بطرس سيف ، فاستله ، وضرب به عبد رئيس الكهنة ، فقطع أذنه اليمنى . فأمره يسوع أن يرجع السيف إلى غمده . ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع ، وأوثقوه ، ومضوا به إلى دار رئيس الكهنة وكان الوقت شتاء والبرد قارصاً . فاضرم الخدم الجمر ليصطلي الحاضرون . وفيما كان رئيس الكهنة قيافا يستجوب يسوع ، جاء أحد الخدم ولطمه قائلاً : (أهكذا تجاوب رئيس الكهنة؟) . فأجابه يسوع : «إن كنت قد تكلمت ردياً فاشهد على الردي ، وإن حسناً فلماذا تضربني» . وأنكر بطرس الذي كان واقفاً يصطلي أنه من تلاميذه[2] .

ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولادية[3] وكان الوقت صبحاً . فاستقبله بيلاطس . وسألهم عن التهمة التي يوجهونها إليه . ثم أدخله إلى دار الولادية . وجرى بينهما حديث طويل . ثم قال لليهود : أنا لم أجد فيه أية علة تستحق الإعدام . ولكنهم عندما صاحوا أخذه بيلاطس وجلده . وضفر العسكر إكليلاً من شوك وضعوه على رأسه وألبسوه ثوب أرجوان . وكانوا يلطمونه[4] . وصاحوا في وجه بيلاطس قائلين : اصلبه! اصلبه! فاسلمه إليهم ليصلب . فأخذوه إلى موضع الجمجمة ويقال له (جلجثة) وصلبوه[5] ، وصلبوا اثنين آخرين معه . وكتب بيلاطس على الصليب هذه الكلمات : يسوع الناصري ، ملك اليهود .

---

(١) كلمة عبرية معناها «رجل القتل» . وكان هذا أحد التلاميذ الاثني عشر الذين لازموا السيد المسيح حين تخلى عنه تلاميذه الآخرون . وكان المسيح يعرف أنه شيطان وأنه مزمع أن يسلمه إلى أعدائه .

(٢) إنجيل يوحنا – الإصحاح ١٨ ، عدد ١-٢٧ .

(٣) المظنون أن دار الولاية كانت يومئذ في «قصر انطونيا» وهو الذي اتخذ في الربع الأول من القرن العشرين مدرسة لروضة المعارف الوطنية ، إلى الشمال من الحرم .

(٤) إنجيل يوحنا – الإصحاح ١٩ ، عدد ١-٢ .

(٥) الإسلام لا يعترف بالصلب . وفي ذلك نزلت الآية الكريمة . ﴿وما قتلوه . وما صلبوه . ولكن شبه لهم﴾ .

هنا يحسن بنا أن نستمع إلى ما يقصه علينا بيلاطس بونتيوس عن هذه الحادثة. فقد جاء في التقرير الذي رفعه هذا إلى القيصر في روما وصف مسهب للسيد المسيح، وتعاليمه، والأسباب التي أدت إلى هياج اليهود وقيامهم ضده. ومن تقريره نستنتج الأمور التالية:

أولاً – إن (يسوع الناصري) كان يومئذ لا يتجاوز الثلاثين ربيعاً من عمره، وإنه ممتلئ هيبة ووقاراً. وعلى وجهه وفي محياه سمات النبل والشرف والوقار.

ثانياً – أتاح له الوالي الروماني، أن يعمل ويُعَلِّم كما يشاء، وأن يخاطب الجماهير دون معارضة أو مراقبة.

ثالثاً – إن هذه الحرية التي منحها الوالي الروماني ليسوع أغاظت أغنياء اليهود ورؤساءهم. إذ كان يسوع يشدد النكير عليهم. ويكثر من لومهم وتقريعهم، قائلاً لهم: «أنتم قبور مبيضة. أنتم تظهرون أمام الناس بمظهر حسن، أما من الداخل فإنكم مملوؤون مرارة وموتاً». وكان يسخر من أغنياء اليهود الذين أرادوا أن يرشوه بالمال، قائلاً: «إن فلس المعوز خير من فلوسكم، وأفضل».

وظل اليهود يدسون الدسائس وينصبون له المكايد حتى نالوا ما يبتغون. وكانوا السبب فيما جرى له، وما هو بأول، ولا آخر، من عمل اليهود على مناوأته من المصلحين.

رابعاً – اغتنم رؤساء الكهنة وأحزاب اليهود الثلاثة (الهيرودسيون والصدوقيون والفريسيون) وغيرهم من اليهود أعداء الناصري، فرصة الأعياد اليهودية يوم غصت القدس بجماعات المعيدين الذين وفدوا إليها من كل حدب وصوب؛ فألقوا القبض على السيد المسيح، وأتوا به إلى بيلاطس قائلين: «اصلبه! اصلبه! فعز الأمر على بيلاطس. وكان قد آلى على نفسه أن يحميه من «مخالب الذئاب الكاسرة». ورأى أن الثورة لا محالة ناشبة، إذا هو لم يعمل برأي اليهود ولم يصلبه. فطلب إلى زميله قائد الجيش الروماني بسورية أن يمده بمئة فارس ومئة راجل ولكن هذا لم يستطع أن يلبي طلبه لقلة ما عنده من الجند.

خامساً – ثار اليهود، وقبضوا على يسوع، فساقوه إلى رئيس الكهنة (قيافا) الذي حكم عليه بالموت. وأرسله إلى بيلاطس مقيداً طالباً منه تنفيذ الحكم. فأحاله هذا إلى هيرودس لأنه من سلطنته (أي من ناصرة الجليل). فأعاده

ذاك إلى بيلاطس قائلاً بدهائه المعروف «إنه لا يتعدى حقوق الوالي الروماني» . وبالحال غص البلاط بالثائرين من اليهود الصارخين : «اصلبه! اصلبه!» .

سادساً - كان المسيح هادئاً ساكناً وسط هذا البحر الهائج المتلاطم ، فلم يخاصم ، ولم يدافع . وقد حاول بيلاطس أن يسكن غضبهم قائلاً لهم : «إن لكم عادة في مثل هذا العيد أن تطلقوا سراح مجرم ، فخلوا سبيل يسوع» .

قالوا : لا ، بل اصلبه!

قال لهم : «إن الشريعة اليهودية نفسها تحذر من الإسراع في تنفذ الحكم كما تطلبون . إنها تحتم على القاضي أن يتروى بالأمر ويصوم يوماً كاملاً قبل أن ينطق بحكم الإعدام . . إن الشرع اليهودي يأمر بإيقاف رجل على باب المحكمة حاملاً علماً وفارساً على بعد بضع خطوات منه ، يناديان بالحكم وبأسماء الشهود ، عله يدب في قلب أحد الحضور رحمة فيقول كلمة يحامي بها عن المجرم . . .»

صاحوا بصوت واحد : خذه! اصلبه!»

فأمر إذ ذاك بجلده ، ظناً منه أن ذلك يرضيهم . فأبوا ، وأصروا على طلبهم . فأخذ إذ ذاك طستاً وغسل يده أمامهم قائلاً لهم : «إنني بريء من دم هذا الصديق» . فهاج اليهود وماجوا ، وقاموا وقعدوا وأخذوا الناصري من أمام الوالي الروماني ، فساروا به عن الطريق التي عرفت بعدئذ بدرب الآلام(١) . وساقوه إلى جلجثة(٢) . وهناك صلبوه .

هذا ما ورد في الكتب والأسفار المسيحية عن الصلب . وأما المسلمون فإنهم لا يعترفون بالصلب . ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله(٣) :

﴿وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم﴾ .

---

(١) اسمها باللغة اللاتينية : (ريودولا روزا) .

(٢) (الجلجثة) أو (الجلجلة) اسم الموضع الذي صلب فيه السيد المسيح . وقد اختلف المؤرخون في تأويل هذا الاسم . فقال القديس ايروتيموس إن الجلجلة معناها الجمجمة ، وأنها سميت كذلك بسبب جماجم القتلى الذين لاقوا حتفهم في ذلك المكان . وقال اوريجانوس أنه سمي كذلك لأن جمجمة آدم أبي البشر مدفونة هناك . والقول الأول هو الصحيح .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٥٧ .

هذا ولا بد من القول إن المسلمين يجلّون السيد المسيح ويرفعونه إلى أسمى درجات التقديس . وقد يصل إجلالهم له ولأمة مريم البتول حداً يقصر عنه الكثيرون من أتباع المسيح أنفسهم . فقد اقتبسوا هذا الشعور من كلام الله الذي أُنزل على نبيهم ودوَّن في قرآنهم ، والذي يتلونه كل صبح ومساء في صلواتهم .

ألم يقل الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز[١] :

﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين﴾ .

وقال[٢] : ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعلُ الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إليٌّ مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ .

وقال[٣] : ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ .

وكذلك قل عن مريم البتول . فقد ذُكرت بشيء كثير من التقديس والتعظيم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم . وإنا لنكتفي منها بذكر الآيات التالية :

﴿إذ قالت الملائكة[٤] يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ .

وقال[٥] : ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ .

هذا من الناحية الدينية ، أما من الناحية القومية ، فيكفي القول : إنا ، نحن سكان هذه البلاد ، عرب قبل أن نكون مسلمين ومسيحيين . تجمعنا العروبة . وإنا

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٢ .

(٢) سورة آلا عمران : الآية ٥٥ .

(٣) سورة مريم : الآية ٣١ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ٤٧ .

لنرجع فيها إلى أصل واحد ، ودم واحد ، ووطن واحد ، ولغة واحدة ، وتاريخ واحد .

ولئن اختلفنا في بعض العقائد الدينية فإن اختلافنا هذا لا يعدو اختلافاً بين أخوين يعيشان في منزل واحد حول أية مسألة من المسائل الاجتماعية الأخرى .

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون﴾(١) .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٨٢ .

القدس في عهد الرومان
(بعد المسيح)

ذكرنا في الفصلين السابقين كيف كانت القدس في عهد الرومان قبل السيد المسيح . . وكيف كانت ، أثناء وجود المسيح فيها . . وكيف اضطهده اليهود . . وكانوا السبب في تعذيبه وموته على يد الوالي الروماني بيلاطس بونتيوس . . وانتهينا إلى القول أن ولاية هذا الوالي قد انتهت - رغم كل الأعمال التي قام بها لإرضاء قيصر في روما وإرضاء اليهود في أورشليم - بالعزل .

ونريد الآن أن نقص عليك ماذا جرى بعد ذلك التاريخ . فنقول :

كانت فلسطين يومئذ تابعة لسورية . وكان في سورية وال يدعى (ويتلوس) . فأرسل هذا (مرشلوش) خلفاً لبيلاطس بونتيوس . وأيد غايوس قيصر هذا التعيين .

ويظهر أن (هيرودس أغريبا) حفيد هيرودس الكبير الذي كان يومئذ حاكماً في الجليل[١] أراد أن يهتبل الفرصة السانحة . فجاء إلى القدس . وطمح في امتلاك زمام الأمور فيها ليسترجع مجد جده الأكبر . فنال مبتغاه . وانتعشت القدس على عهده . (٣٧-٤٤ ب . م) . فبنيت فيها القصور الشاهقة والأروقة الفخمة والمسارح الضخمة . وأنشئت على عهده أيضاً حارة جديدة سميت (بزيتا) وهي الكائنة في الناحية الشمالية الشرقية من المدينة . وشرع في بناء السور المعروف بالسور الثالث . وأدخل فيه المكان المعروف بالجلجثة . فنصح إليه الإمبراطور قلاوديوس أن يقلل من إنشاءاته ولا سيما ما يختص منها بالأسوار[٢] . وعلى عهده أنشىء أول محفل ماسوني في أورشليم .

---

(١) إنه هو الذي أرسل إليه بيلاطس السيد المسيح ليحاكمه . فرفض . وقد لقبه المسيح بالثعلب . استمع إليه يقول في إنجيل لوقا (ص ١٣ - عدد ٣١ - ٣٤) .

«في ذلك اليوم تقدم بعض الفريسيين قائلين له اخرج واذهب من ههنا لأن هيرودس يريد أن يقتلك فقال لهم امضوا قولوا لهذا الثعلب ها أنا أخرج شياطين وأشفي اليوم وغداً في اليوم الثالث أكمل . . يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا» .

(٢) عندما حاصر تيطس القدس عام ٧٠ لم يكن بناء هذا السور قد تم .

إنه بعد أن تزوج بنت أريطاس ملك العرب ، راح يفكر في الاقتران (بهيروديا) امرأة أخيه . فاكتشفت امرأته العربية مؤامرته . فهربت إلى أبيها ، وحدثته بما جرى . فما كان من هذا إلا أنه ساق عليه جيشاً . وظل يحاربه إلى أن قهره ودحر جيشه . وقد سخطت عليه روما ، فنفته وامرأته هيروديا .

عندما مات هيرودس اغريبا Herod Arrippa كان ولده اغريبا الثاني البالغ من العمر ١٧ سنة في روما . وكان حديث السن بدرجة لا يستطيع معها أن يتولى إدارة بلاد كاليهودية مليئة بالمشاغبات . ولذلك أرسل (كسبيوس فادوس Cuspius Fadus) حاكماً من لدن روما (٤٤م) . وكان على عرض الرومان يومئذ (غايوس قيصر Gaius Gaesar) الذي تسنم العرش على أثر وفاة أبيه الإمبراطور سيباريوس (٣٧ ب . م) .

وجد الوالي كسبيوس فادوس(١) البلاد في حالة من الفوضى لا تطاق : الأمن مسلوب والمجاعة سائدة والفتن منتشرة والخلاف مستحكم بين الشعب والحكومة .

وحدثت ، على عهده ، وقائع بين اليهود وبين خصومهم العرب والدوميين . فانتصر للعرب . وقبض على أربعة من اليهود . فقتل اثنين ، وأراح البلاد من المشاغبين . وبعد أن مكث في الولاية سنتين استقال . فخلفه (طيباريوس اسكندر ٤٦م Tiberius Alexander . وهو من اليهود المرتدين . وكان أول عمل له أنه قتل اثنين من زعماء اليهود لأنهما حرضا قومهما على الثورة ضد الرومان بسبب (احصاء اليهود) . وفي أيامه حصلت مجاعة شديدة .

وفي زمن خلفه (فنتديوس فومانوس) ٤٨م Ventidius Cumanus ثارت اضطرابات داخلية في القدس بسبب بعض كلمات فاه بها(٢) أحد جنوده ، وقد عدها اليهود مهينة لمراسمهم الدينية . واتهموا الوالي بأنه هو الذي حرض الجندي على قولها . حاول (قومانوس) في بادئ الأمر إقناع اليهود بأنه لم يحرض الجندي ،

---

(١) إن المعلومات التي ذكرناها عن هذا الوالي والولاة الذين اتوا من بعده اقتبسنا معظمها عن كتاب انكليزي اسمه : (Jerusalem, City of Herod & Saladin) by Palmer and W. Besant.

ومن (تاريخ سورية) للعلامة المطران يوسف الدبس .

(٢) جاء في (تاريخ سورية) للمطران الدبس أن هذا الجندي كان من حراس الهيكل ، وأنه لم يفه بكلام ، وإنما كشف عن عورته على مرأى كثيرين من الشعب وبينهم عدد من الكهنة . وصادف ذلك اليوم عيد الفطر . بحسبوا ذلك إهانة لهم .

وطلب إليهم أن يخلدوا إلى السكينة . ولكنهم لم ينصاعوا لأوامره . فأصدر أمره إلى الجند كي يكونوا على أهبة الاستعداد . فظن اليهود أن الجند سيهاجمونهم . فهربوا . وداس بعضهم على بعض وهم هاربون في شوارع القدس الضيقة . فمات كثيرون دون أن يضربوا أو يصابوا بيد .

وما كادوا يفيقون من ألم هذه الفوضى حتى وقعوا في أفظع منها . إذ هاجم بعض اليهود عبداً من عبيد الإمبراطور يدعى (اسطفان) ونهبوا ما بيده . فطالبهم قومانوس بتسليم المجرمين الذين اقترفوا هذا الذنب ، ورد ما أخذوه منه . فرفضوا . ومزق أحد الجنود كتاب التوراة علامة التحقير والازدراء . فجاء اليهود إلى (قومانوس) وشكوا إليه أمرهم قائلين : إنهم لا يحتملون عملاً كهذا يعدونه تحقيراً لآلهتهم . فأرضاهم قومانوس في هذه المرة . وقطع رأس الجندي الذي قام بهذا العمل .

وفي عهد قومانوس أيضاً قام شغب بين اليهود والسامريين . إذ كان يهود الجليل يأتون إلى الهيكل عن الطريق التي تمر من بلاد السامرة ، وكثيراً ما كان الخصام يتكون بين اليهود والسامريين لهذا السبب . وفي إحدى المرات قتل عدد كبير من يهود الجليل . فجاءوا إلى قومانوس يشكون . ولكن قومانوس التزم جانب السامريين . وساعدهم . فتغلبوا على اليهود .

رفع الفريقان ، قومانوس واليهود ، أمرهما إلى القيصر . فسحب القيصر قومانوس . وحكم عليه بتجريده من رتبته العسكرية .

بعد قومانوس تولى الإدارة (قلوديوس فيلكس Claudius Felix) ، أخو بالاس Pallas صديق الإمبراطور الحميم .

كان فيلكس رجلاً ضخم الجثة ، عديم المبدأ . وكان مبذراً ومحباً للفخفخة والظهور . وكانت البلاد عند مجيئه في حالة من الفوضى لا تطاق . مليئة بالزعماء الطماعين : دينهم النهب والسلب وقطع الطرق . وكان أحد هؤلاء الزعماء يهودياً من يهود مصر . فوصل من الجرأة إلى درجة أنه جمع من حوله عدداً كبيراً من بني قومه . وصعد إلى جبل الزيتون زاعماً أنه يستطيع بكلمة واحدة أن يدك أسوار المدينة ، فيدخلها هو وقومه دخول الظافرين . فأتاهم فيلكس بجنده ، فشتت شملهم وقتل منهم أربعماية شخص . وفي زمن فيلكس هذا قامت خصومات شديدة بين الشعب اليهودي وبين كبار الحاخاميين . فلم يكتف هؤلاء بأن يسلق بعضهم بعضاً بالكلام القارص ، بل راح بعضهم يرجم البعض الآخر بالحجارة . وقد حدثنا المؤرخون الذين

قصوا علينا قصة هذا الخلاف أن كبار الحاخاميين وصلوا من النفوذ إلى درجة أنهم نهبوا البيادر وخصوا أنفسهم بجميع الأعشار التي حصلوها . فسببوا بذلك موت الفقراء من الحاخاميين جوعاً .

وفي عهد فيلكس أيضاً حدث أول اضطراب في قيسارية . كانت هذه المدينة منشطرة إلى شطرين متساويين : السوريون واليهود . وكان السوريون يدعون التفوق على الآخرين ، بحجة أن هيرودس مؤسس المدينة وإن كان هو بنفسه يهودياً إلا أنه هو الذي بنى الهياكل والتماثيل التي فيها والتي يقصد منها جعل المدينة سورية في نفس المكان الذي كان يقوم عليه برج سترانو .

وأما اليهود فإنهم ادعوا أن المدينة ، يهودية لأن بانيها يهودي ، ويجب أن لا يحكمها إلا اليهود .

واستعمل الفريقان ، من أجل دعم حقوقهما ، السلاح . وكان لدى اليهود من السلاح أحسنه . وتدخل فيلكس بين الفريقين بجنده وسلاحه . وأرجع السكينة إلى نصابها . ثم سمح لكلا الفريقين بأن يرسلوا ممثلين لينوبوا عنهم في عرض قضيتهم على الإمبراطور . وكان حكم الإمبراطور في صالح السوريين وبالأحرى اليونان . فثاراليهود لهذا الحكم كعادتهم عندما يكون القرار في غير صالحهم .

بعد فيلكس تولى الإدارة (فستوس) ٦٠م . كان رجلاً حازماً فتمكن من السيطرة على اليهود الثائرين . ومن التدابير التي اتخذت على عهده أن نيرون الملك أمر رئيس الكهنة وخازن الهيكل اليهوديين بالبقاء في روما رهينة ليخلص اليهود في الطاعة له . ولكن حكم فستوس لم يدم طويلاً . إذ أصابه مرض بعد حين ، ومات به سنة ٦١م .

بعد فستوس أقام نيرون (البينوس) . ذكره المؤرخ يوسيفوس في تاريخه فقال : «إنه لا يوجد نوع من أنواع الذنوب والآثام إلا وكان له دخل فيه . . إنه لم يكتف بنهب الناس وسرقة أموالهم وفرض الضرائب الباهظة عليهم ، ولكنه كان يطلق سراح المجرمين الذين كانوا في السجون تلقاء مبالغ معينة فرضها عليهم . حتى إنه لم يبق في السجن إلا الأشخاص الذين لم يستطيعوا أن يعطوه شيئاً . .» فانتشرت الفوضى وعمت البلوى .

ولكن بالمر الذي يشير إلى ما قاله يوسيفوس عن البينوس يحذر القراء من أخذ كلامه على علاته ، إذ إن يوسيفوس يهودي . ومن مصلحته أن يبرر عمل قومه يوم ثاروا . فكأنه يريد أن يثبت للملأ أن اليهود ما كانوا ليثوروا لولا ظلم الحاكم الروماني .

إذ إن يوسيفوس نفسه ذكر في مكان آخر من كتابه أن البينوس كان يرمي إلى نشر الأمن والسكيينة والطمأنينة في البلاد .

وقد كان من سوء حظ البينوس أنه صادق الحاخام الأكبر (حنان) . ولما اختطف الفوضويون من اليهود العازر ابن الحاخام الأكبر حنان ، وافق على اطلاق سراح عشرة من الأسرى المسجونين لديه كفدية تلقاء خلاصه . واتبعت هذه الطريقة في كثير من الحوادث المماثلة حتى أخليت السجون كلها . فلم يبق فيها سجين .

ولقد تم ترميم الهيكل في هذه الأيام (٦٤م) . فوجد ثمانية عشر ألفاً من العمال الذين اشتغلوا في بنائه أنفسهم من غير عمل . فانضم هؤلاء إلى المساجين الذين أطلق سراحهم . فامتلأت شوارع القدس بالعمال العاطلين والعصابات المسلحة وأتباع الحاخاميين المعزولين .

فاستخدم البينوس العدد الكبير من هؤلاء العمال العاطلين في رصف شوارع المدينة بالحجارة .

بعد البينوى تولى الإدارة (جيسيوس فلورس Gessius Florus) ٦٥م . ويظهر أن القدس كانت يومئذ تابعة لسورية . وأنه كان في سورية وال روماني يدعى (كيستيوس غالوس Cestius Gallus) . وأن هذا جاء إلى القدس في عيد الفصح سنة ٦٦م وأمر بتعداد الجديان Lambs الذين ذبحوا على سبيل التضحية . فكان عددهم ٢٥٥,٦٠٠ ومعنى ذلك أنه كان يومئذ في القدس وضواحيها عدد كبير من الناس ؛ منهم من كان في المدينة قبلاً ، ومنهم من جاء إليها في أيام العيد ولأجل قضاء العيد فقط .

ليس بصحيح ما قيل عن (فلورس) من أنه كان يرمى إلى سوق اليهود إلى الثورة . كلا . ولكنه كان يرمي إلى جمع ثروة لنفسه بأسرع ما يكون من الوقت . إذ إنه كان يعتقد أن الثورة إن آجلاً أو عاجلاً لا محالة واقعة . ولا مفر منها . ولذلك فكر في ادخار مبلغ من المال يكفي لمعيشته فيما إذا أقيل من عمله ، أو نفي . ولم تكن الثورة من مصلحته .

الاضطرابات الأولى حدثت في قيسارية (سنة ٦٦م) . إذ كان اليونان من يوم إلى آخر يزدادون جرأة على اليهود ، ويحقرونهم .

كان لليهود كنيس . وكان أمام هذا الكنيس ساحة أرادوا أن يشتروها ليضيفوها إلى كنيسهم ولكن صاحب العرصة وهو وثني رفض بيعها . وبنى فوقها عدداً من الحوانيت الصغيرة . ولم يترك لليهود إلا مدخلاً ضيقاً إلى كنيسهم . فذهب واحد

منهم يدعى (جون) وشكا إلى فلوروس أمرهم . وطلب منه أن يتدخل في الأمر . وعرض عليه في نفس الوقت رشوة قدرها ثمانية تالنت . وهذا مبلغ كبير .

ترك فلوروس اليهود واليونان يقتتلون من أجل الممر المؤدي إلى كنيس قيسارية . فاستعمل الفريقان السلاح . وغلب اليهود على أمرهم . فانسحبوا من المدينة إلى مكان يبعد عنها عدة أميال . وأرسلوا (جون) إلى الحاكم فلوروس وقد كان يومئذ في السامرة طالبين منه النجدة . ظن جون أنه سينال حظوة عند فلوروس بسبب الرشوة التي كان قدمها له . ولكنه ، على العكس من ذلك ، ألقى القبض عليه وزجه في السجن .

بعدئذ سافر فلوروس إلى القدس حيث كانت فكرة الثورة قد انتشرت . ولما رأى ذلك ثارت براكين غضبه . فأرسل إلى اليهود رسلاً يحذرونهم عاقبة الأمر . ولكن اليهود التجأوا إلى الهيكل . وأخذوا ينادون القيصر (كأنه يسمعهم) . طالبين منه إنقاذهم من فلوروس . وراح بعضهم يحمل السلال في أيديهم ، ويدورون على المنازل يستجدون الدراهم من أجل فلوروس ، كأنه رجل بائس ومسكين وفي حاجة إلى المال . . .

وفي اليوم التالي جاء الخبر بأن فلوروس يتقدم مع جنده نحو المدينة . فارادوا أن يقابلوه وأن يستعطفوا خاطره . ولكن فلوروس لم يكن في حالة تمكنه من قبول رسلهم . فارسل إليهم ضابطاً من ضباطه يدعى (كابيتو) ومعه خمسون فارساً أمرهم بترك النفاق والرجوع إلى حيث كانوا .

دخل فلوروس المدينة ممتطياً ظهر جواده . فأخذ السكان ينظرون إليه ، ويتساءلون عما سيفعله . فنصب في اليوم التالي محكمته على أبواب قصره . واستحضر كبير الحاخامين فطلب منه أن يسلمه الأشخاص الذين قادوا الثورة . فانكر كبير الحاخامين أية معرفة له بقادة الثورة ، وطلب منه أن لا يعاقب المدينة كلها من أجل خطأ اقترفه عدد من الشباب المتهوسين . ثم اعتذر لفلوروس عما جرى وطلب منه الرحمة .

ولكن فلوروس بدلاً من أن يجيبه إلى طلبه ، أمر جنده بنهب المدينة (٦٦م) . ونهب سوقها الكائن في القسم الأعلى من المدينة . فنهبوه ، وسلبوا كل ما وقعت عليه أيديهم ، وقتلوا من اليهود خلقاً كثيراً[١] عندئذ جاءته فيرونيسكي (برنيكة) أخت اغريبا ضارعة . ووقفت أمامه حاسرة الرأس حافية القدم طالبة الرحمة . ولكن فلوروس ، الحاكم الروماني الذي لا يعرف اللين رفض طلبها ، وحض جنده على

(١) جاء في (تاريخ سورية) للدبس ج٢ ، ص ٢٣٩ ، أن عدد القتلى بلغ يومئذ ٣٦٠٠ قتيلاً .

المضي في النهب والسلب والقتل .

وفي اليوم التالي نادى فلوروس إليه كبير الحاخامين مرة أخرى . وطلب منه إثباتاً لإخلاص الشعب وندمهم على ما بدا منهم من عصيان ، أن يخرجوا لملاقاة كوكبتين من الجنود الرومانيين كانتا على وشك دخول المدينة ، وأن يبدوا سرورهم . ففريق منهم رضي ، وفريق آخر رفض هذا التكليف . ثم عادوا ، فانصاعوا لنصائح الحاخامين . وهرعوا لاستقبال الجنود القادمين . ولكنهم ما لبثوا حتى أخذ بعضهم يسب فلوروس . فداسهم الفرسان بخيولهم . وحدث على أثر ذلك اضطراب عظيم عند أبواب المدينة .

دخل الجند . وساروا نحو حصن أنطونيا ، قاصدين وضع أيديهم على القلعة والهيكل معاً . ولما دخلوا الحصن كان اليهود قد هدموا قسماً من المعبر الأرضي الذي كان يربط الحصن بالهيكل . فاراد فلورس أن يعمر ما هدمه اليهود . ولكنه لم يستطع لكثرة اليهود الذين كانوا في الشوارع . فرجع إلى قيسارية في اليوم التالي . تاركاً وراءه كوكبة واحدة من الجند . وظلت المدينة في غليان وهياج .

بعث اليهود بشكواهم إلى كيستيوس غالوس Gestius Gallus وطلبوا التحقيق . وكذلك فعل فلورس فأرسل هذا مفتشاً للتحقيق يدعى Neapolitanus نيابوليتانوس . والتحق به ، عند اقترابه من القدس ، أغريبا . فخرج اليهود لاستقبالهما من مسافة بعيدة . خرجوا يبكون ويتظلمون كعادتهم . وطلبوا من أغريبا أن يؤازرهم كي يتخلصوا من بلواهم ، ومن نيابوليتانوس أن ينقذهم من فلوروس وظلمه . وأخذوه وفرجوه على جميع أحياء المدينة . وأرادا أن يبرهنوا له على أن المدينة هادئة ، وأن السكان ثاروا ضد فلوروس ولم يثوروا ضد الرومان . ثم ذهب نيابوليتانوس إلى الهيكل ليقدم الضحايا التي كان يسمح للأجانب بتقديمها ، وأشاد بذكر اليهود وإخلاصهم للإمبراطورية ورجع إلى كيستيوس .

وأما أغريبا فقد نصح اليهود بأن يفكروا في مصلحتهم ، وأن لا يستهينوا بقوة الرومان ، وأن لا يسببوا لأنفسهم ولأمتهم الخراب بسبب نزاع بسيط مع أحد الحكام . وفيما كان يحدثهم كانت الدموع تتساقط من عينيه . وكانت برنيسكة أخت أغريبا تساعده في دفاعه .

رضخ اليهود لنصائح أغريبا ، وعبرات أخته فيرونيكي ؛ فركنوا إلى الهدوء ، ودفعوا إلى الخزينة ما عليهم من ضريبة ، وعمروا الخراب الذي أحدثوه في حصن

أنطونيا . ورجعت المياه إلى مجاريها .

ولكن كان عليهم أن يطيعوا فلوروس ما دام في دست الإدارة حتى يقال من منصبه . فرفضوا ذلك . ولما أصر عليهم أغريبا بهذا الشرط ، رجموه بالحجارة ، وسبوه وشتموه بأقبح السباب والشتم .

فغادر أغريبا المدينة هو وأخته . وتركا المدينة تنعى سوء طالعها .

فبدأ العصيان من جديد . وكان البادئ في القدس اليعازر بن حنانيا الحاخام الأكبر . إذ منع العادة التي كانت متبعة من حيث تقديم الضحايا في الهيكل من لدن الأجانب . ومنع تقديم الهدايا الملوكية . حاولت العناصر المعتدلة تهدئة الأمن . ولكن دون جدوى . وأمد أغريبا المعتدلين بقوة من عنده ، قوامها ثلاثة آلاف رجل . ولكن دون جدوى . ضبط الثوار الهيكل . وبقي المعتدلون والأغنياء في القسم العلوي من المدينة . وبدأ الخصام بين الفريقين ، وقد استمر سبعة أيام . حرق الثوار جميع الإضبارات والسجلات التي فيها الديون . فخسر الأغنياء . وبرز في الميدان زعيم جديد هو (مناحيم) الابن الأصغر ليهوذا الجليلي . فجاء هذا مرتدياً ثياباً ملكية ومحاطاً بحاشية من الجند ، كأنه يريد أن يقلد المكابيين ، وسمى نفسه ملكاً .

احتل الثوار قلعة أنطونيا والقصر الملكي وأخرجوا الجند الروماني من المدينة .

وقتل الحاخام الأكبر حنانيا الذي وجد مختبئاً في دهليز . فانتفخ مناحيم بالنصر الذي ناله بدرجة أنه أصبح لا يطاق . وكان بالإمكان التخلص من هذا الملك المفقوع . . الذي خلع من قبل رئيس الكهنة اليعازر . . وعُذب حتى مات . وسلم قائد الجند الروماني نفسه مشترطاً إنقاذ جنده . فسمح له بذلك . ولكنهم ما كادوا يلقون أسلحتهم حتى هاجمهم اليهود وقتلوهم كلهم إلا ميتليوس فقد أبقوا على حياته شريطة أن يتهود (٦٦م) . ولم يبق في أورشليم روماني واحد .

في نفس اليوم والساعة التي كان اليهود يغمس فيهما خناجرهم في صدور الرومان بالقدس ، قامت مذبحة كبيرة ضدهم في قيسارية . حيث ثار السوريون واليونانيون ضدهم ، وذبحوا منهم عشرين ألفاً في يوم واحد . وقد جرى نفس الشيء في كل مدينة سورية . وذبح أكثر اليهود في جميع هذه المدن[١] فما كان ثمة لزوم

---

(١) جاء في (تاريخ سورية) للمطران الدبس أنه قتل يومئذ في بيسان ثلاثة عشر ألفاً من اليهود . وفي عسقلان ألفان ، وفي عكا ألفان . وهكذا قل عن المدن الأخرى .

لأية أسباب خصوصية لإثارة الشعور . ولا كان ثمة إمكان لذلك . ذلك لأن اليهود قوم ميالون للاضطراب ، وفيهم قسوة وعناد ، وهم متعصبون ، ومغرورون . ولذلك كانت الحرب ضدهم لا بد منها ، وكان مصيرهم هذا لا مفر منه (B. & palmer) قادتهم ما كانوا راغبين في القتال . ولكن الجماهير كانت متحمسة للقتال . وازدادوا حماساً عندما نجحوا في إخراج الوالي الروماني كيستيوس خارج أسوار المدينة .

عندما غلب كيستيوس على أمره وطرد إلى خارج المدينة ، أسرع نحو الجنوب مع جيش قوامه عشرون ألف رجل . وعاد فاحتل المدينة .

عندما عاد كيستيوس لحصار القدس انقسم اليهود إلى قسمين : قسم أراد أن يفتح أبواب المدينة إلى الرومان ، وقسم أبى . وفيما كانوا يتجادلون أتتهم الأخبار برفع الحصار فجأة ، وانسحاب الجند لسبب لا يزال مجهولاً حتى يومنا هذا .

وفيما كان الجند الرومانيون يتراجعون ، أخذ عدد كبير من اليهود يرمونهم بالأقذار والحجارة والسباب والشتائم . فانقلب الانسحاب إلى هزيمة . ولما رجع كيستيوس بجيشه كان - على قول يوسيفوس - ربعه قد قتل . وساءت سمعة الجيش الروماني إلى درجة لم يُسمع بمثلها من قبل .

ثار ثائر الإمبراطور (نيرون) الطاغية . فأرسل إليهم قائده فلافيوس فسباسيان[١] Vespasian أرسله على وجه السرعة لإطفاء الثورة . وأمده بجيش مؤلف من ثلاثة فيالق (٦٠,٠٠٠ مقاتل) . هذا عدا عن كتائب المتطوعين . جيش كامل العدة والعدد لم يجهز الرومان مثله من قبل . فحارب هذا الجيش اليهود في بلاد الجليل . وكان يرأسهم يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير . وانتصر عليهم . وباع الأسرى الذين أسرهم بيع العبيد (٦٧م) . ولكن انقضت شهور قبل أن يصل فسباسيان إلى القدس .

وبينما كان فسباسيان يقترب من أورشليم ، ويتأهب لفتحها ؛ كان اليهود[٢] يعملون بقيادة (حنانيا) رئيس الكهنة . وقد عمر هذا الأسوار ورصفها . ودخلها في نفس الوقت (يوحنان الخارجي[٣]) فوضع يده على الأموال كلها . فثار ثائر اليهود ، وتمنوا أن لو يأخذ الرومان المدينة ليستريحوا من شره . وقامت حرب داخلية بين حنانيا

---

(١) سماه ابن العبري في تاريخ (مختصر الدول) ص ١١٦ ، اسفسيانوس .

(٢) سركيس ١١٩ .

(٣) ويسمونه «يوحنا الحبشي» .

الكاهن ويوحنان الخارجي . واستمد يوحنان العون من الأدوميين (عرب) . فأتته نجدة قوامها عشرون ألف رجل ، مدججين بالسلاح . فدخل هؤلاء المدينة وكان الهواء يوم دخولهم ماطراً . وقتل جماعة يوحنان بمساعدة الأدوميين نحو خمسة آلاف رجل من سكان أورشليم .

ثم ظهر خارجي آخر يسمى (سمعان بن جيورا) . وكان معه عشرون ألف رجل فأخذ يحارب أورشليم من الخارج . ويوحنان يحاربها من الداخل . وحدث على أثر ذلك فتن وحروب طويلة ، أصاب أورشليم بسببها ضنك عظيم . فانتحر عدد كبير من اليهود بإقلائهم أنفسهم من على الأسوار . ولما أسفر النهار وجدوا على الطرق وفي الأسواق ثمانية آلاف وخمسمئة جثة مجندلة (شباط ٦٨م) .

في هذه الأثناء اضطر فسبسيان إلى العودة إلى روما ، ليتولى عرش الإمبراطورية الذي شغر بموت نيرون الذي حطته النذوة عن أريكة الملك فانتحر (٦٨م) . فتولى قيادة الجيش من بعده ابنه تيطس(١) .

ولقد استولى الرعب على أفئدة اليهود قبل أن يصل تيطس ، إلى درجة أن قسماً كبيراً منهم مات خوفاً وجزعاً . ووصل الخوف والجزع بالحاخامين إلى درجة أنهم شعروا ، وهم في كنائسهم يعبدون الله ، أن الأرض تحت أقدامهم قد زلزل زلزالها .

وفيما كان تيطس يحشد رجاله لمهاجمة المدينة كان جون يستعد لمهاجمة رجال العازر في الهيكل . وقد هاجمهم فعلاً ، ودخل إلى صميم الهيكل ، وذبح عدداً كبيراً من المعارضين . ومن تبقى منهم انضم إليه . وبهذه الحركة قضى على شيعة العازر . فبقي في المدينة حزبان : حزب جون «في قلعة الهيكل التي عليها المعوَّل في صيانة القسم السفلي من المدينة» ، وحزب سيمون «في قصر هيرودس المسيطر على القسم العلوي منها» .

وفيما كان الفريقان يقتتلان ، ظهر تيطس أمام أسوار المدينة ، ومعه جيش جرار . جاء معتزماً أن يدكها دكاً ، وأن يجعل عاليها سافلها . وكان ذلك سنة ٧٠ للميلاد

---

(١) سماه مجير الدين «طيطوس» وكذلك ورد اسمه في «تاريخ سورية» للمطران الدبس وفي مختصر الدول لابن العبري ص ١١٧ وذكره ابن خلدون والمعزيري «طيطش» ومعناها «المحترم» تسنم عرش الإمبراطورية من سنة ٧٩ إلى ٨١ ب . م .

(١١ أبريل[١]) .

كان جيش تيطس مؤلفاً من أربعة فيالق :

(أ) الفيلق الخامس بقيادة (سيكستوس سيرياليس Sextus Cerealis) .

(ب) والفيلق العاشر بقيادة (لارتيوس ليبيدوس Lartius Lepidus) .

(جـ) والفيلق الثاني عشر ، وهو الذي غلب على أمره يوم كان بقيادة (كيستيوس Cestius) .

(د) والفيلق الخامس عشر المرافق للقائد العام تيطس .

قدر عدد الجنود النظاميين في هذه الفيالق بثلاثين ألفاً . فإذا أضيف إليهم عدد الخدام والمتطوعين ، بلغ مجموع الحملة ثمانين ألفاً . وكان في عداد هذه الحملة فرقة كاملة العدد من متطوعي الأنباط وهم عرب .

نصب تيطس مخيمه في شمال المدينة على جبل سكوبس وعلى بعد ألف وثلاثمئة متر من السور[٢] ومعه الفيلق الخامس عشر . وأقام الفيلق العاشر على جبل الزيتون . ثم وضع الفيلق الخامس غربي المدينة تجاه برجي هيبيكوس وفصايل عند الباب المعروف بباب الخليل . ووضع الفيلق الثاني عشر في الموضع الذي نسميه اليوم بالمسكوبية . وقصارى القول أحاط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم من الشرق والشمال والغرب .

الآلات التي استعملها الرومان في حصارهم هي التي اعتادوا استعمالها في مثل هذه الحالات : الأبراج المتحركة والمقاليع وما إلى ذلك من أدوات قتال . ولأجل بناء البروج وأدوات الحصار قطع الرومان جميع الأشجار التي كانت حول المدينة[٣] . لم تغرس أشجار جديدة مكان هذه الأشجار التي قطعت خلال القرون العشرة التي أعقبت هذا الحصار ، حتى أن الصليبيين عندما حاصروا المدينة لم يجدوا ما يحتاجون إليه من خشب .

انقضت الأيام الأربعة الأولى للحصار بتنظيف الأرض شمال المدينة ، وتهيئة وسائل الهجوم من تلك الناحية . لأنها الناحية الوحيدة التي أقامها السكان حول

---

(١) See Vol. i, p. 478 of the (Journal) Holy City, by Williams.

(٢) (تاريخ سورية) للمطران الدبس . ج٢ ، ج٣ ، ص ٣٦٥ .

(٣) لبناء الابراج اللازمة للهجوم .

الحدائق والبساتين ، وقطعوا الأشجار المثمرة (يوسيفوس) التي كانت بين هذه البساتين وبين سور المدينة . وعلى قول أنهم قطعوا جميع الأشجار التي كانت في شمال المدينة وغربها لئلا تعيق حركاتهم الحربية .

وصادف أن حل عيد الفصح ، فهرعت الجموع من يهود وأدوميين إلى الهيكل يتعبدون . وما كانوا يصدقون أن الهيكل أيضاً معرض لخطر السقوط في أيدي الأعداء . لا ، بل كانوا يعتقدون بأن الإله يشوعاً سينقذهم مما هم فيه . ويقول تاكتيوس أن عدد الجماهير التي احتشدت في منطقة الهيكل يومئذ يقدر بستماية الف إنسان . وأما يوسيفوس فإنه قدرهم بضعفي هذا العدد أو يزيد . وأما الذين اشتركوا بالقتال فعلاً فقد قدر يوسيفوس عددهم بثلاثة وعشرين ألفاً .

وفي خلال المعارك المحلية التي قامت بينهما هدم قسم كبير من المنازل وحرق القسم الآخر . وحرقت معها الحبوب التي كانت مدخرة فيها . ولهذا ذر قرن المجاعة في المدينة قبل أن يبدأ الحصار .

كان للقدس يومئذ ثلاثة حصون : حصن هيرودس (باب الخليل) وحصن انطونيا (شمال الحرم) وحصن الهيكل .

وكانت المدينة نفسها تعج بالسكان[١] الذين ينتمون إلى مختلف الأحزاب . أما العازر وأتباعه الموجودون في منطقة الهيكل ، فقد كان لديهم كميات كبيرة من الذخائر والمؤن ؛ وأما خصومهم الذين كانوا في خارج الهيكل ، فلم يكن لديهم شيء من ذلك . وكانوا يتضورون جوعاً .

ويقول يوسيفوس الذي كان يرافق تيطس وقد أشار إلى هذه الحادثة في كتابه أن المدينة كانت في تلك الأيام كالجسم الكبير المؤلف من أعضاء مشلولة . وكان البؤس مخيماً على الكهول من الرجال والعجائز من النساء . ووصل بهم البؤس والجوع إلى درجة أنهم أصبحوا يتمنون مجيء الرومانيين . وما كان يجدي بالمقاتلين من أبناء الشعب أي نصح كي يصطلحوا ويعملوا بيد واحدة على تخليص ما بقي في أيديهم . وما كان ثمة أي أمل في الوصول إلى أي تفاهم بين الفريقين . وقد خيم الرعب والشقاء على المدينة من كل جانب .

---

(١) قال يوسيفوس أنه كان فيها يومئذ مليون نسمة . وأما المؤرخ الروماني Tactius تأسس فإنه يقول أنه كان فيها ستمئة ألف نسمة فقط .

قبل أن يشرع تيطس في الحصار نصح إلى السكان أن يفتحوا له الأبواب . ولم يفرض لذلك شرطاً سوى الخضوع للسلطة الرومانية ودفع الخراج . فأبوا . عندئذ شرع في القتال .

استولى الرعب على اليهود . ولا سيما عندما شرع الرومان يضربونهم بالحجارة وبالآلات التي أعدوها للحصار . وحاولا الخروج من باب سري قاصدين تخريب آلات الحصار بالنار . وحاربوا بجرأة ويأس . واشترك تيطس بنفسه في هذه المعركة . وقتل بيده اثني عشر يهودياً . وكاد اليهود يتغلبون على الرومان . لولا أن جاء الرومان مدد من الإسكندرية في آخر لحظة . فانتصروا على اليهود .

وفي اليوم الخامس عشر من أيام الحصار تمكن الرومان من اختراق جانب من القسم الخارجي للسور . ففر اليهود . وتخلوا عن شجاعتهم . ولجأوا إلى داخل السور الثاني . فاستولى تيطس على بيزاتا(١) التي كانت تؤلف ثلث المدينة (٧ أيار سنة ٧٠م) .

كان السور الثاني يمتد بين قصر هيرودس ومنطقة الهيكل قاطعاً وادي تيروبين (حارة الواد) . ذلك الوادي الذي امتلأ ، قبل الحرب الأهلية بين جون وسيمون ، بمنازل طبقة العوام من الشعب . وكان هذا الحي أكثر أحياء المدينة ازدحاماً بالسكان . والسور الذي كان يحميه لم يكن من القوة بدرجة التحصينات الأخرى . حتى أن الرومان تمكنوا في بحر خمسة أيام من اختراقه . فدخلوا المدينة وعلى رأسهم تيطس .

أمر تيطس بعدم تخريب البيوت ، وعدم النهب والسلب ، وعدم الاعتداء على السكان . فعل ذلك على أمل أن يحدث تفرقة بين الجند والسكان . ولكن اليهود ظنوا ذلك ضعفاً منه . فراحوا يهاجمون الرومان في الشوارع من المنازل والأسوار . وظلوا كذلك حتى تمكنوا من إخراجهم من الأماكن التي احتلوها في داخل المدينة . واستولوا على السور من جديد .

دامت المعركة أربعة أيام أخرى عندما دخل تيطس مرة أخرى ، وهدم جميع القسم الشمالي من السور ، واستولى على القسم السفلي من المدينة .

استعرض تيطس جيشه أمام أسوار المدينة ، وعلى مرأى من اليهود المحصورين فيها . ودام الاستعراض أربعة أيام كان الجيش الروماني خلالها يمر من أمام المدينة

---

(١) حارة باب حطة وباب العمود في الوقت الحاضر .

بمشاته وفرسانه كلهم ، مرتدين بذاتهم العسكرية ومسلحين بآلات عدد حربية كاملة . فامتلأت قلوب اليهود رعباً عندما رأوا هذا العدد من الجند ، وهذه الأسلحة الكاملة ، وهذا النظام البديع في السير وفي اتباع الأوامر .

خاف اليهود . ولكنهم لم يستسلموا . ما كان لهم أي أمل . وكان يموت منهم في كل يوم آلاف كثيرة . وكانوا يلقون بجثث الموتى من على الأسوار إلى الوديان . وكان الجنود يروحون ويغدون في شوارع المدينة ، باحثين عن غذاء يقتاتون به . ويا ويل الذي يعثرون عليه وفي يده أكل ، أو على وجهه علامة الشبع . فقد كانوا يعذبونه حتى يعترف لهم أين يوجد ما يأكلون . أضاعوا كل أمل في الهرب والنجاة (يوسيفوس) . وكانت أزقة المدينة مليئة بجثث الأموات من الشيوخ والعجز . والمنازل مليئة بالنساء والأطفال الذين كانوا يعالجون سكرات الموت من الجوع . وكثيرون منهم ماتوا ، بينما كانوا يحاولون دفن من سبقهم من الأموات .

وعندما اشتد الخطر ، المجاعة في الداخل والعدو في الخارج ، اتحد الاثنان : يوحنا وشمعون وكان تيطس منهمكاً في تشييد أبراجه ، ليهاجم منها الهيكل (وقد قضى في تهيئة ذلك سبعة عشر يوماً) . فبنى منها في بادئ الأمر أربعة . ولكن اليهود تمكنوا من حرقها . فانسحب الرومان إلى الوراء .

عقد تيطس مجلساً ليستشيره : ماذا يجب أن يصنع؟ فتقرر ، بناء على إشارته ، إقامة سور A wail of Circumvallation حول المدينة وحصار كامل ، وقطع كل اتصال بين القدس والمدن الأخرى ، ولم يحاول اليهود عرقلة الأعمال التي قام بها الرومان في هذا السبيل (إذ كانوا ضعافاً للغاية) ولم يسمح لأحد بالوصول إلى السور .

فاشتدت النكبة على اليهود . وزاد عدد الذين ماتوا منهم جوعاً .

ويقال إن تيطس نفسه ، رغم أنه قوي الإرادة ورغم تصميمه على الظفر مهما كلفه الأمر ، أخذته الشفقة فراح يبكي ، ويشهد الله على أنه لم يكن السبب في ما جرى .

لم يفكر اليهود بالاستسلام . وعندما راح واحد منهم يدعى (مانيا) يخابر الرومان من أجل الاستسلام ، اكتشفوا أمره ؛ فقتلوه وثلاثة من أولاده .

وكذلك جرى لآخر منهم يدعى (يودا) ، ابن أحد القواد الذي كان مسؤولاً عن القسم العلوي من المدينة . فقد اتفق هذا مع عشرة من رجاله ، وأرسل إلى الرومان رسولاً يدعوهم للمجيء واستلام القلعة .

ولكن تيطس لم ينخدع . وخشي أن يكون اليهود قد نصبوا له مكيدة جديدة . وعندما اكتشفت هذه المؤامرة قتل يودا ورجاله العشرة ، وألقيت جثثهم من على الأسوار بين أرجل الرومانيين .

وفي تلك الآونة من الحصار جرح يوسيفوس المؤرخ المشهور . جرح بحجر أصابه في رأسه . وقد كان اليهود المحصورون يكرهونه أكثر من كرهم لأي إنسان آخر . ولما كان يحرض قومه على الاستسلام ، فقد كانوا يعدونه خارجاً عليهم .

نصح يوسيفوس قومه بالاستسلام . فتبعه فريق منهم ، وخرجوا يريدون تسليم أنفسهم إلى الرومان . ولكنهم صادفوا طالعاً سيئاً . إذ كان قد أشيع عنهم ؛ أنهم قبل خروجهم من المدينة ابتلعوا الذهب الذي كانوا يملكونه . فقتلهم المتطوعون من العرب والسوريين الذين كانوا في الجيش الروماني ، ليعثروا على الذهب الذي في بطونهم . فجزع اليهود الذين في داخل المدينة ، وعدلوا عن التسليم .

وكانت المجاعة تزداد كل يوم عن يوم . وكان عدد الأموات كل يوم في ازدياد . وأكل الناس الكلاب والجرذان والحشرات . ولم يعد للفضة قيمة . وذبحت امرأة اسمها (مرباند) ابنها وأكلت لحمه . وانتشر الوباء .

حتى أن أحد حراس الأبواب المسؤولين عن حفظ سجل الأموات ، قال : ليوسيفوس أنه مر من بابه منذ بدء الحصار ١١٥,٨٨٠ ميتاً . ويقدر يوسيفوس ، نقلاً عن الكثيرين من المؤرخين الذين يثق بهم ، عدد الأموات منذ بدء الحصار بستماية ألف .

ثابر تيطس على تشديد الخناق على اليهود ، وظل يرمي السور بالمنجنيق وأدوات الحصار . ويحفر الخنادق تحت السور حتى تمكن من قلقلة أساسه وهدمه . وظل يفعل ذلك حتى سقط السور . ولكن يا لدهشته ما اشدها عندما رأى تيطس أن اليهود كانوا قد بنوا وراء هذا السور الذي تهدم سوراً جديداً وراح اليهود من فوقه يدافعون .

وعد تيطس بمكافأة عالية كل من يسبق الآخرين في تسلق السور . فحاول روماني يدعى (سابنيوس) مع أحد عشر رجلاً آخرين تسلق السور . ولكنه قتل من لدن اليهود . وكذلك رفاقه . فمنهم من قتل ، ومنهم من جرح . ولكن الرومان عادوا فتغلبوا . فاحتلوا قبل كل شيء قلعة انطونيا وساروا نحو الهيكل . فأخذ اليهود يسلمون أنفسهم إلى الرومان زرافات ووحدانا ، طالبين الرحمة من تيطس . فتلقاهم تيطس باللطف ، وأرسلهم إلى جفنة .

قيل إن جندياً رومانيا(١) أحرق الهيكل دون أمر من تيطس . رفعه جندي آخر على أكتافه وألقى بالنار من نافذة من نوافذ الهيكل الشمالية . حاول اليهود إطفاءها . ولكن دون جدوى . وتيطس نفسه مع أركان حربه أسرع لينقذ ما يمكن إنقاذه . ولكنه جاء متأخراً . إذ سقط الهيكل إلى الحضيض (١٠ آب سنة ٧٠م) .

قتل عشرة آلاف شخص في مكان الهيكل . بينهم أطفال وشيوخ ، وحاخاميون . وهرب ستة آلاف إلى القصر الملكي ، ذلك البناء الفخم الذي كان يتوج جدار الهيكل من الناحية الجنوبية ويمتد حتى وادي قدرون شرقاً . ولكن الرومانيين أطلقوا النار على هذا القصر أيضاً . ومات الفارّون . ويقول يوسيفوس أن أرض الهيكل كانت تغلي ناراً ودماً . وأن عددالمذبوحين كان أكثر من عدد الذابحين . وأن الجنود الرومانيين كانوا يدوسون على جثث الموتى أثناء سيرهم . وأن أكثر المنازل هدمت أو أحرقت . ولما دخل تيطس إلى منطقة الهيكل استقبل فيه كما يستقبل الملوك .

عندما تم احتلال المدينة من قبل تيطس ، وذبح فيها من ذبح ، وحرق ما أحرق ، وأسر من أسر ؛ راح يبيع هؤلاء الأسرى كالعبيد : فمنهم من اشتري ليحارب مع الرومان ؛ ومنهم من القي للوحوش الضارية كي يصارع هذه الوحوش في المسارح ، ومنهم من حكم عليه بالأشغال الشاقة في المناجم مدى الحياة .

وراح الرومانيون يبحثون عن اليهود الفارين في الغرف والمخابىء المحفورة تحت الأرض . وكانت القدس في تلك الأيام مليئة بمثل هذه الغرف والمخابىء . وعندما

---

(١) قيل إنه كان يعرف أن تيطس لا يريد أن يحرق الهيكل ولكنه خالف أمر قائده .

(١) اسم هذا الجندي (دوميروس) وهو سوري الجنسية حوراني المولد مسيحي المذهب . ولقد تطوع في الجيش الروماني نكاية باليهود أعداء السوريين وأعداء الرومان في ذلك الحين . وأحرق الهيكل مخالفاً بذلك أمر تيطس . وقد اشتركت أخته (دوميرا) معه في هذا العمل . وتبعهما عدد من الجنود الآخرين . لاعتقادهم بأن القضاء على الهيكل قضاء على الرمز الذي يلتف حوله اليهود .

(٢) من الاتفاقات الغريبة أن الهيكل القديم الذي بناه سليمان الملك دمر على يد نبوخذ نصر في مثل هذا اليوم (أي ١٠ آب) من سنة ٥٨٦ ق .م .

(١) لوك وكيث روش ، ص ٥٦ .

بحثوا عن الكنوز والأموال المخبأة فيها ، وجدوا بعض الناس مختبئين . فحكموا عليهم بالموت . وفي البعض الأخرى عثروا على جثث الموتى .

إلا يوحنا وسمعان ، فإنهم لم يعثروا عليهما في بادىء الأمر ، لا بين الأسرى ولا بين الأموات . ولكنهم عثروا عليهم بعد حين . أما جون فقد سلم نفسه بعد احتلال القدس ببضعة أيام . فسجنه وأبقاه سجيناً مدى الحياة . وأما سيمون فلم يسلم نفسه إلا في أكتوبر . وقد أخذه معه إلى روما ، وفي الاستعراض الذي أقامه هناك احتفاء بالنصر قتله .

قدر يوسيفوس عدد من هلك في هذه الحرب بمليون ومائة ألف نسمة . والذين أخذوا أرقاء ونقلوا إلى رومية تسعة وتسعون ألفاً . والباقون طردوا إلى مصر وغيرها من البلدان وحقت على اليهود نبوءة إرميا الذي قال : «الذين للموت فإلى الموت . والذين للسيف فإلى السيف . والذين للجوع فإلى الجوع . والذين للسبي فإلى السبي» .

قامت أفراح الرومان : زينات ، وضيافات ، وترقيات ، ومكافآت ، وتقسيم منهوبات . ودامت هذه الأفراح ثلاثة أيام (١ ايلول ٧٠م) .

بعدئذ سافر تيطس إلى قيصرية . وأخذ معه الفيلقين : الخامس والخامس عشر . وأبقى في القدس الفيلق العاشر بقيادة (ترنتيوس روفوس) لأجل صيانة الأمن في المدينة . وأرسل الفيلق الثاني عشر إلى شواطئ الفرات .

وفي قيسارية أقام تيطس الحفلات الدالة على انتصاره . واستحضر في هذه الاحتفالات وحوشاً ضارية . وأرغم كثير من أسرى اليهود أن يصارعوها . فظفرت بهم الوحوش ، وافترستهم . وكذلك فعل باليهود في حفلات ومصارعات أخرى .

ثم سافر تيطس إلى روما ، مصطحباً معه يوسيفوس ، فقوبل فيها بعظم الاحتفاء كما لو كان ملكاً . فأقيمت على شرفه حفلات . ورفعت أقواس النصر .

سك الرومان ، احتفاء بهذا النصر ، نقوداً (٧٩-٨١م) يرى الرائي على وجه القطعة منها صورة تيطس وبيده الصولجان وأمامه امرأة يهودية حزينة جالسة على الأرض ومتكئة على نخلة ، وعلى الوجه الأخر أسير يهودي مكبل اليدين واقف ينظر إلى امرأتين أسيرتين . وفي ذلك إشارة إلى سبي اليهود الذي تم على يد تيطس الذي قهرهم وأذلهم .

يقول بالمر وبيزانت اللذان نقلت عنهما وقائع هذه الحرب الضروس أن المؤرخ اليهودي يوسيفوس الذي جرى ما جرى أمام سمعه وبصره كان محقاً في زعمه أن

اليهود ما كانوا ليبلغوا هذه الدرجة من الذل والمسكنة والتقهقر والانخذال ، لولا أنهم كانوا مشاغبين وأنانيين وفوضويين ، لا يحبون النظام ولا يطيعون الأوامر .

هجرت القدس هجراً طويلاً بعد احتلالها من لدن تيطس . فلم يبق فيها سوى الحامية الرومانية بجنودها وضباطها ، وهم أفراد الفرقة العاشرة ؛ وأن الداخل من باب الخليل إلى المدينة القديمة يرى على يساره تجاه السور بناء كبيراً . وفي الطابق الأرضي لهذا البناء وفي وسطه يرى عموداً من رخام نقش عليه اسم هذه الفرقة .

وقد رجع إليها المسيحيون الذين كانوا فيها وأما اليهود فقد حظر عليهم الرجوع إليها . ذلك لأن الرومان أيقنوا أنهم مصدر القلاقل والفتن التي كانت تستعل في البلاد ، وأن أكثر هذه القلاقل والفتن كانت تنبعث من القدس التي أسموها ، كما أسماها اليونانيون من قبلهم ، «عش الدسائس والفتن» .

لم يضطهد إمبراطور الرومان قسباسيان اليهود الذين عاشوا خارج مدينة القدس . إذ اكتفى بما أصابهم من ذل . ولكنه فرض على كل واحد منهم دراخمتين ؛ لا ، من أجل هيكلهم ولكن من أجل بناء هيكل باسم «جوبيتر كابيتالينوس» أي مشتري العاصمة . وقد حصلوا فوراً . وبحث عمال فسباسيان عن كل شخص يمت بالنسب إلى الملك داود من أجل القضاء على الأسرة المالكة .

ظل اليهود قابعين في أماكنهم حيث كانوا أربعين عاماً . لم يثوروا . لا ، بل ولم يحركوا ساكناً . ولكنهم عادوا إلى الشغب في عهد الإمبراطور تراجان (١٠٦-١١٤م) . فقد حدثنا التاريخ أنهم في روما مثلاً كانوا يأتون بأعمال من شأنها إغاظة الرومان . فبينما يكون هؤلاء مجتمعين ليحتفلوا بميلاد ولي عهدهم ، كان اليهود يقيمون المناحات . وبينما يكون البلاد الإمبراطوري في حداد لموت إحدى بنات الأسرة المالكة ، يظهر اليهود أقصى آيات الفرح والسرور . فيضيئون الشموع وينشدون الأغاني والأهازيج . ومن هذا العناد نشأ الاضطهاد الذي وقع عليهم في ذلك العهد .

ففي زمن الإسكندر ذبح اليونان جميع اليهود الذين كانوا فيها ، فقام اليهود الذين في قبرص على أثر ذلك وذبحوا ٢٤٠٠٠٠ من مواطنيهم . في طرابلس الغرب ومصر أيضاً ثار اليهود . كما ثاروا في بلاد ما بين النهرين .

وأما في القدس ، وقد تمكن عدد كبير من اليهود من الرجوع إليها بسبب ضعف الحامية فيها ، فقد ثاروا أيضاً . ولكن ثورتهم هذه أطفئت على الفور من لدن الحاكم الروماني (لوقيوس كويتوس Lucius Quietus) .

ولما مات تراجان واعتلى على عرش الإمبراطورية (ادريانوس[1]) ١١٧-١٣٨م تخلى عن جميع البلاد الواقعة في الشرق وراء نهر الفرات . فعاش اليهود في ما وراء ذلك النهر مع الفرس أصدقائهم وساداتهم الأقدمين .

وقد اعتزم ادريانوس أن يقضي على الشعب اليهودي الذي كان لا يهدأ له بال دون أن يكون السبب في نوع من أنواع الشغب والاضطراب . فعين أخا زوجته (اكيلا) والياً على المدينة . وأمره بإعادة المدينة إلى سابق عزها . فحظر هذا على اليهود الاختتان (الطهور) ، وقراءة التوارة ، واحترام السبت . واعتزم - إلى ذلك - قلب مدينة القدس إلى مستعمرة رومانية .

عندئذ قام بارقوخبا ، ابن الكوكب وأضل اليهود . وانتحل لنفسه صفة المسيح المنتظر . وحرض قومه على الثورة . فقامت اضطرابات دموية (١٣٥ ب .م) كانت أشد الثورات التي قام بها اليهود وأكثرها دما . ولكنها انتهت بفشل اليهود .

بدأت الثورة بإشاعات . وسرت الإشاعات بسرعة البرق : «المسيح المنتظر قد جاء! . تحققت نبوءة (بلعام)! . . يقود بارقوخبا مئتي ألف محارب من اليهود المتدينين!» .

عندئذ استحضر الوالي الروماني الجديد (تورنوس روفوس Turnus Rufus) الحاخام (عقيبا) إليه وسجنه . وأتى به إلى المحاكمة . وفيما كانوا يستجوبونه على فعاله ، تذكر الحاخام عقيبا أنه حان وقت الصلاة . فقام يصلي دون أن يستأذن القضاة الذين كانوا يستجوبونه . فحكموا بتعذيبه .

أخفى اليهود بادئ ذي بدء غايتهم ، كانوا يعرفون المغائر ، والمخابئ ، والممرات تحت الأرض ، وطرق المواصلات . وحفروا الدهاليز تحت الأرض وأوصلوها بعضها ببعض . وحصنوا المواقع القابلة للتحصين . وقد نجحوا في ثورتهم في الأيام الأولى من ثورتهم . فاستولوا على عدد كبير من القرى والمواقع المحصنة .

وكان همهم في الدرجة الأولى الاستيلاء على القدس . ولم يكن فيها يومئذ سوى حامية صغيرة . فدخلوها من غير مقاومة تذكر . وأعادوا بناء الهيكل .

والحاكم الروماني (تورنوس روفوس) الذي كان لديه عدد قليل من الجنود وإن

---

(١) يكتب البعض هذا الاسم (هدريان) و(هدريانوس) . وعندنا أنه من الأنسب كتابته بهذا الشكل : (أدريانوس) . فقد ذكره ابن العبري في (مختصر الدول) ص ١٢١ أدريانوس .

كان استطاع أن يذبح عدداً كبيراً من اليهود الكائنين خارج القدس ، إلا أنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يسيطر على الثائرين في داخل القدس . وكان هؤلاء يزدادون سطوة وبأساً في كل يوم .

فنادى أدريانوس إليه (يوليوس سيفيروس Julius Severus) بوجه السرعة . وجاء هذا بقوة كبيرة . وسار على الخطة التي كان قد رسمها من قبله فسباسيان . فهاجم الأمكنة المحصنة الواحد بعد الآخر . ثم احتل القدس . وكسر معنويات الثوار . وذبح بارقوخبا . فيئس الثوار . وراحوا يسمونه : (باركذيبا Bar koziba) ابن الكذاب . وفي المعركة التي تلت ذلك في ضاحية من ضواحي القدس ، وكان قائد الثوار فيها ابن بارقوخبا ، تغلب الرومان على اليهود وقتلوا منهم ٥٨٠,٠٠٠ بالسيف . هذا غير الذين ماتوا منهم جوعاً أو مرضاً أو حرقاً بالنار . ومن لم يمت بطريقة من الطرق ، طرده من المدينة . فلم يبق فيها منهم واحد .

ولما قضي على الثورة التي قادها بارقوخبا سنة ١٣٥ بعد الميلاد ، فرض الوالي الروماني (سبتيموس سيفيروس Septimus Severus)[١] على اليهود تدابير لا يطيقونها ، لئلا يثوروا مرة أخرى . فغادروا فلسطين . وتشتتوا في جميع أنحاء العالم : في سوريا وآسيا الصغرى وفي مصر وطرابلس الغرب وجزر الأرخبيل وإيطاليا وبلاد اليونان والغال وغيرها من البلدان .

ولم تقم لهم في فلسطين قائمة بعد ذلك التاريخ .

أمست القدس خراباً على عهد أدريانوس . إذ إنه حصدها حصداً . . وأصبحت قرية صغيرة تابعة لقيسارية من جميع النواحي الإدارية والسياسية والاقتصادية والدينية . وقد حظر على اليهود الرجوع إليها . وسكنها أقوام مختلفة من يونان وسوريين ورومان .

وقد اضطهد الإمبراطور أدريانوس المسيحيين أيضاً[٢] . فأمر (سنة ١٣٥م) بإجلائهم عن الكنيسة . وقد أمر بردم المكان بكمية وافرة من التراب والحجارة . وغطى أرضه الأصلية وبلطه . وبنى فوق الجلجلة والقبر هيكلين وثنيين . ونصب

---

(١) كان هذا قبل أن يعتلي العرش متزوجاً امرأة سورية اسمها (جولية دمنة) . ومعنى سيفيروس : الصارم . ولما اعتلى العرش أصبحت امرأته هذه الآمرة الناهية في جميع أنحاء الإمبراطورية .

(٢) تاريخ كنيسة أورشليم الارثوذكسية ، ص ٧ .

فوقهما تمثالي المشتري والزهرة . ثم حول الأرض المجاورة لهما إلى بستان[١] .

وفي عام ١٣٩م أي بعد مضي أربع سنوات على خراب أورشليم الثاني ، بنى الإمبراطور أدريانوس مدينة جديدة على أنقاض المدينة القديمة احتفالاً بمرور واحد وعشرين عاماً على ارتقائه سدة الملك ، دعاها (ايليا كابيتولينا[٢]) . وقد حظر على اليهود ليس فقط دخول هذه المدينة الجديدة ، بل والنظر إليها من بعيد . وبهذا قضى على كيانهم قضاء مبرماً وإلى الأبد .

بنى (أدريانوس) سوقاً في المكان المعروف الآن بباب العمود . وأقام هناك أروقة وأعمدة كثيرة قيل إنها كانت تمتد حتى جبل صهيون .

بعد بناء القدس الجديدة (ايليا كابيتولينا) أصبحت[٣] المسكوكات التي ضربت فيها لاتينية . وقد توصل الأثريون إلى عدد من هذه النقود الرومانية ترجع إلى ذلك العهد وإلى عهود الأباطرة التي جاءت من بعده .

الآن وقد انتهينا من ذكر الوقائع التي جرت في القدس على عهد الرومان ، نود أن نلقي نظرة على حالة القدس يومئذ من ناحية عمرانية واجتماعية ، فنقول :

منحوا البلاد ، في بادىء الأمر ، استقلالاً داخلياً تابعاً للسيادة الرومانية . وعينوا أبناءها حكاماً . ولكنهم عادوا مع توالي الثورات والاضطرابات فعدلوا عن الحكم الذاتي ، وضموها إلى إمبراطوريتهم . وأخذوا يبعثون إليها بالحكام من أبناء روما ليحكموها . ومع ذلك فقد حدثنا التاريخ أن معاملتهم للشعوب والبلاد المحتلة كانت معاملة إنسانية واحترام . وأنهم كانوا يمنحونهم نفس الحقوق التي كانوا يمنحونها لأبناء الوطن .

وقد ازدادت القدس ، على عهدهم ، أهمية من جميع النواحي السياسية والعسكرية والتجارية . لا ، بل أصبحت من أهم الأهداف التي ترمي إليها الإمبراطورية الرومانية في الشرق . فكانت الجيوش تفد إليها من الغرب إلى الشرق .

وكان من الطبيعي أيضاً أن يكون لهذه الحركة ، حركة الازدهار والعمران ، تأثيرها

---

(١) رسالة القديس ايروغوس السابعة عشرة إلى بولينا . عدد ٣ .

(٢) إن هذا الاسم مأخوذ من اسم أسرته (ايليوس) . واسم التمثال (جوبيتر كابيتولين) الذي نصبه فوق المكان الذي صلب فيه السيد المسيح .

(٣) مجلة (الراعي الصالح) ، ج١٢ .

في الحركة الفكرية وفي طرق الإدارة والجباية . فقد حدثنا التاريخ أنهم كانوا يفرضون الضرائب ويجبون الرسوم ومنها :

الجزية[١] ، وعشر الغلة[٢] ، وخراج الأملاك[٣] ، وإتاوة المال ، والمكوس على الواردات والصادرات وما إلى ذلك . ويقول الأستاذ محمد كرد علي الذي أشار إلى طرق الجباية[٤] هذه في عهد الرومان أن روما غنيت يومئذ ، والبلاد فقرت .

إن الطريق الحالية التي تمر من داخل المدينة من باب العامود إلى باب الأسباط ، والتي تفصل بين منطقة الحرم وحارة السعدية ، كانت قبل العهد الروماني وادياً يفصل بين حارتي موريا (منطقة الحرم اليوم) . وبيزيتا (باب حطة وحارة السعدية اليوم) ولما احتل الرومان القدس أزالوا هذا الوادي بإملائه بالتراب . وكان ذلك بأمر من الإمبراطور (بومبي) .

كانت الطريق الآتي ذكرها من أهم الطرق التي تسير عليها القوافل التجارية في عهد الرومان :

القدس - اللسان - غور المزرعة - الكرك - الطفيلة - الشوبك .

وكان الأنباط قد احتكروا القوافل ووسائل النقل على هذه الطريق في النصف الأول من القرن الأول للميلاد ؛ لعدم وجود منافس لهم ، ولعدم استعمال الطريق البحرية في ذلك الحين بسبب جهلهم فعل الرياح الموسمية .

وكانت هنالك طريق بين فيلادلفيا (عمان) والقدس[٥] تتبع الطريق الحديثة التي تخترق وادي الأردن .

رصف الرومان هذه الطرقات ، وجعلوها دائمية بدلاً من مؤقتة . ولا شك أن المهندسين الذين رسموا مخططاتها كانوا ماهرين ، بدليل أن أقساماً من هذه الطرق لا تزال باقية إلى الآن .

---

(١) من سن ١٤ للذكور و١٢ للإناث حتى سنة ٦٥ .

(٢) كانوا يؤجرونها إلى متعهدين يسمونهم (العشارين) وكان هؤلاء يجبون أكثر مما يستحقون وكثيراً ما بيع الفقراء الذين يعجزون عن دفع ضرائبهم في الاسواق بيع الرقيق .

(٣) واحد في المئة .

(٤) خطط الشام ، ص ٤٧ ، الجزء ٥ .

(٥) (تاريخ شرقي الأردن وقبائلها) ، لبيك باشا . ص ٧١ .

هناك نقود ومسكوكات ترجع إلى عهود الأباطرة : أغسطس (٦٣ ق .م - ١٤ ب .م) طيبباريوس (١٤-٣٧م) . كلوديوس (٤١-٥٤م) . نيرون (٥٤-٦٨م) . فسباسبانوس (٦٩-٧٩م) . تيطس (٧٩-٨١م) . وهي تحمل آثارهم .

وبين عهدي طيبباريوس وكلوديوس ، أي في عهد كاليجولا (٣٧-٤١م) ضربت عملة في أورشليم . وجميع القطع التي ضربت في أيامه تحمل نفس الرموز . نقش على وجهها : من الملك أغريباس (باليونانية) مظلة في حقل مزدانة بالزهور ، وعلى الخلف ثلاث سنابل ، وعلى يسارها ويمينها رقم السنة السادسة من حكم اغريباس .

اثناء الثورة التي أوقد نارها (سمعان بارقوخبا) في زمن الإمبراطور ادريانوس (١٧٧-١٣٨م) ضرب اليهود في أورشليم مسكوكات عبرية (١٣١م) نقش على وجهها : أورشليم . هيكل في واجهته أربعة أعمدة . غصن نخلة . سمعان . عنقود . عود طرب . شجرة بلح مثمرة . غصن دالية . وعلى الخلف : السنة الأولى من خلاص إسرائيل . السنة الثانية . شجرة في حقل حزمة من الأغصان . حرية أورشليم . بوقان . إناء له مقبضان .

وكثير من هذه القطع النقدية ضرب على مسكوكات قديمة ، تعود إلى زمني أدريانوس وتراجان(١) .

اللغات التي كانت مستعملة في القدس ، على عهد الرومان ، هي : (الآرامية) . وقد كانت هذه يومئذ لغة التخاطب العامة . و(العبرية) لغة اليهود من السكان . و(اليونانية) لغير اليهود ، وللمثقفين من السكان على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم . و(اللاتينية) لموظفي الرومان وعمالهم . وقد بلغت هذه الذروة على عهدهم .

كان الرومان ماهرين في صناعة البناء ، والنقش على الرخام . وفي صناعة التماثيل والأوثان . لهم ولع بالشغل والعمل . يرغبون في القناعة . لهم عزم ثابت . ذوو شدة ومراس .

ولقد قطعوا شوطاً بعيداً في سبيل عمران هذه البلاد . فلا المعابد التي بنوها ، ولا المخافر والحصون التي شيدوها ، كانت لتلهيهم عن واجباتهم الأخرى . فقد عبدوا الطرق ، وحفروا الصهاريج ، وأنشأوا المجاري ، وأقاموا السدود والجسور ، وغرسوا الأشجار . فازدهرت التجارة والصناعة في عهدهم .

---

(١) مجلة (الراعي الصالح) ، ج١٢ .

ولكنهم بعد الفتوحات أبطرتهم النعمة والسعة . فتفرغوا للملاهي ، وأحبوا العظمة ، واشتغلوا بالملاعب والملاهي ، وانتحلوا ديانة الأمم والبلدان التي افتتحوها .

وإنه لمن المؤسف القول إن أكثر المنشآت التي قامت في هذه البلاد على عهد الرومان ، عفت آثارها : فقسم منها ألم به الخراب في أثناء الثورة المكابية وثورة بارقوخبا وغيرها من الثورات . وما تبقى منها بعد هذه الثورات ، خربه الفرس عندما احتلوا المدينة (٦١٤م) قبيل الفتح الإسلامي . وكان تخريبهم لها بتحريض من اليهود . ولقد حدثناك عن هذا الحادث بالتفصيل في فصل الفرس .

وصل الاصطدام ذروته بين الوثنين والمسيحيين على عهد إمبراطور الرومان مكسيمينوس (٣٠٣م) . وكان على رأس الكرسي الأورشليمي يومئذ الأسقف ايرمون[١] . فقد قبض على عدد كبير من المسيحيين ، وقتلوا بعد أن عذبوا : بعضهم أحرق بالنار ، والبعض الآخر طرح لوحوش البر . وكان الوثنيون في بعض الأحايين يكتفون بتكليفهم بالرجوع عن ديانتهم . فإذا رفضوا عُذبوا بوضع أرجلهم في قوالب من حديد ، أو كشطت جلودهم وهم أحياء . وقد أمر الوالي الروماني إرضاء للإمبراطور مكسيمينوس أن لا تدفن جثث الموتى من المسيحيين .

عندما مات مكسيمينوس (٣١٤م) وتولى الإمبراطور قسطنطين الأمر ، وقف الاضطهاد الذي كان موجهاً للدين المسيحي . إذ نشر هذا أمراً أتاح فيه لجميع رعاياه حرية الدين .

كانت الإمبراطورية الرومانية منشقة إلى مملكتين :

(أ) المملكة الغربية وعاصمتها روما .

(ب) المملكة الشرقية وعاصمتها بيزانس .

وكانت فلسطين آنئذ تحت سيطرة المملكة الرومانية الشرقية وكانوا يسمونها : (الدولة البيزنطية) .

ولكن الملك قسطنطين وحّد المملكتين كما سنرى في الأسطر التالية :

إن أول من تنصر من أباطرة الرومان هو إمبراطور المملكة الرومانية الشرقية : (قسطنطين)[٣] . فقد تنصر هو وسمح للنصرانية بالانتشار في الغرب ، بينما كانت هذه مضطهدة في الشرق . وقامت بينه وبين ليسينيوس حروب كان النصر فيها حليفه . فتم له ما أراد . وفتح روما . فأصبح القائد غير المنازع للمملكة الرومانية في الشرق والغرب . وأقام على أنقاض بيزانس القيمة مدينة جديدة أسماها : قسطنطينية (٣٣٠ ب .م) . فزاد في ساحتها أربعة أميال . وبنى حولها سوراً . واتخذها

---

(١) تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية . ص ٢٧ .

(٢) استانبول .

(٣) قسطنطين كلمة لاتينية معناها : الحازم .

عاصمة ملكة . وبنى في القسطنطينية كنيسة أسماها : (أياصوفيا) . فمن هو هذا قسطنطين؟

جاء في الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica إنه (قسطنطين الكبير) . وأنه ولد بمدينة (نيش) من أعمال صربيا . وكان ذلك بتاريخ ٢٧ شباط ٢٨٨م . وقد عاش تسعاً وأربعين سنة . تسنم العرش بعد وفاة أبيه قسطنطينوس الأول . وكان ذلك بتارخ ٢٦ تموز ٣٠٦م . وراح يحمل لقب «قيصر» في الشرق والغرب من مملكته . . تزوج من فوستا Fausta ابنة مكسيميان . . وانتصر في حروبه على أعدائه . وكان يقود جيشاً قوامه مئة ألف مقاتل . وقيل في انتصاره أنه[٢] بينما كان يزحف صوب أهدافه في أوروبا ؛ شاهد في السماء ، وهو يبتهل إلى رب السماء كي ينصره على أعدائه ، قبساً من نور شبيه بشارة الصليب . فاستبشر . وصاغ لنفسه صليباً من ذهب ، وكان يرفعه على رأس رمحه . ولما غزا روما وافتتحها ، وتم له ما أراد ، رأى من مصلحته أن يتنصر . فتنصر ، وأصبح منذ ذلك الوقت مسيحياً صادقاً .

في سنة ٣٢٥م أصبح قسطنطين الحاكم المطلق في الشرق والغرب . وفي سنة ٣٢٦م نقل عاصمة ملكه من روما إلى الشرق . وقبل نهاية السنة نفسها كان الحجر الأساسي لمدينة القسطنطينية الجديدة قد وضع . فقد فعل ذلك بغية أن يتخذ الدين المسيحي الدين الرسمي لمملكته . ذلك لأن روما كانت يومئذ غارقة في عبادة الأوثان .

وقبل أن يموت قسّم مملكته (٣٣٥م) بين أولاده الثلاثة : قسطنطينوس وقسطنطينس وقوسطوس . وحفيديه دالماتيوس وهينياليانوس . أما قسطنطينوس وهو ابنه الأكبر فقد أعطاه القسطنطينية وأما ابنه الثاني قسطنطينس فقد أعطاه مصر والشام وما بين النهرين وأرمينيا . وأما قوسطوس ، وهو الابن الأصغر فقد أعطاه روما . وأعطى حفيديه ما تبقى من أجزاء مملكته .

اضطهد الملك قسطنطين اليهود[٣] ففرض عليهم أن يتنصروا . فريق منهم تنصر

---

(١) ويسمونها إسطنبول وإسلامبول وإستانبول وإستنبول . وهي مؤلفة من ثلاث كلمات : اس - تن - بولس . أي في المدينة .

(٢) (تاريخ مختصر الدول) لأبي الفرج بن اهرون الطبيب الملطي المعروف بابن العبري . ص ١٣٤ .

(٣) (تاريخ القدس الشريف) لسركيس ، ص ١٥٦ .

بالفعل ، ولكنهم لم يأكلوا لحم الخنزير . وفريق تظاهروا بالنصرانية ، ولكنهم ظلوا على دينهم ، وامتنع الآخرون عن التنصر ، فقتلوا ، ومن نجا من القتل غادر البلاد .

وضع قسطنطين قوانين عديدة لتنظيم الإدارة والجيش . ففصل بين السلطتين ، ولم يسمح للحكّام الإداريين بالتدخل في الشؤون العسكرية .

ونظم أيضاً الشؤون المالية والبلدية والزراعية . ووسع سلطات رجال الكهنوت . وشجع (اللامركزية) في أعمال الولايات .

توفي في ٢٢ أيار ٣٣٧م . ودفن في كنيسة ايوستولس بالقسطنطينية .

عندما تنصر قسطنطين تبعه خلق كثير من سكان البلاد التي كان يحكمها ، ومن سكان البلاد المجاورة لمملكته أيضاً ، فتنصروا . وكذلك قل عن سكان فلسطين الذين اعتنقوا النصرانية . ولم يمض وقت كبير حتى تنصرت أمه الملكة هيلانة[١] . وزارت هيلانة مدينة القدس (٣٢٦م) . فبنت فيها كنيسة القيامة .

ترى كيف ولماذا وأين بنتها؟ هذا ما سنقصه عليك في السطور التالية :

قلنا في موضع آخر من هذا الكتاب أن السيد المسيح أدين في القدس على عهد الوالي الروماني (بيلاطس) وحكم عليه بالموت . وكان من عادة الرومان أن يصلبوا المحكوم . فأخذه الجند . ولما مضوا به إلى الموضع الذي يدعى (الجمجمة) صلبوه[٢] هناك . ويقال لهذا الموضع ايضاً (جلجثة) . وكان المكان الذي صلب فيه قريباً من المدينة[٣] ، خارج السور . ولما كان المساء جاء رجل غني من الرامة اسمه يوسف[٤] . «وكان هذا رجلاً صالحاً وباراً . ولم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم[٥]» . «فتقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع . فأمر بيلاطس حينئذ أن يعطى الجسد . فأخذ يوسف الجسد . ولفه بكتان نقي . ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة .

---

(١) (هيلانة) كلمة يونانية . معناها : (الفاتنة) .

(٢) العقيدة الإسلامية تقول : ﴿وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم . .﴾ إلى أخر ما جاء في الآية ١٥٧ من سورة النساء .

(٣) انجيل يوحنا : ف ١٩ ، عدد ١٧-٢٠ .

(٤) انجيل متى : ف ٢٧ ، عدد ٥٧-٦٠ .

(٥) انجيل لوقا : ف٢٣ ، عدد ٥٠-٥١ .

ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى[1]» .

كان قبر المسيح في البدء عبارة عن مغارة[2] محفورة في الصخر ، لها حجرة خارجية بمثابة دهليز . ولهذا الدهليز باب منخفض جداً من الجهة الغربية يسده حجر كبير . وهو يفضي إلى حجرة داخلية ترى فيها عن يمينك صفة محفورة في الصخر وضعت عليها رفات المسيح .

ويظهر أنه كان في ذلك المكان في أوائل عهد النصرانية كنيسة . ولكنا لا نعلم إلا النزر اليسير عن هذه الكنيسة التي حدثنا التاريخ عنها فقال[3] : «إن المسيحيين اضطهدوا اضطهاداً شديداً على عهد إمبراطور الرومان أدريانوس (١٣٥م) ، وأن هذا الإمبراطور أجلاهم عن الكنيسة ، وأمر بردم المكان وتغطيته بالتراب والحجارة ، ثم بلطه ، وبنى فوق الجلجلة والقبر هيكلين وثنيين ، ونصب فوقهما تمثالي المشتري والزهرة . ثم حول الأرض المجاورة لهما إلى بستان .»

ولما تبوأ الملك قسطنطين عرش القياصرة واعتنق الدين المسيحي وكان تقياً ، انتعشت النصرانية انتعاشاً كبيراً . وزارت أمه الملكة هيلانة أورشليم (٣٢٦م) ؛ فهدمت الهيكل ، وحطمت الأصنام التي أقامها أدريانوس ، وأزالت الأتربة والحجارة . فظهرت صخرة الجلجثة[4] بارزة على هيأتها الأصلية وفي وسط البستان بدت مغارة المسيح . وفي هذا المكان نفسه بنيت (كنيسة القيامة) (٣٣٥م) . وكانت يومئذ مستطيلة الشكل على غرار كنيسة المهد في بيت لحم في يومنا هذا . وكان موضع

---

(١) انجيل متى : ف ٢٧ ، عدد ٥٨-٦٠ . انجيل مرقس : ف١٥ ، عدد ٤٦ . انجيل لوقا : ف٢٣ عدد ٥٠ -٥٢ .

(٢) تاريخ كنيسة القيامة لثاوفانوس .

(٣) رسالة القديس ايرونيموس السابعة عشرة إليبولينا - عدد ٣ .

(٤) اختلف المؤرخون في تأويل هذا الاسم : فقال بعضهم إنه اسم الموضع الذي جاء الجند بيسوع إليه بعدما حكم عليه بالموت . وقال القديس ايروثيموس أن الجلجلة معناها الجمجمة . وأنها سميت كذلك بسبب جماجم القتلى الذين عوقبوا في هذا المكان . وقال اوريجانس أنه دعي الجمجمة لأن جمجمة آدم أبي البشر مدفونة هناك . والاعتقاد سائد بين المؤرخين أن في هذا الموضع مات المسيح ، وفيه اكتشف الصليب . وكان من عادة الرومان ان يدفنوا أدوات الصلب بجوار قبر الرجل المحكوم عليه بالموت .

القبر، في بادىء الأمر، خارج السور . ولما بنت الملكة هيلانة الكنيسة وسعت السور هناك بحيث أصبحت الكنيسة داخل السور، وراحت تعتبر جزءاً من المدينة . ويشمل هذا الاسم الآن مجموع الكنائس والمعابد المشيدة فوق الجلجلة وقبر السيد المسيح والمغارة التي اكتشف الصليب فيها .

قال ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) نقلاً عن ابن الراهب :

«عندما جاءت هيلانة أم الملك قسطنطين لزيارة بيت المقدس سألت عن موضع الصليب . فأخبرها مقاريوس الأسقف أن اليهود أهالوا عليه التراب والزبل . فأحضرت رجال الكهنوت وسألتهم رفع ما هنالك من الزبل . ثم استخرجت ثلاثة من الخشب : خشبة المسيح والخشبتين اللتين صلب عليهما اللصان، وسألت ايتها خشبة المسيح . فقال لها الأسقف أن الميت يحيا بمسيسها . وبنت على الموضع كنيسة (القمامة[1]) . وأمرت مقاريوس الأسقف ببناء الكنائس . وكان ذلك لثلاثمائة وثمان وعشرين سنة من مولد المسيح عليه السلام» . وقال في مكان آخر : «إنها أخرجت الصليب من تحت الزبل والقمامات وغشته بالحرير والذهب وجاءت به إلى روما» .

وذكر المقريزي (١٣٥٨ ١٤٤١م) في كتابه «القول الإبريزي» ما حرفيته : «وفي السنة الثانية والعشرين من ملك قسطنطين سارت أمه هيلانة إلى القدس وبنت به كنائس للنصارى . فدلها مقاريوس الأسقف على الصليب، وعرفها ما عملته اليهود . فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع . فحفرته فإذا قبر وثلاث خشبات . زعموا أنهم لم يعرفوا الصليب المطلوب من الثلاث خشبات، إلا بأن وضع كل واحدة منها على ميت قد بلي، فقام حياً عندما وضعت عليه خشبة منها . فعملوا لذلك عيداً مدته ثلاثة أيام، عرف عندهم بعيد الصليب . وعملت له غلافاً من ذهب . وبنت كنيسة القيامة التي تعرف اليوم بكنيسة قمامة . وأقامت مقاريوس الأسقف على بناء بقية الكنائس وعادت إلى بلادها . فكانت مدة ما بين ولادة المسيح وظهور الصليب ثلثمائة وثمان وعشرين» .

والمأثور في تاريخ الكنيسة ملخصاً[2] عن اوسابيوس Eusebius (٣٢٦ -٣٣٥)

---

(١) هكذا كان اسم القيامة في أوائل الفتح الإسلامي .

(٢) مجلة (الراعي الصالح) الجزء الثامن . ص ١٤٧ .

وسقراط (ك ١ ف١٧) وسوزومانوس (ك ٢ ف١) وتوادوريطوس (ك١ ف١٧) من مشاهير مؤرخي الكنيسة في القرنين الرابع والخامس أن القديس مقاريوس بطريرك أورشليم وقت اجتماع الأساقفة في المجمع الأول المسكوني (سنة ٣٢٥) هو الذي قال للإمبراطور قسطنطين العظيم أن الأماكن المقدسة مطمورة وقائم عليها هياكل وثنية. فأسف الإمبراطور وقرر بالحال إرسال والدته القديسة هيلانة إلى أورشليم (٣٢٦). فجاءت هذه ووجدت المغارة التي فيها الصلبان والجلجلة ومحل القبر. وأخبرت الإمبراطور. فأمر ببناء كنيسة القيامة فوق محل الصليب.

حدثني الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف عضو المجامع العلمية في بيروت ودمشق والبرازيل أن الملكة هيلانة والدة قسطنطين البيزنطي عندما اكتشفت عود الصليب عملت الترتيب التالي الذي كانت قد اتفقت عليه قبلاً مع أبنها ومع الحكومة: إنها أقامت على رؤوس الجبال تلالا في مسافات مختلفة بين القدس والقسطنطينية، وراحت توقد على هذه التلال المشاعل بوساطة أناس مخصوصين وضعتهم قبلاً لهذه الغاية، حتى وصل الخبر إلى القسطنطينية. فاحتفل هناك باكتشاف عود الصليب. وهذا هو السر في أن النيران توقد في «عيد الصليب». ذلك لأنه لم يكن ثمة يومئذ أية رابطة أخرى لأجل نقل الخبر بسرعة كما هي الحال في يومنا هذا.

قال الراهب تاوفانوس إن قسطنطين لم يبن كنيسة واحدة في ذلك الموضع، بل بنى ثلاث كنائس؛ هي:

(أ) كنيسة القيامة (أو كنيسة القبر المقدس).

(ب) كنيسة الجلجلة (وهي التي عرفها العرب فيما بعد بالاقرانيون).

(جـ) كنيسة الشهادة (أو المرتريون) وهي متاخمة للجلجلة ومحتوية على جزء منها. وقد دعيت أيضاً (كنيسة اكتشاف الصليب). ذلك لأنه يوجد تحتها مغارة قيل أن الصليب اكتشف فيها.

وكان حول هذه الكنائس أروقة جميلة وباحات واسعة وصفوف من أعمدة مرمرية، يتألف من مجموعها بناء فخم، طوله مئةمتر أو يزيد. وقد استغرق تشييد هذا البناء ست سنين.

هذه ما عرفناه عن (كنيسة القيامة) التي بنتها الملكة هيلانة بأمر من ولدها قسنطين. وقد تم تدشينها في الثالث عشر من شهر أيلول عام ٣٣٥ للميلاد.

ولما اعتلى جوليان الجاحد[١] العرش، فرح اليهود؛ إذ أرسل هذا رسالة إلى البطريرك ألغى فيها جميع القوانين التي صدرت ضد اليهود. ووعدهم بالشيء الكثير عندما يرجع من الشرق. وأمر بإعادة بناء الهيكل بالقدس، وعهد بهذه المهمة إلى رجل من رجاله المخلصين هو البيوس Aly[ius . فطفق اليهود يردون إلى القدس من كل صوب. ولكنهم ما كادوا يحفرون الأساس لبناء الهيكل، حتى اندلع لهيب النار من تحت الأرض، وسمع انفجار شديد. فهرب العمال، وتأجل العمل، ولم يتجدد. واعتبر الناس هذا دليلاً على غضب السماء. ثم مات جوليان وبموته قضي على أمل اليهود. فيئسوا. فريق منهم فسر ذلك باحتراق الغاز السام الذي تحت الأرض، وفريق قال إن المسيحيين أعدوا تلك النيران ليحولوا دون إعادة بناء الهيكل.

إن اتحاد المملكتين الرومانيتين الشرقية والغربية لم يدم طويلا. إذ إنه عندما توفي (ثيودسيوس) سنة ٣٩٥م أحد قياصرة الرومان في الشرق اقتسم ولداه (اركاديوس) و(هونوريوس) المملكة. فجعلاها مملكتين: واحدة في الشرق وعاصمتها بيزانس. والثانية في الغرب وعاصمتها روما.

في سنة ٥١٣م كان حاكم (اوليمبوس) منتدباً من قبل الملك انسطاسيوس. وعلى عهده كان بطريرك القدس إلياس الثاني (وكان هذا من نسل عربي). وقد ثار الرهبان في عهده على رؤسائهم. كما ثاروا ضد الملك وضد الرسول الذي أرسله إلى القدس. فعزله الملك. ونفاه إلى العقبة. فأقيم بدلاً منه (يوحنا الثالث) بطريركاً على أورشليم. ولكن الملك عاد فعزل أوليمبوس، وعين بدلاً منه والياً اسمه (انسطاسيوس).

في ٥٢٧م توفي الملك يوستينوس وخلفه يوستنيانوس (جوستانيان) العظيم. وعلى عهده ثار اليهود والسامريون للمرة الثالثة في فلسطين. فقاد عليهم قائده يوحنا. وبمساعدة والي فلسطين ثودورس أطفئت الثورة، وتشتت شمل اليهود، وقتل من السامريين عشرون ألفاً[٢]. وقد أنشأ هذا عدداً من الكنائس والأديرة والصوامع في

---

(١) اسمه الأصلي Flavius Claudius Julianus ولد في في استانبول سنة ٣٣٢م. تسلم العرش سنة ٣٦٠م وتوج في استانبول عام ٣٦١م. إنه ابن يوليوس قسطنطين الكبير. كان وثنياً. وكان يكره الدين المسيحي. وكان يؤثر عبدة الأوثان على المسيحيين في مناصب الدولة. ولهذا لقبوه بالجاحد.

(٣) تاريخ الكنيسة الرسولية الاورشليمية، ص ٣٧.

أورشليم وفي ما حولها من الجبال والوديان ، وانتشر في البلاد عدد كبير من النساك والرهبان .

بنى جوستانيان الأول ، في مدينة القدس مستشفى . كما بنى فيها سنة (٥٤٣م) كنيسة أسماها : (كنيسة العذراء الجديدة[١]) . وفي قول إن الذي شرع في بناء هذه الكنيسة هو البطريرك إيليا الأول . وقد أتمها جوستانيان . أما البطرك إيليا (وكانوا يسمونه أيضاً إلياس) فإنه عربي من نجد . وفي قول إنه يوناني ولد في بلاد العرب . إنه هو الذي بنى دير العذراء في القدس ودير قسطنطين . وعلى عهده قام البدو بغزو القدس ، ونهبوا الأديرة ، وذبحوا الرهبان .

وعلى ذكر (كنيسة العذراء) التي بناها جوستانيان نذكر ، والشيء بالشيء يذكر ، أن المؤرخين اختلفوا في تعيين موضعها . فمنهم من قال : إنها كانت تقوم في نفس الموضع الذي يقوم عليه الآن المسجد الأقصى . ومن هؤلاء : الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف[٢] . وسركيس[٣] .ومنهم من جاوز هذا إلى حد القول أن المسجد الأقصى نفسه هو الكنيسة إياها ، لا قدم ولا أخر . ومن هؤلاء : الدكتور ريشاردسون ، وفليكس فابري Felix Fabri ، وفيلب داويرزا Philip D'auersa ، وإدوارد هوغ[٤] وادوارد روبنسون[٥] .

وأما ابن البطريق فقد قال : إن الروم لم يعظموا الموضع الذي كان يقوم عليه هيكل بني إسرائيل ، ولم يبنوا عليه كنيسة . يقول السيد المسيح : «هو ذا يترك لكم بيتكم خراباً» . وقد أيد هذا القول كثيرون نذكر منهم : طوبار[٦] . ورايس[٧] .

---

(١) سميت كذلك للتفريق بينها وبين كنيسة أخرى تحمل هذا الاسم بنيت قبل هذا التاريخ . وكانت عند كنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الغربية .

(٢) مجلة الآثار : ٥-٦ ، ص ٢٤٣ .

(٣) تاريخ القدس الشريف ، ص ١٥٧ .

(٤) Visit to Alexandria, Damascus & jerusalem, by E. Hogg II. p. 289.

(٥) Biblical Researches by E. Robinson. I. pp. 438 - 41.

(٦) Topographie Von Jerusalem, by Tobler. pp. 581-582.

(٧) Z. D. P. W. by Reiss, XI. pp. 204-207.

وعيلدمايستر[١] . وكرزويل[٢] . وغيرهم كثيرون .

وفي زمن جوستانيان ثار السمرة وذبحوا المسيحيين في أحيائهم . ولكن ثورتهم أطفئت وعوقبوا . فاستتب الأمن . وفي المجلس الكنائسي الخامس الذي التأم على عهده (٥٣٤م) تقرر أن تكون القدس مركزاً للبطريركية .

ولكن لم يمض زمن كثير حتى دب الفساد بين رجال الدين المسيحي . فراح هؤلاء يختصمون ويتجادلون في صفات المسيح[٣] (فذهب بعضهم إلى أنه ذو طبيعة ومشيئة واحدة) . وقال بعضهم : (إنه ذو طبيعتين ومشيئتين : إلهية وإنسانية) . وقال آخرون : (إن هذا إلا رسول ونبي كريم[٤]) .

وكان جو القدس يومئذ مشبعاً بأنين الاشخاص الذين عذبوا أجسادهم من أجل تخليص أرواحهم[٥] . فراح المسيحيون يتساءلون عما إذا كانت خشبة الصليب قد اكتشفت ، ومن ذا الذي يملكها فيما إذا اكتشفت ، وهل يجوز أن يقتطع جزء منها ليباع إلى الحجاج أو إلى أمير ذي نفوذ واعتبار ، وفيما كان رجال الدين يتجادلون في هذه المسائل وما شابهها من الاختلافات الدينية ، كانت البلاد تتدهور تدهوراً ظاهراً .

إن من يتتبع تاريخ ذلك العصر يرى أنه بعد موت جوستانيان (٥٦٧م) تسنم العرش عدة أباطرة . ولكن أكثرهم كانوا ضعفاء . وكانوا السبب في سرعة تدهور الإمبراطورية . وقد استغل الفرس هذه الفرصة ، فأخذوا يغزون الولايات الشرقية .

وعندما تبوأ العرش الإمبراطور (هرقل) ٦١٠-٦٤١م زحفت جيوش كسرى ملك فارس (٦١٣م) غرباً . وبعد استيلائها على سوريا زحفت إلى فلسطين وفي عام ٦١٤م احتلت القدس وذبحت ٩٠٠٠٠ مسيحياً .

ولقد أقدموا على هذه الغزوة بتحريض من اليهود الذين كانوا يتوقون للانتقام من المسيحيين . فهدموا كنيسة القيامة . كما هدموا معظم الكنائس والأديرة التي كانت

---

(١) Die Arabischen Nachrichlen Zur Geschichte der Harambauten, Z. D. P. W. XIII. pp. 12-13, by Gildmeister.

(٢) Early Muslim Architecture, by K. A. C. Creswell. pp. 23-24.

(٣) The Desert of the Exodus, by E. H. Palmer.

(٤) البرغوثي وطوطح .

(٥) B. And Palmer

في القدس . وأمر كسرى أن يؤخذ رخام هذه الكنائس وينقل إلى بلاده .

ولقد أصاب الروم في ذلك العهد جوع شديد ، حتى قيل أن الناس أكلوا الجيف وجلود البهائم .

ولكن هرقل عاد فجمع قواه ، وقطع خط المواصلات بين الجيش الفارسي وقاعدته في الرافدين . وانتصر على الفرس في معركة نينوى الحاسمة ٦٢٧ للميلاد . وعلى أثرها تصالح الفريقان فأطلق الفرس سراح الأسرى من الرومان وأعادوا الغنائم التي نهبوها من القدس ورجعت سوريا وفلسطين إلى حظيرة الدولة البيزنطية . ودخل هرقل مدينة القدس في ١٤ ايلول سنة ٦٢٩ .

في تلك الفترة من الدهر ظهر الإسلام . وظهر النبي العربي المصطفى محمد ﷺ . وراح هذا يدعو الناس كافة لترك عبادة الأصنام . واتباع دينه ؛ دين الإسلام .

وكانت دولة الرومان ، في ذلك الزمان ، من أقوى الدول في ذلك العصر[1] . وكذلك قل عن دولة الفرس التي كان يقوم على رأسها كسرى . وكانت هاتان الدولتان تتناطحان ، وتعملان على نشر سيطرتهما على الأمم المجاورة لهما ، وبعد أن كانت الحرب سجالات بينهما ، انتصر هرقل على كسرى (٦٢٥م) . فقويت شوكته ، وأصبح ذا بأس وقوة . وراحت أعلام بزنطية تخفق على مصر وسورية وفلسطين . واسترجع هرقل من الفرس الصليب الذي كانوا قد أخذوه من بيت المقدس .

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار هرقل على فارس عظيماً . ذلك لأن هرقل كان مسيحياً . والمسيحيون أهل كتاب كالمسلمين . وأما الفرس فكانوا مجوساً . ولهذا كان المسلمون يكرهون أن ينتصر المجوس على المسيحيين ، وقد غاظهم انتصار الفرس في بادئ الأمر ، يوم غزا الفرس هذه البلاد (٦١٤م) وقتلوا من سكانها المسيحيين خلقاً كثيراً وهدموا جميع كنائسهم .

وما ارتاب المسلمون أبداً في أن الروم سيعودون فينتصرون على الفرس بعد قليل . وكان في طليعة المتنبئين بانتصار الروم على الفرس بعد قليل النبي محمد ﷺ وصاحبه الأمين أبو بكر .

ولم يمض على تنبؤهم سوى بضع سنين حتى انتصر هرقل (٦٢٥م) وهزم

---

(١) (حياة محمد) لمحمد حسين هيكل . ص ٣٧٠ .

الفرس . وفي ذلك نزلت الآية الكريمة[1] :

﴿الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بعض سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ .

ورغم هذا النصر الذي ناله البيزنطيون ، على يد هرقل ، والذي كان يتمناه المسلمون ؛ فإن النبي محمداً ﷺ ، رأى من الحكمة أن يدعو هرقل وقومه إلى دينه .

وكما أرسل النبي رسله إلى كسرى عظيم فارس ، وإلى المقوقس عظيم القبط في مصر ، وإلى أمراء عُمان واليمامة والبحرين ، وإلى الحارث الغساني ملك الحيرة ، والحارث الحميري ملك اليمن ، وإلى نجاشي الحبشة ؛ فقد أرسل أيضاً رسولاً من عنده ، هو دحية بن خليفة الكلبي ، أرسله إلى هرقل عظيم الروم ، يدعوه إلى الإسلام ، وأرسل مع الرسول كتاباً إلى هرقل ختمه بخاتمه الذي نقش عليه «محمد رسول الله» . قال فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبدالله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم . يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت ، فإنما عليك إثم الاريسيين[2] يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» .

كان هرقل ، عندما دخل عليه رسول النبي العربي دحية الكلبي ، في مدينة حمص . وكان قد عاد يومئذ من المعركة التي انتصر فيها على الفرس واسترجع منهم الصليب الذي أخذوه من بيت المقدس . وكان قد نذر لله على نفسه أن يحج إلى بيت المقدس ماشياً ، ليرد الصليب إلى مكانه . فتناول كتاب النبي من يد الرسول الذي حمله إليه . وتلي عليه مترجماً . فلم يغضب . بل رد عليه رداً حسناً . ولكنه في قرارة نفسه لم يعبأ بهذا الداعي إلى دين جديد . ولم يدر بخلده أنه لن تمضي سنوات قليلة ، حتى يكون بيت المقدس ، وتكون فلسطين كلها ، والشام ، تستظل

---

(١) سورة الروم : الآيات ١-٥ .

(٢) قال الأستاذ محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) ، ص ٣٧١ . أنه من معاني الاريسيين الخدم والحشم . وأن القصد من ذلك تحذير هرقل أنه مسؤول عن أثم رعيته لصده إياهم عن الدين .

براية الإسلام . وهكذا كان .

وفي عهد هرقل هذا (٦١٠-٦٤١م) جرى حادث الإسراء والمعراج . حيث أسري بالنبي العربي الكريم إلى بيت المقدس . ومن فوق الصخرة المشرفة الموجودة في هذا البيت ، عرج النبي إلى السماء . وفي ذلك نزلت الآية الكريمة(١) :

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير﴾ .

وقد اختلف العلماء في تفسير الإسراء وفي وصفه على حقيقته : هل كان بالروح أم بالجسد؟ فذهب بعضهم إلى أنه كان بالروح . وقال آخرون إنه كان بالجسد . وسواء أكان الإسراء والمعراج أيضاً بالروح أو بالجسد ، فإنهما إن دلا على شيء ، فإنما يدلان ، على ما كان لهذا البلد المقدس من أهمية في نظر الرسول . إذ كان عليه الصلاة والسلام يعلم العلم اليقين أن الحجاز وما يليه من أقطار وسهول وبقاع ومن أودية غير ذات زرع ، لا تنفع العرب في شيء ، ما لم يكن هذا البلد المقدس أيضاً مرتبطاً بها . وأنه لا حياة للعرب في جزيرتهم ، إذا لم تكن تخومها الشمالية محمية ، وإذا لم يكن هذا البلد أيضاً في حوزتهم . ولهذا راح يحث المسلمين على فتحه .

وفي ذلك وردت أحادث نبوية كثيرة . ومن دلائل التشجيع أنه جعل المسجد الأقصى ببيت المقدس ، زهاء سبعة عشر شهراً ، قبلته في صلاته .

ومن كثرة ما جاء على لسان النبي ﷺ من آيات وأحاديث في مدح بيت المقدس وتقديسه ، أن بعض الصحابة ارتأوا ، عند موته ، أن يدفن في بيت المقدس . وكان الكثيرون يريدون الأخذ بهذا الرأي ، لولا أن هذا البلد كان لا يزال بأيدي الروم ، وكان بين الروم والمسلمين عداوة شديدة منذ معركة (مؤتة) و(تبوك) .

ومع ذلك فقد ظل المسلمون حافظين وصية نبيهم . فراحو ، بعد موته ، يعدون العدة لفتح القدس . وقد جاءهم التوفيق على يد عمر بن الخطاب الذي تم له فتح هذا البلد المقدس في السنة الخامسة عشرة للهجرة (٦٣٦م) . وسنقص عليك قصة هذا الفتح في الفصل القادم إن شاء الله .

---

(١) سورة الأسراء ، الآية (١) .

الباب الثاني
الفتح الإسلامي

- القدس وعمر بن الخطاب
- القدس وبنو أمية
- القدس وبنو العباس
- القدس وبنو طولون
- القدس وبنو الإخشيد
- القدس الفاطمية
- القدس والأتراك السلجوقيون
- القدس والأرتقيون

القدس والفتح الإسلامي

آيات وأحاديث في قدسية (القدس) :

ليس بمستغرب أن يفكر المسلمون في فتح القدس ، وهي المدينة المقدسة في نظرهم ، التي ورد ذكرها في قرآنهم ، وعلى لسان نبيهم ، وفي أحاديث صحابتهم وأئمتهم وأعلامهم .

فقد أسري بالنبي المصطفى ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وفي ذلك نزلت الآية الكريمة : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله . . .﴾ . وما كان النبي ليسري إلى هذا البلد الأمين ، لولا أنه كان يعلم العلم اليقين أنه عرق الجزيرة النابض وقلبها الخفاق ؛ وأنه لا حياة للعرب في جزيرتهم ، إذا لم يكن هذا البلد في حوزتهم . وإذا لم تكن تخومهم الشمالية بين البحر والبادية محمية .

هذا هو سر الإسراء .

ورد في الحديث الشريف : «لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى» .

وروى عن الإمام علي بن أبي طالب أنه قال : «وسط الأرضين أرض بيت المقدس ، وأرفع الأرض كلها إلى السماء بيت المقدس» . وعن أبي هريرة أنه قال : «من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء» .

وقال الإمام علي لصعصعة : «نعم المسكن بيت المقدس . القائم فيه كالمجاهد في سبيل الله . وليأتين على الناس زمان يقول أحدهم : ليتني تبنة في لبنة في بيت المقدس» .

وعن عمران بن حصين أنه قال : «قلت . يا رسول الله ما أحسن المدينة! قال : كيف لو رأيت بيت المقدس . قلت : وهل هي أحسن؟ قال : كيف لا ، وكل من بها يزار ولا يزور . وتهدي إليها الأرواح ولا تهدى روح بيت المقدس لغيرها . . .» .

وعن أبي هريرة أن النبي قال : «أربع من مدائن الجنة : مكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس» .

الفتح الإسلامي سبقه فتح عربي:

هذا هو السر الذي حدا بالمسلمين للتفكير في فتح بيت المقدس . ولا غرابة في ذلك . فقد سبق الفتح الإسلامي هذا ، فتح عربي من قديم العصور والأزمان . وثبت أن العرب كانوا يقطنون فلسطين قبل الغزو البابلي ، أي قبل الفتح الإسلامي بنحو ٤٤ قرناً . وكذلك قل عن الفتح الحمورابي ، وهو فتح عربي ؛ فقد سبق هذا الفتح ، الفتح الإسلامي بنحو ٢٨ قرناً .

إن الكنعانيين واليبوسيين[١] والعمالقة الذين استوطنوا فلسطين ، أتوها من جزيرة العرب ، وأن الانباط الذين كوّنوا دولة البتراء الشهيرة التي أمتد سلطانها إلى فلسطين وسورية كانوا عرباً . وكذلك قل عن ملوك الحيرة في العراق والغساسنة في بر الشام .

أجل . إنه مما لا شك فيه أن العرب اهتموا بهذه البلاد منذ العصور القديمة . فقد هبطها[٢] عرب البادية ، قبل أن يهبطوا مصر ويؤسسوا فيها دولتهم المعروفة (بملوك الرعاة) وبعد خروجهم منها . وكذلك قل عن القبائل اليمنية التي غادرت جزيرة العرب على أثر (سيل العرم) . فإنها نزلت هذه البلاد ، واستوطنتها ، وسرحت في أرضها وبقاعها سوائمها ، وارتادت مناجعها . وهي التي تدر لبناً وعسلاً . ولطالما تغنى العرب بها في جاهليتهم وإسلامهم .

النبي يبشر المسلمين بفتح القدس:

روي عن محمد بن حسن بن قتيبة العسقلاني أنه قال[٣] : حدثنا محمد بن النعمان عن سليمان بن عبد الرحمن عن بنت شرحبيل عن هاني بن عبدالرحمن عن إبراهيم عن أبي عبلة عن عبدالله بن الديلمي عن عبدالرحمن بن غنم قال : سمعت معاذ بن جبل يقول : قال رسول الله ﷺ : «يا معاذ . إنه سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش إلى الفرات ، رجالهم ونساؤهم . وهم مرابطون إلى يوم

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن اليبوسيين الذين كانوا أول من بنى مدينة القدس ، وكانت على عهدهم تدعى (يبوس) ، في الفصل الأول من هذا الكتاب . وعنوانه : (القدس مدينة يبوسية) .

(٣) (الفلسطينيون عرب) للأستاذ عيسى اسكندر المعلوف رئيس المجمع العلمي في لبنان .

(٣) مثير الغرام ، ص ١٦٥ .

القيامة . فمن احتل ساحلاً من سواحل الشام وبيت المقدس ، فهو في جهاد إلى يوم القيامة» .

وروي أن النبي قال لشداد بن أوس : «ألا أن الشام ستفتح ، وبيت المقدس سيفتح ، وتكون أنت وولدك أمة بها إن شاء الله» .

معركتا (مؤتة) و (تبوك)

لم يكتف النبي بهذا الأسلوب من التشجيع على فتح بيت المقدس . فقد قرن القول بالفعل . ولقد حدثنا التاريخ أنه هو بنفسه حاول فتحها في حياته ثلاث مرات :

فقد جهز[1] في السنة الثانية للهجرة (٦٢٩م) جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل : وأمَّرَ عليه مولاه زيد بن حارثة . ولكن هذا الجيش انكسر في موقعة (مؤته) . ثم حاول فتحها مرة أخرى . وقاد هو بنفسه جيشاً وصل به إلى تبوك . ولقد ذكر كعب ابن مالك[2] هذه الغزوة في أحاديثه فقال :

إن النبي ﷺ كان إذا أراد المسير في الغزاة ، يؤذن بالمسلمين بالجهاد ، ويكتمهم أين يجاهدون مكيدة للعدو . إلا في غزوة تبوك التي كان يرأسها بنفسه فقد بيّنها للمسلمين وقال :

«يا أيها الناس . إني أريد الروم» .

وكان مع النبي يومئذ ثلاثون ألف مقاتل وعشرة الآف فرس من الخيل . وقد استخلف على المدينة ، (محمد بن مسلمة الأنصاري) .

وعندما بلغ تبوك بعث منها علقمة بن مجزر المدلجي إلى فلسطين ، وبعث خالد ابن الوليد إلى دومة الجندل . وأما هو فبعد أن صالح أهله ايلة[3] ، وتلك الأنحاء قفل راجعاً . ذلك لأن أحوال قريش كانت يومئذ تستدعي وجوده في الحجاز .

ثم جهز النبي للمرة الثالثة في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢م) جيشاً أمّر

---

(١) البرغوثي وطوطح .

(٢) ابن عساكر ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) العقبة .

عليه أُسامة بن زيد . ولكن المنية فاجأته ، قبل أن يغادر جيش أُسامة البلاد[1] .

أبو بكر الصديق يغزو الروم:

أكمل أبو بكر وصية النبي ، وأرسل الجيش الذي كان النبي قد أعده بقيادة أسامة بن زيد ، وزوده بالنصيحة التالية :

«لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لله وسوف تمرون باقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع[2] فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له» .

ولكن جيش أسامة لم ينجح عامئذ إلا في إخضاع بعض القبائل . فرجع إلى الحجاز بعد أربعين يوماً .

ما كان إخفاق أسامة ليفت في عضد أبي بكر ، إذ راح يستنفر العرب . ولبى هؤلاء دعوته ، فخفوا سراعاً من جميع أنحاء الجزيرة العربية . واعتزم – في هذه المرة – فتح الشام كلها ، لا فتح بيت المقدس وما حولها من البلدان فقط .

ولقد جهز لهذه الغاية أربعة جيوش ، وعقد ألويتها الأربعة من كبار القواد . هم :

١ . عمرو بن العاص فلسطين[3]

٢ . شرحبيل بن حسنة الأردن

٣ . أبو عبيدة بن الجراح دمشق

عندما سلم أبو بكر الراية إلى عمرو بن العاص قال له[4] : قد وليتك هذا

---

(١) جاء في كتاب (مختصر الدول) لابن العبري الصفحة ١٦٢ ، ان نبي الإسلام محمداً عليه الصلاة والسلام عندما توفاه الله اراد أهل مكة من المهاجرين رده إليها لأنها مسقط رأسه . وأراد أهل المدينة من الأنصار دفنه بالمدينة . لأنها دار هجرته ومدار نصرته . وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس ، لأنه موضع دفن الانبياء ، وفيها المسجد الأقصى الذي أسري به إليه ، وكثيراً ما كان يذكره ، وكان قبل موته معتزماً فتحه . ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة . فدفنوه بحجرته حيث قبض .

(٢) يعني بهم الخورة والرهبان .

(٣) جرى ، بعد نشوب القتال ، تبديل في القواد ، فتم فتح القدس على يد أبي عبيدة بن الجراح .

(٤) فتوح الشام للواقدي .

الجيش[1] . فانصرف إلى أهل فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة ، وأنجده إذا ارادك . ولا تقطع أمراً إلا بمشورته . اتق الله في سرك وعلانيتك ، واستحيه في خلواتك . فإنه يراك في عملك . وقد رأيت تقدمتي لك على من هم أقدم منك سابقة ، وأقدم حرمة ؛ فكن من عمال الآخرة . وأرد لعملك وجه الله . واسلك طريق ايلياء حتى تنتهي إلى أرض فلسطين . وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك إليه . وإياك والوهن ، وإياك أن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به . وأعلم يا عمرو أن معك من المهاجرين والأنصار من أهل بدر . فأكرمهم ، وأعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك . ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : إنما ولاني أبو بكر لأني خيرهم . وإياك وخدائع النفس . وكن كأحدهم . وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة . أذن لها إذا دخل وقتها . واحذر من عدوك . وأمر أصحابك بالحرس . ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم . وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك ، وأقم بينهم واجلس معهم . اتق الله إذا لاقيت العدو . وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك . وإذا وعظت فأوجز . وأصلح نفسك ، تصلح بك رعيتك . وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر . فيكون ذلك فخراً منك . وألزم أصحابك قراءة القرآن . وانههم عن ذكر الجاهلية ، وما كان فيها ، فإن ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهوة الدنيا حتى تلقى من مضى من سلفك . وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن ؛ إذ قال تعالى : ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين .﴾

ثم قال له : «امض بارك الله فيك وفيهم .» «فساروا في سبعة آلاف مقاتل يريدون فتح فلسطين» .

معركتا (اليرموك) و (فحل):

سار الأمراء في الاتجاه الذي عينه لهم القائد الأعلى أبو بكر الصديق . فتغلغلوا في أحشاء البلاد . ثم التحق بهم خالد بن الوليد قائد جيش العراق . فولوه إمارة الجيش المحارب كله . ووقعت واقعة (اليرموك) الشهيرة بين الروم والعرب . قدر

---

(١) يعني أهل مكة والطائف وهوزان وبني كلاب . وجاء في كتاب (التنبيه والأشراف) للمسعودي أن جند فلسطين كانوا من لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة .

المؤرخون عدد الروم الذين اشتركوا في تلك الموقعة بمئتي ألف . والعرب بأربعين ألفاً . ولكن النصر ، رغم ذلك ، كان حليف العرب . إن معركة اليرموك هذه من المعارك الفاصلة التي قررت مصير سورية وفلسطين معاً ، وأزالت سيطرة الروم عن الشرق كله ، ومن المعارك الحاسمة معركة (فحل)[1] التي سار العرب إليها بعد معركة اليرموك[2] وافتتحوها فقد تمكن العرب بعدها من قطع الاتصال بين قوى الروم العسكرية بفلسطين وعاصمتهم في أنطاكية . وكانت هذه أعظم ضربة وقعت على رأس الروم ، بعد الضربة التي أنزلها بهم الفرس قبل ذلك ببضع سنين (٦١٤م) .

جيش لفتح الشام وآخر لفلسطين:

بعد معركة فحل شطر الجيش العربي نفسه إلى شطرين : شطر سار لفتح الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح . والشطر الآخر انتشر في فلسطين يبتغي رفع راية الإسلام فيها ، بقيادة عمرو بن العاص . والجيش الفلسطيني أيضاً انتشر إلى خمس حملات ؛ فتولى :

(أ) معاوية بن أبي سفيان وأخوه يزيد قيادة الحملة التي أرسلت إلى قيساريه لمنازلة حاميتها .

(ب) علقمة بن حكيم ومسروق بن فلاك العكي قيادة الحملة التي أرسلت إلى القدس لمنازلة حاميتها .

(ج) أيوب المالكي قيادة الحملة التي أرسلت إلى الرملة .

(د) علقمة بن مجزر قيادة الحملة التي أرسلت إلى غزة .

(هـ) وعمرو بن العاص تولى محاصرة (أجنادين[3]) .

---

(١) هي اليوم قرية من قرى إربد من لواء عجلون من أعمال شرق الأردن . وقال الأستاذ أحمد سامح الخالدي في شرحه لمثير الغرام (ص١٠) إنها خربة تعرف اليوم بطبقات فاحل أو طبقات فحل جنوبي جسر الجامع . وكانت تسمى فيما مضى (بلا) . وهي إحدى المدن اليونانية العشرة في شرق الأردن .

(١) (حروب الإسلام والإمبراطورية الرومانية) لامين سعيد . ص ١٤٦ .

(٣) هي اليوم منطقة رملية بين مدينتي الرملة وبيت جبرين . وقد طمست معالمها مع الزمن . وعلى رأي الأستاذ أحمد سامح الخالدي (راجع شرحه لمثير الغرام ص ١٣) إنها هي الخربة المعروفة بالجنابتين بالقرب من الرملة .

وكان فيها حامية قوية للروم يقودها أرطبون .

فاستسلمت أجنادين في منتصف السنة الخامسة عشرة للهجرة (٦٣٦م) . وانسحب أرطبون مع من سلم من رجاله إلى القدس .

انتداب أبي عبيدة بن الجراح لفتح القدس

يظهر أن أبا عبيدة بن الجراح كان في تلك الأثناء ، قد انتهى من فتح الشام ، فاستخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ، ورجع هو ليتولى قيادة الجيش الإسلامي الذي كان يحاصر القدس (٦٣٥م) . وراح عمرو بن العاص[١] ففتح المدن الفلسطينية ، الواحدة بعد الأخرى . وكان أبو بكر الصديق قد انتقل إلى دار البقاء ، وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب .

مقاديم الجيش:

وفي كتاب للآباء الفرنسيسيين[٢] أنه بعد فتح الشام أوعز عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح[٣] أن يزحف إلى القدس . فلبى أبو عبيدة أمر الخليفة . واستدعى سبعة من مقاديم الجيش ، فعقد لكل منهم راية ، ضاما إليه خمسة آلاف مقاتل بين فارس راجل . وأمرهم بالمسير إلى بيت المقدس .

ففي اليوم الأول[٤] دعا (خالد بن الوليد) فعقد له راية . وضم إليه خمسة آلاف فارس . وسرحه إلى بيت المقدس .

وفي اليوم الثاني دعا (يزيد بن أبي سفيان) . وعقد له راية . وضم إليه خمسة آلاف فارس . وأمره أن يلحق بخالد .

وفي اليوم الثالث دعا (شرحبيل بن حسنة) . وعقد له راية . وضم إليه خمسة

---

(١) ابن خلدون ، ج٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) طوطح وشحادة .

(٣) انه عامر بن عبيدالله بن الجراح . ويتصل في فهر بنسب النبي الذي لقبه (أمين الأمة) . وهو أحد العشرة الأولين الذين بايعوا النبي . توفي في طاعون عمواس (١٨هـ - ٦٣٩م) . ودفن في الغور المعروف بـ(غور الكبد) من أعمال الأردن .

(٤) (تاريخ القدس الشريف) لسركيس ، ص . ب ١٦٠ .

آلاف فارس من أهل اليمن . وقال له : سر بعساكرك إلى بيت المقدس ولا تختلط بمن تقدم قبلك .

وفي اليوم الرابع دعا (المرقال بن هاشم) . وعقد له راية . وضم إليه خمسة آلاف فارس من جميع المسلمين . وسرحه على أثر شرحبيل .

وفي اليوم الخامس دعا (مسيب بن نجية الغزاوي) . وعقد له راية . وضم إليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرها من القبائل . وأمره بالمسير في أثر أصحابه .

وفي اليوم السادس دعا (قيس بن المرادي) . وعقد له راية . وضم إليه خمسة آلاف فارس . وسيره وراءهم .

وفي اليوم السابع دعا (عروة بن مهلهل بن زيد الخيل) . وعقد له راية . وضم إليه خمسة آلاف فارس . وسيره وراء الجميع .

كان جملة من سيرهم عمر بن الخطاب من الشام إلى بيت المقدس سبع فرق . مجموع أفرادها خمسة وثلاثون ألفاً ، كلهم[1] فرسان نشيطون ورجال ماهرون في الفروسية والمبارزة ورمي النبال . وكان حملهم خفيفاً . وكانت مؤنهم وأثقالهم لا تذكر . وكانوا يقنعون بالأقل من الحاجيات . وما عرف التاريخ أصبر منهم على العطش والجوع والمشي عند الحاجة . وكان مبدأهم في الحرب : «لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها . ولا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» .

كان كل واحد من هؤلاء الأمراء يحط رحله في الموضع الذي خصصه له القائد العام أبو عبيدة بن الجراح تجاه بيت المقدس . فوصلوا كلهم ، الواحد بعد الآخر ، على سبعة أيام .

فحل خالد بن الوليد قرب الباب الذي يؤدي إلى أريحا ، وعروة بن مهلهل بما يلي طريق الرملة . وفي المكان المعروف الآن بباب الساهرة يزيد بن أبي سفيان . وكذلك فعل القواد الآخرون .

إنذار أبي عبيدة بن الجراح:

ولما وصل أبو عبيدة إلى الأردن ، بعث الرسل إلى أهل إيلياء . وبعث معهم الإنذار التالي :

---

(١) البرغوثي وطوطح .

«بسم الله الرحم الرحيم . من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها . سلام على اتبع الهدى وآمن بالله وبالرسول . أما بعد فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . فإن شهدتم بذلك ، حرمت علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم ؛ وكنتم لنا إخوانا . وإن أبيتم ، فأقرّوا لنا بأداء الجزية عن يد وأنتم صاغرون . وإن أنتم أبيتم ، سرت إليكم بقوم هم أشد حباً للموت منكم لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير . ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله أبداً ، حتى أقتل مقاتليكم وأسبي ذراريكم» .

انقضت الأيام الأربعة الأولى دون حرب أو ضرب . وانتظر المسلمون أن يأتيهم جواب الروم على الإنذار المتقدم ذكره . ولكن دون جدوى . وفي اليوم الخامس(١) اقترب يزيد بن أبي سفيان من السور ، وكلم الروم المحاصرين بواسطة ترجمان أخذه معه . فخيرهم : إما أن يسلموا ، أو يدفعوا الجزية ، أو القتال . فرفضوا الشقين الأولين ، واختاروا القتال .

وبعد ذلك كتب مقاديم الجيش إلى أبي عبيدة يخبرونه بما جرى . فأصدر أمره بالهجوم على المدينة . وقال لهم إنه قادم في أثر الكتاب .

بدء القتال:

بدأ القتال في اليوم التالي . فكان أول من برز للقتال بنو حمير ورجال اليمن . فتلقاهم الروم بالنبال . وكان هؤلاء يتلقونها بدرقهم (دروعهم) . وفي اليوم الثاني تقدم الباقون من رجال القبائل الأخرى . ونشبت معركة دامية حتى اليوم العاشر . وفي اليوم الحادي عشر أشرقت راية أبي عبيدة ، وفي رفقته عبدالرحمن بن أبي بكر ، ونفر من الأبطال المجاهدين . فاستقبله المسلمون بالتهليل والتكبير . فدب الرعب في قلوب الروم . وحمي وطيس القتال . واعتزم المسلمون أن لا يرفعوا الحصار حتى يقضي الله بينهم وبين الروم . وكان الوقت شتاء . ودام الحصار أربعة شهور . لم ينقض يوم واحد منها دون قتال . إلى أن قنط السكان ، وحل فيهم الضنك والجوع ، وقرروا التسليم . وخرجوا إلى أبي عبيدة مستأمنين . يتقدمهم قائدهم (صفر ونيوس) حاملاً على صدره الصليب المقدس . وعلى جانبيه القسس والرهبان : كل منهم يحمل إنجيلاً .

(١) (تاريخ القدس الشريف) لسركيس ، ص ١٦١ .

فطلبوا الصلح . فتلقاهم أبو عبيدة بالترحيب ، وخاطبهم بدعة ولين قائلاً لهم : «إن التسليم أكثر نفعاً لكم» . فانصاعوا . ولكنهم اشترطوا أن لا يسلموا المدينة إلا لشخص الخليفة . فوافقهم . وأمر جنده بالكف عن القتال . فسارت هدنة استمرت إلى أن جاء عمر بن الخطاب .

قرر الروم الاستسلام بحضور الخليفة:

كتب أبو عبيدة إلى الخليفة يقول :

«بسم الله الرحمن الرحيم . لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عبيدة بن الجراح . سلام عليك . فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإنا أقمنا على أهل إيلياء . فظنوا أن لهم في مطاولتهم فرجاً . فلم يزدهم الله بهذا إلا ضيقاً ونقصاً وهزالاً وذلاً . فلما رأوا ذلك ، سألوا أن يقدم عليهم أمير المؤمنين ، فيكون هو الموثق فيهم والكاتب . فخشينا أن يقدم أمير المؤمنين ، فيغدر القوم ويرجعوا ؛ فيكون مسيرك أصلحك الله عناء وفضلاً . فأخذنا عليهم المواثيق المغلظة بأيمانهم ، ليقبلن وليؤدن الجزية ، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة ؛ ففعلوا . فإن رأيت أن تقدم فافعل . فإن في مسيرك أجراً وصلاحاً . أتاك الله رشدك . ويسر أمرك . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

عمر بن الخطاب يلبي النداء:

كان عمر بن الخطاب رجلاً ديمقراطياً ، ولم يكن دكتاتوراً . ولهذا جمع إليه ، بمجرد وصول رسالة ابن الجراح ، أهل الحل والعقد ؛ واستشارهم في الأمر . فكان رأي عثمان : أن لا يذهب الخليفة بنفسه . إذ إن العدو لا بد وأن يضطر للتسليم ، ما دام قد أصيب بالضعف والرعب . وكان رأي علي : أن يسير الخليفة إلى فلسطين ، عملاً برأي قائده المحنك ، خشية أن ييأس العدو إذا رفضت شروطه المعقولة ؛ فيتمسك بحصنه ، أو يأتيه مدد من عدو آخر . فيتغير الموقف ، وتنعكس الآية ، ويصيب المسلمين ضرر عظيم .

أخذ الخليفة برأي علي . وسار إلى بيت المقدس بعد أن استخلفه على البلاد . وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة[1] :

---

(١) نقلها الطبري في الصفحة ١٠٨ من كتابه .

سـمـا عـمـر لما أتتـه رسـائل
كـأصيد[١] يحمي صرمة[٢] الحي أغيدا[٣]
وقـد عـضلت[٤] بالشـام أرض أهلهـا
تريد من الأقـوام من كـان أمـجـدا[٥]

سار عمر راكباً راحلته ، ومعه غلام له يعاقبه الركوب ؛ متزودين شعيراً وتمراً وزيتاً . وعلى بعيرهما الأحمر قربة ماء[٦] .

بعد أن سار[٧] أمير المؤمنين عن المدينة قاصداً بيت المقدس نزل الجابية[٨] . فاستقبله[٩] يزيد وأبو عبيدة وخالد على الخيول . عليهم الديباج والحرير . فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها . وقال : «ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم . إياي تستقبلون في هذا الزي . وإنما شبعتم منذ سنتين . وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم» .

وفيما كان معسكراً بالجابية فزع الناس إلى السلاح . فقال لهم ما شأنكم؟ فقالوا : ألا ترى الخيل والسيوف! فنظر . فإذا كردوس يميلون بالسيوف . فقال عمر : هذه مستأمنة ، فلا تراعوا ، وأمنوهم . فأمنوهم . وإذا هم أهل إيلياء ، وعلى رأسهم (العوام) . فتلقاهم المسلمون براية الأمان . وأما (أرطبون) و(التذارق) ومن لم يشأ مصالحة المسلمين من أمراء الروم فقد لحقوا بمصر . ولم يكونوا مع الوفد .

قص الوفد على عمر بن الخطاب ما هم فيه من ضنك عظيم وحصار شديد . وقالوا له إنهم أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام

---

(١) (الاصيد) الأسد الذي يختال في مشيته ، والملك الذي لا يلتفت إلى ورائه .

(٢) (صرمة) بالصاد المكسورة قطاع الابل .

(٣) (غيد) الغلام بغيد غيداً مالت عنقه ولانت اعطافه فهو (اغيد) .

(٤) (غصلت) الأرض باهلها أي غصت بهم لكثرتهم وضاقت .

(٥) الرجل الشجاع الذي يقدم على مالا يستطيعه سواء .

(٦) (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي ، ج١ ، ص ٢٨ .

(٧) (اشهر مشاهير الإسلام) ، لرفيق بك العظم .

(٨) قرية من قرى الجولان شمالي حوران .

(٩) ابن الأثير ، ص ١٩٤ .

ومدنها العظام ، مأخوذون لا محالة . وأنهم خافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين أن لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى ، لكثرة ما لاقى المسلمون منهم من عناء ، وما بذلوا في حروبهم من دماء . ولما كان بيت المقدس مكرماً عند المسلمين ، لأنه محل الإسراء ، ومقر الانبياء ؛ خافوا أن ينزع المسلمون منهم كنيستهم الكبرى . فرأوا توكيداً للأمان ، أن يأخذوا العهد من أمير المؤمنين . وقد طلبوا الأمان .

بعد أن سمع عمر بن الخطاب كلام وفد الروم ، غادر الجابية قاصداً بيت المقدس . فركب[١] فرسه . فرأى به عرجاً ، فنزل عنه . وأتى ببرذون[٢] ، فركبه . فجعل يتجلجل به فنزل وضرب وجهه ، وقال : لا أعلم من علمك هذه الخيلاء . فركب بعيراً ولم يركب برذونا بعده .

عندما اقترب عمر رضي الله عنه من إيلياء تلقاه المسلمون[٣] بخيلهم ورماحهم ورجالهم . واصطفوا لاستقباله صفوفاً متراصة ؛ راكبين خيولهم ، شارعين رماحهم . ثم أقبل عليه قائد الجيش أبو عبيدة في موكب عظيم من جنده وحاشيته . فإذا هو على قلوس[٤] ، لابساً سلاحه ، متنكباً قوسه . فلما رأى أمير المؤمنين ؛ أناخ قلوصه ، وأناخ أمير المؤمنين بعيره . فنزل أبو عبيدة وأقبل إلى عمر . وأقبل عمر إلى أبي عبيدة . فلما دنا عمر من أبي عبيدة مد أبو عبيدة . يده إلى عمر ليصافحه ، فمد عمر يده ؛ فأخذها أبو عبيدة وأهوى ليقبلها ، قاصداً تعظيمه . وتعانق الشيخان ، ثم ركبا يتسامران . وسارا ، وسار الناس أمامهما .

وهناك رواية أخرى تقول : إن عمر بن الخطاب جاء من المدينة رأساً إلى بيت المقدس . وأنه لما وصل إليها نزل على الجبل الشرقي المعروف بـ(طور زيتا)[٥] وحكي أن قادة الجيش تلقوا عمر رضي الله عنه عندما اقترب من إيلياء ببرذون وثياب بيض . وكلموه

---

(١) ابن الاثير . ص ١٩٤ .

(٢) (البرذون) من الدواب ما هو دون الخيل العراب وأقل من الحمير . أنثاه برذونة وجمعها براذين .

(٣) الأنس الجليل .

(٤) القلوس من الإبل الشابة .

(٥) هذا ما قاله مجير الدين في كتابة (الانس الجليل) . وأما المؤرخون الآخرون فيقولون إن عمر أقبل على القدس من ناحية (جبل المكبر) . ولما بلغ ذلك الجبل ورأى منه المدينة ، هلل وكبر ، وتبعه صحبه . فهللوا وكبروا . ومن ذلك اليوم سمي ذلك الجبل : (جبل المكبر) .

أن يركب البرذون ، ليراه العدو ، فهو أهيب له عندهم . وأن يلبس الثياب البيض ويطرح الفروة عنه . فأبى . ثم لجوا عليه . فركب البرذون بفروته وثيابه . فهملج[1] به البرذون وخطام ناقته بيده بعد . فنزل وركب راحلته ، وقال : «لقد غيرني هذا حتى خفت أن أتكبر وأنكر نفسي . فعليكم يا معشر المسلمين بالقصد ، وإنما أعزكم الله عز وجل به» .

وبعد أن استراح قليلاً قص عليه أبو عبيدة الخبر اليقين منذ افترقا إلى ذلك الحين .

العهدة العمرية

بكى عمر على ما روي له رقة وحناناً . وأمر من فوره أن يبلغوا بطريرك المدينة قدومه . فلبى أمره على جناح السرعة . فخرج حينئذ البطريرك من الكنيسة ، يتبعه الأساقفة والقسيسون والرهاب والشمامسة ، حاملين الصليب المقدس . ولما انتهوا إلى مقام الخليفة ، خف للقائهم . وقد حياهم بالسلام . واقتبلهم بمزيد الاحتفاء والإكرام . ثم تحادثوا في شروط التسليم . وكتب لهم (١٥هـ-٦٣٦م) وثيقة الأمان التالية وهي التي عرفت فيما بعد بالعهدة العمرية :ـ

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . سقيمها وبريئها وسائر ملتها . إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم . ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم ، فهو آمن على نفسه وما له ، حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم أمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان فيها من أهل الأرض ؛ فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم . ومن رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ

(١) هملج البرذون مشى مشية سهلة في سرعة .

منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

كتب وحضر سنة خمسة عشر .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبدالرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .»

هذا هو عهد الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب لأهل إيلياء . وقد سلمه إلى صفر ونيوس بطريرك الروم ، وهو الذي طلب حضور الخليفة بنفسه ليتسلم المدينة . ولقد تسلمها عمر وسلم صفر ونيوس هذا العهد . وقد أخذناه عن الإمام أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري . اقرأ الجزء الثالث الصفحة ١٠٥ من كتابه (تاريخ الأمم والملوك) . طبع في مطبعة الاستقامة بالقاهرة . وأخذه الطبري عن خالد وعبادة من الصحابة المعروفين . ونقل عنه معظم المؤرخين . وهو الذي اعتمدناه .

ونقل مجير الدين النصر نفسه في كتابه (الأنس الجليل) الصفحة ٢٢٤ ، وإن كان في روايته بعض التحريف ، كقوله (مقيمها) بدلاً من سقيمها ، و(بريها) بدلاً من بريئها ، و(بيعتهم) بدلا من بيعهم . (وصليبم) بدلاً من صلبهم . و(إيليا) بدلاً من إيلياء . وما إلى ذلك من الفروق البسيطة التي يدركها القارئ اللبيب .

النص الحقيقي للعهدة

هذه هي (العهدة العمرية) . وهذا هو نصها الذي أجمع عليه المؤرخون : ولست أدري ، وأيم الحق ، من أين أتى رجال البطريركية الارثوذكسية في القدس ، بالنص الذي أذاعوه في اليوم الأول من شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٥٣ ، وقالوا عنه إنه نسخة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الروم بالفنار من أعمال إستانبول .

وهو ، في اعتقادي ، نص ملفق ؛ القصد منه إظهار ما للروم من (حق التقدم) على الطوائف المسيحية الأخرى . وما كنت لاعباً بهذه الناحية ، لولاء أن فيه ذكراً لطوائف لم تكن موجودة في القدس عندما دخلها عمر بن الخطاب ، ولم يأت ذكرها بتاتاً في العهدة العمرية .

وقبل أن أدلك على مواضع الضعف في النص المنشور حديثاً ، أرى من الحكمة أن أدرجه فيما يلي كما أذاعه رجال البطريركية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان ورحمنا نبيه محمد ﷺ وهدانا من الضلالة وجمعنا بعد الشتات وألف قلوبنا ونصرنا على الأعداء ومكن لنا من البلاد وجعلنا إخواناً متحابين . واحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة . هذا كتاب عمر بن الخطاب بعه وميثاق أعطى إلى البطرك المبجل المكرم وهو صوفرونيوس بطرك الملت الملكية في طور الزيتون بمقام القدس الشريف في الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا وأين وجدوا وأن يكون عليهم الأمان . وأن الذمي إذا حفظ أحكام الدين وجب له الأمان والصون منها نحن المؤمنين وإلى من يتولى بعدنا وليقطع عنهم أسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم من أسباب الطاعت والخضوع . وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياراتهم وكانت زياراتهم التي بيدهم داخلاً وخارجاً وهي القمامة وبيت لحم مولد عيسى عليه السلام كنيسة الكبراء والمغارة ذي الثلاثة أبواب قبلي وشمالي وغربي وبقية أجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكوج والحبش والذين يأتون من الإفرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابين للبطريرك المذكور ويكون متقدماً عليهم لأنهم أعطوا من حضرت النبي الكريم والحبيب المرسل من الله وشرفوا بختم يده الكريمة وأمر بالنظر إليهم والأمان عليهم . كذلك نحن المؤمنين نحسن اليوم إكراماً لمن أحسن إليهم ويكونوا معافين من الجزيت والغفر والمواجب ومسلمين من كافت البلايا في البر والبحور وفي دخولهم للقمامة وبقية زياراتهم لا يؤخذ منهم شيء . وأما الذين يقبلون إلى الزيارة إلى القيامة يؤدي النصر أني إلى البطرك درهم وثلث من الفضة وكل مؤمن ومؤمنة يحفظه ما امرنا به سلطاناً أم حاكم أم والي يجري حكمه في الأرض غني أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات . وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام عبدالله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن ابن عوف وبقية الاخوة الصحابة الكرام . فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به . وابقاء في يديهم وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل في العشرين من الشهر ربيع الأول سنة خامس وعشر للهجرة النبوية وكلمن قوى مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن وإلى يوم الدبن فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الكريم باغضاً» .

هذا هو النص الذي أذاعه رجال البطريركية بالقدس . وقد أرسلوا نسخاً كثيرة منه إلى مختلف الكاتب والدواوين . فاعتبره القوم حقيقة ثابتة!

وأما الأسباب التي حدثني إلى الشك في صحة هذه النسخة فهي :

أولاً - لأن نصها يخالف النص الذي اعتمده المؤرخون العرب والذي دوناه في السطور المتقدمة .

ثانياً - لأنه كتب بأسلوب غير الأسلوب العربي القديم الذي كان معروفاً في القرن الأول للهجرة . فما عرف العرب في ذلك القرن كلمة (الملت) بالتاء المفتوحة ، وإنما عرفوها بالتاء المربوطة (الملة(. لا ، ولا (الذمت) و(كافت) و(حضرت) و(الجزيت) و(الطاعت) . فإن التاء المفتوحة في الكلمات المتقدم ذكرها وفيما يشابهها من كلمات ، من وضع الأتراك . وكذلك قل عن الكلمات والجمل التالية :

«البطرك المبجل المكرم وهو سفوفرونيوس بطرك الملت الملكية في طور الزيتون بمقام القدس الشريف . .» .

«كحسب ما قد جرى منهم من الطاعت والخضوع . .» .

« . . لأنهم اعطوا من حضرت النبي الكريم والحبيب المرسل من الله . .» .

« . . وكلمن (. .) قرى مرسومنا هذا . .» . وكأنهم يريدون أن يقولوا : كل من قرأ مرسومنا هذا . .

هذه وغيرها من الكلمات والتعابير ، ولا سيما الكلمات التركيةالمثبتة في الطرف الأيسر من البيان المنشور ، وقد قيل عنها أنها (ترجمة حرفية) للنص الأصلي(؟) . . كل ذلك يدل على أنها نسخت في العهد التركي . وفي صدرها كلمة (عهدنامه) وشهادة (رب سهل أمور حسين) . . كل ذلك مكتوب بمداد مختلف الألوان : فيه الأسود والأحمر والمذهب . وبعض السطور مزينة بأشكال مختلفة من الزهر . الأمر الذي لم يكن مألوفاً في القرون السابقة . بله القرن الأول للهجرة .

ثالثاً - ما كانت هذه المدينة تسمى يومئذ بـ(القدس) . لا ، ولا بالقدس الشريف . بل كان اسمها : (ايليا) و(ايلياء) .

ولقد صحبها اسمها هذا منذ عهد الرومان ؛ يوم فتك الإمبرطور أدريانوس باليهود ، وخرب أورشليم (١٣٩م) ، وبنى على أنقاضها مدينة جديدة أسماها ؛ (ايليا كابيتولينا) . وهي مشتقة من (ايليوس) كلمة يونانية معناها الشمس و(كابيتول) معناها المركز أو المقر .

وقد ظل هذا الاسم معروفاً في أوائل الفتح الإسلامي . فخاطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عهد أهل (ايلياء) ولم يخاطب أهل القدس . ولم يكن اسم (القدس) معروفاً في ذلك العهد .

رابعاً - أنه لم يكن من الطوائف النصرانية في ايلياء ، عندما فتحها عمر بن الخطاب ، سوى «الروم» . إذ كانت فلسطين كلها ، لا ايلياء وحدها ، في عهد هرقل داخلة في حظيرة الدولة البيزنطية ، وكانت تسودها تعاليم الكنيسة الشرقية . وكان الروم وحدهم موضع البحث في ذلك الحين . ولم يرد في النص الأصلي أي ذكر للإفرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة ، الذين ذكروا في النص الذي أذاعته البطريركية أنهم كانوا تابعين لبطريرك الروم! . وليس يعني هذا أن العهدة العمرية لا تشمل هذه الطوائف أو أنها مستثناة من الأمان . وإنما تعني أنه لم يبحث عنهم . ولو كان منهم أحد يومئذ في القدس ،لنص عنهم في العهد . ذلك لأن الغاية واحدة . ألا وهي «التسامح الديني» . وهذا ما كان يهدف إليه الخليفة في عهده ، وما فعله الخلفاء من بعده .

أهل إيلياء أيضاً يمضون عهداً :

قال عبدالرحمن بن غنم[١] أن عمر بن الخطاب كما أنه أعطى أهل إيلياء عهداً ، أخذ عليهم أيضاً عهداً حين صالحهم . وإليك صيغة العهد الذي أخذه عليهم :

«هذا كتاب لعبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من نصارى مدينة ايلياء . إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا . وشرطنا لكم أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية[٢] ولا صومعة راهب . ولا نجس منها ما كان في خطط المسلمين . ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار . وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل . وأن ننزل من مر من المسلمين ثلاث ليال ، نطعمهم ولا نواري في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً

---

(١) الأنس الجليل .

(٢) مصرية . معناها مسكن الاسقف .

للمسلمين . ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أراده . وأن نوقر المسلمين ، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر . ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب السروج ، لا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا . ولا ننقش على خواتمنا بالعربية . ولا نبيع الخمور . وأن نجز مقادم رؤوسنا ، وأن نلزم زينا حيثما كنا . وأن نشد زنانير على أوساطنا . ولا نظهر الصليب على كنائسنا . ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا في أسواقهم . ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً . ولا نرفع أصواتنا مع موتانا . ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين . ولا نطلع عليهم في منازلهم . .»

هذا ما كتبه قائد جيشه . ولما أتى عبدالرحمن بن غنم بالكتاب إلى عمر بن الخطاب زاد فيه ما يأتي :

« . . . ولا نضر أحداً من المسلمين . شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان . فإن نحن خالفنا شيئاً من شروطنا لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا . وقد حل لكم منا ما حل من أهل المعاندة والشقاق .»

هذا ما رواه الإمام البيهقي وغيره . ويقول مجير الدين في كتابه (الأنس الجليل) إن هذه الشروط اعتمدها أئمة الإسلام وعمل بها الخلفاء الراشدون .

متى تم فتح القدس؟

بعد أن أمضى عمر بن الخطاب لأهل ايلياء عهد الأمان وأخذ عليهم صك العهد المتقدم ذكره ، دخل بيت المقدس سنة ١٥ للهجرة (٦٣٦م) . هذا ما قاله مجير الدين في كتابه الأنس الجليل . وقد أيده في ذلك الطبري وغيرهما من المؤرخين . وأما سبط ابن الجوزي ورفيق العظم[١] وابن العماد[٢] والمسعودي[٣] وابن رستة[٤] فقد ذهبوا

---

(١) مؤلف كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) .

(٢) مؤلف كتاب (شذرات الذهب) ، ج١ ، ص ٢٨ .

(٣) مؤلف كتاب (التنبيه والأشراف) ، ج٧ ، ص ٣٢٩ .

(٤) مؤلف كتاب (الأعلاق النفيسة) ، ص ٣٢٩ .

إلى أن فتح بيت المقدس قد تم في سنة ست عشرة في ربيع الأول، وقيل لخمس خلون في ذي القعدة. وأما ابن خلدون (ص١٠٦) فقد ذكر الروايتين ولكنه رجح الأولى (أي ١٥هـ). وكذلك فعل أبو الفداء[1]. وأما البلاذري[2] فإنه يقول أن فتح ايلياء تم في سنة ١٧ للهجرة.

عندما دخل عمر المدينة استقبله صفرونيوس. وقد دخل من ورائه المسلمون. دخلوها مكبرين مهللين. وعلى قول الأنس الجليل إن عدد الصحابة الذين دخلوها معه أربعة آلاف. وقد كانوا متقلدين سيوفهم. وراية العرب ترفرف فوق رؤوسهم.

تذكرت حرب الروم[3] لما تطاولت
وإذ نحن في عام كثير نزائله
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا
مسيرة شهر بينهن بلابله
وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده
يحاوله قرم هناك ياجله
فلما رأى الفاروق أزمان فتحها
سما بجنود الله كيما يصاوله
فلما أحسوه وخافوا صواله
أتوه وقالوا أنت ممن نواصله
وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها
وعيشاً خصيباً ما تعد مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب
مواريث أعقاب بنتها قرامله
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله
تحمل عبئاً حين شالت شوائله

---

(١) مؤلف كتاب (المختصر في أخبار البشر)، ص ١٦٩.

(٢) مؤلف كتاب (فتوح البلدان)، ص ١٤٥.

(٣) من قصيدة لزياد بن حنظلة أشار فيها إلى فتح بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب. نقلناها عن الطبري، ص ١٠٨.

الصحابة الذين اشتركوا في الفتح:

وإنه ليحسن بنا أن تذكر هنا أسماء الصحابة الذين دخلوا بيت المقدس يومئذ مع عمر بن الخطاب نقلناها عن الأنس الجليل ومثير الغرام:

أبو عبيدة بن الجراح (واسمه عامر بن عبدالله ابن الجراح) الفهري. معاذ بن جبل الانصاري. بلال بن رباح مؤذن الرسول. عياض بن غنم[1]. خالد بن الوليد[2]. أبو ذر الغفاري (واسمه جندب بن جنادة). أبو الدرداء عويمر[3]. عبادة بن الصامت الانصاري[4]. سلمان الفارسي[5]. أبو مسعود الأنصاري (عقبة بن عامر البدري). تميم بن أوس الداري[6]. عمرو بن العاص السهمي. عبدالله ابن سلام أبو الحادث (إسرائيلي الأصل وكان اسمه الحصين فغيره إلى عبدالله. شهد فتح بيت المقدس). سعيد بن زيد (وعن مثير الغرام أنه سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل). أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص (واسمه ملك بن وهب). مرة بن كعب الفهري. كان من خطباء إيليا في إمارة معاوية، توفي بالأردن (٥٧هـ-٦٧٦م). شداد بن أوس ابن

---

(١) جاء في مثير الغرام - أنه بنى في بيت المقدس حماماً.

(٢) بطل اليرموك. دخل بيت المقدس وشهد فتح دمشق. وتوفي بحمص، وقبره فيها يزار.

(٣) جاء في شرح مثير الغرام للأستاذ أحمد سامح الخالدي أنه هو سعد بن أبي وقاص. وفي الأنس الجليل أن ابا الدرداء عويمر رجل، وسعد بن أبي وقاص رجل أخر. وكلاهما من الصحابة الذين حضروا فتح بيت المقدس.

(٤) (عبادة بن الصامت) صار بعدئذ والياً على إيلياء. وهو أول من تولى القضاء في فلسطين. سكن بيت المقدس، ومات ودفن فيها (٣٤هـ).

(٥) كان مملوكاً فارسياً، فأسلم، ثم اشتراه أبو بكر، وأعتقه، وقد مات في خلافة عثمان بالمدائن (٣٦هـ).

(٦) «تميم بن أوس الداري» دخل القدس يوم الفتح. وكان أميراً عليها يقضي للناس بإذن عمر. رغم المقام الرفيع هذا دخل عليه «روح بن زنباع» الجذامي يبغي لفرسه شعيراً عملاً بقول النبي «من لقي لفرسه شعيراً في سبيل الله كتب له بكل شعيرة حسنة». رواه الطبراني في معجمه الصغير «مثر الغرام ص ٢٤٣». قيل إنه أول من أسرج المساجد. توفي سنة ٤١هـ.

أخي حسان بن ثابت[1] وقبره ظاهر ببيت المقدس يزار في مقبرة باب الرحمة تحت سور المسجد الأقصى . أبو هريرة (واسمه عبدالرحمن بن صخر) . معاوية بن أبي سفيان . وقد تعاهد مع عمرو بن العاص ببيت المقدس بعد قتل عثمان على أن يناصر كل منهما الآخر .

ومن الذين حضروا فتح القدس أيضاً عبدالله بن عمرو بن العاص السهمي . عبدالله بن عباس . عبدالله بن عمر بن الخطاب . عوف بن مالك ابن عوف الأشجعي . أبو جمعة الأنصاري . جندب بن سباع وقيل حبيب بن سباع وقيل ابن وهب . وائلة بن الأسقع الهوازني . مات في بيت المقدس . وقيل مات في الشام . أبو أمامة صدى بن عجلان الباهلي ، سكن بيت المقدس . محمود بن الربيع (أبو نعيم) . يزيد بن أبي سفيان . (كان أميراً بالشام ولما مات أمّر عمر مكانه أخاه معاوية بن أبي سفيان) . أبو ريحانة شمعون القرظي (من بني قريظة كانت ابنته ريحانه سرية النبي ، سكن بيت المقدس وكان يعظ في المسجد الأقصى ، مات من غير عقب ودفن في القدس) . الشريد بن سويد . عبدالله بن أبي الجدع التميمي ويقال له الكناني . فيروز الديلمي (ويقال له أبو عبدالله وقيل أبو عبد الرحمن وأبو الضحاك الحميري . سكن بيت المقدس . ويقال إنه مات بها وجاء في مثير الغرام أن معاوية ولاّه على صنعاء) ذو الأصابع اليمني[2] ويقال له الجهني أو الخزاعي . قال الحافظ أبو بكر الخطيب إنه مات ودفن في القدس . مات من غير عقب . أبو محمد البجاري (الأنصاري البدري) قال صاحب مثير الغرام أظنه مسعود بن أنس بن زيد بن احرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك البجاري . كذا نسبه الواقدي وغيره . قال الحافظ أبو بكر الخطيب إنه مات من غير عقب . ودفن في القدس . سلام بن قيصر (وقيل سلامة بن قيصر) . كان والياً لمعاوية على بيت المقدس ، وله عقب بها . وأنكر بعضهم صحبته . مات

---

(١) كان ذا علم وحلم وعبادة واجتهاد . وهو الذي بشره النبي لما دنت وفاته ﷺ بفتح الشام وبيت المقدس . وله عقب ببيت المقدس .

(٢) إنه من أهل اليمن الذين جاءوا للفتح ونزلوا ببيت المقدس . روى عنه أنه قال : «قلت يا رسول الله أرأيت إن ابتليت بالبقاء بعدك أين تسامرني . قال ، عليك ببت المقدس ، لعل الله يرزقك ذرية يغدون ويروحون إليه (يعني مسجد بيت المقدس) شرح مثير الغرام ، ص ٣٢ .

ودفن في القدس . عبدالله بن كعب[1] (ويقال له ابن أم حرام) . سكن بيت المقدس . وهو آخر من مات فيها من الصحابة . عصيف بن الحارث . صفية بنت حبى أم المؤمنين قدمت بيت المقدس فصلت فيه . وصعدت على طورزيتا فصلت . ودعت إلى الله ، ثم قالت : «من ها هنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة أو إلى النار ، علقمة بن حكيم . صفوان بن أمية . سهيل بن عمرو . الحارث بن هشام .

عمر بن الخطاب و كنيسة القيامة:

كان أول عمل قام به عمر بن الخطاب بعد فتحه بيت المقدس أن زار كنيسة القيامة . ولما كان في داخل الكنيسة حان وقت الصلاة .فأشار عليه البطريرك صفرونيوس أن يصلي في داخل الكنيسة قائلاً : (مكانك صل) . ولكن عمر أبى وخرج من الكنيسة ، وصلى في مكان قريب منها لجهة الجنوب . وبعد أن أتم صلاته قال للبطريرك : (ايذن لي أيها الشيخ ، إنني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة لوضع المسلمون عليها الأيدي من بعدي في حجة إقامة الصلاة فيها . وإني لآبى أن أمهد السبيل لحرمانكم منها ، وأنتم لها أحق وأولى) .

أين بنى عمر مسجده؟

ثم طلب إلى البطريرك أن يريه مكان الهيكل وفي قول - وهذا هو الأصح - أن عمر طلب إلى البطريرك أن يدله على مكان يبني فيه مسجداً للمسلمين . فدله البطريرك على منطقة الهيكل .

وذهب الاثنان معاً إلى منطقة الهيكل ، يرافقهما عدة من الصحابة والقسس وقادة الجيش . وكان المكان مهجوراً بالمرة ، ينعق فوقه بوم الخراب . ولم يكن فيه سوى الطلل الباقي من عهد الرومان . ولم يكن على الصخرة أي نوع من أنواع البناء . لا بل كانت الصخرة مغطاة بالزبل والأقذار . إذ كان سكان المدينة قد اتخذوها مزبلة .

فدهش عمر ، وراح ينضح التراب بكفيه ، وينقله بثوبه ؛ وتبعه الصحابة ، فراحوا

---

(١) من أوائل الذين أسلموا وممن صلى إلى القبلتين . أنه قريب عبادة بن الصامت . وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن (الشذرات ج١ - ص٣٢) . قل عمر عنه يوم مات : (اليوم مات سيد المسلمين) .

يرفعون عن الصخرة التراب ، إلى أن بدت للناظرين ؛ فأمر عمر ببناء مسجد في ذلك المكان .

ذكر المؤرخون هذه الحقيقة . وهي أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد بنى مسجده في المنطقة التي كان يقوم فيها الهيكل . وقال بعضهم إنهم رأوا المسجد بأعينهم[1] وأنه كان يتسع لثلاثة آلاف من المصلين . ولكن أحداً من هؤلاء وأولئك لم يذكر لنا : أين كان ذلك المسجد بوجه التحديد؟ فمنهم من قال : إنه كان عند الصخرة التي نظفها عمر بيده . ومنهم من قال : إنه كان في الموضع نفسه الذي يقوم عليه البناء الحالي للمسجد الأقصى .

وسواء بنى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مسجده في هذا الموضع ، أو ذاك ؛ على الصخرة ، أو إلى جانبها ، أو بعيداً عنها ؛ فإنه مما لا شك فيه أن موضع الحرم الحالي بوجه الإجمال مقدس في نظر المسلمين .

إنه أولى القبلتين . فقد صلى المسلمون عليه في بادىء الأمر نحو سبعة عشر شهراً قبل أن يتخذوا الكعبة قبلتهم .

وهو ثالث الحرمين اللذين خصهما الله بالشرف والتعظيم[2] .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الصلاة في المسجد الأقصى أفضل من الصلاة في غيره» . ولهذا أمر المسلمين أن يحرموا للحج من بيت المقدس . وفي ذلك قال : «من أهل بالحج والعمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ووجبت له الجنة» .

وفي رواية أخرى[3] أن عمر انتهى إلى المسجد الأقصى ليلاً . فدخله ، وصلى به . ولم يلبث أن طلع الفجر . فأمر المؤذن بالإقامة . فتقدم ، وصلى بالناس ، ثم دعا

---

(١) ومنهم السائح المعروف (أركولف) الذي زار القدس سنة ٣٣٣ للميلاد . والسائح المؤرخ (جيروم) الذي زارها بعده بقليل .

(٢) الأول هو (المسجد الحرام) بمكة . والثاني هو المسجد الذي دفن فيه النبي بالمدينة . وهذا هو الثالث .
وقد جاء في الحديث : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الحرام» .

(٣) أشهر مشاهير الإسلام ، لرفيق بك العظم .

بكعب الأحبار(١) وكان لما دخل المسجد، قال: ارقبوا لي كعباً. ولما أتى به قال له: «أين ترى أن نجعل المصلى»؟ فقال: «إلى الصخرة». قال عمر: «ضاهيت والله اليهودية يا كعب». ثم قال: «بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها». فإنا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة. فجعل قبلته صدره.

ثم قام إلى كناسة(٢) كان الروم قد دفنوا بها الهيكل(٣) في زمن بني إسرائيل، وقال: «يا أيها الناس، اصنعوا ما أصنع». وجثا في أصلها، وجثا في فرج من فروج قبائه. وبنى فوقه مسجداً. وبينما كان عمر ينظف موضع الصخرة سمع التكبير من خلفه. فقال: ما هذا! قالوا: كبر كعب، وكبر الناس بتكبيره.

ولا غرابة أن يظهر كعب الأحبار سروره ويكبر لما جرى. وهو إسرائيلي الأصل. يعلم سوء ما لاقى بنو إسرائيل من الرومان، وما كانوا يلاقونه من اضطهاد من النصارى الذين حظروا عليهم حرية التوجه إلى قبلتهم. كما يعلم جميل المسلمين لأهل الكتاب وإطلاقهم لهم حرية التعبد والسكن والاعتمال حيثما كانوا.

تفقد عمر معالم المدينة ومصالح السكان:

وبعد أن أتم عمر بن الخطاب زيارته لهذين المكانين المقدسين: القيامة والصخرة. راح يجول في شوارع المدينة ويغشى أسواقها. وكانت هذه لا تزال تئن من الخراب الذي أحدثه الغزو الفارسي. ذلك الغزو الذي سبق الفتح الإسلامي باثنتي عشرة سنة. فرأى بعين ثاقبة أن يبدأ بالتنظيم الإداري والقضائي أولاً. فلم يتمهل، ولم يتوان. ففرض للمسلمين الفروض(٤) وأعطى العطايا. أعطى صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو أقل مما أخذ من قبلهم. فامتنعوا من أخذه. وقالوا: لا نعرف أن يكون أحد أكرم منا. فقال: إني إنما أعطيتكم على السابقة في

---

(١) (كان يهودياً ثم اعتنق الإسلام. ورافق عمر بن الخطاب أثناء فتحه بيت المقدس. وكان اليهود يتمنون أن لو يفتح المسلمون بيت المقدس نكاية بالمسيحيين. وكثيراً ما كانوا يحرضونهم على فتحها.

(٢) الكناسة: الزبالة.

(٣) الهيكل الذي بني على الصخرة. وكان الرومان قد هدموه وألقوا عليه الزبالة نكاية باليهود.

(٤) الرواتب.

الإسلام ، لا على الأحساب . قالوا : فنعم إذن ، وأخذوا[1] .

ثم وضع التاريخ الهجري . ودون الدواوين . وقسم البلاد إلى مناطق . وعين عليها الأمراء . ورتب البريد . وأقام العيون (الاستخبارات) . وعين قاضياً (مفتشاً) يطوف على المأمورين ، ويحقق الشكايات . وأسس الحسبة (البلدية) لمشارفة الموازين والمكايل ومراقبتها ولمنع الغش وتنظيف الأزقة وشر الكنف والرفق بالحيوان . وهدم البناء المحدث في وسط السوق . وحظر على الناس الازدحام في الطرق .

وحضهم على التجارة ، فقال : «لا يلهكم الرياسة وحبها . لا يغلبنكم الغرباء على التجارة فإنها ثلث الإمارة» .

روي عن سلامة بن قيصر وكان عمر بن الخطاب ﷺ خلفه ببيت المقدس يصلي بالناس ، إنه ﷺ لما فتح بيت المقدس وقف على رأس السوق في أعلاه فقال : لمن هذا الصف؟ يعني صف سوق البزازين . فقالوا : للنصارى . فقال : لمن الصف الغربي الذي فيه حمام السوق؟ فقالوا للنصارى . فقال بيده هكذا : هذا لهم ، وهذا لهم يعني للنصارى . وهذا لنا مباح يعني السوق الأوسط الذي بين الصفين وكانت فيه قبة من رصاص .

ذمي يشكو أمره لعمر، فيأخذ بيده:

وبينما كان يبحث عن شؤون المدينة وعما أصاب سكانها من حيف وضيم أثناء الفتح ، أتاه رجل من النصارى له ذمة مع المسلمين في كرم عنب . فشكا إليه الذمي قائلاً[2] : يا أمير المؤمنين كرمي كان في أيديهم ، فلم يستبيحوه ، ولم يتعرضوا له . وأنا رجل لي ذمة مع المسلمين ، وقعوا فيه فدعا عمر ﷺ ببرذون له . فركبه عرياناً من العجلة . ثم خرج يركض في أعراض المسلمين . فكان أول من لقيه أبو هريرة يحمل فوق رأسه عنباً . فقال له : وأنت أيضاً يا أبا هريرة! فقال : يا أمير المؤمنين ، أصابتنا محمضة شديدة . فكان أحق من أكلنا من ماله من قاتلنا . فتركه عمر . ثم أتى الكرم . فنظره . فإذا هو قد أسرعت الناس فيه . فدعا عمر الذمي ، فقال له : كم

---

(١) (الكامل في التاريخ) لعماد الدين اسماعيل بن سعيد المعروف بابن الأثير الحلبي المتوفى سنة ٦٩٩هـ ، ص ١٩٤ ، والطبري ص ١٠٨ .

(٢) الأنس الجليل .

كنت ترجو من غلة كرمك هذا فقال له شيئاً . قال : فخل سبيله . ثم أخرج عمر ثمنه الذي قال له . فأعطاه إياه . ثم أباحه للمسلمين .

وقد أمر رجاله بالعدل . وقال لهم : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا» .

تقشف أبي عبيدة بن الجراح:

روي أن عمر لما فتح بيت المقدس وكتب كتاب الأمان والصلح ، دخل الناس بعضهم في بعض وأقام عمر أياماً . ثم قال أبي عبيدة : «لم يبق أمير من الأحياء غيرك إلا استزارني» . فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين . إني أخاف أن أستزيرك فتعصب عينيك في بيتي . قال : فاستزرني . قال : فزرني . فلما أتاه عمر في بيته فإذا ليس فيه شيء إلا لبد فرسه . وإذا هو فراشه وسرجه . . وإذا هو وسادته . وإذا كسر يابسة في كوة[1] بيته . فجاء بها . فوضعها على الأرض بين يديه . وأتاه بملح جريش وكوز خزف فيه ماء . فلما نظر عمر إلى ذلك بكى . ثم قال : أنت أخي . وما من أحد من أصحابي إلا وقد نال ونالت منه غيرك . فقال له أبو عبيدة : «ألم أخبرك أنك ستعصب عينيك» .

ثم جمع المسلمين فقال : ما يحل للوالي من هذا المال؟ فقالوا جميعاً : أما لخاصته فقوته وقوت عياله ، لا وكس ولا شطط . وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف . ودابتان إلى جهاده وحوائجه وحملانه إلى حجه وعمرته . والقسم بالسوية أن يعطي أهل البلاء على قدر بلائهم . ويرم أمور الناس بعد . ويتعاهدهم عند الشدائد والنوازل حتى تكشف . ويبدأ بأهل الفيء أي الذين أفاء الله عليهم بأن اشتركوا في الجهاد والفتح ، ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم .

عمر بن الخطاب ينصح رجاله:

بعد أن رتب الأمور ووضع كل شيء في نصابه اعتزم الرجوع إلى المدينة . وقبل مغادرته بيت المقدس ودع جنده . وبعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ، وصلى

---

(١) «الكوة» الخرق الصغير في الحائط و«الكو» الخرق الكبير .

على نبيه ، خاطبهم قائلاً[1] :

«يا أهل الإسلام ، إن الله قد صدقكم الوعد . ونصركم على الأعداء ، وأورثكم البلاد . ومكن لكم في الأرض . فلا يكونن جزاؤه منكم إلا الشكر . وإياكم والعمل بالمعاصي . فإن العمل بالمعاصي كفر للنعم . وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ، ثم لم يفزعوا إلى التوبة ، إلاسلب عزهم وسلط عليهم عدوهم» .

وبعد ذلك أذن بلال ، وسمع الصحابة صوته ، فذكروا النبي ، وكان أطولهم بكاء أبو عبيدة الجراح القائد العام الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في افتتاح بيت المقدس . ثم قضى صلاته ، وقفل راجعاً إلى الحجاز .

يزيد بن أبي سفيان يتولى إدارة القدس:

وقبل سفره إلى الحجاز أقام عمر على بيت المقدس (يزيد بن أبي سفيان) ، على أن يأتمر بأوامر أبي عبيدة بن الجراح . وانتدب للصلاة من بعده (سلامة بن قيصر) . هذا في بيت المقدس ومن الناحية الإدارية . وأما من الناحية العسكرية فقد أمر على فلسطين رجلين . فجعل (علقمة بن حكيم) على نصفها الشمالي وأنزله الرملة ، و(علقمة بن مجزز) على نصفها الجنوبي وأنزله إيلياء . فنزل كل منهما في عمله مع جنوده .

عمر بن الخطاب يزور القدس مرة أخرى:

ولقد عاد عمر ، فزار القدس مرة أخرى عام ١٧ للهجرة (٦٣٩م) ويعرف بعام الرماد ؛ إذ اجتاح[2] الحجاز عامئذ قحط شديد ، وجاع الناس ، وهلكت الماشية . فأمر الخليفة عامليه أبا عبيدة وعمرو بن العاص ، فأرسلا الحبوب من سورية وفلسطين إلى البلاد الحجازية بطريق العقبة . وقيل إن السبب في مجيئه هو الطاعون . فقد انتشر هذا في الشام وفي فلسطين . ودام فيهما ثلاثين يوماً ، وانتشر بشكل خاص في (عمواس) . فمات من جرائه خلق كثير : منهم أبو عبيدة بن الجراح[3] وضرار بن

---

(١) الأنس الجليل .

(٢) بيك باشا ، ص ١٠٤ .

(٣) دفن في غور أبي عبيدة ، وقبره لا يزال ظاهراً للعيان .

الأزور الكندي[١] ومعاذ بن جبل[٢] ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعتبة بن سهيل وعدد آخر من أشراف الناس[٣] . فخاف عمر أن ينتهز الروم فرصة ضعف البلاد ، بسبب هذه المصائب ؛ فسار إلى القدس ، ونزلها ثانية . فأسى الثكالى واليتامى ، وأعان الفقراء والمحتاجين . ونظر في أمور الناس ومصالحهم . ثم صلى وصلى الناس من ورائه . وبكى وبكوا معه على تلك الأرواح الطاهرة التي قضت نحبها وهي تجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله .

أثر الفتح الإسلامي في فلسطين:

وإنه لجدير بنا أن نذكر هنا[٤] أن الشعب الفلسطيني لم يتأثر ، على مر الدهور ، بأي فتح مثل تأثره بالفتح الإسلامي ، وأن ثقافته لم تتأثر عن طريق الأمم التي احتلت بلاده ، مثل تأثرها بالفتح العربي ، فقد ترك هذا الفتح العظيم في هذه البلاد طابعاً لا تقوى على محوه يد الدهر .

ولم يكن الفتح العربي للقدس فتحاً دينياً فحسب ؛ بل كان فتحاً عسكرياً ، وعنصرياً ، ولغوياً أيضاً[٥] إنه كان فتحاً عسكرياً ، لأن فتوحات العرب من بعده اتسعت حتى شملت الهند والصين من الشرق وبحر الظلمات من الغرب ؛ وعنصرياً ، لأن الجنس العربي تغلب على الأجناس الأخرى بدرجة أنه تمثلها في أكثر الأقطار ؛ ولغوياً ، لأن اللغة العربية انتشرت انتشاراً سريعاً .

وضرب المسلمون[٦] في بيت المقدس ، غداة الفتح ، مسكوكات من النحاس نقشوا على وجهها (محمد رسول الله) ورسم سيف ، وعلى الوجه الآخر إيلياء وفلسطين وحرف «م» و«الهلال» .

كانت اللغة اليونانية قبل الفتح الإسلامي وفي أوائله سائدة في بيت المقدس .

---

(١) دفن بالقرب من أبي عبيدة بن الجراح .

(٢) دفن في الشونة .

(٣) الطبري ، ج٣ ، ص ١٦١ .

(٤) المهتدي ، ص ٤ .

(٥) المهتدي ، ص ٥ .

(٦) مجلة «الراعي الصالح» . ج١٢ ، ٣١ ديسمبر ١٩٤٣ ، ص ١٨٢ .

فأتت ، مع الفتح ، اللغة العربية تنافسها . وما هي إلا بضع سنين حتى تلاشت الأولى وسيطرت الثانية . وفي خلافة عبد الملك بن مروان ألغيت اليونانية ، وقامت مكانها اللغة العربية . وراحت هذه تستعمل في جميع مصالح الدولةودواوينها . وضربت الدنانير الإسلامية . فأصبحت الحكومة عربية بكل ما في هذه الكلمة من معنى . ومستقلة استقلالاً تاماً بكل ما في كلمة الاستقلال من معان سياسية واقتصادية وثقافية . والفضل في ذلك كله يعود إلى الفتح العربي الذي تم على يد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

التسامح الديني

ولقد تمتع المسيحيون(١) في زمن العرب بالحرية الدينية . ورأوا من شممهم وإبائهم وكرم نفوسهم ما لم يروا مثله من الرومان والبيزنطيين المسيحيين أنفسهم .

تغلغل القبائل العربية في البلاد:

ومن مميزات الفتح العمري أن العنصر العربي قد انتشر في فلسطين انتشاراً سريعاً . وإليك(٢) أسماء بعض الذين وصلت إلينا أسماؤهم ممن نزلوا بيت المقدس بعد الفتح العمري وقبل الفتح الصلاحي . فريق منهم نزله زائراً وفريق مستوطناً :

أويس بن عامر القرني . عبيد عامل عمر على بيت المقدس . استعمله على بيت المقدس عندما وقع الطاعون فيها ، فكانت الجنائز تغسل وهو يصلي فيها . ولا يحمل الجنائز إلا الشباب . عمر بن سعد من عمال عمر بن الخطاب ، استعمله على حمص ، شداد(٣) بن أوس ، وكنيته أبو ثابت ، حضر فتح بيت المقدس . أبو نعيم المؤذن وهو أول من أذن ببيت المقدس (بعد بلال) . وكان عبادة بن الصامت والي إيلياء يأتم به في صلاته . أبو الزبير الدار قطي . مؤذن بيت المقدس . أبو سلام الجيش (واسمه محظور) . أبو جعفر الحرش (وفي مثير الغرام أبو خصص) . خالد بن معد بن

(١) تاريخ القدس – لطوطح وبولس ، ص ٢٥ .

(٢) الأنس الجليل ومثير الغرام .

(٣) إنه شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر ، صحابي من الأنصار . كان عالماً ، وكان تقياً وحليماً . مات في بيت المقدس ودفن فيها (٤١هـ) .

الكلاعي . جهينة أم الدرداء[1] . كانت تجالس المساكين ببيت المقدس . فتقيم سنة فيه ، وسنة في الشام ، أبو العوام ، مؤذن بيت المقدس . قبيعة بن ذؤيب . عبدالله بن محيريز . هاني بن كلثوم . عرضت عليه إمارة فلسطين فامتنع . محارب بن اثار . كان قاضياً . وحديثه يخرج في كتب الإسلام . وكان يقوم الليل ، ويكف عن الناس ، ويبسط في النفقة لسكان بيت المقدس . عبدالله بن فيروز الديلمي . فقيه مقدسي خرج له أبو داود والنسائي وابن ناحبة . زياد بن أبو سودة ، مقدسي روي عن عبادة ابن الصامت وأبي هريرة . أبو الحسن الأزهري الأندلسي الملقب بالنهرواني . إبراهيم ابن محمد بن يوسف العرياني . أبو عتبة الخواص . عباد بن عباد الأرسوفي . ثور بن يزيد . مات ببيت المقدس سنة ١٥٣هـ - ٧٧٠م . عبدالله بن عامر العامري . أبو عبدالله بن خصيف . قاسم الزاهد (وعلى قول مثير الغرام قتم الزاهد) . محمد ابن حاتم بن محمد بن عبدالكريم الطائي . أبو محمد عبدالله بن الوليد بن سعد بن بكر الأنصاري مات في بيت المقدس . جعفر بن محمد النسابوري ـ٢٧٠هـ) . كعب الأحبار بن مانع الحميري . كان يهودياً فأسلم . إبراهيم بن أبي عبلة المقدسي . جبير ابن نصير الحضرمي . عبدالرحمن بن غنم الاشعري (وفي مثير الغرام عبدالرحيم بن غنم الاشعري) . مالك بن دينار . محمد بن واسع . بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عقل . توفيت ١٣٥هـ - ٧٥٢م وقبرها على رأس جبل طورزيتا شرقي بيت المقدس . سليمان بن طرخان الهيثمي الثميمي . مقاتل بن سليمان المفسر (مات سنة ١٥٠هـ) . الأوزاعي عبدالرحمن بن عمر . سفيان الثوري (ابن سعيد بن مسروق) مات سنة ١٦١هـ . إبراهيم بن أدهم بن إسحق توفي سنة ١٦١هـ . الليث بن سعد ابن عبدالرحمن الفهمي[2] . ركيع بن الجراح بن سليم . أبو سفيان الرواسي مات سنة ١٩٧هـ . محمد بن إدريس الشافعي أحد الأئمة المجتهدين العظام في الإسلام . المؤمل بن إسماعيل البصري توفي سنة ٢٠٦هـ . بشير بن الحارث الحافي . ذو النون

---

(١) خطبها معاوية بن أبي سفيان فابت . وقالت سمعت أبا الدرداء يقول سمعت رسول الله يقول المرأة لاجر أزواجها فإذا اردت ان تكوني زوجي في الجنة فلا تتخذي بعدي زوجاً . ومن أقوالها : «طلبت العبادة في كل شيء . فما رأيت اشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم» .

(٢) كان نظير مالك في العلم . قيل كان دخله في السنة ثمانين الف دينار . ولكن لا ينقضي عام إلا وعليه دين من كثرة جوده وبره . د ت سنة ١٧٥هـ .

المعري أبو الفيفي ثوبان بن إبراهيم . السري بن المفسلي السقطي مات ٢٥١هـ . محمد بن كرام المتكلم . توفي ببيت المقدس (٢٥٥) ودفن بباب أريحا عند قبور الأنبياء . صالح بن يوسف أبو شعيب المقنع[١] بكر بن سهل الدمياطي . أحمد بن يحيى البزاز البغدادي أقام ببيت المقدس إلى أن مات به ٣٤١هـ . الشيخ سلامة بن إسماعيل بن جماعة المقدسي . أبو الفرج عبد الواحد بن أحمد بن محمد بن علي بن أحمد الشرازي (شيخ الإسلام ، وهو الذي نشر مذهب الإمام أحمد في بيت المقدس) . أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي[٢] النابلسي توفي سنة ٤٩٠هـ . أبو الفضل عطاء شيخ الشافعية بالقدس وشيخ الطريقة الصوفية . أبو المعالي المشرف بن الرجا بن إبراهيم المقدسي من علماء بيت المقدس . أبو القاسم بكر بن عبدالسلام بن الحسين بن القاسم الأنصاري . كانت الفتاوي تأتي إليه من مصر والشام . أسره الإفرنج وقتلوه في بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ . أبو القاسم عبدالجبار بن أحمد بن يوسف الشرازي . استشهد على يد الإفرنج حين أخذهم القدس سنة ٤٩٢هـ . الإمام الغزالي (حجة الإسلام) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي . صنف أكثر تصانيفه ببيت المقدس ومنها إحياء العلوم ولد في ٤٥٠هـ وتوفي سنة ٥٥٠هـ . محمد بن حسن بن سهل بن عبدالله البلاشاغوي ولي قضاء بيت المقدس ٥٠٦هـ .

أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد[٣] المعروف بابن القيسراني ، ولد ببيت المقدس ٤٤٨هـ وله تصانيف جمة . أبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون القرشي الكوفي . أبو روح ياسين بن سهل القابس الخشاب[٤] . أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن المسلم المقدسي ، ولد بالقدس سنة ٤٤٢هـ . الإمام أبو بكر الطرطوش محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري

---

(١) يقال إنه حج سبعين حجة راجلاً . وكان في كل حجة يحرم من صخرة بيت المقدس . توفي سنة ٢٨٢هـ .

(٢) اقام بالقدس مدة طويلة . وهو أستاذ حجة الإسلام الامام أبي حامد العزالي وصاحب المدرسة النصرية (الزاوية الغزالية بالقدس) .

(٣) جاء في شرح مثير الغرام أنه الإمام الحافظ أبو الفضل علي بن محمد بن طاهر .

(٤) وفي مثير الغرام (أبو رباح ياسين) .

الأندلسي . ولد ٤٥١هـ وتوفي ٥٢٠هـ . أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يحيى الأموي العثماني المقدسي توفي ٥٢٧هـ . أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي العثماني المشهور بالديباجي من أولاد الديباجي بن عبدالله بن عمر ابن عثمان بن عفان . أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدالله الريفي المقدسي . أبو علي الحسن بن فرح بن حاتم المقدسي . الإمام أبو بكر بن العربي محمد بن عبدالله المغربي الأندلسي الإشبيلي ، توفي ٥٤٣هـ . أبو بكر الجرجاني محمد بن أحمد بن أبي بكر ٥٤٤هـ . تاج الإسلام أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور السمعاني توفي ٥٦٢هـ . إدريس بن أبي خولة الانطاكي . عبدالعزيز المقدسي . جبير بن نفير الحضرمي . أتى بيت المقدس وصلى فيه . ومات سنة ٧٥هـ . ومن أقواله : «خمس خصال قبيحة : الحدة في السلطان ، والحرص في العلماء ، والقوة في الشيوخ ، والشح في الأغنياء ، وقلة الحياء في ذوي الأحساب» . عمر بن عبدالعزيز . أمير المؤمنين الإمام العادل . قال صاحب مثير الغرام إنه اجتمع بخالد بن يزيد بن معاوية بصخرة بيت المقدس .

رجا بن حيوة الملقب بأبي المقدام وأبي نصر الكندي . هو الذي كان يشرف على بناء قبة الصخرة في أيام عبدالملك .

وكان من جلة العلماء الأعلام . توفي سنة ١٠٢هـ . الوليد بن عبدالملك . سليمان بن عبدالملك . أبو جعفر المنصور . توفي سنة ١٥٨هـ . المهدي بن المنصور توفي سنة ١٦٩هـ .

هذا غيض من فيض لأسماء عدد من الصحابة والأعلام الذين نزلوا بيت المقدس وقضوا نحبهم فيه أثناء الفتح العمري وبعده .

القدس في عهد بني أمية

معاوية بن أبي سفيان:

معاوية بن أبي سفيان هو مؤسس الدولة الأموية . كان ، على عهد النبي ، كاتب الوحي . وكان أحد قادة الجيش العربي الذي انتدبه أبو بكر الصديق لفتح الشام وفلسطين . فقد اشترك في واقعة اليرموك ، وحاصر قيسارية وافتتحها . وحضر فتح بيت المقدس ، وكان من شهود (العهدة العمرية) التي أعطاها عمر بن الخطاب لأهل إيلياء . وقد ولاّه عمر بعدئذ الشام (١٨هـ - ٢٣٩م) . وولاء عثمان نفس العمل بعد مقتل عمر .

ولما مات عبدالرحمن بن علقمة الكناني ، وكان على فلسطين ، ضم عمله إلى معاوية ، فأصبح معاوية (٢١هـ - ٦٤١م) الحاكم المطلق في البلقاء والأردن وفلسطين وانطاكية والسواحل ومعرة مصرين وقيليقية . وظل أميراً في الشام عشرين سنة ، قبل أن يتولى الخلافة ويستقل بالحكم .

دم عثمان بن عفان:

ولما قتل عثمان وتولى الخلافة علي بن أبي طالب لم يبايعه معاوية بالخلافة . لا ، بل راح يطالب بدم عثمان ويتهم علياً بقتله . وانضم إليه عمرو بن العاص . وذكر المؤرخون[1] أن معاوية قدم بيت المقدس ، وقدم عليه عمرو بن العاص ، فبايعه على دم عثمان وأمضيا في بيت المقدس الاتفاق التالي :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تعهد عليه معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ببيت المقدس بعد قتل عثمان وحمل كل واحد منهما صاحبه الأمانة أن يبنيا عهد الله على التناصر والتناصح في أمر الله والإسلام ولا يخذل أحدنا صاحبه بشيء ولا يتخذ من دونه وليجة[2] ولا يحول بيننا ولد ولا والد أبداً ما حيينا فيما استطعنا» .

راح معاوية بعد هذا التعاهد يطالب علياً بدم عثمان ولكن علياً رفض طلبه قائلاً : « . . ما أنت وعثمان . إنما أنت رجل من بني أمية ، وبنو عثمان أولى بعثمان منك» .

---

(١) خطط الشام ، ج١ ، ص ١٣٨ .

(٢) البطانة ، من تتخذه لك معتمداً من غير أهلك . (البستان) .

معركة صفين:

فقامت بين الرجلين وأتباعهما (حرب صفين) المشهورة ٦٥٧م - ٣٧هـ . كان النصر فيها حليف معاوية . فخلا له الجو . وأصبح الأمر المطلق في مصر والشام والعراق والحجاز .

بويع بالخلافة(١) ٤١هـ - ٦٦١م . وأنشأ أسطولاً عظيماً غزا به الروم . وحاصر القسطنطينية . وابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد . منها أنه أول من وضع البريد ، واستخدم المسيحيين في مصالح الدولة ، وأخرج الخلافة عن أصولها ، فعبد أن كانت بالعهد لأفضل الصحابة أو بالشورى بينهم جعلها - كالملك - وراتبة .

إن أول من اتخذ (سرير الملك) للجلوس عليه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان . وهو أول اتخذ (المقصورة) للصلاة في الجامع(٢) .

والي القدس: سلام بن قيصر

جاء في الأنس الجليل أن سلاماً بن قيصر (وعلى قول سلامة بن قيصر) وهو صحابي مشهور كان والياً لمعاوية على بيت المقدس . وأنكر بعضهم صحبته .

ولقد أنشيء مقر جديد للحكومة (في غضون القرن السابع للميلاد) أي أثناء حكم معاوية بن أبي سفيان . في نفس المكان الذي كان يقوم عليه قصر هيرودس في عهد الرومان ، وهذا المقر عبارة عن حصن مستدير بني على طراز قصور الخلفاء التي رأيناها في مدن الشام . والحصن متصل بسور يقع في الطرف الجنوبي من صحن القلعة .

القدس في أوائل العهد الأموي:

زار القدس على عهد مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان ، أسقف فرنسي الأصل يدعى (ار كولفوس) . هبطها عام ٦٧٠ للميلاد . وقضى فيها تسعة

---

(١) جاء في الصفحة ١٦ من الجزء الثامن من كتاب (البداية والنهاية) لأبي الفداء أن معاوية بويع بالخلافة في إيلياء (القدس) وجاء في (مثير الغرام) أن معاوية بويع بايليا في رمضان (٤٠هـ) تلك بيعة أهل الشام . ودخل الكوفة فبايعة الحسن بن علي (٤١هـ) .

(٢) صبح الأعشى ٤ ، ص ٧ .

شهور وذكر عنها الشيء الكثير . وإنا لننقل فيما يلي بعض النقاط التي تهمنا من رحلته(١) :

«كان على سور بيت المقدس يومئذ ٨٤ برجاً . وله مئة باب ثلاثة منها فقط تستعمل للدخول والخروج : واحد منها غربي المدينة والثاني شماليها والثالث شرقيها :في اليوم الخامس عشر من أيلول من كل سنة يؤم القدس من كل حدب وصوب جماهير غفيرة مختلفة الأجناس والأديان بقصد التجارة وتبادل العطاء والبيع والشراء . وكثيراً ما يمكث هؤلاء في هذه المدينة المضيافة بعضة أيام . فترى الشوارع مكتظة بجمالهم وخيلهم وحميرهم ، دع عنك البغال والثيران ، بشكل يجعل السير فيها ضعيفاً . ومن الغرائب التي يكاد المرء لا يصدقها ، أن المطر يهطل بغزارة عشية اليوم الذي تترك فيه هذه الجموع الغفيرة وحيواناتها المدينة ؛ فيغسل الشوارع ، ويزيل ما فيها من روث وأقذار ، وتسيل مياه الأمطار هذه في المنحدرات كالأنهار ، فلا يبقى منها في الآبار سوى القليل .

في تلك البقعة الجميلة ، حيث كان يقوم في يوم من الأيام هيكل سليمان ، بنى المسلمون مسجداً مربع الأضلاع . بنوه من حجارة وأعمدة ضخمة نقلوها من بعض الأطلال والخرائب المجاورة . ويقال إن هذا المسجد يتسع لثلاثة آلاف من المصلين» .

بعد أن وصف كنيسة القيامة وكنائس القدس الأخرى ، وأتى على لمحة من تاريخ السيد المسيح مما لا يخرج عما قلناه عن هذا الموضوع في فصول أخرى من هذا الكتاب ، قال :

«ليس على جبل الزيتون أشجار خلا العنب والزيتون . ولكن نوعاً جيداً من القمح يزرع فيه . وأظن أن تربة هذا الجبل لا تساعد على غرس الأشجار . وإنما تنفع لزرع الحبوب والزهور . إن أعلى نقطة فيه مرتفعة على سطح البحر مقدار ٢,٦٩٣ قدماً . إن جبل صهيون أصغر من جبل الزيتون من حيث الطول والعرض . وبين هذين الجبلين يقع وادي يهوشافاط ، ويقال له وادي جهنم ووادي قدرون أيضاً .

ويؤتى بالخشب إلى بيت المقدس من غابة كثيفة واقعة على بعد ثلاثة أميال من الخليل إلى الشمال ، وعلى تل منتصب في وسط سهل متسع يقع على يسار المسافر إلى القدس ، ولا يبعد عن الطريق إلا قليلاً . وفي هذه الغابة تنبت أشجار الصنوبر

---

(١) The Pilgrimage of Arculfus, Translated by, Rev. - James Rose Macpherson. B.D.

بكثرة . ومن هذه الأشجار ينقل المقدسيون الخشب الذي يحتاجون إليه من أجل البناء والوقيد . ينقلونه على جمالهم . إذ إن المركبات والكارات نادرة الوجود في القدس ، وفيما حولها من بلدان» .

يزيد بن معاوية

عين معاوية ، قبل وفاته ، ولده يزيد ولياً للعهد . ولما مات تولى يزيد الملك ٦٠هـ - ٦٨١م . وفي زمنه قامت فتن في الحجاز والعراق . ففي الحجاز عصاه عبدالله بن الزبير . وتحصن بالكعبة . فغزاها يزيد بجيشه . وحاصر الكعبة ورماها بالنار[(١)] لتحصن عبدالله بن الزبير فيها . وفي العراق ثار الشيعة وقتل الحسين بن علي في كربلاء . قتله ابن زياد عامل يزيد على العراق .

عبدالله بن الزبير في الحجاز

بعد موت يزيد ، بويع ابنه معاوية ٦٤هـ-٦٨٤م ولكنه لم يمكث في الحكم أكثر من شهر ونصف ، إذ توفي دون أن يكون له ولد .

فهتف أهل الحجاز بمبايعة (عبدالله بن الزبير) . ويقال إن معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة قبل وفاته . ومن قائل إنه تنازل عنها يوم بايعوه ، لما شعر بعجزه عن مناهضته .

مروان بن الحكم في الشام

تبع أهل الحجاز عبدالله بن الزبير . وبقيت مصر مترددة حيناً ، ثم أقرته . وأما أهل الشام فقد بايعوا مروان بن الحكم . فاحترب الفريقان : عبدالله بن الزبير (الحجاز) ومروان بن الحكم (الشام) وجيشاهما في مرج راهط . وانقسمت البلاد إلى قسمين : - قيس ويمن . وكان النصر لمروان (قيسي) . وكان بفلسطين نائل بن قيس الجذامي فمال إلى الزبير . ولكن مروان حاربه وتغلب عليه . فأخذها منه . ثم سار إلى مصر . فصالحه أهلها . فأخذها من ابن الزبير . واستتبّ لمروان الأمر في مصر والشام (٦٤هـ - ٦٨٤م) .

---

(١) العقد الفريد .

عبدالملك بن مروان

ولما توفي مروان بن الحكم ، بويع ابنه عبدالملك بن مروان (٦٥هـ-٦٨٤م) . وعلى عـهـد عـبـدالملك هذا كـان الوالي على فلسطين رجل يدعى (منصـور) . إنه (أي عبدالملك بن مروان) هو الذي بنى مسجد الصخرة والمسجد الأقصى . وهما من أعظم آثار بني أمية في فلسطين . لا بل من مفاخر العرب في الشرق كله . وإليك ما نعرفه عن هذين المسجدين :

مسجد الصخرة:

بناه الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان بعد أن استشار المسلمين ، ورصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين . وعهد بإدارة العمل إلى اثنين من رجاله هما : رجاء بن حياة ابن جود الكندي[١] أحد العلماء الأعلام في صدر الإسلام . ويزيد بن سلام[٢] مولى عبدالملك بن مروان . وعلى قول مجير الدين[٣] أن الموكل بالصرف رجاء ، وأن هذا ضم إليه يزيداً وولديه .

شرع البناؤون في البناء سنة ٦٦هـ - ٦٨٥م وفرغوا منه سنة ٧٢[٤]هـ - ٦٩١م . فبنوا في بادىء الأمر قبة السلسلة الكائنة شرقي الصخرة لتكون نموذجاً . ثم بنوا المسجد نفسه .

ولما كان قد بقي من المبالغ المخصصة للبناء مئة ألف دينار ، فقد أمر عبدالملك بها جائزة إلى رجاء ويزيد فرفضا قائلين : «نحن أولى أن نزيده من حلي نسائنا ، فضلاً عن أموالنا . فاصرفها في أحب الأشياء إليك» . فأمر[٥] بأن تسبك وتفرغ على القبة

---

(١) أصله من بيان . ويكنى بأبي المقدام . توفي سنة ١١٢هـ - ٧٣٠م .

(٢) من أهل بيت المقدس .

(٣) كتاب «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» ، ج١ ، ص ٢٤٠ .

(٤) هذا ما جاء في أكثر الكتب التاريخية . وهو الذي اعتمدناه وأما سبط ابن الجوزي فلقد ذكر في كتابه «مرأة الزمان في تاريخ الأعيان» أن ابتداء البنيان كان سنة ٦٩هـ والفراغ منه سنة ٧٢هـ . وكذلك قال أبو المحاسن القاضي بهاء الدين وأبو عبدالله السيوطي شمس الدين . وجاء في «مثير الغرام بفضائل القدس والشام» لمؤلفه أحمد المقدسي ، ص ٩٨ ، أنه بني سنة ٧٠ للهجرة .

(٥) مجير الدين ، ج١ ، ص ٢٤٢ .

والأبواب .

نقش اسم عبدالملك بن مروان على قناطر التثمينة الوسطى في الناحية الجنوبية الشرقية من الداخل وبالخط الكوفي المذهب . وإنك لواجد هناك كتابة مزخرفة بالفسيفساء على أرض لازوردية[1] تقول : «بنى هذه القبة عبدالله عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين . تقبل الله منه ورضي عنه آمين» .

ذهب بعض المؤرخين ، ومنهم اليعقوبي[2] سنة ٢٦٠هـ-٨٧٤م ، إلى أن الغاية من بناء مسجد الصخرة بهذا الشكل البديع هي الاستعاضة عن الكعبة بسبب ثورة عبدالله بن الزبير الذي ثار على الأمويين وأعلن استقلاله في الحجاز (٦١هـ-٦٨٠م) . فاراد عبدالملك بن مروان أن يصرف الناس عن الكعبة . خشية أن يأخذهم ابن الزبير عند الحج بالبيعة . وعلى قول أنه منعهم عن الحج بالمرة . واعتزم بناء مسجد الصخرة .

ومن المؤرخين من يرى أن عبدالملك بن مروان إنما بناه حتى يكون للمسلمين مسجد يضاهي في بهائه وسحره ما لكنائس النصارى من الروعة . وخاصة أنه كان في سورية وفلسطين يومئذ من الكنائس الكثيرة البالغة غاية العظمة ما خشي معه عبدالملك أن يظل المسلمون يتطلعون إلى هذه المنشآت المسيحية دون أن يكون لهم ما يفخرون به . فقد روى المقدسي[3] الذي جاء بعد اليعقوبي بقرن والذي هبط بيت المقدس سنة ٣٧٤هـ - ٩٨٤م «إن عبدالملك رأى قبة القيامة التي يحج إليها المسيحيون خشى أن تؤثر صخامة هذه الكنيسة على قلوب المسلمين . فاعتزم أن يبني قبة مثلها أو أحسن . ونصب على الصخرة قبة كما ترى» .

---

(١) اللازورد معدن مشهور ينشأ في ارمينية وفارس . وهو ازرق شفاف يضرب إلى خضرة وحمرة (البستان) .

(٢) أنه أحمد ابن أبي يعقوب بن جعفر ابن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي . ولد في مصر . وساح في بلاد الإسلام . ثم عاد إلى مصر ، وتوفي بها (٢٨٤هـ - ٨٩٧م) . وقد الف قبل موته كتابين : أولها في التاريخ ، ويعرف بـ(التاريخ اليعقوبي) . طبع في ليدن سنة ١٨٨٣م . والثاني في الجغرافيا وقد اسماه : (كتاب البلدان) ، طبع في ليدن أيضاً سنة ١٨٦٠م . واليعقوبي أول من بحث عن السبب في بناء مسجد الصخرة من المؤرخين العرب .

(٣) كتاب (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ، ص ١٥٩ .

ومهما قيل في الغاية التي كان يهدف إليها عبدالملك بن مروان من وراء هذا البناء ، فمما لا شك فيه أنه استشار المسلمين في بنائه كما قلنا في مستهلّ البحث . ولكن أقوال المؤرخين تضاربت من حيث الردود التي حصل عليها . فقد قرأت في مخطوط عثرت عليه في خزانة الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف[1] بعنوان (تاريخ الخلفاء المسلمين) ص٩١ «أن عبدالملك بن مروان عندما اعتزم بناء صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى قدم من دمشق إلى بيت المقدس . وبث الكتب في عمله كله إلى جميع الأمصار . وقال : إن عبدالملك يريد أن يبني قبة على الصخرة تكنّ المسلمين من الحر والبرد . ولا يريد أن يفعل ذلك دون رأي رعيته . فلتكتب إليه الرعية بما ترى . فوردت عليه الكتب قائلة : يرى أمير المؤمنين رأيه موفقاً سعيداً . نسأل الله تعالى أن يتم له ما نوى من بناء بيته ومسجده ، ويجري ذلك على يديه ، ويجعله مكرمة ولمن مضى من سلفه تذكرة» .

هذا ما رواه المعلوف ، وأظن أنه مأخوذ عن ابن البطريق .

وأما اليعقوبي (سنة ٢٦٠هـ-٨٧٤م) فإنه يقول أن المسلمين ضجوا عندما أدركوا الغاية التي يرمي إليها وهي صدهم عن الحج . فقالوا : أتمنعنا عن حج بيت الله الحرام ، وهو فرض من الله . فقال لهم : ألم يحدثنا ابن شهاب الزهري أن النبي ﷺ قال : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى) . ثم ذكر لهم كيف أنه أسري بالنبي إلى هذا المكان ، وكيف أنه وضع قدمه على هذه الصخرة عندما صعد إلى السماء .

وبهذه الوسيلة تمكن من إقناعهم ، ومضى في مشروعه العظيم ، إلى أن تمّ له ما أراد .

اختلف المؤرخون فيما إذا كان عبدالملك قد استعمل في بناء مسجد الصخرة بعض الحجارة والأعمدة التي كانت في كنائس فلسطين ، تلك الكنائيس التي دمرها الفرس[2] قبيل الفتح الإسلامي ، أو في غيرها من الكنائس .

---

(١) عضو المجامع العلمية في مصر وسورية ولبنان .

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا في فصل الفرس .

فروى ابن البطريق[١] في تاريخه ما نصه : «وبأمر عبدالملك بن مروان قلعت قبة كانت للنصارى في كنيسة بعلبك ، وهي من نحاس مطلي بالذهب . فنصبها على الصخرة» .

وقال المستر يشموند[٢] : «إن مواد البناء كانت يومئذ متوفرة في البلاد ، ولا سيما من بقايا الكنائس التي هدمها الفرس يوم احتلوا القدس عام ٦١٤ للميلاد . تلك البقايا التي كانت مبعثرة هنا وهناك» .

وأما الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف الذي نقل[٣] عن ابن البطريق الرواية المتقدم ذكرها ، فقد قال إنها تحتاج إلى تمحيص . وقال المستر كرزويل[٤] إنه لا يشك في أن الذين بنوا مسجد الصخرة استفادوا من قياسات كنيسة القيامة . فإن قطر قبة الصخرة من الداخل ٢٠ متراً و٣٠ سنتمتراً . وارتفاعها ٢٠ متراً و٤٨ سنتمتراً . وقطر قبة القيامة من الداخل ٢٠ متراً و٩٠ سنتمتراً . وارتفاعها ٢١ متراً و٥ سنتمترات .

ومهما كان الأمر فإن مما لا ريب فيه أن مسجد الصخرة ، بقبته الجميلة ، وبنائه المتين ، وتكوينه الرائع ؛ جاء آية في فن الهندسة لا في العصر الذي بني فيه فحسب ، وإنما على مر العصور والأيام . فقد بهرت قبته ببهائها ورونقها وفخامتها وتناسقها كل من أنعم النظر فيها وحاول دراستها من العلماء والباحثين . وإنك لترى في هذا المسجد ، وأنت تنظر إليه ، جمال الهندسة العربية والذوق العربي ممتزجاً بشيء من الطراز الفارسي والأسلوب البيزنطي . ولا ريب فقد اشترك في بنائه صناع من العرب والفرس والروم البيزنطيين .

قال الدكتور هارتمان Hartmann إن مسجد الصخرة نموذج من التناسق والانسجام . وقد أيده في وصفه هذا البحاثة الهولندي المعروف «ڤان برشم» .

---

(١) إنه سعيد بن بطريق من فسطاس مصر «٢٦٣هـ - ٣٢٨هـ» صار في خلافة القاهر بالله بطريركاً على الإسكندرية . ومات بها . له «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» ، طبع في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٠٦ على نفقة الجمعية المشرقية بباريس .

(٢) Dome of the Rock by E. T. Richmond. p. 2.

(٣) مجلة الآثار ، ٥ - ٦ ، ص ٢٤٨ .

(٤) The Origin of the plan of the Dome of the Rock - by K. A. C. Creswell, p. 27.

وقال الأستاذ هايتر لويس[1] : «إن مسجد الصخرة ، بلا شك ، من أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه البسيطة . لا ، بل إنه أجمل الآثار التي خلدها التاريخ» .

وقال المستر فرغوس : «إن مسجد الصخرة من الجمال على جانب عظيم . لقد زرت كثيراً من القصور الفخمة والمباني الجميلة في الهند وفي أوروبا وفي أكثر أنحاء العالم . ولكنني ، على ما أذكر ، لم أر ما هو أجمل ولا أبدع ، ولا أفخم من قبة الصخرة . وأن التناسب البديع في الأحجام والألوان لم أجده في أي بناء آخر» .

وقال الكابتن كرزويل ، أستاذ فن العمارة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة : «لقبة الصخرة أهمية ممتازة في تاريخ العمارة الإسلامية . فقد بهرت ببهائها ورونقها وفخامتها وسحرها وتناسقها ودقة نسبها كل من حاول دراستها من العلماء والباحثين» .

جاء في (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) ص ١٠٠ أنهم ، عندما بنوا قبة الصخرة ، كانوا في كل اثنين وخميس يطحنون الزعفران ويمزجونه بالمسك والعنبر والماورد الجوري . ويخمرون هذا المزيج ليلاً . وفي الغداة يأمرون الخدام ، فيدخل هؤلاء الحمام ، فيغتسلون ، يتطهرون ، ثم يرتدون الثياب النظيفة ويأتون إلى مسجد الصخرة حاملين ما تخمر بالأمس . وبعد أن يغسلوا الصخرة ، يأتون بمجامر الذهب والفضة فيها العود والند الممزوج بالمسك والعنبر . فيرخون الستور حول الأعمدة كلها . ثم يحملون البخور ، ويدورون حول الصخرة . ثم ينادي المنادي في صف البزازين : ألا إن الصخرة قد فتحت للناس . فمن أراد الصلاة فيها فليأت .

وكان يقف على كل باب من أبواب المسجد عشرة من الحجاب . ومتى دخله المصلون شموا رائحة البخور والمسك والعنبر .

---

(١) The Holy Places of Jerusalem by Hayter Lewis. p. 26.

المسجد الأقصى[١] :

بعد أن بنى عبدالملك بن مروان قبة الصخرة سنة ٧٢هـ - ٦٩١م بنى المسجد الأقصى ٧٤هـ - ٦٩٣م .

ذكر المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» أن باني المسجد هو عبدالملك بن مروان . وأيده في قوله هذا أكثر المؤرخين في القرنين الثالث والرابع للهجرة . وهناك من يقول إن باني المسجد هو الوليد بن عبدالملك الذي انتهى إليه الحكم سنة ٧٦هـ - ٧٠٥م . ويستدل هذا الفريق على صحة قوله بما جاء في الرسائل[٢] التي كتبها «قرة بن شريك» عامل الأمويين على مصر في عهد الخليفة الوليد إلى أحد حكام الصعيد بين سنتي ٩٠ و٩٦ للهجرة . تلك الرسائل التي كتبت على ورق البردي والتي ورد فيها ذكر الأقصى . وفيها طلب «قرة بن شريك» من أحد حكام الصعيد أن يرسل إليه صناعاً ماهرين لمسجد بيت المقدس .

قال العمري في كتابه «التعريف» عن الوليد أنه نقل الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق ، ومنها إلى القدس ومكة والمدينة ؛ ليزين بها جدران المسجد .

وإني ميال للاعتقاد بأن البناء قد شرع فيه زمن عبدالملك بن مروان «٧٤هـ - ٦٩٣م» ، وتم في زمن ابنه الوليد[٣] «٨٦هـ-٧٠٥م» . ومهما كان الأمر فمما لا شك فيه أنه هو الذي غشى قبة الأقصى بالنحاس . وهذا أخذه من كنيسة في بعلبك[٤] .

---

(١) كان اسم (المسجد الأقصى) يطلق فيما مضى على الحرم القدسي كله ، بما فيه المسجد الحالي الذي ندعوه بالاقصى ومسجد الصخرة وما بينهما . وبعبارة أخرى جميع الأماكن والمعابد الإسلامية القائمة ما بين الأسوار . وهذا ما قصدته الآية الكريمة : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله .﴾ وفي يومنا هذا يطلق على المسجد الواقع جنوبي قبة الصخرة وفي الناحية القبلية من الحرم .

(٢) محفوظة في المتحف البريطاني بلندن .

(٣) اشتهر الوليد بالبناء . فهوالذي بنى المسجد الأموي بالشام . وهو الذي عمر ووسع عدداً كبيراً من المساجد في المدن التي افتتحها . وفي أيامه فتحت الأندلس والهند واتسعت إمبراطورية العرب من الصين شرقاً إلى المحيط الاطلنطي غرباً ، ومن البحر الأسود شمالاً إلى صعيد مصر جنوباً .

(٤) (خطط الشام) للأستاذ محمد كرد علي ، ص ٢٦٦ .

قال المستر كرزويل K.A.C. Creswell مفتش الآثار في حكومة فلسطين أيام الانتداب البريطاني ، إنه كان هناك ، في الموضع الذي يقوم عليه الأقصى الآن ، مسجد بناه عمر بن الخطاب سنة ١٤هـ - ٦٣٥م .

وحذا حذوه آخرون فقالوا : «إن عبدالملك بن مروان بنى المسجد الأقصى في الموضع الذي كان يقوم عليه مسجد عمر من الناحية الشرقية ، وإن هذا المسجد كان محاذياً للسور الشرقي ، وقد تم بناؤه في السنة الثامنة عشرة أو السنة الحادية والعشرين للهجرة . وكان يتسع لثلاثة آلاف من المصلين . كان سقفه من خشب ، وقد اندثرت آثاره مع الزمن» . ولقد ضرب على هذا الوتر كثيرون من المؤرخين المسلمين فقالوا : إن المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب يوم الفتح أقيم في المكان الذي فيه المسجد الأقصى الحالي أي في الطرف الجنوبي من ساحة الحرم .

وهناك رواية أخرى تقول إن المسجد الذي بناه عمر ، بني عند الصخرة التي نظفها بيده من الأوساخ حيث دفن الروم هيكل بني إسرائيل . ولم يبن في موضع الأقصى الحالي . ولكن هذه الرواية الأخيرة ضعيفة . لم يرد في كتب التاريخ ما يؤيدها .

وذهب بعض المؤرخين[١] إلى أن المسجد الأقصى بني في الموضع الذي كانت تقوم عليه الكنيسة التي بناها الإمبراطور البيزنطي جوستانيان (٥٤٣م) ، وأن اسم المهندس الذي هندسها (تيو دوروس) . ومنهم من تجاوز هذا إلى حد القول إن المسجد الأقصى هو نفسه الكنيسة أياها لا قدم ولا أخر . وكانت على قول هؤلاء ، تدعى يومئذ (كنيسة العذراء الجديدة) لأجل التفريق بينها وبين كنيسة بنيت بهذا الاسم قبل ذلك التاريخ . وكانت هذه (أي القديمة) عند كنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الغربية . وأما المؤرخ جيمس فرغون ، فقد أنكر هذا القول في الصفحة ١١٨ من كتابه :

An Essay On The Ancient Topography of Jerusalem

إذ قال : «إن المسجد الأقصى ليس بكنيسة جوستانيان . ولا صحة أيضاً للقول القائل إنه بني في الموضع الذي كانت تقوم عليه تلك الكنيسة . فلا القناطرة ولا

---

(١) Biblical Researches' Vol.1. p.440 by Dr. Robinson, الدكتور ريشاردسون Dr. Richardson وكاتروود Catherwood وبونومي Bonomi واروندل Arundale .

العقود التي تحمل الأقصى ؛ لا ، ولا الأعمدة والتيجان التي فوق الأعمدة من النوع الذي كان معروفاً على عهد جوستانيان . وبناء المسجد نفسه لا يشبه بناء أية كنيسة من الكنائس التي بنيت في ذلك العهد . ولم يكن لأية كنيسة من الكنائس التي بنيت في تلك العهود قبة كقبة المسجد الأقصى .

أضف إلى ذلك أنه لا يعقل أن يبني جوستانيان كنيسة في وسط المكان الذي كان يقوم عليه هيكل سليمان . وهو الرجل الذي اشتهر بالزهد والتدين .

قال أوتيخيوس(١) «إن النصارى لم يبنوا أية كنيسة في منطقة الهيكل بسبب غضب السيد المسيح على تلك المنطقة ودعائه عليها بالخراب .» ولم يذكر التاريخ أن المسلمين سلبوا النصارى أية كنيسة من كنائسهم أثناء الفتح الإسلامي . ولو فعلوا ذلك لأقام المؤرخون المسيحيون الضجيج وانتقدوا أعمال المسلمين . ولكن العهدة العمرية التي أعطاها عمر بن الخطاب إلى نصارى إيلياء تشهد بعكس ذلك .

هذه نبذة موجزة عن مسجدي الصخرة والأقصى . أوردناها هنا . ومن شاء التفصيل عن هذين المسجدين ، فليرجع إلى كتابنا : (تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك) . ذلك الكتاب الذي طبع في (مطبعة دار الأيتام الإسلامية) بالقدس سنة ١٩٥٨ .

القضاء على ثورة ابن الزبير

ظل عبدالملك بن مروان يتربص بابن الزبير الدوائر ، حتى ظفر به ، فقتله (٧٣هـ) . وبايعه سكان الحجاز واليمن ، وصفا له ملك مصر والشام والحجاز والعراق واليمن وغيرها من البلدان .

نقود ومسكوكات أموية:

ومن أعماله أنه أول من حول الدواوين إلى العربية . ونقش الدنانير والدراهم بالعربية(٢) . وكان النقش على الجانب الواحد (الله أحد) وعلى الآخر (الله

(١) "Eutychii Annals" Vol.II, p. 289.

(٢) كان نقش الدنانير قبل ذلك بالرومية والدراهم بالفارسية .

الصمد)[١] . قال البلاذري[٢] : قلت لسعيد بن المسيب من أول من ضرب الدنانير المنقوشة . فقال : عبدالملك بن مروان . وكانت الدنانير في الجاهلية ترد رومية والدراهم فارسية .

فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر . وكان وزن المثقال عندهم اثنين وعشرين قيراطاً إلا كسراً ، ووزن العشرة دراهم سبعة مثاقيل . وكان الرطل اثني عشر أوقية ، وكل أوقية أربعين درهماً . فأقر رسول الله ذلك ، وأقره أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأقره بنو أمية في بدء عهدهم ، إلى أن جاء عبدالملك بن مروان وضرب الدنانير خاصته .

سك المسلمون في إيليا[٣] نقوداً نقش على وجهها - محمد رسول الله ، ورسم سيف . وعلى الخلف إيليا وفلسطين وحرف (م) والهلال .

الطرق في عهد عبدالملك:

وقد اعتنى عبدالملك بن مروان بفتح الطرق وتعبيدها . وكان يضع على مسافات معينة من هذه الطرق حجارة ينقش عليها اسم الذي أمر بتعميرها ، والمسافة التي تفصل بين دمشق مقر الخلافةوالمكان الذي فيه الحجر :

(أ) عثر المنقبون[٤] في عام ١٨٨٤ بين خرائب (خان الحثرورة) على طريق أريحا على بلاطة[٥] من الرخام مكسورة وقد نقش عليها الكلمات التالية : « . . . وسلم أمر بعمارة هذا الطريق وصفة الأميال عبدالله عبدالملك أمير المؤمنين رحمه الله عليه من دمشق إلى هذا الميل تسعة ومائة ميل . . .» .

(ب) وفي عام ١٨٩٣ عثروا بالقرب من باب الواد على طريق الرملة على حجر أبيض[٦] نقشت عليه هذه الكلمات :ـ

---

(١) مجير الدين .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٧١ و٤٧٢ .

(٣) مجلة الراعي الصالح ، ج١٢ .

(٤) Materiaux Pour un corpus. Inscriptionum Arabicarum, par Max Van Berchem.

(٥) هذه البلاطة موجودة الآن في متحف استنبول .

(٦) هذا الحجر موجود الآن في متحف اللوفر بباريس .

«أمر بعمارة هذا الطريق وصفة الأميال عبدالله عبدالملك أمير المؤمنين رحمه الله عليه من إيليا إلى هذا الميل ثمنية أميال . . .»

(ج) وفي القرب من دير القلط ، شمالي الطريق المؤدية إلى اريحا ، عثروا عام ١٨٩٦ على بلاطة من رخام نقشت عليها هذه الكلمات :

« . . . أمر بعمارة هذا الطريق وصفة الأميال عبدالله عبدالملك أمير المؤمنين رحمه الله عليه من دمشق إلى هذا الميل سبعة أميال ومائة ميل .»

(د) وعلى حجر كلسي أبيض عثروا عام ١٩٠٢ عند كنيسة أبو غوش ، على طريق الرملة ، نقشت عليه هذه الكلمات :

«أمر بعمارة هذا الطريق وصفة الأميال عبدالملك أمير المؤمنين رحمه الله عليه من ايليا إلى هذا الميل سبعة أميال» .

هـ- من هذه الأميال المكتوبة على الحجارة لمعرفة المسافات نستنتج ما يأتي :

١ . الأمويون كانوا يُعنون بتعبيد الطرق وتعميرها .

٢ . وكانوا يهتمون بذكر المسافات .

٣ . وإن المسافات كانوا يقيسونها بالأميال لا بالكيلومترات .

صفات عبدالملك:

قال عمرو بن العاص : «كان عبدالملك حسن البشر عند اللقاء ؛ حسن الحديث إذا حدث ؛ حسن الاستماع إذا حُدث ؛ هين المؤونة إذا خولف ؛ لا يمازح من لا يثق بعقله ودينه ؛ ولا يخالف لئيماً ؛ ولا يتكلم بما يعتذر منه» .

كان يكره الكذب والكذابين . وعندما ظهر الحارث الكذاب راح بطلبه . ولما علم الحارث بذلك هرب فاختفى ببيت المقدس . فظل عبدالملك يبحث عنه حتى عثر عليه وقتله .

كان يحب الصلاة . قيل إنه كان يوماً من الأيام جالساً في الصخرة عند أم الدرداء . فقامت تتوكأ عليه حتى أدخلها المسجد . ومضى فصلى بالناس .

ومن صفات عبدالملك بن مروان أنه كان متساهلاً . ومن البراهين التي يذكرونها على حسن معاملته للنصارى وثقته بهم ، أنه ولاّهم خدمة المسجد الأقصى . فقد حدثنا مجير الدين الحنبلي أنه كان لهذا المسجد عشرة خدام من النصارى يتوارثون خدمته في عمل الحصر وكنس المسجد وكنس القناة التي يجري الماء فيها إلى

الصهاريج وكنس الصهاريج[١] . ولقد بلغ التساهل معه إلى حد أنه لم يغضب يوم دخل عليه الأخطل ذلك الشاعر النصراني التغلبي ثملاً وقال :

ولست بصائم رمضان طوعاً
ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائم أبداً أنادي
قبيل الصبح حي على الفلاح
ولست بزاجر عيسا بكوراً
إلى بطحاء مكة للنجاح
ولكنّي شأشربها شمولاً
وأسجد عند منبلج الصباح

الوليد بن عبدالملك:

بعد وفاة عبدالملك بن مروان بويع ابنه الوليد ٨٦هـ - ٧٠٥م . وقد كانت أيام الوليد من أبرك أيام بني أمية[٢] . وقد سهل الطريق ؛ وعمر الجوامع العظام ؛ وبث في الأمة روح العمران ؛ وأعان الفقراء والمرضى والمقعدين والعميان . وبلغ بنو أمية على عهده أقصى درجات العز . فتغلغلت جيوشه في بلاد الترك والروم والهند . وفتح موسى بن نصير باسمه الأندلس ، فأتى إليه منها بالأموال والجواهر . ووقف أبناء الملوك والأمراء على بابه يطلبون الرضى والأمان . وكان قد همّ بالإقامة في بيت المقدس .

في زمن خلافة الوليد بن عبدالملك عومل المسيحيون في القدس وفلسطين معاملة قاسية[٣] لعدم موافقتهم المسلمين في الهجوم على القسطنطينية ، ووضعت الجزية على الرهبان ، وجعلت اللغة العربية إجبارية .

---

(١) الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، ج١ ص ٢٤٩ .

(٢) خطط الشام ، ج١ ، ص ١٥٣ .

(٣) تاريخ الكنيسة الرسولية الاورشليمية ، ص ٥٨ .

المسجد الأقصى:

هناك من يقول إن الذي بنى المسجد الأقصى الوليد بن عبدالملك الذي انتهى إليه الحكم سنة ٨٦هـ -٧٠٥م . ويستدل هذا الفريق على صحة قوله بما جاء في الرسائل[(١)] التي كتبها (قرة بن شريك) عامل الأمويين على مصر في عهد الخليفة الوليد إلى أحد حكام الصعيد بين سنتي ٩٠ و٩٦ للهجرة . تلك الرسائل التي كتبت على ورق البردي والتي ورد فيها ذكر الأقصى . وفيها طلب (قرة بن شريك) من ذلك الحاكم أن يرسل إليه صناعاً ماهرين لمسجد بيت المقدس .

قال العمري في كتابه (التعريف) عن الوليد أنه نقل الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق ، ومنها إلى القدس ومكة والمدينة ، ليزين بها جدران المساجد .

وإني ميال إلى الاعتقاد بأن البناء قد شرع فيه زمن عبدالملك بن مروان (٧٤هـ -٦٩٣م) وتم في زمن ابنه الوليد[(٢)] (٨٦هـ - ٧٠٥م) . ومهما كان الأمر فمما لا شك فيه أنه هو الذي غشى قبة الأقصى بالنحاس . وقد أخذه من كنيسة في بعلبك[(٣)] .

ومن أعمال الوليد في بيت المقدس أنه كان يضع الفضة في قصاع ويقسمها على قراء المسجد . توفي سنة ٩٦ للهجرة .

سليمان بن عبدالملك:

بعد وفاة الوليد بن عبدالملك ولي أخوه سليمان بن عبدالملك (٩٦هـ-٧١٤م) . وكانت دمشق عاصمة الدولة الأموية . وأما فلسطين فقد كان فيها وال يرجع في أمره إلى حكومة الشام . إلا في زمن سليمان بن عبدالملك فقد أحب هذا فلسطين وخاصة الرملة . وقد كان والياً عليها عندما جاءه الخبر بوفاة أخيه الوليد . وقد بايعه الناس وهو على سطوح الصخرة . وهم أن يحول عاصمته من دمشق إلى الرملة أو القدس . ثم

---

(١) محفوظة في المتحف البريطاني بلندن .

(٢) اشتهر الوليد بالبناء . فهو الذي بنى المسجد الأموي بالشام ، وهو الذي عمر ووسع عدداً كبيراً من المساجد في المدن اليت افتتحها . وفي ايامه فتحت الاندلس والهند واتسعت امبراطورية العرب من الصين شرقاً إلى المحيط الاطلنطي غرباً ، ومن البحر الأسود شمالاً إلى صعيد مصر جنوباً .

(٣) (خطط الشام) لمحمد كرد علي ، ص ٢٦٦ .

عدل عن ذلك .

بعد أن تولى سليمان بن عبدالملك الخلافة أتى بيت المقدس ، وأتته الوفود بالبيعة . فكان يجلس في قبة في صحن مسجد بيت المقدس مما يلي الصخرة (قبة السلسلة) . ويبسط . ويجلس الناس من حوله على الكراسي والوسائد ، وإلى جانبه الأموال وكتاب الدواوين .

عمر بن عبدالعزيز:

مات سليمان بن عبدالملك وهو يبني مدينة الرملة (٢١ صفر ٩٩هـ) ، فبويع ابن عمه عمر بن عبدالعزيز (٩٩هـ - ٧١٧م) . فقد اشتهر هذا بالعدل والحلم . فمنع عماله عن أخذ الجزية من أهل الذمة . وقد كان في نفس الوقت بعيد النظر . إذ إنه لما أحسَّ بنية اليهود ببيت المقدس أخرجهم منها .

فترة من الهدوء تسبق العاصفة:

بعد عمر بن عبدالعزيز تعاقب على كرسي الدولة الأموية كل من :

يزيد بن عبدالملك	١٠١هـ - ٧٢٠م
هشام بن عبدالملك	١٠٥هـ - ٧٢٤م
الوليد بن يزيد	١٢٥هـ - ٧٤٣م
يزيد بن الوليد	١٢٦هـ - ٧٤٤م
إبراهيم بن الوليد	١٢٦هـ - ٧٤٤م
مروان بن محمد	١٢٧هـ - ٧٤٤م

ولم يجر في فلسطين خلال هذه الفترة من الزمن حوادث تستحق الذكر ، سوى أن أهلها تآمروا في زمن يزيد بن الوليد (١٢٦هـ) على أميرهم ، فقتلوه .

فلسطين تثور ضد الحكم الأموي:

وفي زمن مروان بن محمد ، وهو آخر الخلفاء الأمويين ، انتشر الفساد وساءت الأحوال في جميع أنحاء البلاد ، وكثرت الفتن بدرجة أن منازعي مروان على الخلافة كثروا . ومن الذين ثاروا في وجهه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع زعيم فلسطين في ذلك الحين . وكان من هؤلاء وفي طليعتهم أبو العباس الهاشمي . فقد بايعه أهل

العراق وخراسان . فاشتد ساعده . وجمع جيشاً حارب به جيش مروان . فتغلب عليه . وهرب مروان إلى مصر ، فلحق به وقتله ، وبهذا قضى على الدولة الأموية قضاءً تاماً (٢٧ جمادي الآخرة ١٣٢هـ-٧٥٠م) .

وفي ذلك قال الشاعر[١] :

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم
غلب الرجال فما أنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم
فأودعوا حفراً يابئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا
اين الأسرة والتيجان والحلل
اين الوجوه التي كانت منعمة
من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم
تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم
ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا
فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة
وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

نهاية الحكم الأموي:

لما قتل مروان بن محمد تفرق بنو أمية في البلاد هرباً بأنفسهم[٢] . وقد كان

(١) خطط الشام ، ج١ ، ص ١٧٥ .

(٢) كتاب التنبيه والأشراف للمسعودي ، ص٣٢٩ ، ٣٣٠ .

عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب قتل منهم على نهر أبي فطرس[1] من بلاد فلسطين نحوا من ثمانين رجلاً (١٣٢هـ) . وحذا أخوه داود بن علي بالحجاز حذوه ، فقتل منهم نحوا من هذا العدد .

وكان مع مروان حين قتل . ولداه عبدالله وعبيدالله ، فهربا إلى مصر ، فالنوبة . أما عبيدالله فقد مات من الحر والعطش . وأما عبدالله فقد ذهب إلى الحجاز . وظل يتنقل في البلاد إلى أن أسره أبو العباس السفاح . فعاش في السجن بقية أيام أبي العباس وأيام المنصور والمهدي والهادي . فأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير .

---

(١) جاء في (دائرة المعارف) للمعلم بطرس البستاني ، ج١ ، ص ٣١٥ . أنه نهر كائن قرب الرملة من أرض فلسطين . وقال الملبي أنه يوجد على اثنى عشر ميلاً من الرملة ومنها إلى الشمال نهر يقال له (نهر ابي فطرس) مخرجه من عين في الجبل المتصل بنابلس . وينصب في البحر المتوسط عند مدينتي ارسوف ويافا . وقال ابو نواس :

واصبحن قد فوزن عن نهر فطوس   وهن من البيت المقدس زور

القدس في زمن العباسيين

قلنا في آخر الفصل المتقدم أن الأحوال في البلاد على عهد (مروان بن محمد) آخر الخلفاء الأمويين ، ساءت إلى درجة أن منازعيه على الخلافة كثروا . وكان من هؤلاء وفي طليعتهم أبو العباس الهاشمي . فقد بايعه أهل العراق وخرسان . بايعوه في الكوفة . فاشتد ساعده . وجمع جيشاً حارب به جيش مروان فتغلب عليه . وهرب مروان إلى مصر . فلحق به وقتله . وبهذا قضى على الدولة الأموية . (٢٧ جمادى الأولى ١٣٢هـ - ٧٥٠م) .

القائد العباسي الذي احتل فلسطين في ذلك الحين هو (صالح بن علي) عم السفاح . فقد جاء إليها في خمسين ألف مقاتل . ففتحها . وكان زعيمها في ذلك الحين (الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع) . فانخرط هذا تحت لواء الحكم العباسي . إنه في الحقيقة كان من الذين ثاروا على مروان بن محمد وكان من العوامل التي أدت إلى انهيار الحكم الأموي في فلسطين .

أرسل القائد صالح بن علي إلى ابن أخيه السفاح ، زعماء الأمويين الذين كانوا قد التجأوا إلى فلسطين ، ومنهم الوليد بن معاوية بن عبدالملك وعبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك وعبدالجبار بن يزيد بن عبدالملك . فقتلهم .

قيل[١] إن صالح بن علي لما قدم فلسطين أظهر للناس أن أمير المؤمنين أوصاه ببني أمية وأمره بصلتهم وإلحاقهم في ديوانه ورد أموالهم إليهم . فقدم عليه من أكابرهم وخيارهم ٨٣ رجلاً ، وفي قول[٢] ٧٢ ، فقتلهم . ولم يبق منهم سوى أفراد قلائل . منهم عبدالرحمن بن معاوية مؤسس الدولة الأموية بالأندلس .

نذكر فيما يلي أسماء الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة وكانت القدس من أعمالهم تارة بالفعل وطوراً بالاسم :

أبو العباس عبدالله بن محمد الملقب بالسفاح	١٣٢هـ - ٧٥٠م
أبو جعفر المنصور	١٣٦هـ - ٧٥٤م
محمد المهدي	١٥٨هـ - ٧٧٥م

---

(١) خطط الشام ، ج١ ، ص١٢٥ .

(٢) الطبري .

موسى الهادي	١٦٠هـ - ٧٨٥م
هارون الرشيد	١٧٠هـ - ٧٨٦م
محمد الأمين	١٩٣هـ - ٨٠٩م
عبدالله المأمون	١٩٨هـ - ٨١٣م
المعتصم بن الرشيد	٢١٨هـ - ٨٣٣م
م=هارون أبو جعفر (الواثق بالله)	٢٢٧هـ - ٨٤٢م
جعفر بن المعتصم (المتوكل على الله)	٢٣٢هـ - ٨٤٧م
المنتصر بن المتوكل	٢٤٧هـ - ٨٦١م
أحمد بن محمد بن المعتصم (المستعين بالله)	٢٤٨هـ - ٨٦٢م
المعتز بالله بن المتوكل	٢٥٢هـ - ٨٦٦م
المهتدي بالله بن الواثق	٢٥٥هـ - ٨٦٩م
المعتمد على الله بن المتوكل	٢٥٦هـ - ٨٧٠م
المعتضد بالله	٢٧٩هـ - ٨٩٢م
المكتفي بالله بن المعتضد	٢٩٢هـ ٩٠٥م
المقتدر بالله جعفر	٢٩٥هـ - ٩٠٥م
القاهر بالله بن المعتضد	٣٢٠هـ - ٩٣٢م

وإنا لذاكرون فيما يلي الوقائع التي وقعت على عهد هؤلاء الخلفاء والتي اتصلت بنا أنباؤها وكانت لها صلة ببيت المقدس :

أبو العباس عبدالله محمد الملقب بالسفاح:

عندما بويع في ١٣ ربيع أول سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م كان أول عمل قام به أنه أقال ولاة الأمصار وأبدلهم بولاة من أقاربه ، فجعل على مصر عمه (صالح بن علي) قاتل مروان . وفي غرة شعبان ١٣٣هـ ورد إليه كتاب أمير المؤمنين بإمارته على فلسطين(١) . فنزلها ومعه عبدالملك بين نصير وعدة من أهل مصر .

وفي رواية أخرى(٢) أن والي سورية وفلسطين كان يومئذ (عبدالله بن علي) . ثم

(١) جرجي زيدان ، ج٢ ، ص ١٢٧ .

(٢) تاريخ فلسطين للبرغوثي وطوطح .

ضمت الأردن إلى دمشق . وتعين (صالح بن علي)حاكماً على فلسطين والبلقاء تحت إمرة (عبدالله بن علي) . وكلاهما عباسي . وظل تابعاً له حتى خرج عبدالله على المنصور وغلب . فتعين صالح إلى مصر .

أبو جعفر المنصور:

عندما بويع في ١٣٦هـ - ٧٥٤م أمر (محمد بن الاشعث) أن يسير إلى الأردن ويخرج عمال (صالح بن علي) من الأردن والبلقاء وفلسطين . فأخرجهم منها . وقدم بيت المقدس[١] بعد الرجفة الأولى وكان قد وقع شرقي المسجد وغربية . فرفعوا إليه ذلك ليبنيه . فقال ما عندي شيء من المال . فأمر بقلع الصفائح الفضة والذهب التي على الأبواب . فضربت دنانير ودراهم وأنفق عليه حتى فرغ منه (١٥٤هـ - ٧٧٤م) وتوفي سنة ١٥٨هـ - ٧٧٤م .

زار بيت المقدس على عهده الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي عالم أهل مصر . التقى بالخليفة أبي جعفر المنصور عند المسجد الأقصى . وقيل إنه[٢] كان نظير مالك في العلم .

ثم حدث زلزال آخر سنة (١٥٨هـ - ٨٨٤م) فوقع البناء الذي كان أمر به أبو جعفر المنصور . إن هذا الزلزال كان شديداً ، لدرجة أنه أثر على جميع المباني في المدينة المقدسة ، ولا سيما المسجد الأقصى . حتى أن الناس امتنعوا عن الصلاة فيه مدة طويلة .

ولما قدم المهدي من بعده كان المسجد خراباً . فأمر ببنائه وقال :

«رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال . أنقصوا من طوله وزيدوا في عرضه» فتم البناء في خلافته (١٦٣هـ - ٧٨٠م) .

لسنا ندري كيف كان تخطيط الأقصى في أدواره الأولى . إلى أن جاء المقدسي في القرن الرابع الهجري (٣٧٥هـ - ٩٨٥م) ووصف لنا في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) تخطيطه أيام المهدي . ويؤخذ من وصفه ذاك أنه كان يتكون من رواق أوسط كبير يمتد من الشمال إلى الجنوب ، يغطيه جملون ، وينتهي من الجنوب

---

(١) مثير الغرام .

(٢) الانس الجليل ، ج١ ، ص ٢٥٩ .

بقبة عظيمة . وتكتنف الرواق الأوسط من كل من جانبيه سبعة أروقة موازية له وأقل ارتفاعاً منه ، محمولة عقودها جميعاً على أعمدة أسطوانية . ويتوسط الواجهة الشمالية باب كبير كان يسمى : (باب النحاس الأعظم) يؤدي إلى الرواق الأوسط رأساً . وعلى كل من يمينه ويساره سبعة أبواب يؤدي كل منها إلى رواق من الأروقة الجانبية المتقدم ذكرها .

محمد المهدي بن المنصور:

بويع سنة ١٥٨هـ - ٧٧٥م . وفي عهده عمر المسجد الأقصى . في أقصى الجنوب بالمسجد المذكور قبة مزينة بالفصوص الذهبية الملونة . يغلب على الظن أنها صنعت في خلافة المهدي(١) .

أمر بإبعاد بطريرك أورشليم إلياس الثالث إلى بلاد الفرس . وأمر أن يسكن المسيحيون في محلة واحدة . وحصل منهم فدية .

روى عن ابن حارثة أحمد بن إبراهيم بن هشام الغساني قال : كان المهدي يقول لكاتبه أبي عبدالله الأشعري إن بني أمية سبقونا في أربعة أشياء : المسجد الأموي بدمشق ، والموالي ، وعمر بن عبدالعزيز ، ومسجد الصخرة في بيت المقدس .

مات سنة ١٦٩هـ-٧٨٥م .

لم تذكر القدس في زمن الخليفة العباسي موسى الهادي (١٦٩هـ - ٧٨٥م) . وأما في زمن أخيه هارون الرشيد (١٧٠هـ - ٧٨٦م) فقد ذكرت كثيراً . ولا بدع فقد بلغت دولة العرب في أيامه من العمران والمجد ما فاح أرجه في أقاصي الأرض .

فقد عامل هارون الرشيد النصارى معاملة حسنة(٢) . فسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة ا لعذراء حيث يقوم على آثارها كنيسة الدباغة وبجانبها دير يأوي إليه زوار اللاتين . وفي سنة ٧٩٦م أهدى شارلمان ساعة وفيلاً وأقمشة نفيسة . وتعهد بحماية الحجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس . كان شارلمان على أحسن حال مع هارون الرشيد . فكان يرسل في كل سنة وفداً إلى القدس

---

(١) خطط الشام ، ص ٢٧١ .

(٢) البرغوثي وطوطح .

يحمل الهدايا إلى الخليفة والأموال لفقراء المسلمين . وأرسل الخليفة إليه[1] مفاتيح القيامة والقبر المقدس .

خلف الرشيد ابنه محمد الأمين (١٩٣هـ-٨٠٩م) ومن بعده جاء أخوه عبدالله المأمون .

فقد بويع المأمون بالخلافة سنة ١٩٨هـ-٨١٣م . على عهده زار الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي بيت المقدس[2] . وصلى فيه . كما زارها عدد كبير من العلماء وأهل الفضل . وبلغ العلم على عهده مبلغاً عظيماً .

أصاب قبة الصخرة شيء من الخراب في عهد الخليفة العباسي المأمون . فأمر بترميمه عندما زار بيت المقدس . ولما انتهى العمال من الترميم (٢١٦هـ - ٨٣١م) أرادوا أن يتزلفوا إليه ، فاستبدلوا اسم الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان باسمه . ولكنهم غفلوا عن تغيير السنة التي حدثت فيها العمارة . ترى كيف عرفنا ذلك؟

إن فوق الأعمدة التي يقوم عليها سقف المسجد حول الصخرة من الناحية الجنوبية إلى الشرق خطاً ضيقاً مصنوعاً من البلاط الأزرق نقشت عليه بالأحرف الكوفية المذهبة الكلمات الآتية :

«بنى هذه القبة عبدالله ، عبدالله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي عنه آمين .» لم يفطن الصانع إلى تغيير التاريخ . فقد أبقى سنة ٧٢هـ . وهي السنة التي أتم فيها عبدالملك بن مروان البناء . ولم يذكر السنة الي تم ترميم البناء فيها على يد المأمون (٢١٦هـ - ٨٣١م) .

ثم إنه وجد المكان ضيقاً بحيث لا يتسع لاسم الخليفة المأمون وألقابه . فاضطر إلى كتابة ذلك بطريقة تخالف تلك التي كتبت بها الكلمات الأخرى . أي أن الحروف التي كتب اسم المأمون بها مزدحمة متراصة ، يختلف شكلها عن الحروف التي سبقتها . ثم إن لون الفسيفساء التي جرى بها التحريف أشد سمرة من لون

(١) يقتضي الانتباه إلى هذا القول أي أن المفاتيح التي ارسلها هارون الرشيد إلى شارلمان الملك هي مفاتيح كنيسة القيامة وليست مفاتيح بيت المقدس كما جاء في بعض الروايات . ومنها رواية نجيب العقيقي كما روى في الصفحة ٤٦ من كتابه (المستشرقون) . كما أنه لا صحة للقول الذي ورد في الكتاب نفسه بأن ذلك جرى سنة ٨١٠م . لأن هارون الرشيد انتقل قبل ذلك إلى دار البقاء .

(٢) الأنس الجليل ، ج١ ، ص ٢٦٠ .

الفسيفساء القديمة .

ما كاد المأمون ينتقل إلى دار البقاء حتى أخذت مملكته المترامية الأطراف بالانقسام .

المعتصم بن الرشيد : تولى الخلافة بعد أخيه المأمون (٢١٨هـ - ٨٣٣م) فلقب نفسه المعتصم بالله . وفي عهده بدأ تقهقر دولة العرب . إذ فضلاً عن كونه أمياً وضعيفاً ، كان أول من جند الأتراك واستعان بهم في الحرب . وقد أمر عامله في مصر أن يسقط من في ديوان مصر من العرب وأن يقطع العطاء عنهم . وراح العباسيون من بعده يرقون مواليهم من حارس ووصيف إلى قائد وأمير . ولم يحفظ هؤلاء الجميل . فأنكروا حسن الولاء وسلبوا الخلفاء أبهة الملك . وأصبح هؤلاء آلات بأيديهم . وفي أيام المعتصم (٢٢٤هـ - ٨٣٨م) بعث الخليفة إلى فلسطين رجلاً من رجاله يدعى رجاء بن أيوب الحضاري (وفي رواية رجاء ابن اشيم الحميري[١]) . وسار هذا لقتال تميم اللخمي ويعرف بأبي حرب . ويلقب أيضاً بالمبرقع . وكان من أهل الغور . خلع الطاعة . ودعا لنفسه . فتبعه خلق كثير . وروى الطبري أن السبب الذي حدا بالمبرقع للخروج على السلطة العباسية أن جندياً أراد النزول في داره وهو غائب عنها . وفيها زوجته (وفي قول أخته) . فمانعته . فضربها بسوط أصاب ذراعها . فأثر فيها . فلما رجع أبو حرب إلى منزله ، بكت وشكت إليه ما فعل بها . وأرته الأثر بذراعها . فتناول أبو حرب سيفه ، ومشى إلى الجندي . فقتله . ثم هرب . والبس وجهه برقعاً . وراح يتنقل من جبل إلى جبل في بقاع فلسطين والأردن ويصف الظلم الذي أصابه . فصدقه كثيرون . وكثر أنصاره[٢] . وكان مع رجاء الحميري أيضاً جيش كبير العدد . فاحترب الفريقان في الرملة (٢٢٦هـ - ٨٤٠م) . وكانت الغلبة للقائد العباسي . فأسر تميم . وقتل عدد كبير من أصحابه .

هارون أبو جعفر : (الواثق بالله) تولى الخلافة بعد موت أبيه المعتصم (٢٢٧هـ-٨٤٢م) . وقد بلغ الخصام على عهده بين القيسية واليمنية إلى الذروة .

ثار القيسيون بالشام فبعث الواثق إليهم رجاء ابن أيوب الحضاري وفي رواية[٣]

---

(١) (خطط الشام) لمحمد كرد علي ، ج١ ، ص ١٩٢ .

(٢) قيل إنه كان مع المبرقع يومئذ خمسون الفاً من أهل اليمن .

(٣) خطط الشام ، ج١ ، ص ١٩٢ .

رجاء بن اشيم الحميري فأخضعهم . ثم سار رجاء إلى فلسطين لقتال تميم اللخمي ويعرف بأبي حرب ويلقب بالمبرقع . وكان هذا قد خرج على العباسيين ودعا لنفسه فتبعه خلق كثير ومنهم جماعة كبيرة من لخم وجذام وعامله وقد قدروا أتباعه بمئة ألف نسمة .

عندما توفي الواثق بالله بويع أخوه جعفر بن المعتصم (٢٣٢هـ - ٨٤٧م) ولقب بالمتوكل على الله . وقد قسم مملكته بين أولاده : فولي المنتصر إفريقية وكل المغرب وسوريا وما بين النهرين والحجاز واليمن وحضرموت والبحرين والسند ، وولي المعتز خراسان وطبرستان وفارس وأرمينيا وأذربيجان ، وولي المؤيد دمشق وحمص والأردن وفلسطين . ولكن المنتصر لم يقنع بهذا فراح يدس الدسائس ضد إخوانه حتى قتل بيد الحرس التركي .

زار بيت المقدس حوالي ذلك التاريخ ذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الصالح ، فقال عنها[١] «وجدت على صخرة بيت المقدس كل عاص مستوحش وكل طيع مستأنس وكل خائف هارب وكل راج طالب وكل قانع غني وكل محب ذليل . وهذه الكلمات أصول ما استعبد الله به الخلق .» استحضره المتوكل على الله من مصر . وكان كلما وعظه يبكي .

لم تذكر القدس في عهد المنتصر بن المتوكل على الله (٢٤٧هـ - ٨٦١م) والمستعين بالله (٢٤٨هـ - ٨٦٢م) والمعتز بالله (٢٥٢هـ - ٨٦٦م) . وكل ما يجدر بنا أن نذكره عن هذا العهد أن دسائس الأتراك قد كثرت في بغداد مقر الخلافة حتى أنهم أوعزوا إلى المعتز أن يتنازل عن الخلافة ففعل فأودعوه السجن . ثم قطعوا عنه الغذاء فمات جوعاً .

وفي عهده عقد لعيسى[٢] بن الشيخ بن السليل الشيباني على الرملة ، فأنفذ خليفته (أبا الفراء) إليها واستولى على فلسطين جميعها . وتغلب على دمشق وأعمالها . وامتنع عن حمل المال إلى العراق .

أقام الأتراك عنه ابن عمه المهتدي بالله بن الواثق (٢٥٥هـ - ٨٢٩م) . وفي زمنه

---

(١) ابن خلكان ، ن ج١ ، ص ١٠١ .

(٢) خطط الشام ، ج١ ، ص ١٩٥ .

كان أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيباني يتقلد جند فلسطين[1] والأردن . فلما مات وثب ابنه على الأعمال واستبد بها . فبعث أحمد بن المدبر (مدير المالية في مصر ومفتش الخراج فيها) بسبعمائة وخمسين ألف دينار من مال مصر إلى بغداد . فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في أصحابه . وكانت الأمور قد اضطربت ببغداد . فطمع ابن شيخ في التغلب عليها ، وأشيع أنه يريد مصر .

وفي رجب ٢٥٦هـ ذبح المهتدي وبويع المعتمد على الله وهو ابن المتوكل الثالث . فبايعه الجميع إلا ابن شيخ زعيم فلسطين ، فإنه لم يدع له . ولم يبايعه لا هو ولا أصحابه . فبعث إليه بتقلد ارمينيا فوق ما معه من بلاد الشام . وفسح له في الاستخلاف عليها والإقامة على عملها . فدعا حينئذ للمعتمد وبايعه .

كتب الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦هـ - ٨٧٠م) إلى أحمد بن طولون بمصر وكان قائداً للقوات المصرية يأتمر بأمر الخليفة العباسي ببغداد ؛ بعث إليه سراً أن يتأهب لحرب ابن شيخ . فجهز هذا جيشاً كبيراً . وبعث إلى ابن شيخ يدعوه إلى طاعة الخليفة ورد ما أخذ من المال . فأجاب بجواب قبيح . فسار أحمد في ٦ جمادى الآخرة مستخلفاً أخاه موسى بن طولون على مصر . ولكنه قبل أن يصل إلى فلسطين استبدله الخليفة بـ(اماجور التركي) . فلقيه أصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه ، فحاربهم اماجور ، فانهزموا منه وقتل قائدهم . فلحق ابن شيخ بارمينيا . وتقلد اماجور أعمال الشام كلها .

لم تذكر القدس في عهد المعتضد بالله (٢٧٩هـ٨٩٢م) سوى انه اهتبل الفرصة فسعى لاستعادة سلطة أسلافه على البلاد . ولكنه مات قبل أن ينال مبتغاه .

ولما تولى الخلافة ابنه المكتفي بالله (٢٩٢هـ - ٩٠٤م) أنفذ جيشاً إلى الشام فتملكها . ثم هجم على مصر فاخترقها . وهكذا عادت السلطة إلى الخلفاء العباسيين في مصر والشام معاً على عهده بعد أن بقيت ردحاً من الزمن في يد الولونيين .

بعد المكتفي بويع جعفر المقتدر بالله (٢٩٥هـ - ٢٠٨م) وفي زمنه توفي عيسى ابن محمد الأمير النوشري الذي تولى إمرة الشام على عهد المنتصر والمستعين ، وتولى شرطة بغداد أيام المكتفي ، وإمرة مصر على عهد المكتفي وأخيه المقتدر بالله وكانت

---

(١) جرجي زيدان ، ج١ .

القدس من أعماله . توفي وهو على إمرة مصر[1] . فحمل إلى القدس ودفن بها (٢٩٧هـ-٩٠٩م) .

ولما قتل المقتدر ، بويع أخوه القاهر بالله الابن الثالث للمعتضد بالله (٣٢٠هـ - ٩٣٢م) . فولّى هذا على مصر أبا بكر محمد بن طغج . ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا مدة من الزمن عرفت «بالدولة الإخشيدية» .

قبع الخلفاء العباسيون بعد ذلك التاريخ في قصورهم . فلم يبق لهم في شؤون الملك حول ولا طول . واقتصرت سلطتهم على المسائل الدينية . وظلوا كذلك إلى أن زحف هولاكو على بغداد (٦٥٦هـ-١٢٥٧م) وقضى على الخلافة العباسية فيها . فغادروها بعد أن عاش منهم فيها سبعة وثلاثون خليفة . غادروها إلى مصر . حيث عاش منهم خمسة عشر خليفة ، كان آخرهم محمد المتوكل على الله الذي تنازل عن الخلافة الدينية إلى السلطان سليم العثماني (٩٢٣هـ - ١٥١٧م) . وسلمه مفاتيح الحرمين . فتكون الخلافة قد عاشت ٧٦٧ سنة .

إن تأثير العباسيين في فلسطين ولا سيما في عهدهم الأخير كان ضئيلاً بسبب بعد المسافة . ولذلك انتقلت السلطة فيها بسرعة من يد العباسيين إلى يد الطولونيين ، فإلى الإخشيديين والفاطميين بمصر .

ومع هذا كله لم يخل عهدهم من الوقائع التي لها صلة بهذه البلاد . وكانت القدس على عهدهم لا تزال تحمل اسمها الروماني الذي احتفظت به منذ الفتح الإسلامي : إيليا .

ذكر ابن خرداذبه[2] بيت المقدس في كتابه (المسالك والممالك)[3] فقال : كورة إيليا وهي بيت المقدس بينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلاً . ومنها إلى مسجد إبراهيم ثلاثة عشر ميلاً مما يلي القبلة . ومنها إلى البحيرة المنتنة[4] أربعة أميال» .

زار القدس خلال القرن التاسع للميلاد (برنارد الحكيم) . زارها بعد أن نال رضى البابا في روما . وقد مر بالأراضي الإيطالية التي كانت خاضعة للنفوذ العربي . فحمله

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص ١٥٦ .

(٢) أبو القاسم عبيد الله خرداذبة من الذين عاشوا في أواسط القرن الثالث للهجرة .

(٣) طبع في ليدن ، ص ٢٨ .

(٤) البحر الميت .

صاحب باري[١] رسائل إلى أمراء الشرق يوصيهم به خيراً .

وصف برنارد القدس وما حولها من القرى فقال : «إن المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام . والأمن العام مستتب . حتى أن المسافر ليلاً يجب أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته ، وإلا زج في السجن حتى يحقق في أمره ويتضح قصده . وإذا سافرت من بلد إلى بلد ونفق جملي أو حماري وتركت أمتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة ، عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد» .

كان ذلك في عام ٨٧٠ للميلاد . ولكن تفكيره كان منصرفاً بالأكثر إلى أماكن العبادة . فذكرها كلها ولم يذكر عن المدينة نفسها إلا النزر اليسير . وقال إنه نزل في نزل معهد للحجاج الذين يتكلمون اللغة الرومانية . ذلك النزل الذي أسسه الملك شارلمان . وبجانبه سوق يترتب على الشخص الذي يعيش فيه[٢] أن ينقد المحتسب الذي يناظره قطعتين من الذهب كل سنة .

(١) هو الأمير خفاجه الذي انتدبه أبو الغرانيق محمد الثاني بن أحمد الغلبي لإتمام فتح ايطاليا سنة ٢٥١هـ - ٨٦٥ وكان يطلق عليه حاكم إيطاليا وقائدها العام (رواد الشرق العربي ، ص ٥٤) .

(٢) كذا في الأصل . ولعله أراد أن يقول : (الذي يعمل فيه) .

عندما غزا العرب بلاد الترك ، وأسروا من أسروا من سكانها ؛ راحوا يرسلون إلى بلاط الخليفة ببغداد من يأسرونه من الترك ، فيستخدمهم الخلفاء وكبار الأمراء في منازلهم ويدعونهم بالمماليك .

من هؤلاء الأسرى[1] (طولون) . وهو ينتمي إلى إحدى القبائل الأربع والعشرين التي تتألف منها تركستان . أسره (ابن أسد الصمامي) أحد عمال المأمون في إحدى المواقع الحربية . فأرسله إلى الخليفة . فأعجب المأمون به وألحقه بحاشيته . وما زال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقّبه بأمير الستر .

بقي طولون في منصبه عشرين عاماً ، خدم خلالها المأمون وأخاه المعتصم . وفي زمن المعتصم هذا كان الضعف قد دب في صفوف العباسيين إلى درجة أنه لم يبق للخليفة سلطة على البلاد سوى الاسم . وأصبحت خلافتهم دينية لا دنيوية . فسيطر طولون ، ولقب بعدئذ بأبي العباس .

هذا هو مؤسس الدولة الطولونية .

تألق نجم ابن طولون ، بادىء ذي بدء ، في مصر (٣٤٨هـ - ٨٦٢م) وطارت شهرته . فكان تقيا ، لين العريكة ، مقداماً ، ملماً بالسياسة ؛ وكان قائداً للقوات العسكرية فيها ، يأتمر بأمر الخليفة العباسي ببغداد .

ولقد طلب منه الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل (٢٥٦هـ-٨٦٩م) أن يتأهب لمقاتلة أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني قائد الجند بفلسطين والأردن ، لأن هذا أبى أن يبايع المعتمد بالخلافة . وقد سار بجيش كبير لمحاربته . غير أنه قبل الوصول إلى فلسطين أمر بالرجوع إلى مصر .

ذلك لأن اماجور التركي والي الشام ، عندما رأى تألق نجم ابن طولون في مصر ،

(١) جرجي زيدان ، ج١ ، ص ٦٤٣ .

أخذ يوغر صدر الخليفة عليه (٢٥٧هـ-٨٧٠م) . فأمره الخليفة بالرجوع إلى مصر . وأرسل أماجور على بر الشام . وبقي ابن طولون والياً عاماً على القطر المصري .

ولما توفي أماجور اغتنم ابن طولون الفرصة ليضم سوريا إلى مصر . وقد سار إليها بجيشه . ولما احتشدت جيوشه في فلسطين ، أتاه محمد حاكم الرملة خاضعاً . فأقره في منصبه . ولما وصل دمشق رحب به علي بن أماجور فاقره في منصبه . وهكذا علت كلمته في بري مصر والشام (٢٦٥هـ-٨٧٨م) .

وعلى قول[١] أن القدس دخلت في حكم ابن طولون سنة ٨٣٣م وأن النصارى قاسوا على عهده وأنه حظر عليهم أن يلبسوا إلا الدرع مرفوعاً من قبل ومن دبر . وحرم عليهم ركوب الخيل .

ومن الأحداث التي حدثت في عهد أحمد بن طولون الحرب العصبية التي وقعت بفلسطين (٢٥٧هـ - ٨٧٠م) بين لخم وجذام ، فتحاربوا حرباً أخذت من الفريقين .

توفي ابن طولون في اليوم العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ -١١ مايو ٨٨٤م ودفن عن سفح المقطم بمصر .

بعد موته أقيم ابنه خمارويه في مكانه (٢٧٠هـ-٨٨٣م) فكان أميراً على مصر والشام . وعلى عهده وقعت واقعة بين أحمد بن الموفق الملقب بالمعتضد بالله وبين خمارويه تدعى (واقعة الطواحين) .

وطد خمارويه بعدئذ العلائق بينه وبين الخليفة المعتضد بالله ، وأرسل إلى بغداد وفداً يحمل للخليفة الهدايا ، ويعلمه أن مصر تؤدي الخراج وقدره مائتا ألف دينار . فثبته الخليفة في إمارته لثلاثين سنة . ولكنه مات مقتولاً (٢٨٢هـ) .

بعد مقتل جيش أقام زعماء الثورة أخاه (هارونا) مكانه (٢٨٣هـ-٨٩٦م) . وثبته الخليفة المعتصد على مصر . ولكن الناس عدلوا عن طاعته بعد نصبه ، وعصوه . ورئيس هذه الثورة (طفج بن جف) صاحب الشام . فاغتنم الخليفة المعتضد الفرصة ، وعزم أن يستعيد سلطة أسلافه على البلاد .

قتل هارون بطعنة من أحد المغاربة في جيشه (٢٩٢هـ - ٩٠٤م) . ويقال أنعمه شيبان بن أحمد هو الذي قتله . ولكن الأمراء ثاروا عليه وأجبروه على التسليم .

---

(١) السير السليم ، ص ١٢٩ ، وتاريخ القدس لسركيس ، ص ١٦٨ .

فتسلم الأمر محمد بن سليمان وهو الذي أنفذ من لدن الخليفة المكتفي بالله بن المعتضد إلى الشام على رأس جيش ليمتلكها . وتملك مصر من بعدها . وأعاد إلى الخليفة العباسي سلطته السابقة .

وقد قتل شيبان بعد ذلك ببضعة أيام . وهكذا انتهى حكم الدولة الطولونية في القدس (٩٠٥م[1]) .

ما كانت القدس من الأهمية بمكان على عهد الدولة الطولونية . ولم تذكر إلا قليلاً . لأن البلاد كانت في حال حرب . وما كانت القدس مهمة من الناحية الاستراتيجية . إذ إنها لم تكن واقعة على الدرب بين مصر والشام بالتمام . وقد احتل مكانها من هذه الناحية يومئذ المدن الساحلية الواقعة على تلك الطريق وفي مقدمتها الرملة . وما كان الناس ليقصدوا القدس يومئذ إلا لغايات دينية .

---

(١) «تاريخ القدس» لخليل سركيس . ص ١٦٨ و«السير السليم» . ص ١٢٩ .

الدولة الإخشيدية

ظن بنو العباس أنهم نجوا ممن يناصبهم العداء في الشام ومصر ، يوم قضوا على أبناء طولون . ولكن ظهرت لهم (الدولة الإخشيدية) أو (دولة بني طغج) . ورأس هذه الدولة هو محمد الإخشيد (الملقب بأبي بكر) بن طغج بن جف بن بلتكين ابن فوري ابن خاقان .

نزل جف هذه البلاد على عهد المعتصم بالله ابن هارون الرشيد ، فأقطعه السامرّا (أوسر من رأى) . وتوفي في بغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل على الله (٢٤٧هـ - ٨٦١م) . دخل طغج بن جف في خدمة خمارويه بن أحمد بن طولون ، فقلده بعض المناصب الهامة ، وولاه دمشق وطبرية . وظل يرتقي في هذه المناصب إلى أن مات في حبس العباس بن المحسن وزير الخليفة العباسي المكتفي بالله .

وكان مع طغج في السجن ابنه محمد الإخشيد . ولكنه نجا من السجن . وجاء إلى الشام . وهناك ولاه الخليفة المقتدر مدينة الرملة (٣١٦هـ - ٩٢٨م) . فأقام بها سنتين . ثم تولى الشام (٣١٨هـ - ٩٣٠م) .

ولما قتل الخليفة العباسي المقتدر بالله وبويع بالخلافة أخوه القاهر بالله بن المعتضد بالله (٣٢٠هـ-٩٣٠م) ولي هذا أي (محمد بن طغج)(١) مصر ، ولقب بالإخشيد(٢) (٣٢٧هـ - ٩٣٨م) . ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا معاً مدة من الزمن عرفت : (بالدولة الإخشيدية) .

وفي سنة (٣٢٨هـ-٩٣٩م) أعطى(٣) الخليفة الراضي بالله لقب أمير الأمراء لمحمد بن رائق صاحب فلسطين وكان مستقلاً عنه . فلاح له أن يغزو الشام وعليها الأمير بدر بن عبدالله الإخشيدي . فحاربه فهرب بدر ، فنهض محمد الإخشيد من مصر لإنجاده . ولكن الفريقين اصطلحا قبل أن يصطدما . ولكنهما عادا فاقتتلا . فوضع محمد الإخشيد يده على الرملة . وأسر خمسماية رجل من جيش ابن رائق .

---

(١) جاء في خطط الشام ، ج١ ، ص ٢١٣ أن محمد بن طغج تقلد مصر من جهة الراضي ، وأن هذا ولاّه اياها بعد أن عزل متوليها أحمد بن كيغلغ وضم إليها البلاد الشامية .

(٢) هذا لقب ملوك فرغانة الذين تحدر منهم . ومعناه (ملك الملوك) .

(٣) جرجي زيدان ، ج١ ، ص ١٨٥ .

قتل في هذه المعركة حسين أخو الإخشيد[1] . فانفذ ابن رائق ابنه مزاحماً إلى الإخشيد ليعزيه . فأكرم وفادته . واصطلحا على أن تكون البلاد من الرملة إلى حدود مصر للإخشيد وباقي الشام لمحمد بن رائق ، وأن يحمل الإخشيد إلى ابن رائق في كل سنة مئة واربعين الف دينار تعويضاً عن الرملة .

ولما قتل محمد بن رائق[2] سنة ٣٣٠هـ نهض محمد الإخشيد لاسترجاع البلاد التي كان تنازل عنها لمحمد بن رائق . وقد استرجعها منه بالفعل . وفي سنة ٣٣٢هـ - ٩٤٣م تولى إمارة الحجاز . فسادت كلمته في مصر والشام وفلسطين والأردن والحجاز .

مات الأخشيد في دمشق ، ودفن في القدس (٣٣٤هـ - ٩٤٥م) .

بعد موته ولي الأمر ابنه أبو القاسم محمد الملقب بـ(انوجور) . فاستضعفه سيف الدولة . وقصد دمشق فملكها . فخابروا كافورا وصي الأمير . فجهز هذا جيشاً عرمرماً . فالتقى الجيشان قرب الرملة . وانهزم سيف الدولة . واسترجع كافور دمشق وفلسطين[3] (٣٣٤هـ - ٩٤٦م) .

زار القدس خلال تلك الفترة من الزمن السائح الفارسي المشهور ، ناصري خسرو ووصفها في كتابه (سفرنامة[4]) . وأن أرضها كلها مبلطة بالحجارة . وأنهم سووا الجهات الجبلية فجعلوها مسطحة بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف بعد الأمطار . وأنه يوجد على حافة سهل (الساهرة) قرافة عظيمة وقبور كثير من الصالحين .

ولمامات انوجور بن الإخشيد (٣٤٩هـ - ٩٦٠م) حمل إلى القدس ودفن بها عند أبيه . ومن بعده تولى الحكم أخوه علي الملقب بأبي الحسن . ولم يكن له من الأمر

---

(١) لسنا ندري إن كان هذا هو أخو الإخشيد الذي جاء ذكره في النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص ٢٦٠ ، والذي أسماه الحسن بن طغج بن جف الأمير المظفر الفرغاني التركي وقال عنه إنه مات في الرملة ودفن بالقدس (٣٤٢هـ - ٩٥٣م) ، أم أن للإخشيد أخوين أحدهما حسن الذي ذكره في النجوم والثاني حسين هذا .

(٢) قتله الحمدانيون بالموصل .

(٣) البرغوثي وطوطح .

(٤) رحلة تقع حوادثها بين سنة ٣٤٧هـ - ٩٥٨م ، وسنة ٤٤٤هـ - ١٠٥٢م ، نقلها إلى العربية وعلق عليها يحيى الخشاب بمصر ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م .

شيء سوى الاسم . إذ منع كافور الناس من الاجتماع به . وظلت صلاته بمدير مملكته كافور سيئة إلى أن اعتلت صحته . ومات لإحدى عشرة خلت من محرم سنة (٣٥٥هـ - ٩٦٥م) وحمل إلى القدس . ودفن عند ابيه الإخشيد وأخيه انوجور .

وبموت أبي الحسن انفرد كافور في حكم مصر . ولقب بالإخشيدي (٣٥٥هـ - ٩٦٥م) . وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز والثغور . وكانت هذه كلها من أعماله .

لما تفرد كافور بالأمر (٣٥٥هـ - ٩٦٥م) كان في بيت المقدس(١) وال يعرف بمحمد بن إسماعيل الصنهاجي . اضطهد بطريق القدس وكان أبى مقابلته فهجم عليه الوالي في أشياعه . وأحرق أبواب كنيسة القيامة . وسقطت قبتها . ونهبوا كنيسة صهيون وأحرقوها . قال ابن بطريق : وهدم اليهود وخربوا أكثر من المسلمين . ثم قتل البطريق .

توفي كافور سنة ٣٥٦هـ - ٩٦٦م ودفن في القدس(٢) . ووقع الخلاف ، على أثر

---

(١) خطط الشام ، ج١ ، ص ٢١٥ .

(٢) قال صاحب (النجوم الزاهرة) ، ج٤ ، ص ١٠ ، إنه توفي في مصر وحمل تابوته إلى القدس ودفن به . وكتب على قبره :

ما بـال قبرك يا كافور منفرداً … بالصحصح المرت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد … كانت أسود الثرى تخشاك في الكتب

(والمرت) مفازة لا نبات فيها .

وأما ابن جلكان فيقول نقلاً عن القضاعي في كتاب الخطط وعن الفرغاني في تاريخه أن كافور توفي سنة ٣٥٧هـ - ٩٥٧م وأنه دفن بالقرافة الصغرى ، وقبته مشهورة هناك .

وقال المقريزي ، نقلاً عن ابن زولاق في كتاب سيرة المعز لدين الله أنه في ٣٦٢ للهجرة سار (أي المعز) على شاطئ النيل حتى بلغ بني وائل ومعه وجوه الدولة ، فعطف على بركة الجيش ثم الصحراء . ومر على قبر كافور .

وقال جرجي زيدان في كتابه (تاريخ مصر) ج١ ، ص ١٩١ ، أنه دفن في القرافة الصغرى . وقبته هناك .

وقال الوليد بن بكر العمري : وجدت على قبر كافور مكتوباً :

انظر إلى عبر الأيام ما صنعت … أفنت أناساً بها كانوا وما فنيـــت
دنياهم ضحكت أيام دولتهـــم … حتى إذا فنيت ناحت لهم وبكت

وفاته ، بين الإخشيديين . فراح كل واحد منهم يدعي الإمارة لنفسه . فتضعضعت الدولة الإخشيدية . واستولى جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي على البلاد .

لم تذكر القدس على عهد الإخشيديين ، إلا قليلاً . ولم تكن يومئذ ذات أهمية لا من الناحية التجارية ولا من الناحية الحربية . ذلك لأنها لم تكن واقعة على الدرب الأساسي بين مصر والشام . وقد احتل مكانها من هذه الناحية المدن الواقعة في السهل والكائنة على الدرب بالذات مثل الرملة . وما كانت القدس يومئذ لتقصد بالذات ، إلا لغايات دينية .

إن أحسن وصف للقدس ، على عهد الإخشيديين ، نجده في الصفحة ٥٦ من كتاب (مسالك الممالك) للإصطخرى[١] . قال :

«فلسطين أزكى بلدان الشام . ومدينتها العظيمة الرملة . وبيت المقدس يليها في الكبر . وبيت المقدس مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كل مكان قصد من فلسطين . وبها مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه . والبناء في زاوية من غربي المسجد يمتد على نحو نصف عرض المسجد . والباقي من المسجد فارغ إلا موضع الصخرة ، فإن عليه حجراً مرتفعاً مثل الدكة . وفي وسط الحجر على الصخرة قبة عالية جداً . وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع . وهو من أخصب بلدان فلسطين . وفي مسجد بيت المقدس ، لكل واحد من عامة الأنبياء المعروفين ، محراب معروف . ويزرع في جبالها وسهولها أشجار الزيتون والتين والجميز والعنب ، وسائر الفواكه أقل من ذلك» .

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارس الإصطخري المعروف بالكرخي . عاش في أواسط القرن الرابع للهجرة . وقام برحلته سنة ٩٥١ للميلاد . وكتابه هذا طبع في ليدن سنة ١٨٧٠ .

كان كافور آخر ملوك بني الإخشيد . ولما أذنت شمس الدولة الإخشيدية بالأفول ، رأى عقلاء مصر أنه لا ينجيها من الفوضى التي كانت فيها إلا إلقاؤها في حضن دولة قوية . فكتبوا إلى المعز الفاطمي صاحب المغرب يستدعونه إلى مصر . فجهز هذا حملة مؤلفة من مئة ألف محارب ، وألف وخمس مئة جمل تحمل الذهب والفضة . وأرسلها إلى مصر بقيادة (جوهر) . فدارت الدائرة على الإخشيديين . وأقام جوهر الخطبة للمعز .

لم يدخل المعز في طاعة الخلفاء العباسيين . بل ادعى الخلافة لنفسه ، قائلاً . «نحن أفضل من بني العباس . أنا من ولد فاطمة بنت رسول الله» . وكان الخليفة في بغداد يومئذ المطيع لله العباسي . فلم يقره على عمله . وراح الاثنان يتنازعان .

ولما استقرت قدم جوهر بمصر ، سير جمعاً كبيراً إلى الشام بقيادة (جعفر بن فلاح) . فجاء هذا إلى الرملة ، وكان بها الحسن بن عبدالله بن طغج ، فقاتله جوهر وتغلب عليه . ثم استولى على فلسطين كلها ، وجبى أموالها . ثم ملك الشام . وأقام الخطبة للمعز (٣٥٩هـ - ٩٦٩م) . فقطعت الخطبة العباسية فيها ، وأصبح الفاطميون خلفاء مصر والشام والمغرب معاً .

بعد وفاة المعز تولى ابنه العزيز[١] (٣٦٥هـ - ٩٧٥م) . فقامت بينه وبين (افتكين) صاحب الكلمة العليا في الشام حرب دامت شهرين . قتل فيها عدد كبير من الفريقين . وقد استعان أهل الشام على المغاربة بالقرامطة[٢] . فجاء ملك القرامطة (الحسن بن أحمد القرمطي) من بغداد . واجتمع إليه من رجال الشام نحو خمسين

---

(١) اسمه نزار بن معد . كان محباً للعلم . وكان يكره أهل السنة . وسد الأمر إلى رجاله من المسيحيين وآخرين من اليهود . ولقد تزوج من مريم أخت البطريرك اوربستيس الذي تولى الكرسي الأورشليمي سنة ٩٨٤م .

(٢) فرقة من الباطنية نسبوا إلى حمدان قرمط . لقب بذلك لقرمطته في خطه . وفي خطوه . والقرامطة زنادقة دهريون يقولون بقدم العالم . وينكرون الرسل والشرائع كلها ، ويميلون إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع وينكرون الثواب والعقاب . ويقولون إن الجنة نعيم الدنيا ، وإن العذاب إنما هو الاشتغال بالصلاة والصوم والحج وما إلى ذلك (دائرة معارف وجدي ، ج٢ ، ص ٧٢١) .

ألف مقاتل . فرحل جوهر قائد العزيز الفاطمي من دمشق . وتبعه افتكين والقرمطي وأتباعهما . فحصروه في عسقلان سبعة عشر شهراً . ذاق خلالها الأمرين . ولكنه تمكن بعد جهد جهيد من الخلاص . فرجع إلى مصر . وأخبر العزيز بما جرى .

سار العزيز ، في هذه المرة ، إلى الشام بنفسه ، ومعه سبعون ألف مقاتل . فالتقى بافتكين والقرامطة في ظاهر الرملة ، فقاتلهم ، وانتصر عليهم ، وأسر افتكين ، واخذه إلى مصر حيث مات فيها . وبلغت خسائر جيش العزيز عشرين ألفاً من المغاربة .

جاء العزيز إلى فلسطين مرة أخرى عندما ثار (مفرج بن الجراح) أمير بني طيء وسائر العرب في فلسطين . خشي العزيز يومئذ عاقبة الأمر . فجهز العساكر لمحاربته . وأرسلهم بقيادة قائده التركي (بلتكين) . فسار هذا إلى الرملة . واجتمع إليه العرب من قيس وغيرهم . ولقي ابن الجراح ، فهزمه . فاستولى على البلاد كلها . وصفا له الجو .

أقام العزيز على ولاية فلسطين وزيراً قبطياً هو الشيخ أبو اليمن قزمان بن مينا الكاتب[١] . وسكن هذا في دير السلطان من أملاك القبط . ولما اقتتلت جيوش الشام ومصر هرب هذا ، آخذاً معه أموال الدولة . وقد بلغت يومئذ مئة ألف دينار .

ولما توفي العزيز خلفه ابنه المنصور ، ولقب الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ - ٩٩٦م) فحكم البلاد نحو ٢٥ سنة . كانت مليئة بالحوادث الغريبة والمتناقضات . ولهذا رأينا من الفائدة أن نأتي على ذكر بعضها . ولا سيما تلك التي تفسر لنا ما ألمّ بالقدس في تلك الفترة من الدهر .

قرأنا عنه بحوثاً كثيرة للمقريزي[٢] وابن الأثير[٣] وابن الجوزي[٤] وابن خلكان[٥] وابن خلدون[٦] وابن العميد[٧] وابن تغرى بردى[٨] ومحمد عبدالله

---

(١) (تاريخ الكرسي الأورشليمي للأقباط الأرثوذكس) التماس كامل صالح نخله الإسكندري . مخطوط .

(٢) ج٢ ، ص ١٦٧ .

(٣) ج٩ ، ص ٤٠ .

(٤) ج١٣ ، ص ٤٠١ .

(٥) ج٢ ، ص ١٦٦ .

(٦) ج٤ ، ص ١٠ .

(٧) طبعة ليدن ، ص ٢٥٩ .

(٨) ج٤ ، ص ١٧٨ .

عنان[1] . وفي مخطوط كنسي اسمه (سير البيعة المقدسة) وهو ذيل لكتاب (سر الآباء البطاركة) الذي وضعه ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين في عهد المعز العزيز . واشترك في كتابة هذه السيرة عدد من الأحبار المتعاقبين . منهم الانبازخاريا البطرك الرابع والستين . وقد عاصر هذا الحاكم بأمر الله . وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة نسخة فتوغرافية لهذا المخطوط .

قبل كل شيء نريد أن نصف لك الحاكم ، من الناحية البدنية والعقلية ، وصفاً يساعدك على تفهم الأحداث التي وقعت على عهده . فنقول :

كان الحاكم ذا بنية قوية وطلعة مهيبة وصوت جهوري . إنه رجل غريب الأطوار . متناقض الصفات والأعمال . فاقد الاتزان . كان كل يوم في حال .

فتارة كان يظهر في صورة جبار منتقم ، وظالم يحب سفك الدماء ، وغدار لا يستقر على ثقة أو صداقة . . وطوراً كان يظهر في مظهر الجود والتقشف والزهد والميل لفعل الخير .

ويل لمن يلاقيه في ساعة الغضب! وطوبى لمن يلقاه في ساعة الرضا!

وكثيراً ما كان يأمر بالشيء ويبالغ في العطاء ثم يرجع عنه ويبالغ في نقضه .

كان أحياناً يحب العلم ويكرم العلماء . . ولكن سرعان ما ينقم على العلم والعلماء ؛ فيضطهدهم ، أو يقتلهم ، أوينفيهم .

كريم أحياناً ، وبخيل إلى أبعد حدود البخل في بعض الأحايين . متدين . . زاهد . . تقي أحياناً . وأحياناً يأتي بفعال لا تمت إلى الدين بصلة .

ومن غريب طباعه أنه كان يكره أكل الملوخية والترمس والجرجير ، وما إلى ذلك من طعام . وقد منع الناس المستظلين بحكمه من أكلها . وحرّم ذبح الأبقار إلا في عيد الأضحى . كما حرم صيد السمك الذي لا قشر له . وحرّم دخول الحمام بلا مئزر . وحرّم على النساء أن يكشفن وجوههن في الطريق . كما حرّم عليهن التزين والتبرج والمشي وراء الموتى والبكاء والعويل والصياح . ومنع زيارة القبور ، وحرّم على الناس أن يخرجوا من منازلهم بعد الغروب ، وأمرهم بالبقاء داخل منازلهم حتى الفجر ، وهكذا توقف البيع والشراء ليلاً . ولم يكتف بتحريم شرب الخمر ، ولكنه أمر بكسر جميع الأواني التي يشرب فيها . وحظر بيع الزبيب واستيراده . كما حظر شراء

---

(١) طبعة (دار النشر الحديث) بالقاهرة ، ص ٤٠ وما بعدها .

مقدار من العنب يزيد على أربعة أرطال، لئلا يستعمل في صنع النبيذ. وقد أتلف معظم الكروم، وهاجم أماكن البغاء. وأعدم جميع الكلاب (خلا كلاب الصيد). كما أمر بقتل جميع الخنازير.

والغريب في هذه الأمور أنه لم يكتف بالنصح والإقناع، وردع الفاعلين بالتي هي أحسن، أو بالتشهير أو التغريم أو الجلد أو السجن. ولكنه كان أحياناً يصل في قصاصه حدّ الإعدام. وأغرب من ذلك أنه كثيراً ما كان يلغي في غده أمراً كان أصدره في أمسه.

أمه (أي أم الحاكم بأمر الله) جارية رومية نصرانية من الطائفة المعروفة بطائفة الروم الملكية. وكان لها أيام أبيه العزيز بالله بن المعز لدين الله نفوذ عظيم في الدولة. حتى أنه (أي العزيز) انتدب أخاها (اريسطيس) بطركاً للملكية ببيت المقدس (٣٧٥هـ - ٩٨٥م). وكان لهذه المصاهرة أثرها حيناً من الدهر في سياسة العزيز نحو النصارى من حيث التسامح الواضح والعطف الشديد. ولكن هذا العطف لم يستمر طويلاً، بل انقلب إلى بغض. ففي سنة ٣٩٥هـ-١٠٠٤م أمر النصارى ان يلبسوا الغيار، ويشدوا الزنار، وأن يلبسوا العمائم السود. وألغى أعيادهم: عيد الصليب، وعيد الغطاس، وعيد الشعانين وأعياد الشهداء. وحرم ضرب النواقيس. وأمرهم بأن يعلقوا الصلبان في أعناقهم.

وحرم على النصارى واليهود معاً ركوب الخيل. إلا الحمير والبغال، فيجوز لهم أن يركبوها شريطة أن يكون سرجها من خشب.. ولا يجوز لهم أن يستخدموا رجلاً مسلماً، أو جارية مسلمة.. حظر على الكارية المسلمين أن يحملوا على دوابهم ذمياً، كما حظر على الملاحين المسلمين أن يحملوا في سفنهم ذمياً.

وفي سنة ٣٩٩هـ - ١٠٠٨م أمر بهدم عدد من الكنائس ومنها (كنيسة القيامة)[١]. وتقول الرواية الكنسية المعاصرة إن الأمر الذي أصدره الحاكم يومئذ بهدم هذه الكنيسة صيغ في عبارة موجزة تقول: خرج أمر الإمامة إليك بهدم قمامة.

---

(١) هكذا كانوا يسمون «كنيسة القيامة» في ذلك الحين. وقد ظل اسمها هذا «أي القمامة» عالقاً بها حتى أواخر العهد التركي. والسبب في هذه التسمية راجع إلى أن القبر المقدس بني على الموضع الذي كانت توضع به القمامة خارج أسوار بيت المقدس أيام المسيح. وهو نفس الموضع الذي يقول الإنجيل: إن السيد المسيح قد صلب فيه «راجع معجم البلدان لياقوت».

فاجعل سماءها أرضاً ، وطولها عرضاً» . وتقول الرواية إن الذي كتب هذا الأمر كاتب نصراني يسمى : (ابن شترين) . وأن الأمر أرسل يومئذ إلى (بارختكين) وإلى الرملة (فلسطين) . فقام بتنفيذه في الحال[١] . فهدمت كنيسة القيامة . وأزيلت كنيسة (مار قسطنطين» التي بداخلها . وهدم الدير الملاصق لها . وكان هدمها في شهر صفر سنة ٤٠٠هـ - ١٠١٠م .

وقيل في تحليل السبب الذي جعل الحاكم ينقم على النصارى ، هو أن الوزراء والكتاب الذين استخلصهم للحكم من النصارى ، أسرفوا[٢] في الاستئثار بسلطانهم واستغلاله . فقد أطلقوا العنان لأهوائهم الطائفية . وقدموا النصارى في مناصب الدولة ، وأقصوا عنها المسلمين . وجمع الموظفون النصارى عن هذه الطريق ثروات طائلة . واقتنوا كثيراً من الجواري والعبيد المسلمين . وأكثروا من إقامة الكنائس والأديار . فبدت الأقلية النصرانية عزيزة الجانب ، وتقلص نفوذ الأكثرية المسلمة في البلاد .

وأما (كنيسة القيامة)التي أمر الحاكم بهدمها ، فقد ذكر المؤرخون لها سببين ؛ أحدهما : ما وصل إلى علمه عن الصلوات والأدعية الدينية والشعائر التي اعتبرت شبيهة بالوثنية[٣] وهي مثيرة ؛ وما يتبعها من مواكب دينية صاخبة ، يضج فيه النصارى بالصلوات والأدعية ويرفعون الصلبان الضخمة . ولا سيما في أيام الفصح وفي عيد الشعانين . وتقول الرواية الكنسية المعاصرة[٤] : (إن راهباً قبطياً يدعى يونس نقم على البطريرك زخاريا ، لأنه لم يرسمه أسقفاً . فتقدم إلى الحاكم . ووصف له ما يتمتع به الأحبار النصارى من النفوذ والجاه ومظاهر السلطان والعظمة والثراء . وكونهم يبيعون المناصب الكنسية) . وقال الراهب للحاكم : (أنت ملك الأرض . لكن للنصارى ملك لا يعبأ بك ، لكثرة ما قد اكتنز من الأموال . لأنه يبيع الأسقفية

---

(١) كتاب «الحاكم بأمر الله» لمحمد عبدالله عنان . ص ٦٩ .

(٢) (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية) لمحمد عبد الله عنان ، ص ٧٥ .

(٣) تاريخ الانطاكي ، ص ١٩٦ .

(٤) المخطط الكنسي المسمى (سير البيعة المقدسة) وهو كما سبق وقلنا ، ذيل الكتاب الذي وضعه الأسقف ساويرس بن المقفع بعنوان (سير الآباء البطاركة) . وكتاب (الحاكم بأمر الله) لمحمد عبدالله عنان ، ص ٦٩ .

بالمال) . وراح يعدد أمام الحاكم ما كان وما لم يكن من العيوب والمثالب التي أثارت سخطه ، فأصدر أمره بهدم الكنائس ومطاردة النصارى .

قال جرجي زيدان عند إشارته لهذه الحوادث في كتابه (تاريخ مصر الحديث) ج١ ص ٢٠٨ : «إن السبب الرئيسي لهذا الاضطهاد تقدم النصارى في أيامه حتى صاروا كالوزراء . وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن إبراهيم النصرانيين . . وكانت هناك يومئذ حرب بين الروم والمسلمين . فخرب الروم بعض جوامع المسلمين . فانتقم الحاكم منهم . .» .

ويبدو أن هذه الشدة التي استعملها الحاكم بأمر الله مع النصارى واليهود ، قد أحدثت أثراً سيئاً في البلاد ، فراح النصارى واليهود يفرون منها إلى الخارج ؛ ولهذا عاد الحاكم ، فندم . وألغى (٤١١هـ-١٠٢٠م) معظم القوانين والأوامر المتقدم ذكرها . وأطلق للنصارى واليهود الحرية والقيام بشعائرهم الدينية كما يشاءون . وسمح للنصارى بتجديد ما درس من كنائسهم وبيعهم وأديارهم . ورد لهم ما أخذه منهم . ليس هذا فحسب ، بل سمح للذميين الذين دخلوا في دين الإسلام كرهاً ، أن يرتدوا ويعودوا إلى دينهم الأصلي . فارتد كثيرون .

ومن السجلات الدالة على إطلاق الحرية للنصارى في إقامة شعائرهم وإعادة كنائسهم ، سجل إلى (نيقيفور) بطريك بيت المقدس ، يؤذن فيه بإقامة الصلاة في عرصة كنيسة القيامة وأطلالها . وقد أصدر بعدئذ أمره بتعمير الكنيسة المذكورة . وفي قول إنه أمر بتعميرها من ماله الخاص . ولكنه قضى قبل أن تعمر . وقد أعيد بناؤها في عهد المستنصر بالله . ولم يقتصر ظلمه على النصارى واليهود بل تعداه للمسلمين أيضاً . ولاختلاف المذهب بين الحاكم ورعاياه دخل كبير في ذلك . انظر مثلاً : فقد حدثنا المؤرخون ومنهم المقريزي[1] أن الحاكم أمر (٣٩٥هـ - ١٠٠٤م) بسب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة[2] . إنه لم يفعل ذلك سراً . بل أمر بأن تكتب أسماء هذا الرعيل من السلف الصالح - مقرونة باللعنات - على أبواب المساجد ، وعلى أبواب الحوانيت والدور والمقابر . ولما ضج الشعب لهذا الإجراء

---

(١) المقريزي ، ج٤ ، ص ٧٣ ، و١٥٨ و١٥٩ و١٦٠ .

(٢) (الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية) لمحمد عبدالله عنان . ص ٧٦ .

المثير ، تراجع الحاكم وأمر بالغاء المرسوم (٣٩٧هـ - ١٠٠٦م) . وأمر بمحو كل ما كتب على المساجد والدور والقبور .

وفي بعض الروايات أنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الجوهرية للدين الإسلامي : كالصلاة والصوم . ولكن لم يرد دليل قطعي على أنه عدلها . وأن كان ورد دليل على أنه ألغى صلاة الجمعة في رمضان والعيدين . وقد ألغى الزكاة والحج .

لسنا نريد أن نذهب إلى بعيد في تحليل العقيدة الدينية التي كان يعتنقها الحاكم بأمر الله ، ولكن لا بدل لنا من إشارة خاطفة إلى (المذهب الدرزي) الذي وضعت أسسه في تلك البرهة المليئة بالمفاجئات من الدهر . فنقول :

من الرجال الذين نشأوا في ذلك الزمان رجل يدعى (حمزة بن علي الزوزني) . ذكره المؤرخون فقالوا إنه هو مؤسس المذهب الدرزي . وقد اعتبروا ما كتبه[١] (انجيلاً) للدعوة الإلحادية التي كانت يبشر بها ، والتي تقوم على الاعتقاد بالوهية الحاكم .

وكان لحمزة بن علي هذا زميلان ساعداه في نشر الدعوة . وهما : محمد بن إسماعيل (أو انوشتكين) والحسن الفرغاني الملقب بالاخرم . بدأوا في نشر دعوتهم بمصر . ولما طوردوا نزلوا الشام . وفي الشام نشروا دعوتهم . فكانت أصل المذهب الذي يعتنقه الدروز في يومنا هذا . ويدعو حمزة في رسائله للتبرؤ من جميع الأديان الأولى . ويدعو الناس لدينه الجديد . وأهم ركن من أركان هذا الدين هو تأليه الحاكم بأمر الله . وكما نسخ محمد الشرائع التي سبقته ، فإن للحاكم الحق في أن ينسخ شريعة محمد . . ومن هنا جاءت مطاردته لأحكام الدين الاسلامي . ولكن دعوته بقيت محصورة في طائفة محدودة من الناس .

وفي زمنه[٢] ثار (المفرج الطائي) مرة أخرى على الدولة الفاطمية . فنزل على الرملة (٣٨٦هـ - ٩٩٦م) . ونهب أهلها . فأنفذ إليه أرجوان وصي الحاكم (جيش ابن الصمصامة بن عليان) فحاربه . واسترد الرملة منه . وهرب المفرج الطائي من بين يديه . ثم ثار ثانية فملك الرملة ، وما والاها . فخشي الحاكم عاقبة الأمر . فأرسل يسترضيه وابنه حساناً . فاصطلح الفريقان . ولكن الحاكم عاد فغدر بالاثنين . وأزاح

---

(١) هناك في دار الكتب المصرية طائفة من الوثائق الخطية كتبت بين سنتي ٤٠٨ و٤٠٩ للهجرة (١٠١٧م) ، وأهم هذه المخطوطات هو المخطوط الذي يحمل رقم ١٣٣ .

(٢) (تاريخ فلسطين) لعمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح .

حساناً وابنه المفرج وعشيرتهما عن أراضي الرملة . وأخذ ما كان لهما فيها من الحصون . ونهب أموالهما . ثم أمنهما على حياتهما . فاستسلما . وبعد أن أكرمهما وضع للمفرج من دس له السم . فمات . وظن الحاكم أنه ارتاح منه . غير أن ولده حساناً قام (٤٠٢هـ - ١٠١١م) يثأر . وعقد حلفاً مع (صالح بن مرداس) أمير بني كلاب و(سنان بن عليان) أمير الشام ؛ على أن تكون البلاد :

(أ) من حلب إلى عانه	لصالح بن مرداس
(ب) دمشق وملحقاتها	لسنان بن عليان
(ج) من فلسطين إلى مصر	لحسان بن مفرج الطائي

وقد استغاث به (أي بحسان بن مفرج) آل المغربي ، وكبيرهم أبو الحسن بن علي المغربي . وكان هذا قد خدم العزيز وزيراً في الشام . ولكن الحاكم في فورة من فوراته الفجائية غضب عليه وعلى ولده محمد ؛ فقضى عليهما واستطاع ولده الثاني أبو القاسم أن ينجو بنفسه . ففر من الشام . واستغاث بحسان . وكان هذا قد ارتفع إلى مقام الزعامة : لا ، لأسرة الجراح وحدها ؛ بل لفلسطين كلها . وكان آل الجراح من ألد الخصوم للدولة الفاطمية .

فثار حسان . وزحف على الرملة . واستولى عليها . وقتل حاكمها . واستدعى حسان وعترته آل الجراح ، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب ، وسنان بن عليان أمير الشام ؛ استدعوا (الحسن بن جعفر الحسني) أمير الحرمين . فنادوا به خليفة علوياً مكان الحاكم . وسمي الحسن (أمير المؤمنين الراشد لدين الله) . ودخلت القدس يومئذ في طاعته .

وبعث الحاكم جنده إلى فلسطين . يقودهم (يارتكين) العزيزي . إلا أن بني الجراح تقووا عليهم . وبسطوا نفوذهم على جنوب الشام كله . وبعد ذلك اصطلح الفريقان . فعاد الحسن بن جعفر إلى مكة . وعاد الحاكم ، فبسط سيادته على هذه البلاد .

وإنك لواجد الخبر اليقين عن هذه المعارك التي وقعت في فلسطين أيام الحاكم بأمر الله في نهاية الأرب (ج٢٦ ص ٥٦) والأنطاكي (ص٢٠١) والمقريزي (ج٣ص٢٥٥) . وابن خلدون (ح٤ص٥٧) والنجوم الزاهرة (ج٤ص٢٢٢) والحاكم بأمر الله (ص١٠٢) .

وتولى الخلافة الفاطمية الظاهر لإعزاز دين الله بعد أبيه الحاكم بأمر الله . وسيطر

الظاهر على هذه البقعة من الأرض من سنة ٤١١ إلى ٤٢٧هـ (١٠٢٠-١٠٣٥م)[1] .

وفي عهده توفي محمد بن إبراهيم بن محمد أبو الفتح الطرسوسي المجاهد في سبيل الله . استوطن بيت المقدس بنية الرباط ، وتوفي به (٤٠٨هـ-١٠١٧م) .

من الحوادث التي وقعت في القدس على عهد الظاهر لإعزاز دين الله ، أن النصارى تمتعوا بحريتهم الدينية على مقياس واسع . فسمح للذين غيروا معتقدهم على عهد أبيه الحاكم بأمر الله أن يرجعوا إلى حظيرة دينهم القديم . وأعيد بناء الكنيسة المتهدمة . ولقد تم ذلك عملاً بالهدنة التي عقدت مع الروم (٤١٨هـ - ١٠٢٧م) . إذ أعاد الروم بناء جامع القسطنطينية ، وأعاد هو بناء كنيسة القيامة . قال الأنطاكي[2] إن الظاهر شرع في بناء سور القدس . وخرب المتولون لعمله كنائس كثيرة في ظاهر المدينة وأخذوا حجارتها إلى الأسوار . وحدث زلزال كبير على عهده .

وفي خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي زلزلت الأرض (٤٠٧هـ - ١٠١٦م) . فسقطت على أثرها بعض أجزاء القبة الكبيرة في مسجد الصخرة وقسم كبير من سور الحرم . فرممت في خلافة ولده الظاهر لإعزاز دين الله (٤١٣هـ - ١٠٢٢م) . وكانت يومئذ مغطاة بالرصاص من الخارج وبالفسيفساء من الداخل . وقد تم تعميرها على يد (علي بن أحمد) المنقوش اسمه على الأخشاب الملصقة في صدغ الدهليز الذي في رقبة القبة . وقيل[3] إن الحاكم بأمر الله نفسه هو الذي قام بتعميرها يومئذ . فأصلح القبة القديمة وضرب عليها قبة أخرى من الخشب لتقيها من عبث الأمطار وتأثير الأجواء .

وفي زمن الخليفة المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله (٤٢٧هـ - ١٠٣٦م) اتسع سلطان الفاطميين ، وامتد من المغرب ومصر إلى خراسان وفارس . ثم عاد ينكمش . وعلى عهده كثرت الزلازل في مصر والشام (٤٦٠هـ-١٠٦٧م) فانثلم سور القدس . وانشقت الصخرة .

وفي سنة ٤٥٨هـ - ١٠٦٦م أمر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله بتجديد الواجهة الشمالية للمسجد الأقصى وسجل هذا التجديد في كتابة كوفية حفرت بالحجر على

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٢٤٢ .

(٢) يحيى بن سعيد بن يحيى (٤٠٥هـ) ، مؤلف كتاب (تاريخ الذيل) تتمة ابن البطريق .

(٣) (الرحلة الحجازية) لمحمد لبيب البتنوني ، طبع بمصر . ص ١٦٣ .

الواجهة الشمالية للرواق الأوسط هذا نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم . وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . أمر بعمل هذا الوجه مولانا وسيدنا معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى سلفه وخلفه ، في نظر الأمير الأجل الأعز علم الملك نصر الدولة ذي الفضيلتين . وجرى ذلك على يد الفاضل أبي الحسين عبدالرحمن بن الحسن بن علي الأنصاري المعروف بالأجوف سنة ثمان وخمسين وأربعمائة» .

ظل الكثير من بناء الظاهر قائماً إلى ما قبل التعميرات التي تمت في السنين الأخيرة .

مثلاً فيما يعلو العقود التي تحمل القبة ، والفسيفساء المذهبة التي ما زالت موجودة إلى الآن ، والرواق الأوسط باعمدته ، وما يعلوها ، وبعض الأعمدة والعقود في القسم الشرقي . والمرجح أن مساحة المسجد من الداخل أيام الظاهر هي نفس مساحته الحالية أي ٨٠ متراً طولاً و٥٥ متراً عرضاً .

وفي ١٠ محرم سنة ٤٢٥هـ (١٠ كانون الأول ١٠٣٣م) حدث زلزال آخر . فخرب المسجد الأقصى الذي عمره المهدي خراباً ظاهراً . فعمره الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله في السنة التالية (١٠٣٤م) مبقياً ما أمكن إبقاؤه من البناء السابق . ولم يغير من تخطيطه العباسي سوى تضييقه من الشرق والغرب بحذف أربعة أروقة من كل جانب . فأصبح يكتنف الرواق الأوسط الكبير ثلاثة أروقة فقط من كل جانب . والمعتقد أن القبة الحالية والأبواب السبعة التي في شمال المسجد هي من صنع الظاهر لإعزاز دين الله . وتحتوي الفسيفساء الذهبية التي تحلي الواجهة الشمالية للعقد الذي يحمل القبة كتابة[1] بالخط الكوفي تشير إلى ذلك التجديد هذا نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم . سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله . جدد عمارته مولانا علي أبو الحسن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الأكرمين ، على يد أبي محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن أثابه الله ، وتولى

---

(١) اكتشف المهندسون هذه الكتابة اثناء قيامهم بالتعميرات التي جرت في الأقصى سنة ١٩٢٥ . اقرأ ما كتباه عن تلك التعميرات في كتابنا : (تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك) .

ذلك الشريف أبو القاسم ابن أبي الحسن الحسين سنة ٤٢٧ أعانه الله» .

وتوفي (٤٦٠هـ - ١٠٦٧م) أحمد بن محمد بن عقيل الشهرزوري الإمام الفاضل والأديب الشاعر . توفي في القدس ودفن فيها[١] . ومن شعره :

واحسرتا مات حظي من قلوبكم
وللحظوظ كما للناس آجال

كان المستنصر ضعيفاً[٢] . فقويت شوكة الأتراك في زمنه (٤٥٨هـ - ١٠٦٦م) . وراحت البلاد نهباً مقسماً بين الأتراك والعبيد . فكتب إلى بدر الجمالي صاحب الشام يطلب منه أن يأتي بجيشه إلى مصر ليوليه عليها . فقبل هذا مشترطاً أن يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من أهل الشام . وسافر من سوريا إلى عكابرا ، ومنها إلى مصر بحراً (٤٦٧هـ - ١٠٧٤م) . فقضى على أمراء المستنصر . فقلده هذا وزارة السيف والقلم ، ولقبه (أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين) . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية .

اغتنم الأمير[٣] اتسز بن أوق الخوارزمي أحد الأمراء التركمانيين غياب بدر الجمالي عن سوريا ، فقدم إليها غازياً ؛ فاستولى على بيت المقدس[٤] وطبرية وما بعدها حتى دمشق . ثم تحول إلى مصر في ٢٠ ألف مقاتل . وعسكر بالقرب من القاهرة . فصالحه بدر الجمالي على ١٥٠ ألف دينار ، يدفعها له بعد خروجه من مصر . ثم هاجمه وتغلب عليه . وخسر التركمان على أثر تلك المعركة جميع البلاد التي افتتحوها في سوريا . فدخلت في حوزة الخليفة المستنصر . ومات بدر الجمالي في مصر (٤٨٧هـ - ١٠٩٤م) بعد أن حكم فيها عشرين سنة . وبعده ببضعه أيام توفي الخليفة المستنصر .

من المعاهد التي كانت لها شأن عظيم في القرنين الرابع والخامس الهجري (دار العلم الفاطمية) ببيت المقدس[٥] . وكانت هذه الدار فرعاً لدار العلم الفاطمية التي

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٨١ .

(٢) تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ، ج١ ، ص ٢٢٥ .

(٣) تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ، ج١ ، ص ٢٢٧ .

(٤) في النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٨٧ ، آن اتسز بن أوق دخل القدس سنة ٤٦٣هـ - ١٠٧٠م .

(٥) (المعاهد المصرية في بيت المقدس) للأستاذ أحمد سامح الخالدي ، ص٤ .

أسسها في القاهرة الحاكم بأمر الله (٣٩٥هـ-١٠٠٤م) .

إن أحسن وصف لمدينة القدس، على عهد الخلفاء الفاطميين، نجده في كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي(١) . فقد كانت فلسطين على عهده جزءاً من الشام . وكانت الشام يومئذ مقسمة إلى ستة ألوية(٢) هي :

١ . قنسرين - عاصمتها حلب (ومن اعمالها انطاكية ومرعش واسكندرونه وحماه ومعرة النعمان) .

٢ . حمص - عاصمتها حمص (ومن أعمالها السلمية وتدمر واللاذقية وجبلة) .

٣ . دمشق - عاصمتها دمشق (ومن أعمالها الغوطة وبانياس وحوران والجولان والحولة والبقاع) .

٤ . الأردن - عاصمتها الرملة (ومن اعمالها بيت المقدس وبيت جبرين وغزة وعسقلان ويافا وارسوف وقيصرية ونابلس وأريحا وعمان) .

٦ . الشراة - عاصمتها صفار (ومن أعمالها مؤاب وتبوك ومدين ومعان) .

وصف المقدسي جميع هذه المدن . ولما جاء إلى ذكر بيت المقدس(٣) ، قال :

«بيت المقدس ليس في مدائن الكور أكبر منها . لا شديدة البرد، وليس بها حر، وقل ما يقع بها الثلج . سألني ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت: سجسج، لا حر ولا برد شديد . قال: هذه صفة الجنة . . بنيانهم حجر، لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا

---

(١) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الملقب بالمقدسي . ولد في بيت المقدس (سنة ٣٣٦هـ - ٩٤٦م) . وهو ينتمي إلى أسرة البشارى التي استوطنت بيت المقدس منذالفتح الإسلامي . أمه تنتمي إلى أسرة أصلها من (بيار) في ولاية جرجان من بلاد الفرس . التقط حب البناء من جده لابيه أبي بكر . إذ كان هذا معمارياً ماهراً .وكان ضليعاً في العلوم الدينية والقضائية، وفي الجغرافيا والشؤون الاقتصادية والتجارية . وعندما بلغ العشرين من عمره حج إلى بيت الله الحرام . ولم يكتب كتابه الذي ذكرناه في الأسطر المتقدمة والذي بز به من تقدمه من الجغرافيين العرب، إلا بعد أن بلغ الاربعين من عمره . وكان قد جاب البلاد والامصار، ودرس الطبائع والاحوال . كان كاتباً وشاعراً من طراز عال .

(٢) جمع (لواء) وهو ما نسميه اليوم بالمنطقة أو الكور كما قال المقدسي نفسه في كتابه .

(٣) (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) ص ١٦٥ .

أكبر من مسجدها ، ولا أكثر من مشاهدها . عنبها خطير ، وليس لمعنقتها نظير . وفيها كل حاذق وطبيب . وإليها قلب كل لبيب . ولا تخلو كل يوم من غريب» .

«كنت يوماً في مجلس القاضي المختار ، أبي يحيى ابن بهرام بالبصر . فجرى ذكر مصر . إلى أن سئلت : أي بلد أجل . قلت بلدنا . قيل : فأيها أكثر خيرات . قلت : بلدنا قيل : فأيها أكبر . قلت بلدنا . فتعجب أهل المجلس من ذلك . وقيل : أنت رجل محصل . فقد ادعيت ما لا يقبل منك . وما مثلك إلا كصاحب الناقة مع الحجاج . قلت : أما قولي أجل ، فلانها بلدة كمعت الدنيا والآخرة وجد سوقها . ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وحدها . وأما طيب الهواء فإنه لا سم لبردها ولا أذى لحرها . وأما الحسن فلا ترى أحسن من بنيانها ، ولا أنظف منها ، ولا أنزه من مسجدها . وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال ، والأشياء المتضادة كالاترجة واللوز والرطب والجوز والتين والموز . وأما الفضل فلأنها عرصة القيامة ومنها المحشر وإليها المنتشر . وإنما فضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي ﷺ ، ويوم القيامة تزفان إليها فتحوي الفضل كله . وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها . فأي أرض أوسع منها . فاستحسنوا ذلك ، وأقروا به» .

«إلا أن لها عيوباً عدة . يقال إنه مكتوب في التوراة : «بيت المقدس طشت من ذهب مليء بالعقارب[1]» ثم لا ترى أقذر من حماماتها . ولا أثقل مؤنة . قليلة العلماء . كثيرة النصارى . وفيهم جفاء . . ضرائب ثقال على ما يباع رجالة على الأبواب . فلا يمكن أحداً أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس إلا بها مع قلة يسار . وليس للمظلوم أنصار . والمستور مهموم . والغني محسود . والفقيه مهجور . والأديب غير مشهود . لا مجلس نظر ولا تدريس . قد غلب عليها النصارى واليهود . وخلا المسجد من الجماعات والمجالس . وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة .

«عليها حصن بعضه على جبل وعلى بقيته خندق . ولها ثمانية أبواب حديد : باب صهيون ، باب التيه ، باب البلاط ، باب جب ارميا ، باب سلوان ، باب اريحا ، باب العمود ، باب محراب داود . الماء بها واسع . ويقال ليس ببيت المقدس أحسن

---

(١) جاء في (اتحاف الاخصا) ، ص ٦١ عن صفوان بن عمر أنه قال : - قال الفقيه أبو المعالي المشرف :ـ «ويعني بالعقارب بني إسرائيل الذين كانوا يعملون فيه بمعاصي الله تعالى حتى عمهم من البلاء ما عمهم» .

من الماء والأذان . قل دار ليس بها صهريج وأكثر . وبها ثلاث برك عظيمة : بركة بني إسرائيل ، بركة سليمان ، بركة عياض . حماماتهم لها دواع من الأزقة . وفي المسجد عشرون جباً متبحرة . وقل حارة إلا وفيها جب مسبل . غير أن مياهها من الأزقة . وقد عمد إلى واد فجعل بركتان يجتمع إليهما السيول في الشتاء . وشق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع ، فتملأ صهاريج الجامع وغيرها» .

وصف المقدسي مسجد الصخرة . فقال : إن قبته مكونة من ثلاثة أقسام : الأول من ألواح مزوقة . والثاني من أعمدة حديدية شبكت لئلا تميلها الرياح . والثالث من خشب عليه الصفائح . وفي وسطها طريق إلى عند القضبان الحديدية يصعدها الصناع لتفقدها وترميمها . فإذا بزغت الشمس على القبة أشرقت . وتلألأت المنطقة . ورأيت شيئا عجيباً» .

ومضى المقدسي في وصفه يقول : «إن مسجد الصخرة بناء مستدير . تعلوه قبة مرتكزة على منطقة محاطة بست عشرة نافذة . محمولة على أربعة أركان من الرخام الأبيض ، واثني عشر عموداً ، بين الركن والآخر ثلاثة أعمدة . ويحيط بهذه الدائرة بناء مثمن الشكل طول كل ضلع منه ٢٠ متراً و٥٩ سانتيمتراً وعلوه تسعة أمتار ونصف . كلها مكسو بالرخام الأبيض المشجر والمرقش . ويحتوي كل ضلع على سبع طاقات : اثنتان في الطرفين مسدودتان والخمسة مركب عليها الزجاج . ومن ظاهرها الشبابيك الحديد . وهناك مثمن آخر بني بين الدائرة الداخلية وجدران المسجد الخارجية . ويعلو هذه التثمينة قناطر محمولة على ثمانية أركان مؤزرة بالرخام المشجر والملون وستة عشر عموداً . وهذه الأعمدة التي بينها بساطل ملبسة بالنحاس الأصفر المنقوش بالذهب . ويعلو البساطل قناطر كلها مزينة بالفصوص المذهبة البديعة والمزينة بأنواع التشجير والتنميق . وقد نصب على هذه سقف مائل من الخشب مصفح بالرصاص» .

وبعد أن وصف المسجد الأقصى وصفاً دقيقاً ، قال(١) :

«سلوان محلة في ربض المدينة تحتها عين عذيبية تسقي جناناً عظيمة . أوقفها عثمان بن عفان على ضعفاء البلد . تحتها بئر أيوب . ويزعمون أن ماء زمزم يزور ماء هذه العين ليلة عرفة . وادي جهنم على قرنة المسجد إلى آخره قبل الشرق . فيه

(١) ذكرنا ما قاله المقدسي عن المسجد الأقصى في كتابنا : (تاريخ الحرم القدسي) .

بساتين وكروم وكنائس ومغاير وصوامع ومقابر وعجائب ومزارع . في وسطه كنيسة على قبر مريم . ويشرف عليه مقابر فيها شداد بن أوس الخزرجي ، وعبادة بن الصامت . وجبل زيتا مطل على المسجد شرقي هذا الوادي ، على رأسه مسجد لعمر نزله أيام فتح البلد ، وكنيسة على الموضع الذي صعد منه عيسى (عم) ، وموضع يسمونه الساهرة . وحدثوني عن ابن عباس أن الساهرة هي أرض القيامة : بيضاء لم يسفك عليها دم» .

وفي مكان آخر من كتابه[1] قال :

«سكان بيت المقدس كلهم شيعة . ولا ماء فيه للمعتزلة . وإنما هم في خفية . ولا ترى به مالكياً ولا داودياً . ولأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرأون في دفتر . وكذلك الكرامية في خوانقهم . والتجارات به مفيدة . يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون . ومن بيت المقدس الجبن والقطن والزبيب العينوني والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والإبر» .

وهناك وصف آخر لمدينة القدس ، على عهد الفاطميين ، في (سفر نامة) . ذلك السفر الممتع الذي ألفه (ناصري خسرو)[2] . وقد دوّن فيه أنباء الرحلة التي قام بها من وطنه ايران ، إلى بلاد الحجاز ، والتي دامت قرابة سبع سنين (١٠٤٥ - ١٠٥٢م) . وقد عرج خلالها على بيت المقدس (٤٣٨هـ ١٠٤٧م) . ثم رجع إليهما مرة

---

(١) ص ١٧٩ - ١٨٢ .

(٢) أبو معين ناصري بن خسرو ، ولد في قرية من أعمال بليخ سنة ٣٩٤هـ - ١٠٠٣م وقيل إنه يرجع في نسبه إلى الإمام علي . كان يشغل منصباً إدارياً هاماً في ولاية خراسان من أعمال الدولة السلجوقية . قضي ناصري خسرو ، حسب اعترافه ، معظم حياته مدمناً الخمرة ، وفيما كان يتجول في يوم من الايام ، بين بلخ والمرو متفقداً شؤون المنطقة التي عهد إليه بإدارتها ، رأى في نومه شبحاً وكأن هذا الشبح كان يؤنبه لاستهتاره واكثاره من شرب الخمر . فما كاد يفيق من نومه حتى تاب . واعتزم السفر إلى بلاد الحجاز ؛ ليحج . وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى استقال من منصبه ، وغادر وطنه ميمماً شطر الحجاز . وفي طريقة إليها عرج على بيت المقدس . وقد رافقه في رحلته هذه أخوه وعبده الهندي .

أخرى . فوصفها وصفاً دقيقاً . وإنا لذاكرون فيما يلي بعض ما قاله عنها(١) :
«دخلت بيت المقدس في اليوم الخامس من شهر رمضان سنة ٤٣٨هـ - ٥ آذار ١٠٤٧م . فأكون قد قضيت سنة كاملة في الطريق مذ غادرت بلدي بلخ . وكان سفري متواصلاً ، لم أسترح من عنائه إلا هنا . . إن السوريين وسكان البلاد المجاورة يسمون هذه المدينة : (بيت المقدس) أو (البيت المقدس) . ويسمونها أيضاً (القدس) . وكثيراً ما يحج هؤلاء إليها عندما لا تتيسر لهم وسائط الحج إلى مكة ، ويشبعون فيها رغباتهم الدينية . فيضحون فيها الضحايا ، ويتقربون إلى الله بالصلاة والعبادة . ويصل عدد الحجيج في بعض الأعوام إلى عشرين ألف . وكثيراً ما يأتي هؤلاء معهم بأطفالهم ليختنوهم بين جدرانها وبالقرب من مساجدها .»
«إن القرى والأرياف الكائنة حول بيت المقدس واقعة على سفوح الجبال . والأراضي مزروعة زرعاً جيداً . ينبت فيها القمح والتين والزيتون . كما ينبت فيها أنواع كثيرة من الأشجار . ورغم أنه لا يوجد بالقرب منها عيون جارية ، فإن الخصاب في زروعها كثير الوقوع . والأسعار معتدلة ، وكثير من الرؤساء يملك الواحد منهم ١٦٨٠٠ غالوناً من زيت الزيتون(٢) . والزيت يحفظ في الآبار والأحواض ، ويصدرونه إلى البلاد الأخرى .»
«القدس مدينة قائمة على تلال . تعيش على مياه الأمطار . ليس فيها ينابيع جارية . وإنما تكثر هذه في القرى المجاورة . يحيط بالمدينة سور منيع من الحجارة . وللسور أبواب حديدية . ليس فيها أشجار ، إذ إنها مبنية على الصخر .»
«القدس مدينة عظيمة جداً ، يقطن فيها عشرون ألفاً من السكان . فيها أبنية عالية وأسواق جميلة ، ومبنية بناء متقناً ونظيفة . أسواقها كلها مرصوفة بالبلاط .

---

(١) ننقل هذا الكلام عن النسخة الانجليزية المترجمة عن الأصل الفارسي . وقد ترجمها غاي لوسترينج Guy Le Strange في كتابه الذي اسماه :
Diary of a Journey through Syria & Palestine وقد طبع في لندن عام ١٨٩٦ .

(٢) وردت هذه الرواية في كتاب (رواد الشرق العربي) لمؤلفه الأستاذ نقولا زيادة . ص ٦٦ بالشكل الآتي . «يبلغ الدخل السنوي لبعض كبار المثربين نحوا من خمسين الف من زيت الزيتون (يقابل ٤٢٠٠ تنكة) . ويستعمل القار المجموع من مياه البحر الميت في طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار ، لحفظها من الديدان ويستعمله الصيادلة لاجل المحافظة على العقاقير من الحشرات» .

ولقد أزالوا التلال والمرتفعات ، فجعلوها منبسطة بحيث يتمكنون من تنظيف المكان كله بسهولة كلما هطل المطر .»

«فيها صناع كثيرون . ولكل صنعة سوق خاص بها . والمسجد قائم في الحي الشرقي إلى الجنوب من المدينة ، بحيث يؤلف القسم الشرقي لسور المدينة سور المسجد أيضاً . وعندما تخرج من المسجد ، ترى أمامك سهلاً فسيحاً منبسطاً يسمونه : (الساهرة[1]) . وعلى حدود هذا السهل تقوم مقبرة كبيرة .»

وفيه أمكنة يأتي الناس إليها للصلاة والدعاة إلى الله كي يقضي حاجتهم . . وبين المسجد والسهل واد كبير وعميق . وفي بطن الوادي ضرائح كثيرة ، ومقامات بنيت على الطراز القديم ، ومنها (طنطور فرعون[2]) . وهذا الوادي يسمونه (وادي جهنم) . ولقد قيل لي إن السبب في تسميته بهذا الاسم أن جيوش المسلمين كانت في الفتح الإسلامي معسكرة في سهل الساهرة ، وأنه لما جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأطل من هذا السهل على الوادي قال :

«حقاً إن هذا هو وادي جهنم . .» ويعتقد العوام أنك إذا وقفت على جانب من جوانب هذا الوادي ، سمعت صراخ أولئك الذين يعذبون في جهنم . ولكنني لم أسمع شيئاً» . .

«وعلى بعد نصف فرسخ من المدينة إلى الجنوب ، وفي أسفل الوادي ، تجد عيناً من الماء تنبع من الصخرة وتسمى (عين سلوان) . وحول العين أبنية عديدة . والماء يجري بانحدار من تلك العين إلى القرية حيث يقوم عدد كبير من المنازل والبساتين . ويقال إن من يغتسل بماء هذه العين من رأسه إلى أخمص قدميه يشفى من أوجاعه ، حتى ومن الأمراض المزمنة .»

---

(١) يقول المترجم ص ٢٤ أن هذا الاسم ورد في بعض النسخ غلطاً (السامرة) . وأن الأصل هو (الساهرة) أي السهل ، وهو المكان المنبسط الذي يؤلف القسم الشمالي من جبل الزيتون . كنا نريد تعليل قوله هذا بأنه يقصد السهل الفسيح الكائن غربي جبل الزيتون لا شماليه . وهو إلى الشمال من السور ، حيث يقوم الآن حي باب الساهرة ، لولا أنه بحث في السطور الأخرى عن واد عميق يفصل بين المسجد والسهل . وليس ثمة واد عميق سوى وادي جهنم الذي يفصل بين السور والطور .

(٢) قبر ابيشالوم .

«وفي المدينة بيمارستان[1] بديع جداً . وينفق على هذا البيمارستان مبالغ طائلة تأتي عن طريق البر والإحسان . ويعالج فيه عدد كبير من المرضى . والأطباء يتقاضون راتباً مقطوعاً» .

ثم وصف المسجد الأقصى والصخرة وصفاً دقيقاً . ذكرناه في كتابنا : (تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك) .

---

(١) إنه أول مستشفى أسس في بيت المقدس ، وهو من المعاهد الكبرى التي أسسها الفاطميون في هذه البلاد (المعاهد المصرية في بيت المقدس للأستاذ أحمد سامح الخالدي ص ٥) .

السلجوقيون أخلاط من الترك . إنهم أصل الأتراك العثمانيين . كان في مقدمتهم رجل يقال له (دقاق[1]) . وهذا أنجب (سلجوق) . وقد أسلم سلجوق ، وعاش في أنحاء بخارى . وكان يغزو الترك . ولماتوفي ترك ثلاثة أولاد : ارسلان وميكائيل وموسى . وخلف ميكائيل بيغو وطغرل واينال وجفرى وداود .

عظم أمر طغرل بك من هؤلاء الأمراء ، وكان شجاعاً ؛ فملك جرجان ، وطبرستان ، وخوارزم ، وهمذان ، والدينور . وهادنه ملك الروم . فعمر مسجد القسطنطينية ، وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك . ثم دخل بغداد (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م)[2] ولقب بالسلطان ركن الدين أبي طالب محمد طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق .

كان في بغداد يومئذ الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، فأبقاه . ولكنه قبض على الملك الرحيم أبي نصر وعلى قواده ، وأزال دولة بني بويه .

ولما توفي تولى الملك من بعده ابن أخيه عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان[3] بن جفري بك . ففتح هذا حلب ، وهزم الروم ، وكان جيشه لا يقل عن أربعمائة ألف مقاتل .

ثم استولى ألب أرسلان على القدس (٤٦٥هـ - ١٠٧٢م) والرملة . أخذهما من خلفاء مصر الفاطميين . وخطب للقائم العباسي . واتسع ملكه حتى امتد من الصين شرقاً إلى اقصى اليمن في الجنوب .

من رجال القدس الذين أشتهروا ، على عهد ألب أرسلان ، سلطان بن إبراهيم ابن المسلم المقدسي . وكان يكنى بأبي الفتح . ولد بالقدس[4] سنة ٤٤٢هـ - ١٠٥٠م وتفقه على الفقيه نصر المقدسي (أستاذ الغزالي) حتى برع في الفقه . كان من المؤلفين . وروى عنه الكثيرون .

---

(١) قال ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) ، ج٩ ، ص ٣٢٢ ، أن اسمه (تقاق) .

(٢) وعلى قول ابن الأثير ، ٤٣هـ - ١٠٤٥م .

(٣) ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق (خطط الشام ، ج١ ، ص ٢٦٢) .

(١) «أهل العلم بين مصر وفلسطين) للأستاذ أحمد سامح الخالدي ، ص٨ .

ولما مات ألب أرسلان تولى الملك ولده جلال الدولة أبو الفتح محمد ملك شاه، ولقب بالسلطان العادل.

وعلى عهده ثار المقدسيون على حاكمهم (٤٧٠هـ - ١٠٧٧م). فأرسل عليهم جيشاً بقيادة قائده (آتسز بن اوق) الخوارزمي. فحاصر هذا المدينة، وكان فيها عسكر مصري، ففتحها عنوة، ونهبها، وقتل أهلها؛ حتى إنه لم ينج منهم من احتمى بالمسجد الأقصى، ولكنه كف عمن عاذ بالصخرة[1].

جاء في تاريخ[2] غزة (أنه عندما أغار على القدس قتل من سكانها ثلاثة آلاف إنسان. ونهب أموالهم، وسبى نساءهم، واستعبد أحرارهم).

وقال الأستاذ محمد كرد علي[3]:

كان اتسز بن اوق التركماني ظالماً. حتى خلت البلاد من قاطنيها. فساد الجوع، واشتد الغلاء حتى بيعت غرارة القمح بأكثر من عشرين ديناراً، وقيل بمئتي دينار، هذا إذا وجدت. ومنع الأذان (حيى على خير العمل). وكان يعتقل الناس، فيفتدون أنفسهم بمال يؤدونه له. ويظهر أن فعاله هذه أدت إلى قيام ثورة في الشام. وأن الثورة سرت إلى فلسطين. وكان آتسز وأصحابه تركوا أموالهم بالقدس. فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم ونسائهم، فنهبوها. واستعبدوا الأحرار. فخرج آتسز من دمشق فيمن انضوى إليه، ودخل القدس، فقتل ثلاثة آلاف إنسان. واحتمى قوم بالصخرة والجامع، فقرر عليهم الأموال، لانه لم يقتلهم، وأخذ مالا كثيراً. ثم سار إلى الرملة فلم يجد بها أحداً. ثم سار إلى غزة، وقتل كل من فيها، فلم يدع عينا تطرف.

ومن عمال ملك شاه الذين تولوا إدارة بيت المقدس الأمير (ارتق بن اكسك[4]) التركماني. فقد كان هذا - قبل أن يتولى إدارة القدس - من مماليك[5] ملك شاه.

---

(١) البرغوثي وطوطح.

(٢) للمؤلف.

(٣) خطط الشام، ج١، ص ٢٦٤.

(٤) وعلى قول تغري بردى في النجوم الزاهرة ٥، ص ١٠٦، وابن خلكان، ج١، ص ٨٥، ارتق بن اكسب.

(٥) (دائرة معارف وجدي)، ج١، ص ١٤٦.

عمل تحت إمرته . ثم صار إلى تتش . وقيل إنه كان زعيماً للقبائل التركمانية التي أخرجها السلجوقيون من ضواحي بحر قزوين ، وساقوهم إلى سوريا ، فانتشروا فيها وفي فلسطين . وقد استولى على بيت المقدس[١] بحد السيف . وأسس فيها دولة عرفت بدولة الارتقيين (٤٧٠هـ-١٠٧٧م) .

وفي سنة ٤٨٤هـ - ١٠٩١م توفي ارتق[٢] عن ولدين :

الغازي[٣] وسقمان[٤] . فحكما معاً في بيت المقدس وسائر فلسطين وفي قسم من البلاد الواقعة غربي سوريا .

وصل عمال ملك شاه من الظلم والقسوة[٥] إلى درجة أن المسيحيين الذين كانوا يؤمون بيت المقدس بقصد الحج ، راحو يندبون سقوط حكومة الخلفاء العرب التي اشتهرت بتسامحها الديني ومساعدتها للمسيحيين في القيام بواجباتهم وطقوسهم الدينية . ولكن مهما يكن من أمر العمال ، فقد اتسعت[٦] مملكة السلطان ملك شاه اتساعاً عظيماً . فأطاعته البلاد جميعها . وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام . وأطاعته اليمن والحجاز . كان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة . وعمل أعمالاً خيرية كثيرة .

ولما مات ملك شاه ، ضبطت زوجته (توكان خاتون) العسكر ، وكتمت موته . ثم حلفتهم من أجل ولدها محمود . فتولى الملك من بعده . وقامت بينه وبين إخوته حروب لا نرى مجالاً لذكرها هنا . غير أنه لا بد من القول إن السلطان ملك شاه كان - قبل موته - قد أقطع أخاه تاج الدولة الأمير تنش بن السلطان ألب أرسلان مدينة دمشق وأعمالها وطبرية وبيت المقدس وغيرها (٤٨٦هـ - ١٠٩٣م) .

---

(١) (تاريخ مصر الحديث) لجرجي زيدان ، ج١ ، ص ٣٣٣ .

(٢) وعلى قول إنه توفي سنة ٤٨٣هـ - ١٠٩٩م (دائرة معارف وجدي) ، ج١ ، ص ١٤٦ .

(٣) كذا وردت في تاريخ مصر الحدث . وكتبها ابن ميسر في تاريخه (ابلغازي) . ووردت في النجوم الزاهرة (ايل غازي) .

(٤) كذا وردت في تاريخ مصر الحديث . وكتبها ابن ميسر في تاريخه (سكمان) . وكذلك وردت في النجوم الزاهرة .

(٥) The Decline & Fall of the Roman Empire Chap. 57. Gibbon.

(٦) (تاريخ الدولة الاتابكية) لابن الأثير ، ص ٢٣ .

ولكن هذا لم يهنأ بهاكثيراً . إذ ما كادت سنة ٤٨٩هـ[١] - ١٠٩٥م تهل ، حتى جاء الأفضل أمير الجيوش من مصر إلى القدس ، يسعى لتخليصها من الارتقيين . فسار إليها على رأس جيش جرار من مصر ، وكان بها - كما قدمنا - سقمان بن رائق وأخوه أيل غازي وابن عمهما سونج ؛ فحصر البلد ، ونصب عليها المنجانيق ، وقاتلهم أربعين يوماً . وأرسل أهل القدس فواطأوه على فتح الباب . وطلبوا منه الأمان ، فأمنهم . وفتحوا له الباب ، وخرج سكان من باب آخر . ومضى إلى الرها ، ومضى أخوه ايل غازي إلى بغداد .

ظل النزاع قائماً بين الفاطميين والسلجوقيين - الفاطميون متمسكون بالخلافة العلوية والسلجوقيون يميلون إلى الخلافة العباسية - إلى أن باغتهم الصليبيون . فرأى هؤلاء الطريق ممهدة لاحتلال البلاد . فاحتلوها فعلاً . وطردوا الفريقين منها .

(١) هذا ما جاء في النجوم الزاهرة . ص ٤٨٦ . وجاء في خطط الشام ، ج١ ، ص ٢٧٣ أن أمير الجيوش الأفضل حاصر القدس واحتلها سنة ٤٩١هـ - ١٠٩٦م . وايد هذه الرواية ابن ميسر في تاريخه ص ٤٦٢ . وأما ابنالعبري فإنه يقول (ص ٣٤٢) أن ذلك جرى سنة ٤٩٢هـ وأن المصريين وإن نصبوا المنجنيق نيفا واربعين يوماً إلا أنهم تملكوا بيت المقدس بالامان .

الباب الثالث
الحروب الصليبية و صلاح الدين

- القدس والحروب الصليبية
- القدس وصلاح الدين
- القدس وحفدة صلاح الدين

القدس والحروب الصليبية

زار بيت المقدس عام ١٠٩٣م عدد من الزائرين بينهم راهب إفرنسي يدعى (بطرس الناسك) . قابل هذه الراهب بطريك القدس سمعان ، واتحد الاثنان معاً حول ضرورة تخليص القدس من يد المسلمين . ولما رجع إلى بلاده ، أخذ معه رسالة استغاثة من البطريرك للبابا (اوربانوس الثاني) .

وراح يدعو الناس لإنقاذ المسيحيين في الأرض المقدسة من ربقة العبودية . وأنتشرت الفكرة بمساعي البابا الذي خطب معلناً ضرورة إنقاذ ضريح السيد المسيح من أيدي الكفار ، ومنحهم غفراناً تاماً من جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر . ووعد الذين يموتون فيها جنات الخلد (١٠٩٥م) . وأعفاهم من دفع الفوائد .

فهل كان المسيحيون حقاً مضطهدين في ذلك الحين . هذا ما نريد أن نعالجه في الأسطر التالية :

قال الأستاذ رئيف ميخائيل الساعاتي[١] : «إنصافاً للحق يجب أن نصرح بأن مسيحي فلسطين كانوا يعيشون مع المسلمين ، إخوانهم في الوطنية واللغة ، في سلام وصفاء . وكان الخلفاء يسندون الوظائف العالية إلى أصحاب المواهب منهم . أما الاضطهادات التي كانت تحيق بهم في بعض فترات التاريخ ، فترجع إلى شذوذ عقلية بعض الملوك الذين لم ينج المسلمون أنفسهم من أذاهم . فإذا كان ملك مستبداً عاتيا ، فمن الظلم أن نقيس عليه سائر الملوك» .

وقال الأستاذ (سيد أمير علي)[٢] في الصفحة ٢٧٦ من كتابه (تاريخ العرب والتمدن الإسلامي[٣]») :

«كان المسيحيون منذ تأسيس الدولة الإسلامية مغمورين بفيض من الكرم والتسامح ، فكانوا يؤدون مراسيمهم الدينية بالحرية التامة ، ويتمتعون بحقوقهم المدنية كاملة غير منقوصة ، ويتنقلون في أنحاء الإمبراطورية حسبما يشاؤون وأينما يبتغون .

---

(١) مجلة (الراعي الصالح) الجزء السابع ، ص ١٣٣ في ٣٠ سبتمبر ١٩٤٠ .

(٢) العضو في مجلس شورى الملك بانكلترا ومؤلف (روح الإسلام) و(القانون الإسلامي) .

(٣) ألف هذا الكتاب اللغة الإنكليزية وعنوانه :

A Shor History of the Saracens وترجمه إلى اللغة العربية رياض رأفت ، وطبع في القاهرة ، ١٩٣٨ .

ويتكاتبون مع أمراء الدول الأجنبية دون لوم أو تثريب ، كما كان لهم الحق في تملك الضياع والأرضين . وعلى الجملة كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون .

«أما مناصب الدولة فكانت مفتوحة أبوابها أمامهم دون تفرقة بينهم وبين المسلمين ، باستثناء ايام الحكام المتعصبين . وكانت الكنائس والأديرة المسيحية قائمة في كل مكان . وكان الحجاج المسيحيون يؤمون القدس من كل حدب وصوب بسلام آمنين ولم يتيسر لهم ذلك إلا بفضل احتلال العرب لتلك البلاد . وفي بيت المقدس الذي يحترمه معتنقو الديانة الإسلامية والمسيحية ، خصص حي كامل لسكنى البطريرك والكهنة (١٠٦٣-١١١٠م) .

ولكن بعض المتهوسين من الحجاج لم يكونوا ليخففوا من غلوائهم ومعتقدهم أن المسيحيين مظلومون . وكانوا ينظرون إلى بقاء المسلمين في القدس بعين البغض والاستنكار . وكانوا يعودون إلى بلادهم وقلوبهم مملوءة بالحسد والحقد» .

من هنا نشأت الحروب الصليبية .

وعندما وصف المقدسي (بيت المقدس[١]) في أثناء رحلته قال عنها ما يأتي : «حيثما ذهبت وجدت اليهود والنصارى أصحاب الكلمة العليا» . والمقدسي كما هو معروف ، زار بيت المقدس (٩٨٥م) قبل الحروب الصليبية (١٠٩٣م) . بقرن او يزيد . وروايته هذه تدل على أن النصارى كانوا يومئذ معززين غير مضطهدين . وهذا يناقض السبب الذي اختلق بعدئذ لأجل القيام بالحملة الصليبية على بيت المقدس .

ولقد أيد هذه الرواية (غاي لوسترينج) في مقدمة كتابه[٢] فقال : «يجدر بنا أن نعترف أن المسيحيين لم يكونوا بمضطهدين ذلك الاضطهاد الذي اتخذوه سبباً لحملاتهم الصليبية» .

إذاً ما هي الأسباب الحقيقية للحملات الصليبية؟ يقول الروم[٣] :

«إن الغاية الظاهرة من الحروب الصليبية تخليص الأراضي المقدسة من يد المسلمين . ولكن الصليبيين أظهروا بفعالهم أن غايتهم الحقيقية هي الاستيلاء على الأراضي المقدسة وجعلها لاتينية ، وأن يلاشوا الارثوذكسية منها» .

---

(١) اقرأ ما قاله عنها بالتفصيل في فصل الفاطميين .

(٢) "Description of Syria including Palestine" by Guy Le Strange.

(٣) تاريخ الكنيسة الرسولية الاورشليمية . ص ٧١-٧٢ .

وأما اللاتين فإنهم ينكرون هذا القول ، ويدحضونه بشدة ، ويقولون إن الغاية الحقيقية هي تخليص (قبر المسيح) من يد المسلمين .

ويقوم فريق آخر من هؤلاء ، فيعترف أن الغاية من الحروب الصليبية ، لا هذه ولا تلك ؛ وإنما هي غاية تجارية بحتة» .

من أحسن ما قيل في أسباب الحملات الصليبية القول التالي[1] :

«إن البابوات بعد أن وقفوا على شغف العالم الأوروبي بالثقافة العربية ، حيث كان يترتب على الذين يريدون الوقوف على حضارة عصرهم أن يجيدوا اللغة العربية ، والعربية ، وللعربية فلسفة ، وفلسفتها تناقض الإنجيل . وكان العرب قد سادوا العالم بالقرآن . وكاد صوت المؤذن يتغلب على صوت الناقوس . وكاد العرب يشكلون خطراً على أوروبا في دينها ودنياها . لذلك سعوا لمقاومتها بطرق مختلفة ، منها :

١ . تحريم الفلسفة الإسلامية والآخذين بها .

٢ . تشييد مدارس لتعليم العربية والعبرية والكلدانية في أشهر عواصم أوروبا .

٣ . إنشاء رهبنة الإخوة الوعاظ (أي الدومينيكيين) وتثقيفهم الثقافة العربية . وجعلوا دستورهم التبشير بالمسيحية ، والرد على القرآن .

«ولقد أذكى الأمراء في الشعب عاطفته الدينية . فقالوا له : (أنت مسيحي) . وصوّروا له المغارة التي ولد فيها المسيح ، وكرم الزيتون ، والعشاء السري ، وطريق الجلجلة ، وقبر المسيح ، مخضباً بالدم! ثم قالوا له : أيجوز أن يبقى قبر المسيح بيد محمد وجماعته؟ وقد وصفوا له محمداً النبي العربي الكريم بعبارات تدل على جهل وتعصب لا يبررهما إلا تغرّض وإرادة يرميان إلى استفزاز شعور العامة على قتال المسلمين» .

وقال هنري ايمرسن فوسديك في كتابه (حجة إلى فلسطين[2]) : «إن الحافز الأساسي للحملات الصليبية لم يكن سامياً بالشكل الذي حاولوا إفهامه للناس . فقد أماط البابا أوربانوس اللثام عن الحقيقة عندما نادى إليه الأمراء الإقطاعيين الذين كانوا دوماً يقتتلون ، وقال لهم : إذا كان لا بد من إراقة الدماء ، فهاكم الكفار! . اذهبوا

---

(١) (المستشرقون) لنجيب العقيقي وهو لبناني مسيحي . ص ٤٢-٤٥ ، طبع بيروت ١٩٣٢ .

(٢) A Pilgrimage to palestine by Harry Emerson Fosdick, p. 255 Student Christian Movement Press, London.

إليهم وغمسوا أيديكم بدمائهم . . . ولئن كنت أحدثكم بهذه الخشونة فما ذلك إلا لأن رسالتي تحتم علي ذلك . . فيا جنود الجحيم ، كونوا جند الله الذي لا يموت! . .»

إلى أن قال فوسديك : «ومن هذا يفهم أنه كتب عليهم مقاتلة المسلمين لئلا يقتل بعضهم بعضاً . فكانت النتيجة أنهم قاتلوا المسلمين واقتتلوا . . فقد حدثنا التاريخ أن العداوة والبغضاء تأصلتا بين مختلف الطوائف المسيحية بالأستانة ، لدرجة أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية فيها قتلوا بضعة آلاف من اللاتين ومن رجال الكنيسة الكاثوليكية . وباعوا زهاء أربعة آلاف آخرين في الأسواق بيع العبيد ، فاشتراهم المسلمون ، وراح الأرثوذكسيون يصلون صلاة الشكر لله ، عنما قطعوا رأس أسقف من أساقفة اللاتين ، وربطوه بذنب كلب ، وجروه في شوارع المدينة .»

قال المؤرخ الفرنسي (مكسيموس موند[١]) ما يأتي :

«عقد البابا اوربانوس الثاني الاجتماع الأول لأجل ترتيب الحملة الصليبية في مدينة (بلاصانس) ، حيث اجتمع ما يزيد على مئتي أسقف ورئيس أساقفة وأربعة آلاف اكليركي وثلاثين ألفاً من العلمانيين المنتمين إلى مختلف الأقطار والأمصار . اجتمع هؤلاء في الهواء الطلق في مكان فسيح خارج المدينة . فقرروا إرسال حملة صليبية إلى أورشليم ، ليأخذوا قبر المسيح من أيدي المسلمين» .

«ولكن . يظهر أن الاجتماع الأول لم ينجح . فقد انعقد بعد حين (١٠٩٥م) اجتماع ثان في مدينة كليرمون ، وكان الفصل شتاءً والبرد قارساً . خطب البابا . وخطب بطرس الناسك . فادعى : أنه شاهد المسيحيين مثقلين بالسلاسل الحديدية ، يعاملون معاملة الأسرى والعبيد . وأنه رأى قبر المسيح مهاناً ، وزواره مضطهدين من قبل أعداء الله والبشر .»

إلى أن قال[٢] : «إن كهنة الرب فقراء وأذلاء! يجرّون من داخل الكنيسة إلى الخارج ، حيث يضربون ويقتلون»! عندئذ تقرر القيام بحملة صليبية واسعة ، لتخليص القدس وقبر المسيح من يد المسلمين!

---

(١) ألف كتاباً باللغة الإفرنسية ترجمة مكسيموس مظلوم إلى العربية بعنوان : (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق) . وأقواله هذه وردت في الصفحة ٧ من الترجمة العربية ، طبعت في اورشليم ١٨٤١ . ومكسيموس هذا هو بطريك انطاكيا والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق .

(٢) تاريخ الحروب المقدسة ، ص١٠ .

هرعت الجموع للاشتراك في الحملة الأولى . فريق منهم محارب . وآخرون فلاحون التحقوا بالحملة على أمل الغنم ، سواء من الناحية المادية أو المعنوية ؛ رجال ونساء . قسس ورهبان . بعضهم مشاة على أقدامهم ، والبعض راكبين خيولهم أو بغالهم أو حميرهم . والبعض الآخر على عجلات . والفريق الراكب هم الأمراء . إنهم كانوا مدججين بالدروع والسيوف والرماح . ومن ورائهم الخدم وأفراد الحاشية . وأما الجنود المشاة فبأيديهم الأقواس والنشاشيب (السهام) . جهلة لا قائد لهم ، ولا آمر ، ولا رادع : كل يغني على ليلاه . وكثيراً ما اختلفوا ، وتضاربوا ، وتقاتلوا ، لا نظام ، ولا ترتيب ، ولا مواقيت معينة للسفر والراحة . وقصارى القول : فوضى لا سائس لها ولا زاجر . حتى إن بطرس الناسك نفسه شكا من سلوكهم وسماهم[١] لصوصاً لا يستحقون رؤية قبر المسيح» .

قال مكسيموس موند[٢] : **إن الحملة الصليبية الأولى** كانت مؤلفة من ثلاثمائة ألف مقاتل . وقال آخرون غير ذلك . والحقيقة إنه يجب علينا أن نتلقى كل ما قيل عن عدد الصليبيين الذين اشتركوا في الحملات الصليبية بالحيطة والحذر . إن المؤرخ فالشر Fulcher نفسه الذي رافق الحملة الأولى يعترف[٣] أنه لا الكاتب ولا القارئ الاعتيادي اللذين عاشا في ذلك الزمن ، كان باستطاعتهما أن يفهما الأرقام فهماً حقيقياً . الأرقام الرومانية وإن كانت مستعملة في ذلك العهد ، إلا أنه ما كان من السهل قراءة ستة أرقام مكتوبة على صف واحد ، أو إدراك المعنى الحقيقي الذي كانت ترمز إليه هذه الأرقام . حتى إن الكُتاب الذين رافقوا الحملات الصليبية ، إذا ما أرادوا وصف جسامتها ، كانوا يكتفون بالقول «إنها مؤلفة من عدد لا يحصى» أو «إنهم كرمل البحر» و«أوراق الخريف» وغير ذلك من العبارات الغامضة . وقد استنتج فالشر وأوغست وغيرهما من المؤلفين ، إنه ليس بالإمكان تعيين عدد الصليبيين الذين اشتركوا في الحملات الصليبية بالضبط . أضف إلى ذلك أن قسماً من الذين سجلوا أسماءهم في بادئ الأمر قد تخلوا عن الحملة في الطريق أوهربوا منها . وهناك آخرون التحقوا بها . وما كان عددهم ثابتاً بالمرة .

---

(١) ص ١١ .

(٢) وتاريخ الحروب المقدسة ، ص٢٩ .

(٣) The First Crusade by August C. Krey p.16 printed in London, 1921.

لم يكن لهذه الحملة قائد عام [1] . وإنما كان لها قواد كثيرون نذكر منهم : - بطرس الناسك[2] ، غودفري دوبويون(٣ . اويستاس غويتار[4] . غوشالك الكاهن[5] . الكونت اميكون[6] بوهيموند تارنتوم[7] . تنكريد ريموند اوف طولوز[8] . اوسطاكيوس[9] . بلدوين [10] . جرارد . غرنيل . روبرت الملقب بـ(قورت هاوز)[11] . الكونت روبرت فلاندرس[12] . الكونت روبرت اوف نورمندي اسطفان[13] . كاتريز[14] . ريكاردوس أميرسالارنوس . رانولف . روبرت دوهوس . روبرت دوسوردقال

---

(١) (تاريخ الحروب المقدسة) لمكسيموس موند ، ص ٢٩ .

(٢) قاد المتطوعين الفرنسيين . وسار عن طريق المانيا . وبطش بالهنغاريين ، فقتل منهم أربعة آلاف رجل . فقابله الهنغاريون ، وفتكوا بجيشه فتكاً ذريعاً .

(٣) أمير بلاد اللورين . قاد عشرة آلاف فارس ، وأربعين ألف رجل من المتطوعين الافرنسيين القاطنين حول الرين . وكان هؤلاء أكثر فطنة وأدباً من الذين تقدموهم .

(٤) نهب هو وأتباعه البلغاريين في اثناء مرورهم من بلغاريا . فقاتلهم البلغاريون ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، وشتتوا الأخرين .

(٥) قاد متطوعي النمسا والتحق ببطرس .

(٦) قاد متطوعي المانيا . فاظهر هو واتباعه عجرفة زائدة . وتعدوا على سكان البلاد التي مروا منها . فقاتلهم البلغاريون . واحاق بهم ما احاق بغيرهم .

(٧) قاد في بادىء الأمر هو وابن عمه تنكريد عشرة آلاف فارس وعشرين الفاً من المشاة . وقد كان طويل القامة . محباً للفخفخة . حسوداً ، غضوباً . ثم قاد الحملة كلها بعد أن ا ستقال منها اسطفان .

(٨) قاد مئة ألف مقاتل بين فارس وراجل .

(٩) قاد متطوعي بولونيا .

(١٠) اسم جرماني معناه المبارز ، والقوي ، ذكره ابن الجوزي وغيره من المؤلفين العرب (بغدوين) والعامة تقول (بردوبل) .

(١١) حاكم ولاية نورماندیا ، إنه الابن الأكبر لغليوم الظاهر .

(١٢) والي مقاطعة فلاندره . وكان ينقب بحربة المسيحيين .

(١٣) والي مقاطعة بلواز . وقد قاد الحملة مدة بعد وفاة ممثل البابا اديجاز . ثم استقال .

(١٤) كان مستشار الحملة الحربي .

هرقل دوبولنيناك . غـوليـاقـوس دو سـاريان . أديمار دو مـونتـيل[1] ريموند بالاط . سيمون[2] . كليرمونت . الكونت سان جيل . روجار دوقواكس غرلياموس . رامبرت دواورانج هرمفروا دو منتيك . ايزارد دوديا . وغيرهم كثيرون .

ولما كانت مؤن هذه الجموع الغفيرة قليلة ، فقد قاموا[3] بأنواع النهب والخطف والسلب في البلاد التي اجتازوها . و«كانت أنباؤهم[4] المتكررة ، وما اقترفوه من فظائع ، وما أخرجوه من موبقات تسبقهم إلى الأراضي التي كانوا يزمعون اجتيازها . وكان سكانها يغادرون مدنهم ودساكرهم ، حاملين معهم كل ما يملكون هرباً من لقائهم» .

«ولما بلغوا مدينة صوفيا أمرهم الإمبراطور الكسيس كومنين أن يمكثوا في المدينة أكثر من ثلاثة أيام ، بسبب أعمال العنف والنهب التي اقترفوها في أراضيه . فلم يسع بطرس الناسك إلا أن ينصاع للإنذار ، معتذراً له ولشعبه عن سلوك جنوده الشائن» . وفي رواية أخرى أن البلغاريين قاتلوهم قتالاً شديداً .

وعندما وصل الصليبيون إلى القسطنطينية راحوا يسطون على المنازل والقصور القائمة في ضواحيها . بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فهجموا على الكنائس نفسها ونهبوها .

ولما اجتازوا الأناضول قاتلهم (فليج أرسلان) قتالاً شديداً ، ليس هنا مجال ذكره . ولكن لا بد من القول إنهم عبروا بعدئذ أنطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا والرملة . وعندما وقفوا أمام أسوار بيت المقدس (حزيران ١٠٩٩) كان عددهم أربعين ألفاً . وفي قول آخر[5] : خمسين ألفاً .

حصر فريق من الصليبيين المدينة من ناحيتها الشمالية : من باب الأسباط حتى باب العمود ، ومن هذا الباب حتى المكان الذي تقوم عليه الآن المسكوبية فكان روبرت أوف نورمندي بالقرب من كنيسة القديس أسطفان . وبالقرب منه الكونت

(١) كان يمثل البابا ، وقد اقامه هذا رئيساً روحياً للحملة . مات في انطاكية قبل أن يصل إلى أورشليم .

(٢) سمعان بطريرك بيت المقدس .

(٣) (تاريخ الحروب المقدسة) لمكسبوس مولد ، ص ٢٤ .

(٤) (مجلة الراعي الصالح) لبطريركية الروم الارثوذكس بالاسكندرية ، ج٣ ، ص ٥٥-٥٧ .

(٥) (تاريخ القدس الشريف) ، لسركيس ، ص ١٧٢ .

روبرت اوف فلاندرس . وأما غودفري دوبويون وتنكريد ، فقد حاصراها من ناحيتها الغربية[١] . وأما الكونت سان جيل فقد عسكر على تل صهيون من ناحيتها القبلية الغربية . وكذلك فعل الكونت ريموند . وضرب الآخرون خيامهم في مواقع أخرى حول المدينة . وتركوا الجانب القبلي المطل على سلوان والجانب الشرقي المحاذي لوادي جهنم .

بدأ الحصار في اليوم السابع من يونيه سنة ١٠٩٩م . ودام نيفاً وأربعين يوماً[٢] عانوا خلالها أنواع المحن ، لقلة الماء ونفاد الذخيرة ، وفقدان لوازم الحصار من خشب وأدوات أخرى .

كان الوقت صيفاً ، والحرارة شديدة . أشعة الشمس محرقة ، والهواء القبلي الحار يعصف مع الغبار . الحيوانات هلكت وكثير من الصليبيين ماتوا من العطش . رائحة كريهة وأمراض . الخيل والبغال والبقر وباقي المواشي والحيوانات التي لم تنفق ، لم تكن قادرة على أن تسير بضع خطوات من شدة العطش . ذلك لأن الماء كان قليلاً للغاية . وكان يباع زق[٣] الماء الرديء الفاسد الذي كانوا يأتون به من مسافة تسعة أميال بقطعتين كبيرتين من الفضة . ولطالما اقتتل الصليبيون أنفسهم من أجل الماء . ولم تكن هناك حراش وأشجار كافية لصنع آلات القتال اللازمة للحصار . فهدموا البيوت في القرى والمزارع المجاورة ، ليسدوا بها هذا النقص . ولكن دون جدوى . وفي ساعة اليأس جاءت المراكب من جنيف موسوقة ذخائر . فداهمتها سفن المسلمين وحرقتها . ولكن قسماً كبيراً من الذخائر كان قد نجا . وقد دلهم سوري على حرش واقع بين نابلس وسبسطية ، فقطعوا منه الأشجار اللازمة لآلات الحصار . فانتعشت آمالهم وشيدوا ثلاثة أبراج عالية . ولكنهم رغم ذلك فشلوا .

كان في القدس افتخار الدولة يديرها باسم الخليفة الفاطمي (المستكفي بالله) .

---

(١) هذا ما جاء في كتاب The First Crusade لمؤلفه August C. Krey ص ٢٤٩ نقلاً عن مؤرخ شهد الحصار بعينه . وفي رواية أخرى أن غودفري عسكر مع جنده في الناحية الشمالية الشرقية بالقرب من باب الساهرة .

(٢) مركيس ، ص ١٧٢ .

(٣) الزق مصنوع من جلد المعزى يسلخ ويدبغ : يتسع الصغير منه لجرة ماء والكبير ضعفها . ويسميه العامة (ضرف) أو (ظرف) وهو الوعاء .

وكان هذا قد أبعد عنها المسيحيين(١) . وأبقى فيها المسلمين . وحشد فيها العدد الذي اعتقد أنه كاف للدفاع عنها من الجنود المصريين . وكانت قوة الدفاع مؤلفة من أربعين ألف مقاتل . هذا خلا السكان المدنيين وعددهم يومئذ عشرون ألفاً . وقد حصنها وادخر في عنابرها جميع الذخائر . وكان قبل بدء الحصار أمر بتخريب جميع الحقول(٢) التي حول المدينة لئلا يستغلها الأعداء . ولم يكتف بهذا ، بل ردم الآبار(٣) التي في البر فجاع الصليبيون جوعاً لا يوصف ، وعطشوا عطشاً عظيماً . ويقول المقريزي إن الذي كان على منصّة الحكم يومئذ هوالمستظهر بالله أحمد بن ملك شاه بن عضد الدولة . (ج١ ص ٢١) .

أقام الصليبيون(٤) برجين عاليين ، طلوا منهما على السور : أحدهما بباب صهيون والآخر بين باب العمود وباب الأسباط وهوبرج الزاوية . ثم أنشأوا برجاً ثالثاً . فجاء المسلمون وأحرقوا البرج الذي كان بباب صهيون . وقتلوا من فيه . وطال أمد الحصار ، دون أن يتمكن الصليبيون من الاستيلاء على المدينة . عندئذ عقد رؤساؤهم وقوادهم مجلس شورى(٥) لأجل تعيين يوم للهجوم العام وكيفيته . فقرروا استبدال خطتهم السابقة . وفي أثناء الليل نقلوا البرج الخشبي المركب على الدواليب مع سائر الآلات والأعمال التي كان (الدوكاده لورين) نصبها في محلاتها ؛ نقلوها إلى جهة شرقي المدينة عند (باب سيدار) . ثم نصبوا المنجانيقات والأكباش وآلات الحرب الأخرى ، بين باب دمشق والبرج المقرن الذي دعي فيما بعد برج تنكريد . وفي يوم الخميس الموافق ١٤ من شهر تموز سنة ١٠٩٩ عند شروق الشمس أمر جميع الرؤساء والقواد جنودهم بالهجوم العام . فهاجموا المدينة من كل جهة . وكانت الأسلحة التي بأيديهم هي الحراب والسيوف والرماح والخناجر والنبابيت والمقاليع التي تستخدم لرشق الحجارة ولحذف الطابات الرصاصية ، وكذلك القوس والنشاب . وكانوا لابسين

---

(١) (الحروب الصليبية في الآثار السريانية) للقس اسحق أرملة السرياني . طبع بيروت ، ١٩٢٩ ، ص ٣٦ .

(٢) كذلك فعل ستالين عندما اجتاح الالمان روسيا في اوائل الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) .

(٣) (تاريخ الحروب المقدسة لمكسيموس موند ، ص ١٥٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ١٤٨ .

(٥) مكسيموس ، ص ١٦٦ .

الدروع الحديدية والفولاذية ، والخيالة حاملين الدوارق[١] والأتراس المدورة والمربعة ثم الأتراس الطويلة . وكـان لكل من القـواد رأية في أعـلاها نوع من أنواع التـصـاوير والتماثيل . وعلى الرايات صور مختلفة ؛ صلبان ونمورة وأسود ونجوم وأبراج . ولم يكن أمر الحرب بيد واحد من القواد حين المعركة ، بل كان كل واحد من الأمراء والحكام في الموضع الذي يقوم عليه ، يرتب عساكره ويدير أمورهم كما يشاء .

واستعمل المسلمون في أثناء الدفاع عن أورشليم المواد الملتهبة والكباير المشتعلة بالزيت والنشاب القوية . وكان لديهم أربعة عشرة آلة حربية كبيرة جداً مركبة على الأسوار . فابلوا في ذلك اليوم بلاءً حسناً في الدفاع عن المدينة . ودام القتال اثني عشرة ساعة إلى أن جن الليل .

وهكذا قل عن اليوم الثاني . وفيه وجه المسلمون قواهم ضد البرج الكائن فيه فودفري . فمات في ذلك اليوم عدد كبير من رجاله . وكان ريموند من الناحية القبلية يقاتل . وتنكريد وروبرت يحاربان فوق الأبراج الخشبية في شمال المدينة ، إلى أن وقعت الواقعة ، والتقى الجمعان وجهاً لوجه ، فراحا يقتتلان بالحراب والرماح والسيوف . ورجحت يومئذ دفة المسلمين على الصليبيين ؛ إذ تمكنوا من تحطيم آلات الحرب الخشبية التي كانت مع الصليبيين . حطموها بالنيران التي أطلقوها عليهم من الأسوار بأساليب مختلفة . وزاد في طين النصارى بلة قلة الماء للشرب . وفقدان الخل اللازم لتبريد الحراب والرماح ، ليقدروا على نقلها بأيديهم . فسقط عدد كبير منهم قتلى ، وجرح عدد آخر بالسهام . وحرق آخرون بالمواد الملتهبة التي حذفت من داخل المدينة ومن على الأسوار .

كاد الصليبيون أن ييأسوا ، لولا أن عاد إليهم الرجاء بإشاعة ألقاها بينهم رجال الدين قائلين : «هوذا القديس جاورجيوس ، يطل عليكم من جبل الزيتون! . . هو ذا العون الإلهي جاء ليحميكم! . . فقاموا على أثر ذلك بهجوم عنيف . وتمكنوا من دك البرج الكبير . فاجتاز الدوك دي لورين من فوق الردم وأدرك السور . أمر غودفري بمد الجسر المرتفع . فمد ، ومر عنه غودفري ، وتبعه الآخرون ؛ فدخلوا المدينة وراحت النبال تنهال على المسلمين مثل المطر ، وكذلك قل عن السهام النارية . وأقدم رجل يدعى (لتولدوس)[٢] وهو من أشراف فلاندريا تحت وابل من السهام ، فارتقى السور ،

---

(١) فلانس كانوا يبسونها ، وهي جمع (دورق) .

(٢) تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشيمية ، ص ٧١ .

ووضع عليه راية الصليب . الأمر الذي أثار حمية الصليبيين المهاجمين . فقاموا بهجماتهم الأخرى . وكانت شديدة للغاية . ففتحت المدينة . وكان أول من دخلها من باب الساهرة **غودفري دوبويرن الفرنسي** Goodirey du Boullon . ثم خلع عساكر تنكريد ، وعساكر غودفري ، باب القدس اسطفانوس بضرب الفؤوس والمعاول ، ففتحوه . ودخل المدينة باقي جماهير الصليبيين : الساعة الثالثة بعد ظهر الجمعة الموافق الخامس عشر من تموز سنة ١٠٩٩م - ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ .

بعد أن تم لهم احتلال المدينة ، عقدوا(١) (ديوان مشورة عسكرية) . فأصدر أعضاء هذا الديوان حكمهم بموت كل مسلم باق داخل المدينة! وشرعوا فوراً في تنفيذ الأمر . ولم تجد أيضاً اعتراضات أولئك الذين أرادوا أن يحولوا دون هذه القسوة . وظلت الدماء تهرق مدة أسبوع كامل ؛ قاموا خلاله بأعمال فظيعة ، ومنكرات يقشعر لها البدن . ولم يختلف اثنان من المؤرخين ، لا من الفرنج ولا من المسلمين ، في ذكر هذه الفظائع وانتقادها انتقاداً مراً .

فقال ريموند داجيلس(٢) Raymond D. Agiles الذي شهد الاحتلال : «إن الدماء وصلت في رواق المسجد حتى الركب» .

وقال مكسيموس موند(٣) . «لم يوفر الصليبيون أحداً من سيوفهم! لا من الرجال ، ولا من النساء العجز ، ولا من الأطفال . وظن المسلمون أن مسجد عمر يحميهم من الموت ، ولكن ظنهم قد خاب . إذ إن الصليبيين لحقوا بهم خيالة ومشاة ، ودخلوا المسجد المذكور ، وأبادوا كل من وجدوه فيه بحد السيف . وذم المؤرخون قسوة هؤلاء الجنود البربرية» .

قال طوطح وبولس(٤) : «كان المسيح قد علم تلاميذه أن يحبوا أعداءهم ، ولكن ما قاموا به من التوحش والهمجية في المكان الذي صلب فيه السيد المسيح ، لمما يندى له جبين المسيحي اليوم حياء وخجلاً» .

---

(١) مكسيموس ، ص ١٧٤ .

(٢) تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ص ٦٣ .

(٣) (تاريخ الحروب المقدسة) ، ص ١٧٢ .

(٤) (طوطح وبولس) ، ص ٢٨ .

وقال الأخوان شحادة الخوري ونقولا الخوري[1] :

«أمر الصليبيون الأشخاص الذين بقوا أحياء من العرب أن يجمعوا جثث موتاهم أكواماً ويحرقوها بالنار . وبعد ذلك قتلوا هؤلاء أيضاً . وهي قسوة يتبرأ منها الدين المسيحي الذي يدعون أنهم جاءوا لنصرته ؛ فضلاً عن أنها جعلت روح العداوة والانتقام تتأصل في قلوب المسلمين ضد مسيحيي البلاد التعساء ؛ فسببوا ضرراً عظيماً لهم ، لم يكن أخف وطأة من أضرار ملوك الروم . فلو سلم مسيحيو هذه البلاد من هجمات ملوك الروم المتواترة ، وغزوات الصليبيين المتعددة ، وفظائع أولئك وهؤلاء بمسلمي البلاد ؛ لعاشوا إلى جانب إخوانهم المسلمين عيشة راضية ، لا يتخللها نكد ولا كدر» .

وجاء في تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية ص ٧١-٧٢ عن الحروب الصليبية وفتح بيت المقدس مطالعات كثيرة نقتطف منها النبذ التالية :

وهكذا نرى أنه كان من أهم الغايات الظاهرة للحروب الصليبية تخليص الأراضي المقدسة! ولكن هناك غايات مكنونة في صدور الرجال : منها ما هو إنتقام من العرب الذين امتد ملكهم إلى إسبانيا وفرنسا وبلاد اليونان وصقلية وغيرها . ومنها ما هو استئثار بالسلطة الزمنية والدينية . . . لقد أظهروا بعد فوزهم الباهر ، ما كانوا يضمرونه ؛ وشهد العالم من المظالم والمخازي ما لا يتفق مع لقبهم : (الصليبيين) . . أظهروا بأعمالهم أن غايتهم من الاستيلاء على الأرض المقدسة : أن يجعلوها بقعة لاتينية ، وأن يلاشوا الأرثوذكسية منها بالكلية . . متوسلين بجميع أنواع الحيل والخداع والاضطهادات التي يتورع البرابرة عن ارتكابها . . . لقد سكروا بخمرة الانتصار ، فاستيقظت فيهم روح الغلبة والاستعمار . واقترنت هذه بحب السفك والقتل والانتقام . . . فصالوا في المدينة قتلاً ونهباً . وكانوا يتعقبون المسلمين في كل مكان . ولم يحمهم المسجد المعروف بالصخرة ، حيث فتكوا بهم ، وذبحوا آلاف اللاجئين إليه من رجال ونساء وأطفال أبرياء . . . هذا ما فعله ويا للأسف أصحاب الصليب المبشرون بالإنجيل ، ودعاة الدين الذي يأمر بالصفح والسلام . .» .

وقال المؤرخ الإفرنسي المسيو ميشو[2] :

---

(١) تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية ، ص٧٠ .

(٢) ج١ ، ص ٢٣٩ من كتابه . و(تاريخ العرب والتمدن الإسلامي) ، ص ٢٨٢ .

«كان المسلمون يذبحون ذبح الانعام في الشوارع والمنازل . ولم يجد أهل المدينة محلاً أميناً يعتصمون به . فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار ، وازدحم الآخرون في القصور والمساجد والحصون . ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً ؛ إذ إن الصليبيين حاصروا جامع عمر - الذي اعتصم فيه المسلمون - وجددوا تلك المناظر الوحشية التي تعد وصمة في جبين فرسان التيتون ؛ إذ هجم الجنود على الهاربين ، وأعملوا السيف في رقابهم من غير ما شفقة ولا رحمة . ولم يكن يسمع في تلك الساعة الرهيبة غير أنين الجرحى وحشرجة الموتى . كذلك وطئوا بخيولهم الجثث المكدسة في أثناء مطاردة الهاربين . كما أحرقوا البعض حياً . ثم جاءوا بالذين كانوا قد لاذوا بالفرار ، ووضعوهم على جثث الموتى المكدسة ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل . ولم تكن تجدي في ذلك الموقف الدامي ، دموع النساء ؛ ولا صراخ الأطفال ، ولا منظرالبلد الذي صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه . فإن هذه المناظر كلها ما كانت لتلين قلوبهم القاسية . وقد استمرت هذه المذابح أسبوعاً . والذي نجا من سكان بيت المقدس عومل معاملة الأرقاء» .

وأخذ اليهود قسطهم من هذة المجزرة ، إذ جمعهم الصليبيون في كنيسهم ، وحرقوهم[١] .

وقال (هري أمرسن فوسديك) في كتابه (حجة إلى فلسطين)[٢] :

«لا شك في أن الصليبيين قد اقترفوا في الأرض المقدسة خطيئات لا تغتفر ، مخالفين بذلك الأهداف السامية التي حفزتهم لافتتاحها ؛ وأنهم قد انحطوا إلى درجة من التهتك الممزوج بالأنانية والحقد وسفك الدماء ، فانقلب جهادهم إلى نهب ، وسلب ، وقتل وتدمير ، حتى أنهم في أنطاكية ، وهم في طريقهم إلى بيت المقدس ، اقترفوا أفظع إثم دوّنه التاريخ في سجل السكر والدعارة والفجور ؛ إذ كانوا يضعون أجساد المسلمين في أسياخ حديدية ، ويشوونها على النار! وأما ما فعلوه في بيت المقدس ، عندما احتلوها في ١٥ تموز ١٠٩٩ ، فحدث عنه ولا حرج . فقد أعملوا في المسلمين يد الذبح والتقتيل ثلاثة أيام صحاح ، دون رحمة ولا روية . ولم يميزوا

---

(١) كذا في (تاريخ كنيسة أورشليم الارثوذكسية) ، ص ٧٠ . وأما في (النجوم الزاهرة) ، ج٥ ، ص ١٥٠ ، فقد جاء مايلي : « . . واحرقوها عليهم» .

(٢) A Pilgrimage to Palestine by Harry Enerson Fosdick, p. 256.

بين رجل وامرأة ، أو بين صغير وكبير . وراحو يتباهون أنهم قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين ، وأنهم لم يغمدوا سيوفهم قبل أن خمدت نار الانتقام المتأججة في قلوبهم!

والغريب أنهم قاموا بهذه الفعال التي تقشعر لها الأبدان باسم المسيح . الأمر الذي جعل الشرق يستقبل صلاح الدين بالترحاب ، ويعتبره منقذاً ورحيماً . وراح هذا الشرق يتنفس الصعداء ، عندما طرد الصليبيون من الأرض المقدسة . وساد الاعتقاد بأنه ما كان ليصيبهم ما أصابهم ، لولا أنهم يستحقون هذا المصير .

ومع ذلك فإن الناس راحوا يذكرون بالثناء والتمجيد ، المعاملة الحسنة التي لقيها الصليبيون من صلاح الدين بعد تلك الآثام التي اقترفوها! سيما عندما أمنهم على أموالهم وأرواحهم . . .» .

اختلف المؤرخون في تعيين عدد القتلى الذين قتلهم الصليبيون يوم الفتح . فقال قائل[١] : «إنهم مئة ألف نسمة» . ولكن الأكثرية[٢] قدروهم بسبعين ألفاً فقط .

كان أول عمل قاموا به ، بعد هذه المجزرة البشرية الهائلة ، أنهم كتبوا إلى البابا يهنئونه بفتح بيت المقدس قائلين[٣] :

«إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا ، فثق أنه في إيوان سليمان ومعبده ، كانت خيلنا تخوض في بحر من دماء العرب المسلمين إلى ركبتها» .

ثم راحوا يديرون المدينة كما يشاؤون . فحولوا[٤] قبة الصخرة إلى كنيسة . وسموها Templum Domini . وأعطى بلدوين جانباً منها إلى فرسان الهيكل . ورسموا على جدرانها الداخلية رسوماً نصرانية . ولكنهم لم يغيروا ما على أبوابها وأبواب المسجد الأقصى من كتابات وآيات قرآنية .

---

(١) (مرآة الزمان في معرفة الخلفاء والأعيان) لسبط بن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤-١٢٥٦م و(النجوم الزاهرة) ، ج٥ ، ص ١٤٨ .

(٢) (تاريخ الحروب المقدسة) ، لمكسيموس موند ، ص ١٧٤ .

(٣) تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ص ٢٧٢ .

(٤) مجلة الآثار ٥-٦ ، ص ٢٥١ .

وروي ابن العبري[١] : «إن الفرنج أخذوا من مسجد الصخرة أربعين[٢] قنديلاً فضياً . وزن كل واحد ثلاثة آلاف وستماية درهم من الذهب المصري . وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً سورياً . والرطل السوري يوازي ستة أرطال بغدادية . واستولوا على أوان وزينات أخرى كثيرة . . . وأخذوا من الأموال ما لا يحصى» .

وفي (النجوم الزاهرة»[٣] أنهم أخذوا من الصخرة والأقصى معاً سبعين قنديلاً : منها عشرون ذهباً ، في كل قنديل ألف مثقال ؛ ومنها خمسون فضة ، في كل قنديل ثلاثة آلاف وستماية درهم بالشامي . وأخذوا من الأموال ما لا يحصى .

هذا ما قاله أكثر المؤرخين . والحقيقة أنهم (أي الصليبيين) لم يغيروا شيئاً من بناء مسجد الصخرة ، سوى أنهم قلبوه إلى الكنيسة أسموها Templum Domini أي هيكل السيد . وجعلوا به الصور والتماثيل . وأنشأوا على الصخرة نفسها مذبحاً[٤] . كما أنشأوا حول الصخرة سياجاً من الحديد المشبك[٥] . وكسوا الصخرة نفسها بالرخام[٦] . ونصبوا فوق القبة صليباً كبيراً .

---

(١) (تاريخ مختصر الدول) لغريغوريوس أبي الفرج بن اهرون الطبيب الملطي السرياني الارثوذكسي المعروف بابن العبري . ولد سنة ١٢٢٦م وتوفي سنة ١٢٨٦ . وكتابه هذا طبع بمدينة اكسفورد بالعربية واللاتينية ، بمراجعة العلامة بوكوك سنة ١٦٦٣م . وفي بيروت ١٨٩٠م . وقد ترجم إلى الالمانية سنة ١٧٨٣م . وروايته هذه وردت في الصفحة ٢٧ .

(٢) وفي رواية سبط بن الجوزي أنهم اخذوا من مسجد الصخرة والأقصى معاً سبعين قنديلاً في كل قنديل الف مثقال .

(٣) ج٥ ، ص ١٤٨ .

(٤) قال مسترج . فن قنصل بريطانيا بالقدس في الصفحة ٢٤٨ من مذكراته أن الحجارة التي بنى بها الصليبيون مذبحهم ، اقتطعوها من الصخرة نفسها .

(٥) هذا السياج الحديدي المشبك الذي يفصل الصخرة عن التثمينية الوسطى ظل قائماً حتى سنة ١٩٥٩ ، عندما رفع من مكانه بسبب العمارة الواسعة التي اجريت للمسجد .

(٦) قال الكابتن كروزيل استاذ فن المعمار الإسلامي في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، في مقال له نشرته مجلة (الهلال) في عدده الصادر سنة ١٩٣٩ ص ٨٨ . وقوله هذا منقول عن ابن الاثير ، أن الافرنج كسوا الصخرة بالرخام خشية أن تزول الصخرة من الوجود ، ذلك لأن قساوسة النصارى كانوا يقطعون منها اجزاء يبيعونها للحجاج الذين يأتون من وراء البحار . وكان هؤلاء الحجاج يحملون معهم – في طريق عودتهم إلى بلادهم – قطع الصخرة هذه تبركاً وتيمناً بها . وكان ذلك مصدر ربح وفير لأولئك القساوسة .

وأما المسجد الأقصى ، فقد غيروا الكثير من معالمه . واستعملوه لأغراضهم الأهلية والدينية والحربية . فاتخذوا جانباً منه كنيسة ، والجانب الآخر مسكناً لفرسان الهيكل . وكانوا يسمونه Palatium أو Templum Slomonis وأضافوا إليه من الناحية الغربية بناء جديداً استعملوه مستودعاً لأسلحتهم . وأما السراديب القديمة التي كانت تحت الأقصى (ويسميها المقدسيون : الأقصى القديمة(؛ فقد اتخذها الصليبيون إسطبلاً لخيولهم . والاعتقاد سائد بأن تلك السراديب هي من بقايا هيكل سليمان .

وكان أول عمل عمله الصليبيون عندما احتلوا مدينة القدس ، أن دخلوا كنيسة القيامة . دخلوها حفاة . وقد وجهوا طبعاً اهتمامهم إلى تعميرها . قال أسقف صور غوليامس (وهو مؤرخ أيضاً) أن الصليبيين حافظوا بدرجة الإمكان على ما كان في الكنيسة من بنيان . إلا أنهم جمعوا المعابد المتفرقة في كنيسة واحدة هي الكنيسة الحالية . جمعوها تحت سقف واحد ومتين . وزادوا على ذلك بأن بنوا إلى الشرق من القبر المقدس كنيسة لها ثلاث حنايا متجهة نحو الشرق ، وهي المعروفة في يومنا هذا (١٩٦٠) بكنيسة نصف الدنيا . ثم شادوا قبة نحيفة لكنيسة الصليب ، وبنوا في محل الشهادة ديراً هو الآن بيد الأقباط . وأضافوا إليها صحناً واسعاً ، وهيكلاً للكهنة . وبهذه الزيادات المختلفة أصبحت كنيسة القيامة الأصلية في المركز ، ومن حولها الأبنية الكنسية العديدة ، متصلة بكنيسة الجلجثة ، في مجموعة من الكنائس المتداخل بعضها ببعض من جميع الجهات .

ورفع الصليبيون فوق الزاوية الجنوبية الغربية برجاً للأجراس . ويقول ثاوفانوس أن هذا البرج كان ذا ثلاثة طوابق : هدم منها بفعل الزلازل طابقان هما العلويان وبقي الطابق السفلي كما كان . والبابان الكبيران اللذان تراهما في واجهة الكنيسة من الناحية الجنوبية ، هما من فعل الصليبيين . وقد سد أحدهما فيما بعد .

كانت الصدمة الأولى عنيفة . وما كان الصليبيون لينالوا هذا النصر ، لو كانت في البلاد حكومة قوية وشعب رزين متحد . ولم يكن قد انقضى على الحكم السلجوقي في سوريا وفلسطين سوى عشر سنوات . ولم يكن السلجوقيون بقادرين على أن يتحدوا ، إذ قد انقسمت مملكتهم بعد مقتل الوزير (نظام الملك) ١٠٩٢م ، وكثر التنازع بين الرقباء الطامعين في العشر ، ونشبت في سوريا وفلسطين حروب أهلية واضطرابات داخلية أهلكت الحرث والنسل . ولم تكن البلاد قادرة على صد تيار الصليبيين . فتمكن هؤلاء عند أول حملة قاموا بها من الاستيلاء على قسم كبير

منها .

فذل المسلمون ، وراحوا يندبون سوء حظهم . وراح الشعراء يستنهضون الهمم للأخذ بالثأر .

بعد فتح القدس أسس الصليبيون فيها مملكة لاتينية صغيرة . واختاروا غودفري دو بوبون أميراً عليهم . فأخذوه إلى كنيسة القيامة ، وتوجوه فيها . ولكنه مات بعد قليل ، ودفن في الكنيسة[١] . . . وانتخب بعده بلدوين الأول . وفي زمنه (١١٠٠-١١١٨م) أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت إلى العقبة .

وكان لها أسطول في ميناء العقبة[٢] . وكانت وارداتها وافية ، مصدرها الرسوم المستوفاة من القوافل التي كانت تسير بين سوريا ومصر والحجاز ، والضرائب المفروضة على حاصلات البلاد ، والرسوم التي تجبى من القوارب التي كانت تسير في البحر الميت .

زار القدس ، عام ١١٠٦ للميلاد ، راهب روسي اسمه دانيال فقال : إنه بالرغم من فقدان الينابيع في المدينة وليس ثمة نبع قريب منها غير بركة سلوام ، فإن القمح ينبت فيها وفيما حولها من بقاع بخصاب . وكذا قل عن الشعير فإن الحبة التي يبذرها المرء في أرضها تنتج تسعين حبة ، وفي بعض الأحايين مئة وهناك كروم من العنب والتين والزيتون والخروب والجميز ، وأنواع لا تحصى من أشجار الفاكهة .

وفي موضع آخر من الرسالة التي كتبها هذا الراهب قال : إن الأمن مفقود على الطريق التي تصل أريحا بالقدس ؛ تلك الطريق التي كان يرابط فيها عدد كبير من قطاع الطريق .

وقطاع الطرق هؤلاء الذين ذكرهم الراهب الروسي ، ليسوا في اعتقادي سوى أبناء البلاد الذين نجوا من المذابح الصليبية ؛ فراحوا يتكتلون ويتجمعون في المغاور والكهوف ، ويتحينون الفرص للانقضاض على الصليبيين وإرجاع البيت المقدس إلى حظيرة المسلمين .

بعد بلدوين الأول قام بلدوين الثاني والثالث .

ولما توفي بلدوين الثالث ، خلفه أخوه المري او المريك (١١٦٢م - ٥٥٦هـ) .

---

(١) رأيت قبره في أول غرفة على يمين الداخل إلى الكنيسة ، تحت الجلجثة .

(٢) بيك باشا . ص ١٢٥ .

فكانت سياسته خرقاء . وأضرت بالمسألة اللاتينية . فابتدأت مملكة القدس ، منذ تبوأ عرشها ، بالاضمحلال والتدهور . إنه ، بدلاً من أن يحتفظ بصداقة الفاطميين في مصر ، سار لفتح مصر وانتزاعها من بين أيديهم . فأضاع بذلك حليفاً قوياً . وقوى به عدوه نور الدين . فرفض كثير من جماعة فرسان الهيكل التعاون معه في هذه الحملة ، لاعتقادهم بأنه لا نفع يرجى من ورائها . وكان نصيبه فعلاً الفشل .

في اكتوبر عام ١١٧٦م أتى إلى فلسطين وليام دي مونتفرات ، وتزوج سيبل Sy-bil أخت الملك بلدوين الرابع . ولكنه توفي في السنة التالية ، تاركاً وراءه طفلاً أصبح فيما بعد ملكاً ، وسمي بلدوين الخامس .

وفي عام ١١٨٠م – ٥٧٥هـ تزوجت سيبل بجوي دي لوسينان Guy De Lu-signan وبذلك أصبح له حق شرعي للوصاية على العرش ، حتى وللجلوس على العرش فيما إذا توفي الطفل .

ولكن الأمراء كانوا يكرهونه ، فعقدوا اجتماعاً في عكا ، وانتخبوا ديموند[١] لأن يكون وصياً على الملك لمدة عشر سنوات . ولما مات الطفل بعد ذلك بسنة ، زحف جوى ومعه ريجنالد[٢] صاحب الكرك وجماعة من فرسان الهيكل إلى القدس ، وقبضوا على زمام الأمور فيها ، وتوجوا جوى ملكاً عليها .

ولكن ريموند صاحب طرابلس ، لم يرض بتتويج جوى ملكاً على القدس ؛ فثار ثائره ، وراح يفكر في مراضاة صلاح الدين ، فتحالفا معاً . وما كان صلاح الدين ليرضى بالتحالف معه ، لولا أن ريجنالد أمير الكرك فسخ العهد وكسر الهدنة باعتدائه (١١٧٨م – ٥٨٢هـ) على قافلة من قوافل المسلمين سائرة على طريق الحج ، وسوقها رجالاً ونساء إلى الكرك .

عندما نهد ريجنالد القافلة ، وأسر من رجالها من أسر ، توسل إليه هؤلاء بإرجاعهم . لكنه رفض . ويقول أبو الفداء إن السلطان صلاح الدين خابره في صددهم ، وطلب إليه إرجاعهم . ولما رفض ، خابر (صلاح الدين) السلطة المركزية (أي الملك في القدس) . ولما قيل له إن صاحب الكرك حر في أن يفعل ما يشاء ،

(١) صاحب طرابلس الذي خلص الكرك وفاوض المسلمين على هدنة الأربع سنوات التي ذكرناها في غير هذا المكان .

(٢) (ريجنالد) هو الذي يسميه العرب ارناط .

يئس وأقسم يمينه المشهور : أنه لا بد وأن يحاربه ، ويحارب الصليبيين كلهم معه ؛ وأنه لا بد وأن يقطع رأس ريجنالد بيده ، إذا وقع هذا أسيراً .

عندئذ أعلن صلاح الدين الجهاد ، وأرسل إلى أمرائه وعماله في جميع أطراف مملكته ، يخبرهم بما نوى . فأخذت الجيوش تزحف إلى فلسطين من كل حدب وصوب . من الموصل وحلب والجزيرة واربيل ومن مصر .

ويظهر أن اللاتين فطنوا إلى خطورة الموقف . فأرسلوا رؤساء دينهم إلى ريموند مهددين ناقمين . فاضطر هذا أخيراً للانضمام إلى صفوفهم . ووقعت على أثر ذلك واقعة (**حطين**) (٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ - ١١٨٧م) التي انتصر فيها صلاح الدين ، وانهزم جيش الصليبيين بعد أن قتل منهم ثلاثون الفاً . فوقع الملك ريجنالد صاحب الكرك وأكثر جنوده أسرى بيد المسلمين . ثم سقطت القدس . وبسقوطها زالت المملكة اللاتينية .

ومعنى ذلك أن مملكة اللاتين الصليبية التي قامت على أنقاض الدول الإسلامية المتنافرة في الشرق ، ما لبثت أن انقرضت عندما أفاق الشرق من غفلته وانتبه إلى أخطائه واتحد . والفضل في ذلك يعود إلى ذلك القائد المدرب والبطل العظيم صلاح الدين .

بعد معركة حطين سار في فتوحاته ؛ فاحتل عكا ومجدل الصادق ويافا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ثم سبسطية ونابلس . ثم سار إلى عسقلان وفتحها . ثم فتح الرملة واللد وغزة والخليل ويبنه وبيت لحم وبيت جبرين .

وأمر صلاح الدين قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤا ، أن يقطع طريق البحر ، ويرابط على الشواطئ ؛ فيرقب حركات العدو من ناحية البحر .

ثم أرسل لمفاوضة أهل القدس كي يسلموا المدينة . فرفضوا . عندئذ سار إليها . وكان فيها يومئذ ستون ألف جندي . فافتتحها في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ - ١١٨٧م . وسمح للفرنج بمغادرتها بعد دفع الفدية . فغادروها . الأمر الذي فصلناه في فصل آخر من هذا الكتاب .

أحدث سقوط القدس في يد المسلمين على يد صلاح الدين دوياً هائلاً في العالم المسيحي . بذل رجال الكهنوت قصارى جهودهم في الاستنجاد بالشعوب المسيحية والاستجارة بملوك أوروبا وأمرائها . وراح بطريرك القدس نفسه الذي كان صلاح الدين قد أحسن إليه ، يطوف المدن الأوروبية حاملاً صورة المسيح ، حاثاً على

الأخذ بالثأر . فثارت أوروبا من جديد . وتألفت حملة صليبية جديدة . وجاءت جموع الفرنج تتدفق على صور وباقي الثغور التي سمح صلاح الدين للصليبيين الذين غادروا القدس بأن ينزلوا فيها . واشترك في هذه الحملة ثلاثة من أعظم ملوك المسيحيين وهم : فردريك بارباروسا إمبراطور المانيا ، وفليب أوغسطوس ملك فرنسا ، وريكاردوس قلب الأسد ملك إنكلترا .

فاحتلوا عكا . وذبحوا حاميتها . عندئذ أمر صلاح الدين بتخريب عسقلان لعجزه عن حفظها . فخربها . ثم رحل عنها إلى الرملة فخرب حصنها أيضاً . وهدم حصن اللطرون . وكان بين الفريقين عدة وقائع في البر والبحر لا نرى مجالاً لذكرها ، إلى أن عاد إلى القدس (في آخر ذي القعدة سنة ٥٨٧هـ - ١١٩١م) ليحصنها ويتأهب لمقاومة الصليبيين فيها .

أمر بعمارة سور بيت المقدس وتجديد ما رث منه . وكان ينقل الحجارة بنفسه مع العمال . وأحكم المحل الذي ملك منه البلد[(١)] ، وأتقنه ، وقواه . وأمر بحفر خندق خارج السور . وسلم كل برج إلى أمير . وكان قد وافاه فيها[(٢)] (أبو الهيجاء السمين) بعسكر مصر .

وأهلت[(٣)] سنة ٥٨٨هـ - ١١٩٢م والسلطان صلاح الدين في القدس ، مجتهد في عمارته وفي تحسين سوره . ثم غادر المدينة في أوائل جمادى الأولى من تلك السنة . وخرج العسكر المصري يريدون السلطان ، فكبسهم الفرنج وأخذوا جميع ما معهم . وتبدد الناس في البرية . وأسر الفرنج منهم خمسماية رجل . وأخذوا نحو ثلاثةآلاف جمل . ثم قصدوا المسير إلى القدس . ولكنهم اختلفوا ، فنزلوا بالرملة ، وبعثوا رسلهم في طلب الصلح .

وفي العاشر من رجب سنة ٥٨٨هـ - ١١٩٢م سار السلطان إلى يافا وأخذها من الفرنج عنوة . ثم رحل إلى يازور وأمر بتخريبها . وسار إلى الرملة . ومنها إلى القدس . وعزم على لقاء الفرنج . فاختلف عليه أصحابه . وأسمعه بعضهم كلاماً جافياً ، فانثني عن ذلك . وقبل طلب الفرنج . فعقد معهم هدنة عامة في البر والبحر . مدتها ثلاث

---

(١) البرغوثي وطوطح .

(٢) المقريزي .

(٣) المقريزي .

سنين وثلاثة أشهر ، أولها ١١ شعبان (أيلول) ٥٨٨هـ ؛ على أن يكون للفرنج من يافا إلى عكا ومنها إلى صور وطرابلس وانطاكية . وعم السرور الفريقين ،لأنهما كانا قد ملاّ الحروب التي طال أجلها .

واختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين . فرحل المسلمون إلى يافا للتجارة . ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس للزيارة . فأكرمهم السلطان ومد لهم الأطعمة وباسطهم . ثم رحل إلى دمشق بعد أن غاب عنها أربع سنين .

مات صلاح الدين في دمشق في السنة التي تلتها (٥٨٩هـ - ١١٩٣م) .

قبل أن نختتم هذا الفصل نرى من الفائدة أن نذكر(١) ملوك الصليبيين الذين اعتلوا عرش (المملكة اللاتينية) بالقدس . وبودنا أيضاً أن نلقي نظرة على أساليب الحكم التي اتبعها هؤلاء ، والطابع الذي تركوه في البلاد :

١ . غود فري دو بوبن Godfrey de Bouillon	١٠٩٩-١١٠٠م
٢ . بلدوين الأول .Baldwin I	١١٠٠-١١١٨م
٣ . بلدوين الثاني .Baldwin II	١١١٨-١١٣١م
٤ . مليسندة و وفولك أنجو Melisende & Fulk of Anjou	١١٣١-١١٤٤م
٥ . مليسندة وبلدوين الثالث .Melisende & Baldwin III	١١٤٤٠١١٥٢م
٦ . بلدوين الثالث (وحده) Baldwin III	١١٥٢-١١٦٢م
٧ . آموري الأول Amaury I	١١٦٢-١١٧٣م
٨ . بلدوين الرابع Baldwin IV	١١٦٢-١١٧٣م
٩ . بلدوين الخامس Baldwin V	١١٨٥-١١٨٦م
١٠ . سيبل وغاي دولوزغنان Sybil & Guy de lusignan	١١٨٦-١١٩٠م
١١ . غاي دولوزغنان (وحده) Guy de lusignan	١١٩٠-١١٩٢م
١٢ . ايزابلا وهزى أوف شامبان Isabella & Henry of Champagne	١١٩٢-١١٩٧م
١٣ . إيزابلا وآموري الثاني Isabella & Amaury II	١١٩٧-١٢٠٥م
١٤ . إيزابلا (وحدها) Isabella	١٢٠٥
١٥ . ماري Mary	١٢٠٥-١٢١٠م
١٦ . ماري وجون دوبرين Mary & John de Brienne	١٢١٠-١٢١٢م

(١) كيث روش ولوك .

١٧ . يولانده وجون دوبرين Yolande & John de Brienne ١٢١٢-١٢٢٥م
١٨ . يولانده وفردريك Yolande & Fredrick ١٢٢٥-١٢٢٨م
١٩ . قونراد وفردريك Conrad & Fredrick ١٢٢٨-١٢٤٣م
٢٠ . قونراد (وحده) Conrad ١٢٤٣-١٢٥٤م
٢١ . قونرادين Conradin ١٢٥٤-١٢٦٨م
٢٢ . هوغ Hugh ١٢٦٩-١٢٧٧م
٢٣ . شارل اوف أنجو (يطالب بالعرش) Charles of Anjou ١٢٧٧-١٢٨٤م
٢٤ . جون John ١٢٨٤-١٢٨٥م
٢٥ . هنري Henry ١٢٨٥-١٢٩١م

كانت مملكة اللاتين تشغل منطقة طولها أكثر من ألف ميل ، وعرضها نحو الخمسين . ولها من الشاطيء البقعة الممتدة من أنطاكية إلى العريش . في شرقها الكرك ووادي الأردن ، وفي غربها البحر ، وفي جنوبها العقبة . وكانت هذه المنطقة ذات أهمية من الناحيتين السياسية والتجارية ، إذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية التي تربط الشام بمصر . ولكنها في الوقت نفسه كانت محاطة بمدن كبيرة ، ترابط فيها جيوش المسلمين ، ومنها الشام وحلب . وما كانت لتذوق طعم الراحة من هجمات المسلمين وغزواتهم المتكررة[١] .

أجل إنها أثارت الحماس الديني . ولكنها[٢] لم تسع لتحسين حالة البلاد ؛ لا من وجهة الأمن والنظام ، ولا من الناحية الاقتصادية أو السياسية . حتى الناحية

(١) جاء في (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ ص ١١٨ طبع سنة ١٩٣٠ ما يأتي : «تعاقد بغمدوين البرونسي (يقصد بلدوين الثاني) صاحب البيت المقدس مع روجار صاحب انطاكية يوم حج هذا إلى بيت المقدس على أن تكون انطاكية لبغدوين إذا مات روجار قبله ، وأن يكون البيت المقدس لروجار إذا مات بغدوين قبله ، وفي يوم الخميس ٥ جمادى الأولى سنة ٥١٣هـ (١٤ آب ١١١٩م) حدث أن نجم الدين أيلغازي بن ارتق لقي روجار فقتله ، وقتل جميع عسكره . فسار بغدوين إلى أنطاكية وتسلمها . ولكنه لم يمكث فيها إلا قليلاً» .

(٢) المهتدي ، ص ٥ .

الأخلاقية فقد كانت في حالة يرثى لها . وكانت واردات الملك[١] عبارة عن رسوم تجبى من القوافل ، وعوائد تجبى في المرافىء وهي تشبه العوائد الجمركية ، وأرباح تستوفى من مواد حصرت تجارتها في فئة من الناس ، ورسوم المحاكم ، وضرائب شخصية تجبى من المسلمين واليهود ، والجزية . ولكن لم يكن ثمة نظام مالي ، ولا كانت هناك طرق منظمة لجباية هذه الرسوم والعوائد .

وكان المزارعون المستأجرون ينقدون أصحاب الأراضي التي يأخذونها منهم ليزرعوها ، قسماً من غلة الأرض يتراوح بين الثلث والنصف ، خلا الضريبة الشخصية ورسوم العمل .

وكانت الإدارة في ذلك العهد (لامركزية) تقوم على أساس (الحكم الإقطاعي) . وكانت الأمراء الثلاثة في الشمال نوعاً ما مستقلين ؛ إذ كانوا يعقدون المعاهدات ويصدرون القرارات التي تنفعهم وتؤيد مصالحهم الشخصية ، دون أن يستشيروا الملك في القدس . ولم يكن للملك سلطة واسعة تخوله حق مطالبة هؤلاء الأمراء بالإذعان لاوامره . ولقد تكونت في البلاد أربع طبقات هي :

الملك ، والأعيان ، ورجال الكنيسة ، والإرساليات .

ولقد طفحت[٢] البلاد بالقلاع والحصون . وراح كل أمير يتحصن في حصنه ويسعى لتوسيع حدوده ، غير عابىء بالملك ورغائبه . لا ، بل كانوا في بعض الأحايين يحارب بعضهم بعضاً . وقد نسي جلهم ، إن لم نقل كلهم ، المصلحة العامة . لا ، بل نسوا أيضاً الغاية الدينية التي حاربوا في سبيلها ، وهبطوا البلاد من أجلها .

وانحط المسلمون[٣] إلى أسفل دركة من دركات الرق والعبودية . وحلت المحاكم الاستبدادية محل المحاكم النظامية . وعرض الرجال والنساء في الأسواق والحارات مصفدين بالسلاسل .

وتألفت في البلاد فرق كثيرة ، منها[٤] :

(الداوية) . أطلق المؤرخون المسلمون هذا الاسم على جمعية فرسان الهيكل

---

(١) Barker, Enc. Br. Vii, 533.

(٢) المهتدي ، ص ٧ .

(٣) تاريخ العرب والتمدن الإسلامي .

(٤) المقريزي .

Templiers . أسسها (Rugh de Payns) سنة ١١١٩م لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس . إنهم[١] قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ويمنعون أنفسهم عن النكاح وغيره . لهم أموال وسلاح . ويتعادلون القوة . ولا طاعة عليهم لأحد .

(الاسبتارية) أو (الاسبتاليون) . فقد أطلق المؤرخون المسلمون هذا الاسم على جميعة فرسان المستشفى (Hospitaliers) . أسسها (Blessed Gerard) سنة ١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكانت دارها مأوى ينزل به الحجاج والمرضى من المسيحيين .

إنهم[٢] طائفة من رجال الدين كان مبدأ أمرهم في القرن التاسع الميلادي في إيطاليا . وكانوا يلقبون Notre Dame de la Seala ثم زاد عددهم في الحروب الصليبية لمساعدة الصليبيين من جهة ، ونشر الدين من جهة أخرى[٣] .

ثم تحولت الجمعيتان (الداوية والاسبتارية) إلى هيئة حربية . واتخذتا المسجد الاقصى مقراً لأعمالها . وجعلتاه مخزناً لأسلحتهما . فكان لرؤسائهما وفرسانهما شأن كبير في تاريخ الإمارات والحروب الصليبية .

لم تؤثر الحملات الصليبية على البلاد من حيث اللغة ؛ إذ ظل العرب عرباً يتكلمون العربية ويخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة التراجمة .

ولم يحاول الصليبيون أن يراعوا عوائد البلاد أو يلبسوا الثياب التي يلبسها السكان ، لا بل ظلوا متمسكين بعوائدهم . وراحوا يرتدون الثياب الفخمة التي لا تلائم الوسط الذي يعيشون فيه . أعتبر بعضهم هذا سبباً من أسباب انكسارهم . وقصارى القول إن البلاد لم تستفد من الحملات الصليبية كثيراً ، وإنما كانت غنائم الصليبيين منها كبيرة . منها[٤] :

المعارف والصنائع التي تعلمها الصليبيون في بلاد المشرق وأتوا بها إلى أوروبا . واتساع المتجر . وقعوا على فوائد شتى فيما يختص بالجغرافية والتاريخ والطب وغير

---

(١) (النجوم الزاهرة) ، ج٦ ، ص ٣٣ (ومعجم البلدان) ، ج٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) (النجوم الزاهرة) ، ج٦ ، ص ٣٣ .

(٣) (دائرة المعارف الافرنسية ، ج٢٠ ، ص ٢٩١ .

(٤) (المختصر في تواريخ القرون المتوسطة) للقس بولس رحماني السرياني ، ص ٢٧٧ .

ذلك . وجلبوا إلى أوروبا أنواعاً من النباتات كانت مجهولة لديهم . من ذلك قصب السكر . وأتوا إلى أوروبا بالرقم الهندي الذي سموه الرقم العربي لاقتباسهم إياه من العرب .

كانت أوروبا ، قبل الحروب الصليبية ، تسير في معاملاتها التجارية على أساس (التبادل العيني) . وما كانت تكترث بالنقد إلا قليلاً . وفي خلال الحملات الصليبية اضطر الصليبيون إلى ابتياع حاجاتهم الضرورية بالنقد . وظل هذا النوع من التعامل سائداً بعد تلك الحروب .

من آثار الصليبيين في القدس :

١ . كنيسة القديسة حنه .

٢ . أضافوا إلى البرج الكبير في قصر هيرودس الملك (القلعة) بعض الصحون والأفنية . فصارت القلعة في شكل لا يختلف كثيراً عن شكلها الحالي .

٣ . كان يقوم على الشارع الذي يمتد من الزاوية الشرقية القبلية للكنيسة الروسية حتى باب القيامة ، في زمن الصليبيين ، ثلاث كنائس هي :

أ) كنيسة القديسة مريم الكبرى[١] . St. Marie Major

ب) كنيسة القديسة مريم اللاتينية[٢] . St. Marie Latin

ج) كنيسة الداوية[٣] . Church of Hospitallers

٤ . أقاموا بجانب كنيسة القديسة مريم الكبرى مستشفى لمداواة المرضى من الجند ومن سكان القدس المقيمين فيها ومن الحجاج النصارى الذين كانوا يفدون إليها . ويقول بعض المؤرخين إن هذا المستشفى كان يسع ألفي مريض .

٥ . وعلى جانب المستشفى المتقدم ذكره أنشأوا نزلا ، لا يزال رواق من أروقته ظاهراً في يومنا هذا ، حيث تعيش أسرة الدكتور اينسلر الألماني في شارع الدباغة ويقال إن (سوق البيزار) الذي يباغ فيه الخضار الآن هو جزء من النزل الصليبي القديم وإن شارع الدباغة الحالي كان يدعى (شارع النخل) ، وكان معداً للصاغة

---

(١) هي التي بنيت على أنقاضها كنيسة الألمان الحالية في الدباغة .

(٢) يعتقد أنها كانت تقوم في المكان الذي فيه الآن مدخل سوق الدباغة من الناحية الشمالية .

(٣) يعتقد المسيحيون أنها كانت في المكان الذي يقوم عليه الآن المسجد العمري والمدرسة العمرية قبلي كنيسة القيامة .

وتجار الحلي .

وإليك أسماء السياح الذين زاروا القدس خلال الحكم اللاتيني . وما قالوه عنها :

أ . زار القدس بعيد مجيء الصليبيين ببضع سنوات (١١٠٢م) الرحالة سيولف الولشي وقد ذكر في كتابه[١] أنه قضى في الطريق بين يافا والقدس يومين . وقد وصف وعورة الطريق وأخطارها . فهي وعرة لأنها جبلية ، وخطرة لأن بعض السكان يرابطون في الطريق . هذا فضلاً عن أنه يوجد ثمة كثير من الحيوانات المفترسة . وويل للذين يقتلون على الطريق ، فإنهم لا يجدون من يجرؤ على دفنهم . إذ إن من يتأخر عن القافلة ليدفن رفيقه يعرض نفسه لخطر القتل والاغتيال من العرب الذين أصبحوا يكرهون المسيحيين[٢] كرهاً شديداً ، بسبب ما فعله الصليبيون بهم في بيت المقدس .

ب . وزارها سنة ١١٠٦ للميلاد راهب روسي يدعى (دانيال) . وكتب عنها وعن كنائسها الشيء الكثير[٣] . ومما قاله أن القدس مدينة كبيرة ، تحيط بها أسوار منيعة عالية ، وأن أسوارها بنيت بشكل مربع أضلاعه متساوية . ومع ذلك فإن الحكم اللاتيني لم يكن موطد الأركان إلا في داخلها . وأما في خارج الأسوار ، فقد كان حبل الأمن مضطرباً ، وأن الثوار العرب كانوا منتشرين في جميع أنحاء البلاد ، وأن التلال والوديان الكائنة بين القدس ووادي الأردن ، كانت مسرحاً للنمور والضباع والأسود ووحوش الفلا وأن المدينة محاطة بعدد من الوديان القاحلة والجبال الجرداء ، وأنه لا نهر فيها ، ولا عين جارية ، خلا بركة سلوان . وليس لدى السكان ما يشربونه أو يسقون به دوابهم سوى مياه الأمطار . ومما قاله دانيال : إن زراعة الحبوب ناجحة في تلك الأراضي الصخرية رغم ندرة الأمطار . وإنه لمن فضل الله على سكان القدس أن تعطي الحبة التي يزرعونها ، قمحاً كانت أم شعيراً ، مئة وتسعين حبة ؛ مع أن الحبة الواحدة[٤] لا تثمر في أنحاء

---

(١) Early Travels p. 33

(٢) The pilgrimage of Saewulf. translated by Rev, The Lord Bishop of Chiftion. p.s

(٣) Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel In the Holy Land, 1106 A.D. Annotated by Col. Sir C. w. Wilson, K.C.B.K.C.M.G.F.R.S.R. E.

(٤) Physical History of Palestine by Kitto.

فلسطين الأخرى أكثر من خمسة وعشرين ضعفاً .
إلى أن قال إنه يوجد حول القدس مساحات واسعة من الكروم التي تزرع فيها أشجار العنب والتين والجميز والخروب والزيتون وما إلى ذلك من الفواكه الأخرى .

٣ . ولقد توفي ، في تلك الأثناء ، الإمام الغزالي محمد بن محمد بن محمد أبو حامد) الطوسي الفقيه الشافعي . توفي سنة ٥٠٥هـ - ١١١١م . وكان إمام عصره . درس ، وأفتى ، وصنف . ثم ترك ذلك كله ، ولبس الخام الغليظ ، ولازم الصوم ، وحج . ثم قدم إلى القدس[(١)] ، حيث أخذ في تصنيف كتابه المشهور في (إحياء العلوم) . وقد أتمه بدمشق .

٤ . وقد زار القدس سنة ١١٧٢م الرحالة الألماني ثيودوريتش فقال عنها : إنها مدينة جبلية ، لكن صخورها جميلة ، فيها الأبيض والأحمر والرخام المتعدد الألوان ، وكلها صالح لأخذ حجارة البناء . أما حيث يتجمع بعض التراب بين الصور فتنمو جميع أنواع الفواكه ، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والتين والزيتون . وأما الأودية فتملأها الحبوب والبساتين . أكثر شوارعها[(٢)] مبلطة بألواح كبيرة من الحجارة . وهي مسقوفة بعقود حجرية . فيها نوافذ يدخل منها النور . وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش . وأسطحتها مستوية . وليس لديهم أي ماء سوى ماء المطر الذي يجمعونه في آبار محفورة لهذه الغاية . والخشب غالي الثمن في القدس لأنه يأتيها من مكان بعيدا ألا وهو لبنان .

وكان يتردد على بيت المقدس في العهد الصليبي مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة[(٣)] ابن مرشد ابن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ الكناني . ألف كتاباً أسماه : (كتاب الاعتبار[(٤)]) . وقد جاء في الصفحة ٩٩ منه مايلي :

«كل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا

---

(١) (النجوم الزاهرة) ، ج٥ ، ص ٢٠٣ .

(٢) رواد الشرق العربي ، ص ١٣٦ .

(٣) كان فارساً شجاعاً وأديباً كاتباً وشاعراً ولد في شيزر (٤٨٨هـ - ١٠٩٥م) ودخل القدس في عهد الصليبيين وفي زمن صلاح الدين (النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٧) .

(٤) طبع ليدن سنة ١٨٨٤ .

وعاشروا المسلمين . فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الاقصى ، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة . فكنت إذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية ، وهم أصدقائي ، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه . فدخلته يوماً ، فكبرت ووقفت في الصلاة ، فهجم علي واحد من الإفرنج ، مسكني ورد وجهي إلى الشرق . وقال : كذا صلِّ . فبادر إليه قوم من الداوية ، أخذوه وأخرجوه عني . وعدت أنا إلى الصلاة فاغتفلهم ، وعاد وهجم علي ذلك نفسه . ورد وجهي إلى الشرق . وقال كذا : صلِّ . فعاد الداويه . دخلوا إليه وأخرجوه . واعتذروا إلي وقالوا : هذا غريب ، وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام . وما رأى من يصلي إلى غير الشرق . فقلت حسبي من الصلاة ، وخرجت» .

«وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة . يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر ، يأخذ يد المرأة ، ويعتزل بها ، ويتحدث معها ؛ والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث . فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى!» .

القدس في عهد صلاح الدين

كان العالم الإسلامي، قبيل الفتح الصليبي، يتخبط في دياجير الفوضى والانقسام. وكان الفاطميون من ناحية، والسلجوقيون من ناحية أخرى، ينازعون العباسيين السلطة. فراحت البلاد نهباً مقسماً بين هؤلاء وهؤلاء.

ولقد استغل الغرب هذا الانقسام، فقام يرتب حملاته الصليبية ضده، وراح ينتزع بيت المقدس من يده. وقد تم له ما أراد، الأمر الذي فصلناه تفصيلاً في الفصل الذي تقدم ذكره.

في تلك الفترة من الزمن اقتطع بنو زنكي (مماليك السلاجقة) ولاية الموصل. وامتدوا إلى سورية. واشتهر منهم نور الدين بمناهضته للفرنج؛ فامتلك دمشق (٥٤٩هـ-١١٥٤م)، واختار أسد الدين شيركوه[(١)] قائداً عاماً لجنده. ولقد غزا أسد الدين مصر ثلاث مرات، وجرت بينه وبين الصليبيين وقائع كثيرة، أبلى فيها بلاء حسناً فولاه (العاضد) الوزارة ولقبه الملك المنصور. ولما توفي اختار العاضد، بطلب من أمراء الجند، ابن أخيه يوسف صلاح الدين[(٢)] للوزارة.

ناوأ صلاح الدين الصليبيين مناوأة شديدة وأغار عليهم في الكرم وعسقلان والرملة وغزة، فأزعجهم، ثم فتح العقبة، وأرسل أخاه شمس الدولة إلى اليمن، ففتحها. وتوغل هو في السودان وضمه إلى مصر[(٣)]. وفي سنة)٥٦٧هـ - ١١٧١م) وبناء على طلب نور الدين، أمر بلبس السواد شعار العباسيين، وخطب في الجوامع للخليفة العباسي المستضيء. وقطع خطبة الفاطميين. فانقرضت بذلك الخلافة الفاطمية. وفي ١١٧٥م ولاه الخليفة حكم مصر والنوبة والمغرب وسورية وفلسطين[(٤)].

---

(١) عم صلاح الدين.

(٢) اتفق أهل التاريخ على أن اباه وأهله من (دوين) من أعمال اذربيجان. ومن قبيلة كردية. ولد سنة ٥٣٢هـ - ١١٣٧م بقلعه تكريت. (ابن خلكان).

(٣) البرغوثي وطوطح.

(٤) ابن خلكان ص ٣٩٩، ورواد الشرق العربي، ص ١٣.

كان الصليبيون قد أسسوا ، بعد احتلالهم القدس ، أربع مقاطعات : الأولى في القدس ، والثانية في الرها وارفا ، والثالثة في طرابلس ، والرابعة في أنطاكية . وكانت مقاطعة القدس أشدهن وقعاً وأكثرهن تنكيلاً بالمسلمين . وكان من أبطالها البرنس أرناط الذي حاول احتلال الحجاز وتخريب الكعبة وهدم قبر الرسول . حتى أنه استحضر سفناً[1] وسار بها بحراً إلى ثغر من الثغور القريبة من المدينة على شاطىء البحر[2] .

أضف إلى هذا أن صاحب الكرك ويجنالد اعتدى ، أثناء الهدنة ، على قافلة من القوافل الإسلامية (١١٨٦م) ؛ فنهبها ، وأسر رجالها . فاعتزم صلاح الدين كسر شوكتهم ، وإنقاذ البلاد من غطرستهم . ورأى بعين ثاقبة أن ذلك لا يتم له إلاّ إذا احتل القدس التي كانت السبب في مجيئهم إلى هذه البلاد . وفي الحقيقة أن فتح القدس واستردادها من الصليبيين كان يشغل بال المسلمين منذ زمن نور الدين .

إن من ينعم النظر في صفحات التاريخ يرى أن نور الدين لم ينقطع عن بث الأرصاد وإرسال الفدائيين إلى بيت بيت المقدس وما حولها من ديار ، مذ سقطت هذه بيد الفرنجة ، ليجوسوا خلال الديار ، ويعرفوا كيف ومن أين مهاجمتها واسترجاعها إلى حضيرة المسلمين .

ففي سنة ٤٠٦هـ - ١١١٢م أغار المسلمون[3] على الضياع التي بين القدس وعكا ، فخربوا ونهبوا وقتلوا ، ثم غادوا إلى دمشق .

وحدثنا ابن ميسر في تاريخه[4] ما يأتي :

«بعد أن احتل الصليبيون بيت المقدس وأخذوها من الأفضل ، لم ينفك المسلمون عن إزعاجهم ومناوأتهم بين كل آونة وأخرى . وفي التاسع من جمادى الأولى سنة ٥٥٣هـ-١١٥٨م سار إليها عسكر ، فعاث وخرب وعاد بغنائم . .»

---

(١) اتى بها شقفاً ، وعبر بها الصحراء من الكرك إلى العقبة ، وفي خليج العقبة ركبها ، فأخذت تجري في البحر .

(٢) المهتدي ، ص ٢٠ .

(٣) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، ص ٥٤ .

(٤) ص ٤٧٢ .

ولقد عثر الأستاذ (مكاليستر)[1] في أسفل جبل الزيتون، وعلى بعد ٦٠٠ متر من الزاوية الشمالية الشرقية من البرج المعروف قديماً ببرج اللقلق، عند ملتقى وادي الجوز بوادي قدرون، على مغارة مصهرجة بالجص ذات قاعتين مربعتين، داخلية وخارجية، ذرع كل منهما أربع في أربع تقريباً. تحتوي الداخلية منها على بضع عشرات من الكتابات العربية المحفورة على جدرانها الثلاثة فرسمها كما هي، وأودعها لدى الأستاذ الألماني (دالمن). وهذا أطلع عليها العلامة السويسري (ماكس فان برشم) الاختصاصي في مثل هذه الأمور. فعقد هذا فصلاً مطولاً عن هذه النقوش في مجموعته القيمة، ولكنه لم يوفق إلى حلها.

زار الأستاذ عادل نفسه المكان، فوجد على الجدران كتابات عربية وأسماء كتبت بخط كوفي، يدل شكله على أنه من آثار منتصف القرن السادس للهجرة. ولقد تمكن من قراءة الأسماء التالية:

الله ولي بكر بن عمر، حمزة بن حميد، بشر بن عبدالله، محمد بن سنان، المنشىء اياس بن أحمد، عبدالواحد بن السائب، أيوب بن عبدالله، خرج وهو يسأل الله الشهادة.

وفي كهف قريب من المغارة نفسها، عثر الأستاذ (دالمن) على حجر نقشت عليه بعض الكلمات رسمها الأستاذ (شيك) ونشرها في إحدى المجلات سنة ١٨٩٢م. وقد حلها (ماكس فان برشم)، فظهر أنها اسم (عبدالله عثمان بن سعيد القصري[2])، واستنتج من خطها الكوفي أنها والكتابات المتقدم ذكرها ترجع إلى منتصف القرن السادس للهجرة، أي في زمن الملك العادل نور الدين بن زنكي الملقب بالشهيد، وهو الزمن الذي كانت القدس فيه في حوزة الإفرنج.

ذهب بعض المستشرقين إلى أن هؤلاء القوم طائفة من المتصوفين أو الدراويش. وقال بعضهم أنهم خوارج أو قطاع طرق. ولكن الأستاذ عادل يؤكد أنهم أبطال من رجال نور الدين كان يبعث بهم، بين كل آونة وأخرى، ليجوسوا خلال الديار، ويأتوا

---

(١) من مقال للأستاذ عادل جبر نشر في العدد ١٤ - ١٩٢٣. من مجلة (صوت الشعب) لصاحبها عيسى بندك.

(٢) القصري نسبة إلى قصر الخلفاء بمصر، وقد انتسب إليه كثيرون. منهم: فارس الدين بن ميمون القصري، وأبوه ميمون القصري صاحب نابلس في أيام الملك العادل ذور الدين الشهيد.

إليه بالخبر اليقين . لأنه كان يسعى لإجلاء الصليبيين عن المدينة . ولكنه قضى نحبه ، قبل أن يدرك غايته . فقام بهذه المهمة ربيبه وخليفته صلاح الدين .

عندما اجتاز نهر اليرموك قبل معركة حطين كانت قوة صلاح الدين ١٢,٠٠٠ فارس و١٢٠٠٠٠ متطوع . هذا على قول ابن الأثير . وأما ابن الجوزي فإنه يقول إن المتطوعين كانوا ٨٠,٠٠٠ . ويقول مؤرخوا الغرب أن مجموع الجنود الذين كانوا تحت إمرة صلاح الدين لم يجاوزوا الـ ٧٠,٠٠٠ (المهتدي : ص٣٥) . ومهما كان الأمر فإنه مما لا شكل فيه أن المعركة الفاصلة التي قامت في حطين (٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ ٠ ١١٨٧م) بينه وبين الصليبيين كان النصر فيها حليفه .

إن انتصار صلاح الدين على الصليبيين في معركة حطين[١] كان مقدمة لانهزامهم في بيت المقدس . وهذا الانتصار نفسه هو الذي قضى على أمانيهم في استعمار فلسطين[٢] . إن معظم سكان فلسطين كانوا في ذلك الحين من المسلمين . ولذلك استقبلوا صلاح الدين بالترحاب . وفي بحر أيام قلائل أخذت الراية الصفراء ، راية صلاح الدين ، تخفق على أكثر المدن بفلسطين . وبعد أيام قلائل التحق به أخوه العادل الذي جاء من مصر لهذه الغاية . فسار إلى بيت المقدس يريد افتتاحها .

قيل إنه كان في بيت المقدس شاب مأمور من أهالي دمشق ، وأن هذا الشاب كتب على لسان القدس الأبيات التالية وأرسلها إلى صلاح الدين :

يا أيها الملك الذي
لمعالم الصلبان نكّس
جاءت إليك ظلامة
تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت
وأنا على شرقي منجّس

---

(١) المهتدي ص٥٠ و(كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) لمؤلفه أبي شامة ، ص٢٦٠ .

(٢) وصف (العماد الكاتب) في كتابه (البرق) ص ٢٧٠ السنة التي انتصر فيها المسلمون على الصليبيين في حطين بـ(السنة الحسنة المحسنة) . لأن فيها وقعت كسرة حطين ، وفيها فتح الساحل ، وفيها فتحت الأرض المقدسة كلها للمسلمين .

أورد مجير الدين في كتابه الأنس الجليل هذه الأبيات ؛ وقال إنها هي التي حمست صلاح الدين ، وجعلته يفكر في فتح بيت المقدس ؛ وإنه بعد أن افتتحها التقى بالشاب ؛ فأنس فيه الكفاءة ، فولاه خطابة المسجد الأقصى . وأما نحن فنقول : إن القصة قد تكون واقعية من حيث كتابة الأبيات وإرسالها إلى صلاح الدين . ولكننا نستبعد أن تكون هي وحدها التي حفزت صلاح الدين لفتح بيت المقدس ، إذ كان صلاح الدين ، كما قلنا في الأسطر المتقدمة ، قد اعتزم فتحها بعد معركة حطين . لا بل إنا نجزم أنه لولاها لما وقعت معركة حطين . حتى أن أحد المنجمين حذر صلاح الدين من فتح بيت المقدس قائلاً : إنه قد يخسر أحد عينيه ، إذا هو دخلها ، فأجابه قائلاً : «إني لأؤثر أن أفقد بصري كله ، إذا كان من وراء ذلك فتح بيت المقدس[1] .

أثبت صلاح الدين بمهارته الحربية التي استعملها ، أنه أمهر قائد[2] نزل إلى ميادين الحروب خلال القرون الوسطى . فانظر ماذا فعل؟ إنه قبل أن يحاصر القدس أرسل إلى قائده لؤلؤ رسالة ، أمره فيها أن يراقب الشواطىء أثناء حصاره بيت المقدس ، لئلا يأتي الصليبيين مدد من أوروبا . وأمره بالاستيلاء على أي مركب أو سفينة لاتينية يراها تمخر في البحر . ولم يهاجم القدس ، إلا بعد أن استولى على عسقلان وبيت جبرين من الجنوب ، وبعد أن طهر وادي الأردن من الشرق .

في ٢٠ أيلول ١١٨٧ شوهدت طلائع جيش صلاح الدين تقترب من أسوار بيت المقدس إلى الغرب آتية من الخليل . وقد كانوا مزيجاً من العرب والكرد والأتراك . فعسكروا في النيكوفورية بين المحطة وبركة ماملا . ولكن سرعان ما ظهر لصلاح الدين أن هذا المكان ليس بمناسب لأجل الشروع في **عمليات الحصار** . وأن الصليبيين المحاصرين قد يستغلونه لمصلحتهم ، لأن السور الغربي مشيد على أكمة مرتفعة . وعلى السور في تلك الناحية أبراج مسيطرة على المواقع التي احتلها ، فلا يستطيع بناء الأبراج التي كان لا بد من بنائها لضرب المدينة بالمنجنيقات . والأراضي هناك من ناحية طبوغرافية لا تسمح بمثل هذه العمليات . أضف إلى هذا أيضاً أن الشمس التي تشرق من الشرق ، ستكون دوماً معاكسة للجيش الذي يأتي من الغرب طوال النهار :

---

(١) لم يذكر هذه الرواية أحد من المؤرخين سوى ابن الجوزي ، جزؤ ٨ ، ص ٢٥٤ .

(٢) المهتدي ، ص ٥٨ .

من ساعة إشراقها من وراء جبل الزيتون حتى غروبها وراء ظهورهم . فلا يستطيع هذا أن يحارب خلال تلك المدة . ولهذا أرسل صلاح الدين طلائعه ليستكشف الجهات الأخرى . ولما أتم كشفه في اليوم الخامس ، نقل جيشه إلى الناحية الشمالية تجاه أسوار المدينة من الشمال[١] . الأرض هنا واسعة ومنبسطة . إنها تتسع لتخييم الجيش براحة وسهولة . وبإمكانه هنا أن يقترب من السور ، وأن يلغمه دون كبير عناء . إذ لا آكام ولا هضاب . أضف إلى ذلك أن السور من الناحية الشمالية كان أضعف من غيره وأكثر انخفاضاً . وكانت هناك طريق موازية لاستقامة السور . ومع ذلك فقد قضى صلاح الدين في الناحية عشرين يوماً ، قبل أن يتمكن من احتلال المدينة ، ذلك لأنه كان يحتاج إلى بعض الوقت لتركيب آلات الحصار . ولا تنس أنه كان في القدس يومئذ[٢] ستون ألف مقاتل خلا النساء والأطفال . وكانت محوطة بسور منيع ، فما كان من السهل احتلالها قبل أن يعد جميع المعدات التي تنيله مأربه .

عندما أتم صلاح الدين ترتيباته ، وركب آلات الحصار ، وأصبح قادراً على اقتحام الأسوار ؛ بعث في طلب أشراف المدينة وخاطبهم بقوله[٣] : «إنني أحترم مدينة القدس ، ولا أرغب في انتهاك حرمتها بإراقة الدماء فيها ، ولهذا أنصحكم بترك المدينة ، وأتعهد من جهتي بأن أعوضكم عن أموالكم بالأموال والأراضي» . ولما رفض هؤلاء الإذعان لنصحه ، أخذ يضربها بالمنجنيق ؛ فقام قتال عنيف بين الفريقين[٤] مات فيه خلق كثير من الجانبين . ولكن دفة المسلمين كانت هي الراجحة . أكثر الأبراج قد تهدمت ، والسور قد انثلم من ناحية وادي جهنم[٥] . فيئس الصليبيون ،

---

(١) يقال إنه عسكر هذه المرة في البطحا الكائنة بين المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة .

(٢) ابن الجوزي ، ج٨ ، ص ٢٥٤ . وكذلك (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) للقاضي بهاء الدين أبي المحاسن يوسف ابن تميم المعروف بابن شداد .

(٣) تاريخ العرب والتمدن الإسلامي .

(٤) ابن خلكان ، ج٢٠ ، ص ٥١٨ .

(٥) الأنس الجليل لمجير الدين .

وأرسلوا رسلهم[١] إلى صلاح الدين ، يعرضون عليه الاستسلام ؛ فرفض في بادىء الأمر ، قائلاً : «إنه لن يمنحهم الشروط الطيبة التي منحها لغيرهم . ولا بد من دخول القدس ، كما دخلها الصليبيون قبل ٨٨ عاماً» . عندئذ استولى الخوف على سكان المدينة ، فذعرت النساء ، وبكى الأطفال ، وراح الرهبان يولولون في شوارع المدينة ، ويندبون سوء المصير .

ثم عادوا ، فأرسلوا باليان ليفاوض صلاح الدين . وقد طلب منه الصلح باسم إله البشر أجمعين . ومما قاله هذا لصلاح الدين[٢] : «إنه إذا ظل مصراً في طلبه ، فإنهم لن يسلموا . في البلاد عدد كبير من الناس . إنهم لن يسلموا بسهولة . سوف يذبحون نساءهم ، لئلا تقع في أيدي المسلمين ، ويهدمون الصخرة والأقصى ، ويقتلون المسلمين من الأسرى الذين كانوا في المدينة وعددهم خمسة آلاف . ثم يحاربون حرب الأبطال» . استشار صلاح الدين[٣] قواده ورجاله ، وبناء على مشورتهم منح الصليبيين ما يطلبون . وأتاح لهم مغادرة المدينة لقاء الجزية ، على أن تدفع خلال ٤٠ يوماً . ووضع على أبواب المدينة أمناء ليحصلوا الجزية فابتدأ خروج المسيحيين في اليوم الثاني من أكتوبر . وفي ذلك اليوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ - ٢ أكتوبر ١١٨٧م **احتل المسلمون القدس** . وكان الوقت بعد بزوغ الشمس بثلاث ساعات[٤] .

أظهر صلاح الدين شيئاً كثيراً من التسامح في معاملة النصارى[٥] :

١ . رغم أنه حدد الفدية بعشرة دنانير شامية عن كل رجل ، وخمسة دنانير عن كل امرأة ، ودينار واحد[٦] عن كل طفل ؛ وحصل عن هذا الطريق ما يقرب من مئة

---

(١) الرسول الذي أرسله الصليبيون لمفاوضة صلاح الدين هو (باليان بن نيرزان) صاحب الرملة (ابن العبري ، ص ٣٨٤) .

(٢) ابن الأثير ، ج١١ ، ص ٢٠٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ١١٠ .

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك .

(٥) العرب والتمدن الإسلامي ، ص٣٠٧ .

(٦) قال القاضي ابن شداد أن الجزية التي حصلت عن كل صغير ، ذكراً كان أو انثى ، كانت ديناراً واحداً ، وأما العماد فإنه قال : أنها كانت دينارين . وقيل إنها كانت في الأصل دينارين ، ثم خفضت إلى دينار واحد .

ألف دينار ؛ فإنه عفا عن كثيرين منهم ، فلم يدفعهم الجزية . ويقول المؤرخون : انه افتدى هو وحده عشرة آلاف شخص . وأطلق أخوه سيف الدين أبو بكر الملقب بالملك العادل سراح سبعة آلاف شخص .

٢ . سمح لجميع الجنود الصليبيين بأن يغادروا المدينة مع أطفالهم وعائلاتهم خلال أربعين يوماً . وضمن لهم سلامة الرحيل إلى صور وطرابلس .

٣ . أمر بأن توزع الصدقات على الفقراء والمرضى والأرامل واليتامى والمقعدين ، وأن يزودوا بالدواب .

٤ . استأذنته الملكة (أزبيلا) بالسفر ، فإذن لها ولرهط كبير من النساء اللواتي كن معها . ولم يكتف بذلك ، بل أمر برد الأسرى إلى أقاربهن .

٥ . سمح لرجال الصحة - رغم أنهم أشهروا السلاح عليه - بأن يواصلوا إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى والعناية بالحجاج المسيحيين .

وأما نصارى بيت المقدس[١] فقد سمح لهم بأن يسكنوا فيها ، ولا يخرجوا ، وأن يؤمنوا ، ولا يزعجوا . وأقام فيها وفي أعمالها منهم ألوف .

جاء في البرق[٢] : «وشرع الفرنج في إخلاء البيوت ، وبيع ما ادخروه من الاثاث والقوت . وأملهوا حتى باعوا بارخص الاثمان . وكان خروجها اشبه بالمجان . لا سيما ما تعذر نقله لثقله وصعوبة حمله . وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك واورثناها قوماً آخرين﴾ .

وغلبوا على ما في الدور من الماعون والمدخور . أما الصناديق والاخشاب والرخام وما يجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والاقسام ، فإنها بقيت بحالها متروكة .

وأشار العماد الكاتب على السلطان أن لا يسمح لهم بأخذ ما كان على القبر من صفائح الذهب والفضة ، وكانت تقدر بمئتي ألف دينار ، قائلاً له : أعطيناهم الأمان

---

(١) هذه الرواية التي وردت في (تاريخ العرب والتمدن الإسلامي) أيدتها أكثر الروايات الإسلامية . وإنا لعمر الحق لا ندري كيف نوفق بينها وبين رواية الأنس الجليل ، إذ قاله مجير الدين : إن الذين لم يدفعوا الفدية وعددهم زهاء خمسة عشر ألفاً (سبعة الآف رجل وثمانية الآف امرأة وطفل) بقوا في القدس ودخلوا في الرق . وفي السلوك ، ج١ ، ص٩٦ ، أن ستة عشر الفاً ممن لم يقدروا على شراء انفسهم أسروا .

(٢) (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) ، ص ٣٣٨ .

في أموالهم لا على أموال الكنائس والديارات .

فرفض السلطان ذلك لئلا يتهم بالغدر .

كتب عماد الدين بوصفه أمين السر لصلاح الدين ٧٠ كتاباً يخبر المسلمين بالفتح .

ومما جاء في الكتاب الذي أرسله إلى الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الإمام المستضيء بأمر الله قوله(١) :

«اجتمع في القدس كل شريد منهم وطريد . واعتصم بمتعتها كل قريب منهم وبعيد . وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم . فلما تركها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت . فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته . فنازل البلد من جانب : فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة عميقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من معقد الدار ؛ فعدل إلى جهة أخرى كان للمطالع عليها معرج ، وللدخيل فيها متولج . فنزل عليها ، وأحاط بها ، وقرب منها ، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وحاجزها ثم ناجزها ، وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها ؛ فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد عن عنق الصفح . فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظار النجدة . فعرفهم الخادم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول . وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عقبها وحبالها ، وأوتر لهم التي ترمي ولا تفارقها سهامها ولا تفارق سهامها نصالها . وقدم النصر بشيراً من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض ، ويعلو علوه إلى السماك . فحينئذ يئس الكفار من أصحاب *الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور .* .» .

بعد احتلال القدس انتشر جنود صلاح الدين في شوارع المدينة وأحيائها : يحفظون الأمن والنظام . ويحولون دون الفوضى والسرقات . فلا نهب ، ولا نزاع ، ولا هم يحزنون . وقد رفعت الأعلام الإسلامية على أسوار بيت المقدس ، ونصب صلاح الدين خيمة خارج السور ، ليتمكن من استقبال الوفود الكثيرة التي جاءت لتهنئته .

---

(١) (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين) ، ص ٣٢٠ ، ابن خلكان ، ص ٤١٩ .

ويقول ابن الجوزي[1] : إن عدد المشايخ والرؤساء الذين جاءوا لتهنئته ، زاد عن الألف .

ثم وزع العطايا والهبات[2] على قواد جيشه وأمرائه . وأقام الولائم . وأطعم الأسرى من المسلمين الذين كانوا بيد الصليبيين . وبعد أن اكرمهم وكساهم ، أرجعهم إلى بلادهم . وقد أحسن صلاح الدين إلى عدد كبير من العلماء .

كان معه أثناء الفتح الفقيه عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف بن القاسم بن عيسى بن محمود بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . فقد أكرمه إكراماً زائداً وراح يستشيره في أكثر أموره .

ومن الذين قربهم إليه الرحالة والطبيب اللغوي والعالم المعروف موفق الدين عبداللطيف البغدادي . فقد زار هذا بيت المقدس بعد الهدنة خصيصاً للقاء صلاح الدين . واجتمع عنده بقاضي العسكر بهاء الدين بن شداد ، والقاضي الفاضل ، والعماد الكاتب وغيرهم كثيرين . ووصف موفق الدين مجلس صلاح الدين بقوله :

إن نجم الدين يوسف الحسين بن المجاور الوزير العزيزي أرسل إليه من مصر قصيدة ، جاء فيها :

يا أيها الملك الذي لطباعه
وسيوفه خلقا رضى وتعسف
لله يوم عروبة إذا عربت
ساعاته عن نصرك المتصرف
سنت سيوفك في الرؤس ختانة
ذهبت بمهجة كل علج أقلف
ما للسواحل غير بحرك حافظ
بشبا سنان أو بصفحة مرهف
أحييت دين محمد وأعدته
وسترته من بعد طول تكشف

---

(١) رواد الشرق العربي ، ص ٧٤ .

(٢) جاء في النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ١٠ ، أن صلاح الدين اضطر لان يبيع ضيعة من ضياعه ، ليتمكن من تفريق ثمنها على المجاهدين من رجاله وقادة جيشه .

وضـــبطت ديوان الجـــهـــاد بعـــامل
من عـــامل وبمشـــرف من مـــشـــرفي
وبجـــهـــبـــذ العـــزم الذي لا ينثني
وبـنــاظـر الـرأي الـذي لـم يـطـرف
فـخـذ الخـراج من البـسـيطة كلهـا
واسـتـأد فـرض جـزية ومـوظف
واقـــبض على الدنيـــا بكف زهادة
وابسط لرحـمـتـهـا جناح تعطف
جـــاءت جنود الله تطلب ثارها
وصـــدورها بك عن قليل تشـتـفي
فـانهض بهـا وتقـاضى حـقك مـوقنا
إن الإلـه بما تـؤمـلـه حـــفـي
أنت اصطفـيـتـهم لنصـرة ديننا
لله در المـصـطـفـى والمـصـطـفـي

بعد أن تقبل صلاح الدين تهاني المهنئين **شرع في تنظيم المدينة**. فذهب، قبل كل شيء، إلى مسجدي الصخرة والأقصى. وأزال ما بهما من آثار نصرانية[١]. إنه أزال النقوش والصلبان التي رسمها الصليبيون على جدران الصخرة الداخلية، وغطاها بالرخام. وغسل الصخرة بماء الورد، فبخرت وفرشت. وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتخشيبه ورصفه بالفسيفساء والرخام.

إن في أقصى الجنوب بالمسجد الأقصى، قبة مرفوعة مزينة بالفصوص الذهبية الملونة. هذه على الغالب صنعت في خلافة المهدي ورممت في زمن الفاطميين وعلى عهد صلاح الدين الأيوبي. ورتب في المسجد من يقوم بوظائفه. فرسم[٢] للقاضي محيي الدين محمد بن زكي الدين على القريشي أن يخطب في المسجد الاقصى. فخطب ودعا للخليفة الناصر وللسلطان صلاح الدين. وانتصب بعد الصلاة، زين

(١) كان الصليبيون قد حولوا مسجد الصخرة إلى كنيسة، وأقاموا فيها مذبحاً، واتخذوا جانباً من مسجد الأقصى كنيسة والجانب الآخر مخازن ومنازل. وقد ملأوها بالصور والتماثيل.

(٢) الأنس الجليل.

الدين بن نجا ، فوعظ الناس . وكانت تلك هي أول جمعة[1] صليت بالمسجد المذكور بعد الفتح الصلاحي (الجمعة ٤ شعبان ٥٨٣هـ) .

ثم أمر بترخيم المحراب العمري القديم . وإنك لتقرأ اليوم فوق محراب المسجد الأقصى السطور التالية منقوشة بالفسيفساء المذهبة : «بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس ، عبدالله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، عندما فتحه الله على يديه في سنة ٥٨٣هـ وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة ، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة» .

ثم أمر بأن ينقل إلى المسجد الأقصى المنبر[2] الذي أمر بصنعه نور الدين زنكي في حلب (٥٦٤هـ - ١١٦٨م) . وإنك لتقرأ الآن على خشب المنبر الكلمات التالية : «بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمله العبد الفقير إلى رحمة الذاكر لنعمته المجاهد في سبيله المرابط لأعداء دينه الملك العادل نور الدين ذكر الإسلام والمسلمين منصف المظلومين من الظالمين أبو القاسم محمود بن زنكي أبو سيف ناصر أمير المؤمنين ، أعز الله أنصاره ، وأدام اقتداره ، وأعلا مناره ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه وأعز أولياء دولته وأزال كفار نعمته . وفتح له وعلى يديه . وذلك في سنة ٥٦٤هـ»[3] .

وأما كنيسة القيامة ، فقد فكّر صلاح الدين ، في بادىء الأمر ، أن يأمر بإغلاقها . ولما استشار أصحابه ، أشار بعضهم بهدمها ، خشية أن يلجأ الصليبيون إليها ، ويتحصنون فيها . وأما باقي الصحاب فقد نصحوه ألا يفعل ذلك ، وأن يعامل خصومه بالحسنى أسوة بعمر بن الخطاب . فعمل بنصحهم . ولم يهدمها . ولكنه اكتفى بإغلاقها مؤقتاً ، ريثما ينتهي القتال . وعندما استتبّ له الأمر ، عاد فأمر بفتحها . ففتحت . وقد سمح للمسيحيين بحرية العبادة فيها ، على أن يدفع كل

---

(١) قال القاضي ابن شداد : إن الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه . وأما العماد فإنه قال : إن يوم الفتح ضاق عن ذلك . فصليت في يوم الجمعة التالي .

(٢) (الكامل في التاريخ) لابن الاثير ، ج١١ ، ص ٣٦٥ .

(٣) هذه وما إليها من اعمال قام بها صلاح الدين في مسجد الصخرة والأقصى ذكرناها بالتفصيل في كتابنا : (تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك) . طبع في (دار الأيتام الإسلامية) بالقدس عام ١٩٥٨ . لناشره الاستاذ فوزي يوسف صاحب (مكتبة الاندلس) .

شخص يغشاها من الفرنج قطعة يؤديها عند الدخول . واستثنى من ذلك النصارى سكان البلاد .

رحل الصليبيون الذين غادروا بيت المقدس إلى أنطاكية ، وطرابلس ، وصور ، فتجمع منهم في هذه المدن والثغور خلق كثير . وراح هؤلاء يتلقون النجدات التي أخذت بعد ذلك ترد إليهم تباعاً عن طريق البحر .

ولم يكن صلاح الدين بغافل عما فعله الصليبيون . فقد أتى بعدد من القبائل العربية ، وأقطعها لهم . فتوطن القدس[(١)] قبائل من بنى حارث ، وكانت منازلهم عند القلعة خارج المدينة . وحارة بني مرة من جهة الغرب الشمالي إلى سوق الفخر (خان الزيت) . وحارة السعدية لبني سعد ، وكانت لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه بيدهم . ويلي عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بني زيد . وحارة الجرامنة سوق القطانين . ثم وزعهم على البلدان . ورتب الأعياد والمراسم المعروفة في بلادنا[(٢)] . ومنها : (موسم النبي موسى) لأهل القدس وأعمالها . و(موسم النبي صالح) للرملة وأعمالها . و(موسم الداروم) لغرة وأعمالها . وكذلك قل عن (موسم المنطار) ، و(موسم الحسين) لعسقلان وأعمالها . و(موسم أبي عبيدة بن الجراح) لعرب المساعيد والمشالخة والصقر . و(موسم النبي روبين) ليافا وأعمالها . و(موسم أبي العيون) لبنى صعب والشعراوية . وكذلك قل عن (علي بن عليم) . وغير ذلك كثير . وجعل هذه المواسم كلها تابعة لموسم (النبي موسى) الذي جمع له قرى بني مالك وبني حسن وجبل القدس والوادية . وعززهم بجبل الخليل ونابلس الذين يردون متعاقبين إلى القدس مع أسحلتهم ومؤنهم وذخائرهم استعداداً للطوارىء . فتصادف هذا المواسم (عيد الفصح) الذي يأتي فيه الأوروبيون لزيارة القدس . والسبب في ذلك أن الصليبيين كانوا نكثوا العهد مراراً . فخشي صلاح الدين إن هم دخلوا القدس زواراً ، أن ينقلبوا جنوداً ، فيحتلون المدينة .

قبل أن يغادر القدس ، عهد صلاح الدين بإدارتها إلى أخيه الملك العادل (أبو بكر سيف الدين) . فأتخذ هذا دير القديسة مريم على جبل صهيون داراً للحكم .

---

(١) البرغوثي وطوطح .

(٢) هناك اعتقاد آخر وهو أن هذه الاعياد والمواسم من وضع الملك الظاهر بيبرس . وأما أنا فاقول : إن الذي أنشأ الفكرة هو صلاح الدين . وأما الذي وسعها وأضاف إليها ، فهو الظاهر بيبرس .

ونزلها هو جنده . ولما رحل عنها صلاح الدين رحل معه أخوه الملك العادل . فتولى إدارة القدس أحد أمرائه الأمير حسام الدين ساروج التركي[١] . واستمر هذا على ولايته إلى وقوع الهدنة بين السلطان والإفرنج في سنة ٥٨٨هـ - ١١٩٢م . فتولاها بعد الهدنة الأمير عز الدين جورديك .

رحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان ، يريد عكا . فأتته ، وهو في عكا ، رسل الملوك لتهنئته بفتح بيت المقدس : من الروم والعراق وخراسان . وأرسل إلى إمبراطور الدولة البيزنطية (إسحاق القاني) بعثاً ليخبره بما تَّم على يديه من الفتوح ، وليسلم إليه مائة وتسعين رجلاً من رعايا الدولة البيزنطية ، كانوا قد وقعوا في يده أثناء حروبه ضد الصليبيين . ونتج عن هذا البعث أن عقد الإمبراطور والسلطان حلفاً سنة ٥٨٥هـ - ١١٨٩م كان من آثاره عداء عواهل غرب أوروبا للدولة البيزنطية[٢] .

زار صلاح الدين القدس مرة أخرى بعد الفتح . وكان ذلك في ثامن ذي الحجة سنة ٥٨٤هـ . ونزل هذه المرة في دار القسس المجاورة لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، وقد اتخذها - كما ذكرنا في غير موضع في هذا الكتاب - مسجداً ورباطاً للصلحاء الصوفية .

انتعشت الحركة التجارية في البلاد على أثر الفتح الصلاحي ، حتى أن السياح الذين زاروا القدس في تلك الآونة قالوا : «إن من صادراتها الجبن والقطن والزبيب والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والإبر والألبان» .

إن السوق المسقوف الواقع شرقي كنيسة الدباغة ، والذي نسميه الآن سوق المبيضين ، كان على عهد صلاح الدين ، سوقاً للخضار . والقسم غير المسقوف منه ، وهو الممتد من سوق المبيضين في الجنوب إلى الشارع المؤدي إلى كنيسة القيامة في الشمال ، كان سوقاً لبيع الدجاج والجبن وجميع أنواع الألبان في ذلك الزمان .

وأما السوق الذي نسميه في يومنا هذا سوق العطارين ، وهو الكائن شرقي السوقين المتقدم ذكرهما ؛ فإنه كان في تلك الأيام سوقاً للمطاعم والحلاقين .

لا يسعنا قبل أن نختم هذا الفصل إلا أن نشير إلى المؤسسات التي أنشأها

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٦٠٥ .

(٢) السلوك ، ج١ ، ص ٩٨ .

صلاح الدين في بيت المقدس . ومنها : البيمارستان ، والخانقاه ، والمدرسة الصلاحية ، والسور والخندق الذي حوله ، ومقبرة باب الساهرة ، وقبة يوسف ، والجامع الذي على جبل الطور .

البيمارستان:

أما (البيمارستان)[1] فقد أنشأه سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م . أنشأه في الحي المعروف الآن بالدباغة . وكان فيما مضى يشمل المكان المعروف بسوق البازار والبقعة الكائنة في شماله وشطراً من الأرض التي تقوم عليها كنيسة الدباغة[2] وشطراً من الأرض التي تقوم عليها سوق افتيموس للروم الأرثوذكس .

جاء في (تاريخ البيمارستانات في الإسلام[3]) : إن السلطان صلاح الدين ، عندما فتح القدس ، أمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب حمامه مارستانا للمرضى . ووقف عليها[4] مواضع . وزودها بالأدوية والعقاقير الغزيرة . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع أبي تميم . وقال النويري[5] : وعزم السلطان صلاح الدين على الحج . ثم عاد إلى القدس ورتب أحواله . وعين الكنيسة التي في شارع قمامة بيمارستانا ، ونقل إليه العقاقير والأدوية .

ولقد ذاع صيت هذا البيمارستان في عهد صلاح الدين وفي العهود التي تلته . إذ كان يداوي الجرحى والمرضى من الجنود والأهلين ويوزع الأدوية والعقاقير على

---

(١) كلمة فارسية مؤلفة من (بيمار) ومعناها المريض أو الدليل و(ستان) ومعناها المنزل أو المكان وقد حرفت مع الزمان فصارت (مارستان) و(مرستان) . وبعد أن كانت تطلق على المستشفى من أي نوع كان ، راح الناس يطلقونها على مستشفى الامراض العقلية فقط .

(٢) اكتشفت الالمان بين الانقاض ، وهم يحفرون اساس هذه الكنيسة ، حجارة نقش عليها اسم صلاح الدين وأسماء الذين تولوا الحكمَ من بعده . (مجلة الراعي الصالح) السنة الثانية الجزء الثاني عشر ، ١٥ آذار ١٩٤٥ ، ص ٤٣٧ .

(٣) للدكتور أحمد عيسى بك ، ص ٢٣ .

(٤) (عقد الجمان) للعيني .

(٥) (نهاية الارب في فنون الادب) ، حوادث سنة ٥٨٨هـ .

الناس بلا مقابل .

ومن الأطباء الذين عملوا في المارستان الصلاحي بالقدس رشيد الدين بن علي الصوري ، المكنى بأبي الفضل . وقيل[(١)] إن اسمه الحقيقي أبو المنصور بن أبي الفضل ابن علي الصوري . ولد في صور ، وتعلم صناعة الطب ، وأقام بالقدس يطبب المرضى (٦١٢هـ - ١٢١٤م) . وكان وحيد زمانه في معرفة الأدوية . فقربه الملك العادل إليه . وبعد وفاة الملك العادل صار طبيباً لابنه الملك المعظم عيسى . وله عدة مؤلفات . توفي سنة (٦٣٩هـ-١٢٤٣م) .

ومنهم : يعقوب بن صقلان (وفي قول آخر صقالب) النصراني المقدسي . ولد بالقدس . وقرأ الحكمة والطب . وأقام بالقدس في مباشرة البيمارستان الصلاحي . ذكره ابن القفطين في كتابه (تاريخ الحكماء) . فقال : إنه ظل مقيماً فيه حتى عام (٦١٥هـ - ١٢١٨م) . وكان من المقربين إلى الملك المعظم عيسى بن الملك العادل . فنقله إلى دمشق . وصار طبيبه الخاص . وأصابه نقرس ووجع مفاصل أقعده عن الحركة ، حتى قيل : إن الملك المعظم إذا احتاج إليه استدعاه في محفة تحمل بين الرجال .

قال الأستاذ رئيف الساعاتي[(٢)] : إن هذا البيمارستان انهار كغيره من المباني مع الأيام ، وأن الزلزال الذي حدث عام ١٤٥٨م أتى على البقية الباقية من أنقاضه . ولعله يقصد البناء الأصلي الذي شيده صلاح الدين . إذ إن السجلات[(٣)] التي عثرنا عليها في المحكمة الشرعية بالقدس ، تدل على أنه كان هناك في أواسط القرن الثامن عشر ، مؤسسة تعرف بالمارستان الصلاحي ؛ حتى أن القاضي عين زين بن إمام قلعة البرك في وظيفة خدمة المرضى والمجانين بالمارستان الصلاحي بعثمانين في كل سنة ، عوضاً عن حجازي بن العجمية لوفاته . وقد أمره بتقوى الله في عمله ، وبالاستنابة عند الحاجة . وحضر المتولي على الوقف عبدالله العلمي وبقية المتولين ، وأحالوا إلى زين ، نظير خدمته ، أجرة الحاصلين الكائنين بالدباغة ، المعروفين بالسجن

---

(١) (تاريخ البيمارستانات في الإسلام) للدكتور أحمد عيسى طبع في دمشق سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٩م . ص ٢٣٠ - ٢٣٣ .

(٢) مجلة (الراعي الصالح) . السنة الثانية . الجزء الثامن عشر ١٥ آذار ١٩٤٢ ، ص ٣٤٦ .

(٣) السجل ١٨٨-٢٢١ ، الصفحة ٢٦٣ ، التاريخ ١١٣٩هـ - ١٧٢٦م .

اللذين كان يتناول أجرتهما حجازي المزبور الخادم السابق بما لهما من الأجرة في كل سنة ، وقدرها ستة غروش عددية . وقبل ذلك ، وفي سنة (١١٦٧هـ - ١٧٥٣م) كان متولي وقف البيمارستان الصلاحي محمد بن نجم الدين أفندي العلمي .

الخانقاه الصلاحية

أخذ صلاح الدين جانباً من منزل البطريرك الملاصق لكنيسة القيامة من ناحيتها الشمالية ، وبعضها راكب على ظهر الكنيسة ، فحوله إلى جامع ورباط أوقفه خانقاه للصوفية[١] وتاريخ الوقف في الخامس من شهر رمضان سنة ٥٨٥هـ - ١١٨٩م .

وقد صارت هذه في الإسلام داراً للمجاهدين . عليها منارة أنشئت زمن المماليك . أنشأها الشيخ برهان الدين بن غانم شيخ الخانقاه حوالي سنة ٨٢٠هـ - ١٤١٧م .

ونقل مجير الدين الحنبلي عن الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ عبدالله البغدادي ، أنه لما قصد الشيخ برهان الدين بن غانم بناء المنارة المذكورة شق ذلك على النصارى بالقدس ، لكونها على كنيسة القمامة . فاجتمع رأيهم على دفع مال كثير للشيخ برهان ، على أن يترك بناءها ، فلم يقبل .

المدرسة الصلاحية:

جعل صلاح الدين كنيسة القديسة حنه[٢] مدرسة للشافعية . وفي ذلك يقول مجير الدين : «وفارض السلطان جلساءه من العلماء في مدرسة للفقهاء الشافعيين ورباط للصلحاء الصوفيين ، فعين للمدرسة الكنسية المعروف بصند حنه . ويقال إن فيها قبر حنة أم مريم عليهما السلام . وهي عند باب الأسباط . ووقفها في ثلاث عشر رجب سنة ٥٨٨هـ . ووظيفة مشيختها من الوظائف السنية في الإسلام» .

---

(١) مجير الدين ، ج١ ، ص ٣٠٢ .

(٢) يعتقد المسيحيون أن هذه الكنيسة بنيت في المكان الذي كان يقوم عليه ، قبل ميلاد المسيح ، مسكن يواكيم وحنة والدي مريم البتول . حفظت هذه الكنيسة ، كما حفظ غيرها من الكنائس ، في الفتح العمري . ولكنها هجرت في اوائل القرن التاسع (٨١٢م) بسبب الاضطرابات التي قامت في المدينة ، ولما ملك الفرنجة القدس (٤٩٢هـ - ١٠٩٩م) اعادوها كنيسة .

وكتبت الوقفية التالية على حجر كبير وضع على باب المدرسة ولم يزل إلى الآن : «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وما بكم من نعمة فمن الله . هذه المدرسة المباركة ، وقفها مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو المظفر يوسف ابن أيوب بن شادي محيي دولة أمير المؤمنين ، أعز الله أنصاره ، وجمع له بين خير الدنيا والآخرة ، على الفقهاء من أصحاب الإمام أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . سنة ثمان وثمنين وخمس مائة» .

وقال أبو الفداء : «رحل السلطان صلاح الدين إلى القدس في ٤ رمضان . فتفقد أحواله ، وأمر بتشديد أسواره ، وزاد في وقف المدرسة بصند حنة ويذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم . ثم صارت في الإسلام دار علم ، قبل أن يملك الفرنجة القدس . ولما ملك الفرنج القدس سنة ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م أعادوها كنيساً كما كانت قبل الإسلام . فلما فتح السلطان القدس ؛ أعادها مدرسة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد» .

سور المدينة

اهتم صلاح الدين بتعمير السور ، وتجديد ما تهدم منه ، اهتماماً كبيراً . وجدد أبراجاً حربية من باب العمود إلى باب الخليل . وحفر حول السور الخنادق ، لئلاً يسهل الدنو منه . وكان يعمل بيده في ذلك ، ويشارك العمال[1] في نقل الحجارة ، والصناع في أعمال البناء . وكذلك قل عن أولاده وعن أخيه العادل وأمرائه . وبعض الحجارة التي كانوا يقطعونها من الخندق كانوا يبنونها في السور . ولقد وصف الرحالة الذائع الصيت موفق الدين عبداللطيف البغدادي الذي ذكرناه فيما تقدم ، وقلنا إنه زار القدس خصيصاً ليرى صلاح الدين ؛ وصف هذا اهتمام صلاح الدين ببناء السور بقوله :

« . . وكان مهتماً في بناء سور القدس ، وحفر خندقه . يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه . ويتأسى به جميع الناس ، الفقراء والأغنياء ، الضعفاء والأقوياء ،

---

(١) قال مجير الدين ، ج١ ، ص ٣٣٨ ، أن ألفين من العمال الذين اشتغلوا في عمارة الخندق والسور مع صلاح الدين ، كانوا من أسرى الفرنجة ، وبعضهم من الموصل ؛ وأن صاحب الموصل أرسلهم مع بعض حجابه ، وقد حملهم مقداراً من المال لينفق في بناء السور ؛ وأن العمل استمر نصف سنة .

حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل . ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر . ويأتي داره وعيد الطعام ، ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المشاغل . ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهاراً . .» .

مقبرة باب الساهرة

كانوا يسمونها فيما مضى (مقبرة المجاهدين) . وهي من آثار صلاح الدين . إنها على بعد بضعة أمتار من باب المدينة الشمالي المعروف بباب الساهرة . فيها عدد كبير من قبور الصلحاء والمجاهدين . وتستعمل حتى يومنا هذا (١٩٦٠) لدفن الموتى من المسلمين .

خلا جانب من جوانبها وهو منها إلى الشرق ، حيث تقوم الآن (١٩٦٠) دار الإخوان المسلمين ومنازل فريق من آل العلمي وغيرهم . فقد اندرس هذا الجانب - ولسنا ندري كيف اندرس؟ وتبعثرت القبور التي كانت فيه!

قبة يوسف

واقعة إلى الجانب من فناء الصخرة ، بين القبة النحوية ومنبر برهان الدين . نقشت عليها الكلمات الآتية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . وصلواته على محمد النبي وآله . أمر بعمارته وحفر الخندق مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين خادم الحرمين الشريفين وهذا البيت المقدس أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين . أدام الله كيانه ونصر أعلامه في أيام الأمير الكبير سيف الدين علي بن أحمد أعزه الله سنة سبع وثمانين وخمسماية للهجرة النبوية» .

جامع الجبل

المقصود هنا جبل الطور الكائن شرقي بيت المقدس . جدده صلاح الدين ووسعه . وكان ذلك بناء على رسالة كتبها القاضي الفاضل[١] باسم ابناء القدس ،

(١) اقتبست هذه المعلومات من مخطوط وجدته في مكتبة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف بعنوان . مجموعة مراسلات للقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن بصاقة ويرجع تاريخ هذا المخطوط إلى سنة ٦٤٤هـ - ١٢٤٦م .

وأرسلها إلى صلاح الدين ، وقد طلب فيها توسيع جامع الجبل ، فوسعه .

مات صلاح الدين[1] في دمشق سنة ٥٨٩هـ . ودفن في تربة بنيت له بجوار جامع بني أمية . وكان عمره لما مات نحواً من سبع وخمسين سنة . وترك من الأولاد سبعة عشر ذكراً وبنتاً واحدة صغيرة . ولم يخلف في خزانته سوى سبعة وأربعين درهماً . ولم يترك داراً ولا عقاراً . كان رحمه الله كثير التواضع ، قريباً من الناس ، كثير الاحتمال ، شديد المداراة ، محباً للفقهاء وأهل الدين والخير ، مائلاً إلى الفضائل ، يستحسن الشعر الجيد ويردده في مجلسه . شديد التمسك بالشريعة . كريماً ، ورعاً ، عادلاً . والأهم من هذا كله أنه كان شجاعاً في الحروب . ولو لم يكن له من الفضل إلا فتح بيت المقدس ، وإدخال هذه البلاد المقدسة في حوزة المسلمين لكفاه ذلك فخراً . فقد بقيت كلمة العرب والإسلام هي العليا في هذه البلاد من الفتح الصلاحي (١١٨٧م) إلى الاحتلال الانكليزي (١٩١٧م) أي قرابة سبعة قرون ونصف قرن .

(١) المقريزي .

القدس وحفدة صلاح الدين

بعد وفاة صلاح الدين (٥٨٩هـ - ١١٩٣م) انقسمت إمبراطوريته المترامية الأطراف إلى عدة ممالك ، فصارت :

الشام وفلسطين - لابنه علي الملقب بالملك الأفضل (أبي الحسن نور الدين) .

مصر - لابنه عثمان الملقب بالملك العزيز (أبي الفتح عماد الدين) .

حلب - لابنه غازي الملقب بالملك الظاهر (غياث الدين) .

الكرك والشوبك وقسم من الجزيرة وما بين النهرين - لأخيه الملك العادل (أبي بكر سيف الدين) .

حمص - لابن عمه شيركوه .

اليمن - لأخيه الثاني طفتكين بن ايوب (سيف الإسلام) .

وكانت مدينة القدس[1] مضافة للأفضل وهو أكبر إخوته . وهو الذي أنشأ (المدرسة الأفضلية[2]) بحارة المغاربة وتعرف قديماً بالقبة . ومن آثاره (المسجد العمري[3]) الكائن إلى الجنوب من ساحة كنيسة القيامة . والظاهر أنه بناه على أساس قديم . وبنى له منارة[4] علو زاوية الدركاه . وكان ذلك في سنة ٥٨٩هـ - ١١٩٣م . وهذا بيّن من الكتابة التالية التي وجدتها منقوشة على حجر من الرخام مثبت في جدار المسجد . وقد كتبت بالخط النسخي الأيوبي :

«بسم الله الرحمن الرحيم . . أمر بعمارة هذا المسجد الشريف والدرجة المباركة ، مولانا الملك الأفضل نور الدنيا والدين خادم بيت الله المقدس وحافظة من المردة الكافرين أبو الحسن علي بن مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب ، قدس الله روحه ونور ضريحه ابتغاء رضوانه ، في شهور سنة تسع وثمانين وخمس مائة ، بتولي

---

(١) مجير الدين .

(٢) راجع ما كتبناه عنها في (مدارس القدس القديمة) .

(٣) عندما ذكر مجير الدين هذا المسجد قال عنه إنه «كائن عند قمامة علو سجن الشرطة» . ومن هذا نفهم انه كان هناك يومئذ شرطة وسجن .

(٤) هدم بعضها على أثر زلزلة وقعت في محرم سنة ٨٦٣هـ - ١٤٥٨م . فاعيد بناؤها حوالي سنة ٨٧٠هـ - ١٤٦٥م .

الفقير إلى رحمة الله عز الدين جرديك متولي الحرم بالبيت المقدس» .

في تلك البرهة توفي (٥٨٨هـ[1] - ١١٩٢م) علي بن أحمد الأمير سيف الدين[2] ابن المشطوب ملك الهكارية[3] . وقد صلي عليه بالجامع الأقصى ، ودفن بالقدس .

أرسل الأفضل إلى أخيه العزيز كتاباً تنازل له فيه عن القدس ، ووافق على إلحاقها بمصر . وكان ذلك بتدبير من وزيره ابن الأثير . لأنها كانت تحتاج إلى مال ورجال لدفع عادية الفرنج عنها . فسر العزيز بذلك . وأرسل مع (عز الدين جرديك النوري) متولي القدس[4] عشرة آلاف دينار ، لينفقها في عسكر القدس . فخطب له بها . ثم أرسل إليها جنداً آخرين ، خشية أن ينقض الفرنج الهدنة .

ثم بدا للأفضل (بدمشق) أن يعود عما رغب فيه لأخيه ، ورجع عنه فعلاً[5] . فتنافر الأخوان . وزاد في تنافرهما تدخل الأمراء (٥٩٠هـ-١١٩٤م) . فساءت الحال وتنافرت القلوب . وخرج العزيز من مصر يريد لقاء أخيه الأفضل . وانتزاع الشام من يده ، بعسكر من الصلاحية والأسدية والأكراد وغيرهم . وكاد ينتزعها منه ، لولا أن توسط باقي الإخوة والأعمام . وأصلحوا ما بينهما .

ولكن الفساد عاد فاشتد بين الأخوين بإغراء من عمهما الملك العادل . فأخذ العزيز القدس والشام من يد أخيه الأفضل . وأصبح الحاكم المطلق في مصر والشام معاً . وبعد أن استتب له الأمر ، نزل القدس (رمضان ٥٩٢هـ - ١١٩٥م) . فأقال ابا الهيجاء السمين[6] ، وأقام على القدس بدلاً منه الأمير شمس الدين سنقر الكبير .

كان الأمير عثمان (العزيز) بن الملك الصالح صلاح الدين شجاعاً ، وكان كريماً عادلاً ورحيماً . فقد أبطل بعض الضرائب والرسوم التي كانت تجبى من الناس على

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١١٧ .

(٢) كان أميراً شجاعاً . دخل مصر مع أسد الدين شيركوه . وعاد بعد سلطنة صلاح الدين إلى البلاد الشامية .

(٣) ناحية من نواحي الموصل ، يسكنها أكراد . ويقال لهم الهكارية .

(٤) هو الأمير جرديك بن عبدالله النوري الذي ولاه صلاح الدين نيابة القدس .

(٥) المقريزي ، ج١ ، ص ١١٥ .

(٦) تولى أبو الهيجاء نيابة القدس بعد إقالة الأمير جرديك .

عهده . ومنع استخدام أهل الذمة في شيء من الخدم السلطانية . وألزم هؤلاء لبس الغيار[١] .

ومن حسناته في بيت المقدس ، أنه وقف[٢] جميع أراضي خربة دير أبي ثور وأراضي القمرة الشرقية والغربية وأراضي خربة بيت سميرة الكائنة ظاهر القدس الشريف ، على الشيخ أحمد الثوري ، ثم على أولاده وذريته . وفي حالة انقطاع النسل على بر لا ينقطع» .

ولما توفي الملك العزيز (٢٧ محرم سنة ٥٩٥هـ - ١١٩٨م) انتقل ملكه إلى ولده محمد . ولقب بالسلطان الملك المنصور ناصر الدين . إلا أنه كان صغيراً . فأقيم الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، بناء على توصية أبيه ، اتابكا[٣] .

ويظهر أن الأمير قراقوش هذا كان مكروهاً ، وكان بين الأمراء من يطمع في منصبه هذا . فقد حدثنا التاريخ ، أنه قامت في القدس ، على أثر ذلك ، مؤامرة قوامها الأمير فخر الدين جهاركس من أمراء الدولة بمصر ، والأمير زين الدين قراجا ، والأمير أسد الدين سر اسنقر ، والأمير شجاع الدين طغرل السلاحدار والأمير عز الدين أسامة ، والأمير فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس . وقد جاء هذا إلى القدس ومعه سبعماية فارس منتخبون . واشترك في المؤامرة نائب القدس يومئذ (الامير صارم الدين صالح) . فكاتب هؤلاء الملك العادل ، وكان يومئذ في دمشق ، يستدعونه لاتابكية الملك المنصور . ولكن الملك الأفضل أحبط هذه المؤامرة ، وسار إلى مصر ، فاستولى على أمور الدولة . ولم يبق للمنصور غير الاسم . وقبض على فريق من المتآمرين ، وفر الآخرون . فانقسمت البلاد إلى قسمين : قسم (بمصر) يؤيد الملك المنصور بوصاية الملك الأفضل ، وقسم (بدمشق) يؤيد الملك العادل . وراحت القدس تعاني ألم الحرب والغلاء بين هذا وذاك . ولكنها - على ما يظهر - كانت يومئذ ترجح

---

(١) جاء في قاموس (محيط المحيط) أن الغيار هو الملبوس الذي يتميز به أهل الذمة عن المسلمين في القرون الوسطى .

(٢) اقتبسنا هذه المعلومات عن حكم صدر من المحكمة الشرعية بالقدس بتاريخ ١٢٢١هـ وبتوقيع القاضي السيد أحمد نجيب .

(٣) كلمة تركية مؤلفة من (اتا) بمعنى الاب و(بك) بمعنى أمير . وهي هنا بمثابة الوصي على العرض وقائد الجيش .

دفة الشام . إذ جاء في السلوك(١) إن الصلاحية قدمت من القدس نصرة للعادل ، وإن عضد العادل اشتد بقدومهم ، وجهز إلى القدس من يمنع الميرة الواصلة من مصر إلى الأفضل . فوجدوا يازكج (وهناك من يقول ياركوح) قد أخرج سبعماية من عسكر مصر نجدة للأفضل . فقاتلوهم وكسروهم وغنموا ما معهم .

ظل الأفضل وعمه العادل يتحاربان ، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين ، إلى أن تغلب العادل . فدخل مصر ، وأقام على أتابكية الملك المنصور (٥٩٦هـ - ١١٩٩م) ، ثم خلعه في السنة نفسها ، وتولى السلطنة بدلاً منه ، فأصبح ملك مصر والشام ، وسمي (السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب) .

من آثار الملك العادل في القدس سقاية الحرم والمطهرة (٥٩٩هـ - ١٢٠٢م) . ولقد نقش على حجر من رخام بالخط النسخي الأيوبي القديم ، وبأحرف صغيرة الكلمات التالية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمل هذه السقاية المباركة السعيدة مولانا السيد الأجل الملك العادل المظفر ناصر الاسلام غياث الأنام سيف الدنيا والدين سلطان جيوش المسلمين أبو بكر محمد بن أيوب خليل أمير المؤمنين ، أدام الله قدرته وأعلا أبدا كلمته ونصر في الخافقين أعلامه وألويته بمحمد وآله وذريته ، في شهر شوال سنة تسع وتسعين وخمسمائة . والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وسلم تسليما» .

توفي في تلك السنة (٥٩٩هـ ١٢٠٢م) الزاهد أبو عبدالله محمد بن أحمد القرشي الهاشمي الأندلسي ، ودفن في بيت المقدس .

اتسعت مملكة العادل ، فقسمها قبل موته بين أولاده : الملك الكامل ناصر الدين محمد (مصر) . والملك الأشرف مظفر الدين موسى (الشرق) . والملك الأوحد نجم الدين أيوب (خلاص وميافارقين) . والملك المعظم شرف الدين عيسى (من العريش إلى حمص) . وجاء في النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٧٢ أنه كان للملك العادل ابن آخر يدعى الملك الأمجد حسن ، وأن هذا توفي في حياة أبيه ، ودفن بالقدس في مدرسة بنيت باسمه .

---

(١) (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي ، ج١ ، ص١٤٩ .

ولما مات[1] (٦١٥هـ - ١٢١٨م) ترك في خزائنه سبعماية ألف دينار . استولى عليها ابنه الملك المعظم . وكانت القدس من أعماله . وكان يديرها بالنيابة عنه[2] الأمير عز الدين عمر بن يغمور المعظمي (٦١٠هـ - ١٢١٣م) . وكان يلقب بالمتولي . ثم أدارها الأمير بدر الدين الهكاري[3] .

يحكى عن الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر ؛ أنه كان يلبس الكلوتة الصفراء بلا شاش ، ويخترق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه كغيره من الملوك .

ويظهر أن سكان البلاد كلهم تبعوه ، واقتبسوا عنه هذا اللباس . فقد حدثنا القلقشندي[4] أنهم كانوا يلبسون الكلوتات الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمائم ، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها ؛ سواء في ذلك المماليك والأمراء وغيرهم .

قيل إن الملك المعظم عيسى كان يحب القدس كثيراً ، ولطالما نزلها ، متفقداً أحوالها ، حتى إنه عندما التقى بالفرنج في الساحل ، وقاتلهم وانتصر عليهم ، وقتل منهم من قتل وأسر من الداوية من أسر ، رأى أن يبعث بالأسرى إلى بيت المقدس ، فأرسلهم إليها منكسي الأعلام[5] .

إن للملك العظم شرف الدين عيسى آثاراً جمة بمدينة القدس ، نذكر منها : الأروقة التي أمام المسجد الأقصى من الشمال والمؤلفة من سبعة أقواس . وكذلك الأبواب الخشبية التي تجدها عند مدخل الأقصى من الشمال (٦٣٤هـ - ١٢٣٦م) .

و(المدرسة المعظمية) . ويقال لها أيضاً (الحنفية) ، واقعة على طريق ستنا مريم وللشمال منها ، مقابل الزقاق المؤدي إلى باب الحرم المسمى باب العتم .

ومن آثاره البرج القائم في وسط القلعة بباب الخليل ، فإنك إذا ما دخلت القلعة المذكورة وجدت برجاً بالقرب من الجامع إلى القبلة ، وعلى أحد جدرانه حجر

---

(١) جاء في السلوك للمقريزي (ص٦٢٧) ، أن الملك العادل كان حميد السيرة ، حسن العقيدة ، كثير السياسة ، حنكته التجارب ، وكان أميل إلى المكائد والخدع منه إلى الحروب . صبور ، حليم ، مهاب ، عظيم ، دين ، وكان أكولاً نهماً . وكان يصيف بدمشق ويشتي بمصر .

(٢) القلقشندي ، ج٤ ، ص٢٢ .

(٣) مات على جبل الطور ، ونقلت رفاته إلى القدس . ودفن في مقبرة ماملا .

(٤) صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٥ .

(٥) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٢٢٣ .

كلسي ، نقشت عليه بالخط النسخي الأيوبي ، السطور التالية[١] :

«بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله إلا الله محمد رسول الله . . . عمل هذا البرج المبارك بأمرمولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبي المظفر عيسى ابن الملك العادل سيف أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذية . وتولى عمارته عز الدين عمر بن يغمور المعظمي . في شهور سنة عشر وستماية . والحمد لله رب العالمين» . (٦١٠هـ - ١٢١٣م) .

ومنها (سبيل شعلان) فقد بناه الملك المعظم عيسى سنة ٦١٣هـ - ١٢١٦م . وهو واقع شمالي الحرم وبالقرب من الرواق الذي بناه هو (أي الملك المعظم) .

ومن آثاره (المدرسة البدرية) الكائنة في وسط المدينة القديمة ، وفي الناحية الغربية من شارع القرمي[٢] . وقد اندثرت ، ولم يبق منها إلا بعض آثار دمجت بالأبنية الحديثة . وقد كتب على مدخلها بالنسخ الأيوبي هذه الكلمات[٣] :

«بسملة . . أنشأ هذه المدرسة المباركة على أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، المولى الأمير الكبير الغازي المجاهد الشهيد بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري ، رحمه الله وتقبل منه ، في شهور سنة عشرة وستمائة ؛ وجعل نظرها إلى الأرشد من أولاده ، كثرهم الله تعالى وجعل سعيهم مشكوراً وذنبهم مغفوراً . ورحمه الله ولمن ترحم عليه» .

ويظهر أن البيمارستان الذي عمره صلاح الدين في بيت المقدس والذي خصص يومئذ لمعالجة المرضى ، كان موضع عناية الملك المعظم . فقد حدثنا ابن العبري[٤] أن يعقوب بن صقلان الطبيب الملكي المقدسي ، وكان مولده بالقدس الشريف وبه قرأ شيئاً من الحكمة على تاذوري الفيلسوف الانطاكي ، كان يباشر شؤون البيمارستان ؛ إلى أن ملكه الملك المعظم فاختص به . وكان هذا حسن المعالجة بالتجربة البيمارستانية . وقد ارتفعت حاله عند الملك ، وكثر ماله إلى أن مرض . وقيل إن الملك المعظم كان إذا احتاج إليه في مرضه ، استدعاه بمحفة تحمل بين الرجال . ولم

---

(١) برشام .

(٢) إن هذا الشارع كائن بين شارع باب السلسة وشارع السرايا .

(٣) برشام .

(٤) ص ٤٤٣ .

يزل كـذلك إلى أن مـات المعظم صـاحـبـه ، ومـات هو من بعـده بقليل (٦٢٦هـ - ١٢٢٨م) .

ولكن هذا الملك الذي عـمـر القـدس ، وجـدد فيـهـا كـثيـراً من الآثار ؛ عـاد فـأمـر بتخريبها (سنة ١٦١٦هـ - ١٢١٩م) ؛ خشية أن يستولي الفرنج عليها . وإليك البيان :

بلغ الملك المعظم أن الفرنج اعتزموا أخذ القدس . فاستشـار الأمراء في تخريبها . فأشـاروا بتخـريبـهـا قـائلين[١] : قد خـلا الشام من العسـاكـر . فلو أخـذ الفرنج القـدس حكمـوا على الشـام جـمـيـعـة . وكـان بالقـدس إخـوه العـزيز عـثمـان وعـز الديـن أيبك استادار . فكتب إليهما المعظم بخرابه . فتوقفا وقالا : نحن نحفظه . فكتب إليهمـا ثانية وقال : لو أخذوه لقتلوا كل من فيه ، وحكموا على الشام وبلاد الإسلام . فشرعوا في خراب السور أول يوم من محرم سنة ١٦١٦هـ - ١٢١٩م . وخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها . خلا برج داود ، وكان غربي البلد ، فإنه أبقاه . ووقع في المدينة ضجة عظيـمـة . وخـرج النسـاء والمخـدرات والبنات والشـيـوخ وغـيـرهـم إلى الصـحـراء[٢] والأقصى ، فقطعوا شعورهم ، ومزقوا ثيابهم . ثم خرجوا هاربين . وتركوا أموالهم . وامتلات بهم الطرقات . فتوجه بعضهم إلى مصر . وبعضهم إلى الكرك . وبعضهم إلى دمشق .

وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ، ويربطنها على ارجلهن من الحصا . ومات خلق كثير من الجوع والعطش . ونهبت الأموال التي كانت لهم بالقدس . وبلغ ثمن القنطار من الزيت عشرة دراهم . والرطل النحاس نصف درهم .

ونقل المعظم ما كـان في القـدس من أسلحـة وآلات قـتـال[٣] . فشق ذلك على المسلمين . وذموا عمله .

ذم الناس المعظم لتخريبه القدس . فقال[٤] القاضي مجد الدين محمد بن عبدالله الحنفي قاضي الطور في خراب القدس :

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٢٤٤ .

(٢) في الأصل الصحراء ، وأما في مرآة الزمان والذيل على الروضتين وعقد الجمان إلى الصخرة .

(٣) المقريزي .

(٤) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٢٤٤ .

مـررت على القـدس الشـريف مـسلمـاً
على مـــا تبـــقى من ربوع كـــأنجم
فـفـاضت دمـوع العين مني صـبـابة
على مـا مـضى من عـصـره المتـقـدم
وقـــد رام علج أن تعـــفى رســـومـــه
وشـــمــــر عن كـــفي لئـــيم مـــذمم
فــــقلت له شلت يمينك خلهـــا
لمعــــتـــبـــر أو ســـائل أو مـــسلم
فلو كـــان يفـدى بالنفـوس فـديتـه
بنفـــسي وهذا الظن في كل مـــسلم

ومن الذين ذموه أسامة بن منقذ الكناني الذي ذكرناه في آخر فصل الصليبيين. وقيل إنه (أي الملك المعظم) اتهمه بمكاتبة الملك الظاهر غازي صاحب حلب. فهرب أسامة من القاهرة. خرج منها كأنه يريد أن يتصيد.

وكان به مرض النقرس. فلحق به الملك المعظم عيسى إلى غزة. وفي الطريق رآه بعض الصيادين، فرموه، وأخذوه إلى الخليل، ومنها إلى القدس. وهناك سلموه إلى الملك المعظم. فأنزله بصهيون. وبعث إليه بثياب وطعام. ولاطفه. وقال له «أنت شيخ كبير. وبك نقرس، سلم إلينا نفسك، فتعيش بيننا مثل الوالد. فامتنع وشتم المعظم. فبعث به المعظم إلى الكرك. واعتقله بها. واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره وخيله. فكان قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار.

عندما مات الملك المعظم عيسى (٦٢٤هـ - ١٢٢٦م) صار ملكه بدمشق والقدس والسواحل، لولده الملك الناصر صلاح الدين داود[١]. ولما كان هذا صغيراً وعاجزاً عن تدبير شؤون الدولة، فقد هاجمه عمه الملك الكامل، وأخذ منه أكثر البلاد التي كانت تابعة له، ومنها نابلس والقدس (٦٢٥هـ - ١٢٢٧م).

وفي تلك السنة قدم الإمبراطور فردريك ملك الفرنج إلى عكا، وكان قد استدعاه[٢] قبل موت أخيه الملك المعظم. وبعد مفاوضات عديدة تولاها من الجانب

---

(١) ابن العبري، ص ٤٢٥.

(٢) السلوك، ص ٢٢٨.

الإسلامي الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ والشريف شمس الدين الأرموي قاضي العسكر وقع الاتفاق بين الملك الكامل وبين الإمبراطور فردريك ملك الفرنج :

١ . على أن يأخذ ملك الفرنج القدس من المسلمين ، ويبقيها على ما هي من الخراب ولا يجدد سورها .

٢ . أن يكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج .

٣ . وأن يكون الحرم - بما حوله من الصخرة والمسجد الأقصى - بيد المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، فيتولاء قوام من المسلمين ويقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصلاة .

٤ . وأن تكون القرى التي بين عكا ويافا وبين اللد والقدس ، بأيدي الفرنج ، دون ما عداها من قرى القدس .

وعقدت الهدنة بينهما مدة عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً ، أولها ثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة (٦٢٦هـ - ١٢٢٨م)[١] ، وحلف الملكان : ملك الفرنج والملك الكامل ، على ما تقرر . فبعث السلطان ، على أثر ذلك ، بخروج المسلمين منه (٦٢٦هـ - ١٢٢٨م) . وتسليمه إلى الفرنج . فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل . وحضر الائمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان . فعز عليه ذلك ، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل والفضة والآلات ، وزجرهم ، ثم قال لهم : امضوا إلى حيث شئتم[٢] . فأنكر المسلمون على الملك الكامل هذا العمل الفظيع ، وراحوا يشنفونه في جميع الأقطار .

واستأذن الإمبراطور فردريك من الملك الكامل في دخول الحرم ، فأذن له . وسير القاضي شمس الدين قاضي نابلس في خدمته . فسار معه إلى المسجد بالقدس . وطاف معه ما فيه من المزارات[٣] .

وأعجب الإمبراطور بالصخرة والأقصى . وصعد درج المنبر ، فرأى قسيساً بيده الإنجيل ، فزجره ، وأنكر مجيئه ، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن

---

(١) جاء في كتاب (العرب والتمدن الإسلامي) ، أن هذه الهدنة عقدت سنة ٦٢٩هـ - ١٢٣١م .

(٢) السلوك ، ص٢٣١ .

(٣) نقل المقريزي نبأ هذه الزيارة عن كتاب (مفرج الكروب في اخبار بني أيوب) . وهذا الاخير كتبها من حديث له مع القاضي شمس الدين الذي رافق الإمبراطور .

ليأخذن ما فيه عيناه . (فإنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد يقدمن علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره) .

ثم نزل الملك في دار . وأمر شمس الدين قاضي نابلس المؤذنين ، ألا يؤذنوا تلك الليلة . فلم يؤذنوا . فلما أصبح الصباح ، قال الملك للقاضي : (لم لم يؤذن المؤذنون على المنابر؟) . فقال له القاضي : (منعهم المملوك إعظاماً للملك واحتراماً له) . فقال له الإمبراطور : (اخطأت فيما فعلت . والله إنه كان أكبر غرض في المبيت بالقدس ، أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل) .

وعلى قول أن أحد المؤذنين واسمه عبدالكريم أذن في تلك الليلة وقت السحر . وكان الانبروز(١) (يقصد الإمبراطور) نازلاً في دار القاضي . فجعل المؤذن يقرأ الآيات التي تخص النصارى مثل قوله : (ما اتخذ الله من ولد) و(ذلك عيسى بن مريم) . ولكن القاضي أمره أن لا يؤذن في الليلة التي تليها . فلم يؤذن . فسأل الإمبراطور عن السبب فقال له القاضي السبب . فقال الإمبراطور : (أخطأتم يا قاضي . أتغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي . فلو كنتم عندي في بلادي ، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم . بالله لا تفعلوا هذا أول ما تنقصون عندنا) .

بكى الناس في دمشق على ما جرى في بيت المقدس . وزاد سخطهم على الملك الكامل بسبب تحريض ابن اخيه الملك الناصر صاحب دمشق وبسبب الدروس التي كان يلقيها في جامع دمشق الحافظ شمس الدين سبط بن الجوزي (مؤلف كتاب مرآة الزمان) عن بيت المقدس . فاجتمع في ذلك المجلس عدد لا يحصى من الناس . وعلت أصواتهم واشتد بكاؤهم وأنشد الحافظ شمس الدين قصيدة أبياتها ثلثماية بيت منها :

على قبة المعراج والصخرة التي
تفاخر ما في الأرض من صخرات

(١) (عقد الجمان) للعيني ، ج١٨ ، ص ٨٣ و(مرآة الزمان) لابن الجوزي ، الانبروز . وفي تاريخ ابن الوردي الانبراطور . وفي (النجوم الزاهرة) ، ج١ ، ص ٢٧١ ، الانبروز . وكذلك في (مرآة الزمان) و(شذرات الذهب) و(الذيل على الروضتين) .

فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم .

ظل الكامل يطمح في الاستيلاء على دمشق ، فحاصرها . وبعد قليل تمكن من الاستيلاء عليها . وعقد حلفاً مع ابن أخيه الملك الناصر ٦٢٦هـ ١٢٢٨م . فأعطى الناصر بدلاً من دمشق الكرك وأعمالها والصلت والبلقاء ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل . وصار للكامل فضلاً عن مصر ودمشق ، الشوبك والخليل وطبرية وغزة وعسقلان والرملة ولدّ وما بأيدي المسلمين من الساحل .

ولما مات الملك الكامل تولى الملك من بعده ولده الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الكامل فاستولى هذا على أكثر البلاد التي كانت بيد الملك الناصر ، ومنها أعمال القدس ٦٣٦هـ - ١٢٣٨م ولكن الناصر داود عاد فتمكن من ابن عمه الملك الصالح ؛ فسجنه ، واسترد هذه البلاد منه .

وفيما كان ملوك بني أيوب خلفاء صلاح الدين يقتتلون ، كان الفرنج يستعدون لقتالهم . وقد عمروا (أي الفرنج) في القدس قلعة ، وجعلوا برج داود أحد أبراجها . وكان قد ترك لما خرب الملك المعظم أسوار القدس . فلما بلغ الناصر داود عمارة هذه القلعة ، سار إلى القدس . وظل يرميها بالمجانيق ، حتى أخذها بعد واحد وعشرين يوماً (٩ جمادي الأول ٦٣٧هـ - ١٢٣٩م) . أخذها عنوة بمن معه من عسكر مصر . وتأخر أخذ برج داود إلى خامس عشرة ، فأخذ من الفرنج صلحاً على أنفسهم دون أموالهم .

هدم الناصر برج داود[2] ، واستولى على القدس ، وأخرج منه الفرنج . فساروا إلى بلادهم . ووصل إلى القدس ، يوم فتحه من قبل الملك الناصر داود ، محيي الدين ابن الجوزي ، ومعه الأمير الصاحب جمال الدين بن مطروح[1] . فقال جمال الدين يمدح

(١) يقول المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) ص ٢٣٣ ، إن السبط أخذ هذا البيت من قصيدة لدعبل الخزاعي .

(٢) بقي هذا البرج وبقيت القلعة خراباً ، إلى أن أعاد المماليك بناءها في أوائل القرن الرابع عشر للميلاد . وسنذكر لك كيف تم ذلك في فصل المماليك .

الملك الناصر داود ، ويذكر مضاهاته لعمه الملك الناصر صلاح الدين في فتح القدس :

المسـجـد الأقـصى له عـادة
سـارت فـصـارت مـثـلاً سـائراً
إذا غـدا بالكفـر مـسـتـوطناً
أن يبـعـث الله لـه نـاصـرا
فـنـاصـر طـهـره أولاً
ونـاصـر طـهـره آخـراً

وفي نفس السنة (٦٣٧هـ - ١٢٣٩م) أفـرج الملك داود عن الملك الصـالح نجم الدين وسارا معاً إلى القدس(٢) ، وتحالفا على أن ديار مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر . وأن يعطي الصالح للناصر مائتي الف دينار .

ولكنهما عادا فاختلفا ، وتنكر الواحد منهما للآخر . وراح الناصر داود (صاحب الكرك) يتفق مع الصالح اسماعيل (صاحب دمشق) لمحاربة الملك الصالح نجم الدين . ولكي ينجحا في محاربتهما له ، وافقا الفرنج بتسليمهم القدس ؛ على أن يكونوا عوناً لهما على الملك الصالح نجم الدين . وسلماهم بالفعل طبرية وعسقلان . فعمر الفرنج قلعتيهما . وحصونهما . وتمكن الفرنج من الصخرة بالقدس . وجلسوا فوقها بالخمر ، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى(٣) .

غادر الملك نجم الدين أيوب القاهرة واستدعى الخوارزمية(١) إلى ديار مصر لمحاربة

---

(١) هو الأمير الصاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى ابن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح . أصله من صعيد مصر . ولد بأسيوط . ثم قدم القاهرة واشتغل وربح في الأدب والكتابة . واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب : قال أبو المظفر : كان فاضلاً كيساً شاعراً . ومن شعره الأبيات المتقدم ذكرها .

(٢) يقول المقريزي نقلاً عن ابن واصل أن الغرض من زيارتهما القدس يومئذ أن يحلف كل منهما لصاحبه على الصخرة المقدسة .

(٣) جاء في السلوك للمقريزي ص ٣١٥ أن جمال الدين بن واصل صاحب كتاب مفرج الكروب شاهد بأم عينه ما أحدثه الفرنج ببيت المقدس .

أهل الشام . فقطع هؤلاء الفرات (٦٤٢هـ - ١٢٤٤م) وهم زيادة على عشرة آلاف فارس وانضموا إلى العساكر المصرية . وهجموا على القدس وعلى رأسهم مقاديمهم الأمير حسام الدين بركة خان ، وخان بردى ، وصاروخان ، وكشلوخان . وقاتلوا الفرنج وعساكر الشام . فاحتلوا القدس . وبذلوا السيف في من كان به من النصارى ، حتى أفنوا الرجال[٢] وسبوا النساء والأولاد ، وهدموا المباني التي في القيامة ، ونبشوا قبور النصارى ، وأحرقوا ما أحرقوا . ثم ساروا إلى غزة فنزلوها . فأرسل إليهم الملك الصالح نجم الدين أيوب يأمرهم بالإقامة في غزة ، ووعدهم ببلاد الشام .

وفي غزة التقى الجمعان :

عسكر دمشق ومعهم الفرنج .

وعسكر مصر ومعهم الخوارزمية . فكان النصر حليف الخوارزمية ومصر . وقتل من الفرنج ومن أهل الشام ما يربو على الثلاثين ألفاً (٦٤٣هـ - ١٢٤٥م) . وعادت القدس من أملاك الملك الصالح نجم الدين . وكذلك قل عن الخليل وغزة والسواحل .

كتب القاضي الفاضل إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الرسالة التالية يبشره فيها بفتح القدس[٣] :

«أعز الله سلطان المقام ، ونصر حزبه وذويه ، وجعل للظفر والتأييد مما يليه ، ولا زالت البشاير تؤم جنابه وتنتحيه ، والبصاير تشكر فعله وترتضيه ، والأوليا تقصد حسن بشر وإحسان بره ، والأعدا يكب كل منهم بين يديه ليديه وفيه . . . وينهي أن العلم الشريف محيط بانفساخ الهدنة وانقضائها . . وعند ذلك أخلى الفرنج القدس من ساكنيه ، ورحل من كان به من قاطنيه . ولم يقم به إلا طاغية من طغاتهم ،

---

(١) ينتسبون إلى بلاد خوارزم شرقي بحر قزوين . وهم تتر . عندما هاجمهم المغول وأبادوا حكومتهم ، هاموا في البلاد يقتلون وينهبون ، وظل جنكيز خان يدحرجهم ، وهم ينهزمون من امامه . حتى وصلوا العراق . فسمع بهم الملك الصالح أيوب . واستدعاهم لمحاربة الفرنج وبني عمه . فاتفقوا معه على شريطة ان تعطى لهم الاقطاعات ويسكنهم البلدان .

(٢) جاء في (تاريخ شرقي الاردن وقبائلها) لمؤلفه بيك باشا ص ١٥١ أن الجيش الذي زحف على القدس يومئذ (١٢٤٤م) كان بقيادة ركن الدين بيبرس . وأن هذا عندما احتل القدس أعمل السيف في سبعة آلاف من سكانها .

(٣) مجموعة المراسلات ، ص ٣٩ .

وداهية من دهاتهم . كان في مدة الهدنة قد بذل في عمارة قلعتها غاية الاجتهاد . وجنى لها ثمرات الأموال من جميع البلاد . وشحنها بما قدر عليه من الذخائر والازواد . فاستقوى شرذمة من أبطالهم وفرسانهم . واستهوى طايفة من رجالتهم وفرسانهم . واستحلفهم على الموت ، فحالفوه وبايعوه . واستخف قومه ، فأطاعوه وبايعوه . فأقاموا بالقلعة المذكورة يخيفون السبيل ، ويقطعون الطريق . ويرمون النار ، ويصيحون الحريق . وعمدوا إلى القلعة والبرج ، فحفوهما بالستاير وآلات القتال . وشحنوهما بالعدد والذخاير والرجال . وسحروا أعين الناس ، واسترهبوهم بما ألقوه من العصي والحبال . فتوجه المملوك إليها . ونزل بطايفه من العسكر عليها . وطاولها لعله يتسلمها بالامان ، كما سلمت بالأمس . وقصد أن لا يراق بها دم مسلم هو خير مما طلعت عليه الشمس . فأصروا على المصابرة والممانعة . وأبوا إلا المدافعة . فجرد المملوك جماعة من الرماة فأطلقت من نبل المنايا وبلاً . وأرسلت إليهم من منايا الحنايا رسلاً . ونصب عليهم المناجيق التي هي كما علم المولى خضم القلاع . . فأرتهم بالنهار من كواكبها نجوماً . وجعلت أحجارهم لشياطينهم رجوما . ورمى الزراقون النار في ستايرهم المنتظمة فأحرقت . ودخل النقابون من أسوارهم الملتحمة فاحترقت . فعند ذلك طلبوا الأمان ليخرجوا بنفوسهم سليمة . وقنعوا بالإياب ورأوه نعم الغنيمة . فأجابهم المملوك إلى ملتمسهم ، ومكنهم من الخروج بمجرد أنفسهم . واستولى المملوك على ما في القلعة والبرج من عدة وذخيرة . واقتسم العسكر ما بها من غلة وميرة . وقد سير العبد رسوله ليتلو بين يدي مولانا سورة الفتح من لسانه ، ويروي خبر الواقعة ببيانه المعتضد بعيانه . فإنه كان للفتوح مشاهداً ، وللعدو مع المجاهدين مجاهداً . طالع بذلك والله تعالى ينصر المولى وينصر به . ويصل سبب التوفيق بسببه . ويبلغة في الدارين غاية أمله ونهاية مطلبه ، بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى» .

زار الملك الصالح نجم الدين ، على أثر ذلك ، القدس (٦٤٤هـ-١٢٤٦م)[1] . فتصدق على فقرائها بالفي دينار . وأمر بذرع سورها ، فجاء في ستة آلاف ذراع بالهاشمي . فأمر بصرف القدس في عمارته ، وإن احتاج إلى زيارة حملت إليه من مصر .

---

(١) جاء في (النجوم الزاهرة) ، ج٦ ، ص ٣٥٤ ، أن الملك الصالح زار القدس ، صنة ٦٤٦ .

الآن وقد انتهينا من ذكر المعركة التي كان قائدها مقدم الخوارزميين الأمير حسام الدين بركة خان ، نرى من العدل أن نقول الكلمة التالية :

قال الأستاذ عبدالله مخلص في رسالة بعث بها إلى صديقه الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف صاحب مجلة (الآثار) بزحلة - نقلاً عن أبي الفدا في تاريخه طبعة مصرج ٤ ص ١٧٥ - أن حسام الدين بركة خان هو مقدم الخوارزمية الذين اتفقوا مع الصالح إسماعيل والناصر داود على محاربة الملك الصالح أيوب . وجاء في كتاب (السلوك في معرفة دول الملوك) ص ٣١٥ و٣١٦ و٣١٧ أن الملك الصالح أيوب هو الذي استدعى الخوارزميين ، فاتفقوا معه ، وحاربوا في صفوفه ضد الصالح أيوب والناصر داود . وأن الأمير حسام الدين كان في مقدمتهم يوم احتلوا القدس . والحقيقة أن الخوارزميين لم يبقوا على حال . لقد حالفوا الملك الصالح أيوب أولاً . وأعانوه على فتح القدس ، ثم قلبوا له ظهر المجن ، فراحوا يؤيدون الناصر داود صاحب الكرك ، والصالح إسماعيل صاحب دمشق . ذلك لأن الملك الصالح أيوب لم يف لهم بوعده ، ولم يعطهم الشام . ومهما يكن من أمر الخوارزميين ، فإن الأمير حسام الدين اشترك معهم في جميع المعارك التي خاضوا غمارها . وظل يحارب حتى قتل في معركة حمص . فنقل رأسه إلى حلب وجسده إلى القدس (١ محرم ٦٤٤هـ - ١٩ ماريس ١٢٤٦م) . وقيل إنه كان نائباً للملك في القدس . وكان يلقب بملك الأمراء . وهناك تربة فيها قبره ، وقبر ولديه بدر الدين محمد بك وحسام الدين كره بك ، وذلك في المكان المعروف بالمكتبة الخالدية تجاه المدرسة المعروفة بالطارزية وعند ملتقى طريق باب السلسلة بطريق حارة المغاربة . وإليك الكتابات المنقوشة على هذه القبور .

كتب على الأول : «كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى حسام الدين ملك الأمراء البركة خان . توفي في سنة أربع وأربعين وستمائة . غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين» . (٦٤٤هـ - ١٢٤٤م) .

وكتب على الثاني : «بسم الله الرحمن الرحيم . كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقب الدار . هذا قبر العبد الفقير الراجي رحمه الله وغفرانه حسام الدين كره بك بن بر كتخان . نور الله ضريحه . توفي ثالث ذو الحجة سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة . غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . وصلى الله على محمد وآله

أجمعين» . (٦٦١هـ - ١٢٦٣م) .

وكتب على الثالث : «﷽ . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها إن الله عنده أجر عظيم . هذا قبر العبد الفقير إلى الله الراجي رحمته وغفرانه الأمير الكبير بدر الدين محمد بك بن بركتخان . توفي مستهل ربيع الأول لثمان وسبعين وستماية ٦٧٨هـ» .

وقد نقش على نافذة الخزانة والمقبرة مايلي :

«﷽ . كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين . ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد . يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم .

هذه تربة العبد الفقير إلى الله وغفرانه بركنخان . نور الله ضريحه . توفي يوم الجمعة مستهل محرم وكتب سنة أربع وأربعين وستماية . غفر الله له ولوالديه ولمن دعا له بالمغفرة . آمين يا رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين» . ١٢٤٤م .

«ياك از عدم آمديم ونا ياك شديم آسوزه درامديم وغماك شديم بوديم زخاك تيره وزآتس آب بازدرخاك شديم .»

ونقش أيضاً على عتبة النافذة :ـ

«انشأ هذا الشباك والقبة به المرحوم الشهيد الملك حسام الدين بركة خان مع باب القنطرة وعلوها والبوابة المباركة والمسقاة والحوانيت وعلوهم ، وخمسة بيوت بدار الواقف الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن أبي العلاني لطف الله تعالى به في مستهل ذي القعدة سنة اثنين وسبعين وسبعماية» . ١٣٧٠م .

إن انهزام الصليبيين في موقعة غزة (٦٤٢هـ-١٢٤٤م) ، واستيلاء المسلمين على القدس ؛ أثار غضب الصليبيين ، وفزع ملوك أوروبا كلهم . فرتبوا الحملة الصليبية التي يسمونها بالسابعة . فوصلت هذه الحملة إلى قبرص (٦٤٦هـ - ١٢٤٨م) . وبعد انقضاء الشتاء نزلوا في سواحل فلسطين . وكان على رأسهم ريدا فرنس الملقب (لويس التاسع) . وكان هذا من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأساً . وكانت الغاية من هذه الحملة تخليص بيت المقدس من المسلمين .

عندما وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى شواطئ فلسطين ، أرسل قائدها وزعيمها لويس التاسع كتاباً (٦٤٧هـ - ١٢٤٩م) إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب جاء فيه :

«أما بعد . فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية ، كما أني أقول إنك أمين الأمة المحمدية . وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار . وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية . فلو حلفت لي بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ؛ ما ردني ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك في أعز البقاع عليك . فإن كانت البلاد لي ، فيا هدية حصلت في يدي ؛ وإن كانت البلاد لك والغلبة علي ، فيدك العليا ممتدة إليّ . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا» .

فلما وصل الكتاب إلى السلطان ، وقرىء عليه ؛ اغرورقت عيناه بالدموع ، واسترجع (أي قال : إنا لله وإنا إليه راجعون) فكتب الجواب بخط القاضي والكاتب الشهير بهاء الدين زهير بن محمد وإليكه(١) :

«بسم الله الرحمن الرحيم . وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد : فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف . وما قتل منا قرن إلا جددناه ، ولا بغي علينا باغ إلا دمرناه . فلو رأت عيناك - أيها المغرور - حد سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم . ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك . فهنالك تسيء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فإذا قرأت كتابي هذا ، فكن فيه على أول سورة النحل : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ .

«وكن على آخر سورة ص . ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ . . ونعود إلى قوله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع

---

(١) السلوك ، ص ٣٣٥ .

الصابرين﴾ . وإلى قوله الحكماء : «إن الباغي له مصرع ، وبغيك مصرعك . وإلى البلاء يقلبك ، والسلام» .

دارت المعارك بين الفريقين في مصر . ولا محل لذكر هذه المعارك هنا . غير أنه لا بد من القول إن الملك الصالح نجم الدين أيوب مات -٦٤٧هـ - ١٢٤٩م) والقدس لا تزال في يده . وتولى مكانه ولده الملك المعظم غياث الدين تورانشاه .

إن الملك المعظم لم يحسن الإدارة . فأهمل الأمراء والاكابر ، وأبعد غلمان أبيه ، وقدم الأراذل . وجعل الطواشي مسروراً ، وهو خادمه ، استادار السلطان . وأساء إلى المماليك وتوعدهم . وانهمك في الفساد . فنفرت منه قلوب المماليك البحرية . فتآمروا عليه ، وقتلوه (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م) . وبمقتله انقرضت دولة بني أيوب بمصر .

من رجال بيت المقدس الذين اشتهروا على عهده الإمام جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليمان البلخي المقدسي المعروف بابن النقيب . ولد بالقدس[1] سنة ٦٢١هـ - ١٢٢٣م وأقام في الأزهر مدة طويلة . وله مصنف حافل بلغ تسعة وتسعين مجلداً . وفيه الشيء الكثير عن أخبار بني أيوب .

---

(١) (أهل العلم بين مصر وفلسطين) للاستاذ أحمد سامح الخالدي ، ص ١٠ .

الباب الرابع
القدس
في عهد المماليك

- القدس في عهد المماليك البحرية
- القدس في عهد المماليك البرجية
- مدارس القدس القديمة

القدس في عهد المماليك

١ - القدس في عهد المماليك البحرية

بعد أن اتسعت مملكة بني أيوب، على عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت كلمتهم هي العليا في مصر والشام؛ عادت، فتضاءلت عندما توفي الملك الصالح (٦٤٧هـ - ١٢٤٩م) وتولى مكانه ولده الملك المعظم غياث الدين تورانشاه. إذ إن هذا لم يحسن إدارة الملك. فنفرت قلوب المماليك البحرية منه، فتآمروا عليه، وقتلوه (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م). وبمقتله انقرضت دولة بني أيوب.

أجمع أمراء المماليك على أثر ذلك الحادث، واتفقوا على إقامة (شجرة الدر[١]) في مملكة مصر. فأصبحت هذه سيدة البلاد. وأقاموا (الأمير عز الدين أيبك) التركماني على رأس جيشها.

لم ترض الشام عن هذه الحركة، لا، ولا بغداد، وقد استنكرها الخليفة العباسي المعتصم بالله.

وحدث أن اقترنت شجر الدر، على أثر ذلك بالأمير عز الدين أيبك. وتنازلت له عن الملك. فأصبح ملكاً. وراح يدعى «الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني».

أسس أيبك العائلة المملوكية الأولى (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م). وعرف بلقب المعز. واختلف مع الملك الناصر[٢] في دمشق. وكان الخلاف يحوم حول سوريا. فراح الفريقان يقتتلان: مماليك مصر من ناحية، والأمراء الأيوبيون في دمشق من الناحية الأخرى. وكانت الحرب سجالاً بينهما. ثم اصطلحا[٣] (٦٥١هـ -١٢٥٣م): على أن يكون للمصريين إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك، وأن يدخل فيما للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله.

---

(١) إنها في الأصل جارية تركية وعلى قول أرمنية. اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب. فنالت عنده الحظوة الكبرى. اسمها عصمة الدين. وتلقب بأم خليل وشجرة الدر. إنها وإن كانت تتمتع بمكانة ممتازة في قصر الملك الصالح، إلا أنها ما كانت لتحلم أنها ستصبح الآمرة الناهية في البلاد، لولا مقتل تورانشاه.

(٢) الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب.

(٣) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك.

بعد مقتل الملك المعز أيبك ، تولى الملك ابنه الملك المنصور علي بن ايبك التركماني (٦٥٥هـ - ١٢٥٧م) . ولكن هذا كان صغير السن ، وكان ضعيفاً . فاستغل رجال الشام ضعفه ، وخرج فريق منهم إلى القدس . وكان فيها يومئذ (سيف الدين كبك[١]) . فطلبوا منه أن يكون معهم فامتنع . فاعتقلوه . وخطبوا بالقدس للملك المغيث بن العادل بن الكامل بن العادل بن أيوب . ثم ساروا إلى غزة ومصر . وفي الصالحية وقعت الحرب بين الفريقين . فكان النصر حليف المصريين .

يظهر أن مماليك مصر اعتقدوا أن خصومهم ما كانوا ليجرؤوا على التحرش بهم ، رغم الاتفاق السابق ، لولا ضعف ملكهم ، فخلعوه (٦٥٧هـ - ١٢٥٩م) . وأقاموا مكانه الأمير سيف الدين قطز المعزي[٢] ، ولقبوه بالملك المظفر . وقد عرف هذا بالشدة والصرامة والإقدام .

ولما قتل قطز[٣] أقام الأمراء الذين قتلوه بدلاً منه الأمير ركن الدين بيبرس[٤] (١٩ ذي القعدة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) ولقب بالملك الظاهر بيبرس . وكان يكنى (ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي البند قداري) .

كان أول عمل قام به الملك الظاهر بيبرس بعد أن تولى الملك ، إلغاء جميع الضرائب التي أحدثها قطز ، وتعمير البلاد التي دخلت تحت حوزته . إنه حكم فلسطين حكماً عادلاً . وطارد من بقي فيها من الصليبيين . وقاوم جيوش التتار ، وصدهم عن فلسطين ، واهتم بالأماكن المقدسة اهتماماً تاماً ، فعمرها .

ولقد زار بيت المقدس يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٦٦١هـ - ١٢٦٢م . فجدد قبل كل شيء ما كان قد تهدم من الصخرة[٥] . وجدد قبة السلسلة ، وزخرفها . ورتب برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة الآف درهم . وأنشأ بها خاناً للسبيل

---

(١) النجوم الزاهرة ، ح٧ ، ص ٤٤ .

(٢) كان من مماليك المعز ايبك .

(٣) الذي قتله قائد جيشه بيبرس . وهو الذي تولى الملك من بعده ، وقيل إن السبب في ذلك هو أن قطز وعده بحلب ثم استرد وعده ، فاضمر له الشر ، فقتله .

(٤) إنه تركي الأصل ، اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ورقي في مناصب الدولة حتى أصبح ملكاً .

(٥) النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٩٤ . وعلى رأي فوات الوفيات والذيل على مرآة الزمان ، قبة الصخرة هي التي جدد بها وليس الصخرة نفسها .

نقل بابه من دهليز كان للخلفاء المصريين بالقاهرة . وعلى قول إنه باب القصر المعروف بباب[1] العيد . والذي تولى بناء الخان المذكور هو الأمير جمال الدين محمد بن نهار[2] . ولما تم بناؤه (٦٦١هـ-١٢٦٢م) وقف عليه قيراطاً ونصف بالمطر[3] ، وثلث وربع قرية المشيرفة من بلد بصرى من أعمال حوران ، ونصف قرية لبنى[4] ، على أن يصرف ريع ذلك في خبز وفلوس وإصلاح نعال من يرد عليه من المسافرين المشاة . وبنى به مسجداً وطاحوناً وفرناً وبستاناً . ونادى بالقدس ألا ينزل أحد في زرع .

عندما ذكر القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٣٥٠) الخان الذي بناه الملك الظاهر بالقدس ، قال إنه (أمر ببناء خان خارج البلد) . إنا لا نظن أنه يقصد خارج السور ؛ إذ إن السور كان يومئذ لا يزال متهدماً منذ زمن الملك المعظم عيسى (١٢١٩م) . ولم نسمع بتعميره خلال تلك السنوات التي انقضت بعد ذلك التاريخ ، وإنما نميل إلى الظن أنه يقصد أن يقول في أقصى المدينة ، ومن يدري؟ لعله يقصد البناء الذي لا يزال قائماً حتى الآن عند مفترق الطرق بباب العمود من الداخل ، وعلى بعد مئة متر من الباب المذكور إلى القبلة ، له أربع قباب مبنية على الطراز الهندسي الذي كان مألوفاً في زمن المماليك ، وهو الآن وقف يستغله جماعة من آل الخالدي والعلمي وقليبو وغيرهم ، يعرف متولو الوقف أنه من آثار الملك الظاهر . ويظهر أنه كان على عهد الملك الظاهر مخفراً لرجال الشرطة ، أو داراً للاستراحة ، أو مقراً للمحتسب الذي كان مسؤولاً عن الحسبة ونظارة السوق . وقد يكون الخان الذي ذكره القلقشندي قريباً من هذا المكان .

ولقد زار الملك الظاهر بيبرس القدس مرة أخرى في شعبان من سنة ٦٦٤هـ - ١٢٦٥م . ويظهر أن التعميرات التالية جرت خلال زيارته الثانية هذه أو بعدها بقليل .

إن (رباط البصير) الكائن شمالي الطريق الموصلة إلى الحرم من جهة باب الناظر

---

(١) كان ذلك الباب أحد أبواب القصر الكبير الفاطمي . وقيل له باب العيد ، لأن الخليفة كان يخرج منه في يوم العيدين للصلاة . صبح الأعشى للقنقشندي ، ج٣ ، ص٣٥٠ .

(٢) هذا ما جاء في السلوك وعيون التواريخ ، وأما في الأصل فإنه محمد بن بهادر (النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٢١) .

(٣) وفي عيون التواريخ قيراطاً ونصف من الطرة (النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٢١) .

(٤) في عيون التواريخ قرية لفتا (النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٢١) .

وعلى بعد بضعة امتار من الباب المذكور للغرب ، أنشىء سنة ٦٦٦هـ - ١٢٦٧م[1] . هناك بلاطة من رخام وضعت فوق بابه ونقش عليها ، بالنسخ المملوكي القديم وبأحرف صغيرة ، الكلمات الآتية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما وقف الأمير علاء الدين آيدغدي[2] الركني . وقف جميع داخل هذا الباب من الأقباء والساحة على الفقراء الواردين لزيارة القدس الشريف ، وقفاً مؤيداً في سنة ستة وستين وستماية . .» . وقد استغل الأتراك هذا المكان ، على عهدهم ، سجناً . وسموه : (حبس الدم) .

وقال مجير الدين في موضع آخر من كتابه الأنس الجليل أن الفصوص التي على الرخام في مسجد الصخرة من الظاهر من آثار الملك الظاهر (٦٦٩هـ - ١٢٧٠م[3]) . وهو الذي بنى على قبر موسى عليه السلام عند الكثيب الأحمر قبلي أريحا قبه ومسجداً ، ووقف عليه وقفاً (٦٦٨هـ - ١٢٦٩م) .

ومن صفات الملك الظاهر أنه كان يشجع العلم . وكانت القدس على عهده مأوى للعلماء . ومنهم[4] :

المحدث زين الدين أحمد بن عبدالدائم بن نعيمة المقدسي . ذكره الذهبي فقال عنه : إنه توفي سنة ٦٦٩هـ - ١٢٧٠م بالقدس ، ودفن فيها .

وشيخ الحرم القدسي موسى بن غانم بن علي بن إبراهيم بن عساكر بن حسين الأنصاري . كان كبير القدر ، وكان شجاعاً ، تولى مشيخة الحرم بالقدس . ومات بها بعد أن جاوز السبعين ٦٦٩هـ - ١٢٧٠م .

والأمير شرف الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كامل الكردي الهاكاري . فقد كان هذا أحد أعيان القدس .

---

(١) (الأنس الجليل) لمؤلفه مجير الدين . ص ٣٩٤ وص٦٠٥ .

(٢) كان ناظراً لاوقاف . وله فيها عدة عمائر ورباطات وآثار . وكلمة (آيدغدي) تركية معناها : (ولد القمر) .

(٣) هذا ما قاله مجير الدين في الصفحة ٤٣٣ من كتاب (الأنس الجليل) . وأما المقريزي فإنه يقول في الصفحة ٦٠٨ من كتابه (السلوك في معرفة دول الملوك) أن عمارة الصخرة انجزت سنة ٦٧١هـ - ١٢٧٢م .

(٤) النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ٢٣٠ .

سمع الحديث وحدث . ولد بالقدس سنة ٥٩٣هـ - ١١٩٦م . وكان أحد الأمراء المشهورين بالشجاعة والإقدام . وله وقائع معدودة ومواقف مشهورة مع العدو ، بأرض الساحل وفي الأعمال الجليلة . قدمه الملك الظاهر بيبرس على العساكر في الحروب غير مرة . مات بدمشق سنة ٦٦٩هـ - ١٢٧٠م . ومن شعره ما كتبه للوزير شرف الدين ابن المبارك وزير إربل :

أأحبابنا إن غبت عنكم وكان لي
إلى غير مغناكم مراح وأيام
فما عن رضا كانت سليمى بديلة
بليلى ولكن للضرورات أحكام

مات الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ - ١٢٧٧م بعد أن ملك مصر والشام سبع عشرة سنة . كان يحب القدس . وقد نزلها . وكانت عدة عسكره اثني عشر ألفاً ، ثلثها بمصر وثلثها بدمشق وثلثها بحلب . وكان كثير السفر ، خفيف الحركة ، حتى قال فيه سيف الدولة الممندار من أبيات يمدحه فيها :

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالـ
شام ويوماً في قرى حلب
تدير الملك من مصر إلى يمن
إلى العراق وأرض الروم والنوبي

تولى الملك ، بعد الملك الظاهر ، ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد (٦٧٦هـ - ١٢٧٧م) ثم ابنه الثاني الملك العادل بدر الدين سلامش (٦٧٨هـ - ١٢٧٩م) . ولم يذكر التاريخ أنهما قاما بعمل في القدس . وقد ترك الملك كلاهما خلعاً . فتولاه من بعدهما الملك المنصور سيف الدين قلاون (٦٧٩هـ - ١٢٨٠م) . وكان يلقب بالصالحي الألفي .

قامت على عهده بالقدس المنشآت الآتي ذكرها :

(رباط قلاون(١)) ويسمى أيضاً الرباط المنصوري . أنشأه سنة ٦٨١هـ - ١٢٨٢م . ووقفه على الفقراء من زوار القدس .

(المسجد القلندري) واقع في طريق دير اللاتين أو حارة دير الإفرنج ، في الناحية

---

(١) انظر إلى ما كتبناه من هذا الرباط بالفصل الذي خصصناه لمدارس القدس في عهد المماليك .

الجنوبية ، لم يبق منه اليوم سوى الاسم .

أُسس هذا المسجد في زمن الملك المنصور قلاون (٦٨٦هـ -١٢٨٧م) . يدلك على ذلك الكتابة الآتية وهي مكتوبة على الحائط المطل على الطريق قياسها ٨٦ سم في ٤٥ :

«بسملة . . الصلاة . . جددت عمارة هذا المسجد المبارك في أيام مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون ، خلد الله ملكه . ومما وقف له وحبس عليه الطبقة أعلاه والتربة قبالته وما يليه من الغرب بتاريخ سنة ستة وثمانين وستماية .

(الكبكية) (القبقية) ويسميها الناس (القبقية) ؛ قبة جميلة واقعة في تربة ماملا وإلى الشمال الشرقي من البركة . وهناك على بلاطة من رخام فوق مدخلها نقشت بالنسخ المملوكي القديم الكلمات التالية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة على نبيه محمد وآله . هذه تربة العبد الفقير إلى الله تعالى الأمير علاء الدين أيدغدي بن عبدالله المعروف بالكبكي . توفي في يوم الخميس الخامس من شهر رمضان المعظم سنة ثمانية وثمانين وستماية . تغمده الله برحمته واسكنه جنته» (٢٢ سبتمبر ١٢٨٩م) .

وإليك بيان الوقائع التي جرت على عهد الملك المنصور قلاون ، نذكرها بمقدار ما لها من صلة تاريخية بمدينة القدس ، منقولة عن كتاب السلوك في معرفة دول الملوك للمقريزي . قال :

(أ) اعتقل ملك الكرج توما سوطا بن كلياري عند زيارته لبيت المقدس (٦٨١هـ - ١٢٨٢م) وارجعه إلى بلاده .

(ب) زار القدس[1] ، وأقال نائبها عماد الدين ابن أبي القاسم . وأقام مكانه نجم الدين السونجبي[2] (٦٨٢هـ - ١٢٨٣م) .

(ج) أصدر مرسوماً يقضي بالا يستخدم أحد من أهل الذمة - اليهود والنصارى - في خدمات الدولة . فصرفوا عنها (٦٨٤هـ - ١٢٨٥م) .

(د) عين بدر الدين محمد بن جماعة خطيباً بالقدس ، عوضاً عن الشيخ قطب الدين عبدالمنعم بن يحيى بن إبراهيم القرشي بحكم وفاته (٦٨٧هـ -

(١) معجم البلدان ، ج٣ ، ص ١٩٧ ، وج٤ ، ص ٧٨١ .

(٢) نسبة إلى سونج من أعمال سمرقند .

١٢٨٨م) . وكان ذلك بناء على توصية الأمير علم الدين سنجر الدواداري الذي كان شاداً ومديراً من غزة إلى الفرات .

وفي يوم الخميس ، الخامس من شهر ربيع الأول من سنة ٦٨٣هـ - ٣ يوليو ١٢٨٣م[١] قامت هدنة بين السلطان الملك المنصور قلاون وبين الفرنج بعكا[٢] ، مدتها عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات . على أن يكون للسلطان الملك المنصور وولده البلاد الآتي ذكرها :

مملكة الديار المصرية ، والبلاد الحجازية ، وثغر غزة المحروس وما معها من الموانئ والبلاد ، والمملكة الكركية والشوبكية والصلت وبصرى ، ومملكة بلاد الجليل ، ومملكة القدس الشريف ، وعسقلان وأعمالها وموانيها وسواحلها ، ومملكة يافا والرملة وقيسارية وبيت جبريل ، ومملكة نابلس وأعمالها . ومملكة الأطرون وأعمالها ، وارسوف ، وقاقون ، ولدّ ، والعوجا ، وما معها من الملاحة ، وبيسان ، والطور ، واللجون وأعمالها ، وجنين وعين جالوت ، والمملكة الصفدية ، والنصف لمملكة عكا ، والمملكة الدمشقية ، ومملكة حمص ، ومملكة حماة ، والمملكة الحلبية ، وأما القسم الباقي من البلاد ؛ فإما أن يكون قد ترك للفرنج كله ، أو تقاسمه الفرنج مع السلطان .

بعد وفاة الملك المنصور قلاون تولى الملك ابنه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل (٦٨٩هـ - ١٢٩٠م) . ثم ابنه الثاني السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون (٦٩٣هـ - ١٢٩٤م) . وفي زمنه جددت فصوص الصخرة . وفي سنة ٦٩٦هـ ١٢٩٦م تولاه السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير . وخطب له في القدس وغزة ومصر والكرك ونابلس . وبعد مقتل الملك المنصور لاجين (٦٩٨هـ - ١٢٩٨م) تولى الملك للمرة الثانية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون . ثم تسلطن الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري (٧٠٨هـ - ١٣٠٨م) . ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاون للمرة الثالثة (٧٠٩هـ - ١٣٠٩م) . ودامت سلطنته في هذه المرة حتى سنة (٧٤١هـ - ١٢٤١م) .

ومن المنشآت التي قامت في القدس على عهد الملك الناصر محمد بن قلاون

---

(١) (تاريخ الدول والملوك) لابن الفرات ، ج١٤ ، ص ١٨٨ و(دولة بني قلاوون في مصر) للدكتور محمد جمال الدين سرور ، ص ٢٣٣ .

(٢) كانت عكا وصيدا وعتليت من بقايا مملكة القدس . وملكها في تلك السنة Charles of Anjou .

نذكر المدارس[1] والأروقة التالية[2] :

مدرسة رباط الكرد عند باب الحديد (٦٩٣هـ - ١٢٩٣م) . والمدرسة السلامية بباب شرف الأنبياء (٧٠٠هـ - ١٣٠٠م) . والمدرسة الوجيهية بخط درج المولة (٧٠١هـ - ١٣٠١م) . والمدرسة الجاولية[3] شمالي الحرم عند درج الغوانمة (٧١٥هـ - ١٣١٥م) . والمدرسة الكريمية بباب حطة (٧١٨هـ - ١٣١٨م) . والمدرسة التنكيزية عند باب السلسلة غربي الحرم (٧٢٩هـ - ١٣٣٨م) . والمدرسة الأمينية شمالي الحرم (٧٣٠هـ - ١٣٢٩م) والمدرسة الملكية ويقال لها مدرسة الجو كندار أيضاً في شمالي الحرم (٧٤١هـ - ١٣٤٠م) .

ومنها أيضاً الرواق الممتد من باب الغوانمة إلى باب الناظر (٧٠٧هـ - ١٣٠٧م) . والرواق الممتد من باب الناظر إلى باب القطانين ، ومن باب القطانين إلى باب المغاربة .

ومن هذه المنشآت :

(الجامع) الكائن بداخل القلعة عند زاويتها القبلية الغربية . وقد كتب على بابه بالخط النسخي المملوكي الكلمات الآتية : «بسملة . . أنشأ هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون أعز الله نصره في تاريخ سنة عشرة وسبعماية حسبنا الله ونعم الوكيل» . ١٣١٠م .

ليس هذا فحسب . بل إنه قام بترميم القلعة نفسها . وبعد أن كانت هذه طللاً ينعق فوقه بوم الخراب ، جددها وحصنها . وكان ذلك على يد كافل المملكة بكتمر

---

(١) ارجع إلى ما كتبناه عن هذه المدارس في الفصل الذي خصصناه للمدارس .

(٢) ارجع إلى ما كتبناه عن هذه الاروقة في الفصل الذي خصصناه للحرم القدسي .

(٣) نسبة لمنشئها الأمير الكبير علم الدين أبو سعيد سنجر ابن عبدالله الجاولي . ولد بأمد سنة ٩٥٣هـ - ١٢٥٥م وظل يترقى في مناصب الدولة إلى أن ولي نظارة الحرمين الشريفين نيابة القدس ، وقد انشأ وهو في القدس هذه المدرسة التي عرفت باسمه . بناها في المكان الذي كان يقوم عليه (برج انطونيا) على عهد الرومان . وقد توفي في شهر رمضان سنة ٧٤٥هـ - ١٣٤٤م . ودفن بالخانقاه التي بناها في القاهرة بالقرب من جامع ابن طولون .

الجوكندار وفي سنة ٧١٠هـ - ١٣٢٠م . وإنك لترى[1] على بلاطة من رخام موضوعة في القوس الذي فوق المدخل الثاني الكلمات الآتية مكتوبة بالخط النسخي المملوكي القديم .

«بسمله . . . عز لمولانا السلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون أعز الله نصره في شهور سنة عشر وسبعماية» .

وفي زمن الملك الناصر محمد بن قلاون تجدد تذهيب قبة الصخرة من الداخل ، وصفائح الرصاص من الخارج . وإنك لواجد في أسفل رقبة القبة من الداخل ، فوق أقواس الدهليز الكلمات التالية :

«أمر بتجديد وتذهيب هذه القبة مع القبة الفوقانية برصاصها مولانا ظل الله في أرضه القائم بسننه وفرضه السلطان محمد بن الملك المنصور الشهيد قلاون ، تغمده الله برحمته . وذلك في سنة ثمان عشرة وسبع مائة» ١٣١٨م .

وفي زمنه أيضاً جددت[2] قبة المسجد الأقصى . وإنك لتقرأ حول القبة من الداخل الكلمات التالية مكتوبة بأحرف كبيرة من النوع المعروف بالثلث : «بسم الله الرحمن الرحيم . جددت هذه القبة المباركة في أيام مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المرابط المشاعر المؤيد المنصور قاهر الخوارج المتمردين محيي العدل في العالمين سلطان الإسلام محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور وقلاون الصالحي تغمده الله برحمته في شهور سنة ٧٢٨هـ» ١٣٢٨م .

وأمر بوضع الرخام في صدر المسجد (٧٢٩هـ - ١٣٢٨م) . وقد تم ذلك بمعرفة الأمير ناصر الدين ناظر الحرمين في القدس والخليل . وكذلك قل عن الشبابيك الجبصية الملأى بالزجاج الملون . تلك الشبابيك الكائنة في صدر المسجد .

وعمر السور القبلي عند محراب داود . وفتح الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله . وتجد مكتوباً فوق شباك المسجد الأقصى غربي المنبر : «بسم الله الرحمن الرحيم . جدد هذا الشباك والرخام المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا

---

(١) برشام ، والقلقشندي ، ج٤ ، ص ٦٠١ .

(٢) اعتقد أن الملك محمد بن قلاون لم يجدد القبة نفسها ، وإنما جدد تذهيبها .

والدين محمد قلاون الصالحي بالإشارة العالية تنكيز[١] الناصري كافل الممالك الشريفة الشامية . وذلك سنة ٧٣١هـ» ١٣٣٠م .

وكذلك فوق الشباك الكائن شرقي المحراب : «جدد هذا الشباك والرخام المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد قلاون عند نصره بالإشارة الغالية الشريفة تنكيز الناصري سنة ٧٣١هـ» ١٣٣٠م .

وفي واجهة المسجد الامامية فوق الأروقة أربعة ألواح حجرية[٢] واحد منها إلى الغرب . وقد نقشت عليه الكلمات التالية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . جدد هذا الجامع المستجد والأبواب المستجدة في أيام مولانا السلطان العادل العامل الملك الناصر سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين مولانا السلطان الشهيد محمد قلاون الصالحي . تغمده الله بالرحمة . بنظر العدل الفقير إلى الله تعالى ، بالبلا الصابري ، ناظر الحرمين الشريفين ، بتاريخ شهر رجب الفرد سنة أربعين وسبعماية» ١٣٣٩م .

وهو الذي أنشأ القنطرتين اللتين تراهما منصوبتين فوق الدرجتين إلى أقصى الشمال من فناء الصخرة . إحداهما (وهي إلى الشرق) مقابل باب المعروف بباب العتم أو باب فيصل . وإليك ما نعرفه عن هاتين القنطرتين وعن الفناء الذي تقومان عليها .

أما فناء الصخرة[٣] فإنه فناء مربع الشكل . فرش بالبلاط الأبيض سنة

---

(١) إنه الأمير سيف الدين تنكيز بن عبدالله الملكي المكنى بابي سعيد . كان نائب السلطنة بالشام . وتوفي بالاسكندرية سنة ٧٤١هـ - ١٣٤٠م . ونقل إلى تربتة بدمشق . له منشآت عديدة : منها ما ذكرناه هنا ، والمدرسة التنكيزية ، وسوق القطانين .

(٢) اثنان منها وهما فوق الرواق الاوسط وضعا في زمن الملك المعظم عيسى والملك الاشرف قايتباي ، وقد ذكرناهما في غير هذا المكان .

(٣) ويسمى أيضاً (صحن الصخرة) ، وأما عامة الشعب من سكان القديس فيسمونه (سطح الصخرة) و(سطوع الصخرة) .

(٤) هذا ما جاء في (خطط الشام) ص ٢٧٠ وفي اعتقادي أن الفناء المذكور فرش بالبلاط قبل ذلك ببضع سنوات . ذلك لأن الأميرعلاء الدين ايدوغني الذي قام بهذا العمل توفي سنة ٦٨٨هـ - ١٢٨٩م يدلنا على ذلك البلاطة المثبتة على تربتة (القبقية) في مقبرة مأمن الله .

٦٩٣[٤]هـ - ١٢٩٣م في أيام الملك المنصور قلاون ، على يد نائب القدس في ذلك الحين ، الأمير علاء الدين آيدوغدي بن عبدالله الصالحي النجمي . طوله من القبلة إلى الشمال أكثر من عرضه من الشرق إلى الغرب . إنه فناء واسع مساحته من القبلة إلى الشمال مائتا ذراع وتسعة وعشرون ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب مائتا ذراع وثلاثة وعشرون ذراعاً ونصف ذراع . وهو مرتفع[١] اثني عشر قدماً ، يصعد إليه بأدراج من الجهات الأربع ، وفي أعلى كل درج قنطرة قائمة على أعمدة من رخام ، ويسمون هذه القناطر (موازين) لاعتقادهم أن الميزان سينصب هناك يوم الحساب! إن هذه القناطر وإن كانت كثيرة الشبه بمداخل المعابد الرومانية ، إلا أنه لا صحة للقول القائل[٢] : بأنها من صنع هيرودس الملك . إنها كلها من المنشآت الإسلامية .

أما (القنطرة الشمالية إلى الشرق) وهي التي تواجه باب حطة ومئذنة باب الأسباط ، فقد أنشئت سنة ٧٢٦هـ - ١٣٢٥م وعليها ثلاث بلاطات نقشت على إحداها هذه الكلمات :

«بسم الله الرحمن الرحيم . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . تكمل بلاط الحرم الشريف ، وأنشئت هذه القناطر في أيام مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاون . وذلك في ثاني ربيع الأول سنة ست وعشرين وسبع ماية هـ» - ١٣٢٥م .

وعلى البلاطة الثانية : «وكان فراغ هذا البلاط المبارك والقناطر المباركة» .

وعلى الثالثة : «بنظر العبد الفقير إلى الله تعالى أيدمر الشجاعي الملكي الناصري ناظر الحرمين الشريفين عفا الله عنه» .

وأما (القنطرة الشمالية الغربية) فقد كتبت عليها بالنسخ المملوكي الكلمات التالية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أنشئت هذه القناطر المباركة في أيام مولانا السلطان الملك

(١) يعتقد بعض المؤرخين أن هذا الارتفاع غير طبيعي ، وأن أرض الصخرة كانت فيما مضى منخفضة ، وإن هذا المنخفض من الأرض الذي كان حول الصخرة أملىء بالتراب . ولكن هؤلاء المؤرخين لم يستطيعوا أن يجزموا في أي تاريخ وقع هذا الإملاء ، وإن كان بعضهم يميل إلى الاعتقاد أنه جرى في زمن سليمان الملك .

(٢) (الرحلة الحجازية) لمحمد لبيب البتنوني ص ١٦٦ ، طبعت في مصر .

الناصر العادل محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاون رحمه الله في جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وسبعماية هـ» - ١٣٢١م .

(سوق القطانين) الكائن غربي الحرم . إنه من منشآت المماليك في عهد الملك الناصر محمد بن قلاون . ويسمونه (خان تنكيز) . قال السيوطي : «باب القطانين ويقال إنه مستجد فتحه السلطان الملك الناصر بن قلاون . وكان قد تلاشى حاله . ولما عمر المرحوم تنكيز الحامي الناصري نائب الشام رواق المسجد وسوق القطانين عمر هذا الباب بالعمارة المتقنة التي عليها الآن» .

طول هذه السوق مئة متر وعرضها عشرة أمتار . وعلى جانبيها دكاكين كانت عند إنشائها (٧٣٧هـ - ١٣٣٦م) معدة لبيع جميع أنواع الموصلين والأقمشة القطنية والبضائع الحريرية التي كانت تحملها القوافل التجارية من الهند إلى القدس عن طريق البصرة وبغداد والموصل . ولكن أهمية هذه السوق تضاءلت ، عند اكتشاف رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧م) . فلم يستعمل إلا قليلاً . ولقد أهمل بالمرة في أواخر العهد التركي .

(قناة الماء) الواصلة إلى مدينة القدس . جاء في (الأنس الجليل) : إن ابتداء عمارتها كان في شوال سنة ٧٢٧هـ ٠ ١٣٢٧م وأنها وصلت إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر ربيع الأول سنة ٧٢٨هـ - ١٣٢٨م . كانت في ما مضى تسمى : (قناة السبيل) .

(البركة) الكائنة بين الصخرة والأقصى ، والتي تعرف في يومنا هذا ؛ (الكأس) . وهي مصنوعة من الرخام . قال مجير الدين أنها أنشئت في التاريخ الذي وصل الماء فيه إلى الحرم والذي ذكرناه في الأسطر المتقدمة .

(الحمام) الكائن بباب القطانين والمعروف بالحمام الجديد . إنه أيضاً من منشآت المماليك(١) على عهد الملك الناصر محمد بن قلاون .

---

(١) يقول مجير الدين في كتابه الأنس الجليل أن المنشئات المتقدم ذكرها (سوق القطانين وبابه وقناة الماء والبركة والحمام ، وكذلك الرخام الذي في قبة المسجد عند المحرب والرواق الغربي الذي في ساحة الحرم) الفضل فيها يعود إلى نائب الشام الأمير سيف الدين تنكيز الناصري الذي تولى النيابة سنة ٧١٢هـ - ١٣١٢م وتوفي سنة ٧٤١ . هو أن هذا مات مسموماً بقلعة الاسكندرية ودفن بدمشق . وكان رجلا عظيماً وله مآثر كثيرة في القدس . وأملاك أوقفها على وجوه البر .

ومن المنشآت التي قامت في القدس على عهد الملك الناصر محمد بن قلاون :

(السور القبلي) الذي عند محراب داود . أساسه قديم ، ولكن عمارته جددت في زمن المماليك البحرية . نقل فان برشام في كتابه[1] الكلمات التالية التي رآها منقوشة على جانب من جوانب السور المذكور بالنسخ المملوكي القديم وباحرف كبيرة :

«بسم الله الرحمن الرحيم . عمر هذا السور المبارك في أيام مولانا السلطان العالم العادل المجاهد المرابط المشاغر المؤيد المظفر المنصور الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحي أعز الله أنصاره ، بنظر العبد الفقير إلى الله تعالى الأمير علاء الدين كندغدى[2] أبي الوفاء الناصري» .

وقد ذهب فان برشام إلى أن ذلك جرى حوالي سنة ٧٠٠هـ - ١٣٠٠م .

وكذلك قل عن (الخانقاه) . فإنها من منشآت الملك الناصر محمد بن قلاون . وإنك لواجد على قاعدة من رخام في الحائط القبلي الكلمات الآتية منقوشة بالخط النسخي المملوكي الجميل :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أشار بإنشاء هذا المحراب وعمارة المجمع المبارك الفقير عيسى ابن أحمد بن غانم ، عفى الله عنه ورحم سلفه ، في أيام مولانا السلطان محمد ابن قلاون عز نصره ، في شعبان سنة أحد وأربعين وسبعمائة» .

(المقصود من كلمة المجمع الزاوية والمسجد والمدرسة معاً . .) .

وفي عهده مات الشيخ جمال الدين محمد ابن سليمان بن الحسن بن الحسين ابن النقيب البلخي الأصل المقدسي الفقيه الحنفي . ولد بالقدس في نصف شعبان سنة إحدى عشرة وستماية . وصار أحد الأعلام . وله كتاب تفسير القرآن في سبعين مجلداً . وقد قدم القاهرة ، وأقام بها . ودرسة بالعاشورية ، وهي أحد المدارس التي أنشئت بالقاهرة في أوائل العصر الأيوبي . مات بالقدس في محرم سنة ٦٩٨هـ . ومات بالقدس أيضاً في نفس السنة ، الملك الأوحد نجم الدين يوسف بن الناصر صلاح الدين داود بن المعظم عيسى ابن العادل أبي بكر بن أيوب . مات في ١٤ ذي

---

(١) Materiau pur un Corpos Inscriptionum Arabicarum.

(٢) (كون دوغدى) كلمة تركية معناها ولد اليوم أو بدأ النهار .

الحجة سنة ٦٩٨هـ .

لم يخل عهد الملك الناصر على ما وصل إليه من عز ، من فتن داخلية . فلقد حدثنا تغري بردي في كتابه (النجوم الزاهرة[1]) أن الأمراء ومنهم سلارو بيبرس الجاشنكير ، وشوا عنده (٧١٧هـ - ١٣٠٧م) بمماليكه الذين يناوئونهم السلطة والنفوذ . فطلبوا منه إخراج الشبان الذين يرمون الفتنة بين السلطان والأمراء . وأن السلطان امتنع في بادىء الأمر ، ولكنه عاد فانصاع إلى كلامهم . ونفى جماعة : منهم يلبغا التركماني ، وايدمر المرقبي ، وخاص ترك إلى القدس . وساقهم من وقتهم مع البريد . ولكن السلطان بات ليلته في قلق زائد وكرب عظيم لإخراج مماليكه إلى القدس . .» .

وفي عهده قويت شوكة التتار ، وأخذ قائدهم (غازان) يعيث في البلاد فساداً . وراح جنوده في القدس وفي الكرك ينهبون . كما راحوا في الأماكن المقدسة يشربون الخمور . ويفضون البكور ، ويهتكون الستور .

ويظهر أن القدس كانت ، على الرغم من قدسيتها ، تعتبر يومئذ منفى للذين يحل عليهم غضب السلطان . فقد حدثنا تغري بردي في كتابه المتقدم ذكره[2] أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون غضب على (كريم الدين عبدالكريم بن المعلم هبة الله ابن السديد) ناظر الخواصي ووكيل السلطان ، وقد كان معدوداً من عظماء الدولة ، فنفاه إلى القدس (٧٢٣هـ - ١٣٢٣م) . ثم استدعاه إلى مصر . وأرسله إلى أسوان . وبعد قليل وجد مشنوقاً بعمامته .

زار الملك الناصر محمد بن قلاون القدس الشريف[3] : «بدأ زيارته في يوم الخميس رابع جمادى الأولى سنة ١٧١٧هـ - ١٣١٧م . وسار ومعه خمسون أميراً وكريم الدين الكبير ناظر الخواصي ، وفخر الدين ناظر الجيش ، وعلاء الدين علي بن أحمد بن سعيد ابن الأثير كاتب السر . بعد ما منح كل واحد فرساً مسرجاً وهجيناً ، وبعضهم ثلاثة هجن . وكتب إلى الأمير تنكيز نائب الشام أن يلقاه بالإقامات[4]

---

(١) ج٨ ، ص ١٧٣ و١٧٤ .

(٢) ج٩ ، ص ٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص٥٥ .

(٤) هو ما ينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها وما يتبعها من أمتعة السفر .

لزيارة القدس . فتوجه إلى القدس وزار معالمها . ثم زار الكرك . وعاد إلى الديار المصرية . فكانت غيبته أربعين يوماً» .

بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاون تسلطن ثمانية من أولاده (٧٤١هـ - ٧٦٢هـ) (١٣٤١م - ١٣٦١م) هم : الملك المنصور أبو بكر ، والملك الأشرف كجك ، والملك الناصر أحمد ، والملك الصالح إسماعيل ، والملك الكامل شعبان ، والملك المظفر حاجي ، والملك الناصر حسن ، والملك الصالح صالح صلاح الدين .

فلم يأت واحد من هؤلاء بأي عمل يذكر ؛ لا في القدس ، ولا في غيرها من البلدان . إذ ما كان الواحد منهم ليتولى الملك ، حتى يقوم أخوه عليه أو أحد أقاربه ؛ فيقتله أو يقيله أو ينفيه ، وينتزع السلطة من يده . والعمل الوحيد الذي قام به حسن ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون أنه جدد جناحاً[1] من أجنحة الأقصى . ولكنا لا ندري أي جناح هو الذي عمره؟ أو ما الذي فعله في ذلك الجناح؟

وكذلك قل عن الأيام التي انقضت على عهد المماليك الذين تسلطنوا من بعدهم . وهم الملك المنصور محمد بن حاجي (٧٦٢هـ - ١٣٦٠م) . والملك الأشرف شعبان بن حسن (٧٦٤هـ - ١٣٦٢م) . والملك الصالح حاجي بن شعبان (٧٨٣هـ - ١٣٨١م) . وهو آخر من حكم من دولة المماليك الأولى المسماة بالبحرية أو التركمانية .

فإنه لم يحدث خلال تلك الفترة من الزمن تغيير له صلة بالقدس أو يستحق الذكر ، سوى أن الرجل الذي كان يحكم القدس ، وقد كان قبلئذ يدعى الوالي أصبح بعد سنة ٧٧٧هـ - ١٣٧٥م يدعى (النائب[2]) أي نائب السلطان . وكان هذا يخابر السلطان رأساً .

٢- القدس في عهد المماليك البرجية (الأبراج)

إن مؤسس دولة المماليك الثانية (ويسمونهم المماليك الأبراج أو الشراكسة[3])

---

(١) هناك كتابة منقوشة على لوح مثبت في واجهة المسجد من الشرق تقول إنه جدد هذا النجاح! . .

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي . ج٤ ، ص ١٩٩ ، وج٧ ، ص ١٧٠ .

(٣) كانت منازلهم في سبريا حول بحيرة (بايقال) ، فهجروها . واستوطنوا بلاد القفقاس أولاً وبلاد الشركس . ثم استقدمهم الملوك . وأكثر من استخدامهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية . فتقووا عليهم وقضوا على سلطانهم (البرغوثي وطوطح) .

هو الملك الظاهر برقوق[١] . بعد أن قضى هذا على دولة المماليك الأولى (البحرية) تولى هو الحكم ٧٨٤هـ - ١٣٨٢م . فأقره الخليفة المتوكل على الله . ودام في دست الحكم سبعة عشر عاماً . تمكن خلالها من إيقاف قائد التتر المشهور تيمورلنك عند حده .

وفي زمنه رد الأمير شهاب الدين أحمد اليغموري ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس والخليل إلى القدس الشريف (٧٩٦هـ ١٣٩٣م) . فأبطل المكوس والمظالم والرسوم التي أحدثها النواب من قبله ، ونقش بذلك رخامة ألصقها على باب الصخرة من جهة الغرب .

ومن المنشآت التي قامت بالقدس على عهد الملك الظاهر برقوق :

(خان السلطان) الكائن على طريق باب السلسلة . فقد أنشىء هذا الخان سنة ٧٨٨هـ - ١٣٨٦م . وكان يعرف بالوكالة . وقال مجير الدين[٢] والمقريزي[٣] إن الذي أنشأه هو الملك الظاهر برقوق .

وكذلك قل عن (قناة العروب) التي توصل الماء إلى القدس . فقد قال جرجي زيدان[٤] إن الملك الظاهر برقوق هو الذي عمرها . وراحت هذه بعدئذ تعرف بـ(قناة السبيل) .

(دار الست) وكانت تسمى الدار الكبرى . بنتها الست (طنشق بنت عبدالله) المظفرية بين سنتي (٧٩٤هـ -٨٠٠هـ - ١٣٩٢م ١٣٩٨م) . وقد ذكرها مجير الدين في كتابه الأنس الجليل ص ٤٠٤ وص٤١٣ . وفي شمال هذه الدار التربة التي بنتها الست طنشق نفسها . وهي مدفونة فيها . توفيت بالقدس في شهر ذي القعدة سنة ٨٠٠هـ - ١٣٩٨م . كانت هذه التربة تسمى فيما مضى (تربة الست) . ويسميها أهل

---

(١) إنه من موالي بني قلاون . كان يكنى بأبي سعيد . وكان يعنون مراسيمه بالأوصاف التالية : «برقوق المالك الأميري الكبرى العضدي الاوحدي الذخيري النصيري المجاهدي المؤيدي الملائي مجد الإسلام بهاء الأنام شرف الأمراء زين المجاهدين عمدة الملوك والسلاطين» .

(٢) الأنس الجليل . ص ٢٤٠ ر٤٠٣ و٤٤٠ .

(٣) السلوك ، ج٢ ، ص ٢٤ .

(٤) تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٤٨ .

القدس الآن (تربة خاصكي سلطان) . إنها والدار الكبرى[1] المتقدم ذكرها كائنتان في العقبة المعروفة في يومنا هذا بعقبة التكية بين سوق خان الزيت وحارة الواد .

وفي زمن الملك الظاهر برقوق جددت دكة المؤذنين الكائنة بجانب باب المغارة والتي تراها أمامك إذا ما دخلت المسجد من بابه القبلي . ويظهر أن هذه الدكة قديمة العهد ، وإنه تم تجديدها في زمن الملك الظاهر برقوق على يد نائبه بالقدس محمد بن السيفي بهادر الظاهري (٧٨٩هـ - ١٣٨٧م) .

فقد قرأت على واجهتها القبلية الكلمات الآتية منقوشة بالذهب :

«بسم الله الرحمن الرحيم . جددت هذه السدة المباركة بالصخرة الشريفة في أيام مولانا السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق خلد الله ملكه في نيابة المقر الأشرف العلائي الطنبغا الجوباني كافل الممالك بالشام المحروسة أعز الله أنصاره بنظر العبد الفقير إلى الله تعالى المقر العالي المخدومي الناصري محمد ولد المقر المرحوم السيفي بهادر الفخري الظاهري نائب السلطنة الشريفة بالقدس الشريف وناظر الحرمين الشريفين أعز الله أنصاره بتاريخ مستهل شوال سنة تسع وثمانين وسبعماية» .

لم يحدث في القدس حوادث تستحق الذكر في زمن المماليك الذين تسلطنوا بعد الملك الظاهر برقوق وهم : الملك الناصر فرج بن برقوق (المعروف بأبي السعادات زين الدين) ٨٠١هـ - ١٣٩٨م . والملك المنصور عبدالعزيز بن برقوق ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م . والملك الناصر فرج بن برقوق (للمرة الثانية)[2]) ٨٠٩هـ - ١٤٠٥م . والإمام المستعين بالله ٨٠٥هـ - ١٤١٢م الذي لقب بالملك العادل ، وجمع بين السلطتين الروحية والسياسية . والشيخ المحمودي ٨١٥هـ - ١٤١٢م . وولده الملك المظفر أحمد ٨٢٤هـ - ١٤٢١م . فالملك الظاهر ططر ٨٢٤هـ - ١٤٢١م . والملك الصالح

---

(١) استعمل الاتراك هذه الدار مقراً للمتصرف الذي كان مسؤولاً عن إدارة القدس ، وكانت فيها مصالح الحكومة ودواوينها المختلفة . وكانت يومئذ تسمى (السرايا) . وبعد الاحتلال الانكليزي استرجعها المجلس الإسلامي الأعلى للوقف ، واتخذها داراً لأيتام المسلمين .

(٢) زار الملك الناصر فرج بن برقوق في هذه المرة القدس (٨١٥هـ - ١٤١٢م) . ونزل بالمدرسة التنكيزية ، وفرق مالاً كثيراً على الناس . ومن جملة ما رسم به ، أن نائب القدس لا يكون ناظر الحرمين الشريفين . ولا يتكلم على النظر بالجملة الكافية . ونقش بذلك بلاطة والصقت بحائط باب السلسلة يراها الداخل إلى الحرم من هذا الباب على يمينه (الأنس الجليل) .

محمد ٨٢٥هـ - ١٤٢٢م .

وأما الملك الأشرف برسباي[1] الذي بويع بالسطنة بعد خلع الملك الصالح محمد (٨٢٥هـ - ١٤٢٢م) فقد دام على سرير الملك ستة عشر عاماً ، قام خلالها بإنشاءات عديدة في القدس . نذكر منها :

(سبيل شعلان[2]) . ويظهر أن هذا السبيل والمصلى والمحراب اللذين بجانبه ، قد جددا تجديداً . فإنك تجد عليه هذه الكلمات منقوشة بالنسخ المملوكي : «جدد هذا السبيل والمصلى والمحراب ، العبد الفقير إلى الله تعالى شاهين ، ناظر الحرمين الشريفين ، في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف برسباي خلد الله ملكه ، بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وثلاثين وثمان مائة» . ٨٣٢هـ - ١٤٢٩م .

و(المدرسة الباسطية[3]) الكائنة شمالي الحرم بالقرب من الباب العتم ٨٣٤هـ - ١٤٣٠م . و(المدرسة القادرية) شمالي الحرم أيضاً بين باب حطة ومئذنة إسرائيل ٨٣٦هـ - ١٤٣٢م . و(المدرسة الحسنية) بباب الناظر فوق رباط علاء الدين البصيري ٨٣٧هـ - ١٤٣٣م . و(المدرسة العثمانية) في الزقاق المؤدي إلى باب المطهرة وعلى بعد بضعة أمتار من الباب المذكور إلى الغرب ٨٤٠هـ - ١٤٣٥م .

و(سبيل علاء الدين البصيري) غربي الحرم ٨٣٩هـ - ١٤٣٥م .

وفي زمن السلطان الملك الأشرف برسباي اشترى نائب السلطان بالقدس الأمير اركاس الجلباني للوقف ضياعاً رصد جانباً منها لمصلحة الصخرة . ونقش بذلك رخامة ألصقت بحائط الصخرة تجاه قبة المحراب (٨٣٦هـ - ١٤٣٢م) .

رأيت هذه الرخامة مثبتة على بعد بضعة أمتار من باب الصخرة الشرقي إلى الجنوب ، وقد حكت ويا للأسف ، بعض كلماتها ؛ ويظهر أن الذي فعل ذلك أحد الذين لهم مصلحة شخصية في ضياع معالم هذا الوقف!

السطران الأول والثاني محيا بالمرة ، وقد ظهر من بعدهما الكلمات التالية :

« . . . الحرمين الشريفين أثابه الله الجنة . وهو مشتراه مما ثمره من مال الوقف . . . من أجور المسقفات في كل شهر ألفا درهم خارجاً عن تكملة حواصل المستحقين وما

---

(١) إنه من عتقاء الظاهر برقوق . وكان يلقب بأبي النصر برسباي الدقماني الظاهري .

(٢) انظر إلى ما كتبناه عن هذا السبيل في الفصل الذي خصصناه لمياه القدس .

(٣) انظر إلى ما كتبناه عن هذه المدرسة والمدارس التي تليها في الفصل الذي خصصناه لمدارس القدس .

جدده وأنشأه من الحمام الخراب بحارة . . . وقرية العوجا والنعيمة بالغور ومرتب الخواجات الواردين من (قمامة) . وأوقف جميع المتحصل ذلك برسم عمارة المسجد الأقصى الشريف والصخرة الشريفة وأوقافهما وما فيه برصد حاصلاً بصندوق الصخرة الشريفة . أرصد ذلك جميعه برسم العمارة خالصاً إرصاداً صحيحاً شرعياً بمقتضى المرسوم الشريف المعين تاريخه أعلاه . ورسم أن ينقش ذلك على الرخامة حسنة جارية في صحائف مولانا السلطان الملك الأشرف برسباي خلد الله ملكه على الدوام ما تعاقبت الشهور والأعوام . فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه . . اللهم من فعل هذا الخير وكان السبب فيه جازه بالجنة والنعيم ، ومن غيره أو نقصه جازه بالعذاب الأليم» .

لم يجر في القدس شيء يستحق الذكر على عهد الملك العزيز يوسف بن برسباي (٨٤١هـ - ١٤٣٧م) . وأما على عهد خلفه الملك الظاهر جقمق (٨٤٢هـ - ١٤٣٨م) فقد وقع الحادث الآتي ذكره :

أرسل إلى القدس ، بطلب من الشيخ محمد المشمر أحد جماعة الشيخ شهاب الدين بن أرسلان ، خاصكيا اسمه (اينال باي) . وزوده بأمر ملكي لأجل الكشف على الديورة[1] . فهدم ما استجد بدير صهيون وغيره . وانتزع قبر داود من أيدي النصارى . ونبشت عظام الرهبان المدفونين بالقرب من النبي داود . وكان ذلك في يوم الاثنين الموافق ١٢ جمادى الآخرة سنة ٨٥٦هـ - ١٤٥٠م . وفي تلك السنة وقع البطش في النصارى ، وأخرج المسجد من دير السريان ، وسلم للشيخ محمد المشمر ، وصار زاوية . وهدم البناء المستجد ببيت لحم ، وقلع الدرابزين المستجد بالقمامة ، وأخذ إلى المسجد الأقصى بالتهليل والتكبير . وهدم كل ما استجد في أديرة النصارى .

تولى الملك ، بعد الملك الظاهر جقمق ، ابنه الملك المنصور عثمان (٨٥٧هـ -١٤٥٣م) . فالملك الأشرف إينال (٧٥٧هـ - ١٨٥٣م) وعلى عهده عمر المسجد الأقصى (٨٦٥هـ ١٤٦٠م) وكان ذلك على يد ناظر الحرمين الأمير عبدالعزيز العراقي المشهور بابن المعلاق .

---

(١) هكذا وردت في الأنس الجليل . وتجمع كفة (دير) على أديرة وديارات وأديار .

ثم تولى المُلك الملك المؤيد أحمد بن إينال (٨٦٥هـ - ١٤٦٠م) . فالملك الظاهر خوشقدم (١٨٦٥هـ - ١٤٦٠م) . وعلى عهد هذا الملك جرت الحوادث التالية :

بدأ بتعمير (قناة السبيل) التي تصل العروب بالقدس (٨٦٧هـ - ١٤٦٢م) . ولكنه مات قبل أن يتم تعميرها .

وبنى المدرسة الكائنة بجوار باب السلسلة . وقد تم ذلك على يد الأمير حسن الظاهري الذي تولى نظارة الحرمين بعد الأمير ناصر الدين .

وأمر بابطال المظالم من القدس ، ونقش بذلك رخامتين ألصقتا على حائط المسجد الأقصى من جهة الغرب .

وتولى الملك من بعده الملك الظاهر بلباي (٨٧٣هـ - ١٤٦٧م) . فأراد هذا أن يتم مشروع عين العروب الذي بدأ به الملك الظاهر خوشقدم ، لكنه لم ينجح . وكذلك فعل الملك الظاهر تمويغا (٨٧٣هـ - ١٤٦٧م) .

وأما في عهد السلطان الملك الأشرف قايت باي[1] الذي تولى الملك عام ٨٧٢هـ - ١٤٦٧م ودام فيه قرابة ثلاثين عاماً ، فقد قامت في القدس منشآت ، وجرت فيها حوادث تستحق الذكر . وإنا لذاكرون منها مايلي :

إنه هو الذي وضع (٨٧٣هـ - ١٤٦٧م) الأبواب النحاسية التي في مدخل الصخرة من الغرب . وقام ببعض التعمير في الأقصى . وإن كنا لا نعلم عن هذا التعمير ، سوى ما قرأناه على واجهة المسجد الشمالية فوق الرواق الأوسط إلى اليمين :

«بسم الله الرحمن الرحيم . جدد هذا الشريف وأطراف . . اللطيف في أيام مولانا

---

(١) انه من مماليك الملك الاشرف برسباي ثم انتقل إلى الملك الظاهر جقمق فأعتقه . وقد بويع له بالسلطنة بحضرة أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن محمد العباسي (٨٧٢هـ - ١٤٦٧م) ولقب بالملك الأشرف سيف الدين أبو النصر قايتباي بن عبدالله الظاهري . وكان يلقب بخادم الحرمين الشريفين المسجد الأقصى ومسجد الخليل . كان يحب القدس . وله فيها أصدقاء . ذلك لأنه قضى فيها قبل أن يتولى السلطنة ، زهاء خمسة أعوام . قضاها منفياً مغضوباً عليه من السلطان . وكان رفيقه في النفي الأمير يشبك الفقيه . وقد حظر عليهما يومئذ ركوب الخيل ، والاختلاط بالمسلمين .

السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي أمده الله بنصره العبد الفقير إلى الله تعالى محمد ناظر الحرم الشريف غفر الله له في الخامس عشر من محرم شهر الله المعظم سنة ٨٩٤هـ - ١٤٨٨م» .

وقد يكون هذا الرصاص الذي جدده الملك الأشرف قايتباي ؛ إذ قال مجير الدين «جدد عمل الرصاص على ظاهر المسجد الأقصى وفك الرصاص القديم ثم ركب . ولم يكن كالأول في حسن الصناعة والإتقان . وكان الصانع له من أهل الروم» . ولكن التاريخ الذي تم فيه هذا العمل ، حسب قول مجير الدين ، كان ٨٨٤هـ - ١٤٧٩م .

قال مجير الدين في كتابه (الأنس الجليل) إن السلطان الملك الأشرف قايت باي عندما تسلطن أمر بالإفراج عن الأمراء المقيمين بالقدس من زمن الملك الظاهر خرشقدم ، وهم : بيبرس خال العزيز ، وبيبرس الطويل ، وجاني بك المشد وغيرهم . ثم عاد فاعتقلهم . ثم أمر بالافراج عن عدد آخر من الأمراء من مصر ، وإحضارهم إلى القدس ، ومنهم : الأمير يشبك الفيه الدوادار الكبير ، وجاني بك كوهيه الدوادار الثاني ، والمغلباني المحتسب ، وغيرهم .

وكان بالقدس يومئذ ناظر الحرمين الأمير حسن ابن ططر الظاهري ، ونائب السلطنة الأمير حسن بن أيوب ، وشيخ الصلاحية وقاضي القضاة الشافعية شيخ الإسلام نجم الدبن أبو البقاء محمد بن جماعة ، وقاضي القضاة الحنفية جمال الدين أبو العزم عبدالله بن الديري ، وقاضي القضاة المالكية شمس الدين أبو عبدالله محمد المعزاوي ، وقاضي القضاة الحنبلية شمس الدين أبو عبدالله محمد العليمي . فأكرمهم ، وأقرهم في مراكزهم .

وفي سنة ٨٧٣هـ - ١٤٦٨م بدأ خلاف بين برديك التاجي ناظر الحرمين ، ودمرداش العثماني نائب السلطان بالقدس . وسرى الخلاف إلى السكان . فانشطروا إلى شطرين : شطر يؤيد هذا ، وآخر يعضد ذاك . ولم ينحصر الخلاف عند حد الكلام ، بل تعداه إلى الضرب . وقيل إن النائب سلط على الناظر أعوانه ، فضربوه بينما كان موجوداً عند بركة السلطان يناظر الأعمال القائمة لتعمير قناة السبيل . فسمع السلطان بالخبر ، وأرسل خاصكيا لأجل البحث والتدقيق . وتحيز الناس لهذا الفريق أو ذاك . ونشأ عن اختلاف رجال الحكم ، وزعماء البلاد أن اختل الأمن ، وكثرت السرقات ، وانتشر قطاع الطرق في جميع الأنحاء .

وقد زاد في الطين بلة ، تفشي الوباء[1] واحتباس المطر في تلك السنة (٨٧٣هـ - ١٤٦٨م) . فأصاب الناس ضرر عظيم من جراء قلة الماء وغلاء الأسعار . فبيع القمح كل مد بدينار ، والشعير كل مد بعشرين درهم . وكذلك قل عن الأرز والزيت والبصل والخضار . فضج الناس .

وفي السنة التي تلتها (٨٧٤هـ - ١٤٦٩م) هبط القدس بأمر من السلطان أحد خازنيه الأمير ناصر الدين محمد النشاشيبي ، لإصلاح ما اختل من نظام أوقات الحرمين في عهد الأمير برديك التاجي . فنظر في مصالح الأوقاف . وعمر المسجد الأقصى . ويقول مجير الدين الذي ذكر الأمير ناصر الدين في كتابه[2] أنه أراد أن يفك الرصاص عن قبة الصخرة ويجدده كما فعل بالمسجد الأقصى ، إلا أن الشيخ جمال الدين بن غانم شيخ الحرم في ذلك الحين منعه . وأن ذلك كان توفيقاً من الله . إذ أن الرصاص القديم الذي كان على الصخرة ، أحسن من المستجد الذي عمل بالأقصى .

وفي سنة ٨٧٥هـ - ١٤٧٠م حدثت فتنة أخرى ملخصها أن القاضي غرس الدين خليل الكناني شيخ الصلاحية وقاضي القضاة الشافعية ، اختصم مع الشيخ شهاب الدين العميري الواعظ من أجل مسألة . فما كاد الخبر يذيع بين الناس ، حتى انشطروا ، كالعادة ، إلى شطرين . وهاجم العوام منزل القاضي في المدرسة الصلاحية . فسَبَوه ، ونهبوا بعض أمتعته . وكان بين الناقمين على القاضي شيخ الإسلام الكمالي ابن أبي شريف ، والشيخ أبو الوفا بن أبي الوفا ، والشيخ شهاب الدين بن عتبة ، والشيخ كمال الدين ، وغيرهم كثيرون .

تشاكى القوم إلى السلطان ، فطلبهم إليه . ولما دخلوا عليه في مصر ، انتهر السلطان الشيخ شهاب الدين العميري قائلاً له : «لقد أخربت القدس ، وجئت تخرب مصر . . .» ولكن النتيجة بالرغم من ذلك لم تكن في جانب القاضي . إذ إنه كان بين الشهود الذين طلبوا إلى مصر جماعة من العوام ، مثل عمر الزبال وزريق العتال وكحيلة الطبال ؛ فاغتنم خصومه هذه الفرصة ، وراحوا يهزأون به قائلين : غرماؤه عمر

---

(١) قيل أن الوباء دام أربعين يوما ، وأن الأموات كانوا يغسلون ليلاً ويحملون إلى صحن الصخرة صبحاً .

(٢) الأنس الجليل ، ص ٦٢١ .

الزبال وزريق العتال وكحيلة الطبال! .» فخجل . واختفى عن الأنظار . ولم يكد ينقضي على هذا الحادث بعضة أيام ، حتى أقاله السلطان .

وفي سنة ٨٧٧هـ - ١٤٧٢م هطلت أمطار غزيرة ، وهدمت على أثرها أماكن كثيرة . ويقال إنه هُدّم في القدس يومئذ ٣٦٠ مكاناً . منها زاوية الشيخ محمد القرشي بخط مرزبان (حارة الراد الآن) .

ومن الحوادث التي جرت في القدس على عهد السلطان قايتباي أن المسلمين واليهود اختلفوا (٨٧٨هـ -١٤٧٣م) على دار واقعة بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين في حارة اليهود . ادعى المسلمون أن هذه الدار من حقوق المسجد . وعارضهم اليهود في هذا الادعاء . فتشاكى الفريقان أمام القضاة . وعقد على أثر ذلك بالمدرسة التنكزية مجلس ترأسه ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين بن النشاشيبي . وحضرة القاضي شهاب الدين بن عتبة (الشافعي) والقاضي خير الدين بن عمران (الحنفي) وشيخ الإسلام نجم الدين بن جماعة (شيخ الصلاحية) والشيخ برهان الدين الأنصاري والشيخ شهاب الدين العميري وجمع من الفقهاء . فأصدر هؤلاء حكمهم في صالح اليهود . وحكموا أن الدار من جملة أوقافهم . فلم يرض المسلمون بهذا الحكم . ورفعوا أمرهم إلى السلطان بمصر . فنقض السلطان حكم القضاة . وأصدر أمراً جاء فيه : إن كنيس اليهود محدث ، وأن الدار المختلف عليها حق من حقوق المسجد . وأنه لا حق لليهود فيها» . فرفض اليهود ، في هذه المرة ، الحكم . وأبى كبيرهم يعقوب أن ينصاع إليه . فثار ثائر المسلمين . وكادوا يبطشون باليهود . وكان بإمكانهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤون . لأنهم كانوا كثرة ، وكان اليهود قلة . ولكن القاضي نهاهم قائلاً : «هؤلاء من أهل الذمة . ذمة الله وذمة رسوله وذمة أمير المؤمنين . .» .

رفع اليهود أمرهم إلى السلطان . . فنظر في شكواهم ، هذه المرة ، قاضي القضاة الديار المصرية وجمع من النواب والفقهاء . وصدر على أثر ذلك مرسوم من السلطان (٨٧٩هـ - ١٤٧٤م) معنون إلى ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين المتقدم ذكره ، يقضي بتمكين اليهود من كنيسهم وعدهم معارضتهم في دارهم .

وذاعت في القدس يومئذ شائعات تقول إن اليهود ما كانوا ليحصلوا على ذلك المرسوم ، لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للخزائن الشريفة . واشتد الجدل على أثر ذلك بين الناس ، وكثر القيل والقال . وكان أكثر الجدل منحصراً بين قضاة بيت المقدس وممثلي السلطان . حتى قال مجير الدين الذي نقلنا عنه نبأ هذا الحادث إن الجدل

اشتد بين شيخ الاسلام كمال الدين ابن أبي شريف وبين الشيخ برهان الدين الأنصاري ، إلى درجة أنه كادت تقوم على أثرها فتنة في المدينة . فما كاد النهار ينبلج ، حتى رأى اليهود كنيسهم قد انهار .

ولما وصل الخبر إلى السلطان قايتباي ، غضب غضباً لا مزيد عليه . واعتبر عمل المقادسة خروجاً على إرادته . وبناء على أمره أرسل إلى مصر كل من القاضي الشافعي شهاب الدين ابن عتبة والشيخ برهان الدين الأنصاري وولداه وشمس الدين ناصر وناصر الدين الدمشقي الحوراني . أرسلوا مصفدين بالأغلال . وهناك ضربوا ضرباً مبرحا بحضور السلطان . ثم سجنوا .

وأما الشيخ أبو العزم فإنه هرب إلى مكة . وتوفي بها . إنه هو الذي حث المقادسة على هدم الكنيس . وكان يقول : «هذا غبار الجنة . . تثابون على هدمه في الجنة . .» .

وأما الأمير يشبك الدوادار الكبير فقد كان ، على قول مجير الدين ، من أكبر المساعدين لليهود . وإن هؤلاء بذلوا له المال الوفير . فنالوا ما يبتغون . وبعد مدة وجيزة هدأت الحال . وأفرج عن المسجونين .

زار السلطان قايتباي القدس في يوم الاثنين ١٧ رجب سنة ٨٨٠هـ - ١٤٧٥م . فشكا إليه أهل القدس ما يلاقون من ظلم وجور من نائبه الأمير جار قطلي الظاهري . فأنصفهم . وأمره بأن يرد إليهم كل ما أخذه منهم ، سواء عن طريق الرشوة أو غير ذلك . وشكوا إليه أيضاً من القاضي غرس الدين خليل ، فنفاه من القدس .

وفي السنة نفسها سب رجل من نصارى القدس الإمام علي بن أبي طالب وبنته فاطمة . فأتي به إلى مجلس القضاء بدار النيابة ، وحوكم من لدن نائب السلطان الأمير حارقطلي وشيخ الإسلام الكمالي ابن أبي شريف والقاضي علاء الدين بن المزوار المالكي ، فثبتت التهمة ضده . فحكموا بسفك دمه . وضربوا عنقه بدار النيابة .

وفي سنة ٨٨١هـ - ١٤٧٦م أمر السلطان بالقبض على الإفرنج المقيمين بدير صهيون وبيت لحم وفي كنيسة القيامة . فأرسلوا إلى مصر . وأمروا بالإقامة الجبرية فيها . ذلك لأن الإفرنج اسروا أربعة من مسلمي الإسكندرية ، وأخذوهم إلى بلادهم .

وفي السنة نفسها أسس شمس الدين محمد ابن الزمان (الرباط الزماني[١])

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٨٨ .

الكائن شمالي الطريق المؤدية إلى باب المطهرة وغربي الباب المذكور مقابل العثمانية .

وفي السنة نفسها انتشر الوباء في القدس . واستمر تسعة شهور . ومات من جرائه خلق كثير .

وفي سنة ٨٨٤هـ - ١٤٧٩م توفي أمير المؤمنين المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن محمد العباسي . فتربع على كرسي الخلافة من بعده المتوكل على الله أبو العز عبدالعزيز بن يعقوب . ودعي له من على منبر المسجد الأقصى .

وفي السنة نفسها قامت فتنتان : إحداهما بين نائب القدس الأمير ناصر الدين محمد ابن أيوب عمر بن غانم البدري ومن معه من العربان النازلين في غور أريحا . فقتل على أثرها عدد من الجانبين .

والثانية بين الأمير ناصر الدين هذا وبني زيد . ذلك لأن الأمير قبض على جماعة من بني زيد وقتلهم . فثار ثائر أعوانهم الذين اعتزموا الانتقام . فجاء إلى القدس عدد كبير منهم (في يوم الاثنين ١٢ شوال) وراحوا إلى المسجد يقصدون قتله . إلا أنه نجا منهم بأعجوبة . وقيل إنه تمكن من الفرار عن طريق باب الأسباط راكباً فرسه . ولما لم يتمكنوا من الانتقام منه ، راحوا إلى السجن ؛ فكسروا بابه ، وأخرجوا المسجونين منه ، ثم راحوا يصولون في الشوارع والأسواق . فبادر التجار بتهريب ما في حوانيتهم . وقتل في ذلك اليوم ثلاثة أشخاص ، وجرح كثيرون . وراح العربان والفلاحون يقطعون الطرق ، ويؤذون الناس .

عاد الأمن فاستتب . عندئذ أمر الملك الأشرف قايتباي بتعمير المدرسة المعروفة باسمه : (الأشرفية) ٨٨٧هـ - ١٤٨٢م . إنها بالقرب من باب السلسلة . وكانت لها قبة جميلة . كانت هذه القبة ثالث القباب المهمة في الحرم بعد قبة الصخرة وقبة الأقصى ، وأنشأ في الوقت نفسه السبيل الكائن بين باب السلسلة وباب السكينة . وجدد عمارة السبيل الكبير في داخل الحرم فوق البئر المقابلة لدرج الصخرة من الغرب . وكذلك الفسقية القريبة منه على المسطبة المجاورة له . ويقول كلير مان غانو إن الملك الأشرف قايتباي استعمل في بناء هذا السبيل حجارة مأخوذة من قبور السلاطين .

في تلك البرهة من الزمن (١٤٨٤م) زار القدس الأب فيلكس فابري Felix Fabri فوصفها قائلاً : «إن المسلمين ما كانوا يسمحون لأحد أن يشرب الخمرة في حضرتهم ؛ لا ولا أن يمر بهم وهو حاملها بيده . وكان حجاج النصارى يقبلون الأرض

المقدسة عندما يهبطونها . وكانوا يعتقدون أن الله يغفر لهم خطاياهم فور هبوطهم الأرض المقدسة .

ولقد استقبل الحجاج النصارى في مرفأة يافا استقبالاً بارداً . فوضعوا في غرف قذرة وفي خان مظلم . وجاء بعض المسلمين الفقراء فباعونا مقداراً من أغصان الشجر ، فرشناها تحتنا ونمنا عليها .

«وجاء عدد من تجار بيت المقدس حاملين ماء الورد ، والبلسم والصابون ، وبعض الحجارة الكريمة ، والحرير المعروف بالموصلين ؛ فاشترينا منهم ما اشترينا . وفيما كانوا يعرضون علينا بضاعتهم كانوا يحرقون البخور ليتخلصوا من رائحة الخان الكريهة» .

وفي سنة ٨٩٦هـ - ١٤٨٦م حضر إلى القدس الأمير أَقبردي الدوادار الكبير . ففرض له نائب القدس الأمير جانم الشقق الحرير ، ونثر على رأسه الفضة ، وأوقد له المسجد الأقصى ، وقدم له عشرين فرساً وبعض البغال ، وعمل له سماطاً عظيماً .

وفي السنة نفسها احتبس المطر . وأجدب الزرع . وقل القوت . واضطربت الأفكار بسبب غلاء الأسعار . حتى قيل إن مد القمح بيع بثلاثين درهماً ، والشعير باثني عشر درهماً . وبيع رطل الخبز بأربعة دراهم . وزاد في الطين بلة ظلم النائب .

وفي سنة ٨٩٢هـ - ١٤٨٦م هبط القدس الأمير جان بلاط وفي رفقته ملك الأمراء أَقباي نائب غزة . فاستقبله نائب القدس وفريق من أعيانها بالترحاب . وبعد أن جمع أموال الوقف ، وأصلح الخلاف الذي كان سائداً بين نائب القدس السيفي خضر بك وبين شيخ جبل نابلس خليل بن إسماعيل ، رجع إلى مقر عمله في مصر .

كان نائب القدس هذا (أي خضر بك) ظالماً . وكان سفاكاً للدماء . وقد صادر أموال الناس . فساءت سيرته ، وكثر شاكوه . فأمر الأمير (تغري ورمش) دوادار المقر الأشرف السيفي بالتحقيق عن أعماله . وجرى التحقيق (٨٩٢هـ - ١٤٨٦م) عند المحراب في داخل المسجد الأقصى . ثم بالمدرسة الأشرفية ، والمدرسة العثمانية ، وعلى المسطبة الكائنة عند باب جامع المغاربة . وجاء سكان الخليل بأعلامهم وطبولهم ، ليرفعوا شكاويهم . ودام التحقيق عشرة أيام . فرفع الدوادار تقريره إلى السلطان . فاستحضره إلى مصر وضربه . وأمره أن يرد لكل إنسان ما أخذه منه . ثم أقاله من عمله . وسجنه .

بعد أن أقيل خضر بك من نيابة السلطنة بالقدس ، تولاها الأمير دقماق (٨٩٣هـ - ١٤٨٧م) . ويقول مجير الدين أن هذا الأمير بذل من أجل الحصول على النيابة

عشرة آلاف دينار لخزينة السلطان! هذا عدا عما تكلفه من تعب، وما بذله من مال لأركان الدولة! وكان ذلك من أقبح الأمور وأبشعها.

ظل هذا متربعاً فوق كرسي النيابة حتى سنة ٨٩٦هـ - ١٤٩٠م. لم يترك خلال نيابته موبقة إلا واقترفها. فإنه فضلاً عن واجباته التي أهملها، كان ظالماً عسوفاً. فكثرت السرقات في عهده. وكثرت حوادث القتل. واختل الأمن[١]. وازداد عدد قطاع الطرق، واختل نظام المسجد الأقصى، وتجاسر النصارى، فأحدثوا على عهده قبة في المكان المعروف بالنبي داود.

فرفع الناس شكاويهم إلى السلطان. وأرسل هذا إلى القدس خاصكيا اسمه (ازبك) بقصد التحقيق. وبعد التحقيق أمر الخاصكي بكف يد النائب عن العمل. ورفع تقريراً بما جرى إلى السلطان. ولكن التقرير، على ما يحدثنا مجير الدين، وقع في يد الدوادار الكبير، ولم يصل إلى يد السلطان. ويظهر أن الدوادار كان من أنصار النائب. فلم يقر الخاصكي في عمله. لا، بل لامه من أجل توقيفه النائب عن عمله، قبل أن يحصل على أمر بذلك من السلطان. فعاد الأمير دقماق إلى عمله. وراح ينتقم من خصومه أشد الانتقام.

يظهر أن الحكومة كانت تحصل الضرائب المفروضة على جبل نابلس عيناً (زيتا). وكانت تفرض على سكان المدن الأخرى شراء الزيت المتجمع من ذلك الجبل بثمن معلوم، وبكميات تفرضها فرضاً. وكانت الكمية التي فرض على أهل بيت المقدس شراؤها في سنة ٨٩٦هـ - ١٤٩٠م كبيرة (١٥٠٠ قنطار)، والسعر كان عالياً، بدرجة أن الأهالي اعترضوا عليها. فأرسل الدوادار الكبير أفبردي مندوباً من قبله يدعى (السيفي قانصو). فأمر هذا أن يكون سعر القنطار من الزيت خمسة عشر ديناراً ذهباً. وقيل يومئذ أنه كان للأمير دقماق دخل كبير في تعيين هذه الأسعار الباهضة، وأن الحمل الكبير ألقي على سكان بيت المقدس بإيعاز منه. ذلك لأنه كان يكرههم كرهاً شديداً. ولم تجد اعتراضاتهم نفعاً. بل أصر على توزيع المقادير المفروضة بالأسعار

---

(١) قيل أن الأمن اختل يومئذ إلى درجة أن أمير عربان جرم (أبو العويسر) قصد ان يغزو بيت المقدس (٨٩٤هـ - ١٤٨٨م) والقرى المجاورة له. فقاومه أهل بيت المقدس مقاومة شديدة. وكان في طليعتهم شيخ الإسلام نجم الدين بن جماعة شيخ المدرسة الصلاحية وشيخ الإسلام الكمالي، وظلوا يرقبون حركاته من شبابيك المسجد الأقصى. حتى غادر المدينة، دون أن يتمكن من الحصول على مأربه.

المتقررة . وعندما رأى أنهم مترددون ، شدد النكيرعليهم . وراح يضربهم . ومن غاب منهم عن منزله ، دخله هو بنفسه وضرب زوجته ، أو سجنها حتى تدفع ما على بعلها . ومن كان منهم غير متزوج ، شدد النكير على أبيه أو أخيه أو أقرب الناس إليه . ومن لم يكن له قريب أحضر جاره أو جليسه . ودام هذا الظلم شهراً كاملاً . حتى قيل إن أكثر الناس باعوا ما يملكون من ثياب ومتاع بأبخس الأثمان . فبيع كل مثقال من الذهب الطيب ، بخمسين درهماً أو أقل . والزيت الذي اشتراه الناس بخمسة عشر ديناراً من الذهب ، باعوه بمئتي وخمسين درهماً . وقيل إن ثمن الزيت الذي جمعته الحكومة عن هذه الطريق من أهل القدس ، بلغ يومئذ نحو عشرين ألف دينار . ولكن المقدسيين الذين تعرضوا لهذه المحن ، لم ييأسوا ، بل ثابروا على رفع شكاويهم ضد النائب إلى المقامات العليا ، حتى نجحوا . وأقيل النائب من منصبه .

تأخر المطر في سنة ٨٩٥هـ - ١٤٨٩م حتى خشي الناس أن تعود أعوام الجدب . ولكنه عاد فهطل في نفس السنة . وفي سنة ٨٩٧هـ - ١٤٩١م كانت الأمطار غزيرة ، بدرجة أن كنيسة القيامة هدم جانب منها ، ومات تحت الردم اثنان من طائفة الحبش .

وفي السنة نفسها انتشر الطاعون في القدس(١) انتشاراً فظيعاً . ومات من جرائه خلق كثير . بدأ الطاعون يفتك في المدينة في ١٠ جمادى الآخرة . واستمر حتى آخر رجب من تلك السنة (٨٩٧هـ - ١٨٩١م) . وكان يموت في كل يوم ثلاثون أو أربعون . وفي بعض الأحيان خمسون . واستفحل هذا الوباء في شعبان ، حتى بلغ عدد الموتى في اليوم الواحد المئة . وقيل إنه وصل في أحد الأيام إلى المئة والثلاثين . وكان بين ضحاياه نائب السلطان خضر بك السيفي وزوجته وابنته . ماتوا كلهم في تسعة أيام . وعندما اختفى الوباء بعد أربعة شهور وعشرة أيام ، كان عدد كبير من سكان القدس قد لاقوا حتفهم .

وفي سنة ٨٩٨هـ - ١٤٩٢م هطل الثلج بغزارة . وكذلك قل عن السنة التي تلتها ٨٩٩هـ - ١٤٩٣م فقد دام تهطال الثلة على ربى القدس عشرة أيام . وقال الكهول إنهم لم يروا مثله منذ سبعين سنة .

في سنة ٨٩٩هـ - ١٤٩٣م نشب خلاف بين الأمير جان بلاط نائب القدس

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٦٩٠ .

وملك الأمراء المقر السيفي آقباي كافل المملكة الغزية حول قرية القباب . إذ ادعى كل منهما أنها من أعماله . ولما لم يصلا إلى اتفاق ما في صددها ؛ باغتها الأمير جان بلاط ، وأخذ ما فيها من أموال الفلاحين .

وفي السنة نفسها نشب خلاف مثل هذا بين الأمير جان بلاط نفسه وبين الأمير قاني بك نائب غزة ، بسبب مقتل نائب القدس السابق جاتم بك دوادار في قرية بيت لقيا . وقد اتهم بقتله جماعة من المنتسبين إلى نائب غزة ، ولكن نار الخلاف خبت مؤقتاً ، بفضل الأوامر التي أصدرها السلطان .

ولكن هذه النار عادت فاشتعلت في السنة التي تلتها (٩٠٠هـ - ١٤٩٤م) بسبب اعتداء جماعة من العرب على كاشف الرملة الجمالي يوسف ، بينما كان هذا في ركاب الأمير جان بلاط ، وكانت الرملة من أعماله . وقد حصره المعتدون في قرية خلدا ، فأخذوا خيله ، وقتلوا بعض رجاله ؛ الأمر الذي أغضب الأمير جان بلاط . فراح هذا يثأر لكاشف الرملة . ورغم أن عشرة من رجاله قتلوا في هذه المعركة ، إلا أنه ظل يقاتلهم حتى سلم من شرهم .

رفع الأمير جان بلاط شكواه إلى السلطان ، متهماً نائب غزة بما جرى . فأرسل السلطان السيفي قانصوه الخاصكي للتحقيق . ورغم أنه ثبت للخاصكي أن الحق كان بجانب نائب القدس ، إلا أن السلطان أمر بإقالة الاثنين(١) .

لم يكن الوضع الدولي أفضل من الوضع الداخلي في تلك الأيام . فقد حدثنا التاريخ أن صلات المماليك بالحكومات المجاورة كانت ، عند مطلع القرن العاشر للهجرة ، سيئة للغاية . ولا سيما صلتهم مع الأتراك العثمانيين . فقد بدأ الخلاف بين الدولتين في سنة ٨٨٩هـ - ١٤٩٤م . فراحت كل واحدة منهما تحشد جيشها علي حدودها ، لقتال جارتها : هنا السلطان الملك الأشرف قايتباي ، وهناك السلطان بايزيد خان . وكان المقدم على عسكر السلطان قايتباي ، أمير السلاح الأمير تمرراز . وقد انضم إليه الأمير جانم .

لم تجر أية مناوشة بين الفريقين ؛ لا في تلك السنة ، ولا في السنين الأربع التي تلتها . حتى إذا ما حلت سنة ٨٩٣هـ - ١٤٨٧م ، ورأى السلطان قايتباي أن الأحوال

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٦٩٦ .

توترت ، اعتزم الدخول في حرب مع الاتراك فبعث الرسل ، وبذل الأموال الوفيرة[1] لإقناع الناس . ولكن إذ لم يتطوع من سكان البلاد سوى عدد ضئيل ، حتى أنه قرر أن يسترجع من الناس ما أنفقه في هذا السبيل . واستعمل من أجل ذلك منتهى الشدة والصرامة .

وفي سنة ٨٩٥هـ - ١٤٨٩م اشتدت الأزمة بين البلدين ، حتى اضطر السلطان قايتباي أن يصدر أمره لقادة جيشه أن يكونوا على أهبة الهجوم .

ولكن الأمور هدأت والمياه عادت إلى مجاريها في سنة ٨٩٦هـ - ١٤٩٠م . واصطلح الفريقان .

عاش قايتباي بعد مصالحة الدولة العثمانية خمس سنوات . ولما توفي (٩٠١هـ - ١٤٩٥م) سادت الفوضى . ودامت خمسة أعوام بالتمام . فلا يكاد يعتلي العرش ملك ، حتى يثور ضده مماليكه وأعوانه ، فيخلعونه أو يقتلونه . هذا كان مصير الملك الناصر محمد بن قايتباي الذي لقب بأبي السعادة (٩٠١هـ ١٤٩٥م) والملك الأشرف قنسو[2] خمسمئة (٩٠١هـ ١٤٩٥م) . والملك الظاهر قنسو الثاني الملقب بأبي سعيد[3] (٩٠٤هـ - ١٤٩٨م) . والملك الأشرف قنسو الثالث الملقب بجنبلاط[4] (٩٠٥هـ ١٤٩٩م) . والملك العادل سيف الدين طومان[5] بأي (٩٠٦هـ - ١٥٠٠م) . والملك الأشرف قنسو الغوري (قنسو الرابع) الملقب بالغوري (٩٠٦هـ - ١٥٠٠م) . إن هذا الملك وإن دامت سلطنته ١٥ عاماً أو يزيد ، إلا أنه اقترف خطأ بأن رحب ؛ (قورقود) أخي السلطان سليم بن با يزيد الذي اختلف مع أخيه من أجل الملك ، ففر منه والتجأ إلى مصر . ولم يكتف قنسو الغوري بالترحيب بـ(قورقود) ، بل جهزه بعشرين بارجة بحرية ، لافتتاح القسطنطينية . الأمر الذي أغضب السلطان سليم ،

---

(١) قيل أن ما انفقه في تلك السنة في سبيل الدعاية وجمع المتطوعين من جبل القدس ، والخليل بلغ ٥٠٠٠ دينار .

(٢) سمي كذلك لانه ابتيع بالاصل بخمسمائة دينار وذبحه المماليك (تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ، ص ٣٥٩) . وورد هذا الاسم في بعض الكتب هكذا : (قانصو) و(قانصوة) و(قنص) .

(٣) اقيل من قبل المماليك .

(٤) خلع بعد سبعة شهور .

(٥) مات قتلاً بيد المماليك .

وجعله يفكر في افتتاح مصر (٩٢٢هـ - ١٩١٦م) . فسار إليها . وفي معركة برج دابق قرب حلب تغلب على المماليك . وقتل سلطانهم قنسوه الغوري .

عندما وصلت هذه الأنباء إلى مصر بايع المماليك الأمير طومان باي بالملك ، ولقبوه بالملك الأشرف . وحاول هذا أن ينقذ البلاد من الأتراك العثمانيين ، إلا أنه فشل . فاحتلها هؤلاء بقيادة السلطان سليم الأول (٩٢٣هـ - ١٥١٧م) .

شنق السلطان سليم ، عند دخوله مصر ، طومان باي . وبموته ، انتهت دولة المماليك الشراكسة أو البرجية . وحلت مكانها دولة الأتراك العثمانيين .

الآن ، وقد انتهينا من ذكر أخبار المماليك ووقائعهم ، نرى لزاماً علينا أن نصف عهدهم باختصار . فنقول :

إنه لعهد طافح بالمتناقضات : فيه عز ، وفيه ذل . فيه ارتفاع ، وفيه سقوط . فيه عظمة ومجد ، وفيه قلاقل وفتن ، يندى لها جبين الدهر . وكما أنه ظهر بينهم ملوك عظام مثل الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاون وابنه الملك الناصر محمد والملك الظاهر برقوق والملك الأشرف برسباي وقايتباي ؛ فقد ظهر بينهم أيضاً ملوك صغار بعقولهم وأعمارهم . فما كان يعتلي منصة الحكم ملك منهم ، إلا ويقوم بجانبه أمير من أمرائه أو رجل من أتباعه ؛ فيحيك المؤمرات لخلعه ، ويظل يحفر له حتى يوقعه في الشرك ، ويخلفه في الحكم . وكان أكثر هؤلاء الملوك والأمراء يعيشون في قصورهم عيشة البذخ والترف . وهذا النوع من العيش يحتاج إلى اتفاق . والإنفاق يجر من ورائه الضرائب . أضف إلى ذلك الحروب الكثيرة التي ثار عجاجها سواء بين المماليك أنفسهم ، أو بينهم وبين خصومهم من الأغيار .

ولكن من الإنصاف أيضاً أن نقول إن عهدهم ، وهو الذي يشمل العصور الثلاثة التي أعقبت عصر صلاح الدين (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) امتاز بالعمران وبحركة بناء واسعة النطاق . وأن نصيب القدس من هذا العمران كان عظيماً . وتدل المدارس الكثيرة التي أنشئت في القدس ، خلال العصور المتقدم ذكرها ، على أن القدس كانت ، على عهدهم ، مزدهرة وأنها كانت مركزاً لثقافة إسلامية واسعة النطاق ، وأن رواد العلم والحكمة كانوا يفدون إليها من جميع الأنحاء ، لا من أجل التعبد في مساجدها وزيارة أماكنها المقدسة فحسب ، بل ومن أجل انتجاع موارد العلم في مدارسها ودور التعليم فيها . فكم من أهل البر والإحسان وليس الملوك والوزراء ونواب السلطان وحدهم ، تبرعوا لمساجد القدس ومدارسها

ورباطاتها ومعاهدها بالمبالغ الوفيرة من أموالهم ، وربطوا أراضيهم وأملاكهم وقفاً ينفق من ريعه على إدارتها . وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ هذا القسم في الشرق من موجة المغول . تلك الموجة التي قضت على الخلافة العباسية في بغداد .

ولا يضر المماليك البحريين كون بعض الأبنية التي بنوها في القدس خلال المدة الواقعة بين ١٢٥٠ و١٣٩٠ بنيت ، على رأي بعض مؤرخي الفرنجة من حجارة هي في الأصل من بقايا الأماكن والابنية التي أنشئت في العهود الصليبية . مثل القبر الكائن في مقبرة ماملا والمعروف بـ(القبقبة) والمئذنة الكائنة في الزاوية الشمالية الغربية من ساحة الحرم ، وبعض المدارس الكائنة في شمال الحرم وغربه . إذ إن أكثر الأمم التي أقامت المنشآت المختلفة فوق هذه الكرة الأرضية استعانت بالحجارة الباقية من طلول الأمم التي سبقتها . تلك سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

كثرت ، على عهدهم ، حركة القوافل بين مصر والشام . واستعملوا الحمام الزاجل في مخابراتهم . وكانت للحمام أبراج كالمحطات تنقل الرسائل بين الواحدة والأخرى بواسطتها . من مصر إلى غزة ، ومنها إلى القدس والخليل ونابلس وهلم جرا . وانتعشت التجارة . وكانت المعاملة التجارية على عهدهم بالذهب والفضة[(١)] ، كل درهم أربعة وستون فلساً ، وكل أربعةفلوس منها يعبر عنها بحبة . وأما رطلها فستمائة درهم . وأواقية اثنتا عشرة أوقية ، كل أو قيمة خمسون درهماً . وأما كيلها فبالغرارة ، وهي اثنا عشر كيلاً ، كل كيل ستة أمداد ، وكل غرارة ومد ونصف ثلاثة أرادب بالكيل المصري . وقياس قماشها بالذراع . وهو قراطان . وقياس أرضها بذراع العمل .

هذا من حيث التجارة . وأما من الناحية الثقافية فإن القدس قطعت ، على عهدهم أشواطاً واسعة في سبيل العمل . وأنشئت مدارس كثيرة[(٢)] . ونال المعلمون والمتعلمون الحظوة الكبرى في قصور السلاطين . ولقد حارب المماليك اللغة اليونانية[(٣)] حرباً لا هوادة فيها . واضطهدوا كل من يتكلم بها إن كان من أبناء البلاد ، أو غيرها .

---

(١) صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ١٩٩ .

(٢) انظر إلى الفصل الذي خصصناه لمدارس القدس في القرون الوسطى .

(٣) (تاريخ كنيسة أورشليم) تأليف خريسو ستومس ، ص ٤٤٦ .

أما الأمن فقد كان يختل تارة ويستتب أخرى . واختلال الأمن واستتبابه كانا مرتبطين بمبلغ الحزم الذي يظهره السلطان ورجاله ، وبنار الفتن الداخلية التي كانت تخبو تارة وتشتعل أخرى . ولقد حدثنا التاريخ : «أن البدو[١] كانوا في يوم من الأيام خطراً على سلامة الحجاج ، وأن المماليك قدروا على درء هذا الخطر ببنائهم القلاع والحصون على طول طريق الحج . ولما ضعفت دولة المماليك في أواخر حكمهم فلت البدو . فأغاروا على المدن ، ومنها القدس (بين عامي ١٥٠٢ و١٥٠٥م) .

ويظهر أن السائح المشهور فيلكس فابري هبط القدس بعد تلك الغارات بقليل . إذ قال عنها[٢] : «وإن بيوتها مبنية بالحجارة . هذا باستثناء مساكن الفقراء التي هي من الطين . وقد رأيت فيها بيوتاً جميلة وكبيرة . لكن جزءاً كبيراً من المدينة متهدم مهجور ، بحيث أن جثث الحيوانات التي تنفق تبقى داخل المدينة بدل أن تطرح خارج أسوارها . . وفي المدينة نحو خمسماية يهودي ، ونحو ألف نصراني من كل مذهب وقطر . وأقلهم من أتباع الكنيسة اللاتينية . ورغم أنها تهدمت ، فإنه لا يزال فيها أربع أسواق جميلة طويلة مما لم أر له من قبل شبيهاً . كلها مسقوفة بالقباب . وتحوي جميع أنواع المتاجر . وهذه الأسواق الأربع هي :

١ . سوق التجار .

٢ . سوق العطارين .

٣ . سوق الخضار .

٤ . سوق الأطعمة المطبوخة والخبز .

وكانت موجة من القحط تجتاح البلاد يوم هبطت القدس . فكانت حصة الشخص الواحد من الخبز لا تتجاوز بضعة دراهم للوجبة الواحدة» .

إلى أن قال فابري : « . . وإني أحمد الله لأنه منَّ علي بالصحة ، ولم يجعلني فريسة الأمراض الكثيرة التي يصاب بها أكثر الأغراب الذين يفدون إلى هذه المدينة ، بسبب تغير الطقس المستمر . إذ إن الرياح كلها على اختلاف أنواعها ، تهب على هذه المدينة» .

وأود أن أجعل كلمة الختام في هذا الفصل (إدارة القدس) على عهد المماليك .

---

(١) (تاريخ شرق الأردن وقبائلها) لبيك باشا ، ص ١٦٠ .

(٢) (رواد الشرق العربي) لنقولا زيادة ، ص ١٩٨ .

فقد كان حكمهم في البلاد بوجه عام مبنياً على أساس نظام الاقطاع .

فكانت ممتلكاتهم الآسيوية مقسمة إلى ممالك صغيرة ، منها : (المملكة الشامية) وكانت فلسطين تعتبر جزءاً من هذه المملكة ، وكانت القدس عبارة عن ولاية صغيرة . وكان واليها يخابر الشام .

وكان الأمير الذي يدير الشام باسم السلطان يلقب بـ(كافل المملكة الشريفة الشامية) . ويطلق عليه أيضاً لقب ملك الأمراء . وكانت الأوامر والمراسيم التي ترد من الشام تعنون على النمط التالي :

«من الأمير السيفي مولانا ملك الأمراء كافل المملكة الشريفة السامية إلى المقر الكريم العالي المولوي المالكي المخزومي الزيني نائب السلطنة الشريفة بالقدس الشريف» .

وفي سنة ٧٧٧هـ - ١٣٧٥م رفعها الملك الأشرف شعبان بن حسين إلى (نيابة) فصار يديرها نائب عن السلطان . وكان هذا يلقب بـ(نائب السلطنة الشريفة بالقدس الشريف) .

ونيابتها إمرة طبلخاناة أي أن نائبها كان مستقلاً في شؤنه . يعين بمرسوم سلطاني . وله الحق في مخابرة السلطان رأساً .

وكان نائب السلطان بالقدس يتولى إدارة الشؤون الدينية ، ويلقب بـ(ناظر الحرمين) حرم القدس وحرم الخليل . ثم فصلت هاتان المهمتان عن بعضهما البعض على عهد الملك الناصر فرج بن برقوق (٨١٥هـ - ١٤١٢هـ) . وأصبحت السلطة الدينية منفصلة عن السلطة المدنية . أما السلطة الدينية فقد كانت كمايلي[1] :

يعين السلطان شيخاً للصلاحية . وكان هذا يلقب تارة قاضي القضاة ، وطوراً شيخ الإسلام . وكان يعمل تحت إمرته أربعة قضاة . واحد للشافعية ، وثان للحنفية ، وثالث للمالكية ورابع للحنبلية . وكثيراً ما كان يعهد إلى قاضي الشافعية بتولي هذا المنصب الكبير . كما كان قاضي القضاة يقوم بمهمام النائب في أغلب الأحايين ، أي أنه كان يقوم بإدارة الشؤون المدنية بالإضافة إلى الشؤون الدينية .

وكان لنائب السلطان مساعد يساعده في تمشية الأمور . وكان هذا المساعد يسمى

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٦٣١ .

(متسلماً[1]) .

وكان في القدس من الوظائف غير النيابية (ولاية قلعة[2] القدس) وواليها من الجند . وكان هذا مستقلاً عن النائب وعن المتسلم . إذ إنهم كانوا يفضلون أرباب السيف على أرباب القلم .

وفيها أيضاً (ولاية المدينة) . وكانت توليتها أولا من جهة نائب السلطنة بدمشق ، ثم صارت ولاية والي القلعة ووالي البلد إلى نائب القدس . وكذلك ولاية بلد الخليل : وبها نائب عن محتسب دمشق . وكذلك جميع الوظائف بها نيابات عن أرباب الوظائف بدمشق . ظلت توليه النيابة والنظر تأتي من نواب الشام حتى حوالي سنة ٨٠٠ ثم صارت التولية تأتي من الديار المصرية . وظل الأمر كذلك حتى مجيء الدولة العثمانية .

وكان في القدس أيضاً أمير حاجب[3] ترفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم .

ويظهر أن المماليك كانوا يرسلون من وقت إلى آخر مفتشين يبحثون عن أعمال النواب ، وينظرون في الشكاوى التي يرفعها الشعب إلى السلطان . وكانوا يسمون الواحد من هؤلاء المفتشين (دوادار) كبير . وكبير المفتشين كان يسمى (الدوادار الكبير) وهو بمثابة أمين السر العام .

وكان لكل نائب في مقر عمله أيضاً (دوادار) وهو بمثابة أمين السر الخاص .

ولقد حدثنا مجير الدين في كتابه (الأنس الجليل) أنه عندما يرد أمر السلطان ، أو يحدث حادث في القدس ، كان ينعقد فيها مجلس[4] . وكان هذا المجلس في اغلب الأحيان يؤلف من نائب السلطان وناظر الحرمين وشيخ الصلاحية وقاضي القضاة والقضاة الأربعة الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي . وفي بعض الأحيان كان ينضم إلى هؤلاء عدد من العلماء والفقهاء .

---

(١) هذا ما جاء في الأنس الجليل . ويظهر أن هذا اللقب ظل يطلق على مساعد النائب حتى الحكم التركي . ثم استبدله الأتراك بلقب (متصرف) . وعهدوا إليه بالمهام الإدارية . وأبقوا المسائل الشرعية بيد النائب .

(٢) صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ١٩٩ .

(٣) مثل قائد الشرطة أو قومندان البوليس في يومنا هذا .

(٤) كمجلس الإدارة في العهد التركي .

وكانت أكثر المجالس تعقد في الحرم على المساطب الكائنة في ساحة الحرم ، وتحت الأشجار أو في دار النيابة وفي المدرسة التنكيزية . وكان يسمح للشعب ولمن شاء من الجماهير بحضور هذه الاجتماعات ، حتى والاشتراك في المناقشة .

وإليك أسماء من عثرنا على أسمائهم من النواب والحكام الذين تولوا إدارة الشؤون في بيت المقدس على عهد المماليك . منقولة عن الأنس الجليل ، والسلوك في معرفة دول الملوك ، والنجوم الزاهرة وغيرها من الكتب الإسلامية .

ملوك المماليك واسماء النواب والحكام
الذين تولوا إدارة الشؤون على عهدهم في بيت المقدس

العدد المتسلسل للملوك	اسم الملـــوك	تاريخ حكم الملـــوك		اسماء النواب	تاريخ حكم النـــواب		ملاحظات
		هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
١	شجرة الدر	١٤٨	١٢٥٠				
٢	الملك المعز ايبك	٦٤٨	١٢٥٠				
٣	الملك المنصور علي بن ايبك	٦٥٥	١٢٥٧	سيف الدين كبك	٦٥٥	١٢٥٧	
٤	الملك المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧	١٢٥٩				
٥	الملك الظاهر بيبرس	٦٥٨	١٢٦٠	الأمير جمال الدين محمد ابن بهادر	٦٦١	١٢٦٢	
				الأمير علاء الدين آيدغدي الركني	٦٦٦	١٢٦٧	
				موسى بن غانم الأنصاري	٦٦٩	١٢٧٠	
٦	الملك السعيد محمد ناصر الدين	٦٧٦	١٢٧٧				

٧	الملك العادل بكر الدين سلامش	٦٧٨	١٢٧٩				
٨	الملك المنصور سيف الدين قلاون	٦٧٨	١٢٧٩	الأمير عماد الدين ابن أبي القاسم الأمير نجم الدين السونجي الأمير كراي المنصوري	٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٩	١٢٨٢ ١٣٨٣ ١٢٩٠	
٩	الملك الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩	١٢٩٠				
١٠	الملك القاهر بيدا	٦٩٣	١٢٩٣				
١١	الملك الناصر محمد بن قلاون (الأولى)	٦٩٣	١٢٩٣	الأمير علاء الدين آيدغدي ابن عبدالله الصالحي النجمي	٦٩٣ .	١٢٩٣	أمر بتبليط فناء الصخرة . ودفن عند باب الناظر .
١٢	الملك العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤	١٦٩٤	الملك الاوحد نجم الدين يوسف بن الملك الناصر المعظم عيسى داود بن الملك	٦٩٤	٢٩٤	ولي نظارة الحرمين في القدس والخليل . توفي بالقدس ٦٩٨هـ ودفن برباطه المعروف بالمدرسة الاوحدية بباب حطة .
١٣	الملك المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦	١٢٩٦	القاضي شرف الدين عبدالرحمن بن الصاحب الوزير فخر الدين الخليلي	٦٩٧	١٢٩٧	

١٤	الملك الناصر محمد بن قلاون (ثانية)	٦٩٨	١٢٩٩				
١٥	الملك المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨	١٣٠٨				
١٦	الملك الناصر محمد بن قلاون (ثالثة) أولاد الناصر :	٧٠٩ ٧٤١	١٣٠٩ ١٣٤١	الأمير ركن الدين منكورس منكورس الجاشنكير	٧١٧	١٣١٧	فتح شباكين بالحائط القبلي في المسجد الأقصى . دفن بماملا .
١٧	الملك المنصور سيف الدين بكر أبو بكر			الأمير علم الدين سنجر ابن عبدالله الجاولي الملقب بأبي سعيد	٧٤٥	١٣٤٤	ولي النيابة ونظارة الحرمين بالقدس والخليل . وانشأ في القدس المدرسة المعروفة بالجاولية .
١٨	الملك الأشرف علاء الدين كجك						
١٩	الملك الناصر شهاب الدين أحمد						
٢٠	الملك الصالح عماد الدين اسماعيل						

٢١	الملك الكامل زين الدين شعبان						
٢٢	الملك المظفر زين الدين حاجي						
٢٣	الملك الناصر ناصر الدين حسن						
٢٤	الملك الصالح صلاح الدين صالح			الأمير محمد أبو القاسم ابن عثمان بن أبي القاسم محمد التميمي البطروي	٧٦٠	١٣٥٨	ولي نابلس ونظارة الحرمين بالقدس والخليل توفي بالقدس ٧٥٩هـ ودفن بماملا .
٢٥	الملك المنصور محمد حاجي	٧٦٢	١٣٦٠				
٢٦	الملك الاشرف شعبان ابن حسن	٧٦٤	١٣٦٢	الأمير قطلوبغا	٠٧٦٩	١٣٦٧	كان نائب السلطنة بالقدس وناظر الحرمين بالقدس والخليل ، وهو الذي بنى مئذنة باب الاسباط
				الأمير تمراز	٧٧٧	١٣٧٥	كان نائب السلطنة بالقدس وناظرالحرمين بالقدس والخليل
٢٧	الملك المنصور علي بن شعبان	٧٧٨	١٣٧٦	الأمير بدر الدين حسن	٧٨٢	١٣٨٠	كان نائب السلطنة بالقدس

				ابن عماد الدين العسكري			وناظر الحرمين بالقدس والخليل
٢٨	الملك الصالح زين الدين حاجي بن شعبان	٧٨٣	١٣٨١				
٢٩	الملك الظاهر برقوق	٧٨٤	١٣٨٢	الأمير ناصر الدين محمد بن بهادر الفخر ابن الظاهر	٧٨٩	١٣٨٧	كان نائب السلطنة بالقدس وناظر الحرمين بالقدس والخليل
				القاضي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الخطيب زين الدين أبو محمد بن عبدالرحمن التدمري	٧٨٩	١٣٨٧	كان نائب السلطنة بالقدس بالقدس وقاضياً بالخليل .
				الأمير شرف الدين موسى بن بدر الدين حسن	٧٩٣	١٣٩٠	كان نائب السلطنة بالقدس وناظر الحرمين بالقدس والخليل .
				الأمير بلوي الظاهري	٧٩٥	١٣٩٢	كذا . هو الذي أنشأ المسطبة المقابلة للباب الشمالي الغربي بباب الحرم .
				الأمير جان تيمور الركني الظاهري	٧٩٦	١٣٩٣	كان نائب السلطنة بالقدس وناظر الحرمين بالقدس

والخليل .				الأمير شهاب الدين احمد اليغموري	٧٩٦	١٣٩٣	كذا . هو الذي أبطل المكوس والمظالم والرسوم التي أحدثها النواب من قبله .
٣٠	الملك الناصر فرج بن برقوق	٨٠١	١٣٩٨	الأمير اصفهان بلاط	٨٠٤	١٤٠١	كان نائب السلطنة بالقدس وناظر الحرمين بالقدس والخليل .
				الأمير زين الدين عمر بن علم الدين سليمان	٨٠٦	١٤٠٤	ولي النيابة والنظر بالقدس والخليل ، ومات قتيلاً .
٣١	الملك المنصور عبدالعزيز ابن برقوق	٨٠٨	١٤٠٥				
٣٢	الملك الناصر فرج بن برقوق (ثانية)	٨٠٩	١٤٠٦	الأمير علاء الدين علي ابن ناصر الدين محمد الكركي	٨٠٩	١٤٠٦	ولي نيابة القدس . توفي بدمشق ثم نقل إلى القدس بعد مدة . ودفن بمدرسته بالصف الشمالي من المسجد .
٣٣	الملك العادل الأمام المستعين بالله	٨١٥	١٨١٢				

٣٤	الملك المؤيد الشيخ المحمودي	٨١٥	١٤١٢	الأمير شاهين المؤيدي	٨١٦	١٤١٣	ولي النيابة والنظر في القدس والخليل .
٣٥	الملك المظفر شهاب الدين أحمد بن المحمودي	٨٢٤	١٤٢١				
٣٦	الملك الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤	١٤٢١				
٣٧	الملك الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	٨٢٤	١٤٢١				
٣٨	الملك الاشرف برسباي	٨٢٥	١٤٢٢	الأمير ناصر الدين محمد ابن العطار	٨٢٨	١٤٢٤	ناظر الحرمين الشريفين ونائبهما . توفي بالقدس ودفن بماملا .
				الأمير شاهين الذباح	٨٣٠	١٤٢٦	نائب الملك بالقدس . انه هو الذي اتخذ الجاولية داراً للنيابة . لقب بالذباح لذبحه عدداً كبيراً من العربان بدار النيابة .
				الأمير سودون المغربي	٨٣١	١٤٢٧	
				الأمير شاهين الشجاعي	٨٣٢	١٨٢٨	

				الأمير شرف الدين يحيى بن شلوه الغزي	٨٢٣	١٤٢٩	ناظر الحرمين ونائب السلطان بالقدس .
				الأمير سيف الدين اركاس ابن عبدالله الجلباني	٨٣٦	١٤٣٢	ناظر الحرمين ونائب السلطان . كـان فظاً غليظ القـول . لم يشتهر بعلم ولا دين (المنهل الصافي ج١ ص ١٦٥) . عزل وتوفي ودفن بمامـلا (٨٣٨هـ – ١٤٣٤م) .
				الأمير حسن قمجا	٨٣٨	١٨٣٤	خلف اركـاس . وكـان ناظر الحرمين ونائب السلطان
				الأمير حسام الدين (أبو محمد) الحسن بن ناصر الدين محمد جمال الدين عبدالله المشهور بالكشكلي	٨٣٩	١٤٣٥	هو الذي بنى المدرسة الحسنية . بالقرب من باب الناظر . واوقفها . توفي ودفن بماملا (٨٤٣هـ – ١٨٣٩م) .
				الأمير طوغان العثماني	٨٤٠	١٨٣٦	ناظر الحـرمين ونائب السلطان بالقـدس والخليل وكـاشف الرملة ونابلس ، ومتولي السلط

							وعجلون . خدم في زمن الملك الاشرف برسباي وفي من الملك الظاهر جقمق ، ثم عزل وتوفي بغزة .
٣٩	الملك العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي	٨٤١	١٤٣٧				
٤٠	الملك الظاهر جقمق	٨٤٢	١٤٣٨	القاضي غرس الدين خليل بن أحمد بن محمد ابن عبدالله السخاوي	٨٤٣	١٤٤٠	كان قبلاً مستشاراً للملك جقمق . ثم ولاه نظارة الحرمين ونيابة القدس .
				الأمير خوشقدم	٨٥٠	١٤٤٦	نائب السلطنة بالقدس . ثار عليه المقدسيون لظلمه ودفن بباب الرحمة .
				الأمير تمراز المصارع	٨٥٠	١٤٤٦	نائ القدس .
				الأمير مبارك شاه	٨٥٠	١٤٤٦	نائب القدس .
				القاضي شمس الدين محمد ابن الصلاح محمد الحموي	٨٥٢	١٤٤٨	تولى نظر القدس والخليل . توفي بالقدس ودفن بالمدرسة الاعظمية . وعلى عهده وهب

							الملك جقمق اوقاف الحرم ٢٥٠٠ ديناراً و١٢٠ قنطاراً من الصفائح .
				القاضي شهاب الدين أحمد بن محاسن	٨٥٣	١٤٤٩	يلقب بالنابلسي . اقيل واستوطن مكة . وتوفي بها .
				الأمير فارس العثماني	٨٥٦	١٤٥٢	نائب السلطنة بالقدس .
				الأمير استبغا الكلفكي	٨٥٧	١٤٥٣	ولي نظر الحرمين ونيابة السلطنة بالقدس والخليل اقيل بعد أربعين يوماً .
				الأمير حين بن أيوب	٨٥٧	١٨٥٣	تولى نيابة القدس . واقيل مراراً . توفي بالقدس . ودفن فيها
				الأمير عز الدين عبدالعزيز بن العملاق العراقي	٨٥٧	١٤٥٣	
٤١	الملك المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	٨٥٧	١٤٥٣				
٤٢	الملك الأشرف أبو النصر اينال	٨٥٧	١٤٥٣	الأمير قانصوه	٨٦٠	١٤٥٥	ولي نيابة القدس عوضاً عن

							الأمير حسن بن أيوب . ولكنه اقبل بسرعة . واعيد ابن ايوب .
				الأمير الياس البجاسي	٨٦٣	١٤٥٩	ولي نيابة القدس عوضاً عن الأمير حسن بن أيوب .
				الأمير شاه بكر منصور ابن شهري	٨٦٣	١٤٥٩	ولي نيابة القدس . ثم اقيل . واعيد حسن بن أيوب .
٤٣	الملك المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال	٨٦٥	١٤٦٠				
٤٤	الملك الظاهر سيف الدين خوشقدم	٨٦٥	١٤٦٠	الأمير أبو بكر (ميزه)	٨٦٧	١٤٦٢	ولي نيابة القدس . استمر في النيابة سنة ثم عزل
				الأمير ثغري بردى (أبو الرون)	٨٦٨	١٤٦٣	ولي نيابة القدس سنة ثم عزل وتولى مكانه الأمير حسن بن أيوب .
				الأمير ناصر الدين محمد ابن الهمام	٨٦٩	١٤٦٤	من أعيان بيت المقدس . تولى نظارة الحرمين . وفي سنة

							٨٦٩ عـــزل . ثم توفي ودفن بماملا .
				الأمير حسن بن ططر الظاهري (دويد ارتمر)	٨٦٩	١٤٦٤	خلف الأمير ناصر الدين
				الأمير دمرداش العثماني	٨٧٢	١٤٦٧	نائب السلطان بالقدس .
٤٥	الملك الأشرف قايت باي	٨٧٢	١٤٦٧	الأمير يوسف الجمالي (المشهور بابن فطيس)	٨٧٤	١٤٧٠	خلف الأمير دمرداش
				الأمير يشبك الظاهري	٨٧٥	١٤٧٠	عهد إليه بادارة المملكة الشامية من العـريش إلى الفـرات ودون رحلتـــه في مـــخطوطة بدار الكـتـب المصـــرية تحت رقـم ٢٥٩٢ .
				الأمير دقمان الاينالي	٨٧٧	١٤٧٢	خلف الأمـير يشبك . استـمـر في النيـابة ١٠٤ ايام . ثم توفي ودفن بالقلندرية بماملا .
				الأمير جقمق	٨٧٧	١٤٧٢	كان نائباً في دمياط ، فنقل إلى القدس .

				الأمير جارقطلي الظاهري	٨٧٩	١٤٧٤	خلف الأمير جقمق
				الأمير ناصر الدين محمد ابن ايوب	٨٨٢	١٤٧٧	
				الأمير سنطباي النحاسي	٨٨٤	١٤٧٩	اقيل بعدئذ ، واعيد محمد ابن أيوب .
				الأمير شهاب الدين أحمد ابن مبارك	٨٨٥	١٤٨٠	
				الأمير جانم الاشرفي	٨٨٨	١٤٨٣	
				الأمير خضر بك السيفي	٨٩١	١٤٨٦	
				الأمير جمال الدين بن ربيع	٨٩٢	١٤٨٦	توفي بالقدس ، ودفن بماملا . فاعيد خضر بك ثانية .
				الأمير دقماق	٨٩٣	١٤٨٧	ثم عزل . فاستقر الأمير خضربك في النيابة للمرة الثالثة .
				الأمير جان بلاط	٨٩٧	١٤٩١	نائب السلطنة بالقدس والرملة . وناظر الحرمين . تولى النيابة بعد اخيه الأمير خضر

							بك الذين توفي ودفن بماملا .
٤٦	الملك الناصر محمد بن قايت باي	٩٠١	١٤٩٥				
٤٧	الملك الأشرف قنسو خمسمئة	٩٠١	١٤٩٥				
٤٨	الملك الناصر محمد بن قايت باي	٩٠٢	١٤٩٦				
٤٩	الملك الظاهر قنسو ابن سعيد	٩٠٤	١٤٩٨				
٥٠	الملك الاشرف قنسو جانبلاط	٩٠٥	١٤٩٩				
٥١	الملك العادل سيف الذين طومان باي	٩٠٦	١٥٠٠				
٥٢	الملك الاشرف قنسو الغوري	٩٠٦	١٥٠٠				
٥٣	الملك الاشرف طومان باي (الثاني)	٩٢٢	١٩١٦				

واليك أسماء القضاة الذين تولوا القضاء في بيت المقدس على عهد المماليك(١)

السنة		القاضي		
هجرية	ميلادية	اسمه	مذهبه	ملاحظات
٦٥٠	١٢٥٢	نجم الدين بن قاضي القضاة شمس الدين أبو الغنايم	شافعي	قاضي القضاة .
٦٦٥	١٢٦٦	أحمد بن أحمد جعفر النابلسي	شافعي	
٦٦٦	١٢٦٧	علي بن القاضي سديد الدين	شافعي	
٦٧٠	١٢٧١	صفي الدين بن محمد بن عبدالله القيسي	شافعي	
٦٧٨	١٢٧٩	موسى بن جبريل	شافعي	
٦٨١	١٢٨٢	تاج الدين أبو محمد بن أبي حامد الجعبري	شافعي	
٦٨٣	١٢٨٤	أحمد بن عبدالمحسن	شافعي	
٦٨٧	١٢٨٨	بدر الدين بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعه	شافعي	ولد بحماة ٦٣٩هـ وكان اماماً .
٦٩٠	١٢٩١	عبدالمنعم الخزاعي الانصاري	شافعي	
٦٩٤	١٢٩٤	محمد بن محمد النابلسي	شافعي	
٦٩٨	١٢٩٨	منيف بن سليمان بن كامل السلمي	شافعي	
٧١٤	١٣١٤	شمس الدين بن القاضي جلال الدين	شافعي	
٧٢٦	١٣٢٥	أحمد الانصاري	شافعي	

٧٣٣	١٣٣٢	محمد بن إبراهيم الكناني الحموي	شافعي	
٧٣٤	١٣٣٣	عمر عماد الدين القرشي الجوهري	شافعي	
٧٤١	١٣٤٠	علاء الدين بن الوحيد	شافعي	
٧٤٣	١٣٤٢	عبدالله بن اميربس		
٧٦٩	١٣٦٧	علي بن أحمد المعيد الأموي		
٧٧٨	١٣٧٦	علي بن كمال الدين الأموي		
٧٨٠	١٣٧٨	برهان الدين إبراهيم بن الحكري		
٧٨٢	١٣٨٠	عبدالرحمن بن القاضي محمد الزرعي		
٧٨٢	١٣٨٠	شمس الدين محمد الحكري		
٧٨٣	١٣٨١	أمين الدين محمد بن الشماع		تولى عن السبكي الكبير
٧٨٦	١٣٨٤	أحمد شاه كام	حنفي	نيابة
٧٨٧	١٣٨٥	محمد التدمري		
٧٩٤	١٣٩١	عبداللطيف ابريش	شافعي	
٧٩٦	١٣٩٣	أحمد السليماني		
٨٠١	١٣٩٨	أحمد بن محمد السلاوي	شافعي	
٨٠٢	١٣٩٩	عيسى بن الرصاصي	حنفي	
٨٠٣	١٤٠٠	علي بن الحواري الخليلي		نائب

٨٠٤	١٤٠١	علي بن العز عبدالعزيز البغدادي	حنبلي	
٨٠٥	٤٠٢	شهاب الدين أحمد الحلبي		
٨٠٥	١٤٠٢	محمد بن قرموز الزرعي		
٨١٢	١٤٠٩	عبدالله . . . بن جماعة	شافعي	ولي القضاة مرة ثانية
٨١٢	١٤٠٩	عبدالله العراقي	شافعي	
٨١٣	١٤١٠	أحمد الحريري السلاوي		
٨١٥	٤١٢	فخر الدين عثمان بن سراج الدين عمر		
٨١٨	١٤١٥	سليمان ابن علم الدين		
٨٢٠	١٤١٧	أحمد بن الحكم		
٨٢٤	١٤٢٠	أحمد الحساني	شافعي	تناوب القضاء مع ابن مكي ولي
٨٢٨	١٤٢٤	علي بن إبراهيم الرهاوي	شافعي	القضاء مرة ثانية في ٨٣٤هـ.
٨٣١	١٤٢٧	أحمد الحسيني		
٨٣١	١٤٢٧	محمد التفوعي الصوفي	مالكي	
٨٣٨	١٤٣٤	ابن الشحادة	ماليك	قد يكون هو الذي تولي القضاء سنة ٨٥٠هـ
٨٣٨	١٤٣٤	أحمد العمري بن عوجان		
٨٤٠	١٤٣٦	أحمد بن عبدالله بن السائح		

٨٤١	١٤٣٧	محمد بن عبدالرحمن العلمي	شافعي	
٨٤٤	١٤٤٠	علاء الدين علي بن الشيخ خليل الطرابلسي		
٨٥٠	١٤٤٦	عبدالله الهلالي الانصاري بن الشحادة المالكي		
٨٥٢	١٤٤٨	القاضي شمس الدين الحموي		ناظر الحرمين الشريفين بالقدس والخليل . مات ودفن في القدس (٨٥٣هـ - ١٤٤٩م) قبره تجاه باب العتم على طريق ستنا مريم .
٨٥٢	١٤٤٨	أحمد بن محمد الصلطي		
٨٥٤	١٤٥٠	أحمد بن عثمان السعدي		
٨٥٤	١٤٥٠	محمد بن سعيد المغراوي		اقيل مراراً . وآخر مرة تولي القضاء فيها سنة ٨٧٣هـ .
٨٦٠	١٤٥٥	عمر بن خليل العميري	حنفي	
٨٦٢	١٤٥٧	أحمد التميمي		
٨٦٤	١٤٥٩	يوسف بن محمد		
٨٦٧	١٤٦٢	عبدالله الديري الخالدي		ولى قضاء القدس والرملة . وأول من ولي قضاء الخليل .
٨٧٢	١٤٦٧	أحمد بن زين الدين العمري		

٨٧٢	١٤٦٧	شمس الدين محمد العليمي	حنبلي	اضيف إليه قضاء الخليل
٨٧٤	١٤٦٩	عمر بن علي الحواري	شافعي	
٨٧٨	١٤٧٣	نور الدين علي البدرش	مالكي	
٨٧٩	١٤٧٤	محمد بن شمس الدين الديري	حنفي	قاضي القضاة
٨٧٩	١٤٧٤	شمس الدين محمد بن يونس النابلسي		
٨٨١	١٤٧٦	محمد بن داود بن الاسيل	شافعي	
٨٩٢	١٤٨٦	جمال الدين يوسف بن ربيع	شافعي	أمير الحكم بالقدس .
٩٠١	١٤٩٥	أحمد بن شيخ الإسلام الانصاري	شافعي	المحامي المقدسي . تولي الحكم في حياة والده .
٩٠١	١٤٩٥	نجم الدين بن جماعة		
٩٠١	١٤٩٥	شهاد الدين الانصاري	شافعي	المحامي المقدسي .
٩٠٢	١٤٩٦	أحمد شهاد الدين العباسي	شافعي	تولى الحكم في حياة والده
٩٠٥	١٤٩٩	شهاب الدين بن عبية	شافعي	

المدرسة الختنثنية

بجوار المسجد الأقصى من القبلة خلف المنبر . وقفها الملك صلاح الدين في ١٨ ربيع الأول ٥٨٧هـ - ١١٩١م على رجل من أهل الصلاح والتقوى يسمى (جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد جلال الدين الشاشي) المجاور في بيت المقدس ، وعلى من يحذو حذوه من الصالحين من بعده . وقد وليها جماعة من الأعيان . بناؤها قديم من زمن الروم . وأما بناء الدار التي بداخل الزاوية فقد قال مجير الدين(١) عنه إنه مسجد .

يقيم فيها الآن بعض خدم المسجد . بعض غرفها تستعمل لحفظ القناديل وتنظيفها .

المدرسة الصلاحية

على بعد بضعة أمتار من السور الشرقي عند باب الأسباط . كانت فيما مضى كنيسة للروم بنيت في المكان الذي كان فيه بيت حنه والدة مريم البتول عليها السلام وبعلها يواكيم . ولما احتل صلاح الدين القدس استشار علماءه في بناء مدرسة للفقهاء الشافعية ورباط للمتصوفين الصالحين ؛ وبناء على مشورتهم اتخذها - وكانت يومئذ تعرف بصندحنه(٢) - مدرسة للشافعية . وقفها صلاح الدين لمصلحة المسلمين ، وأوقف عليها كثيراً من الأملاك . وكان ذلك بتاريخ ١٣ رجب سنة ٥٨٨هـ - ١١٩٢م . وكتبت الوقفية التالية على حجر كبير وضع على باب الكنيسة ولم يزل إلى الآن :

«بسم الله الرحمن الرحيم . وما بكم من نعمة فمن الله . هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو المظفر يوسف ابن أيوب بن شاذي محيي دولة أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وجمع له خير الدنيا والآخرة على الفقهاء من أصحاب الإمام أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٨٦ .

(٢) أي القديسة حنة . اقرأ ما كتبناه عنها في كتابنا : (المسيحية في القدس) ، ص ٦١ .

رَضِيَ الله عنه سنة ثمان وثمانين وخمس مئة» .

أما أبو الفداء فإنه يعتقد أن هذا المكان كان في الإسلام دارعلم قبل أن يملك الفرنج القدس . وفي ذلك يقول :

«رحل السلطان (يقصد صلاح الدين) إلى القدس في ٤ رمضان ، وتفقد أحواله ، وأمر بتشديد أسواره ، وزاد في وقف المدرسة التي عملها . وهذه المدرسة كانت تعرف قبل الإسلام بصند حنه . يذكرون أن فيها قبرحنة أم مريم . ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الفرنج القدس . ولما ملك الفرنج سنة ٤٩٢هـ أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام . فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد .»

لبثت هذه بحوزة المسلمين بعد الفتح الصلاحي وسميت بالصلاحية . مع ذلك فقد سمح للمسيحيين بزيارة المغارة التي تحتها في أوقات معلومة . على أن يدفعوا تلقاء ذلك ضريبة للقائمين عليها .

طار صيتها في الفتح الصلاحي وفي العهود الإسلامية التي تبعته . وقد كانت يومئذ من المدارس الإسلامية التي يشار إليها بالبنان . وكانت وظيفة مشيختها من الوظائف السنية . حتى أنهم ما كانوا يعهدون بشؤون التدريس فيها إلا إلى العلماء الأعلام .

ومن الذين تولوا التدريس فيها على عهد المماليك .

١ . العلامة عماد الدين أبو الفدا بن إسماعيل جماعة الكناني الشافعي . وكان هذا في الوقت نفسه خطيباً بالمسجد الأقصى . توفي سنة ٧٧٦هـ - ١٣٧٤م .

٢ . شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفدا إسماعيل القرقشندي المصري الشافعي . توفي سنة ٧٧٨هـ - ١٣٧٦م ودفن بماملا .

٣ . قاضي القضاة برهان الدين أبو إسحق إبراهيم بن جماعة الكناني المقدسي قاضي مصر والشام . كان خطيب المسجد الأقصى . وتولى التدريس بالصلاحية . هو الذي عمر المنبر(١) الرخام بالصخرة المشرفة الذي يخطب عليه للعيد . وكان قبل ذلك من خشب يحمل على عجل . توفي سنة ٧٩٠هـ - ١٣٨٨م .

---

(١) (أهل العلم بين مصر وفلسطين) للاستاذ الخالدي . ص ١٣ .

٤ . نجم الدين أبو عبدالله الكناني المقدسي . توفي سنة ٧٩٥هـ - ١٣٩٢م .

٥ . القاضي عماد الدين أبو عيسى أحمد العامري الأرزقي الكركي . ولاه الطاهر برقوق قضاء مصر . ثم تولى التدريس بالصلاحية . ومات في القدس سنة ٧٩٩هـ - ١٣٩٦م .

٦ . شيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباسي أحمد المصري المقدسي المشهور بابن الهائم . وقد كان ماهراً في علم الفرائض والحساب . توفي سنة ٨١٥هـ - ١٤١٢م ودفن بماملا .

٧ . شيخ الإسلام أبو عبدالله محمد الرازي من ذرية الفخر الرازي . تولى تدريس الصلاحية سنة ٨١٥هـ - ١٤١٢م وولي نظر القدس والخليل . توفي بالقدس سنة ٨٢٩هـ - ١٤٢٥م ودفن بالبسطامية بماملا .

٨ . شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبدالله محمد عبدالدائم العسقلاني . توفي سنة ٨٣١هـ - ١٤٢٧م .

٩ . زين الدين أبو بكر القمني المصري الخزرجي . ولي تدريس الصلاحية سنة ٧٩٧هـ - ١٣٩٢م وتوفي سنة ٨٣٣هـ - ١٤٢٩م .

١٠ . قاضي القضاة وشيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد الأموي المصري المشهور بابن الجمرة . ولي تدريس الصلاحية سنة ٨١٧هـ - ١٤١٤م . وتوفي سنة ٨٤٤هـ - ١٤٤٠م ودفن بماملا .

١١ . شيخ الإسلام الرحالة المشهور عز الدين ابن عبدالسلام العجلوني السعدي المقدسي . ولي تدريس الصلاحية . وتوفي بالقدس سنة ٨٥٠هـ - ١٤٤٦م .

١٢ . المحدث عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن برهان الدين القرقشندي . ولي التدريس بالصلاحية توفي سنة ٨٦١هـ - ١٤٥٦م ودفن بماملا .

١٣ . شيخ الإسلام جمال الدين أبو محمد بن جماعة الكناني . ولد بالقدس سنة ٧٨٠هـ - ١٣٧٨م وتلقى العلم في مصر . ولي قضاء الشافعية بالقدس . ودرس بالصلاحية . توفي سنة ٨٦٥هـ - ١٤٦٠م .

١٤ . محمد الخليل الأنصاري . توفي سنة ٩٠١هـ - ١٤٩٥م .

١٥ . كمال الدين محمد بن أبي شريف المقدسي . تولى التدريس بالصلاحية سنة ٨٨٠هـ - ١٤٧٥م .

ومن الذين تولوا التدريس فيها في العهد العثماني :

١ . شيخ الإسلام برهان الدين أبو إسحق ابن الأمير ناصر الدين بن أبي شريف المقدسي . توفي سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م .

٢ . كاتب العماير الشيخ محمود بن القاضي أحمد الديري[(١)] . وكان يتقاضى عثمانياً واحداً في كل يوم (٩٧١هـ - ١٥٦٣م) .

٣ . السيد علي بن محمد بن علي بن جار الله . توفي سنة ١١٦٩هـ - ١٧٥٥م .

٤ . السيد جار الله اللطفي[(٢)] وكان يتقاضى أربعين عثمانياً وعشر قرية سلوان عن التدريس وأربع قطع مصرية مع عثماني واحد في كل يوم عن التولية (١١٧٥هـ - ١٧٦١م) .

٥ . السيد محمد بن علي جار الله المقدسي[(٣)] .

تولى إفتاء القدس ومنصب نقيب الأشراف سنة ١١٨١هـ - ١٧٦٧م .

ولكن الاتراك تنازلوا عنها في القرن التاسع عشر للإفرنسيسين اعترافاً لهم بالفضل لأنهم وقفوا إلى جانب الأتراك وخاصموا الروس في حرب القرم ، فأعطاها هؤلاء للآباء البيض . فجعلوها مدرسة إكليركية . وبقيت كذلك حتى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤) فاحتلها الأتراك واتخذوها مدرسة لتعليم العلوم الدينية عرفت باسمها القديم (الصلاحية) . ولماسقطت القدس في يد الإنكليز أرجعوها إلى الآباء البيض فأعادوها مدرسة وفيها متحف وكنيسة .

المدرسة الأفضلية

بحارة المغاربة . وكانت قديماً تعرف بالقبة . وقفها الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن الملك صلاح الدين ، على فقهاء المالكية بالقدس . ووقف أيضاً حارة المغاربة على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكوراً وإناثاً . وقد تم ذلك كله على عهده يوم تسلطن على دمشق ، وكانت القدس من أعماله .

إنها الآن دار يسكنها جماعة من فقراء المغاربة . وفيها مدفون رجل يسمونه

---

(١) السجل ٤٤ ، الصفحة ٥٠٠ .

(٢) السجل ٢٤٤ ، الصفحة ١٢٢ .

(١) (أهل العلم بين مصر وفلسطين) للأستاذ الخالدي ، ص ٣٦ .

(الشيخ عيد) . ويقولون إنه من الصالحين . وهناك مدرسة بهذا الاسم بحارة النصارى . كانت في القرون الوسطى مسجداً على علو سجن الشرطة . بناها الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن صلاح الدين . (٥٨٩هـ - ١١٩٣م) . وهي السنة التي توفي أبوه صلاح الدين فيها . ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٩٧ من كتابه الأنس الجليل . وقال عنها إنها مدرسة . وأما منارتها فإن تاريخها يرجع إلى ٨٧٠هـ - ١٤٦٥م .

المدرسة الميمونية

عند باب الساهرة . على بعد مئتي متر من السور في داخل المدينة . كانت كنيسة للروم . وقيل إنها كانت للسريان . وكان هؤلاء يسمونها (دير الجدلية) . وقد اتخذها أسقف السريان في أورشليم فورلس الثالث[(١)] مقراً له .

كانت كذلك عند الفتح الإسلامي (٦٣٦م) ولا ندري كيف ومتى انتقلت إلى يد المسلمين . ولكنا نعلم العلم اليقين أن الأمير فارس الدين أبا سعيد ميمون ابن عبدالله القصري خازندار الملك صلاح الدين هو الذي وقفها وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٥٩٣هـ - ١١٩٦م .

كانت في بادىء الأمر زاوية . ثم اتخذت بعد ذلك مدرسة للشافعية . وإنا لنستغرب كيف قيل إنها كانت على عهد مجير الدين (٩٠٠هـ - ١٤٩٤م) من المهملات وأنه لم يبق لها نظام . إذ إنا نقرأ بعد ذلك بقرنين أو يزيد أنه كان بها ناظر ووقف[(٢)] وأن[(٣)] «الحاكم الشرعي أقر كلا من حسن بك ومحمد آغا وقاسم آغا أولاد طوقان زاده في ثلث وظيفة التولية على المدرسة الميمونية بالقدس الشريف براتب قدره خمسة عثامنه[(٤)] في كل يوم عوضاً عن السيد تاج الدين بن حسن افندي الجاعوني والسيد بدر الدين بن شمس الدين الجاعوني بحكم فراغهما لهم وتعوض الفارغان نظير فراغهما لهم عن ذلك ٣٦٠ زولطه مقبوضة» وكان ذلك بتاريخ ١١٧٥هـ - ١٧٦١م .

---

(١) هناك في دير السريان بالقدس وقفية رقمها ١٢٣ ، تاريخها ٧٥٠م يشير إلى ذلك .

(٢) السجل ٢٢٨ الصفحة ٢٥ السنة ١١٤٨هـ - ١٧٣٥م .

(٣) راجع السجل رقم ١٢٤٤ لصفحة ١٤٣ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس .

(٤) جمع (عثماني) وهو نوع من العملة كان رائجاً في ذلك العصر .

ومن الذين تولوا التدريس فيها خلال القرن السابع عشر للميلاد محمد بن حافظ السروري المقدسي من بني غانم . توفي سنة ١٠٨٩هـ - ١٦٧٨م .

وقد حدثني السيد إبراهيم طهبوب أنها كانت من أوقاف العسلي ، وأن جانباً منها فاخورة ، والجانب الآخر مزبلة . وأنها ظلت كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر . فاتخذها الأتراك مدرسة وأسموها (قدس شريف مكتب اعداديسي) وقد تم تدشينها في ١٣٠٩ مالية ١٣١٠ هجرية ١٨٩٢ ميلاية د . وسميت بالمأمونية . وقد تعلم فيها كثيرون من أبناء بيت المقدس ومنهم مؤلف هذا الكتاب .

وبعد الاحتلال الإنكليزي جعلت مدرسة للبنات تابعة لمصلحة المعارف العامة .

المدرسة الجراحية

في الحي المعروف بحي الشيخ جراح ، على بعد كيلو مترين من سور المدينة إلى الشمال ، وعلى الطريق المؤدية إلى نابلس ، سميت كذلك نسبة لواقفها الأمير حسام الدين الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحي أحد أمراء الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب . وقد توفي في صفر سنة ثمان وتسعين وخمسماية (١٢٠١م) ودفن في زاويته المذكورة . ذكرها الشيخ عبدالغني النابلسي في رحلته . فقال عنها ما تقدم ذكره نقلاً عن مجير الدين . وقال أيضاً أن لها وقفاً ووظائف مرتبة .

ولا صحة عندي للقول الشائع بين سكان بيت المقدس عن نبوة الشيخ جراح . لا ولا عن صحبته للنبي . إنه لم يذكر في عداد الصحابة الذين دخلوا القدس في الفتح العمري . والحقيقة التي لا مراء فيها أنه من رجال صلاح الدين . وقيل إنه كان طبيبه الخاص . وقد أبلى في معركة القدس بلاء حسناً .

المدرسة النحوية

على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب . ذكرها مجير الدين[١] وذكرها الأستاذ محمد كرد علي في (خطط الشام) فقال إن الذي بناها هو الملك المعظم عيسى ، وكان ذلك سنة ٦٠٤ للهجرة - ١٢٠٧م . كان يدرس فيها الكتاب علم النحو لسيبويه . ولذلك سميت المدرسة النحوية .

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٨٦ .

المدرسة الناصرية[1]

كانت على برج باب الرحمة من أبراج السور الشرقي . عرفت بادىء ذي بدء بهذا الاسم نسبة إلى منشئها الشيخ نصر المقدسي . ثم عرفت بالغزالية نسبة لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي[2] الذي اعتكف فيها مدة أتم خلالها تأليف كتابه (احياء العلوم) . ولقد جدد إنشاءها الملك المعظم عيسى ، وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو . ووقف عليها كتباً . وكان ذلك بتاريخ ٦١٠هـ - ١٢١٣م ذكرها مجير الدين[3] وقال إنها كانت على عهده دائرة .

المدرسة البدرية

بالقرب من اللؤلؤية ومن زاوية ولي الله الشيخ محمد القرمي إلى الغرب . وقفها بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري[4] أحد أمراء الملك المعظم عيسى (٦١٠هـ - ١٢١٣م) على فقهاء الشافعية . استشهد في الغور بالقرب من نابلس فنقل إلى القدس ودفن فيها .

إنها الآن دار معدة للسكن . تسكنها عائلة علي نصره التوتونجي وإخوته . إنها كائنة في الحارة المعروفة بالواد . وقد كتب على بابها الكلمات الآتية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة على أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه الموالي الملكة العلية المجاهدة بدرية» .

---

(١) كذا وردت في الأنس الجليل . ولكن الاستاذ محمد كرد علي نقلها في خطط الشام باسم (المدرسة النصرية) . وأرى أن الحق معه . إذ إن مؤسسها على قول مجير الدين نفسه هو الشيخ نصري المقدسي .

(٢) إنه محمد بن محمد بن أحمد الغزالي . ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م ، ولم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله . تنتقل من بلده طوس إلى نيسابور إلى دمشق . ثم إلى بيت المقدس . وتوفي بطوس سنة ٥٠٥هـ - ١١١١م .

(٣) الأنس الجليل ، ص ٣٨٦ .

(٤) مجير الدين ، ص ٣٩٨ ، والمقريزي ، ج١ ، ص ١٨٨ .

المدرسة المعظمية

ومن أسمائها الخنقية . إنها وقف الملك المعظم عيسى . مقابل باب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية . وقفت على كتاب الوقف وفيه جهات كثيرة من القرى . وقد أخذ غالبها وصاربأيدي الناس إقطاعاً وملكاً . ذكرها مجير الدين في كتابه الأنس الجليل ، ومحمد كرد علي في كتابه خطط الشام . ومما قاله هذا أنها الآن معمورة . وأنه كان يدرس فيها الخالدية خصوصاً الكافية والهداية .

دخلتها في اليوم العشرين من شهر شباط ١٩٤٧م فرأيت الخراب مخيماً على الجانب الأكبر منها . وقد احتكر جانباً منها رجل من الخليل يدعى محمد دعسان . وقرأت على بلاطة كانت لا تزال مثبتة في جدارها القبلي من الداخل الكلمات الآتية كتبت بالنسخ الأيوبي الجميل .

«أمر بعمله مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبو العزائم عيسى ابن أبي بكر بن أيوب الواقف لهذه المدرسة على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الإمام الأعظم أبي حنيفة ﵁ وأرضاه» .

وذلك في شهور سنة أربع عشرة وستماية للهجرة النبوية تقبل الله منه وغفر له . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما . ٦١٤هـ» ١٢١٧م .

وعلى الوجه القبلي من حائط المنارة بلاطة من ا لرخام نقش عليها بالنسخ الأيوبي أو المملوكي القديم وبأحرف صغيرة هذه الكلمات :

«أمر بعمارة هذه المأذنة المباركة الملك القاهر الناظر بهذه المدرسة غفر الله له وتغمد برحمته والده الواقف السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى قدس الله روحه في شهور سنة ثلاث وسبعين وستماية» . ٧٧٣هـ - ١٢٧٤م .

دار الحديث

بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب برأس درج العين بباب السلسلة . وقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدبن أبي القاسم الهكاري . وكان ذلك بتاريخ ٢٥ رجب ٦٦٦هـ - ١٢٦٧م . فيها الآن جماعة من آل الخالدي .

الرباط المنصوري

انشأه[1] الملك المنصور قلاون الصالحي سنة (٦٨١هـ - ١٢٨٢م) ووقفه على الفقراء من زوار القدس . ولذلك يسمونه رباط قلاوون .

واقع قبلي الطريق الموصلة إلى الحرم من باب الناظر وعلى بعد بضعة أمتار من الباب المذكور للغرب ، تجاه رباط البصير بالتمام .

هناك بلاطة من رخام فوق بابه نقش عليها بالنسخ المملوكي القديم وبأحرف متوسطة هذه الكلمات :

«بسملة . . . الحمد لله عم بفضله كل شيء . وصلى الله على سيدنا محمد وآله . أمر بعمارة هذا الرباط وقفه على الفقراء وزوار القدس الشريف مولانا السلطان الملك المنصور أبو الملك سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي أدام الله أيامه وتقبل منه . سنة إحدى وثمانين وستماية .» ١٢٨٢م .

استعمل الأتراك بعدئذ هذا البناء سجناً . وكانوا يسمونه (حبس الرباط) .

رباط الكرد

أمام المدرسة الأرغونية بباب الحديد . أنشأه[2] المقر السيفي كرد صاحب الديار المصرية سنة ٦٩٣ للهجرة - ١٢٩٣م . وهو الآن عامر . يسكنه جماعة من آل الشهابي .

المدرسة الأباصيرية

تنسب للأمير علاء الدين الأباصيري[3] . إنها بجوار باب الناظر . وقد كانت رباطاً تجاه الرباط المنصوري[4] . واقفه الأمير علاء الدين أيدغدي . وقفه في سنة ست وستين وستمائة (١٢٦١م) في زمن الملك الظاهر بيبرس . ولم يظهر له كتاب

---

(١) (المعاهد المصرية في بيت المقدس) للأستاذ أحمد سامح الخالدي ، ص ٨ .

(٢) الأنس الجليل ، ص ٣٨٩ .

(٣) توفي سنة ٦٩٣هـ - ١٢٩٣م ، وكان ناظراً للحرمين (الحرم القدسي وحرم الخليل) من ايام الظاهر بيبرس إلى أيام المنصور قلاون .

(٤) وقف السلطان الملك المنصور قلاون الصالحي (٦٨١هـ - ١٢٨٢م) .

وقف . فكتب محضر بوقفه وثبت لدى حاكم الشرع . وكان ذلك بتاريخ ١٨ ربيع الآخر ٧٤٢هـ - ١٣٤١م . وهو مدفون بالرباط المذكور .

اتخذ هذان الرباطان : الاباصيري والمنصوري في أوائل العهد التركي مسكناً للتكارنة[1] . إنهم من عرق افريقي جاءوا من دارفور وملحقاتها . وكانت الحكومة التركية تستخدمهم في شؤون الشرطة . وعهدت إليهم بحراسة المدارس التي كانت تقوم في الدور والمنازل والأروقة الكائنة حول الحرم من الغرب والشمال . ولقد قاموا بواجباتهم حق القيام ، وكانوا دوماً من المخلصين للدولة . إنهم سود اللون ، طوال القامة ، أقوياء البنية . وعهد إليهم بحراسة أبواب الحرم . إذ كان محرماً على النصارى والأجانب دخول الحرم . والويل لمن كانت تحدثه نفسه بمخالفة هذا الأمر والاقتراب من أحد الأبواب . حتى الأمراء وملوك الدول الأجنبية ، فقد كان محظوراً عليهم دخول الحرم إلا بإذن من التكارنة . وما كان هؤلاء ليأذنوا لأحد خلاف المسلمين . وإنا لنرى هذه القاعدة على أشدها في أواسط القرن التاسع عشر (١٨٥٥) ، يوم اضطر متصرف القدس أن يسجن التكارنة ليمكن أحد الملوك من زيارة الحرم .

ولقد اتخذ هذان الرباطان في أواخر العهد التركي سجناً ، فكان في أحدهما وهو القبلي الموقوفون الذين ينتظرون محاكمتهم ، وفي الثاني المحكومون . وكان هذا يدعى (سجن الدم) . وظل كذلك حتى الاحتلال البريطاني ، يوم نقل الإنكليز السجن إلى المكان المعروف في يومنا هذا بالمسكوبية .

وأما الآن فليس فيهما سوى الفقراء من التكارنة يعيشون عيشة التسول والاستجداء .

والمعتقد أن الدار التي يقطنها جماعة من آل الخالدي غربي الحرم إلى الشمال ، كانت فيما مضى جزءاً من المدرسة الأباصيرية التي نحن في صددها .

المدرسة الدوادارية

ويسمونها أيضاً الدويدارية . إنها من المدارس التي أنشئت على عهد المماليك البحريين . واقعة شمالي الحرم وإلى الشرق من الطريق المؤدية إليه عند الباب المعروف

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٩٤ .

بالباب العتم[1] . كانت تُعرف فيما مضى بدار الصالحين . بناها ووقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر بن عبدالله الدوادار الصالحي النجمي في اليوم الأول من شهر محرم سنة ٦٩٥هـ - ١٢٩٥م . وكان ذلك في زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب .

يدلك على هذا الكتابة المنقوشة على بابها الخارجي من جهاته الثلاث . وهي بالنسخ المملوكي القديم :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه الخانقاه المباركة المسماة بدار الصالحين العبد الفقير إلى الله تعالى عبدالله بن عبد ربه بن عبدالباري سنجر الدواداري الصالحي ، ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفراً من الطائفة الصوفية والمتصوفة من العرب والعجم ، منهم عشرون نفراً عزاباً وعشرة مزوجون مقيمون بها لا يظعنون عنها صيفاً ولا شتاء ولا ربيعاً ولا خريفاً إلا لحاجة ، وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية والمتصوفة مدة عشرة أيام . ووقف عليها قرية بير نبالا من القدس الشريف وقرية حجلا من أريحا وفرن وطاحون علوهما دار بالقدس ومصبنة وستة حوانيت ووراقة بنابلس وثلاثة بساتين وثلاثة حوانيت وأربع طواحين ببيسان . وقف ذلك على هذه الخانقاه وعلى تدريس مذهب الشافعي وعلى شيخ يسمع الحديث النبوي وقارىء يقرأ عليه وعلى عشرة أنفار يسمعون الحديث وعشرة انفار يتلون كتاب الله كل يوم ختمة وعلى مادح ينشد مدح النبي . كل ذلك بالجامع الأقصى . وذلك في مستهل سنة خمس وتسعين وستماية بتولية الفقير إلى الله سنجر القيمري عفا الله عنه . ومن جملة وقف هذه الخانقاه المباركة ووظائفها المذكورة قرية طبرس من قاقون وحمام الملكة من نابلس المحروسة . عمل المعلم علي بن سلامة المهندس» .

ذكرها مجير الدين في الصفحتين ٣٩٠ و٤٩٥ من كتابه (الأنس الجليل) . وذكرها فان برشام الهولندي .

إنها في يومنا هذا (١٩٤٦) عامرة . وقد اتخذتها مصلحة الوقف مدرسة لتعليم البنات المسلمات .

المدرسة السلامية

بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية . إنها بجوار المدرسة الدويدارية من جهة

---

(١) ومن اسمائه باب الدويدارية وباب شرف الانبياء وباب الملك فيصل .

الشمال . واقفها الخواجا مجد الدين أبو الفدا اسماعيل السلامي . والظاهر أنها أوقفت بعد السبعماية . وهناك من يقول إنها أوقفت حوالي سنة ٧٠٠هـ - ١٣٠٠م . ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٩٣ من كتابه الأنس الجليل . ونقلها عنه مؤلف خطط الشام ، فقال إنها القرآن . إنها الآن دار معدة للسكن . يسكنها جماعة من آل جار الله .

المدرسة الوجيهية

بخط درج المولى ، بالقرب من المدرسة المحدثية عند باب الغوانمة . وقفها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد بن النحا (النجا؟ . .) الحنبلي المتوفي سنة ٧٠١هـ - ١٣٠١م . وهي الآن دار سكن .

المدرسة الموصلية

بباب شرف الأنبياء بجوار المسجد الأقصى . نسبت للخواجا فخر الدين الموصلي . جاء في سجلات المحكمة الشرعية[1] أن مدرسها ومتولي أوقافها في سنة ١١٧٥هـ - ١٧٦١م كان السيد جار الله اللطفي ، وأن هذا كان يتقاضى راتباً قدره عشر عثمانيات .

المدرسة الجالقية

في الزاوية الشمالية الغربية عند ملتقى طريق باب السلسلة بطريق الواد . تجاه المدرسة الطارزية . أنشأها ركن الدين بيبرس الجالق الصالحي بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة ٧٠٧هـ - ١٣٠٧م . ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٩٦ من كتابه الانس الجليل . إنها اليوم في حوزة آل الخالدي . باعوا جانباً منها إلى جماعة من أهل الخليل . واحتفظوا بالجانب الآخر .

المدرسة الجاولية

قريبة من درج الغوانمة عند زاوية الحرم الشمالية إلى الغرب . وقفها الأمير علم

---

(١) السجل ٢٤٤ ، ص ١٢٢ .

الدين سنجر الجاولي نائب غزة والقدس (٦٨٣ - ٧٤٥هـ) وجعلها مدرسة ٧١٥هـ - ١٣١٥م فسميت باسمه . واتخذت فيما بعد داراً للنيابة . وأول من اتخذها داراً للنيابة هو شاهين الذباح . وكان ذلك حوالي سنة ٨٠٠هـ - ١٤٠٠م . وعلى مدخلها بلاطة نقشت عليها هذه الكلمات : «رسم بتجديدها المقر الشجاعي شاهين» .

وعلى عهد مجير الدين[١] كانت سكناً لنواب القدس . وفيها دفن الشيخ درباس الهكاري وكان من الصالحين .

يعتقد علماء الآثار أن هذا البناء شيد على عهد المكابيين . شيده جون هركانوس (١٣٤ ق .م) وجعله قلعة يحمي بها الهيكل . وقد أسماها يومئذ (بارس) . ثم جاء هيرودس الملك ووسعها وأضاف إليها برجاً أسماه (برج انطونيا) . وقد حصنها تحصيناً متيناً . واتخذها الرومان مقراً لولاتهم . وفيها أقام الوالي الروماني بيلاطس الذي حاكم السيد المسيح . وفي عهد المماليك صارت مدرسة . ثم صارت داراً للنيابة كما قدمنا . وقد اتخذها الأتراك قشلاقاً وداراً للحكم . وكان ذلك حوالي نهاية القرن السادس عشر . وكانت على عهدهم تدعى (السرايا القديمة) . وظلت كذلك حتى بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) .

وبعد الاحتلال البريطاني وضع المجلس الإسلامي الأعلى يده عليها (١٩٢٢) . لأنها من أملاك الوقف وأقام فيها (كلية روضة المعارف) الوطنية . وفي أثناء الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ - ١٩٣٨) اتخذها الإنكليز داراً للشرطة وهي الآن مدرسة .

المدرسة الكريمية

بباب حطة ، ملاصقة للباب من الشرق . ذكرها العمري في كتابه (مسالك الأبصار) . وذكرها مجير الدين[٢] فقال : إن الذي وقفها هو الصاحب كريم الدين عبدالكريم بن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية . وكان ذلك بتاريخ ٨ ذي الحجة ٧١٨هـ - ١٣١٩م .

ذكرها ابن بطوطة في رحلته سنة ٧٢٥هـ - ١٣٢٤م . واجتمع بشيخها . وقد

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٩٠ .

(٢) الأنس الجليل ، ص ٣٩١ .

عدها خانقاه أي رباطاً . وقال عن واقفها كريم الدين إنه كان قبطياً فأسلم(١) .

وفي سنة ٩٩٠هـ - ١٥٨٢م كان الشيخ جار الله ابن المرحوم شيخ الإسلام أبو بكر الشهير نسبه بابن أبي اللطف ناظراً على وقفها .

وكان السيد جار الله ابن وفا أفندي اللطفي سنة ١١٧٤هـ - ١٧٦٠م شيخ هذه المدرسة ومدرسها ومتولي أوقافها(٢) . وكان يتقاضى لقاء ذلك أجراً قدره عثمانيان عن المشيخة وستة عن التدريس وأربعة عن التولية . ثم تخلى عن وظيفة المشيخة إلى السادة محمد وأحمد وعبدالله أولاد السيد علي أفندي جار الله زادة ولآخرين .

إنها الآن بيد فريق من آل جار الله .

المدرسة التنكزية

ويسمونها خطأ التنكيزية . أنشأها الأمير تنكز الناصري(٣) سنة ٧٢٩هـ ١٣٢٨م .

إنها عند باب الحرم المعروف بباب السلسلة . لها بابان : باب شرقي وهو مطل على الحرم ، وآخر شمالي وهو مطل على الطريق المعروفة بطريق باب السلسلة .

كتب على واجهتها الخارجية فوق الباب الشمالي الكلمات التالية بالخط المعروف بالنسخ المملوكي الجميل وبأحرف كبيرة : (بسم الله الرحمن الرحيم . أنشأ هذا المكان المبارك راجياً ثواب الله وعفوه المقر الكريم السيفي تنكز الملكي الناصري عفا الله عنه وأثابه . وذلك في شهور سنة تسع وعشرين وسبعماية) . وهي موقوفة باسمه(٤) .

قبل أن يكون هذا المكان مدرسة(٥) كان خانقاه للصوفيين . وكان أيضاً داراً للأيتام ، وداراً للحديث . ثم صار في عهد المماليك مدرسة . ولما ذكرها مجير الدين(٦) قال عنها : «إنها مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها . ولها

(١) (المعاهد المصرية في بيت المقدس) للأستاذ أحمد سامح بيك الخالدي ، الصفحة ٩ .

(٢) السجل ٢٤٤ ، ص ٧٥ و١٢٢ .

(٣) إنه الأمير سيف الدين تنكز بن عبدالله الملكي الملقب بأبي سعيد . كان نائب السلطنة المصرية بالشام . وقد توفي بالاسكندرية مسموماً سنة ٧٤١هـ - ١٣٤٠م . ونقل إلى تربته بدمشق .

(٤) السجل ٩٢ ، الصفحة ٤٧٦ ، التاريخ ٧٣٠هـ - ١٣٢٩م .

(٥) فان برخام .

(٦) الأنس الجليل ، ص ٣٨٧ .

مجمع راكب على الأروقة الغربية في المسجد» .

وقد سكنها السلطان فرج أثناء إقامته بالقدس . وفي عهد قايتباي اتخذت مركزاً للحكام والقضاة والنواب المسؤولين عن إدارة القدس . ولطالما اتخذها هؤلاء داراً لسكناهم أيضاً .

ذكرها السائح المشهور فابري فقال : «أنها كانت ديواناً للقضاء ، وداراً لسكن القضاة» .

وكان في داخلها مسجد أيضاً . فإنك تقرأ السطور التالية منقوشة على حائط بهوها القبلي الكبير :

«البيت الحرام أول مسجد وضع على وجه الأرض واختار لعبادته مواطن لاقامة السنن والفرض . وجعل هذا المسجد جار المسجد الأقصى ونعم الجار الطاهر ، واجرى لبانيه جزيل الثناء والثواب الوافر ، لقوله تعالى : إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، اختار لعمارة بيوته من رضي فعله وقوله وأطال بالسعد والبذل طوله . .»

وعندما كانت مدرسة كان يدرس فيها أساتذة قديرون . منهم الشيخ احمد الشهابي بن الشيخ محمد تنكز[1] والشيخ المحدث أبو محمود أحمد بن محمد بن هلال وهو من مفاخر بيت المقدس . الف كتابه المشهور (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) . وقد رحل إلى مصر وتوفي فيها ٧٦٥هـ - ١٣٦٣م .

ومنهم الشيخ محمود بن القاضي أحمد الديري ، وكان يتقاضى أجراً يومياً قدره نصف عثماني[2] .

وفي عهد الأتراك صارت محكمة شرعية ، وكذلك بقيت في أوائل الاحتلال الإنكليزي ، ثم اتخذت داراً لسكن رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الحاج أمين أفندي الحسيني .

إن نصف الحمام المعروف بـ(حمام العين) والكائن بسوق باب القطانين ، وقف على المدرسة التنكزية[3] ، والنصف الآخر وقف على الصخرة .

ذكر الأستاذ كليرمان غانو في كتابه (التنقيب عن الآثار في فلسطين) -Ar

(١) السجل ٦٠ الصفحة ٤٣ ، التاريخ ٩٩٠هـ - ١٥٨٢م .

(٢) السجل ٤٤ الصفحة ٥٠٠ ، التاريخ ٩٧١هـ - ١٥٦٣م .

(٣) السجل ٦٠ الصفحة ٤٣ ، التاريخ ٩٩٠هـ - ١٥٨٢م .

cheological Researches In Palestine by Clermont - Gannean أنه عندمـا تولى المسؤولون تعمير دار المحكمة (التنكزية) وحفروا الاساس ، بقصد إصلاح بالوعها وكان ذلك حوالي عام ١٨٧٤ للميلاد ، عثروا على حجرين صغيرين وقديمين ، اشتراهما من العمال . أحدهما نحت بشكل يمثل رأس آدمي ، وإن كان من الصعب تمييز العصر الذي ينتمي إليه . والثاني نحت بشكل امرأة عارية الصدر ، مستورة العورة ، منحنية الذراعين حول الرأس .

ويكاد المرء ، على حد قوله ، يعتقد أنه تمثال صغير لفينوس إلهة الجمال . ولما كان قد ورد في التاريخ ذكر لمعبد بهذا الإسم (فينوس) في الموضع الذي تقوم عليه كنيسة القيامة ، فقد راح الأستاذ يتساءل عمّا إذا كان هذا هو نموذج لفينوس ذي الصلة بالقدس القديمة التي كانت تعرف بـ : Aelia Capitolina

المدرسة الأمينية

شمالي الحرم ، بالقرب من باب شرف الأنبياء إلى الغرب . أنشأها الصاحب أمين الدين عبدالله سنة ٧٣٠هـ - ١٣٢٩م . ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٩٠ من كتابه الأنس الجليل . وهي الآن دار عامرة ، يسكنها جماعة من آل الإمام .

وفي الطابق الأرضي تحتها مدفون عدد غير قليل من آل الإمام وعلمائهم الغابرين : مثل الشيخ أسعد الإمام والشيخ يوسف والشيخ محمد صالح والشيخ إبراهيم وغيرهم كثيرون . وكذلك الشيخ يحيى بن شرف الدين بن قاضي الصلت . ولسنا ندري حقيقة القول القائل بأن النبي يوشع أيضاً مدفون هناك . وله ضريح .

وأما آل الإمام المدفون فيها فهم : الجد الأكبر ضياء الدين محمد أبو عيسى الهكاري .

الشيخ عبدالرحيم الإمام وزير صلاح الدين

الشيخ عبدالرحمن الإمام .

الشيخ محمد شمس الدين الإمام .

الشيخ محمد صالح الإمام .

الشيخ أسعد الإمام .

الخانقاه الفخرية

مجاورة لجامع المغاربة على بعد مئتي متر تقريباً من المسجد الاقصى إلى الغرب. بابها من داخل المسجد عند الباب الذي يخرج منه إلى حارة المغاربة. وقفها القاضي فخر الدين[1] أبو عبدالله محمد بن فضل الله ناظر الجيوش الإسلامية الذي توفي سنة ٧٣٢هـ - ١٣٣١م.

كانت في القرن العاشر الهجري مدرسة. وكان ناظرها وشيخها[2] في سنة ٩٣٧هـ - ١٥٣٠م بهاء الدين بن حامد. وكان هذا يتقاضى أوج اقجة (ثلاث بارات) في كل يوم. وكان تعيينه بأمر من السلطان وما دام في قيد الحياة.

وقد عين القاضي حسام الدبن الحنفي سنة ٩٧١هـ - ١٥٦٣م الشيخ محمود الديري قارئاً في مدرسة الخانقاة هذه بأجر يومي قدره عثماني واحد[3].

إنها اليوم عامرة. يسكنها فريق من آل أبي السعود. وجانب منها زاوية وجامع (هو غير جامع المغاربة).

المدرسة الملكية

ومن أسمائها (مدرسة الجوكندار). واقعة شمالي الحرم، بين المدرسة الفارسية من الشرق والمدرسة الاسعردية من الغرب. تراها على يمينك بعد المدرسة الأمينية إذا ما دخلت الحرم من الباب المعروف بباب شرف الانبياء. ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٩٠ من كتابه الانس الجليل فقال: عمرها الحاج ملك الجوكندار في سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون في مستهل محرم سنة ٧٤١هـ - ١٣٤٠م. يدلك على ذلك الكتابة التالية كتبت بالنسخ المملوكي الجميل ونقشت في حجر من رخام تم تثبيته على حائطها القبلي المطل على ساحة الحرم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. تقرب بعمارة هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج ملك الجوكندار الملكي الناصري، غفر الله له حياً وميتاً ولمن دعا له بالرحمة والمغفرة. وكان الفراغ منه في شهر الله المحرم غرة عام أحد وأربعين وسبع مائة من

---

(١) اصله قبطي، فاسلم، (الأنس الجليل، ص ٣٨٦).

(٢) السجل ١، الصفحة ٢٥٢.

(٣) السجل ٤٤، الصفحة ٥٠٠.

الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم .»

وأما الوقف عليها فإنه من زوجته ملك بنت السيفي قلطلقتم الناصري سنة ٧٤٥هـ - ١٣٤٤م .

إنها في يومنا هذا ليست مدرسة ، وإن كانت عامرة . يسكنها آل الخطيب . وفي جانبها من الغرب دار الكتب الإسلامية . تلك الدار التي أسسها المجلس الإسلامي الأعلى على عهد رئيسه الحاج أمين افندي الحسيني . ويصعد إلى الدارين ، دار الخطيب ودار الكتب ، في درج واحد .

المدرسة الفارسية

بين الأمينية من الشرق والملكية من الغرب . ذكرها مجير الدين[١] من المدارس الواقعة في شمال الحرم . وقال أن واقفها الأمير فارس البكي بن الأمير قطلو ملك بن عبدالله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية ونائب غزة . وهو المنسوب إليه الفارسية بداخل المسجد الاقصى[٢] عند المكان الذي تجلس فيه النساء بالقرب من بئر الورقة والحاكورة التي بلصق المسجد عند الباب الشرق والتي تعرف بحاكورة الفارسية .

إن السجلات التي عثرت عليها في المتحف الفلسطيني بالقدس ، ذكرت أن الأمير فارس هذا قد أنشأ في شمال الحرم بالقرب من باب العتم وإلى الشرق من المدرسة المالكية ، مدرسة أسماها : (المدرسة الفارسية) .

وقال مجير الدين أنه (أي الأمير فارس) وقف عليها جانباً من قرية طولكرم[٣] ، وأن كتاب الوقف مؤرخ في ٣ شعبان ٧٥٥هـ - ١٣٥٤م .

إنها اليوم دار سكن . يقطنها الشيخ إبراهيم العوري .

المدرسة الأرغونية

من المدارس التي أنشئت في عهد المماليك . واقعة تجاه المدرسة الجوهرية قبلي

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٨٠ .

(٢) الأنس الجليل ، ص ٣٨٥ .

(٣) هي اليوم مدينة كبيرة .

الطريق المؤدية إلى (باب الحديد) من أبواب الحرم من الناحية الغربية . وهي متصلة بالمدرسة الخاتونية .

شرع في إنشائها الأمير أرغون الكاملي[1] سنة ٧٥٨هـ-١٣٥٧م . وأكملها الأمير ركن الدين بيبرس سنة ٧٥٩هـ - ١٣٥٨م . يدلك على هذا بلاطة كتب عليها بالخط النسخي المملوكي الجميل .

«بسم الله الرحمن الرحيم . أمربانشاء هذه التربة والمدرسة المباركة المقر الاشرف السيفي ارغون الكاملي نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، توفي إلى رحمة الله تعالى ثامن عشر شوال سنة ثمان وخمسين وسبعمائة . وتولى شدها وتكميلها ركن الدين بيبرس السيفي واكملت في ربيع الأخر سنة تسع وخمسين وسبع مائة» . ولقد كانت هذه المدرسة قائمة في العهد التركي (٩٧٥هـ - ١٥٦٧م) ولا ندري متى أغلقت؟ .

عرف هذا الباب فيما مضى بباب ارغون ، بالنسبة إلى مجدده الأمير ارغون . و(ارغون) كلمة تركية معناها الحديد . ولذلك استبدل اسم الباب مع الأيام فأصبح يعرف بـ(باب الحديد) . والمدرسة وإن كانت الغيت ، إلا أن بناءها ما برح قائماً ، يسكنه جماعة من آل العفيفي . وقد دفن بجانب منه المغفور له الملك حسين بن علي موقد نار الثورة العربية ضد الأتراك سنة ١٩١٥ للميلاد - ١٣٣٤هـ .

على شباك ضريحه المطل على الحرم بلاطة كتب عليها : «بسم الله الرحمن الرحيم . وبشرهم ربهم برحمة منه . ضريح ملك العرب العظيم وزعيم النهضة العربية الشريف الهاشمي الملك حسين بن علي رحمه الله توفي بعمان في ١٨ محرم ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م» .

---

(١) كان من رجال الملك كامل شعبان ، ولاه الامارة . وترقي في الجيش وفي الإدارة إلى أن اصبح الحاكم المطلق في الشام وحلب . ولقد اوقف في القاهرة وسجن في الاسكندرية ونقل إلى القدس في أواخر سنة ٧٥٥هـ - ١٣٥٤م حيث عاشم بلا عمل . ومكث فيها إى أن مات ودفن في مدرسته . وقد ذهب بعضهم خطأ إلى أن الذي بناها هو ارغون بن عبدالله البشبغاوي الظاهري الذي ذكره المنهل الصافي في ج١ فقال : إنه من مماليك الملك الظاهر برقوق مات بالقدس يوم الجمعة ثالث ذي القعدة سنة ٨١٣هـ - ١٤١٠م والحقيقة ما ذكرنا .

المدرسة التشتمرية

بباب الناظر بالقرب من الحسنية . واقفها الأمير تشتمر السيفي من أمراء الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون . تاريخ وقفها ١٢ ذي القعدة سنة ٧٥٩هـ - ١٣٥٧م .

إنها غير المدرسة الطشتمرية التي بناها الأمير طشتمر العلائي بتاريخ ٧٨٤هـ - ١٣٨٢م . تلك واقعة في طريق باب السلسلة وهذه بباب الناظر . وتاريخ وقف كل واحدة منهما يختلف عن الأخر .

المدرسة الحنفية

انظر ما كتبناه عن (المدرسة المعظمية) . وأعتقد أن المدرستين واحدة . لا نعلم عنها سوى أن السيد جار الله اللطفي[١] كان مدرساً فيها ، وكان متولياً أوقافها لقاء أجر قدره أربع عثمانيات . وذلك في سنة ١١٧٥هـ - ١٧٦١م . وله شركاء أخرون في التدريس . وجاء ذكرها في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس قبل ذلك بعشر سنين (١١٦٥هـ - ١٧٥١م) .

المدرسة الحكمية

لا نعلم عنها سوى أن القاضي حسام الدين الحنفي[٢] عين في صفر ٩٧١هـ - ١٥٦٣م الشيخ زين الدين محمود بن الديري الحنفي قارئاً فيها بأجر يومي قدره عثماني واحد .

المدرسة الأسعردية

بنيت حوالي سنة ٧٦٠هـ - ١٣٦٨م . واقفها الخواجا مجد الدين الغني بن سيف الدين أبي بكر بن يوسف الأسعردي في ٢٠ ربيع الأول ٧٧٠هـ - ١٣٦٨م . ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٩٠ من كتابه الأنس الجليل . كانت في الأزمنة الأخيرة عامرة . ولقد رممها المجلس الإسلامي أخيراً ، ونقل إليها دار الكتب المسماة

---

(١) راجع السجل ٢٤٤ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس الصفحة ١٢٢ .

(٢) راجع السجل ٤٤ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس ، الصفحة ٥٠٠ .

باسم المسجد الأقصى . واقعة بالقرب من المدرسة الجاولية شمالي الحرم .

سكن في جانب منها قاضي القدس الشيخ نسيب البيطار (١٩٤٦) . ثم سكن هنك الشيخ إبراهيم العوري .

دار السلام القرآنية

تجاه دار الحديث في طريق باب السلسلة . واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر أبي القاسم السلامي بتاريخ ٢٠ ربيع الآخر سنة ٧٦١هـ - ١٣٥٩م . لم تبرح معروفة .

المدرسة المنجكية

ويسمونها غلطاً المنجيكية . أنشأها الأمير سيف الدين منجك سنة ٧٦٢هـ - ١٣٦٠م وسميت باسمه . إنها في طرف الحرم من الناحية الغربية ، وإلى الشمال من باب الناظر . ذكرها مجير الدين في كتابه (الانس الجليل) ص ٣٨٩ وقال : «إن واقفها الأمير منجك نائب الشام . وكان رسم له بالاقامة بالقدس الشريف طرخان . فدخل إليها في شهر صفر سنة إحدى وأربعين وسبعماية . وفي بعض التواريخ أنه وصل إلى القدس ليبني المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن . فلما قتل السلطان ، بناها لنفسه ونسبت إليه» .

ذكرها فان برشام فقال : «كان لها بهو كبير ، وللبهو قوسان مفتوحان ومطلان على الحرم . وواجهة القوسين من حجارة حمراء وبيضاء . وفوق القوسين قبة» .

كانت لها أملاك موقوفة . وكان هناك ناظر يديرها ، وجاب يجبي أوقافها ، وقراء يقرأون القرآن فيها ويعلمونه بأجر معلوم . وكثيراً ما كان قاضي القدس يتولى التدريس فيها بنفسه . ولا غرابة فإنه (أي قاضي القدس) كان المرجع الذي كان يرجع إليه في جميع شؤون هذه المدرسة .

ومن الذين تولوا التدريس في المنجكية قاضي القضاة شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبدالله محمد بن جمال الدين الديري الخالدي العيسى الحنفي . ولد سنة ٧٥٠هـ - ١٣٤٩م . واستوطن القدس . وتولى التدريس في المدرستين المنجكية والمعظمية . توفي بالقدس سنة ٨٢٧هـ - ١٤٢٣م .

ومنهم قاضي القضاة وشيخ الإسلام سعد الدين أبو السعادات الخالدي . ولد

بالقدس سنة ٧٦٨هـ - ١٣٦٦م وولي مشيخة المدرسة المنجكية والمعظمية . توفي سنة ٨٦٧هـ - ١٤٦٢م .

ومنهم مولانا كمال الدين . فقد كان هذا في سنة ٩٢٨هـ - ١٥٢١م شيخها وناظرها . وكان يتقاضى لقاء ذلك بارتين في كل يوم . ولما توفي تولى المشيخة والنظارة ولده مولانا موسى . وذلك بناء على توصية قاضي القدس شرف الدين وببراءة من السلطان تاريخها ١ صفر ٩٢٨هـ . وقد اشترط في البراءة نفسها «أن يقرأ في كل يوم الفاتحة لروح الواقف وللسلطان بدوام دولته . .» .

وفي سنة ٩٧١هـ - ١٥٦٣م عين القاضي حسام الدين الحنفي الشيخ محمود قارئاً باجر يومي قدره عثماني واحد(١) .

تلاشت احوال هذه المدرسة مع الزمن ، ثم عمرت ، واستعملت في اوائل الاحتلال البريطاني (١٩١٧) مدرسة ابتدائية لصغار الاولاد ثم داراً للسكن . وكان فيها بنات من آل هداية (علمية) . ولما تأسس المجلس الإسلامي الأعلى خلال الربع الأول من القرن العشرين ضبطها واتخذها مقراً له ، وقد ضم إليها الدار المجاورة لها والتي كانت تعرف فيما مضى بالمدرسة الحسنية .

المدرسة المحدثية

بالقرب من الوجيهية عند باب الغوانمة . واقفها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمي الاردبيلي في ٣ محرم سنة ٧٦٢هـ ١٣٦٠م . وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية .

إنها الآن بيد الواقف . قسم منها ألحق بكلية روضة المعارف الوطنية ، والقسم الآخر مؤجر ، يقطنه جماعة من آل الشهابي .

المدرسة الحسنية

على باب الأسباط ، وهي آخر المدارس هناك . ويقال إنها وقف شاهين الحسني الطواشي . إنه من دولة الملك الناصر حسن المتوفي سنة ٧٦٢هـ - ١٣٦٠م . لم يكن

---

(١) السجل ٤٤ ، ص ٥٠٠ .

لها حكم المدارس في النظام والشعائر . وإنما صارت منزلاً للسكن .

كـان لهـا عند باب الأسبـاط باب قـد سـد . ويظهـر أن هذا الوقف قـد درس مع الزمن . فانتقلت الدار ، ولا ندري كيف تم ذلك ، إلى جماعة من النصارى .

المدرسة الطازجية

في طريق باب السلسلة من الشمـال . تجاه تربة بركـة خان بالتمام ، وإلى الغرب من المدرسة الجالقية . يسميها البعض غلطاً التعزية . والحقيقة أنها الطارزية نسبة إلى مؤسسها الامير طارز[(١)] .

وقد وقفها هذا في السنة التي توفي فيها (٧٦٣هـ - ١٣٦٢م) .

ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٩٦ من كتابه الانس الجليل . والعالم الهولندي فان برشام . فقال أنها كانت مدرسة وتربة . وقد اطلعنا في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على وثائق يستدل منها على أنه كان ينتدب للتدريس فيها فطاحل العلماء بالقدس . نذكر منهم شمس الدين أبو العباس المقدسي . وكان هذا في الوقت نفسه متولياً قضـاء القـدس . توفي سنة ٧٨٢هـ - ١٣٨٠م . والشيخ محـمـود بن محـمـد الديري . فقد عينه القـاضي حسام الدين الحنفي[(٢)] قارئاً ومـدرسـاً بأجر يومي قدره عثماني واحد (٩٧١هـ - ١٥٦٣م)

إنهـا في يومنا هذا (١٩٤٦) دار معـدة للسكن يسكنهـا جمـاعة من دار هداية . وقد كتب على بلاطة ثبتت فوق نافذتها الكلمات الآتية بالنسخ المملوكي الجميل وباحرف كبيرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه تربة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر الاشرف السيفي طاز توفي رحمه الله سنة ثلث وستين وسبعمائة » .

---

(١) إنه من مماليك السلطان محمد عينه حاكماً على حلب (٧٥٥هـ - ١٣٥٤م) بدلاً من الأمير ارغون الكاملي . ثم نودي إلى القـاهرة (٧٥٩هـ - ١٣٥٨م) وفي الطريق اعـتـقل وسـيق إلى الكرك حيث سجن . ثم ذهب إلى الاسكندرية ومنها إلى القدس ، حيث عاش بطالاً . ثم انتقل إلى الشام حيث ما (٧٦٣هـ - ١٣٦٢م) .

(٢) السجل ٤٤ ، الصفحة ٥٠٠ .

المدرسة البارودية

بباب الناظر بالقرب من التشتمرية . وقفتها الست الحاجة سفري خاتون بنت شرف الدين أبي بكر بن محمود المعروف بالبارودي . وكان ذلك بتاريخ الاحد ٥ رجب ٧٦٨هـ - ١٣٦٦م إنها اليوم دار سكن .

المدرسة الحنبلية

بباب الحديد . واقفها الأمير بيد مر نائب الشام . وكان بناؤها في جمادى الآخرة سنة ٧٨١هـ - ١٣٧٩م . إنها اليوم دار سكن . يقطنها جماعة من آل القطب .

المدرسة اللؤلؤية

بخط مرزبان بجوار حمام علاء الدين البصير من جهة الشمال . ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٩٨ من كتابه الانس الجليل فقال أن واقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الاشرف شعبان بن حسن . وكانت المدرسة موجودة سنة ٧٨١هـ - ١٣٧٩م . وهي الآن عامرة .

المدرسة الخاتونية

بباب الحديد غربي الحرم وإلى الشمال من باب القطانين . إنها واقعة قبلي المدرسة الارغونية . واقفتها اغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية . وكان ذلك في ٥ ربيع الثاني ٧٥٥هـ - ٢٩ ابريل ١٣٥٤م . ووقفت عليها مزرعة ظهر الجمل(١) . ثم اكملت عمارتها ووقفت عليها اصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه سنة ٧٨٢هـ - ١٣٨٠م .

ومن الذين تولوا التدريس فيها الشيخ زين الدين محمود بن الشيخ شهاب الدين أحمد الديري . فقد عينه(٢) القاضي حسام الدين الحنفي سنة ٩٧١هـ - ١٥٦٣م قارئاً ومدرساً فيها . وفي المدرسة اللؤلؤية معاً ، لقاء اجر قدره عثماني واحد في كل يوم .

إنها اليوم دار سكن . يسكنها جماعة من آل الخطيب . ودفن في جانب منها

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٨٨ .

(٢) السجل ٤٤ ، الصفحة ٥٠٠ .

الأمير محمد علي من امراء الهند المسلمين ومن رجالها العاملين .

يرى الزائر فوق الشباك المطل على الحرم من الناحية الغربية بلاطة كتبت عليها السطور التالية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . . هذا ضريح المجاهد العظيم مولانا محمد علي الهندي تغمده الله برحمته . توفي بلندن في النصف من شعبان ودفن بالقدس يوم الجمعة في الخامس من رمضان سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م» .

وفي نفس المكان ، وعلى جانب من ضريح محمد علي ، دفن الزعيم الفلسطيني المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية العربية الذي توفي عام ١٩٣٣ وهناك أيضاً قبر نجله عبدالقادر الحسيني الذي اشتهر في معركة القسطل في ٩ نيسان ١٩١٨م .

المدرسة البلدية

إلى الشمال من باب السكينة[1] . هناك باب صغير يدخل منه إلى غرفة فيها محراب . وفوق هذا الباب بلاطة من الحجر الكلسي نقشت عليها الكلمات الآتية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذه تربة المرحوم السيفي منكلي بغا الاحمدي كافل المملكة الحلبية تغمده الله تعالى برحمته ، توفي ودفن بها في جمادى الآخر سنة اثنين وثمانين وسبع مائة» . سبتمبر ١٣٨٠م

ذكرها مجير الدين في الصفحة ٣٨٧ من كتابه الأنس الجليل . كانت فيما مضى تدعى (مدرسة منكلي بغا) نسبة لواقفها الأمير سيف الدين منكلي بغا الأحمدي . ويظهر انها اتخذت بعدئذ ايضاً مدرسة لابناء البلد ، فسميت (المدرسة البلدية) .

وقد ذكرها الاستاذ احمد سامح بك الخالدي في الصفحة ٣٥ من كتابه : (أهل العلم بين مصر وفلسطين) فقال أنه مدفون فيها مفتي السادات الشافعية الشيخ محمد الخليلي الذي توفي سنة ١١٤٩هـ - ١٧٣٦م . وقد ترك خزانة كتب .

كان لحسن بك الترجمان ، ثم باعها للوقف .

---

(١) إنه الباب الملاصق لباب السلسلة من أبواب الحرم الغربية . ويسمونه (باب السلام) أيضاً .

المدرسة الطشتمرية

واقعة قبلي الطريق المؤدية إلى باب السلسلة عند ملتقى الطريق المذكورة بطريق حارة الشرف ، وعلى بعد ثلاثين متراً من تربة بركة خان إلى الغرب . واجهتها الشمالية مطلة على طريق باب السلسلة . وفوق هذه الواجهة حجر من المرمر مكتوب عليه بالنسخ المملوكي وبأحرف كبيرة الكلمات التالية :

«أمر بانشاء هذا المكان المبارك المقر الأشرف السيفي طشتمر[١] العلائي بتاريخ سنة أربع وثمانين وسبعماية» - (١٣٨٢)م . وبجانب هذه المدرسة تربة دفن فيها الأمير طشتمر نفسه . كما دفن فيها ولده إبراهيم . وقد كتب على قبر هذه الكلمات :

«هذا قبر العبد الفقير إلى الله تعالى المرحوم إبراهيم ولد المرحوم طشتمر العلائي . توفي إلى رحمة الله عالى في يوم الجمعة ثاني شعبان سنة خمس وتسعين وسبعماية» .

لقد اندثرت المدرسة مع الزمن . وأصبحت داراً للسكن . والآن يسكنها جماعة من عائلة الإمام .

المدرسة الجهاركسية

بجوار الزاوية اليونسية من الشمال . إنها واليونسية بقايا كنيسة من بناء الروم قسمت نصفين : الأول جعل للمدرسة الجهاركسية ، والثاني للزاوية اليونسية . والجهاركسية سميت كذلك نسبة لواقفها الأمير جهاركس الخليلي أمير آخور الملك الظاهر برقوق . توفي قتيلاً بدمشق في ربيع الأخر سنة ٧٩٠هـ - ١٣٨٨م . ولا تزال معمورة .

المدرسة الطولونية

بداخل المسجد فوق الروق الشمالي ، يصعد إليه في نفس الدرج الذي يصعد منه إلى منارة باب الأسباط . أنشأها شهاب الدين أحمد بن الناصري محمد

---

(١) كان الأمير طشتمر ذا مكانة مرموقة في عهد المماليك البحريين . واشغل مناصب عالية في مصر والشام . نفي إلى القدس في سنة ٧٨٤هـ . وعاش بها من غير عمل ، إلى أن مات ودفن فيها (٧٨٦هـ - ١٣٨٤م) . الأنس الجليل ، ص ٣٩٦ .

الطولوني الظاهري ، في زمن الملك الظاهر برقوق ، وعلى يد مملوكه آقبغا سنة ٨٠٠هـ - ١٣٩٧م .

تولى التدريس فيها الامام العلامة شهاد الدين أبو البقاء أحمد الزبيري المصري . قدم القدس سنة ٨٣٠هـ - ١٤٢٦م وتوفي فيها سنة ٨٥٤هـ - ١٤٥٠م وحضر جنازته نائب السلطنة مبارك شاه .

لم اعثر لها على أثر في يومنا هذا .

المدرسة النصيبية

في الجهة الشمالية من الحرم . واقعة غربي المدرسة الأسعردية ، بينها وبين المدرسة الجاولية . واقفها الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين . ولي نيابة القدس وعمر بها مدرسة . وتوفي بدمشق سنة ٨٠٩هـ - ١٤٠٦م . ونقل إلى هذه المدرسة . وأما أحباسها فقد أكلت . وهي اليوم عامرة . تقوم في جانب منها كلية روضة المعارف الوطنية .

هذا ما ورد عنها في (خطط الشام) لمؤلفه الأستاذ محمد كرد علي . وأما مجير الدين فإنه عندما أشار إلى هذه المدرسة في الصفحة ٣٩٠ من كتابه (الأنس الجليل) أسماها : (المدرسة الصبيبية) وقال أن الذي وقفها هو الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد نائب القلعة الصبيبية . وكان ذلك في سنة ٨٠٩-١٤٠٦م .

المدرسة الصبيبية

واقفها الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد نائب القلعة الصبيبية ولي نيابة القدس ، وعمر بها المدرسة ، وتوفي بالشام في سنة ٨٠٩ ثم نقل إليالقدس بعد مدة ودفن بمدرسته . إن مجير الدين[1] الذي نقل إلينا خبر هذه المدرسة لم يذكر ويا للأسف اين هي واقعة . ولم نعثر لها على خبر إلا في كتاب (خطط الشام) لمؤلفه الأستاذ محمد كرد علي . فقد قال إن الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين نائب وقف نصيبين ، بني في شمال الحرم مدرسة أسماها : (النصيبية) .

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٩٠ .

المدرسة الفنويه

مقابل الطولونية من جهة الشرق . يصعد إليها من السلم الموصل إلى منارة باب الأسباط . وهي من إنشاء شهاد الدين الطولوني عمرها مع مدرسته المتقدم ذكرها . وجعلها للملك الظاهر برقوق . فلما توفي برقوق وآل الأمر لولده الملك الناصر فرج رتب لها قرى وأقام نظامها وجعل لها معاليم تصرف . ولما توفيت اخته خوند ساره ابنة الملك الظاهر برقوق وزوجة توروز نائب الشام دفنت بها (٨١٥هـ) . ولما توفي الناصر فرج لم يكن لها كتاب وقف . فاشتراها بعد وفاته رجل من الروم يقال له محمد شاه بن الفنري الرومي . فوقفها ونسبت إليه وسميت الفنرية . ويقول مجير الدين أن الذي باعها ولد منشيها ابن الطولوني . وكانت هذه المدرسة قائمة في أوائل الفتح العثماني (٩٣٦هـ - ١٥٢٩م) . ولكنها درست مع الزمن . وأصبحت مساكن .

المدرسة الكاملية

بخط باب حطة بجوار المدرسة الكريمية من جهة الشمال . واقفها الحاج كامل من أهل طرابلس . ليس لها كتاب وقف . ولكن هناك محضراً كتب بوقفها بتاريخ ٨١٦ للهجرة - ١٨١٣م .

كان متوليها في سنة ١١٧٥هـ - ١٧٦١م السيد جار الله اللطفي ، وكان هذا يتقاضى[١] اجراً قدره ستة عثمانياً في كل يوم .

يشغل وقفها ، في يومنا هذا ، فريق من آل جار الله .

المدرسة الباسطية

شمالي الحرم ، قريبة من الباب العتم . مطلة على المدرسة الدويدارية . أول من اختطها وقصد عمارتها هو شيخ الإسلام شمس الدين محمد الهروي شيخ المدرسة الصلاحية وناظر الحرمين . ولكن المنية ادركته قبل اتمام عمارتها . فعمرها القاضي زين الدين عبدالباسط ابن خليل الدمشقي ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة . وقد وقف من أجلها بعض الأراضي والأملاك . وكان ذلك في سنة ٨٣٤هـ - ١٤٣٠م .

ومن الذين تولوا التدريس فيها العالم المحدث شمس الدين أبو عبدالله محمد

---

(١) السجل ٢٤٤ ، الصفحة ١٢٢ .

الشهير بابن المصري . توفي سنة ٨٤١هـ - ١٤٣٧م .

إنها ما برحت عامرة . يسكنها جماعة من آل جار الله . وهي تؤلف مع المدرسة الدويدارية جانباً من مدرسة البنات الإسلامية الحالية .

المدرسة القادرية

ذكرها مجير الدين[1] فقال : «إنها بداخل المسجد . وقفها الأمير ناصر الدين محمد بن القادر ، بعد أن عمرتها زوجته ، مصر خاتون . ولم يوجد لها كتاب وقف . فكتب محضراً من ماله بوقفها . وثبت في عصرنا في سنة ٨٩٧هـ - ١٤٩١م . وبناؤها في سلطنة الملك برسباي في شهر ربيع الآخر سنة ٨٣٦هـ - ١٤٣٢م» .

واقعة شمالي ساحة الحرم بين باب حطة من الغرب ومئذنة إسرائيل من الشرق . وقد كتب على واجهتها بالخط النسخي المملوكي وباحرف كبيرة كلمات لم نستطع ان نتبين منها سوى الكلمات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم . . . . الملك الاشرف خلد الله ملكه . وذلك بتاريخ شهر بيع الآخر من شهور . . . .» .

وأما الكلمات الباقية فقد محيت . وهي ليست بشكل يمكن قراءته . غير أن المنقبين الذين بحثوا الأمر من قبلنا ، قالوا أن أصل هذه الكتاب كان كما يأتي :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أنشأت هذه المدرسة المباركة الدر المصونة مصر خاتون زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن القادر في أيام مولانا السلطان الملك الاشرف خلد الله ملكه . وذلك بتاريخ شهر ربيع الآخر من شهور سنة ستة وثلاثين وثمانماية» .

وهناك من يقول أن اسم الزوجة خديجة خاتون . وأن زوجها هو الأمير محمد بن القادر . وأنها أسست هذه المدرسة أثناء ذهابها إلى مصر أو بعد عودتها منها . إذ إن بعلها كان أرسلها إلى الملك الأشرف برسباي لتبرهن له عن خضوعه ولتطلب منه الافراج عن ولده الذي كان سجيناً في القاهرة .

كان لها في سنة ٩٧١هـ - ١٥٦٣م إمام وبواب وفراش . وقد أجر أحمد حلبي كاتب وقف القادرية في تلك السنة جميع الخان الكائن بباب القطانين مع الدكاكين الستة التابعة له إلى الحاج سليمان بن بيرام شاه لمدة سنة باجار سنوي قدره ١٦

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٩١ .

سكة . وأما اليوم فإنها خاربة تحفظ فيها نعوش الأموات .

المدرسة الحسنية

بباب الناظر غربي الحرم فوق رباط علاء الدين البصير . واقفها[1] الأمير حسن الكشكيلي ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف . وكان بناؤها في سنة ٨٣٧هـ - ١٤٣٣م . ومقابلها تربة بها ضريح يقال إنه قبر السيدة فاطمة بنت معاوية . وهي الآن دار سكن يقطنها جماعة من آل البديري .

المدرسة العثمانية

بباب المتوضأ إلى الغرب من ساحة الحرم . تجاه سبيل قايتباي . وقفتها امرأة من أكابر الروم اسمها : (اصفهان[2] شاه خاتون بنت محمود العثمانية) وتلقب بـ(خانم) . وكان ذلك في سنة ٨٤٠هـ - ١٤٣٧م . وعليها أوقاف ببلاد الروم .

هناك الكتابة التالية منقوشة[3] فوق مدخلها كتبت بالنسخ المملوكي وباحرف متوسطة .

«بسم الله الرحمن الرحيم . امرت بعمارة[4] هذه المدرسة المباركة الست الجليلة المحجبة اسفهان شاه خاتون ابنة المرحوم الأمير محمود العثمانية الشهيرة بخاتم لطف الله بها ووفق عليها الانتقال سنة أربعين وثمان مائة . وكان الفراغ من عمارتها في سلخ سنت[5] المذكورة . وذلك بهمة جميع الخواجا ولد صاطي الرومي . .» .

ويظن أن الجملة الأخيرة كانت هكذا : «جميع الخواجات أولاد صاطي[6] الرومي» .

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٩٤ .

(٢) الأنس الجليل ، ص ٣٨٨ .

(٣) فان برشام .

(٤) كذا في الأصل .

(٥) كذا في الأصل .

(٦) صاطي اوساني اسم منغولي .

من مدرسيها[1] «شيخ الإسلام والمسلمين ورأس العلماء المحققين الشيخ سراج الدين عمر بن أبي اللطيف المفتي بالديار القدسية . وقد تفرغ هذا بحسن اختياره ورضاه عما هو بيده ومستقراً باسمه بالبراءة الشريفة السلطانية عن نصف وظيفته المشيخة بالمدرسة العثمانية بالقدس الشريف المحمية بما لها من المعلوم وقدره في كل سنة خمسة سلطانية لمولانا فخر المدرسين وزبدة الفضلاء المحققين الشيخ إسحق زيد فضله . وتنازل عن النصف الثاني لمولانا فخر المدرسين وأمام المسلمين الشيخ طه بن المرحوم مولانا العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن جماعة» .

ومن مدرسيها[2] جارالله بن أبي اللطف المقدسي ، كان مفتي الحنفية بالقدس . وتوفي سنة ١٠٢٨هـ - ١٦١٨م .

ومنهم محمد بن عبدالحق أبو اللطف (جار الله) . توفي سنة ١٠٣٣هـ - ١٦٢٣م .

ومنهم محمد بن حافظ الدين المقدسي . ولي إفتاء الحنفية بالقدس وتدريس المدرسة[3] العثمانية ١٠٥٧هـ - ١٦٤٧م . ومنهم محمد افندي المفتي . وقد كان هذا متوالياً لأوقافها ومنها قرية كفر قرع (١١٣٠هـ - ١٧١٧م) . إنها الآن عامرة . ولكنها ليست بمدرسة . إنها دار يسكنها فريق من آل الفتياني . وقد دفنت واقفتها في التربة المجاورة لسور المسجد الأقصى .

عمرها المجلس الإسلامي برياسة الحاج أمين .

المدرسة الجوهرية

بباب الحديد تجاه المدرسة الأرغونية وعلى بعد بضعة أمتار من الباب المذكور إلى الغرب . وقفها على رباط كرد الصفدي جوهر زمام الادارة[4] الشريفة في سنة ٨٤٤هـ - ١٤٤٠م .

كانت من المدارس المهمة . ومن الذين تولوا التدريس فيها كمال الدين محمد

---

(١) السجل ٦٠ ، ص٧ ، التاريخ ٩٩٠هـ - ١٥٨٢م .

(٢) (أهل العلم بين مصر وفلسطين) للأستاذ أحمد سامح بك الخالدي ، ص ٣٠ .

(٣) هذا التعبير ورد في (الأنس الجليل) ، ص ٣٨٩ . ولسنا ندري ما هو المقصود منه .

(٤) السجل ٣١٣ الصفحة ٤٣ السنة ١١٣٠هـ - ١٧١٧م .

ابن أبي شرف المقدسي[١] . وقد تولى في نفس الوقت مشيخة الصلاحية . توفي سنة ٩٠٨هـ - ١٥٠٠م . وله قصيدة مطلعها :

احيي بقاع القدس ما هبت الصبا
فتلك ربوع الأنس في زمن الصبا

ومن مدرسيها الشيخ محمود الديري . فقد عينه[٢] القاضي حسام الدين الحنفي سنة ٩٧١هـ - ١٥٦٣م قارئاً ومدرساً بأجر قدره عثماني واحد في كل يوم .

يسكنها الآن جماعة من آل الخطيب .

المدرسة المزهرية

بباب الحديد تجاه المدرسة الجوهرية . واقفها[٣] المقر الزيني أبو بكر ابن مزهر[٤] الانصاري صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية . بعضها راكب على ظهر المدرسة الأرغونية . ولها مجمع على أروقة المسجد . وكان الفراغ من بنائها في سنة ٨٨٥هـ -١٤٨٠م .

جانب منها اليوم خراب . والجانب الآخر عامر ، يسكنه فريق من آل الشعباني . وهي تحت إشراف مصلحة الوقف .

المدرسة الزمينية

من المدارس الكائنة غربي الحرم ، فوق الإيوان الذي بباب القطانين . بابها من داخل الحرم ، أنشأها الخودجكي الشمسي محمد بن الزمرد خان في سنة ٨٨٦هـ - ١٤٨١م .

مكتوب على بابها : «بسم الله الرحمن الرحيم . أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الخودجكي الشمسي محمد بن الزمرد خان بتاريخ ٨٨٦هـ - ١٤٨١م .»

---

(١) إنه أستاذ مجير الدين الحنبلي مؤلف (الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل) .

(٢) السجل ٤٤ ، الصفحة ٥٠ .

(٣) الأنس الجليل ، ص ٣٨٩ .

(٤) ورد هذا الأسم في بعض الكتب بهذا الشكل ، زين الدين أبو بكر بن مظهر الانصاري ، ومدرسته المظهرية . والأصل ما ذكره مجير الدين : مزهر والمزهرية .

إنها الآن دار يسكنها فريق من آل العفيفي . وتشرف عليها مصلحة الوقف .

المدرسة القرقشندية

ذكرها النابلسي في رحلته فقال : إنها قبالة بركة بني إسرائيل الواقعة شمالي المسجد ، وهي لصيقة باب المسجد ، وفيها قبر الشيخ القرقشندي .

هذا كل ما نعلمه عنها ، ولم يذكرها مجير الدين في كتابه .

المدرسة الأشرفية

ومن أسمائها السلطانية . ويسمونها ايضاً المدرسة السلطانية والمدرسة الاشرفية . ذكرها مجير الدين[١] فقال أنها داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة . وزارها السائح الألماني F. Fabri حوالي عام ١٤٨٠ فوصفها في كتابه[٢] وصفاً يطابق وصف مجير الدين .

بناها في الأصل الأمير حسن الظاهري باسم الملك الظاهر خوشقدم (٨٧٥هـ - ١٤٧٠م) وكانت يومئذ تدعى السلطانية . ولما توفي الملك الظاهر ولم يكن بناؤها قد تم ، رجا (أي الأمير حسن) الملك الأشرف قايتباي أن يتقبلها . فقبلها منه . ونسبت إليه فسماها : الاشرفية . ورتب لها مشايخ وفقهاء ومدرسين يدرسون التعاليم الصوفية . ولما زار قايتباي القدس في سنة ٨٨٠هـ - ١٤٧٥م ورأى المدرسة لم تعجبه . فأمر بهدمها . وأرسل (٨٨٤هـ - ١٤٧٩م) خاصكيا فهدمها . وأعاد بناءها . مضيفاً إليه بعض العمائر . فبوشر بالبناء في ١٤ شعبان ٨٨٥هـ - ١٩ أكتوبر ١٤٨٠م وانتهى في ٨٨٧ (سبتمبر ١٤٨٢م) . وقد استخدم في بنائها مهندساً نصرانياً من مهندسي القاهرة . وتولى عمارتها القاضي فخر الدين بن نسيبة الخررجي . فجاءت آية في الإبداع . حتى أن مجير الدين الذي وصفها ووصف قبتها قال : «أنها الجوهر الثالثة في منطقة الحرم بعد قبة الصخرة وقبة الأقصى» .

إنها إلى الغرب من ساحة الحرم ، وإلى الشمال من باب السلسلة . تمتد من باب السكينة أو باب السلام من القبلة حتى المدرسة العثمانية من الشمال . كانت مؤلفة

---

(١) الأنس الجليل ، ص ٣٨٧ .

(٢) Palestine Pilgrims' Text Society Vol. II. P. 125.

من طبقتين : واحدة علوية وأخرى سفلية . ولعلها آخر المدارس الإسلامية الفخمة التي أنشئت من هذا الطراز في بيت المقدس . هدم القسم الأكبر منها مع تقادم العهد[1] . ولم يبق منها إلا بعض الجدران ، ومدخلها الجميل الذي يدخل منه المؤذن ليؤذن من على المئذنة الواقعة في زاويتها القبلية الشرقية .

وإنك لتقرأ على الجدارالباقي من جدرانها الكلمات الآتية منقوشة بالنسخ المملوكي الجميل وباحرف كبيرة :

«أمر بانشاء هذه المدرسة الشريفة مولانا السلطان الملك الاشرف أبو النصر قايتباي عز نصره بتاريخ مستهل شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثمان مئة . وذلك في ايام مولانا المعز الاشرف الناصري سيدي محمد الخازندار ناظر الحرمين الشريفين عظم الله شأنه» .

وعلى جانب آخر من نفس الجدار نقشت الكلمات التالية :

«أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة الامام الأعظم والملك المكرم السلطان الملك الاشرف أبو النصر قايتباي عز نصر فكان الفراغ من ذلك في شهر رجب سنة ٨٨٧هـ» - ١٤٨٢م .

إليك وصفها كما كانت في زمن مجير الدين[2] :

إنها واقعة بجوار باب السلسلة . وأكثر أحجارها من الرخام . وهي ذات طابقين : سفلي وعلوي . فالسفلي منها هو المجمع الملاصق لرواق المسجد من جهة الشرق المقابل لثلاث قناطر من الرواق ولهذا المجمع بابان : الأول من الشمال ويجواره شباك مطل على الرواق الذي تحت المدرسة العثمانية . والباب الثاني من الشرق وإلى جانبه شباكان . ويصدر المجمع محراب مما يلي الغرب ، وشباك مطل إلى القبلة مما يلي الشرق . وبلصق هذا المجمع من القبلة دركاه محكمة البناء يصدرها من جهة الغرب الباب المؤدي إلى المدرسة العلوية . ويدخل من هذا الباب إلى دركاه ثانية مفروشة بالرخام ، بها عن يمين الداخل خلوة صغيرة . وبصدر الدركاه مسطبة مرخمة . وعن يسرة الداخل باب يصعد منه إلى سلم متسع البناء يتوصل منه إلى المدرسة العلوية

---

(١) إ الزلزلة التي حدثت سنة ٩٠٢هـ - ١٤٩٦م ، اتت على القسم الأكبر منها . وانهدم رأس المئذنة القائمة بجانبها .

(٢) الأنس الجليل ، ص ٦٦٥ .

وإلى منارة باب السلام . وعند انتهاء السلم باب يدخل منه إلى ساحة سماوية مفروشة بالبلاط الأبيض . وفي صدر هذه الساحة من الشمال باب مربع يدخل إلى دركاه لطيفة بها عن يمنة الداخل دهليز يتوصل منه إلى المدرسة الراكبة على ظهر المجمع السفلي .

وهذه المدرسة العلوية تشتمل على أربعة أواوين متقابلة القبلي منها وهو الأكبر بصدره محراب . وبجانب المحراب من الشرق شباكان مطلان على المسجد ، ومن الغرب شباكان مطلان على السلم المتوصل منه إلى المدرسة . وبالايوان المذكور من الشرق ثلاثة شبابيك مطلة على المسجد إلى جهة صحن الصخرة . ويقابلها ثلاثة شبابيك على صحن المدرسة . والايوان الشمالي به شباكان مطلان على المسجد من الشمال ، وشباكان من الشرق . والايوان الشرقي وهو الكائنة به ثلاث قناطر على عمودين من الرخام ، وعلوها قمر بان من الزجاج الفرنجي في غاية البهجة والاتقان . ويقابله الايوان الغربي وبه شباك مطل على صحن المدرسة ، مفروش أرض جميع ذلك بالرخام الملون . وحيطانه مستديرة عليها الرخام وهناك شباكان مطلان على الايوان الشمالي . وعلى ظاهر هذا البيت طبقة لطيفة ، بها شباك مطل على داخل المدرسة وشباك مطل على الساحة السماوية . وبالساحة المذكورة السماوية باب يدخل منه إلى ساحة أخرى ، بها الخلاوي المعقودة والمتوضأ والمنافع مركب جميع ذلك على الايوان القبلي والشرقي وغيرهما من المدرسة البلدية . وعلى ظاهرها الرصاص المحكم كظاهر المسجد الاقصى . كان الناس قديماً يقولون : في مسجد بيت المقدس جوهرتان : قبة الجامع الأقصى وقبة الصخرة الشريفة . قلت (مجير الدين) وهذه المدرسة صارت جوهرة ثالثة .

ويظهر أن المدرسة السلطانية كانت قائمة عندما زار بيت المقدس السائح الإسلامي المشهور عبدالغني النابلسي (١٦٨٩م) . إذ أنه وصفها في رحلته بالسطور التالية :

رأينا باباً عظيماً مصنوعاً من الاحجار المنحوتة الملونة المحفورة ، وعليه رواق المدرسة مبني بالأعمدة الرخام والاحجار العظام والعقد المقبى العالي . وصعدنا نحو خمسين درجة . على درج ملفوف مشترك مع درج المنارة . وفي الدرج شبابيك كبار من النحاس مطلات على الحرم . وصعدنا من ذلك الدرج إلى عمارة (وذلك على مقدار النصف من درج المنارة) فعبرنا إلى مكان واسع الفضا مزخرف الجوانب يطل

عليه أربعة من شبابيك المدرسة . ثم عبرنا من باب آخر مصنوع بالاحجار المنحوتة والزخارف والكتابات . فوجدنا ممشى صغيراً مبلطاً بالرخام والدقيق الملون من الاحجار العظام . وهناك جهتان مشتملتان على بابين : أحدهما إلى اليمن والآخر إلى الشمال . فالشمالي يتوصل منه إلى المنافع . والأيمن ذو مصراعين . فدخلنا منه إلى ميدان مفروش جميعه بالسماقي الملون والرخام الأبيض ومسقوف بالسقوف العجمية المدهونة ، فإذا هي قاعة متقنة البنيان محكمة الاركان واسعة مشرقة تشتمل على أربعة ايوانات ، وهي بالسقوف العجمية المدهونة وجميع جدرانها من داخلها معمولة بالرخام والحجر السماقي في الرخام وأنواع الفصوص والأحجار . وأرضية الايوان الاربع مفروشة أيضاً بالسماقي والرخام وأنواع الأحجار والفصوص الملونة . ايوانان كبيران متقابلان : القبلي منهما فيه المحراب وايوانان صغيران متقابلان . وارتفاع سقوف الايوان والمدرسة يسامت تلك المنارة . وفي أحد الايوانين الصغيرين شباكان مطلان على الساحة العلوية . وفي الايوان القبلي من الشرق ثلاثة شبابيك مطلات على الحرم . وفي الجهة القبلية أربعة شبابيك كبار احدها مطل على الحرم من جهة القبلة . وفي الايوان الشمالي شباكان كبيران من الجهة الشرقية مطلان على الحرم وسطح الصخرة .

وفي الايوان الشمالي شباكان من الجهة الشمالية مطلان على الحرم .

وقصارى القول أنها مدرسة عظيمة لم يبن في الدنيا (؟) مثلها كما يشهد به الجيل بعد الجيل .

وقال الشيخ عبدالغني النابلسي في مدحها قصيدة نقتبس منها الأبيات التالية :

سلطانيـــة في القـــدس كنا
نقـــابل فـــوقـــهـــا طوراً بطور
بنيت برفـــرف عـــال شـــريف
ونصـــبح في ذرى أعلى القـــصـــور
وتلك أجل مـــدرســـة تســـامت
بأنواع المحـــاسن في الظهـــور
بهـــا الحـــرم المقـــدسي قـــد تجلى
لســـاكنهـــا بأنواع الحـــضـــور

وقـــبـــة صـــخـــرة لله منهـــا
تلوح رفـــيـــعـــة شـــبـــه البـــدور
وتبـــدو قـــبـــة الاقـــصى وباقي
قـــبـــاب ثم قـــد حـــفت نســـور
وأســـفل ذاك حـــوض الماء يجـــري
وسبع الصـــدر ضـــحـــاك الثـــغـــور
وجـــانبـــه انابيب تحـــاكي
مـــراشف ثغـــر ربات الخـــدور
سكنا مـــدة فـــيـــهـــا كـــأنا
بجنات النعـــيـــم وبالنهـــور
ومـــا رأت العـــيـــون لهـــا نظيـــراً
وليس نرى على مـــدى الدهور

ثم قال :

وهي من بناء السلطان الملك الاشرف قايتباي الشركي .

(المدرسة الاشرفية) الآن وقف . فيها منزل مدرسة الايتام الإسلامية . وعند مدخلها مدفن فيه قبر «الشيخ محمد اليماني» . وبجانبه من الشمال غرفة كبيرة كانت جامعاً وكانت تدعى (السلطانية) . وهي الآن مخزن للشمع والزيت والحصر وأدوات المسجد الأخرى .

هذه مدارس القدس . وقد أقيم معظمها - كما رأيت - من قبل الملوك والأمراء . ولم تقم من لدن الشعوب والحكومات . ولذلك لم يكتب لها البقاء كما كتب للمدارس الأجنبية التي انشأتها بعثات التبشير والارساليات الأجنبية في القدس .

وهناك مدارس سمعنا بوجودها ، وقرأنا عنها بعض الشيء في السجلات القديمة ؛ غير أنا لم نهتد لمعرفة منشئيها . ومنها (المدرسة المهمارية[1]) و(المدرسة

(١) كل ما نعرفه عن هذه المدرسة أنها كانت بباب حطة (السجل ٢١٣ السنة ١١٣٠هـ) وأنها كانت بتصرف الشيخ زين بن المرحوم علاء الدين امام قلعة البرك .

القادرية[١]) و(المدرسة الحنفية[٢]) و(المدرسة الصامطية[٣]) و(المدرسة الحمراء[٤]) . وقد حدثني مفتي القدس الشيخ سعد الدين العلمي (١٩٥٦م) أن هذه المدرسة كانت في حارة النصارى ، في نفس الموقع الذي كانت تقوم عليه مدرسة في العهد التركي ، وقد تلقى فيها علومهم الاولية كثيرون من ابناء القدس ، وهي واقعة فوق المسجد العمري المطل على ساحة كنيسة القيامة من القبلة . وقد اتخذت مع الزمن مسكناً يسكنه جماعة من آل العلمي . أعرف منهم في يومنا هذا (١٩٥٦م) الحاج عبدالقادر العلمي ومصطفى زهدي العلمي وعبدالمطلب العلمي والشيخ عبدالمعطي العلمي . وقد رأيت آثار محراب قديم في الغرفة التي يقيم فيها الحاج عبدالقادر ، وهي مطلة على الطريق العام المعروفة بطريق حارة النصارى تجاه الدرج المؤدي إلى خان الأقباط .

---

(١) كل ما نعرفه عن هذه المدرسة انها كانت بداخل المسجد الأقصى ، وأن فخر المدرسين الكرام حسن افندي المرعسلي (المرعشلي؟) حصل على إذن من القاضي بتعميرها ، فعمرها بمبلغ قدره تسعة عشر قرشاً وستة وعشرين قطعة مصرية السجل ٢١٣ ، السنة ١١٣٠هـ .

(٢) قرأت في السجل ٢٢٨ ، الصفحة ١٠ ، أن لها مدرساً ووقفاً ومتولياً (١١٤٨هـ - ١٧٣٥م) .

(٣) جاء في السجل ٢٤١ ، الصفحة ٥٣ ، أنها واقعة بواد الطواحين بالقدس الشريف (١١٧٠هـ - ١٧٥٦م) .

(٤) جاء في السجل ٢٤١ ، الصفحة ٦١ ، إنه كان لها امام (١١٧٠هـ - ١٧٥٦) .

الباب الخامس
القدس في عهد الأتراك العثمانيين

- القدس . . كيف ومتى فتحها السلطان سليم؟
- القدس . . ونابليون
- القدس . . في الفترة الواقعة بين حكم السلطان مصطفى الرابع والسلطان ومحمود الثاني
- القدس ،، وإبراهيم باشا
- القدس . . في أواخر الحكم التركي
- القدس . . ومعالم الحكم التركي فيها

كيف ومتى فتح السلطان سليم الأول القدس

قلنا في آخر فصل المماليك : إن السلطان قانصوه الغوري لم يكتف بالترحيب بـ(قورقود) الذي اختلف مع أخيه السلطان سليم العثماني والتجأ إلى مصر ، بل جهزه بعشرين بارجة لافتتاح القسطنطينية ؛ الأمر الذي أثار غضب السلطان سليم ، وجعله يفكر في افتتاح الشام ومصر ، والقضاء على سلطة المماليك فيهما .

فخرج السلطان قانصوه الغوري للقائه ، وأناب عنه في مصر أبا النصر طومان[1] باي . وسار هو بجيشه ، حتى التقى بالسلطان سليم . فقامت بين الفريقين معركة عند (مرج دابق) كان النصر فيها حليف العثمانيين . وقتل فيها من الجانبين خلق كبير (٩٢٢هـ - ١٥١٦م) .

كانت قوة الأتراك في تلك المعركة مؤلفة من ثمانين ألف مقاتل[2] . وأما عساكر الغوري فقد كانوا خمسين ألفاً . ويقول المؤرخ التركي أحمد راسم إنه كان في الثمانين من عمره . ولما هرب من الميدان أصابته (نزلة) . فمات من جرائها . فدخل السلطان سليم حلب من غير حرب . ومنها سار إلى حمص وحماه ، ثم إلى دمشق . ففتحت هذه المدن كلها أبوابها له .

قال ابن إياس : «كان مع الجيش التركي يومئذ عجلة من خشب تجرها أبقار ، وفيها رماة بالبندق الرصاص . وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك . وعرض جمالاً فوقها مكاحل ورماة يرمون بالبنادق الرصاص من المكاحل . وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب» .

«وذكر الجنود المغلوبون يومئذ أن مع عسكر ابن عثمان رماحاً بكلاليب ، يخطفون بها الفارس عن فرسه ويلقونه على الأرض . وقيل عنهم إنهم مثل الجراد المنتشر لا

---

(١) أصله من مماليك قايتباي . ثم اشتراه الملك الأشرف قانصوه الغوري . وظل يترقى في مناصب الدولة حتى ناب عن السلطان يوم خروجه لمحاربة ابن عثمان كما تقدم . وساس الناس ، فرضوا عنه ، وأطاعه الجند . ولما مات السلطان الغوري ، وقع اختيار الأمراء عليه ، فسلطنوه ٩٢٣هـ .

(٢) هذا ما اتفق عليه أكثر المؤرخين . إلا المؤرخ التركي أحمد راسم فقد قال في الصفحة ١٩٧ من كتابه (عثمانلي تاريخي) طبعه في استانبول (١٣٢٨هـ - ١٩١٠م) أن الجيش التركي كان يومئذ مؤلفاً من أربعين ألف مقاتل .

يحصى عددهم ، وأن معهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تسحبها أبقار وجواميس في أول العسكر . وأشيع أيضاً أن عسكر ابن عثمان يقتلون الناس من غير شفقة ولا رحمة ، وأنهم يتجاهرون بالمعاصي والفسوق ، وأنهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة ، ويستعلمون فيه الحشيش ، ويفعلون الفاحشة في الصبيان المرد في شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلي صلاة الجمعة إلا نادراً» .

بعد أن احتل السلطان سليم الشام ، سار إلى فلسطين ، والتقى بكتائب أخرى من جيش طومان باي قرب اللجون . فاحترب الفريقان : المماليك والأتراك . فكان النصر هنا أيضاً حليف الأتراك . وكان يقود جيشهم سنان باشا ، ومعه ضباط ماهرون نذكر منهم : يونس باشا ، واسكندر باشا ، وداود باشا . وأما جيش المماليك فكان يقوده (خيره باي) و(جان بردى الغزالي[1]) . وقد انكسروا في موقعة اللجون ، وعادوا القهقرى . فلم يبق أمام السلطان سليم ما يعيقه عن احتلال القدس . فاحتلها دون قتال . وكان ذلك بتاريخ (٩٢٣هـ - ١٥١٧م[2]) .

إنه هو التاسع من آل عثمان . ويكنى (بياووز) أي الجبار . وقد اختلف المؤرخون في وصفه . فمنهم من قال : إنه كان قوي البطش ، كثير السفك ، عظيم التجسس . ما جلس على سرير الملك جلوساً عاماً ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف ظالماً من مظلوم . وأنه كان شغوفاً بلذته وسكره ، وإقامته بين الصبيان المرد . وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد من الناس ، وخنق إخوته وكثيرين من أهل بيته . وقد أخذ الخلافة غصباً من الخليفة المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب آخر خلفاء بني العباس بمصر ، وأخذه معه إلى الأستانة ؛ وبعد أن أعطاه الأمان ، خانه ، فنفاه إلى مكان بعيد .

كان على خلاف شديد مع أخويه قورقود وأحمد من أجل (ولاية العهد) . وقد

---

(١) جاء في كتاب (عثمانلي تاريخي) لأحمد راسم ، ص١٩٨ ، أن (هيره باي) نجا من القتل بالتجائه إلى الأتراك . وأما جان بروس فقد ولاه السلطان سليم مصر . ثم ولاه أمور الشام .

(٢) اتفق أكثر المؤرخين على أن هذا هو التاريخ الذي فتح فيه السلطان سليم القدس . وإن كان بعضهم قد أشار إلى غير ذلك . ومن هؤلاء مدير الآثار بحكومة فلسطين المستر ريشموند . فقد جاء في الصفحتين ٣٧، ٣٨ من كتابه (Dome of the Rock) أن الأتراك فتحوا القدس عام ١٥١٢م .

أشار إلى هذا الخلاف المؤرخ التركي أحمد راسم في كتابه (عثمانلي تاريخي[1]) فقال : إنه (أي سليم) قبل أن يصبح سلطاناً حارب أباه . وفي قول آخر -وهو قول ضعيف- إنه سممه . وقد قاتل أخويه قورقود وأحمد وقتلهما . وبفضل انتصار العساكر المعروفين بالـ : (يكيجرية) الذين أحبوه لشجاعته ، تمكن من خلع أبيه[2] والاستيلاء على كرسي السلطنة . وقد تم ذلك في الثامن من شهر صفر سنة (٩١٨هـ - ١٥١٢م) .

ومن قائل إنه (أي السلطان سليم) نابغة بني عثمان . . . وإنه كان رجلاً نافعاً وقديراً . . وأنه كان ينوي أن يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلاً من التركية يوم افتتح مصر والشام وخطب له في الحرمين الشريفين . ولكن الروايات التاريخية التي وصلتنا تشير بمعظمها إلى القوة والبطش وما إلى ذلك من الصفات التي كان يتصف بها هذا السلطان أكثر من غيرها .

عندما دخل السلطان سليم القدس زار قبور الأنبياء[3] ، ورأى الأماكن المقدسة والآثار القديمة . ولكنه لم يمكث فيها سوى بضعة أيام . فغادرها إلى مصر ، قاصداً فتحها . وقبل أن يغادرها وفد عليه شيوخ البلاد الجبلية من نابلس وصفد والخليل . فقدم إليه كل واحد منهم مفتاح قلعته . وسلمه رايته .

وقد أولم له سكان القدس قبل سفره وليمة أقاموها في الفناء الواسع حول الصخرة . وأتوا له ولجنده بالطعام في أوان كانوا يسمونها في ذلك الحين : «الهنايب» . وهي أوان خشبية مقعرة مثل الطناجر النحاسية . فتساءل السلطان عن السبب فقال له الأهلون : (نحن فقراء) . ثم بحثوا له عن تسلط العربان وسكان القرى المجاورة . فقرر تعمير السور .

هذا هو أحد الأسباب التي ذكرت لتعمير السور . ولكني أشك فيه . وأعتقد أن الأسباب التي حدت بمن سبقه من الملوك والحكام حدت به هو أيضاً لتعمير السور ، وهي خشية اعتداء الجيوش القوية التي لم تنقطع في عصر من العصور من عبور

---

(١) ج١ ، ص١٧٣ .

(٢) وفي قول أنه سممه . ولكن أحمد راسم الذي أشار إلى شائعة (السم) هذه ، قال إنها رواية ضعيفة لم يستطع أن يتأكد من صحتها .

(٣) سركيس ١٩٠ .

فلسطين ، سواء من الشمال أو من الجنوب .

بعد أن فتح السلطان سليم مصر ، وقام بها عشرة أسابيع دبر خلالها شؤونها ، ووضع لها نظاماً جعلها بموجبه ولاية من ولايات السلطنة العثمانية(١) ؛ رجع إلى سورية (٩٢٣هـ - ١٥١٧م) مستصحباً معه آخر الخلفاء من بني العباس ، محمد المتوكل على الله(٢) ، الذي تخلى له عن الخلافة الدينية ، وسلمه مفاتيح الحرمين . فأصبحت القسطنطينية مقر الخلافة الإسلامية . وراح السلطان يلقب بخادم الحرمين . وأصبح الآمر الناهي في تركيا ومصر والشام .

وبعد أن أقام على الشام جان بردى الغزالي نائباً للسلطنة ، وأضاف إليها القدس وغزة وصفد والكرك ، ودبر شؤون الشام ؛ رجع إلى عاصمة ملكه . فأتاه سفير من ملك إسبانيا يسأله أن يبيح للنصارى الحج إلى أورشليم ، كما كانت الحال في أيام المماليك ؛ فأجابه السلطان إلى ذلك شريطة أن يدفعوا المبلغ الذي كانوا يدفعونه قبلاً إلى المماليك .

ولما توفي السلطان سليم الأول تبوأ العرش ولده السلطان سليمان الأول الملقب بالقانوني (١٥٢٠م) . وعلى عهده قامت بالقدس المنشئات الآتي ذكرها :

إنه هو الذي جدد عمارة سور القدس ، وقد دامت عمارته خمسة أعوام (٩٤٣ - ٩٤٧هـ) (١٥٣٦-١٥٤٠م) . ورقم القلعة (٩٣٨هـ-١٥٣١م) . وعمر بركة السلطان الكائنة على طريق المحطة إلى الجنوب من باب الخليل . والسبيل الواقع قبال البركة المذكورة ،والسبل الكائنة في طريق الواد ، وفي ساحة الحرم إلى الشمال من باب شرف الأنبياء ، وعند ملتقى الطريق المؤدية إلى طلعة التكية وباب الناظر من أبواب الحرم ، وبالقرب من باب الأسباط(٣) (٩٤٣هـ-١٥٣٦م) ، وعند باب السلسلة أمام

---

(١) (تاريخ سورية) للمطران يوسف الدبس ، ج٤ ، ص١٤ .

(٢) بعد سقوط بغداد بيد التتر (٦٥٦هـ - ١٢٥٧م) انتقل الخلفاء العباسيون إلى مصر . وكان بها منهم خمسة عشر خليفة آخرهم وهو هذا : المتوكل على الله .

(٣) طمست معالم هذا السبيل في أواسط القرن العشرين ، عندما محيت الكتابة التي كانت منقوشة عليه ، بفعل أحد الملاكين المجاورين!

المدرسة التنكزية[١] .

وهو الذي عمر قبة الصخرة (١٥٤٢م) وأعاد تبليطها ، وعمر جدران الحرم وأبوابه ، وسد الباب المعروف بالباب الذهبي في الحرم ، وفتح الباب المعروف بباب ستنا مريم ، وعمر الباب الغربي لقبة الصخرة ، وجدد القاشاني الذي نراه في قبة السلسلة من الداخل (٩٦٩هـ-١٥١٦م) .

وأنشأ مسجداً فوق جبل الزيتون (الطور) (١٥١٧م) . أنشأه في الموضع الذي كانت تقوم عليه كنيسة الصعود .

وعلى عهده أنشئت التكية المعروفة بتكية خاصكي سلطان في عقبة المفتي . أنشأتها زوجته الروسية روكسيلانة (١٥٥٢م) . والمدرسة الرصاصية[٢] (٩٤٨هـ-١٥٤٠م) . والذي أنشأها هو الأمير بايرام جاويش الذي كان مناظراً لعمارة السور .

وعلى عهده سكت فلوس جديدة سميت باسمه : (القطع السليمانية) أو (الفضة السليمانية) . وفرض على الحجاج المسيحيين رسوماً يدفعونها لدى ولوجهم كنيسة القيامة .

وهو الذي عهد بحراسة طريق القدس -يافا إلى آل أبي غوش ، وأجاز لهم أن يحصلوا من السياح الذين يسلكون تلك الطريق بعض العوائد المقررة (٩٢٦هـ-١٥٢٠م) .

وقصارى القول ، كان عهد السلطان سليمان من أكثر العهود التي مرت بالقدس وهي مليئة بالحوادث الجسام . وهو ، في الوقت نفسه ، من أكثر العهود التركية خصباً من حيث الحوادث والمنشئات .

---

(١) يقول مجير الدين في الصفحة (٦٦١) من كتابه (الأنس الجليل) أن هذا السبيل من بناء السلطان الملك الأشرف قايتباي ، وأنه بناه عندما عمر المدرسة الأشرفية القريبة من باب السلسلة (٥٨٨٧-١٤٨٢م) . ولما كنت قد قرأت اسم السلطان سليمان منقوشاً عليه فإني عند حد الاعتقاد أن يكون الملك قايتباي هو الذي أنشاه ، والسلطان سليمان هو الذي عمره بعد خرابه .

(٢) كانت هذه المدرسة في حارة الواد داخل السور . وكانت هي الوحيدة التي أعدها الأتراك لتعليم أبناء القدس تعليمهم الابتدائي . وفيها تلقى الكثيرون ، ومنهم المؤلف ، تعليمهم الابتدائي . وأما التعليم الثانوي فكان في (المدرسة المأمونية) على مقربة من باب الساهرة داخل السور أيضاً .

ولقد تولى السلطنة بعده ابنه السلطان سليم الثاني (١٥٦٦م) . فالسلطان مراد الثالث ابن سليم الثاني (١٥٧٤) . فالسلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث (١٥٩٤م) . فالسلطان أحمد الأول ابن محمد الثالث (١٦٠٣م) . فالسلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث (١٦١٧) . فالسلطان مصطفى الأول بن محمد الثالث للمرة الثانية (١٦٢١م) . ولم يرد ذكر كثير للقدس في أيام هؤلاء السلاطين ، سوى أن (التبغ) عُرف لأول مرة في هذه البلاد على عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣م) . وفي زمنه أيضاً حُرم بيع الخمور .

وأما في زمن السلطان مراد الرابع (١٦٢٢م) فقد حدثت بالقدس حوادث تستحق الذكر : منها أنه حظر على الناس شرب القهوة وتدخين التبغ (١٦٣٣م) .

وقد اختل الأمن بدرجة أن الأشقياء وقطاع الطرق كانوا يوقفون السابلة ، وينهبون ما لديهم من أمتعة ونقود . والأنكى من ذلك أنهم كانوا يخربون ينابيع المياة . وكان أهل القدس يقاسون الأمرين من جراء انقطاع المياة عنهم . الأمر الذي حدا بالسلطان مراد إلى إقامة قلعة سميت باسمه : (قلعة مراد) . وذلك عند برك سليمان الكائنة على طريق الخليل . وأقام على حراستها دزداراً وأربعين جندياً ، بمدافعهم وأسلحتهم ومهماتهم الحربية . وقد أنشأ في داخل هذه القلعة مسجداً ، وخمسين منزلاً صغيراً لسكنى الجند .

وبعد وفاته تولى السلطنة إبراهيم بن أحمد الأول (١٦٣٩م) . ثم تولاها ابنه السلطان محمد الرابع (١٦٤٨م) . وعلى عهده بنيت المئذنة الكائنة بداخل القلعة (١٦٥٥م) . وأنشيء المصلى الكائن بجانب سبيل شعلان (١٦٥١م) .

ولقد عثرنا بين سجلات[1] المحكمة الشرعية بالقدس على بلاغ أصدره رئيس وزراء هذا السلطان تاريخه رجب سنة (١٠٨٤هـ-١٦٧٣م) . ومنه يفهم أن الممالك العثمانية اتسعت يومئذ إلى درجة أنها أصبحت تضم بين دفتيها «ديار الروم وطمشوار والبوسنة وسكتوار وبلاد الأناضول وقرمان وجميع ديار العرب والكرد وأقليم القرم وجزيرة كريد ورودس وقبرص وذي القدرية وشهر زود وديار بكر وحلب وأورفه وقارص ووان وحلب وأرض الشام ودار السلام ودار الخلافة بغداد وأمد وكوفة وبصره والحسا وسواكن الحبش ومصر دار العصر ودار الجهاد والجزائر وتونس وحلق الواد وطرابلس

---

(١) السجل ١٤٥ ، الصفحة ٤١٩ .

الغرب وسائر المماليك والبلدان على الخصوص دار الأمن والأمان استانبول» .

إن أحسن وصف للقدس ، خلال ذلك العهد ، للسائح التركي المشهور أوليا جلبي الذي زارها حوالي سنة (١٦٧٠) للميلاد ، وكتب عنها الشيء الكثير في مخطوط أسماه : (أوليا جلبي سياحتنا مه سي) . وقد عثرت في مكتبة المتحف الفلسطيني بالقدس على نسخة فوتوغرافية لهذا المخطوط ، وأخرى باللغة الانكليزية ، ترجمها وضبط حواشيها أمين المكتبة المذكورة الأستاذ اسطفان حنا اسطفان ؛ وها أنا ذا مدون فيما يلي ، بوجه الإيجاز ، ما قاله عنها :

«القدس بلد عظيمة ، كائنة على هضبة مرتفعة . هواؤها عليل ، وماؤها عذب ، وسكانها نضار الوجوه . إنها مهوى أفئدة الكثيرين من الناس ، لا من حيث قدسيتها فحسب ، بل من حيث اقتصادياتها ووفرة حاصلاتها أيضاً» .

ثم مدح مأكولاتها ومشروباتها . فوصف خبزها ، وعنبها المتنوع الأشكال والطعم والألوان ، وصابونها الممسك ، وعطرها ، وبخورها ، ومباخرها النحاسية . وذكر في نفس الوقت محاجرها الكثيرة ، وجبالها المليئة بأشجار الزيتون ، وأراضيها المغطاة بالكروم والبساتين . إلى أن قال : إنه كان فيها يومئذ ثلاثة وأربعون ألف كرم . وأنه رأى ألفاً وخمسمئة منطرة قائمة في وسط هذه الكروم . وأن الأراضي الكائنة بين باب الخليل والبقعة خالية من الدور والمنازل ، ومليئة بالكروم والبساتين . وأنه ما من أحد من سكان القدس إلا ويعيش في كرم من هذه الكروم شهرين أو ثلاثة شهور في السنة . ووصف (البقعة) من هذه الناحية ، فأسماها لهذا السبب : (باغستان) . إلى أن قال : «فيها عدد كبير من الأعيان والعلماء والأشراف والفضلاء والرجال الذين ينتمون إلى الطريقة المولوية ، ويتقاضى الواحد منهم خمسماية (آقجة[١]) . كما أن فيها عدداً كبيراً من التجار ، وأرباب الحرف ، وهؤلاء يعملون بالقول المأثور : الكاسب حبيب الله» .

«عد جاويش زاده محمد باشا[٢] سكان المدينة ، فوجد أنهم (٤٦,٠٠٠ نسمة) ، ينتسبون إلى مختلف الأمم والطوائف . بيد أن أكثرهم عرب مسلمون . بينهم عدد من أهل الوظائف في الحرم ، لا يقلون عن الألف ، ويتناولون راتبهم من الذهب الذي يأتي

---

(١) انظر إلى الصفحات التي خصصناها لبحث النقود والمسكوكات في آخر هذا الفصل .

(٢) انظر إلى أسماء الحكام والمتصرفين في موضع آخر من هذا الفصل .

به (أمين الصرة) من الآستانة في كل سنة . أغنياؤهم يلبسون السمور ، والقنباز المصنوع من الجوخ الممتاز ، والثياب المنسوجة من الصوف المعروف بالجلالي . وفقراؤهم يلبسون العباءة من النوع المعروف بـ(الأجه عبا) ، والقنباز المصنوع من الجوخ العادي ، والثياب المصنوعة من الصوف الأبيض . ونساؤهم متأدبات . يلبسن على رؤوسهن طاقيات مصنوعة من الذهب أو الفضة . ويلتففن بالملايات البيض . ويحتذين الأحذية المقفولة المعروفة بالجزم» .

«في القدس ستة حمامات[1] هي : حمام ستنا مريم ، وحمام السلطان ، وحمام الشفا ، وحمام العين ، وحمام حمزة ، وحمام البطرك ؛ وهذا الأخير في الغالب للنصارى . . وفيها ثمانية عشر سبيلاً يشرب منها المار والعطشان . . يهطل الثلج على جبالها . وفيها صهاريج كثيرة . . وفيها كنيستان للأرمن . وثلاث كنائس للروم ، وكنيسان لليهود . . وفيها مئتان وأربعون محراباً (مصلى) ، وسبع دور للحديث ، وعشر دور للقرآن ، وأربعون مدرسة للبنين ، وتكايا لسبعين طريقة منها : الكيلانية والبدوية والسعدية والرفاعية والمولوية . أكثرهم أهل ذوق ، وأهل طرق ، ودراويش متصوفون» .

وفي القدس أيضاً ألفان وخمسة وأربعون دكاناً ، كلها مبنية بالحجارة والعقود المقنطرة . وفيها ستة خانات عظيمة . وأسواق كثيرة منها : (سوق السلطان) وهو أشهرها . والمسؤول عن إدارة السوق هو (المحتسب) ويلقب بالآغا . ومن واجباته أن يحفظ سجلاً يدون فيه أسماء التجار وأصحاب الدكاكين . وللسوق خان تحفظ فيه جميع البضائع والأمتعة القيمة .

ومن أسواق القدس : (السوق الطويل) تباع فيه الصحون والفناجين وآلات الطهي وأدوات المنزل . و(سوق الحلاجين) يعمل فيه الحلاجون والندافون وتجار القطن . و(سوق الغلال) تعرض فيه جميع أنواع الحبوب والغلة . و(سوق الحرير) . والسوق القريب من باب السلسلة . و(سوق البزازين) . ولهذا السوق باب من حديد . وفي القدس عدد غير قليل من الصياغ وتجار الحلى والمجوهرات . وليس على وجه البسيطة نوع من أنواع الصياغة ، إلا وفي القدس مثلها .

---

(١) إذا رجعت إلى الفصل الذي خصصناه لبحث المياه ، اهتديت إلى مواضع هذه الحمامات ، إلا (حمام حمزة) فإنني لم اهتد إلى معرفة موضعه . وليس بين حمامات القدس في يومنا هذا ما يدعى بهذا الاسم .

وجميع هذه الأسواق مسقوفة بالعقود المقنطرة ، ومرصوفة بالبلاط النقي . والطريق الكائنة بين سوق الغلال وكنيسة القيامة والمسجد العمري مرصوفة بالبلاط من الحجم الكبير» .

ويظهر من الأسلوب الذي اتبعه هذا السائح في وصف القدس ، أنه كان مرتاحاً كل الارتياح لكل ما رآه فيها وسمعه عنها ، خلا مسألة (الأمن) . فقد قال عنه : «إنه كان مفقوداً بالمرة» حتى إنه عندما أبدى رغبته في زيارة الخليل أمام أمير اللواء ، أرفقه هذا بعشرين خيالاً كانوا في حراسته مذ غادر القدس إلى أن وصل إلى الخليل ورجع منها . وذلك لأن «قطاع الطريق والأشقياء كانوا يوقفون السابلة ويسلبونهم كل ما يجدونه معهم من أمتعة ونقود . كما أنهم كانوا يخربون ينابيع المياه الواقعة على الطريق . وكثيراً ما قاسى أهل القدس الأمرين من جراء انقطاع الماء عنهم . الأمر الذي حدا بفاتح بغداد السلطان مراد إلى إقامة حرس قوي عند برك سليمان . وقد أنشأ لهم هناك قلعة أسماها على اسمه : (قلعة مراد) . يقوم على حراستها دزدار وأربعون جندياً ، مزودون بالمدافع والأسلحة والذخائر الحربية الكافية . وفي داخل هذه القلعة مسجد للصلاة وخمسون داراً معدة لسكنى الجنود . ولم يأت سلطان من بعده إلا وقد أولاها جانباً من اهتمامه . وبهذه الطريقة تمكن الجميع من صون الينابيع والطرق» .

بعد أوليا جلبي بربع قرن زارها (١٦٩٦م) سائح إفرنجي يدعى (هنري موندرل) Henru Haundrell ووصفها في كتاب اسماه : (رحلة من حلب إلى القدس[١] A Journey From Aleppo to Jerusalem وصفاً لا يختلف عن الوصف المتقدم ذكره إلا في بعض النقاط . نذكر منها :

أن القدس كانت تابعة إلى طرابلس الشام ، وأنه كان في طرابلس يومئذ وال يسمونه : (اوستان باشا[٢]) ، وأنه ورفاقه السياح الآخرون انتظروا عند باب المدينة الغربي المعروف بباب بيت لحم[٣] مقدار نصف ساعة من الزمن ، إلى أن جاءهم

---

(١) اطلعت على نسخة هذا الكتاب المطبوع في لندن سنة (١٨٢٣) . انظر إلى الصفحات (٢٤ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٨٩) .

(٢) لعله يريد أن يقول آرسلان باشا .

(٣) باب الخليل .

الإذن من الباشا بدخول المدينة . إذ كان محرماً على الفرنج ليس دخول المدينة فحسب ، بل والدنو من أسوارها قبل صدور الإذن من الحاكم ؛ وكان على الزائرين أن يترجلوا عند ولوجهم أبواب المدينة ، وأن يسلموا أسلحتهم إلى الجند المرابطين على الأبواب ؛ إلا إذا أجاز لهم الحاكم أن يدخلوها على غير هذا المنوال . وأنهم عند وصولهم إلى كنيسة القيامة ، رأوا على أبوابها عدداً من الجند المعروفين بالإنكشاريين ، ومعهم عدد من الضباط أقيموا هناك ليراقبوا الزائرين ويجبوا منهم الضريبة المعروفة بـ(ضريبة الغفر) . كانت هذه يومئذ عبارة عن أربعة عشر دولاراً عن كل واحد من اللاتين ، ونصف هذا المبلغ عن كل واحد من الرؤساء الروحيين . وأنهم بعد الانتهاء من زيارة الأماكن المقدسة في المدينة ، غادروها ميممين نهر الأردن في قافلة بلغ عدد أفرادها الألفين من جميع الأجناس والطوائف . وإن حاكم المدينة -عملاً بالأصول المتبعة في تلك الأيام- رافقهم في هذه الرحلة ، وكان في ركابه عدد غير قليل من الجند ، وأن الحكومة تقاضت لقاء هذه المهمة رسماً قدره اثني عشر دولاراً عن كل واحد من الزائرين ، ونصف هذا المبلغ من الرؤساء الروحيين . وأنهم بعد رجوعهم إلى القدس وقفوا فوق سطح الدار التي كانت على عهد الرومان قصراً للولاة[1] يسرحون الطرف ، عن بعد ، في جنبات الحرم ؛ إذ كان محرماً يومئذ على غير المسلمين دخوله ، ومن كانت تحدثه نفسه بدخوله كان يعرض نفسه لخطر الموت .

بعد ذلك التاريخ لم نسمع عن القدس إلا النزر اليسير . فقد تولى السلطنة بعد محمد الرابع السلطان سليمان الثاني ابن إبراهيم (١٦٨٧م) . فأخوه السلطان أحمد الثاني (١٦٩٠م) . فالسلطان مصطفى الثاني ابن محمد الرابع (١٦٩٤م) . فالسلطان أحمد الثالث (١٧٠٣م) . ثم جاء السلطان محمود الأول ابن مصطفى الثاني (١٧٣٠م) . وعلى عهده تجدد بناء حائط الخندق (١٧٣١م) ، وعمارة مسجد القلعة (١٧٣٨م) . وبعد السلطان محمود الأول تولى السلطنة أخوه السلطان عثمان الثالث (١٧٥٤م) ، فالسلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث (١٧٥٧م) ، فأخوه السلطان عبدالحميد الأول (١٧٧٣م) ، فالسلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث (١٧٨٨م) . وعلى عهد هذا السلطان جرت الحوادث التالية : عهدت الحكومة

---

(١) يقصد (برج انطونيا) الذي ذكرناه في غير هذا الموضع .

العثمانية إلى أحمد باشا الجزار[1] بولاية بيروت . فما كاد يتسلم زمام الأمر فيها (١٧٧٦م) حتى أعلن العصيان ضد الدولة . إلا أنه لم ينجح . فخرج من بيروت مدحوراً .

وقد التحق بعدئذ بالأسطول العثماني الذي كان معقود اللواء إلى حسن باشا . ثم عاد فانقلب عليه . ويظهر أن الدولة رأت من مصلحتها ، بالرغم من أخلاقه هذه ، أن تستميله إلى جانبها . فجعلته وزيراً . ووسعت سلطته حتى امتدت من الشام إلى غزة وعريش مصر ، الأمر الذي اتخذه نابليون ذريعة لفتح هذه البلاد (١٧٩٩م) .

---

(١) ولد سنة (١٧٢٠) في إحدى قرى البوسنة . وهرب من بلاده إلى الاستانة . ثم بيع في مصر بيع العبيد . وصار مملوكاً في قصر (أحمد بك أبي الذهب) فتوسم هذا فيه الخير والمقدرة على الفتك ، فاستخدمه لإتمام مقاصده والنيل من أعدائه . وكان فعلاً عند ظنه . ففتك بعدد كبير منهم . ولذلك لقب بالجزار . وقد توفي سنة (١٨٠٤م) . ودفن في عكا .

عندما وطد نابليون أقدامه في مصر، أخذ يفكر في الاستيلاء على فلسطين وسورية. فغادر مصر في ربيع (١٢١٣هـ-١٧٩٩م). واجتاز الصحراء. ثم عبر التخوم الفلسطينية.

وقبل أن يشتبك بقتال مع الجند وسكان البلاد، أذاع منشوراً نقتبس منه الشذرات التالية[١]:

بسم الله الرحمن الرحيم. وبه نستعين.

«من طرف بونابرتة أمير الجيوش الفرنسية إلى كافة المفتين والعلماء وكافة أهالي ونواحي غزة والرملة ويافا حفظهم الله. بعد السلام نعرفكم أننا حررنا لكم هذه السطور، لنعلمكم أننا حضرنا إلى هذا الطرف، بقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم. وإلى أي سبب حضور عسكر الجزار، وتعديه على بلاد يافا وغزة التي ما كانت في حكمه؟ إلى أي سبب أرسل عسكره إلى قلعة العريش؟ بذلك هجم على أرض مصر. فلا شك أن مراده إجراء الحروب معنا، ونحن حضرنا لنحاربه».

وبعد أن أمنهم على أرواحهم وعيالهم، قال: «وقصدنا أن القضاة لا يتركون وظائفهم، وأن دين الإسلام لا يزال معتزاً ومعتبراً، والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين. والذي يتظاهر لنا بالحب، يفلح؛ والذي يتظاهر لنا بالغدر، يهلك».

إنه وإن قال في البيان الذي أذاعه على السكان، إنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا ليقهر الجزار، إلا أن الغاية التي كان يرمي إليها هي التحرش بالدولة البريطانية، والحيلولة دون رجوع مصر إلى أحضان تركيا، وعقد محالفات دفاعية مع الطوائف والأقوام المنتشرة في سوريا ضد الأتراك. وكان نابليون يعتقد أيضاً أن من يحتل مصر، لا يكون آمناً عليها، إلا إذا احتل بر الشام. أضف إلى ذلك أن الضعف كان ظاهراً في إدارة البلاد العثمانية كلها، من أولها إلى آخرها؛ وكانت البلاد مفتحة

---

(١) راجع كتاب (إسلام نابليون) للاستاذ يعقوب العودات الملقب بالبدوي الملثم. وكتاب (فتح مصر الحديث) لأحمد حافظ عوض. ويعتقد أحمد حافظ عوض أن التركيب الركيك الذي يلاحظه المرء في هذا المنشور من إنشاء (فنتور) المستشرق الذي صحب نابليون في حملة سوريا وقد مات أمام عكا بالطاعون. أو إنه من بعض كتبه الدواوين الذين أخذهم معه.

الأبواب ، خالية من أسباب الدفاع .

كانت حملة نابليون مؤلفة من (١٣٠٠٠) مقاتل . وكان هو على رأس الحملة . ومعه كل من الجنرال (مرات Murat والجنرال منو Menou والجنرال كليبر Kleber والجنرال دوكوا Dugua والجنرال لان Lannes .

عندما بلغ أحمد باشا الجزار قدوم الجيش الفرنسي من مصر ، شرع بتدبير ما يحتاج إليه في الحصار . وحصن يافا . ثم امتد إلى مدينة غزة بعساكره وعشائره . ووصلت جيوشه العريش . ولكن الفرنسيين احتلوا العريش بعد حصار دام ثمانية أيام (١٦ فبراير ١٧٩٩) . ثم ساروا إلى خانيونس ، ومنها إلى غزة . وعلى مقربة منها اصطدم الجيشان : جيش نابليون وجيش عبدالله الجزار (الغز) . وكان ذلك في ٢٥ من فبراير سنة ١٧٩٩ .

فكان النصر في هذه المعركة حليف نابليون .

غادر نابليون غزة في ٢٨ شباط سنة ١٧٩٩ لافتتاح فلسطين ، فاحتل الرملة ، ثم يافا (٦ مارس ١٧٩٩) . وكان في يافا يومئذ قوة كبيرة من عسكر الجزار والمماليك ، تقدر بنحو اثني عشر ألفاً . ولكنه سلط عليها مدافعه الكبيرة فاحتلها ، واستباح حماها . ويقول مشاقه إنه : «قبل أن يغادر يافا إلى عكا ، أمر بقتل الأسرى الذين وقعوا في قبضته ثلاثاً : -في العريش وفي غزة وفي يافا ، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف ، حنق عليهم ، وزعم أنهم لا يراعون ذمة ، ولا يحترمون الشرف العسكري . فأمر جنوده بإطلاق النار عليهم . ولم يواروهم التراب . وبقيت أجسامهم طعاماً للطيور ، وظلت رفاتهم مكشوفة مدة» .

كان الناس يظنون أن بونابارت ، بعد فتح الرملة ويافا لا بد وأن يولي وجهه شطر بيت المقدس ليفتحها . حتى أن الأتراك سجنوا في كنيسة القيامة يومئذ جميع الروم الأرثوذكس . ولكنه لم يفعل . بل أجاب الذين سألوه عما إذا كان ينوي المرور منها قائلاً بحدة : «لا . فإن بيت المقدس غير مذكورة في الخطة التي توخيت المسير عليها . ولا أروم التحرش بسكان الجبال والتوغل في مأزق يصعب الخروج منها . وفضلاً عن ذلك أخشى أن يهاجمني من الجهة الأخرى فرسان كثيرو العدد . وأحاذر أن يصيبني ما أصاب كاسيوس . .» والحقيقة أن نابليون ما كان يهتم إلا بالمواقع الحربية . وما كانت للقدس تلك الأهمية في زمنه .

ومن قائل إنه كتب إلى أهل القدس رسائل ، طلب إليهم فيها أن يخضعوا

لأوامره ؛ فأجابوه بأنهم تابعون لإيالة عكا ، فالذي يحتل عكا ، ويصدر أوامره منها ، يخضعون لأوامره . وأما هم فلا يريدون أن ينخرطوا في حرب أو ضرب . لأنهم يعيشون في بلد طافح بالأماكن المقدسة . وقد كتب إلى حامية القدس رسالة بالمعنى المتقدم . فأجابوه الجواب نفسه . فانصرف لحصار عكا عاصمة فلسطين -إذ ذاك- وحصنها الحصين .

ويقول الأستاذ الخالدي[1] أن السيد موسى الخالدي من سكان بيت المقدس ، الذي درس في الأزهر ووصل إلى مرتبة قاضي عسكر في الأناضول ، وكان يومئذ في الآستانة ؛ أرسل يومئذ منشوراً لأهالي البلاد ، حثهم فيه على مقاتلة نابليون (١٢١٣هـ-١٧٩٨م) . وقد قاتله السكان المقيمون على سفوح الجبال وعلى الطريق التي تربط جنوب فلسطين بشمالها ، ولا سيما في جهات عزون وقاقون وتلك الأنحاء من جبل نابلس وفي مرج بني عامر .

سار نابليون إلى حيفا فاحتلها . وفي (١٩ مارس ١٧٩٩) وصل عكا ، فحاصرها . وكان الجزار قد تحصن فيها . وقد دام الحصار حولها ستين يوماً . إلا أن نابليون لم ينل منها شيئاً ، فارتد على أعقابه خاسراً . وما كان نابليون ليولي الأدبار ، لولا أن ظهر الطاعون بين جنده ، وجنده هم الذين نقلوا إلى بلاد الشام جراثيم الطاعون معهم . فمات منهم خلق كثير . وهلك بعض قواد الفرنسيين على أسوار عكا مع عدد كبير من جندهم . كما أنه طرأ على مركزه في فرنسا أمر اضطره للرجوع إلى بلاده . وكانت انكلترا هيجت ملوك الفرنج على فرنسا . فاضطر الفرنسيون أن يرجعوا عن عكا ، بعد أن فقدوا على أسوارها (٣٥٠٠) جندي . ومات في الطاعون ، وعلى الطريق . ما ينوف على الألف .

لم يذكر التاريخ انسحاباً مقروناً بالفشل والخسائر والمشاق ، مثل انسحاب نابليون من عكا (١٧٩٩م) ، وانسحابه بعد ثلاثة عشر عاماً من موسكو (١٨١٢م) . فقد نابه وجنده في انسحابهم من عكا العطش ، والقيظ ، وشمس الصحراء المحرقة . ولما كانت

---

(١) (أهل العلم بين مصر وفلسطين) ص٣٧ .

وسائل النقل قليلة لديه[١] لا تكفي لنقل جنوده كلهم[٢] ، فقد اقترح على أطبائه أن يجرعوا المصابين منهم بالطاعون والأمراض الأخرى السم . ولكن نابليون نفسه ينكر ذلك . ويقول في مذكراته التي كتبها في منفاه (سانت هيلانة) : «إنه لم يأمر بسم المرضى ، ولكنه لو وجد نفسه مثل واحد من هؤلاء ، لفضل أن يتجرع السم» .

وقد رجع إلى مصر في شهر مايس سنة ١٧٩٩م .

كان نابليون نابغة القواد في عصره . ولكنه خسر من مقامه في الشام ، وهو شهران ، كثيراً من شهرته .

---

(١) يقال إنه كان يمضي على قدميه في الصحراء ؛ فاقتدى به الضباط والخيالة ، تاركين للمرضى الخيول والدواب .

(٢) قيل إن الجنود الذين اشتركوا مع نابليون في حروبه هذه كانوا ثلاثة عشر ألفاً ، وإنه لم يرجع منهم سوى سبعة آلاف .

القدس والأتراك العثمانيون
(في الفترة الواقعة بين مصطفى الرابع ومحمود الثاني)

قلنا ، في الفصل السابق ، إن نابليون ، بعد أن احتل غزة والرملة ويافا وحيفا ؛ حاصر عكا . وإنه فشل أمام أسوارها . فارتد عنها مدحوراً (١٧٩٩م) . وأن حملة نابليون هذه على فلسطين ، جرت في زمن السلطان سليم الثالث . وأن الجيش العثماني الذي قاوم نابليون في عكا ، كان يقوده أحمد باشا الجزار . وهو الذي حصن عكا ، وانتصر على نابليون .

إن هذا النصر الذي ناله الجزار ، جعله يزداد ختلاً وكبرياء . فعاد يمثل مظالمه . ويحمل على الناس مغارمه ؛ لا فرق في ذلك بين مسلم أو مسيحي أو يهودي .

وكأنه لم يكف البلاد ما أصابها من ظلم الجزار ، وما ألم بها من خراب أثناء زحف نابليون ؛ فقد قام (محمد باشا أبو المرق)[1] يسومها الخسف والعسف ، ويجور على أهل بيت المقدس والخليل والرملة وغزة . حتى اضطر السادة الأشراف الأبرياء لكثرة مظالمه أن يبيعوا أولادهم في السوق بيع العبيد .

بعد السلطان سليم الثالث تولى الملك السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبدالحميد الأول (١٨٠٧م) . فأخوه السلطان محمود الثاني (١٨٠٨م) .

وعلى عهد هذا السلطان وقعت في القدس وقائع تستحق الذكر ؛ منها أنه ألغى نظام (اليكيجرية)[2] : وطارد رجالها مطاردة لا هوادة فيها . حتى أنه منع الناس من ذكرهم . وقد أمر المسيحيين الأرثوذكسيين أن لا يعمروا أي قسم من كنيسة القيامة أو أي معبد من معابدهم . إذ كان يكرهه كرهاً شديداً .

والسبب في كرهه لهم راجع إلى اعتقاده بأن رهبان دير الروم حرضوا أبناء جنسهم في المورة عندما ثار هؤلاء على السلطة التركية ، حتى أن السلطان أرسل إلى

---

(١))خطط الشام) لمحمد كرد علي .

(٢) هذا هو أصل الكلمة في اللغة التركية . وأما سكان هذه البلاد ، فكانوا يسمونهم ، (الانكشارية) . وهم صنف من الجند استخدمهم الأتراك العثمانيون ، وكانوا في بادئ الأمر يعتمدون عليهم في حروبهم . ولما عاثوا في البلاد فساداً ، رأى السلطان محمود أن يتخلص منهم . فراح يطاردهم . وقد نجح في مطاردتهم .

نائب القدس في ذلك الحين السيد محمد علي الخالدي[١] فرمانا يقضي بقتل الرهابين . ولكن النائب أخر تبليغ الفرمان ، ولم ينفذه ، وحذرهم . وما لبث السلطان أن ألغى أمره . فقد الرهبان صنيعه هذا . وراحوا يكرمون النائب وأولاده حيثما وجدوهم . وفي دير الروم بالقدس صورة زيتية للسيد محمد علي الخالدي ، لا تزال معلقة في بهوه الكبير إلى يومنا هذا .

وأما اللاتين فكان السلطان محمود الثاني يحبهم . وقد سمح لهم ببناء غرف جديدة في ديرهم ، كما سمح لهم بتعمير القسم الذي يخصهم من كنيسة القيامة . وقد أمر المسلمين من سكان بيت المقدس أن يخلعوا من على رؤوسهم (القاووقة) التي كانوا يلبسونها منذ عهد الملك المعظم عيسى .

وقد لا يخلو من فائدة أن نثبت فيما يلي نص أمر تلقاه أهالي القدس وكبار موظفيها في زمن السلطان محمود الثاني . ففيه ما يرشدنا إلى نوع المشاكل التي كانت تشغل بال الحكام في ذلك الزمان ، وصنوف الموظفين الذين كانوا يديرون دفة الحكم في القدس ، والأسلوب الذي كان يستعمله أولئك الحكام في مخابراتهم الرسمية . فقد اطلعت في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على أمر أرسله عبدالله باشا من (عكة[٢]) . وقد خاطب فيه سكان المدينة وأئمتها ووجوهها وكبار موظفيها . فقال :

«صدر الموالي العظام عمدة العلماء الكرام ونخبة الفضلاء الفخام أولي ولاية الموحدين معدن الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين قاضي محروسة القدس الشريف حالاً أفندي زيدت فضائلة وافتخار العلماء الكرام ونخبة الفضلاء الفخام المأذون بالافتا أفندي زيد علومه وفرع الشجرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية قيم مقام نقيب الأشراف أفندي زيد شرفه وافتخار المشايخ المكرمين متسلمنا في سنجق القدس الشريف حالا الشيخ سعيد المصطفى زيد مجده وقدوة الأماجد والأعيان وكيل التكية العامرة في القدس الشريف حالاً علي أفندي

(١) من مقال للأستاذ أحمد سامح الخالدي نشر في بيروت سنة (١٩٥٠) بعنوان (فلسطين في نصف قرن) .

(٢) كانت عكا يومئذ ذات أهمية . وقد اتخذها عبدالله باشا مركزاً لحكومته . وكان يوقع أوامره هكذا : والي صيدا وطرابلس ومتصرف لواء غزة والقدس ونابلس وجنين .

زاده آغا زيد مجده وقدوة الأماجد والأعيان ميرا لاي حالا آغا زيد مجده وقدوة الأماثل والأقران توفكجي باشى حالاً آغا زيد قدره ومفاخر (أقرانهم[1]) علماء وخطباء وأئمة ووجوه البلدة وأرباب التكلم بوجه العموم. تحيطون علماً أنه الآن أبقينا وقررنا متسلمية سنجق القدس الشريف وتوابعها لعهدت الشيخ سعيد المصطفى الموصى إليه فيلزم كل منكم تعرفوا أنه مبقي ومقرر على متسلمية السنجق من طرفنا فليكون فيما بينكم مسموع الكلام مرفوع المقام ولا أحد يخرج له من خلاف بما فيه الصالح والعمار وإنفاذ أوامرنا. ونخبر متسلمنا الموصى إليه أنه يلزم منك أولاً (تكون) دائماً مطابق كافة أمورك إلى الشرع الشريف والقانون المنيف وتسعى براحت الرعايا خصوصاً رعايانا أهالي بيت المقدس تبذل غاية جهدك (للسعي) براحتهم ودوام رفاهتهم وكذلك تسعى بعمار القرايا ورفاه أحوال البرايا واستجلاب دعواتهم الخيرية بدوام سرير سلطنة حضرت مولانا سلطان السلاطين وخاقان الخواقين ظل الله المبسوط على العالمين مولى ملوك العرب والعجم ومسبب أمن وراحت بني آدم سليمان الزان واسكندر العصر والأوان المحمود بكل آن وأوان خلد الله سرير خلافته العظمى وأيد تخت مملكته الكبرا إلى انتهاء الزمان وانقضاء الدوران (وتشمر عن ساعد اهتمامك في أمور) الضبط والربط والطلوع من حق كل معتدي ومتجاوز الحدود وتسعى غاية السعي بردع السفهاء وصيانة وراحة ذوي العرض ولا تعطي ذلك أدنى غفلة ولا مسامحة ودائماً تكون مساعي ومجتهد (لإنفاذ) أوامرنا وكلما فيه رضانا بإبراز الخدامة الصادقة المرضية التي تخولك دوام بياض الوجه لك. وجميعكم تكونوا مباشرين أشغالكم وأعمالكم وتسعوا أسباب مكاسبكم وعمار محلاتكم وتكثروا متاجركم وإن شاء الله تعالى هذه السنة (تكون) أبرك السنين والأعوام على كافة العباد والبلاد والجميع من رعايانا ما يشاهد من طرفنا إلا الحماية والصيانة وبسط جناح الراحة والرياحة و(الرفاه) من سائر الوجوه. فبناء على ذلك أصدرنا لكم بيور لدينا[2] هذا من (ديواننا) في قلعة النصر داخل دار الجهاد محروسة عكا المحمية عن يد رافعه فبوصوله لكم واطلاعكم على مضمونه تتلوه علناً على رؤوس الأشهاد

---

(١) هذه وغيرها من الكلمات الواردة في هذه الوثيقة والموضوعة بين هلالين معقوفين لم نتثبت من صحتها.

(٢) كلمة يستعملها الأتراك بمعنى (الأمر العالي).

وتعلموا وتعملوا بموجبه وتتحاشوا مخالفته وتعتمدوه غاية الاعتماد (٩م[1] سنة ١٢٤٧) .

ومن الأوامر التي تلقاها الشيخ سعيد المصطفى متسلم القدس في ذلك الحين (١٢٤٧هـ-١٨٣١م) عدم السماح لأي شخص -كائناً من كان- بدخول القدس أو المرور فيها ، دون أن يكون حاملاً معه (تذكرة مرور) . ويشمل هذا الأمر الذي وقعه عبدالله باشا جميع الرعايا سواء أكانوا تجاراً أم جنوداً . حتى (لو أراد أحد من أهل البلدة أن يتوجه للقدس أو ولاية مدينة أخرى . .) ويعتقل الشخص الذي لا يكون حاملاً تلك (التذكرة) ويرسل (محفوظاً) إلى (دار الجهاد محروسة عكا المحمية) . ويشدد الوالي في أمره الذي أرسله إلى متسلم القدس بضرورة الانتباه بشكل خاص إلى (عساكرنا المنصورة المحمدية) واعتقال من يدخل القدس منهم (بدون تذكرة) وإرساله إلى عكا مخفوراً . وينذره (أي ينذر المتسلم) أنه إذا بدا منه (تقصير) فإنه يعرض نفسه إلى القصاص (بدون مسامحة)! . .

في تلك السنة (أي في سنة ١٨٣١م) أرسل محمد علي باشا الذي كان الأتراك قد أقاموه على مصر ، ليديرها باسمهم ؛ أرسل ولده إبراهيم باشا إلى فلسطين قاصداً -في الظاهر- تأديب عبدالله باشا الجزار والي عكا . وأما في الحقيقة فإنه كان يبغي أخذ فلسطين من الأتراك ، وضمها إلى مصر ، وإعلان الاستقلال التام عن الدولة العثمانية . وهذا ما سنقصه عليك في الفصل القادم .

(١) المقصود من حرف (م) هنا هو شهر محرم . والسنة الهجرية هذه توافق سنة (١٨٣١) للميلاد .

القدس وإبراهيم باشا.

كان مؤسس الأسرة العلوية المالكة في مصر، محمد علي باشا، والياً تابعاً لسلطان الأتراك في الأستانة. جاء إلى مصر مع الحملة العثمانية (١٢١٣هـ-١٧٩٩م) لإخراج الفرنسيين منها. ولكنه أراد أن يستقل، وأن يجعل الحكم منحصراً في سلالته. ولما رفض طلبه هذا من قبل السلطان العثماني محمود الثاني، أخذ يرتقب الفرص ليشهر الحرب عليه. فحانت هذه سنة (١٨٣١م).

في تشرين الأول (١٨٣١) أرسل إلى فلسطين بقيادة ابنه إبراهيم باشا[١] جيشاً قوامه أربعون ألف رجل؛ وفي قول آخر ثلاثون ألفاً؛ ليحارب، في الظاهر، عبدالله باشا الجزار بحجة أنه أبى أن يرجع إليه المصريين الذين فروا من جيشه. فاحتل غزة. ثم احتل الرملة ويافا وحيفا والقدس. احتل هذه المدن في غير حرب[٢]. ونصب في كل منها متسلماً يتولى إدارة الأعمال فيها بالنيابة عنه.

وفي اليوم التاسع من كانون الأول (١٨٣١) وقعت الموقعة الأولى بين الجيش المصري، يقوده إبراهيم باشا؛ والجيش العثماني، يقوده عبدالله باشا. فاضطر هذا إلى الالتجاء لحصن عكا. فحاصره فيها. وكان مع إبراهيم باشا في أثناء الحصار (١٢٠٠٠) من الجند النظاميين. وظل يضيق الخناق عليه، إلى أن قام في يوم السبت الموافق (٢٦ أيار ١٨٣١)، بحملة عنيفة كانت نتيجتها أن سقطت عكا بين يديه، بعد حصار دام ستة شهور.

تقدمت جيوشه نحو الشمال، وكانت يومئذ قد بلغت نحو مئتي ألف. فاحتلت المدن السورية كلها. ثم عبرت الأناضول، وراحت تحتل مدنه الواحدة بعد الأخرى إلى أن وصلت إلى كوتاهية وبعد أن أسر قائد الجيش التركي رشيد باشا، أَمَّ الأستانة وكاد يدخلها، لولا تدخل الدول الأجنبية.

---

(١) ولد في (قوله) سنة ١٧٨٩ وجاء إلى مصر سنة ١٨٠٥، وتولى منصب (الدفتردار) وعمره (١٨) سنة. ثم صار حاكم الصعيد وقاد الجيش المصري في الحرب الوهابية، والحرب التركية، وحرب اليونان، وعاون أخاه إسماعيل في فتح السودان. وبقي ولياً للعهد حتى سنة (١٨٤٧) حيث تولى العرش بدلاً من أبيه الذي أقعده المرض.

(٢) حروب إبراهيم باشا في سوريا والأناضول.

وقفت انكلترا إلى جانب تركيا في نضالها مع محمد علي . لأنها كانت تخشى من توسع سلطانه ، وامتداده إلى العراق وسورية وبلاد العرب الأخرى . يدلك على هذا ، البلاغ الذي تلقاه الكولونيل كامبل ، قنصل انكلترا في مصر ، من اللورد بالمرستون في (٨ ديسمبر ١٨٣١) ؛ وقد جاء فيه[١] : «إني أكلفك بأن تبلغ باشا مصر ، بأن حكومة جلالة الملك تلقت التقارير عن حركات الجنود المصرية في سورية وبلاد العرب . وهي تدل على أنه ينوي أن يبسط سلطة مصر ، إلى جهة الخليج الفارسي وولاية بغداد . فأبلغ الباشا بكل صراحة ، أن الحكومة الانكليزية لا تستطيع أن تنظر دون اكتراث إلى تنفيذ مثل هذه المشروعات» .

وأما فرنسا فإن مصلحتها كانت تقضي بالوقوف إلى جانب محمد علي . يدلك على هذا الكتاب الذي أرسله سفير فرنسا إلى حكومته ، وقد جاء فيه[٢] : «إن غرض الإنكليز الآن هو أن يستولوا هم على مصر . وهذا لا يتفق مع مصلحة فرنسا . لأنهم إذا احتلوا مصر ، استحال على فرنسا أن تظل في الجزائر . فمن مصلحة فرنسا حل مسأل مصر ، بإعطائها لمحمد علي وسلالته من بعده» .

ولكن يظهر أن دفة انكلترا هي التي رجحت يومئذ . فاستمالت روسيا والنمسا إلى جانبها . ثم انضمت إليها فرنسا . فطلب الجميع من إبراهيم باشا إخلاء سورية ، وفنيقيا ، وفلسطين ؛ وإرجاعها إلى السلطان .

حاول إبراهيم باشا ، بادئ ذي بدء ، أن لا يكترث لهذا التهديد . ولكنه ، بعد إنعام النظر ، رأى أنه لا فائدة ترجى من المقاومة ، لأن القوي تألبت عليه من البر والبحر ، والحرب أعلنت عليه بالفعل ، لا بالقول . فاضطر إلى الانصياع .

تم الصلح بين مصر والدولة العثمانية (٢٥ نيسان ١٨٣١) على أن يكون من أظنه إلى غزة تابعاً ولاية مصر .

ولكن ، لم يمض على ذلك بضعة شهور ، حتى قامت ثورة في البلاد ضد إبراهيم باشا . يهمنا أن نذكر أسبابها ، وما كان منها بفلسطين بوجه عام وبالقدس بوجه خاص . فنقول :

اختلف الباحثون في وصف الشعور الذي ساد السكان يومئذ ، من جراء احتلال

---

(١) (البطل الفاتح إبراهيم) لداود بركات (ص١٣٩) .

(٢) (البطل الفاتح إبراهيم) لداود بركات (ص١٤٠) .

الجيش المصري للبلاد . فمن قائل[١] : «إن أهل سوريا وفلسطين كانوا ينظرون إلى إبراهيم باشا نظرة تقدير وإعجاب ، وأنه هو الذي أنقذهم من الظلم . .» .

ومن قائل[٢] : «إن هناك دلائل كثيرة تدل على عكس ذلك ، وإن في المحفوظات الملكية ما يشهد بأن سكان سوريا وفلسطين كانوا ينظرون إلى الجيش المصري نظرة بغض وازدراء ، حتى أن إبراهيم باشا نفسه قال في إحدى رسائله إلى محمد علي باشا (٩ ربيع الثاني سنة ١٢٤٨هـ-١٨٣٢) أن أهالي سوريا وفلسطين قبلوا حكمه مكرهين . ولم يكتسب عطفه وثقته منهم سوى المسيحيين ، وبعض الدروز في جبل لبنان» .

ويعلل الفريق الثاني هذا الكره بالأوامر التي أصدرها محمد علي باشا لابنه ، من أجل جمع السلاح من الأهلين ، وفرض بعض الرسوم والعوائد الجديدة ، وفرض التجنيد الإجباري في البلاد .

إنه كان في حاجة إلى المال[١] . فأصدر أمره بتحصيل المال من جميع البلاد التي افتتحها ، ورغم أن ابنه إبراهيم باشا كان مخالفاً لرأي أبيه في هذه التدابير ، إلا أنه اضطر للإذعان . فراح يفرض الضرائب والرسوم . ولجأ الولاة والحكام إلى استعمال الشدة من أجل جمع الضرائب والرسوم . منها :

(أ) (ضريبة الفرد) . يدفعها كل رجل يتراوح سنة بين الخامسة عشر والستين : أقلها خمسة عشر قرشاً على الفقير ، وأكثرها خمسون قرشاً على الغني . وقد جبيت على سنتين .

(ب) (ضريبة الشونة) . يقدمها الأهالي للجيش المرابط في منطقتهم . وهي مؤونته وجميع حاجاته .

(ج) (الدخولية) . تدفع عن البضائع التي ترسل من مدينة إلى أخرى بنسبة تتراوح بين الستة ونصف والاثنى عشر في المئة .

(د) (رسم التسريح) . يفرض على الحاصلات الزراعية المحلية عندما تنقل من مدينة إلى أخرى .

---

(١) راجع كتاب (الامبراكورية المصرية) لمؤلفه محمد صبري سنة (١٩٣٠) .

(٢) (المحفوظات الملكية) لأسد رستم The Royal Archives by Assad Rustum

(١) (البطل الفاتح إبراهيم باشا) لداود بركات (ص١٢٤) .

(هـ) (رسم الطاحون) . يفرض على الحبوب عند طحنها .
(و) (ضريبة المواشي) . تفرض على الحيوانات كالضأن والماعز والجمال .
وكان أيضاً في حاجة إلى الرجال . ففرض التجنيد الإجباري .

ورغم أن ولده إبراهيم باشا ما كان يقره في مشروعه ، فقد اضطر للنزول عند إرادة أبيه . وراح يعمل على تنفيذ قراره . فحاصر المدن والقرى . والتقط الشبان حيث وجدهم .

أصدر أمره إلى سكان القدس بتاريخ (١٨٣٤/٤/٢٥) ، طالباً منهم واحداً من كل خمسة من الشبان . وعلى قول آخر ، واحداً من كل عشرة رجال . طلب مئتي رجل من مدينة القدس ، وثلاثة آلاف من كل من أقضية القدس ونابلس والخليل .

ومن العوامل التي أدت إلى الثورة ، أنه أمر بجمع السلاح من الأهلين . وعمل إلى إزالة نفوذ المشايخ والزعماء والرؤساء وأصحاب الإقطاعات . مثل عائلة أبي غوش في جبل القدس ، والمواضي في إجزم ، وطوقان وقاسم وآل جرار في جبل نابلس ، وآل عمرو في جبل الخليل ، وغيرهم كثيرون .

فألغى مثلاً العوائد التي تجبيها آل أبي غوش من السياح الذين يسلكون طريق القدس في سفرهم . تلك العوائد التي سمح لهم بجبايتها السلطان سليمان القانوني . فعصا أمره الإخوان : جبر وإبراهيم أبو غوش . وثابرا على جبايتها بالقوة . فنفاهما : إبراهيم إلى عكا ، وجبر إلى الشام . ونفى معهما عدداً آخر من الزعماء .

إن هذه التدابير أغضبت المسلمين . ولكن النصارى واليهود ارتاحوا لها .

ويظهر أن هذا الموقف ، زاد في التنافر الواقع بين المسلمين وغيرهم من الطوائف ؛ فراح هؤلاء يتذمرون من معاملة المسلمين . فأرسل لهم الباشا كتاب التهديد التالي(١) :

«تعلمون أن في بيت المقدس كثيراً من الأديار والكنائس والآثار الدينية التي تحج إليها في كل عام الطوائف النصرانية واليهود . وقد شكا إلينا هؤلاء ما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم ، والتحقير لدينهم ؛ فضلاً عما أنتم فارضوه عليهم من التكاليف والمغارم الفادحة ، غير ناظرين إلا إلى إرضاء أنفسكم والعمل بهواكم . على أن هذه الغايات الدنيئة والأفعال المزرية ، لا ترضاها النفوس الأبية ، ولا يصح السكوت عليها ؛ ولذلك أنهاكم ، وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم .

(١) تاريخ الاستعمار الانكليزي في بلاد العرب . ص١١٢ .

وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة وأهل البيت المقدس من جميع المذاهب ، قبطاً كانوا أو أرمناً ، في دينهم ودنياهم من إقامة شعائر دينهم ، ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر الشريعة شيئاً من الكلف والمغارم ؛ ولا تضيقوا على زائري كنيسة القيامة . ولا تلزموا الصغار بدفع المال . فإن أطعتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن خالفتم أسأتم لها . والسلام عليكم ورحمة الله» .

ومما زاد النار لهيباً تحريض الأتراك للثوار ، وظهور الانكليز بمظهر العداء لمصر .

قال الدكتور محمد صبري في كتابه (الإمبراطورية المصرية) : إن رشيد باشا الذي أرسله الباب العالي إلى سيواس لحشد الجيوش ، بحجة إخضاع القبائل الكردية ، كان يقصد في الحقيقة مهاجمة الجيش المصري . وفي الوقت نفسه كان يعمل على إثارة القلاقل والاضطرابات في البلاد . ولما شبت الثورة ، أخذ يساعد الثوار علناً . وقد أرسل الأتراك في الوقت نفسه أسطولهم لمهاجمة محمد علي من البحر .

إن هذه العوامل كلها (التجنيد الإجباري ، وفرض الضرائب ، وجمع السلاح ، وكسر شوكة الزعماء ، وتحريض الأتراك) هي التي جعلت الجو يكفهر .

فاجتاحت البلاد ، من أقصاها إلى أقصاها ، موجة من الاستياء ، انتهت بالاحتجاج الصاخب . ثم حمل الناس السلاح ، وأخذوا يستعدون للثورة . وما هي إلا عشية أو ضحاها ، حتى اشتعلت نيران الثورة في الصلت ، ويافا ، ونابلس وفي كل مكان . وقد جرت معارك دموية بين الجند والثوار في سعير من أعمال جبل الخليل ، وسيريس وباب الواد ، ولفتا ، وبيت جالا ، وبيت لحم ، ومرج بن عامر . وأما في القدس نفسها فقد انفقد الأمن ، وسادت الفوضى ستة أيام ؛ اختفى النصارى خلالها في أديرتها ، واليهود في كنائسهم ، وذبح منهم خلق كثير .

وكذلك المدينتان الواقعتان في أقصى الشمال (صفد) وفي أقصى الجنوب (غزة) . فقد ثارتا . واستولى البدو الضاربون خيامهم في منطقة غزة على الأمور كلها ، فأصبحوا الآمرين الناهين ؛ وانتشر رجالهم في جميع أنحاء المنطقة يفعلون ما يشاؤون .

وأما في صفد فقد أذاع الأهلون ، وفي مقدمتهم القاضي والمفتي ونقيب الأشراف ، بياناً أيدوا فيه مبادئ الثورة ، ونهبوا اليهود ، وقد قدرت خسارة هؤلاء بثلاثين ألفاً من الجنيهات .

وإليك ما جرى في القدس خلال تلك الثورة ، وهو المقصود من هذا الفصل :

اغتنم المقادسة سفر إبراهيم باشا إلى يافا ، ليتفقد أحوالها ؛ فعقدوا اجتماعاً حضره عدد كبير من مشايخ القرى المجاورة . وقرروا إعلان الثورة (٢٨ نيسان ١٨٣٤) . وفي (٨ مايس ١٨٣٤) حاصروا القدس . وكان فيها ألف جندي ، تركهم إبراهيم باشا خصيصاً لحراسة القلعة . وفي اليوم التالي (٩ مايس ١٨٣٤) ، اتتهم نجدة من نابلس والخليل ، عشرة آلاف ثائر ، كلهم مسلحون . وأول عمل قاموا به أنهم أنذروا رؤساء الجند المرابطين في القلعة ، كي يغادروا المدينة . فكان جواب هؤلاء الرفض قائلين : إنهم قرروا الثبات حتى الموت . فبدأ القتال . ودام تبادل النار بين الفريقين بضعة أيام . إن بعض أفندية القدس الذين كانوا في داخل المدينة ، تظاهروا في بادئ الأمر بأنهم ضد الثوار . ووعدهم قائد الحامية بأن لا يجند أحداً من المقادسة إذا هم ظلوا مخلصين لإبراهيم باشا . بيد أن هذه المجاملة لم تدم طويلاً . فظهر أن جميع السكان ، من أفندية وفلاحين ، متحدون في الرأي ، معتزمون المقاومة . فاشتد القتال ، ودام الحصار . ولكن دون جدوى . ظل الجند مرابطين في أماكنهم . وكاد الثوار ييأسون . لولا أن تذكر بعض السلاونة[(١)] أنه كان في الناحية القبلية لسور المدينة ، عند الباب المعروف بباب المغاربة ، مجرى قديم[(٢)] لتصريف الأقذار أغلق على مر السنين . فراحوا يبحثون عنه . إلى أن عثروا عليه . فدخله ستة وثلاثون شاباً من شباب المقادسة الجريئين . وظلوا يسيرون إلى أن خرجوا منه عند طاحون في حارة اليهود بداخل المدينة . ثم رجعوا إلى باب المغاربة ، ففتحوه على مصراعيه . ودخل منه الثوار . والتحق بهم السكان بأسلحتهم الكاملة .

عندئذ غادر الجند القلعة ، وراحوا يبحثون عن الثوار ، في شوارع المدينة . وقد كانوا مدججين بالسيوف والبنادق والخناجر والحراب . ولما التقوا بالثوار ، جرى صدام عنيف بين الفريقين . وسالت الدماء . وانجلت المعركة عن انتصار الجند . فهرب الثوار من باب العمود ، تاركين وراءهم ستة وستين قتيلاً : خمسون من الفلاحين ، وستة عشر من المقادسة . ولم يفقد الجند في تلك المعركة سوى خمسة قتلى . وراحوا بعد ذلك يهدمون الدكاكين ، وينهبون كل ما وقعت عليه أيديهم من أمتعة وأموال .

---

(١) أهل سلوان . وهي القرية المحاذية للسور من الجنوب . تبعد عنها قيد بضعة أمتار .

(٢) إنه المجرى الروماني القديم الذي بحثنا عنه في موضع آخر من هذا الكتاب .

وفي اليوم التالي (١٠ مايس ١٨٣٤)، رجع الثوار إلى أعمال العنف والمقاومة. فكان أول عمل قام به البكباشي[١] أنه قبض على أعيان بيت المقدس، ومنهم نقيب الأشراف عمر أفندي والباشكاتب[٢]. وسجنهم في القلعة. ولكن ما كاد الخبر يصل إلى نابلس، حتى أتت منها نجدة مؤلفة من ألفي رجل مسلح. ولما رأى البكباشي كثرة عدد الثوار، انزوى هو وجنده في القلعة؛ بعد أن أمر بإغلاق أبواب السور. لكن المقادسة الذين كانوا في داخل المدينة، راحوا ففتحوا الأبواب للثوار. فدخل هؤلاء المدينة. وساروا نحو القلعة بقيادة زعيمهم إبراهيم أبو غوش. فوقع صدام عنيف بين الجند والأهلين. ودام القتال ثلاثة أيام، نهبت خلالها منازل الأتراك ودور اليهود ومخازن الحكومة، وسادت الفوضى في المدينة. وازداد عدد الثوار فصاروا عشرين ألفاً. وراح هؤلاء يمطرون الجند المرابطين في داخل القلعة بالنار. واقتربوا من القلعة بواسطة سراديب حفروها في داخل المنازل، وكادوا يستولون على القلعة، لولا نيران المدفعية. تلك النيران الحامية التي كانت تمطرها عليهم حامية القلعة. أضف إلى ذلك أن قلت المؤن في داخل المدينة، وسادت الفوضى، وساد معها الخوف والجزع، وانتشرت الأمراض، وكثر عدد الضحايا: ضحايا الحرب والمرض الجوع.

في هذه الأثناء كانت أخبار ثورة القدس قد وصلت إلى إبراهيم باشا وهو في يافا، فطلب في الحال النجدة من بيروت وعكا وطرابلس الشام. فأتته نجدة مؤلفة من تسعة آلاف مقاتل. سار بهم فوراً إلى القدس، يبغي الانتقام (٢٤ مايس ١٨٣٤).

اتصل الخبر بالثوار. فراحوا يرسمون الخطط لمقاومة هذه الحملة الجديدة. فتحصن أهل القدس في المدينة، وكمن الفلاحون في الكهوف والجبال المطلة على الأودية التي سيمر منها إبراهيم باشا. ووضعوا في الطريق الحواجز، ليحولوا دون مرور الخيل والفرسان. ولما مر هذا من هناك هو وجنده، قابلوهم بالنار. وألقوا عليهم الحجارة والصخور. فبهت الباشا. ولم يكن يتوقع من أهل البلاد هذا الضرب من ضروب القتال. لا، ولا هذه الجرأة. ولم يضع ثانية من وقته، بل راح يدفع هجمات الثائرين، بنيران مدافعه الثلاثة الضخمة. وقد اعترف، بعدئذ، لأحد أصدقائه أنه لم يقع في مأزق حرج كهذا المأزق قبل اليوم. إذ مات من جنده ألف وخمسمئة

(١) كلمة تركية معناها رأس الألف. وهي لقب القائد الذي يقود ألف جندي في الجيش العثماني.

(٢) كلمة تركية معناها رئيس الكتاب.

قتيل . ومن لم يمت منهم بحد السيف ، ذاق الأمرين من قلة النوم والعطش والتعب . واضطر لقضاء يومين كاملين في قطع مسافة ، ما كان ليقضي في قطعها ، في الظروف الاعتيادية ، أكثر من خمس ساعات .

تمكن إبراهيم باشا ، رغم جميع الحوائل التي وضعت أمامه ، من الوصول إلى القدس . غير أنه لم يدخل المدينة . ولم يسمح لجنده بدخولها . ولم ينصب مخيمه في المكان الذي اعتاد الباشوات النزول فيه ، أي تحت الشجرة الكبيرة في داخل المدينة . بل ذهب رأساً إلى جبل صهيون ، ونصب مخيمه أمام أسوار المدينة ، عند الباب المعروف بباب النبي داود . وكان يرمي من وراء هذا التريث ، على ما يظهر ، إلى أمرين : الأول الاستراحة من عناء السفر . والثاني جس نبض الأهلين واختبار مدى ميلهم إلى الثورة . أما المسلمون الذين كانوا يعاضدون الثورة ، فقد أخذوا عائلاتهم ، وفروا من باب الأسباط . فريق منهم سلك الطريق الشرقية التي تؤدي إلى العيزرية . وآخرون سلكوا الطريق الشمالية وذهبوا إلى رام الله[1] . وأما اللاتين والأرمن واليهود وفريق من الأرثوذكس فقد خفوا لاستقباله . ولم يقابله أحد من المسلمين .

وفي اليوم التالي (١٣ إبريل ١٨٣٤) عبر من باب النبي داود . ففرحت حامية القلعة بدخوله ، وأطلقت من مدافعها ٣٣ طلقة لتحيته . وراح من فوره إلى المسجد الأقصى ليصلي فيه صلاة الجمعة .

وبعد الصلاة أعلن العفو العام ، وطلب إلى الثوار أن يعودوا إلى منازلهم . ونادى المنادي أنه يترتب على الناس مسلمين كانوا أم نصارى أو يهود أن يفتحوا دكاكينهم وأن يعودوا إلى تعاطي أشغالهم كالمعتاد . وقبل عودته إلى جبل صهيون ، زار كنيسة القيامة ، وشاهد قبر المسيح . وبعد الظهر جاء المسيحيون للسلام عليه : اللاتين أولاً ثم الروم والأرمن .

ولكن الثوار لم يلبوا النداء . ولم يتقدم أحد من المسلمين للاجتماع بالباشا ، لا ، بل راحوا يوزعون النشرات التي تدعو إلى الثورة . وانتقدوا بصراحة أعمال الباشا .

---

(١) قرية مسيحية واقعة على بعد عشرة أميال من القدس إلى الشمال . وكان فيها يومئذ مئة وخمسون عائلة مسيحية ، جلهم إن لم نقل كلهم ، من الفلاحين العرب الأرثوذكس . وقد استقبلوا الهاربين بالبشاشة والتحية كما يستقبل العربي ضيفه .

وتنادوا للاجتماع في مخماس، تلك القرية الكائنة بين رام الله والقدس، ليبحثوا الطرق الواجب اتباعها لمواصلة القتال.

علم الباشا بأمرهم، فساق عليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل. وكان هو في المقدمة. والتقى الجمعان: الثوار والجيش المصري. وحدثت بينهما معركة، كان النصر فيها حليف الجيش. فانهزم الثوار، تاركين وراءهم ثلاثة آلاف قتيل وخمسماية أسير. ولما رجع إلى القدس، ساق الأسرى أمامه. فدخلوها مكبلين بالحديد. واستقبل الباشا وجيشه من قبل اليهود والنصارى استقبال الظافرين.

ولكن الثوار لم ييأسوا. فقد جمعوا شتيتهم في اليوم التالي لمعركة مخماس (الخميس ٣١ مايس ١٧٣٤). وتنادوا للقتال؛ ثم راحوا يتحصنون في الجبال، وبين الأشجار، وفي المنطقة الواقعة بين القدس وبيت لحم وبيت جالا. وهناك أخذوا يستعدون للمقاومة، فساق عليهم إبراهيم باشا جيشه، ففر الثوار من أمام الجيش، متحاشين الاصطدام به. فاقتفى الجند أثرهم. وفي بيت جالا اقترفوا بعض الفظائع، فقتلوا ٣٣ رجلاً من سكانها ونهبوا منازلها. ولما دخل الباشا، أصدر أمره بمنع السلب، ووقف القتال.

وفي يوم الاثنين الموافق (٤ يونيو ١٨٣٤)، تجمع الثوار مرة أخرى بالقرب من دير مار إلياس على طريق بيت لحم. فساق عليهم إبراهيم باشا أربعة آلاف جندي، زودهم بمدفع. وهناك التقى بهم، وظل يطاردهم حتى أرجعهم إلى بيت لحم. وهناك في الوديان والتلال الكائنة جنوبي بيت لحم، تحصن الثوار في المغر والجبال، مستعملين الأشجار والصخور متاريس للمقاومة[1]. وقد قاوموا الجند مقاومة عنيفة. وأما في أرطاس فقد استراح الجند، وشربوا، ثم أسقوا خيولهم. وفيما كانت كوكبة من الجند، مؤلفة من ألف وخمسمئة مقاتل، تسقي خيلها من العيون التحتا؛ داهمها الثوار. فقتلوا ثمانية من رجالها، وانهزم الآخرون. فرجع إبراهيم باشا إلى القدس مدحوراً. وكان بين المقتولين في هذه المعركة الضابط رشيد بك الذي دافع في المعارك السابقة عن القلعة دفاع الأبطال.

أمر الباشا بقطع أشجار الزيتون الكائنة حول المدينة (٤-٨ حزيران ١٨٣٤) بحجة

---

(١) كان يقوم بأعمال التحصين هذه رجال ونساء. وكان النساء في أمان. إذ إن الجنود المصريين كانوا لا يطلقون الرصاص عليهن.

أنه في حاجة إلى حطب الوقود من أجل جيشه . والحقيقة أنه كان يرمي إلى التخلص منها ، لأن الثوار اتخذوها متاريس لمقاومة جنده ومهاجمتهم . ولولاها ما تمكنوا من التغلب عليهم . فازداد سخط الشعب . وبدأ الجند أنفسهم يتبرمون ، لأن مؤنهم[١] كانت قد قلت بدرجة تدعو إلى القلق . أضف إلى ذلك أن الباشا علم من التقارير التي تلقاها أن نار الثورة ازدادت اشتعالاً في نابلس وصفد وعكا وطبريا ، وفي يافا واللد ، وفي الخليل والكرك . وأن القوة التي كانت تحت تصرفه يومئذ (١١ حزيران ١٨٣٤) وهي لا تزيد على ستة آلاف جندي ، لا تكفي لإطفاء تلك النار . ولهذا طلب النجدة من أبيه[٢] . وقرر التحصن في القلعة إلى أن تأتيه النجدة .

أدرك الثوار المقدسيون أن الباشا ما كان لينكمش في حصنه ، لولا تضاؤل قوته . فراحوا يضيقون الخناق عليه . وقد ضيقوه بدرجة أنه اضطر أن يحتمي بمكان قريب من ضريح النبي داود ، وهناك اختبأ في منزل الشيخ درويش الدجاني شيخ السجادة الخلوتية وزوجته السيدة نفيسة بنت الحاج أحمد طهبوب .

أرسل محمد علي باشا ، عندما أتته أخبار ولده إبراهيم باشا ، نجدة مؤلفة من ثلاث كتائب من المشاة ، وكتيبتين من الفرسن ، وألف من البدو . وعهد بقيادة هذه النجدة إلى اثنين من أنبغ أولاده هما : أحمد منكلي بك ومحمد سالم باشا . وقد أبحر هو أيضاً من مرفأ الاسكندرية ، قاصداً فلسطين .

عندما وصل جيش محمد علي إلى يافا ، ورسى أسطوله في ثغرها (١٨ حزيران ١٨٣٤) انتعش ابنه إبراهيم باشا . وسافر من فوره إلى يافا لاستقباله ، مصطحباً معه ألفاً وخمسمئة مقاتل . واصطحب معه عدداً من وجهاء القدس . ولما التقيا تعانقا ، وتحدثا عمّا جرى . ثم التفت إلى الوجهاء وسأل ابنه عنهم قائلاً : من هؤلاء يا بني؟ قال : هؤلاء هم وجوه القدس وزعماؤهم . ثم راح يقدمهم إليه ، الواحد بعد الآخر : هذا عمر أفندي نقيب سابق . . وهذا هو المفتي طاهر أفندي . . وهذا هو محمد أبو السعود . . وهؤلاء هم الشيخ محمد علي أفندي الحسيني ، والشيخ عبدالله أفندي

---

(١) قال الخوري في مذكراته التي ترجمت إلى اللغة الانكليزية أن إبراهيم باشا استعار من أديرة الروم والأرمن واللاتين كمية من الدقيق قامت بأود الحامية أكثر من ستة أيام .

(٢) قيل إنه طلب من أبيه يومئذ خمسة عشر ألف جندي .

البديري ، وإبراهيم أفندي طهبوب[1] و . و . و . فحملق محمد علي في وجوههم ، ونظر إليهم نظرة ازدراء ، كأنه لم يأبه لوجودهم ، وراح يحيل الطرف في كل واحد منهم من رأسه إلى أخمص قدميه . ثم هز رأسه ، وسكت . وبعد التفكير في أمرهم ، أمر بإرسالهم إلى عكا . ومن هناك اقتيدوا إلى مصر . وقد أمروا بالإقامة الجبرية فيها .

بعد أن تشاور الاثنان ، الأب والابن ، في الطرق الواجب اتباعها لإخضاع الثوار ؛ رجع الأب إلى مصر . وأرسل الابن بعض قواده ، لتعقّب الثوار في جبل نابلس وجبل الخليل ، وفي يافا وعكا وفي كل مكان . وأما هو فقد دخل القدس (٢١ حزيران ١٨٣٤) . وكان معه يومئذ ثلاثون ألف جندي ، ينتمون إلى مختلف الأسلحة والأجناس : مصريون ، وهنادى ، وعرب ، وأتراك . كما كان معه عشرة مدافع ، وخمسٌ من قاذفات القنابل . فكان دخوله إلى القدس يوماً مشهوراً ؛ إذ أطلقت مدافع القلعة اثنتين وعشرين طلقة ، احتفاء بمقدمه . حتى الثوار من أبناء بيت المقدس ، فقد تظاهروا بالفرح ، وأبدوا ارتياحهم لمجيئه . أما هو فقد نصب مخيمه على جبل صهيون بالقرب من مقام النبي داود . وأما جنده فقد عسكروا حول السور وفي التلال الكائنة بالقرب من سلوان . ذلك ليكونوا قريبين من الماء . وقد عسكر فريق منهم عند برك سليمان على طريق بيت لحم ، من أجل الغاية نفسها .

خبت نار الثورة في القدس . وأرسل إليه ثوار جبل الخليل وفداً يعرض عليه الطاعة . فاشترط عليهم تسليم رؤسائهم أحياء . ولما لم يلبوا طلبه ، قاد عليهم جيشاً (٢٤ حزيران ١٨٣٤) احتل به مدينة الخليل . وجرت بينه وبين الثوار في شوارع المدينة وأسواقها معركة دامت ثلاث ساعات ، قاسى السكان خلالها الأمرين . فسالت الدماء ، وهدمت المنازل ، ونهبت المتاجر ، واعتدي على أعراض النساء[2] ، وأسر (٦٣٠) شاباً من شبان الخليل أرسلوا كلهم إلى مصر ليخدموا في الجيش المصري .

ولما رجع إلى القدس في ٢٩ حزيران ١٨٣٤ أصدر أمره إلى سكانها ، من غير

---

(١) انتدب أحدهم وهو إبراهيم أفندي طهبوب بعدئذ ناظراً لخاصة الملكية ، وهو الذي بنى قصر الزعفران ، وقد نبغ ولده عثمان من بعده ، فصار يدعى (عثمان باشا) . وعين سرياوران للخديوي توفيق باشا . ثم صار محافظاً لمصر على عهد الخديوي عباس حلمي باشا .

(٢) Annals (ص١٠٠) .

تفريق بين جنس وجنس أو مذهب ومذهب ، كي يسلموا كل ما لديهم من أسلحة . وكذلك فعل بالقرى المجاورة . والذي لا يكترث لهذا الأمر ولا يسلم سلاحه يعاقب بالإعدام . فتظاهروا باستعدادهم لإطاعة الأمر . ولكنهم في الواقع لم يسلموه من السلاح إلا ما كان عديم النفع . وأما الأسلحة التي كانوا نهبوها من مخازن الحكومة ؛ فقد أخفوا قسماً منها[1] ، ورموا القسم الآخر في ساحة الحرم .

قضى إبراهيم باشا المدة التي انقضت بعد ذلك التاريخ في الكرك جاداً في إطفاء الثورة التي كانت مشتعلة هناك . وفي (١٠ سبتمبر ١٨٣٤) رجع إلى القدس . وأخذ يشدد النكير على الأهلين الذين لم يسلموا ما لديهم من سلاح . منذراً كل من يتخلف عن الانصياع لأمره بالموت . وقد استخدم مئات العمال من المسيحيين لهدم منازل المسلمين الثائرين ، ولا سيما أولئك الذين رفضوا تسليم أسلحتهم ، والذين هربوا إلى الأنحاء الجنوبية من فلسطين . وقد هدم بالفعل عدد غير قليل من المنازل ، وقلع عدد لا يحصى من الأشجار في كروم العنب والتين والزيتون .

وقصارى القول لم يترك إبراهيم باشا وسيلة من وسائل التعذيب إلا واستعملها ، ليكره أهل القدس وما جاورها من قرى على الخضوع . حتى أنه في اليوم الثامن عشر من شهر ديسمبر (١٨٣٤ أتى باثنين من زعماء الثوار : الشيخ حسن وابن أبي زيد ؛ فقطع رأس الأول في باب العامود ، والثاني في سوق الحبوب . وأرسل بعض الزعماء ومنم الباشكاتب محمد أفندي ، أرسلهم إلى عكا مكبلين بالحديد . ولكن هذه التدابير ما كانت لتقلع روح التمرد والعصيان والكره من أفئدة الأهلين .

ولقد زاد في الطين بلة الهيضة (الكوليرا) التي انتشرت في القدس انتشاراً فظيعاً . فقد بدت هذه (في أوائل تشرين الأول ١٨٣٨) بين اليهود . ثم سرت منهم إلى المسلمين . ودامت شهراً .

ثم عادت فظهرت في منتصف شهر يناير ١٨٣٩ . فأغلقت أبواب المدينة بقصد منع اختلاط أهل القدس بسكان القرى المجاورة . ولجأ إبراهيم باشا وموظفوه إلى استعمال الشدة والعنف في مكافحة هذا المرض الوبيل . ولكنه عاد فانتشر انتشاراً مريعاً ، عندما أمر الباشا بفتح أبواب المدينة لحجاج النصارى الذين وفدوا لزيارة

---

(١) عثر إبراهيم باشا على قسم من هذه الأسلحة في المقابر وقسم آخر في الدكاكين والمنازل . والكثير منها لم يعثر عليه . إذ أن الأهلين رصفوا سطح الأرض من فوقها بالبلاط ليخفوها عن الأنظار .

الأماكن المقدسة .

ومن القدس سرت الكوليرا إلى السامرة والساحل وسائر أنحاء فلسطين . وظلت تفتك في البلاد حتى أواخر شهر حزيران ١٨٣٩ . فمات من جرائها خلق كثير . كما مات منها عدد كبير من جنود إبراهيم .

بعد أن أعاد إبراهيم باشا الأمور إلى نصابها في القدس وفي سائر أنحاء فلسطين ، سافر إلى دمشق . وهناك جرى له ما جرى مما لا يدخل في نطاق بحثنا . فاعتزم الانسحاب . وكان معه يومئذ (٦٢٤٩٩) جندياً .

حاول الانسحاب في بادئ الأمر ، عن طريق شرق الأردن ومعان . ولكنه عاد فغير رأيه ، بسبب العدد الكبير من جنده الذين راحوا ضحية العطش والجوع . فاعتزم الرجوع عن طريق القدس والخليل ، حيث تكثر المياه والمراعي والمؤن . إلا أن السر عسكر[١] أمر المنلا[٢] أن يسلح الفلاحين ، وأن يحول دون رجوع الباشا عن هذه الطريق مهما كلفه الأمر . فأعطاهم هذا كل ما كان لديه من أسلحة[٣] . وأرسل هو (أي السر عسكر) ، في الوقت نفسه ، جنوداً نظاميين . فأمر هؤلاء بأن يرابطوا في القلعة ، وكان عددهم يومئذ (٢٢ ديسمبر ١٨٤٠) عشرين ألفاً . وبعد خمسة أيام (٢٧ ديسمبر ١٨٤٠) وصل اثنا عشر ألفاً آخرون . رابط قسم منهم (٤٠٠٠) في القدس . ورابط الآخرون على الطريق الكائنة بين القدس ويافا وبين القدس وغزة (٣١ ديسمبر ١٨٤٠) .

عندما اتصلت هذه الأنباء بإبراهيم باشا خشي عاقبة الأمر . فعدل عن رأيه الأول ، وشطر جيشه إلى ثلاثة أقسام[٤] : الشطر الأول أرسله إلى مصر عن طريق معان والعقبة ونخل ، بقيادة سليمان باشا . والشطر الثاني أرسله إلى غزة عن طريق المزيريب وحسبان والكرك ، بقيادة إسماعيل باشا . والشطر الثالث سار بقيادته هو ، وقد سار به نحو الصلت . وتظاهر أنه كان ينوي الإغارة على القدس . فاضطر الأتراك

---

(١) كلمة تركية معناها قائد الجيش . وهي مؤلفة من كلمتين : (سر) فارسية ، ومعناها الرأس . و(عسكر) عربية ، ومعناها الجند ، وهذا القائد أرسل من استانبول ليخرج إبراهيم باشا وجنده من فلسطين .

(٢))المنلا) اللقب الذي كان يطلق على القاضي أو النائب المسؤول عن الإدارة والحكم في القدس .

(٣) قيل إنه أعطاهم يومئذ خمسة آلاف بندقية .

(٤) (تاريخ شرقي الأردن وقبائلها) لبيك باشا . (ص١٨٠) .

أن يستدعوا حاميتهم الموجودة في غزة للدفاع عن القدس . وبهذه الوسيلة تمكن الشطر الثاني من جيشه من الاستيلاء على غزة . فاستولى عليها من غير حرب . وبهذه الوسيلة تمكن من الرجوع إلى مصر .

رجع إبراهيم باشا إلى مصر بعد أن أقام في هذه البلاد عشرة أعوام . رجع إليها تاركاً وراءه عدداً غير قليل من المصريين الذين رافقوه في حملته . وقد استوطن هؤلاء بعض المدن والقرى الفلسطينية فصاروا منها . وإنك لترى حتى يومنا هذا كثيراً من العائلات الفلسطينية تعود في تاريخها إلى أصل مصري .

وتتلخص أرباح إبراهيم باشا من حروبه بموافقة تركيا وموافقة الدول الأوروبية على أن تكون مصر لمحمد علي ولذريته من بعده .

إن الجيش العثماني الذي كان يومئذ في القدس ، وقد قدروا عدده بعد انسحاب إبراهيم باشا بعشرين ألفاً ؛ قضى فصل الشتاء في القدس . ولم يكن من السهل إيواء عدد كبير كهذا من الجند في المدينة . أضف إلى ذلك أنه سمح في تلك الأيام لجميع الأفراد الذين اشتركوا في حركة المقاومة ، أن يأتوا لزيارة القدس من جميع أنحاء البلاد ؛ فزاروها وزاروا المسجد الأقصى والصخرة . كما قام فريق منهم بزيارة كنيسة القيامة ، وكنيسة المهد في بيت لحم ، والحرم الإبراهيمي في الخليل . وفي أواخر شهر شباط من السنة نفسها جاء السر عسكر إلى القدس . فصلى في الحرم . وبعد أن زار الأماكن المقدسة كلها عاد إلى عكا ، ومنها إلى بيروت .

الآن وقد انتهينا من ذكر الحروب والثورات التي قامت في هذه البلاد على عهد إبراهيم باشا ، نود أن نأتي على ذكر المنشآت التي أنشئت في القدس وفي ما حولها من ضياع خلال ذلك العهد ، فنقول :

١ . على عهده أنشيء (١٨٣٤م) جانب من القشلان الواقع بباب الخليل . بناه إلى الجنوب من القلعة القديمة التي بناها هيرودس .

٢ . جدد عمارة السرايا القديمة الكائنة على طريق الجسمانية .

٣ . أنشئت (طاحون الهواء) الواقعة غربي المدينة . فأخذ المقادسة يطحنون فيها قمحهم لأول مرة (١٦ أغسطس ١٨٣٩) على نفقة إبراهيم باشا وبأمره . وكانت الغاية من ذلك تزويد جيشه بالدقيق .

وبعد شهر من ذلك التاريخ حذا حذوه الأرمن . فأنشأوا طاحوناً مثلها في حديقة ديرهم . ثم تبعهم آخرون .

٤ . من آثاره (الزاوية الإبراهيمية) الكائنة إلى الشمال من ضريح النبي داود على جبل صهيون . إنها بنيت على عهده ، ومن أجله . وكان ينزل فيها كلما هبط القدس . ولذلك سميت باسمه .

٥ . عمّر قلعة في وادي الجوز شمالي القدس . وأخرى بين وادي الجوز والطور . ليس هذا فحسب ، فقد أنشأ سلسلة من القلاع(١) لحراسة الطريق بين القدس ويافا . لأنها كانت الطريق الرئيسية التي تربط القدس عاصمة البلاد ، بالساحل . وقد عمر أيضاً القلعة الكبيرة الكائنة بالقرب من برك سليمان بين الكيلو (١٢ و١٣) على طريق الخليل . عمرها بعد أن كانت مهملة . وكان يرمي من وراء تعميرها إلى غرضين : صون الأمن على الطريق ، وصون المياه التي يشرب منها السكان من عبث الزمان .

ومن الحوادث التي جرت في ذلك العهد مشاجرة وقعت (١٨٣١) في داخل الكنيسة بين الروم واللاتين من أجل مسألة بسيطة ، وهي أن اللاتين في أثناء ذهابهم إلى الجلجلة مروا من أمام القبر المقدس بينما كان الروم محرمين إلى الصلاة . فقال الروم إنه كان على اللاتين أن يمروا في مثل هذه الحالة من وراء القبر ، لا من أمامه . فاختلف الفريقان ، وتشاجرا . وتراشقا بالحجارة . ثم احتكما إلى السلاح ، لولا أن تداخلت السلطة وحجزت ما بينهما .

وفي عام (١٨٣٣) أراد الأرمن أن يستبدلوا حجراً بحجر في مكان له قدسيته في نظرهم ، فأراد الروم أن يمنعوهم ، واعتزموا قضاء ليلتهم كلها في داخل الكنيسة . فاصطدم الفريقان ، واستعملا الحجارة في هذا الصدام . وجاء قاضي الشرع فأمر بإرجاع الحجر إلى مكانه .

تطورت البلاد على عهده تطوراً نرى من مصلحة العلم والتاريخ أن نذكر شيئاً منه . فنقول(٢) :

أ- كان يعيش في القدس ، في ذلك العهد ، عشرون ألف نسمة من السكان . ألف منهم مسيحيون . وكان كبار البلاد يتباهون بالملابس الفاخرة والمظاهر الخلابة وكثرة الخدام والأتباع مقلدين في ذلك الولاة والحكام من بني عثمان . فأخذوا

---

(١) بعض هذه القلاع هدم مع الزمن ، وبعضها لا يزال قائماً حتى الآن .

(٢) ننصح إلى من شاء التوسع في هذه الباب أن يقرأ الكتاب القيم الذي ألفه داود بركات .

يقلدون إبراهيم باشا في ملابسهم وحركاتهم . وكان الباشا ميالاً بفطرته وبحكم حياته الجندية إلى البساطة في المظهر والتخشن في المعيشة . وقد استبدل عدد غير قليل منهم العمائم بالطربوش المغربي . إذ إن محمد علي وإبراهيم ورجالهما فعلوا ذلك إبان وجودهم في هذه البلاد .

ب- طرد جميع المتسلمين والموظفين الذين ولاهم عبدالله باشا نيابة عن السلطة في إستانبول . ثم أمر بنفيهم من البلاد .

جـ- ساوى بين المسلمين واليهود والنصارى . فأعفى النصارى واليهود من عادة النزول عن الدابة إذا ما صادفوا مسلماً في طريقهم . تلك العادة التي كانت متبعة من قبل(١) . كما أتاح لهم لبس الحذاء الأحمر ، وكانوا قبلاً يكرهون على ارتداء الملابس السوداء والزرقاء . وأمر بأن لا يؤخذ من اليهود والنصارى أي مبلغ من المال باسم عوائد ومرتبات . لا ، ولا ضريبة من النوع المعروف بـ(الأغفار(٢)) التي كانت مفروضة على الزوار . والشيء الوحيد الذي رضي به هو أنه كلف النصارى أن يدفعوا الخراج مقابل تجنيد المسلمين بالجزية وهو ما كانوا يسمونه قبلاً بالجزية .

د- أتاح للتجار الأجانب البيع والشراء في داخل البلاد . وكان محظوراً عليهم ، قبل ذلك الاتجار إلا في بعض الثغور والمواني الساحلية . ولقد أساء التجار الأجانب استعمال هذه المنحة . فاتخذوها تكأة لهم ليكونوا لأنفسهم دولة ؛ ولا سيما لأنه سمح للمتاجر الأجنبية أن تدفع ٣ بالمئة على البضائع التجارية أقل مما كانت تدفعه المتاجر الوطنية وهي (٢٠) بالمئة . وراح أكثر التجار يطلبون الدخول تحت حماية قناصل الدولة الأجنبية . وكان الإنجليز ، بوجه التخصيص ، يرمون إلى إنقاص دخل الحكومة المصرية لئلا تستطيع الإنفاق على جيشها وأسطولها .

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن هذا الموضوع في زمن الفاطميين .

(٢) ذلك لأن القدس مقر الرهبان والقسيس وبها يتلون الإنجيل الشريف . فينبغي حمايتهم» . هذا ما قاله إبراهيم باشا في أمره الذي أصدره بتاريخ (١٠ رجب سنة ١٢٤٧هـ) . وقد وقعه هكذا : الحاج إبراهيم باشا -والي جده وساري عسكر عكا حالا وأمر بعد قليل أن يتناول (أصحاب المرتبات) الذين كانوا يستفيدون من هذه الضريبة عوائدهم من خزينة الدولة . اقرأ ما جاء الصفحة (٨٧) من الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا للدكتور أسد رستم .

هـ- ألغى الضريبة التي كان يجبيها حراس الكنيسة ، آل نسيبة وجوده ، منذ عهد صلاح الدين .

و- أمر بإلغاء الخمس من الحاصلات الزراعية[1] . وزع البذار على الفلاحين . شجع الناس على غرس الأشجار المثمرة كالعنب والتوت والتين والزيتون . وزع على المزارعين المحاريث الزراعية . أدخل إلى البلاد أنواعاً جديدة من الزراعة ، وأتى إليها بأنواع من النبات والأشجار من أوروبا . أتى بعدد غير قليل من عرب البادية ، وأسكنهم القرى والسهول الخصبة ، ليزرعوها ويستغلوها . وأنشأ مصرفاً زراعياً لمساعدة المزارعين .

ز- لأجل حماية صناعة الصابون زاد الضرائب الجمركية على الصابون المستورد بنسبة ٣ بالمئة . فراجت هذه رواجاً كبيراً . وكان في القدس يومئذ مصابن كثيرة . وعلى ذكر الصابون نقول : إنه كان بالقدس في ذلك العهد وفي ما حولها من البلدان مساحات واسعة من أشجار الزيتون . وكان الزيت مبذولاً فيها بدرجة أن المقادسة في سنة من السنين كبوا الزيت القديم ، ليجدوا أوعية كافية للزيت الجديد . وكان سعر الرطل من الزيت (٤٨) بارة .

حـ- اهتم بطرق المواصلات ، فأنشأ مسافات غير قليلة من الطرق .

ط- كافح الرشوة . ومنع تقديم الهدايا إلى الحكام في شهر رمضان . وضرب على أيدي (شهود الزور) بيد من حديد . وعين الرواتب للموظفين ، وكانوا[2] يتناولون أجورهم من أصحاب القضايا . كان الباب العالي يعين المفتي ، والمفتي يعين القضاة . وهؤلاء ينظرون في جميع القضايا ، ويحكمون بأحكام الشرع . فغير هذا الأصول . وأنزل قيمة الربا والفوائد المالية .

ي- كان كثير التجوال في المدن والقرى ، شديد الرغبة في الاطلاع على ما في البلاد من عادات ومراسم . حضر مرة العيد المعروف بـ(سبت النور) في كنيسة القيامة (١٨٣٤) . ويظهر أن النور قد تأخر فلم يظهر إلا في ساعة متأخرة من النهار . وكان الحر يومئذ شديداً . والكنيسة مزدحمة بالألوف من الخلائق . وقام في وسط هذا الازدحام صدام عنيف بين مختلف الطوائف اضطر إبراهيم باشا

---

(١) داود بركات (ص١٤٦) .

(٢) داود بركات (ص١٤٢) .

للتدخل في الأمر مع العدد القليل من جنده . وقيل إنه من شدة الزحام وقع على الأرض مغمياً عليه . فثار ثائر الجند . ومات في الحاضرين خلق كثير . قدر بعضهم[١] عدد المتوفين يومئذ بمئتي نفس .

كان في القدس يومئذ عدة أسواق ، منها : سوق القطانين وهي من منشآت المماليك . وسوق الطباخين وهي المعروفة اليوم بسوق خان الزيت . وثلاث أسواق متوازية هي عبارة عن مسالك طويلة وعقود مستورة هي : سوق العطارين ، وسوق التجار والخواجات ، وسوق اللحامين ، وفي الطرف الشمالي من السوق الأخيرة سوق الجلود والنحاسين . وكانت ساحة القيامة تستعمل كسوق لبيع الشمع والصدف والصلبان والمسابح والكتب الدينية للحجاج من المسيحيين الذين كانوا يفدون إلى القدس بقصد زيارة أماكنها المقدسة .

وكان أمام جميع الدكاكين أو أمام الشطر الأكبر منها ، مساطب لجلوس أصحابها من جهة ، وجلوس الزبائن الذين يفدون بقصد الشراء . وإنك لترى اليوم قسماً من هذه المساطب في سوق التجار . وظلت الأسواق على تلك الحال حتى سنة (١٨٦٣) . إذ منعت السلطات المحلية إنشاء مساطب جديدة . وأمرت بهدم القديمة . ورصفت الطريق في داخل المدينة بالبلاط .

وعلى ذكر التجارة نقول : إن أكثر التجار ، إن لم نقل كلهم ، كانوا يومئذ أميين . لا يحسنون القراءة والكتابة . ولا يعرفون الطرق المألوفة الآن في مسك الدفاتر التجارية . فكان التاجر ، مثلاً ، إذا باع شخصاً عدساً ، وكان البيع بالدين أي أن المشتري لم يدفع له ثمنه ، يصور (عدسة) في دفتره ويضع تجاهها الأرقام الدالة على الوزن والقيمة . وإذا باع بالدين سمكة ، رسم السمكة . وإذا باع فجلاً رسم الفجلة ، وهكذا دواليك .

وإذا كان التاجر أرقى من ذلك ، وكان يحسن القراءة والكتابة ؛ فيكتب العدس والفجل والسمك وما إلى ذلك من غير رجوع إلى الصور والأشكال . لكنه كان يخجل أن يسأل المدين عن اسمه -والخجل شائع عندنا نحن الشرقيين- فيكتب التاجر عندئذ في دفتره وتجاه الشيء الذي باعه بالدين علامة (البرنيطة) للدلالة على أن المدين هو الشخص الذي كان يلبس برنيطة . أو علامة (العوينات) للدلالة على

---

(١) Eothen, P. 150.

أنه كان يضع على عينيه نظارات . أو (شمسية) أو (كوفية وعقال) وما إلى ذلك . وقد يكتفي بالقول عن المدين : أبو العوينات ، أو أبو البرنيطة ، أو أبو المنخار الأفطس! . وهكذا دواليك .

وعلى ذكر التجارة أيضاً نقول : إن نفقات المعيشة كانت يومئذ قليلة بدرجة أنه كان باستطاعة رب البيت أن يعيش هو وامرأته وأطفاله بواحد أو اثنين في المئة مما ينفقه في هذا السبيل في يومنا هذا .

فقد قرأت في السجلات القديمة أن داراً في حارة النصارى مؤلفة من ثلاث طبقات ، بيعت حوالي تلك الحقبة من الزمن ، بست وأربعين زلطة . والزلطة عبارة عن ثلاثين بارة . وكذلك قل عن دار في باب حطة مؤلفة من غرفتين وإيوان وصهريج ومنافع مختلفة ، فإنها بيعت بخمسة وسبعين قرشاً .

وكسوة الزوجة كانت خلال القرن السابع عشر تكلف ثلاثة قروش في السنة . فما زادت بعد قرنين عن تسعة قروش فتأمل . ومدار المعاملات التجارية كلها كان (الشرف) . فلا سندات ولا عقود خطية ولا كمبيالات . وكثيراً ما سمعنا بصفقات تجارية كبيرة عقدت دون أن يخط الفريقان كلمة واحدة . ودون أن يقول الواحد منهما للآخر كلمة سوى : (الشرف) . وفي بعض الحالات رأينا أن المتعاقدين سجلا اتفاقهما في المحكمة الشرعية : الأخذ على نفسه أن يرد الشيء المأخوذ ، وإلا فإنه يرضى بأن تصبح امرأته طالقة . ومن ذا الذي يرضى بأن تطلق امرأته من أجل عرض بسيط زائل . اللهم إلا إذا كان يكرهها ، وكان يفتش عن حيلة للخلاص منها .

ولا يسعنا ، في ختام هذا الفصل ، وقد حدثناك فيه عن السنوات العشر التي قضاها إبراهيم باشا في هذا البلد : بقضها وقضيضها ، بحسناتها وسيئاتها . . إلا أن نأتي على ذكر حسنة من أفضل حسنات ذلك العهد . ألا وهي : الحيلولة دون مطامع الصهيونية ، والوقوف في وجهها . يدلنا على ذلك ما قرأناه في مذكرات السر موسى حاييم منتفيوري ، أحد كبار اليهود الانكليز الذي هبط هذه البلاد في عام (١٨٣٦م) . ويبدو منها أن السر مونتفيوري حاول أن يقنع إبراهيم باشا وأباه محمد علي باشا ، بوصفه صاحب الأمر في فلسطين ، أن يؤجراه أرضاً مساحتها خمسون فداناً ومئتي قرية لخمسين عاماً ، بإيجار معين يسدد على أقساط سنوية . وكان ينوي كما جاء في مذكراته التي دونها في صفد وفي (٢٤ أيار ١٨٣٧) أن يدعو إخوانه اليهود المقيمين في أوروبا وأميركا وجنوب أفريقيا للإقامة في تلك القرى واستغلال موارد الثروة في

هذه البلاد المليئة بالخيرات . ومتى تم ذلك «عاد آلاف من اليهود إلى أرض إسرائيل ووطدوا أقدامهم فيها» .

ولكن محمد علي باشا ، الذي استشار ولده إبراهيم في هذا المشروع رفضه رفضاً باتاً .

ولقد اطلعنا في (مجموعة الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا) لجامعها الدكتور أسد رستم(١) على الأمر الحكمداري التالي المرسل من مصر إلى متسلم القدس ، ومنه يفهم أن اليهود أرادوا يومئذ أن يسمح لهم بشراء الأراضي إلا أن الأهالي مانعوا في ذلك ، وأيدهم في رغبتهم مجلس الإدارة ، والحكومة المركزية(٢) :

«افتخار الأماجد الكرام ذوي الاحترام ولدنا العزيز مصطفى آغا السعيد متسلم القدس الشريف حالاً . أنه بهذه الأثناء ورد لنا تحرير من جناب محبنا مير اللوى بحري بيك وفي طيه جرنال وارد من مجلس القدس الشريف . والجرنال المرقوم من على معروض متقدم للمجلس من وكيل طائفة السكناج بالقدس الشريف بقصد الاستلام بأنه هل يترخص لهم بمشترى الأملاك والأراضي للزراعة وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار وتعاطي مصابن ومعاصر بناء يدفعوا المرتب للميري مثل الرعايا . هذا مضمون استعلامنا . وفهمنا كيفية جواب المجلس بأن هذه ماس سبق لها أمثال . وبالوجه الشرعي أيضاً غير مساعد للمستأمنين المذكورين في جميع ما يستدعونه . حيث أراضي تلك الديار برية ووقفية . فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة ، ما عدا تعاطي البيع والشراء بالتجارة الذي يجلبوها من بلادهم من أنواع التجارة . حكم أمثالهم الذميين في السوق بأن هذه عمال يتعاطوها الآن . فلا أحد يمانعهم بها . هذه ملخص مجاوبة من المجلس فهي بالحق والطريقة ، والمجاوبة لهم بذلك فهي بمحلها إذ ذاك أن الذي ملتمسينه غير موافق من الوجه الشرعي . وأما تعاطيهم البيع والشراء بالسوق قياس أمثالهم الذميين فهذا ليس لهم معارضة به . فيلزم والحالة هذه إفادة مجلس القدس بذلك ، لكي يكون معلوماً عند حضرات أرباب المجلس أن جوابهم بذلك بمحله» . من مصر في (٢٤ محرم سنة ١٢٥٣هـ الموافق ١٨٣٧م) .

---

(١) أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأميركية .

(٢) توجد نسخة من هذا الأمر في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس وقد اطلعت عليها .

بعد وفاة السلطان محمود الثاني ، الذي جرت في عهده حوادث جسام ، هي التي ذكرناها في الفصول المتقدمة -ومنها حوادث نابليون بونابارت وإبراهيم باشا- تولى السلطنة عبدالمجيد ابن السلطان محمود الثاني (١٨٣٩م) . وقد وضع هذا السلطان أصول التجنيد الإجباري ، وجعلت مدة التجنيد من أربع إلى خمس سنوات . ونظمت المحاكم . ومنع الإعدام إلا بعد ثبوت الجرم . ومنح الأهلون حرية التصرف . ومنعت مصادرة الأموال . وجرى التساوي بين رعايا الدولة ورعايا الدول الأجنبية . وحظر على الموظفين قبض الرشوة ، بعد أن عينت لهم رواتب كافية . وقد أقسم السلطان أمام جمع من العلماء والوزراء أنه سيبذل قصارى جهده من أجل تنفيذ (الفرمان) الذي أصدره بهذا المعنى لشعبه ، وكان مؤرخاً سنة (١٢٥٥هـ-١٨٣٩م) .

كان عدد السكان في بيت المقدس يومئذ عشرين ألفاً . منهم ألف من المسيحيين[(١)] .

وكان أول عمل عمله السلطان عبدالمجيد ، بعد أن وضع أساس الحكم والعمل في بلاده ، أن أقال إبراهيم باشا عن سورية في (فرمان) تاريخه سنة (١٢٥٦هـ-١٨٤٠م) . وقد عهد بإدارة هذا الجزء من البلاد إلى أحمد آغا الدزدار . فقد رأيت الأمر بنصب أحمد آغا متسلماً على القدس ، موقعاً من محمد سليم باشا بوصفه : (فريق العساكر المظفرة) . وقد جاء في أمر التعيين أن قد (صدرت الإرادة الشاهانية باتفاق آراء الدول المتحابة بإزالة الأحكام المصرية عن هذه البلاد) .

ومن الحوادث التي جرت على عهده (١٨٥٣-١٨٥٦ (حرب القرم)) .

إن السبب الذي خلقته روسيا لحرب القرم كان في الظاهر ، حماية الأرثوذكس من المسيحيين ، لا في البلاد المقدسة فحسب ، بل في جميع أنحاء المملكة العثمانية . وأما السبب الحقيقي فهو ضعف تركيا ، وطمع روسيا في الاستيلاء عليها . وقد وجدت هذه الفرصة سانحة في (بيت المقدس) ، فاهتبلتها (١٨٥٣م) . وإليك البيان :

---

(١) هذا على قول المطران ميخائيل سولومون الكسندر الذي هبط القدس سنة (١٨٤٢م) .

كان السلطان سليمان (١٥٣٥) والسلاطين الذين أتوا من بعده قد أقروا المبدأ التالي:

«إن الرهبان الفرنسيين لا يتعرض لهم أحد في إقامة شعائرهم الدينية في كنيسة القبر المقدس. وإذا احتاج ذلك المكان إلى ترميم، فعلى الحكومة العثمانية أن تأذن بذلك بناء على طلب سفير فرنسا». وقد نال الروم الأرثوذكس مثل هذا الحق على عهد صلاح الدين والمماليك وفي فترات مختلفة من التاريخ. فراحت روسيا تدعي أنها حامية الأرثوذكس في الشرق. وراحت فرنسا تدعي أنها حامية اللاتين.

ففي سنة (١٨٥٢) صدر الإذن للاتين أن يتسلموا مفاتيح البابين الشمالي والجنوبي لكنيسة مغارة بيت لحم. وأن يضيفوا نجمة من الفضة عليها شعار فرنسا يضعونها في مزار تلك المغارة. فعدت روسيا ذلك خرقاً لحرمتها، فطلبت تعويضاً، وأمرت جندها بالزحف صوب الحدود. وبعثت سفيرها (منتشيكوف) إلى الآستانة، طالبة تأييد الحماية الروسية لأرثوذكس الشرق. ولما رفض الباب العالي هذا الطلب، أعلنت روسيا الحرب على تركيا (١٨٥٣م). قائلة: إنها إنما اضطرت إلى ذلك بقصد الاحتفاظ بحقها في حماية المسيحيين.

انتصرت فرنسا وانكلترا للدولة العثمانية، فأعلنتا الحرب (٢٧ آذار ١٨٥٤). وأمر نابليون الثالث أسطوله أن يرسو في سلاميس. ووعدت انكلترا بتقديم أسطولها في البحر المتوسط لنصرة العثمانيين.

ووقفت بروسيا والنمسا على الحياد. ولم تنته الحرب إلا عند أسوار (سواستوبول). إنها انتهت بانتصار تركيا. فعقدت على أثر ذلك معاهدة باريس (٣٠ آذار ١٨٥٦). وكان من أهم شروطها[1]:

١ . حياد البحر الأسود.

٢ . قفل الدردنيل في وجه السفن الحربية.

٣ . حرية الملاحة في الطونة.

٤ . احترام أملاك تركيا وسيادتها. (باستثناء أفلاق والبغدان اللذان سلخا عن تركيا ومنحا استقلالاً داخلياً تحت سيادة السلطان).

---

(١) (تاريخ القرن التاسع عشر) تأليف محمد قاسم وحسين حسني، (ص٢١٥).

عندما وصلت إلى القدس[١] أنباء انتصار الترك على الروس في سواستوبول (اكتوبر ١٨٥٦) ساد الفرح جميع طبقات السكان . وأقيمت المهرجانات في جميع أنحاء المدينة ، وأقيمت الزينات فأضيئت جميع المنازل ودور القنصليات . كما أضيئت جميع المساجد والمآذن . وأطلقت مدافع القلعة واحداً وعشرين طلقة علامة الفرح . وراح الناس يتجولون في الشوارع . ودامت المهرجانات ثلاثة أيام وثلاث ليال .

وأصدر السلطان عبدالمجيد خطاً همايونيا[٢] يقضي بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين في الحقوق والواجبات ، من غير تفريق بين العناصر والمذاهب . وانتظم المسيحيون ، على أثر ذلك ، في الجندية ، مثلهم كمثل المسلمين .

راح قناصل الدول في القدس خلال حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) يتنافسون . فكانت كل من إنكلترا وفرنسا والنمسا وإسبانيا وبروسيا تسعى لأن تسبق الأخرى في إظهار نفوذها في الشرق ، ولا سيما في القدس عرق الشرق النابض في ذلك الحين . إذ كانوا يشبهون تركيا بالرجل المريض . فمن الذي يسبق الآخر لاقتسام تركة هذا المريض عندما يلقى حتفه الأخير؟

ثم نزلت أميركا إلى الميدان (١٨٥٧) . ثم تبعتها روسيا واليونان (١٨٦٢) . فأصبح ممثلو الدول الأجنبية بالقدس ثمانية .

ولما خرجت تركيا من حرب القرم ظافرة ، ازداد قنصلا انكلترا وفرنسا نفوذاً في القدس . إذ إن دولتيهما وقفتا كما قدمنا بجانب تركيا في حربها ضد الروس . وإليهما يرجع الفضل الأكبر في النتيجة التي وصلت إليها تلك الحرب . فرفع العلم البريطاني على دار القنصلية[٣] للمرة الثانية (١٨٥٦) .

وطلب القنصل الإنكليزي من متصرف القدس كامل باشا أن يحتفي بتتويج

---

(١) J. Finn, P. 362, 364

(٢) أي قانوناً أو إرادة سلطانية .

(٣) جاء في بعض الروايات الانكليزية «أن العلم البريطاني رفع على دار القنصلية الإنكيزية بالقدس لأول مرة ، من قبل السير سدني . وكان ذلك عام ١٨٩٩» . وأما المستر J. Finn فإنه يقول في الصفحة (٣٦٢) من رحلته : «إن القنصلية الإنكليزية في القدس أسست عام (١٨٣٩) وعلى عهد السلطان عبدالمجيد ، يوم اشترى القنصل الانكليزي دار الديسي الكائنة شرقي القلعة بباب الخليل وبنى فيها كنيسة هي التي تعرف الآن بكنيسة المسيح (Christ Church) .

الملكة فكتوريا . فأجابه لطلبه ، وأمر بإطلاق واحد وعشرين طلقة من مدافع القلعة .

إن هذا العمل جرأ القنصل الفرنسي . فراح هذا يطالب بنفس الحق . ورفع العلم الفرنسي على دار القنصلية الفرنسية[١] (١٨٥٦) .

واشترك الفرنسيون في مظاهرات الفرح والسرور التي قامت في المدينة ، وأقاموا حفلة دعوا إليها جميع الموظفين الرسميين[٢] . فجاء هؤلاء ببدلاتهم الرسمية . ولما ارتفع العلم الفرنسي على دار القنصلية ، حيته مدافع القلعة بإحدى وعشرين طلقة[٣] .

ولما منحت النمسا[٤] متصرف القدس كامل باشا وساماً رفع علم النمسا ، وأطلقت من أجله وإحدى وعشرين طلقة من مدافع القلعة . ثم جاء دور إسبانيا وبروسيا ، فرفعت أعلامهما ، وحيتهما مدافع القلعة بإحدى وعشرين طلقة (١٨٥٦م) . ومن بعد ذلك جاءت أميركا[٥] وراحت أعلام الدول ترفرف على قنصلياتها في أيام الآحاد والأعياد ، وميلاد السلطان ، والمولد النبوي . كما راح الأجانب يطلبون إطلاق المدافع في أعياد ملوكهم . فغضب المقادسة لهذا العمل غضباً لا مزيد عليه . ونقموا على المتصرف كامل باشا[٦] ، لأنه سمح برفع الأعلام الأجنبية على دور القنصليات ، بعد أن كان هذا الأمر ممنوعاً ، ولأن مدافع القلعة ما كانت تطلق ، قبل ذلك اليوم ، إلا في رمضان والأعياد وفي ذكرى المولد النبوي . وفي

---

(١) حاول الفرنسيون ، قبل ذلك التاريخ ، أن يرفعوا العلم الفرنسي مثلث الألوان على دار القنصلية الفرنسية (١٨٤٣) . إلا أن المقدسيين لم يمكنوهم من ذلك . بل ، ثاروا عندما سمعوا بعزم الفرنسيين ثورة مضرية ، وراحوا إلى العلم فأنزلوه . ثم أخذوه ، ومزقوه ، وطرحوا على الأرض . فلم يستطع الفرنسيون أن ينبسوا يومئذ ببنت شفة . لأنهم كانوا ضعفاء ، ولم يكن لهم حول ولا طول ، لا في مدينة القدس ، ولا في غيرها من المدن الفلسطينية .

(٢) J. Finn, P. 364

(٣) J. Finn, P. 392

(٤) تأسست القنصلية الإسبانية سنة (١٨٥٠) .

(٥) تأسست القنصلية الأميركية سنة (١٨٥٧) .

(٦) شاب ضعيف الإدارة ، ذو تربية فرنسية تولى الإدارة في (١٥ فبراير ١٨٥٥) . استقبل بإطلاق عدد من مدافع القلعة . سكن في الدار التي كانت تعرف قبلاً بمدرسة الجاولي . وهي المعروفة بـ(الروضة) في يومنا هذا .

الحقيقة إنهم كانوا يعارضون فكرة إطلاق المدافع، ليس في أعياد الملوك الأجانب فحسب، بل في يوم ميلاد سلطانهم أيضاً ؛ لأنهم كانوا يكرهون أن يسمعوا أن السلطان رفع إلى مرتبة الأنبياء . والأنبياء وحدهم هم الجديرون بهاته الدرجة من التعظيم والإجلال .

ومن الحوادث التي جرت في عهده (١٨٢٣) أن المتسلم سليمان أفندي ، وكان هذا يهودياً فاهتدى ، ظلم الناس كثيراً . وأعانه في ظلمه قائد الحامية موسى بك الغزي . وكانوا يلقبونه يومئذ بـ(تفنكجي باشي) . فجمعا من الناس ضرائب أكثر مما كان متقرراً . والذي لم يدفع ما عليه منها ضرب ، واهين ، واقتيد إلى السجن . فاستغل اليهود هذه الفرصة . وتقدموا لإدانة دافعي الضرائب ما احتاجوا إليه من مبالغ بفوائد فاحشة . وراح الناس بعد ذلك بكثير يتحدثون عن ظلم هذا الطاغية ، سليمان المهتدي ؛ حتى أنهم لقبوه ، لظلمه ، ببلاطس القرن التاسع عشر .

وازداد هياج الناس بعد ذلك ضد النصارى ، ولا سيما الروم من أصل يوناني ، عندما وصلت بعض السفن اليونانية إلى بيروت . واتهم هؤلاء بالتآمر على سلامة الدولة مع الأجانب . وحاول الأتراك أن يسجنوا الأرثوذكس في كنيسة القيامة ، كما فعلوا في سنة (١٧٩٨) عندما جاء نابليون بونابارت . ولكنهم عدلوا عندما رأوا أن السفن أقلعت من مراسيها .

ومن الحوادث[1] التي جرت في القدس يومئذ أن البرد اشتد في سنة (١٨٥٣) ، وهطل ثلج كثيف . وكان الوقود قليلاً . الأمر الذي أضر بالناس ضرراً بليغاً . وارتفعت أسعار الطعام وجميع أنواع الغذاء . فبيع رغيف الخبز في السوق بسعر لا يتحمله الفقير . هذا فضلاً عن أنه كان مصنوعاً من القمح الرديء الذي لا يرغب في أكله إنسان . وانتشر الجدري انتشاراً فظيعاً . فمات كثيرون من البرد والجوع والمرض .

كانت الحكومة ضعيفة بدرجة أنها لم تستطع أن تفعل شيئاً لتخفيف هذه الضائقة . والباشا كان ضعيفاً بدرجة أنه لم يستطع أن يضرب على أيدي التجار الاستغلاليين .

ثم أقيل الباشا لضعفه . واستبدل بباشا أقوى منه . فأخذ هذا يطارد التجار ،

---

(١) اقتبسنا بعض هذه الحوادث من مذكرات المستر ج . فن Mr. J. Finn الذي كان يومئذ قنصلاً لبريطانيا في القدس . انظر إلى الصفحات (٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٧) من مذكراته .

وراح يصادر ما ادخره في مخازنهم من غلال . وأنزلت هذه إلى السوق . فهبطت الأسعار وتنفس الفقراء الصعداء .

وفي سنة (١٨٥٤) أيضاً كان الشتاء قاسياً ، والبرد قارصاً . وقد هطلت أمطار غزيرة . ثم تبعها زوابع ورياح . وزاد في الطين بلة أن الحكومة صادرت ما كان عند الناس من حبوب باسم الحرب وإطعام الجيش . وإن دفعت في بعض الأحيان ثمنه فبالورق لا بالذهب . وبالسعر الذي تعينه هي ، لا بالسعر الذي كان رائجاً في السوق . فظهرت في القدس مجاعة لا بسبب قلة الأمطار وإنما بسبب طمع الاستغلاليين من التجار . وقد عضت بنابها جميع الطبقات . واضطر الفلاحون للاستدانة بالربا الفاحش . وقيل إنه مات في تلك السنة بسبب هذه المجاعة وسوء التغذية ما يقرب من (٨٠٠) طفل مسلم خلال ثلاثة أسابيع .

وفي سنة (١٨٥٥) كان المطر قليلاً ، فأجدب الزرع ، وارتفعت أسعار الحبوب ، وتكررت المجاعة . لا بل صعدت أسعار القمح والأرز إلى ضعفي ما كانت عليه في السنة السابقة (١٨٥٤) . ولم تسقط الأمطار في شهري اكتوبر ونوفمبر كالمعتاد . ولذلك لم يتمكن الفلاحون من زرع أراضيهم . ووصل البؤس إلى درجة عمت جميع طبقات الشعب . دعا الباشا في نوفمبر جميع القناصل لدار الحكومة واستشارهم في الأمر . فأشاروا عليه ببيع القمح المخزون في مخازن الحكومة بأسعار معتدلة . وقد اشتدت حاجة الناس إلى الماء . فصاموا ، وصلوا صلوات الاستسقاء . وفي ١٧ ديسمبر هطل المطر بشدة ، ودام بضع ساعات . فتنفس الناس الصعداء . وقد عاد المطر مرة أخرى في (٦ يناير) . وفي اليوم التالي هطل الثلج . وفي هذا ما فيه من نفع للزرع . فهبطت أسعار المياه المعدة للشرب .

وفي مطلع عام (١٨٥٦) هطلت أمطار غزيرة . فسالت الوديان ، وظهر الماء بكثرة من عين أيوب . فانتعش الفلاحون ، واشتدت الأمطار في نهاية آدار وفي أواسط إبريل فامتلأت الآبار ، وترعرت الزروع . وأعقب ذلك خصاب جاء من ورائه هبوط في الأسعار . فتحسنت حالة البلد الاقتصادية . وازدهرت القدس في ربيع تلك السنة ازدهاراً لم يسبق له مثيل . وكان فيها من السكان عشرون ألفاً وفي سنة (١٨٥٨) أسست أول قنصلية أمريكية في القدس . وفي (١٨٥٨) خرج المقدسيون من المدينة القديمة وراحوا يبنون العمارات خارج السور .

بعد عبدالمجيد تولى السلطنة أخوه السلطان عبدالعزيز ابن محمود الثاني

(١٨٦٠م) . وعلى عهده أنشئت الطريق التي تربط يافا بالقدس (١٨٦٧م) . والطريق التي تربط القدس بنابلس (١٨٧٠م) . وعلى عهده أيضاً (١٨٦١م) عرف الأتراك وعرف معهم سكان بيت المقدس الطربوش ، ولبسوه ، وكانوا يومئذ يسمونه (سربوش[١]) . وكان عدد سكان القدس يومئذ ثمانية وستين ألفاً .

ولما خلع عبدالعزيز أقيم مكانه السلطان مراد الخامس ابن عبدالمجيد (١٨٧٦م) . ولكن هذا لم يمكث على العرش أكثر من بضعة أيام بسبب ضعف عقله . وسادت الفوضى في تلك الفترة من الزمن فساءت حالة الفلاح ، وراح يدفع خمس محصولاته أعشاراً . وكان يطالب بضريبة عن كل شجرة يزرعها في أرضه . والبدو لم ينفكوا عن غزو المزارع .

ولما خلع السلطان مراد اعتلى سده الملك السلطان عبدالحميد الثاني ابن السلطان عبدالمجيد خان (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) . وعلى عهد هذا السلطان حدثت في البلاد حوادث جسام . ذكرنا أكثرها في الفصول المختصة بها ، وبعضها الآخر ندرجه في السطور التالية :

جلس على كرسي الساطنة في (١١ شعبان ١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) . وبتأثير من الصدر الأعظم[٢] مدحت باشا[٣] منح الشعب حرية القول والعمل والاجتماع . وقد نشر القانون الأساسي (الدستور) . وأمر بانتخاب (مجلس العموم[٤]) . وكان ذلك بتاريخ (٧ ذي الحجة ١٢٩٣هـ) . وكان على أعضاء (مجلس العموم) أن يقسموا يمين الطاعة والولاء للدستور والساطان . أما أعضاء مجلس الأعيان فيعينهم السلطان من رجال الدولة الخبيرين ، على ألا يكونوا فوق الأربعين من العمر ، وألا يتجاوز عددهم ثلثي عدد الأعضاء في مجلس المبعوثين . ويبقى العضو في مجلس الأعيان ما دام على قيد الحياة . ويتناول من خزانة الدولة عشرة آلاف قرش .

وأما أعضاء مجلس المبعوثين[٥] فينتخبون من قبل الشعب انتخاباً على

---

(١) انتقل الطربوش إلى تركيا عن طريق اليونان . وهذه أخذته من مدينة (فان) من أعمال مراكش .

(٢) هذا هو اللقب الذي كان الأتراك يطلقونه على رئيس وزرائهم .

(٣) إنه بطل الحرية والدستور ، وكان يدعى (رئيس الأحرار العثمانيين) .

(٤))مجلس العموم) مؤلف من هيئتين : -(مجلس الأعيان) و(مجلس المبعوثين) .

(٥) جمع (مبعوث) وهو النائب . وكان الأتراك يطلقون على هذا المجلس : (مجلس مبعوثان) .

درجتين . والانتخاب سري . ولكل خمسين ألفاً من أبناء البلاد مبعوث . ويشترط في المبعوث أن يكون من رعايا الدولة العثمانية وأن يعرف اللغة التركية ، وأن يكون فوق الثلاثين من العمر ، وأن لا يكون خادماً عند الغير أو مفلساً أو ساقطاً من الحقوق المدنية .

والانتخاب يتكرر مرة في كل أربع سنوات . والمبعوث لا يعتبر ممثلاً للمنطقة التي انتخبته ، وإنما يعتبر ممثلاً لجميع أنحاء المملكة العثمانية .

وقد ناب عن القدس في هذا المجلس يوسف ضيا باشا الخالدي(١) (١٢٩٤هـ-١٨٧٧م) .

أكد السلطان لرعاياه في الدستور أنه لن يفرق بين دين ودين ، ولا بين إنسان وإنسان . فالكل سواء تجاه القانون . (التركية) لسان الدولة . ودينها (الإسلام) . والخلافة في بني عثمان . إن السلطان مقدس وغير مسؤول . وإن الإنسان حر في تصرفاته ، شريطة أن لا يعتدي على حق الغير . (المساكن) حرة . و(المطبوعات) أيضاً حرة ضمن القانون . و(التدريس) مطلق . وللأمم المختلفة الحق في وضع مناهج التعليم الديني التي يرتأونها في مدارسهم ، على أن يكونوا خاضعين لنظام الدولة . والضرائب توزع حسب مقدرة المكلفين . (الانقارية(٢)) ممنوعة ، إلا ما لزم منها أثناء

---

(١) من آل الخالدي ، وهم من العائلات الشهيرة في بيت المقدس . نزلوا القدس في أوائل الفتح الإسلامي . ورحلوا عنها في زمن الصليبيين إلى جماعين . واستوطنوا خربة ما برحت إلى الآن تعرف بـ(دير بجالة) على مقربة من برده . وكان يطلق عليهم يومئذ لقب (الديري) . وذلك لأنه كان في الحارة التي نزلوا فيها دير . وقال آخرون أن لقب الديري هذا أتاهم من الحارة التي نزلوا فيها ببيت المقدس . ويوسف باشا هذا هو ابن قاضي أرضروم محمد علي الخالدي . طلب العلم في جوار المسجد الأقصى . ومكث مدة في كلية مالطة . ثم انتقل إلى الأستانة فأتم دراسته في جامعتها . وتولى رئاسة بلدية القدس (إنه الرئيس الرابع) . وناب عن القدس في مجلس المبعوثين . وعين أستاذاً للغات السامية في جامعة فينا .

إنه مولع بالشعر والأدب . فقد كان مغرماً بلبيد الشاعر . وقد طبع ديوانه في فينا وشرحه . وله كتاب موضوعه (انا) وفيه آراؤه في الإصلاح . ومن كتبه (التحفة الحميدية في اللغة الكردية) جمع فيه مفردات هذه اللغة وقواعدها (طبع في الأستانة سنة ١٣١٠هـ) .

(٢) الشغل بالجبر والإكراه .

الحرب . ولا يجوز مصادرة أموال الناس وأملاكهم من بين أيديهم ، إلا ما لزم منها للمصالح العامة ، على أن تدفع أثمانها مقدماً . (الرشوة) غير جائزة . وكذلك قل عن جميع أنواع الأذى والتعذيب .

السلطان هو الذي يعين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام رأساً . وباقي الوزراء يعينون بإرادة سنية والوزراء يحاكمون ضمن القانون . ولأعضاء البرلمان الحق في سؤال الوزراء عن حركاتهم وتصرفاتهم .

ولقد حصر السلطان في يده حق تعيين الوكلاء وعزلهم ، وتوجيه المناصب والأوسمة . وصك النقود ، والخطبة ، وإعلان الحرب ، والصلح ، وعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية ، وقيادة القوى البرية والبحرية وسن الأنظمة التي تتعلق بتنفيذ الأحكام الشرعية والقانونية ، وحق العفو عن المحكومين والمسجونين وتخفيف الجزاء .

كما حصر في يده حق دعوة المجلس العمومي وتعطيله . وإجراء انتخابات جديدة عند الاقتضاء . ولكن البلاد العثمانية لم تنعم بهذه الحرية زمناً طويلاً . إذ لم يكد ينقضي على نشر الدستور سنتان حتى استرد السلطان عبدالحميد بيده اليسرى ما أعطاه باليمنى . فألغى الدستور . وأغلق (مجلس المبعوثين) وأخذ يطارد المبعوثين أنفسهم . وراح يدير البلاد وفق إرادته الشخصية ، غير حاسب للأمة حساباً (١٢٩٥هـ-١٧٨٧م) . وكانت الحالة في فلسطين بوجه عام وفي القدس بوجه خاص تسير من سيء إلى أسوأ من جميع الجهات الزراعية والاقتصادية والإدارية .

على عهد السلطان عبدالحميد قامت حرب بين روسيا وتركيا (١٢٩٤هـ-١٨٧٧) . وصدر قانون (١٨٨٢) يحرم هجرة اليهود إلى فلسطين وشراءهم الأراضي فيها . ثم عدل القانون فسمح لليهود بدخول فلسطين والبقاء فيها لمدة ثلاثة شهور بقصد العبادة . وصدر قانون يقضي بمنع تجارة الرقيق (١٣٠٧هـ-١٨٨٩م) . وأنشئت السكة الحديدية بين القدس ويافا (١٨٩٢م) وأنشىء المستشفى البلدي الكائن غربي مدينة القدس (١٨٩١) . وأنشىء السبيل الذي كان قائماً تجاه باب الخليل إلى الغرب (١٩٠٧) . وجددت عمارة السبيل الكائن في الحرم بين باب القطانين والصخرة والمعروف بسبيل قايتباي . ومع (١٩٠٥) تم إدخال آلات التلفون إلى القدس وسائر أنحاء المملكة العثمانية ، واستعمل اللاسلكي .

وزار إمبراطور الألمان غليوم القدس (١٨٩٧) واستقبل فيها استقبالاً فخماً . إن الحكومة فتحت له ثغرة في السور بالقرب من باب الخليل ، ليتمكن من دخول المدينة

ممتطياً ظهر جواده . وقد طم قسم من الخندق يومئذ ، وهو القسم الكائن بين البرج في الشمال الغربي وباب الخليل . وبهذه المناسبة هدم السور الذي كان يصل الأبراج بعضها ببعض .

وازداد تنافس الدول الأجنبية بالقدس في عهد السلطان عبدالحميد ، وتأسست قنصليات جديدة غير تلك التي تأسست في زمن السلطان عبدالحميد .

ففي عام (١٨٨٥) نرى قنصل ألمانيا يقوم بأعمال القنصلية بصفته مندوباً من لدن إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا .

وفي عام (١٨٨٦) نرى الحكومة التركية تعترف بوجود ملحق تجاري (شهبندر) في القدس لدولة العجم .

وفي عام (١٨٨٨) نراها تعترف بوجود قنصل روسي يحمي المصالح الروسية في القدس .

وكان القنصل عندما يصل إلى بيت المقدس يواجه المتصرف والنائب ، ويقدم إليهما أوراق اعتماده ، ورسالة التوصية التي يحملها من ولاة الأمور في الأستانة ، معنونة إلى المتصرف والنائب معاً . والرسالة تشتمل على أشياء كثيرة منها اسم القنصل الجديد واسم سلفه ، والمدة التي سيمكثها بالقدس ، وصلاحياته تجاه رعايا الدولة التي ينتمي إليها والدولة التي يعيش في كنفها ، والامتيازات التي يجوز له أن يتمتع بها ، مع الطلب بأن تتخذ جميع التدابير اللازمة لأجل حمايته ودرء الشر عنه .

كانت الكلمة العليا ، -خلال العهد التركي ، للعرب سكان البلاد الأصليين ، وبالأحرى للمسلمين منهم ، رغم وجود هذا العدد من القناصل . حتى أن الأجنبي الذي ينتمي إلى إحدى هذه الدول الأجنبية ويعتبر نفسه من رعاياها ، ما كان يستطيع أن يتملك في مدينة أي نوع من أنواع الملك إلا بإذن من المتسلم أو المتصرف . وكان يشترط أن يصادق على هذا الإذن (مجلس الإدارة) المؤلف من عدد من الموظفين وآخرين من مشايخ البلاد .

حاول اليهود مراراً أن يقنعوا مشايخ البلاد ورؤساءها ، كي يعدلوا عن خطتهم ، ويوافقوا على إدخال ولو عدد محدود منهم إلى فلسطين ، والسماح لهم بشراء الأراضي وتملكها . إلا أنهم لم يفلحوا .

ورأى اليهود بعدئذ أن يولوا وجوههم شطر الأستانة ومقاماتها العليا . وفي

مقدمتها الوزراء . وما كان في مقدور الوزراء أن يفعلوا شيئاً دون إرادة السلطان ورضاه . ولهذا راح هرتسل . . . واضع فكرة الدولة اليهودية . . يتردد على إستانبول محاولاً إقناع السلطان عبدالحميد ، وازداد تردده على العاصمة بين عامي (١٨٩٧ ، ١٩٠٢) . ولكن عبدالحميد أبى أن يصغي لتوسلاته . ورفض المشروع الذي عرضه عليه (١٩٠٢م) من حيث السماح لليهود بشراء الأراضي بفلسطين ، لقاء مؤازرتهم له في السياسة الدولية وإمدادهم إياه بالمال الوفير .

وإليك ما قاله الدكتور هرتسل نفسه عن الجواب الذي تلقاه من السلطان يومئذ في يومياته[١] . قال : «بعث السلطان إليّ وساماً عالي الدرجة . ومع الوسام جواب مفرغ في هذه العبارات : «بلغوا الدكتور هرتسل ألا يبذل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر . فإني لست مستعداً أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير . فالبلاد ليست ملكي . بل هي ملك شعبي . وشعبي روّى تربتها بدمائه . فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب!» .

ولكن الوضع تبدل بعد الانقلاب العثماني (١٩٠٨م) . وذلك الانقلاب الذي أطاح بعبد الحميد وعرشه . وجاء بجمعية (الاتحاد والترقي) إلى دست الحكم . وراح رجال هذه الجمعية يسيرون على سياسة قومية تركية . . ترمي إلى تتريك العناصر الأخرى غير التركية . . . واندس بينهم عدد من الأتراك المعروفين بـ(الدونمة)[٢] . وتغلغل هؤلاء في إدارة الحكم ، حتى أصبحت كلمتهم هي العليا . فقد رأينا أربعة منهم[٣] يحتلون في عام (١٩١٣م) أرفع المناصب . وعن طريقهم وغيرهم من رجال (الاتحاد والترقي) سنت الحكومة قانوناً يجيز للجمعيات أن تمتلك الأراضي في فلسطين . وسنت أيضاً قانوناً آخر أجازت بموجبه بيع المزارع السلطانية[٤] بالمزاد العلني . وعن طريق هذين القانونين تمكنت الجمعيات الصهيونية من شراء ما شرته

---

(١) طبعت يوميات هرتسل هذه باللغة الألمانية وفي تل أبيب سنة (١٩٣٤) .

(٢) يهود ارتدوا عن دينهم اليهودي ، واعتنقوا الدين الإسلامي .

(٣) جاويد بك وزير المالية وهو من سلانيك بساريا أفندي وزير النافعة وهو من رومانيا . نسيم مازلياح وزير التجارة والزراعة وكان هذا ممثلاً للجمعية الصهيونية . حسين جاهد (بالتشين) رئيس تحرير جريدة (طنين) التركية .

(٤) عرفت هذه المزارع بـ(الجفتلك) . وكانت مسجلة باسم السلطان عبدالحميد . وهي كثيرة .

من أراضي فلسطين قبل وقوع الحرب العالمية (١٩١٤م) .

ومع هذا كله عرف عهد السلطان عبدالحميد بعهد الظلم والاستبداد . إذ ما كان رجل ينطق بكلمة يشتم منها رائحة (الحرية) إلا ويصيبه ما يصيب الأحرار من نفي واضطهاد . و(المنفيان) المشهوران في ذلك الزمن هما : (سينوب) و(اليمن) . ولقد كثر عدد الجواسيس في البلاد ، وساءت الأحوال إلى درجة أن أصبح المرء لا يثق بأخيه ، والابن بأبيه .

ظل الأمر كذلك حتى سنة (١٩٠٨) للميلاد . وفي تلك السنة أعيد إعلان الحرية والدستور على يد رجال (جمعية الاتحاد والترقي) . أراد السلطان عبدالحميد ، في بادئ الأمر ، أن يخاتل كما فعل في المرة الأولى . فأعلن الدستور . ولكنه بعد بضعة شهور راح يعمل على إثارة الفتن بين الناس ، فأخذ قسم من هؤلاء ينادون بوجوب إلغاء الدستور ، والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية . وكادت تقوم الفتن في البلاد . لولا أن تدارك العقلاء الأمر . فأسقطوا السلطان عبدالحميد عن عرشه ، وأقاموا مقامه أخاه السلطان محمد رشاد الخامس (١٤ نيسان ١٣٢٥هـ-١٩٠٨م) .

على عهد السلطان محمد رشاد الخامس أعلنت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤-١٩١٧) وخاض الأتراك العثمانيون غمارها في جانب حلفائهم الألمان . وألغيت الامتيازات الأجنبية وكانت جيوش الأتراك تقاتل الإنكليز وحلفاءهم الروس والفرنسيين في خمس جبهات : في القفقاس ، والدردنيل ، والعراق ، ورومانيا ، وفلسطين . ولكنهم خسروها . واحتل الإنكليز القدس (١٩١٧) وفلسطين كما احتلوا عاصمة البلاد : القسطنطينية . وأملوا على الأتراك إرادتهم .

وفي تلك الأثناء كان السلطان محمد رشاد قد توفي . وتولى السلطنة من بعده السلطان محمد وحيد الدين . ولما انتصر الأتراك على اليونان في حربهم معهم (أيلول ١٩٢٢) ونادى (المجلس الوطني الكبير) الذي انعقد في أنقرة بوجوب فصل السلطنة على الخلافة ، هرب السلطان محمد وحيد الدين من الأستانة ، خوفاً من نقمة الكماليين الذين كانوا يعتقدون أنه ميال للإنكليز .

عندها بايع الأتراك الأمير عبدالمجيد بالخلافة (الجمعة ١٩٢٢/١١/٢٤) . أي أن عبدالمجيد الثاني ابن السلطان عبدالحميد الثاني اعتبر خليفة فقط ، ولم يعتبر سلطاناً .

ولكن الأتراك عادوا ، فألغوا الخلافة أيضاً . وأرسل المجلس الوطني الكبير في

أنقرة الذي أقر هذا الإلغاء إلى الآستانة وفداً مؤلفاً من والي الآستانة ومدير الأمن العام فيها . فوصل هذا الوفد إلى الآستانة حاملاً قرار المجلس . فبلغه إلى الخليفة ، وسافر هذا من فوره إلى سويسرا . ومكث هناك مدة لم ينقطع عن المطالبة بحقه في كرسي الملك الذي ورثه عن أجداده آل عثمان . إلى أن مات . وعلى قول إنه مات في إيطاليا ، ونقلت رفاته إلى الشام ، ودفن فيها . وهو يعتبر آخر سلاطين بني عثمان .

ثار الأتراك على معاهدة الصلح التي عقدها الخليفة مع الإنكليز وحلفائهم . وتمكنوا من تمزيقها . ثم أعلنوا الجمهورية . وانتخبوا رئيساً لها القائد الذي قاد جيش النصر في حربه مع اليونان ، ألا وهو (مصطفى كمال) . وأطلقوا عليه لقب (أتاتورك) أي أبو الترك . وجرى في تركيا ما جرى من الأمور التي لا تدخل في نطاق بحثنا هذا . وكل ما يهمنا تدوينه هنا من الناحية التاريخية ، أن القدس وفلسطين لم تعد تابعة لتركيا . وقد دخلت تحت الانتداب البريطاني كما سنبين ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

وقبل أن نختتم عهد الأتراك في بيت المقدس نرى من الفائدة أن نذكر أن أول سيارة رأتها القدس كانت في (١٩٠٨) . وكانت هذه ألمانية الصنع . وقد استغرب المقدسيون أمرها ، فراحوا يتحدثون عن (المركبة من غير خيل) . وكانت هذه واسطة النقل المعروفة في القدس . ومع ذلك فلم تستعمل القدس السيارات واسطة للنقل إلا في أوائل الاحتلال البريطاني (١٩١٩) .

وفي عام (١٩١٢) هبطت في القدس أول طائرة . وكانت هذه فرنسية . هبطت في البقعة الفوقا غربي جبل المكبر . ولم يكن في القدس يومئذ مطار ، ولا محطة للإذاعة ، ولا هم يحزنون! . .

القدس
ومعالم الحكم التركي فيها

- منشآت الأتراك في القدس
- كيف كانت القدس تدار في العهد التركي؟
- القضاة ونواب الشرع
- مجلس الشورى، مجلس العموم، المبعوثان
- السلاطين والولاة والمتسلمون
- النظام المالي والحياة الاقتصادية
- النقود والمسكوكات
- مصالح الحكومة ودواوينها المختلفة
- الأمن: الثورات والفتن الداخلية
- الثورة العربية الكبرى وزوال الحكم التركي

السور : بشكله الحالي بناه الأتراك ، وبالأحرى جددوا عمارته ، وبنوا الجزء العلوي منه ، وكان ذلك في زمن السلطان سليمان القانوني . ولا يزال اسمه منقوشاً عليه . نقول إنهم جددوا عمارته . ذلك لأن أساساته وقسماً كبيراً من جدرانه كانت قائمة ، والقسم الآخر كان متهدماً[1] . وبعد أن تمت عمارته على عهد السلطان سليمان قيس فجاء طوله في نحو أربعة كيلو مترات . ودامت العمارة على ما يظهر ، قرابة خمسة أعوام . إذ إنا نستدل من الكتابات المنقوشة على جدرانه ، أنهم بدأوا في تعميره سنة (٩٤٣هـ-١٥٣٦م) . هناك بلاطة فوق باب العمود ، نقش عليها التاريخ التالي : سنة (٩٤٤هـ-١٥٣٧م) . والبلاطة الكائنة فوق باب الأسباط (٩٤٥هـ-١٥٣٨م) . وكذلك قل عن البلاطة الكائنة فوق باب الخليل . وأما البلاطة الكائنة فوق باب النبي داود فقد نقش عليها (٩٤٧هـ-١٥٤٠م) .

ظلت مدينة القدس منحصرة ضمن الأسوار قرابة ثلاثة قرون . حتى أننا لم نعثر ، بين حوادث عام (١٨٥٩) للميلاد ، على ما يدل على أنه كانت هناك يومئذ أية دار خارج السور معدة للسكن .

كانت أبواب السور كلها تغلق عند الغروب . فإذا كان إنسان خارج السور ، ورجع إلى المدينة بعد الغروب ، لا يفتح له الباب . فيضطر لقضاء ليلته خارج السور . وبهذا يعرض نفسه إلى خطر الوقوع فريسة بين أنياب الوحوش . . وكان يربض وراء الأبواب حراس من الجنود النظاميين لأجل الحراسة . وكان هؤلاء الخفراء يتناوبون العمل في كل ساعة . فالذي تنتهي (ساعته) يسلم العمل إلى زميله الذي يأتي بعده . ولكي يتمكن هؤلاء من ضبط الوقت كان هناك قزازتان : إحداهما مملوءة بالرمل والأخرى فارغة . وهما مرتبطتان بأنبوب رفيع ينقل الرمل من الواحدة إلى الأخرى . على أن

---

(١) تذكر ما قلناه في غير هذا الموضع عن الأمر الذي أصدره الملك المعظم عيسى في سنة (٦١٦هـ-١٢١٩م) بتخريب السور خوفاً من استيلاء الفرنج . فخربت يومئذ أسوار المدينة وأبراجها . وعندما عقد الملك الكامل ابن الملك العادل (أخو صلاح الدين) الهدنة مع الإمبراطور فريدريك (٦٢٦هـ-١٢٢٨م) وكان من جملة شروطها تسليم القدس إلى الفرنج ، اشترط عليهم ألا يعمروا السور الذي خربه الملك المعظم . ولم يعمر بعد ذلك التاريخ إلا قليلاً .

تكون الأولى أعلى من الثانية . وعندما يفرغ الرمل من الواحدة ، يكون دور الخفير قد انتهى . فيوقظ زميله ، ويسلمه الخفارة . وهكذا دواليك .

وعندما تأسست (المسكوبية ١٨٥٨م) في موقعها الحالي المعروف يومئذ (برأس الميدان) وكثر الاتصال بين السكان ، فتحوا في كل باب كبير ثغَرة سموها : (الخوخة) . وكانوا يفتحونها للمضطرين . عندئذ (١٨٥٨م) أخذنا نسمع بوجود الدور والمنازل خارج السور عند المسكوبية . وفي سنة (١٨٦٨م) رأينا عدداً آخر من المنازل المعدة للسكن تبنى على الطريق المعروفة الآن بطريق ماملا ، وحوالي سنة (١٨٧٠م) نقرأ أن الأرض الواقعة بين باب الخليل والقطمون كانت مسرحاً للغزلان . ليس فيها أبنية ولا عمران . وفي سنة (١٨٨١م) كان عدد العمارات المنشأة خارج السور قليلة بدرجة تكاد تعد على الأصابع . وعندما انتشرت المنازل خارج السور ، أخذت السلطة تتساهل في مسألة إغلاق الأبواب بعد الغروب . غير أن هذه الأبواب ظلت تغلق كالمعتاد في منتصف النهار من يوم الجمعة ، لمدة ساعتين ، ليتمكن الجنود المرابطون في القلعة من الذهاب إلى المسجد الأقصى وتأدية فريضة الجمعة[(١)] . ولم نسمع بزوال هذه العادة القديمة التي بلغت أشدها خلال عام (١٨٥٥) للميلاد ، إلا في أواخر القرن التاسع عشر .

وكان سكان المدينة ، إذا ما خرجوا خارج السور ، يسيرون في حماية شيوخ القرى المجاورة كلفتا ، وأبو ديس ، والمالحة ، وما إلى ذلك . وكان هؤلاء المشايخ يقومون بمهمتهم التي تتلخص في حماية التجار وطرق التجارة لقاء جعل معلوم . وكان الأمر على عكس ذلك ، إذا ما دخل القرويون إلى المدينة . فقد كانوا يفدون إلى الأفندية والزعماء من شيوخ المدينة . وكان هؤلاء يقومون بدور الوساطة بين القرويين وطبقة الحكام من الموظفين . ولطالما أثرى هؤلاء على حساب الآخرين! .

السكة الحديدية : من المنشآت التي تمت على عهد الأتراك بالقدس السكة الحديدية التي تربطها بيافا . أنشأتها (شركة الخطوط الحديدية العثمانية ليافا -القدس) وهي شركة فرنسية أسست في باريز سنة (١٨٨٩) . بوشر بإنشاء هذا الخط في نيسان (١٨٨٩) . وانتهى العمل في أيلول (١٨٩٢) . طول السكة (٨٧) كيلو متراً . وهي سكة ضيقة بحثنا عنها بالتفصيل في غير هذا المكان .

---

(١) إذ لا يجوز للجند أن يحملوا السلاح في أثناء الصلاة . وكانوا يخشون مهاجمة الأعداء أثناء الصلاة .

ومحطة القدس واقعة في حي البقعة . وقد كان هذا الحي ، قبل إنشاء السكة ، مهجوراً . وكان الأمن مفقوداً ، حتى أن إدارة السكة اضطرت ، في بادئ الأمر ، أن تدفع (الخاوة) لمشايخ قرية المالحة . فحموا الخط ، وصانوا الأمن ، طوال المدة التي سارت فيها أعمال الإنشاء .

الطرق والشوارع : أما الشوارع في داخل المدينة ، فقد كانت ضيقة للغاية . وكانت قذرة . ومرصوفة رصفاً رديئاً . وأمام أكثر الدكاكين مساطب لجلوس المشترين . وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى سنة (١٨٦٣م) يوم منعت السلطة إنشاء مساطب جديدة ، وأمرت بهدم المساطب القديمة . ورصفت الشوارع التي تمر من الأسواق بالبلاط .

وفي سنة (١٨٨٥) رفع البلاط القديم من شوارع القدس القديمة وأزقتها ، ووضع بدلاً منه البلاط الذي نراه في يومنا هذا ، في معظم شوارع المدينة . ولقد رفع وسط الشوارع ارتفاعاً قليلاً ، وأنشئت على جوانبها أقنية تجري مياه الأمطار فيها .

هذا في داخل المدينة . وأما في خارجها ، فلم يكن ثمة طرق تربط القدس بالقرى والمدن المجاورة لها . ولا كانت هناك وسائل للنقل ، سوى الخيل والجمال والحمير والبغال . وكان الأتراك يعتقدون أن الطرق المعبدة ووسائل النقل المنظمة تستهوي الأجانب ، فيأتون إلى البلاد ويستولون على مرافقها بسهولة! . .

فلأول مرة في تاريخ القدس أنشئت الطريق التي تربط يافا بالقدس . وكان ذلك حوالي سنة (١٢٨٤هـ-١٨٦٧م) وعلى عهد السلطان عبدالعزيز . ويقال إنها أنشئت من لدن أول مدير انتدب لإدارة القدس باسم (متصرف) . وكان الموظف الأكبر المسؤول عن إدارتها يدعى متسلماً . والمعتقد أنه نظيف باشا . وكذلك قيل عن الطريق بين القدس ونابلس . فقد أنشئت عام (١٨٧٠م) .

المستشفى البلدي : بني على عهد السلطان عبدالحميد الثاني . وكان ذلك في (٢٤ نيسان ١٣٠٧) رومي (١٨٩١م) . بنوه في حي الشيخ بدر الكائن غربي المدينة . وهذا الحي معروف في يومنا هذا بـ(روميما) .

برج الساعة : بناء مربع الشكل مرتفع ، أقامه الأتراك على السور فوق باب الخليل . أقاموه سنة (١٩٠٩م) احتفاء بمرور ثلاث وثلاثين سنة على جلوس السلطان عبدالحميد الثاني . كان يعرف بـ(الساعة) . إذ كان في كل ضلع من أضلاعه الأربعة -عند القمة- ساعة كبيرة يراها السكان الساكنون في أي حي كان . والذي عمل

على إقامته هو متصرف القدس على أكرم بك[١] .

القلعة : واقعة قبلي باب الخليل وبالقرب منه . إنها قديمة العهد . لم يكن الأتراك أول من أنشأها . ولكنهم رمموها ، وأضافوا إليها منشآت كثيرة .

يقرأ الداخل إلى القلعة من مدخلها الأمامي في الناحية الشرقية الكلمات الآتية ، وهي منقوشة على بلاطة وضعت فوق القوس :

«أمر بترميم الحصنة[٢] الشريفة السلطان الأعظم والخاقان المعظم مالك رقاب الأمم مستخدم أرباب السيف والقلم خادم الحرمين والبقعة الأقدسية قدس الله أرواح آبائه المقدسة منح الأمن والإيمان والأماني السلطان ابن عثمان سليمان الثاني[٣] مد الله بقاءه ما دامت القبة على الصخرة في سنة حصل خير (٩٣٨هـ-١٥٣١م) .

وعلى البرج القائم على يمين الداخل إلى المدينة ، بين باب الخليل والسور[٤] بلاطة نقشت عليها هذه الكلمات :

«رسم بإنشاء هذا الربض من حمى ديرة الإسلام بشوكته وطوله ومحى جائزة الأصنام بقوته وحوله من خصه الله بأرقاب الملوك في الآفاق وتملك سرير الخلافة بالاستحقاق السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان سليمان» .

وفي داخل القلعة مئذنة بنيت على عهد السلطان محمد الرابع (١٠٦٥هـ-١٦٥٥م) . وعلى هذه المئذنة بلاطة نقشت عليها هذه الكلمات بالخط المعلق :

صاحب خير وحسنات وسخا
مظهر أنعام ورضاي خدا

---

(١) هدم الإنكليز ، عند احتلالهم القدس ، هذا البناء ، وبنوا بدلاً منه (برجاً للساعة) في الميدان الكائن أمام مبنى دار البلدية ، عند مفرق الطرق الموصلة إلى باب الخليل وطريق باب العامود وطريق المسكوبية . ثم عادوا ، فهدموا هذا البرج أيضاً . ولم يستبدلوه بغيره .

(٢) المقصود هو (الحصن) .

(٣) قد يكون المقصود ثاني سليمان من حيث الشهرة ، باعتبار أن الأول هو سليمان بن داود . لأن السلطان الذي تمت على عهده هذه العمارة هو سليمان الأول الملقب بالقانوني .

(٤) فتح الأتراك ، في هذه الناحية من السور ، ثغرة واسعة ليتمكن إمبراطور الألمان ويلهلم من دخول المدينة راكباً (١٨٩٨م) . وقد تم ذلك بأمر من السلطان عبدالحميد الثاني .

خــوب حــاصــلات وعــمل يسند
يعني سلحــدار مــحــمــد باشــا
حــضــرت داود مــقــامنده ..
ايلدي برمــأذنة خــوش بنا
تــاريــخــي مــنــارة زيــارت ..
بأيدي سلحــدار مــحــمــد باشــا

وفي زمن السلطان محمود الأول تجدد (١٧٣١م) بناء حائط الخندق . وكان هذا قد تهدم .

وتجددت عمارة المسجد الكائن في القلعة (١٧٣٨م) . وإنك لتقرأ على جدار البرج القائم على يسار الداخل إلى القلعة من بابها الشرقي الكلمات الآتية ، وقد نقشت بالنسخ العثماني :

«جدد بناء حائط هذا الخندق بعد انهدامه في خلافة سلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين السلطان محمود ابن المرحوم السلطان مصطفى خان من آل عثمان أيد الله ملكه ، بعرض وأعلام من حضرة الدستور المكرم عبدالله باشا محافظ الشام وأمير الحاج الشريف ، حين زار القدس ، وجاء الفرمان خطاباً لمتسلمه الحاج مصطفى آغا بروانه زاده ؛ فباشرها بنفسه ، وأتم عمارتها . جزاه الله خيراً في شهور سنة أربعة وأربعين ومائة وألف (١٧٣١م) .

ولقد استعمل المسجد الكائن في داخل القلعة مستودعاً للذخائر والمهمات الحربية خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٧م) .

المياه : السلطان سليمان القانوني هو الذي عمّر (بركة السلطان) الكائنة على طريق المحطة إلى الجنوب من باب الخليل . وهو الذي أنشأ السبل التي ذكرناها في فصل الحرم وفي الفصل الذي خصصناه لبحث مياه القدس في التاريخ ، ومنها :

السبيل الواقع قبلي بركة السلطان ، والسبل الكائنة بباب السلسلة أمام المدرسة التنكزية ، وفي طريق الواد ، وفي ساحة الحرم إلى الشمال من باب شرف الأنبياء ، وفي طريق باب الناظر ، وبالقرب من باب الأسباط (٩٤٣هـ-١٥٣٦م) . ولقد كتب على كل منها هذه الكلمات : «أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك مولانا السلطان الملك الأعظم والخاقان المكرم مالك رقاب الأمم سلطان الروم والعرب والعجم السلطان سليمان بن السلطان سليم خان خلد الله ملكه وسلطانه بتاريخ عاشر شهر محرم

الحرام في سنة ثلاثة وأربعين وتسعماية» .

وما دمنا في بحث المياه على عهد الأتراك ، فلنذكر أن من أعمالهم في القدس (سبيل شعلان[1]) . ذلك السبيل الذي جدد في زمن السلطان مراد الرابع (١٦٢٢م) بعد أن ظل خراباً قرابة قرنين . وكذلك (القلعة) التي بناها هذا السلطان (١٦٧٠م) عند برك سليمان لأجل حماية البرك المذكورة وتأمين وصول الماء إلى القدس .

وحوالي عام (١٩٠١م) وصلت مياه أرطاس إلى القدس والحرم . واحتفل بوصولها عند بركة السلطان ، في حفل كبير حضره كبار رجال الحكومة وجمع غفير من وجوه المدينة ورجالاتها .

ومن منشآتهم (السبيل) الذي أنشأه السلطان عبدالحميد الثاني في أواخر حكمه (١٩٠٧) والذي كان بباب الخليل ملاصقاً للسور ، وعلى بعد بضعة أمتار من برج الساعة . ولقد أقيم هذا السبيل في زمن المتصرف أكرم بك . وهدمه الإنكليز عند احتلالهم المدينة ، بقرار من الجمعية التي تأسست باسم (جمعية محبي القدس) . ومن المبادئ التي اختطتها هذه الجمعية إزالة جميع الأبنية الملاصقة للسور .

ولقد جدد السلطان عبد الحميد عمارة السبيل الكبير الكائن في الحرم ، بين باب القطانين ودرج الصخرة من الغرب . ذلك السبيل المعروف حتى الآن باسم : (قايتباي) .

الحرم : عمرت قبة الصخرة مرة واحدة على عهد السلطان سليمان الأول (١٥٤٢م) . ولقد أعيد يومئذ تبليطها . وعمرت جدران الحرم ، وأبوابه . إنه هو الذي سد الباب المعروف بالباب الذهبي شرقي الحرم ، وفتح الباب المعروف بباب ستنا مريم . وهو الباب الشمالي لقبة الصخرة . وجدد القاشاني الذي نراه في قبة السلسلة من الداخل (٩٦٩هـ - ١٥٦١م) .

وفي سنة (١٠٢٠هـ - ١٦١١م) بني جامع الحنابلة تحت المدرسة السلطانية غربي الحرم . وفي عهده أنشئ المصلى الكائن بجانب سبيل شعلان . فقد نقش على محرابه بالنسخ العثماني هذه الكلمات : «باسمه تعالى لله محراب فضل عن كل نقص محاسن ارخت شاد بناء بامر يوسف باشا» . والمظنون أن ذلك جرى سنة (١٠٦١هـ - ١٦٥١م) ، وعلى عهد السلطان محمد الرابع .

---

(١) بناه الملك المعظم عيسى (٦١٣هـ-١٢١٦م) . وجدده الملك الأشرف برسباي (٨٣٢هـ-١٤٢٨م) .

ولقد أنفق على تعمير الحرم وزخرفته في زمن السلطان عبد الحميد (١٨٣٩-١٨٦٠م) عشرون ألف ليرة عثمانية . وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٨م) ثلاثون ألفاً ، خلا الطنافس المختلفة الألوان التي اتخذت فرشاً ، وبلغت قيمتها عشرة آلاف ليرة تركية[١] .

مسجد الطور : أنشئ في زمن الأتراك على جبل الزيتون سنة ١٥١٧ للميلاد . والمعتقد أنه أنشئ في نفس المكان الذي كانت تقوم عليه (كنيسة الصعود) . تلك الكنيسة التي بنتها الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين . وهناك من يدعي أن الكنيسة كانت قائمة ، وأن السلطان سليمان هدمها وأقام في مكانها جامعاً لا يزال إلى يومنا هذا ، وأن ذلك حدث سنة ١٥١٧[٢] للميلاد .

تكية خاصكي سلطان : واقعة في عقبة التكية شرقي دار الأيتام الإسلامية . أنشأها خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان (١٥٥٢) . تعتبر من خيرة الأماكن الخيرية التي أنشأها الأتراك العثمانيون بالقدس . إذ منذ تأسيسها إلى الآن يقدم المشرفون عليها الغذاء لعدد كبير من الفقراء مجاناً وفي كل يوم . نفقاتها تدفع من ريع الأملاك التي وقفتها السيدة المشار إليها . ويقال إنها من أصل روسي ، وأن اسمها الأصلي (روكسيلانة) . ولها منشآت خيرية كثيرة (مساجد وتكايا وحمامات) في إستانبول ومكة وأدرنة وغيرها من الجهات .

المدرسة الرصاصية : بنيت في زمن السلطان سليمان الأول . والذي بناها هو (بايرام جاويش بن مصطفى) . وكان ذلك بتاريخ (٢٠ ربيع الأول ٩٤٧هـ-٢٥ تموز ١٥٤٠م) . بناها بعد أن أتم عمارة السور . إذ كان السلطان سليمان قد أقامه ناظراً على أعمال البناء . فقام بأعمال عمرانية جمة . مات في القدس ودفن فيها . وهي كائنة عند ملتقى طريق الواد بطريق باب الناظر وعقبة التكية .

---

(١) قيل أن رعاياه اعتبروا عمله هذا إسرافاً ، إذ أنه استعمل الذهب الخالص الذي كان في خزانة الدولة من عيار (٢٢) قيراطاً . وكان هذا من جملة الأسباب التي أدت إلى خلعه .

(٢) إذا صحت هذه الرواية التي اقتبسناها عن مجلة بيت لحم ، الجزء ٩ التاريخ أيار سنة (١٩٢١) وصح التاريخ الذي ذكرته ، فلا مناص من القول إن ذلك جرى على عهد السلطان سليم الأول والد السلطان سليمان القانوني ، لأن السلطان سليمان لم يتبوأ كرسي السلطنة قبل سنة (١٥٢٠م) .

كانت في بادئ الأمر رباطاً . وكانوا يسمونه (رباط بايرام) . ثم صارت مدرسة . وقد اتخذها الأتراك ، طوال وجودهم في القدس ، مدرسة لتعليم أبناء القدس . ولقد تعلم فيها مؤلف هذا الكتاب علومه الأولية .

هناك فوق مدخلها بلاطة نقشت عليها الكلمات الآتية بالنسخ العثماني وبأحرف كبيرة :

«هذا المكان المبارك رباط وقفه لسكن الفقير الأمير بايرام جاويش بن مصطفى دام عزه بتاريخ عشرين ربيع الأول سنة سبع وأربعين وتسع ماية» . وفيها ضريحه .

وفي مكان آخر من نفس العمارة بلاطة نقشت عليها هذه الكلمات :

«جدد عمارة هذا المكام المبارك بايرام جاويش وجعله مكتباً لقراءة الأولاد لله تعالى في سنة (٩٤٧هـ)» . ويظهر أن بايرام جاويش ترك أوقافاً . إذ أنا نقرأ في سجلات[1] المحكمة الشرعية أن القاضي عين ناظراً على تلك الأوقاف .

المدرسة الرشيدية : واقعة تجاه السور بباب الساهرة . قيل إنها سميت كذلك نسبة إلى أحمد رشيد بك متصرف القدس في زمن السلطان عبدالحميد الثاني (١٩٠٦م) . وهذا هو الأقرب إلى الصواب . وقيل إنها بنيت في زمن السلطان محمد رشاد (١٩٠٨م) . وبدلاً من تسميتها بالرشادية ، سميت الرشيدية . وهو قول ضعيف . وهناك فوق مدخلها القبلي بلاطة من الرخام نقشت عليها كلمات تدل على بانيها وتاريخ بنائها . إلا أنني لم أستطع قراءتها .

المسجد العمري : من المساجد التي بناها وإن شئت فقل رممها الأتراك في بيت المقدس[2] . إنه واقع قبلي كنيسة القيامة وعلى بعد بضعة أمتار من ساحتها الكبرى . والأبيات الأربعة التالية المنقوشة على بلاطة موضوعة فوق الباب الخارجي تدل على أن ذلك جرى خلال سلطنة عبدالمجيد بين سنتي (١٢٥٥-١٢٧٧) للهجرة (١٨٣٩-١٨٦٠م) :

---

(١) السجل (٤٤ الصفحة ٥٣٨ السنة ٩٧١هـ-١٥٦٣م) .

(٢) انظر إلى ما كتبناه عن هذا المسجد في الفصل الذي خصصناه للبحث عن (القدس في يومنا هذا) . وفيه بعض التفصيل عن مساجد القدس وجوامعها بوجه عام وعن المسجد العمري هذا بوجه خاص .

أحـيـا زمـان الفـتح مـسـجـد قـدسنا
هذا أمـيـر المؤمنين بهـا عـمـر
وأعـاده بعـد انـدراس بنـائه
حـيـاً بتـأسـيس وشـيـد مـا اندثر
سلطاننا عـبـد المجـيـد أمـده
بالنصـر والتـأييـد مع نيل الظفـر
وأدام طالع نجـمـه مـتـعـاليـاً
في كل تاريخ له سـعـد يشـهـر .

كيف كانت القدس تدار من قبل الأتراك؟

عندما احتل السلطان سليم هذه البلاد (٩٢٣هـ-١٥١٧م) ودخل القدس في كانون الأول من تلك السنة ، كانت القدس تخابر مصر رأساً . ولما رجع السلطان إلى عاصمة ملكه (إستانبول) قسّم بلاد الشام إلى ثماني ولايات هي : حلب ودمشق وحمص وحماة وطرابلس وصفد والقدس وغزة . وأقام على الشام كله (جان بردى الغزالي[١]) . فأخذ هذا يديره من أدناه إلى أقصاه .

ولما حدثت هذا الوالي نفسه بأن يرفع لواء العصيان في وجه مولاه ، وعصاه بالفعل ؛ أقاله السلطان سليمان من منصبه ، وولى على الشام بدلاً منه كبير الانكشارية يومئذ (إياس باشا) (٩٢٦هـ-١٥٢٠م) . وقسمت بلاد الشام يومئذ إلى ثلاث ولايات هي : حلب ودمشق والساحل . وجعلت القدس تابعة لدمشق .

وقبل وفاة السلطان سليمان نرى أن الأوامر كانت تصدر إلى ولاة الأمور بالقدس[٢] من مصطفى باشا والي الشام . ولقبه كان يومئذ (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) بكلر بك .

ولكن يظهر أن الأتراك عادوا بعدئذ فألحقوها بمصر . إذ أنا نقرأ على جدار (سبيل شعلان[٣]) أن الذي أمر بعمارته هو الوزير المكرم والمشير المعظم حضرة بيرام باشا المحافظ بمصر المحروسة . فعمر بمباشرة ملك الأمراء الكرام حضرة محمد باشا المحافظ بالقدس الشريف من ذي الحجة سنة (١٠٣٧هـ-١٦٢٨م) . وكان ذلك على عهد السلطان مراد الرابع .

لسنا نعلم حتى متى دام ارتباط القدس بمصر . ولكنا نقرأ أنه في زمن السلطان أحمد الثالث الذي تولى السلطنة سنة (١٧٠٣م) كانت القدس تابعة لولاية صيدا وعكا . وهناك وثائق خطية تدل على أن الوالي كان يومئذ رجب باشا وهو تركي الأصل . وكان هذا يمضي أوامره الرسمية بالشكل التالي :

«رضيت بما قسم لي ربي . فوضت أمري إلى خالقي . عبده رجب» .

---

(١) (عثمانلي تاريخي) لأحمد راسم (ص٢٠٣) .

(٢) السجل ذو الرقم (٤٩ ، ص٥٠) من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس .

(٣) انظر إلى ما كتبناه عن هذا السبيل في غير هذا المكان .

ويقال أن أول تحرير للأوقاف وأو تطويب للأراضي في هذه البلاد ، قام على عهد هذا الباشا (١١٣٤هـ-١٧٢١م) .

وفي زمن السلطان محمود الأول (١٧٣٠م) كانت القدس تابعة للشام . وكان محافظ الشام يومئذ (١٧٣١م) عبدالله باشا . وكان هذا في الوقت نفسه أميراً للحج . وكذلك قل عن خلفه الحاج سليمان باشا (١٧٣٦م) . وكان الوالي يثبت بأمر من الآستانة في كل سنة . وهو بدوره يثبت المتسلم في منصبه .

وفي عام (١٨٠٨) للميلاد كانت القدس أيضاً تابعة للشام . وكان على رأس الإدارة في الشام أمير يدعى كنج حاجي يوسف باشا . وكان هذا يأتي إلى القدس في كل سنة ، ويخيم خارج المدينة . ويمكث فيها إلى أن يجمع الواردات والمرتبات الأميرية كالمعتاد (١٢٢٣هـ-١٨٠٨م) .

وفي عام (١٨٢١) نرى البلاد مقسمة إلى ولايات ، على رأس كل ولاية وال . والولاية مقسمة إلى ألوية[١] وسناجق[٢] . وعلى رأس كل لواء أو سنجق متصرف . والقدس كانت لواء مستقلاً على رأسه متصرف من الدرجة الأولى . وكل لواء ينقسم إلى عدة أقضية[٣] . وعلى رأس كل قضاء قائمقام . والقضاء ينقسم إلى نواحي[٤] عديدة . وعلى رأس كل ناحية مدير . والناحية مؤلفة من عدة قرى .

ولما رأى الباب العالي[٥] تقدم الجيش الروسي عام (١٨٣١م[٦] وخشي أن يزحف هذا نحو سورية ، قرر توحيد منطقتي القدس والشام . ووضع عليهما عبدالله باشا والي عكا . فصار ولاة الأمور بالقدس يخابرون عكا ، وهذه تعمل بوحي الشام . ثم تولى أمر الشام أمير الأمراء محمد شريف باشا . وكان هذا يأتمر بأوامر محمد علي ويلقب (كتخداي خديوي) . وكانت الأوامر يومئذ توجه إلى «(منلا أفندي محروسة القدس الشريف) وإلى (مفتي أفندي) وإلى (فرع الشجرة الزكية والعقائد الهاشمية

---

(١) جمع لواء .

(٢) جمع سنجق .

(٣) جمع قضاء .

(٤) جمع ناحية .

(٥) الصدر الأعظم أو رئيس الوزراء .

(٦) احتل الروس عامئذ أدرنة وقارص وارضروم .

نقيب السادات الأشراف) ثم إلى (المتسلم) و(التجار) وباقي أهالي القدس وسنجقها . . .» .

كان الحكم يومئذ[1] بيد أمراء الإقطاع . وكان على كرسي السلطنة السلطان محمود الثاني . وكان الأتراك يكتفون بتجنيد الجنود وجباية الضرائب من السكان بواسطة باشا يطوف عليهم . ويسمونه (باشا الدورة) . فيجبي هذا من الأمراء المتقدم ذكرهم ما تعهدوا بدفعه للدولة .

بعد أن استرجعت الدولة العليا سورية من الحكومة المصرية[2] (١٨٤٠) كانت تارة تجعل القدس تابعة لإيالة صيدا ، وطوراً تجعلها مرتبطة رأساً بالباب العالي . وكانت القضايا تستأنف إلى بيروت التي صارت مركزاً لإيالة صيدا .

أجل . كانت القدس تابعة لصيدا ، وهذا مفهوم من الوثائق التي عثر عليها الأستاذ أسد رستم بين سجلات المحكمة الشرعية . منها وثيقة تاريخها (١١ رمضان سنة ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م) ، أرسلت إلى نائب القدس منلا أفندي ، وإلى وكيل المفتي ، وإلى قائمقام نقيب الأشراف ، وإلى الوجوه والعلماء والأئمة والخطباء والمشايخ والأغوات . وقد جاء فيها أن الدول وافقت على زوال الأحكام المصرية عن هذه البلاد ، وأن أحمد آغا الدزدار قد عين متسلماً للقدس بالوكالة . والوثيقة ممضية من والي صيد وفريق العساكر المظفرة (محمد سليم باشا) . وهناك وثيقة أخرى وقع عليها قاضي القدس (محمد حمدي) بصفته قائمقام والي صيدا .

وبعد سنة (١٨٦٠م[3]) أقام الباب العالي والياً في دمشق . وصارت القدس متصرفية تابعة لولاية سورية التي مركزها الشام . وفي قول آخر إنها ألحقت بولاية سورية عندما وضع نظام الولايات الجديد سنة (١٨٦٤م) .

وفي سنة (١٨٧١) جعلت القدس متصرفية مستقلة تخابر الباب العالي رأساً . وكان يتبع سنجق القدس في أواخر العهد التركي أربعة أقضية هي : يافا وغزة وبير السبع وخليل الرحمن . وفيما يلي أسماء القرى والعشائر التابعة لها :

---

(١) البرغوثي وطوطح .

(٢))تاريخ القدس الشريف) لسركيس (ص١٩٢) .

(٣) مجلة المقتطف . المجلد (٥٢) صفحة (٣٢) عدد يناير سنة (١٩١٨) .

	قضاء .	نواحي	قرى ومزارع	قبائل
سنجق القدس .	٠	٥[١]	١٢١	٩
قضاء يافا .	١	٢[٢]	٩٢	٠
قضاء غزة .	١	٣[٣]	٦٧	٠[٦]
قضاء بئر السبع	١	٢[٤]	١	٥
قضاء خليل الرحمن .	١	٢[٥]	٦٢	٠
	٤	١٤	٣٤٣	١٤

كانت دار الحكومة ، في أوائل العهد التركي ، في السرايا القديمة[٧] . وفي أواخره جعلت الدار الكبيرة[٨] التي بنتها (طشنق) خاصكي سلطان داراً للحكم ، وظلت هناك حتى شبت نيران الحرب العامة (١٩١٤) . وفي أثناء تلك الحرب احتل الأتراك بناية الدومينكان الواقعة على طريق نابلس وعلى بعد نصف ميل من باب العمود إلى الشمال . وجعلوها داراً للحكم . واتخذوا الدار التي بناها الألمان فوق جبل الطور والمعروفة بـ(المطلع) مقراً للقائد العام جمال باشا . وظلوا فيها حتى الاحتلال الإنكليزي .

(١) هي بيت لحم ورام الله وأريحا وعبوين وصفا .

(٢) هما الرملة ونعلين .

(٣) هي المجدل والفالوجة وخان يونس .

(٤) هما الحفير والمليحة .

(٥) هما بيت أعطاب وبيت جبرين .

(٦) هي التياها والترابين والعزازمة والحناجرة والجبارات .

(٧) هي التي كان يقيم فيها الولاة الرومانيون وحاكم فيها (بيلاطس البنطي) السيد المسيح . وقد اتخذت على عهد المماليك مدرسة هي (المدرسة الجاولية) . وفي زمن الأتراك اتخذ جانب منها قشلاقاً والجانب الآخر (سرايا) للحكم . وقد اتخذها المجلس الإسلامي مدرسة وأعطاها لكلية (روضة المعارف) الوطنية . وذلك في أوائل الاحتلال الانكليزي . وفي عام (١٩٤٥م) صارت مخفراً ترابط فيه سرية من رجال البوليس الفلسطيني . ثم صارت مدرسة .

(٨) اتخذ المجلس الإسلامي الأعلى هذه الدار بعد الاحتلال الإنكليزي داراً للأيتام المسلمين .

وأما الحكام الأتراك (المتصرفون) فقد كانوا في بادئ الأمر يقطنون في جانب من الدار الكبيرة التي بنتها طشنق (خاصكي سلطان) . ثم تركوا هذه الدار ، وراحوا يسكنون في دور مبنية على الطراز الحديث خارج السور . فسكن المتصرف رشيد باشا في دار لدير الروم واقعة على طريق يافا (دار نابون) . وكذلك قل عن المتصرفين الذين جاءوا من بعده كإبراهيم باشا ، وتوفيق بك ، وجواد بك . وأما كاظم بك فقد سكن في دار الجيش[1] ، ورشيد بك في عمارة الأرمن أمام المنشية . وكذلك فعل خلفه أكرم بك . وقد سكن صبحي بك في دار واقعة أمام مستشفى روتشيلد . والذي أتوا من بعده مثل عزمي بك وجودت بك وماجد بك سكنوا في دار عويضة على طريق ماملا . إلا مدحت بك فقد سكن في دار القنصلية الإيطالية . وعزة بك الذي جرى الاحتلال الإنكليزي في زمنه فإنه سكن في دار مطران الإنكليز .

وقصارى القول كان المتصرفون على عهد الأتراك يعيشون في القدس عيشة الترف والبذخ[2] إذ كان دير الروم قد خصص! بنايته الكائنة في (القطمون) مصيفاً لهم ، ودير الأرمن خصص بنايته الكائنة أمام المسكوبية داراً لسكناهم في الشتاء . كما كان رئيس بلدية القدس يقوم بوظيفة (مأمور الأنبار) . فيشتري لهم ما يحتاجون إليه من طعام وشراب . كانت بطريركية الروم تدفع إلى المتسلم (١٧) غرشاً ونصف الغرش ، وإلى المتصرف (٧٥) غرشاً ، وإلى أتباع المتسلم ثلاثة غروش ، وإلى مساعد المتصرف ثوباً من الحرير الأطلس . ولكن هذه العادة أبطلت بأمر صدر من السلطان وأرسل إلى الموظفين بتاريخ (٢٢ رجب سنة ١١١٧هـ-١٧٠٥م)[3] .

قضاة القدس في العهد التركي:

كان قاضي القدس على عهد الأتراك العثمانيين ، الكل في الكل من حيث السيطرة والحكم . وكانوا يسمونه (النائب) أو (الحاكم الشرعي) . إنه المسؤول عن تمشية الأمور ، وعن حل المشاكل التي تتكون بين الناس على اختلاف مذاهبهم

---

(١) شرقي المسكوبية إلى الشمال اتخذها الإنكليز محطة للإذاعة الفلسطينية .

(٢) كان الراتب الشهري الذي يتقاضاه المتصرف في بادئ الأمر خمسين ليرة تركية . ثم ارتفع في أواخر العهد التركي إلى مئتين من الإدارة ومئة من صندوق الأراضي السنية بصفته مديراً لتلك المصلحة .

(٣) السجل (٢٠٣، ص٣٩) .

وطوائفهم. سواء أكانت هذه شرعية، أم حقوقية، أم جزائية. فلا بدع إذاً إذا رأيناه يلقب بـ(مولانا، وسيدنا، أعلم العلماء المتبحرين، أفضل الفضلاء المتأخرين، معدن العلم واليقين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، حجة الحق على الخلق أجمعين، صدر الموالي المكرمين، الحاكم العادل، الفاضل، الكامل، الفاصل بين الحق والباطل الحاكم الشرعي فلان..).

نقول ذلك مستندين إلى القرارات[1] التي لا حد لها ولا حصر. والتي أصدرها القضاة خلال ذلك العهد. وإنا لمجتزؤن فيما يلي صلاحياتهم، فنقول:

١. قضايا الأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والنفقات والمهور) سواء في ذلك قضايا المسلمين والمسيحيين واليهود. وكذلك قل عن القضايا المبحوث عنها في البنود التالية.

٢. قضايا الإرث والوصايا وتسجيلها وحجز القاصرين والقاصرات.

٣. إدارة أموال الأيتام، وتعيين الأوصياء، وإقالتهم، ومحاسبتهم.

٤. إدارة أموال الوقف، وتسجيل أملاكه، والنظر في قضاياه. حتى القضايا، من هذا النوع، التي تتكون بين مختلف الأحزاب اليهودية[2].

(١) أن هذه القرارات مدفونة في سجلات كانت محفوظة في المحكمة الشرعية بالقدس. وكانت هذه المحكمة طيلة الحكم التركي لهذه البلاد في الدار المعروف بالمدرسة التنكزية التي أنشأها الأمير تنكز الناصري (٧٢٩هـ-١٣٢٨م) عند باب السلسلة. وذكر العالم الفرنسي كلرمان غانو في كتاب (البحث عن الآثار في فلسطين) المجلد الأول الصفحة (٢٣٦) أن الشيخ أبا مسعود (؟) حدثه. فقال إن فيها السجلات المتصلة بحوادث القرون الثلاثة الأخرة. وأما السجلات التي يرجع تاريخها إلى ما قبل ذلك، فقد نقلت إلى القلعة، وهي لا تزال هناك في يومنا هذا (١٨٧٣). وأما أنا (عارف العارف) فلست أدري ماذا فعل الزمان بسجلات القلعة. ولا متى نقلت؟ وإنما رأيت في دار المحكمة الجديدة (الزاوية النقشندية سابقاً ودار الشيخ يعقوب البخاري حالياً) على مقربة من باب الغوانمة سجلات يرجع عهدها إلى أوائل الفتح التركي في القرن السادس عشر. ويظهر أن السجلات التي قال أبو السعود إنها نقلت إلى القلعة تمت بالأصل إلى عهد المماليك.

(٢) قرأت في السجل (٢١٣) بتاريخ (١١٣٠هـ) أن القاضي نظر في شكوى قدمها برناس الطائفة اليهودية أبرور ولد إبرام على وكيل الوقف ميوجاس والد شمويل.

٥ . إدارة المساجد والتكايا . بما في ذلك تعيين الخطباء والمدرسين والوعاظ[١] والبوابين[٢] .
٦ . إنشاء المدارس وتعميرها وإدارتها . بما في ذلك تعيين المعلمين وإقالتهم وتنقلاتهم .
٧ . مراقبة المقابر والمدافن .
٨ . دعاوى القسمة والإفراز .
٩ . تسجيل بيوع الأراضي والأموال غير المنقولة . وحل المنازعات التي تنشأ حولها .
١٠ . تسجيل بيوع الأموال المنقولة على اختلاف أنواعها . وحل المنازعات التي تنشأ حولها .
١١ . قضايا الرهن ، وفك الرهن . سواء في ذلك رهن الأموال المنقولة وغير المنقولة .
١٢ . قضايا وضع اليد ونزعها . سواء في ذلك الأموال المنقولة وغير المنقولة .
١٣ . دعاوى الطرق ، وحق المرور .
١٤ . الاعتداء على الزرع .
١٥ . سرقة المواشي وبقر الحيوانات .
١٦ . قضايا الخيل ومثانيها .
١٧ . تسجيل الوكالات .
١٨ . تسجيل الشركات على اختلاف أنواعها .
١٩ . تسجيل الكفالات .
٢٠ . تسجيل القروض والأمانات[٣] ، وتسجيل الشراء بطريق (السلم) .

---

(١) كان هذا التعيين في أواخر العهد التركي تابعاً لقانون سنته الحكومة باسم (قانون انتخاب المأمورين) . وملخصه أن ينتخب للوظيفة الشاغرة أحد الطالبين بالامتحان . وتتولى الامتحان لجنة مؤلفة من النائب الشرعي (رئيساً) ومن المفتي وبعض علماء المدينة (أعضاء) . وإذا تساوى اثنان من حيث الكفاءة يقترع بينهما .

(٢) في السجلات المحفوظة في المحكمة الشرعية بالقدس ما يدل على أن بواب الصخرة المشرفة ما كان ليستطيع أن ينيب عنه من يقوم بمهمته (وهي حراسة المسجد ليلاً) إلا إذا أذن القاضي بذلك .

(٣) لا فرق في ذلك بين قرض يشتمل على آلاف من القطع الذهب أو بضعة قروش ، وبين أمانة بسيطة مؤلفة من (مخدة بيضاء ووجهها وفوطتين) السجل رقم (١) لسنة (٩٣٦هـ) .

٢١ . قضايا الديون : تثبيتها وتأجيلها وتقسيطها وإلغاؤها .

٢٢ . تعيين المحلات التي يجوز فيها البيع والشراء . وكذلك تعيين الأشخاص الذين يجوز لهم تعاطي التجارة .

٢٣ . تعيين أسعار المؤن والحاجيات[١] . وتغريم الاستغلاليين الذين يبيعون سلعهم بأسعار فوق الأسعار المقررة[٢] .

٢٤ . مراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس .

٢٥ . محاكمة الأشخاص الذين يغشون الزيت والسمن وما إلى ذلك من المواد القابلة للتلف .

٢٦ . تعيين أجور النقل بين القدس والمدن المجاورة[٣] .

ملحوظة : (إن البنود الخمسة المتقدم ذكرها يعينها القاضي بعد استشارة المحتسب الذي كان يقوم بإدارة الشؤون البلدية .

٢٧ . إحصاء النفوس[٤] وتسجيلها ، ومراقبة المواليد والوفيات ، وتحديد السن ، وبلوغ الرشد .

٢٨ . قضايا الرق ، وعتق الرقبة ، وتبادلها ، وما ينشأ عن ذلك من قضايا .

٢٩ . قضايا العرض ، ورجم المحصنين والمحصنات وجلدهم (أو جلدهن) في حالة

---

(١) عثرت في السجل رقم (١٢) من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على أمر أصدره نائب الشرع سنة (٩٤٧هـ-١٥٤٠م) عين بموجبه الأسعار التي يجب أن تباع بها الحنطة والطحين والخبز وباقي أنواع المؤن . ليس هذا فحسب ، بل إنه عين المكان الذي يجوز عرض هذه الأشياء فيه بقصد البيع ، والأشخاص الذين يحق لهم أن يبيعوها .

(٢) أدان قاضي القدس الشيخ علاء الدين رائف النجار سنة (٩٤٧هـ-١٥٤٠م) ابن نائب القلعة لأنه باع رطل الكماج بنصف درهم زيادة على السعر المقرر ، وحكم بتأديبه . والسعر الذي كان مقرراً للكماج يومئذ ستة دراهم ونصف لكل رطل (السجل ذات الرقم ،١٢ ص٤) .

(٣) عين القاضي أجرة الجمل المستعمل لتحميل الزاد والأسباب من القدس إلى الخليل فغزة فمصر المحروسة خمسة عشر غرشاً وكان ذلك سنة (١٠٢٨للهجرة -١٦١٨م) السجل (١٠٢، ص١٣) .

(٤) أحصى القاضي الشرعي عدد اليهود الذين يعيشون في القدس بتاريخ (١٩ جمادى الأولى ٩٨٠هـ-١٥٧٢م) وحرر أسماءهم . فوجد أنهم (١١٥) شخصاً . يعيش (٥٥) منهم حول الحرم والآخرون في الأحياء الأخرى (السجل ،٥٥ الصفحة ٢٠٧) .

اقتراف الإثم . (يدخل في ذلك قبول توبة التائبين والتائبات[١]) .
٣٠ . مراقبة المشروبات الكحولية ، ومعاقبة السكارى[٢] .
٣١ . الإذن بالبناء ، وتوقيف البناء ، وحل المشاكل المكونة بين الشركاء والجيران من جراء ذلك .
٣٢ . قضايا انتهاك حرمة المحاكم[٣] .
٣٣ . الدعاوي الجزائية على اختلاف درجاتها : من الضرب ، والاعتداء البسيط ، إلى السب والشتم ، إلى القتل[٤] ، والسرقات بجميع أنواعها[٥] .
٣٤ . حتى صبغ البيض وبيعه في الأسواق . فقد كان قاضي القدس يتدخل في هذا الأمر التافه . اعتبره بدعة سيئة ، فمنعه . والمنع موجه للمسلمين . لأن تلك العادة (أي صبغ البيض وبيعه في الأسواق) مأخوذة عن النصارى . ولا يجوز

---

(١) أتت امرأة إلى القاضي الحاج صفي الدين واعترفت أمامه بخطئها وأشهدت على نفسها أنها تابت إلى الله تعالى عما ارتكبته . ووعدت بحفظ فرجها من الرجال الأجانب ، والمواظبة على الصلوات الخمس في أوقاتها . فإذا رجعت إلى سيرتها الأولى فيكون دمها هدراً وتعامل أشد معاملة . توبة صحيحة شرعية سطرت في الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وتسعمائة (١٥٤٠م) السجل (١٢) الصفحة (١٥) .

(٢) اشتكى (صوباشي المدينة) للقاضي أنه رأى موسى بن حسن السقا بالمسجد الأقصى وهو سكران . فأدانه القاضي بعد أن ثبت ذلك بشهادة الشاكي والمؤذن (السجل ٤٣ السنة ٩٧٥هـ-١٥٦٧م) .

(٣) قام سنة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) تحقيق شديد اشترك فيه أمير لواء القدس إلياس بك ضد الرجل المدعو محمد بن حسونة ، لأنه أساء الأدب بداخل المحكمة ، واستخف بمجلس الشرع الشريف ، وأطال لسانه على قاضي القدس عبدالكريم أفندي ، فقال له : (افتح عينيك . واقعد في حالك) . فنال جزاه . السجل (٤٩) الصفحة (٥٠) .

(٤) اتهم أهل الطور بقتل رجل من سكان القدس . ولما عجز أهل المقتول عن البرهان حكم القاضي على المتهمين باليمين . فحلف كل منهم بالله العظيم ونبيه الكريم أنه ما قتل المغدور ولا يعلم له قاتلاً . فتبرؤوا من التهمة . السجل (٤٤) الصفحة (٥٤٠) التاريخ (٩٧١هـ-١٥٦٣م) .

(٥) نظر القاضي بنفسه في سرقة النبي داود يوم سرق مجهولون بعض الفضة الملبسة على الباب وسجادة وبعض القناديل (السجل ٢٢٧ السنة ١١٦٤هـ-١٧٥٠م) . وظل يبحث إلى أن اهتدى إلى السارق .

تقليد النصارى في أمورهم عملاً بالحديث القائل : من تشبه بقوم صار منهم[1] . وكذلك قل عن دق الطبول في أعيادهم .

٣٥ . إقالة رؤساء الطوائف المختلفة واستبدالهم بغيرهم[2] . ومراقبة ترميم أديرتهم وكنائسهم وكنسهم وتعميرها .

٣٦ . تعيين المفاتي (المفتين) وإقالتهم . وتعيين الشخص الذي يجوز أن ينوب عن المفتي في الحكم .

٣٧ . قبول اهتداء كل من أراد أن يهتدي بدين الإسلام من أهل الكتاب . وتسجيل اهتدائهم .

٣٨ . جمع (الجزية) التي تفرضها الدولة على أهل الذمة . وتحصيل الضرائب المفروضة على أهل البلاد .

٣٩ . تعيين رؤساء الحرف والصناعات وإقالتهم (كمقدم العتالين ، وشيخ طائفة السلاخين) .

ظل قاضي المسلمين بالقدس يتمتع بصلاحيته الواسعة التي ذكرناها في الأسطر المتقدمة إلى أن تأسست في القدس مصالح حكومية مختلفة الألوان . فانحصرت صلاحية القاضي بعدئذ بالمسائل الشرعية (الأحوال الشخصية وما إلى ذلك) والقضايا الحقوقية . وصار يطلق عليه لقب (نائب ورئيس محكمة الحقوق الابتدائية) . وأما الشؤون الجزائية فقد نزعت منه ، وعهد بها إلى (رئيس محكمة الجزاء الابتدائية) (١٨٧٦م) . وكان يعمل مع الرئيس (المدعي العام) وهو ما نسميه في يومنا هذا (النائب العام) . ومساعده (معاون مدعي عام محكمة الجزاء الابتدائية) . وبعد إعلان الدستور تأسست في القدس (محكمة الاستئناف) ومعها (مدعي الاستئناف العام) . ومساعده (معاون مدعي الاستئناف العام) . ولم يكن عدد موظفي هذه المصلحة المعروفة بـ(الدولة) يتجاوز العشرين بين قضاة وكتاب وخدم ومباشرين . وظل الحال على هذا المنوال حتى الاحتلال البريطاني (١٩١٧م) .

---

(١) السجل (٢٣٧) الصفحة (٨٩) التاريخ (١١٦٥هـ-١٧٥١م) .

(٢) في السجل (٢١٣) الصفحة (٢٥) التاريخ (١١٣٠هـ) نرى أفراد الطائفة اليهودية يراجعون القاضي فينصب عليهم برناساً (أي رئيساً) هو أبرور ولد أبرام ورفع ميوحاس من (البرنسة) .

مجلس الشورى:

رغم وجود الحكام والمتصرفين على رأس الإدارة فإن الأمر كله كان في أغلب الأوقات بيد الزعماء والأفندية والرؤساء ومشايخ البلاد الذين كان نفوذهم واسعاً بالدرجة التي كان عليها نفوذ أمراء الإقطاع في العصور الوسطى . حتى أن الأتراك عندما قبضوا على زمام الأمور في أواسط القرن التاسع عشر ، لم يكن لهم بد من الرجوع إلى هؤلاء الزعماء والرؤساء وطلب العون والمشورة منهم . ولقد عثرنا بين أوراق ذلك العهد على أمر ممضي من محمد حمدي بصفته قاضي القدس وقائمقام والي صيدا (السر عسكر) محمد عزة باشا . والأمر موجه إلى (مجلس شورى القدس) . وهو مؤلف (١٥ رمضان ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م) من السادة الآتية أسماؤهم :

١ . السيد محمد أبو السعود - رئيس المجلس (نقيب الأشراف وعمدة المدرسين) .

٢ . السيد محمد علي الحسيني .

٣ . السيد خليل الخالدي .

٤ . السيد عثمان أبو السعود .

٥ . السيد محمد درويش علي زاده .

٦ . السيد شاكر الموقت .

٧ . السيد نجم الدين الجماعي .

٨ . السيد إبراهيم المهتدي .

٩ . السيد محمد الرملي .

١٠ . السيد جار الله . (كاتب المجلس) .

١١ . السيد وفا (مساعد الكاتب) .

١٢ . الخواجه رونه (وكيل طائفة اليهود) .

١٣ . يوسف (وكيل طائفة الأرمن) .

١٤ . ياقوب جاسر (أحد طائفة الأرمن) .

واشترط أن ترفع قرارات هذا المجلس إلى قاضي القدس بصفته قائمقام والي صيدا لأجل التصديق .

المجلس العمومي:

وقد اتسع هذا المجلس مع الزمن فأصبح (مجلساً عمومياً) يمثل لواء القدس كله بما

فيه أقضية يافا والخليل وغزة وبئر السبع وكانوا يدعونه[1] (مجلس القدس الكبير) و(مجلس القدس الشريف) و(مجلس لواء القدس الشريف) . وكان هذا المجلس في سنة (١٣٣٢هـ-١٩١١م) مؤلفاً من السادة الآتية أسماؤهم :

عن القدس :

١ . محمد يوسف أفندي العلمي .

٢ . جورجي أفندي أبو زخريا .

٣ . عنتابي أفندي (أو داود يلين أفندي) .

عن يافا :

٤ . عبدالله أفندي شفيق الدجاني .

٥ . عمر أفندي البيطار .

٦ . توفيق بك الغصين .

عن غزة وبئر السبع :

٧ . أحمد أفندي عارف الحسيني .

٨ . خليل أفندي بسيسو .

٩ . حاج طه أفندي زقوت .

١٠ . فرح أفندي ترزي .

عن الخليل :

١١ . سليم أفندي طهبوب .

١٢ . أمين أفندي عمرو .

مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني):

قلنا في غير هذا المكان أن الذي ناب عن سنجق القدس في (مجلس المبعوثين) الأول (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) هو يوسف ضيا باشا الخالدي . وكان هذا يلقب بـ(مبعوث القدس الشريف) .

وعندما اجتمع (مجلس المبعوثين) في عاصمة البلاد للمرة الثانية (١٩٠٨م) كان يمثل سنجق القدس فيه ثلاثة أعضاء : اثنان منهم من القدس وهما : رومي بك

(١) السجل (٣٤٦) ، الصفحة (٣٨٤) السنة (١٢٧٦هـ-١٨٥٩م) .

الخالدي وسعيد بك الحسيني . والثالث من يافا وهو حافظ بك السعيد . وأما لواء نابلس فقد كان يمثله الشيخ أحمد أفندي الخماش ، ولواء عكا الشيخ أسعد أفندي الشقيري .

وأما في المرة الثالثة (١٩١٤) فقد كانت فلسطين ممثلة في المجلس المذكور على النمط التالي :

(أ) عن سنجق القدس : روحي بك الخالدي (القدس) ، عثمان أفندي النشاشيبي (القدس) ، أحمد عارف أفندي الحسيني (غزة) .

(ب) عن سنجق نابلس : حيدر بك طوقان (نابلس) .

(ج) عن سنجق عكا : الشيخ أسعد أفندي الشقيري (عكا) .

ثم أعيد الانتخاب فحاز الأكثرية :

(أ) عن القدس : راغب بك النشاشيبي ، سعيد أفندي الحسيني ، فيضي أفندي العلمي .

(ب) عن نابلس : توفيق أفندي حماد ، أمين بك عبدالهادي .

(ج) عن عكا : عبدالفتاح أفندي السعدي .

وظل هذا المجلس يعمل حتى نهاية الحرب الكبرى (١٩١٧) . وكانت للعرب فيه كلمة مسموعة .

سلاطين الأتراك العثمانيين وأسماء الولاة والمتسلمين الذين تولوا إدارة القدس على عهدهم

العدد المتسلسل للسلاطين	اسم السلطان	تاريخ حكم السلاطين		اسماء الولاة	تاريخ حكم والمتسلمين الولاة		ملاحظات
		هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
١	السلطان سليم الأول ابن بايزيد الثاني	٩١٨	١٥١٧	جان بردى الغزالي	٩٢٣	١٥١٧	عينه السلطان سليم والياً على بر الشام كله
				اياس باشا	٩٢٤	١٥١٨	كان كبير الانكشارية
٢	السلطان سليمان القانوني ابن سليم الأول	٩٢٦	١٥٢٠	حسين باشا	٩٥٧	١٥٥٠	
				النبيل سنان	٩٦٣	١٥٥٥	
				حسن	٩٧٠	١٥٦٢	صوباش القدس ومتسلمها .
				ابراهيم	٩٧٣	١٥٦٥	صوباش القدس ومتسلمها .
				الياس بك	٩٧٣	١٥٦٥	مير لواء القدس ومتسلمها .
٣	السلطان سليم الثاني ابن سليمان القانوني	٩٧٤	١٥٦٦				

٤	السلطان مراد الثالث ابن سليم الثاني	٩٨٢	١٥٧٤				
٥	السلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث	١٠٠٣	١٥٩٤				
٦	السلطان أحمد الأول ابن محمد الثالث	١٠١٢	١٦٠٣				
٧	السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث	١٠٢٦	١٦١٧				
٨	السلطان عثمان الثاني ابن أحمد الأول	١٠٢٧	١٦١٧				
٩	السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث	١٠٣١	١٦٢١				
١٠	السلطان مراد الرابع ابن أحمد الأول	١٠٣٢	١٦٢٢	محمد باشا	١٠٣٧	١٦٢٧	محافظ مدينة القدس . كان يخابر محافظ مصر (السجل ١١٣ ص ٢٣٨)
١١	السلطان إبراهيم بن احمد الأول	١٠٤٩	١٦٣٩				

١٢	السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم	١٠٥٨	١٦٤٨	حسين باشا	١٠٦٩	١٦٥٨	أقاله الصدر الأعظم لأنه أيد الأرمن ضد الروم .
				طيار اوغلي	١٠٧١	١٦٦٠	
				جاويش زاده محمد باشا	١٠٨١	١٦٧٠	هو الذي أحصى سكان مدينة القدس
١٣	السلطان سليمان الثاني ابن إبراهيم	١٠٩٩	١٦٨٧				
١٤	السلطان أحمد الثاني ابن إبراهيم	١١٠٢	١٦٩٠				
١٥	السلطان مصطفى الثاني ابن محمد الرابع	١١٠٦	١٦٩٤				
١٦	السلطان أحمد الثالث ابن محمد الرابع	١١١٥	١٧٠٣	اشجن مصطفى	١١١٦	١٧٠٤	كان متصرف القدس ونابلوس معاً . وكانوا يسمونه (قرة قولان حاجي مصطفى باشا)
				الحاج عمر آغا	١١١٧	١٧٠٥	نقل إلى نابلوس بسبب الثورة
				عزت باشا	١١٢١	١٧٠٩	والي القدس (تاريخ الكرسي الاورشليمي للاقباط

				محمد آغا النمر	١١٢٤	١٧١٢	الارثوذكس) تأليف الشماس كامل نخلة الاسكندري . مخطوط ص ٢٤ من آل النمر بنابلوس
١٧	السلطان محمود الأول	١١٤٣	١٧٣٠	الحاج مصطفى آغابر اونه	١١٤٤	١٧٣١	اخذ تعهد على سكان قرى البيرة وبيت حنينا وبيت اكسا كي لا يعتدوا على المسافرين للقدس
				الحاج حسين بك	١١٦٥	١٧٥١	متسلم القدس . تابع لوالي الشام الوزير الحاج اسعد باشا .
١٨	السلطان عثمان الثالث ابن مصطفى الثاني	١١٦٨	٧٤٥-				
١٩	السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث			علي بك بن مصطفى بك			كان ميرالاي القدس ويلقب بصو باشى .
				الحاج اسماعيل آغا	١١٧٤	١٧٦٠	متسلم القدس تابع لوالي الشام عثمان الحاج عثمان باشا .
				الحاج إبراهيم آغا	١١٨٥	١٧٧١	المعتقد انه من آل النمر

				الشورباجي			من نابلوس .
٢٠	السلطان عبدالحميد الأول ابن أحمد الثالث	١١٨٧	١٧٧٣				
٢١	السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث	١٢٠٣	١٧٨٨	محمد باشا	١٢١٦	١٨٠١	كان يحمل رتبة (وزير) . وكان يوقع أوامره هكذا : السيد الحاج محمد باشا .
٢٢	السلطان مصطفى الرابع ابن عبدالحميد الأول	١٢٢٢	١٨٠٧	يحيى بك	١٢٢٢	١٨٠٧	
٢٣	السلطان محمود الثاني ابن عبدالحميد الأول	١٢٢٣	١٨٠٨	اسماعيل آغا	١٢٢٣	١٨٠٨	جد آل المغربي . وكان يلقب بـ : (آغا القدس) .
				الحاج كنج أحمد آغا	١٢٢٦	١٨١١	
				عبدالكريم آغا	١٢٢٩	١٨١٣	
				مصطفى آغا تيزيني	١٢٣٥	١٨١٩	ورد اسمه في (النسخة المقطوفة من التواريخ الموصوفة) هكذا الططيتي . وفي زمنه قامت في القدس ثورة اثارها عسكر الانكشارية .

				سليمان افندي	١٢٣٨	١٨٢٣	يهودي اعتنق الاسلام . كان في بر والي الشام درويش باشا عندما ظهرت خيانته .
				عبدالله باشا.	١٢٤٧	١٨٣١	كان يوقع أوامره بوصفه (والي صيدا ومصر والعريش وغزة والقدس ونابلس وجنين) .
				الشيخ سعيد مصطفى	١٢٤٧	١٨٣١	أرسله عبدالله باشا بوصفه والي صيدا ومتصرف القدس . وكانت عكا مركز حكومته . وبعد مدة قصيرة من السنة نفسها عاد ، فاقاله : بسبب طمعه وتعديه على الاشراف واستماعه للمفسدين واختلاسه اموال الدولة . وأمر الوالي ايضاً بمصادرة املاكه واملاك اقاربه .
				الحاج محمد شاهين آغا	١٢٤٧	١٨٣١	عينه عبدالله باشا خلفاً للشيخ

							سـعيـد المصطفى . وكـان هذا (أي محمد شاهين) قبل ذلك متسلماً في لواء غزة . وفي هذه الاثناء جـاء إبراهيم باشا وقامت الثورة في القدس وفي سائر انحاء فلسطين . .
				يحيى باك	١٢٤٧	١٨٣١	يبـدو أن انتـداب هذا المتـسلم لإدارة القـدس قـد تم بناء على طلب اهالي القدس .
				الحاج محمد سيعد آغا	١٢٤٧	١٨٣١	الأمر بتعيين هذا المتسلم وقعه إبراهيم باشـا . وقـد ارسله من ديوانه بعكا . وقد انتدبه لادارة القدس بعد أن اقال يحيى بك من منصبـه نظراً لتبـاطؤه في خدمة المصلحة! . .
				الشيخ قاسم الاحمد	١٢٤٨	١٨٣٢	عينه إبراهيم باشا بعد أن اقال سلفه الحاج محمد سعيد آغا

							لتباطؤه في خدمة الدولة! . . وكان قبل ذلك قد انذره! .
				الشيخ محمد القاسم الاحمد	١٢٤٩	١٨٣٣	ابن الشيخ قاسم الأحمد
				الشيخ يوسف القاسم الأحمد	١٢٤٩	١٨٣٣	انه ابن الشيخ قاسم الأحمد
							وأخو الشيخ محمد . والسبب ان اخاه الشيخ محمد سافر إلى الحجاز لاداء فريضة الحج .
				جبر أبو غوش	١٢٥٠	١٨٣٤	تسلم المتسلمية من الحاج محمد آغا بأمر من إبراهيم باشا . كان من حزب (اليمن) . استغل منصبه فشنق اثنين من اصدقاء خصومه آل سمحان وهم من (قيس) . احدهما من آل النشاشيبي . كان مقر حكمه في (الباشورة) تجاه سوق العطارين . وعندما اقيل عينت

							له ماهية قدرها الف قرش .
				علي محسن أفندي	١٢١٥	١٨٣٥	كانت القدس على عهده تابعة إلى عكا . وفي عكا وال اسمه أمير الأمراء محمد شريف باشا . وكان هذا يلقب : (كنخداي خديوي)
				حسين بك موسى باشا زاده	١٢٥١	١٨٣٥	مدفون بالقرب من دار الجالية الاميركية . الأمر بتعيينه ممضى من محمد شريف باشا .
				حسن بك	١٢٥٢	١٨٣٦	قد يكون هذا هو (حسن آغا المأمور) الذي تقدم ذكره .
				مصطفى آغا السعيد	١٢٥٢	١٨٣٦	الأمر بتعيينه ممضي من محمد شريف باشا حكمدار إيالات بر الشام .
٢٤	السلطان عبدالمجيد بن محمد الثاني	١٢٥٥	١٨٣٩	أحمد آغا الدزدار	١٢٥٥	١٨٣٩	رأيت الأمر بنصبه متسلماً . وهو موقع من محمد شريف باشا بوصفه (حكمدار إيالات

							بر الشام) . وكان هذا تابعاً للخديوي في مصر .
				حسين راشد آغا	١٢٥٦	١٨٤٠	متسلم بالوكالة
				أحمد آغا الدزدار	١٢٥٦	١٨٤٠	رأيت الأمر بنصبه متسلماً للقدس ، هذه المرة ، ممضياً من محمد سليم باشا بوصفه (فريق العساكر المظفرة) . وقد جاء في أمر التعيين أن قد (صدرت الارادة الشاهانية باتفاق آراء الدول المتحابة بازالة الاحكام المصرية عن هذه البلاد) .
				حسن آغا المجري	١٢٥٦	١٨٤٠	كان يلقب (تفنكجي باشا) . شهريته ثلاثمئة قرش . وكان في معيته ثلاثة انفار من التفنكجية لاجل ادارة المصالح . ولكل نفر قرشان

							يتناولهما من خزينة السلطان .
				محمد رشيد باشا	١٢٥٩	١٤٤٣	
				علي باشا	١٢٦١	١٨٤٥	كان هذا متصرف القدس وغزة ونابلس
				محمد قبرصلي باشا	١٢٦٢	١٨٤٥	كان سر عسكر (قائد) لاردو (الجيش) الشام ثم نقل إلى القدس متسلماً . وكان ماهراً في القاء الفساد بين السكان والزعماء ورؤساء الطوائف .
				يعقوب باشا	١٢٧٠	١٨٥٣	طاعن في السن ، قليل النفوذ .
				رشيد باشا	١٢٧١	١٨٥٤	كان قبل ذلك متسلماً لعكا ، رتبته فريق . وكان الذين من قبله برتبة مشير .
				كامل باشا	١٢٧٢	١٨٥٥	تولى الإدارة في ١٥ فبراير ١٨٥٥ . استقبل اطلاق عدد من مدافع القلعة . سكن في الدار التي كانت قبلاً تعرف

							بمدرسة الجاولي . شاب ضعيف ، ذو تربية افرنسية .
				مصطفى ثريا باشا	١٢٧٥	١٨٥٨	وعلى قول اسماعيل ثريا باشا
٢٥	السلطان عبدالعزيز بن محمود الثاني	١٢٧٧	١٨٦٠	خورشيد باشا	١٢٧٩	١٨٦٢	عين خلفاً لثريا باشا . وقد اضيف إليه سنجقا غزة ونابلس . وأمر بأن يتبع والي صيدا الوزير قبولي باشا .
				نظيف باشا	١٢٨٤	١٨٦٧	في هذا التاريخ استبدل لقب (متسلم) بلقب (متصرف) . وفي هذا التاريخ انشئت الطريق التي تربط القدس بيافا . والطريق التي تربطها بنابلس .
				كامل باشا	١٢٨٩	١٨٧٢	
٢٦	السلطان مراد الخامس ابن عبدالمجيد	١٢٩٣	١٨٧٦				
٢٧	السلطان عبدالحميد	١٢٩٣	١٨٧٦	أحمد رشيد بك	١٢٩٣	١٨٧٦	

	الثاني بن عبدالمجيد			رؤوف باشا	١٣٠٣	١٨٨٥	كان عفيفاً ، وكان مستقيماً ، وكان صارماً في تعقب آثار اليهود الذين دخلوا البلاد خلسة وخلافاً للقانون الذي يحرم هجرة اليهود إلى فلسطين .
				نشأت باشا	١٣٠٤	١٨٨٦	جاء بعد رؤوف باشا
				رشاد باشا	١٣٠٧	١٨٨٩	قبل إبراهيم حقي باشا
				إبراهيم حقي باشا	١٣٠٨	١٨٩٠	جاء من طرابلس الشام سجل ص ٣٦
				قاسم بك	١٣١٦	١٨٩٨	
				توفيق بك	١٣١٧	١٨٩٩	نقل إلى ولاية سلانيك ترفيعاً إنه وأكثر المتصرفين الذين جاؤوا من بعده ينتمون إلى (المابين) أي سراي السلطان
				جواد بك	١٣١٩	١٩٠١	نقل إلى ولاية انقرة ترفيعاً
				عثمان كاظم بك	١٣٢٣	١٩٠٤	

				أحمد رشيد بك	١٣٢٤	١٩٠٦	نقل إلى ولاية مناستر ترفيعاً
				علي أكرم بك	١٣٢٦	١٩٠٨	انه ابن (نامق كـمـال بك) الشاعر التركي المشهور : وعلى عهده نشر الدستور بالقدس :
٢٨	السلطان محمد رشاد الخامس بن عبدالمجيد	١٣٢٧	١٩٠٨	صبحي بك	١٣٢٧	١٩٠٩	نقل من متصرفية القدس إلى ولاية استانبول ترفيعاً : وقد تولى امانة العاصمة في نفس الوقت .
				عزمي بك	١٩٣٢٨	١٩١٠	صار بعدئذ والياً على سورية . ثم وزيراً للحقانية
				جودت بك	١٣٢٩	١٩١١	
				مهدي بك	١٣٣٠	١٩١٢	الباني الأصل . تولى اخيراً نيابة الملك في البانيا وذلك على أثر مغادرة الملك زوغو لها .
				أحمد ماجد بك بن شوكت	١٣٣١	١٩١٣	على عهده اعلنت الحرب الأولى ١٩١٤=١٩١٧ وفي زمانه ازداد نفوذ المتصرفين

							وطغى على القضاة . وصارت الأوامر تصدر من وزارة الداخلية بدلاً من المشيخة الإسلامية .
				مدحت بك	١٣٣٤	١٩١٥	
				فخر الدين بك	١٣٣٥	١٩١٦	
				عزت بك	١٣٣٦	١٩١٧	إنه آخر المتصرفين . وعلى عهده احتل الانكليز مدينة القدس .

تلك هي أسماء السلاطين، وأسماء الولاة والحكام[١] الذين انتدبوا لإدارة القدس وقطاعها، في عهد الأتراك العثمانيين. وبودنا الآن أن نضيف إلى هذه الأسماء قولنا: إن متصرف القدس كان، في السنوات الأخيرة، يأتمر بأوامر وزير الداخلية في العاصمة: إستانبول. وكان يتبعه أربعة أقضية هي: يافا والخليل وغزة وبئر السبع.

وكان على رأس كل قضاء من هذه الأقضية قائمقام مسؤول عن إدارته وتمشية أموره. وكان هذا القائمقام مسؤولاً عن أعماله تجاه المتصرف الذي كان على رأس السنجق. وكان كل قضاء مقسوماً إلى نواح. وكان على رأس كل ناحية مدير مسؤول عن أعماله تجاه القائمقام. والناحية مؤلَّفة من عدة قرى. وفي كل قرية مختار يساعده عدد من وجوه القرية باسم (اختيارية).

وكان سنجق القدس (١٣٢١هـ-١٩٠٥) مؤلفاً من القرى والنواحي والقبائل التالية:

قرية	ناحية	قضاء	قبيلة	
مركز اللواء (القدس)	١٢٦	٤[٢]	٠	٠
قضاء يافا	١٢٦	٢[٣]	١	٠
قضاء بئر السبع	٠	٠	١	٥[٦]
قضاء غزة	٧٥	٣[٤]	١	٠
قضاء خليل الرحمن	٥٢	٢[٥]	١	٠
	٣٧٩	١١	٤	٥

وظل هذا التقسيم الإداري نافذ المفعول في العهد التركي، حتى الاحتلال البريطاني (١٩١٧).

(١) لا نجزم أبداً أن المتصرفين الذين دونا أسماءهم في الأسطر المتقدمة، هم وحدهم الذين تولوا الحكم في بيت المقدس. وإنما نقول أنهم هم الذين عثرنا على أسماءهم خلال تتبعنا تاريخ ذلك العهد. وقد يكون ثمة أشخاص آخرون، لكنا لم نطلع على أسمائهم.

(٢) هي بيت لحم، رام الله، صفا، عبوين.

(٣) هما الرملة، نعلين.

(٤) هي خان يونس، الجدل، الفالوجة.

(٥) هما بيت عطاب، بيت جبرين.

(٦) هي العزازمة، الترابين، التياها، الجبارات، الحناجرة.

النظام المالي في العهد التركي

كان النظام المالي الحكومي السائد في فلسطين في العهد العثماني[1] هو نفسه الذي كان متبعاً في السلطنة العثمانية كلها قبل الحرب .

كانت مالية القدس المستقل (وهو يتألف من أقضية القدس ويافا والخليل وغزة وبئر السبع) تدار مباشرة من قبل وزارة المالية في الآستانة . بينما كانت مالية سنجق عكا (وهو يتألف من أقضية عكا وحيفا وصفد والناصرة وطبريا) وسنجق نابلس (وهو يتألف من أقضية نابلس وجنين وطولكرم) تدار من بيروت .

وإليك بيان الضرائب التي كان يجبيها الأتراك من الأهلين في ذلك الحين :

(أ) الويركو والمسقفات .

(ب) الأعشار .

(ج) الأغنام .

(د) التمتع .

(هـ) الكروسة (أو العملة المكلفة) .

(و) المعارف) .

أما (الويركو) فقد فرض بموجب القانون العثماني المؤرخ في (٥ آب ١٨٨٦م) . وكان يجبى من أصحاب الأملاك بنسبة أربعة في الألف عن الدور المعدة للسكن إذا كانت قيمتها دون العشرين ألفاً ، وثمانية في الألف إذا كانت هذه فوق العشرين ألفاً ، وعشرة في الألف عن الدكاكين والدور المعدة للإيجار . ثم أضيف إلى ذلك (٦٪) باسم (تجهيزات عسكرية) وكان ذلك قبيل إعلان الدستور (١٩٠٨م) .

وبعد حرب البلقان (١٩١٢م) أضيف ٥٪ عن الأراضي لأجل تغطية العجز الذي طرأ على موازنة الدولة . ثم أضيف إليه (٢٥٪) عن المسقفات باسم الأسطول .

وعلى ذكر (المسقفات) نقول إنها ضريبة فرضها الأتراك بموجب القانون المؤرخ (١٤ حزيران ١٣٢٦هـ-١٩١٠م) وهي بدلاً من الويركو على المباني . وكانت تبنى على مجمل الدخل من الأملاك المبنية .

وكانت قيمة الإنشاءات تقدر من قبل لجنة قوامها مدير المال أو مساعده الذي

---

(١) النظام الاقتصادي في فلسطين (ص٦٧٥) .

كان يطلق عليه (كاتب الويركو) ، ومأمور التحصيلات ، وعضو من قومسيون التحصيلات ، وآخر من أعضاء المجلس البلدي ، وآخر من السكان . وتطرح الضريبة على أساس هذه القيمة المقدرة للأبنية المتقدم ذكرها . فيجبيها الجابي . وكانوا يسمونه يومئذ (تحصيلدار الويركو[1]) . وأما المساكن الكائنة داخل السور ، فإنها معافاة من الويركو .

وأما (ضريبة العشر) فقد كان الأتراك يجبونها من أصحاب الأراضي بنسبة (١٠) بالمائة من حبوبهم وسائر حاصلاتهم الزراعية . حتى (الحنضل) و(القلى[2]) فإن الحكومة التركية كانت تفرض عليهما ضريبة العشر ، ثم زيدت هذه النسبة ، فجعلت ١٢ ونصف بالمائة . وكانت الحكومة التركية تجبيها بواسطة (الملتزمين) . وكان أكثر هؤلاء من طبقة الأفندية الذين أثروا عن هذه الطريق . فقد كان الواحد منهم يتعهد بدفع مبلغ من المال لصندوق الحكومة عن مدينة القدس ، أو عن قرية من قراها . ثم يجبي من أهل المدينة ، أو القرية أضعاف ذلك المبلغ . وكانت الحكومة في بعض الأحايين تضيف إلى بدل الالتزام (٦٪) باسم (التجهيزات العسكرية) وكانت الحكومة التركية تخصص (١٢) بالمائة من هذا المبلغ للبنك الزراعي الذي عهدت إليه إقراض المزارعين ، ومدهم بالمال اللازم لتقويتهم وتحسين زراعتهم ؛ و ٤ بالمائة للطرق والأشغال العامة ، و ٥ بالمائة للمعارف ، والباقي وقدره (٧٩) بالمائة كان يدخل الخزينة لينفق في سبيل مصالح الدولة ومرافقها العامة .

وأما (ضريبة الأغنام) فإنها ضريبة قديمة العهد . فقد كانت الحكومة التركية تجبيها عن الأغنام والجمال المعدة للنقل بنسبة أربعة قروش[3] عن كل رأس من الغنم . ثم أضيف إلى ذلك (٢٥) بارة باسم التجهيزات العسكرية (١٩٠٨م) ، وعشر بارات باسم الأسطول (١٩١٢م) إلى أن أصبحت خمسة قروش (٢٥) بارة عن كل

---

(١) هذه كلمة تركية مؤلفة من كلمتين : إحداهما (تحصيل) عربية ، والأخرى (دار) فارسية . ومعناها اللاسك أو القابض . وأما كلمة (الويركو) فهي مشتقة من (ويرمك) التركية . ومعناها العطاء .

(٢) اشتكى تجار الصابون في القدس ، سنة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) ، لأن أمير لواء القدس إلياس بك ظلمهم . إذ تناول منهم حملاً عن كل عشرة أحمال من القلى (السجل ٤٩ الصفحة ٢٢) .

(٣) كانت هذه في بداية الأمر قرشاً ونصف ، فأصبحت قرشين ونصف ، ثم صعدت إلى ثلاثة قروش ، فأربعة .

رأس من الغنم .

وأما عن الجمل المعد للتنقل فقد كانت الحكومة تحصل عشرة قروش تركية . ثم أضيف إلى هذا المبلغ قرشان باسم التجهيزات العسكرية ، وقرشان ونصف باسم الأسطول ؛ إلى أن أصبح ثلاثة عشر قرشاً و(٢٠) بارة عن كل جمل .

وأما الجمال المعدة للحراث ، فقد كانت معفاة من الضرائب . وكذلك قل عن الأغنام المولودة في بحر السنة . ولا يحصل هذا الرسم عن الخيل أو الحمير أو الثيران . وإنما هو يحصل عن الخنازير .

وأما (ضريبة التمتع) فإنها كضريبة الدخل التي تجبى في يومنا هذا . وقد كانت هذه على عهد الأتراك ضئيلة للغاية فقد كانوا يحصلونها من التجار وأرباب الصناعات وأصحاب المهن بنسبة أرباح كل واحد منهم . فالتاجر والتجار والحداد والبقال حتى القواخيري ، كان يدفع ضريبة بنسبة ربحه وتمتعه ، وكان معدل هذه الضريبة يتراوح بين اثنين وعشرة بالمائة من الدخل السنوي .

والذي كان يقدر قيمة الدخل اللجنة نفسها التي قلنا في الأسطر المتقدمة إنها كانت تقدر قيم الأملاك من أجل ضريبة (الويركو) .

وأما (ضريبة العمال المكلفين[1]) فقد كان الأتراك يفرضونها على كل شخص يتراوح بين العشرين والستين من العمر . وكان على المكلف أن يدفع ستة عشر قرشاً في السنة ، أو يشتغل في تعبيد الطرق ثلاثة أيام ؛ على أن لا تقل مدة العمل في اليوم الواحد عن ثماني ساعات .

وأما (ضريبة المعارف) فقد كانت تجبي بنسبة ٥ بالمائة من قيم المسقفات . وكانت تضاف إلى ضريبة الويركو وتجبى معها . وكانت الحكومة تسلمها إلى النافعة (مصلحة الأشغال العامة) لتنفقها في سبيل المدارس .

وأما (العسكرية) فإنها ضريبة كان الأتراك يحصلونها من الذميين الذين لم يعتنقوا الدين الإسلامي ، تلقاء إعفائهم من الجندية . وكانت تحصل بنسبة (٢٨) قرشاً عن كل شخص في السنة .

---

(١) كان الناس يسمون هذه الضريبة : (الكروسية) . لأن القصد منها كان تعبيد الطرق وتمهيدها لسير العربات ذوات العجلات ، أو ما يسمونه : (الكروسة) .

(الجزية) في أوائل العهد التركي كانت تحصل من أهل الذمة . وهي سنوية . تجبي من الصنوف الثلاثة (الأغنياء والمتوسطين والفقراء) بنسب مختلفة . فكانت السلطة (وهي الحاكم الشرعي) تجبي من كل واحد من الأغنياء أحد عشر قرشاً ومن متوسطي الحال خمسة قروش ونصف القرش ومن الفقراء قرشين ونصف القرش . ومجموع الذين فرضت عليهم الجزية في سنة (١١٧١هـ-١٧٥٧م) ألفان ومئة وأربعون : مئتان منهم أغنياء ؛ و(٤٤٠) متوسطو الحال ؛ و(١٥٠٠) فقراء . وكان عددهم قبل ذلك بربع قرن ألفين فقط .

والموظف المسؤول عن ترتيب هذه الجزية كان يسمى (جزية دار) . وكان هذا يعمل بإرشاد الحاكم الشرعي . ويظهر أن الجزية كانت تنفق في سبيل الحج .

ويظهر أن السلطة المركزية في القسطنطينية كانت تفرض على الزعماء وأرباب التيمارات بالقدس مبلغاً من المال يؤدونه إلى الجيش . فقد قرأنا في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس[1] أمراً موجهاً إلى «المتسلم والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف والمير آلاي وآغا اليكجري كي يحصلوا من زعماء القدس وأرباب التيمارات فيها مبلغاً قدره (١٣,٠٠) غرشاً ويرسلوه إلى الآستانة» . وهذا الأمر من والي الشام وقد تلقاه من الآستانة . وفي الأمر «عفو عن توجه الزعماء وأرباب التيمارات عن السفر للآستانة» . ومنه يفهم أن الزعماء كانوا في السنين السابقة يؤمرون بالسفر إليها ودفع المبالغ فيها . ولكنهم في هذه المرة أعفوا من السفر على أن يدفعوه إلى (تاتار آغاسي) المرسل من قبل الصدر الأعظم « . . ومن يتأخر عن الدفع يندم غاية الندم» .

(ضريبة الغفر) كانت تجبى في أسكلة يافا . والذي كان يجبيها هو أمين الكرك من الحجاج اليهود والنصارى الذين يفدون إلى القدس يقصد الزيارة والحج . وكانت هذه سبعة قروش أسدية ونصف القرش . نصفها للدولة والنصف الآخر للعرب العوجية[2] الذين يرافقون الحجاج في الطريق من يافا إلى القدس بقصد الحراسة .

وأما (رسم الوراثة) فيدفعه الوارث لخزانة الدولة بنسبة أربعة من الألف من قيمة

---

(١) السجل (٢٩٨) الصفحة (١٠) السنة (١٢٢٩هـ-١٨١٣م) .

(٢) قرأت شيئاً عن هذه الضريبة في السجل (٢٤٢) الصفحة (١٦٠) السنة (١١٢٢هـ-١٧٥٨م) وهما إما أن يكونوا قصدوا من كلمة (عوجية) العربان المقيمين حول نهر العوجا أو الخبيرين بالصيد وضرب النار . وعندي أن هذا هو الصواب .

الأملاك التي يرثها .

وكانت هنالك ضرائب غير مباشرة ، منها :

(الرسوم الجمركية) وهذه تجبى عن البضائع المستوردة بمعدل (٨٪) مع رسم إضافي قدره (٣٪) كان مخصصاً لمصلحة الديون العمومية العثمانية .

وكانت الحكومة تحتكر إنتاج الملح وبيعه وتخصصه للديون العمومية أيضاً .

وكان يخصص أيضاً لمصلحة الديون رسم المكس على الخمور . وهذا تديره الوكالة المحلية لمجلس الديون . والوكالة المحلية هي التي تصدر الرخص وتراقب الإنتاج وتجبي الرسم .

وكان مجلس الديون يكل إلى الوكالة المحلية بيع التمغة (أي الطوابع) وإصدار رخص صيد الأسماك والطيور وحمل السلاح . فيدفع التجار والأشخاص الذين يتعاطون تجارة هذه المواد ثلاثة في المئة من مرابحهم . إلا المقيمين في القدس ، فإنهم معافون .

وكان التبغ في الأصل محتكراً من قبل الحكومة ، وإيراداته أيضاً مخصصة لمجلس الديون . ثم نقل هذا الاحتكار إلى شركة فرنسية لثلاثين سنة ، على أن يعطى مجلس الديون نسبة مئوية معينة من أرباح الشركة . وهكذا مع أن الضرائب كانت ثقيلة على البلاد ، إلا أنه لم يصل من إيراداتها إلى الحكومة إلا القليل (١٨٩٨م) .

وهناك رسوم المحاكم ورسوم جوازات السفر والرسوم التي تجبى عن مستندات الصرف وعن اللوائح والعرائض التي ترفع إلى الحكام ورؤساء الدوائر . فإن هذه الرسوم فرضت في أواخر عهد الدولة العثمانية . ولقد زيدت بعد إعلان الدستور (١٩١٠م) كما زيدت الضرائب الأخرى . وكانت الزيادة بالنسبة التالية[1] :

٢٥٪ على ضريبتي الويركو والتمتع .

٢٥٪ على رسوم الحيوانات .

١٠٠٪ على رسوم المحاكم كلها .

١٠٠٪ على رسوم جوازات السفر .

غرشان عن كل مستند صرف . بعد أن كان غرشاً واحداً .

غرشان عن كل عريضة أو استدعاء . بعد أن كان غرشاً واحداً .

---

(١) السجل (١٠) الصفحة (٩) السنة (١٣٢٧هـ-١٩٠٩م) .

وأما (واردات المحكمة الشرعية) فقد كانت تدفع كلها إلى صندوق الحكومة (بيت المال) . وظلت كذلك حتى سنة (١٣٢٦هـ-١٩٠٨م) فصار يرد منها إلى بيت المال (٧٥٠ غرشاً) . وأما إذا زاد عن ذلك ؛ فيدفع ثلثاه إلى بيت المال ، والثلث الآخر يوزع على كتبة المحكمة الشرعية وخادميها . وذلك كان بأمر من شيخ الإسلام محمد جمال الدين أفندي . ولكن هذا الترتيب ألغي بعد عام واحد . فقد أصدر شيخ الإسلام عامئذ محمد صاحب أفندي أمراً يقضي بتوريد جميع واردات المحكمة الشرعية إلى الخزينة[1] .

ومع أن المدينة القديمة مستثناة من الضرائب فإنه مما لا شك فيه أن هذا اللواء (أي سنجق القدس وأقضية يافا وغزة وبئر السبع والخليل التابعة له) فقد تنفس الصعداء بعد إعلان الدستور (١٩٠٨م) من ناحية الضرائب . فبعد أن بلغت وارداته سنة (١٣١٣هـ-١٨٩٥م) (١٥٠,٠٠٠) ليرة عثمانية انخفضت هذه سنة (١٣٢٨هـ-١٩١٠م) إلى (٣٠,٦٥١) ليرة عثمانية ، كما ترى ذلك في الأرقام التالية التي تمثل لك ميزانية اللواء في تلك السنة :

(١) السجل (٤) الصفحة (٣٣) السنة (١٣٢٧هـ-١٩٠٩م) .

ميزانية سنجق القدس الشريف (سنة ١٣٣٠ رومي)
١٣٢٨هـ - ١٩١٠م

(أ) الواردات :

غروش		
١,٠١٣,٢٨٣	الاعشار الاصلية	
٥٢٠,٧١٤	الاعشار المنضمة من جديد	القسم الأول
١,٥٣٣ ، ٩٩٧		
٩٩٠,٥٤٧	بدلات الطرق	
١٢٦,٥٦٠	رسوم وعوائد	
٣٣٤,٠٠٠	حاصلات املاك الدولة ومؤسساتها	القسم الثاني
٨٠,٠٠٠	حصة التمتع	
١,٥٣١,١٠٧		
٠	اعانات وتبرعات	
٠	ما دفعته الخزينة لسد العجز	القسم الثالث
٣,٠٦٥,١٠٤	مجموع الأقسام الثلاثة	

(ب) المصروفات

٩٨,٠٠٠	مخصصات المجلس العمومي	
١٢٠,٨٤٠	رواتب المأمورين	
٢٤,٧١٠	نفقات متنوعة	القسم الأول
٢٤٣,٥٥٠		
٩٦,٦٠٠	رواتب المأمورين والمستخدمين الفنيين	
١,٠٠٠,٠٠٠	نفقات الكشف والتعمير والأنشاء	القسم الثاني
٢٧,٥٠٠	نفقات متنوعة	(الطرق والمعابر)
١,١٢٤,١٠٠		

١٨,٠٠٠	رواتب مفتش المعارف	
٠	تدريسات ابتدائية (قسم عالي)	
٢٠,٥٢٠	تدريسات تالية (قسم عالي)	القسم الثالث
٥٨٧,٢٠٠	تدريسات ابتدائية (قسم ابتدائي)	(المعارف)
١٠٩,٧٠٠	دار المعلمين	
٥,٠٠٠	مدارس وقفية وخصوصية (مسلم وغير مسلم)	
٢٧٠,٠٠٠	مدارس عمومية (انشاءات وتعميرات)	
١,٠١٠,٤٢٠		
١٥,٠٠٠	المدرسة الزراعية (جفتلك)	القسم الرابع
٩٣,١٥٠	مخزن الآلات الزراعية	(الأمور الزراعية البيطرية والصناعية)
٥٩,٨٠٠	المطبعة	
١٦٧,٧٥٠		
٠	المستشفى	القسم الخامس
٠	دارالايتام	(الأمور الصحية والخبرية)
٠	الأمور الصحية	
٣٣٧,٧٦٠	الحصة العشرية العائدة للمصرف الزراعي	
٢٧,٢٧٤	نفقات التحصيل	القسم السادس
١٣٩,٢٥٠	نفقات العقارات والاماكن العائدة للأدارة الخصوصية	(مصاريف مختلفة)
٥,٠٠٠	مصاريف المحاكمة	
٢٠,٠٠٠	مصاريف غير مرئية	
٥١٩,٢٨٤		
٣,٠٦٥,١٠٤	مجموع الاقسام الستة معاً	

النقود والمسكوكات في العهد التركي:

يظهر أن النقود التي كانت، في بداية الحكم التركي، رائجة بين سكان بيت المقدس هي التي سكت على عهد المماليك. وأن قيمة هذه المسكوكات قد هبطت إلى الحضيض مع زوال حكم المماليك. الأمر الذي حدا بالسلطان سليمان القانوني إلى سك فلوس[1] جديدة سميت باسمه. ويظهر أيضاً أن الناس في بادئ الأمر أقبلوا على التعامل بالفلوس الجديدة وأهملوا القديمة لهبوط قيمتها. الأمر الذي أحدث إرتباكاً في الأسواق فراحت جماعة من المسلمين إلى نائب القدس تشكو أمرها قائلة[2]: إنها «تضررت من قلة الفلوس الجدد والتعنت على الفلوس العتق لكثرتها. فتقرر أن تكون الفلوس العتق المسكوكة كل أربعة بربع. وذلك برضى جماعة السوقة وأحمد بن أبي بكر محتسب القدس الشريف».

وإليك بيان بعض النقود المسكوكات التي سمعنا بها في ذلك العهد: إن أول عملة ضربت في العهد التركي كانت تسمى: (أقجه). إنها كلمة مغولية الأصل. ومعناها: القطعة البيضاء. ضربها علاء الدين باشا أخو السلطان أورخان. وقد اتخذت يومئذ راتباً يومياً للواحد من الجنود. كانت في البدء تساوي ثلث درهم من الفضة. وفي قول إنها عبارة عن أربعين بارة. وسأحدثك عن (البارة) وقيمتها في السطور التالية.

(الدرهم[3]) كانت المعاملة، في أوائل العهد التركي، بالدرهم وهو من الفضة وكانوا يسمونه (٩٥٤هـ-١٥٤٧م) الدرهم التركي. وجمعه دراهم. وكثيراً ما وردت هذه في الصكوك باسم (الدراهم الفضية العثمانية) وهي من القطع السليمانية.

---

(١))الفلس) بالفتح قطعة مضروبة من النحاس يتعامل بها وهي من المسكوكات القديمة. جمعها فلوس. والفلس أيضاً ورقة الجزية كانت تختم ويعلقها الذمي في عنقه شهادة لأداء جزيته وأما (الفلس) بالكسر فإنه صنم لبني طي. (البستان).

(٢) السجل (٤٩) الصفحة (٣٧) التاريخ (٧ شوال سنة ٩٧٣هـ-١٥٦٥م).

(٣) الدرهم في اللغة جمع عدد من (الدوانق). والدانق معرب دانك اليونانية وهو سدس الدرهم ولما كان الدرهم الإسلامي ست عشرة حبة خرنوب، فإن الدانق الإسلامي، حبتا خرنوب وثلثا حبة. (البستان).

وسترى فيما يلي من السطور[1] أن كل أربعة دراهم من الفضة كانت تساوي قرشاً واحداً .

(الدينار[2]) هو نوع من النقد يعادل السكة السلطانية المصنوعة من الذهب . والدينار عبارة عن أربعين قطعة من الفضة السليمانية .

والدينار الذهب كانوا يسمونه (البندقي[3]) وقيمته (٤٨) قطعة مصرية . والقرش الصحيح كان في الأصل عبارة عن (٣٢) قطعة مصرية .

ولقد عثرنا على ذكر (للدنانير الناصرية) ويظهر أنها سكت قبل عهد الأتراك .

(بارة) قطعة من النقد التركي ، صغيرة القيمة . لا ، بل إنها أصغر من أي نقد آخر . أصل الكلمة (بارة) وهي فارسية . ومعناها شقفة أو قطعة أو جزء . وجمعها : بارات . والبارة عبارة عن واحد من أربعين من القرش ، أو أن القرش عبارة عن أربعين بارة .

والبارة كانت متداولة في البلاد العثمانية ولا سيما مصر . ولذلك يقال لها أيضاً مصرية . ومن هنا جاء قولهم : (معك مصاري) أي دراهم للإنفاق .

(القطعة المصرية) تعدل قطعتين شاميتين أو قطعتين عثمانيتين أيضاً . والقرش الأسدي عبارة عن ثلاثين قطعة مصرية[4] . ويظهر أنه كان هنالك قرش غير القرش الأسدي . وهذا القرش كانوا يسمونه بالقرش الصحيح . وقيمته[5] (٣٢) قطعة مصرية .

ولقد جاء في البستان أنه لما كانت البارة متداولة في البلاد العثمانية ولا سيما

---

(١) السجل (٢٣٤) الصفحة (٤) السنة (١٢٠٤هـ-١٧٨٩م) .

(٢) الدينار في اللغة قطعة من الذهب تعامل بها العرب قديماً بالوزن إلى أن أضربها الحجاج في خلافة عبدالملك بن مروان . أصله دنار ، وجمعه دنانير . (البستان) . ظن بعض المؤرخين أن (دينار) كلمة فارسية . ولكن المحققين أثبتوا أنها يونانية أو لاتينية عرفها الفرس في زمن السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . فنقلوها إلى لغتهم .

(٣) إنه أول عملة ذهبية ضربها العثمانيون كان ذلك في زمن السلطان محمد الفاتح السجل (٦٨) الصفحة (٥٥) السنة (١٠١٣هـ-١٦٠٤م) .

(٤) السجل (١٢٩) الصفحة (١٤٧) السنة (١٠٥٣هـ-١٦٤٣م) .

(٥) السجل (٦٧) الصفحة (٥٥) السنة (١٠١٣هـ-١٦٠٤م) .

في مصر ، فقد سميت أيضاً مصرية - إذاً يجوز القول : أن المقصود من القطعة المصرية هو البارة ..

((القطعة الشامية[1])) نصف القطعة المصرية - أي أن كل قطعة مصرية تعادل قطعتين شاميتين .. ولما كان القرش الأسدي يعادل ثلاثين قطعة مصرية وبالتالي ستين قطعة شامية ، فتكون القطعة الشامية عبارة عن جزء من ستين من القرش الأسدي .

ويظهر أن القطعة الشامية والعثمانية واحدة - إذ إننا عثرنا على نص في سجلات المحكمة جاء فيه أن كل عثمانيتين تعادلان قطعة مصرية .

((السلطاني)) من النقود السليمانية - الواحد منه يعادل (٤٠) قطعة مصرية - ولقد قدر القاضي قيمة شيء من الأشياء بثلاثين سلطانياً قال عنها في قراره إنها تعادل ((١٢٠٠)) قطعة مصرية .. ولما كان القرش الأسدي يعادل ثلاثين قطعة مصرية فيكون السلطاني معادلاً للقرش وثلث القرش من القروش الأسدية .

((السكة)) أو ((السكة السلطانية)) نوع من العملة ورد ذكرها في المعاملات المدونة في سجلات المحكمة الشرعية خلال القرن العاشر للهجرة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) - ويعتقد أنها من النقود التي سكت في زمن السلطان سليمان القانوني .

منها ما سك من الذهب ويسمونه (الذهب السلطاني) أو (الدينار[2]) - ومنها ما سك من الفضة ويسمونها ((الفضة السليمانية)) أو ((القطع السليمانية)) .

ويظهر أن الدينار أو السكة السلطانية المصنوعة من الذهب كانت تعادل أربعين قطعة من الفضة السليمانية[3] أو مئة بارة .

وقرأت في مكان آخر أن السكة كانت عبارة عن خمس بارات - وقد تكون هذه هي المصنوعة من معادن أخرى .

((القرش الأسدي)) إنه من النقود التي سكها السلاجقة في بر الأناضول ، وانتقلت معهم إلى هذه البلاد عندما اكتسحوها - قيمته أربعون بارة - وقد سمي كذلك لأن صورة الأسد كانت في البدء مطبوعة عليه - وعلى قول إنه كانت عليه صورة الأسد والشمس معاً .. واستعمله الفرس على هذا الشكل كشعار خاص

((١)) السجل ((٧٩)) الصفحة ((٣٥)) السنة ((١٠٠٦هـ-١٥٩٧م) .

((٢)) كانوا يقولون كل ما ذكروا الدينار أنه من الذهب السلطاني الجديد السليماني الرائج في تلك التاريخ .

((٣)) كانوا يقولون : «أربعة سلطانية وعشر قطع سليمانية» .

لمملكتهم . وظل يسمى القرش الأسدي ، رغم أن صورة الأسد رفعت عنه مع الزمن .

استعمل فيما مضى أساساً للمعاملات التجارية ولصرف النقود ، لم انحصر استعماله في بيع الأشياء بالمزاد العلني فقط . وظل رائجاً في هذه البلاد حتى أواخر القرن التاسع عشر . وهناك من يقول إن أول من استعمله هم الأتراك العثمانيون ، وأن هؤلاء أخذوه عن العملة الأسدية الهولاندية التي كانت آنئذ رائجة لديهم في الممالك العثمانية . وكانت تضرب بقيمته ثمانية دراهم ونصف . وبعد أن استعمله الأتراك العثمانيون صار يسمى (القرش التركي) ويقال له أيضاً (القرش العثماني) و(القرش السلطاني) .

والقرش الأسدي كان ، خلال القرن السابع عشر للميلاد ، يعدل[١] ثلاثين قطعة مصرية[٢] وقد رأيناه في مواضع أخرى ، خلال ذلك العصر ، يساوي ثلاثةفرنكات . وفي قول أن القرش السلطاني يساوي (٤٠) قطعة فضية . والقرش الأسدي (وهو نصفه) يساوي (٢٠) قطعة فضية .

ومن هذا يفهم أن كلمة (القرش) سواء كانت من اختراع الأتراك السلجوقيين أو الأتراك العثمانيين فإنها كلمة تركية أصلها (غرش) . ومن أسمائها باللغة التركية أيضاً : (أقجة)[٣] .

وعلى قول أنها لاتينية الأصل[٤] أو ألمانية : (جروش) . ومهما كان أصلها فإن العرب أخذوها عن الأتراك فعربوها وقالوا (قرشاً) . والأتراك ضربوا هذا النوع من النقد في بلادهم لأول مرة على عهد السلطان سليمان الثاني (١٠٩٩-١١٠٢هـ) (١٦٨٧-١٦٩١م) وهو جزء من المئة من الليرة التركية .

كانت زنة القطعة الواحدة ستة دراهم فضية . وقد استعمل القرش منذ قرن ونصف تقريباً كوحدة للمعاملات المالية والنقدية بقيمة أربعين بارة .

ظلت النقود السليمانية المتقدم ذكرها رائجة في أسواق بيت المقدس حتى زمن

---

(١) السجل (١٠٢) الصفحة (٣) السنة (١٠٢٨هـ-١٦١٨م) .

(٢) انظر إلى تفسري القطعة المصرية في غير هذا المكان .

(٣) يقول المؤرخ التركي إبراهيم حلمي : برغوش = براقجة .

(٤) جاء في (البستان) أن الغرش ضرب من المسكوكات معرب ، وجمعه غروش . والقرش كالغرش زنة ومعنى وجمعه قروش .

السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث الذي تولى العرش سنة (١٢٠٣هـ -١٧٨٨م) . فقد «صدرت الإرادة[1] السنية ، على عهده ، بطلب الأواني الذهبية والفضية وجمعها ممن عندهم وإرسالها إلى الضربخانة[2] على أن يعوض صاحبها عن كل مثقال[3] من الذهب بستة قروش ونصف ، وعن كل أربعة من الفضة بقرش واحد» .

ومن النقود التي اشتهرت في ذلك العهد ولا سيما خلال القرن الثامن عشر للميلاد (الزلطة) وهي بولونية الأصل . فالصداق كان (٥٠٠) زلطة والدار الكائنة بباب حطة بيعت بسبع عشرة زلطة . ولقد حاولنا أن نفهم كم كانت قيمة الزلطة في ذلك العهد فلم نفلح غير أن فريقاً من الشيوخ الطاعنين في السن في عصرنا هذا قالوا لنا إنها عبارة عن ثلاثين بارة فضية . أي إنها ثلاثة أرباع القرش الأسدي ، أو خمس ذهبة فندقية .

ولقد سكت ، بعد ذلك التاريخ ، نقود ومسكوكات كثيرة أخرى . سميت كل واحدة منها باسم السلطان الذي سكت على عهده . ومنها (المحمودية) التي ضربت على عهد السلطان محمود (١٨٠٨م) . و(المجيدية) التي ضربت على عهد السلطان عبدالمجيد (١٨٣٩م) . و(العزيزية) التي ضربت على عهد السلطان عبدالعزيز (١٨٦٠م) . و(الحميدية) التي ضربت على عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) . و(الرشادية) التي ضربت على عهد السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٨) .

أما (العملة المحمودية) فإنها نوعان : (عملة مغشوشة)[4] وهي عبارة عن البشلك (قرشان ونصف) والوزري (خمسة قروش) والعشروية (متاليك) . والنوع الثاني (عملة ذهبية) وهي عبارة عن خيرية ، ومحمودية .

---

(١) السجل (٢٣٤) الصفحة (٤) التاريخ (٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠٤هـ-١٧٨٩م) .

(٢))الضربخانة) هي الدار التي أعلنتها الحكومة العثمانية لضرب المسكوكات في القسطنطينية .

(٣))المثقال) في اللغة ما يوزن به . ومنه الآية : ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ . والمثقال أيضاً أحد مثاقيل الذهب وهو عبارة عن اثنين وسبعين شعيرة . وفي الاختيار هو عشرون قيراطاً . وكذا في الهداية أو البستان .

(٤) هذه العملة سكت بعد أن غلب الأتراك على أمرهم في إحدى معاركهم مع روسيا . وسميت (مغشوشة) لأنهم أضافوا إلى نحاسها (١٠) بالمئة فضة .

والحقيقة أن العملة المغشوشة فقط هي التي كانت رائجة في أسواق التجارة . وهي التي كانت الأيدي تتداولها في كل مكان . وأما العملة الذهبية فقد كانت تباع وتشترى بقصد الزينة فقط .

والأرقام التالية تبين لنا قيم العملة التي كانت رائجة في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٨م) :

	خالصة بارة قرش	مغشوشة بارة قرش	صاغ بارة قرش	شرك بارة قرش
الليرة العثمانية (ذهب)	١٠٠	١٠٢	١٠٧	١٢٤
المجيدي العثماني (فضة)	١٩	-	٢٠	٢٣
الوزيري العثماني (نحاس)	-	٥	٥	٦
البشلك العثماني (نحاس)	-	٢,٢٠	٢,٢٠	٣
الليرة الانجليزية الاسترليني (ذهب)	١٠٩	١١١	١١٨	١٣٦
الشلن.الانجليزي (فضة)	-	-	٥,٢٠	٦,٢٠
الليرة الافرنسية (ذهب)	٨٦,٢٧	-	٩٤	١٠٨,٢٠
الفرنك الافرنسي (فضة)	-	-	٤,٢٠	٥,١٠

ومن هذا نفهم أنه ليست النقود والمسكوكات التركية أو العثمانية فقط ، وإنما النقود والمسكوكات الانكليزية والفرنسية أيضاً (حتى والروسية والإيطالية والنمساوية والبلجيكية) -الفضة منها والذهب- كانت رائجة في بيت المقدس (١٨٩٨) . وكذلك قل عن الذهب المصري . كان لكل نوع من هذه النقود ، التركية منها والأجنبية ، أربع قيم مختلفة . وكان يطلق على هذه القيم : خالصة ، ومغشوشة ، وصاغ ، وشرك .

أما القيمة (الخالصة) فإنها قيمة الشيء عندما تدفعها نقداً (ذهباً كان أو فضة) .

وأما القيمة (المغشوشة) فهي القيمة التي تدفعها بالعملة النحاسية .

وأما القيمة (الصاغ) فهي القيمة التي تحددها الحكومة . وما كان يعمل بها إلا نادراً . وكلمة (صاغ) تركية معناها : سليم وصحيح أو غير فاسد .

وأما القيمة (الشرك) فهي القيمة التي تدفعها بالعملة الدارجة . أصلها (جوروك)

وهي تركية . ومعناها فاسد .

إن القيم الثلاثة الأولى لا تتغير ولا تتبدل . وأما القيمة الرابعة فلم تتغير وتتبدل تبعاً للزمان والمكان .

وكان على عهد السلطان محمود (١٨٠٨م) نوع من العملة يسمى : (القبق) وهو خمس نحاسات و(النحاسة) وهي بارة واحدة ، و(المتاليك) وهو عشر نحاسات ، و(القرش) وهو أربعة متاليك و(المجيدي) وهو تسعة عشر قرشاً .

أما (المتاليك) فقد كان يصنع من النحاس الأحمر ، ويطلى بنسبة ١٠٪ من الفضة . وهو أصغر من النحاسة . إنه عبارة عن عشر بارات . وأما (القبق) فإنه عبارة عن نصف متاليك (أي خمس بارات) وكان يصنع من النحاس الأحمر ، ولكنه لا يطلى بالفضة ، وهو أكبر من النحاسة . وأما (النحاسة) فإنها كانت تصنع من النحاس الأحمر ، وهي أصغر من القبق . وللقبق أجزاء هي : النصف ، والربع ، والثمن . ومن أجزائه المعروفة : (السحتوت) . وأما (البشلك) و(الوزري) فإنهما كانا يصنعان من النحاس ويطليان بماء الفضة . وهذا -على ما اعتقد- هو السبب في تسمية هذا النوع من العملة بـ(العملة المغشوشة) .

كان (البشلك) في البدء عبارة عن خمسة قروش . أي عشرين متليكاً . ثم انخفضت قيمته إلى النصف . أي قرشان ونصف القرش . وبعبارة أخرى : عشرة متاليك . والمتليك عبارة عن عشر بارات .

وهناك نصف البشلك . وهو عبارة عن خمسة متاليك .

إنه (اي البشلك) هو العملة المغشوشة . وقد سميت كذلك لأنها صنعت من النحاس المخلوط بالفضة . ونسبة الفضة فيها (١٠٪) .

وفي زمن السلطان عبدالمجيد ظلت المحمودية المغشوشة سائدة وهي : النحاسة والقبق والمتاليك والبشلك والوزري . غير أنه أضيف إليها (المجيدي) وهو مصنوع من الفضة الرباص الصافي . والمجيدي كان عبارة عن تسعة عشر قرشاً ، ثم صار عشرين قرشاً . ونصف المجيدي تسعة قروش ونصف . وربعه خمسة قروش إلا ربع . والليرة العثمانية الذهب وهي عبارة عن مئة قرش .

وفي زمن السلطان عبدالعزيز بقيت العملة المحمودية (أي البشلك والوزري والمتاليك والنحاسة والقبق) ، وكذلك العملة المجيدية (أي المجيدي والنصف مجيدي والربع مجيدي والليرة الذهب) من النقود الرابحة .

وكذلك في زمن السلطان عبدالمجيد . فإن العملة المتقدم ذكرها كلها ظلت سائدة . ولم يزد عليها سوى أن (المجيدي) طبع من جديد . وكذلك قل عن (الليرة ذهب) . وقد طبع عليها اسم السلطان عبدالحميد ، والتاريخ الذي ضربت فيه .

وفي زمن السلطان رشاد ظلت جميع أنواع العملة المتقدم ذكرها سائدة . إلا أنه أضيف إليها عملة من نوع (النكل) وهي عبارة عن :

قرش واحد = ٤٠ بارة .

نصف قرش = ٢٠ بارة .

ربع قرش = ١٠ بارات .

احتفظ القرش بقيمته الأصلية وقدرته على الشراء مدة من الزمن . ولكنه أخذ يميل إلى التدهور في أواخر العهد العثماني . فبعد أن كان القرش الواحد في (٥ جمادى الأولى سنة ١٢٠٤هـ-١٧٨٩م) يعادل ثلاثة فرنكات أو أربعة دراهم من الفضة ، والستة قروش ونصف القرش تعادل مثقالاً من الذهب ؛ أصبح القرش لا يعادل أكثر من (٢٥) سانتيماً من الفرنك (١٨٣٧م) وصارت الليرة العثمانية تساوي (٢٥٥) قرشاً والفرنسوية (٢٢٢) قرشاً والانكليزية (٢٩٧) قرشاً . وأما المجيدي فقد كانت قيمته (٤٧) قرشاً ونصف القرش .

الناحية الاقتصادية في العهد التركي

إذا أردنا أن نلقي نظرة على الناحية الاقتصادية في العهد التركي (١٥١٧-١٩١٧م) فإن علينا أن نرجع إلى السجلات القديمة المحفوظة في المحكمة الشرعية والتي تحدثنا ، بما فيها من قضايا وعقود وأوامر ، عن أخبار ذلك العهد أصدق حديث . ومتى رجعنا إلى تلك السجلات وجدنا أن نفقات المعيشة كانت رخيصة في ذلك العهد . ويتبين مبلغ رخصها إذا ما قيست بنفقات العيش في الأعوام التي تلتها . وإليك البيان :

كان قاضي المسلمين بالقدس هو الذي يعين أسعار الحاجيات وإنا لنقرأ في أحد السجلات(١) «أن القاضي حسام الدين بحضور المحتسبين(٢) محمد بن داود وعلي بن محمد بن أبي جاموس قرر أن تكون أسعار الحاجيات التالية كما يلي : الزيت الطيب (٤٨) بارة ، السمن العناني (٦٥) الدبس البلدي (١٥) الجبن (٢٤) اللبن (٣) الصابون العادي (٤٠) الصابون المشمع (٣٠) الصابون الأصفر (٢٤) اللحم الضاني (١٥) لحم الماعز (١٣) اللحم البقري (٨) . وفي نفس الأمر حديث عن أسعار الزيت ، والسكر النبات ، والسكر الحموي ، والعرق سوس ، والفولاذ ، والحديد ، والشمع ، والسيرج ، والطحين ، والخل ، والمشمش ، والنشا ، واللوز ، والقطين ، والبرقوق ، والفقوس ، والخيار ، والباذنجان ، والليمون ، والخبز ، والكماج ، حتى وملح الطعام .

ونقرأ أيضاً في السجل نفسه(٣) ، وفي السنة التي تلتها «أن مولانا الأفندي نور الله ، بعد استشارة المحتسب موسى بن داود ، قرر أن يكون سعر الكنافة المخروطة (٤) بارات والقطايف(٤) والكنافة الصينية(٥) والسميد (٦) والدقاق (٦) والطحين (٥) وجرة الطحينة من المعصرة (٣٤) بارة ومن السوق (٣٩) وقنطار العنب بوزن القدس الشريف ماية قطعة فضة سليمانية(٤) .

(١) السجل (٤٤) الصفحة (٣٥٠) السنة (٩٧٠هـ-١٥٦٢م) .

(٢) اثنان من رجال (الحسبة) وهي التي نسميها في يومنا هذا (البلدية) .

(٣) السجل (٤٤) الصفحة (٥٥٣) السنة (٩٧١هـ-١٥٦٣م) .

(٤) انظر إلى ما كتبناه عن النقود والمسكوكات التركية في موضع آخر من هذا الفصل .

وعندما توفي المدعو جريس بن موسى الراهب الشامي البيطار من سكان القدس في (١٦) صفر سنة (٩٧١هـ-١٥٦٣م) حصرت تركته بمعرفة القاضي ؛ وإذا هي[1] :

قيمة الشيء

فضة	سليمانية	نوعه
٥	بارة	فوطة[2] زرقاء
٨٠	بارة	جوخة صيني
٧	بارة	كفن
٥٠	بارة	كبر أحمر عتيق
٨٠	بارة	كبر رازي جديد
١٠	بارة	عراقيتان جوخ
٥	بارة	منشفة
٤	بارة	منديل مطرز
١٥	بارة	صندوق خشب
٢٠	بارة	ملف أزرق قطن
٨٠	بارة	ملف أزرق حرير
٢٠	بارة	طاسة نحاس
١٥	بارة	دست نحاس
٤	بارة	سكاكين صغار
٨٠	بارة	سلسلة من الفضة
٨٠	بارة	خواتم فضة عدد ٦
٥	بارة	عصا رمح خشب

وقد قدرت دار الميت الكائنة في حارة النصارى بـ(٢٠) سكة . ويظهر أن (السكة) كانت عبارة عن (١٠٠) بارة . وفي (٦ شوال ٩٧٣هـ-١٥٦٥م) عين ثمن المد من الشعير بـ(٦) بارات .

(١) السجل (٤٤) الصفحة (٥١١) .

(٢) استعملت هنا التعابير نفسها كما وجدتها في سجلات المحكمة .

وإنا إذا ما انتقلنا إلى الجيل الذي تلا ذلك الجيل وجدنا أن قنطار العنب الجندلي[1] حددت قيمته بثلاثة غروش (١٥ رجب ١٠٢٠هـ-١٢١١م) . ومد الذرة[2] بغرش واحد (١٢ شعبان ١٠٤٢هـ-١٦٣٢م) . ومد الحنطة[3] بست قطع مصرية (شوال ١٠٦٦هـ-١٦٥٥م) . وقنطار الزيت بأربعين غرشاً (ذي الحجة ١٠٦٦هـ-١٦٥٥م) .

وأما أثمان الغنم فقد كانت كما يأتي :

ثمن الرأس الواحد من الماعز أو الضأن كان قرشاً أسديا ونصف القرش . فقد ابتاع[4] رجل من رجل آخر (١٩٠) رأساً من الماعز والضأن بـ(٢٨٥) قرشاً أسدياً . وابتاع آخر (١٣٣٠) رأساً منها بألفي قرش أسدي .

وبيعت فرس حمراء عالية كبيشة بثمن جملته من (الذهب السلطاني) ثمانون سلطانياً ذهباً وقطعتان من الفضة السليمانية .

وأما أثمان الأراضي والعقارات في ذلك العهد . فقد حدثتنا عنها السجلات المتقدم ذكرها ، فقالت : «إن الخواجا شرف الدين بن المرحوم الخواجا محمد شرف الدين قد اشترى[5] من فخر المحصنات صفية خاتون حصتها . وهي السدس (أي ستة قراريط من أربعة وعشرين قيراطاً) في جميع غراس الزيتون والتين والسفرجل الإسلامي وعدة أصوله تسعة عشر أصلاً الكائن في أرض السمار بظاهر القدس بثمن قدره خمسون غرشاً من الغروش الفضية الرائجة في يومنا هذا» .

ولقد بيعت[6] نصف الدار الكائنة بالنبي داود والمؤلفة من طبقتين مع منافعهما بثمن جملته تسع وعشرون سلطانياً .

وبيعت دار كائنة[7] بحارة بني زيد بالقرب من رأس القصيلة وهي مشتملة على

---

(١) السجل (٩٢) الصفحة (١٠٠) .

(٢) السجل (١٣٠) الصفحة (٢٩٧) .

(٣) السجل (١٢٨) الصفحة (٣٥٨) .

(٤) السجل (١٢٩) الصفحة (١٤٧) السنة (١٠٥٣هـ-١٦٤٣م) .

(٥) السجل (١٠٢) الصفحة (٢٤) التاريخ ربيع الثاني (١٠٢٨هـ-١٦١٨م) .

(٦) السجل (٤٩) الصفحة (٢٠) السنة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) .

(٧) السجل (٤٩) الصفحة (٤١) السنة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) .

بيتين سفليين وإيوان ومطبخ ومرتفق وساحة سماوية بثمن جملته خمسة عشر سلطانياً ذهباً ؛ قبض البائع منها خمسة سلطانية ، والباقي مؤجلة إلى سلخ سنة من تاريخه » .

وبيع[1] نصف الدار الكائنة في حارة الواد المشتملة على بيتين سفليين وإيوان ودهليز وصهريج وبيت منهدم وشجرتي رمان ولوز بجميع حقوق ذلك وطرقه وجدره ومرافقه ومنافعه بثمن قدره عشرون غرشاً مقبوضة بيد البائع . وحكم القاضي بصحة البيع .

وبيع[2] ربع الدار الكائنة بمحلة النصارى المشتملة على أربعة بيوت سفلية وساحة سماوية وصهريج بثمن قدره عشرون غرشاً أسدياً .

وبيعت في نفس التاريخ دار بباب العمود مؤلفة من طبقتين بثمن قدره ثلاثون غرشاً فضياً أسدياً .

وبيعت دار بباب حطه وهي تشتمل على غرفتين وإيوان وصهريج ومنافع مختلفة بخمسة وسبعين غرشاً . وكان ذلك بتاريخ جمادى الأولى سنة (١١٤٠هـ-١٧٢٧م) .

«واشترى[3] غطاس وحنه ولدا بشارة ابن عظيم الرأي الرومي الحاضر معهما بالمجلس الشرعي جميع الحصة الشائعة وقدرها نصف قيراط من أصل كامل في جميع الدار القائمة البناء بالقدس الشريف بمحلة النصارى المشتملة على علو وعلو علو[4] وسفل . فالعلو (٠) منها يشتمل على ثلاثة بيوت وصهريجين معدين لجمع ماء الشتاء ، وعلى معصرة عنب وشجرة رمان ومنافع ومرافق بثمن قدره ثلاثة وعشرون زلطة» .

«واشترى الحاج محمد الحوراني من السيد عمر ابن صفي الحلبي جميع البيت الكبير الواقع بالدار القائمة البناء بالقدس الشريف بمحلة باب حطة بثمن قدره سبعة عشر زلطة مقبوضة» .

---

(١) السجل (١٠٢) الصفحة (٤) التاريخ (٢٠ جمادى الأولى ١٠٢٨هـ-١٦١٧م) .

(٢) السجل (١٠٢) الصفحة (٦٤) التاريخ (٢٠ جمادى الثانية ١٠٢٨هـ) .

(٣) السجل (٢٥٥) الصفحة (١٣٥) التاريخ غرة جمادى الثانية (١١٨٨هـ-١٧٧٤م) .

(٤) لاحظ أنني ما زلت أنقل الكلام كما وجدته في السجلات .

ولم تكن أجور العقارات مرتفعة في تلك الأيام . فقد استأجر[1] رجل الحانوت الكائن بسوق الصاغة الواقع بأسفل سوق التجار والتابع لوقف المسجد الأقصى بـ(٣٦) بارة لمدة سنة كاملة .

«واستأجر[2] كل من مصطفى بن خضر وعلي ابن الحاج خلد الحلبي من ناظر الوقف حمزة جلبي حمام الشفا وهو وقف الصخرة بمبلغ قدره عشرون قطعة فضية سليمانية» .

«وأجر[3] مولانا سيد السادات منبع العلم والسعادات قدوة المدققين شيخ الإسلام والمسلمين السيد عبدالقادر الوفائي ، لليهودية المدعوة عزيزة بنت إسحق ، جميع الدار العلوية والقاعة السفلية القائمة البناء بمحلة الشرف بالقدس الشريف سكناً وإسكاناً لمدة خمس سنوات بأجرة قدرها ستون غرشاً أجرة كل سنة اثني عشر غرشاً» .

وكان مهر المرأة أيضاً رخيصاً بهذه النسبة . وكانوا يسمونه صداقاً . وإنا لتقرأ في السجلات المتقدم ذكرها[4] «أن الصداق الشرعي سنة (٩٧٣) للهجرة (١٥٦٥م) ما زاد عن (ثلاث سكات)[5] . منها سكة ونصف مقبوضة معجلاً ، وسكة ونصف مؤجلة لأقرب الأجلين» .

وفي السجل نفسه أن رجلاً باع نصف قنطار من الطحين بثلاث سكك . إذاً صداق المرأة كان في ذلك اليوم يعادل نصف قنطار من الطحين .

ولقد «تزوج[6] حسن بن ميرو الملكاني مخطوبته خديجة بنت يوسف وأصدقها على بركة الله وعونه وحسن توفيقه وسنة نبيه صداقاً جملته تسعة غروش : الحالي من ذلك خمسة غروش . والباقي وقدره أربعة غروش مؤجلة لها عليه إلى الفراق بموت أو طلاق» .

---

(١) السجل (٤٤) الصفحة (٥٠٦) السنة (٩٧١هـ-١٥٦٣) .

(٢) السجل (٤٩) الصفحة (١٦) السنة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) .

(٣) السجل (١٠٢) الصفحة (٧٣) السنة (١٠٢٨هـ-١٦١٨) .

(٤) السجل (٤٩) الصفحة (٤١) .

(٥) جمع (سكة) . وقد بحثنا عنها مع النقود والمسكوكات في العهد التركي .

(٦) السجل (١٠٢) الصفحة (١٠) السنة (١٠٢٨هـ-١٦١٨م) .

وتزوج رجل بامرأة في نفس السنة (بعد أن حمّلته[١] خمسة وعشرين غرشاً : الحالي من ذلك خمسة عشر غرشاً مقبوضة بيد أخيها . والباقي عشرة غروش مؤجلة إلى الفراق بموت أو طلاق» .

وهناك أمثلة كثيرة أخرى[٢] تدل على أن المهر كان يتراوح في ذلك العهد بين الثلاثة غروش والستين غرشاً كما ترى في الأرقام التالية :

٣ غروش : منها غرشان مقبوضان وغرش مؤجل .

٨ غروش : منها خمسة مقبوضة وثلاثة مؤجلة .

١٠ غروش : منها خمسة مقبوضة وخمسة مؤجلة .

٢٠ غرشاً : منها عشرة مقبوضة وعشرة مؤجلة .

٣٠ غرشاً : منها ١٥ غرشاً مقبوضة و١٥ غرشاً مؤجلاً .

٣٥ غرشاً : منها ٢٠ غرشاً مقبوضاً و١٥ غرشاً مؤجلاً .

٦٠ غرشاً : منها ٤٠ غرشاً مقبوضة و٢٠ غرشاً مؤجلاً

وبقيت المهور في ذلك المستوى طوال قرن أو يزيد . إلى أن أخذ بالصعود . وإنا لنقرأ في سجلات القرن الثاني عشر للهجرة «أن[٣] فخر الفضلاء والسادات الكرام السيد موسى أفندي إمام المسجد الأقصى تزوّج فخر المخدرات الست خديجة خاتون ابنة الشيخ عبدالله أفندي خادم صخرة الله البكر البالغ ، وأنه أصدقها صداقاً جملته خمسماية زلطة : ثلاثماية منها مقبوضة ، والباقي مؤجلة إلى أقرب الأجلين» .

وأما كسوة الزوجة فقد كانت[٤] ثلاثة غروش في السنة .

وقد «ادعى[٥] منصور بن حنفي الرومي علي بكر مصطفى أنه كان باعه جارية بيضاء بتسعين غرشاً ، وإنه تأخر له من ثمنها في ذمته خمسة وثلاثون غرشاً ونصف غرش» . فحكم القاضي له بذلك .

---

(١) السجل (١٠٢) الصفحة (١١) السنة (١٠٢٨هـ-١٦١٨م) .

(٢) السجل (١٠٢) الصفحة (٧٢) السنة (١٠٢٨هـ-١٦١٨م) .

(٣) السجل (٢٥٥) الصفحة (١٣٠) السنة (١١٨٨هـ-١٧٧٤م) .

(٤) السجل (١٠٢) الصفحة (٤٨٢) السنة (١٠٢٩هـ-١٦١٩م) .

(٥) السجل (١٠٢) الصفحة (٤٨٢) السنة (١٠٢٩هـ-١٦١٩م) .

وقد «حكم القاضي[1] لفاطمة بنت اسكندر بنفقة يومية قدرها قطعة واحدة مصرية[2] يدفعها لها زوجها موسى بن الحاج علي البرادعي تلقاء طعامها وشرابها ودخولها الحمام وغسلها أثوابها» . والقطعة المصرية عبارة عن واحد من ثلاثين من القرش الأسدي .

ومن الغرائب أن نرى للمرأة صلة بالديون التي تتكون بين التجار وبالطرق المتبعة في تسديد تلك الديون . فمن ذلك ما قرأناه عن «رجل تعهد أن يدفع لمدينه المبلغ الذي في ذمته ثمن قماش في مدة معينة . حتى إذا ما حان ميعاد الدفع ولم يف المدين بتعهده كانت امرأته طالقة! . .» .

وقد «اشترى[3] إبراهيم بن أحمد خرج الليل من موسى بن ناصر الدين بن شقرق فرسه . فدفع له قسماً من ثمنها . وأبقى الباقي مشترطاً على نفسه أنه إذا غادر مدينة القدس الشريف قبل أن يوفي صاحب الفرس ثمن فرسه التي ابتاعها منه ، تكون زوجته التي في عصمته طالقة طلاقاً ثلاثاً» . وكان هذا التعهد بحضور القاضي خير الدين! .

ومن الأمثلة على مبلغ الرواتب والأجور في ذلك العهد . «أن القاضي[4] عين زين بن إمام قلعة البرك في وظيفة خدمة المرضى والمجانين بالمارستان الصلاحي عوضاً عن حجازي بن العجمية .

وقد أمره بتقوى الله في عمله وبالاستنابة عند الحاجة . وحضر المتولي على الوقف عبدالله العلمي وبقية المتولين ، وأحالوا إلى زين نظير خدمته أجرة الحاصلين الكائنين بالدباغة المعروفين بالسجن الذي كان يتناول أجرتهما حجازي المزبور الخادم السابق بما لهما من الأجرة في كل سنة وقدرها ستة غروش عددية . وقبل بذلك» .

وأجرة المدرس في المدرسة الصلاحية كانت خمسة دنانير ناصرية عن كل شهر .

وحسن آغا المجري الذي كان يلقب (تفكجي باشي) أي قائد سرية المشاة بالقدس عام (١٨٤٠) كان يتقاضى راتباً شهرياً قدره (٣٠٠) غرشاً . وكان في معيته

---

(١) السجل (١٠٢) الصفحة (٥) السنة (١٠٢٨هـ-١٦١٨م) .

(٢) وفي قضية أخرى مشابهة لهذه القضية حكم القاضي بنفقة يومية قدرها قطعة فضية سليمانية .

(٣) السجل (٤٩) الصفحة (٢٤) السنة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) .

(٤) السجل (٢٢١) الصفحة (٢٦٣) التاريخ (جمادى الأولى سنة ١١٣٩هـ- ١٧٢٦م) .

ثلاثة أنفار من التفكجية : راتب كل واحد منهم غرشان ، يتناولهما من خزينة السلطان .

ويبدو أنه ، رغم رخص الأسعار وانخفاض نفقات المعيشة التي وصفناها في الأسطر المتقدمة ، كان يعيش في القدس ، في ذلك العهد ، عدد غير قليل من الفقراء الذين لا يستطيعون كسب عيشهم بعرق جبينهم : إما بحكم أعمالهم الدينية أو لقلة المكاسب والأشغال . ذلك لأن القدس ، كما قدمنا ، كانت وما برحت بلد الأديان ؛ ولم تكن في زمن من الأزمان بلداً زراعية ، ولا صناعية . وما كانت التجار لتزدهر فيها إلا بمقدار ما لها من صلة بالحج وبالشعائر الدينية المعروفة عند الطوائف المختلفة .

ولهذا كثيراً ما سمعنا وقرأنا عن الهبات والتبرعات المالية ، ترسل إلى القدس من القسطنطينية عاصمة البلاد العثمانية . ومن ذلك ما قرأناه في الصفحة (٦١) من صفحات السجل (٢١٣) من سجلات المحكمة الشرعية يوم أرسل السلطان أحمد خان اثنين من كبار رجال الدولة هما : أمير لواء غزة هاشم محمد باشا وأمين الصرة حسين آغا (سلحدار شهرياري) . فجاءا يحملان (الصرة) عن سنة (١١٣٠ هجرية -١٧١٧م) وفيها ألفان وأربعمئة وثمانون ذهباً شريفياً (؟) عنها بحساب الذهب الطرلي (؟) ألفاً ومائة وأربعة وعشرون ذهباً شريفياً (؟) ومابة وثمانون قطعة مصرية . وقام الاثنان بتوزيع هذا المبلغ على المستحقين ؛ فقبض كل واحد منهم ما هو معين له (بمقتضى الدفتر السلطاني) . ولقد تم ذلك بحضور العلماء الأعلام ومشايخ الحرم الكرام والخطباء والأئمة والمصدرين وخدم المسجد الأقصى الشريف . . فتزايد الدعاء من العلماء والسادات والمشايخ والصلحاء والضعفاء والفقراء وجميع سكان هذه الديار القدسية . . لسلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والملحدين السلطان أحمد خان . . .) .

ويظهر أن هذا العمل تكرر طوال الحكم العثماني في هذه البلاد . وكانت (الصرة)توزع على المستحقين بمعرفة الحاكم الشرعي للمدينة .

وكانت هذه في سنة (١١٧٠هـ-١٧٥٦م) خمسة آلاف وخمسمئة وثمانين غرشاً أسدياً .

وكانت الطوائف المسيحية تتلقى مثل هذه الهبات من الغرب : الأرثوذكسيون من شرقي أوروبا ، واللاتين من الممالك الكاثوليكية .

الصناعة في العهد التركي:

لا نعرف إلا النزر اليسير عن تجارة القدس وصناعتها في أوائل العهد التركي. وإنما نعرف الشيء الكثير عنهما في أواخر العهد المذكور. فقد قيل لنا إنها القدس كانت تصنع الصابون وتصدره إلى مصر. وكانت تصنع كميات كبيرة من الأدوات المدرسية والبضائع الدينية، والعلب المصنوعة من خشب الزيتون، والصدف، وعلب الزعوط، والشموع المختلفة. وتبيعها إلى الحجاج الذين كانوا يفدون إليها من كل صوب وصوب بقصد زيارة الأماكن المقدسة. وكانت تصدر القمح إلى انكلترا وبعض البلاد الأوروبية. وكذلك قل عن السمسم وزيت الزيتون.

كان في القدس وفيما حولها من بقاع مساحات واسعة من أشجار الزيتون. وكان الزيت فيها مبذولاً بدرجة أن المقادسة في سنة من السنين كبوا الزيت القديم ليجدوا أوعية كافية للزيت الجديد. وصناعة الصابون كانت من الصناعات التي تباهي بها. كان فيها عدد كبير من المصابن. وكان في تلك المصابن عدد كبير من العمال يعيشون منها. غير أن هذه الصناعة أخذت تتضعضع بعد سنة (١٨٧٦) يوم اكتسحت البلاد أسراب كثيرة من الجراد، وأتت على قسم كبير من أشجار الزيتون[1]. فلم يبق في القدس، بعد تلك السنة، سوى سبع مصابن: خمسة منها للمسلمين. ومصبنتان للمسيحيين. كانت كل مصبنة تنتج عشرين طبخه في السنة[2]. وكل طبخة ألفا رطل. أي أن القدس كانت تنتج في كل عام (٢٨٠,٠٠٠) رطل من الصابون.

التجارة في العهد التركي:

وكانت هذه الكمية كلها، إلا القليل منها، تصدر إلى الخارج. وأكثرها إلى مصر وآسيا الصغرى. وما كانت صناعة الصابون لتدفع أي نوع من أنواع الضرائب، إلا عند التصدير.

هذا ما تمكنا من العثور عليه من المعلومات حول البضائع المصدرة. وأما المستوردة، فإليك ما عرفناه عنها:

---

(١) Warren, P. 500

(٢) سنة المصبنة ثمانية شهور فقط.

كانت القدس تستورد أكثر بضائعها من أوروبا عن طريق مارسيليا وتريست . أما عن طريق مارسيليا فكانت تأتيها البضائع الصوفية ، والحريرية ، والخمور بما تقد قيمته بـ(١٥,٠٠٠) ليرة تركية في السنة (١٨٧٦م) . وأما عن تريستا فالقزاز ، والخشب ، والأثاث وما إلى ذلك بما قيمته (٢٥,٠٠٠) ليرة .

ومن انكلترا : البضائع القطنية والصوفية بما قيمته (٢٠,٠٠٠) ليرة . وكذلك قل عن البلاد الأخرى . وكانوا يقدرون قيمة البضائع التي تستوردها القدس من الخارج بما يقرب من (١٠٠,٠٠٠) ليره تركية في السنة .

والغريب أن هذه المعاملات كلها ، سواء فيها الوارد أم الصادر ، كانت تجري بطريق الاتفاق الشفوي : الشرف سداها والأمانة لحمتها . فلا عقود ، ولا كمبيالات ، ولا سمسرة ، ولا تسجيل .

كان في القدس عدة أسواق . منها سوق القطانين وهو من منشآت المماليك . وسوق الطباخين وهو المعروف بسوق خان الزيت في يومنا هذا وهو وقف أحمد باشا بالشام . وثلاثة أسواق متوازية هي عبارة عن مسالك طويلة وعقود مستورة . وبعبارة أفصح أنفاق بنيت على الطراز القديم . أكثرها قديم العهد متداعي الأركان . وعلى جوانبها غرف صغيرة لا نوافذ فيها . وهذه الغرف هي الدكاكين . وكانت هناك ثلاثة أسواق : الغربي منها كان ينقسم إلى قسمين : القبلي منهما يدعى (سوق اللحامين) وفيه تباع اللحوم . والشمالي (سوق الجلود والنحاسين) وفيه تنظف الجلود وتبيض الأواني النحاسية . والأوسط يسمونه (سوق العطارين) وتباع فيه جميع أدوات العطارة والنجارة وأواني الخيل والخرجة والخيطان والحبال وما إلى ذلك . والثالث (سوق التجار) ويسمى أيضاً (سوق الخواجات) . وفيه تباع الأقمشة كما أن فيه أيضاً دكاكين الصاغة .

وكان أمام جميع الدكاكين ، أو أمام الشطر الأكبر منها ، مساطب لجلوس أصحابها من جهة ، وجلوس الزائرين الذين يفدون بقصد الشراء . وإنك لترى أثر هذه المساطب في يومنا هذا في سوق التجار الكائن إلى الشرق من سوق العطارين . وقد ظلت الأسواق على تلك الحال حتى سنة (١٨٦٣) إذ منعت السلطات المحلية إنشاء مساطب جديدة ، وأمرت بهدم المساطب القديمة . ورصفت الطرق التي تمر من هذه الأسواق بالبلاد .

وفي سنة (١٨٨٥) رفع البلاط القديم من شوارع القدس وأزقتها ، ووضع بدلاً منه

البلاط الذي نراه في يومنا هذا . ولقد رفع وسط الشوارع ارتفاعاً قليلاً ، وأنشئت على جوانبها أقنية تجري مياه الأمطار فيها . وقد حدثنا الكهول أن الحكومة استخدمت يومئذ عدداً كبيراً من المساجين من أجل رصف الشوارع وتنظيفها .

ويظهر أن هذه الأسواق القديمة التي سمعنا بوجودها أيضاً في الفتح الصليبي وعلى عهد صلاح الدين ، لم تكن وافية بالغرض . فقد قرأنا في السجلات التركية[1] «إن وفداً مختلطاً من تجار المدينة مؤلفاً من الشيخ عماد الدين بن مسلم والخواجات[2] علاء الدين بن شرف الدين الرومي وشهاب الدين أحمد بن العلامة الشيخ زين العابدين ، وميخائيل بن الصبان ، وعبد المسيح بن جبارة ، ويوسف بن عبدالكريم اليهودي ، وأخوه إبراهيم ، وموسى بن كتيلة ، وسلمون بن شداد ، وأخوه إيليا ، ويهودا الأرمني ، وحليف بن شحادة ، وشوعة بن منصور ، ورحمين بن يوسف ، وسلمون بن صوفان ، وسعيد بن النجار المغربي ، وعيسى بن حسان ؛ جاء إلى المحكمة الشرعية . وبحضور مولانا القاضي جار الله أفندي ، تم الاتفاق بينهم وبين علي بن الشيخ شمس الدين المصري الوكيل الشرعي عن ناظر الحرمين الشريفين مولانا حمزة جلبي ، على أن يعمر لهم في سوق الخضر أربعين دكاناً ، وأن يدفعوا له في نظير تلك العمارة أربعين سلطانياً[3] ذهباً ، وذلك نظير أجرة سنة من السنين الآتية في أجرة الأربعين دكان بالسوق المزبور الجاري في وقف المسجد الأقصى الشريف . وبعد تمام ذلك دفعوا للشيخ علي المذكور عشرة سلطانية ذهب لأجل إزالة القمامات التي بالسوق ولأجل عمارته . وإنها إذا نفذت يعطوه بقية الأربعين لأجل بقية العمارة . واشترطوا على أنفسهم أن السوق المزبور ، إذا تم ولم يستأجروا فيه الدكاكين المعينة ، يكون المبلغ الذي دفعوه للمسجد الشريف على سبيل التبرع لا حق لهم فيه» .

وكانت الساحة الواقعة أمام كنيسة القيامة تستعمل كسوق لبيع الشمع والصدف والكتب الدينية للحجاج من النصارى الذين يفدون إلى القدس بقصد زيارة الأماكن المقدسة . كما كان يجتمع في تلك الساحة عدد كبير من التجار والصيارفة .

كان في القدس يومئذ (١٨٧٦م) ألف وثلاثمئة وعشرون دكاناً . يشتغل فيها

---

(١) السجل (٤٤) الصفحة (٣٨٢) السنة (٩٧٠هـ-١٥٦١م) .

(٢) جمع (خواجا) وهي لقب الرجل الذي كان يتعاطى التجارة في ذلك العهد .

(٣) انظر إلى الفصل الذي خصصناه لبحث النقود في العهد التركي .

(١٩٢٠) رجلاً يجوز إدخالهم في مصاف أرباب الحرف والصنائع والمهن . وإليك تصنيفهم[1] حسب حرفهم وأجناسهم وأديانهم :

	المهنة	يهود	مسلمون	روم	لاتين	برتستانت	ارمن	يكون
١	فرانة	١٠	٥٢	١٥	-	-	-	٧٧
٢	اصحاب بنوك	٤	-	-	-	٢	-	٦
٣	حلاقون	٩	١٢	٥	٢٢	-	٨	٥٦
٤	حمامجية	-	٣٧	-	-	-	-	٣٧
٥	مجلدو كتب	٦	١	-	-	-	-	٧
٦	بائعو كتب	-	١	-	-	-	١	٢
٧	بائعو خبز	-	٢	١٠	١٢	-	-	٢٤
٨	قصابون	٧	٢٩	-	-	-	-	٣٦
٩	تجارون	١١	٢	١٢	٢٠	١	-	٤٦
١٠	بائعو فحم	٩	١	١	-	-	-	١١
١١	بائعو الدجاج	٦	٢	١	-	١	-	١٠
١٢	طاحنو قهوة	٥	٢٤	١	-	-	-	٣٠
١٣	صانعو النعوش	-	٦٦	٨	٩	-	٣	٨٦
١٤	طهاة	-	١	٤	-	-	-	٥
١٥	تجار حبوب	-	١٢	-	-	-	-	١٢
١٦	تجار قطن	-	٢	١	-	-	-	٣
١٧	صيادلة	٥	-	-	٣	-	-	٨
١٨	صباغون	١	٢٧	-	-	-	-	٢٨
١٩	طحانون	٣	١٨	-	-	-	-	٢١
٢٠	دكانجية	٦٩	٥٣	٨	٥	٧	١	١٤٣
٢١	بائعو قزاز	٢	١٦	١	-	-	-	١٩
٢٢	خضرجية	١٧	٦٧	٣	-	١	-	٨٨

(١) Warren, P. 490

٢٣	سمانة (بقالة)	٥١	٨٦	٢٨	١٣	٧	٤	١٨٩
٢٤	خانجية	-	٥	-	-	-	-	٥
٢٥	بائعو الكلس	-	-	١	-	-	-	١
٢٦	كبابجية	-	٩	-	-	-	-	٩
٢٧	طراقون	١٧	-	-	٣	-	٢	٢٢
٢٨	تجار اواعي عتق	٥	٢	-	-	-	-	٧
٢٩	باعة متجولون	٢	٥	٣	-	-	-	١٠
٣٠	مصورون	-	-	٣	-	١	-	٤
٣١	صانعو الغلايين	-	٣	-	-	-	-	٣
٣٢	بائعو فخار	-	١١	-	-	-	-	١١
٣٣		-	٨	-	-	-	-	٨
٣٤	كندرجية	٨٣	٥١	٤١	٢٢	٦	٢٧	٢٣٠
٣٥	تجار حرير	١٩	-	-	-	-	١	٢٠
٣٦	معاصر للسيرج	-	٢٩	٣	-	-	-	٣٢
٣٧	تجار جلود	-	٢	-	-	-	-	٢
٣٨	حدادون	٧	-	٣	١٨	-	-	٢٨
٣٩	صاغة	١٥	-	٢٩	٩	-	٤	٥٧
٤٠	تنكجية	٣٤	-	٢	-	-	-	٣٦
٤١	تجار زعوط	٣	٣	١	-	-	-	٧
٤٢	اصحاب مصابن	-	٥٠	٢٤	-	٢	-	٧٦
٤٣	تجار صابون	-	١	٧	-	-	-	٨
٤٤	أصحاب إسطبلات	-	١٣	٦	-	-	١	٢٠
٤٥	بائعو سكر	٩	-	١	-	-	-	١٠
٤٦	صانعو حلويات	-	٢٩	٣	-	-	-	٣٢
٤٧	خياطون	٣٤	-	١٠	١٠	٢	٦	٦٢
٤٨	بائعو الدخان والتبغ	٥	١٤	١٦	-	١	١	٣٧
٤٩	ساعاتية	١٩	-	-	-	٢	٢	٢٣
٥٠	تجار خمور	١١	-	٤٣	٢	-	٢	٥٨

٥١	تجار خشب	٣	-	٣	-	-	-	٦
٥٢	تجار صوف	-	٨	-	-	-	-	٨
٥٣	كتاب عرض حالات	-	٧	-	-	-	-	٧
٥٤	ارباب مهن متنوعة	٢٠	٤٧	٥٧	٨	٧	٦	١٤٥
٥٥	صانعوا أسلحة	-	-	٣	-	-	-	٢
		٥٠١	٨٩٧	٣٥٧	١٤٦	٤٠	٦٩	١٩٢٠

ملاحظة : تشير كلمة الروم إلى العرب الأرثوذكس واليونان والروس .

تشير كلمة اللاتين إلى العرب والطليان والفرنسيين .

تشير كلمة البروتستانت إلى اليهود المتنصرين والعرب المنتمين إلى الطائفة الانجيلية العربية .

كانت هناك مصلحة للبرق والبريد . وكانوا يسمونها : (بوستة وتلغراف) . وكان يديرها موظف واحد يسمونه : (تلغراف وبوستة مديري) . كذا رأيناها في (١٨٧٦ و١٨٩٨ و١٩٠٨) . ثم فصلت إلى دائرتين . وجعل لكل منهما مدير : مدير التلغراف (البرق) ، ومدير البوستة (البريد) . لا ندري متى تم ذلك؟ ولكنا رأيناهما على هذا الشكل في عام (١٩١١) . وظلتا كذلك حتى الحرب الكبرى (١٩١٤) . وما كان عدد الموظفين في كل واحدة منهما ليزيد على عدد أصابع اليد[١] . ولم يكن ثمة خطوط للمخابرات التلفونية .

وإلى جانب مصلحة البرق والبريد التركية التي كانت تعمل في عمارة صغيرة بسويقة علون[٢] كانت تقوم ، خلال القرن التاسع عشر ، مصلحة للبرق والبريد نمساوية[٣] . إن هذه المصلحة التي كانت تعمل في حارة الأرمن ،كانت تسير وفقاً لأنظمة البرق والبريد التي تسنها حكومة النمسا من وقت لآخر .

كان البريد يسير بين القدس ويافا في عربة تجرها الخيل ، وكانت هذه تغادر القدس في المساء وتعود من يافا في الصباح . ولما أُنشىء الخط الحديدي بين المدينتين (١٨٩٢) استعمل القطار لنقل البريد التركي فقط . وأما البريد الأجنبي فقد ظل يستخدم العربات التي تجرها الخيل .

ومن الوظائف التي سمعنا بوجودها في القدس ، في أوائل العهد التركي :

---

(١) قال وارن في الصفحة (٤٩٢) من كتابه أنه كان في القدس عام ١٨٧٦م) مأمور واحد للبريد ، وثلاثة مأمورين للبرق ، وأنا أقول أن عدد موظفي البريد والتلفون في القدس في يومنا هذا (١٩٤٦) ألف .

(٢) سوق الخضار القريب من القلعة .

(٣) السير السليم في تاريخ أورشليم (ص٢١٤) .

(كتخدا[١]) و(كهيا[٢]) والمفتي[٣] ، وكاتب بيت المال[٤] ، وناظر الأوقاف العامة[٥] ، ومأمور مياه الأوقاف[٦] ، ومأمور الأيتام[٧] ، ومتولي أوقاف الحرمين ، والمعمار المسؤول عن تعمير السور[٨] ، والرئيس المعمارين[٩] وكانوا يسمونه (معمار باشى) ، والمحتسب[١٠] ، وشيخ السوق ، مقدم العتالين[١١] .

ومن الوظائف التي كانت فيها ، في أواخر الحكم التركي ، المحاسب ومدير التحريرات والمفتي ومدير المعارف ومدير الأوقاف ومدير النفوس ومدير الأمور الأجنبية ومدير التحرير والويركو ومدير الديون العمومية ومدير الأراضي السنية ومدير الأوراق ومأمور البنك الزراعي ومأمور الزراعة الفني ومأمور الدفتر خاقاني والمفتش البيطري وسر مهندس النافعة ومفوض سكة يافا - القدس الحديدية ومأمور المعية .

ولقد أتى على الأتراك حين من الزمن كانوا فيه يعتبرون (رئيس البلدية) موظفاً ، ويدخلونه في عداد مأموري الحكومة ، ويذكرونه في السجل الذي كانوا يصدرونه في كل سنة والذي يشتمل على أسماء موظفي الدولة كلهم : من السلطان إلى الوزراء

---

(١) نائب المتصر أو وكيله .

(٢) كاتم أسرار المتصرف .

(٣) وكان يطلق عليه (شيخ الإفتاء والتدريس بمحروسة القدس الشريف) السجل (٤٣ ص ١١، السنة ٦٧٥هـ-١٥٦٧م) .

(٤) السجل (٤٤) الصفحة (٥٥١) السنة (٩٧١هـ-١٩٧٠م) .

(٥) جاء ذكر (ناظر أوقاف القدس الشريف) في السجل (٢٣٧) السنة (١١٦٦هـ-١٧٥٢م) . وبعد ذلك بقرن راحوا يبحثون ع (ناظر النظار) وهو المسؤول عن أوقاف القدس وغزة والرملة ونابلس والمجدل وجنين (١١٧٤هـ) .

(٦) السجل (٧) الصفحة (١٣) السنة (١٣٢٨هـ-١٩١٠م) .

(٧) كان هناك صندوق للأيتام ، وكانت حساباته تدقق من لدن قاضي الشرع .

(٨) السجل (١٢) الصفحة (١٦) السنة (٩٤٧هـ-١٥٤٠م) .

(٩) السجل (١٠٢) الصفحة (٤٠٨) السنة (١٢٧٩هـ-١٨٦٢م) . والسجل (٣٤٦) الصفحة (٢٠٦) السنة (١٢٨٩هـ-١٨٦٢م) .

(١٠) رئيس البلدية انظر إلى الفصل الذي خصصناه لبلدية القدس .

(١١) السجل (٤٩) الصفحة (٥٦) السنة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) .

إلى الولاة إلى المتصرفين إلى أصغر الكتاب في مختلف المصالح والدواوين. وباستطاعتنا أن نؤكد، بعد أن طالعنا عدداً من هذه السجلات، أن موظفي القدس ما كانوا ليزيدوا على المئة، وأن كلهم عرب مسلمون؛ خلا بضعه أتراك لا يجاوزون عدد أصابع اليد.

الأمن:

كان الأمن، في بداية الأمر، موكولاً لقائد كبير لقبه: (بايراقدار). ويقال له أيضاً (أمير اللواء) مثل كيوان بك أمير لواء القدس في (٩٧٥هـ-١٥٦٧م) وسليمان بك (٩٧٦هـ-١٥٦٨م) (أمير اللواء). وكان الجند الذين يأتمرون بأمره فريقان: فريق الخيالة ويلقبون: (باشي بوزوق) وضابطهم برتبة آغا. وفريق المشاة ويدعون: (تفكجي[١]). وقائدهم (تفكجي باشي[٢]). هؤلاء مسؤولون عن حفظ الأمن والحيلولة دون أي اعتداء يقع على المدينة من الخارج. وأما الأمن في داخل المدينة فالمسؤول عنه (صوباشي مدينة القدس[٣]) (١٥٦٥م).

وفي القلعة حامية من المشاة قائدها يلقب بـ(دزدار قلعة القدس). ومساعده كتخدا قلعة القدس. ومعهما ضابط برتبة (بلوك باشي). وحامية من المدفعية قائدها (طوبجي باشي[٤] القلعة المنصورة السلطانية) (١٥ رمضان ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م). هناك أمر ممضي[٥] من قاضي القدس محمد حمدي أفندي بصفته قائمقام والي صيدا محمد عزة باشا موجه إلى أحمد آغا مراد ينتدبه ليتولى هذا المنصب (أي قيادة المدفعية) بماهية[٦] قدرها ألف غرش، وخمسة أقق[٧] خبز في كل يوم، وعليقتين

(١) أصلها (تفتك جي) أي حامل البندقية.

(٢) كان حسن آغا الجري تفكجي باشي القدس عام (١٨٤٠) وكان راتبه الشهري (٣٠٠) غرشاً. وكان في معيته ثلاثة أنفار من التفكجية راتب كل منهم في اليوم غرشان يتناولها من خزينة السلطان.

(٣) السجل (٤٩) الصفحة (٤٧) السنة (٩٧٣هـ-١٥٦٥م). وكثيراً ما يذكر اسمه غلطاً هكذا: سوباشي.

(٤) «طوب» كلمة تركية معناها: المدفع. و«طوبجي» المدفعي.

(٥) الأصول العربية لتاريخ سورية.

(٦) «ماه» كلمة فارسية معناها الشهر و«ماهية» الراتب الشهري.

(٧) جمع «اقة» وهي ٩٠٠ درهم.

شعير . ومعه (٥٤) نفر طوبجيه وستة أنفار أسطاوات[1] . لكل نفر ثمانين غرشاً في الشهر ، ونصف أوقة خبز في اليوم . ولكل أسطه مايتا غرش شهرياً ، وأرقة ونصف خبز يومياً . ولدزدار القلعة بدل علف قدره (عشرون فضة) . وفي البلد فريق من الخيالة يطلق عليهم : (سباهي) و(سباهية) .

وهناك (ناظر الأخباز للعساكر السلطانية[2]) بالقدس . يعينه الوالي بصفته سر عسكر[3] . وماهية هذا الناظر (٣٠٠) غرش أسدي في الشهر ، و(٣) أقق خبز في كل يوم . وكثيراً ما جاء في السجلات التركية ذكر (يكيجري باشا[4] المحتشم في القدس الشريف) . وهذا كان طبعاً قبل إلغاء المنظمة المعروفة بـ(الانكشارية) في البلاد .

ولقد نظم الأتراك مصلحة الأمن في زمن السلطان محمود الثاني (١٨٠٨) وبعد . فقسموها إلى قسمين : شرطة ودرك . أو كما كانوا يقولون : (بوليس وجاندرمة) . وما كانت قوتهم في كلا هذين القسمين لتزيد عن ستين جندياً . يرأس الجاندرمة قائد يسمونه (جاندرمة قومنداني) . ومن قادة الدرك الذين اشتهروا بالقدس في أواخر العهد التركي : علي بك بن بدرخان باشا (١٨٩٨م) . ويوسف آغا الدزدار (١٩٠١م) .

وأسسوا دائرة للعدل . وكانت أحكام محاكم فلسطين تستأنف إلى الشام . ثم إلى بيروت . ثم امتازت القدس ، فصارت متصرفية مستقلة تخابر الآستانة مباشرة

---

(١) جمع أسطة . وهي كلمة تركية معناها الرجل الخبير .

(٢) عين إبراهيم آغا هاشم ناظر الأخبار السلطانية بالقدس في (٢١ رمضان ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م) .

(٣) (سر) كلمة فارسية معناها : الرأس . و(سر عسكر) رأس العساكر أو قائد الجيش .

عثرنا في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس (السجل (٢٤٤) الصفحة (٣) السنة (١١٧٤هـ-١٧٦٠م) . على محضر دونه القاضي وفيه قرض على مدينة القدس أن تزود (دائرة جناب حضرة أفندينا ولي النعم) عندما تحط رحالها في منطقة القدس في أثناء الدورة التفتيشية بالمقادير الآتي ذكرها من (الذخيرة) في كل يوم ؛ وهي (بالأوقة) : خبز (٣٠٠٠) لحم (١٥٠٠) أرز ، (١٥٠٠) سمن ، (٣٧٥) عسل ، (٣٠) دقيق ، (٤٠) حمص ، (٢٠٠) ملح ، (٣٠) لبن ، (٣٠) حليب ، (٣٠) سكر ، (٨) (وبالعدد) غنم (١٥) بيض ، (٣٠٠) دجاج ، (٣٠) وبمقادير كافية من الخضار والحطب والتبن . ولم نهتد إلى معرفة ما إذا كانت الحكومة تدفع أثمان هذه الحاجيات أم لا؟ .

(٤) السجل (٢٣٧) السنة (١١٦٥هـ-١٧٥١م) .

في الأمور الإدارية . ولقد تأسست فيها ، في أوائل القرن العشرين ، محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس ، وظل لواء عكا ملحقاً ببيروت . ورغم أن الأتراك قبضوا على زمام الإدارة أحسن من قبل ، إلا أن نفوذ أمراء الإقطاع ومشايخ البلاد لم ينقطع . وإن كان قد تضاءل بالنسبة إلى الماضي .

كان الأمن في داخل المدينة وخارجها ، على عهد الأتراك ، تارة يستتب وطوراً يضطرب . وفي أغلب الأحايين يكون مفقوداً بالمرة . ففي عهد السلطان سليمان (٩٢٦هـ-١٥٢٠م) نسمع أن السلطان عهد بحراسة طريق القدس - يافا إلى آل أبي غوش . وأجاز لهم أن يحصلوا من السياح الذين يسلكون تلك الطريق بعض لعوائد المقررة .

وفي العهد الأخير أيضاً سمعنا أن الحكومة كانت تهتم بخفارة الطريق الكائنة بين القدس - ويافا ، وإنها في سنة (١٨٩٠م) أقامت على تلك الطريق خمسة عشر مخفراً لحراستها ، يرابط في كل مخفر منها عدد من الجند بقصد حماية المسافرين .

وفي القلعة المسماة (قلعة مراد[١]) بالقرب من برك سليمان وضعت حامية قوامها أربعون جندياً مزودين بالمدافع والبنادق والأسلحة المختلفة الألوان بقصد حراسة منابع الماء والقناة التي تسيل فيها مياه العروب إلى القدس .

وكان الأمن يفقد بالمرة عندما تشغر (الباشوية[٢]) فلا ينتدب إليها أحد . كما جرى في سنة من السنين (١٨٥٣م) خلال حرب القرم . فإن هذا المنصب ظل شاغراً بعد موت يعقوب باشا . وأخذ يدير القدس عدد من الأفندية غير المتجانسين! فاستغل القرويون هذه الفرصة وراح كل واحد منهم يسترد حقه ، والحق الذي يدعي به ، بيده . وكان نفوذ الحكومة يومئذ ضئيلاً لدرجة أن الإنسان إذا ذهب إلى قائد الشرطة يشتكي أمره يقول له هذا : (إلي بالفاعل ، وأنا أكسر رأسه[٣]) .

كانت الحامية التركية ترابط في القلعة المعروفة ببرج داود والقائمة على مقربة من باب الخليل من الجهة الشرقية الجنوبية . وفيها كانت مدافع الأتراك وسائر معداتهم الحربية . وأما الثكنة الكائنة إلى الجنوب الشرقي من هذه القلعة ، فقد

---

(١) قلنا في فصل المياه أن هذه القلعة بنيت على عهد السلطان مراد سنة (١٦٢٢) للميلاد .

(٢) منصب الباشا وهو لقب (المتصرف) المسؤول عن الإدارة .

(٣) J. Finn, P. 441

كانت معدة لسكن العساكر الشاهانية[1] . وكانوا يسمونها : (القشلة الفوقانية) . وكانت في القدس قشلة أخرى يسمونها : (القشلة التحتانية) أو السرايا القديمة ، وهي على طريق باب حطه وإلى الشمال من الحرم . وعلى كل باب من أبواب المدينة نفر من الجند بقصد الخفارة ، وكان هؤلاء يتناوبون الخفارة ليلاً ونهاراً .

ولقد كان في مدينة القدس ، عام (١٨٧٦م) اثنان وعشرون[2] شرطياً ، كلهم مسلمون .

حاول الأتراك في أوائل القرن التاسع عشر فرض التجنيد الإجباري في البلاد . ولكنهم عادوا فعدلوا عن قصدهم ، لاعتقادهم أن العرب يكرهون ذلك . أو لم يثوروا ضد محمد علي باشا وولده إبراهيم من أجل ذلك؟ إذا فليلجأوا للتطوع . راحوا ينادون الناس للتطوع ، ويحثونهم عليه . ولكن دون جدوى . إذ لم يتقدم من سكان القدس سوى عربي مسلم واحد (هو فلاح من العيزرية) وعربي مسيحي واحد (بروتستاني المذهب) وأرمني جاء إلى القدس حديثاً من إيران وماروني وراهب يوناني ويهودي! معنى ذلك أن حركة التطوع فشلت ، وأن الناس لم ينظروا إلى التطوع نظرة الرضا ، الأمر الذي جعل الحكومة تعدل عنه بالمرة . فراحت تفرض التجنيد الإجباري . وكان ذلك على عهد السلطان عبدالمجيد . ولقد عثرنا على قرمان[3] أذاعه السلطان المشار إليه بتاريخ محرم الحرام سنة (١٢٥٦هـ-١٨٤٠م) اعترف فيه «بأن المملكة العثمانية لا تزال منذ مئة وخمسين سنة في ثورات متعاقبة وقلاقل مختلفة الأسباب . منها ضعف الحكومة وفقرها وعدم انتباه الناس للشرع والقانون» . ولقد وضع قوانين جديدة تضمن للناس الأمان ، وتحفظ لهم أموالهم وأعراضهم . ووضع نظاماً جديداً للضرائب . ومن التدابير الجديدة التي اتخذها فرض التجنيد الإجباري . وبموجب هذا النظام الجديد كان يدعى للانخراط في الجندية كل ذكر مسلم دخل في العشرين من عمرة . وكانت مدة الخدمة في الجيش خمس سنوات . ثم خفضت إلى أربع . والذي يدفع لخزينة الدولة خمسين جنيهاً يعفى من الخدمة . ثم رفع (البدل) إلى ستين .

---

(١) جنود السلطان .

(٢) Warren, P. 492

(٣) إرادة السلطان . قال الأستاذ أسد رستم أنه عثر على نسخة من هذا الفرمان في سجلات المحكمة الشرعية بيافا .

يستثنى من الخدمة ومن دفع البدل أيضاً كل من كان وحيد أبويه ، أو تزوج امرأة غريبة أو عبدة . وأما المسيحيون فكانوا يستثنون من العسكرية لقاء مجيديين يدفعهما الواحد منهم في السنة .

ونود أن نعترف هنا أن عرب فلسطين المسلمين وإن كانوا هم الذين حملوا وحدهم عبء الجندية في ذلك العهد ، إلا أن هذا العبء الثقيل في ظاهره نفعهم كل النفع . فعودهم على الشدة والنظام والاغتراب وشظف العيش والمشي والاعتماد على النفس واختبار أحوال هذا الكون وحمل السلاح وما إلى ذلك من الفضائل والمنافع التي يقتبسها المرء في الجيش والغربة . وبهذه المناسبة نقول أن السلاح الذي كان الناس يعولون عليه في الدفاع عن أنفسهم عبارة عن (بندقية) طويلة من النحاس تعبأ تعبئة ، و(خنجر) يضعونه على جنبهم . ومن آلات الضرب والقتال (النشاب) . وكان هذا كثير الاستعمال في أوائل الحكم التركي . وكثيراً ما تقرأ في سجلات المحكمة الشرعية «أن فلاناً من الناس ضرب[١] فلاناً بنشاب أصابه في سلسلة ظهره» أو في أي مكان آخر من جسمه ، فتتأكد أن النشاب آلة من آلات الضرب والقتل في ذلك الحين .

وعلى ذكر السلاح نقول أن اقتنائه كان مباحاً في القدس وفي جميع أنحاء المملكة العثمانية . وأن هذه الإباحة ظلت سائدة حتى أواخر القرن التاسع عشر ؛ فمنعت تجارته ، ومنع اقتناؤه[٢] ونقله بأية وسيلة كانت ولأي قصد كان .

ثورة نقيب الأشراف:

في سنة (١١١٧هـ-١٧٠٥م) ثار نقيب أشراف القدس السيد محمد على الحكومة . فالتف حوله عدد كبير من المقادسة ورجال القرى المجاورة . وحاصروا القلعة وحصروا القاضي وموظفيه فيها . فساق عليهم والي الشام محمد باشا عدداً كبيراً من الجند لتأديبهم . إذ لم تكن قوة الأتراك المرابطة في قلعة القدس كافية للقيام بهذه المهمة . وجاء الوالي نفسه على رأس تلك القوة . وتمكن من التغلب على الثائرين . لسنا ندري ماذا كان مصير قائد الثورة السيد محمد النقيب . ولكننا نعلم أن قصره قد

---

(١) السجل (٤٩) الصفحة (٢١) التاريخ ١١ شوال (٩٧٣هـ-١٥٦٥م) .

(٢) السجل (٢) الصفحة (٣٦) التاريخ ١٥ ربيع الأول (١٣٠٨هـ-١٨٩٠م) .

هدم، وعمرت بحجارته قبة الشيخ المنسي. تلك القبة القريبة من مقام النبي داود. ومنع الأتراك أنجاله من مغادرة المدينة[1].

لقد حدثتنا سجلات المحكمة الشرعية بالقدس عن الحادرث المذكور أصدق حديث. فاستمع إليها[2] ماذا تقول: «في ٢٥ جمادى الآخرة ١١١٧هـ- ١٧٠٥م) جاء (بيوردي[3]) من حضرة محمد باشا والي الشام؛ وفيه ما يلي:

«صدر المرسوم المطاع الواجب القبول والاتباع إلى كل ناظر ومستمع لما فيه من المشايخ والسادات والأعيان والرعايا وسائر البرايا من أهالي القدس الشريف. هو أنه صدرت إلينا الأخبار الأكيدة من ذلك الطرف وهو أن نقيب الأشراف السيد محمد قد أتم الإصرار والعناد على العصيان والشقاوة. حتى أنه الآن حاصر افتخار العلماء والأفاضل حضرة المنلا[4] في داخل القلعة وآلاي بيك.

«والحاصل كلمن[5] التقى في طرق الشرع الشريف حاصره. وأظهر الطغيان ومخالفة الشرع... ولم يدر ونسى ما يظهر من وراء ذلك... ومع النهي عن القتال والمحاربة في تلك الأماكن المقدسة إذ هو عرش الله الدنى. فحيث أننا مأمورين بانتظام الأحوال في هذه الأماكن الشامية والديار المقدسة وغيرها من العربان والقرايا والبلاد والرعايا. حين بلغتنا هذه الأخبار مع أننا متوجهين إلى تلك الديار. وأوجب تحرير هذه الحروف إلى سائر الواقفين عليه ممن هم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من أهالي القدس الشريف. وهو أنكم تكونوا مقيمين عند افتخار العلماء والمحققين حاكم الشرع الشريف، مؤتمرين بأمرنا، تاركين لمن أظهر العناد النقيب المذكور. فإنا إن شاء الله تعالى في غرة الشهور نكون في تلك الديار نازلين بعساكرنا. وعليكم أن

---

(١) عرف الأتراك شعور العرب، فراحوا يعملون على استغلاله. فكانوا، إذا ما ثارت ثورة في البلاد، يمنعون الرؤساء من مغادرة المدينة. ويحتفظون بهم كـ(وساقة) إلى أن يلقي الثوار السلاح الذي في أيديهم.

(٢) السجل (٢٠٣) الصفحة (٤٤).

(٣) أمر من مقام سام.

(٤) لقب حاكم الشرع أو القاضي.

(٥) يقصد أن يقول «كل من».

تقبضوا على النقيب وتقيدوه إلى حين حضورنا . يكون سبباً لخلاصكم من الملام» .

وفي (٦) رجب جاء بيوردي ثان (من محمد باشا إلى دزدار القلعة) . وقد جاء فيه : «أن أحوال محاصرتكم بقلعتنا وإلى الآن عملتم صيانة ومتانة لقلعة السلطان . فهذا المامول . ومثلكم من يكون قول السلطان . فيجب لكم علينا رأي الله وأمانة وحسن النظر بما يلزم لكم فإنكم أصدق الخدام . والمراد تطيبوا خواطركم وتعملوا متانة إلى حين قدومنا . فإننا بعد اربع أيام نكون عندكم ، ومعنا الآت حرب كثيرة مثل مدافع وقنبرات . فلا يكون خاطركم إلا طيب من ساير الوجوه» .

وفي نفس التاريخ (أي ٦ رجب ١١١٧هـ) تلقى (مصطفى آغا مير آلاي القدس وسائر الزعماء وأرباب التيمار) من محمد باشا والي الشام (بيوردى) ثالث يخبرهم فيه «إنني آت مع عساكري عن طريق إربد[١] وإني سأكون فيها في ٨ رجب . وبعد أربع أيام نكون عندكم . ومعنا عساكر كثيرة وآلات حرب مثل مدافع وقنبرات[٢] وغيرها . اعلموا ذلك وإياكم تسليم القلعة» .

تغلبت الحكومة على الثورة كما قدمنا . ولا ندري إذا كانت تمكنت من إلقاء القبض على النقيب أم تمكن من الهرب . ولكننا نعلم أن أمير الأمراء مصطفى باشا أمر معمار باشي القدس الشريف[٣] أن ينقل الحجارة من قصر النقيب (ومن هذا نفهم أنهم هدموه) وأن يعمر بها قبة الشيخ المنسي بجانب مقام النبي داود . وسنحدثك عن هذا الشيخ ومقامه في موضع آخر من هذا الكتاب .

ثورة حمور:

يظهر أن الأتراك ما كادوا يطفئون ثورة نقيب أشراف القدس في رجب (١١١٧هـ-١٧٠٥م) ؛ حتى رأوا أنفسهم ، بعد شهر واحد لا أكثر ولا أقل ، تجاه ثورة ثانية . إذ إنا عثرنا[٤] بين سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على تقرير دزدار القلعة جاء فيه : «أن حمور ابن كتخدا القلعة شقاوته متزايدة وفساده تأكيد» .

---

(١) اختار طريق أربد لأجل تسكين ثورة كليب التي كانت مشتعلة في جبل عجلون .

(٢) قنابل .

(٣) السجل (٢٠٣) الصفحة (٤٨) .

(٤) السجل (٢٠٣) الصفحة (٥٠) التاريخ ٢٣ شعبان (١١١٧هـ-١٧٠٥م) .

هذا كل ما نعلمه عن هذه الثورة . ولم نتمكن من العثور على تفصيلات في هذا الموضوع .

ثورة الإنكشارية:

قلنا في موضع آخر من هذا الكتاب إنه عندما احترقت كنيسة القيامة بالقدس في (٣٠ أيلول ١٨٠٨) اتهم الأرمن بحرقها . وأن الروم حصلوا على أمر من السلطات التركية بتعميرها . فثار الانكشارية لهذا الخبر . وعلى قول أن الأرمن هم الذين حرضوهم على الثورة . وراحوا يحاصرون المتسلم مصطفى آغا تيزيني (١٢٣٥هـ-١٨١٩م) في دار الحكومة . وطلبوا منه أن يتولوا حماية القلعة بدلاً من الجنود الذين أرسلهم الوزير كنج يوسف باشا من الشام . وهددوه بالقتل ، إذا هو لم يذعن لمطالبهم . ومن مطالبهم إيقاف الروم ومنعهم من الاستمرار في عمارة الكنيسة .

اجتمع المتسلم إلى رؤساء الثائرين . وأبدى رغبته في تنفيذ إرادتهم . لكنه استمهلهم بضعة أيام ريثما يستشير جناب الوزير بالشام . فقبلا نصيحته فيما يتعلق بأمر الحامية . ولكنهم لم يقبلوها من حيث التعمير . بل خرجوا من عنده ، وذهبوا تواً إلى الكنيسة ، قاصدين قتل العمال والبنائين . فلم يجدوا سوى واحد منهم . إذ كان الآخرون قد هربوا . فهدموا جميع البناء الجديد . ومن هناك ذهبوا إلى دير الروم ، فنهبوه . وسجنوا الرهبان في مخادعهم . وراحوا يبحثون عن الترجمان (أفركيوس) ليقتلوه ، إذ كانوا يعدونه رأس البلاء فيما جرى . ولكن هذا كان قد اختفى[1] .

بينما كان الإنكشارية منهمكين في ثورتهم ، كان رسل المتسلم قد وصلوا إلى الشام بعد يومين من مغادرتهم القدس وأخبروا يوسف باشا بما جرى . فهيأ هذا على الفور قوة من الجند مؤلفة من عدد من الخيالة المغاربة بقيادة ضابط يدعى (أبو ذريعة) . وساقهم إلى القدس عن طريق غير الطريق التي كان أهل القدس يتوقعون مجيء الجند منها . فوصلت القوة بعد خمسة أيام من مغادرتها الشام .

ويظهر أن خبر هذه الإمدادات كان قد وصل إلى القدس . فراح السكان

---

(١) هرب من الدير خفية وذهب إلى رام الله القريبة من القدس . وهي منها إلى الشمال . ولأهلها صيت بالمرجلة .

يستعدون لمقابلتها . وأقاموا المتاريس في الحارات والخفراء على الأبواب . وتسلحوا كلهم لا فرق بين كبير أو صغير ، غني أو فقير . ولكن قائد الجند ، وكانت رتبته بكباشي[1] وجنده كلهم من المغاربة كما قدمنا ، أحكم التدبير بشكل جعل وصوله إلى القدس ليلاً . ودخل من الباب المعروف بباب ستنا مريم خفية . ولما كان الباب المذكور قريباً من الثكنة العسكرية ، فقد تمكن من الوصول إلى الثكنة هو وجنده سالمين . ومكثوا فيها حتى مطلع الفجر دون أن يعلم بوصولهم أحد . وعندما طلع الفجر شعر الناس بوجود الجند بين ظهرانيهم . وما عتموا أن وجدوا المتاريس قد احتلت ، والأبواب قد ضبطت ، والثوار قد وقعوا في الشرك الذي نصب لهم . ألقى الجند القبض على من عثروا عليه من الثوار . فالتجأ فريق منهم (يقدر عددهم بستة عشر) إلى دير الأرمن ، وفريق آخر إلى دير حبس المسيح . فأنذرهم المتسلم ، وطلب إليهم الاستسلام ، وهددهم بهدم الدير بالمدافع إذا لم يستسلموا . وبالفعل جاء المتسلم بمدفع من مدافع القلعة وصوبه نحو الدير ، قاصداً هدمه .

إن هذا النوع من التهديد من ناحية ، ونفاد المؤن والذخيرة من الدير من الناحية الأخرى جعل الثوار يستسلمون . فسلموا أنفسهم . فأخذهم المتسلم إلى القلعة ، ونكل بهم تنكيلاً .

نقلت الرواية المتقدم ذكرها عن مخطوط باسم (تاريخ الخوري ميخائيل بريك الدمشقي) . ولقد عثرت على نسخة فوتوغرافية منه في مكتبة الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف بزحلة . راجع الصفحات (٤٦ و٤٧ و٤٨) . ولقد ختم الخوري ميخائيل حديثه بالعبارة التالية :

«أخذ المتسلم رؤوس الفتنة إلى القلعة . ومن آذان العشاء بدأ يخنق واحد وراء واحد ، إلى أن خنق (٣٨) في ليلة واحدة . فهدأت الأمور» .

وقد استنتج الراوي الذي كتب تاريخه باللغة الدارجة أنه وقع شك في ذلك الحين بين الذين حركوا الفتنة هم الأرمن لكي يعطلوا العمارة . وأن ذلك ظاهر من التجاء الثوار إلى دير الأرمن» .

(١) رئيس الألف .

فتنة عام (١٨٢١) والثورة ضد الروم:

عندما أعلن اليونان ثورتهم ضد الأتراك في (٨٢١/٤/٦) كان على كرسي السلطنة العثمانية السلطان محمود الثاني ، وكانت القدس يومئذ تابعة لوالي الشام درويش باشا .

أخذ اليونان في بلادهم ينادون بالاستقلال عن تركيا ، وراح الروم في بيت المقدس يعضدونهم . فأرسل السلطان محمود إلى الأهالي فرماناً قرأه عليهم المتسلم بتاريخ (١٨١٢/٤/٢٥) وقد جاء فيه[١] : «أن اليونان في حالة عصيان ، وأن مصلحة الأهلين تقضي بأن يكونوا يقظين وأن يكونوا متسلحين ، وأن يعرفوا كيف يحمون أماكنهم المقدسة . وفيه تحذير بألا يصدقوا الأخبار والإشاعات التي يذيعها النصارى ولا سيما الروم» .

وفي الوقت نفسه أرسل درويش باشا من الشام سرية من الجند ، وأمرها أن ترابط في القلعة استعداداً للطوارئ . فصودرت أسلحة النصارى بوجه عام . وأمروا بلبس السواد وبنقل المدافع من مكان إلى مكان .

تسلح المسلمون شيباً وشباناً . وهاجموا البطريركية وعلى رأسهم المتسلم سليمان أفندي[٢] وعساكر الإنكشارية يقودهم تفنكجي باشي[٣] موسى بك الغزاوي .

سادت الفوضى في القدس . وحل بالنصارى ، ولا سيما بالروم منهم ، عذاب شديد . وكان المتسلم ضعيفاً ، وإن شئت فقل سيء النية . فلم يأت بأي عمل مجد في سبيل تسكين الفوضى . لا بل راح يعمل على إيقاد النار . ورفع الضريبة المطلوبة من المسيحيين من ستين ألف قرش إلى مئة ألف . فزادت الطين بلة . وذاع بين الناس نبأ بأن لهم الحق في أن يشنقوا أي مسيحي يجدونه مسلحاً . لولا أن درويش باشا تلافى الأمر ، فأصدر من فوره أمراً قائلاً : بأنه لا يجوز شنق أي إنسان قبل محاكمته والحصول على أمر خطي يتضمن موافقة الوالي . وقرأ القاضي أيضاً بعد صلاة الجمعة في الحرم (يوم الجمعة ٨ يوليو ١٨٢١) أمر السلطان وقد جاء فيه ما يأتي : «لم يعرف

---

(١) Annals by Neophytos

(٢) يقول Neophytos الذي نقلنا عنه هذه الحكاية أن سليمان أفندي هذا كان يهودياً ، ثم اعتنق الدين الإسلامي (Annals, P. 19)

(٣) رئيس البنادق ، وبعبارة أخرى قائد الحامية .

قبلاً عن مسيحيي القدس أنهم خونة . ولم يسيئوا للمسلمين في حياتهم : لا قولاً ولا فعلاً . وأنهم فقراء ، ولا ضرر منهم . ومع ذلك فقد صادرنا منهم كل ما في أيديهم من أسلحة . ولئن تبقى في حوزتهم شيء ، فهو قليل بدرجة لا يؤبه لها . ولا تخيفنا . وهم في القدس قلائل ليسوا بأكثر من واحد في المئة من المسلمين . فمن العار أن نخشاهم . ومن العار أن نتخذ هذا حجة لقتلهم . فارجعوا إلى منازلكم ، واستأنفوا أعمالكم ، واتركوا لنا حفظ السلام وتدبير الأمور ، ومن لا يطيع الأمر ويعتدي عليهم ينال عقابنا . هذا فضلاً عن أنه يكون قد عصا الله ولم يعمل بأوامر نبيه» .

وكذلك فعل أفندية القدس وأعيانها المسلمون[١] فقد ظلوا يخطبون الشعب الهائج ثلاث ساعات حاضين على السلم والسكينة وعدم الاعتداء على المسيحيين وعدم تصديق الإشاعات التي يذيعها المغرضون . وقد أذاعوا أيضاً بياناً أمضوه كلهم فيه الأمان والاطمئنان . فاطمأن المسيحيون ، وهدأت الأحوال ، وعادت المياه إلى مجاريها .

فتنة عام ١٨٢٣:

إنها لفتنة جامحة اشتعلت نارها في القدس عام (١٨٢٣) . والذي أشعلها هو المتسلم سليمان أفندي نفسه بطل فتنة (١٨٢١) . وقد كان هذا -كما قدمنا- يهودياً فأسلم . ولما رأى أن الفتنة السابقة لم تنجح ، وأن الأمور قد هدأت ، اغتاظ ؛ فأخذ يقدح زناد قريحته وراح يفكر في طريقة ليثأر لنفسه من المسيحيين ، ومن المسلمين الذين حموا المسيحيين وحالوا دون القيام بمذبحة عامة . فظلم الفريقين ظلماً شديداً . وجمع منهما ضرائب أكثر مما كان مقرراً . والذي توانى في الدفع ضربه وأهانه ، أو قيده بالسلاسل وألقاه في غياهب السجن . وراح الناس يقترضون المال بفوائد فاحشة . وأصبح سليمان أفندي ، اليهودي الذي أسلم ، حديث المقادسة في مجالسهم وقد لقبوه : (بيلاطس القرن التاسع عشر) .

وفيما كان سكان بيت المقدس يفكرون في طريقة للخلاص من هذا المأزق ، حدث حادث فجائي زاد في الطين بلة ، وزاد الأمور ارتباكاً . إذ جاء من بيروت نبأ

---

(١) Annals by Neophytos

يقول أنه وصل إلى شواطئها إحدى عشرة سفينة من سفن الحرب اليونانية . فاتهم النصارى بالاتفاق مع الأجانب والتآمر على سلامة الدولة . وساد الاعتقاد بأن القصد من هذه الحركة احتلال القدس . فاشتعلت النار من جديد . وحاول الأتراك أن يسجنوا النصارى في كنيسة القيامة ، لولا أن جاءهم خبر آخر بأن السفن قد أقلعت قبل أن تأتي بأي عمل يدل على العدوان .

الثورة ضد مصطفى باشا:

كانت القدس ، سنة (١٨٢٤) تابعة إلى عكا . وفي عكا حاكم يدعى عبدالله باشا . وكانت صلات هذا الباشا بالحكومة المركزية في استانبول سيئة لدرجة إنها حرضت عليه ثلاثة من الباشاوات المجاورين : درويش باشا والي دمشق ، وراغب باشا والي طرابلس الشام ، ومصطفى باشا والي حلب . فحاصره هؤلاء في عكا . ودام حصارهم لها تسعة شهور . ولكن السلطان محمود عاد ، بناء على توسط والي مصر محمد علي باشا ، فعفا عنه ، وأعاده إلى منصبه .

بعد أن هدأت هذه الفتنة ، استبدلت الحكومة والي الشام درويش باشا بوالي حلب مصطفى باشا . وكان هذا (أي مصطفى باشا) ظالماً . ففرض على الناس ضرائب ما كان لهم عهد بمثلها من قبل[١] . ولقد أنتج هذا الضغط انفجاراً . فقامت في القدس اضطرابات اشترك فيها قسم كبير من الفلاحين .

اعتزم مصطفى باشا تسكين الفتنة وقمعها بالقوة . فأرسل إلى القدس مئة جندي ليرابطوا في القلعة ، ولم يكن فيها يومئذ سوى ستين جندياً . وبعث إلى المتسلم كتاباً يأمره فيه بأن يحصل العشر ضعفين فقط . معتقداً أن هذه التدابير قد تؤول إلى تهدئة الأعصاب المتوترة .

ولكن الفلاحين أبوا إطاعة الأمر ، ورفضوا أن يدفعوا للجباة الأموال المطلوبة منهم . لا ، بل طردوهم من قراهم . ولما وصل الخبر إلى مصطفى باشا عن طريق المتسلم ، أرسل من فوره جيشاً قوامه خمسة آلاف رجل . وجاء هو من ورائهم . فهبط نابلس أولاً . وقضى فيها عشرين يوماً . حصل خلالها جميع الأموال المتأخرة . ولما

---

(١) يقال أن الأعشار التي حصلها وكلاء الباشا في تلك السنة عشرة أضعاف الأعشار التي فرضت في السنة التي سبقتها .

سمع أهالي جبل القدس بما جرى في نابلس ، هجروا قراهم . واتخذوا المغر والكهوف في الجبال والوديان مأوى لهم .

وصل الباشا في أواخر شهر (١٨٢٥) فلم يخرج أحد من الأهلين لاستقباله . ولم يتقدم أحد لدفع ما عليه من المال . فأصدر أمره للجند بتخريب منازل السكان ومصادرة أموالهم . ولكنهم لم يجدوا إنساناً يكلمونه ، ولا وجدا شيئاً يصادرونه . إذ كانت المنازل كلها خاوية على عروشها . ولما كان بعض الأهالي قد احتموا بالأديرة فقد تعقبهم في الأديرة التي احتموا بها . وشدد النكير على الرهبان ، وأذاقهم مر العذاب . وقصارى القول لم ينج من شر الباشا وبطشه أحد : لا من المسلمين ولا من النصارى ، لا من الأفندية ولا من الفلاحين . كل من امتنع عن دفع الضريبة المفروضة ناله شيء من العذاب . فكان من جراء ذلك أن خيم البؤس والشقاء والذعر على مدينة القدس وعلى ما جاورها من القرى . ولم تقف المصائب عند حد ، إلا عندما توسط (الكهيا) وبعض الوجوه . ودفع الأهلون الغرامة المفروضة وقدرها مئة ألف غرش . هنا استغل اليهود الموقف كعادتهم ، وأقرضوا الناس قروضاً مختلفة ، بفوائد فاحشة! وعندما غادر الباشا المدينة كانت هذه تنعى من بناها! .

أقام الباشا في القلعة ، قبل أن يغادرها المدينة ، مئة جندي ليحرسوها . ولكنه ما كاد يغادرها حتى أعلنت الثورة مرة أخرى . وقد اشترك الأفندية مع الفلاحين في هذه الثورة .

وجه المتسلم الشطر الأكبر من قوته إلى بيت لحم ، لأنها كانت في حالة من الاضطراب عظيمة ، وقد اشترك في ذلك الاضطراب جميع السكان من مسلمين ونصارى ومن مدنيين وقرويين حتى وعرب التعامرة . ولم يبق في قلعة القدس أكثر من أحد عشر نفراً . فهاجمهم سكان المدينة (٥ يونيو ١٨٢٥) وأسروهم . ثم جردوهم من السلاح ، واحتلوا القلعة ، وصعدوا إلى أعلى البرج ينادون إخوانهم ليلتحقوا بالثائرين . فجاء هؤلاء ، وانضموا إلى إخوانهم . وتسلح الجميع . وأقاموا حراساً من بينهم لحراسة القلعة ، ولصون الأمن في داخل المدينة . ولقد رابط قسم من الثائرين على أبواب المدينة ، وراح آخرون يتجولون في الأزقة والشوارع محرضين الناس على الثورة . وأخذت أعلام الثائرين تخفق فوق البروج والأسوار علامة الظفر والانتصار .

تحير المتسلم ، ولم يدر ماذا يفعل؟ طلب من الثوار أن يسمحوا له بالدخول إلى دار الحكومة ليأخذ ثيابه وأمواله الشخصية . ولكنهم رفضوا . ثم عادوا فسمحوا له ،

على أن يخرج من القدس بنفسه . فخرج . ومن هناك سار إلى قرية أبي غوش مشياً على الأقدام . ومن تلك القرية سافر إلى الرملة ، حيث التحق بعبدالله باشا وجنده الذين كانوا فيها مرابطين .

ولم يسمح الثوار لقائد الجيش موسى بك بدخول المدينة ، عندما رجع هذا من حملته التأديبية في بيت لحم وقراها . فحاول الدخول من باب النبي داود ، ولكن الثوار أسمعوه من قوارص الكلم(١) ما جعله ييأس . وقد قفل راجعاً .

لم يكتف المقادسة بما فعلوا . بل جردوا من السلاح جميع الأتراك والألبانيين ، وبكلمة أخرى كل من لم يكن عربياً . وطردوهم من المدينة . فأصبحوا مستقلين بكل ما في كلمة الاستقلال من معنى .

ولقد اجتمع على أثر ذلك كبارهم ، وقرروا أن ينتدبوا من بينهم من زعمائهم ليديروا المدينة ، ويحولوا دون وقوعها في شرك الفوضى ، وهما :

١- يوسف غرب الجبجاب (من البكتاشيين) .

٢- أحمد آغا الدزدار .

وكان أول عمل قام به هذان المندوبان أن سعيا لتسكين أواصر المودة بين المسلمين والمسيحيين . وقد ألغيا الأعشار والضرائب الأخرى التي كانت مفروضة على بيت لحم والمسيحيين وعلى سكان القرى المجاورة .

نجح المقادسة في ثورتهم ، فتنفسوا الصعداء ، ولكن أجل حريتهم هذه لم يطل . إذ ما كاد خبرها يتصل بالسلطان محمود ، حتى أرسل إليهم (أي إلى سكان القدس) أمراً يطلب فيه التسليم ، والخضوع إلى والي الشام . ولما لم يخضعوا لأمره ، راح يصب عليهم جام غضبه . فأمر عبدالله باشا (اكتوبر ١٨٢٦) أن يذهب من فوره إلى القدس ، وأن يصطحب معه كل قواده ، وأن يسترد ما فقدته الحكومة من هيبة ونفوذ . ولم يتمكن عبدالله باشا من تجنيد أكثر من ألف جندي لهذه الغاية . ولم يصطحبهم ، بل ساقهم إلى القدس مع مساعده (الكهيا) ؛ وقد زودهم بسبعة مدافع ، أحدهم من النوع الثقيل (الهاون) .

هبط الكهيا مدينة الرملة أولاً . وبعد أن خابر مشايخ أبي غوش وأمن

(١) كان الأهلون يخاطبون الجند بقولهم : (ارجعوا إلى حيث كنتم . لا ردكم الله) .

صداقتهم[1] سار قدماً في طريقه إلى القدس . وحط رحاله تجاه القلعة بالقرب من كنيسة القديس جورج .

عندما سمع المقادسة المسلمون باقتراب الجند من مدينتهم ، راحوا يتأهبون لصدهم . وقد أمنوا صداقة الطوائف الأخرى من مسيحيين ويهود . وعهدوا إليهم بسد أبواب المدينة بالحجارة .

حاول الكهيا في بادئ الأمر ، أن يقنع المسلمين كي يستسلموا . فأرسل إلى كل واحد من زعمائهم كتاباً ودياً يطلب إليه أن ينصح قومه وعشيرته بالتسليم . ولكنهم رفضوا قائلين : إنهم أقسموا ألا يعدلوا عن ثورتهم ، وألا يستسلموا للسلطان ما دام في مدينتهم أجنبي واحد . وقد أضافوا إلى ذلك قولهم : إنه لا فرق في نظرهم ، إذا ما بحث عن الأجنبي ، بين شرقي أو غربي ، بين تركي أو ألباني ؛ وإنهم لعلى استعداد للموت في سبيل وطنهم . إنهم يريدون الاستقلال ويؤثرونه على الخنوع والخضوع إلى الأجنبي : مسلماً كان هذا أم غير مسلم .

نصحهم موسى بك ، فلم يقبلوا نصحه . ثم هددهم بالبطش والتنكيل ، فلم يعبأوا بتهديده ووعيده . أمر جنده بإطلاق النار عليهم ، فأجابوا عليهم بالمثل : نار بنار وشر بشر . والبادىء أظلم . ولقد أطلقوا على الجند ، من أعلى القلعة ، نيران المدافع ؛ وكان بينهم رجال مدربون على استعمال الأسلحة بجميع أنواعها . فلم يبالوا بخصمهم .

دام القتال ، ودامت الحال على هذا المنوال سبعة أيام وسبع ليال . وفي اليوم الثامن كان الجند الذين أرسلهم عبدالله باشا مدداً لحامية القدس ، قد وصلوا . وأتوا معهم بمدافع أخرى بينها مدفع كبير زنة كل (قمبرة)[2] من قنابره أربعون وقية ، وزع الكهيا جنده ومدافعه على أطراف المدينة الأربعة . ووضع مدفعاً منها على جبل الزيتون . ومن هناك أخذ يضرب المدينة ضرباً متواصلاً . فأخذت القنابل تتساقط في وسط الأحياء والمنازل الآهلة بالسكان . وعلى قول إن المدافع كانت تصب نيرانها على منازل الوجوه والزعماء أكثر من أي منزل آخر .

هناك اختلف الناس : فمن راغب في الثبات ، ومن قائل إنه لا بد من التسليم .

---

(١) فصلهم عن المقادسة ، وقد كانوا قبلاً متفقين في السراء والضراء .

(٢) قنبلة أو قذيفة .

ولقد تغلبت فكرة التسليم . لأن المؤن كانت قليلة . والجوع كاد يقضي على الفقراء . والخوف كان قد استولى على النساء والأطفال .

أرسل سكان المدينة إلى الكهيا وفداً يعرض عليه التسليم . فقبل هذا شروط الوفد . ومنها إلغاء الضرائب الجديدة ، والرجوع إلى الضرائب القديمة . وإعلان العفو العام . ومنع الجند عن التدخل في شؤون المدينة : سياسية كانت أم اجتماعية . وعلى هذه الشروط تم الاستسلام . وسلموه مفاتيح القلعة بعد ثلاثة أيام فاحتلها . وأقام فيها ثلاثمئة جندي .

بعد أن تمكن عبدالله باشا من إخضاع القدس سلمها إلى والي الشام . وانسحب[1] هو عملاً بأوامر السلطان . فأرسل الوالي قوة كبيرة من الجند مع متسلم جديد (١٨٢٧) . فطالبهم هذا بالضرائب المتأخرة عن سنتين : الحالية والمنصرمة .

بعد هذا اقرأ ما كتبناه عن حوادث القدس في عهد محمد علي باشا والد إبراهيم باشا في موضع آخر من هذا الكتاب .

ثورة الخليل ونابلس:

ما كادت قلاقل القدس تنتهي حتى ظهرت قلاقل مثلها في الخليل (حزيران ١٨٥٥) . وكان بطل هذه القلاقل ، في هذه المرة ، عبدالرحمن عمرو[2] من رجال الخليل النافذين . وكان هذا يعتمد على صديقه سر عسكر الشام محمد قبرصلي باشا الذي استولى على الخليل عنوة (١٨٤٦) يوم كان متصرفاً في القدس .

ولما كان متصرف القدس ضعيفاً لا يستطيع تسكين الثورة ، فقد دعا قناصل الدول ليستشيرهم في الأمر . فاقترح بعضهم الإيعاز إلى مصر كي ترسل جيشها لصيانة الأمن . واقترح آخرون أن يعترف بسلطة عبدالرحمن عمرو في جبل الخليل تلقاء أتاوة يدفعها للسلطان في كل عام . وكانت ألمانيا أكثر الدول تخوفاً من نتيجة تلك الثورة ، خشية أن تتخذها فرنسا ذريعة لاحتلال فلسطين ، بحجة أن الأمن مطلوب فيها ريثما تنتهي حرب القرم .

---

(١) رأيناه بعد مدة يمضي أوامره بصفته والي صيدا ومصر والعريش وغزة والقدس ونابلس وجنين (١٢ مايس ١٢٤٧هـ-١٨٣١م) .

(٢) J. Finn

وفيما كانت الثورة مشتعلة في جبل الخليل ، قامت ثورة مثلها في جبل نابلس ؛ سببها أن الأتراك أرسلوا إلى نابلس متسلماً تركياً ليتسلم الإدارة من متسلمها ابن طوقان . ولكن هذا عصاه وأبى أن يمتثل لأمره . فاشتعلت الثورة . وأحرقت الأخضر واليابس . وفي قول :إن الثورة التي نشبت في نابلس كانت من أجل الانتقام من آل عبدالهادي الذين ناصروا الحكم المصري أيام إبراهيم باشا . وقد قتل عدد كبير من سكان جبل نابلس في ذلك العهد . ويقول المستر جين فين القنصل البريطاني في القدس في ذلك الحين أن أفندية القدس هم الذين كانوا يديرون ثورة نابلس . وكانت نابلس يومئذ قائمقامية تابعة لمتصرفية القدس .

الاختلافات الدينية:

وما دمنا عند ذكر القلاقل والفتن التي حدثت على عهد الأتراك ، فلنذكر الاختلافات التي حدثت بين الطوائف المختلفة حول الأماكن المقدسة . تلك الاختلافات التي لا نرى مناصاً من استعراض بعضها هنا بوجه الإيجاز . ولا سيما تلك التي كان لها تأثير مباشر على الأمن . ليأخذ القارئ فكرة كاملة عن حالة الأمن في ذلك العهد :

ففي أواسط القرن السادس عشر للميلاد (أوائل الحكم التركي) ذرقرن الخلاف في القدس بين المسيحيين الوطنيين وبين العنصر اليوناني الدخيل ، وذلك عندما وضع الأكليروس اليوناني يده على الوظائف الدينية كلها بعد استيلاء جرمانوس اليوناني على كرسي البطريركية الأورشليمية (١٥٤١م) . فاستغل اللاتين فرصة هذا النزاع ، وقاموا يطالبون بحقوق قالوا إنها لهم في الأماكن المقدسة . وهناك بدأ الخلاف الذي امتد حتى يومنا هذا بين المسيحيين الأرثوذكس والأكليروس اليوناني من ناحية ، وبين الروم واللاتين من الناحية الأخرى . ثم جاء الأرمن ، ثالثة الأثافي ، فزادوا في الطين بلة . فأخذ كل فريق يهاجم الآخر لأتفه الأسباب . وراحت الدول تتدخل من أجل مصلحة هذا الفريق تارة وذاك أخرى . الأمر الذي جعل الأمن يتضعضع بين جدران الكنائس والأماكن المقدسة . وفي كل مرة كان الفريق المغلوب على أمره يلجأ إلى السلطة . فتتدخل هذه وتحسم الخلاف بالقوة : تارة لصالح هذا ، وطوراً لصالح ذاك! .

ولئن نسينا فلن ننسى حوادث سنة (١٦٦٩) يوم اعتدى اللاتين على الروم في

أثناء الصلاة ، وفي داخل كنيسة القيامة ، فضربوا الكاهن والشماس وجروهما إلى خارج الكنيسة . وفتكوا ببعض الرهبان .

وحوادث عام (١٦٧٤) يوم اتفق الأرمن واللاتين وهجموا على الروم في حجرة القبر المقدس ؛ فجرحوا اثنين منهم ، وقتلوا راهباً .

وحوادث عام (١٧٣١) يوم اصطدم الفريقان : الأرمن والروم من أجل فرمان صدر من السلطان قيل إن الأرمن استبدلوا كلمة (الروم) التي وردت فيه بـ(الأرمن) واسم (عبدالله) بـ(سيركيس) .

وحوادث عام (١٧٥٦) يوم دخل اللاتين إلى الكنيسة مسلحين في أحد الشعانين ، وهجموا على الروم في أثناء الصلاة ، فضربوهم وكسروا كل ما وقعت عليه أيديهم من أيقونات وشمعدانات وأدوات للصلاة .

وحوادث عام (١٨٠٨) يوم أحرق الأرمن كنيسة القيامة ، ومنعوا الروم واللاتين من دخول الكنيسة لإطفاء الحريق . ولما دخلوها متأخرين كان الوقت قد انقضى وكانت النيران قد التهمت جميع الأماكن ، وكان كل شيء قد تحول إلى رماد .

وحوادث عام (١٨١٠) يوم ثار الأرمن ، فهاجموا الروم ، ودخلوا الكنيسة مسلحين ، فقتلوا أحد العمال وجرحوا اثنين ، وحطموا كل ما وقعت عليه أيديهم من أواني الصلاة والعبادة .

وحوادث عام (١٨٣١) يوم حدثت في داخل الكنيسة مشاجرة عنيفة بين الروم واللاتين ، في أثناء ذهابهم إلى الجلجلة ، أن يمروا من أمام القبر المقدس والروم محرمين إلى الصلاة ، أم من ورائه؟ وقد استعمل الفريقان السلاح في هذا الشجار ، وتراشقا بالحجارة والأخشاب .

وحوادث عام (١٨٣٣) يوم أراد الأرمن أن يستبدلوا حجراً بحجر في مكان له قدسيته في نظرهم . فأراد الروم أن يحولوا دون أمنيتهم واعتزموا قضاء ليلتهم في داخل الكنيسة . فاصطدم الفريقان ، واستعملا الحجارة في هذا الصدام . وجاء القاضي فأمر بإرجاع الحجر الأصلي إلى مكانه .

وحوادث عام (١٨٩٣) يوم قتل راهب وجرح ثلاثة من الرهبان اللاتين برصاص بندقية أطلقها القواس الذي كان يرافق الحجاج الروس بحجة أنه يريد إفساح الطريق إلى الحجاج .

وحوادث عام (١٩٠١) يوم اقتتل الروم واللاتين في داخل الكنيسة . وجرح من

الآباء الفرنسيين (١٧) راهباً . وقلعت عين قائد الدرك يوسف آغا الدزدار الذي لولا تدخله وجنده لما عرف إلا الله ماذا تكون النتيجة . والسبب في ذلك على قول الروم أن اللاتين كنسوا بعض الدرجات الكائنة في ساحة الكنيسة وما كان عليهم أن يكنسوها! .

إنا إذا ما أردنا أن نلخص هذا الفصل الذي خصصناه لبحث حوادث الأمن ، قلنا إن الأيام التي ذاقت القدس فيها طعم الراحة قليلة ، وأن وجود الأماكن المقدسة فيها ، وبعبارة أفصح أن قدسيتها كانت السبب في ما ألم بها من المصائب والآلام . وقد تدوم هذه المصائب والآلام ، ما دام في هذا الكون أديان مختلفة! . وما دامت القدس محتفظة بقدسيتها التي رافقتها على مر الزمان! . إلا إذا حكم الناس عقولهم . وساروا على المبدأ القائل : الدين لله ، والوطن للجميع! .

كـان العـرب بوجه عام ، والفلسطينيون بوجه خاص ، مخلصين في شعورهم نحو الدولة والسلطان . وكانوا على أتم الاستعداد للحرب والكفاح دون (دين الإسلام وسلطان المسلمين) . وكانوا مطيعين لحكامهم ورؤسائهم : يحاربون متى شاء هؤلاء الحكام والرؤساء ؛ دون أن يسألوا : لماذا؟ وفي سبيل أية غاية؟ ومن أجل من؟

هكذا كان وضعهم في أوائل الاحتلال التركي . وما كانوا يلقبونه بالتركي . وإنما كانوا يسمونه : العثماني .

ولكن هؤلاء الرؤساء والحكام لم يقدروا هذا الشعور ، ولم يعرفوا كيف يستغلون هذا الإخلاص . وزاد في الطين بلة (الفساد) الذي كان منتشراً في (استانبول) عاصمة البلاد .

ولهذا ، فإن البلاد العثمانية لم تتقدم كثيراً في مدارج الحضارة والرقي على عهد هؤلاء . إذ كان بعضهم منهمكاً في فتوحاته ، والبعض الآخر في تدبير المؤمرات لاغتيال خصمه ، أو في رد عاديات المتآمرين على ملكه . والذي يصفو له الجو منهم يقضي وقته بين الكؤوس والغواني . وكم حدثنا تاريخهم عمن مات منهم ضحية المدام ، وعمن راح شهيد الجمال الفتان . حتى قيل إنه جاء زمن على الدولة العثمانية كانت الواردات التي تجبى من قضاء من الأقضية أو إيالة من الآيالات تخصص لإحدى نساء السلطان و لمحظية من المحظيات اللواتي يعشن في قصره! وأن هاته النسوة كن ينتدبن من يقوم بجباية هذه الواردات من القضاء المخصص لهن بالنيابة عنهن! .

قال المؤرخ التركي جودت في تاريخه : «إن الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة إلى دور الحضارة لم يتخذ رجالها الأسباب اللازمة لهذا الانتقال . فحصروا أوقاتهم في حظوظ أنفسهم وشهواتهم . يقيمون في العاصمة القصور الفخمة ، ويفرشونها بأنواع الأثاث والرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم . فاضطروا إلى الارتشاء ، وبيع المناصب بالمال ، وتلزيم البلاد وإقطاعها بالأثمان الفاحشة .

«والفساد الذي كان منتشراً في البلاد العثمانية ، كان ينبعث من العاصمة . إذ كان يقبض فيها على زمام الأحكام غالباً جهلاء ظلام . وقد تولى الصدارة ندماء

سخفاء ، بل طبالون وطباخون وغيرهم من المقربين لا إلى الملوك فحسب بل إلى نساء القصر الملكي ؛ أو الزنوج والخصيان الذين كانوا يولون ويعزلون كما يشاؤون وتشاء أهواؤهم» .

«وعندما تبدو علائم الاستياء من جراء هذه الحالة في ناحية من أنحاء البلاد ، كان السلاطين يعملون على إلقاء الفساد والشغب بين الرؤساء والزعماء . وذلك برتب يخترعونها لهم ، وجرايات يدرونها عليهم . وكانت المناصب والرتب تباع في الآستانة بيع السلع بسوق المزاد . وعندما لا تجدى هذه التدابير كانوا يفتكون بالأبرياء . وكان من السهل عليهم أن يستصدروا من المنافقين فتاوى تبرر أعمالهم»! .

هذا ما قاله جودت . وقد حدثناك في السطور السابقة عن بعض تلك الثورات . ولا سيما تلك التي لها صلة بالقدس . ولو أردنا أن نحدثك عن الثورات التي نشبت في أنحاء أخرى من البلاد ، لما وسعها هذا الكتاب .

ومع ذلك فلم يفكر أحد من سكان البلاد الانفصال في بادئ الأمر عن الدولة . كل ما كانوا يطلبونه ولا سيما في أواخر الحكم العثماني -هو الإصلاح . وأمَّلَ العرب خيراً من الانقلاب العثماني . ذلك الانقلاب الذي أطاح بالسلطان عبدالحميد الثاني (١٩٠٨م) . وراح ينادي بالحرية والمساواة والأخوة ، وينشر راية العدل والإصلاح في جميع أنحاء البلاد . وظن العرب أن هذا الانقلاب سيصلح من شأنهم ، وينقذ بلادهم من الخراب الذي ألم بها في السنين الفائتة .

ولكن سرعان ما انقلبت الآية ، وخاب الرجاء ؛ وشعر العرب بأن رجال تركيا الفتاة ، وإن كانوا يتظاهرون بالعمل لاتحاد العناصر وتأييد الوحدة العثمانية ، إلا أنهم في الواقع وحقيقة الأمر كانوا يتآمرون على هذه العناصر ويسعون لإذلالها . وقد أخذ هؤلاء أي رجال تركيا الفتاة ، يبذلون قصارى جهدهم في تقوية العنصر التركي عملاً بوحي الفكرة القومية الطورانية ؛ ظناً منهم بأن ذلك أنفى للخطر وأدعى إلى تماسك أجزاء السلطنة واتحادها!

عندئذ بدرت بوادر الخلاف العنصري بين العرب والترك . ونما حب الاستقلال عند العرب . وقام هؤلاء يسعون إلى ذلك ، ولكن بالسر! إذ كانوا يخشون بطش الأتراك . وقد تألفت خلال تلك الفترة من الزمن جمعيات عربية عديدة في الآستانة وباريس والقاهرة وبيروت ودمشق وبغداد .

ففي الآستانة تأسست (جمعية الإخاء العربي) و(جمعية العهد) و(المنتدى

الأدبي)[1] و(العلم الأخضر) . وفي باريس (الجمعية العربية) أو (الفتاة) . وفي مصر والآستانة معاً (الجمعية القحطانية) . وفي القاهرة جمعية (الجامعة العربية) و(حزب اللامركزية العثماني) . وفي بيروت (الجمعية الإصلاحية) . وفي البصرة (الجمعية الإصلاحية) . وفي بغداد (النادي الوطني العلمي) وغيرها . وقد كان لبعض هذه الجمعيات فروع في القدس ، وكان في عداد أعضائها عدد من المقدسيين . وكانت هذه النوادي والجمعيات راضية بادىء الأمر بأن يكون العرب والأتراك الذين يعيشون تحت ظلال الراية العثمانية متساوين في الحقوق والواجبات . حتى أن المؤتمر العربي الذي انعقد في باريس بتاريخ (١٧ حزيران ١٩١٣) والذي كان ممثلاً لجميع النوادي والجمعيات العربية المتقدم ذكرها اكتفى بأن حصر مطالبه بالبنود التالية :

(آ) الإصلاح ضروري للمملكة العثمانية .

(ب) يجب أن يتمتع العرب بحقوقهم السياسية وذلك باشتراكهم في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً .

(ج) يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة مركزية .

(د) يجب توسيع سلطة المجالس العمومية ، وتعيين مستشارين أجانب .

(هـ) يجب أن تعتبر اللغة العربية في مجلس النواب العثماني ، وأن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

(و) تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية ، إلا في ظروف استثنائية .

وقد كان لهذا المؤتمر بعض التأثير على الحكومة التركية . فقد صدر يوم (٣ اغسطس ١٩١٣) مرسوم سلطاني جاء فيه ما يلي :

١ . يعهد بإدارة الأوقاف إلى مجالس الجماعات في الولايات .

٢ . يؤدي الجنود خدمتهم العسكرية زمن السلم في بلادهم . وللدولة متى رأت لزوماً لذلك أن ترسلهم إلى حيث تشاء من غير قيد ولا شرط .

٣ . يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة ، مع جعل تعليم اللغة التركية إجبارياً .

---

(١) أنشىء هذا المنتدى في الأستانة عام (١٩٠٩) وكان يقيم بين جدرانه ألف عضو كلهم من الشبان المثقفين الذين أموا الآستانة من جميع أنحاء البلاد العربية بقصد التحصيل . وكان مؤلف هذا الكتاب وعدد كبير من شبان بيت المقدس من أعضائه العاملين .

٤ . يعرف الموظفون في البلاد العربية اللغة العربية عدا اللغة التركية .
٥ . تعين الحكومات المحلية الموظفين من الدرجة الثانية . وأما الذين يعينون بإرادة سنية ، فيناط تعيينهم بالحكومة المركزية في الآستانة .

إلا أن الحكومة المركزية أخذت تخاتل في تنفيذ هذه البنود ، كما أخذت فكرة الاستقلال تنمو وتنتشر بين العرب فأخذت هذه النوادي والجمعيات تغير وجهتها . وتصيح بملء شدقيها : «إنها تبغي استقلال العرب ولا ترضى به بديلاً» .

ولقد أقلقت هذه الجمعيات بال الأتراك . فعقدوا في (٢٤ يناير سنة ١٩١٤)(١) اجتماعاً في وزارة الحربية بالآستانة حضرة الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، ومحافظ الآستانة العسكري أحمد جمال باشا ، ومدير الأمن العام عزمي بك . فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية . وقاموا بعد ذلك بإقصاء الضباط العرب المقيمين في الآستانة وعددهم يومئذ (٤٩٠) ضابطاً إلى المناطق التركية . وعهدوا بقيادة الجيوش المرابطة في البلاد العربية إلى ضباط من الأتراك . وقرروا إلغاء الأحزاب العربية كلها ، وتعزيز النفوذ التركي في البلاد العربية . وتنفيذاً لهذه السياسة أرسلوا إلى سوريا أحمد جمال باشا . وكان هذا يومئذ وزيراً للبحر وقطباً من أقطاب الاتحاديين . فعهدوا إليه بقيادة الجيش الرابع الذي كان مقره دمشق . بعد أن انتزعوا قيادة هذا الجيش من الفريق زكي باشا الحلبي العربي الذي انتدبوه مرافقاً لإمبراطور الألمان غليوم . . قام جمال باشا بتنفيذ الخطة التركية الجديدة بحذافيرها ، فمزق الكتائب العربية كل ممزق ، وشتت رجالها ؛ فبعث بهم إلى البلاد التركية النائية . وألف في (عاليه) من أعمال جبل لبنان ديواناً عسكرياً عرف فيما بعد : (بديوان عاليه) . فساق إليه جميع شباب العرب ورجالاتهم الذين اشتغلوا قليلاً أو كثيراً للقضية العربية . فحوكم هؤلاء محاكمات مختلفة : بعضها حقيقي ، والبعض الآخر صوري . وكان أعضاء هذا الديوان (والمحكمة) يتلقون الوحي من الطاغية جمال الذي لقب عن جدارة واستحقاق بالسفاح . ولقد أدانوا عدداً كبيراً من رجال العرب الأحرار ، فقضوا عليهم بالإعدام . ونفذ فيهم الحكم شنقاً ، لا لذنب اقترفوه سوى حبهم لوطنهم . وقد شنق بعض هؤلاء في بيروت ، وبعضهم في دمشق ، والبعض الآخر في القدس .

---

(١) (الثورة العربية الكبرى) لأمين سعيد .

وكان بين الذين أعدموا فلسطينيون ، نذكر منهم :
١- علي النشاشيبي (من القدس) أعدم في القدس في تشرين أول (١٩١٨) .
٢- أحمد عارف الحسيني (من غزة) أعدم في القدس في تشرين أول (١٩١٨) .
٣- مصطفى أحمد عارف الحسيني (من غزة) أعدم في القدس في تشرين أول (١٩١٨) .
٤- سليم عبدالهادي (من نابلس) أعدم في بيروت في (١٩١٥/٨/٢٠) .

ولم يكتف جمال باشا بعدد الذين شنقهم أو سجنهم من أحرار السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين ؛ فقد أمر بنفي عدد آخر منهم . ونفاهم بالفعل (١٩١٦م) رجالاً ونساء وأطفالاً إلى أنحاء مختلفة من بر الأناضول .

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن التدابير التي اتخذها جمال باشا ما كانت لتلين من قناتهم ؛ بل زادتهم كرهاً للحكم التركي ، وميلاً لاستقلال بلادهم . إذ ما كاد الشريف حسين شريف مكة يضرم (١٩١٥م) نار الثورة العربية في الحجاز ، ويعلن استقلال البلاد العربية ، حتى لبى دعوته عدد كبير من رجالهم ؛ ولا سيما أولئك الذين كانوا يعملون في الجيش التركي . فقد أخذ هؤلاء يفرون من قطعاتهم زرافات ووحدانا ، ويلتحقون بالجيش العربي الذي كان يقوده الحسين وأولاده الأمراء : علي ، وفيصل ، وعبدالله ، وزيد .

الأمر الذي كان له تأثير كبير على موقف الدولة التركية ؛ تلك الدولة التي تقلص ظلها في هذه البلاد ، إلى أن زال عنها بالمرة (١٩١٧م) . وقام مقامه الاحتلال الإنكليزي . وسنأتي على ذكر ذلك في الفصول التالية .

الباب السادس
الاحتلال البريطاني

- الحرب العالمية الأولى.
- حملة الأتراك الأولى على قناة السويس.
- الحملة الثانية.
- الإنكليز ينقلبون من طور الدفاع إلى طور الهجوم.
- انسحاب الأتراك من غزة.
- الجنرال اللنبي يتولى القيادة بعد الجنرال موري.
- موقف الجيش التركي.
- الإنكليز يزحفون صوب القدس.
- احتلال القدس.
- انسحاب الأتراك من القدس.
- محاولات تركية فاشلة لاسترداد القدس.
- بيان اللورد اللنبي لأهل القدس.
- لماذا غُلب الأتراك على أمرهم؟
- الإدارة العسكرية.
- وعد بلفور.
- وعود بريطانيا للملك حسين.
- معاهدة سايكس - بيكو.
- الإدارة المدنية.
- المندوب السامي الأول: السر هربرت صموئيل.
- المجلس الاستشاري.
- المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع.
- المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس.
- صك الانتداب.
- المؤتمر العربي الفلسطيني السادس.
- المندوب السامي الثاني: الفيلد مارشال بلومر.
- حوادث البراق.
- المندوب السامي الثالث: السر جون تشانسلور.
- المؤتمر العربي الفلسطيني السابع.

- المندوب السامي السادس: الفيكونت غورت.
- القضية الفلسطينية تنتقل إلى الصعيد العربي العام.
- تدخل الولايات المتحدة.
- المندوب السامي السابع والأخير: السر ألن غوردن كاننغهام.
- اللجنة الانكلو - أميركية.
- مؤتمر ملوك العرب في زهراء أنشاص.
- مؤتمر بلودان.
- توحيد الأحزاب الفلسطينية.
- ثورة اليهود.
- مؤتمر لندن الثاني.
- مؤتمر لندن الثالث.
- فشل مشروع بيفن.
- الحكومة المنتدبة تتخلى عن الانتداب.
- رحيل البريطانيين عن البلاد.

الحرب العالمية الأولى : قبل أن أذكر لك ، أيها القارئ الكريم ، كيف ومتى احتل الإنكليز القدس ، وكيف أداروها ؛ عليّ أن أسرد بوجه الإيجاز الحوادث التي سبقت ذلك الاحتلال . وإني توصلا لهذه الغاية درست ، بشيء كثير من إنعام النظر ، الكتب التي ألفها الفريقان المتحاربان : الأتراك والإنكليز ؛ والتقارير الرسمية التي وضعاها ، بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أوزارها . تلك الحرب التي وقعت بين الإنكليز وحلفائهم من ناحية ، والألمان وحلفائهم من الناحية الأخرى . وقد اختار الأتراك يومئذ جانب الألمان ، فحالفوهم ضد أعدائهم الإنكليز .

حملة الأتراك الأولى على قناة السويس : كانت الغاية من حملة الأتراك على مصر(١) هي إشغال الإنكليز وإبعادهم عن الدردنيل . وكان الأمل قوياً أن تثور مصر ومن ورائها السودان ، بمجرد اقتراب الجيش التركي من الحدود وعبوره قناة السويس . فإذا سيطر الأتراك على هذه القناة ، عرقلوا وسائط النقل بين إنكلترا والهند . فيضطر الإنكليز إلى أن يجتازوا طريقاً للهند غير قناة السويس ، وهو رأس الرجاء الصالح . وفي هذا ما فيه من كلفة وعناء ووقت طويل .

هذا ما كان يرمي إليه الأتراك ، يعضدهم فيه حلفاؤهم الألمان . ولا سيما الميرالاي قرس فون قرسنشتاين الذي عين رئيساً لأركان الحرب في الفيلق الثامن . وكان هذا الفيلق الذي وجهه الأتراك لمهاجمة قناة السويس ، مؤلفاً من فرق المشاة (٢٣ و٢٥ و٢٧) وعدد من المتطوعين . وقد بلغ مجموع أفراد هذا الفيلق (١٢٦٤٢)(٢) جندياً . وكان مجهزاً بسرية من الهجانة ، وعدد من المدافع الثقيلة والمتراليوزات والبنادق السريعة الطلقات . وكان معه (٩٦٨) حصاناً و(٣٢٨) ثوراً لسحب المدافع عبر الصحراء ، وسبعة آلاف جمل لنقل الاعتدة والمؤن . وأما قائد هذه الحملة فهو جمال باشا الكبير قائد الجيش الرابع .

غير أن الطريق إلى قناة السويس كانت محفوفة بالمخاطر . ذلك لأنها تمر من بادية

---

(١) راجع كتاب (فلسطين جبهة سي) . ذلك الكتاب الذي أصدرته وزارة الحرب التركية بعد الحرب .

(٢) كان الأتراك يمنون أنفسهم بانضمام عدد كبير من المتطوعين إلى هذا الجيش ، وبوصول الكتائب المرابطة في الحجاز ، حتى يبلغ عددهم (٢٥,٠٠٠) . ولكن أمنيتهم هذه لم تتحقق .

لا زرع فيها ولا ماء . حتى أن قيادة الجيش أمرت الضباط والجنود أن يقتصدوا في استعمال الماء ، وأن لا يشرب الواحد منهم أكثر من إبريق في اليوم الواحد .

أخذت كتائب الأتراك تتجمع في شهر كانون الأول لعام (١٩١٤) . وفي اليوم الرابع عشر من كانون الثاني سنة (١٩١٥) شرعت هذه الكتائب في الزحف ميممة قناة السويس . فعبرت الحدود التركية المصرية ، واجتازت صحراء سينا ، دون أن تلقي أية مقاومة من الإنكليز . إذ كان هؤلاء قد اختاروا البقاء وراء الضفة الغربية لقناة السويس . وحاول الأتراك عبور قناة السويس . وقد عبرتها بالفعل قوة صغيرة مؤلفة من ستمائة جندي في مكان يدعى (طرسوم - سرابيوم) بالقرب من البحيرة المرة أمام الإسماعيلية . واستعمل هؤلاء المعديات[1] التي أعدت لهذه الغاية . إلا أن هذه المعديات لم تكن كافية . فما كاد هذا العدد الضئيل من الجند يعبرون القناة ، حتى تلقتهم المدفعية البريطانية بنيرانها الحامية . وكانت هذه تقذف حممها من بعض قطع الأسطول الذي كان راسياً في البحيرة المرة ؛ فصدتهم على أعقابهم ، بعد أن استشهد عدد كبير منهم ، وأسر آخرون . ولم ينجح الأتراك في حملتهم هذه إلا نجاحاً ضئيلاً ، هو أرغام الإنكليز على أن يبقوا في الضفة الغربية ، وتخريب مدرعة إنكليزية كانت راسية في القناة . فقرر الأتراك الانسحاب رغم أنف (قرس بك) الذي كان (يفضل الموت على الانسحاب) . وقد انسحبوا بالفعل تاركين وراءهم (١٣٠٠) شهيد ، وعدداً كبيراً من الإبل التي نفقت بسبب الحر والتعب .

تأهب الأتراك للحملة الثانية : عندما فشل الأتراك في حملتهم الأولى ، أخذوا يستكملون نقائص جيشهم ، ويتأهبون للقيام بحملة ثانية . فأصلحوا منازلهم على طول الطريق ، ومدوا السكك الحديدية ، واستخدموا عدداً كبيراً من الجنود كعمال لهذه الغاية . وعهدوا بهذه الأعمال كلها إلى قيادة الصحراء التي وضعت تحت إمرة القائد الألماني (الميرالاي فون قرس بك) .

وفيما كان الأتراك يتأهبون للقيام بحملتهم الثانية على قناة السويس ، حدث في

---

(١) حمل الأتراك هذه المعديات معهم عندما اجتازوا الصحراء . وقد كانت قطعاً متناثرة ، فركبوها عند وصولهم للقتال واستعملوها .

ساحات القتال الأخرى[1] حوادث اضطرتهم للتريث في الأمر . فقد اضطروا لإرسال الفرق الثامنة والعاشرة والخامسة والعشرين من فرق الجيش الرابع إلى الدردنيل . كما أرسلوا فرقة من فرق الفيلق الثاني عشر إلى العراق ، وأخرى إلى القفقاس . ثم أخذوا من الجيش الرابع جميع المدافع السريعة الطلقات والمتراليوزات التي كانت لديه . فانخفضت قوة هذا الجيش انخفاضاً هائلاً . وأصبح مجموع أفراده اثني عشر طابوراً فقط .

أضف إلى ذلك : الأنبـــاء التي وصلت عن نشـــوب ثورة في بلاد الأرمن ، والاستياء الذي كان واضحاً للعيان في البلاد العربية من جراء انتشار فكرة الاستقلال بين العرب ، والمفاوضات التي كانت تدور حول هذا الموضوع بين الإنكليز وبين الملك حسين بن علي ملك العرب الذي ثار ضد الترك وأعلن استقلال العرب (١٩١٥) .

فلم يتمكن الأتراك ، بسبب الحوادث المتقدم ذكرها ، من القيام بحملتهم الثانية على القتال ؛ قبل أن يأتيهم المدد من جهة ، وقبل أن يمهدوا السبيل إلى هذه الحملة ، وذلك بتعبيد الطرق وإنشاء السكك الحديدية من جهة أخرى .

ولم يكن الإنكليز بغافلين عما يفعله الأتراك في هذه الجبهة . فقد زار مصر في أواخر عام (١٩١٥م) وزير الحربية البريطانية اللورد كيتشنر ، واستحضر عدداً كبيراً من الفرق الإنكليزية التي كانت في فرنسا وسلانيك والدردنيل والهند . فأصبح لديهم في مصر (٣٠٠,٠٠٠) جندياً . وعهدوا بقيادة هذا الجيش والدفاع عن مصر إلى الجنرال السر أرشيبالد موري وأما قوة الأتراك التي كانت يومئذ ترابط في هذه البلاد -من مصر إلى أطنه- فإنها لم تجاوز الأربعين ألفاً .

حملة الأتراك الثانية على قناة السويس : على الرغم من أن المدد الذي كان يتوقعه الأتراك لم يصلهم ، وإن الوسائل التي كانت لديهم قليلة ؛ فإنهم تحت ضغط الألمان الُملح ، قرروا القيام بحملة جديدة على القناة (نيسان ١٩١٦) .

ثم زحفوا باتجاه القنال . وكانت قوتهم في هذا الزحف مؤلفة من (٢٠,٠٠٠) جندي ، نصفهم فقط محاربون . ولكنهم في هذه الحملة أيضاً فشلوا . وكانت

---

(١) كان الأتراك يحاربون خلال الحرب الكبرى (١٩١٤-١٩١٨) في خمس جبهات : فلسطين ، العراق ، القفقاس ، رومانيا ، والدردنيل .

خسائرهم في هذه المرة : ألف قتيل ، وثلاثة آلاف أسير . وأما خسائر الإنكليز ، فإنها -على قول الأتراك أنفسهم- لم تجاوز (١١٣٠) قتيلاً .

الإنكليز ينقلبون من طور الدفاع إلى طور الهجوم : تبدل الموقف في هذه الجبهة ، بعد فشل الحملة الثانية ، تبدلاً محسوساً . فبعد أن كان الأتراك مهاجمين ، والإنكليز مدافعين ؛ انقلبت الآية : فأصبح الإنكليز مهاجمين ، والأتراك مدافعين . وراح الإنكليز يفكرون في الاستيلاء على فلسطين ، بعد أن كانوا قانعين بالدفاع عن مصر فقط[١] . وكان ذلك بناء عل قرار أصدرته وزارة الحرب البريطانية في بداية عام (١٩١٧م)[٢] . ولقد صدر هذا القرار في نفس الوقت الذي قرر فيه حلفاؤهم الروس أن يقوموا بقيادة الغراندوق نقولا بحملتهم على القفقاس على أمل أن يسحقوا الجيش التركي .

عندما تلقى قائد القوات البريطانية السر أرشيبالد موري قرار حكومته ، كان الجيش الذي تحت إمرته مؤلفاً من (٣٣٠,٠٠٠) جندياً . هذا هو تقدير الأتراك . وأما الإنكليز أنفسهم فيقولون إن قوتهم لم تتجاوز السبعين ألفاً . .

وضع السر ارشيبالد موري Sir Archibald Murray جميع الكتائب[٣] الإنكليزية

---

(١) The Palestine Campaigns by, Colonel A. P. Wavell.

(٢) ذلك لأن المستر لويد جورج Mr Lioyd George الذي تولى رئاسة الوزارة البريطانية بعد اسكويث (Mr. Asquith) في (٧) ديسمبر سنة (١٩١٦) كان يرى أنه لا بد من إشغال الألمان في جبهة أخرى غير الجبهة الغربية في أوروبا ، وقد أبرق إلى الجنرال أرشيبالد موري يقول : (لا بد من الحصول على نصر في الشرق) .

(٣) كانت هذه الكتائب مؤلفة من (أ) فيلق الصحراء ، وهو مؤلف من (١) فرقة المشاة الثالثة والخمسين و(٢) فرقة الإنزام الفرسان و(٣) فرقة الفرسان الإمبراطورية . (ب) والفرقة الثانية والخمسين . (ج) والفرقة الرابعة والخمسين . (د) ولواء من الفيلق الإمبراطوري للهجانة . وأما فرقة الفرسان الإمبراطورية فقد كانت مؤلفة من اللواء الثالث للخيالة ، واللوائين الخامس والسادس للفرسان اليومانيين والبريطانيين ، واللواء الرابع للخيالة الاستراليين ، وكان مع كل من اللواء الثالث والرابع كتائب من المستشفيات والمؤسسات الصحية التي تعمل متنقلة بين الكتائب المختلفة . وأما فرقة الأتراك الفرسان فقد كانت مؤلفة من اللواء التاني للخيالة النيوزيلانديين والالاي الثاني والعشرين للفرسان البريطانيين .

الموجودة شريقي قناة السويس تحت إمرة اللفتنانت جنرال السر تشارلس دوبلSir Charles Dobell . وأما المياه فإنها وإن كانت متيسرة في المناطق الساحلية ، إلا أنها لا تكفي للعدد الكبير من الجيوش التي كان عليها أن تعبر الصحراء . ولهذا كان لا بد من جر مياه النيل . وقد جرت بالفعل بواسطة أنابيب حديدية . وعهد إلى الأسطول البريطاني المعقود لواؤه للأميرال (وه ميس) بحماية هذه المناطق . وقد شرع الإنكليز في نفس الوقت يمدون السكة الحديدية شمالاً ، ليتمكنوا من نقل جنودهم وعتادهم .

انسحاب الأتراك من غزة : عندما اتصل نبأ هذه الاستعدادات بالأتراك شعروا بالخطر .

وقد جاء القائد العام أنور باشا من استانبول ، وعقد مجلساً حربياً ، حضره كل من جمال باشا وفون قرش بك للتشاور في الأمر . فقرروا الدفاع حتى النفس الأخير .

معارك غزة : انسحب الأتراك من العريش في (٢٠ كانون أول عام ١٩١٦) ؛ ثم رجعوا إلى غزة ، وأخذوا يتأهبون للدفاع عنها دفاعاً لا هوادة فيه . ولقد حصنوها تحصيناً تاماً . قامت في غزة معركتان : واحدة في (٢٧ آذار ١٩١٧) والثانية في (١٩ نيسان ١٩١٧) . وقد انتهت كلتاهما بفشل الإنكليز ، وانتصار الأتراك . وخسر الإنكليز في الأولى (٢٧٠٠) قتيلاً و(٢٩٣٢) جريحاً . وفي الثانية (٢٠٨٥) قتيلاً و(٤٣٥٩) جريحاً . وأما خسائر الأتراك فقد كانت أقل من ذلك بكثير : (١٧٥٠) بين قتيل وجريح .

الجنرال اللنبي يتولى القيادة بعد الجنرال موري : أقال الإنكليز على أثر فشلهم هذا الجنرال دوبل من قيادة القوى الشرقية . واستبدلوه بالجنرال (شت وود) . وجعلوا الماجور جنرال (شوفل Chauvel) قائداً لقوة الصحراء ، وتولى الماجور جنرال (شيتور E. W. C. Chaytor) قيادة فرقة الأنزاك الفرسان . وأما القيادة العامة لجميع هذه القوى فقد انتزعت من يد السر أرشيبالد موري وسلمت ، في حزيران سنة (١٩١٧) ، ليد السر أدموند اللنبي بصفته القائد العام للحملا المصرية : Sir Edmund Allenby, Commander in Chief of the Egyptian Expeditionary Force.

منح اللورد اللنبي صلاحيات واسعة ، وأعطى كل ما طلبه من جند ومدافع وآلات ميكانيكية وذخائر واعتدة ؛ وأخذ يرسم الخطط ، لا للاستيلاء على غزة فحسب ، بل وعلى فلسطين بأسرها . وشرع في تنسيق القيادة ، وقام بتمرينات

عسكرية لاختبار حالة جيشه ، وضعف الجهود التي سبقت لمد الأنابيب وجر مياه النيل في الصحراء . وقد مدت هذه بالفعل على مسافة (١٣٥) ميلاً ، كما مدت السكة الحديدية حتى وصلت إلى دير البلح ، وأنشأ لها بعض الفروع ، وقد اتخذ القنطرة مركزاً لتموين جيشه بدلاً من الإسكندرية . وأعاد تنظيم القوى التي وضعت تحت إمرته .

وكان مجموع القوى المحاربة التي وضعت تحت إمرة اللورد اللنبي (١٩٩ ، ١٠٠) رجلاً .

إن شخصية الجنرال اللنبي ومقدرته ونفوذ بصيرته ، بدت للجند بزياراته الكثيرة المتوالية للقطعات ، ولا سيما في المناطق الأمامية . وهذه الصفات أحدثت تطوراً عجيباً في معنوية الجيش الإنكليزي . وبعد أن كان الاعتقاد سائداً بأن هذا الجيش الذي كان يحارب في الجبهة الفلسطينية كان منسياً ، تبدل هذا الاعتقاد ، وانقلب اليأس إلى رجاء . ولا سيما عندما وصلت النجدات الجديدة ومعها طائرات حديثة الصنع .

موقف الجيش التركي : رأى الأتراك استعداد الإنكليز هذا ؛ فحسبوا له حسابه ، وراحوا يعدون العدة من جديد . وعقدوا في حلب مجلساً حربياً (٢٧ من حزيران سنة ١٩١٧) حضره كل من :

القائد العام	أنور باشا
قائد جيش القفقاس	أحمد عزت باشا
قائد الجيش الثاني	مصطفى كمال باشا
قائد الجيش الرابع	جمال باشا
قائد الجيش السادس	خليل باشا
مستشار وزارة الحرب التركية	محمود كامل باشا

وغيرهم من الرؤساء والقواد .

إن هذا المجلس وإن لم ينته يومئذ إلى قرار حاسم في صدد الخطة الواجب

---

(١) من أراد الاطلاع على تفاصيل المعارك التي حدثت بين الإنكليز والأتراك في غزة ، فليرجع إلى كتابنا : (تاريخ غزة) . طبع في مطبعة دار الأيتام الإسلامية بالقدس . سنة (١٩٤٣) .

اتباعها[1] ، إلا أن القيادة العامة عادت فقررت[2] إرسال الجيشين : السابع والثامن من (جيوش ييلديرم[3]) أي جيوش الصاعقة إلى الجبهة الفلسطينية . ولما كان غازي باشا قائد الجيش السابع مخالفاً لهذا الرأي ، فقد استقال من القيادة بإيعاز من أنور باشا ، وعهد بقيادة هذا الجيش إلى أمير اللواء فوزي باشا .

وفيما كانت هذه التبدلات في القيادة تجري ، كانت أحوال الجيش التركي تسير من سيء إلى أسوأ . إذ كانت أرزاقه قليلة للغاية . ولم يحسن ضباط الجيش استعمال هذا القليل من الأرزاق ، بدرجة أن الجوع كان يلازم الكثيرين من الجند في كثير من الأحيان . وقد جاء في التقارير الرسمية أنهم لم يستطيعوا توزيع كمية من الخبز أكثر من (٧٥) طناً في أي يوم من أيام شهر أيلول (١٩١٧) ، مع أن احتياج الجيش اليومي للخبز كان (١٥٠) طناً على أقل تقدير . وقد فتكت الأمراض بالجند فتكاً ذريعاً ، فأخذ عددهم يتناقص ما بين (٣٠٠٠ و٤٠٠٠) في كل شهر ، دون أن يأتي من يقوم مقامهم ويشغل مراكزهم . وقد هلك عدد كبير من حيوانات الجيش ، بسبب الجوع وقلة العلف . وأما حاجة الأهلين إلى الأرزاق والمؤن فقد كانت أعظم من ذلك بكثير .

كان الأتراك يصادرون الحيوانات ، دون أن يتركوا منها ما يصلح للتوليد والتناسل ، حتى يضمنوا مواصلة إنتاج تلك الثروة الحيوانية في البلاد .

وكانوا يصادرون الحبوب ، حتى أنه لم يبق منها ما يكفي للزراعة .

وكنت تجد عربات السكة الحديدية -على ضآلة السكك الحديدية في تركيا-

---

(١) كان بعض أعضاء هذا المجلس يرى وجوب الاهتمام بجبهة العراق ، واسترداد بغداد التي سقطت بيد الإنكليز في (١١ آذار سنة ١٩١٧) ، والبعض الآخر كان يؤثر الجبهة الفلسطينية على غيرها . لاعتقادهم بأن خسارة هذه الجبهة تعني خسارة فلسطين ، وخسارة فلسطين تعني خسارة القدس وأماكنها المقدسة . وهذا ما لا يريدونه . لأن للقدس أهميتها الدينية في نظر الأديان والشعوب كلها .

(٢) ولكن بعد حراب البصرة ، وبعد تلكؤ دام أربعة شهور .

(٣) كانت جيوش بيلد يرم هذه بادئ ذي بدء مؤلفة من القطعات التالية : الفيلق الثالث (الفرق ٤٢، ٥٠، ٥٩) والفيلق الخامس عشر (الفرق ١٩، ٢٠) ثم أضيف إليها كل من الجيش السادس ، والجيش السابع ، والجيش الثامن .

وكانت الغاية من تأليفها القيام بحملة جديدة في العراق واسترداد بغداد . وقد عهد بقيادتها إلى القائد الألماني الجنرال فالكنهايم . وقدر مجموع عدد الجنود الذين وضعوا تحت أمرته بخمسين ألفاً .

مشحونة بالجند والعتاد، والحيوانات، وهي تسير من جهة إلى أخرى على غير وعي . . . ودون علم إلى أين ومن أين؟

وهذه الفوضى زادت في أسباب المجاعة، لا سيما في المدن حيث لا غنى للسكان عن محصولات الأرياف. ولكن من أين لمحصولات الأرياف أن تصل إلى المدن وسط تلك الفوضى والاضطرابات؟

الجيش الإنكليزي يزحف صوب القدس : في تشرين الأول اكتوبر (١٩١٧) كان اللورد اللنبي قد أتم تعبئة جيشه .فأمر بزحفه. وقد استولى أولاً على بئر السبع (١٩١٧/١٠/٣١). ثم على غزة (١٩١٧/١١/٧). بعدئذ راح يزحف صوب القدس. وإليك تفصيل ما جرى :

بعد سقوط غزة سار الإنكليز في فتوحاتهم قدماً حتى احتلوا الرملة ويافا (١٩١٧/١١/١٦). عندئذ أخذ اللورد اللنبي يفكر ماذا يصنع؟ أيتعقب الجيش التركي الثامن المتراجع نحو الشمال عبر السهل، أم يهاجم جيشهم السابع المرابط في الجبال باتجاه القدس. وبعد إنعام النظر في الخطتين، قرر الاتجاه نحو القدس، في نفس الطريق التي سلكها من قبله الآشوريون والرومان والصليبيون. وإنها لطريق وعرة المسالك. أضف إلى ذلك أن ذخائر الإنكليز كانت قد قلت. وكذلك قل عن وسائطهم النقلية. وفصل الشتاء كان على الأبواب. والجيش الإنكليزي كان قد تعب من الحروب المتواصلة. وليس ثمة خرائط دقيقة تبين دخائل المنطقة التي سيجتازها.

ولكن اللورد اللنبي، رغم هذه الحقائق كلها ورغم إنذار وزارة الحرب له، أراد أن لا يضيع الفرصة، ويهاجم الأتراك قبل أن يستعدوا ويستعيدوا نشاطهم، وقبل أن ينشئوا خطوطهم الدفاعية في الجبال. فلم يضيع من وقته سوى يوم واحد، هو اليوم السابع عشر من نوفمبر. قضاه في راحة وتهيئة. راحة لجنده وتهيئة لوسائط النقل.

وفي اليوم الثامن عشر أتم تعبئة جيشه بالشكل التالي :

(أ) أمر فرقة الفرسان الأنزاك والفرقة الرابعة والخمسين اللتين جاءتا من غزة، بأن ترابطا في السهل لتقوما بمهمة الدفاع.

(ب) وأمر القسم الباقي من الفيلق الواحد والعشرين أن يتقدم باتجاه الجبال : على أن تسير الفرقة (٧٥) باتجاه الطريق التي تربط يافا بالقدس، والفرقة (٥٢) على يسارها. وعلى يسار الفرقة (٥٢) تسير فرقة الفرسان اليومانيين، فتتبع طريق بيت عور باتجاه البيره. ويسر آلاي من فرقة الفرسان الأوستراليين على يمين

الفرقة (٧٥) باستقامة الوادي الذي يمر منه الخط الحديدي .

وفي اليوم التاسع عشر لنوفمبر ، شرع الجيش الإنكليزي بالزحف نحو الجبال ، ميمماً من ناحية شطر سريس وقرية العنب . ومن الأخرى بيت لقيا وبيت عور . وكان الجو يومئذ ماطراً ، والضباب كثيفاً ، والطقس بارداً للغاية . وكان الأتراك قد خربوا الطريق التي تربط يافا بالقدس . خربوها في أكثر من موضع واحد من مواضعها .

وأما طريق بيت عور فلم تكن معبدة ، وما كان من السهل استعمالها : لا لسير السيارات ولا للجمال .

فسار الجيش الإنكليزي في الطريق اليمنى . وهي طريق صخرية ووعرة للغاية . سار فيها إلى أن وصل إلى سريس ، فاحتلها (٢٠ نوفمبر ١٩١٧) .

وفي (٢١) نوفمبر احتلت الفرقة (٧٥) قرية العنب ، وسارت شمالاً إلى الشرق باتجاه البيره . ولكنها لاقت المشقات من جراء دفاع الأتراك المرابطين في النبي صمويل . والجبل الذي تقع عليه قرية النبي صمويل مرتفع ومسيطر على جميع الأراضي المجاورة . ولكن الآلاي (٢٣٤) احتلها قبيل منتصف الليل . وباحتلاله هذا قبض على (مفتاح القدس) .

بينما كانت الفرقة (٧٥) تتقدم نحو النبي صمويل ، كانت فرقة الفرسان اليومانيين تتراجع أمام الأتراك المرابطين في جبال بيتونيا . وقد رجعت فعلاً إلى بيت عور الفوقا . ذلك أن بيتونيا كانت محصنة . وكان فيها ثلاثة آلاف جندي تركي مزودين بالمدافع وما كان مع الإنكليز الذين هاجموها سوى أربعة مدافع جبلية عرفت ببطاريات هونغ قونغ وسنغافور .

بين (٢٢ و٢٤) نوفمبر قامت الفرقتان (٧٥ و٥٢) بهجوم على قرية الجيب الواقعة على مرتفع كائن بين النبي صمويل وبيتونيا ، إلا أنهما فشلتا . ولم تستطيعا أخذها . غير أن الفرقة (٥٢) تمكنت من شق طريق لها من بيت لقيا ، فنقلت مدافعها إلى (بدو) .

في هذه الأثناء قام الأتراك بثلاث هجمات معاكسة لاسترداد النبي صمويل[1] ، كي يتمكنوا من درء الخطر عن خطوطهم الدفاعية ، لا بل وعن القدس

(١) يقال أن ريكادرس قلب الأسد ، أخفى وجهه في هذا المكان ، ورفض أن ينظر إلى المدينة التي لم يتمكن من أخذها .

نفسها .

وفي (٢٤) نوفمبر أصدر اللورد اللنبي أوامره بعدم القيام بأي هجوم ، وبالثبات في الخط الذي ضبط ؛ إلى أن تأتيه الكتائب الجديدة والمدافع الجديدة التي طلبها . لأن الأتراك كانوا من القوة في مواقعهم ، بحيث لا يمكن زحزحتهم عنها بالقوة التي لديه .

إن المحاولة الأولى للاستيلاء على القدس ، وإن كانت قد فشلت ، إلا أنها كانت ذات فائدة للجيش المهاجم . لأنه اختبر الطرق ، واختبر حالة البلاد ، واختبر قوة الدفاع التي يملكها الأتراك . وحال دون تمكين الأتراك من تحصين الجبال وتهيئة وسائل الدفاع . وفيما كان الإنكليز يستعدون لتقوية الجيش المهاجم في الجبال ، كانت فرقة الفرسان الأتراك المرابطة في السهل ، تناوش الجيش الثامن الذي كان مرابطاً أمامها لتمنعه عن إرسال المدد إلى الجيش السابع المرابط في الجبال .

انقضت فترة بين الحملة الأولى على القدس والثانية ، قام الجيش الإنكليزي خلالها باستكمال نقائصه ، وتهيئة معداته ، وبإنشاء الطرق وترتيب وسائل النقل . وقد جيء بالفيلق العشرين ليتولى الهجوم ، بدلاً من الفيلق الواحد والعشرين الذي كان منهوك القوى . وأرسل هذا ليتولى مهمة الدفاع في السهل أمام يافا والرملة . تلك المهمة التي أنيطت قبلاً بفيلق خيالة الصحراء .

واستبدلت الفرقة الخامسة والسبعون والثانية والخمسون بالفرقة الستين التي جاءت من غزة . وانضمت إليها الفرقة العاشرة والفرقة (٧٤) لمهاجمة القدس . واحتفظ بالفرقة (٥٣) وبكتيبة من الخيالة وبطارية من المدافع الثقيلة على طريق الخليل شمالي بئر السبع لمجابهة الطوارئ في تلك الجهة .

بدأت الحملة الثانية لاحتلال القدس في (٢٧) الشهر . إذ جرى يومئذ اصطدام شديد بين اليومانيين وبين الجيش التركي في الناحية الغربية من بيتونيا . فقد تغلب الأتراك هنا لكثرة عددهم . وانسحب الإنكليز لا من بيتونيا فحسب ، بل ومن بيت عور الفوقا . وفتح الأتراك ثغرة بين اليومانيين والفرقة (٥٤) . فأرسل الإنكليز من احتياطهم مدداً ، هو من آلاي الخيالة السابع وفرقة الفرسان الأوستراليين وآلاي من الفرقة (٥٢) . فتمكنوا من سد الثغرة التي فتحها الأتراك وأبعدوهم إلى الوراء .

وفي نوفمبر (٣٠) أسر الإنكليز (٣٠٠) جندياً تركياً عند بيت عور الفوقا .

وفي ١ ديسمبر قام طابور تركي من فرقة الصاعقة التاسعة عشرة بهجوم سريع

وموفق على فريق من الأستراليين كانوا مرابطين في البرج قبلي شلتا . فركض طابور من الفرقة (٥٢) لنجدتهم وأنقذهم . وقتل من الأتراك مئة رجل ، وأسر منهم (١٧٢) أكثرهم جرحى .

إن معركة شلتا هذه قد أثرت في معنوية الأتراك . ويقول الإنكليز أن خسائرهم في هذه المعركة لم تتعد الستين .

وفي نفس اليوم رد الإنكليز هجمات قام بها الأتراك من جديد على النبي صموئيل وبيت عور التحتا .

وفي الثاني من ديسمبر استبدلت الفرقة (٥٢) بالفرقة العاشرة .

وفي ٣ ديسمبر استولى طابور من الفرقة (٧٤) على بيت عور الفوقا مرة أخرى . ولكنه عاد فأخلاها في نفس النهار ، لأنها محاطة بتلال مرتفعة . وخسر الإنكليز في هذه المعركة (٣٠٠) قتيلاً .

وهكذا تكون الحملة الثانية للاستيلاء على القدس أيضاً قد فشلت .

وعندما تقرر القيام بحملة جديدة للاستيلاء على القدس ، قرر الجنرال السر فيليب شتوود General Sir Philip Chetwode قائد الفيلق العشرين إحداث تبديل أساسي في خطة الهجوم . فأمر بأن تحتل القطعات العسكرية الموجودة تحت قيادته المواضع المقررة لها :

(آ) فمدت الفرقة العاشرة جناحها الأيمن بشكل يمكن الفرقة (٧٤) من الصمود في النبي صموئيل وقد تقرر أن تكون هذه النقطة مداراً تدور حولة رحى الحرب .

(ب) واحتشدت الفرقة (٦٠) قبلي طريق العنب -القدس . فتولى جناحها الأيسر ضرب هذه الطريق ، واتصل جناحها الأيمن بالفرقة (٥٣) على طريق الخليل . وكان على هذه الفرقة أن تقترب من خطوط الدفاع في بيت لحم في السابع من ديسمبر .

(ج) وقامت بعض القطعات الأخرى بصلة الوصل بين الفرقتين (٦٠ و٥٣) .

(د) ودعمت ثلاث بطاريات من المدافع الجبلية وثلاث بطاريات من مدافع الهوتزار ذات الست بوصات وبطارية ونصف من المدافع الخفيفة الهجوم بوجه عام .

ولكن الأمطار الغزيرة التي هطلت في (٧) ديسمبر حالت دون تقدم الفرقة (٥٣) . لا ، بل إنها سببت انزعاجاً عظيماً لجميع الفرق .

ومع ذلك فقد تمكن الآلا (١٧٩) من الفرقة (٦٠) من القيام بهجوم على وادي

الصرار . وحوالي الساعة (٣,٣٠) من صباح (٨) ديسمبر استولى على التلال المرتفعة الكائنة جنوبي عين كارم . عندئذ بدأ الهجوم الأساسي على القدس ، وكان الوقت قريباً من الفجر ، وكان الضباب كثيفاً .

إن الجيش التركي السابع ، ويقدر عدد رجاله يومئذ بـ(١٥,٠٠٠) إلى (١٦,٠٠٠) مقاتل ؛ كان مشغولاً بتحصين التلال الواقعة غربي القدس ، وتهيئة وسائل الدفاع عنها . وفي الحقيقة أنه كان يعمل من أجل ذلك منذ عام أو يزيد . ولكن قوته المعنوية كانت قد انكسرت . ولم يكن دفاع الأتراك شديداً ، ذلك لأنهم أنهكوا قواهم من غير لزوم ، وذلك بقيامهم بهجمات تعرضية خلال الأيام العشرة الأخيرة .

ولهذا تمكنت الفرقة (٧٤) المؤلفة من اليومانيين من الاستيلاء على التلال الواقعة غربي القدس عند بيت إكسا ، والفرقة (٦٠) اللندنية على ديريس وعلى مواضع أخرى واقعة شرقي وادي الصرار . وكانت الفرقة (٥٣) (المؤلفة من رجال البوليس) مرابطة في الجنوب .

الجيش الإنكليزي يحتل القدس : عندما خسر الأتراك مواقعهم الحصينة في جنوب فلسطين ، أيقنوا أن القدس ستسقط في يد الإنكليز لا محالة . وكان الجوع قد اشتد ، والغلاء قد عم ، والأمراض قد انتشرت . عندئذ أخذوا يتراجعون في ليلي (٩/٨) من ديسمبر : قسم منهم بهدوء والقسم الآخر بانهزام .

ولما أيقن المتصرف التركي ، عزت بك ، أن القدس لا محالة واقعة بيد الإنكليز ، وأنه لا خير يرجى من المقاومة أكثر مما جرى ، نادى إليه مفتي القدس كامل أفندي الحسيني ورئيس البلدية حسين سليم أفندي الحسيني . فاجتمعا إليه في داره الكائنة بالقرب من مدرسة المطران بالشيخ جراح . فقال لهما : «ها قد أحاط الجنود الإنكليز بالقدس ، ولا بد أن تسقط عما قليل بأيديهم . ولقد اعتزمت مغادرة المدينة بعد نصف ساعة . وأود أن ألقي بين أيديكم هذا الحمل الأدبي العظيم ، ألا وهو تسليم المدينة للفاتحين» .

ثم ناول رئيس البلدية وثيقة التسليم التالية ليسلمها للإنكليز : «انكليز قوماندانلغنه : هرملتجه مقدس أو لأن قدس شريفده أيكي كوندن بري بعض أماكنه أوبرسلر دوشمكده در . حكومة عثمانية جه صرف أماكن دينية يي تخريبدن وقاية عسكر جكلمش . وقمامة ومسجد أقصى كبى أماكن دينيه نك محافظه سنه مأمورلر أقامه أيدلمشدر .

طرفكزدن ده لويولده معاملة أيديله جكي أميديله أشبوورقة يي بلدية رئيس وكيلي حسيني زاده حسين بك أيله كوند ريورم أفندم» .

قدس سمتقل متصرفي

٨٢١٣٣٣١ عزت

وإليك ترجمتها بالحرف الواحد :

إلى القيادة الإنكليزية :

«منذ يومين والقنابل تتساقط على القدس المقدسة لدى كل ملة . فالحكومة العثمانية رغبة منها في المحافظة على الأماكن الدينية من الخراب ، قد سحبت القوة العسكرية من المدينة ، وأقامت موظفين للمحافظة على الأماكن الدينية كالقيامة والمسجد الأقصى . وعلى أمل أن تكون المعاملة من قبلكم على هذا الوجه ، فإني أبعث بهذه الورقة مع وكيل رئيس بلدية القدس حسين بك الحسيني» .

متصرف القدس المستقل

٨٢١٣٣٣١ عزت

الحكومة التركية تنسحب من القدس : بعد أن سلّم متصرف القدس وثيقة التسليم لرئيس البلدية غادر المدينة ، ميمما أريحا ؛ وكان الجيش قبل ذلك بقليل ، قد بدأ بإخلائها . وراح يتحصن في جبل الزيتون .

وفي صباح اليوم التالي (الأحد ١٩١٧/١٢/٩) انسحب الأتراك من القدس بالمرة . وقد كانت السماء ماطرة . وكان يخيم على المدينة سحب قاتمة من الرهبة والسكون . وفي نحو الساعة التاسعة ذهب رئيس البلدية يصحبه ابن أخيه توفيق صالح الحسيني ومفتشا الشرطة عبدالقادر العلمي وأحمد شريف والشرطيان حسين العسلي وإبراهيم الزعنون وفريق من الشبان نذكر منهم رشدي محمد المهتدي وجواد إسماعيل الحسيني وحنا إسكندر اللحام . وكان هذا الأخير حاملاً العلم الأبيض علامة التسليم .

والتقى هؤلاء بقائد الفرقة الستين الجنرال شيء Gen. Shea عند مستشفى ولخ على طريق الشيخ بدر للغرب من المدينة . فسلموه وثيقة الاستسلام المتقدم ذكرها . فدخل الجيش الإنكليزي في الساعة العاشرة والنصف المدينة .

محاولات تركية فاشلة لاسترداد المدينة : وفي اليوم نفسه تقدم أفراد الفرق (٥٣ و٦٠ و٧٤) إلى المواضع المعينة لهم . فأحاطوا بالمدينة من جميع جوانبها : الفرقة (٥٣)

سارت في اتجاه الشرق نحو وادي الأردن . فقوبلت من الأتراك بنيران حامية . وكذلك قل عن الفرقة (٦٠) التي كانت تسير على طريق نابلس . فإنها قوبلت بنيران شديدة من قبل مؤخرة الجيش التركي التي كانت مرابطة على جبل الزيتون . ولكن هذه المؤخرة صدت بعد معركة قامت بينها وبين الإنكليز بالسلاح الأبيض . وكانت خسارة الأتراك في هذه المعركة سبعين قتلاً .

وقصارى القول : إن المحاولات التي قام بها الأتراك بين (٢٦ و٣٠) ديسمبر لأجل استرداد القدس فشلت . وقد اضطروا لمغادرتها . فغادروها ، بعد أن قضوا فيها أربعمئة سنة على التمام (١٥١٧-١٩١٧) .

أول بيان أذاعه اللورد اللنبي على الأهلين : عندما دخل اللورد اللنبي القدس بعد يومين (أي في ١٩١٨/١٢/١١) دخلها ماشياً من باب الخليل . وأذاع على سكان بيت المقدس ، من على درج القلعة الواقعة بباب الخليل البيان التالي :

«إلى سكان بيت المقدس وأهالي القرى المجاورة :

«إن انهزام الأتراك أمام الجيوش التي تحت قيادتي ، أدى إلى احتلال مدينتكم من قبل جيوشي . وفي الوقت الذي أذيع عليكم فيه هذا النبأ ، أعلن الأحكام العرفية . وستبقى هذه الأحكام نافذة المفعول ما دامت ثمة ضرورة حربية . ولئلا ينالكم الجزع ، كما نالكم من الأتراك الذين انسحبوا ، أريد أن أخبركم أنني أرغب أن أرى كل واحد منكم قائماً بعمله وفق القانون ، دون أن يخشى أي تدخل من قبل أي كان .

وفضلاً عن ذلك بما أن مدينتكم محترمة في نظر اتباع الديانات الثلاثة الكبرى ، وترابها مقدس في نظر الحجاج والمتعبدين الكثيرين من أبناء الطوائف الثلاثة المذكورة منذ قرون وأجيال ؛ أود أن أحيطكم علماً بأن كل بناء مقدس ، ونصب ، ومكان مقدس ، أو معبد ، أو مقام ، أو مزار ، أو أي مكان مخصص للعبادة من أي شكل والي أية طائفة من الطوائف الثلاثة ؛ سيصان ويحتفظ به عملاً بالعادات والعنعنات المرعية وبالنسبة إلى تقاليد الطائفة التي تملكها» .

لماذا غلب الأتراك على أمرهم : أن السبب في هذا الاندحار هو قلة استعداد الأتراك في هذه الجبهة ، وعدم انتباههم إليها في بادئ الحرب[1] ، وعدم تعاون رجال

---

(١) هذا ما يقوله الأتراك أنفسهم . راجع كتاب (فلسطين جبهة سي) .

القيادة من أتراك وألمان ، وقلة وسائط النقل وقلة الذخائر والمؤن . أضف إلى ذلك أن الدولة العثمانية كانت مفككة الأجزاء ، لا تعرف النظام والتنظيم . وكانت عوامل الجهل والفوضى والاضطراب سائدة في كل مكان . وأما الإنكليز فقد كانوا أعلم من الأتراك ، وكانت وسائطهم أكثر وأمتن . وكانت لهم سكة حديدية . وقد مدوا قساطل الماء على طول هذه السكة . وكان لديهم (٧٤٠٠٠) عاملاً مصرياً[1] يشتغلون بالطرق والاستحكامات الحربية ، وكان لديهم (٢٨٠٠٠) جملاً . وكان لدى القيادة العامة فضلاً عن ذلك (٣٥٠٠٠) جمل . أضف إلى ذلك وسائط النقل البحرية . وقصارى القول كانت قوة الإنكليز أربعة أضعاف القوة التركية . وكانت هذه القوة مجهزة تجهيزاً تاماً ، وكانوا يسيطرون على البر والبحر والجو .

ومع ذلك فقد قاوم الأتراك مقاومة شديدة ، وأبدوا بسالة ممتازة استحقوا الإعجاب من أجلها . فكانت خسارة الإنكليز في معارك القدس من (١٥) نوفمبر إلى (٩) ديسمبر (١٩١٧) (١٦٦٧) قتيلاً . وأما مجموع خسائرهم بين بئر السبع والقدس ، فكانت (١٨,٠٠٠) بين ضابط وجندي . وقد خسر الإنكليز خلال الشهرين الأخيرين عشرة آلاف حيوان من خيل وجمال وحمير وبغال . وأما الأتراك فكانت خسائرهم (٢٥,٠٠٠) رجل بين قتيل وجريح . وقد أسر منهم (١٢,٠٠٠) رجلاً ؛ منهم (١,٨٠٠) تركي أسروا في جبهة القدس .

ويقول الذين تتبعوا مجرى الحرب في ذلك العهد ، إن الأتراك ما كانوا ليندحروا في هذه الجبهة ، لو كانت قلوب العرب سكان البلاد معهم . إذ كان هؤلاء تواقين إلى الاستقلال . وكانوا في أواخر الاحتلال التركي ، ينظرون إلى الأتراك نظرة بغض وازدراء . وقد هرب قسم كبير من الضباط والجنود العرب الذين كانوا في الجيش التركي ، والتحقوا إما بجيش اللنبي رأساً أو بالجيش العربي الذي كان يقوده الأمير فيصل بن الحسين ، بعد أن أعلن أبوه الملك حسين بن علي الثورة ضد الأتراك في (٥ حزيران سنة ١٩١٦) . وكان الجيش العربي يؤلف الجناح الأيمن لجيش اللنبي . حتى أن اللورد اللنبي نفسه قد اعترف بعد انتهاء معارك فلسطين بفضل العرب الأكبر في سقوط العقبة وبئر السبع وغزة والقدس ؛ كما اعترف بفضلهم على الحلفاء بوجه عام ،

---

(١) وقيل أن هذا العدد كان حوالي (٥٥,٠٠٠) . ارجع إلى كتاب (جيشنا في فلسطين) لليوزباشي السيد فرج . الصفحة (٢٣) .

والإنكليز بوجه خاص من حيث كسب الحرب .

هذا ولا بد لنا ، قبل أن نختم هذا الفصل ، من القول إن جمال باشا ، عندما أيقن أن العرب لا يؤيدون الأتراك في حملتهم ، قبض على عدد كبير من أحرار بلاد الشام (سورية وفلسطين ولبنان) . فساقهم إلى عاليه . وهناك حوكموا محاكمة صورية ، وحكم عليهم بالإعدام من قبل محكمة عسكرية ؛ لا لسبب ، سوى أنهم تمسكوت بقوميتهم وانضموا إلى الثورة العربية التي كانت تستهدف استقلال بلادهم . وكان بين الذين علقوا على أعواد المشانق في بيروت ودمشق والقدس (١٩١٥) عدد غير قليل من الفلسطينيين . وأما عدد الشهداء من سورية ولبنان فاثنان وثلاثون . وكان هذا من جملة الأسباب التي جعلت نار الثورة تزداد اضطراماً ، وأدت في النهاية إلى اندحار الأتراك وخروجهم من هذه البلاد .

الإدارة العسكرية : عندما احتل اللورد اللنبي فلسطين كلها ، أدارها إدارة عسكرية . وقد أطلق عليها يومئذ Occupied Enemy أي إدارة (Territory Ad-dinistration بلاد العدو المحتلة) . وراح يدير البلاد مدراء عسكريون ، باسم (المدير العام لبلاد العدو المحتلة) . وإليك أسماء المديرين الذين عهد إليهم بإدارة فلسطين في ذلك الحين :

البريجادير جنرال كلايتون ١٩١٧/١٢/٩-١٩١٨/٢/٢٨

الميجور جنرال السرموني ١٩١٨/٣/١-١٩١٩/٧/٣٠

الميجور جنرال السرواطسن ١٩١٩/٨/١-١٩١٩/١٢/٣١

الميجور جنرال السربولز ١٩٢٠/١/١-١٩٢٠/٦/٣٠

وقسمت المناطق التي تم احتلالها في بادئ الأمر (١٩١٧) إلى خمسة ألوية هي : القدس ، ويافا ، وغزة ، وبئر السبع ، والخليل . ثم زيد عدد الألوية فجعل ثمانية (١٩١٨) . وعهد بإدارة البلاد إلى حكام عسكريين . ووضع في كل من نابلس ، وجنين ، وطولكرم ، وحيفا ، والناصرة ، وعكا ، وطبرية ، وصفد ؛ حاكم عسكري .

وفي (١ يوليو ١٩٢٠) خفض عدد الألوية من ثمانية إلى سبعة : Districts وذلك بجعل جنين تابعة لنابلس ، وطولكرم إلى حيفا ، ويافا والخليل إلى القدس .

وإليك أسماء الألوية السبعة :

القدس ، يافا ، بئر السبع ، غزة ، فينيقيا (حيفا) ، الجليل (الناصرة) والسامرة

(نابلس) . اتخذ اللورد اللنبي ، في بادئ الأمر ، مدينة (اللد) مقراً له . وما كاد الأمر يستتب في القدس حتى جعلها هي المقر . وأقام عليها حاكماً عسكرياً هو الجنرال بل بورتون General Bill Borton . وكان هذا يحمل لقب (باشا) . وكان قبل مجيئة إلى فلسطين ، مديراً عاماً لمصلحة البرق والبريد في مصر . ولكنه لم يبق في منصة الإدارة أكثر من أسبوعين . إذ استقال من منصبه بسبب سوء صحته . فخلفه في الإدارة السر الكسندر بيرد Sir Alexander Baird . ثم جاء السر رونالد ستورس Sir. Ronald Stores . وكان هذا قبل مجيئه لفلسطين ، السكرتير الشرقي لدار المندوب السامي في القاهرة . ومكث طويلاً في القدس .

إنه هو الذي أسس الجمعية التي عرفت فيما بعد باسم : (جمعية محبي القدس) . ومن أهدافها تحسين مدينة القدس من الناحية العمرانية والأثرية ، والاحتفاظ بقدسيتها . وقد استحضر من بلاد الإنكليز مهندساً أخصائياً في شؤون التنظيم ، ليقوم بهذه المهمة . إنه المستر آشبي ، وقد ولاه أمانة السر .

قلنا أن من أهداف هذه الجمعية تحسين المدينة وتنظيمها . ولكن أمانة التاريخ تقتضينا أن نقول إن من أهدافها أيضاً -وإن شئت فقل : هدفها الأصلي- هو إفهام العالم الخارجي أن سكان البلاد -على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم- راضون (؟) عن الحكم البريطاني! . يدلك على هذا أعضاء الجمعية . وهم خليط من الإنكليز والعرب واليهود ومن رؤساء الطوائف المختلفة . وإليك أسماؤهم : رئيس البلدية موسى كاظم باشا (وقد خلفه في الرئاسة راغب بك النشاشيبي) . مدير الآثار . المفتي الأكبر كامل أفندي الحسيني . حارس الأراضي المقدسة ورئيس الأباء الفرنسيسيين بطريرك الروم . بطريرك الأرمن . رئيس الطائفة اليهودية . رئيس المجلس الصهيوني . الأب إبل الكبتن بارلوزي بن يهودا . الكبتين كرزويل مفتش الآثار . الدكتور رايدر . البروفسور باتريك جدس . هاراري لوك . ماكي مفتش الآثار . ميوحاس . لازاروس بول . ريشموند ، سلامه . ناحوم سلوش . يعقوب سبافورد . الأب فنسان . جون وايتنغ (أمين الصندوق) داود يلين آشبي (سكرتير) .

كان حاكم القدس في بدء عهد الاحتلال يقيم في فندق قائم تجاه السور وإلى الغرب من باب الخليل . ثم انتقل إلى البناء الألماني الواقع بباب العمود والمعروف بمنزل القديس بولس (مدرسة شميد الآن ١٩٦٠) ، ثم انتقل إلى البناء الذي تملكه بطريركية الروم في داخل المدينة ، عند باب الخليل وعلى بعد مئتي متر من السور إلى

الشمال (دار البلدية الآن ١٩٦٠) . وأما مقر الحاكم العام ، فقد نقل من اللد إلى القدس . وكان في بادئ الأمر على جبل الطور في البناء الألماني المعروف بالمطلع (أوغوستا فكتوريا) ثم انتقل إلى الدار الجديدة التي بنتها حكومة فلسطين فوق جبل المكبر .

وعد بلفور : وفيما كان سكان البلاد يتوقعون أن يُعهد إليهم بإدارة بلادهم عملاً بوعود الحلفاء وتصريحاتهم المتكررة ؛ رأوا ، ويا لهول ما رأوا ، أن البلاد راحت تدار بأيد إنكليزية . وراح الإنكليز يديرونها كما يشاؤون . لا ، كما يشاء الشعب نفسه وما تقضي به مصلحته . ليس هذا فحسب ، بل إن الأدمغة التي تدير أداة الحكم أدمغة يهودية بحته : إنها دماغ السر هربرت صموئيل المندوب السامي الأول ، والأضون نورمان بنتويش النائب العام والمستشار القضائي للمندوب ؛ ومن ورائهما (الوكالة اليهودية) التي ورد ذكرها بعدئذ في صك الانتداب .

وما لبث الشعب العربي أن سمع بوعد بلفور . ذلك الوعد الذي منحه الإنكليز على لسان وزير خارجيتهم اللورد آرثر بلفور إلى اليهود عن طريق زعيمهم روتشيلد ؛ إذ أرسل إليه في (٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧) كتاباً قال فيه :

عزيزي اللورد روتشيلد

«يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك بأن حكومة جلالته تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وتبذل الجهود في سبيل ذلك ؛ على أن لا يجري شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود في فلسطين ، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان الأخرى» .

والغريب في الأمر أن هذا الوعد بقي في طي الخفاء . فلم يذع إلا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ولم يعد الإنكليز في حاجة لرضا (؟) العرب الذين كانوا -قبل الحرب- يحرضونهم على ترك الأتراك والانضمام إليهم! . .

وعد بريطانيا للملك حسين : فراح العرب يتساءلون : أين هذا الوعد . . . وعد بلفور . . . من الوعد الذي سبقه بسنتين ، وقد قطعته بريطانيا للملك حسين ، يوم طلب منها مكافأة لقيامه ضد الأتراك «أن تعترف باستقلال البلاد العربية من مرسين وأضنة شمالاً حتى البحر الهندي جنوباً ، ومن فارس وخليج البصرة شرقاً حتى البحر

الأحمر والبحر الأبيض المتوسط غرباً[1]» . بل أين هو من الثورة نفسها التي أعلنها الحسين بتاريخ (٢٦ حزيران ١٩١٦) والتي انضم إليها زهرة شباب العرب من فلسطين والعراق ومن كل مكان ، والتي قال عنها اللورد اللنبي في تقريره الذي رفعه إلى وزارة الحرب فور انتهاء القتال : «إن ثورة العرب ضد الترك قد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على نتائج فاصلة في الحرب» .

معاهدة سايكس - بيكو : وسمع العرب ، في الوقت نفسه ، بالمعاهدة التي عقدتها[2] بريطانيا مع فرنسا ، والتي اقتسمت هاتان الدولتان المستعمرتان بموجبها هذا الجزء من الشرق . وقد تعهدتا ببسط حمايتهما على سورية (فرنسا) والعراق (بريطانيا) . على أن تنشئ كل منهما في المنطقة المخصصة لها أي نوع من أنواع الحكم (المباشر أو المراقب) بعد الاتفاق مع الحكومة المحلية «؟» .

وأما «فلسطين» فقد نصت المادة الثالثة من تلك المعاهدة التي أسميت يومئذ : (معاهدة سايكس -بيكو) على إنشاء إدارة دولية فيها ، على أن يعين شكل تلك الإدارة بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة .

وأعطت المادة الرابعة من هذه المعاهدة مينائي حيفا وعكا لبريطانيا . وفي المادة الخامسة نص على أن تكون حيفا ميناء حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها . ويجوز لفرنسا أن تستعمل السكك الحديدية في فلسطين .

وفي المادة الثانية عشرة والأخيرة نص ، تعهد فيه الفريقان أن يراقبا جلب السلاح «؟» إلى أي بلد من البلاد العربية .

هذا موجز لمعاهدة سايكس[3] -بيكو[4] . اقتبسنا منها هنا النقاط التي لها صلة

---

(١) رضي الملك حسين في المخابرات التي جرت بينه وبين السير هنري مكماهون المندوب البريطاني في مصر بين (٢٤ تموز ١٩١٥، ١٠ آذار ١٩١٦) أن يستثني من الوعد عدن . ووافق على إرجاء البحث في مستقبل العراق على أن يبقى هذا تحت الإدارة الإنكليزية لمدة قصيرة . وأصر الإنكليز على استثناء لبنان والاعتراف بما لحليفتهم فرنسا من مصالح في ذلك الجزء من البلاد . ولم يرد في تلك المخابرات ما يشير إلى أن الإنكليز استثنوا فلسطين من وعدهم للحسين ، أو أنهم ينوون إنشاء وطن قومي لليهود فيها .

(٢) عقدت في (١٩١٥) ، أي قبل صدور وعد بلفور .

(٣) إنه السر مارك سايكس Sir Mark Sykes وهو من رجال وزارة الخارجية البريطانية .

(٤) إنه المسيو جورج بيكو M. George Picot

بفلسطين .

الإدارة المدنية والمندوب السامي الأول السر هربرت صموئيل : في اليوم الأول من سهر تموز (يوليو) ١٩٢٠ قلبت إدارة فلسطين من عسكرية إلى مدنية ، وجعلت تحت رقابة وزارة الخارجية . غير أنه لم يطل الوقت ، حتى انتقلت من وزارة الخارجية إلى وزارة المستعمرات .

وكان أول عمل عملته الحكومة البريطانية أن عهدت بإدارة هذه البلاد إلى مندوب سام هو : السر هربرت صموئيل Sir Herbert Samuel P. C. G. B. E. إنه يهودي ، وصهيوني صميم . مكث في البلاد خمس سنوات (١٩٢٠-١٩٢٥) . وسن لها من الأنظمة والقوانين ما جعلها -في النهاية- صالحة : لا ، إلى إنشاء وطن قومي يهودي فحسب ؛ بل وإلى تأسيس (دولة إسرائيل[1]) .

دخل السر هربرت صموئيل مدينة القدس بحراسة الجند ، تدعمهم المدافع والمصفحات والطائرات ؛ خشية أن يغتاله العرب . بدأ العرب يومئذ يشعرون أن الإنكليز لا يريدون بهم خيراً ، ولكي يخفف من حدة الغضب الذي استولى على الشعب العربي في فلسطين ؛ كان أول عمل عمله هذا المندوب ، أن أعلن العفو العام عن جميع المحكومين في الثورة التي قامت قبل مجيئه ، في القدس وفي جميع أنحاء البلاد احتجاجاً على (وعد بلفور) . إلا اثنين من المحكومين ، ألا وهما مؤلف هذا الكتاب ورفيقه الحاج أمين الحسيني ؛ فقد استثناهما من العفو ، إلا إذا استسلما للسلطة الحاكمة . وكانت المحكمة العسكرية قد حكمت عليهما بالإعدام ، بسبب اشتراكهما في القتال الذي جرى في القدس بين العرب واليهود في (٤ نيسان ١٩٢٠) .

وكان الجنرال بولز قد خفض حكم الإعدام إلى السجن عشر سنين . وقد ظلاً طليقين إلى أن صدر العفو عنهما . فرجعا إلى البلاد . وفي الوقت الذي كان هذا المندوب يبدي عطفه (؟) على العرب ويتقرب من زعمائهم ، كان يحث بني قومه اليهود كي يغذوا السير ، فيسيروا إلى الأمام ، وينشئوا أكبر جزء ممكن من وطنهم القومي على عهده .

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن هذا المندوب وعن صديقه الأصون نورمان بنتويش المستشار القضائي لحكومة فلسطين ، وعن الخدمات التي أدياها لبني قومهما اليهود ، في كتابنا : (النكبة) .

وفي عهده منح اليهود (امتيازات) للقيام بعدد من المشاريع العمرانية الضخمة . منها واهمها : مشروع توليد الكهرباء من نهر الأردن وروافده ، وأضاءة قسم كبير من فلسطين . ذلك المشروع الذي منحته الحكومة للمهندس المعروف روتنبرغ وهو يهودي من أصل روسي .

واتخذ اليهود هذه المشاريع حجة لجلب أكبر عدد ممكن من أبناء قومهم من خارج البلاد . وآزرتهم الحكومة البريطانية . فراحوا يفدون إليها من كل حدب وصوب . وبعد أن كان عدد اليهود في فلسطين يوم دخل البلاد (٥٣,٠٠٠) أصبحوا يوم خروجه منها (١٠٣,٠٠٠) .

وفي زمنه تضاعفت مساحات الأراضي التي تملكها اليهود . فأصبحت بنسبة ٦ إلى ٧ في المئة من مجموع الأراضي الفلسطينية .

ولئن نسينا ؛ فلا ، ولن ننسى أن مئتي ألف دونم من أراضي مرج بن عامر العربية بيعت إلى اليهود على عهده بين سنتي (١٩٢١ و١٩٢٥) . فأخليت إحدى وعشرون قرية عربية من مجموع القرى التي كانت هناك وقدرها (٢٢) من سكانها العرب . وقد بلغ عددهم يومئذ ثمانية آلاف . باعها آل سرسق من مسيحي بيروت . والحكومة الفلسطينية التي كان يرأسها هربرت صموئيل هي التي سهلت معاملة البيع والشراء ؛ هذا بالإضافة إلى أنها لم تهتم بمصير المزارعين الذين كانوا يعيشون من نواتجها .

ونشرت الصحف العربية التي كانت يومئذ تصدر في فلسطين[1] هذه الأرقام المخيفة عن الهجرة وبيع الأراضي ؛ فصعق أبناء البلاد ، وراحوا يمطرون الحكام برسائل

---

(١) جريدة (الكرمل) في حيفا لصاحبها نجيب نصار . وجريدة (فلسطين) في يافا لصاحبها عيسى العيسى . وجريدة (سورية الجنوبية) لصاحبيها حسن البديري ومؤلف هذا الكتاب . وكانت هذه أول جريدة صدرت في القدس بعد الاحتلال .

وقد أسمياها : (سورية الجنوبية) لاعتقادهما بأن وحدة فلسطين وسورية أمر لا بد منه ، إذا ما أريد إنقاذهما من شر الاستعمار والصهيونية . وهما من القائلين بوحدة عربية تشمل الجزيرة العربية كلها : من أدناها إلى أقصاها . ولهذا تعرضا لغضب الحكومة ، وكثيراً ما أغلقت جريدتهما ، وعطلتها عن الصدور . وكذلك قل عن الجرائد الأخرى التي صدرت بعدها . ومنها : جريدة (مرآة الشرق) لصاحبها بولص شحادة . و(بيت المقدس) لصاحبها حسن صدقي الدجاني . و(الأقصى) لصاحبها صالح عبداللطيف الحسيني . و(لسان العرب) لصاحبها إبراهيم سليم النجار .

الاحتجاج . وقامت مظاهرات صاخبة في طول البلاد وعرضها . وكانت قد أتتهم أخبار تقول إن الحلفاء ينوون فرض الانتداب على فلسطين ، وأن الحكومة البريطانية هي التي ستنتدب لإدارة البلاد . فقامت في طول البلاد وعرضها ، ولا سيما في مدينة القدس . . مركز الحكم . . مظاهرات صاخبة . اشترك فيها المسلمون والمسيحيون على حد سواء . واشترك فيها النساء إلى جانب الرجال . ونادى المتظاهرون برفض الانتداب ورفض الوطن القومي اليهودي . وطالبوا بوقف الهجرة اليهودية وبيع الأرض لليهود . ووقف الجيش في أوجه المتظاهرين . فوقع عدد غير قليل من القتلى والجرحى . وسجن كثيرون . وأعلن الحكم العرفي في البلاد .

المجلس الاستشاري : يبدو أن الإنكليز اعتقدوا أن إشراك عدد من أبناء البلاد في الإدارة يخفف من غضبهم . فأعلنوا أنهم يعتزمون استشارة السكان في إدارة البلاد . وقد أسسوا بالفعل (اكتوبر ١٩٢٠) مجلساً استشارياً من عشرة أعضاء رسميين ، هم من أعضاء حكومة فلسطين ؛ ومن عشرة غير رسميين يعينهم المندوب السامي : ٤ من المسلمين و٣ من المسيحيين و٣ من اليهود . ولكنهم ، عادوا فعدلوا عن هذه الفكرة ، عندما أيقنوا أن العرب لم يتحمسوا لها .

وحدثت ، بعد ذلك ، اضطرابات في يافا ؛ أدت إلى اقتتال العرب واليهود . فأقفلت المدينة وسادت الفوضى . وامتد لهيب الاضطرابات إلى المستعمرات اليهودية . فقتل من جراء ذلك (٩٥) قتيلاً (٤٨ من العرب و٤٧ من اليهود) وجرح (٢١٩) شخصاً (٧٣ من العرب و١٤٦ من اليهود) . وتألفت ، على أثر ذلك ، لجنة للتحقيق في أسباب هذه الاضطرابات ؛ ترأسها قاضي القضاة السر توماس هيكرافت . فقال هذا في تقريره ما ملخصه : «إن ما حدث في يافا هو نتيجة حتمية لشعور القلق والكره السائد ضد اليهود . وهذا ناشىء في الخطة التي تسير عليها الحكومة في تأييد فكرة «الوطن القومي اليهودي» .

ومع ذلك فقد مضت السلطة في تدابيرها القاسية للحد من الشعور الوطني ولتوطيد دعائم الوطن القومي اليهودي ، لا في يافا أو القدس وحدهما ، وإنما في فلسطين كلها . من ذلك أنها في الوقت الذي راحت تزود المستعمرات اليهودية بالسلاح وتدربهم على القتال ؛ حظرت على الأهلين حمل السلاح واستعماله ، وفرضت عليهم عقوبة السجن المؤبد والإعدام .

ولكي تحول دون اتحاد الشعب العربي في فلسطين فقد بذلت كل ما في

استطاعتها لتضرب الأسر المعروفة بعضها بالبعض الآخر . ولا سيما في القدس ، عاصمة البلاد ، ومستقر الزعماء . فأقالت موسى كاظم باشا الحسيني من رئاسة البلدية ، ووضعت مكانه راغب بك النشاشيبي . ووضعت الحاج أمين الحسيني على رأس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى . وراحت الأسرتان وهما من الأسر المعروفة بفلسطين ، تتنافسان من أجل الزعامة والنفوذ . وسرى الانقسام إلى سائر الأسر والأحزاب ، فانقسم الفلسطينيون بوجه عام والمقدسيون بوجه خاص إلى شطرين : شطر يؤيد هذا وآخر يعضد ذاك . واهتبل الإنكليز هذه الفرصة -التي كانوا هم من أهم الأسباب التي أدت إلى خلقها- فراحوا يقوون وسائل استعمارهم . كما اهتبلها اليهود ، فراحوا يوطدون دعائم وطنهم القومي . وكانوا يهدفون إلى امتلاك البلاد كلها ، وليس القدس وحدها . الأمر الذي جعل المخلصين من أبناء فلسطين يتنادون لعقد مؤتمر يضم شملهم .

المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع : وقد انعقد المؤتمر في القدس . وكان ذلك بتاريخ (٢٥ حزيران ١٩٢١[1]) . وقرر المؤتمر انتداب وفد يسافر إلى أوروبا ، ليبسط القضية الفلسطينية أمام الرأي العام الأوروبي ، ولا سيما في بلاد الإنجليز . وسافر الوفد وهو الأول من نوعه إلى لدن عن طريق القاهرة وروما وباريز . وكان مؤلفاً من موسى كاظم باشا الحسيني (رئيساً) والحاج توفيق حماد ، وأمين التميمي ، ومعين الماضي ، وإبراهيم الشماس ، وشبلي الجمل (أعضاء) . ولم يترك الوفد في أوروبا وفي بلاد الإنكليز باباً إلا طرقه : في الصحف والبرلمان وفي كل مكان . وطلب الوفد استقلال فلسطين والاعتراف بحقها الطبيعي في إقامة حكم نيابي ، واتحادها مع باقي البلاد العربية . كما طلب إلغاء وعد بلفور ، وجلاء الجنود الأجانب عن البلاد . وبذل جهده للحيلولة دون فكرة الانتداب . ولكن الوفد فشل في مهمته . إذ كان يقوم على رأس وزارة المستعمرات البريطانية يومئذ رجل من أشد رجال الإنكليز انتصاراً للفكرة الصهيونية ؛ ألا وهو : المستر ونستون تشرشل . وهو ، وإن كان إنكليزياً ، إلا أنه صهيوني صميم! . وزار هذا القدس .

---

(١) قال الدكتور حايم وايزمان في مذكراته أن الذي وضع صك الانتداب في صيغته الحالية هو اللورد كرزون وزير الخارجية البريطانية واثنان من مساعديه هما : E.F. adam, Ben Cohen وهذا يهودي . وأنه هو أيضاً (أي وايزمان) قد استشير في صوغه .

وقال في الخطاب الذي وجهه للوفد الفلسطيني بتاريخ (١ آذار مارس ١٩٢٢) :
«إن ما ذهب إليه الوفد العربي من اعتقاد بأن حكومة صاحب الجلالة تعهدت في أثناء الحرب بإقامة حكومة قومية مستقلة في فلسطين ، اعتقاد لا يطابق الواقع . وأن الكتاب الذي استشهد به الوفد في حديثه -وهو الذي وجهه السر هنري مكماهون المندوب السامي في مصر إلى شريف مكة وهو اليوم الملك حسين ملك الحجاز وكان ذلك بتاريخ (٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٥)- وأن اعترف باستقلال العرب وبتعضيد ذلك الاستقلال ، إلا أنه قيد ذلك الاعتراف بتحفظ القصد منه استثناء تلك الأقسام من سوريا الواقعة غربي قضاء مشق . وما زالت حكومة جلالته ترى في هذا التحفظ تحفظاً يشمل ولاية بيروت وسنجق القدس المستقل . ففلسطين كلها غربي الأردن أخرجت عن فحوي عهد السر هنري مكماهون» .
وختم تشرشل خطابه بقوله : «إن حكومة صاحب الجلالة مقيدة بعهد سابق لعهد جامعة الأمم . فما يسعها بعد أن اضطلعت بالمسؤولية عن هذه البلاد لدى دول الحلفاء الرئيسية ، أن تسمح بانتشار حالة دستورية فيها ، قد تجعل القيام بتنفيذ تعهد جليل (؟) صدر عنها وعن أولئك الحلفاء في حيز عدم الإمكان .
ففهم الوفد أن الحكومة البريطانية مصممة على المضي قدماً في تنفيذ (وعد بلفور) وتأييد اليهود إلى أبعد الحدود .
وعبثاً حاول الوفد إقناع الحكومة بخطل سياستها . وفي الجواب الذي أرسله إلى الوزير بتاريخ (١٧ حزيران (يونيو) ١٩٢٢) فنّد أقواله . ومما قاله الوفد : «إن تأييد وعد بلفور مناف لما وعدت به الملك حسين . . وأن وعد بريطانيا للملك حسين صدر قبل وعدها لليهود . . . وأن هذا الوعد (أي وعد بلفور) مناف للتصريح البريطاني -الفرنسي الذي أعلن في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨. كما أنه مناقض للمادة (٢٢) من عهد عصبة الأمم . وبصدور هذه المادة من عهد العصبة أصبح وعد بلفور لغواً . فإن هذه المادة تمنح فلسطين انتداباً من نوع (آ) لا من نوع (ب) . أي إنها تعترف باستقلال الأمة الفلسطينية بشرط أن تقدم لها المعونة والإرشاد الإداري دولة منتدبة» .
المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس : في (٢٢ آب (أغسطس) ١٩٢٢) تنادى عرب فلسطين ، فعقدوا مؤتمراً في نابلس ؛ هو المؤتمر الخامس . وفيه استعرضوا من ناحية أقوال تشرشل وزير المستعمرات ، ومن الناحية الأخرى أقوال الوفد الذي عاد من لندن . وقد أيقنوا أن الحكومة البريطانية تماطلهم . وهي تنوي المضي قدماً في تمهيد

السبيل وجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود .

وقد عرضت عليهم الاشتراك في (مجلس تشريعي) قررت تأسيسه عملاً بالدستور الذي نشر في تلك السنة (١٩٢٢) ؛ على أن يكون هذا المجلس مؤلفاً من أحد عشر عضواً رسميين واثنى عشر عضواً غير رسميين ، ينتخبهم الشعب : ثمانية من المسلمين واثنان من المسيحيين واثنان من اليهود . ولكن العرب رفضوه لاعتقادهم أنه لا يحقق أمانيهم . ويحصر السلطة كلها بيد البريطانيين ، وبيد المندوب البريطاني الذي أعطى : القول الفصل في جميع الأمور .

ولهذا اعتزموا المضي في كفاحهم . وقرروا إرسال وفد -هو الثاني من نوعه- إلى لوزان ولندن . وألف الوفد -المرة هذه- من موسى كاظم باشا . وأمين بك التميمي . والحاج توفيق أفندي حمادة . والسيد شبلي جميل .

صك الانتداب : وفيما كان عرب فلسطين يعملون جاهدين ، من أجل الوصول إلى أهدافهم القومية ، كان اليهود يعملون بجد أعظم لتنفيذ صك الانتداب . ذلك الصك الذي أقرته (عصبة الأمم) في (٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢) . وقد وضع موضع التنفيذ في فلسطين بتاريخ (٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢) . وإليه كما أقرته عصبة الأمم[١] في جنيف :

«لما كانت دول الحلفاء الرئيسية قد اتفقت تنفيذاً لنصوص المادة (٢٢) من ميثاق جامعة الأمم -على أن تعهد إلى دولة منتدبة تختارها الدول المذكورة في إدارة فلسطين التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية ضمن الحدود التي تعينها الدول المذكورة .

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسية قد وافقت أيضاً على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا في (٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧) وصادقت عليه الدول المذكورة بأن ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي مع البيان الجلي بأن لا يفعل شيء يضر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن ، ولا الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى .

ولما كان ذلك اعترافاً بالصلة التاريخية التي تصل الشعب اليهودي بفلسطين والبواعث التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد .

---

(١) الكتاب الأبيض رقم (٢٢٩) تاريه نوفمبر (تشرين الثاني ١٩٢٨) .

ولما كانت دول الحلفاء قد اختارت الحكومة البريطانية لتكون الدولة المنتدبة لفلسطين .

ولما كان الانتداب لفلسطين قد صيغ في النصوص التالية وعرض على مجلس جامعة الأمم لموافقتها عليه .

ولما كانت الحكومة البريطانية قد قبلت الانتداب لفلسطين وتعهدت بتنفيذه بالنيابة عن جامعة الأمم طبقاً للنصوص والشروط التالية .

ولما كانت المادة (٢٢) المتقدمة الذكر في (الفقرة ٨) تنص على أن درجة السلطة والسيطرة أو الإدارة التي تكون للدولة المنتدبة إذا لم يتم الاتفاق عليها بين أعضاء جامعة الأمم ، فإن مجلس جامعة الأمم ينص على ذلك نصاً صريحاً . فالمجلس بعد تأييد الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يأتي :

١- يكون للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع والإدارة ، إلا حيث أقيمت لهما حدود في نصوص صك الإنتداب هذا .

٢- تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في أحوال سياسية وإدرية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي . كما جاء في ديباجة هذا الصك وترقية أنظمة الحكم الذاتي وضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الأجناس والأديان .

٣- يجب على الدولة المنتدبة أن تنشط الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الأحوال .

٤- يعترف بهيئة يهودية لائقة كهيئة عمومية لتشير وتعاون في إدارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ، وتساعد وتشترك في ترقية البلاد تحت سيطرة حكومتها دائماً .

ويعترف بأن الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها في ما تقدم ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلانها صالحة لهذا الغرض .

وعلى الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة الحكومة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي .

٥- تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن شيء من أراضي فلسطين أو

تأجيره أو وضعه تحت حكومة دولة أجنبية .

٦- على حكومة فلسطين مع كفالة عدم إلحاق الضرر بحقوق جميع الطوائف ، أن تسهل هجرة اليهود إلى فلسطين في أحوال مناسبة ، وتنشط بالاتفاق مع الهيئة اليهودية المشار إليها في المادة ٤ استقرار اليهود في الأراضي المدورة والأراضي البور (الموات) غير المطلوبة للأعمال العمومية .

٧- يتعين على حكومة فلسطين أن تسن قانوناً للجنسية يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذي يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعوية الفلسطينية .

٨- إن امتيازات الأجانب وفي جملتها المحاكم القنصلية وحماية القنصليات ورعاياها وهي التي كان الأجانب يتمتعون بها بحكم الامتيازات أو العرف في السلطنة العثمانية لا تكون نافذة في فلسطين . ولكن متى انتهى أجل الانتداب فإن هذه الامتيازات تعاد برمتها أو مع التعديل الذي يكون قد تم عليه الاتفاق بين الدول صاحبة الشأن ؛ إلا إذا كانت الدول التي ظل رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة في أول آب سنة (١٩١٤) قد سبقت فتنازلت عن حق تلك الامتيازات أو وافقت على عدم تطبيقها لأجل مسمى .

٩- الدول المنتدبة مسؤولة عن أن يكفل النظام القضائي الذي ينشأ في فلسطين الحقوق القضائية للأجانب والوطنيين ، ويتضمن تمام الضمان احترام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية لجميع الشعوب والطوائف ولا سيما إدارة الأوقاف طبقاً للشريعة الدينية وشروط الواقفين .

١٠- تكون المعاهدة المبرمة بين الدول المنتدبة وسائر الدول الأجنبية عن تسليم الرعايا الأجانب المطلوبين من فلسطين مرعية إلى أن تعقد اتفاقات خاصة بذلك على فلسطين .

١١- تتخذ حكومة فلسطين جميع التدابير اللازمة لصون مصالح الجمهور في ما له علاقة بترقية البلاد ، ويكون لها السلطة التامة لتدبير ما يلزم لوضع يد الحكومة أو سيطرتها على مورد ما من موارد البلاد الطبيعية أو الأعمال والمصالح والمنافع العمومية الموجودة أو التي ستوجد فيما بعد فيها بشرط مراعاة العهود الدولية التي قبلتها الدولة المنتدبة على نفسها . وعليها أيضاً أن توجد نظاماً للأراضي يلائم حاجات البلاد مع مراعاة أمور أخرى منها المنافع التي تنجم عن تشجيع إكثار المهاجرة واستغلال أعظم ما يستطاع من الأرض .

ويجوز لإدارة البلاد أن تتفق مع الهيئة اليهودية المذكورة في المادة الرابعة على أن تجري أو تستثمر بشروط الإنصاف والعدل الأعمال والمصالح والمنافع العمومية وترقي مرافق البلاد الطبيعية حيث لا تتولى الحكومة هذه الأمور مباشرة بنفسها . وإنما يشترط في هذه الاتفاقات أن الأرباح التي توزعها الهيئة القائمة بالعمل لا تتجاوز مباشرة أو غير مباشرة فائدة معتدلة لرأس المال . وكل ما يزيد على هذه الفائدة يستخدم لما فيه نفع البلاد على الوجه الذي توافق عليه حكومتها .

١٢- يعهد للدولة المنتدبة في السيطرة على علاقات فلسطين الخارجية ، وحق إصدار البراءات إلى القناصل الذين تعينهم الدول الأجنبية . وللدولة المنتدبة الحق أيضاً في أن تشمل رعايا فلسطين وهم في خارج بلادهم بحماية سفرائها وقناصلها .

١٣- تتقلد الدول المنتدبة كل التبعة المختصة بالأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية في فلسطين . وهذا يشمل المحافظة على الحقوق الموجودة وضمان الوصول إلى الأماكن المقدسة والمواقع الدينية وحرية العبادة مع المحافظة على مقتضيات الأمن العام والآداب . وتكون الدولة المنتدبة مسؤولة أمام جمعية الأمم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك ، بشرط أن لا تحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع حكومة البلاد على ما تراه الدولة المنتدبة لازماً لتنفيذ نصوص هذه المادة ، بشرط أن لا يفسر شيء في هذا الانتداب تفسيراً يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض للأملاك الإسلامية أو التدخل في إدارة المعاهد الإسلامية المقدسة المحفوظة الامتيازات .

١٤- تؤلف الدولة المنتدبة لجنة لدرس وتعيين الحقوق والدعاوى المتعلقة بالأماكن المقدسة والحقوق والدعاوى التي تختص بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين . ويعرض المشروع الذي يتبع في تعيين هذه اللجنة وتأليفها ووظائفها على مجلس جامعة الأمم ليوافق عليها . ولا تعين اللجنة ولا تقوم بوظائفها من غير موافقة المجلس .

١٥- يجب على الدولة المنتدبة أن تتحقق أن الحرية الدينية التامة وحرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتان للجميع ، بشرط المحافظة على النظام العام والآداب فقط . ويجب أن لا يكون هناك تمييز من أي نوع كان بين سكان

فلسطين بسبب الجنس والدين واللغة ، وأن لا يحرم شخص ما من دخول فلسطين بسبب اعتقاده الديني فقط .

يجب أن لا تحرم أية طائفة كانت من حق المحافظة على مدارسها لتعليم أبنائها بلغتهم ، إذ كان ذلك مطابقاً لشروط التعليم العمومية التي قد تفرضها الحكومة .

١٦- تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن القيام بما تقتضيه المحافظة على النظام العام والحكم المنتظم على الهيئات الدينية والخيرية التي لجميع المذاهب في فلسطين . فإذا روعي هذا الشرط لا يجوز أن تتخذ تدابير في فلسطين لإعاقة أعمال مثل هذه الهيئات أو التعرض لها أو الإجحاف بأي ممثل لها أو عضو فيها بسبب دينه وجنسيته .

١٧- يجوز لحكومة فلسطين أن تنظم على قاعدة اختيارية القوات اللازمة للمحافظة على السلم وانظام والدفاع عن البلاد أيضاً بشرط أن تكون تحت إشراف الدولة المنتدبة . ولكن لا يجوز لإدارة فلسطين استخدام هذه القوات لأغراض أخرى غير الأغراض المعينة فيما تقدم إلا بموافقة الدولة المنتدبة . وفيما عدا هذه الأغراض لا يجوز لإدارة فلسطين أن تجمع قوات عسكرية أو بحرية أو جوية ، ولا أن تبقيها عندها . وليس في هذه المادة ما يمنع إدارة فلسطين من الاشتراك في نفقات القوات التي تكون للدولة المنتدبة في فلسطين . ويحق للدولة المنتدبة في كل وقت أن تستخدم طرق فلسطين وسككها الحديدية وموانيها لحركات القوات ونقل الوقود والمهمات .

١٨- يجب على الدولة المنتدبة أن تكفل عدم التحيز في فلسطين على رعايا أية دولة تكون عضواً في جامعة الأمم (وفي جملة ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدول) إذا قيسوا برعايا الدولة المنتدبة أو أية دولة أجنبية كانت في الأمور المتعلقة بالضرائب أو التجارة أو الملاحة أو تعاطي البضائع أو المهن أو في معاملة السفن التجارية أو الطيارات الأهلية . وكذلك يجب أن لا يكون هناك تحيز في فلسطين ضد عروض يكون منشأها في بلاد من بلدان الدول المذكورة أو تكون مرسلة إليها . وتطلق حرية مرور المتاجر (الترانسيت) عبر البلاد المشمولة بالانتداب بشروط عادلة .

ومع مراعاة ما تقدم وسائر شروط صك هذا الانتداب ، يجوز لإدارة فلسطين أن تفرض بإشارة الدولة المنتدبة من الضرائب والرسوم الجمركية ما تراه ضرورياً .

وتتخذ من التدابير ما تظنه صالحاً لزيادة ترقية الموارد الطبيعية في البلاد وصون مصالح السكان . ويجوز لها أن تعقد بإشارة الدولة المنتدبة اتفاقاً جمركياً خاصاً مع أية دولة كانت أملاكها كلها داخلة في تركيا الأسيوية أو شبة جزيرة العرب في سنة (١٩١٤) .

١٩- تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن حكومة فلسطين على كل اتفاق من الاتفاقات الدولية العامة المعقودة حتى الآن والتي قد تعقد بموافقة جامعة الأمم في ما بعد ، من جهة الاتجار بالرقيق والاتجار بالسلاح والذخيرة والاتجار بالمخدرات أو يتعلق بالمساواة التجارية وحرية المرور (الترانسيت) والملاحة والطيران وبالمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية بالممتلكات الأدبية والفنية والصناعية .

٢٠- تعاون الحكومة المنتدبة بالنيابة عن إدارة فلسطين في تنفيذ كل سياسة مشتركة تقررها جامعة الأمم لمنع انتشار الأمراض وفي جملتها أمراض النباتات والحيوانات ومكافحتها بقدر ما تسمح به الأحوال الدينية والاجتماعية وسواها من الأحوال .

٢١- تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات ينطبق على الأحكام الآتية ، ويكون هذا القانون ضامناً لرعايا كل الدول الداخلة في جامعة الأمم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الأثرية .

٢٢- تكون الإنكليزية والعربية والعبرانية اللغات الرسمية في فلسطين . فكل عبارة أو كتابة بالعربية على طوابع أو عمله فلسطين تكرر بالعبرانية . وكل كتابة أو عبارة بالعبرانية تكرر بالعربية .

٢٣- تعترف حكومة فلسطين بالأيام المقدسة (الأعياد) عند كل طائفة من طوائف فلسطين أيام راحة مشروعة لأفراد تلك الطائفة .

٢٤- تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جامعة الأمم تقريراً سنوياً يرتاح إليه المجلس عن التدابير التي اتخذت في أثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب ، وترسل نسخ من جميع الأنظمة والقوانين التي تسن أو تصدر في أثناء السنة مع التقارير .

٢٥- يحق للدولة المنتدبة بسماح مجلس جامعة الأمم أن تؤجل أو توقف تطبيق ما

تراه من هذه الشروط غير مطابق للأحوال المحلية الحاضرة في الأملاك الواقعة بين نهر الأردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الأمر وأن تضع من التدابير لإدارة هذه الأملاك ما تراه ملائماً لتلك الأحوال بشرط أن لا يعمل عمل يكون مخالفاً لشروط المواد (١٥ و١٦ و١٨) .

٢٦- توافق الدولة المنتدبة على أنه إذا وقع ما بينها (الدولة المنتدبة) وبين عضو آخر في جامعة الأمم يتعلق بتفسير شروط صك الانتداب وتطبيقها بعرض هذا النزاع على المحكمة الدائمة للعدل الدولي المنصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من عهد جامعة الأمم إذا لم يمكن حله بالمفاوضات .

٢٧- يلزم موافقة مجلس جامعة الأمم على كل تعديل في شروط صك الانتداب هذا .

٢٨- يتخذ مجلس جامعة الأمم من التدابير ، في حالة انتهاء الانتداب المخول بموجب هذا الصك للدولة المنتدبة ، ما يراه ضرورياً لصون استمرار الحقوق المكتسبة في المادتين (١٣ و١٤) على الدوام بضمان الجامعة ويستخدم نفوذه لأن يكفل بضمان الجامعة احترام حكومة فلسطين الاحترام التام للعهود المالية التي أخذتها إدارة فلسطين على عاتقها في عهد الانتداب . وفي جملة ذلك حقوق الموظفين في المعاش والمكافأة .

تودع الصورة الأصلية من هذا الصك في محفوظات جامعة الأمم . وترسل صور مصدق عليها بواسطة السكرتير العام لجامعة الأمم إلى جميع أعضاء الجامعة» .

انتهى صك الانتداب .

المؤتمر العربي الفلسطيني السادس : عندما عاد الوفد الثاني من رحلته إلى لندن وجنيف ، عقد عرب فلسطين مؤتمرهم السادس . عقدوه في يافا . وكان ذلك في (١٦ حزيران (يونيو) ١٩٢٣) . وقد بحثوا قضية فلسطين في ضوء البيانات التي ألقاها أعضاء الوفد ، بنتيجة مساعيهم . وقد فشلت جميع تلك المساعي بصدور صك الانتداب لصالح اليهود ، وبإصرار الحكومة البريطانية في تأييد اليهود . وأيقن الوفد أن الهدف الذي ترمي إليه بريطانيا من توطيد القومي اليهودي في هذا الجزء من الشرق ، هو اتخاذه فيما بعد حجر عثرة في سبيل اتحاد العرب ، وتكئه يقفز الغرب منها إلى الأجزاء الأخرى من الشرق بقصد استعماره واستغلال خيراته .

وهذا ما حملهم (أي عرب فلسطين) على متابعة الجهد لإحباط تلك المؤامرة .

فقرروا انتداب وفد ثالث ليزور عواصم الغرب ، ويشرح للعالم كله ظلامة عرب فلسطين . وقد تألف الوفد يومئذ من موسى كاظم باشا وأمين التميمي ووديع البستاني .

المندوب السامي الثاني : الفيلد مارشال بلومر : بعد السر هربرت صموئيل صار مندوباً سامياً الفيلد مارشال بارون بلومر Field -Marshal Baron Plumer, G. C. B., G. E. M. G., G. C. V. O., G. B. E. وكان ذلك في عام (١٩٢٥) .

لم يختلط هذا بالشعب ، لا في المدن ولا في القرى . وكان همه الوحيد توطيد الأمن والنظام في البلاد ، فأداره إدارة عسكرية أكثر مما هي مدنية . ولقد أكثر من توظيف الإنكليز في مختلف مصالح الحكومة ودواوينها . ولا سيما في دوائر البوليس . وطغى سيل الهجرة اليهودية على عهده ؛ فدخل البلاد من اليهود عدد كبير وصودق على مشروع استغلال البحر الميت .

ولقد أعيد النظر ، على عهده ، في تقسيم فلسطين من الناحية الإدارية . فقسمت في (٢٢ يوليو ١٩٢٧) إلى لوائين فقط .

حوادث البراق : من الحوادث التي حدثت على عهد هذا المندوب : أن اشتد الخلاف بين المسلمين واليهود في شهر أيلول (سبتمبر) (١٩٢٥) حول (البراق) . إذ ادعى اليهود أن هذا الحائط الذي يسمونه (حائط المبكى) هو من بقايا هيكلهم القديم ، وأنه من مقدساتهم ؛ وأن لهم الحق في الوصول إليه والوقوف عنده ليذكروا مجدهم القديم وادعوا أن لهم الحق أيضاً في جلب الكراسي والمقاعد والستائر معهم ، واستعمال هذه الأدوات أثناء تعبدهم وبكائهم هناك .

وعارضهم المسلمون في هذا الادعاء ، قائلين : إنه لا يحق لليهود أن يجلبوا معهم الكراسي والمقاعد والستائر أو أية أداة أخرى من الأدوات التي تجعل المرء يعتقد أن هذا المكان هو ملك لهم . وإن كانوا (أي المسلمين) لا يمانعون في وصول اليهود إلى ذلك المكان ، والبكاء عنده . وعليهم بعد ذلك أن يعودوا إلى حيث كانوا . هكذا جرت العادة منذ القديم . ولا بد من العمل بموجبها . ذلك أن هذا الحائط الذي يسميه اليهود (المبكى) ليس إلا جزءاً من (الحرم القدسي) الذي يملكه المسلمون منذ مئات السنين . إنه ثالث الحرمين اللذين جاء ذكرهما في الحديث النبوي الشريف : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا» .

وهو ، هو(المسجد الأقصى) الذي ورد ذكره في القرآن : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله» .

ويعتقد المسلمون أنه لما أسري بالنبي (عليه الصلاة والسلام) إلى هذا المكان ربط عنده (أي عند هذا الحائط) براقه . ومن هنا جاء اسمه : (البراق) . وظل هذا الاسم معروفاً عند المسلمين منذ الفتح . وهو وقف إسلامي .

وكاد الخلاف يؤدي إلى قتال ، لولا أن تدخلت الحكومة . فبحثت الخلاف من جميع وجوهه . وأصدرت قرارها القائل بضرورة الاحتفاظ بالوضع الراهن ، محظرة على اليهود أن يجلبوا معهم أي شيء مما يدعون .

المندوب السامي الثالث : السر جون تشانسلور : بعد الفيلد مارشال بلومر صار مندوباً سامياً اللفتنانت كولونيل السر جون تشانسلور Lieut- Colonel Sir John Chancellor, G. C. M. G., G. C. V. O., D. S. O. وكان ذلك عام (١٩٢٨) .

المؤتمر العربي الفلسطيني السابع : وفي زمن هذا المندوب عقد الفلسطينيون مؤتمرهم السابع . عقدوه في القدس . وكان ذلك في اليوم العشرين من شهر حزيران سنة (١٩٢٨) . ترأس المؤتمر موسى كاظم باشا الحسيني . وشهده زهاء مئتين وخمسين مندوباً من القدس ومن سائر المناطق وقرر المؤتمرون -فيما قرروا- المطالبة بحكومة برلمانية . وبضرورة وقف سن القوانين إلى أن تؤلف حكومة تمثل البلاد . واحتجو -في الوقت نفسه- على أعمال الحكومة ؛ ومنها : الإكثار من الموظفين البريطانيين ، وترجيح العمال اليهود على العرب في أشغال الحكومة ، واستغلال أملاح البحر الميت ومنح هذا الامتياز إلى شركة أجنبية .

وأرسل المؤتمرون إلى عصبة الأمم في جنيف قراراتهم ، رافضين (الحكم الاستعماري المطلق) ، ومطالبين بالحكم الذاتي أسوة بالبلدان العربية المجاورة .

واختار المؤتمر لجنة تنفيذية لمواصلة العمل من أجل تنفيذ قراراته برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني .

تكرار النزاع حول البراق : وعلى عهده تجدد النزاع بين العرب واليهود حول (البراق) . هذا الحائط الذي يعتبره المسلمون جزءاً من المسجد الأقصى وهو وقف إسلامي . ويعتبره اليهود من بقايا هيكلهم القديم . وقد ذكرناه وذكرنا الخلاف بين الفريقين من أجله في موضع آخر من هذا الكتاب .

ويبدو أن اليهود عندما رأوا أن عددهم في البلاد قد ازداد بسبب التسهيلات

التي منحتهم إياها الحكومة للهجرة ، ازدادوا جرأة أيضاً . فراحوا يطالبون بإلغاء القرار السابق الذي أصدرته الحكومة في شهر أيلول (سبتمبر) سنة (١٩٢٥) والذي أيدت فيه الوضع الراهن (الستاتيكو) . فحملوا معهم عندما زاروا حائط المبكى في (عيد الغفران) بعض الأدوات التي منعوا في السابق من جلبها ، ومنها (ستار) وضعوه على الرصيف . وكان ذلك في (٩ آب سنة ١٩٢٨) . فاعتبر الموظف المسؤول عن الأمن في تلك المنطقة عمل اليهود هذا تحدياً لأوامر الحكومة . ورفع الستار بالقوة . لأن وضعه هناك من المحدثات التي تثير ثائرة المسلمين .

المؤتمر الإسلامي الأول : وتنادى المسلمون . فعقدوا في القدس مؤتمراً إسلامياً . عقدوه في اليوم الأول من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٨ . وقد استنكروا فيه أي عمل أو محاولة ترمي إلى إحداث أي حق لليهود في مكان البراق . وهو مكان إسلامي . وحذروا الحكومة من أي تساهل أو تفاوض تقوم به إزاء مطامع اليهود . وقد انذروها بصراحة إنها إذا توانت ولم تعمل على وقف تحدي اليهود ، فسيتولون هم بأنفسهم وقفه مهما كلفهم الأمر .

واغتنم المؤتمرون هذه الفرصة ، فكرروا مطالبهم السابقة من حيث الحصول على الحق الذي طالما طالبوا به منذ بدء الانتداب ؛ ألا وهو : (حق تقرير المصير) . وإلى أن ينالوا هذا الحق ، ويحصلوا على الاستقلال المنشود ، طالبوا الحكومة بإصرار أن تعمل على صد تيار الهجرة اليهودية ، ومنع بيع الأراضي العربية لليهود .

وقد استمعت الحكومة لشكاوى العرب . ولكنها لم تفعل شيئاً لوقف الهجرة وبيع الأراضي . وأما الخلاف على البراق ، فقد أرسل وزير المستعمرات البريطانية إلى القدس لجنة اسماها : (لجنة البراق) . وبعد تحقيق قامت به هذه اللجنة وقد استمر شهراً كاملاً ، رفعت تقريرها[1] القائل بضرورة الاحتفاظ بالوضع الراهن .

شركة البوتاس : وفي عهد هذا المندوب ازداد عدد اليهود الذين جاؤا لفلسطين كمهاجرين : فريق منهم جاء وأسراً تحت طي الخفاء ، وآخرون جاءوا بإذن من الحكومة البريطانية . ولكي يجدوا مبرراً لإصدار وثائق هجرة جديدة ، راحوا يسمون الخطط لإنشاء مشاريع جديدة . فبعد الامتياز الذي منحته الحكومة لبنحاس روتنبرغ الإنشاء (شركة الكهرباء) التي ذكرناها في عهد المندوب الأول هربرت صموئيل

(١) الكتاب الأبيض رقم (٣٥٣٠) تاريخ أذار (١٩٣٠) .

(١٩٢١) ، منحت في عهد المندوب الثالث هذا وهو تشانسلور ، امتيازاً آخر لاستثمار البحر الميت واستغلال البوتاس وسائر الأملاح المعدنية فيه . منحته لاثنين من رجال الأعمال اليهود هما : نوفومسكي وتولوخ ، كممثلين لشركة أسمياها : (شركة البوتاس الفلسطينية) . وعقد الاتفاق بين الشركة والحكومة في شهر حزيران (يونيو) ١٩٢٩ . وقد وقعه وكلاء التاج في لندن بالنيابة (؟) عن حكومة فلسطين وشرقي الأردن . وراح اليهود يطالبون بزيادة وثائق الهجرة بحجة وجود أعمال تستلزم استخدام العمال . ونشطوا في شراء الأراضي . ولم تتخذ الحكومة من التدابير ما يضمن حق العرب ، أو يدل على أنها جادة في الدفاع عن مصالحهم . والاستجابة لرغباتهم . فراحت دماؤهم تغلي في عروقهم . وتوقعوا سوء المصير . فثاروا .

ثورة عام ١٩٢٩ : وقد اشتدت ثورة العرب في فلسطين في شهر آب ١٩٢٩ فشملت البلاد كلها : من أدناها إلى أقصاها . ولا سيما في القدس ونابلس وفي حيفا وصفد وفي يافا والخليل . واشتبك الفريقان في قتال حيثما التقيا . وقتل من اليهود (١٣٣) ومن العرب (٩١ (٨٧ مسلمون و٤ مسيحيون) . وجرح من اليهود (٣٣٩) ومن العرب (١٨١) . وكانت أكثر إصابات العرب من الجنود البريطانيين . ولولا هؤلاء الجنود ، لقضى العرب على اليهود . وقد دمرت في تلك الثورة ست مستعمرات يهودية تدميراً تاماً .

وأتى البريطانيون من معسكراتهم في مصر بندات من الجند . فسكنوا الثورة : وألقوا القبض على عدد كبير من الثائرين . فألقوهم في غياهب السجون . وساقوا بعضهم إلى المحاكم ، مصفدين بالأغلال . وأدانت المحاكم (٧٩٢) عربياً . فحكمت على (٢٠) منهم بالإعدام . وخفض مجلس الملك الخاص حكم الإعدام فيما يتعلق بسبعة عشر عربياً . خفضه إلى السجن المؤبد . وأعدم ثلاثة هم : عطا بن أحمد الزير ، ومحمد بن خليل جمجوم ، وفؤاد بن حسن حجازي . ولكي يثبت (؟) البريطانيون أنهم عادلون حكموا على يهودي بالإعدام ، إنه اليهودي الوحيد الذي أدين يومئذ . والتهمة التي وجهت إليه هي : قتل أسرة عربية بكامل أفرادها! . وقد اتخذ مركزه الرسمي كموظف في مصلحة البوليس وسيلة لقتلها! فقضت المحكمة بإعدامه . ولكن الحكم خفض (؟) بعد قليل إلى السجن خمسة عشرة سنة . ثم عفي عنه .

لجنة شو : وأرسلت الحكومة البريطانية . أثر هذه الأحداث ، لجنة للتحقيق برئاسة السر والترسو Sir Walter Shaw وثلاثة من الأعضاء يمثلون الأحزاب

البريطانية الثلاثة : المحافظين والعمال والأحرار . وهبطت اللجنة مدينة القدس . وبعد أن درست المشكلة الفلسطينية والأسباب التي أدت إلى الثورة ، أصدرت قرارها (١) في شهر آذار (١٩٣٠) . وإليك ملخصه :

١- الفتنة نتيجة حتمية لمخاوف العرب . ومخاوفهم ناجمة عن اعتقادهم بأن السياسة التي تتبعها الحكومة البريطانية المنتدبة بشأن الهجرة والأراضي ستؤدي حتماً إلى إخضاع العرب التام ، وإخراجهم من بلادهم . كما أنها ستحرمهم يوماً ما من وسائل العيش الشريف .

٢- إن هذه المخاوف نفسها ستكون -بلا ريب- مصدراً لثورات وقلاقل أخرى لا بد أن تقع في المستقبل إن عاجلاً أو آجلاً .

٣- إن الأزمة التي وقعت في سنتي (١٩٢٧ و١٩٢٨) نشأت في الواقع بسبب قدوم عدد من المهاجرين أكثر مما تستطيع أن تستوعبه البلاد . وهذا ما قاله السر جون كمبل أحد الخبراء في مسائل الاستعمار الذين انتدبتهم لجنة الأبحاث العامة المشتركة . تلك اللجنة التي ألفتها الجمعية الصهيونية بالاشتراك مع الزعماء اليهود غير الصهيونيين في الولايات المتحدة سنة (١٩٢٧) .

٤- إذا أجيب اليهود إلى طلبهم وسمح لهم بإدخال (٢٥,٠٠٠) مهاجر في السنة ، فإنهم يصبحون أكثرية في سنة (١٩٤٨) .

٥- يتوق اليهود إلى إيجاد (دولة يهودية) في فلسطين . سواء في ذلك المتطرفون منهم والمعتدلون ؛ وإن اختلفوا من حيث الوسائل التي يجب أن يلجأوا إليها من أجل الوصول إلى أهدافهم .

٦- يجب أن تكون الهجرة إلى فلسطين متناسبة مع قدرة البلاد الاقتصادية ، بحيث لا يصبح المهاجرون عبئاً ثقيلاً على أهالي فلسطين . ويجب -في أي حال- أن يؤخذ رأي الهيئات غير اليهودية في مسائل الهجرة .

٧- إن التدابير التي اتخذتها حكومة فلسطين لحماية حقوق المزارعين العرب ، ومنها قوانين انتقال الأراضي في (١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٩) لم تأت بالغاية المتوخاة . فقد بقي عدد كبير من المزارعين ، بسبب انتقال مساحات واسعة من الأراضي العربية إلى أيد يهودية ، بلا أرض يعيشون منها . وفي هذا ما فيه من دليل على تقصير حكومة فلسطين .

٨- منحت بريطانيا العراق والأردن الحكم الذاتي . وحرمت فلسطين من هذا الحق

بسبب وعد بلفور . وهذا ما جعل العرب يعتقدون أن وجود اليهود بفلسطين حجر عثرة في سبيل تحقيق أمانيهم القومية . وهم يعتقدون أيضاً اعتقاداً جازماً أن الوعد الذي قطعه مكماهون بالاستقلال يشمل فلسطين ، وأن بريطانيا خدعتهم حين وعدتهم بالاستقلال إذا ما ثاروا في وجه الأتراك . ولما ثاروا جازتهم جزاء سنمار .

وقد ختمت لجنة شو تقريرها بقولها : إن الشعب العربي في فلسطين يطالب بحكومة نيابية مستقلة . وهو في طلبه هذا متحد اتحاد تاماً . وأن شعور الاستياء الذي يسوده ناشىء عن حرمانه من هذا الحق . . حق الحكم الذاتي وتقرير المصير . . وإن هذا الشعور ساعد على وقوع الاضطرابات الأخيرة . وعلى الحكومة المنتدبة أن تتخذ التدابير اللازمة لتجنب مثل هذه الاضطرابات في المستقبل .

وبناء على توصية هذه اللجنة(أي لجنة شو) هبط القدس بعد قليل (أيار ١٩٣٠) السر جون هوب سمبسون بوصفه خبيراً في مشاكل الأراضي . وبعد أن درس الوضع درساً دقيقاً رفع إلى حكومته تقريره ، وقد جاء فيه :

١- إن الأراضي التي بيد العرب لا تكفي لسد حاجتهم .

٢- إن الأسرة العربية الواحدة في فلسطين تحتاج إلى (١٣٠) دونماً من الأرض لتتمكن من القيام بأودها . وهي لا تملك الآن سوى (٩٠) دونماً .

٣- إن الأراضي التي بيد اليهود تزيد عن حاجتهم .

٤- إن الأرض التي يشتريها اليهود من العرب تبقى بأيديهم إلى الأبد . فقد حرمت الجمعيات اليهودية على أصحابها اليهود بيعها ولا تسمح لهم بتأجيرها إلا إلى يهود . وعندما تؤجر إلى يهودي ، يشترط عليه أن لا يستخدم أي عربي فيها .

٥- يدخل البلاد سنوياً ، بالإضافة إلى المهاجرين الشرعيين ، عدد كبير من المهاجرين غير الشرعيين . يدخلونها بطريق التهريب . وهذا يزيد مشكلة الأراضي سوءاً .

الكتاب الأبيض : وما كاد هذان التقريران يصلان إلى لندن ، ويُدرسان من لدن المسؤولين من رجالها ؛ حتى أصدرت الحكومة البريطانية ٢١ تشرين الأول ١٩٣٠) بياناً أوضحت فيه واجباتها كدولة منتدبة ، والخطة التي تنوي أن تنتجها في إدارة فلسطين وفقاً لصك الانتداب . وقد أسمته : (الكتاب الأبيض) . ونشرته في عدد ممتاز من الجريدة الرسمية بتاريخ (٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٠) . وقد جاء فيه :

١- المقصود من (الوطن القومي اليهودي) في فلسطين زيادة رقي الطائفة اليهودية . وليس معناه فرض (الجنسية اليهودية) على فلسطين إجمالاً .
٢- من العبث أن يلح زعماء اليهود على حكومة جلالته كي تسير في سياستها فيما يتعلق بمسائل الهجرة والأراضي حسب أماني المتطرفين من الصهيونيين . فإنها إذا ما فعلت ذلك ، تكون قد أخلت بواجبها إزاء غير اليهود من أهالي فلسطين .
٣- لا يمكن السماح بهجرة يهودية تزيد على مقدرة البلاد الاقتصادية .
٤- أن للوكالة اليهودية ، بموجب المادة ٤ من صك الانتداب ، حق النصح والمعونة . وليس لها حق الاشتراك في حكم البلاد .
٥- يجب ، في الوقت نفسه ، إيجاد الوسائل التي تصون مصالح غير اليهود من السكان صوناً تاماً . وأن تتاح لهؤلاء السكان الفرصة لتقديم المشورة لحكومة فلسطين فيما يتعلق بتلك المصالح .
٦- أن الالتزامات المفروضة في صك الانتداب بشأن الفريقين متساوية .
٧- أن حكومة جلالته ترى أن الوقت قد حان للسير في مسألة منح فلسطين نوعاً من الحكم الذاتي . وبناء على ذلك فهي تنوي أن تشكل مجلساً تشريعياً يتمكن العرب فيه من وضع آرائهم الاجتماعية والاقتصادية أمام الحكومة بوسائل دستورية .
٨- ليس في فلسطين في الوقت الحاضر أية أرض ميسورة لاستقرار المزارعين من المهاجرين الجدد . ومساحة الأراضي المحلولة التي تملكها الحكومة ليست مما يعتد بها .
٩- أن السياسة التي تتبعها الوكالة اليهودية فيما يتعلق بشراء الأراضي واستغلالها وتأجيرها لا يتفق مع التصريح الذي أدلى به المؤتمر الصهيوني سنة (١٩٢١) بأن الشعب اليهودي يرغب في أن يعيش مع الشعب العربي بسلام وصداقة متبادلين .
١٠- دخل البلاد كثير من الأشخاص دون أن يحصلوا على التأشيرة (الفيزا) اللازمة لدخولهم . كما دخلها وبقي فيها كثيرون ممن سمح لهم بالإقامة المؤقتة فقط . ذلك لأن الحكومة لا تراقب الحدود ومرافق البلاد مراقبة فعالة .
١١- يتحتم على الدولة المنتدبة إما أن تخفض المهاجرة ، أو أن توقفها في الحالات الضرورية ، ذلك لأن المهاجرة غير المحدودة تسبب حرمان السكان العرب من

الحصول على الأشغال الضرورية لمعيشتهم .

١٢- ليس ثمة أمل في تحسن العلاقات المتبادلة بين الشعبين ؛ لا ، ولا في تحقيق الوطن القومي اليهودي ، إلا إذا توطدت الطمأنينة والرفاهية ؛ وبذلك يسود السلام في فلسطين .

ركود الهجرة : ركدت الهجرة اليهودية ، على أثر صدور الكتاب الأبيض ، فهبط عدد اليهود الذين كانوا في كل شهر يغدون إلى فلسطين ، إلى الحضيض . لا بل راح بعضهم ينزحون عن البلاد إلى حيث كانوا . واضطربت المؤسسات الصهيونية . وأصاب زعماءها يأس شديد . إلا واحداً من هؤلاء الزعماء ، وهو زعيمهم ، إنه الدكتور حاييم وايزمان . إنه وإن كان قد استقال من منصبه كرئيس للوكالة اليهودية ، احتجاجاً على الحكومة البريطانية ؛ إلا أنه لم ييأس . وكذلك قل عن اثنين من الزعماء الآخرين ، وهما : اللورد ميلشت والأضون فليكس وأربورغ . فقد استقال الأول من رئاسة مجلس الوكالة ، والثاني من عضوية اللجنة الإدارية . وراح الجميع يعملون معاً من أجل إقناع الحكومة البريطانية للعدول عن سياستها الجديدة ، وإتمام المهمة التي أخذتها على عاتقها من أجل تأييد سياسة الوطن القومي اليهودي ، والعودة إلى سبيلها القديم من حيث فتح الباب . . باب فلسطين . . لليهود الوافدين ، والسماح لهم بامتلاك الأرض كما كانوا يفعلون منذ بدء الانتداب . ولم يكتفوا بالإقناع . بل ، راحوا يهاجمونها ويهاجمون وزارة المستعمرات بشكل خاص ، لأنها -على حد قول وايزمان في الصفحة ٤١٣ من مذكراته- رضخت لتهديدات المفتي الحاج أمين ورفاقه أعضاء اللجنة العربية العليا ، ونزلت عند رغبات العرب ومطالبهم .

نكوص البريطانيين وإلغاء الكتاب الأبيض : حاول الدكتور وايزمان ، أثر صدور الكتاب الأبيض ، أن يقابل رئيس الوزارة البريطانية المستر رمسي مكدونالد Mr. Ramsay Aac Donald وكان هذا رئيساً لحزب العمال . وبعد أن رفض مكدونالد مقابلة وايزمان ، عاد فقبله . والفضل في ذلك عائد -كما يقول وايزمان في مذكراته[١] للسيدة استر Lady Astor وهي إنكليزية تعطف على القضية الصهيونية . إنها هي التي مهدت السبيل إلى الاجتماع الذي جرى بينهما (وايزمان ومكدونالد) في جنيف . وتمّ بعد قليل ، اجتماع آخر بين الفريقين . حضره من الجانب اليهودي

---

(١) اقرأ مذكرات وايزمان في كتابه Trail and Error. P. 411

الدكتور وايزمان واللورد ريدينغ العضو في مجلس الأعيان واللورد ميلشت والأضون بنحاس روتنبرغ . ومن الجانب البريطاني رئيس الوزراء مكدونالد واللورد باسفيلد وعدد آخر من كبار رجال الحكومة . ورغم مقاومة اللورد باسفيلد لمطامع اليهود ، فقد نجح هؤلاء في إقناع أعضاء الوفد البريطاني الآخرين . إذ استرد مكدونالد وعده ، ولما ينقص على صدوره سوى مئة يوم! . إنه لم ينشر بياناً رسمياً باسم الحكومة -كما فعلت الحكومة في بيانها السابق الذي أصدرته بتاريخ ٢١ تشرين الأول ١٩٣٠- ولكنه اكتفى بخطاب ألقاه في جلسة عقدها مجلس العموم بتاريخ (١٣ فبراير ١٩٣١) . وقد وجهه إلى الدكتور حايم وايزمان بوصفه رئيساً للوكالة اليهودية . وقد محا فيه بجرة قلم ما جاء في الكتاب الأبيض . .

العرب يقررون توجيه كفاحهم ضد البريطانيين : أن نكوص الحكومة البريطانية على عقبيها ، وعدولها عن السياسة التي عبرت عنها في كتابها الأبيض ؛ جعل العرب يعتقدون أنه لا خير يرجى من البريطانيين ، وأن النضال يجب أن يوجه بعد اليوم ضدهم ، قبل اليهود . فراحوا يضاعفون جهدهم للمطالبة بحق تقرير المصير ، وإلغاء الانتداب ، ومقاومة الهجرة وبيوع الأرض ، وإنشاء حكومة دستورية في البلاد .

واستقال المندوب السامي السر جون تشانسلور من منصبه إثر هذه الأحداث . وكان ذلك في (٣١ آب ١٩٣١) .

اللجنة الملكية : انتدبت الحكومة البريطانية ، بعد وقف الإضراب ، لجنة ملكية مهمتها التثبيت (؟) من أسباب الاضطرابات التي حدثت في فلسطين . مع أنها كانت ولا شك ، تعرف الأسباب كلها حق المعرفة ، عن طريق ممثليها في فلسطين منذ سنين . وقد عهدت إلى تلك اللجنة أن تحقق في الطريقة التي نفذ بها صك الانتداب ، وأن ترفع إليها التوصيات التي تراها مناسبة لإزالة الخلافات ومنع تكرار الاضطرابات . واستغرب العرب انتداب مثل هذه اللجنة للتحقيق . ولو شاءت لوفرت على نفسها كل هذا العناء ، وهذا التحقيق . . وإرسال اللجان . . وعملت من فورها على إزالة الظلم الذي لحق بالعرب ، وهي تعرف أسبابه . وكثيراً ما ذكرت تلك الأسباب في المذكرات التي رفعت إليها عن طريق الهيئات العربية العاملة بفلسطين ، وفي مقدمتها (اللجنة العربية العليا) . وهي الممثلة لجميع الأحزاب القائمة في البلاد .

جاءت اللجنة الملكية إلى فلسطين في (١١ تشرين الثاني ١٩٣٦) . وكانت

مؤلفة من اللورد بيل (رئيساً) والمستر هوراس رامبولد (نائباً للرئيس) والمستر لوري هاموند، وموريس كارتر، وهارولد موريس، وريجنالد كوبلاند (أعضاء).

ولما كان وزير المستعمرات الذي أرسلها، وهو المستر أورمسبي غور، قد ألقى في مجلس العموم -وقبيل مجيء اللجنة ببضعة أيام (٥ تشرين الثاني ١٩٣٦)- بياناً جاء فيه: «إنه ليس ثمة أسباب اقتصادية أو أسباب أخرى تبرر توقيف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ولو توقيفاً مؤقتاً! . وأن حكومة جلالته وافقت على توصية المندوب السامي بالسماح لألف وثمانمئة يهودي في ستة شهور! ..» فقد قررت (اللجنة العربية العليا) مقاطعة هذه اللجنة. وأذاعت في (٦ تشرين الثاني ١٩٣٦) بياناً استنكرت فيه بيان وزير المستعمرات، واعتبرته تحدياً لشعور العرب، ودليلاً على فقدان النية الحسنة. ولكنها (أي اللجنة العربية عادت فألغت قرارها نزولاً عند رأي الأمير عبدالله بن الحسين أمير شرق الأردن، ونصيحة الملك عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة السعودية والملك غازي ملك العراق؛ الذين نصحوها بوجوب الاتصال باللجنة. فقررت الاتصال بها. وتقدمت إليها ببياناتها المدعومة بالوثائق والتواريخ والأرقام، وبشهودها وبيناتها. ولكن النتيجة كانت منافية لرغبات عرب فلسطين. فإن تلك اللجنة -وهي التي عرفت فيما بعد بـ: (اللجنة الملكية) و(لجنة بيل)- قررت تقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية. وجعلت جميع الجليل ومرج بن عامر والسهل الساحلي من عكا وحيفا في الشمال حتى يافا وأسدود في الجنوب في الدولة اليهودية. والقسم الواقع إلى الجنوب والشرق من هذا الخط منطقة عربية تتحد مع شرق الأردن.

وأما القدس وما حولها فقد اقترحت بقاءها تحت الانتداب، على ألا يسير عليها تصريح بلفور. وكذلك قالت عن الناصرة وشواطىء بحيرة طبرية. فقد اقترحت ضمها إلى منطقة القدس؛ على أن ييسر لها الاتصال بالبحر بواسطة ممر يمتد من القدس إلى يافا شاملاً مدينتي اللد والرملة. هذا وقد اعترفت اللجنة الملكية في تقريرها أن رغبة العرب في الاستقلال وكرههم للوطن القومي اليهودي من أهم الأسباب التي أدت إلى ثورتهم .. وأن تلك الرغبة، وهذا الكره؛ قد تجاوزا حدود فلسطين إلى البلاد العربية الأخرى .. وهما اللذان سببا الاضطرابات التي حدثت في البلاد في (١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٩ و١٩٣٣).

ونصحت اللجنة في تقريرها بالاستغناء عن خدمات الموظفين الذين يُرتاب في

إخلاصهم[1] ، والاستمرار على الاستعانة بموظفي المستعمرات من الإنكليز . وانتقدت في تقريرها سياسة الحكومة من حيث انتقال الأراضي العربية إلى اليهود ، بعد أن اعترفت أن الأراضي التي يمتلكها اليهود قد ارتفعت مساحتها في عشر سنين من (٨٤٤,٠٠٠) دونم (١٩٢٥) إلى (١,٣٣٢,٠٠٠) دونم (١٩٣٦) .

وأما من حيث الهجرة ، فقد اقترحت اللجنة أن تحدد هذه باثني عشر ألف مهاجر في السنة ، وذلك للسنوات الخمس المقبلة . وكان عدد اليهود ، يوم جاءت إلى فلسطين ، أربعمائة ألف .

هذا هو ملخص التقرير الذي وضعته (اللجنة الملكية) . وهو أول تقرير تضمن فكرة التقسيم . وعندما نشرته الحكومة البريطانية في (٧ تموز ١٩٣٧) قالت إنها توافق اللجنة فيما ذهبت إليه ؛ لأن التجارب التي مرت بها خلال الأعوام المنصرمة ، برهنت على أنه لا يمكن التوفيق بين أماني العرب وأماني اليهود في فلسطين . وأن تلك الأماني لا يمكن تحقيقها عن طريق الانتداب .

كيف تلقى اليهود توصيات اللجنة الملكية :

انشطر اليهود ، إثر صدور هذا التقرير ، إلى شطرين . شطر أيده ، وراح ينادي بتنفيذه . وآخر استنكره! لا ، لأنه لا يريد التقسيم ؛ بل لأنه طامع في المزيد! . .

---

(١) تذكرت وأنا اقرأ هذه الفقرة من تقرير (اللجنة الملكية) حديثاً جرى بيني وبين رئيسها اللورد بيل في بئر السبع ، يوم زار هو وصحبه أعضاء اللجنة ذلك القطاع من فلسطين بقصد البحث والتحقيق ، وقد كنت أنا يومئذ قائمقام مسؤولاً عن إدارة ذلك القطاع ؛ فسألني اللورد بيل عن رأيي في الموضوع وعما إذا كان عرب فلسطين يقبلون فكرة (التقسيم) . فأجبته من فوري : «كلا . لا ولن يقبلوا هذه الفكرة . فإن تقسيم بلادهم ، يعني اغتصاب جزء منه ، وإعطاءه لليهود . وإذا صدر قرار كهذا ، فإنه سيؤدي حتماً إلى الثورة والعودة إلى سفك الدماء» . ولما طلب الإفصاح عن ضميري ، قلت له : «إنني لا أشك قط في أن أي قرار ينص على التقسيم ، سوف يؤدي إلى الثورة وسفك الدماء . وفي تلك الحالة لن أتردد أنا أيضاً في ترك عملي الرسمي والانضمام إلى الثائرين من بني قومي وبلادي . .» هذا ما قلته للورد بيل . وعلمت ، بعد قليل ، أن مثل هذا القول قاله له كثيرون من الموظفين العرب في حكومة فلسطين .

ثورة العرب :

وأما عرب فلسطين فقد رفضوا توصيات اللجنة الملكية رفضاً باتاً . ولم يكتفوا بالإبراق والاحتجاج[1] وتنظيم المظاهرات . بل أعلنوا الثورة . واضربوا عن العمل . وعادات أعمال العنف والنسف والتدمير إلى ما كانت عليه قبل صدور قرار التقسيم . فدمرت مباني الحكومة ومخافرها . وفجرت أنابيب البترول . ونسفت الجسور . وتدهورت قطارات البضائع والركاب . وقطعت أسلاك البرق والهاتف . واصطدم الثوار والجند حيثما التقوا . ولم يبال العرب بالقوات الكثيرة من الجند التي استحضرتها السلطة من مصر وقبرص ومن انجلترا نفسها ، حتى نافت هذه على خمسين الف جندي . فراحوا يتحدون الحكومة وجيشها . وقتلوا حاكم الجليل المستر اندروس Lewis Andrews والبوليس البريطاني حارسه . وقتلوا حاكم جنين المستر موفات Walter Moffatt واشتدت السلطة في تدابيرها لقمع الثورة . فحلت اللجنة العربية العليا واللجان القومية كلها . وأقالت رئيس المجلس الإسلامي الأعلى من منصبه . واعتقلت عدداً كبيراً من رجالات فلسطين[2] . ونفت من نفت منهم إلى جزيرة (سيشل) . فاضطربت البلاد مرة أخرى . واتسعت المعارك بشكل مخيف . ووضع (قانون الطوارئ) موضع التنفيذ من جديد . ففرضت أحكام الموت على كل من حمل السلاح ، دع عنك إطلاقه! . حتى ولو كان هذا عبارة عن رصاصة فارغة! . وحتى إذا كانت الرصاصة التي أُطلقت ، لم تصب أحداً! . وبلغ عدد الذين أُعدموا شنقاً في سجن عكا (١٤٨) شهيداً . وأما الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد ، فإنهم أكثر من ألفين : بينهم شيوخ ونساء ، ولم يكونوا كلهم من الشباب المسلحين . وتعمدت السلطات العسكرية هدم الدور والمنازل . فهدمت أكثر من خمسة آلاف بيت . .

---

(١) أرسلت (اللجنة العربية العليا) أثر صدوره مذكرات شديدة اللهجة إلى الحكومة البريطانية في لندن ، وإلى لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف ، فندت فيها قرار التقسيم ، وطالبت بالاعتراف بحق العرب في الاستقلال التام . وعقد معاهدة على غرار المعاهدات المعقودة مع العراق ومصر وسورية .

(٢) يؤكد الأستاذ أكرم زعيتر في كتابه (القضية الفلسطينية) (ص١٢١) أن عدد المعتقلين من أبناء فلسطين في مدد مختلفة بلغ نحواً من خمسين ألفاً! . وكتابه هذا طبع في القاهرة سنة (١٩٥٥) . وقد تولت طبعه (دار المعارف) بمصر . إنه في نظري أحسن ما كتب في هذا الموضوع .

وجاوز عدد الجرحى سبعة آلاف . وانطلقت صيحات الاحتجاج من سوريا ومصر والعراق والأردن ولبنان . وراح أبناء هذه القطار العربية يتنادون للأخذ بيد أخوانهم عرب فلسطين . ولئلا يتمكن هؤلاء من التسرب لفلسطين ، أقام البريطانيون سوراً من الأسلاك الشائكة وسلسلة من القلاع المحصنة[١] على طول الحدود . ووراء هذه الأسلاك والقلاع كتائب من الجند ومصائد من الألغام . ولكن لا هه الأسلاك ، ولا تلك القلاع ، كانت لتلين من قناة عرب فلسطين ، الذين راحوا يهاجمون الإنكليز واليهود في آن واحد .

المندوب السامي الرابع السر أرثور غرنفيل واكهوب : بعد السر تشانسلور صار مندوباً سامياً اللفتنانت جنرال السر أرثور غرنفيل واكهوب Lieut - Gerneral Sir Arthur Gremfell Wauchope, K. C. B., C. M. G. C. I. E., D. S. O. وكان ذلك في (١ أكتوبر ١٩٣١) .

جاء هذا (المندوب) على أثر ثورات وقلاقل ، فرأى أمامه شعباً مثقلاً بالضرائب ، فزار الفلاحين ، وأظهر اهتماماً زائداً بشؤونهم ، فأقرضهم القروض الزراعية ، وخفض عنهم بعض الضرائب ، وألغى البعض الآخر . وقصارى القول إنه عمل على ترقية وسائل الزراعة ، وإنهاض المزارعين ؛ حتى لقب بـ(صديق الفلاح) . ولكنه في الوقت نفسه سمح لعدد كبير من اليهود بدخول البلاد . حتى دخلها منهم ، خلال السنوات الخمسة التي قضاها في فلسطين ، خمسون ألفاً في كل سنة[٢] . ففي السنوات الثلاثة التي انقضت بين (١٩٣٣-١٩٣٥) دخل فلسطين (١٣٥,٠٠٠) يهودياً . قالت الحكومة إنها اضطرت (؟) إلى منحهم وثائق هجرة بسبب اضطهاد هتلر والحكم النازي في ألمانيا . وما كادت سنة (١٩٣٧) تهل حتى كان عددهم قد وصل إلى (٤٠٠,٠٠٠) نسمة . أضف إلى ذلك أنهم راحوا يستوردون مختلف أنواع الأسلحة من أوروبا .

---

(١) سميت هذه القلاع باسم الشخص الذي ابتدعها ، وهو السر تشارلس تيغارت . كان فيما مضى من كبار الموظفين في حكومة الهند . وهو خبير في مكافحة الثورات .

(٢) قال الدكتور حايم وايزمان في مذكراته Trial & Error أن السر واكهوب كان يعطف على الوطن القومي اليهودي . وكان يعتقد أن إنجاح الصهيونية في فلسطين متوقف على الهجرة ؛ ولهذا سمح لستين ألفاً من اليهود بالهجرة إلى فلسطين في عام واحد ، هو عام (١٩٣٥) .

ونشط اليهود على عهده لشراء الأراضي .

المؤتمر الإسلامي الثاني : ولم يغتر العرب بابتسامته ، وبالوصف الذي أضفاه عليه الآخرون بقولهم : إنه صديق الفلاح! . . وكان قد أتاهم خبر الحفل الذي أقامه الصهيونيون في لندن تكريماً له ، وقد شرب فيه نخب الصهيونية ونجاحاً! عندئذ أيقن العرب أنه منافق ذو وجهين . أخذ بيده اليسرى ، ما أعطاه بيد اليمنى . فعقدوا بالقدس وفي جوار الحرم الشريف (كانون الأول ١٩٣١) مؤتمراً إسلامياً حضره عدد كبير من المسلمين (انظر إلى الصورة التحتا) من فلسطين ، والأردن ، وسوريا ، ولبنان ، واليمن ، والعراق ، ومصر ، والحجاز ، ومن تونس ، وبرقة ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، ومن تركيا ، وتركستان الصينية ، ومن الهند ، والقفقاس ، حتى ومن يوغسلافيا ، ونيجيريا ، وجاوا ، وسيلان . وترأس المؤتمر المفتي الحاج أمين الحسيني . وحضره عدد كبير من علماء فلسطين وشيوخها وزعمائها وأهل الرأي فيها .

وقرر المؤتمرون ، فيما قرروا ، إيجاد كتلة عربية إسلامية تقف سداً منيعاً حيال مطامع اليهود في الأرض المقدسة ، ومقاطعة جميع المصنوعات الصهيونية في جميع الأقطار الإسلامية ، وتنبيه العالم الإسلامي إلى الخطر الكامن وراء الصهيونية ، وصد تيار الهجرة اليهودية ، ومقاومة بيع الأراضي لليهود ، ودعوة العالم الإسلامي لشرائها ، واستنكار الاستعمار بجميع ألوانه في أي قطر من الأقطار الإسلامية ، واعتبار قضية العرب الأرثوذكس جزءاً من القضية العربية .

المؤتمر العربي الأرثوذكسي : وكان هؤلاء (أي العرب الأرثوذكس) قد عقدوا في يافا وقبل ذلك ببضعة أيام (تشرين الثاني ١٩٣١) مؤتمراً أيدوا فيه المطالب العربية القومية في فلسطين ؛ كما طالبوا بحقوقهم في الشؤون الدينية ، تلك الشؤون التي حصرها اليونان من رجال الأكليروس الديني بأيديهم . وقرر العرب الأرثوذكسيون في مؤتمرهم أن يكون البطريرك عربياً ، لا يونانياً أجنبياً كما هي الحال . وأن لا يعترفوا بأي بطريرك لا يشترك الشعب في انتخابه .

اللجنة التنفيذية العربية تقدم المظاهرات :

وعقدت اللجنة التنفيذية العربية اجتماعاً (١٩٣٣) درست فيه الموقف . وقررت أن تقام في القدس وفي سائر أنحاء فلسطين مظاهرات يعبر فيها الشعب عن سخطه واستنكاره للسياسة القائمة . وما كادت الحكومة تتلقى الخبر حتى أصدرت بلاغاً

رسمياً حظرت فيه التظاهر . إلا أن اللجنة التنفيذية ثبتت في قرارها . لا ، بل إنها تقدمت المتظاهرين في صفوفهم . واشترك النساء مع الرجال في تلك المظاهرة . وجاء الإنكليز بحرابهم ودباباتهم ؛ ففرقوا المتظاهرين ، بعد أن جرحوا منهم خمسة وثلاثين . وجرح خمسة من رجال البوليس . وكذلك قل عن المظاهرة التي قامت في يافا وفي سائر مدن فلسطين . وكانت أشدها في يافا . حيث قتل الإنكليز ثلاثين عربياً . وجرحوا زهاء مئتين .

الإضراب العام : وعاد الجو فتكهرب ، في أواخر عام ١٩٣٥ ؛ بسبب سياسة الحكومة ، وتغلغل النفوذ اليهودي في أداة الحكم ؛ وبسبب تلكؤ الحكومة في اتخاذ التدابير اللازمة للحيلولة دون انتقال الأرض إلى اليهود ، وتدفق سيل الهجرة إلى البلاد . وقد دخلها في ذلك العام وحده خمسون ألف يهودي . فقام عرب فلسطين قومة رجل واحد . وراحوا يطالبون الحكومة المنتدبة بوقف تيار الهجرة الذي طغى . كما راحوا يطالبون بالحكم الذاتي وتقرير المصير . ولما لم تلب الحكومة طلبهم أعلنوا (الإضراب العام) . وشمل الإضراب الذي بدأ في ٢٥ نيسان (إبريل) سنة ١٩٣٦ البلاد كلها : من أدناها إلى أقصاها . فوقفت الأعمال في المتاجر ، والمصانع ، والمواني ، والمكاتب ، والمدارس ، وفي كل مكان . وشمل الإضراب وسائل النقل على اختلاف أنواعها : في المدن والقرى . فلم يذهب العمال إلى أعمالهم ، والتجار إلى متاجرهم ، والمعلمون والطلاب إلى مدارسهم . وامتنع المحامون عن ارتياد دور المحاكم ؛ إلا إذا دعاهم الواجب لإنقاذ عربي من مخالب السلطة . وسلم المخاتير أختامهم إلى السلطة ، وامتنع الفلاحون والمزارعون عن ارتياد الأسواق ليبيعوا منتجاتهم وخضارهم . وأضربت (البلديات) عن كل عمل ، خلا أعمال التنظيف والتنوير وتزويد البيوت والمنازل بالماء . حتى السجناء فقد أضربوا عن العمل في سجونهم . كما أضرب رجال البوليس العرب ، فراحوا يطالبون بفصلهم عن زملائهم البريطانيين من حيث الأمر والنهي ، لأنهم يكرهون أن يكونوا أداة للضرب على يد أخوانهم . وراح رجال الدين من المسلمين ومسيحيين يعظون الناس في مساجدهم وكنائسهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ونجاة بلادهم .

وقصارى القول : شمل الإضراب جميع مرافق البلاد . فلم يستثن منه سوى المطاحن والأفران والمستشفيات والعيادات الطبية والصيدليات . وأما الصحف الفلسطينية فقد اكتف بالإضراب ثلاثة أيام ، علامة الانسجام مع الرأي العام . ثم

عادت إلى الظهور ، كي ترشد الأمة إلى خيرها ، وتطلعها على ما يعترض سبيلها من عثرات . وكذلك قل عن الموظفين العرب ذوي الرتب العليا ، فقد كتبوا إلى الحكومة مذكرة مشتركة قالوا فيها : إنهم يشاطرون أمتهم في شعورها ، ويؤيدونها في مطالبها ، ويطالبون بإعطائه حقها . واشتركت المرأة العربية الفلسطينية أيضاً في النضال إلى جانب الرجل . وعبثاً حاولت الحكومة أن تقنع زعماء الأحزاب كي يعدلوا عن الإضراب ، وينصحوا الناس كي يعودوا إلى أعمالهم .

اتحاد الأحزاب الفلسطينية : وما كانت البلاد في يوم من الأيام متفقة من حيث القصد والهدف والمسعى والوسيلة ، مثل ما كانت في ذلك اليوم الذي اتحدت فيه جميع الأحزاب العربية الفلسطينية :

حزب الاستقلال العربي الذي تأسس في (٤ آب ١٩٣٢) وزعيمه المحامي عوني عبدالهادي . وحزب الدفاع الوطني الذي تأسس في (٢ كانون الأول ١٩٣٤) وزعيمه راغب النشاشيبي . والحزب العربي الفلسطيني الذي تأسس في (٢٤ نيسان ١٩٣٥) وزعيمه جمال الحسيني . وحزب الإصلاح الذي تأسس في (١٨ حزيران ١٩٣٥) وزعيمه الدكتور حسين فخري الخالدي . وحزب الكتلة الوطنية الذي تأسس في (٤ تشرين الأول ١٩٣٥) وزعيمه المحامي عبداللطيف صلاح . الأحزاب الأربعة الأولى تأسست في القدس وجعلت مقرها الرئيسي فيها . وأما حزب الكتلة فقد تأسس في نابلس ، واتخذها مقراً لأعماله . وقد جاء في برامج الأحزاب كلها أنها تستهدف خير البلاد ، وتناوئ فكرة الانتداب البريطاني والوطن القومي اليهودي . وتطالب بوضع حد للهجرة وبيع الأرض ، وتنشد استقلال فلسطين ضمن وحدة عربية كبرى . ولكن كل واحد منها (أي من الأحزاب) كان قبل ذلك التاريخ يعمل لحدته ، وبوسائله التي يراها . وكثيراً ما تمنينا وتمنى معنا المخلصون لواجبهم وقضية بلادهم أن لو تتحد هذه الأحزاب ، ويتحد الزعماء ، فيعملون يداً واحداً لدرء الخطر . ما دام هدفهم واحداً . بيد أن أيادي الشر كانت تلعب من وراء ستار وفي طي الخفاء . فتعددت الأحزاب واختلف الزعماء . ولما جدّ الجد ، وأيقن الجميع أن الحكومة الإنكليزية لا تريد بهم خيراً ، وأن فلسطين ضائعة لا محالة إذا لم يتحدوا ؛ اتحدوا . وأعلنوا الإضراب . وألفوا لجنة أسموها : (اللجنة العربية العليا) . ألفوها من : الحاج أمين الحسيني ، راغب النشاشيبي ، أحمد حلمي عبدالباقي ، الدكتور حسين فخري الخالدي ، يعقوب فراج ، الفردروك ، عوني عبدالهادي ، عبداللطيف صلاح ، الحاج

يعقوب الغصين ، جمال الحسيني . وانتخبت اللجنة لرياستها الحاج أمين ، وأميناً لمالها أحمد حلمي ، وأميناً لسرها عوني عبدالهادي .

وفي الجلسة الأولى التي عقدت بتاريخ (٢٥ نيسان ١٩٣٦) قرروا المضي في الإضراب حتى يجاب الشعب العربي في فلسطين إلى مطالبه . ولخصت هذه المطالب بمنع الهجرة اليهودية منعاً تاماً ، ومنع انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود ، وإنشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي منتخب .

استمرار الإضراب وبوادر العصيان المدني : دعت اللجنة العليا الشعب بمختلف طبقاته إلى مؤتمر عام . وعقد المؤتمر في القدس بتاري (٧ أيار ١٩٣٦) . فأيد المؤتمرون قرار الإضراب . وقد أضافوا إليه قراراً آخر هو : الامتناع عن دفع الضرائب . وقد امتنع الناس عن الدفع بالفعل اعتباراً من ١٥ أيار . واستمر الإضراب ستة شهور . وبعد أن كانت مقاومة العرب ، في غضون الشهر الأول من الإضراب ، منحصرة في الامتناع السلبي عن العمل ، وفي الكلام والخطب والأقوال التي تنشر في الصحف وتقال من على المنابر ؛ انقلبت في شهرها الثاني إلى (ثورة علنية) شملت البلاد كلها : من أدناها إلى أقصاها . وراح العرب والجنود البريطانيون يقتتلون حيثما يلتقون : في القدس وقراها ، وفي جبل نابلس وجبل الخليل ، وفي يافا وحيفا ، وفي اللد والرملة ، وعند باب الواد ، وفي صفد وعكا والناصرة ، وفي غزة وبئر السبع ، وفي السهل والوعر ، وفي الجبال والحراج والمغاور والكهوف والوديان ، وفي كل مكان .

وقطع الثوار العرب أسلاك البرق والهاتف . وهاجموا القطارات الحديدية ، فمنعوها عن السير . ونسفوا الجسور ، ودمروا أنابيب البترول . كما دمروا المباني الحكومية . وقتلوا عدداً غير قليل من الجنود البريطانيين ومن اليهود . وسدوا الشوارع بالحجارة . ورشوا الطرق بالمسامير عرقلة لوسائل النقل وهاجموا المستعمرات اليهودية حيثما استطاعوا . هاجموها في الليل والنهار . وقد أُخلي بعضها من سكانها . وما كان اليهود ليستطيعوا السير والتنقل من مكان إلى مكان ، إلا في سيارات مصفحة بالفولاذ ، وتحت حراسة الجند .

الإنكليز يبطشون بالعرب دون هوداة :

ولم يقف الإنكليز حيال ثورة العرب وقفة المتفرج . بل راحوا يقاومونها بأقصى ما لديهم من قوة .

إنهم لم يتركوا وسيلة إلا واستعملوها لمقاومة العرب ، وإسكاتهم . فكان أول شيء عملوه أنهم أعلنوا قانون الطوارئ . واعتقلوا عدداً من خيرة الشبان ورجالات البلاد . فزجوا بعضهم في السجون . وأرسلوا البعض الآخر إلى المعتقلات . عدد من الزعماء حكم عليهم بالإقامة الجبرية في عوجا الحفير من أعمال بئر السبع في أقصى الجنوب من فلسطين والبعض الآخر في صرفند في مقربة من الرملة . وحشد الإنكليز قواتهم في المناطق العربية التي اعتبروها خطراً على الأمن . وارتفع عدد جنودهم بفلسطين من عشرة آلاف جندي إلى عشرين ألف جندي . تعززهم الطائرات والدبابات ومختلف أنواع الأسلحة والمعدات . ومنعت السلطة الناس من مغادرة منازلهم ، إلا في ساعات معدودة لقضاء حاجاتهم . ونسفت منازل العرب في عدد من المدن . ولا سيما في يافا . فقد نسفت منطقة واسعة مؤلفة من (٢٢٠) منزلاً بحجة تجميل المدينة! . واعترف وزير المستعمرات بعدئذ أنها نسفت لكونها مركزاً للمتربصين . وفرضت السلطة عقوبة الإعدام والسجن المؤبد على من يحمل السلاح .

ولم يكتف الجنود البريطانيون بتفتيش منازل العرب ومصادرة أسلحتهم ، بل راحوا ينسفون دورهم ومنازلهم . وحطموا كل ما وقعت عليه أيديهم في تلك المنازل من آلات وأدوات ومن مواد غذائية . وقتلوا وجرحوا عدداً كبيراً من الأهلين : لا فرق في نظرهم بين مسلم ومسيحي . . بين مدني وقروي . . بين رجل وامرأة . . بين شيخ مسالم أو شاب ثائر . . الأمر الذي حدا بالقرويين لهجر قراهم ، والمدنيين لهجر منازلهم .

وهؤلاء الذين هجروا قراهم ومنازلهم ، قد اعتصموا بالجبال . فزادوا النار لهيباً . وما كاد يمر على الإضراب مئة يوم ، حتى كانت هذه قد ازدادت ضراماً . وكان عدد من الإخوان السوريين والعراقيين قد دخلوا البلاد ، وانضموا إلى إخوانهم المجاهدين من أبناء فلسطين . نذكر منهم فوز الدين القاوقجي ، وسعيد العاص ، وهما من كبار المجاهدين . وقد أبلوا جميعاً بلاء يستحق التقدير(١) .

واستحضر الإنكليز نجدات جيدة من معسكراتهم القائمة في مصر وقبرص . حتى ، ومن الوطن الأم . فبلغ عدد الجيش البريطاني المرابط في فلسطين خمسة

---

(١) ذكرت أسماء قادة الثورة وشهدائها وما قاموا به من أعمال جليلة في سبيل الذود عن وطنهم في كتابي : (النكبة) . ذكرتهم بالتفصيل . وقد جاء الكتاب في سبعة أجزاء فليرجع إليه من شاء .

وعشرين ألفاً . واستبدلوا قادتهم ، فعهدوا بقيادة قطعاتهم المعسكرة في فلسطين إلى رجل من أقدر رجالهم العسكريين ، ألا وهو : اللفتنانت جنرال السر جون دل[1] Sir Johm Dill ولم يترك هذا القائد وسيلة من وسائل البطش والتنكيل ، إلا واستعملها ؛ لإرغام الفلسطينيين على الرضوخ للاستعمار والعدول عن الإضراب .

وقف الإضراب : من الوسائل التي استخدمتها الحكومة البريطانية لوقف الإضراب والثورة ، بالإضافة إلى التدابير العسكرية القاسية ، إنها لجأت إلى الأمير عبدالله أمير الأردن ، ونوري باشا السعيد وزير خارجية العراق ، وإلى غيرهما من الرجال ذوي النفوذ في هذا الجزء من الشرق ؛ لعلهم يقنعون الفلسطينيين في العدول عن الثورة . وعبثاً حاول هؤلاء في بادئ الأمر إقناع الفلسطينيين . ولكنهم ، بعد قليل ، نجحوا في مسعاهم ، ولا سيما عندما انضم إليهم ملوك العرب ورؤساؤهم الآخرون ومنهم : الملك عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة السعودية ، والملك غازي ملك العراق ، والإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن . وأكد الملوك لزعماء فلسطين أنهم حصلوا على تعهدات (؟) من الخليفة (؟) بريطانيا أن تنصف عرب فلسطين ؛ ووعدوهم أيضاً (أي الملوك والأمراء) أن يأخذوا بيدهم ، فيدفعوا عنهم خطر الصهيونيين . وقبلت اللجنة العربية العليا وساطتهم . فأعلنت إنهاء الإضراب والثورة اعتباراً من يوم الاثنين الموافق (١٢ تشرين الأول ١٩٣٦) . وهكذا يكون الإضراب قد دام مئة وستة وسبعين يوماً .

ميزان الربح والخسارة : كان ربح العرب ، رغم الخسائر التي ألمت بهم في الأرواح وفي ميادين الاقتصاد ، عظيماً . ذلك لأنهم كانوا ، قبل ذلك ، مختلفين . ولما جد الجد اتحدوا . وأيقنت الحكومة واليهود أيضاً ، أنه ليس من السهل إخضاعهم . ومن الأرباح أن العرب وجهوا عداءهم المرة هذه نحو الحكومة المنتدبة نفسها ، بعد أن كانوا يستهدفون اليهود وحدهم . وقد اشترك مع أبناء فلسطين عدد من إخوانهم أبناء الأقطار العربية المجاورة . واشترك الملوك والأمراء بالعمل ، فأصبحت (قضية فلسطين) قضية عربية عامة .

وأما الخسائر في الأموال والأرواح ، فكثيرة . نذكر منها ما تلقيناه عن طريق

---

(١) ترقى هذا ، بعد قليل ، فراح يحمل أعلى الرتب : Field - Marshal .

الحكومة وإحصاءاتها الرسمية . فنقول :

	عرب	يهود	إنكليز	المجموع
القتلى :	٢٠٠+	٨٠+	٤٥=	٣٢٥
الجرحى :	٨١٠+	٣٠٠+	٢٦٠=	١٣٧٠

وأما المصادر العربية ، فتقول :

	عرب	يهود	إنكليز	المجموع
القتلى :	٢٠٠+	٣٠٠+	٤٥=	٥٤٥
الجرحى :	٨٠٣+	٢٥٢+	٢٦٠=	١٣١٥

إن معظم القتلى والجرحى من العرب أصيبوا برصاص الجند . وبلغ عدد الذين زجوا في المعتقلات والسجون منهم (أي من العرب) ثلاثة آلاف بين معتقل وسجين .

سوء الخاتمة لعهد السر واكهوب :

هذا ما جرى في فلسطين خلال السنوات (أيلول ١٩٣٠- شباط ١٩٣٨) التي قضاها السر واكهوب فيها . وقد غادرها غير مأسوف عليه . وفي عهده قسمت فلسطين (١٩٣١) إلى ثلاثة ألوية . هي :

(آ) اللواء الشمالي : وهو مؤلف من الأقضية التالية :

حيفا ، عكا ، الناصرة ، طبريا ، صفد ، نابلس ، جنين ، طولكرم ، بيسان .

(ب) اللواء الجنوبي : وهو مؤلف من الأقضية التالية :

يافا ، الرملة ، غزة ، بئر السبع ، عوجا -الحفير .

(ج) لواء القدس : وهو مؤلف من الأقضية التالية :

القدس ، رام الله ، بيت لحم ، أريحا .

المندوب السامي الخامس : السر هارولد الفرد ماك مايكل : دخلت سنة (١٩٣٨) والثورة ما زالت مشتعلة . فرأت الحكومة أن تستبدل قادة الجيش وحكام البلاد بغيرهم ، لعلهم يستطيعون أن يخمدوا الثورة ، أو يجدوا حلاً للمشاكل القائمة . فاستبدلت الجنرال هايننغ بالجنرال ويفل قائداً عاماً . وجاء السر هارولد الفرد ماك مايكل Sir Harold alfred MacMichael, K. C. M. ليحل محل السر آرثر غرينفل G., D. S. O. واكهوب .

وتسلم المندوب الجديد عمله في اليوم الأول من شهر آذار ١٩٣٨ .

الثائرون من عرب فلسطين يستولون على معظم أنحاء البلاد : وجد هذا المندوب أمامه شعباً يغلي ، وبلداً تمزقه الثورات . واستمر الثوار العرب في حركاتهم بعد مجيئه . فاحتلوا مدينة القدس (نيسان ١٩٣٨) كما احتلوا الخليل (أغسطس ١٩٣٨) . واحتلوا أيضاً مدينة بير السبع (أيلول ١٩٣٨) . وفي بئر السبع شهدت أعمال الثوار بعيني ، وكان يقودهم يومئذ القائد الموهوب عبدالحليم الجيلاني . فقد قطعوا قبل كل شيء ، أسلاك البرق والهاتف . وأقاموا في مداخل المدينة قوات كافية لمنع الدخول إليها والخروج منها . ثم راحوا ويتعقبون الجنود البريطانيين الذين كانوا في المدينة . وقد قتلوا واحداً منهم برتبة نقيب . ثم راحوا يستولون على دور الحكومة . وحرقوا بعضها . وقد أطلقوا السجناء من سجونهم . واستولوا على مقادير كبيرة من الأسلحة والأعتدة العسكرية . وظل الثوار في تلك البقعة من جنوب فلسطين مسيطرين ، يغشونها متى يشاءون ، زهاء سبعين يوماً .

واحتل الثوار أيضاً مدينة أريحا في الشرق ، ومدينة طبريا في الشمال ؛ فدمروا معظم المباني اليهودية والمنشئات الحكومية . وقتلوا من سكانها اليهود عدداً كبيراً .

لجنة وودهيد تفشل في مهمتها لتنفيذ التفسيم : جاءت إلى فلسطين لجنة يرأسها السر جون وودهيد . نزلت هذه في مدينة القدس في (٢٧ نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٨) . وقالت اللجنة عن نفسها أنها (لجنة فنية) انتدبت لتدرس مشروع التقسيم المقترح من قبل اللجنة الملكية . وقد خولت الحرية في اقتراح التعديلات التي تراها مناسبة ، على أن تضع حدوداً فاصلة بين المنطقتين العربية واليهودية والمناطق التي يجب الاحتفاظ بها إن دائماً أو مؤقتاً ، تحت الانتداب البريطاني .

فاستقبلها العرب في فلسطين بالإضراب العام والمظاهرات . وقاطعوها . فلم يتقدم إليها خلال المدة التي قضتها في البلاد (من ٢٧ نيسان إلى ٩ تشرين الثاني ١٩٣٨) عربي واحد ليؤدي شهادته . وقالت اللجنة في تقريرها «إن العرب لا يزالون يقفون من التقسيم موقفاً عدائياً» واعترفت اللجنة أيضاً أنه من المتعذر تقسيم بلاد صغيرة كفلسطين بشكل يكون للحدود التي تفرض لتفرق بين مناطقها ، أية قيمة عسكرية .

وبعد أن استعرضت لجنة ووهيد جميع المشاريع التي اقترحت لتقسيم فلسطين ، ومن بينها مشروع اللجنة الملكية ، قالت إنها لا توصي بقبوله ، لأن عدد العرب في

الدولة اليهودية -فيما إذا نفذ مشروع اللجنة الملكية- سيكون مساوياً لعدد من فيها من اليهود! . . وأمّا الأراضي فما يملكه اليهود في الدولة العربية ضئيل لا يجاوز التسعين ألفاً من الدونمات، على حين ما يملكه العرب في الدولة اليهودية نحو (٣,٨٥٥,٠٠٠) دونماً . واليهود لا يملكون في دولتهم المقترحة أكثر من (١,١٤٠,٠٠٠) دونماً! .

ومما جاء في تقرير لجنة وودهيد قولها : إن أي مشروع لتقسيم فلسطين يقضي بوضع عدد كبير من العرب تحت سيطرة اليهود في منطقة ليس لليهود فيها أكثرية . وليس ثمة ما يسوغ استعمال القوة لإرغام هذا العدد الكبير الذي يقطن في منطقة عربية بحتة على قبول سيطرة اليهود . ولو فرضنا جدلاً أنه كان بالإمكان سحق المقاومة العربية بالقوة، فإن هذا (السحق) لن يستمر طويلاً . وستبقى البلاد عرضة للقلاقل والثورات .

وقد اختتم التقرير بجملة جاء فيها : «إن تقسيم فلسطين أمر لا يجوز أن يجريه الأوصياء دون موافقة شعب فلسطين . وهذا الشعب ليس بالشعب الساذج المفتقر إلى وصي، ولا هو بالعاجز عن اتخاذ قرار يحدد مصيره» .

الحكومة البريطانية تتراجع عن التقسيم :

عندما تلقت الحكومة البريطانية تقرير اللجنة الفنية (وودهيد) أصدرت بياناً رسمياً تاريخه (٩ نوفمبر ١٩٢٨) . وقد اعترفت فيه أن تقسيم فلسطين، كما اقترحته لجنة بيل، غير عملي . ولهذا فإن «حكومة جلالته ستواصل الاضطلاع بمسؤوليتها في حكم فلسطين بأجمعها كدولة منتدبة» .

ولكن! كيف السبيل لإيجاد تفاهم بين العرب واليهود، وتوطيد السلام والأمن في البلاد؟

فالثورة ما برحت قائمة . والجو لا يزال مكهرباً بالإرهاب والخوف . وخزانة الحكومة تكاد تفرغ من كثرة الإنفاق على الجيش والشرطة، وتعمير المباني الحكومية والمحطات والجسور التي هدمها الثوار . والأهم من هذا وذاك حماية اليهود الذين أقضت ثورة العرب مضاجعهم . وقد أحدثت المقاطعة التي فرضها العرب أثرها في جميع أوساطهم التجارية والصناعية . فكسدت بضائعهم . وتوقفت مصانعهم . وكثر عدد العاطلين من عمالهم . وبلغت الخسائر في الأرواح والممتلكات نتيجة للثورة

العربية ، حداً مخيفاً(١) .

نار الثورة تزداد ضراماً : وقف وزير المستعمرات في مجلس العموم ، بتاريخ (٢٤ نوفمبر ١٩٣٨) ، فأخبر الأعضاء : «أن حملة الاغتيالات والعنف التي شهرها العرب ، قد نمت ، وأصبحت ثورة عربية منظمة واسعة النطاق ضد السلطة البريطانية» . وبعد أن أوضح للمجلس ما قامت به القوات العسكرية من تدابير لتوطيد الأمن . . . تلك التدابير التي أدت إلى : «إخراج الثوار من القدس واسترداد سيطرة الحكومة على أريحا وغزة واحتلال بئر السبع من جديد» ؛ قال : «إن باستطاعة جيشنا أن يعيد النظام إلى نصابه في فلسطين ، ولكننا لا نستطيع أن نوطد أركان السلام فيها . فالقضية سياسية وليست عسكرية» . إلى أن قال :

«ونحن حين وعدنا اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين كلها موطناً ليهود العالم ، وفلسطين لا تستطيع أن تحل مشكلة اللاجئين اليهود ، حتى ولو كانت خالية من أي شعب آخر ، فكيف بها ، وهي مأهولة بالعرب ، دخلوها منذ قرون ، وهم يعيشون فيها سادة . ولم يؤخذ رأيهم عندما أعطي وعد بلفور ، وعندما وضع صك الانتداب . وقد احتجوا ، وما برحوا يحتجون . وها هم يتساءلون : أما لهذا الليل من آخر؟ أما لهذا الغزو من نهاية؟» .

وقال : «إنا إذا لم نستطع أن نزيل مخاوف العرب في فلسطين من أن يصبحوا تحت سيطرة اليهود ، فسنجابه عداء العب كلهم في الشرق الأدنى . وعلينا – في هذه الحالة– أن نضع قسماً كبيراً من الجيوش البريطانية بصورة دائمة في فلسطين . وفي هذا ما فيه من مصاعب وأعباء ثقيلة» .

مؤتمر لندن : لبّى العرب دعوة تلقوها من الحكومة البريطانية . فحضروا مؤتمراً عقدته في لندن . وكان ذلك في (٧ شباط ١٩٣٩) . وقد لبّاها اليهود أيضاً . فحضروا المؤتمر نفسه . ولكن الفريقين (العرب واليهود) لم يجلسوا معاً . بل جلس العرب مع الإنكليز في الصباح . وجلس اليهود معهم في المساء . وكان الاجتماع في قصر سان

---

(١) جاء في تقرير (اللجنة الخاصة للأمم المتحدة بشأن فلسطين) بتاريخ (٣١ آب ١٩٤٧) أن اللجنة الملكية التي يرأسها اللورد بيل والتي انتدبت لتحليل أسباب الاضطرابات في فلسطين ، قدرت الخسائر بالأرواح نتيجة للثورة العربية (١٩٣٦-١٩٣٩) كانت حوالي (٤٠٠٠) شخص ، وأن الأضرار التي لحقت بالأموال قدرت بحوالي مليون جنيه .

جيمس وقد استمر بضعة أسابيع . بسط العرب خلالها قضيتهم . وكذلك فعل اليهود . ولكن المؤتمر فشل في الوصول إلى حل يرضي أياً منهم . ونشرت الحكومة بعد انفراط عقد المؤتمر بيانها في شكل (كتاب أبيض) تاريخه (١٧ أيار ١٩٣٩) . وقد ذكرت فيه مطالب الفريقين والحجج التي يستند إليها كل منهما . وختمت بيانها قائلة : «إنه ليس من سياستها أن تصبح فلسطين دولة يهودية ، ولا دولة عربية . وإنما هي ترغب في أن ترى قيام دولة فلسطينية مستقلة يشترك فيها العرب واليهود . . وإلى أن يتم ذلك ، لا بد من مرور فترة انتقال تساعد على نشوء علاقات طيبة بين العرب واليهود . وفي خلال تلك الفترة تحتفظ الحكومة البريطانية بالمسؤولية النهائية بوصفها الدولة المنتدبة» .

وعلى ضوء هذا البيان أعلنت الحكومة البريطانية أنها :

أولاً : ستمنح الفلسطينيين ، في خلال عشر سنين ، نصيباً متزايداً في حكومة بلادهم . وستوليهم زمام الحكم بمساعدة مستشارين بريطانيين .

ثانياً : تكون الهجرة اليهودية ، خلال السنوات الخمس التالية ، بمقدار من شأنه أن يزيد عدد اليهود في فلسطين إلى ما يقرب من ثلث مجموع البلاد . وعلى هذا الأساس ستسمح بإدخال نحو (٧٥,٠٠٠) يهودي مهاجر خلال السنوات الخمس التالية ، اعتباراً من أول نيسان (١٩٤٠) . ولدى انقضاء السنوات الخمس لا يسمح بهجرة أخرى ، إلا إذا كان عرب فلسطين على استعداد لقبولها .

ثالثاً : سيمنح المندوب السامي سلطات عامة تخوله منع وتنظيم انتقال الأراضي العربية إلى اليهود .

كيف تلقى العرب واليهود الكتاب الأبيض : هذا هو الكتاب الأبيض . أوجزناه في السطور المتقدمة . ومع أنه حوى كثيراً من التعهدات من شأنها أن تزيل الكثير من مخاوف العرب ، وقد اعتبره الكثيرون نصراً لهم ، لأنه دل على أن بريطانيا عدلت عن التقسيم ، وأنها اعترفت بمبدأ الاستقلال ، وحددت الهجرة وقيدت بيوع الأرض تحديداً لا بأس به ؛ إلا أن العرب رفضوه . لأنه جعل تحقيق الاستقلال منوطاً بإسهام اليهود ، واليهود لا ولن يقبلوا دولة ليست يهودية . أضف إلى ذلك أن بريطانيا احتفظت لنفسها بالقرار النهائي : من حيث الموافقة على إعلان الاستقلال أو تأجيله بعد فترة الانتقال! .

وكذلك قل عن اليهود . فإنهم رفضوا الكتاب الأبيض ، لأنه لم يحقق رغباتهم . وقد أبعدهم عن الهدف الذي طالما نشدوه ؛ ألا وهو : إنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين . ولهذا قرروا بذل كل جهد يملكونه من أجل إلغائه . وقد أعلنوا الثورة . معتقدين أن العرب ما كانوا ليستطيعوا حمل الحكومة المنتدبة على انتهاج خطتها الجديدة الرامية إلى استرضائهم لولا ثورتهم ، وأن ما أحدثته الثورة العربية يجب أن يزول بثورة يهودية .

ثورة اليهود : بدأ اليهود ثورتهم بمهاجمة محطة الإذاعة . فقطعوا خطوطها قاصدين أن لا يذاع نبأ السياسة الجديدة التي اعتزمت الحكومة المنتدبة تنفيذها . وكان ذلك في (١٧ أيار ١٩٣٩) . ثم أحرقوا الدوائر الرئيسية للمهاجرة . ونهبوا دار الحكومة في تل أبيب . واستطاعوا أن يدربوا عدداً أوفراً من شبانهم على أيدي ضباط من اليهود تدربوا على الأعمال العسكرية في الجيش البريطاني ، وعلى يد ضباط من الإنكليز أنفسهم كانوا من المؤيدين للفكرة الصهيونية . ومن هنا نشأت القوة العسكرية المعروفة بـ(الهاغانا) . وأقاموا دائرة لتجنيد المتطوعين من أبنائهم . ووضعوا تلك الدائرة تحت إشراف الوكالة اليهودية . وجعلوا مدة الخدمة سنة للفتيات والفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين (١٧ و١٨) سنة . فعلوا هذا تحت سمع الحكومة وبصرها ، دون أن تفعل بهم ما فعلته قبلاً بالعرب ؛ عندما كانت تحكم على العربي بالإعدام شنقاً إذا ما وجدته يحمل ولو رصاصة واحدة! .

ليس هذا فحسب بل رضي رئيس وزراء بريطانيا في تلك الفترة من الزمن ، وهو المستر ونستون تشرشل ، أن ينشئ اليهود جيشاً يهودياً -بقواده وضباطه وجنوده حتى رايته- بحجة أن هذا الجيش سيحارب إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٤) . وزود هذا الجيش بالأسلحة : بعضها شروه من مخازن الجيش البريطاني علناً ، وبعضها زودتهم به الحكومة دون ثمن ، والبعض الآخر سرقوه من معسكرات الجيش في الداخل أو هربوه خفية من الخارج .

ونشطت عصابات الأرغون وشترون في أعمالها الإرهابية في مطلع عام (١٩٤٤) . تؤيدها المنظمة العسكرية اليهودية المعروفة بـ(هاغانا[1]) . وإن قالت هذه

---

(١) اقرأ ما كتبته عن هذه المنظمات اليهودية وعن أهدافها وتاريخ نشوء كل واحدة منها ومؤسسيها وأعمالها ، وعن الأحزاب اليهودية كلها ، في كتابي : (النكبة) . ولا سيما في الصفحات (٨٦٦-٨٧٦) من الجزء الرابع .

أنها لا تقر (؟) أعمال الإرهاب . وكذلك قل عن الوكالة اليهودية التي اعترفت بها بريطانيا كهيئة استشارية ورد ذكرها في المادة (٤) من صك الانتداب . فإنها كانت تمول العصابات المتقدم ذكرها وتدفعها إلى الأمام .

حتى البريطانيين الذين مهدوا لهم السبيل وآزروهم في الوصول إلى أهدافهم ، فإنهم لم يسلموا من أذاهم . وفي أثناء ثورتهم ، قتلوا الكثيرين منهم . ومن الذين قتلوهم ثمانية من رجال البوليس البريطاني (٢٣ آذار ١٩٤٤) ووزير الدولة في الشرق الأدنى اللورد موين (٦ تشرين الثاني ١٩٤٤) . ونصبوا كميناً للمندوب السامي السر هارولد ماكمايكل (٨ آب ١٩٤٤) قاصدين اغتياله . نصبوه عند مدخل القدس من الغرب . فجرح سائقه . وأما هو فقد نجا .

وقد دمر اليهود دوائر المهاجرة بالقدس وحيفا وتل أبيب في يوم واحد (١٢ شباط سنة ١٩٤٤) . كما دمروا (٢٦ شباط) دوائر ضريبة الدخل في المدن الثلاث المتقدم ذكرها . هذا بالإضافة إلى تفجير أنابيب البترول ونسف الجسور ومراكز الأمن .

ولم يتخذ البريطانيون إزاء الحوادث المتقدم ذكرها ، رغم خطورتها ، ربع ربع ما اتخذوه فيما مضى ضد العرب الذين اعتقلوهم بالمئات ، وزجوهم بالسجون ، ونفوهم إلى خارج البلاد . وحكموا على كثيرين منهم بالإعدام لحملهم السلاح[(١)] . وأما اليهود الذين ارتكبوا الجرائم المتقدم ذكرها ، فلم يصابوا بأذى . أما الكمين الذي نصبوه للمندوب السامي وكانوا يعتزمون اغتياله ، فكانت عقوبته غرامة قدرها (٥٠٠) جنيه «؟» . وقد فرضت هذه على مستعمرة (جبعات شاؤول) الواقعة في مدخل المدينة . ومع ذلك فإنهم لم يحصلوها ، بسبب(الضجة) التي أثارها عدد من أنصار اليهود في مجلسي العموم واللوردات في لندن! .

وكل ما فعلته الحكومة في هذا الصدد ، هو أنها أصدرت بياناً رسمياً ناشدت فيه الإرهابيين أن يمتنعوا عن هذه الأعمال التي تعرقل المجهود الحربي البريطاني وتساعد العدو» .

المندوب السامي السادس : الفيكونت غورت : Fild Marshal Viscount Gort V.C., G.C.B., C.B.E., D.S.O., M.V.O., M.C. تسلم هذا الإدارة في (٣١

---

(١) رأيت بأم عيني شخصاً عربياً يسوقه الجند إلى السجن ، ولم يكن معه ساعتئذ سوى رصاصة فارغة! . .

تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤) . وما كادت قدماه تطأ أرض فلسطين ، حتى وجدها مخصبة بالدماء وأعمال العنف والتدمير . وقد حاول اليهود إقناعه ، بأنهم على حق في ثورتهم ، وأنهم لن يعدلوا عنها إلا إذا أجابتهم حكومته لمطالبهم . ولما شعروا منه تلكؤاً ، راحوا يرسمون الخطط لإرغامه . ومن الوسائل التي لجأوا إليها توصلاً إلى أهدافهم أنهم ، في العرض الذي أقامته الحكومة بمناسبة عيد ميلاد ملك إنكلترا ، وضعوا بطارية من مدافعهم القوسية المعروفة (بالمورتر) في مكان ما من أحيائهم ، وصوبوها نحو المنصة التي أعدت ليتلقى فيها المندوب تحية الجنود ، وليتلوا عليهم خطابه . ولكن حيلتهم هذه ما برحت أن اكتشفت . وقد أحبطها رجال الأمن . ومع ذلك فإن أحداً ما ، لم يسألهم : لماذا أقدموا على عملهم ذاك؟ .

بعد هذا الحادث زادت الحكومة عدد الرجال المنتسبين إلى سلك البوليس . وبلغوا في عام (١٩٤٥) خمسة عشر ألفاً . هذا -طبعاً- غير الجنود المنظمين المنخرطين في الجيش البريطاني . وقد أنفقت الحكومة من أجل صون الأمن في تلك السنة (٤,٦٠٠,٠٠٠) جنيهاً . ورغم هذا كله فإن الأمن كان في كل يوم يزداد سوءاً .

القضية الفلسطينية تنتقل إلى الصعيد العربي العام : انتقلت قضية فلسطين من صعيدها المحلي بفلسطين إلى صعيدها القومي في دنيا العرب . وقد تبنتها (الجامعة العربية) ، يوم اجتمع ممثلو حكومات مصر وسورية ولبنان والعراق والأردن والسعودية في الاسكندرية (٧ تشرين الأول ١٩٤٤) فأقروا ميثاقاً تضمن ، فيما تضمن من بنود ، بنداً يتعلق بفلسطين . وقد اعتبروها ركناً من أركان البلاد العربية . وتعهدوا بالدفاع عن حق العرب فيها .

ولما اجتمع ممثلو هذه الدول في القاهرة (١٢ آذار ١٩٤٥) ، ووضعوا دستور الجامعة ، وظهرت الجامعة إلى الوجود ؛ نص دستورها على بند يختار (مجلس الجامعة) بموجبه مندوباً عربياً من فلسطين ليشترك في أعماله ، إلى أن تتمتع (فلسطين) بممارسة استقلالها فعلاً . والاستقلال حق من حقوقها . وعلى هذا أصبحت قضية فلسطين شغل الجامعة الشاغل . وكان أول عمل عملته من أجل إنجاح هذه القضية أنها (أي الجامعة) قررت في (٢) ديسمبر (كانون الأول ١٩٤٥) مقاطعة المنتجات والمصنوعات اليهودية ، ومنعها من دخول بلادها ، اعتباراً من اليوم الأول من شهر يناير (كانون الثاني ١٩٤٦) .

وراحت دول الجامعة بعد ذلك تتبنى قضية فلسطين في المحالين ، العربي

والدولي ، كلما سنحت الفرصة .

تدخل الولايات المتحدة: وتدخلت الولايات الأميركية المتحدة أيضاً في القضية الفلسطينية . وكان ذلك بتأثير من اليهود المسيطرين هناك ، بما لهم من نفوذ وأموال وصحف وأصوات في الانتخابات ، على معظم معالم الحياة الأميركية ؛ ولا سيما في دوائر المال والاقتصاد . وراح اليهود يحرضون الرئيس الأميركي ترومان على التدخل ، وبذل الجهد من أجل نصرة قضيتهم ، والأخذ بيدهم . ولم يتردد هذا في النزول عند رغبتهم . فكتب ، أول ما كتب ، للمستر أتلي ؛ وكان هذا يومئذ (٣١ آب ١٩٤٥) رئيساً للوزارة البريطانية . وقد طلب إليه أن يفتح أبواب فلسطين لليهود ، وأن يسمح لمئة ألف منهم كي يدخلوها بأمان . هذا بالإضافة إلى العدد الرسمي الذي كان قد تقرر في الكتاب الأبيض .

فعل ترومان هذا دون أن يستشير العرب . مع أن سلفه الرئيس روزفلت ، كان قبل ذلك بخمسة شهور قد وعد الملك عبدالعزيز آل السعود في كتاب أرسله إليه في (٥ نيسان ١٩٤٥) «أن لا يتخذ أي قرار فيما يتعلق بالوضع الأساسي في فلسطين من غير استشارة تامة مع كل من العرب واليهود» .

المندوب السامي السابع والأخير: السر ألن غوردن كاننغهام General Sir Alen Gordon Cunningham إنه من رجالات بريطانيا العسكريين . جاء إلى القدس في (٣١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥) يحمل أوسمة عديدة نذكر منها : وسام الخدمة الممتازة من رتبة رفيق (.D.S.O) ووسام الصليب العسكري (.C.M.G) . ومنها أيضاً : وسام الصليب الأكبر ووسام الحمام الرفيع من رتبة فارس .

وقد انتدبته حكومته على أمل أن يستطيع تهدئة الثورة . ولكنه فشل . ولم يستطع تهدئتها . لا ، بل إنها في زمنه زادت اشتعالاً . ذلك لأن حكومته كانت من الجبن بحيث لم تستطع أن تضع حداً لمطامع اليهود . وكان هؤلاء قد ازدادوا غلواً في مطالبهم . وبعد أن كانوا راضين بدخول أعداد معينة من مهاجريهم إلى فلسطين وبالتغلغل في جهاز الحكم إلى حد محدود ، راحوا يطالبون بفتح أبواب فلسطين كلها لهجرة يهودية لا تتناهى ، وبتأسيس دولة يهودية كاملة فيها .

وقد استمرت الهجرة في الواقع ؛ فارتفع عدد اليهود في فلسطين ، على عهده ، من (٤٠٠,٠٠٠) في سنة (١٩٣٧) إلى (٦٢٥,٠٠٠) في سنة (١٩٤٦) . كما ازداد عدد المستعمرات التي أسسها اليهود في البلاد من (٣٠٢) مستعمرات زراعية تضم

(٩٧,٠٠٠) نسمة من السكان إلى (٣٠٠) مستعمرة تضم (١٤٠,٠٠٠) نسمة . هذا غير المستعمرات التي أسموها : (يشوف) . ومدينة (تل أبيب) التي بلغ عدد سكانها في سنة (١٩٤٦) مئة وثمانين ألفاً . وأما مدينة القدس فقد جاء في (الوقائع الفلسطينية) وهي الجريدة الرسمية لحكومة فلسطين ، أنه كان يعيش فيها يومئذ (١٨ كانون الأول ديسمبر ١٩٤٦) مئة وواحد وخمسون ألفاً من السكان ؛ إليك تفصيلهم حسب أديانهم :

العدد	الدين
٢٩,٠٠٠	يهود
٣٢,٠٠٠	مسلمون (كلهم عرب)
٧٢,٠٠٠	مسيحيون (أغلبهم عرب)
١٥١,٠٠٠	

وقد ارتفع هذا العدد في سنة واحدة (١٩٤٧) إلى (١٦٤,٥٠٠) وإليك تفصيلهم حسب أجناسهم وتوزيعهم في المدينة :

عرب	يهود	
٣٣,٦٠٠	٢,٤٠٠	في المدينة القديمة (داخل السور) .
٣٠,٠٠٠	٩,٠٠٠	في الجزء العربي من المدينة الجديدة (خارج السور) .
١,٥٠٠	٨٨,٠٠٠	ي الجزء اليهودي من المدينة الجديدة (خارج السور) .
٦٥,١٠٠٠ +	٩٩,٤٠٠ = ١٦٤,٥٠٠	

هذا ما قاله المستر جون مارتن ، المستشار البريطاني في هيئة الأمم ، إلى إحدى اللجان في تلك الهيئة .

اللجنة الإنكلو -أميركية : أن الحادثين اللذين ذكرناهما في الأسطر السابقة (الفقرتان ،٦٢ ٦٣) ؛ ألا وهما : تدخل الولايات المتحدة في قضية فلسطين لصالح اليهود من جهة ، ومجلس الجامعة العربية لصالح العرب من جهة أخرى ؛ قد حفزا بريطانيا إلى سلوك مسلك جديد . فقررت دعوة حكومة الولايات إلى التعاون معها في حل المشكلة . وبعد التشاور قررت الحكومتان تأليف لجنة مشتركة من أعضاء متساوين : إنكليز وأميركيين . مهمتها فحص الوضع في فلسطين وتقديم التواصي إلى الحكومتين ، البريطانية والأميركية ، حول أحسن الحلول لمعالجة المشكلة . وتألفت اللجنة بالفعل من اثني عشر عضواً : نصفهم إنكليز ، والنصف الآخر أميركيون . وقد

عرف معظمهم بكونهم من أنصار الصهيونية .

والغريب في الأمر أن مجلسي الشيوخ والنواب في الولايات المتحدة ، اتخذا قبل أن تبدأ اللجنة عملها ؛ لا ، بل قبل أن يبرح أعضاؤها منازلهم (! . .) قراراً طالبا فيه الحكومة أن تتوسط لدى الدولة المنتدبة كي تفتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية مطلقة ، وتقيم في فلسطين دولة يهودية ديمقراطية .

والأنكى من هذا وأمر ، أن المندوب السامي البريطاني أيضاً أصدر -قبل وصول اللجنة إلى فلسطين- بياناً قال فيه : «إنه ليس من العدل أن تقف الهجرة اليهودية انتظاراً لتوصيات لجنة التحقيق ، ولهذا قررت الحكومة البريطانية الآن وجوب السماح باستمرارها بصفة مؤقته وبالمعدل المقترح ؛ ألا وهو : ألف وخمسمئة مهاجر في كل شهر» .

ومعنى هذا أن (الكتاب الأبيض) الذي وضعته الحكومة المنتدبة قبل بضعة شهور ، وقد شام المعتدلون من أبناء فلسطين من ورائه خيراً! . . . حتى أنهم نصحوا الفئات المتطرفة من بني قومهم ، ألا يرفضوه! . . قد نسف من أساسه ولما يجف المداد الذي كتب به! . . ولهذا لم يتوقع عرب فلسطين أي خير من مجيئها . وفيما كانوا يرسمون الخطط لدرء الخطر عن بلادهم ، أتتهم أخبار تقول : أن لجنة التحقيق الأنكلو -الأميركية بدأت تحقيقها في واشنطن (٤ يناير ١٩٤٦) . وبعد أن زارت لندن وألمانيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وإيطاليا واليونان ، جاءت إلى القاهرة (٢٨ فبراير) حيث استمعت إلى بيانات عبدالرحمن عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية . وجاءت اللجنة بعدئذ إلى فلسطين (٦ آيار) . وبعد أن استمعت في القدس إلى شهادات العرب واليهود ، سافرت (٢٨ آذار) إلى العواصم العربية . فريق من أعضائها زار عمان . وآخر زار دمشق وبيروت ، وثالث زار بغداد والرياض . ثم عادت إلى لوزان حيث وضعت تقريرها . وكان ذلك في (٢٠ نيسان ١٩٤٦) .

وقد أوصت في تقريرها إصدار مئة ألف شهادة هجرة لليهود ، قالت عنهم إنهم من ضحايا الاضطهاد النازي! . . ومما جاء في تقريرها أن أي نوع من الحكم في فلسطين يجب أن لا يستهدف السيطرة : لا سيطرة العرب على اليهود ، ولا سيطرة اليهود على العرب . فإن فلسطين لن تكون دولة يهودية ، ولا دولة عربية . وريثما تتلاشى الشحناء القائمة بين العرب واليهود . أوصت اللجنة أن تبقى فلسطين تحت الانتداب كما هي الآن ، إلى أن يتسنى عقد اتفاق توضع بموجبه تحت وصاية الأمم

المتحدة .

وأوصت اللجنة أيضاً إلغاء نظام الأراضي لسنة (١٩٤٠) . واستبداله بنظام يقوم على سياسة (حرية بيع الأراضي) واستغلالها . وعلى إدارة فلسطين مع ضمان عدم إلحاق الضرر (!) بحقوق ووضع جميع فئات الأهالي الأخرى ، أن تسهل هجرة اليهود في أحوال ملائمة! . .

مؤتمر ملوك العرب في زهراء أنشاص : تأزم الموقف بعد صدور التقرير الذي وضعته لجنة التحقيق الأنكلو-أميركية . فأضرب عرب فلسطين مرة أخرى . وتصاعدت أصوات الاحتجاج والاستنكار من كل مكان : من فلسطين نفسها ومن البلاد العربية المجاورة لها . وعقد في زهراء أنشاص بمصر مؤتمر (٢٨ أيار ١٩٤٦) . حضره ملوك العرب ورؤساؤهم ، فتذاكروا في قضية فلسطين . ومن الذين حضروا هذا المؤتمر فاروق ملك مصر ، وعبدالله ملك الأردن ، وشكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية ، وبشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية ، والأمير عبدالإله الوصي على عرش العراق ، والأمير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية ، وسيف الإسلام ولي عهد اليمن .

وقرر المؤتمرون ، فيما قرروا ، تأييد عرب فلسطين في نضالهم ، وشد أزرهم بالمال وبجميع الوسائل الممكنة . ذلك لأن فلسطين قطر عربي لا يمكن فصله عن الأقطار العربية الأخرى ، وأن مصيره منوط بمصير دول الجامعة كافة ، وأن الصهيونية خطر دائم ليس على فلسطين وحدها ، بل على البلاد العربية كلها ، حتى الشعوب الإسلامية» . كما قرروا بذل كل جهد مستطاع لوقف الهجرة الصهيونية ، والعمل على تحقيق استقلال فلسطين .

هذه هي القرارات التي أصدرها ملوك العرب ورؤساؤهم . وقد أحالوها إلى مجلس الجامعة العربية كي يتخذ الوسائل التي يراها مناسبة لتنفيذ تلك القرارات .

مؤتمر بلودان : واجتمع مجلس الجامعة بعدئذ في بلودان من (٨ إلى ١٢ حزيران ١٩٤٦) . فدرس القضية درساً شاملاً . ودرس معها الكتاب الأبيض وتقرير لجنة التحقيق الأنكلو-أميركية . وأصدر قرارات علنية والأخرى سرية .

أما المقررات العلنية فتتلخص في : استنكار ما جاء في تقرير لجنة التحقيق الأنكلو-أميركية . . ورفض أي شكل من أشكال التقسيم . . وإنشاء لجان للدفاع عن فلسطين في كل دولة عربية . . وإصدار طابع باسم فلسطين يرصد ريعه للقضية

الفلسطينية . . ومقاطعة اليهود مقاطعة تامة في كل دولة . . وطلب المفاوضة مع بريطانيا للوصول إلى حل مرض . .

وأما المقررات السرية التي عرفت فيما بعد فهي :

١ . حث الشعوب العربية على التطوع لنصرة عرب فلسطين بجميع الوسائل : بالمال والسلاح والمجاهدين .

٢ . أن تنفيذ تواصي اللجنة الأنكلو-أميركية يسيء للعلاقات بين إنكلترا وأميركا من جهة والبلاد العربية من جهة أخرى . ولهذا يجب رفضها . وإذا قبلت بها الدولتان : البريطانية والأميركية ، فعلى الدول العربية أن تعيد النظر في علاقاتها مع تلك الدولتين . وعليها في هذه الحالة :

٣ . أن لا تسمح لهما أو لأي كان من رعاياهما بأي امتياز اقتصادي جديد .

٤ . وأن تنظر في إلغاء ما لهما من امتيازات في البلاد العربية .

٥ . وأن تقاطعهما مقاطعة أدبية .

٦ . وأن لا تؤيد مصالحهما الخاصة في أية هيئة دولية .

ومن المقررات السرية التي اتخذت في مؤتمر بلودان رفع الشكوى ضد هاتين الدولتين إلى مجلس الأمن وإلى هيئة الأمم المتحدة .

تلقى الشعب العربي في جميع أنحاء العالم العربي ولا سيما في فلسطين ، هذه المقررات بالرضا والارتياح . وراحوا يتوقعون تنفيذها . ولكن شيئاً منها لم ينفذ . ولا سيما البند القائل بإلغاء الامتيازات السابقة ؛ وهذا يعني ، أكثر ما يعني ، امتيازات النفط . ولو نفذ هذا البند وحده لما وقع التقسيم ، ولما وقعت (النكبة) التي حلت بفلسطين . ولكن الدول العربية المنتجة للنفط -ولا سيما المملكة العربية السعودية- امتنعت عن تنفيذه . فظل النفط العربي يتدفق على الولايات المتحدة وبريطانيا وعلى جميع أنحاء الغرب الذي كان يعمل جاهداً من أجل توطيد دعائم الاستعمار في هذا الجزء من الشرق .

توحيد الأحزاب : ومن الأعمال التي عملها المؤتمرون في بلودان أنهم عملوا على توحيد الأحزاب الفلسطينية . وقد لبى رؤساء هذه الأحزاب رغبتهم ، فأمّوا (بلودان) . أموها كلهم وفي مقدمتهم : أحمد حلمي باشا وعوني عبدالهادي وراغب النشاشيبي ويعقوب الغصين وعبداللطيف صلاح والدكتور حسين فخري الخالدي وجمال الحسيني . وقد اتفقوا جميعاً على أن المصلحة القومية تقضي بتوحيد الجهد .

وقد تعهدوا بأن يقبلوا أي قرار يصدره المؤتمرون . واقترح المؤتمرون إلغاء (الجنة العربية العليا) و(الجبهة العربية العليا) . وتوحيدهما في لجنة واحدة أسموها : (الهيئة العربية العليا) . فقبل رؤساء الأحزاب الفلسطينية هذا الاقتراح . وتألفت الهيئة فوراً : من الحاج أمين الحسيني رئيساً ، وجمال الحسيني نائباً للرئيس ، والدكتور حسين الخالدي سكرتيراً ، وأحمد حلمي باشا وأميل الغوري أعضاء .

ثورة اليهود : إن التواضي التي وردت في تقرير اللجنة الأنكلو -أميركية ، وإن كانت في معظمها -ولا سيما في مواضيع الهجرة والأراضي- لما يرضي اليهود ؛ إلا أنهم لم يكتفوا بها . لأنهم كانوا قد بلغوا من القوة بحيث أصبحوا لا يرضون بديلاً عن قيام دولة لهم في فلسطين . ولهذا قرروا المضي في أعمال العنف والإرهاب . ومن الأعمال التي عملوها ، أنهم راحوا يقتلون الإنكليز حيثما وجدوهم . وخطفوا ستة من الضباط البريطانيين واعتقلوهم . ونسفوا جانباً من فندق الملك داود . ذلك الجانب الذي اتخذته الحكومة مقراً لأعمالها . كما نسفوا الجسور العشرة التي تربط فلسطين بسوريا ولبنان والأردن ومصر . وهاجموا القطارات والمخافر والمستودعات الحكومية .

مؤتمر لندن الثاني : ورأت الحكومة أن تعمل على وضع حل للمشكلة قبل أن يتفاقم الخطب . فدعت الفريقين لمؤتمر عقدته في لندن . وامتد المؤتمر من (١٠ أيلول إلى ٢ تشرين الأول ١٩٤٦) . ولكنه لم يسفر عن أي حل . إذ رفض المندوبون العرب أن يجلسوا مع اليهود على مائدة واحدة . كما رفضوا جميع المشاريع التي عرضت عليهم من أجل تقسيم فلسطين . وكان بين تلك المشاريع ، مشروع وضعه المستر موريسون نائب رئيس الوزراء وهو من حزب العمال . ويقضي مشروعه هذا بتكوين دولتين : عربية ويهودية . وحكومة مركزية مختلطة تسيطر على المنطقتين ، ولها السلطة في شؤون الدفاع والخارجية والجمارك . رفضوه لأنه أقر فكرة التقسيم . أضف إلى ذلك أن القول الفصل في الحكومة المركزية حصر في يد المندوب السامي ، تعاونه هيئة تنفيذية معينة .

مؤتمر لندن الثالث : واستأنف مؤتمر لندن انعقاده مرة أخرى في (٢٨ يناير ١٩٤٧) . واشتركت الهيئة العربية العليا فيه . كما اشتركت فيه وفود الدول العربية الأخرى . وأما اليهود فقد رفضوا الاشتراك فيه وفي أي مؤتمر غيره لا يحقق لهم مطلبهم الوحيد ؛ ألا وهو : قيام دولة يهودية .

مشروع بيفن : وكان آخر اقتراح عرضته الدولة المنتدبة ، هو الاقتراح الذي قدمه

وزير خارجيتها المستر بيفن . إنه وإن كان لا يفرض التقسيم ، إلا أنه يقوم على أساس استمرار الانتداب خمس سنين أخرى . تنشأ خلالها حكومات ومجالس محلية عربية ويهودية تتمتع بالاستقلال الذاتي ، على ألا يؤدي ذلك إلى التقسيم ، وأن تكون الهجرة مختصرة في المنطقة اليهودية حسب قاعدة (الاستيعاب الاقتصادي) . ثم يعاد درس الموقف بعد خمس سنين .

فرفض العرب هذا الاقتراح . كما رفضه اليهود . وتمسك الفريقان بمطالبهما السابقة : العرب يرفضون الهجرة مهما كان عددها ونوعها ، ويطلبون الاستقلال عملاً بمبدأ تقرير المصير . واليهود يصرون على فتح أبواب فلسطين لهجرة غير مقيدة ، ويطلبون قيام دولة يهودية .

الحكومة البريطانية تتخلى عن الانتداب : عندئذ أعلنت الحكومة البريطانية عزمها : التخلي عن الانتداب ، ورفع الأمر إلى الأمم المتحدة ؛ لتقرر ما تراه مناسباً حول مستقبل البلاد . وقد رفعته بالفعل في (٢ نيسان ١٩٤٧) . وفي (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧) أصدرت هيئة الأمم قرارها القائل بتقسيم فلسطين إلى دولتين : دولة يهودية ، وأخرى عربية . وأما القدس ، فقد تقرر تدويلها[١] .

رحيل المندوب السامي خروج الجيش البريطاني : رحل المندوب السامي عن القدس في (١٤ أيار ١٩٤٨) . وما كادت شمس الخامس عشر من الشهر تغيب ، حتى كان آخر جندي من جنود الجيش البريطاني قد رحل . وبرحيلهم ، انتهى العهد البريطاني . ذلك العهد الذي استمر في هذه البلاد ثلاثين عاماً .

---

(١) بعد هذا اقرأ ما كتبته عن الأحداث التي حدثت في القدس بوجه خاص ، وفي فلسطين بوجه عام ، في كتابي : (النكبة) . ذلك الكتاب الذي سجلت فيه جميع الأحداث التي حدثت في فلسطين بعد قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٤٧) .

الباب السابع
القدس
كما رأيتها في مطلع عام ١٩٤٧

- مكانتها بين المدن
- موقعها الجغرافي
- مساحتها
- سكانها
- أحياؤ ها
- سورها
- طقسها
- أمطارها ومياهها
- جبالها وأوديتها
- ابنيتها
- طرقها
- حدائقها
- ملاهيها
- محطات الإذاعة
- مدارسها
- مكتباتها
- متاحفها
- جمعياتها ونواديها
- أمراضها ومستشفياتها
- مجاريها
- صناعاتها
- تجارتها
- أوزانها ومكاييلها
- أسواقها ومخازنها
- شركاتها التجارية
- بنوكها ومصارفها
- خدمات البرق والبريد
- البلدية
- الناحية الإدارية
- مستوى المعيشة فيها

القدس كما رأيتها في مطلع عام ١٩٤٧[(١)]

مكانتها بين المدن : لم تلعب مدينة من المدن القائمة على وجه البسيطة ، الدور الذي لعبته القدس في التاريخ ؛ على الرغم من أنها مدينة لا زرع فيها ولا ضرع . وعرها أكثر من سهلها . ماؤها قليل ليس فيها نهر ولا نبع غزير .

إنها ليست من المدن التجارية الهامة ؛ رغم وقوعها بين البادية من الشرق ، والبحر من الغرب . ولا هي من المدن الصناعية أو الزراعية التي تستطيع أن تكفي نفسها .

ومع ذلك فقد لاقت ، ما لم تلاقه غيرها من المدن ، في الشرق أو الغرب ، من جراء ظلم الطبيعة وظلم البشر . فقد كانت ، على مر الدهور ، مطمح أنظار الغزاة والفاتحين . فحوصرت مراراً ، وهدمت تكراراً ، وهجرت وأعيد بناؤها عشرات المرات في التاريخ . ولكنها ، بالرغم من هذا كله ، ظلت قائمة في هذا الوجود . وظل اسمها مذكوراً في طليعة المدن والبلدان . إنها ، في الحقيقة ، لا شيء وكل شيء . إنها مدينة المتناقضات . . مدينة الأديان . . مدينة الآثار . . مدينة التصنع . . مدينة التعصب . . مدينة السحر والخيال! .

إنها مقدسة في نظر جميع الأديان . وقد لا نعتدي على الحق إذا قلنا ، إن قدسيتها هذه كانت في أكثر الأوقات السبب في شقائها ، وفيما انتابها من رزايا ومحن .

إنك إذا أضفت إلى صفاتها المتقدم ذكرها (وهي اليبوسة والجدب وقلة المياه والاختلافات الدينية) ؛ أجل ، إذا أضفت إلى هذا كله المصائب التي تحملها الجيوش

(١) قد تجد ، أيها القارئ الكريم ، في هذا الفصل ما يرضيك ؛ وقد تجد فيه ما لا يرضيك . وقد ينتابك أحياناً شيء من السأمة والملل ، ولا سيما عندما ترى أنني أسهبت في وصف ناحية من نواحي الحياة القدسية ؛ فتصوب إلي سهام لومك وتقريعك . فرجائي إليك ألا تتسرع في الحكم ، قبل أن تأتي إلى نهاية الفصل . خذ منه حينئذ ما صفالك ، واترك لغيرك ما لا يستسيغه ذوقك . تذكر : أن ما لا يروق في نظرك ، قد يروق لغيرك . وكما أن ما نعتبره اليوم من المسائل الاجتماعية الهامة ، قد تسخر به الأجيال القادمة ؛ فإن ما لا نعبأ به اليوم ، قد يعبأ به أبناء الغد ؛ عندما يقلبون صفحات التاريخ ، ليفاضلوا بين يومهم وأمسهم . .

المحتلة من هدم وتخريب ، وسفك دماء وتدمير ، ومن طرق في الحكم تفرض فرضاً ، أدركت السبب ، لا بل الأسباب التي تجعل ابن القدس أميل إلى العبوس والتشاؤم في حياته منه إلى الفرح وتوقع الخير! .

ومن هنا جاء المثل العامي الذي اشتهر عن القدس .

«ميتها[١] لم ، وعيشتها غم ، وصحبتها أكثر من سنة ما بتم[٢]» .

موقعها الجغرافي : إنها مدينة جبلية واقعة بين البحر الميت من الشرق والبحر الأبيض المتوسط من الغرب . تبعد عن الأول (١٨ ميلاً وعن الثاني ٣٢ ميلاً) . وهي مرتفعة (٣٨٠٠) قدماً عن سطح البحر الميت و(٢٥٠٠) قدماً عن سطح البحر الأبيض المتوسط . وهي واقعة عند تقاطع خط الطول (٣٥,١٥) وخط العرض (٣١,٤٧) .

وهي قسمان : القدس القديمة والقدس الجديدة . يفصل بينهما سور[٣] محيطه ميلان ونصف ميل . وارتفاعه يتراوح بين (٣٨) قدماً و(٤٠) . وأما طوله فمن الشمال (٣٩٣٠) قدماً ، ومن الشرق (٢٧٥٤) قدماً ، ومن الجنوب (٣٢٤٥) قدماً . ومن الغرب (٢٠٨٦) قدماً .

مساحتها : (١٩,٣٣١) دونماً[٤] . منها (٨٦٨) دونماً داخل السور و(١٨٤٦٣) دونماً خارجه . يملك العرب منها (١١,١٩١) واليهود (٤٨٣٥) . وأما الباقي وهو (٣٣٠٥) دونماً ، فإنه عبارة عن طرق وميادين عامة .

يدخل في هذه الأرقام أرض كانت في الأصل من ممتلكات لفتا والمالحة وبيت صفافا وصور باهر وعين كارم وما إلى ذلك من القرى المجاورة . وقد ضمت إلى القدس في السنين الأخيرة ، فأصبحت جزءاً منها .

سكانها : كان عددهم في نهاية (عام ١٩٤٤) (١٥٥,٣١٤) شخصاً : منهم (٣٢,١٢٨) عرب مسلمون و(٢٨,١٤٩) عرب مسيحيون و(٩٤,٩٤٢) يهود و(٩٥)

---

(١) ماؤها .

(٢) لا تستمر .

(٣) إنه هو الذي جدد عمارته الأتراك على عهد السلطان سليمان القانوني (٩٤٣هـ-١٥٣٦م) . وقد ذكرنا بناته الأولين وما ألم به على مر السنين في موضع آخر من هذا الكتاب .

(٤) الدونم الفلسطيني عبارة عن ألف متر مربع . والأرقام المذكورة في هذا الفصل ، اقتبسناها من سجلات مصلحة الأراضي والتسوية التابعة لحكومة فلسطين (١٩٤٧) .

ينتمون إلى أجناس وديانات أخرى .

وفي (٨ نوفمبر ١٩٤٧) كان عدد نفوس مدينة القدس (١٦٤,٥٠٠)[١] موزعون كما يلي :

عرب	يهود	
٣٣,٦٠٠	٢,٤٠٠	في البلدة القديمة .
٣٠,٠٠٠	٩,٠٠٠	في الجزء العربي من البلدة الجديدة .
١,٥٠٠	٨٨,٠٠٠	في الجزء اليهودي من البلدة الجديدة .
٦٥,١٠٠ +	٩٩,٤٠٠ =	١٦٤,٥٠٠

وأما عدد السكان في فلسطين كلها ، فقد كان في عام (١٩٤٦) كما يلي :

العدد	
١,٠٧٦,٧٨٣	مسلمون
٦٠٨,٢٢٥	يهود
١٤٥,٠٦٣	مسيحيون
١٥,٤٨١	آخرون
١,٨٤٥,٥٥٢	

أحياؤها : القدس مؤلفة من أحياء[٢] عديدة . يسمى المقدسيون كل حي منها : (حارة) . ويجمعونها على (حارات) . ومن الحارات المعروفة في المدينة القديمة : باب حطه ، باب السلسلة ، باب العمود ، حارة الشرف ، حارة الواد ، حارة السعدية ، حارة النصارى ، هذه الأحياء كلها بين الأسوار . وهي ، باستثناء حارة النصارى ، أحياء إسلامية بحتة .

---

(١) اقتبسنا هذه الأرقام من تقرير رفعه المستر جون مارتن ، المستشار البريطاني لمندوبي بريطانيا في هيئة الأمم المتحدة بليك سكسس (١٩٤٧) .

(٢) مفردها : (حي) . والحي -كما جاء في (البستان)- البطن من بطون العرب يقع على بني أب واحد ، قلوا أم كثروا .

وأما التي خارج السور فمنها : باب الساهرة ، الشيخ جراح ، كولونية اليونان ، وادي الجوز ، المصرارة ، النبي داود ، ماملا ، دير أبي ثور ، وادي النباح ، البقعة الفوقا ، البقعة التحتا ، الطالبية ، النمرية ، القطمون ، الشيخ بدر ، الراتزبون هذه الأحياء كلها عربية . وأما الأحياء اليهودية فهي في داخل السور : حارة اليهود(١) . وفي خارجه : روميما ، رحافيا (١٩٢٢) ، نحلات صادق ، تزكرت موشه ، تل بيوت (١٩٢٢) ، سنهاداريا ، بي شعنان ، رحاما ، آفونا ، يمين موشه (١٨٦٢) ويسمونها منتفيوري ، جبعات شاؤل ، زكرون يوسف (١٩٢٥) ، بيت إسرائيل (١٨٨٥) ، كرام إبراهام ، نحلات صهيون ، ميكور حايم ، شخونات هابوعاليم ، بيت هاكيرم (١٩٢٢) ، بيت فيغان ، قريان شموئيل ، شعارى حيسد ، ميشورم (١٨٧٥) ، البخاراليه (١٨٩٢) .

سورها : اعتاد الناس أن يقولوا إن سور القدس الحالي بناه السلطان العثماني . . السلطان سليمان الثاني . . المعروف بالقانوني . والحقيقة أنه (أي السور) من آثار الأقدمين : كاليبوسيين والعبرانيين والرومان والبيزنطيين والصليبيين والأيوبيين والمماليك . فما من أمة دخلت القدس واستقرت فيها ولو حيناً من الدهر ، إلا وفكرت في تحصينها ، وإقامة سور من حولها . وكان سورها حيناً يبقى على ما كان عليه من اتجاه ، ويعمر بشكل يجعله أمتن من قبل . وأحياناً كان يتسع ، بحيث

---

(١) يقول الهر كارل رتر الألماني في الصفحة (١٩١) من كتابه The Comparative Geographie of Palestine المطبوع في نيويورك سنة (١٨٦٦) «أن قسماً كبيراً من مساكن اليهود الكائنة في هذا الحي هو وقف للحرم الإسلامي في القدس» . هذا ما قاله الهر رتر عن الحي اليهودي . والذي أعرفه أنا أن تسعين في المئة من منازله من الأوقاف الذرية التي يتصرف بريعها مسلمون من آل النمري ، والجاعوني ، والخالدي ، والحسيني ، والنشاشيبي ، والعلمي ، والقطب ، والعسلي ، والبديري ، والإمام ، والدقاق ، وقطينة ، والشهابي ، والأنصاري ، ونسيبة ، والداودي ، والموسوس ، والديسي ، وأبو السعود ، والطبجي ، والرصاصي ، والموقت ، والزحيمان ، وغنيم ، وأبو معين ، والبشاشتة ، والحريري ، وغيرهم من الأسر المقدسة المعروة من قديم الزمان . وكان المقدسيون فيما مضى يطلقون على هذا الحي : (حارة الشرف) .

يشمل الأحياء الجديدة التي ظهرت مع الأيام[١] ، واتساع العمران ؛ وهكذا دواليك . وفي الفصول التي أوردناها في صفحات سبقت من هذا الكتاب ، ذكرنا كل ما أتى على أسوار هذه المدينة من أحداث : من اليوم الذي بناها فيه اليبوسيون إلى يومنا هذا .

ونريد هنا أن نكتفي بالقول إن القسم العلوي من السور ، كما نراه في يومنا هذا ، هو من صنع الأتراك العثمانيين . وكان سورها في معظم أجزائه ، عندما دخلها هؤلاء ، متهدماً ، فعمره السلطان سليمان . ودامت عمارته خمسة أعوام (١٥٣٦-١٥٤٠) . وبقي السور على حاله أثناء الاحتلال البريطاني (١٩١٧-١٩٤٧) . محيط السور ميلان ونصف الميل ، وارتفاعه يتراوح بين (٤٠,٣٨) قدماً . وله أربعة وثلاثون برجاً . وإحدى عشر باباً : سبعة منها مفتوحة ، يرتادها السكان متى يشاءون . وأربعة أبواب مسددة . أما الأبواب المفتوحة ، فهي : باب الساهرة وباب العمود من الشمال ، وباب الأسباط من الشرق ، وباب المغاربة وباب الخليل من الغرب ، والباب الجديد من الشمال الغربي . وهذا هو أحدث الأبواب .

وأما الأبواب المسدودة ، فهي : باب الرحمة وباب التوبة . وهما بابان كبيران متلاصقان سدا أثناء الحرب الصليبية لأسباب تتعلق بالأمن . إنهما في الحقيقة باب واحد ، في وسطه عمود ضخم يرتكز عليه قوسان من صنع بيزنطي . ويسميه الفرنجة : The Golden Gate أي الباب الذهبي . والمعتقد أن السيد المسيح دخل من هذا الباب إلى منطقة الهيكل في (أحد الشعانين) . وأن هرقل الملك أيضاً دخل المدينة من هذا الباب ، عندما استرد القدس من الفرس . ويسميه المقدسيون في يومنا هذا : باب توما

---

(١) خذ لك ، مثلاً ، حارة النصارى . إن الموضع الذي تقوم عليه الآن ، كان فيما مضى ، وبعبارة أفصح قبل صلب المسيح ، عبارة عن مقبرة واقعة خارج السور . وكان السور يومئذ في تلك الناحية الغربية من المدينة ، لا يتخطى البقعة المعروفة في يومنا هذا : (بسوق خان الزيت) . وإنك لترى الآن أثراً من آثار ذلك السور هناك ، ولا سيما في (دكان زلطيمو) وفي دير المسكوبية المعروف بـ(دير القديس الكسندر نيفسكي) إلى الجنوب من باب خان الزيت . ويعتقد المسيحيون أن هذا هو السور القديم ، وهنا كان الباب الذي خرج منه المسيح ليصلب في الجلجلة . ولما اتسعت المدينة وكثر المسيحيون فيها ونشأ الحي الذي نسميه الآن : (حارة النصارى) ؛ اتسع السور أيضاً ، بحيث راح يشمل هذا الحي .

توما .

ومن الأبواب التي سدت للسبب نفسه : باب الجنائز : إنه في القسم الشرقي من السور . وقد سمي كذلك ، لأن الناس كانوا في العهود الغابرة يخرجون منه بموتاهم بعد أن يصلوا عليهم في المسجد الأقصى ، وهناك في المقبرة الملاصقة للسور يدفنونهم .

وهناك في القسم السفلي من جدار السور ومن الناحية القبلية بابان مسدودان . وكانا ، قبل بناء المسجد الأقصى ، مفتوحين .

هناك كلمات منقوشة بالنسخ العثماني على بلاطات تم تثبيتها فوق الأبواب . وهي تشير إلى السور الذي أنشأه السلطان سليمان ، والأبواب التي فتحها . فالبلاطة التي رأيتها على باب العمود تحمل تاريخ (٩٤٤هـ-١٥٣٧م) وباب الأسباط (٩٤٥هـ-١٥٣٨م) وباب الخليل (٩٤٥هـ-١٥٣٨م) وباب النبي داود (٩٤٧هـ-١٥٤٠م) وباب المغاربة (٩٤٧هـ-١٥٤٠م) .

أما الخندق الذي تراه حول الناحية الشمالية الغربية من السور ، فالذي حفره صلاح الدين (٥٨٣هـ-١١٨٧م) . وأما الحائط الذي يسند الخندق فإنه من صنع السلطان محمود (١١٤٤هـ-١٧٣١م) .

وهناك ، تحت السور ، وعلى مقربة من باب العمود -ومنه إلى الشرق- مغارة كبيرة ؛ هي التي ذكرها مجير الدين ، فأسماها : (مغارة الكتان) . وأما الفرنجة فيسمونها : Cotton Grotto وقد أسماها قبلاً يوسيفوس : المقابر الملكية . وفي الأساطير أنها تمتد (؟) حتى الصخرة التي بني عليها عبدالملك بن مروان قبته . والحقيقة أنها مغارة طبيعية تحت الأرض ، وكانت فيما مضى عبارة عن محجر يقتطع منه السكان ما يحتاجون إليه من حجارة لمنازلهم .

كانت هناك ، حول السور ، ولا سيما عند (باب العمود) مبان ملاصقة للسور ؛ فهدمتها الحكومة (١٩١٩-١٩٢١) بإيعاز من (جمعية محبي القدس) . وهي التي منعت البناء هناك وفي الأطراف الأخرى الملاصقة للسور .

طقسها : طقسها لطيف . وجوها صاف . وهواؤها عليل . إنه من الهواء المعروف بـ(هواء بحر الروم) . يهب عليها من البحر نسيم بليل ، فيلطف حرها في أشهر الصيف ، ويبرد هواءها في الليل . ويكثر فيها الندى ، فيتبلل به وجه الأرض .

الربيع فيها والخريف معتدلان . تتراوح حرارة الصيف بين (٨٦,٧٧) بميزان

فارنهايت . وقد ترتفع إلى (١٠٠) ومتى ارتفعت صحبها هبوب ريح جافة من الشرق والجنوب . وأما في فصل الشتاء فتتراوح درجة الحرارة بين (٥٠,٤٥) .

هواؤها ناشف ، إلا عندما تهب الرياح القبلية ، وهي حارة ، فإنه يكون خانقاً .

لا تهب الرياح الشمالية فيها إلا نادراً . وألطف الرياح هي التي تهب من الشمال الغربي . وأما الرياح الشرقية فإنها ، وإن لم تكن كثيرة الهبوب ، إلا أنها باردة . وأما الرياح الغربية فإنها كثيرة الهبوب في فصل الشتاء . ويعقبها مطر في أكثر الأحيان . أمطارها معتدلة ، ومتقطعة ؛ تظهر خلالها أشعة الشمس ، وتتبدد السحب . وعلى هذه الأمطار يعتمد المقدسيون في شربهم وزراعتهم .

فصل الشتاء يستمر -في أغلب السنين- من شهر ديسمبر (كانو الأول) إلى شهر مارس (آذار) . ويهطل الثلج في بعض السنين . إلا أنه لا يدوم طويلاً .

أمطارها ومياهها : في الفصل الذي أعددناه بـ(مياه القدس في التاريخ) أحصينا كمية الأمطار التي هطلت في القدس في غضون المئة سنة الأخيرة (١٨٤٥-١٩٤٥) ومنه يفهم أن أقل كمية من المطر (٣١١ ميلمتر) هطلت عام ١٩٢٥) . وأكثرها (١٠٩١ ميلمتر) هطل عام (١٨٧٨) . وأن المعدل الوسطى كان خلال الجيل المذكور (٦٢٠) ميلمتراً .

ولنعطيك فكرة عن الأمطار التي تهطل في القدس ونسبتها إلى كمية الأمطار التي تهطل في البلاد الفلسطينية الأخرى ، نثبت فيما يلي رسماً بيانياً اقتبسناه من تقرير رسمي مأخوذ عن أرقام جمعتها مصلحة الزراعة بفلسطين .

بعد هذا دعني أحدثك : من أين تشرب القدس ماءها في يومنا هذا (١٩٤٧) :

تشربه من عيون سلوان ؛ وإني لذاكر منها : عين أم الدرج تبعد ثلاثمئة متراً عن الزاوية الجنوبية الشرقية لسور الحرم . وكانت هذه هي المورد الوحيد الذي ورده قبلنا آباؤنا الأولون .

بركة سلوان : قبلي عين أم الدرج وعلى بعد بضعة أمتار منها . يعتقد أنها هي البركة التي أمر السيد المسيح الرجل الأعمى أن يغتسل فيها بعد أن طلى عينيه بالطين المصنوع من التفله ؛ فاغتسل ، وأبصر .

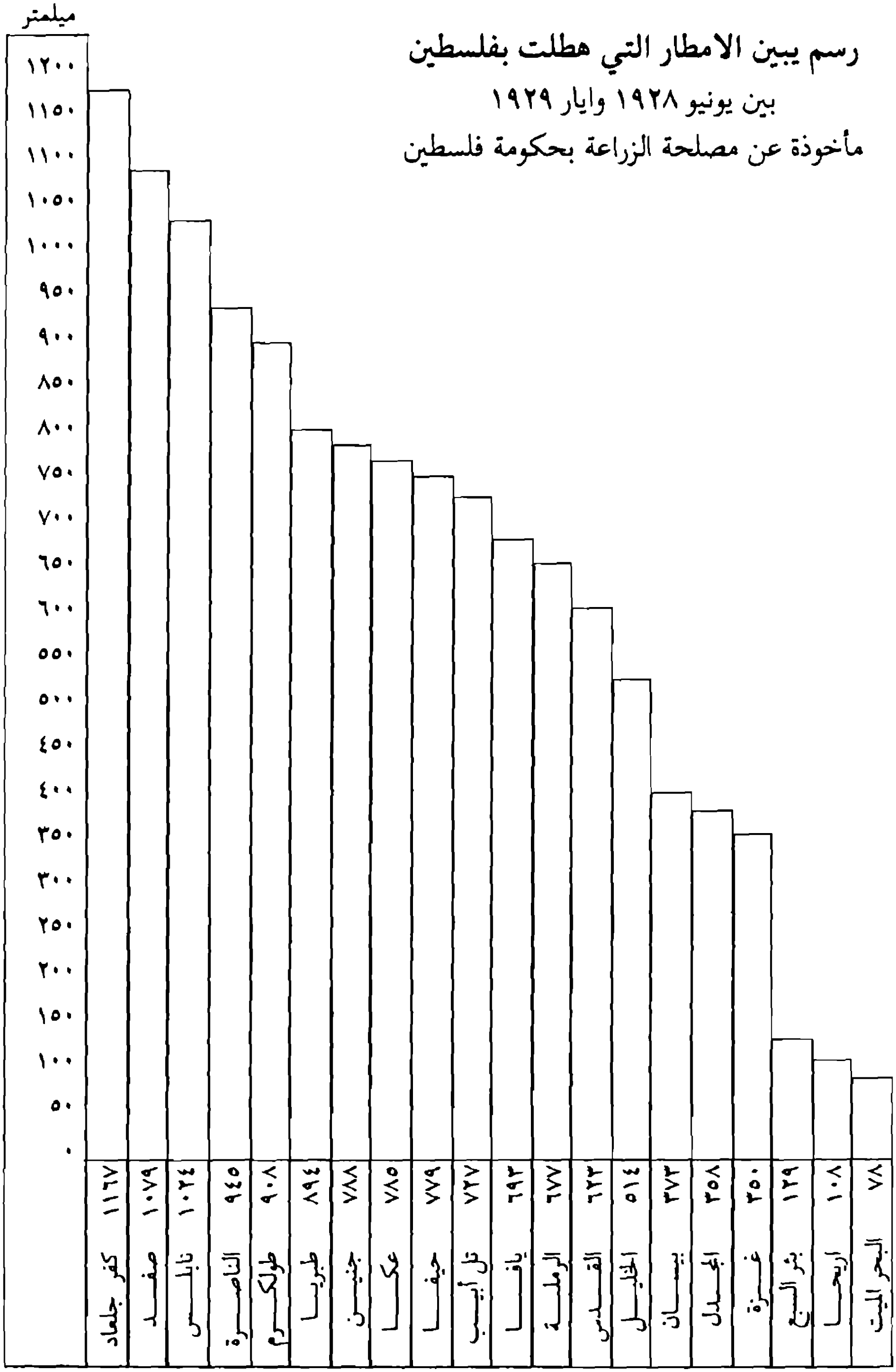
البركة التحتانية إلى الجنوب الشرقي من بركة سلوان وعلى بعد بضعة أمتار منها . ويسمونها أيضاً : البركة الحمراء .

بئر أيوب : وهي بئر كبيرة يتفجر الماء فيها في فصل المطر . تبعد عن البركة

رسم يبين الامطار التي هطلت بفلسطين

بين يونيو ١٩٢٨ وايار ١٩٢٩

مأخوذة عن مصلحة الزراعة بحكومة فلسطين



الحمراء زهاء ألف قدم . ماؤها[1] أعذب من ماء عين أم الدرج .

عين اللوزة : عند اتصال وادي ياصول بوادي النار ، وعلى بعد (٥٣٤) متراً من بئر أيوب إلى الجنوب . يجري فيها الماء الفائض من بئر أيوب . وهو ماء عذب .

وتشرب القدس الماء من برك تتجمع فيها مياه الأمطار . وإني لذاكر منها :

بركة ماملا : وهي أكبر البرك حجماً وأقدمها عهداً . ولقد ساير تاريخها تاريخ المدينة كلها . ففي هذا المكان عسكر الأشوريون عندما هاجموا القدس (٧١٠ق .م) . وفيه ألقى الفرس بجثث المسيحيين الذين قتلوهم (٦١٤م) . وفيه دفن عدد كبير من الصحابة والمجاهدين المسلمين أثناء الفتح الإسلامي (٦٣٦م) . وفيه عسكر صلاح الدين يوم جاء ليسترد بيت المقدس من الصليبيين (١١٨٧) .

بركة حزقيا : واقعة بني سويقة علون وحارة النصارى . ويسمونها أيضاً (بركة حارة النصارى) .

بركة السلطان : غربي سور المدينة وعلى بعد مئة متر من السور . تراها إلى يمينك إذا ما توجهت صوب البقعة ومحطة السكة الحديدية .

وتشرب القدس الماء ، بالإضافة إلى العيون والبرك المتقدم ذكرها ، من آبار الجمع المحفورة في المنازل والبيوت داخل السور . وفي هذه الآبار تتجمع مياه الأمطار . وأكاد أقول : إنه ليس ثمة بيت من البيوت القديمة داخل السور ، إلا وفيه بئر . ويسمونه أحياناً : صهريج . وجمعه صهاريج .

وتشرب القدس أيضاً من عيون وينابيع واقعة في (وادي العروب) و(وادي البيار) و(البالوع) و(أرطاس) . هذه الينابيع واقعة على مقربة من الطريق التي تربط القدس بمدينة الخليل .

أما وادي العروب فإنه يبعد عن القدس زهاء (٢٢) كيلو متراً وعن الخليل (١٤) كليومتراً . وفيه ثلاث عيون هي : فريديس وعد المزرعة والفوار . وماء هذه العيون

---

(١) قال الأب ماسترمان Masterman في كتابه Bible world أنه رأى عندها ، في عام (١٩٠٢) للميلاد ، مئة وعشرين دابة تنشل الماء منها في قرب مصنوعة من الجلد ، وتنقله إلى القدس . وأن هذا العمل تكرر طوال ذلك النهار وفي الليل أيضاً . وقال الدكتور بونار Bonar أنه اسم إسلامي ، وأنه يرجع بالأصل إلى زمن صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس عشر للميلاد ، وأنه هو الذي عمرها وأطلق هذا الاسم عليها .

تنصب في بركة يسمونها : الشط .

وهناك في وادي العروب أربع عيون أخرى ؛ هي : عين البص وعين البرادة وعين قوزيبا وعين الدلبة . إن الماء الذي ينبع من هذه العيون وإن كان لا ينصب في بركة الشط -بسبب انخفاضها- إلا أنه يلتقي بالماء الذي يسيل من تلك البركة ، وينساب كله في اتجاه واحد .

وأما وادي البيار فإنه من أراضي الخضر وعلى بعد (٨) كليومترات من برك سليمان إلى الجنوب .

هناك خمسة ينابيع غزيرة ، ينبع الماء فيها في الصيف والشتاء . ويسيل في قناة اسمها : قناة وادي البيار .

أما الينابيع الخمسة الكائنة في وادي البيار ، فهي : رجم السبيط وراس العد وعين فاغور وخربة القط وعين العصافير .

وأما البالوع ويسمونه أيضاً : عين الخضر . فهو واقع شرقي الخضر عند الكيلومتر (١٣) على طريق القدس -الخليل .

هذه الينابيع الكائنة في وادي العروب ووادي البيار والبالوع ، تصب ماءها في برك سليمان . ومن هذه البرك يخرج الماء ، ويلتقي بمياه عيون أرطاس ، وتسيل كلها في قناة واحدة ، إلى أن تصل بيت لحم ، فالقدس .

أما عيون أرطاس فأربعة : عين عطاف وعين الفروجة وعين صالح وعين البرك .

وأما برك سليمان فإنها ثلاثة ، ويسمونها : برك المرجيع :

البركة الفوقا أعلى من سطح البحر (٧٩٧) متراً ونصف متر .

البركة الوسطى أعلى منه (٧٨٣) متراً وعشرين سانتيمتراً .

والبركة التحتا أعلى منه (٧٦٨) متراً .

وأما القناة التي تسيل فيها الماء ، قبل وصوله إلى القدس ، فإنها قناة رومانية . وقد عمرت في العهود الإسلامية الفائتة مراراً . وكانوا يسمونها : قناة السبيل . وكان الماء الذي يصل إلى القدس عن طريق هذه القناة ، ينصب في آبار حفرت في أرض الحرم ، وفي سبل أنشئت فيه وفيما حوله من أحياء .

حتى هذه البرك والعيون والآبار ، لم تكن كافية لتزويد القدس بحاجتها إلى الماء ، الأمر الذي جعل المجلس البلدي يفكر في موارد أخرى . فسحب الماء من (عين فارة) .

كان ذلك في سنة (١٩٢٦) . وهي تبعد زهاء (١٤) كيلومتراً عن القدس ، ومنها

إلى الشمال الشرقي ، ليست القدس وحدها هي التي تتزود بالماء من هذه العين . فإن مدن وقرى ومؤسسات أخرى أيضاً تعيش من مائها . وإنا لذاكرون منها : قرى الطور عناتا وحزما والعيسوية وشعفاط والرام ومخماس وكفر عقب وقلندية وبيت حنينا ومدينتي رام الله والبيرة وبعض القرى التابعة لهما .

وفي عام (١٩٣١) راحت القدس تتزود بالماء من عين الفوار أيضاً . وهي واقعة على بعد (٦) كليومترات من عين فارة إلى الشرق . وكذلك قل عن عين القلط الواقعة في الوادي نفسه . فقد تزودت القدس بالماء من هذه العين في سنة (١٩٣٤) .

ولما تم مشروع رأس العين في السنة التي تلتها (١٩٣٥) وراحت القدس تتزود بالماء منها ، أهملت مياه عين الفوار وعين القلط ، وراحت تعتمد على مياه رأس العين . واحتفظت بعين فارة لحين الحاجة .

إنها في السهل الواقع بين القدس واللد باتجاه البحر . تبعد عن القدس (٣٧) ميلاً وهي منها إلى الشمال الغربي . وقد سحب ماؤها إلى القدس في مطلع عام (١٩٣٥) .

ماؤها عذب وغزير ، ينبع منها في الساعة الواحدة ما يزيد على مئة ألف غالون . ويجري منها الماء في أنابيب قطرها (١٨) بوصة . وطولها (٦٠) كيلومتراً . وهي مصنوعة من الحديد والفولاذ . وهناك أربع محطات للضخ بين رأس العين والقدس : رأس العين واللطرون وباب الواد وسريس وفي كل محطة ثلاث مضخات كبيرة ، قوة كل واحدة منها (٣٦٠) حصاناً . وعند رأس النبع مصفاة لتصفية الماء ، فيصل القدس ماءً قراحاً .

جبالها وأوديتها : كانوا فيما مضى يقولون إنها قائمة على خمسة تلال هي موريا[١] . اوفل[٢] صهيون[٣] . عكرة[٤] . بيزيتا[٥] . وأما اليوم ، وقد اتسعت القدس

---

(١) الأكمة التي يقوم عليها الحرم القدسي .

(٢) السفح المطل على قرية سلوان من ناحية الحرم .

(٣) التل المطل على بركة السلطان من العرب وقرية سلوان من الشرق . والذي يقوم عليه حي النبي داود في الوقت الحاضر .

(٤) حارة النصارى والسوق الجديد .

(٥) باب حطه وباب العمود وما حولها .

من جميع النواحي ، فجبالها وتلالها أكثر مما كانت عليه في الماضي . ولئن ضربنا صفحاً عن ذكرها كلها ، فإنه لا بد لنا من الإشارة بوجه خاص إلى : الطور ، وسقوبس ، والمكبر ، وجبل صهيون ، والقطمون ، ووعر الضبع .

وإليك بعض المعلومات عن هذه الجبال والتلال :

جبل الطور : ومن أسمائه (طور زيتا) و(جبل الزيتون) . واقع شرقي القدس . وهو أعلى منها بـ(١٩٧) قدماً . تاريخه متصل كل الاتصال بتاريخ المدينة . إنه ، من الناحية الاستراتيجية ، بمثابة الروح من الجسد .

فيه حطت جيوش الرومان رحلها يوم جاءت لفتح القدس بقيادة تيطس . وفيه عسكر المسلمون يوم جاءوا لفتحها . وكذلك فعلت جيوش الأمم التي هبطت هذه المدينة من قبل ومن بعد .

عندما غادر داود أورشليم بسبب الثورة التي أشعل نارها ولده أبشالوم حوالي (١٠٤٩) قبل الميلاد أمّ جبل الزيتون . وفيما كان يصعد نحو القمة من سفحه الغربي التفت إلى أورشليم وألقى عليها نظرته الأخيرة . فراح يبكي .

وكذلك فعل عيسى من بعده (٣٠ ب .م) فإنه كان يتردد إلى هذا الجبل مع تلاميذه . وعندما شعر بأن اليهود ينوون أن يغدروا به غادر المدينة متجهاً نحوه . وفيما كان ينقل خطاه في سفحه الغربي التفت إلى أورشليم التي أقصته عنها ، وخاطبها قائلاً : «يا أورشليم! يا أورشليم! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين! كم مرة أردت أن أجمع أولادك ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها . ولم تريدوا . .» .

والاعتقاد سائد بين المسيحيين بأن السيد المسيح صعد من هناك إلى السماء . وقد بنت الملكة هيلانة فوقه الكنيسة المعروفة بـ(كنيسة الصعود) . وللنصارى على هذا الجبل في يومنا هذا عدة كنائس وأديار . أعني بذلك الأرمن والروم واللاتين والروس والألمان .

إنه مقدس في نظر المسلمين . وهو أحد الجبال التي ورد ذكرها في القرآن . إذ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين[1]﴾ .

ومن الأسباب التي رفعته إلى درجة التقديس ؛ أن الجيش الإسلامي كان

---

(١) روي عن أبي هريرة أنه قال : (التين مسجد دمشق ، والزيتون طور زيتا عند بيت القدس ، وطور سينين حيث كلم الله موسى ، وهذا البلد الأمين مكة) .

معسكراً فيه عندما جاء لاحتلال بيت المقدس . وفيه أقام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . وفيه دفن جماعة من شهداء المسلمين في الفتحين ، العمري والصلاحي ، منهم الصحابي المشهور سلمان الفارسي . ولما قدمت صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم بيت المقدس صعدت عليه وصلت به . وفيه دفنت (رابعة العدوية) المشهورة بأم الخير .

وكانت أشجار الزيتون تغطيه في سالف الأزمان . إلا أن الجراد وبني آدم قد أتوا على هذه الأشجار .

وهناك ، بين القدس وجبل الزيتون ، واد عميق يسميه الفرنجة : (وادي قدرون) واليهود (وادي يهوشافاط) والعرب المسيحيون (وادي ستنا مريم) والعرب المسلمون (وادي جهنم) و(وادي النار) و(وادي سلوان) و(الواد الأسود) .

إنه واد طويل . طوله زهاء ثلاثة كيلومترات . يبدأ بالقرب من حي الشيخ جراح . وينتهي عند (وادي الربابة[1]) قبلي بركة سلوان . والسبب في نسبته إلى جهنم أن الناس كانوا يعتقدون أن الصراط في يوم القيامة سينصب فوقه : من جبل الطور في الشرق إلى سور الحرم في الغرب . ويعتقدون أيضاً أنه تكوّن عندما ﴿زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسا مالها ، بأن ربك أوحى لها . .﴾ إلى آخر ما جاء في الآية . وفي هذا الوادي نفسه وعلى سفح جبل الزيتون من ناحية الجنوب مقابر اليهود . والأرض التي تقوم عليها هذه المقابر هي وقف للمسلمين . وفيه أيضاً قبور المسلمين .

جبل سقوبس : جبل واقع في شمال المدينة ومتصل بجبل الزيتون . لا ، بل إنه معتبر كجزء منه . يسميه المقدسيون : (المشهد) . وله أسماء أخرى منها : الصوانة ، وراس المشارف . عسكرت فيه أكثر الجيوش التي جاءت لفتح المدينة . وفيه مقبرة الجنود الإنكليز الذين لاقوا حتفهم عند احتلالها في الحرب الكونية الأولى (١٩١٧) . وعليه تقوم الجامعة العبرية ومستشفى (هداسا) اليهودي .

---

(١) يمتد هذا الوادي من مكان بالقرب من ماملا إلى بركة السلطان ، ومنها ينحدر باتجاه قبلي المدينة حيث يفصل بين تل صهيون وجبل المكبر ، وفي نقطة وراء بركة سلوان يلتقي بوادي سلوان . ومن أسمائه (وادي حنوم) . وكان اليهود فيما مضى يذبحون أطفالهم فيه ، ويقدمونهم قرابين للآلهة . وأصبح مع الزمان مزبلة المدينة . وفيه قبور منحوته في الصخر .

بينه وبين المدينة من الناحية الشمالية الشرقية واد غير عميق يسمونه : (وادي الجوز) . وفي هذا الوادي ، وعلى سفوح هذا الجبل يقوم عدد كبير من منازل المسلمين .

جبل المكبر : جبل مرتفع كائن قبلي المدينة وإلى الشرق من محطة السكة الحديدية . يفصل بينه وبين جبل الطور وادي سلوان ، وبينه وبين جبل صهيون وادي الربابة .

كانوا فيما مضى يسمونه : (جبل المؤامرة) و(جبل المشورة الفاسدة) . ويعتقد البعض أنه كانت تقوم عليه دار المجمع المعروف بـ(السنهدريم) ، تلك الدار التي قابل فيها يهوذا الاسخريوطي رؤساء الكهنة وقواد الجند ، واتفق معهم على تسليم السيد المسيح . وقيل أيضاً أن قصر قيافا رئيس الكهنة كان فوق هذا الجبل . وفيه اجتمع الكهنة ورؤساء الشعب اليهودي لأجل التآمر على صلب المسيح .

وبجانبه هضبة يقوم عليها ضريح المجاهد الإسلامي المعروف بـ(أبي ثور) . ومن هنا جاء اسم الحي الذي يقوم على هذه الهضبة : حي أبي ثور . والاسم الآخر لهذا الجبل : جبل الثوري .

وأما (أبو ثور) الذي ينسب إليه هذا الجبل والحي الذي يقوم عليه ، فإنه من المجاهدين الذين اشتركوا في فتح بيت المقدس مع صلاح الدين .

ذكره مجير الدين(١) والسيد علي المرتضى(٢) والرحالة الإسلامي مصطفى اللقمي(٣) وعدد آخر من المؤرخين المسلمين . قالوا عنه ما خلاصته : «إن الشيخ الإمام الزاهد العابد المجاهد شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن جمال الدين أبو عبدالله بن عبدالجبار المعروف بالقرشي والمشهور بأبي ثور ، حضر فتح بيت المقدس مع الملك الناصر صلاح الدين . وكان يركب ثوراً . ويقاتل عليه . فسمي بابي ثور» .

وقد وقف عليه الملك العزيز ، أبو الفتح عثمان بن الملك صلاح الدين القرية التي بالقرب من باب الخليل . وهي قرية صغيرة من بناء الروم . كانت تعرف فيما مضى

---

(١) الإنس الجليل (ص٤١٠) .

(٢) بحر الأنساب في الديار المقدسة (ص٧٠ و٧١) .

(٣) سوانح الأنس في رحلتي لوادي القدس . مخطوط (ص١٧٦) .

بدير مار بغوص . وتعرف الآن بدير أبي ثور . ووقف العزيز عليه أيضاً[1] أراضي القمرة الشرقية والغربية وأراضي خربة بيت سمره المجاورة للقرية المذكورة .

بنى الروم على جبل المكبر كنيسة (١٨٧٤) باسم القديس برفريوس .

وبنى الإنكليز عليه ، في عهد الاحتلال ، داراً اتخذوها مقراً للمندوب السامي . كما بنوا عليه الكلية العربية .

جبل صهيون : كان الناس كلهم ، حتى أواسط القرن التاسع عشر ، يعتقدون أن صهيون اليبوسية التي بنى داود بعدئذ مدينته على أنقاضها ، كانت تقوم على التل الواقع قبلي القدس الحالية إلى الغرب . ولكن كثيراً من العلماء راحوا ، بعد ذلك التاريخ ، يشكون فيما إذا كان هذا القول يطابق الواقع . وتأسست في الأعوام الأخيرة (١٨٩٢) نظرية تقول أن صهيون واقعة على جبل أوفل قبلي منطقة الحرم . وهو الذي نسميه الآن بالظهورة ونعتبره جزءاً من سلوان .

وعندي أنه ليس في أي من هذين القولين ما يناقض الآخر . وأن هذا الاسم يشمل المرتفع الذي يمتد من الظهورة في الشرق حتى الأكمة المطلة على بركة السلطان في الغرب .

وعلى هذا المرتفع يقوم الآن الحي الإسلامي المعروف بحي النبي داود . ومدرسة صهيون الإنكليزية التي أسسها المطران (غوبات) . وكنيسة نياحة العذراء (دورميثيون) للألمان -الكاثوليك . وكثير من المقابر المسيحية .

القطمون : من التلال التي تقوم عليها منازل الحي الجديد . وهو واقع غربي المدينة إلى الجنوب . وهناك بينه وبين محطة السكة الحديدية سهل فسيح يسمى (البقعة) . كان هذا السهل فيما مضى خالياً من البنيان في جانب من جوانبه الكروم والبساتين ، وفي الجانب الآخر مسارح الغزلان .

ذكره اللقمي[2] ، فقال : «إن الشيخ الخليلي كان يسكنه يومئذ . وله فيه رياض . وكان بهذا الوادي قصور وبساتين محتها الأيام ، فلم يبق منها سوى الأخبار :

---

(١) اقتبسنا هذه المعلومات من حكم صدر من المحكمة الشرعية بالقدس بتاريخ (١٢٢١هـ-١٨٠٦م) وبتوقيع القاضي السيد أحمد نجيب .

(٢) (سوانح الأنس) ص ١٧٦.

قــفــا بي على الوادي المقــدس برهة
لأنـدب أطـلالاً وهـت وقــــصـــــورا
ولا تعـــذلاني إن بكيـت تأســـفـــاً
فـــقـــد أورثتني قـــبـل ذاك ســــرورا
سـقى الله منهـا مـعـهـداً قـد نزلتـه
قـــرأت بــــه للعـــازفــين سطـــــورا

ظلت (البقعة) خالية من العمران والسكان إلى أن أنشىء الخط الحديدي بين القدس ويافا (١٨٩٢) . حتى أن الشركة التي تولت إنشاء هذا الخط كانت تدفع إلى مشايخ المالحة وباقي قرى بني حسن المجاورة لها مبلغاً من المال يسمونه : (الخاوة) .

وبعد أن تم إنشاء الخط بدأ العمران ، وكثرت المنازل وانتشر السكان في ذلك المكان . وها هي تلك البقعة الممتدة من المحطة في الشرق إلى القطمون في الغرب معتبرة من أجمل بقاع المدينة وأعمرها .

وعر الضبع : هو أحد المرتفعات التي تقوم عليها مدينة القدس في يومنا هذا . وهو كائن إلى الشمال الغربي من المدينة . ويسميه البعض : (وعر اللفاتوه) ، لأنه مطل على قرية لفتا ؛ لا ، بل إنه جزء من أراضيها . عليه تقوم مدرسة شنللر وكثير من الأحياء الجديدة . بينه وبين قرية شعفاط واد عميق يسمونه : (وادي لفتا) . وهو الذي يحد المدينة من ناحيتها الشمالية الغربية .

أبنيتها : جميلة للغاية . كلها من الحجر الصلب . سقوفها في المدينة القديمة مقصورة بالحجارة وأما في المدينة الحديثة فبالإسمنت المسلح . وهناك ، حول القدس ، الحجر الكلسي الاعتيادي . واستعماله شائع في صناعة البناء . وهو ذو أهمية اقتصادية(١) لا يستهان بها ، والحجر الكلسي المتبلور الذي يمكن صقله واستعماله في هذه الصناعة ، وهو مختلف الألوان ، فمنه الأصفر والأخضر والحمر . وهذا الأخير شائع وكثير الاستعمال في صناعة البناء . وليس في مدن سوريا وفلسطين مدينة كالقدس تستطيع أن تتباهى بمبانيها الجميلة المتقنة التي تجمع بين الذوق الجميل والفن الهندسي العربي القديم وبين مطالب العصر الحديث .

طرقها : في المدينة نفسهلا طرق عديدة ، طولها (١٤٦) كليومتراً . منها (٩٦)

---

(١))النظام الاقتصادي في فلسطين) لنجيب حمادة (ص٨١) .

كيلومتراً معبداً ومرصوفاً بالإسفلت . والباقي وقدره (٥٠) كيلومتراً غير معبد ولا مرصوف .

وهناك طرق كثيرة تربط مدينة القدس بالمدن المجاورة : منها طريق القدس - يافا[١] وطريق القدس - نابلس[٢] وطريق القدس -أريحا .

وفيها محطة للسكة الحديدية[٣] ، تربطها بمدينة يافا .

وبلغت نفقات الحكومة في صيانة الطرق والمباني والأشغال الحكومية في فلسطين كلها وفي آخر سنة من سنوات الانتداب (٤٨/١٩٤٧) (٩١٦,٨٠٠) جنيهاً فلسطينياً . وأما موظفو دائرة الأشغال هذه ، فقد بلغت رواتبهم في تلك السنة (٣٥٣,٥٦٦) جنيهاً .

حدائقها : في القدس أربع عشرة حديقة وميدان من الحدائق والميادين العامة . مجموع مساحتها معاً سبعة وسبعون دونماً . وكلها خارج السور .

ومن هذه الحدائق : (حديقة المنشية) على طريق القدس -يافا وعلى بعد بضعة أمتار من عمارة المسكوبية وإلى الجنوب منها . إنها هي الحديقة الوحيدة التي كانت في القدس في العهد التركي . و(حديقة البلدية) على بعد كيلومتر واحد من مقام الشيخ جراح وإلى الغرب منه . و(حديقة الحيوانات) وهي ملاصقة لحديقة البلدية . وهناك (حديقة عامة) أسسها اليهود في حي الراتيزبون (١٩٤٥) .

ملاهيها : أن القدس التي قامت وقعدت في زمن من الأزمان من أجل (القهوة)

---

(١) انشئت لأول مرة سنة (١٢٨٤ للهجرة-١٨٦٧م) .

(٢) بدأ الأتراك في إنشائها سنة (١٩٠٣) وانتهوا منها سنة (١٩٠٧) ولم يكن ثمة طريق معبدة قبل ذلك التاريخ .

(٣) كان أول تخطيط لهذه السكة في سنة (١٨٦٤) قدمه الدكتور زاميل الأميركي الألماني . ومنح امتياز هذا الخط إلى يوسف نافون أفندي في (٢٨ أكتوبر سنة ١٨٨٨) لمدة (٧١) سنة . وقد باع صاحب هذا الامتياز امتيازه من شركة الخطوط الحديدية العثمانية ليافا -القدس وتمديداتها الفرنسية المؤسسة في باريز في شهر كانون الول سنة ١٨٨٩ بمبلغ مليون فرنك . بوشر بإنشاء الخط في نيسان (١٨٨٩) . واستغرق العمل ست سنوات . وانتهى في أيلول سنة (١٨٩٢) . طوله (٨٧) كيلومتراً . وهو خط ضيق منفرد . وعرضه متر . يجتاز (١٧٦) جسراً ، سبعة منها حديدية .

والتي قضى علماؤها أياماً طوالاً يتناقشون[١] فيما إذا كان هذا المشروب الجديد حلالاً أم حراماً ، تعج في يومنا هذا لا بالمقاهي فحسب ، بل والحانات التي تباع فيها جميع أنواع الكحول والمسكرات ، والتي يجري في جنباتها جميع ضروب اللهو والمنكرات ، من جميع الأجناس والشعوب والأديان .

وفي القدس ثماني دور للصور المتحركة (السينما) هي : أديسون ، والشرق ، وصهيون ، وعدن ، وركس ، وريجنب ، وستوديو ، وتل أور ؛ هذا عد الصالة الكبيرة التي تعرض فيها الصور المتحركة أحياناً في بناية جمعية الشبان المسيحية .

محطات الإذاعة : فيها محطتان للإذاعة : واحدة باسم محطة القدس للإذاعة الفلسطينية ، والثانية باسم (محطة الشرق الأدنى) . أما المحطة الأولى فقد أنشأتها الحكومة في آذار (١٩٣٦) وكانت تابعة لمصلحة البرق والبريد العامة . إلا أنها فصلت عنها في عام (١٩٤٥) .

كانت في بادئ الأمر محطة صغيرة يديرها عدد قليل من الموظفين ، في غرفتين من غرف (فندق بالاس) من أملاك الوقف في شارع ماملا . ثم اتسعت في أوائل الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩) . وانتقلت إلى دار استأجرتها من الأحباش في الشارع المعروف بشارع (الملكة مليسنده) . وفيها الآن تسع غرف للإذاعة وخمس للأعمال الهندسية . وتذاع الأخبار والأحاديث عشر ساعات ونصف ساعة من كل يوم : أربع ساعات ونصف باللغة العربية ، وثلاث ساعات ونصف باللغة العبرية ، وساعتان ونصف باللغة الإنكليزية .

تنقل الأصوات من هذه المحطة إلى رام الله . ومنها توزع في الفضاء بواسطة محطة أقيمت لهذه الغاية على بعد بضعة أمتار من دار الحكومة إلى الشمال ، وعلى الطريق المؤدية إلى بئر زيت . وأما مدير الإذاعة فهو إنكليزي[٢] . وكذلك قل عن كبار موظفيها . إلا المذيعين وبعض صغار الموظفين ، فإنهم عرب ويهود .

---

(١) عثر المرحوم الشيخ خليل أفندي الخالدي ، بين أوراق المحكمة الشرعية ، على ورقة جاء فيها ذكر هذا النقاش الذي انتهى بانتصار رأي المفتي الذي أفتى بعدم حرمانية القهوة رغم التحذير البسيط الذي تحدثه لأنها زرعت في اليمن وشربت فيها وفي الحجاز .

(٢) إنه المستر أدوين صموئيل Edvin Samuel ابن المندوب السامي الأول ؛ وهو أيضاً ، كأبيه يهودي وصهيوني صميم .

وفي فلسطين كلها اليوم (٥٨,٠٠٠) آلة راديو . وكان هذا العدد في سنة (١٩٣٦) عشرين ألفاً وخمسماية تقاضت الحكومة عنها رسوماً بلغت مئة ألف جنيه في السنة . ولقد كلفت محطة الإذاعة هذه الحكومة في آخر سنة من سنوات الانتداب (٤٨/١٩٤٧) (١٩٣,٤٣٣) جنيهاً . منها (٥٤,٠٣٨) جنيهاً رواتب للموظفين ، والباقي لشراء الآلات والأدوات .

مدارسها : في القدس (٢٠٥) مدارس لمختلف الأجناس والعناصر والأديان . وفيما يلي أسماؤها وأسماء الطوائف التي تمتلكها ؛ وقد اقتبست ذلك من سجلات مصلحة التربية والتعليم الحكومية بتاريخ (٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥م) .

فيها سبع مدارس إسلامية خصوصية ؛هي : دار الأيتام الإسلامية(١) . مدرسة البنات الإسلامية . كلية روضة المعارف الوطنية(٢) . الكلية الإبراهيمية(٣) . المدرسة

(١) أسس هذه الدار المجلس الإسلامي الأعلى برئاسة المفتي الحاج أمين الحسيني . وكان ذلك حوالي سنة (١٩٢١) . ويتعلم أيتام المسلمين فيها التجارة والطباعة والحدادة وتجليد الكتب وصنع الأحذية والخياطة والحفر والزخرفة والأعمال الكهربائية والميكانيكية وصناعة القش والكراسي وصنع المكانس والحصر . هذا بالإضافة إلى مبادئ القراءة والكتابة والحساب . وينفق عليها المجلس الإسلامي من مال الوقف .

(٢) تأسست سنة (١٣٢٤هـ-١٩٠٦م) . ومؤسسوها الشيخ محمد الصالح والشيخ حسن أبو السعود وإسحق درويش وعبداللطيف الحسيني . فيها قسم ابتدائي ، وآخر استعدادي وثالث علمي . ولها مكتبة ومجلة وجمعية للطلاب . وفيها فرق متعددة للكشافة . وخريجوها يقبلون في المعاهد العلمية بسوريا ولبنان ومصر وتركيا . يؤازرها المجلس الإسلامي الأعلى . فيها قسم داخلي . وبعد أن كان عدد طلابها في القسم الخارجي ، عام ١٩١٨ ، ٧٢ ، وفي الداخل ،١٧ أصبح هذا العدد عام (١٩٣٨) في الخارجي (٢٣٧) وفي الداخلي (٧٠) وانخفض هذان العددان إلى (١٤٥ و٥٠) خلال الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩) . شعارها (العلم العربي) . ولغة التعليم فيها لغة الضاد . وتعنى العناية كلها بإنماء الروح الوطنية من ناحية قومية بحتة .

(٣) أسست هذه الكلية عام (١٩٣١) . كانت في حي المصرارة وهي الآن في حي باب الساهرة . ومؤسسوها الشيخ راشد القاسمي والشيخ عز الدين الشريف وإبراهيم عبدالمعطي بدر . ثم انسحب الشيخ عز الدين وحل مكانه نهاد أبو غربية . وهو اليوم صاحبها ومديرها المسؤول . وقد أضيف إليها ، عام (١٩٣٧) ، قسم داخلي . كانت إبتدائية ، وأصبحت عام (١٩٤١) ، ثانوية . وطلابها يقبلون في الفحوص المعروفة بالمترك . وبين أساتذتها عدد غير قليل من خريجي الجامعات ومن دار العلوم . وبعد أن كان فيها ، عام (١٩٣١ خمسون طالباً أصبح فيها عام (١٩٤٤) خمسمئة طالب ، منهم خمسة وستون داخلياً .

المحمدية . مدرسة الفلاح . مدرسة الحكمة .

وفيها إحدى عشرة مدرسة حكومية عربية (إسلامية ومسيحية) ؛ هي :

الكلية العربية . دار المعلمات . المدرسة البكرية . مدرسة المصراره . المدرسة العمرية . الكلية الرشيدية[١] . مدرسة الشيخ جراح . المدرسة العلوية . مدرسة البقعة . المأمونية[٢] القديمة . المأمونية الجديدة .

وفيها أربعون مدرسة مسيحية خصوصية ؛ هي : المدرسة الاستعدادية للروم الأرثوذكس . المدرسة الأرثوذكسية للبنات . مدرسة السريان الأرثوذكس . مدرسة الأرمن الابتدائية . كلية اللاهوت الأرمنية . مدرسة تراسانطة للبنين . مدرسة تراسانطة للبنات . ميتم تراسانطة للبنين . ميتم تراسانطة للبنات . كلية تراسانطة[٣] . مدرسة الفرير للبنين . كلية الفرير[٤] . مدرسة ماريوسف . ميتم نوتردام دوسيون . مدرسة نوتردام دوسيون . مدرسة الإرسالية الفرنسية . المدرسة الساليزية . كلية

---

(١) في هذه التسمية قولان : قول بأنها سميت (الرشيدية) لأنها بنيت على يد متصرف القدس رشيد بك (١٩٠٦م) في زمن السلطان عبدالحميد ، وهذا هو الأرجح . وآخر يقول إنها بنيت في زمن السلطان محمد رشاد (١٩٠٨م) . ولكنهم حرفوها ، ونسبوها إلى (هارون الرشيد) خطأ .

(٢) هكذا يسميها المقدسيون ، وينسبونها إلى الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد . وفي اعتقادي أن هذه التسمية مغلوطة . وأن الأصل فيها (الميمونية) نسبة إلى الأمير فارس الدين أبي سعيد ميمون ابن عبدالله القصري خازن الملك صلاح الدين وهو الذي وقفها في جمادي الأولى سنة (٥٩٣هـ-١١٩٦م) . اقرأ ما كتبته عن هذه المدرسة في الفصل الذي خصصته لـ(مدارس القدس القديمة) .

(٣) بناؤها شيد من قبل (جمعية القديس بولس) الميلانية عام (١٩٢٦) . وهو واقع بين الطالبية ورحافيا غربي المدينة . والمدرسة أفتتحت في عام (١٩٢٩) . فأحيلت البناية عامئذ للفرنسيسيين . ووضعت المدرسة تحت رعاية جمعية (حراسة الأرض المقدسة) الفرنسيسية .

(٤) College des Freres أسست سنة (١٨٩٢) على عهد بطريرك اللاتين (يوسف فاليرغا) فيها (٧٥٠) طالباً كلهم مسيحيون ، خلا أربعين تلميذاً فإنهم مسلمون . تدرس فيها اللغات الثلاثة : الفرنسية ، والعربية ، والإنكليزية . وفيها مكتبة قيمة .

شميت الألمانية للبنات . مدرسة سان جورج الإنكليزية . كلية البنات الإنكليزية[١] . مدرسة صهيون[٢] . مدرسة كنيسة يسوع للبنات . المدرسة السويدية . مدرسة الأرمن البروتستنت . بستان الروم للأطفال . المدرسة الأرثوذكسية الوطنية . مدرسة الأرمن الكاثوليك . مدرسة سيدة صهيون الإنكليزية . مدرسة الجالية الإنكليزية . مدرسة الأمة . كلية النهضة . مدرسة الشفقة . المدرسة الأسقفية . دار الأيتام السورية (شنللر) . الكلية الأكليركية (الصلاحية) . كلية التجارة والمحاسبة . المعهد الوطني لفن التجارة واللغات[٣] . المعهد العالي للإدارة والسياسة والاقتصاد[٤] .

وفي القدس (٢٧) مدرسة يهودية عمومية تشرف عليها الوكالة اليهودية ؛ وهي :

مدرسة عيروني الابتدائية . مدرسة تحكموني الابتدائية . المدرسة العبرية للبنات (وهي ذات ثلاث شعب) . مدرسة بيت هاكيرم الابتدائية . مدرسة تل بيوت الابتدائية . مدرسة رحافيا الابتدائية . مدرسة شقولي الابتدائية . مدرسة صوقولوف الابتدائية . كتاب البنات المزراحيات (وهو ذو شعبتين) . مدرسة رحافيا للبنات . كتاب بيت مناحيم . كتاب ابناء اليمن . مدرسة دورش صهيون . مدرسة العمال . المدرسة البلدية الابتدائية . مدرسة بيت هاركام الثانوية . مدرسة (بغروت)

---

(١) أسست هذه عام (١٩٢٠) وفي زمن المطران ماكنز Bishop Rennie Mas Innes وقد عمل على تأسيسها كل من جمعية التبشير المسيحية .C.M.S وجمعية يهود لندن .L.J.S والمجمع الكنائسي الوطني بفلسطين ..P.N.C.C

(٢) واقعة وراء الزاوية العربية القبلية من السور ، وعلى بعد بضعة أمتار منه إلى الجنوب . وهي مبنية على أساسات كانت تقوم عليها فيما مضى الأبراج القديمة التي بنيت على عهد اليبوسيين . أسس هذه المدرسة المطران صموئيل غوبات الذي كان مطراناً للإنكليز بالقدس من عام (١٨٤٦ إلى ١٨٧٩) ولذلك تدعى : مدرسة المطران غوبات Bishop Gobat's School .

(٣) أسسه يوسف نعواس (١٩٤٠) . وله ثلاثة فروع في القدس ويافا وحيفا . يرتاده التجار والموظفون .

(٤) أسسه موسى ناصر من بئر زيت (١٩٤٦) . وغايته إعداد أشخاص يصلحون لقيادة الشعب من النواحي الفكرية والسياسية والتجارية والصناعية . ويحتوي منهاجه على قسم كبير من دروس القانون . ويشتمل على ما يحتاج إليه الإنسان من صفات في الأعمال الحرة والوظائف الحكومية . مدة الدراسة فيه أربع سنوات . وهو يرمي إلى إيصال طلابه إلى درجة يحصلون معها على شهادات علمية من درجة (بكالوريوس علوم في الإدارة العامة) .

الاستعدادية . مدرسة (معلى) الثانوية . دار التربية . دار التعليم العبرية . دار المعلمين المزراحيين . دار المعلمات المزراحيات . مدرسة (اليس سالزبرغ) . مدرسة رفقة صوماخ . مدرسة بصاليل الصناعية . وفيها تسعة بساتين اطفال لليهود في كل من : زكرون موشة . يمين موشة . مذكرت موشة . محنة يهودا . شمعون صادق . جبعات شاؤل . بيت هايلد . كرن ابراهام .

وفيها عشر مدارس يهودية خصوصية ؛ وهي : مدرسة افلينادي روتشيلد . مدرسة آكوما الثانوية . مدرسة هوريف . مدرسة الاتحاد الإسرائيلي . مدرسة الحقل الزراعي . المدرسة اليهودية . المدرسة التجارية . دار المعلمات . دار الفنون . المدرسة الزراعية للبنات .

هذا بالإضافة إلى ١٩ مدرسة ابتدائية خصوصية تملكها مؤسسات يهودية مختلفة . وكذلك قل عن ٥ مدارس ثانوية . وداربن لتمرين المعلمات . وست دور للأيتام . و٣٣ داراً لتعليم التلمود . و٣٥ بستاناً للأطفال . جميعها خصوصية .

وإليك فيما يلي مجموع عدد الطلاب والطالبات والمعلمين والمعلمات في المدارس المتقدم ذكرها :

العدد	طالب	طالبة	معلم	معلمة	
٧	المدارس الإسلامية الخصوصية	١١٠١	٢٨٠	٤٦	١٤
١١	المدارس العربية الحكومية	١٩٠٠	١٨٦١	٦٨	٥٧
٣٨	المدارس المسيحية الخصوصية	٤٣١١	٣٥٥٣	١٩٣	٢٦٩
٣٠	المدارس اليهودية العمومية	٤٠٤٣	٥١٨٨	٢٧٧	٢٠٣
٦٩	المدارس اليهودية الخصوصية	٦٦٣٠	٥٣٩٥	٣٦٢	٣٠٧
١٥٥		١٧٩٨٥	١٢٧٧	٩٤٦	٨٥٠

وبعبارة أخرى :

		الطلاب	الطالبات	المعلمون	المعلمات
المسلمون		٣٥٠٢	٢٣٠٧	١٠٧	٥٣
المسيحيون		٣٤١٦	٣٠٩٨	٢٠٠	٢٨٧
اليهود		١١٠٦٧	١٠٨٧٢	٦٣٩	٥١٠
		١٧٩٨٥	١٦٢٧٧	٩٤٦	٨٥٠

وفي القدس جامعة لليهود هي : (الجامعة العبرية) . إنها واقعة على جبل الزيتون . وتعد من أعظم المؤسسات الثقافية اليهودية في الشرق .

إن أول من فكر في تأسيسها هو الدكتور (هرمان شابيرا) Dr. Hermann Schapira أستاذ الرياضيات في جامعة هيدلبرغ بالمانيا . يوم نشر في الصحف ، بين عامي (١٨٨٢ و١٨٨٤) سلسلة مقالات دعا اليهود فيها إلى إقامة جامعة تحفظ تراثهم العلمي والأدبي القديم ، وتسهم في نهضتهم العلمية الحديثة .

وأبدى الدكتور شابيرا رأيه هذا للمؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ، ولكن آراءه بقيت عند حد القول .

وفي عام ١٩٠١ حاول الدكتور وايزمان أن يقنع المؤتمر الصهيوني الخامس ، كي يقوم بدراسة دقيقة ليقرر فيما إذا كان بالإمكان تأسيس جامعة يهودية . ولكن الدكتور هرتسل لم يضع هذا الاقتراح للتصويت . بل اكتفى بأن وعد أن يدرس المسألة في اجتماع المجلس الصهيوني العام .

وفي عام ١٩٠٢ استأنف الدكتور وايزمان مساعيه ، وأسس في جنيف مكتباً غايته السعي لإيجاد مؤسسة للدراسات العالمية . ونشر بياناً بالاشتراك مع الدكتور مارتين بوبر والدكتور برثولد فايول . وفي شهر مايو من نفس السنة رفع الدكتور هرتسل عريضة للسلطان يطلب فيها السماح لليهود بتأسيس جامعة بالقدس .

ولكن السلطان رفض طلب الدكتور هرتسل بتأسيس جامعة في القدس . وفي عام ١٩١٣ أقر المؤتمر الصهيوني الحادي عشر الخطة المرسومة لأجل تأسيس جامعة يهودية . وكان ذلك بناء على طلب قدمه إلى المؤتمر الدكتور اوسيشكن ، وعاضده في ذلك الدكتور حايم وايزمان .

فابتاع اليهود ، وفي تلك السنة (١٩١٣) ، الأرض التي يقوم عليها بناء الجامعة . وفي ٢٤ تموز سنة ١٩١٨ وضع الدكتور وايزمان الحجر الأساسي للبناء . وفي أول نيسان ١٩٢٥ تم تدشين الجامعة .

هذا ولا بد لنا من القول : إن الحكومة لا تسيطر على شؤون التعليم ، لا في هذه الجامعة ، ولا في المدارس اليهودية الأخرى ، سيطرتها على شؤون التعليم في المدارس العربية . ذلك لأن المدارس اليهودية تسيطر عليها المنظمات اليهودية ، وفي مقدمتها الوكالة اليهودية ، وقد نجحت هذه الوكالة في الحصول على (حصة اليهود) من المبالغ التي تخصصها الحكومة للتعليم في موازنتها السنوية . فراحت تدير مدارسها وترسم

مناهج التعليم فيها كما تشاء . وهي (أي الوكالة اليهودية) حرة في تعيين المعلمين ونقلهم وإقالتهم . على النقيض من المدارس العربية التي تسيطر عليها الحكومة سيطرة تامة . فهي التي تعين المعلمين والمعلمات . وتنقلهم أو تقيلهم متى شاءت . وهي التي تسيطر على سير التعليم وليس للعرب (حصة) خاصة ، كما هي الحال مع اليهود .

والأهم من هذا كله : مناهج الدراسة . فقد كانت هذه ترسم للمدارس العربية وفق هدف معين تسيطر عليه الحكومة المنتدبة . وأما المدارس اليهودية ، فلم تتدخل الحكومة في برامجها .

ومصلحة التعليم الحكومية في القدس يقوم على رأسها (١٩٤٧) مدير إنكليزي ، يساعده خمسة من رجال الإنكليز . ويعمل تحت إمرته في الإدارة العامة اثنان وعشرون موظفاً فلسطينياً : اثني عشر منهم عرب مسلمون ، وستة عرب مسيحيون ، وأربعة يهود . وهناك مفتشة إنكليزية تدير شؤون مدارس البنات . وفي الإدارة العامة سبعة وعشرون كاتب وكاتبة : ثلاثة منهم إنكليز ، وخمسة عرب مسلمون ، وسبعة عشر عرب مسيحيون ، ويهوديان .

هذه الآلة الحكومية الموجودة بالقدس مسؤولة لا عن إدارة مدارس القدس فحسب ، بل مدارس فلسطين كلها . ولقد أنفقت الحكومة على مدارس فلسطين وشؤون التعليم في آخر سنة من سنوات الانتداب (٤٨/١٩٤٧) (١,٥٦١,٥٢١) جنيهاً من مجموع نفقاتها التي بلغت في تلك السنة (٢٤,٦٣٥,٠٦٦) جنيها ، ونفقات المعارف هذه تؤلف البند الثالث من بنود النفقات في الميزانية .

ولكن هذه الآلة الحكومية لا تسيطر - كما سبق وقلت - على المدارس اليهودية ، سيطرتها على المدارس العربية . وقد شعر العرب بهذا الغبن ، وكثيراً ما حاولوا رفعه ، ولكنهم عبثاً كانوا يحاولون . ذلك لأن صك الانتداب[١] يفرض على الدولة المنتدبة «أن تضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي . . .» .

وإني لأذكر الآن ، وأنا أخط هذه السطور ؛ أنني قضيت ثلاث سنوات صحاح (١٩٤٤-١٩٤٦) قبل أن أتمكن من إقناع (؟) المدير العام لمصلحة المعارف ، وكان يتولاها يومئذ المستر فرل Wilfrid Jerome Farrell ، كي يقر الاقتراح الذي تقدمت

---

(١) اقرأ المادة الثانية من هذا الصك .

به إليه من أجل فتح (صف أول ثانوي) في مدرسة البيرة الابتدائية . هذا مع العلم أن سكان البيرة والقرى المجاورة لها تبرعوا بالأموال اللازمة لبناء الغرف وتأثيثها ولدفع رواتب المعلمين . وما كانوا في حاجة إلا إلى كلمة واحدة تخرج من فيه ، وهي : نعم! . . ولكنه ما قالها ، ولا بعد أخذ ورد استمرا ثلاث سنين! . . وبعد أن قالها ، راح يرسم مناهج الدراسة في الصف الجديد . وقد رسمه كما يريد! . .

دور الكتب : نذكر لك فيها يلي دور الكتب الكائنة في مدينة القدس .

ذكرناها حسب قدمها ولم ندمج في عددها المكاتب الخصوصية التي يملكها الأفراد من أجل استعمالهم الخاص .

أخذت معظم هذه المعلومات عن كراس نشره مدير الآثار بحكومة فلسطين لمصلحة الصفوف التوجيهية في القدس عام (١٩٤٥) . وقد أضفت إليها شيئاً كثيراً من معلوماتي الخاصة .

عدد متسلسل	اسم المكتبة	تاريخ تأسيسها	عدد الكتب فيها	اللغات
١	مكتبة القديس المخلص	١٥٥٨	٢٥٠٠٠	اللاتينية ، الافرنسية ، الايطالية ، العربية
٢	مكتبة الخليلي	١٧٢٥	٧٠٠٠	العربية
٣	مكتبة البطريركية الارثوذكسية	١٨٦٥	٥٠٠٠	اليونانية ، العربية ، الانكليزية ، الفرنسية
٤	المكتبة الانجيلية الأثرية الافرنسية	١٨٩٠	٢٥٠٠٠	الفرنسية ، الانكليزية ، الالمانية
٥	مكتبة كنيسة القديس جورج	١٨٩٠	٥٠٠٠	الانكليزية ، وفيها كتب يونانية ، ولاتينية ، وعبرية ، وعربية
٦	مكتبة الجامعة العبرية	١٨٩٢	٤٦٠٠٠٠	الانكليزية ، العبرية ، الافرنسية ، الالمانية ، العربية .
٧	مكتبة الجمعية الروسية الارثوذكسية			الروسية ، العربية

٨	المكتبة الخالدية(١)	١٩٠٠	١٢٠٠٠	العربية ، الانكليزية ، الفرنسية ، الفارسية ، التركية
٩	مكتبة المدرسة الامريكية للبحث عن الآثار الشرقية	١٩٠١	٧٠٠٠	الانكليزية ، الالمانية ، العبرية
١٠	مكتبة المعهد الألمانية الانجيلي لدراسة البلاد المقدسة في العصور الوسطى	١٩٠٢	٤٠٠٠	الالمانية ، الافرنسية ، الانكليزية
١١	مكتبة بصاليل الصناعية	١٩٠٦	١٤٠٠٠	الانكليزية ، العبرية ، الالمانية ، الافرنسية ، الروسية
١٢	مكتبة الكلية العربية(٢)	١٩٢٠	٧٠٠٠	العربية ، الانكليزية
١٣	مدرسة الآثار البريطانية	١٩٢٠	٢٥٠٠	الانكليزية ، الافرنسية ، الالمانية
١٤	مكتبة مصلحة الزراعة	١٩٢٠	٣٦٠٠	الانكليزية ، العربية
١٥	مكتبة مصلحة المعارف	١٩٢٠	٢٥٠٠	الانكليزية ، العربية
١٦	مكتبة القوانين المركزية لمحكمة العدل العليا	١٩٢٥	٣٠٠٠	الانكليزية ، العربية ، العبرية ، الافرنسية
١٧	مكتبة المسجد الأقصى	١٩٢٧	١٨٠٠	العربية
١٨	مكتبة المتحف الفلسطيني	١٩٢٨	١٧٠٠٠	الانكليزية ، الافرنسية ، العربية ، الالمانية
١٩	مكتبة الأباء اليسوعيين	١٩٢٨	٣٥٠٠	الانكيزية ، الافرنسية ، الالمانية ، الايطالية ، الاسبانية
٢٠	مكتبة مدرسة نيومن للارساليات	١٩٢٨	٣٠٠٠	الانكليزية ، العربية ، وفيها بعض الكتب الافرنسية والالمانية

(١) أنشأها الشيخ راغب الخالدي بمال تبرعت به أمه السيدة خديجة بنت موسى الخالدي . وعمل على ترتيبها المرحوم الشيخ طاهر الجزائري وكان يومئذ يعيش في القدس منفياً .

(٢) بعثرت هذه المكتبة عندما اشتد القتال بين العرب واليهود (١٩٤٧) ونهب اليهود بعض الكتب القيمة التي كانت فيها . أما معظم الكتب فقد نقلت إلى الرشيدية في الجزء العربي من المدينة بعد وقف القتال .

				والايطالية
٢١	مكتبة غولبنجيان طوريان ، اسم البطريرك طوريان ماديناثاران	١٩٢٩	٢٧٠٠٠	الارمنية ، الانكليزية ، الافرنسية
٢٢	مكتبة الدراسات الانجيلية الفرنسيسية	١٩٢٩	٥٠٠٠	اللاتينية ، الانكليزية ، الالمانية ، الافرنسية ، الايطالية
٢٣	مكتبة أورشليم (بني بريث)	١٩٣٠	١٥٠٠٠	العبرية ، الانكليزية ، الالمانية
٢٤	مكتبة جمعية الشبان المسيحية	١٩٣٣	٢٢٠٠٠	الانكليزية ، العربية
٢٥	مكتبة دار التمرين على الخدمات	١٩٣٤	٦٠٠٠	الانكليزية ، الالمانية وفيها بعض الكتب الافرنسية والعبرية والتشكية والبولونية
٢٦	مكتبة شوقن	١٩٣٥	٤٠٠٠٠	العبرية ، الالمانية ، الانكليزية
٢٧	مكتبة مصلحة الإحصاءات	١٩٣٦	٨٢٠٠	الانكليزية
٢٨	مكتبة معهد الأبحاث الاقتصادية التابع للوكالة اليهودية	١٩٣٦	٤٠٠٠	الانكليزية ، الافرنسية ، العبرية ، الالمانية
٢٩	مكتبة مصلحة الاذاعة الفلسطينية	١٩٣٦	١٨٠٠	الانكليزية ، العربية ، العبرية
٣٠	مكتبة المركز الثقافي الافرنسي	١٩٣٧	٤٠٠٠	الافرنسية
٣١	مكتبة يشورون	١٩٣٩	٤٠٠٠	العبرية ، الالمانية ، الانكليزية
٣٢	مكتبة العمال	١٩٤٠	٥٥٠٠	العبرية ، الانكليزية
٣٣	مكتبة المجلس البريطاني	١٩٤٤	٦٠٠٠	الانكليزية
٣٤	مكتبة دائرة المطبوعات	١٩٤٤	٩٠٠	الانكليزية

وهناك مكتبات أخرى ، لا أعرف متى تأسست . وأكثرها يخص بعض الأسر القديمة ، وقد أصابها البلاء . وإني لذاكر منها :

المكتبة الفخرية : كانت قسماً من الزاوية الفخرية ملك آل أبي السعود . وهي عائلة معروفة النسب تقطن القدس منذ نيف وسبعة قرون . وكانت هذه المكتبة غنية بمخطوطاتها الدينية والفلكية . وكان عدد الكتب فيها يقدر بنحو عشرة آلاف مصنف . غير أن أفراد العائلة اقتسموا هذه المصنفات فيما بينهم . فبعثرت .

مكتبة الشيخ خليل الخالدي : أسسها المرحوم الشيخ خليل الخالدي وهو رئيس

سابق لمحكمة الاستئناف الشرعية . إنه من الأئمة الأعلام اصطفاه الله إلى جواره سنة ١٩٤٥ وقد جمع فيها ما يقرب من خمسة آلاف مخطوط كلها من المخطوطات العربية القيمة . ولكنها -ويا للأسف- محفوظة في يومنا هذا في صناديق مقفلة .

مكتبة آل البديري : مكتبة نفيسة فيها مخطوطات كثيرة قسمها الأكبر في عهدة أحد أبناء هذه العائلة الشيخ محمد أفندي البديري . والقسم الآخر في حوزة غيره من أفراد عائلته التي قطنت القدس منذ أكثر من ستماية سنة . ومكتبة آل البديري في الحرم الشريف . وقد بعثرت كتبها .

مكتبة آل قطينة : فيها بعض المخطوطات التاريخية . وفيها مصنفات عديدة في الرياضيات . واقعة بباب العمود . أصحابها آل قطينة من العائلات القديمة . ذكروا في مستندات القرن التاسع للهجرة . وقد بعثرت كتبها .

مكتبة آل الموقت : أسسها الشيخ أحمد بن محمد يحيى الشهير بالمحدث . وهو مغربي الأصل من مراكش . كان فيما مضى مفتي القدس . وفي وقفيته المؤرخة (١١٨١هـ-١٧٦٧م) قدرت أثمان الكتب التي تركها بتسع وخمسين ألف زلطة . تبعثرت كتبها ، فنقل بعضها إلى المكتبة الخالدية ، وأخذ بعضها الآخر الشيخ طاهر الجزائري فنقله إلى دار الكتب بدمشق .

مكتبة عبدالله مخلص : إنها مكتبة قيمة . فيها كتب علمية وأخرى تاريخية . وفيها بعض المخطوطات . كانت في منزله بحي الشيخ جراح . وعندما اكفهرجو السياسة بسبب التقسيم نقلت إلى دير القربان على مقربة من الباب الجديد . ولما نسف ذلك الدير أثناء القتال ، بقيت الكتب تحت الأنقاض . حاولت إقناع الجنرال رايلي كبير المراقبين الدوليين كي يسمح لأصحابها ، برفع الكتب من تحت الأنقاض ولكنه رفض . بحجة أن اليهود لا يسمحون لعربي أن يدنو من ذلك المكان! . .

وفي القدس عدد من المكتبات التجارية ، عربية وإفرنجية . بعضها داخل السور ، والبعض الآخر خارجه . منها ما تعنى ببيع الكتب فقط ؛ ومنها ما تعنى ببيع الصحف والمجلات والقلم والقرطاس ، بالإضافة إلى بيع جميع أنواع الكتب ؛ وإنا لذاكرون منها : مكتبة الأندلس التي تولت طبع هذا الكتاب ، ومكتبة بيت المقدس ، ودار الكتب ، ومكتبة فلسطين ، ومكتبة صندوقة ، ومكتبة المعارف ، ومكتبة النهضة ، ومكتبة لورنس ، ومكتبة الشناوي ، ومكتبة اليرموك ، ومكتبة المنار ، والمكتبة العالمية .

ولست أغالي إن قلت : إنه قبل أن يطبع في الشرق أو في الغرب كتاب ، ويذيع

صيته ، إلا وتجده في إحدى هذه المكتبات ؛ ولا سيما إذا كتب أو ترجم بإحدى اللغات الحية .

متاحفها : في القدس متحف حكومي للبحث عن الآثار وحفظها . أنشىء بمال وهبه (١٩٢٧) الثري الأميركي الشهير روكفلر J. D. Rockefeller ورصد لهذا المشروع مليونين من الدولارات . صرف منها نصف مليون للبناء ونصف مليون للتأثيث وشراء الكتب . واحتفظ في بنوك إنكلترا بمليون ليصرف ريعها على إدارة المتحف . والذي تولى عمارته هو كبير المهندسين الحكوميين المستر هاريسون A. St. B. Harrisom, F. R. I. B. A. وافتتح المتحف للجمهور سنة (١٩٣٨) . وهو كائن تجاه الزاوية الشرقية الشمالية للسور ، وعلى بعد بضعة أمتار منه ، بين الحي المعروف بوادي الجوز وباب الساهرة . فيه مجموعة قيّمة من النقوش والحجارة والآثار الفلسطينية وفيه أيضاً مكتبة قيمة ذكرناها في موضع آخر تقوم في أحد أجنحته مصلحة الآثار الحكومية بمديرها وموظفيها وأكثرهم إن لم نقل كلهم من الخبيرين في علم التاريخ والآثار .

وفي (٢٢) نيسان (١٩٤٨) (أي قبل أن يرحل الإنكليز عن فلسطين) عين المندوب السامي مجلس أمناء على هذا المتحف من اثني عشر عضواً ، اثنان انتدبهما هو (أحدهما بريطاني والثاني أميركي) ترك أمر تعيينهما للجامعة العربية ، وواحد تنتخبه الجامعة العبرية ، والسبعة الآخرون من الطوائف المختلفة .

وهناك (المتحف الإسلامي) أسسه المجلس الإسلامي سنة (١٣٤١هـ-١٩٢٣) في مكان لائق من الأبنية التابعة للمسجد الأقصى . يحتوي على مجموعة قيمة من الخزف القاشاني النفيس ، ومجموعة من النقوش العربية بالقلم الكوفي ومنها ما يرجع إلى أوائل القرن الرابع الهجري ، ونموذجان من النوافذ القديمة المصنوعة من الجاص والمرصعة بالزجاج الملون مما صنع برسم قبة الصخرة ، ومجموعة من المصاحف الشريفة بعضها يرجع إلى أواخر القرن الأول للهجرة مكتوب على رق بالقلم الكوفي ، ومجموعة من النقود الإسلامية بعضها يرجع إلى سنة (١٥٢) للهجرة ، وعدد وافر من الدراهم الفضية والنحاسية والأوزان الزجاجية وما إلى ذلك . ومجموعة من الطنافس والبسط والأواني الإسلامية القديمة .

جمعياتها ونواديها : بلغ عدد الجمعيات والنوادي التي تسجلت في القدس في بدء الاحتلال البريطاني حتى نهاية عام (١٩٤٥) ألفين وثلاثة وعشرين . منها ما هو أدبي وثقافي ، ومنها ما هو رياضي ، ومنها ما هو خيري ، ومنها ما تأسس لمصلحة

طائفية بحتة سواء أكانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية . أن (٨٥) بالمئة من هذه الجمعيات والنوادي فلسطينية و(١٥) بالمئة أجنبية . ومن الجمعيات والنوادي الفلسطينية (٣٠) بالمئة منها إسلامية و(٢٠) بالمئة مسيحية و(٣٥) بالمئة يهودية .

وفيها سبعون جمعية تعاونية أكثرها لليهود . وهذه الجمعيات تعمل على تكتيل أرباب العمل والعمال وأصحاب المتاجر والمشاغل والصناعات المختلفة وصيانة حقوقهم . كان يتولى تسجيلها في بادئ الأمر ، مسجل الشركات الاعتيادية ، وفي سنة (١٩٣٣) عهد بهذا الأمر إلى (مسجل الجمعيات التعاونية) .

ومن الجمعيات التي يشار إليها بالبنان في بيت المقدس : جماعة الإخوان المسلمين وجمعية الشبان المسيحية .

-جماعة الإخوان المسلمين فإنها منبثقة عن الجماعة التي أسست في الإسماعيلية بمصر حوالي سنة (١٩٣٠) . ومؤسسها (الشيخ حسن البنا) . كان مدرساً بالمدارس الأميرية بالإسماعيلية . ويسمونه اليوم (المرشد العام) . والذي حدا به لتأسيسها فكرة خطرت في ذهنه ترمي إلى توحيد جهود المسلمين وتوجيههم التوجيه الصحيح ، ليتمكنوا من درء الشر الذي يحيق بهم والمضي قدماً إلى الأمام في سبيل تحقيق مثلهم العليا .

فما لبثت هذه الفكرة أن انتشرت في جميع أنحاء مصر . وصار لها أتباع كثيرون ومؤازرون يعدون بالملايين . وها هي تسري إلى البلاد الإسلامية المجاورة .

ولقد تأسست (جماعة الإخوان المسلمين) بالقدس سنة (١٩٤٥) ورأت من تشجيع سكان بيت المقدس والمدن المجاورة له ما شجعها على المضي بعملها . فمضت . وكبرت . واتسعت إلى أن أصبح ينضوي تحت لوائها اليوم آلاف من المسلمين شيباً وشباناً . وتأسست جماعات مثلها في يافا وغزة والرملة واللد ونابلس وخان يونس وبئر السبع والناصرة وعكا وسلوان وغيرها من البلدان .

جمعية الشبان المسيحية : ويرمزون إليها عادة بالأحرف التالية : Y.M.C.A. جمعية تأسست في القدس حوالي عام (١٨٧٦) . إنها تأسست على غرار جمعية الشبان المسيحيين بلندن حوالي عام (١٨٤٤) . هذا ثابت من القانون الأساسي الذي وضعه القس ب . كنعان والد الدكتور توفيق كنعان بتاريخ (٨ يناير ١٨٧٨) .

بتاريخ (١٠ نوفمبر ١٨٩٠) انتخب جورج ويليامس George Williams مؤسس أول جمعية للشبان المسيحيين في العالم (لندن ١٨٤٤) ، رئيساً لها . وقد تبرع هذا

لجمعية القدس بمبالغ وفيرة . وكانت يومئذ ذات فرعين : فرع إنكليزي -عربي وآخر إنكليزي -يهودي . ثم انفصل فرع القدس العربي عن الجمعية المركزية (١٨٩٢) فوضع لنفسه دستوراً ، وأصبح مستقلاً .

كانت الجمعية ، في بداية عهد تأسيسها ، تجتمع في دكان لبيع الكتب تابعة لجمعية التبشير بالقدس على طريق يافا . ثم انتقلت إلى الطابق العلوي من العمارة الكائنة بباب الخليل والتابعة لدير الروم . ثم انتقلت إلى دكان على طريق ماملا . ثم إلى العمارة القائمة تجاه بنك باركلس على طريق يافا . وفي سنة (١٩٠٩) انتقلت الجمعية إلى العمارة الكائنة شمالي الطريق المؤدية إلى ماملا . ثم (١٩٢٠) إلى عمارة كائنة على طريق يافا .

وفي سنة (١٩٠٩) كان سكرتير الجمعية مستر ستوارت دوني ثورن Mr. Stuart Donnithorne وعلى عهده ازداد عدد أعضائها من (٤٠) إلى (٢٠٠) .

ولما نشبت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤) أغلقت الجمعية أبوابها في مدينة القدس خشية أن تعرض نفسها لريبة الأتراك ، وراحت تعمل في صفوف الجيش البريطاني الذي اعتزم فتح فلسطين فأثبتت كيانها في المحطات التي احتلها الجيش المذكور في القنطرة والروماني وبئر العبد ، والمزار ، والعريش ورفح ، وخان يونس ، ودير البلح . وعندما احتل اللورد اللنبي القدس راحت تستأنف عملها في مقرها الذي تركته عند نشوب الحرب . وكان من أهم أغراضها يومئذ إرشاد الأشخاص الذين كانوا يفدون إلى القدس من جميع أنحاء الإمبراطورية إلى الأماكن والأبنية الأثرية الكائنة في المدينة المقدسة .

في (١٩٢٠) تولى سكرتيرية الجمعية الدكتور هارت Dr. A. C. Harte سكرتير اللجنة الدولية لجمعيات الشبان المسيحية في أميركا الشمالية . وعلى عهده تبرع (١٩٢٤) صديق له يدعى مستر جيمس نيو بيكن جارفي James Newbegin Jarvie من مدينة مونتيلر من أعمال نيوجرزي بأميركا بالمبلغ اللازم لأجل بناء دار للجمعية على الطراز الحديث وهي الدار التي تقيم فيها الجمعية في الوقت الحاضر (١٩٤٦) وتحمل اسمها على شارع جوليان في الناحية الغربية القبلية من المدينة وفي الحي المعروف بالنيكيفورية .

إن الأرض التي تقوم عليها دار جمعية الشبان المسيحيين كانت في الأصل ملكاً لدير الروم الأرثوذكسي . اشترتها اللجنة الدولية لجمعيات الشبان المسيحيين في

أميركا الشمالية ثم وهبتها إلى جمعية القدس . ولقد اشترك في هذه الهبة المجلس الملي البريطاني وفريق من يهود مانشستر .

وفي (٢٣) أغسطس (١٩٢٦) بدأت عمليات الحفر ، وفي (٢٣ تموز ١٩٢٨) وضع اللورد بلومر المندوب السامي الثاني لفلسطين الحجر الأساسي للبناء . والمهندس الذي تولى أمر البناء هو المستر آرثر لوميس هارمون من نيويورك Arther Loomis Harmon ولقد ساعد في عمله هذا المكتب الهندسي التابع لجمعيات الشبان المسيحيين في الولايات المتحدة ، وأعضاء مجلس الإدارة والهيئة المحلية التي ألفت في القدس لأجل الإشراف على أعمال البناء .

عندما اعتزل الدكتور هارت العمل في (١٩٣٠) تولى السكرتيرية بالوكالة أحد مساعديه المستر نيقولاي لاطوف Mr. Nicholas M. Lattof ثم تولاها أصالة وفي نفس السنة المستر والدو هاينريخ Waldo H. Heinrichs .

إن دار الجمعية من أجمل عمارات المدينة . إنها تحتوي مئة غرفة . منها الطابقان العلويان وهما المخصصان لنزول الزائرين وفيهما (٨٢) غرفة (٦٤ ذات سرير واحد و١٨ ذات سريرين) . وفي كل منهما غرفة استقبال وعدد كاف من المراحيض والحمامات .

وللبناية برج مرتفع يسمونه (برج المسيح) يشرف المرء منه على جميع أنحاء المدينة . وفي البرج خمسة وثلاثون جرساً ، أكبرهما يزن طناً ونصف طن . وقد نقشت عليه الكلمات التالية :

«المجد لله في العلى ، وعلى الأرض السلام» .

وفيها بهو واسع وجميل ، ومعبد ، وغرف عديدة للقراءة والجلوس . وقاعة واسعة للمحاضرات فيها ستماية واثنين وسبعين مقعداً . وغرف للألعاب الرياضية ومكتبة فيها اثنان وعشرون ألف مجلد من الكتب القيمة . وحمام للسباحة طوله عشرون متراً ، وعمقه يتراوح بين أربعة أقدام وتسعة . ويتسع لخمسة وخمسين ألف من الجالونات .

البناء من الطراز البيزنطي القديم الذي بنيت على نسقه أكثر كنائس الشرق الأدنى مع شيء من التعديل يتلاءم وطلبات العصر الحديث ، ولقد نقشت على واجهته الأمامية الكتابات الثلاثة التالية ، تمثل الأديان الثلاثة المنشرة في القدس وهي :

لا إله إلا الله (باللغة العربية)
لا إله إلا الله (باللغة العبرية)
لا إله إلا الله (باللغة الأرامية)

وفي داخل العمارة آيات كثيرة من الإنجيل وصور تمثل حياة السيد المسيح في أكثر نواحيها .

وهناك جمعيات عديدة للبحث عن الآثار ، منها : مدرسة الآثار البريطانية ، وجمعية البحث عن الآثار الفلسطينية The Pal. Exploration Fund, The British Sch. of Archeology والمدرسة الفرنسية للبحث عن التوراة والآثار القديمة Ecole Biblique et Archeologique Francaise The والمعهد الشرقي لجامعة شيكاغو Oriental Institute of The Uneversitu of Chicago والجامعة العبرية ، والجمعية اليهودية للبحث عن الآثار الفلسطينية ، والمعهد الشرقي الألماني ، والمعهد الإنجيلي الألماني للبحث عن آثار القرون الوسطى في البلاد المقدسة Deutches Evangelishes Institute Fur Alterthumwissenschaft des Heiligen Landes والمدرسة الأميركية للبحث عن الآثار الشرقية American School of Oriental Re- search وإليك ما نعرفه عن هذه المدرسة :

في عام (١٨٦٨م) هبط القدس عالم أميركي يدعى الدكتور إدوارد روبنسون Dr. Edward Robinson اهتم بدراسة آثارها . وفي عام (١٨٤٨) هبطها الملازم لينش Wm. E. I,ynch وكان على رأس بعثة أميركية جاءت لتدرس وادي الأردن والبحر الميت . ثم هبطتها البعثة الأميركية الفلسطينية التي يرأسها الدكتور روزويل د . هتشقوق Dr. Roswell D. Hitchcock رئيس كلية الالهيات في الولايات المتحدة .

وفي عام (١٨٩٥) قام الأستاذ ثاير Thayer يحث أصدقاءه وزملاءه على تأسيس مدرسة أميركية لدراسة الآثار الشرقية بفلسطين . فلبى هؤلاء نداءه وما كاد ينقضي على هذا النداء خمسة أعوام حتى تأسست المدرسة (١٩٠٠م) وكان يديرها الدكتور شارل كتلر توري Dr. Charles Cutler Torrey من ييل ، برعاية مجلس من الأمناء يمثلون الجمعيات الثلاث الآتي ذكرها وهي التي أمدتها بالعون والمال :

١ . جمعية الآثار الأميركية .
٢ . الجمعية الشرقية الأميركية .
٣ . جمعية التوراة الأدبية .

ثم تولى إدارة هذه المدرسة الدكتور ويليام ف . آلبرايت من سنة (١٩٢٠) إلى (١٩٢٩) ومن سنة (١٩٣٣) إلى (١٩٣٦) .

وفي سنة (١٩٠٩) تولاها الأستاذ روبرت هاربر Robert F. Harper من جامعة شيكاغو . وفي عهده اشتريت الأرض التي بنيت عليها المدرسة .

وفي سنة (١٩٢٥) أنشىء بناء المدرسة الحالي بفضل الدكتور جيمس ب . نيس Dr. James B. Nies وقرينته . وفي (١٩٣١) أضيف إلى ذلك البناء جناح من الناحية القبلية . واتخذ هذا الجناح منزلاً لسكن المدير .

إنها قائمة على قطعة من الأرض مساحتها أربعة دونمات . في أجمل بقعة من بقاع المدينة . وعلى بعد ربع ميل من باب الساهرة إلى الشمال . تدار كما تدار الجمعيات التعاونية . ويشترك في إدارتها ستون كلية وجامعة من الكليات الإلهية والجامعات العلمية في الولايات المتحدة وفي كندا وتدفع كل واحدة منها مبلغاً معيناً من المال في كل سنة . وفي سنة (١٩٢٩) تبرعت مؤسسة روكفلر بمئتين وخمسين ألف دولار . وفي سنة (١٩٣٩) تبرعت المؤسسة نفسها بثلاثمئة وخمسين ألف دولار .

في المدرسة مكتبة تحتوي على ثمانية آلاف وخمسمئة مجلد . هذا خلا الكتب التي تخص مدرسة الآثار البريطانية والموجودة في البناء نفسه . وفيها نزل ينزل فيه العلماء وطلاب الجامعات المتقدم ذكرها الذين يهبطون الأرض المقدسة بقصد دراسة آثارها القديمة .

أمراض القدس ومستشفياتها : لم نعثر في كتب التاريخ القديم على أخبار واضحة عن الأمراض التي كانت معروفة في مدينة القدس وفيما جاورها من ديار ؛ خلا ما قرأناه هنا وهناك -وإنه لنذر يسير يكاد لا يبل الغلة- عن انتشار (الطاعون) . وكان الأقدمون يصفونه بقولهم ، إنه وباء ذو حمى شديدة الحرارة خبيثة تفسد به الأمزجة والأبدان . و(الكوليرا) وكانوا يسمونها الهيضة ؛ وهي انطلاق البطن . وكثيراً ما سمعنا عن (وباء) انتشر هنا وهناك! . وقضى على السكان! . دون أن يذكر المؤرخ نوع الوباء! ، وما إذا كان الوباء الذي حدث في سنة من السنين كالوباء الذي حدث قبل بضع سنين! . أضف إلى ذلك أنا لم نعثر ، ولا مرة ، على أرقام تشير إلى مبلغ الخطر الذي تعرض له السكان سوى قولهم : إن الوباء قضى على خلق كثير! . .

من ذلك مثلاً ، ما قاله مجير الدين عندما ذكر أحداث عام (٨٧٣هـ-١٤٦٨م) في الصفحة (٦٢١) من كتابه (الأنس الجليل) . إذ قال : «إن الوباء تفشى عامئذ في

مدينة القدس ، فأصاب الناس ضرر عظيم»! . . ولم يقل لنا مجير الدين أي نوع من الوباء هو الذي أصابهم ؛ وإن قال أنه (أي الوباء) استمر أربعين يوماً ، وأن الأموات كانوا يغسلون ليلاً ويحملون إلى صحن الصخرة ، ومن هناك ينقلون إلى المقابر حيث يدفنون .

وعاد في صفحة أخرى من صفحات كتابه -عندما ذكر أحداث سنة (٨٨١هـ-١٤٧٦م)- فقال : «إن الوباء انتشر بالقدس في تلك السنة ، واستمر تسعة شهور . ومات من جرائه خلق كثير» .

وكثيراً ما كان المرء يقضي نحبه بمرض من الأمراض ، فيسأل الناس عن مرضه وعن الأسباب التي أدت إلى موته ؛ فيقال لهم : أوجعه بطنه! . فمات! . وقد يكون لوجع البطن هذا صلة بالمعدة أو الأمعاء أو المرارة أو الكبد أو أي نوع آخر من الالتهابات الباطنية . أو السل والسرطان . . وما إلى ذلك من الأمراض التي لم تكن معروفة في ذلك الزمان .

ولم يكن ثمة شيء يقال له : (إحصاء) . وكانت أول مرة عرفت فيها مدينة القدس إحصاء المواليد والوفيات بطرق علمية لا بأس بها ، في أوائل القرن العشرين . وإنا لذاكرون فيما يلي أرقاماً اقتبسناها من السجلات الرسمية لدائرة الصحة الحكومية عن المواليد والوفيات ، وعن الأمراض المعروفة أكثر من غيرها في مدينة القدس ، وعن عدد الأشخاص الذين أصيبوا بها وماتوا من جرائها ، في عدد من السنين :

المرض	١٩٢٨		١٩٣٠		١٩٣٣		١٩٣٥		١٩٣٧	
	اصابات	وفيات	اصابات	وفيات	اصابات	وفيات	اصابات	وفيات	اصابات	وفيات
النزلة الصدرية	١٧٢	١٤٦	١١٨	٨٩	١٥٤	١٢٧	١٥٧	١٣٦	١٢٨	١٢٦
التدرن الرئوي	١٢٢	٦٣	٧٦	٥٢	٦٨	٥٧	١٥٢	٤٦	١٠٢	٤٧
التيفوئيد	٢٧٩	٣٢	١٦٤	٧	٢٤١	١١	٢٧٣	٢٧	٣٦٦	٢١
مرض الزهري	١٧٤	٣	١٥٨	٥	٢٠٧	٧	٩٧	٤	١٤٣	١
الجمرة	٥٣	٦	٣٦	٦	٤٤	٩	٥٨	١٨	٢١	٣
الحصبة	٦٨	٤	٩١	٨	١١٢	٩	١٠٢	٤	٢٩	٥
الديزنتارية	٩٥	٦	٥٧	١	٣٦	٥	٣١	٢	٣٥	٤

داء الخانوق	٢٨	٢	١٧	٣	١٧	-	٤٦	١٠	٢٧	٩
السعال الديكي	١٤٠	١	١٥	-	٤٥	٣	٤	١	٥٠	١
الحمى النفاسية	١٤	٧	٤	١	٨	٣	٨	٦	٧	٣
الالتهاب السحائي	-	-	-	-	١	١	٤٤	١٩	٢	٢
الالتهاب الحاد في الاعصاب	٧	٢	٢	١	٣	٢	١	١	١	١
الكزاز	٣	١	٣	١	٢	١	٢	٢	٨	٥
الجذام	٣	١	٤	١	٧	-	٢	٢	٧	٦

وتعرف القدس من الأمراض أيضاً الإنفلونزا ، والحمى القرمزية ، والحمى المعروفة بالمالطية ، والجمرة والملاريا والتيفوس .

وفيما يلي نذكر لك نسبة المواليد والوفيات لجميع الأجناس والطوائف التي تعيش في بيت المقدس .

عام	المواليد	الوفيات
١٩٢٥	٢٣٣٧	١٤٣٥
١٩٢٦	٢٥٤٩	١١٦٤
١٩٢٧	٢٧٢٥	١٤٩٣
١٩٢٨	٢٩٧٠	١٤٥٤
١٩٢٩	٣٠٨٣	١٣٢٧
١٩٣٠	٣٢٠١	١٢٨١
١٩٣١	٣٣٨٥	١٣٣٧
١٩٣٢	٣٢٦٥	١٤٨٥
١٩٣٣	٣٤٠٢	١٥٠٣
١٩٣٤	٣٤٨٩	١٦٠١
١٩٣٥	٣٩٧٣	١٨٠٨
١٩٣٦	٣٩٧٧	١١٦٠
١٩٣٧	٣٤٤١	١٣١١
١٩٣٨	٤٠٩٠	١٩١٦

عام		
١٩٢٥	١٥٧	في الالف
١٩٢٦	١١١	في الالف
١٩٢٧	١٢٠	في الالف
١٩٢٨	١٢٣	في الالف
١٩٢٩	١٠١	في الالف
١٩٣٠	٩٧	في الالف
١٩٣١	١٠٤	في الالف
١٩٣٢	١١٧	في الالف
١٩٣٣	١٠٧	في الالف
١٩٣٤	١٠٥	في الالف
١٩٣٥	٩٣	في الالف
١٩٣٦	٩٦	في الالف
١٩٣٧	٩٢	في الالف
١٩٣٨	٩١	في الالف

هذا عن الأمراض . وأما عن المستشفيات فقد ذكرنا في الفصول السابقة المستشفيات التي عرفتها القدس في تاريخها . ولا سيما في العهود الفاطمية والصليبية والصلاحية . ونود الآن أن نذكر لك أسماء المستشفيات القائمة في القدس[١] في يومنا هذا (١٩٤٧) :

مستشفى مار يوحنا : لأمراض العيون . مطل على وادي حنوم من الشرق وبركة السلطان من الشمال . واقع في منتصف الطريق[٢] التي تربط محطة السكة الحديدية بباب الخليل . وله فرع في سوق الحصر بالمدينة القديمة داخل السور .

أسس في زمن الصليبيين . وفي قول أن نواته كانت مغروسة هناك منذ العهد البزنطي . وأما بناؤه الحالي على طريق المحطة فقد أنشىء في عام (١٨٨٢م) . وقد أدى

(١) ذكرناها هنا حسب تاريخ تأسيسها .

(٢) الأرض التي بني عليها هذا المستشفى منحهم إياها السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٨٢) .

لمدينة القدس وما جاورها من ضياع خدمات جلى ، ولا سيما من حيث أمراض العيون . عدد الذين عولجوا فيه في عام (١٩٤٦) مئة وخمسون ألفاً بعد أن كانوا في بدء تأسيسه سبعة عشر ألفاً . وتديره الآن جمعية بريطانية يسمونها : The Order of The Hospital of St. John

المستشفى الروسي واقع في المسكوبية خارج السور . بناه الروس سنة (١٨٥٩) بنوه لأنفسهم ولمن يفد إلى القدس بقصد الحج من أبناء روسيا . وهو أول بناء يقوم خارج السور في أواخر العهد العثماني . وكانت القدس محصورة قبل ذلك ضمن الأسوار .

اتخذته حكومة فلسطين بعد سقوط القدس بيد البريطانيين (١٩١٧) مستشفى لموظفيها . ثم صار للناس أجمعين . وقد أطلق عليه بعد ذلك التاريخ : مستشفى الحكومة . . وأما المرضى من البريطانيين ، فقد أعدت لهم عمارة خاصة هي التي تراها إلى يمينك وأنت تجتاز باب المسكوبية من الشرق .

المستشفى المورافي ويسمونه مستشفى البرص مخصص لمداواة المجذومين . واقع بين حي الطالبية والكولونية الألمانية . يديره الدكتور توفيق كنعان من أطباء بيت المقدس باسم الجمعية المورافية بلندن والبناء لبلدية القدس . وقد بنته في عام (١٨٦٧) . وتمده الحكومة بالمال .

(المستشفى الفرنسي) ويسمونه أيضاً مستشفى القديس لويس . بني عام (١٨٨٠) . واقع شمالي المدينة القديمة وعلى بعد بضع خطوات من السور عند الباب الجديد . تمده الحكومة الفرنسية بالمال .

مستشفى الإرسالية الإنكليزية ويسمونه أيضاً مستشفى جمعية يهود لندن . بناه مطران الإنكليز جورج فرنسيس بوبهام بلايث . وكان ذلك حوالي سنة (١٨٨٧) . والغاية من تأسيسه مساعدة اليهود ، ولا سيما أولئك الذين يراد تنصيرهم . إنه واقع في حي النبي عكاشة وسط الأحياء اليهودية غربي المدينة .

المستشفى الألماني من أكبر المستشفيات في المدينة . عند مفترق الطرق المؤدية إلى رحافيا وشنلر وباب العمود . بني عام (١٨٩٤) . ويسميه المقادسة : مستشفى المجيدي ، ذلك لأن كل مريض يدخله كان عليه أن يدفع ريالاً مجيدياً عثمانياً . أغلق في الحربين العالميتين : الأولى والثانية . ففي الأولى استعمله الإنكليز مستشفى لجنودهم . وفي الثانية ثكنة عسكرية .

المستشفى الإيطالي : على طريق القديس بولس . . . عند مفترق الطرق المؤدية إلى باب العمود وباب الخليل وحي مياشورم بني حوالي عام (١٩١٠م) إنه من أكبر المستشفيات القائمة في المدينة الجديدة خارج السور . وله برج يطل على جميع أطراف المدينة .

مستشفى الهوسبيس : واقع على درب الآلام عند مفترق الطرق المؤدية إلى باب العمود وحارة الواد . بناه في الأصل النمسويون نزلاً لإمبراطورهم فرنسوا جوزيف . وقد نام فيه ليلة عندما زار القدس سنة (١٨٦٩) . ولكنه لم يستعمل كمستشفى إلا في أواخر الاحتلال البريطاني .

مستشفى بيت صفافا : بنته حكومة فلسطين في أراضي بيت صفافا . وخصصته لمعالجة الأمراض السارية . إنه واقع في مكان قريب من مفترق الطرق المؤدية إلى بيت صفافا وبيت لحم والقدس .

ولليهود في القدس مستشفيات ، نذكر منها :

مستشفى المجانين : إنه عبارة عن ملجأ للمجانين والمعتوهين . أسسته جمعية يهودية تدعى عزرات نشيم . لا يقبل اليهود فيه أحداً من المرضى ، إلا إذا كان هذا من أبناء جنسهم . وهو واقع غربي القدس في الحي المعروف برحافيا .

وللحكومة مستشفى للمجانين واقع في بيت لحم ، يقبل فيه المرضى من جميع الأجناس .

مستشفى روتشيلد : وقد سمي بعدئذ : مستشفى الهداسا . كان قبل الاحتلال البريطاني يقوم في عمارة خارج السور ، بين المسكوبية وكنيسة الحبش . ولكنهم بعد الاحتلال نقلوه إلى عمارة ضخمة بنوها على جبل الزيتون . وكان ذلك في أوائل الاحتلال البريطاني . إنه الآن أكبر المستشفيات القائمة في المدينة .

مستشفى تيخو : للعيون . أسسته جمعية يهودية تدعى (لمعان صهيون) . وكان ذلك في سنة (١٩٠٦) . ولما كان يديره طبيب للعيون يسمى تيخو ، فقد أطلقوا هذا الاسم على المستشفى أيضاً . إنه واقع قبالة المستشفى الإيطالي ، عند مفترق الطرق المؤدية إلى مياشورم والشيخ جراح .

وهناك مستشفيات أخرى . نذكر منها :

مستشفى ولخ . ومستشفى مزغاب لادخ . ومستشفى سادوفسكي . ومستشفى

بيكور خوليم . كلها واقعة غربي المدينة خارج السور . إلا المستشفى الأخير وهو (بيكور خوليم) فإن له فرعين : أحدهما خارج السور ، قبالة المستشفى الألماني ؛ والآخر في الحي اليهودي داخل السور .

وفي القدس اليوم جمعية طبية يسمونها (الجمعية الطبية العربية . إنها فرع من فروع الجمعية الطبية العربية الفلسطينية التي تأسست عام (١٩٤٤) . إنها في الحقيقة وليدة الجمعيات الطبية التي كانت في القدس . فقدتأسست فيها ، في ابتداء الحقبة الرابعة من القرن الحالي ، جمعية طبية كانت تعرف آنذاك بالجمعية الطبية لخريجي جامعة بيروت الأميركية . وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) أصبحت تعرف بالجمعية الطبية العربية . وفي عام (١٩٤٤) تقرر تأليف جمعية تضم جميع الأطباء العرب الفلسطينيين وأسميت هذه (الجمعية الطبية العربية الفلسطينية) ولها فروع في القدس ، وحيفا ، ويافا ، ونابلس ، وغزة ، وبعض المدن الفلسطينية الأخرى .

رئيسها الدكتور توفيق كنعان ، وأمين سرها الدكتور محمود طاهر الدجاني .

ولها مجلة تصدر مرة في كل شهرين . نصفها باللغة العربية والنصف الآخر بالإنكيزية .

وقد ساهمت هذه الجمعية في جميع المؤتمرات الطبية السنوية التي عقدت في العواصم العربية .

واعترف بها دولياً فاشتركت مع كثير من الجمعيات الطبية في العالم من أجل خير البشر .

وفي القدس مصلحة حكومية تعني بـ(الصحة العامة) . يديرها مدير إنكليزي . وأطباء بريطانيون يساعدهم أطباء فلسطينيون : مسلمون ومسيحيون ويهود .

وبلغت نفقات هذه المصلحة في فلسطين كلها وفي آخر سنة من سنيّ الانتداب (٤٨/١٩٤٧) (١,١١٠,٦٤٤) جنيهاً . وهذا البند هو الرابع من حيث الضخامة بين بنود النفقات التي تكبدتها الحكومة في تلك السنة .

مجاري القدس : كل ما كنا نعرفه ، في أواخر القرن التاسع عشر ، عن طريق تصريف الأقذار في المدينة القديمة أن هناك مجرى قديم ، وأن هذا المجرى الذي أنشأه الرومان ينتهي عند سلوان . وظل وضع المجرى غامضاً إلى أن شاء القدر ، فانخفض جانب من الطريق عند باب القطانين من الغرب بفعل السيول والأمطار (١٩٣١) . ولما قامت البلدية تسعى لتعمير المكان المنخفض ، ظل عمالها يحفرون في الأرض إلى أن

عثروا ، على عمق مترين وتسعين جزء من مئة من المتر من سطح الأرض ، على قطعة من الأرض مرصوفة بالبلاط المعروف بالمزي والمصقول صقلاً جيداً . طول البلاطة يتراوح بين المتر ونصف المتر وثخنها ثلاثون جزءاً من مئة المتر . فاعتقدوا[1] أنها جزء من شارع قديم ، عرفوا من حجارته ومن نوع الفخار الذي وجدوه هناك أنه من صنع الرومان في القرن الرابع للميلاد . ثم راحوا يتعمقون بالحفر في المكان نفسه . وظلوا يحفرون إلى أن عثروا على آثار شارع آخر . وهذا أيضاً مرصوف بالبلاط . ولكن بلاطه أقل صقلاً من الشارع الأعلى . وبين الشارعين ، الأعلى والأسفل ، متران وعشرة أجزاء من مئة من المتر .

ومما يجدر ذكره أنهم وجدوا ، على جانب الشارع الأسفل من الناحية الغربية ، مجرى عرفوا من حجارته ومن نوع الفخار الذي عثروا عليه هناك ، أنه من صنع الرومان في القرن الأول للميلاد .

وفي سنة (١٩٤٢) حدث ، بالقرب من باب المغاربة وبفعل السيول والأمطار ، انخفاض آخر في الأرض . ولما شرعت البلدية في تعمير المكان المنخفض عثر عمالها على جزء آخر من المجرى الروماني المتقدم ذكره . فحفر على أثر ذلك ثلاثة أنفاق .

الأول بداخل السور ، في الساحة الكائنة إلى الغرب من الخاتونية وإلى الجنوب من حارة المغاربة ، وعلى بعد مئة متر تقريباً من جدار الحرم إلى الغرب . والثاني في الأرض المحاذية للسور من الداخل ، وإلى الغرب من باب المغاربة . والثالث بين النفقين المتقدم ذكرهما ، وعلى بعد مئة متر من النفق الأول . والرابع خارج سور المدينة من الناحية القبلية .

ولقد عثروا في النفقين الأول والرابع على آثار الشارع والمجرى اللذين اكتشفا عند باب القطانين سنة (١٩٣١) واللذين ذكرناهما في الأسطر المتقدمة .

أما الشارع فعرضه عشرة أمتار وثلاثون جزءاً من مئة من المتر . وهو مرصوف ، كما قدمنا ، بالبلاط المعروف بالمزي والمصقول صقلاً جيداً وعلى جانبيه مصرف مفتوح تسيل فيه مياه الأمطار ، وهو عبارة عن تجويف بسيط عرضه ثلاثون جزءاً من

---

(١) أي أن سطح الأرض في يومنا هذا وفي ذلك المكان أعلى منه على عهد الرومان بما لا يقل عن خمسة أمتار .

مئة من المتر[١] .

وأما المجرى فإن الشطر الأكبر منه مبني بالحجارة الكلسية ، والآخر محفور بالصخر . عرضه متر ، وارتفاعه متر ونصف . ولا شك في أنه كان لوضع المدينة وتكوينها الطبيعي دخل كبير في تخطيطه . إذ إنه أتبع الأماكن المنخفضة في المدينة . وما كان هناك مكان أكثر انخفاضاً من الوادي الذي كانوا يسمونه يومئذ : (وادي التروبين) ونسميه في يومنا هذا (الواد) . وبعبارة أخرى إن المجرى الروماني القديم يقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب ، فيبدأ عند باب العمود ، ثم يمر بحارة الواد وباب السلسلة وحارة المغاربة ، إلى أن ينتهي عند القرية المعروفة بسلوان قبلي المدينة .

هذا هو المجرى الأساسي . وكانت له مجار فرعية تصل ما بينه وبين أحياء المدينة الأخرى . لكن هذه الفروع ليست من الحجم والضخامة بالدرجة التي وصفناها في الأسطر المتقدمة .

انتفعت المدينة من هذا المجرى قرابة خمسة عشر قرناً . ولقد ظهر من الحجارة المتنوعة التي استعملت في بنائه أنه رمم ، بعد عهد الرومان ، مراراً وتكراراً . وهناك آثار تدل على أن يد التجديد والترميم عملت على صونه وإبقائه بعد الفتح الإسلامي ، وفي العهد الصليبي ، وفي زمن الأيوبيين ، والمماليك والأتراك أيضاً . ودلت تلك الآثار على أن المجرى الأساسي أصابه ، أثناء ترميمه ، شيء من التغيير والتبديل من حيث الاتجاه ونوع البناء .

ويظهر أن القسم الواقع شمالي السور من المدينة الجديدة والكائن بين باب العمود والمصرارة فالكرم المعروف بسعد وسعيد ، كان ، في أواخر العهد التركي ، مرتبطاً بالمجرى الروماني المتقدم ذكره .

ولقد بوشر ببناء مجار على الطراز الحديث حوالي سنة (١٩٢٠) . فأنشىء عامئذ القسم الواقع بين باب الخليل وفندق اللنبي على بعد نصف ميل من الباب المذكور إلى الغرب . وعند باب الخليل تم اتصاله بالمجرى القديم .

ثم شرع بإنشاء المجاري العمومية على مقياس واسع في المنطقة الشمالية الغربية وهي المنطقة التي تشتمل على الأحياء الآتي ذكرها : ميشورم ، بيت إسرائيل ، شارع بينا ، شنللر ، كرم رصاص ، طريق الحبس شارع تشانسلور ، روحاما ، شارع ماملا ،

---

(١) يفهم من هذا أن شوارع المدينة القديمة كانت ، في تلك العهود أوسع وأنظم منها في يومنا هذا .

القسم الواقع بين دار القنصلية الأميركية والمركز التجاري القسم الكائن بين مقبرة ماملا وفندق الملك داود ، القسم الكائن بين محنة يهودا وباب الخليل من شارع يافا ، قسم من وادي الجوز الكائن بين جبل الزيتون والمتحف الفلسطيني ، المنطقة الكائنة بين معسكر الجيش المعروف بكمب اللنبي على طريق بيت لحم وبركة السلطان .

وحفرت البلدية ، حوالي سنة (١٩٣٨) ، مجرى كبير لتصريف الأقذار ؛ يبدأ عند باب العمود من خارج السور ، فيمر بوادي الجوز بين المتحف الفلسطيني وجبل الزيتون ، ومن هناك يسير باتجاه الجسمانية ، فوادي قدرون ، إلى أن ينتهي عند وادي السواحرة قبلي قرية سلوان .

ولقد حدثني الخبراء أن طول المجاري الكائنة في مدينة القدس في يومنا هذا (١٩٤٧) ستة وخمسون كيلومتراً . ثمانية منها من النوع المعروف بالمجاري القديمة (ستة في داخل السور واثنان في خارجه) . وثمانية وأربعون منها من النوع المعروف بالمجاري الحديثة . والمجاري الحديثة مرتبطة بالمجرى الروماني القديم . وهي عبارة عن قساطل مصنوعة من الخزف المدهون ، ذات قطر يتراوح بين الست بوصات والأربع والعشرين بوصة . أتي بها من إنكلترا وألمانيا .

وينفق على إنشاء المجاري العمومية من أموال البلدية . وأما المجاري الفرعية (أي التي تربط المنازل بالمجاري العمومية) فيتولى الإنفاق عليها أصحاب المنازل ولا تتقاضى البلدية أجراً أو رسماً تلقاء ربط المجاري الفرعية بالمجاري العمومية . وإنما هي تتقاضى من الساكن رسماً معيناً قدره (٢٪) من قيمة الإجار المخمنة تلقاء أعمال الصيانة .

وهناك مصارف ، غير هذه ، لتصريف مياه السيول والأمطار ؛ وهذه مصنوعة من الإسمنت المسلح . لا يزيد ثخنها عن المتر الواحد . وهي تختلف ، في داخل المدينة ، اختلافاً كلياً عن مجاري الأقذار . وأما في خارج المدينة فقد أباحوا في بعض الحالات توحيد مصارف المياه ومجاري الأقذار .

صناعاتها : ليست القدس من المدن الصناعية . والصناعات القليلة التي قد تجدها فيها أقل إتقاناً من غيرها من المدن الساحلية . غير أنها تستهلك مصنوعات البلاد الأخرى بكثرة . إنها تعج بالمعاهد الدينية والمؤسسات الثقافية والاجتماعية . وفي هذه المعاهد والمؤسسات ما لا يحصى من الموظفين المدنيين والعسكريين . ومن رجال الدين وأفراد الطوائف المختلفة . وهذا يجعلها سوقاً تجارياً هامة لاستهلاك

البضائع والمصنوعات التي تستوردها من البلاد الأخرى . هذا ومن الإنصاف للتاريخ أن نقول إن القدس كانت فيما مضى مركزاً هاماً من مراكز صناعة الصابون في الشرق . إنها كانت تصنع الصابون وتصدره إلى مصر . إذ كان فيها وفيما حولها من الأراضي والجبال مساحات واسعة من أشجار الزيتون . وكثيراً ما قرأنا عن (الصابون القدسي) في أوائل العهد العثماني (٩٧٥هـ-١٥٦٧م) .

وشجرة الزيتون شجرة مباركة جاء ذكرها في القرآن الكريم ، وفي أسفار العهد القديم . والذي يتتبع هذه الأسفار يرى أن أول من أتقن زراعة الزيتون وصناعة الزيت هم الكنعانيون . وقد أخذ بنو إسرائيل عنهم هذه الزراعة . وكذلك فعل الفلسطينيون القدماء . فقد كانوا يعنون بشجرة الزيتون اعتناء شديداً . وورث المقدسيون عن آبائهم الأقدمين هذا الميل . فاعتنوا بزراعة الزيتون عناية تامة . وكان عندهم عدد كبير من معاصر الزيت وكانوا يخزنون الزيت في آبار يحفرونها تحت الأرض لهذه الغاية . وكان هذا من الكثرة بدرجة أن المقدسيين[1] كبوا في سنة من السنين الزيت القديم المتجمع لديهم ، ليجدوا أوعية كافية لخزن الزيت الجديد . وكانوا يستعملون الزيت للأكل وللضوء وللعلاج . فيدهنون به جروحهم وأطراف بدنهم عملاً بالحديث النبوي : «كلوا الزيت وادهنوا به» ثم راحوا يصدرونه إلى الخارج . ولما راجت تجارة الزيت زاد اعتناؤهم بزراعة الزيتون . ثم راجت بينهم صناعة الصابون . وانتشرت هذه في زمن من الأزمان إلى درجة أن القدس راحت تباهي المدن الأخرى بصابونها . وكان فيها عدد كبير من المصابن . وكان صابونها رائجاً في أنحاء فلسطين الأخرى وفي أسواق الشرق الأدنى ولا سيما في مصر .

عندما جددت المقابر المختلف عليها بين المسلمين والمسيحيين فوق جبل صهيون سنة (١٠٢٣هـ-١٦١٤م) ؛ ذكر (التل المطل على بركة السلطان والذي يتجمع فيه صلصال[2] المصابن) كنقطة لآخر حدود القسم الذي حكم به قاضي المسلمين للمسيحيين من المقبرة .

غير أن هذه الصناعة تضعضعت بعد سنة (١٨٧٦) يوم اكتسحت المدينة أسراب

---

(١) الوثيقة (٢٠) من مجموعة اسطفان .

(٢) الطين وهو ما يسميه أرباب هذه الصنعة بالطفال .

كثيرة من الجراد ، وأتت على قسم كبير من أشجار الزيتون[١] ، فلم يبق في القدس بعد ذلك التاريخ سوى سبع مصابن : خمسة للمسلمين واثنتان للمسيحيين . وكانت هذه المصابن تنتج في ذلك الحين (٢٨٠,٠٠٠) رطل من الصابون في كل سنة . والمصابن السبع التي ذكرناها في السطور المتقدمة لم تعش طويلاً . إذ أتى الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٧) ، على ما تبقى في القدس وفي ما حولها من البلدان من أشجار الزيتون[٢] . ليستعملوا حطبها للوقود بدلاً من الفحم الحجري في تسيير القطارات . فقضى بذلك على معظم أشجار الزيتون التي كانت تحيط بالمدينة من كل جانب .

وبعد أن كانت القدس من المدن الفلسطينية المعروفة بزيتها وزيتونها وصابونها ، أصبحت في المؤخرة من هذه الناحية وليس فيها اليوم مصبنة واحدة ، وقد دلت الإحصاءات التي قامت بها مصلحة الزراعة بفلسطين على أن القدس تأتي في الدرجة العاشرة بين المدن التي تزرع الزيتون في فلسطين ، كما ترى ذلك في الكشف التالي وهو يبين المساحات المزروعة زيتوناً في فلسطين عام (١٩٣١م) والتي بلغت نصف مليون دونم ، وعدد أشجار الزيتون المغروسة فيها (٤,٠٥٩,٩٥٠) وهذه توزع بين المدن الفلسطينية بالنسبة الآتية :

المدينة	عدد
نابلس	٦٣٤١٨٥
عكا	٦٢٤٨٨٥
جنين	٦٠٠٠٠٠
الرملة	٥٠٧١٢٠
طولكرم	٤٩٥٠٠٠
رام الله	٣٥٧٥٠٠
صفد	٢٢٥٠٠٠
حيفا	١٥٠٠٠٠
الناصرة	١٤١٤٣٥

(١) Warren, P. 500

(٢) انظر إلي ما كتبناه عن هذا الحادث في فصل الأتراك .

القدس	٩٠٠٠٠
طبريا	٧٧٨٦٥
الخليل	٦٨٤٠٠
بيت لحم	٤٥٠٠٠
يافا	٢٩٢٥٠
غزة	١٠٩٦٥
بيسان	٣٠٤٥
أريحا	٣٠٠

صناعة النسيج : كان في القدس ، أثناء الحرب الكونية الأولى (١٩١٤-١٩١٧) ، بضع مئات من الأرمن اللاجئين . ولقد فكرت جمعية الصليب الأحمر الأميركية في تشغيل هؤلاء اللاجئين بقصد الاستفادة منهم ، وتمرينهم على أعمال يربحون بها رزقهم . وبدلاً من توزيع الهبات عليهم أسست لهم أنوالاً . فراح هؤلاء يغزلون وينسجون . وهكذا انتعشت صناعة الغزل والنسيج في مدينة القدس .

عندما غادرت هذه الجمعية القدس بسبب انتهاء الحرب ، تولت أعمالها من هذه الناحية ، جمعية محبي القدس . وراحت تعمل هذه الجمعية على جعل هذه الصناعة ، صناعة الغزل والنسيج ، صناعة دائمية ترتكز عليها مدينة القدس من الناحية الصناعية . وقررت أن تقوم هذه الصناعة في (سوق القطانين) . تلك السوق التي عمرتها[1] سنة (١٩١٩) .

---

(١) أنفقت الحكومة قرابة ألف جنيه من أجل هذه السوق . وقد كانت في حالة من الخراب يرثى لها . كانت مهملة بالمرة : وكانت أكثر الدكاكين فيها ، إن لم نقل كلها ، مغلقة لا ، بل كانت مسدودة بالحجارة .

بعد أن تم تنظيف سوق القطانين وتعميرها (١٩١٩) وضعت فيها الأنوال . واستخدم لإدارة هذه الأنوال عمال الغزل والنسيج الذين استخدمتهم جمعية الصليب الأحمر الأميركية . وكان عددهم في السنة الأولى سبعين عاملاً وأكثر الخبراء من الأرمن . ورفض هؤلاء في بادئ الأمر تعليم أبناء العرب من العمال . الأمر الذي جعل جمعية محبي القدس تفكر في استحضار عدد من النساجين الماهرين من المجدل . وقد استحضرتهم بالفعل ولكن صناعة النسيج في سوق القطانين لم تعش طويلاً .

عادت صناعة النسيج فانتعشت خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) . وأسست في القدس عدة مصانع للغزل والنسيج . منها ما هو عربي ، ومنها ما هو إفرنجي ، أو يهودي . ولكن هذه الصناعة ما برحت في حاجة إلى التوسع والتحسين .

صناعة القاشاني : كانت في أوائل الاحتلال الإنكليزي منحصرة في رجل أرمني اسمه : (أوهانسيان) . وكان هذا يصنع القاشاني ، وفي دار الأيتام السورية المعروفة باسم : (شنللر الألمانية) ، فعملت جمعية محبي القدس ، بمساعدة مصلحة المعارف ، على إحياء هذه الصناعة وتشجيعها . إذ إنها من الصناعات التي كانت فيما مضى من الأزمان معروفة في القدس . وقد قام عدد من صناع الخزف والقاشاني المسلمين بصنع البلاط القاشاني الملون الذي احتاج إليه المجلس الإسلامي من أجل عمارة الصخرة (١٩٢٠-١٩٢٢) .

صناعة القزاز والخزف : تأسس في القدس ، وفي الطريق المعروفة بدرب الآلام ، وبتشجيع من جمعية محبي القدس ، عام (١٩٢١) ، أتون لصنع الخزف . استخدم فيه عدد من الخلايلة الماهرين في هذه الصنعة . ولكن هذه الصناعة لم تنجح كثيراً . رغم أنها من الصناعات التي كانت معروفة بالقدس فيما مضى من الأزمان .

صناعة البلاط : من الصناعات التي عملت على إحيائها جمعية محبي القدس (١٩١٩م) . ومن الغريب أنه بينما كانت الإعانات والهبات المجموعة بقصد إعانة اللاجئين من الأرمن هي التي استخدمت ، في بادئ الأمر ، من أجل إحياء صناعة النسيج ؛ وقد استفاد منها العمال المسلمون . فإن الأمر كان على عكس ذلك في صناعة البلاط . تلك الصناعة التي انتعشت بفضل الأموال التي أنفقتها مصلحة الوقف الإسلامية ، واستخدمت فيها عمالاً من الأرمن . ولقد ساعدت الحاجة على انتعاش هذه الصناعة . إذ إن المجلس الإسلامي يرغب في الحصول على مقادير وافية من البلاط ، ليضعه مكان البلاط الذي سقط والذي أصبح على وشك السقوط في مسجد الصخرة . واستحضر عمالاً ماهرين من كوتاهية ومن دمشق ، لأجل مناظرة العمل . وكان بينهم عدد من الأرمن أيضاً . وخلال البحث عن ذلك عثر على الأفران القديمة التي كان يصنع فيها البلاط قديماً في منطقة الحرم الشريف . وقد تم فيها صنع مقادير وافرة من البلاط المعروف بالصيني ، وكان ذلك بإدارة مصلحة الوقف ونظارة خبير أرمني جاء من كوتاهية خصيصاً لهذه الغاية ، ألا وهو : (داود

أوهانسيان) . إن هذا البلاط كان قريباً ، نوعاً ما ، من البلاط الجيد القديم ، ولكنه أحسن بكثير من البلاط الأوروبي الذي استعمل في عمارة الصخرة خلال الخمسين سنة الأخيرة .

صناعة الشمع : إنها من الصناعات التي اشتهرت في القدس . والشمع المقدسي يصنع بأحجام كبيرة . ومنها ما يحتوي على تعاريج وتجاعيد جميلة . والبعض يطبع عليه صور وأوراق وزهور . ويباع الشمع بكثرة في الأعياد . ومن هنا نشأت تجارة الشمع . وهي تجارة رابحة .

صناعة خشب الزيتون : وبالأحرى صناعة النقش والحفر في خشب الزيتون . هناك عمال ماهرون أتقنوا ، مع الزمن ، هذه الصناعة ؛ ومنهم من يستطيع أن يحفر في الخشب مناظر تاريخية تلفت النظر بإتقانها . ومن الخشب يصنعون أدوات مكتبية دقيقة الصنع ، ولعب للأطفال مختلفة الأشكال والألوان .

تطريز البيض : إنها من الصناعات القديمة التي اشتهرت في القدس . فتراهم يثقبون البيضة بثقوب صغيرة بواسطة أبرة دقيقة لإخراج أصها (بياضها) ومحها (صفارها) . وبعد الانتهاء من تنظيفها يطرزون عليها بالإبرة العادية رسوم وتعاريج وزهور تبهج النظر . وهي توضع عادة في أقفاص جميلة مصنوعة من النخل المجدول .

جدل النخل : للمقدسيين تفنن خاص في جدل النخل . ويتجلى فنهم في أيام الأعياد .

الصور النباتية : وهناك صناعة الصور النباتية . وهي قطع من الكرتون الصقيل اللامع ، تطبع عليها الرسوم . ثم يلصق حول هذه الرسوم بعض الزهور الجميلة الألوان التي تظهر عادة في سهول فلسطين وجبالها وأوديتها بعد تجفيفها وكبسها .

تجارتها : إنها تستورد الحبوب التي تحتاج إليها من شرق الأردن وحوران وجنوب فلسطين . والخضار من سلوان وعين كارم وبتير والمالحة وبيت صفافا والقرى الأخرى المجاورة لها . ومن المدن القريبة منها كأريحا والرملة ويافا . وفي بعض الأحيان تستوردها من مصر والشام . ولهذا تكاد الخضار لا تنقطع من أسواقها : لا في الصيف ولا في الشتاء . ويستطيع المرء أن يجد فيها مطلوبه من الملفوف والقنبيط والخس والشمندر والجزر والخيار والبندورة والكوسا والباذنجان والبصل والثوم والفجل والبازيلا والفليفلة والهليون والأرضي شوكه والعنب والبطيخ والتفاح والليمون والبرتقال وجميع أنواع الفواكه والخضار والأسعار تتقلب بطبيعة الحال تبعاً للحروب والاضطرابات .

وقد يكون من المفيد أن نلقي نظرة إلى البيان التالي ، لنأخذ فكرة عن أسعار الحاجيات الضرورية في أسواق القدس قبل نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٨) وبعد انتهائها . والأرقام التي دوّناها هي قروش فلسطينية تبين أسعار البيع بالمفرق للرطل الواحد . والقرش الفلسطيني عبارة عن عشرة ملات[1] والرطل عبارة عن تسعمئة درهم :

نوع الحاجة	عام ١٩٣٨ سعر الرطل قرش فلسطيني	عام ١٩٤٧ سعر الرطل قرش فلسطيني
الارز	٦	٢٤
السكر	٦	٣٠
الحنطة	٣	١٨
الشعير	٣	١٤
الذرة	٢	١٢
الصابون	١١	٤٤
السمن	٢٥	١٢٠
السيرج	١٢	٤٥
الزيت	١٠	٦٠
الزبدة	٢٦	٨٥
الحليب	٤	١٥
الجبن	١٤	٥٤
العدس	٤	١٤
الحمص	٤	١٦
البن	١١	٥٠
الفاصوليا	٥	٢٢

(١) (الملّ) جزء من ألف جزء للجنيه الفلسطيني . وكل عشر ملات تؤلف قرشاً فلسطينياً واحداً . والجنيه مئة قرش .

البندورة	١	١٠
الزيتون	٣	٢٣
الجوز	١٨	٧٠
الصنوبر	٢٥	٦٠
الفحم	٢	٤
الزبيب	٦	٢٠
القطين	٣	١٨
الخبز	٣	١٠
البرغل	٤	٢٢

أوزانها ومكاييلها : إليك الأوزان القانونية المستعملة في الأسواق المتقدم ذكرها في يومنا هذا (١٩٤٧) :

الدرهم(١) = ٣,٢٠٥ غرام

الأوقة(٢) = ٤٠٠ درهم = ١,٢٨٢ كيلو

القنطار(٣) = ١٠٠ رطل = ٢٢٥ أوقة = ٢٨٨,٤٥٠ كيلو غرام

الرطل(٤) = ١٢ أوقية = ٢,٢٥٠ أوقة = ٩٠٠ درهم = ٢,٨٨٤ كيلو غرام

الأوقية(٥) = ٧٥ درهم = ٢٤٠,٦٣٧ غرام

وأما المكاييل القانونية فهي كما يأتي :

الذراع(٦) = ٢٤ قيراط

الذراع(٧) = ٦٧,٧٥ سانتمتر (للثياب)

الذراع(٨) = ٧٥,٨٠ سانتمتر للأراضي والأبنية

الدونم(٩) (التركي) = ١٦٠٠ ذراع مربع = ٩١٩,٣ متر مربع

الدونم(١٠) (المتري) = ١٠٠٠ متر مربع

أسواقها : إليك أسماء الأسواق المنتشرة في مدينة القدس : سواء أكانت في

(١-٢) و(٦-١٠) هذه الأوزان والمكاييل مستعملة في جميع فلسطين ، وأما (٣-٥) فإنها مستعملة في القدس وفي جنوب فلسطين فقط . وأما في الخليل وفي شمال فلسطين فتختلف عنها بعض الاختلاف .

داخل السور أو في خارجه .

في داخل المدينة القديمة أسواق ، وإن كانت مرصوفة ، إلا أنها ضيقة ومعوجة يزدحم الناس فيها بكثرة . ويزداد هذا الازدحام في الأعياد والمواسم . ويرى المرء ، إذا ما مر من هذه الأسواق ، الفلاحات حاملات على رؤوسهن أسفاطاً وأطباقاً وجوناً مملوءة فاكهة ولبناً أو بقولاً وخضاراً . فتتنحى كل واحدة منهن جانباً من السوق ، فتجلس ، وتضع أمامها سلها لتبيع ما فيه من المارين . وأن بعض هذه الأسواق ، إن لم نقل أكثرها وهي القديمة ، مقبوة مظلمة .وإليك أسماء بعضها :

سويقة علون : تمتد من الموقف الكائن تجاه القلعة من الغرب حتى ملتقى طريق البازار وحارة النصارى من الشرق . يهبط المارة منها في درجات مرصوفة متتابعة .

سوق البازار : تمتد من سويقة علون غرباً حتى ملتقى سوقي الحصر واللحامين شرقاً . إنها مرصوفة رصفاً جميلاً .

سوق الحصر : سوق قديمة صغيرة . واقعة في آخر سوق البازار من الشرق تجاه سوق اللحامين من الجنوب .

سوق اللحامين : تبتدئ عند منتهى سوق البازار من الشرق وتسير في اتجاه شمالي حتى سوق النحاسين . وهي سوق مقبوة . في سقفها نوافذ مفتوحة يدخل منها النور والهواء .

سوق النحاسين : واقعة إلى الشمال من سوق اللحامين ، وإلى الجنوب من باب خان الزيت .

سوق العطارين : سوق طويلة مقبوة ، في سقفها نوافذ تنفذ منها أشعة الشمس فتضيئها . إنها واقعة بين سوق التجار من الشرق ، وسوق اللحامين والنحاسين من الغرب .

سوق الباشورة : تجاه سوق العطارين من الجنوب . كانت فيما مضى مقر الحكام المماليك .

سوق التجار : كائنة إلى الشرق من سوق العطارين ، وتسير على محاذاة نصفها القبلي ، ثم تتصل بها . وهذه السوق أيضاً مقبوة . وفي سقفها نوافذ تنفذ أشعة الشمس منها فتضيئها . ويسميها البعض (سوق الصياغ) .

سوق اليهود : مقابلة لسوق التجار والصياغ ، يفصل بينهما بعض الدكاكين . وهي سوق طويلة تمتد من نقطة تلتقي عندها سوق التجار بالسوق الكبير في الشمال ،

إلى مكان قريب من النبي داود في الجنوب . كان معظم تجارها من اليهود . ولما ثار العرب على اليهود (١٩٣٦) بسبب وعد بلفور ، هجرها معظم اليهود . فحل مكانهم عدد كبير من تجار الخليل المسلمين . والعدد القليل من اليهود الذين بقوا فيها ذاقوا الأمرين بسبب الجوع والحصار الذي فرضه عليهم العرب .

السوق الكبيرة : ويسمونها سوق الخضرة . تبدأ عند ملتقى سوق اليهود بسوق التجار غرباً ، وتمتد حتى باب السلسلة شرقاً . وإذا ما سار المرء في اتجاه شرقي ، وجب عليه أن يهبط في درجات واسعة متتابعة . بعض أقسامها مقبوة ، ولها نوافذ في سطحها . وفي منتصفها إلى الشمال خان رحب يعرف بخان السلطان . فيه بعض المطاحن والمعاصر .

سوق باب السلسلة : واقعة في الجانب الأخير لسوق التجار من الشرق ، متصلة بها وبسوق الدلالين ، كأنها كلها سوق واحدة . ومن هذه السوق يتفرع نحو الجنوب زقاق يهبط المار منه في درجات . وهذا الزقاق يؤدي إلى البراق (حائط المبكى) إلى الغرب من سور الحرم .

سوق باب القطانين : غربي الحرم وملاصقة له . تمتد من الشرق إلى الغرب . فيها دكاكين يظهر من بنائها أنها ليست قديمة العهد . ولكنها في يومنا هذا مغلقة . وأما السوق نفسها فإنها قديمة العهد . كانت على عهد المماليك من أحسن أسواق المدينة وأكثرها ازدحاماً وأتقنها بناءً وارتفاعاً . وكانت تباع فيها أقمشة قطنية وأخرى حريرية تأتي من الهند . وأما اليوم فإنها خاوية على عروشها . في وسطها حمام يعرف بحمام الشفا وهو خاص بالرجال ، وعند منتهاها الغربي حمام آخر يعرف بحمام العين . يرتاده الرجال والنساء في أوقات مختلفة . وأمامها من الناحية الغربية شارع موصل إلى دار الأيتام الإسلامية ، فحارة القرمي فسوق باب خان الزيت .

سوق باب خان الزيت : شرقي كنيسة القيامة وعلى بعد ثلاثمئة ذراع منها . تبدأ من الناحية القبلية عند ملتقى سوق القطانين بالسوق الموصلة إلى كنيسة القيامة ، وتنتهي من الناحية الشمالية عند ملتقى سوق باب العمود بدرب الآلام . أكثرها مقبوة ، في سقفها نوافذ ، إلا أنها قليلة ، لا تساعد على نفوذ أشعة الشمس منها إلا قليلاً . في أحد مخازنها القريبة من دير الأقباط رأيت جزءاً من بقايا السور القديم .

سوق باب العمود : كائنة بين باب خان الزيت في الجنوب وباب العمود في

الشمال . وبين السوقين زقاق إذا ما سرت فيه صاعداً باتجاه الغرب جئت إلى الخانقاه الصلاحية ، فحارة النصارى . وإذا ما سرت فيه هابطاً نحو الشرق جئت إلى الحارة المسماة بـ(الواد) . وهذه السوق قديمة العهد بعضها ، وهو القسم القبلي وجانب من القسم الشمالي ، مقبو ؛ والبعض الآخر ، وهو الوسط ، مفتوح .

سوق باب حطه : كائنة في الحي المعروف بحي باب حطه شمالي الحرم . مستقلة عن جميع أسواق المدينة ومنفردة .

سوق الباب الجديدة : واقعة بين الباب الجديد الذي فتح على زمن السلطان عبدالحميد الثاني شمالي المدينة والكازانوفا .

السوق الجديدة : بباب الخليل وعلى بعد سبعين ذراعاً منه إلى الشرق تجاه القلعة . يراها الداخل إلى المدينة القديمة من باب الخليل على يساره .

سوق افتيموس : من أملاك البطريركية الأرثوذكسية . اشترى أرضها البطريرك اثنابيوس سنة (١٨٣٧) من آل العلمي[1] . وبنى فوقها الأرشمندريت أفتيموس[2] سوقاً سميت فيما بعد على اسمه . وهي واقعة إلى الغرب من كنيسة الدباغة وبالقرب من شارع البرنس فريدريك وليم . إنها من أحس أسواق المدينة وأجملها .

سوق حارة النصارى : سوق كبيرة وطويلة وقديمة . تمتد من سويقة علون في الجنوب إلى الخانقاه الصلاحية في الشمال . وهي مرصوفة رصفاً جميلاً .

ومن هذه السوق تتفرع سوق أخرى باتجاه الكنيسة . وهذه السوق مقبوة . فيها دكاكين تباع فيها الشموع والمسابح والصلبان والأواني المستعملة في الصلوات والطقوس الدينية .

وبعد أن تخرج من الباب الشرقي لساحة الكنيسة ، تأتي إلى سوق مفتوحة ومبلطة ؛ لكنها قصيرة ، لا يزيد طولها عن مئتي متر . وهي واقعة إلى الشمال من سوق أفتيموس وكنيسة الدباغة .

إن جميع الأسواق التي ذكرتها في السطور المتقدمة ، واقعة في المدينة القديمة ،

---

(١) تاريخ كنيسة أورشليم (ص١٩١) .

(٢) أحد رهبان دير الروم . كان رئيساً لكنيسة القيامة (١٨٨٤) . جمع أموالاً طائلة وبنى بها بنايات عديدة ؛ منها هذه السوق المعروفة باسمه . وكان ذلك في أوائل القرن العشرين . بدأ البناء في (١٩٠٢) .

داخل السور .

وأما الأسواق التي في خارج السور ، فإنها أكثر اتساقاً وتنظيماً . وهي أيضاً كثيرة . نذكر منها :

سوق باب الخليل : إلى الجنوب من الباب المذكور . كان في القسم الجنوبي منها فيما مضى خندق ملاصق للسور . فطمته البلدية وجعلته سوقاً . ثم انقلب إلى موقف عام للسيارات والباصات . يقابله في الناحية الثانية عدد كبير من الحوانيت والمطاعم والدكاكين التي تباع فيها الخضار . وكذلك قل عن القسم الغربي عند مبدأ شارع يافا فإنه ذو صفين : الصف الأيمن منه إذا ما جئته من باب الخليل فيه المخازن المعدة لبيع الأقمشة والملبوسات والمقاهي والصيدليات ، والأيسر فيه بعض المطاعم والمطابع والبنوك .

سوق طريق ماملا : تتفرع عن سوق باب الخليل . وتسير باتجاه مقبرة ماملا . إنها من أوسع الأسواق الكائنة خارج المدينة وأنظمها ، وهي سوق ربية . فيها عدد كبير من المكاتب والوكالات والبنوك والمخازن والمصالح الحكومية وغير الحكومية . وإذا ما سرت فيها في أية ساعة من ساعات النهار والليل ، وجدت السيارات مصطفة على جانبيها . وهناك عدد كبير من المباني الجميلة .

سوق الشماعة[١] : قبلي طريق ماملا . وهي قسمان : قسم فيه الكاراجات والمحلات المعدة لتصليح السيارات ، وآخر فيه مخازن بيع الأقمشة .

سوق الجمعة : بجانب بركة السلطان وإلى شمالها . يراها المسافر إلى المحطة من باب الخليل على يمينه . وهي معدة لبيع الحيوانات . وعلى الجانب الشرقي من البركة المذكورة مستشفى حكومي للحيوانات .

سوق النمامرة : نسبة إلى آل النمري . واقعة في حي البقعة التحتا ، قبلي

---

(١) سميت كذلك نسبة إلى منشئها (يعقوب الشماع) من سكان القدس . فقد جاء هذا من حلب واستوطن القدس . وبعد قليل أصبح عضواً في بلديتها . وأنشأ هذه السوق فوق أرض اشتراها من دير الروم . وكانت هذه تسمى (النكيفورية) . ولقد تم بناء السوق في عام (١٩٢٧) . وكانت الأرض في الأصل من أملاك قرية المالحة . ولكن هذا المشروع أي شراء الأرض وبناء السوق ساق الشماع إلى الإفلاس . ولم يستطع تسديد ديونه ، فانتحر بأن ألقى بنفسه إلى الشارع من طابق علوي في منزل من منازل اللفاتوه .

كولونية الألمان .

سوق شارع جوليان : إلى الغرب من سوق الشماعة . تبدا عند الزاوية القبلية الشرقية لمقبرة ماملا ، وتنتهي على مقربة من السكة الحديدية . وفيها دار جمعية الشبان المسيحية ؛ وفندق الملك داود . وهما من أجمل وأضخم العمارات الكائنة خارج السور .

سوق شارع البرنسس ماري : في القسم الشمالي من شارع جوليان وإلى الشرق من مقبرة ماملا .

سوق طريق يافا : أطول الأسواق الكائنة خارج السور . تمتد من نقطة قريبة من باب الخليل وتسير باتجاه يكاد يكون مواز لطريق ماملا . وبعد أن تمر على دار البلدية والمنشية والمسكوبية تسير باتجاه غربي حتى تصل إلى المستشفى التركي القديم عند الحي المعروف بالشيخ بدر .

سوق رحافيا : يجوز اعتبارها فرعاً لسوق طريق يافا . وهي منها إلى الجنوب . إنها سوق يهودية بحته .

سوق روميما : كائنة في حي روميما . وهو آخر الأحياء الكائنة غربي المدينة . إنها ملاصقة للحي العربي المعروف بحي الشيخ بدر .

سوق باب العمود : شمالي السور . وعلى بعد بضعة أمتار من الباب المذكور . تسير في اتجاه حي المصرارة . وتباع فيها الفواكة والخضار بالجملة . وفيها أيضاً عدد من الصيدليات والمخازن المعدة لبيع الحبوب وأدوات البناء . كما أن فيها عدداً من المقاهي والخياطين وعيادات الأطباء ومواقف الباصات والسيارات .

سوق المصراره : فرع من سوق باب العمود .

سوق مياشورم : سوق طويلة ، يكثر فيها بيع السمك والخضار والدواجن والألبان . والحاجيات المنزلية . وهذه السوق يهودية بحتة .

أما وقد انتهينا من ذكر الأسواق ، فإنا نرى لزاماً علينا أن نذكر عدد المخازن والدكاكين الكائنة في المدينة ، مصنفة بالنسبة إلى أنواع الحرف والصناعات وبنسبة الأديان التي ينتمي إليها محترفوها ، فنقول :

في القدس (٥١١٠) دكاكين : منها (١٣٥٨) للمسلمين و(٩٥٤) للمسيحيين و(٢٧٩٨) لليهود . وإليكها بوجه التفصيل :

عدد متسلسل	نوع الحرفة أو الصنعة	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
١	مطاحن القمح والحبوب	١	٢	٥	٨
٢	المخابز والأفران	٧	٦	٣١	٤٤
٣	الدكاكين المعدة لبيع الخبز	٤	٣	١٣	٢٠
٤	الدكاكين المعدة لبيع اللحوم	٤٣	٨	٧٨	١٢٩
٥	الدكاكين المعدة لبيع السمك	٢	-	٢٨	٣٠
٦	الدكاكين المعدة لبيع السقط (المصارين)	٣	-	٨	١١
٧	معامل النقانق واللحوم المقددة	-	-	١	١
٨	سماسرة الفواكه والخضار	٢٠	١	١٤	٣٥
٩	الدكاكين المعدة لبيع الفواكه والخضار	٦٣	٥	١٠٥	١٧٣
١٠	الدكاكين المعدة لبيع الألبان	٢	١	٢٦	٢٩
١١	الدكاكين المعدة لبيع الدواجن	٣	-	١٩	٢٢
١٢	الدكاكين المعدة لبيع البيض	٥	-	١٦	٢١
١٣	مخازن البقالة (بالجملة)	١٤	١٥	٤٥	٧٤
١٤	مخازن البقالة (بالمفرق)	٢٩٣	٨٤	٤٥٠	٨٢٧
١٥	معامل الحلويات	١٥	٢	٧	٢٤
١٦	الدكاكين المعدة لبيع الحلويات	٢٩	٦	٣٠	٦٥
١٧	معامل المعكرونة	-	-	٢	٢
١٨	معامل الثلج	١	١	١	٣
١٩	مخازن الثلج	-	-	٢	٢
٢٠	الدكاكين المعدة لبيع المثلجات	١٧	١٧	١١	٤٥
٢١	مطاحن البن	٦	٣	١١	٢٠
٢٢	المصابن	-	-	٢	٢
٢٣	معاصر الزيت	٩	٤	-	١٣
٢٤	معامل المياه المعدنية	١	-	٥	٦
٢٥	الفنادق والمنازل	١٧	١٨	٤٤	٧٩

٢٦	المقاهي والمطاعم	٧٩	٤٨	٩٩	٢٢٦
٢٧	دور السينما	-	٢	٥	٧
٢٨	معامل البيرة ومعاصر الخمور	-	-	٤	٤
٢٩	مستودعات المشروبات الروحية	-	٨	٨	١٦
٣٠	الحوانيت المعدة لبيع الخمور	-	١٥	٣٩	٥٤
٣١	مستودعات السجاير والتبغ والتمباك	-	-	٣	٣
٣٢	الدكاكين المعدة لبيع الدخان والتمباك (بالجملة)	١	٢	٤	٧
٣٣	الدكاكين المعدة لبيع الدخان والتمباك خلا دكاكين البقالة التي تباع فيها هذه الاشياء (بالمفرق)	٢	٣	١٩	٢٤
٣٤	معامل الكبريت	-	-	١	١
٣٥	الدكاكين المعدة لبيع أدوات التجميل	١	٥	٦	١٢
٣٦	صالونات التجميل	١	١	٧	٩
٣٧	المزينون (الحلاقون)	٤٦	٣٠	٦٢	١٣٨
٣٨	الدكاكين المعدة لبيع الزهور	-	-	١٣	١٣
٣٩	معامل الروائح العطرية وادوات الزينة	-	-	١	١
٤٠	المختبرات الباثولوجية والبكتريولوجية	-	-	٢	٢
٤١	معامل المواد الكيماوية والعقاقير والمستحضرات الطبية	-	-	٢	٢
٤٢	مستودعات العقاقير (بالجملة)	-	٨	٧	١٥
٤٣	الصيدليات	٨	٧	٣٤	٤٩
٤٤	البنوك	٢	١	١٤	١٧
٤٥	الصيارفة	٣	-	٧	١٠
٤٦	مكاتب الرهن والاسترهان	-	-	١	١
٤٧	الاسواق العمومية	١	-	٣	٤
٤٨	الاسطبلات العمومية	٢	-	-	٢
٤٩	وكالات السياحة والسفر	-	٥	٢	٧

٥٠	شركات التاكسي (للنقل)	٥	٥	٧	١٧
٥١	شركات الباصات (للنقل)	٤	١	٤	٩
٥٢	المحلات المعدة لبيع الزيوت والبنزين	١	١٥	-	١٦
٥٣	المحلات المعدة لتعمير السيارات	-	٧	-	٧
٥٤	المحلات المعدة لتعمير الدراجات	٤	١	١١	١٦
٥٥	المحلات المعدة لتعمير الاطارات	٢١	٣٧	١٧	٧٥
٥٦	المكاتب التي تباع فيها الكتب (بالجملة)	١	٣	١٠	١٤
٥٧	المكاتب التي تباع فيها الكتب (بالمفرق)	٨	١٦	٥٥	٧٩
٥٨	المكاتب والغرف المعدة للمطالعة	٤	٤	٣	١١
٥٩	المكاتب المعدة للنسخ على الآلة الكاتبة	٢	٢	٢	٦
٦٠	الطباعون ومنضدو الحروف ومجلدو الكتب	٦	٨	٤٠	٥٤
٦١	معامل الورق	-	٢	١	٣
٦٢	معامل الاحذية	-	-	١	١
٦٣	صناع الاحذية	٦١	٧١	١١	١٤٣
٦٤	المحلات التي تصلح فيها الأحذية	٤١	٥٦	٩٤	١٩١
٦٥	المحلات التي تصنع فيها الاحذية	١٠	٢٠	٢٥	٥٥
٦٦	باعة الجلود	٧	١	١٣	٢١
٦٧	مخازن الملابس الجلدية	٨	١٣	٣٤	٥٥
٦٨	معامل النسيج والحياكة (حياكة الصوف والحرير)	٥٢	١٣	٦٧	١٣٢
٦٩	الدكاكين المعدة لصنع البرانيط	٣٥	١١	٦٧	١١٣
٧٠	مصانع الفرش	-	-	١٥	١٥
٧١	مصانع اللحف	٧	٢	٢	١١
٧٢	مصانع الازرار	١	١	٧	٩

٧٣	الخياطون	٢٤	٤٠	١٢٦	١٩٠
٧٤	تجار الاقمشة والاجواخ والالبسة الجاهزة	٩٢	٤٠	٨٦	٢١٨
٧٥	تجار الالبسة القديمة	٥٥	١٦	١١	٨٢
٧٦	الفرّاءون	–	١	١٣	١٤
٧٧	محلات الكوي والغسيل والصباغ والتنظيف	٢٣	١٥	٤٦	٨٤
٧٨	مخازن الخشب	١	١	٤	٦
٧٩	النجارون	٣٣	٢٣	٦٤	١٢٠
٨٠	الدهانون (وحوانيت الدهان)	٢	٢	٨	١٢
٨١	ماكنات النشر	٤	٥	٢	١١
٨٢	مصانع الاثاث والتنجيد	٣	١	١٩	٢٣
٨٣	المخازن المعدة لبيع الامتعة البيتية المستعملة	–	٥	٢٥	٣٠
٨٤	المخازن المعدة لبيع اثاث المكاتب	–	١	–	١
٨٥	معامل المفروشات المعدنية	–	–	١١	١١
٨٦	المخازن المعدة لبيع أدوات الرياضة البدنية	٢	٣	٣	٨
٨٧	معامل لعب الأطفال	–	–	٢٠	٢٠
٨٨	الدكاكين المعدة لبيع لعب الاطفال	١	١	٧	٩
٨٩	معامل صناديق الكرتون	١	٣	٢	٦
٩٠	الساعاتية	٤	٥	٣٣	٤٢
٩١	معامل الزجاج	–	–	٢	٢
٩٢	معامل المرايا	–	–	٥	٥
٩٣	المصورون وتجار الصور والمحلات المعدة لبيع لوازم التصوير	٤	٢٢	٢٠	٤٦
٩٤	ناحتو التماثيل الحجرية	–	–	٢	٢
٩٥	حفارو المعادن	١	٢	٤	٧
٩٦	الامكنة المعدة لبيع الآثار والفنون	١	١٢	١٢	٢٥

	الجميلة والسجاد				
٩٧	الحدادون	١٥	١١	٤٧	٧٣
٩٨	مصانع السكب والصب	-	-	٣	٣
٩٩	معامل الاسفلت والقار	-	١	-	١
١٠٠	مخازن الفحم الحجري والحطب	٤	-	٤	٨
١٠١	مصانع الاجر والبلاط والاسمنت والزجاج والفخار	١٥	٦	٤٠	٦١
١٠٢	لتون الكلس	١	-	-	١
١٠٣	النحاسون	٧	٨	١	١٦
١٠٤	السنكريون	٢٥	٢٦	٦٥	١١٦
١٠٥	صانعو العربات	٣	٣	٢	٨
١٠٦	المخازن المعدة لبيع مواد البناء	٤	٨	٣٠	٤٢
١٠٧	معامل الادوات الكهربائية	١	٣	٢٠	٢٤
١٠٨	المخازن المعدة لبيع الادوات الكهربائية	٧	٦	١٧	٣٠
١٠٩	المخازن المعدة لبيع الماكينات على جميع أشكالها	٢	١٤	٨	٢٤
١١٠	المخازن المعدة لبيع الراديو والآلات الموسيقية	٣	٥	٩	١٧
١١١	مصانع الفسيفساء والرخام	-	-	٢	٢
١١٢	معامل التبييض والطلي بالميناء	-	-	١	١
١١٣	معامل الأواني الصينية والخزفية	-	١	٢	٣
١١٤	محلات صنع الفراشي والمكانس	١	-	١٨	١٩
١١٥	محلات تركيب الزجاج والبراويز	١	٥	٥	١١
١١٦	مخازن البضائع العمومية	٥١	٢٩	١٥٧	٢٣٧
١١٧	دكاكين بيع النظارات	-	٢	٨	١٠
١١٨	مستودعات وكالات النقل	٥	-	٨	١٣
١١٩	معامل صنع الشحم والشمع	-	٨	-	٨
١٢٠	مخازن ومزارع وحوانيت مختلفة	٨	٦	١٥	٢٩
	المجموع	١٣٥٨	٩٥٤	٢٧٩٨	٥١١٠

شركاتها التجارية : وإليك عدد الشركات المتكونة في القدس . وقد اقتبسنا هذه الأرقام من سجلات البلدية في ١ مايس ١٩٤٥ :

العدد	نوع الشركة	عربية	يهودية	اجنبية	المجموع	ملحوظات
١	شركات كيمائية	-	١٦	٢	١٨	منها شركات البوتاس والادوية والاملاح والراديوم .
٢	شركات السجاير	-	٣	١	٤	
٣	شركات الخردوات	-	٥	-	٥	منها شركات لعب الاطفال والتصديف والتلوين والزخرفة والنقش .
٤	شركات شراء الأراضي	٢	٦٢	١	٦٥	معظمها شركات لتركيز اليهود في فلسطين وتمليكهم الأراضي .
٥	شركات الاشغال العامة	١	٥٤	٨	٦٣	إنها شركات تتعاطى الاشغال العامة كالمقاولات والبناء والهندسة والتجدير والتصليح .
٦	شركات لنشر العلم والتدريس	-	٦	٦	١٢	إنها شركات لتعليم اللغات والطباعة وتقوية الدراسات العلمية .
٧	شركات الطباعة	-	٣٥	٢	٣٧	إنها شركات لنشر الصحف والمجلات . ويتبعها مصانع الورق والكرتون .
٨	شركات زراعية	١	٥	١	٧	إنها شركات مختصة بالآلات الزراعية والأسمدة وتعمير الأراضي .
٩	شركات ميكانيكية	٣	١٤	٥	٢٢	إنها شركات لتركيب لوازم

	وكهربائية					الكهـــرباء والســـيـــارات وتنظيفها وتعميرها .
١٠	شركات المشروبات الروحية	-	٤	-	٤	إنها شركات لصنع الخمور وبيعها .
١١	شركات السمسرة	١	١٠	-	١١	إنها شركات أسست لتعاطي أمور البيع ولا سيما بيوع الأراضي وتســـهـــيل المعاملات .
١٢	شركات الاقمشة والنسيج	٦	٢٢	٣	٣١	إنها شركات لصنع الملابس والمفروشات .
١٣	شركات التجارة العامة	١	٥٧	٨	٦٦	إنهـا شـركـات للتـجـارة والتصدير والتوريد لجميع أنواع البضائع والمؤن .
١٤	شركات لمساعدة يهود فلسطين	-	٥	١١	١٦	إنهـــا شركـــات لمساعـدة المستشفيات والكنائس والمستعمرات اليهودية .
١٥	شركات المطاعم والمقاهي	١	٩	٢	١٢	إنها شركات لإدارة الفنادق والمطاعم
١٦	شركات الافلام والسينما	-	٨	١	٩	إنهـــا شركـــات الأفــلام السينمائية والتصوير .
١٧	شركات شراء الاختراعات	-	٣	-	٣	إنها شركات تعمل على تأسيس المختبرات وشراء الاخــتــراعــات ومــؤازرة المخترعين .
١٨	شركات النقل والسفر	٨	٦	١٠	٢٤	إنهـا شـركـات البـاصـات وسيارات الاجرة والنقل في الجو والبر والبحر .
١٩	شركات الاخشاب	١	٤	١٠	١٥	إنها شركات البترول وزيت

	والزيوت					الزيتون والاخشاب .
٢٠	شركات التأمين	١	١٢	٣١	٤٤	إنها شركات التأمين على الحياة وعلى المخازن والمنازل والآلات .
٢١	شركات الجلود والأحذية	–	٣	–	٣	
٢٢	شركات السكب الحديدية	١	٤	–	٥	إنها شركات الحديد ولوازم البيوت الكهربائية والميكانيكية .
٢٣	شركات الكاوتشوك	–	٢	١	٣	
٢٤	شركات الساعات	١	–	–	١	إنها شركة مصرية لصنع الساعات .
٢٥	شركات الحمضيات	–	–	١	١	
٢٦	شركات المياه	–	٣	–	٣	
٢٧	شركات التموين	٤	١٨	–	٢٢	ومنها شركات المطاحن والخبازين واللحوم واللبقالين .
٢٨	شركات ليس لها غايات معينة	–	٧	١٠	١٧	
		٣٢	٣٧٧	١١٤	٥٢٣	

بنوكها : في القدس ستة عشر مصرفاً (بنكاً) ؛ إليك أسماؤها ، وتواريخ شروعها بالعمل في فلسطين ، ورأس مال كل واحد منها بالجنيه الفلسطيني :

الرقم	اسم البنك بالعربي	تاريخ شروعة بالعمل في فلسطين	رأس المال المصرح به	المركز الرئيسي	ملحوظات
١	بنك كوبات عام	١٩١٨/١٢/٢٢	٢٥٠,٠٠٠	تل أبيب	
٢	البنك العثماني	١٩١٩/٣/٢٩	١٠,٠٠٠,٠٠٠	لندن	أسس سنة ١٨٦٣ . مراكزه الأساسية في استانبول ولندن وباريز . وله مراكز في جميع أنحاء فلسطين .
٣	بنك انجلو – فلسطين	١٩١٩/١٠/٢٦	١٠,٠٠٠,٠٠٠	لندن	أسس عام ١٩٠٢ . مركزه الرئيسي في يافا . وله فروع في جميع انحاء فلسطين .
٤	بنك فلسطين للرهن والتسليف	١٩٢٢/٧/٤	٥٠,٠٠٠	تل أبيب	
٥	البنك المركزي للمؤسسات التعاونية بفلسطين	١٩٢٢/٧/٨	١٥٠,٢٠٠	القدس	
٦	المجلس الفلسطيني	١٩٢٢/٨/٣٠	٨٠٠,٠٠٠	القدس	
٧	بنك مزراحي	١٩٢٣/٦/٦	١٠٠,٠٠٠	القدس	
٨	بنك فلسطين التجاري	١٩٢٤/٩/١٦	١٠٢,٥٦٥	حيفا	
٩	بنك باركلس	١٩٢٦/١/١١	١٠,٠٠٠,٠٠٠	لندن	أسس سنة ١٨٣٦ . مقره الرئيسي في لندن . وله فروع في جميع انحاء الامبراطورية البريطانية .
١٠	البنك البولوني الفلسطيني	١٩٢٩/١٠/٢١	١٠٠,٠٠٠	تل أبيب	

١١	البنك العربي	١٩٣٠/٥/٢١	٥٥٠,٠٠٠	القدس	أسسه عبدالحميد شومان . وله فروع في أكثر انحاء فلسطين وسوريا ولبنان ومصر .
١٢	بنك يعقوب يافت وشركاه	١٩٣٣/٨/١٣	٦٢,٠٠٠	القدس	
١٣	بنك الأمة العربية	١٩٣٣/١٠/٢٧	١,٠٠٠,٠٠٠	القدس	مؤسسة أحمد حلمي باشا عبدالباقي . وله فروع في أكثر انحاء فلسطين في مصر ولبنان وسوريا . كان يدعى عند تأسيسه بالبنك الزراعي العربي . وفي سنة ١٩٤٢ استبدل باسمه الحالي . كان رأسماله أربعين الف جنيه فأصبح الآن ينوف عن المليون .
١٤	بنك ايللون	١٩٣٤/١/١٤	٧٥,٠٠٠	تل أبيب	
١٥	بنك فويخت واغنر التجاري العمومي	١٩٣٤/٧/١٩	٧٥,٠٠٠	تل أبيب	
١٦	بنك الخصم الفلسطيني	١٩٣٥/٣/٢١	٥٠٠,٠٠٠	تل أبيب	

وكان في القدس ، قبل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) بنكان : بنك ألماني يدعى (بنك درتمبل كيزلشافت) . تأسس سنة (١٩٢٤) برأس مال قدره خمسون ألف جنيه . وبنك إيطالي يدعى (بنكودي روما) . تأسس سنة (١٨٨٠) برأس مال قدره (٢٠٤) ملايين ليرة إيطالية . ولكنهما أغلقا بسبب الحرب المذكورة .

خدمات البرق والبريد والهاتف : في القدس مصلحة حكومية للبرق والبريد والهاتف . وقد قامت هذه بتجديد خطوط البرق التركية في سنة (١٩١٨) . وأنشأت في تلك السنة أيضاً ولأول مرة في تاريخ القدس شبكة تلفونية . كانت هذه في بادئ الأمر منحصرة في مصالح الحكومة ودواوينها الرسمية . إلا أنها توسعت مع الزمن . فصار في القدس (في عام ١٩٤٥) (٥٨٣٦) آلة للتلفون بعد أن لم يكن فيها في عام (١٩٢٠) سوى (١٦٣) .

والقدس مرتبطة ، من حيث المخابرات ، مع البلاد العربية المجاورة ومع القارة الأوروبية والولايات المتحدة الأميركية بالبر والبحر والجو . كانت مخابراتها البرية ، حتى قبل الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩) ، تجري عن طريق سوريا وتركيا وبعض البلاد الواقعة شرقي أوروبا .

وأما مخابراتها البحرية ، فقد كانت عن طريق حيفا وثغرها . وعن طريق مصر وثغورها إلى فرنسا والمملكة المتحدة بواسطة شركات البواخر البحرية المختلفة .

وأما مخابراتها البرقية ، فإنها تجري بواسطة أسلاك البرق الممتدة بينها وبين بلاد الشرق المجاورة لها . ومع أوروبا بواسطة الأسلاك الممتدة بينها وبين حيفا . ومن هناك بخط بحري (Cable) إلى أوروبا . ومع الولايات المتحدة عن طريق لندن . وهناك اتصال لاسلكي بينها وبين أوروبا ، وبينها وبين الولايات المتحدة وأنحاء العالم الأخرى . تقوم به شركة ماركوني الإيطالية ، ومقرها في مصر .

وأما اتصالاتها الجوية فإنها تجري مع أوروبا وأفريقيا وأوستراليا بواسطة طائرات شركة الطيران الإنكليزية The British Overseas Corporation لما وراء البحار ، ومع الولايات المتحدة الأميركية بواسطة طائرات شركة الطيران الأميركية Pan-American Air Ways Service وهذه الشركة تنقل البريد من القدس إلى أميركا عن طريق أفريقيا الغربية وميامي .

وهناك مواصلات جوية بين القدس وسوريا أيضاً وبينها وبين العراق ومصر .

وقصارى القول بلغت نفقات الحكومة على مصلحة البرق والبريد في فلسطين

كلها وفي آخر سنة من سنوات الاحتلال البريطاني (١٩٤٧-١٩٤٨) (١,٣٧٥,٣٣٣) جنيهاً . وهو أكبر بند في الميزانية بعد مصلحة الأمن .

البلدية : بعد أن ذكرنا أسواق المدينة وتجارتها وحرفها وصناعاتها وطرقها ومجاريها ، نرى لزاماً علينا أن نقول كلمة في (البلدية) المسؤولة عن هذه الشؤون .

قلنا في موضع آخر من هذا الكتاب إن أول بلدية منظمة للقدس تأسست في سنة (١٨٦٣) . وأنها كانت عبارة عن هيئة محلية صغيرة ذات سلطة محدودة وواردات ضئيلة لم تكن تتجاوز الـ(٥٠٠) جنيه سنوياً . ولبثت الميزانية في تزايد حتى بلغت في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٧) أحد عشر ألف جنيه .

ولقد ذكرنا أيضاً في موضع آخر من هذا الكتاب أسماء الأشخاص الذين تولوا رئاسة المجلس البلدي بالقدس في عهد الأتراك . ونود أن نذكر هنا أسماء أولئك الذين تولوها بعد الاحتلال البريطاني . ولكن لا بد لنا من التمهيد لذلك بالكلمة التالية : سارت الحكومة الإنكليزية في فلسطين في بادئ الأمر ، على الخطة التي سار عليها الأتراك قبل الاحتلال من حيث إعطاء الشعب حق الانتخاب . فكان دافعوا الضرائب ينتخبون ممثليهم في المجلس البلدي وعدد الأعضاء ستة : أربعة من العرب ، واثنان من اليهود . وكانت الحكومة تختار من بين هؤلاء الأعضاء رئيساً من ذوي الأهلية والاقتدار . وظلت تسير على هذا المنوال حتى أوائل عام (١٩٢٧) .

وكان رئيساً للبلدية عند بدء الاحتلال ، حسين سليم أفندي الحسيني ، فموسى كاظم باشا الحسيني ، فراغب بك النشاشيبي . ثم انتخب للرئاسة الدكتور حسين فخري الخالدي . وفي سنة (١٩٤٥) اعتقلته الحكومة ونفته إلى سيشل ، فأقامت مكانه مصطفى بك الخالدي . ولما توفي هذا تسلمها بالوكالة الأضون دانيال أوبستر . ولم يكن الأعضاء العرب راضين عن هذا الوضع . إذ لم يسبق أن تولى رئاسة بلدية القدس يهودي . ولذلك فقد استقالوا . عندئذ عينت الحكومة لجنة (١١ تموز ١٩٤٥) لإدارة الشؤون البلدية ؛ رئيسها وجميع أعضائها من الإنكليز . وعند كتابتي هذه السطور كان المستر وبستر المدير العام لمصلحة البرق والبريد هو الرئيس . ووظيفة المجلس البلدي تنحصر في أعمال النظافة والتنوير وفتح الطرق ورصفها ومراقبة البناء والتنظيم وما إلى ذلك من الشؤون التي تعود بالخير على سكان المدينة . وقد بلغت موازنتها في العام الفائت (١٩٤٦/١٩٤٧) (٥٥٧,٢٩٦) جنيهاً . وأما في هذه السنة (١٩٤٧/١٩٤٨) فإنها (٧٥٠,٠٠٠) جنيه .

القدس من الناحية الإدارية والسياسية : من أهم المدن الفلسطينية . إنها ليست فقط مركز اللواء الإداري الأول المعروف باسم (لواء القدس[1]) . بل هي عاصمة فلسطين كلها من أدناها إلى أقصاها . وفلسطين الآن (١٩٤٧) واقعة تحت الانتداب البريطاني . يديرها مندوب سام[2] انتدبته بريطانيا ، بصفتها دولة منتدبة عن لدن عصبة الأمم . ويساعده في إدارته مجلسان : مجلس استشاري ، وآخر تنفيذي . فالمجلس الاستشاري مؤلف من : المندوب السامي (رئيساً) والسكرتير العام ، والنائب العام ، والسكرتير المالي ، ومدير البوليس ، ومدير الصحة ، ومدير الأشغال ، ومدير المعارف ، ومدير الزراعة ومصايد الأسماك ، ومدير الجمارك والتجارة والمكوس ومدير السكك الحديدية ، وحكام الألوية ، ومدير البرق والبريد ، ومدير مصلحة الإحصاء والمهاجرة ، ومدير تسجيل الأراضي ، والمستشار الاقتصادي ، ومدير مصلحة العمل (أعضاء) .

وأما المجلس التنفيذي فمؤلف من المندوب السامي (رئيساً) ، والسكرتير العام ، والنائب العام ، والسكرتير المالي ، وحاكم لواء القدس فقط (أعضاء) .

والقدس -كما قلنا- مركز اللواء الذي يحمل نفس الاسم : لواء القدس . وهو مؤلف من أربعة أقضية هي :

١ . القدس
٢ . بيت لحم -أريحا
٣ . خليل الرحمن
٤ . رام الله

أما قضاء القدس : فيتبعه (٦٦) قرية هي : أبو ديس ، أم طوبا ، بتير ، بيت دقو ،

---

(١) إليك أسماء الألوية الستة التي تتكون منها فلسطين في الوقت الحاضر (١٩٤٧) : (لواء القدس) ويتبعه أقضية القدس ، ورام الله ، والخليل ، وبيت لحم -أريحا . (لواء اللد) ويتبعه أقضية حيفا ، وعكا . (لواء الخليل) ويتبعه أقضية الناصرة ، وطبريا ، وصفد ، وبيسان ، (لواء السامرة) ويتبعه أقضية نابلس ، وطولكرم ، وجنين ، (لواء غزة) ويتبعه أقضية غزة ، وبير السبع .

(٢) ذكرنا أسماء جميع المندوبين الذين تولوا الحكم بفلسطين في آخر الفصل الذي خصصناه للاحتلال الإنكليزي .

بيت حنينا ، بيت اجزا ، بيت اكسا ، بيت عنان ، بيت جمال ، بيت محسير ، بيت نوبا ، بيت صفافا ، بيت سوريك ، بيت ثول ، بيت أم الميس ، بدو ، بير نبالا ، البريج ، جبعة ، جرش ، الجيب ، الجديرة ، الجورة ، حزما ، خربة اسم الله ، خربة العمور ، خربة اللوز ، دير أبان ، دير الشيخ ، دير رافات ، دير ياسين ، دير عمرو ، رافات ، الرام ، ساريس ، سلوان ، شرفات ، شعفاط ، أشوع ، صاطاف ، صوبا ، صرعة ، صور باهر ، الطور ، عسلين ، العيزرية ، العيسوية ، عين كارم ، عين رافا ، عرطوف ، عقور ، لفتا ، عناتا ، العنب ، قالونيا ، قطنه ، قلندية ، القسطل ، القبيبة ، كسلا ، كفر عقب ، المالحة ، مخماس ، النبي صموئيل ، نطاف ، الولجة ، وهناك عشيرة واحدة هي : السواحرة ، يعيش قسم منها في دور حجرية . وثماني مستعمرات يهودية : موتزا الفوقا . رامات راحيل . موتزا التحتا . معلى . قريات عنبيم . نبي يعقوب . عطاروت . هارطوف .

وأما قضاء بيت لحم -أريحا : ففيه أربع مدن هي : بيت لحم . بيت ساحور . بيت جالا . أريحا . و١٦ قرية هي : أرطاس . بيت فجار . بيت عطاب . البحر الميت . الخضر . حسان . رأس أبو عمار . دير الهوى . السفلى . علار . العوجا . القبو . المغطس . نحالين . النويعمة . وادي فوكين . وهناك سبع عشائر هي : الرشايدة العبيدية . التعامرة . الديوك . العريقات . السعايدة . النصيرات . وأربع مستعمرات يهودية هي : كوتسات ها هوكيم . كفر عصيون . ماسوت . كاليا .

وأما قضاء الخليل : فيتبعه (٣٥) قرية هي : أدنا ، بيت جبرين . بيت نتيف . بيت كاحل . بيت أولا ، بيت أومر . برقوسيا . بني نعيم . تفوح . ترقوميا . تل الصافي . جبعة . حلحول . خاراس . دير الدبان . دير نخاس . الدوايمة . دورة . رعنا . الريحية . زكريا . ذكرين . زيتا . سعير . سنابرة . أم برج . السموع . الشيوخ . صوريف . الظاهرية . عجور . القبية . كدنا . مغلس . نوبا . يطا . وهناك ثلاث عشائر تابعة للخليل وهي : الجهالين (هما فخذان : الزويديون . والفرجات) . والصرايعة .

وأما قضاء رام الله : فيتألف من مدينتين وهما : رام الله . البيرة . ومن (٥٨) قرية هي : أبو شخيدم . أبو قش . أم صفا . برقا . بيتين . بيرزيت . برهام . بيت ريما . بيتللو . بيت عور الفوقا . بيت عور التحتا . بيت سيرا . بيت لقيا . بيتونيا . ترمسعيا . جفنا . جمالاً . الجانية . جلجليا . جيبيا . خربة أبو فلاح . خربثا المصابح . دورا القرع . دير دبوان . دير بزيع . دير جرير . دير عمار . دير أبو مشعل . دير نظام . دير

السودان . دير غسانة . رأس كركر . رمون . سلواد . سنجل . سردة . سفا . الطيبة . الطيرة . عبوين . عين سينيا . عاروره . عجول . عين قينيا . عين عريك . عابود . عين يبرود . عطارة . قراوة . كفر نعمة . كفر مالك . كفر عين . كوبر . المزرعة القبلية . المزرعة الشرقية . مزارع النوباني . النبي صالح . يبرود .

وليس في قضاء رام الله عشائر بدوية ولا مستعمرات يهودية .

والكشف الآتي يبين لك عدد المدن والقرى والعشائر والمستعمرات في كل قضاء من الأقضية الأربعة التابعة للواء القدس (١٩٤٦) ، وكذلك عدد السكان في كل قضاء :

اسم القضاء	عدد المدن	عدد القرى	عدد العشائر البدوية	عدد اليهودية	يكون	نفوس
القدس	١	٦٦	١	٨	٧٦	٢٢٨,٥٤٠
الخليل	١	٣٥	٣	–	٣٩	٨٩,٦٥٠
رام الله	٢	٥٨	–	–	٦٠	٤٧,٢٨٠
بيت لحم – اريحا	٤	١٦	٧	٤	٣١	١٩,٤١٠
	٨	١٧٥	١١	١٢	٢٠٦	٣٨٤,٨٨٠

لا نعلم بالضبط كم كانت إدارة القدس ولواؤها تكلف الحكومة . ولكننا نعلم أنها (أي الحكومة) أنفقت في سبيل إدارة فلسطين كلها وفي آخر سنة من الانتداب (١٩٤٨/١٩٤٧) (١,٠٧٥,٦٨٠) جنيهاً (بما في ذلك رواتب المندوب السامي والحكام وموظفي الإدارة والسكرتيرية) . هذا من مجموع النفقات التي بلغت في تلك السنة (٢٤,٦٣٥,٠٦٦) جنيهاً . وكان في القدس عشرة آلاف موظف بين كبير وصغير ، ومن جميع الأجناس والأديان .

وأما واردات الحكومة في تلك السنة فقد بلغت (٢٣,٥٥٩,٦٨١) جنيهاً . معظمها جاء عن طريق الجمارك (١٠,٥٠٠,٠٠٠) وبعضها من ضريبة الدخل (٢,٥٠٠,٠٠٠) ومن ضريبة الأملاك في القرى (٥٧٥,٠٠٠) وضريبة الأملاك في المدن (٨٠٠,٠٠٠) ومن ضريبة الحيوانات (٢٠٠,٠٠٠) ومن رسوم التمنا (٣٥٠,٠٠٠) أو من أرباح الشركات (٥٠٠,٠٠٠) ومن رسوم النقل على الطرق

والسيارات (٣١٠,٠٠٠) ومن آلات الراديو (١٠٠,٠٠٠) ومن رسوم الدخان (١,٢٥٠,٠٠٠) والكحول (٧٠٠,٠٠٠) والملح (٣٥,٠٠٠) والكبريت (٦٧,٥٠٠) .

ومن رسو المحاكم (١٤٠,٠٠٠) وتسجيل الشركات (١٠٠,٠٠٠) وتسجيل الأراضي عن طريق الوراثة أو البيع وما إلى ذلك (٩٠٠,٠٠٠) ومن أجور البرق والبريد والهاتف (١,٨٨٥,٠٠٠) ومن أملاك الدولة عن طريق التأجير (٦٤,٧٠٠) ومنها عن طريق البيع (١٨,٥٠٠) ومن المواني والسكك الحديدية (٥٧,٦٩١) . وهناك بنود مختلفة تدر على خزينة فلسطين من الوارد ما يجعلها في غير حاجة للإعانات من الخارج . هذا مع العلم بأنه كان هنالك دوائر عديدة لا لزوم لها ، وعدد كبير من الموظفين كانت البلاد في غنى عنهم . ولا سيما ذلك الجيش الجرار من الموظفين البريطانيين الذين كانوا في كل سنة يزدادون . ومهمتهم قبل كل شيء توطيد أركان الانتداب وبالحرى الحكم الأجنبي في البلاد . وما كان أكثرهم من النزاهة بحيث يمكن إبعادهم عن مجال الشبهات! . .

وفي قطاع القدس قوة من البوليس لحفظ الأمن . وكانت هذه القوة ، في أواخر عهد الانتداب ، تقوم على الترتيبات التالية :

(آ) في المدينة : ثمانية مراكز للبوليس فيها من الضباط وأفراد الشرطة ما نثبته في البيان التالي :

عدد المراكز	اسم المركز	عدد افراد الشرطة				عدد الضباط			
		انكليز	عرب	يهود	مجموع	انكليز	عرب	يهود	مجموع
١	القشلة	٤٠	٨٠	–	١٢٠	١	١	–	٢
٢	حارة اليهود	–	–	٢٥	٢٥	–	–	١	١
٣	الحرم	–	٦	–	٦	–	١	–	١
٤	مياشورم	٧٠	١٢	٢٥	١٠٧	١	١	–	١
٥	محنة يهودا	٨٠	٩٥	٦٠	٢٣٥	١	–	١	٢
٦	كولونية الالمان	٥٠	٣٣٠	١٣	٣٩٣	١	١	–	٢
٧	انجلو – فلسطين	٢٥٠	٢٥٥	٩٣	٥٩٨	١	١	–	٢
٨	المقر العام	–	–	–	–	٨	–	–	٨
		٤٩٠	٧٧٨	٢١٦	١٤٨٤	١٣	٥	٢	٢٠

السودان . دير غسانة . رأس كركر . رمون . سلواد . سنجل . سردة . سفا . الطيبة . الطيرة . عبوين . عين سينيا . عارورة . عجول . عين قينيا . عين عريك . عابود . عين يبرود . عطارة . قراوة . كفر نعمة . كفر مالك . كفر عين . كوبر . المزرعة القبلية . المزرعة الشرقية . مزارع النوباني . النبي صالح . يبرود .

وليس في قضاء رام الله عشائر بدوية ولا مستعمرات يهودية .

والكشف الآتي يبين لك عدد المدن والقرى والعشائر والمستعمرات في كل قضاء من الأقضية الأربعة التابعة للواء القدس (١٩٤٦) ، وكذلك عدد السكان في كل قضاء :

اسم القضاء	عدد المدن	عدد القرى	عدد العشائر البدوية	عدد اليهودية	يكون	نفوس
القدس	١	٦٦	١	٨	٧٦	٢٢٨,٥٤٠
الخليل	١	٣٥	٣	-	٣٩	٨٩,٦٥٠
رام الله	٢	٥٨	-	-	٦٠	٤٧,٢٨٠
بيت لحم - اريحا	٤	١٦	٧	٤	٣١	١٩,٤١٠
	٨	١٧٥	١١	١٢	٢٠٦	٣٨٤,٨٨٠

لا نعلم بالضبط كم كانت إدارة القدس ولواؤها تكلف الحكومة . ولكنا نعلم أنها (أي الحكومة) أنفقت في سبيل إدارة فلسطين كلها وفي آخر سنة من الانتداب (١٩٤٨/١٩٤٧) (١,٠٧٥,٦٨٠) جنيهاً (بما في ذلك رواتب المندوب السامي والحكام وموظفي الإدارة والسكرتيرية) . هذا من مجموع النفقات التي بلغت في تلك السنة (٢٤,٦٣٥,٠٦٦) جنيهاً . وكان في القدس عشرة آلاف موظف بين كبير وصغير ، ومن جميع الأجناس والأديان .

وأما واردات الحكومة في تلك السنة فقد بلغت (٢٣,٥٥٩,٦٨١) جنيهاً . معظمها جاء عن طريق الجمارك (١٠,٥٠٠,٠٠٠) وبعضها من ضريبة الدخل (٢,٥٠٠,٠٠٠) ومن ضريبة الأملاك في القرى (٥٧٥,٠٠٠) وضريبة الأملاك في المدن (٨٠٠,٠٠٠) ومن ضريبة الحيوانات (٢٠٠,٠٠٠) ومن رسوم التمنا (٣٥٠,٠٠٠) أو من أرباح الشركات (٥٠٠,٠٠٠) ومن رسوم النقل على الطرق

والسـيـارات (٣١٠,٠٠٠) ومن آلات الراديو (١٠٠,٠٠٠) ومن رسـوم الدخـان (١,٢٥٠,٠٠٠) والكحول (٧٠٠,٠٠٠) والملح (٣٥,٠٠٠) والكبريت (٦٧,٥٠٠) .

ومن رسو المحاكم (١٤٠,٠٠٠) وتسجيل الشركات (١٠٠,٠٠٠) وتسجيل الأراضي عن طريق الوراثة أو البيع وما إلى ذلك (٩٠٠,٠٠٠) ومن أجور البرق والبريد والهاتف (١,٨٨٥,٠٠٠) ومن أملاك الدولة عن طريق التأجير (٦٤,٧٠٠) ومنها عن طريق البيع (١٨,٥٠٠) ومن الموانى والسكك الحديدية (٥٧,٦٩١) . وهناك بنود مختلفة تدر على خزينة فلسطين من الوارد ما يجعلها في غير حاجة للإعانات من الخارج . هذا مع العلم بأنه كان هنالك دوائر عديدة لا لزوم لها ، وعدد كبير من الموظفين كانت البلاد في غنى عنهم . ولا سيما ذلك الجيش الجرار من الموظفين البريطانيين الذين كانوا في كل سنة يزدادون . ومهمتهم قبل كل شيء توطيد أركان الانتداب وبالحرى الحكم الأجنبي في البلاد . وما كان أكثرهم من النزاهة بحيث يمكن إبعادهم عن مجال الشبهات! . .

وفي قطاع القدس قوة من البوليس لحفظ الأمن . وكانت هذه القوة ، في أواخر عهد الانتداب ، تقوم على الترتيبات التالية :

(آ) في المدينة : ثمانية مراكز للبوليس فيها من الضباط وأفراد الشرطة ما نثبته في البيان التالي :

عدد المراكز	اسم المركز	عدد افراد الشرطة				عـدد الضباط			
		انكليز	عرب	يهود	مجموع	انكليز	عرب	يهود	مجموع
١	القشلة	٤٠	٨٠	–	١٢٠	١	١	–	٢
٢	حارة اليهود	–	–	٢٥	٢٥	–	–	١	١
٣	الحرم	–	٦	–	٦	–	١	–	١
٤	مياشورم	٧٠	١٢	٢٥	١٠٧	١	١	–	١
٥	محنة يهودا	٨٠	٩٥	٦٠	٢٣٥	١	–	١	٢
٦	كولونية الالمان	٥٠	٣٣٠	١٣	٣٩٣	١	١	–	٢
٧	انجلو – فلسطين	٢٥٠	٢٥٥	٩٣	٥٩٨	١	١	–	٢
٨	المقر العام	–	–	–	–	٨	–	–	٨
		٤٩٠	٧٧٨	٢١٦	١٤٨٤	١٣	٥	٢	٢٠

وعلى رأس هذه القوة نائب لمدير البوليس يحمل تاجاً ، وهو إنكليزي (مستر) . وخمسة مساعدون للنائب بثلاث نجم ، وهؤلاء أيضاً إنكليز ومفتشان أولان بنجمة واحدة : هما أيضاً إنكليز . وبلغت نفقات قوة البوليس في المدينة في آخر سنة من سنوات الإحتلال (١٩٤٧) (٩٦,١٥٠) جنيهاً فلسطينياً .

(ب) وأما رجال البوليس المسؤولون عن القرى التابعة لقطاع القدس ؛ فمركزهم في القشلة التركية القديمة داخل السور . وهم موزعون في قرى القدس كما يأتي :

عدد المراكز	اسم المركز	عدد افراد الشرطة				عـــــدد الضباط			
		انكليز	عرب	يهود	مجموع	انكليز	عرب	يهود	مجموع
١	اريحا	٢٦	٤٩	–	٧٥	١	١	–	٢
	(أ) طلعة الدم	–	١٥	–	١٥				
	(ب) البحر الميت	–	–	٣٩	٢٩				
	(ج) جسر اللنبي	١٢	٢٠	–	٣٢				
٢	بيت لحم	٣٢	٥٥	–	٨٧	١	١	–	٢
٣	قرية العنب - أبو غوش	٢٥	٢٨	–	٥٣	١	١	–	٢
٤	عرطوف	١٦	١٨	–	٣٤	–	–	–	–
٥	المركز	٢٢	٦٢	–	٨٤	٢	٢	–	٤
		١٣٣	٢٤٧	٣٩	٤١٩	٥	٥	–	١٠

وعلى رأس هذه القوة نائب لمدير البوليس ، وقد كان هذا في آخر سنة الانتداب عربياً (وهو فايز بك الإدريسي) .

(ج) وهناك سجن للرجال في القدس . يعمل فيه مئة وعشرة رجال من البوليس . خمسة منهم ضباط (ثلاثة إنكليز وعربيان) ومئة وخمسة أنفار برتب مختلفة : خمسة عشر منهم إنكليز ، وسبعون عرب ، وعشرون يهود . وفي بيت لحم

سجن للنساء . فيه واحد وأربعون سجّاناً . أحدهم ضابط ، وهو إنكليزي ؛ والباقون أنفار : خمسة إنكليز ، وخمسة وثلاثون عرب .

(د) في رام الله : مركز واحد هو في مدينة رام الله . وأربعة مخافر هي في(١) محطة الإذاعة و(٢) قرية الطيبة و(٣) النبي صالح و(٤) رأس اللبن . وإليك بيان القوة الموجودة في المركز المخافر :

عدد المراكز	اسم المركز أو النقطة	عدد افراد الشرطة				عـــــدد الضباط			
		انكليز	عرب	يهود	مجموع	انكليز	عرب	يهود	مجموع
١	رام الله	٣٢	٣٢	–	٦٤	١	٢	–	٣
٢	محطة الإذاعة	١	٥١	–	٥٢				
٣	قرية الطيبة	–	١٦	–	١٦				
٤	النبي صالح	١٤	٢٢	–	٣٦				
٥	رأس اللبن	–	٢٣	–	٢٣				
		٤٧	١٤٤	–	١٩١	١	٢	–	٣

(هـ) في الخليل : قطاع الخليل ينقسم إلى ثلاثة مراكز : هي (١) الخليل و(٢) الضاهرية و(٣) بيت جبرين . وإليك بيان القوة الموجودة في هذه المراكز :

عدد المراكز	اسم المركز	عدد افراد الشرطة				عـــــدد الضباط			
		انكليز	عرب	يهود	مجموع	انكليز	عرب	يهود	مجموع
١	الخليل	٣٠	٣٤	–	٦٤	١	١	–	٢
٢	الضاهرية	١٤	١٧	–	٣١	١	١	–	٢
٣	بيت جبرين	١٤	١٧	–	٣١	١	١	–	٢
٤	المركز (في الخليل)	–	–	–	–	١	١	–	٢
		٥٨	٦٨	–	١٢٦	٤	٤	–	٨

فيزورون الأماكن المقدسة . . ويعودون إلى بلادهم . . ولقد أحصت الحكومة عدد السياح الذين دخلوا فلسطين في السنوات العشر التي مرت بين عامي (١٩٢٦ و١٩٣٦) بما يقرب من خمسين ألفاً في السنة . فإذا ما قدّرنا أن معظم هؤلاء السياح ، إن لم نقل كلهم ، يهبطون مدينة القدس -لأن الغاية من مجيئهم هي زيارة الأماكن المقدسة ، والأماكن المقدسة موجودة فيها- وأن ما ينفقه الواحد منهم أثناء وجوده في هذه المدينة لا يقل عن أربعين جنيهاً ؛ علمنا أن ما تجنيه القدس من هذا المورد وحده لا يقل عن مليونين من الجنيهات .

وأما الرواتب التي يتقاضاها الموظفون ، سواء أكانوا من أبناء القدس أم ممن وفدوا إليها بقصد العمل في مختلف المصالح التجارية والدواوين الرسمية ، فإنها مورد غزير لا يستهان به . لا بل إنه قد يفوق الموارد الأخرى . إنه وإن لم تكن لدينا أرقام موثوقة عن الموظفين المستخدمين في مختلف المصالح التجارية ، إلا أننا نستطيع الجزم -استناداً إلى ما لدينا من أرقام رسمية- أنه يعيش في القدس في يومنا هذا (١٩٤٧م) عشرة آلاف موظف حكومي في رتب ودرجات مختلفة ، وأن الأموال التي ينفقها هؤلاء في المدينة من أجل إعاشتهم وإعاشة عيالهم وملابسهم ومساكنهم من الضخامة بحيث تستحق التدوين .

وأما حركة البناء والعمران ، فحدث عنها ولا حرج . إنها تدر على القدس أموالاً كثيرة . فإن الازدياد المستمر في عدد السكان جعل حركة البناء أيضاً في تقدم مستمر . وعادت هذه بالربح الوفير ، لا على العمال والبنائين فحسب ، بل على تجار الخشب والحديد والإسمنت وسائر مواد البناء أيضاً ، حتى وعلى أصحاب الأراضي ومقالع الحجارة . فإن القدس مليئة بهذا النوع من المقالع . ويخرج منها أنواع كثيرة من الحجارة ذات الألوان المختلفة . وحجر القدس من أحسن الحجارة وأجملها وأقواها . ولا سيما النوع المعروف بالحجر المزي الصلب . . أبيض وأحمر . . لونه يسر الناظرين . ويشتغل في هذه المحاجر عدد كبير من أصحاب الأراضي والعمال الخبيرين في قلع الحجارة وقطعها وتهذيبها وبنائها ، وكلهم عرب . والعامل العربي في يسر . يتقاضى أجراً لا بأس به ، إذا ما قيس بالأجور التي يتقاضاها العمال في البلاد الأخرى . فقد بلغ أجر العامل في اليوم الواحد (٧٥٠) ملاً . وأكثرهم عمال بناء . يتناول الواحد منهم جنيهاً واحداً في اليوم . وأقل العمال أجوراً هم عمال الطرق . فإن الواحد منهم يتقاضى (٢٥٠) ملاً . وما كانت القدس تعرف ساعات العمل . لا . ولا كان فيها

قوانين للعمال . وأما اليوم فإن ذلك كله مرتبط بنظام .

وفي القدس عدد كبير من التجار يملكون ثروات طائلة .

ومع هذا فإن نفقات العيش في القدس مرتفعة ، بمقدار ما فيها من حركة وربح . فإن الأسرة الواحدة من الأسر الوسطى المؤلفة من خمسة أشخاص (رب البيت وامرأته وأولاده الثلاثة) لا يكفيها ، من أجل عيشها عيشة شريفة راضية ، أقل من أربعين جنيهاً في الشهر . ذلك لأن أسعار الحاجيات في ارتفاع مستمر ، ولأن مستوى المعيشة قد ارتفع ، في السنوات الأخيرة ، ارتفاعاً يلفت الأنظار . وحدث ، بعد الحربين العالميتين ، الأولى والثانية ، تغيير في ذوق أبناء المدينة من حيث اللباس والطعام والأثاث المنزلي ووسائل النقل والوقاية والتدفئة وغير ذلك من وسائل الحضارة الحديثة ، كما حدث تغيير في العقول والأذهان وفي تذوق مفاهيم الحياة .

وهذا ما يحدوني لذكر نبذ من أخلاق بنيها وطباعهم في السطور التالية :

أخلاق وطباع : إذا جاز لي أن أبدي رأيي في أخلاق بني قومي وبلدي وطباعهم ، قلت : إنني ، على الرغم من كل ما قيل عنهم ولهم ، ما برحت عند حد الاعتقاد أن لهم من الصفات ما يستطيعون أن يباهوا به أترابهم من الأقوام المجاورة لهم . وإني لذاكر من تلك الصفات : الزهد ، والتقوى ، والحلم ، والعفة ، والمروءة ، والنجدة ، والصدق في القول ، والابتعاد عن الأذى ، وحب الخير ، والامتناع عن الخمر والميسر والمخدرات ، والاعتدال في الحب والكره .

وقد قطعوا ، من حيث إدراكهم حقائق الأشياء ، شوطاً بعيداً .

فما عادت الفتاة المقدسية ، مثلاً ، تعبأ بالحجاب كما كانت تفعل أمها من قبل . وكثيراً ما نراها تخرج من منزلها سافرة . وما عاد الفتى المقدسي يتمسك بالمعتقدات والأساطير القديمة البالية .

إنهم ، في الحقيقة ، من سعة الإدراك والفهم على جانب خليق بالتقدير . يتتبعون حوادث الكون ، ولا سيما ما يتعلق منها بمصير وطنهم وأمتهم ، باهتمام يلفت النظر . ويقرأون من الكتب والصحف والمجلات العلمية والأدبية أكثر مما يقرأه أبناء الشرقين : الأوسط والأدنى . والمتعلمون الذين أرسلهم آباؤهم لإتمام دراساتهم الجامعية كثيرون . وعددهم ما برح في ازدياد مستمر .

ولولا الحكم الأجنبي ، وما جره هذا على البلاد من ويلات ، لما بقي فيها أميّ واحد . ذلك لأن الميل لمعرفة الحقيقة وفعل الخير ، كامن في نفوس أهل القدس . وقد

صهرتهم حوادث الأيام : من زمن الصليبيين . . إلى زمن الأتراك العثمانيين . . إلى زمن البريطانيين . . . فقد كانوا دائماً وأبداً في صراع دائم مع الدهر وأحداثه . . وفي قلق مستمر . . وتحفز لما قد يأتي به في الغد من مآس جديدة . . وللأحداث أثرها في تكوين الطباع . . ومن هنا جاءت صفات الخوف والشك والحذر . . ومن هنا أيضاً جاء القول الذي ألصقه بهم بعض الزوار والسائحين الذين نزلوا هذه المدينة وغادروها قبل أن يتمكنوا من دراسة طباع أهلها دراسة كاملة . فاكتفوا بالقول : «ميتها لم ، وصحبتها ما بتم! . .» وقولهم أيضاً : «القدس طشت من ذهب ، مليء بالعقارب! . .» .

هذا ، وقد اتسعت صدورهم للنقد النزيه . فتراهم يرحبون بالتوجيه الصحيح ، ويسيرون على هداه ، سيما إذا كان هذا مصحوباً بالحجة الدامغة . وكثيراً ما يعملون بالقول المأثور- : وجادلهم بالتي هي أحسن . .

وبعد أن كانوا يخبطون خبط عشواء في سيرهم وتفكيرهم ، وينتهجون سبل الإرهاب والقسوة في بيوتهم ومنازلهم ؛ راحو يحكمون العقل والمنطق في كل عمل من أعمالهم .

ومع هذا . فإنهم لا يخلون من صفات تعتبر -بالنسبة لمفاهيم هذا العصر- نقائص . . والكمال لله وحده . . ومن صفاتهم التي يؤخذون عليها : أنهم يميلون إلى (المجاملة) أكثر من اللزوم! . . وأنهم كثيراً ما يسترسلون في التمييز بين الأسر الكريمة(!) والأسر غير الكريمة (!) . . مع أن الزمن الذي كانت البغضاء متأصلة فيه بين قيس ويمن بين أتباعهما ، قد ولى! . . إنهم لا يزالون متأثرين بعقلية الماضي . فتراهم -إذا ما أرادوا أن يفاضلوا بين زيد أو عمرو من الناس- يبحثون عن أصله وفصله وعن العشيرة التي ينتمي إليها هذا وذاك! . . وقل أن يقيموا وزناً لعلم هذا ، أو خلق ذاك! . . ومن هذه العادة ينبثق تغنيهم بمجد الأباء والأجداد! . . وقد استغل ولاة الأمور في العهود السابقة هذا الميل ، وعملوا على تغذيته وإنمائه! . . فكانوا يعهدون إلى زيد من الناس بمنصب كبير ، إذا ما علموا أنه ينتمي إلى إحدى الأسر المعروفة! . . ثم لا يلبثون أن يقيلوه من ذلك المنصب ، ويولوا بدلاً منه شخصاً آخر من الأشخاص الذين ينتمون إلى أسرة أخرى! . وهكذا دواليك! . .

إنها . . هي هي . . السياسة الغاشمة نفسها . . التي اتبعها الأجنبي الدخيل . . والتي تستند على المبدأ القائل : فرق تسد . . وهكذا كانت الأسرة المقدسية تقتتل (!)

من أجل الوصول إلى كرسي الزعامة! . . ولكن هذه العادة السقيمة آخذة في الزوال .

والمرأة العربية في هذا البلد وإن كانت ، إلى حد محدود ، أسعد حالاً مما كانت عليه في الأزمنة السالفة ؛ إلا أنها ما برحت في حاجة لمن يأخذ بيدها . ذلك لأن حرية الرأي عند الزواج ما برحت -إلى حد يذكر- مكبوتة . وكثيراً ما سمعنا عن فتاة زفت -على الرغم منها- إلى شاب لم تره! . . وقد لا تكون راغبة في الزواج منه . . أضف إلى ذلك غلاء المهور . الأمر الذي كان له أسوأ الأثر في المجتمع . مع العلم أن حوادث الطلاق وتعدد الزوجات قد انخفضت إلى حد كبير . وكذلك قل عن حوادث الزنا . . وما عاد الناس يرغمون نساءهم على البقاء بين الجدران . . وقد قطعت بيت المقدس شوطاً بعيداً في ميدان العلم والأدب والتهذيب . كما قطع ابن القدس شوطاً غير قصير في ميادين الطب والهندسة والأعمال الفنية الأخرى .

وانطلق الجميع نحو هدف معين : هو التفكير في مصير وطنهم وأمتهم . فإنك تكاد لا تغشى مجلساً من مجالسهم ، إلا وتسمعهم يتحدثون عما كان وما سيكون . ومن أصدق تمنياتهم أن يروا بلاد العرب كلها عزيزة حرة مستقلة في وحدة عربية تشمل الجزيرة العربية كلها : من أدناها إلى أقصاها .

وإنك لترى المسلمين والمسيحيين من أبناء هذا البلد المقدس ، يسيرون في هذا المضمار على نهج واحد . إنهم متقاربون كل القرب من حيث الأخلاق والطباع ، ومن حيث المبادئ السياسية والاجتماعية أيضاً . وقد ازدادت أوصر المحبة والتآخي متانة بعد زوال الحكم التركي وفي غضون الانتداب ، بسبب مطامع اليهود والنكبات التي ألمت بالمسلمين والمسيحيين على حد سواء . عندئذ عقدوا العزم على أن ينسوا الماضي ، يوم كان الأخ يقتل أخاه من أجل عقيدته الدينية! وراحوا يعملون على درء الشر يداً واحدة . وقد قاوموا الانتداب والوطن القومي اليهودي ثلاثين عاماً . دون أن يتمكن المستعمرون من تفريق صفوفهم . وكان شعارهم الوحيد . الدين لله ، والوطن للجميع

تلك هي أخلاق بني قومي . ذكرتها بشيء كثير من الإيجاز . وقد يكون من الإنصاف أن أذكر أيضاً ، أن التجارب علمتني أن كل صفة من الصفات التي ذكرتها في الأسطر المتقدمة -الحسنة منها والسيئة- لها استثناءات . . وأن تلك الاستثناءات قد تجدها عند كل طبقة من الناس ، وفي كل بيت وأسرة . .

فالكمال لله وحده . .

ولله في خلقه شؤون . .

الباب الثامن
الأماكن المقدسة

- الأماكن الإسلامية المقدسة
- الأماكن المسيحية المقدسة
- الأماكن اليهودية المقدسة

مساجد القدس وجوامعها

في مدينة القدس اليوم (١٩٤٧) أربعة وثلاثون مسجداً . هذا بالإضافة إلى المسجدين الكبيرين :

مسجد الصخرة والمسجد الأقصى . سبعة وعشرون منها في المدينة القديمة داخل السور ، وسبعة في المدينة الجديدة خارج السور .

أما مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى فقد ذكرت تاريخ إنشائهما في العهد الأموي ، وفي العهود التي تلته . ويجري الآن ، وأنا أدفع بكتابي هذا إلى المطبعة ، عمل من أضخم أعمال التعمير التي قامت في مسجد الصخرة منذ اليوم الذي بناه عبد الملك بن مروان (٥٧٢-٦٠١) . إن لم يكن أضخمها طراً .

فقد تم تقوية القبة من الداخل . . . فاستعيض عن خشبها القديم الذي تآكل بفعل السوس بخشب صالح وجديد . . . ورفعت ألواح الرصاص التي كانت تغطيها من الخارج ، فركبت -بدلاً منها- قبة جديدة مصنوعة من الألمنيوم المذهب . . . ورفع الهلال القديم وكان مصنوعاً من النحاس ، فوضع مكانه هلال مصنوع من الألمنيوم المذهب ، تعلوه مانعة الصواعق من البلاتين . وتمت تقوية أساس الجدران من الخارج بالخرسانة المسلحة . وكذلك قل عن الدعامات والأعمدة من الداخل . ورفعت ثلاثة أعمدة كانت قد وهت مع الزمن ، فوضع مكانها ثلاثة أعمدة جديدة : اثنان منها من الناحية الشرقية القبلية للصخرة نفسها والثالث منها إلى الشمال . وها المهندسون ، وأنا اكتب هذه السطور ، يعملون على إصلاح الفسيفساء في القبة من الداخل ، والرخام والقاشاني في جوانب أخرى من المسجد . وتجري عملية الإعمار هذه بإشراف الملك الجريء الشاب . . . الملك حسين بن طلال . . . وقد انتدب الملك لجنة . اسماها : (لجنة إعمار المسجد الأقصى المبارك والصخرة المشرفة) . وهي مؤلفة من الشيخ محمد الشنقيطي قاضي القضاة (رئيساً) ، والشيخ عبدالله غوشة رئيس الهيئة العلمية الإسلامية وحسن الكاتب محافظ القدس والأماكن المقدسة ، ومن مدير الأوقاف العام وأحد كبار التجار والملاكين أعضاء . وأما الناحية الفنية . . . فيشرف عليها عدد من كبار المهندسين المصرين هم : المهندس حسين شافعي والمهندس محمد عباس بدر والمهندس كامل صلاح الدين الكيلاني والمهندس صالح

أحمد الشواربي ومساعده المهندس عبدالمنعم عبدالوهاب . وعهد بالعمل إلى رجل من كبار المقاولين السعوديين هو محمد بن لادن . وهو محسان كبير . وينفق على هذه التعميرات من مال الوقف ومن أموال تبرع بها عدد من ملوك العرب والمسلمين وأمرائهم . ولاسيما الملك سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية الذي تطوع لسد العجز فيما إذا لم تكف المبالغ الموجودة لتعمير هذه المسجد تعميراً يتناسب وجلال قدره . فقد بدأ التعمير الجديد في شهر أيار (مايو) سنة (١٩٨٥) والأمل وطيد بانتهائه في مثل هذا الشهر من سنة (١٩٦٢) . الأمر الذي سجلته في كتابي : (تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك) . فليرجع إليه من شاء : وأما مساجد القدس وجوامعها الأخرى ؛ فإليك أسماؤها ومواضعها ، كما رأيتها يعني في اليوم السادس عشر من شهر تشرين (أكتوبر ١٩٤٧) . وقد اقتبست بعض أخبارها من سجلات الوقف في القدس :

١- جامع قبة موسى : داخل الحرم أمام باب السلسلة ، تقام فيه الصلوات الخمس .

٢- جامع باب حطة : داخل الحرم عند باب حطة ؛ تقام فيه الصلوات الخمسة .

٣- جامع كرسي سليمان : داخل الحرم في الجهة الشرقية ، تقام فيه الصلوات الخمسة .

٤- جامع المغاربة : داخل الحرم عند باب المغاربة ، فيه الآن المتحف ودار الكتب الإسلامية .

٥- جامع باب الغوانمة : داخل الحرم عند باب الغوانمة ، مهجور .

٦- جامع دار الإمام : داخل الحرم عند باب المجاهدين ، مهجور .

٧- جامع خان زيت : خارج الحرم داخل السور في سوق خان زيت ، تقام فيه الصلوات الخمس .

٨- جامع حارة اليهود الكبير : خارج الحرم في الطرف القبلي لحارة اليهود له مئذنة وهو اليوم مخفر للبوليس .

٩- جامع حارة اليهود الصغير : خارج الحرم في الطرف الشمالي لحارة اليهود ، يصلي فيه أهل السوق صلاة الظهر والعصر فقط . وهو من غير مئذنة .

١٠- جامع سويقة علوان : خارج الحرم في سويقة علون ، تقام فيه الصلوات الخمس .

١١- جامع القلعة : داخل القلعة بباب الخليل ،له مئذنة ، ولكن لا تقام فيه الصلوات .

١٢- جامع الخانقاه : خارج الحرم . داخل السور . إلى الشمال الشرقي من كنيسة القيامة ، له مئذنة . وتقام فيه الصلوات الخمسة .

١٣- جامع قمبر : خارج الحرم . داخل السور على يمين الداخل من الباب الجديد ، له قبة . وليست له مئذنة . الذي بناه مدفون فيه .

١٤- الجامع العمري : خارج الحرم . داخل السور . قبلي كنيسة القيامة ، له مئذنة . يغشاه المسلمون في الصلوات الخمس .

١٥- الجامع اليعقوبي : خارج الحرم . داخل السور ، تجاه القلعة بباب الخليل . تقام فيه الصلوات .

١٦- جامع بني حسن : خارج الحرم . داخل السور ، تجاه القلعة بباب الخليل . مهجور .

١٧- جامع حارة الأرمن : خارج الحرم . داخل السور ، بالقرب من دير الأرمن . مهجور .

١٨- جامع طريق النبي داود : خارج الحرم . داخل السور ، على طريق النبي داود . مهجور .

١٩- جامع حارة الجوالدية : خارج الحرم . داخل السور ، أمام دير الإفرنج . جددت عمارته في أيام الملك المنصور قلاون . (٦٨٦-١٢٨٧م) . هو الآن مهجور .

٢٠- جامع الشيخ لولو : خارج الحرم . داخل السور ، بباب العمود ، تقام فيه الصلوات .

٢١- جامع الصغير : خارج الحرم . داخل السور ، بباب العمود ، خلف دكان هدمي .

٢٢- جامع البراق الشريف : خارج الحرم . داخل السور ، في محلة المغاربة بلصق البراق ، تقام فيه الصلوات .

٢٣- جامع خان السلطان : خارج الحرم . السور ، داخل خان السلطان في سوق باب السلسلة تقام فيه الصلوات .

٢٤- جامع القرمي : خارج الحرم . داخل السور ، في حارة القرمي مهجور .

٢٥- جامع حارة النصارى : خارج الحرم . داخل السور على طريق باب خان الزيت . تقام فيه الصلوات .

٢٦- جامع البازار : خارج الحرم . داخل السور في داخل الزاوية ، على باب حطة تقام فيه الصلوات .

٢٧- جامع الزاوية النقشبندية : خارج الحرم . داخل السور ، في سوق البازار . تقام فيه الصلوات .

٢٨- الجامع المسعودي : خارج السور ، في حي سعد وسعيد ، له مئذنة وتقام فيه الصلوات .

٢٩- جامع الشيخ جراح : خارج السور ، في حي الشيخ جراح . له مئذنة وتقام فيه الصلوات .

٣٠ - جامع وادي الجوز : خارج السور في حي وادي الجوز . له مئذنة وتقام فيه الصلوات .

٣١- جامع حجازي : خارج السور ، في حي باب الساهرة . له مئذنة وتقام فيه الصلوات .

٣٢- جامع النبي داود : خارج السور ، في حي النبي داود . له مئذنة ، وتقام فيه الصلوات .

٣٣- جامع عكاشة خارج السور ، في حي زخرون موشة اليهودي . له مئذنة وتقام فيه الصلوات الخمس .

٣٤- جامع المطحنة : خارج السور ، بين النبي داود وحارة الشرف . بالقرب من المطحنة القديمة . وهو اليوم مهجور .

البراق : إنه من الأماكن الإسلامية المقدسة ويعتبره المسلمون جزءاً من أجزاء الحرم الشريف . إن الحائط الذي يحوط الحرم من الناحية الغربية ، طوله (١٥٦) وارتفاعه(٥٦) قدما . وهو مبني من حجارة قديمة ضخمة يبلغ طول بعضها (١٦) قدما .

يسميه المسلمون : البراق لاعتقادهم أنه المكان الذي ربط عنده النبي صلى الله عليه وسلم براقه ليلة الإسراء : سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله .

ويسميه اليهود : حائط المبكى لاعتقادهم أنه من بقايا هيكلهم القديم ، ذلك الهيكل الذي عمره هيرودس (١٨ق . م) ودكه تيطس (٧٠م) . فراحوا منذ زمن قديم ، ينظرون إليه بعين التقديس . وراحوا يزورونه ، ولا سيما في يوم الصيام (تسعة آب) . وعنده يبكون . ومن هنا جاء اسمه المعروف : (حائط المبكى) إنه ملك يخص المسلمين . وكذلك قل عن الرصيف الكائن أمام هذا الحائط والذي يقف عليه اليهود

عندما يزورون الحائط بقصد البكاء ، ويبلغ عرضه أحد عشر قدماً ومساحته (١٢٠) قدماً مربعاً ، فإنه وقف إسلامي . إنه من أوقاف أبي مدين الغوث أنشئ -هو والأملاك المجاورة له- في زمن السلطان صلاح الدين لمنفعة جماعة من المغاربة المسلمين . ولهذا منع المسلمون في الماضي ، ولا يزالون حتى يومنا هذا يمنعون ، اليهود من جلب المقاعد والكراسي والستائر أو أية أداة من الأدوات : سوى تلك التي تستعمل للجلوس أو العبادة . ولا يسمحون لهم إلا بالوصول إلى المكان . وقامت في الماضي خلافات شديدة بين الفريقين (المسلمين واليهود) حول البراق من هذه الناحية . انتهت كلها بانتصار المسلمين .

قال الرحالة روبنسن[1] الذي زار القدس عام (١٨٣٨م) ما نصه : «مباح لليهود أن يشتروا حق الدنو من مركز هيكلهم وحق الصلاة والبكاء على خرابه وتبدد أمتهم» .

وقال المستر فن[2] الإنكليزي الذي تولى إدارة القنصلية البريطانية في القدس من سنة (١٨٤٥) إلى سنة (١٨٦٣) ما معناه : «يدفع الحاخام باشي إلى (الأفندي[3]) الذي يجاور المبكى ثلاثمائة ليرة إنكليزية كل سنة بدل الإذن له ولليهود معه أن يصلوا هناك» .

واطلعت على أمر أرسله محمد شريف باشا[4] بتاريخ (٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٥٦) للهجرة (١٨٤٠م) إلى متسلم القدس يومئذ أحمد آغادزدار بناء على الأمر الذي تلقاه من السر عسكر . وفيه بحث عن الإرادة الخديوية . وذلك بعد اطلاعه على محضر الجلسة التي عقدها مجلس الشورى بالقدس وقد جاء فيه (أن اليهود قدموا استدعاء لتبليط المحل الملاصق لحائط الحرم (البراق) . ولما كان هذا المحل

---

(١) Biblical Researches un Palestine, by E. Robinson Vol. 1. P. 237

(٢) Stiring times in Jerusalem, by James Finn, Vol. 1. P. 130

(٣) يقول أحد الباحثين في كتاب أصدره بعنوان (وثيقة الدزدار وقضية البراق) ص١١ «لعل المقصود من (الأفندي) في هذه الوثيقة هو وكيل وقف أبي مدين» .

(٤) راجع الصفحة (٧٨) من المجلد الخامس لمجموعة (الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا) للدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأميركية .

الملاصق لحائط الحرم (البراق) ؛ ولما كان ذا المحل داخلاً في وقفية (أبي مدين[1]) (قدّس الله سره) ، ولم يسبق لليهود أن بلطوه ؛ فلا يجوز لهم شرعاً تبليطه الآن . وقد حذر اليهود من (رفع الأصوات وإظهار المقالات) . فقد يعطى لهم الرخصة بزيارة المكان على الوجه القديم . .» .

وجدد اليهود ادعاءهم في زمن الانتداب ، فقامت خلافات شديدة[2] بينهم وبين المسلمين حول الموضوع نفسه ؛ وقد أدت تلك الخلافات إلى قيام ثورة عارمة لا في القدس وحدها ، بل في جميع أنحاء فلسطين . وقد انتهت كلها بتثبيت الوضع الراهن (الستاتيكو) . أي أنه ليس لليهود سوى الدنو من المكان .

زوايا القدس : في القدس اليوم عدد من الزوايا يزود فيها المتدينون والغرباء من حجاج المسلمين والدراويش المنتمين إلى طرائق مختلفة . نذكر منها :

الزاوية النقشبندية : ويسمونها الأزبكية . واقعة في حارة الواد بالقرب من زاوية الحرم الشمالية الغربية ، وعلى بعد بضعة أمتار من باب الغوانمة . بناها مؤسس الطريقة النقشبندية[3] الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند البخاري . بناها لإيواء الغرباء وإطعام الفقراء من مسلمي بخارا[4] وجاوا وتركستان . بناها فوق أرض اشتراها في نفس المكان عثمان بك البخاري المعروف بالصوفي (١٠٢٥هـ-١٦١٦م) . وقد أضيف إليها فيما بعد بعض الغرف يوم تولاها الشيخ حسن بن الشيخ محمد الصالح الأزبكي (١١٤٤هـ-١٧٣١م) . والمتولي الذي يقوم على إدارتها في الوقت الحاضر هو الشيخ يعقوب بن الشيخ رشيد البخاري .

كان مخصصاً لهذه الزاوية في العهد التركي رطلان من الخبز ورطل من اللحم في كل يوم . ثم استبدلت هذه الجراية بمبلغ معين من المال ، يدفع للقيم من خزانة الوقف .

---

(١) هو شعيب بن الحسين الأندلسي . ولد في أسبانيا . وتوفي سنة (٥٩٤هـ-١١٩٧م) .

(٢) اقرأ ما كتبناه عن حوادث البراق في الصفحة (٥٩٤) من هذا الكتاب .

(٣) أسست هذه الطرق خلال القرن الثامن للهجرة . ومن مبادئها العمل بقوله تعالى : «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» .

(٤) إن عدد أفراد الجالية البخارية بالقدس في يومنا هذا خمسون . وهم يشتغلون بتجار الخردوات وسن المدي .

زاوية الهنود : أسسها بابا فريد شكر كنج من مسلمي الهند . وقد هبط هذا بيت المقدس قبل أربعة قرون بقصد العبادة . وهي واقعة في شمال المدينة بداخل السور عند باب الساهرة . كان مخصصاً لها في العهد التركي رطل من الخبز وخمسمئة درهم من الزيت في كل يوم . ثم أصابها ما أصاب الزوايا الأخرى ، فأصبحت تتقاضى ألفاً ومئة قرش وكسور في الشهر . فيها مسجد . ولها وقف بباب حطه . وشيخها الآن الشيخ ناظر حسن الأنصاري . ذكرها مجير الدين في الجزء الثاني من كتابه (الأنس الجليل) ص٣٩٩) فقال : «إنها بظاهر باب الأسباط . وهي قديمة وكانت للفقراء الرفاعية . ثم نزلت بها طائفة من الهنود . فعرفت بهم» .

الزاوية الأدهمية : واقعة خارج السور ، وعلى بعد مئتي متر منه إلى الشمال ، بين باب العمود وباب الساهرة . يعتقد كلير مان غانو أنها هي المغارة التي كان أرميا النبي يعبد ربه فيها . وقد أسماها : Cave of Jeremiah يقيم فيها الآن جماعة من آل البديري . ويطلق عليها خطأً : (الهيدمية)! . .

زاوية الشيخ جراح : في حي الشيخ جراح . فيها مسجد ، وله مئذنة . ذكرها مجير الدين في كتابه[1] فقال : «إنها بظاهر القدس من جهة الشمال . لها وقف ، وظائف مرتبة . واقفها الأمير حسام الدين الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحي أحد أمراء الملك صلاح الدين . توفي في صفر سنة ثمان وتسعين وخمسمئة . ودفن بزاويته المذكورة . وبظاهر الزاوية من جهة القبلة قبور جماعة من المجاهدين يقال إنهم من جماعة الجراحي والله أعلم» .

الزاوية الرفاعية : وتسمى أيضاً (زاوية أبي السعود) لأن أكثر المنتمين إليها من العائلة المعروفة بآل أبي السعود . إنها واقعة بداخل الحرم القدسي إلى الشمال تحت مئذنة باب الغوانمة . كان مخصصاً لها في العهد التركي كمية من الخبز والزيت في كل يوم . ثم صارت تتقاضى أربعمئة قرش وكسور في الشهر . متوليها الشيخ حسن أبو السعود مفتي الشوافعة بالقدس .

الزاوية اللؤلؤية : بباب العمود في داخل السور . إنها وقف بدر الدين لؤلؤ غازي .

الزاوية البسطامية : بحارة المشارقة . واقفها الشيخ عبدالله البسطامي . كانت

---

(١) الأنس الجليل (ج٢ ، ص٣٩٩) .

قائمة في الوجود قبل سنة (٧٧٠هـ-١٣٦٨م) .

الزاوية القادرية : ويسمونها زاوية الأفغان ، لأن أكثر المنتمين إليها منهم . إنها في حارة الواد على بعد بضعة أمتار من الزاوية النقشبندية إلى الجنوب الغربي .

كان مخصصاً لها في العهد التركي تسع أوراق من الخبز ومئتا درهم من الزيت في كل يوم . ثم أصابها ما أصاب الزوايا الأخرى . فأصبحت تتقاضى ستمئة قرش وكسور في الشهر .

في القدس اليوم عشرون أفغانياً بين ذكور وإناث . رئيسهم الحاج عبد الله الأفغاني وهو الذي يتولى شؤون الزاوية . وفي فلسطين ما يقرب من مئتي أفغاني أكثرهم في يافا والآخرون في حيفا والرملة . يشتغلون بالتجارة ، وحراسة البيارات . وهم مشهورون بالشجاعة والأمانة والتمسك بأهداب الدين .

هناك على باب الزاوية بلاطة نقشت عليها الكلمات الآتية : «بسم الله الرحمن الرحيم . هذه زاوية مولانا وسيدنا قطب العارفين وسلطان الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره العزيز . سنة ١٠٤٣هـ-١٦٣٣م» .

الزاوية المولوية : واقعة بحارة السعدية . يقيم فيها المريدون المنتسبون إلى الطريقة المولوية . دخلت هذه الطريقة بيت المقدس في أوائل الحكم العثماني(٩٢٥هـ-١٥١٩م) . وما كاد ينقضي على تأسيسها بضع سنوات حتى اتسعت . فأنشأ مريدوها لها مكاناً بالقدس أسموه : (الخانقاه المولوية) .

ويظهر أن الطابق الأرضي كان في الأصل ديراً ، وكانت فيه كنيسة للاتين . وبعد أن وضع المسلمون يدهم عليه حولوه إلى مسجد . هذا جرى بعد الفتح الصلاحي . وأما الطابق العلوي والمئذنة التي بجانبه ، فإنهما من عمل الأتراك العثمانيين . وإنك لواجد الكتابة التالية منقوشة على جدار إحدى غرف الزاوية العلوية :

«أمر بإنشاء هذا المكان المسمى بخانقاه المولوية خداوندكار بك قومندان لواء القدس الشريف سنة (٩٩٥هـ-١٥٨٦م) .

كانت زاوية القدس في العهد التركي ، تابعة إلى المقر العام في قونية ، حيث يقوم ضريح (جلبي أفندي) شيخ الطريقة المولوية . وكانت فيما مضى ذات نفوذ واسع . وكان لها مريدون كثيرون . ذلك لأنها كانت تتمتع بتأييد السلاطين من بني عثمان . وكان مخصصاً لها في العهد التركي رطل من الخبز ورطلان من اللحم . ثم

أصابها ما أصاب الزوايا الأخرى . وأصبحت تتقاضى (١٤٧٠) قرشاً في الشهر لإطعام الفقراء من رجال الطريقة المولوية الذين يؤمون بيت المقدس . وكان لها أملاك واسعة وأوقاف . وأما في يومنا هذا ؛ فقد تضاءل نفوذها وبيعت أكثر أملاكها ، واندثرت أكثر أوقافها . ولم يبق باسمها سوى دارين في حارة السعدية وحاكورة ومكان الزاوية نفسها . وليس للطريقة المولوية ، في يومنا هذا ، أتباع في بيت المقدس . وليس في الزاوية سوى شيخنا الحالي الشيخ عادل ابن الشيخ أحمد بن الشيخ مصطفى بن الشيخ محمد المولوي . وهو من طرابلس الشام .

زاوية الخانكي : واقعة في حارة النصارى ويسمونها : (الخانقاه الصلاحية) . أسسها صلاح الدين سنة (٥٨٥هـ-١١٨٩م) . وكانت قبل ذلك التاريخ منزلاً لبطاركة الروم الأرثوذكس وداراً للقسس . وقد أخذها منهم الصليبيون . ولما استرد صلاح الدين القدس منهم ، أرجعها (أي أرجع الدار) إلى أصحابها الأولين وهم : الروم . كما أرجع إليهم ممتلكاتهم الأخرى التي كان الصليبيون قد أخذوها منهم . ومنها دار البطركية . ورضي الروم أن يقتطع صلاح الدين من منزل القسس والبطاركة جانباً . فنزل فيه مدة إقامته بالقدس . ثم جعله جامعاً ورباطاً للعلماء الصوفيين . وصارت في الإسلام داراً للمجاهدين .

إنها الآن عامرة . يسكنها القائم عليها وهو من آل العلمي . دخلتها فرأيت أنها تحيط بكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، والمسافة بين غرفتها العلوية وبين قبة الكنيسة من الشرق لا تزيد على خمسة أمتار . لا بل إن سطح الكنيسة وهواءها (وليست قبتها) يتصرف به المسلمون القائمون على أوقاف الخانقاه كما يشاءون ، وهناك على سطح الكنيسة مجريان لتصريف مياه الأمطار في فصل الشتاء : أحدهما (وهو القريب من القبة ويحيط بها إحاطة السوار المعصم) للنصارى ، والثاني (وهو البعيد عن القبة) للمسلمين . أما المجرى الأول فإنه لا يبعد عن القبة أكثر من مترين ، وفيه تجري مياه الأمطار إلى البئر الكائنة في داخل الكنيسة . وأما الثاني فإنه يبعد عن الاول زهاء سبعة أمتار ، وفيه تجري الماء إلى بئر يملكها المسلمون ، في أنابيب أنشأها النصارى لمصلحة المسلمين ، لقاء انتفاعهم (اي النصارى) بسطح الكنيسة وهو كما قلنا من حق المسلمين .

وفي داخل الخانقاه الصلاحية جامع ، قرأت الكلمات الآتية منقوشة على محرابه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة . أشار بإنشاء هذا المحراب وعمارة المجمع المبارك الفقير عيسى بن أحمد العلم عفا الله عنه ورحم سلفه في أيام مولانا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون عز نصره في شعبان سنة (٧٤١ للهجرة–١٣٤٠م) .

ولهذا الجامع مئذنة أنشئت في زمن المماليك (٨٢٠هـ–١٤١٧م) على يد شيخ الخانقاه الشيخ برهان الدين بن غانم .

وهناك ، عند باب شرف الأنبياء الواقع شمال الحرم القدسي ، مكان آخر اسمه : (الخانقاه) ، وهو الآن متخذ مدرسة للإناث . وقد كتب على بابه : «بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه الخانقاه المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى عبدالله بن عبد ربه بن عبدالباري سنجر . ووقف عليها قرية بير نبالا من القدس الشريف وقرية حجلا من أريحا وفرن وطابون وعلوهما بالقدس ودار ومصبنة وستة حوانيت ، ووراقة بنابلس ، وثلاثة حوانيت وأربع طواحين بسلواد . وقف ذلك على هذه الخانقاه» .

وهناك أيضاً ، في حارة السعدية ، خانقاه ثالثة ؛ هي : (الخانقاه المولوية) . وهي التي ذكرناها في السطور السابقة .

الزاوية المجيدية : إنها واقعة في مقام النبي داود إلى الشمال من الضريح نفسه . وهناك بالأحرى أربع زوايا لا زاوية واحدة هي : الزاوية المجيدية ، وزاوية عيال طه ، وزاوية عيال شاكر ، وزاوية عيال خليل .

كان مخصصاً لهذه الزوايا مقدار من الخبز واللحم والزيت في كل يوم . وهي الآن تتقاضى ألفي وخمسمئة قرش في الشهر . متوليها الشيخ جمال الداودي . وأنه ليجدر بك أن تقرأ ، بعد هذا ، ما سنقصه عليك في السطور الآتية عن مقام النبي داود وضريحه ، حيث تقوم الزوايا الأربع المتقدم ذكرها .

مقام النبي داود : من الأمكنة الإسلامية التي يجلّها المسلمون في مدينة القدس : ضريح النبي داود ، والمسجدان الملاصقان له . وتؤلف هذه المجموعة من الضريح والمسجدين المكان الذي يعرف الآن بمقام النبي داود . ويقع المقام على ربوة مرتفعة من الربى التي تتألف منها مدينة القدس . ويسمونها : جبل صهيون . وتحيط به أبنية كثيرة ، يقيم فيها أفراد عائلة السدنة ، وهي عائلة الدجاني .

إنه بيد المسلمين . وهو في نظرهم من الأمكنة الدينية التي يقيمون فيها صلواتهم الخمس يومياً ، ويحيون فيه شعائرهم الدينية بانتظام ومن غير

انقطاع[1] .

والمقام فضلاً عن قدسيته وحرمته المشهورتين ، يعد من الأمكنة الأثرية العامة في فلسطين ؛ لا سيما المسجد العلوي منه ، وما يشتمل عليه من أقواس فخمة وأعمدة ضخمة .

اختلف العلماء في تعيين المكان الذي دفن فيه النبي داود . فقال قائلون : إنه مدفون في القدس وفي الحي المعروف بـ(حي النبي داود) . ومن هؤلاء المقدسي في كتابه : (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) . وأبو إسحق الثعلبي في كتابه : (قصص الأنبياء) . ومجير الدين في كتابه : (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) . والشيخ عبدالغني النابلسي في كتابه : (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) .

وقال آخرون : إنه مدفون في بيت لحم . ومن هؤلاء ياقوت الحموي في كتابه : (معجم البلدان) . وابن خلدون في كتابه : (العبر في ديوان المبتدأ والخبر) . وأبو بكر الهروي ، وقد قرأت ما قاله في Archives de L'orient Latin I. P. 593 وهناك من يقول : أنه وإن كان قد دفن بالقدس ، إلا أن قبره موجود في الكنيسة المعروفة بالجثمانية عند وادي قدرون ، وليس في المكان المعروف بصهيون . ومن هؤلاء المسعودي في كتابه : (مروج الذهب) .

ومهما كان الأمر ، فقد تواترت الأنباء وأجمع معظم الناس منذ القديم ، على أن النبي داود مدفون في هذه البقعة من الأرض . ولم يقم في الماضي أي خلاف ، على ما نعلم ، حول هذا المقام بين المسلمين واليهود ؛ رغم الاعتقاد بأنهم (أي اليهود) من نسل داود . وإن قامت خلافات بين المسلمين والمسيحيين حوله . ومن الخلافات التي وصلت إلينا أخبارها ، ما جرى في زمن المماليك وفي أواسط القرن الخامس عشر[2] . يوم جرى تحقيق حوله . واستمر التحقيق سنين . وكان الآباء الفرنسيسيون يدعون أن لهم الحق في بناء كنيسة على مقربة من الضريح . فمنعوا في البداية . ثم سمح لهم

---

(١) هكذا كان الحال بهذا المكان المقدس عند صدور هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة (١٩٦١) ، ثم تبدل الأمر بعد الاحتلال الإسرائيلي سنة (١٩٦٧) ، حيث وضعت وزارة الأديان يدها على هذا المكان ومنعت المسلمين من أداء شعائرهم الدينية فيه . وأزيلت عن المقام الستائر التي كانت مطرزة بالآيات القرآنية . ووضع بدلاً منها نجمة داود وكتابات أخرى بالعبرية .

(٢) اقرأ ما جاء عن هذا الخلاف في (الإنس الجليل) لمجير الدين . (ص٦٧٦) .

ببنائها .

والاعتقاد سائد بين المسيحيين أنه في هذه البقعة من بيت المقدس ، تناول السيد المسيح عشاءه السري الأخير قبل أن ينتقل إلى الجثمانية ويقبض عليه جند الرومان بدلالة يهوذا الاسخريوطي .

وهناك في الطرف الغربي إلى الشمال من حي النبي داود وأمام الباب المعروف بباب النبي داود من أبواب السور ، كنيسة يسمونها : كنيسة نياحة العذراء (دورميثيون) . وفي قول إن السيدة مريم البتول التجأت ، بعد صلب السيد المسيح ، إلى المكان الذي تقوم عليه الآن هذه الكنيسة . وهناك قضت نحبها .

والمقام الآن (أي مقام النبي داود) عبارة عن بناية حجرية قائمة في وسط الحي . وهي مؤلفة من طابقين : علوي وسفلي . وفي الطابق السفلي مسجدان : مسجد كبير ، وآخر صغير . وعلى جدرانهما آيات من القرآن . منها : «يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق» وشهادة أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله» . وفي الطابق العلوي ردهة واسعة تقع فوق المسجد الكبير . وهي ذات عقود مصلبة . رأيت على جدارها الشرقي بلاطة نقشت عليها الكلمات الآتية :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بتطهير هذا المكان وتنظيفه من المشركين وعمله مسجداً يذكر فيه اسم الله تعالى سلطان الأنام ناصر دين الإسلام خادم البيت الحرام منشىء العدل والأمان السلطان ابن السلطان السلطان سليمان من آل عثمان أيد الله الإسلام في حياته على يد مولانا الشيخ أحمد الدجاني والساعي الشيخ محمد الواعظي العجمي أجرى الله على يديه وذويه الخير بتاريخ (٥ ربيع الأول ٩٣٦هـ-١٥٢٩م) والحمد لله وحده» .

وقرأت أيضاً على باب زاوية النبي داود الكلمات الآتية :

«جدد تعمير هذا المكان الشريف والبناء الساطع المنيف مع ترخيم الروضة بالرخام اللطيف مولانا السلطان الأعظم السلطان محمود خان خلد الله ملكه وسلطنته وزاد بالتوفيق أيامه وأحكامه . وذلك على يد سعادة الدستور الوزير صاحب الحسنات والخيرات الحاج سليمان باشا بلغه الله ماشا وإلى صيدا بمباشرة مصطفى علي أفندي المأمور . وذلك في سنة (١٢٢٣هـ-١٨١٧م) .

هذا ما عرفناه عن مقام النبي داود . وهو ينار الآن بالكهرباء ، بعد أن كان (١٩٤٤) يضاء بالزيت يوضع في القناديل .

مقابر المسلمين وتربهم في القدس

للمسلمين في القدس مقابر كثيرة : منها ما كان مستعملاً فيما مضى ، واندثر مع الزمن . ومنها ما لا يزال مستعملاً حتى يومنا هذا . وسنأتي على ذكرها كلها مع وصف الحالة التي هي عليه في يومنا هذا :

مقبرة ماملا : وتسمى أيضاً مأمن الله . إنها من أكبر المقابر الإسلامية في بيت المقدس . لا ، بل إنها أكبرها طراً . مساحتها تقرب من مئتي ألف متر مربع . واقعة غربي المدينة وعلى بعد كيلو مترين من باب الخليل . كانت فيما مضى بعيدة عن العمران . وأما الآن فقد أصبحت في وسط البنيان بسبب اتساع المدينة وازدياد عدد السكان . ولهذا أصدر المجلس الإسلامي الأعلى الذي يرأسه المفتي الحاج أمين الحسيني أمراً يحظر دفن الأموات فيها . وكان ذلك في عام (١٩٢٧) .

اختلف الباحثون في تسميتها . فمن قائل : إنها (ماملا) . وهذه الكلمة مشتقة من (ماء ملا) . وملا اسم ذاك المكان في غابر الأزمان . وفي ذلك قال الشاعر[1] :

رعى الله وادينا المقـــــدس إنه
حوى روضة الفردوس أجداث ماملا
مـــآثر رضـــوان ومــهــبط رحـــمـــة
أحـــيت من عـــالم الغـــيب مـــاء مـــلا

وقيل إن (ماملا) اسم لقديسة بنيت لاسمها في ذلك المكان كنيسة بيزنطية ، وإن هذه الكنيسة هدمها الفرس عام (٦١٤) للميلاد . وألقوا في البركة التي كانت قائمة هناك والتي كانت تدعى (بركة ماملا) بجثث المسيحيين الذين قتلوهم .

ومن قائل[2] : إنها مشتقة من (ماء ميلو) . وميلو هو اسم الحي الذي كان هناك في سابق الأزمان .

وروي عن الحسن[3] أن أصلها : (مأمن الله) . وأنها مدفن الخلاصة الأبرار الوارد في فضلها الأخبار والآثار . إلى أن قال : إن من دفن فيها كأنما دفن في السماء .

---

(١) (سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس) للرحالة اللقمي (ص١٦٣) . وهو مخطوط عثرت عليه في مكتبة الصديق المرحوم رشيد مكي في مجدل عسقلان .

(٢) (السير السليم في يافا والرملة وأورشليم) (ص٢٤٣) .

(٣) *(سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس) للرحالة اللقمي (ص١٦٢)* .

وقد ذكرها النابلسي في رحلته فقال : إنها بظاهر القدس من جهة الغرب . أكبر مقابر البلد . وفيها خلق كثير من الأكابر والأعيان والشهداء والصالحين ، وفيها عدد كبير من الصحابة والتابعين . إلى أن قال : وقيل إن أصلها (مأمن الله) وقيل (باب الله) . ويقال (زيتون الملة) . واسمها عند اليهود (بيت ملو) وعند النصارى (بابيلا) والمشهور على ألسنة الناس (ماملا) .

ومهما كان مصدر اسمها ؛ فإنها بلا مراء أقدم مقابر القدس عهداً ، وأوسعها حجماً ، وأكثرها شهرة . ولقد ساير تاريخها تاريخ المدينة . وذكر معه مراراً . ففي هذا المكان مسح سليمان ملكاً (١٠١٥) ق .م . وفيه عسكر (سنحاريب) ملك الآشوريين عندما هبط القدس (٧١٠ ق .م) . وفيه ألقى الفرس بجثث القتلى من سكان المدينة عندما احتلوها (٦١٤) ب .م . وفيه دفن عدد كبير من الصحابة والمجاهدين أثناء الفتح الإسلامي (٦٣٦ ب .م) . وفيه عسكر صلاح الدين يوم جاء ليسترد القدس من الصليبيين (١١٨٧ب .م) . ولقد كانت ولا تزال في أيدي المسلمين منذ قرون . يجلونها إجلالاً منقطع النظير . ذلك لأنها تعج بالعدد الوفير من الصحابة والمجاهدين والعلماء والأقطاب الصالحين . منهم :

١ . الفقيه ضياء الدين أبو عيسى محمد الهطاري[١] .

٣ . الشيخ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن أحمد القرشي الهاشمي[٢] .

٣ . قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة (٦٧٥هـ-١٢٧٦م) .

٤ . الكمال ابن أبي شريف .

---

(١) مستشار صلاح الدين . افتداه الملك بستين ألف دينار عندما أسره الصليبيون . توفي بمنزلة في الخروبة قرب عكا سنة (٥٨٥هـ-١٢٨٩م) . فحمل إلى القدس . ودفن بماملا .

(٢) مغربي أصله في الجزيرة الخضراء بالأندلس . قدم إلى بيت المقدس وأقام به إلى أن توفي (٥٩٩هـ-١٢٠٢م) ودفن بماملا . وكان من الصالحين . له ضريح جدد عمارته الشيخ أبو بكر الصفدي سنة (٧٢٢هـ-١٣٢٢م) .

٥ . الأمير علاء آيد وغدي بن عبدالله الكبكي[١] .
٦ . المقر العالي عمر بن إبراهيم بن عثمان بن علم الواسطي (٦٨٤هـ-١٢٨٥م) .
٧ . الأمير صلاح الدين محمد ازدمر السلحدار الناصري (٦٩٧هـ-١٢٩٧م) .
٨ . إبراهيم بن محمد (٧٠٨هـ-١٣٠٨م) .
٩ . القاضي شرف الدين منيف الحاكم بالقدس الشريف (٧١٤هـ-١٣١٣م) .
١٠ . الشيخ شرف الدين عيسى إمام الحرم القدسي (٧١٩هـ-١٣١٩م) .
١١ . أيدمر الشيخاني ناظر الحرمين (٧٢١هـ-١٣٢١م) .
١٢ . الشيخ العابد الزاهد جلال الدين العقيلي المعروف بابن القلانسي[٢] . بنى له الأمراء بمصر زاوية ، وترددوا عليه . ثم انتقل إلى القدس فتوفي بها سنة (٧٢٢هـ-١٣٢٢م) ودفن بماملا .
١٣ . الشيخ الصالح أبو عبدالله محمد بن إبراهيم المصري . توفي سنة (٧٢٣هـ-١٣٢٣م) ودفن بماملا .
١٤ . الحاج عليوان بن إبراهيم الرندي .
١٥ . شهاب الدين بن جبارة المقدسي النحوي الحنبلي . له تصانيف كثيرة منها :

---

(١) ورد ذكره في (المنهل الصافي) لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الآتابكي . مخطوط أخذت صورة فوتوغرافية له وهي محفوظة في مكتبة الجامعة العبرية بالقدس . حضر الوقعة بين المعز أيبك الركماني والملك الناصر صاحب دمشق (٩٤٧هـ-١٢٥٠م) . وتنقلت به الأحوال حتى صار من جملة أمراء الديار المصرية . فتولى في زمن الظاهر بيبرس نيابة صفد . ثم نيابة حلب . ثم حبس ثم أطلق سراحه : فتوجه إلى القدس وعاش بها إلى أن مات (٦٨٨هـ-١٢٨٩م) . ودفن بماملا .
كان أميراً شجاعاً . وكان فارساً ماهراً . قالوا إنه إذا ركب فرسه كان يضع تحت إبهام رجله درهماً في الركاب . فلا يقع . وباعتقادي أن الدرهم الذي كان يضعه في ركاب فرسه كان من النوع المعروف بـ(القبق) . وهو نوع من العملة التي كانت فيما مضى مستعملة في هذه البلاد . ومن هنا جاء اسم (القبقية) وهو اسم القبة التي مدفون فيها بماملا .
ذكرها مجير الدين في كتابه (الأنس الجليل) (ج٢ ص٤١٤) كما ذكرها المستشرق الهولندي (ماكس فان برشام) ، وكذلك فعل المستشرق الفرنسي (كيلومانت غانو) في كتابه Archeological Researches un Palestine Vol. 1, 286

(٢) مؤلف قدير اكتشف قبره مؤخراً (١٩٤٦) . وهو إلى الشمال من قبة القبقية .

شرح الشاطبية ، والرائية ، وألفية ابن معطي . توفي سنة (٧٢٨هـ-١٣٢٧م) .
١٦ . الشيخ حسام الدين .
١٧ . قاضي القضاة عماد الدين القرشي(١) ، (٧٣٤هـ - ١٣٣٣م) .
١٨ . الشيخ أبو عبدالله الهندي (٧٧٣هـ-١٣٧١م) .
١٩ . شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفدا إسماعيل القرقشندي (٧٧٨هـ-١٣٧٦م) .
٢٠ . بهادر أخوالست طنشق(٢) المظفرية (٧٨٩هـ-١٣٨٧م) .
٢١ . الشيخ عبدالله البسطامي(٣) (٧٩٤هـ-١٣٩١م) .
٢٢ . الشيخ الإمام القدوة أبو بكر الشيباني(٤) (٧٩٧هـ-١٣٩٤م) .
٢٣ . الشيخ محمد بن أبي جوز(٥) .
٢٤ . شيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد المصري المقدسي المشهور بابن الهائم . تولى التدريس في المدرسة الصلاحية . وتوفي سنة (٨١٥هـ-١٤١٢م) . ودفن بماملا .
٢٥ . قاضي القضاة شمس الدين الخالدي الديري (٨٤٧هـ-١٤٢٣م) .
٢٦ . شيخ الإسلام ابو عبدالله محمد الرازي من ذرية فخر الرازي . ولي نظر القدس والخليل . وكان يدرس بالصلاحية . توفي بالقدس سنة (٨٢٩هـ-١٤٢٥م) ودفن

---

(١) شارح صحيح مسلم .

(٢) هي التي بنت الدار الكبرى التي فيها الآن مدرسة الأيتام الإسلامية . وقد دفنت في القبة الكائنة مقابل الدار المذكورة في عقبة التكية . وقد بنت قبل موتها فوق قبر أخيها بهادر الذي دفن بماملا قبة . كان في الموقع الذي تقوم عليه هذه القبة كنيسة في العهد البيزنطي تعرف بـ(الدير الأحمر) . ثم حولت إلى زاوية إسلامية عرفت فيما بعد بـ(القلندرية) نسبة إلى بانيها الشيخ إبراهيم القلندري . ولم يبق من القلندرية شيء في يومنا هذا .

(٣) مدفون في الحوش المعروف (بالبسطامية) بماملا . وكان يدفن فيه فقراء هذه الطريقة . اندثرت آثاره فلم يبق منه سوى قبر الشيخ علي العسفي البسطامي المعروف بمرشد السالكين . وهو في أقصى المقبرة من الشمال .

(٤) من كبار مشايخ الصوفية .

(٥) يرجح الأستاذ أحمد سامح الخالدي أن محلة (وادي الجوز) دعيت باسمه . وأنه توفي بعد الثمنمائة . وقيل إن الدعاء عند قبره مستجاب .

بالبسطامية بماملا .

٢٧ . قاضي القضاة وشيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس الأموي المصري المشهور بابن الجمرة . ولي تدريس الصلاحية . وتوفي سنة (٨٤٤هـ-١٤٤٠م) . ودفن بماملا .

٢٨ . الشيخ محمد فولاد[١] (٨٤٤هـ-١٤٤٠م) .

٢٩ . النجم بن شهاب الدين (٨٤٤هـ-١٤٤٠م) .

٣٠ . أبو الحسن البدري (٨٤٤م-١٤٤٠م) .

٣١ . شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن آرسلان[٢] (٨٤٤هـ-١٤٤٠م) .

٣٢ . الإمام أبو عبدالله الذرعي[٣] (٨٤٨هـ-١٤٤٤م) .

٣٣ . القاضي برهان الدين أبو إسحق الخزرجي المشهور بابن نسيبة (٨٥٢هـ-١٤٤٨م) .

٣٤ . قاضي القضاة تقي الدين أبو بكر الرصاصي .

٣٥ . الأمير ركن الدين منكورس الجاشنكير .

٣٦ . شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد المشهور بابن الهائم (شيخ العلوم الرياضية بالمشرق) .

٣٧ . القاضي أمين الدين عبدالرحمن بن شمس الدين الخالدي . ولي نظر الحرمين بالقدس والخليل . (٨٥٦هـ-١٤٥٢م) .

٣٨ . المحدث عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن برهان الدين القرقشندي (٨٦١هـ-١٤٥٦م) .

٣٩ . الشيخ عثمان الحطاب المصري من أعيان الصالحين بمصر (٨٩٢هـ-١٤٨٦م) .

٤٠ . قاضي القضاة خير الدين أبو الخير الإمام المقري الغزي المقدسي . ولي قضاء القدس سنة (٨٧٦هـ-١٤٧١م) . ودرس بالمعظمية . توفي بالقدس سنة

---

(١) ناقل مفاتيح الصخرة إلى تيمور .

(٢) مؤلف (صفوة الزبد) . وشارح (سنن أبي داود) . وشارح (البخاري) و(منهاج البيضاوي) . ذكره مجير الدين في كتابه (الأنس الجليل) (ص٤٨٧) فقال أنه مدفون إلى جانب الشيخ أبي عبدالله القرشي .

(٣) صديق القرمي والبسطامي .

(٨٩٤هـ-١٤٨٨م) . ودفن بماملا .

٤١ . الشيخ أحمد بن علي بن يس الدجاني[(١)] . (٩٦٩هـ-١٥٦١م) .

٤٢ . نجم الدين الخيري الرملي بن خير الدين الرملي[(٢)] .

مقبرة الساهرة : عند سور المدينة من الشمال ، وعلى بعد بضعة أمتار من الباب المعروف بالساهرة . إنها من المقابر الإسلامية الكبيرة . قديمة العهد . ذكرها النابلسي في رحلته فقال : إنها تشتمل على قبور عدد كبير من الصالحين ، وإنها واقعة فوق الزاوية الأدهمية . وذكرها أيضاً مجير الدين الحنبلي في تاريخه . فقال عنها : «إنها البقيع الذي إلى جانب طور زيتا من جهة الغرب» . وعن إبراهيم بن أبي عبلة أنها هي التي أشير إليها في القرآن الكريم عند قوله تعالى : ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ .

ومن أسمائها : (مقبرة المجاهدين) . ذلك لأن المجاهدين الذين اشتركوا في فتح القدس مع صلاح الدين وقضوا نحبهم أثناء الفتح ، قد دفنوا فيها . ولا يزال المسلمون يدفنون موتاهم فيها إلى يومنا هذا (١٩٤٧)[(٣)] .

كانت فيما مضى أكبر وأوسع مما هي عليه الآن . وقد عثر المتأخرون على قبور كثيرة في البقعة التي تقع عليها الآن دار جماعة الإخوان المسلمين ودور العلمي

---

(١) جد العائلة الدجانية . ذكره ابن العماد الحنبلي في كتابه (شذرات الذهب) (ج٨ ص٣٥٥) فقال عنه إنه الإمام العالم العامل العارف بالله أحد أصحاب سيدي علي بن ميمون وصاحب سيدي محمد ابن عراق . كان يحفظ القرآن ومنهاج النووس . رأى النبي (صلعم) في نومه وهو في خلوته بالأقصى . فأشار عليه بتعلم النحو . فتعلمه . دخل دمشق في سنة (٩٥١هـ) بسبب قضاء حوائج للناس عند نائب الشام وكاتب الولايات . وخطب في جامع دمشق خطاباً ارتاح إليه الناس . وزار الشيخ محي الدين بن عربي . وكان صالحاً قانتاً عابداً خاشعاً .

(٢) كان مفتي الأحناف بالقدس .

(٣) جاء في كتاب (غريب القرآن) لأبي بكر السجستاني (٧٤٠هـ-١٤٣٦م) أن الساهرة وجه الأرض . وسميت ساهرة لأن فيها سهرهم وقومهم . وأصلها مسهورة ، ومسهور فيها فصرفت في مفعوله إلى فاعله .

وقيل إن الساهرة أرض القيامة . «وفي حديث ابن عمر» أن أرض المحشر تسمى الساهرة ، وأن أصل الساهرة الفلا ووجه الأرض .

وقيل إن الساهرة هي الأرض العريضة المنبسطة .

وغيرها من العمارات القائمة إلى الشمال والغرب من المتحف الفلسطيني . وكان الناس فيما مضى يسمون هذه البقعة . (مقبرة المجاهدين) . والاعتقاد سائد بأنها ليست إلا جزءاً من المقبرة الكبيرة التي يطلق عليها : (مقبرة باب الساهرة) .

مقبرة باب الرحمة : عند سور الحزم من الشرق . إنها من المقابر الإسلامية المشهورة . كانت فيما مضى أوسع(١) منها في يومنا هذا ؛ ولكن يد الزمن وطمع البشر أخنيا عليها ، فضاقت حتى أصبحت لا تتسع إلا إلى عدد محدود من القبور .

فيها قبور عدد من الصحابة والمجاهدين الذين اشتركوا في فتح بيت المقدس أثناء الفتحين : العمري والصلاحي . ومن المدفونين فيها عبادة بن الصامت الأنصاري البدري الذي توفي سنة (٣٤ للهجرة- ٦٥٤م) وشداد بن أوس الأنصاري الذي مات سنة ٥٨ للهجرة - ٦٧٧م . وقد جاء ذكرهما في كتب التاريخ الإسلامية . كما ذكرهما اللقمي في كتابه (سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس) ص٧٢ فقال :

يمم مقام عبادة بن الصامت
والشهم شداد بباب الرحمة
فهما الإمامان اللذان تفيئا
من صحبة المختار أينع دوحة
شهدا المشاهد والمواقف كلها
بشراهما فإذا بأرفع رتبة
فإذا وصلت إلى الحما فانزل به
متأدباً وأجرى سواكب عبرة
والثم ثرى أعتابه بتذلل
وأهدي مع الرضوان حسن تحية

---

(١) عندما وسع المجلس البلدي الطريق التي تمر من أمام كنيستي مريم والجثمانية ، عثر العمال على قبر مؤرخ القدس الشهير مجير الدين . . مؤلف كتاب (الأنس الجليل) . . عثروا عليه في مكان لا يبعد عن كنيسة مريم سوى بضعة أمتار . فرفعوا العظام من ملكتها . ونقلوها إلى مكان آخر قريب منه . وبنوا على قبره الجديد قبة صغيرة ترتكز على أربعة أعمدة . وقد كتبوا على (الحجر الشاهد) هذه الكلمات : «هذا قبر الفقير إلى الله تعالى القاضي عبدالرحمن بن محمد بن مجير الدين العلمي الفخري الحنبلي المقدسي مؤرخ القدس توفي سنة سبع وعشرين وتسعماية» .

ذكرها العالم الهولندي المشهور (ماكس فان برشام) . فقال : إنها كانت مدفناً للأخشيديين . إنها اليوم عامرة . ويدفن فيها أكثر عائلات بيت المقدس موتاهم .

المقبرة اليوسفية : عند باب الأسباط وإلى الشمال من مقبرة باب الرحمة . كل ما نعرفه عن ماضيها أن الذي عمرها هو الأمير (قانصوه اليحياوي) كافل المملكة الشامية . وكان ذلك سنة (٨٧٢ للهجرة-١٤٦٧م) . وهي اليوم عامرة . يدفن فيها المسلمون موتاهم .

مقبرة النبي داود : واقعة في حي النبي داود على جبل صهيون . وفي الحقيقة أنه يوجد هناك ثلاث مقابر ، لا مقبرة واحدة . كلها لآل الدجاني . إحداها كبيرة وهي واقعة شرقي النبي داود . إنها مخصصة لعائلة الشيخ سليمان الدجاني وحفدته . والثانية متوسطة وهي لعائلة الشيخ أنيس الدجاني وحفدته . والثالثة صغيرة وهي مخصصة لدفن أطفال آل الدجاني . ويسمونها (تربة المنسي) نسبة للشيخ محمد المنسي . وأما الذين لم نذكرهم من آل الدجاني فإنهم يدفنون موتاهم في مقبرة باب الرحمة واليوسفية وفي ماملا .

وعلى ذكر الشيخ محمد المنسي نقول : إنه صحابي وأنه الجد الأول للعائلة الدجانية[(١)] .

ذكره الحنبلي في تاريخه فقال : «إنه اشترك في فتح بيت المقدس[(٢)] . وتوفي فيها . ودفن في محلة بالقرب من خليفة الله سيدنا داود عليه السلام . كان أمير الأمراء موسى باشا أراد أن يعمل عليه قبة ، وعين من حفر الحدود وجور الجور ورمى الحجارة . عندئذ قام النصارى ومنعوه . ولما جاء خلفه مصطفى باشا راح أهل القدس يرجونه (صدقة عنه وعن ولده) أن يجعل عليه قبة . فصدر أمره إلى معمار باشي القدس الشريف بأن يعمر به قبة من حجارة قصر النقيب[(٣)] .

رأيت مقبرة المنسي . وهي مقبرة صغيرة طولها (١٥) متراً وعرضها (١٥) واقعة جنوبي مقبرة الأرمن والسريان ومحاطة بسور . لكنني لم أرَ عليها قبة .

---

(١) وأما الجد الأخير وهو الشيخ أحمد الدجاني فإنه مدفون في مقبرة ماملا كما قدمنا .

(٢) السجل (٢٠٣) الصفحة (٤٨) .

(٣) يقصد نقيب الإشراف بالقدس السيد محمد الذي ثار على الأتراك سنة (١١١٧هـ-١٧٠٥م) فتغلبوا عليه وهدموا قصره .

وهناك ترب كثيرة أخرى في القدس ؛ نذكر منها[1] :

١- تربة علاء الدين البصيري : بباب الناظر من أبواب الحرم من الناحية الغربية إلى الشمال . مدفون فيها آيدعدي بن عبدالله الركني الأمير علاء الدين الأعمى الزاهد ناظر الأوقاف بالقدس الشريف . له آثار جميلة بالقدس والخليل والمدينة المنورة . عاش في القدس إلى أنْ مات (سنة ٦٩٣هـ-١٢٩٣م) . وقد ذكره أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي في مخطوطة (المنهل الصافي[2]) «ولعل لقب البصيري أطلق عليه لأنه وإن كان أعمى من حيث الجسم إلا أنه كان بصيراً من حيث الفعل والفكر» .

٢- التربة الأوحدية : قريبة من باب حطة شمال الحرم . ذكرها مجير الدين[3] فقال : إن منشئها هو الملك الأوحد نجم الدين يوسف بن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى . وكان ذلك في (٢٠ ربيع الثاني ٦٩٧هـ-١٣٩٨) .

٣- التربة الجالقية : في رأس درج العين بطريق باب السلسلة عند ملتقى هذه الطريق بطريق الواد . ذكرها مجير الدين[4] فقال : إنها وقف ركن الدين بيبرس الصالحي العجمي المعروف بالجالق . وهومدفون بها . توفي في (١٠ جمادى الأولى سنة ٧٠٧هـ-١٣٠٧م) . وكان من أمراء الشام في دولة الملك المنصور قلاون . إنها الآن ملك آل الخالدي .

٤- التربة السعدية : بباب السلسلة تجاه المدرسة التنكزية عند مدخل الحرم . واقفها الأمير سعد الدين مسعود بن الأمير الاسفيلار بدر الدين منتصر بن عبدالله الجاشنكر الرومي الحاجب بالشام في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون .

---

(١) جمع (تربة) . والتربة هي المقبرة إذا أريد التعميم . والقبر إذا أريد التخصيص . جاء في البستان أن تربة الإنسان رمسه ، وتربة الأرض ظاهرها . وفي الأمثال (عرف بطني بطن تربة) وهو يضرب لمن وصل أرضه بعد الحنين إليها . ولقد اقتصرنا في هذا الفصل على ذكر الترب التي دفن فيها عدد محدود من الرجال الأعلام .

(٢))ج٢ ص٣٦) .

(٣) الأنس الجليل ، ص٣٩١ .

(٤) الأنس الجليل ، ص٣٩٦ .

تاريخ وقفها (٢٧ ربيع الآخر ٧١١هـ-١٣١٣/٩/١٢م) .

٥- التربة الكيلانية : في جوار المدرسة الطازية من الغرب . إنها منسوبة إلى الحاج جمال الدين بهلوان بن الأمير شمس الدين قراد شاه بن شمس الدين محمد الكيلاني اللاهجي المشهور بابن الصاحب كيلان .

عندما ذكرها مجير الدين[٢] قال : إن المذكور جمال الدين أوصى ابنه الأمير نظام الدين كهشروان بأن يصرف من ثلث ماله مئة ألف درهم فضة ، ويدفع ذلك إلى ابن أخي الموصي الأمير علاء الدين علي بن بهاء الدين سالار بن شر ملك الكيلاني ، ليبتاع بذلك مكاناً ويعمره تربة بالقدس الشريف أن تهيأ نقله ودفنه هناك . تاريخ الوصية (١٠ شعبان ٧٥٣هـ-١٣٥٢م) . وقد عمرت هذه التربة وبها ضريحه . ونقل إليها كما أوصى به .

يقيم فيها الآن جماعة من عائلة الدنف (الأنصاري) .

٦- تربة توركان خاتون : إلى الشمال من طريق باب السلسلة عند التقاء هذه الطريق بطريق الواد . مدفون بها توركان خاتون بنت طقتاي بن سلجوتاي الأزبكي . ماتت سنة (٧٥٣هـ-١٣٥٢م) .

٧- التربة الطشتمرية : بالقرب من الكيلانية . وقف الأمير طشتمر العلائي . أنشأها سنة (٧٨٤هـ-١٣٨٢م) . وتوفي ودفن بها بعد سنين .

٨- تربة القرمي : هو الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد القرمي بكسر القاف وفتح الراء . مولده في سابع عشر ذي الحجة سنة عشرين وسبعمائة . نشأ في دمشق . وسمع الحديث بها . ثم أقام ببيت المقدس . وبنى بها زاويته المعروفة وتوفي بالقدس نهار الأحد التاسع من صفر سنة ثمان وثمانين وسبعماية (١٣٨٦م) . ودفن بزاويته المشهورة . ودفن عنده ولده الشيخ زين الدين عبدالقادر . وكان رجلاً صالحاً من أعيان بيت المقدس . توفي سنة (٨٤٣هـ) .

٩- تربة المثبت : على بعد بضعة أمتار من تربة القرمي إلى الشمال من الغرب . على الطريق بين باب خان الزيت والحرم . مدفون بها الشيخ أحمد المثبت . ذكره النابلسي فقال : «إنه كان نقيب الشيخ محمد القرمي ، وأن قبره تجاه قبره ،

---

(١) الإنس الجليل ، ص٣٩٥ .

(٢) الإنس الجليل ، ص٣٩٦ .

بينهما زقاق في مكان معمور» .

١٠- تربة الملك حسام الدين بركة خان مقابل المدرسة الطازية بخط داود بالقرب من باب السلسلة . عمرت هذه التربة سنة (٧٩٢هـ) . فيها الآن المكتبة الخالدية (١٣٨٩م) .

١١- التربة المهمازية : ذكرها مجير الدين فقال : إن واقفها هو الأمير ناصر الدين المهمازي . وكانت على عهده مسكناً . هذا كل ما نعلمه عن هذه التربة . ولسنا ندري أين هي في يومنا هذا؟ كما أنا لا ندري من هو ناصر الدين هذا؟ أهو الأمير ناصر الدين الذي ولي نظر القدس والخليل على عهد الملك الناصر محمد بن قلاون (٧٢٩هـ-١٣٢٨م) وكان يطلق عليه لقب (مشد الأوقاف)؟ أم هو الأمير ناصر الدين محمد بن بهادر الفخر بن الظاهر برقوق (٧٨٩هـ-١٣٨٧م)؟ أم هو الأمير ناصر الدين محميد بن أيوب الذي تولى نيابة السلطنة على عهد السلطان الملك الأشرف قايتباي (٨٨٢هـ-١٤٨٨م) .

١٢- تربة الست : واقعة في عقبة التكية إلى الشمال من دار الأيتام الإسلامية . ويسمونها أيضاً تربة خاصكي سلطان . ذلك لأنه مدفون بها خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان (٩٦٠هـ-١٥٥٢م) . اسمها الأصلي روكسيلانة . وقيل إنها روسية الأصل . ثم أسلمت .

١٣- تربة الشيخ جراح : على طريق نابلس وعلى بعد كيلو مترين من سور المدينة إلى الشمال . كانت هناك زاوية لها وقف وموظفون . وقفها الأمير حسام الدين الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحي أحد أمراء الملك صلاح الدين . توفي في شهر صفر سنة (٥٩٨هـ-١٢٠١م) ودفن فيها . عندما ذكرها مجير الدين قال : «إن بظاهر هذه الزاوية من القبلة قبور جماعة من المجاهدين يقال إنهم من جماعة الجراحي» .

١٤- القيمرية : واقعة بالقرب من مزار سيدنا عكاشة في الحي الكائن غربي القدس . ذكرها مجير الدين فقال : قبة محكمة البناء بظاهر القدس الشريف من جهة الشمال مما يلي الغرب . نسبتها لجماعة من الشهداء المجاهدين في سبيل الله قبورهم بها . وهم : الأمير الشهيد حسام الدين أبو الحسن بن أبي الفوارس القيمري . وفاته في العشر الأوسط من ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وستماية (١٢٥٠م) . والأمير ضياء الدين موسى بن أبي الفوارس . وفاته في عاشر ذي

القعدة سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠م) . والأمير حسام الدين بن حسن القيمري ووفاته في رابع عشر الحجة سنة إحدى وستين وستمائة (١٢٦٢م) . والأمير ناصر الدين ابن حسن القيمري . وفاته في عشرين صفر سنة خمس وستين وستماية (١٢٦٦م) . وبالقبة المذكورة قبر الأمير ناصر الدين محمد جابر بك أحد أمراء الطبلخانة بالشام وناظر الحرمين بالقدس الشريف والخليل . وفاته ليلة الاثنين حادي عشر المحرم سنة ست وسبعين وسبعمائة (١٣٧٤م) . وبظاهر القبة المذكورة تربة بها قبور جماعة من المجاهدين .

١٥- ضريح عكاشة : واقع في حي معروف باسمه . ويسمونه : حي النبي عكاشة . إلى الشمال الغربي من المدينة . إنه قريب من القبة المعروفة بالقيمرية . وقد ذكرناها في السطور السابقة . بناء محكم ، في داخله ضريح الصحابي الجليل عكاشة . وفيه مسجد كان المسلمون المقيمون على مقربة منه يغشونه ويصلون فيه صلواتهم الخمس . ولكن اليهود الذين يكرهون الإسلام ويكرهون أن يروا إلى جانبهم أي أثر من آثار المسلمين ، نسفوه في (٢٧ آب سنة ١٩٢٩) فأضحى ، بعد ذلك ، طللاً بالياً . وما كان في مقدور القائمين عليه أن يدفعوا عنه الأذى . لأنه قائم في وسط الأحياء اليهودية .

المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى : لما كانت الجوامع والمساجد التي ذكرناها في الأسطر المتقدمة ، وكذلك المدارس والمقابر والزوايا والتكايا والمعاهد الإسلامية ، تدار من قبل (المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى) . فقد رأينا من الفائدة أن نبحث فيما يلي عن هذا المجلس وعن تاريخ تأسيسه فنقول :

كانت الأوقاف والمحاكم الشرعية الإسلامية في أوائل الاحتلال البريطاني ، تابعة لدوائر العدل والقضاء بحكومة فلسطين . وكان يرأس هذه الدوائر مستشار قضائي هو المستر بنتويش ولم يكن هذا يهودياً فحسب ، بل كان من رجال الحركة الصهيونية الأقحاح . الأمر الذي أغضب المسلمين وجعلهم يطالبون بإيجاد إدارة إسلامية بحته تتولى مراقبة المحاكم الشرعية الإسلامية وتدير أوقاف المسلمين . واجتمع ، على أثر ذلك ، في القدس مؤتمر إسلامي (٩ تشرين الثاني ١٩٢٠) ضم المفاتي والقضاة والعلماء . فقرروا تأسيس مجلس شرعي إسلامي أعلى يتولى جميع الشؤون الإسلامي بفلسطين . ووافقت حكومة فلسطين على هذه الفكرة . فصدر في (١٢ آذار ١٩٢١) نظام نشر في الجريدة الرسمية بتاريخ (١٥ أيار ١٩٢١) .

كان المجلس الإسلامي ، عند تأسيسه ، مؤلفاً من رئيس العلماء وأربعة أعضاء : اثنان عن لواء القدس وواحد عن كل من لوائي نابلس وعكا . أما رئيس العلماء فقد انتخب ، في المرة الأولى (١٩٢١/٢٤) ، من قبل الهيئة العمومية المنتخبة من قبل المنتخبين الثانويين الذين انتخبوا من قبل الأهالي في العهد العثماني الأخير . واشترط لانتخابه ، فيما بعد ، أن يتم بانتخاب عام يعين بقانون خاص يسنه المجلس الإسلامي نفسه . وكذلك قل عن الأعضاء . فقد انتخبوا ، في المرة الأولى ، من قبل منتخبي اللواء التابعين له . واشترط لانتخابهم ، فيما بعد ، أن يتم كذلك بواسطة المنتخبين الثانويين الذين ينتخبون من قبل الأهالي وفقاً لقانون انتخاب النواب العثماني .

وهكذا تألف المجلس الإسلامي الشرعي الأول (١١ جمادى الأولى ١٣٣٩ الموافق ٩ كانون الثاني ١٩٢٢) من المفتي الحاج أمين الحسيني رئيساً ومن الحاج سعيد الشوا (غزة) ، وعبدالله الدجاني (يافا) ، والشيخ محمد مراد (حيفا) ، وعبداللطيف صلاح (نابلس) أعضاء .

وقد حددت صلاحياته في المادة الثامنة من النظام المتقدم ذكره . وهي تتلخص في إدارة الأوقاف الإسلامية ، وإقرار ميزانيتها[1] ، وترشيح[2] قضاة الشرع ورئيس وأعضاء محكمة الاستئناف ومفتش المحاكم الشرعية ، وتعيين المفتين ومأموري الأوقاف وموظفي الشرع وعزلهم[3] .

ولقد قام هذا المجلس بعدة إصلاحات في المعاهد الإسلامية أشرنا إليها في مواضع أخرى من هذا الكتاب .

كان المجلس الأول ، مؤلفاً من الرئيس والأعضاء الأربعة الذين تقدم ذكرهم .

وقد استقال عبداللطيف صلاح ، فاستبدل بأمين التميمي (نابلس) . وعند وفاة الحاج سعيد الشوا عينت الحكومة مكانه الشيخ محيي الدين عبدالشافي (غزة) . ولما توفي عبدالله الدجاني عين مكانه عبدالرحمن التاجي (الرملة) . ولما توفي الشيخ

---

(١) للحكومة الحق في الاطلاع على الميزانية فقط ، وليس التصديق .

(٢) للحكومة الحق في التصديق أو الرفض . وفي حالة الرفض عليها أن تذكر الأسباب خلال خمسة عشر يوماً .

(٣) في حالة العزل يترتب على المجلس إخبار الحكومة مع بيان الأسباب .

محمد مراد حل مكانه أمين عبدالهادي (نابلس) . ولما أقيل أمين التميمي من منصبه انتدبت الحكومة بدلاً منه الشيخ كمال إسماعيل (عنبتا) كما انتدبت مكان عبدالرحمن التاجي المستقيل ، الشيخ يوسف طهبوب (الخليل) .

وتشتت المجلس الإسلامي إبان الثورة العربية الفلسطينية (١٩٣٦-١٩٣٨) . فغادر المفتي البلاد وبقي بعيداً عنها إلى يومنا هذا . كما نفي التميمي إلى سيشل حيث قضى نحبه . وأعلنت الحكومة حالة الطوارئ فعينت (١٩٣٧) أمين عبدالهادي ، والشيخ كمال إسماعيل ، والشيخ محيي الدين عبدالشافي ، والشيخ يوسف طهبوب لإدارة شؤون المجلس الإسلامي .

وظل هؤلاء الأربعة في مراكزهم حتى (١٩٤٧/١/١) يوم استبدلت الحكومة الاثنين الأخيرين بعلي حسنا (القدس) القاضي في المحكمة المركزية وحسن أبي الوفا الدجاني (يافا) .

وهناك (لجنة ثلاثية) تسيطر على الأعمال المالية . وكانت هذه في بداية الأمر مؤلفة من رئيس إنكليزي وعضوين : أحدهما مسلم والثاني إنكليزي . ثم استبقت الرئيس الإنكليزي وعينت العضوين من المسلمين . ثم جعلت الثلاثة كلهم مسلمين . وهم الآن (١٩٤٧) روحي عبدالهادي (رئيساً) والشيخ توفيق الطيبي ووصفي العنبتاوي (أعضاء) .

هذا ولا بد من القول إن نفقات المجلس الشرعي الإسلامي بلغت (سنة ١٩٤٨/١٩٤٧) بما في ذلك قضاة الشرع وسائر الموظفين (٤٨,٢٩٤) جنيهاً .

لكن طائفة من الطوائف المسيحية في القدس كنائس وأديار . وهناك إرساليات دينية جاءت من الغرب . . . ونزلت القدس في تواريخ مختلفة . ولهذه الإرساليات أيضاً كنائس وأديار . وبودنا أن نأتي في السطور التالية على ذكرها ، وما يخص كل طائفة منها على حدة . على أن نبدأ أولاً بالكنيسة التي تخص الجميع ، ويقدسها الجميع ؛ ألا وهي : كنيسة القيامة .

كنيسة القيامة :

بنتها الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين (٣٣٥) . بنتها في الموضع الذي اكتشف فيه الصليب الذي صُلب عليه المسيح . وأحرقها الفرس (٦١٤) . وأحرقوا معها جميع الكنائس والأديار التي كانت يومئذ في القدس . فأعاد بناءها (٣٦٣) الراهب مودستوس رئيس دير العبيديين في ذلك الحين .

ولما فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس (٣٦٣م) أعطى النصارى أماناً لأنفسهم ولكنائسهم ، ولم يصبها بأذى ؛ حتى أنه أبى أن يصلي في كنيسة القيامة ، وقد حان وقت الصلاة وهو فيها ، رغم أن البطريرك صفرونيوس أشار عليه بأن يصلي حيث كان ، إلا أنه اعتذر وصلى على مقربة منها . وخشي إن هو صلى في الكنيسة أن يتخذ المسلمون ذلك من بعده حجة وأن يطالبوا بحق لم يكن لهم فيها .

ولقد رمم البناء الذي أقامه مودسطس ، البطريرك توما الأول (٨١٧م) . وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي المأمون . وأحرقت الكنيسة وسقطت قبتها في عهد الأخشيد سلطان مصر (٩٦٥م) . وجرت بعد ذلك محاولات كثيرة لبناء القبة من جديد ، إلا أن تلك المحاولات انتهت بالفشل . ولكنهم عادوا فعمروها في زمن البطريرك يوسف الثاني (٩٨٠م) . وأمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بهدمها ، فهدمت (١٠٠٩م) . وهدم معها الأقرانيون وكنيسة قسطنطين . ولكنه عاد فأجاز للنصارى أن يعيدوا البناء من جديد . فشيدوا يومئذ كنيسة القبر المقدس فقط . شيدوها على غير شكلها الأصلي . وحال فقرهم دون إتمام الباقي . وسمح الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (١٠٣٥م للنصارى ببناء الكنيسة من جديد . فشرعوا في بنائها . وتمّ البناء الجديد على عهد قسطنطين منوماخس (١٠٤٨م) .

ولما احتل الصليبيون القدس (١٠٩٩م) وجهوا اهتمامهم إلى تعميرها ، ولقد

حافظوا على ما كان فيها من مبان . غير أنهم جمعوا المعابد في كنيسة واحدة ، فوحدوا كنيسة أنسطاسيا وكنيسة الشهداء والمعابد الأخرى . وبنوا شرقي القبر كنيسة هي التي عرفت بعدئذ بكنيسة (نصف الدنيا) . وشادوا برجاً للأجراس .

وعندما احتل صلاح الدين القدس (١١٨٧م) أشار عليه بعض أصحابه أن يهدمها ، كي لا يبقى لنصارى الغرب حجة لغزو البلاد المقدسة ؛ فرفض إشارتهم ، بل آثر الاقتداء بعمر بن الخطاب ، فأبقاها ، وأمر المسلمين بألا يصيبوها بسوء . غير أنه اقتطع جانباً من دار القسوس المجاورة لها فاتخذها مسجداً ورباطاً (خانقاه) للصلحاء الصوفيين .

ولقد رممت كنيسة القيامة بعد ذلك التاريخ مراراً عديدة . كما رم بناء القبر المقدس في وسطها . وكان أهم الحوادث ما جرى لها في (١٨٠٨م) ؛ يوم استعرت النار في معبد الأرمن ، وامتد اللهب إلى أنحاء الكنيسة ، فسقطت القبة . ولم يسلم من الأذى إلا جانب من الجلجلة وكنيسة القديسة هيلانة ومعبد اللاتين . . وحصل الروم على إذن من السلطان محمود الثاني بترميم الكنيسة ، فرمموها (١٨١٠م) . وشادوا فوق القبر المقدس البناء الذي تراه في يومنا هذا . وتصدعت الكنيسة على أثر الزلزال الذي حدث في القدس على عهد إبراهيم باشا (١٨٣٤م) . وآخر ترميم جرى لها في أواخر القرن التاسع عشر ، يوم اتفقت الدول الثلاث (فرنسا وروسيا وتركيا) على أن تقوم الدولتان (فرنسا وروسيا) بنفقات التعمير وأن تتولى تركيا الإشراف على التعمير . وهذا ما جرى . ولقد بلغت النفقات التي صرفت لتعميرها يومئذ (١٨٦٩م) أربعين ألف ليرة ذهباً .

ولقد أصاب كنيسة القيامة ما أصاب غيرها من العمارات القديمة إثر الهزة الأرضية التي ألمت بالقدس عام (١٩٢٧م) . فتداركت الحكومة البريطانية المنتدبة الأمر بما تيسر من الوسائل التي تساعد قليلاً في درء خطر عاجل ، ولا تنفع كثيراً في إزالة خطر آجل . وشدت البناء في مواضع معينة بالخشب والإسمنت المسلح بالحديد (١٩٣٠-١٩٣٣م) .

وكذلك قل عن الزلزال الذي تبعه . حتى أن الحكومة نصحت الناس ألا يدخلوا الكنيسة قائلة إنها لا تتحمل أية مسؤولية إذا هم أصروا على الدخول . والوضع في يومنا هذا (١٩٤٧) لا يزال كما كان . ولم يجر تعمير أساسي بعد .

إنك إذا ما نظرت إلى كنيسة القيامة من الخارج ، رأيت قبتين كبيرتين الواحدة

أكبر من الأخرى بقليل . فالكبرى ، وهي إلى الغرب ، هي القائمة فوق القبر المقدس . والأخرى ، وهي إلى الشرق ، هي قبة كنيسة نصف الدنيا . تلك الكنيسة القائمة تجاه القبر المقدس .

وتنضوي إلى هاتين القبتين كنائس أخرى مختلفة في المساحة والشكل والقدم . وتتألف من هذا كله وتقدر مساحة الأرض القائمة عليها كنيسة القيامة بنحو ثمانين متراً في ستة وستين متراً .

وفي كنيسة القيامة ، عدا عن قبر المسيح ، سبعة قبور : اثنان منها ليوسف الرامي وأسرته وهما في معبد كائن غربي القبر المقدس . واثنان في مدخل الغرفة التي تراها إلى يمينك إذا ما دخلت الكنيسة من بابها القبلي الكبير ، وهما لغودفري وبولدوين من ملوك الصليبيين . وواحد في حجرة للروم يسمونها : (حبس المسيح) ، ولا يدري أحد لمن هو هذا القبر؟ وهناك أمام الكنيسة من الخارج قبر سادس لإنكليزي من قادة الصليبيين ، هو فيليب دويتي . والسابع قبر (الأربعين شاهد) عند كنيسة مار يعقوب .

هذه هي القبور التي يحدثك القوم عنها . وهناك ، في اعتقادي ، قبور كثيرة أخرى لا نعلم عنها شيئاً . ذلك لأن هذه البقعة من الأرض كانت ، قبل موت السيد المسيح ، مقبرة أعدها القوم لدفن الموتى من سكان المدينة . ولقد عثر القائمون على كنيسة (مار يعقوب) الملاصقة لكنيسة القيامة من ناحيتها القبلية ، أخيراً ، على خمسة قبور محفورة في جدار الكنيسة المذكورة من الداخل ، قالوا إنها لا بد وأن تكون لعدد من البطاركة الأقدمين .

وهناك في كنيسة القيامة ، ثلاث عشرة بئراً تتجمع فيها مياه الأمطار .

وكان الناس فيما مضى يخلعون نعالهم قبل أن يدخلوا الكنيسة . ويظهر أن هذه العادة دامت حتى أوائل القرن التاسع عشر . ثم زالت .

وإنا لذاكرون فيما يلي أسماء الأشخاص من نصارى بيت المقدس الذين يحملون الأعلام في سبت النور :

الترتيب	اسم العائلة	اسم الشخص
(١)	عائلة سلمان	إلياس أو صليبا أو عيسى سلمان
(٢)	عائلة الأجرب	جبران الأجرب
(٣)	عائلة الحبش	نخلة متري الحبش

(٤)	عائلة الحرامي والبغل	جرجي الحرامي
(٥)	عائلة القرعة	زخريا جريس القرعة
(٦)	عائلة كتوعة	سمعان أو عيسى كتوعة
(٧)	عائلة الشماع	موسى الشماع
(٨)	عائلة كتن	حنا جريس كتن
(٩)	عائلة المحشي	يعقوب المحشي
(١٠)	عائلة أبي زخريا	داود أبو شهله
(١١)	عائلة منصور	ميخائيل منصور
(١٢)	عائلة علوشية	نقولا عنصره
(١٣)	عائلة أبي زخريا	ستاوري زخريا

وقبل أن نختم كلامنا عن كنيسة القيامة ، نرى من مصلحة التاريخ أن نذكر ، أنه يقوم على حراسة أبوابها عائلتان إسلاميتان ؛ هما :

(أ) آل جوده .

(ب) آل نسيبة .

وقد اختلف الباحثون في تحديد التاريخ الذي تولتا فيه هذه المهمة . وإن اتفقوا في القول -وهذا هو الواقع- أن (آل جودة) هم الذين يحتفظون بالمفاتيح وأن (آل نسيبة) هم الذين يفتحون الكنيسة في مواعيدها المقررة . ومتى فتح هؤلاء الباب ، أعادوا المفاتيح إلى أولئك . وهكذا دواليك .

هناك قول يؤيده آل نسيبة أن هذه الوظيفة بأيديهم منذ زمن عمر بن الخطاب (٦٣٦م) ، وأن أول من تسلمها منهم هو جدهم عبدالله ، وأن هذا هو ابن امرأة من الخزرج تدعى (نسيبة) . وكان لها ولدان : أحدهما (حامد) ظل في المدينة ، والثاني (عبدالله) اشترك في الفتح القدسي ، وكان من الصالحين . ولما تم للمسلمين فتح القدس ، ودخلها عمر بن الخطاب ، سلمه البطرك صفر ونيوس مفاتيح القيامة[١] ،

---

(١) فعل الفاتح الإنكليزي اللورد اللنبي مثل هذا الفعل عندما فتح القدس في (٩ كانون الأول ١٩١٧) فدخل المدينة في اليوم الحاي عشر من الشهر المذكور ، وزار الكنيسة وتسلم مفاتيحها ، ثم سلمها إلى آل جودة وآل نسيبة ، ليتولوا هم مهمة الفتح كما كانوا يفعلون منذ القدم .

فناولها عمر إلى عبدالله بن نسيبة مؤتمناً إياه لزهده وتقواه . وتوارث آل نسيبة هذه المهمة منذ ذلك الحين .

وتقول فئة من مؤيدي هذا القول ، اذكر منهم الأستاذ عمر الصالح البرغوثي :

«إن آل نسيبة ظلوا أمناء على أبواب الكنيسة من الفتح العمري حتى الفتح الصليبي . وأنهم عند مجيء الصليبيين رحلوا عن القدس مع من رحل عنها من المسلمين ومن المسيحيين الشرقيين الأرثوذكسيين . فنزلوا قرية بورين من أعمال نابلس وسكنوا فيها . ولم يعد آل نسيبة إلى القدس بعد الفتح الصلاحي مباشرة» .

«فأمر السلطان صلاح الدين أن تسلم المفاتيح إلى آل غضية وهم أجداد آل جودة . ولما عاد آل نسيبة من قرية بورين طالبوا بحقهم ، فعزّ على القاضي آنذاك أن ينقض حكماً مضى عليه ردح من الزمن ، وقضى بأن تبقى المفاتيح بيد آل غضية على أن يتولى آل نسيبة فتح الأبواب . ورضي بحكمه الطرفان . وهكذا درجت العادة منذ ذلك الزمان» .

ويقول آخرون يؤيدهم آل جودة : «أنهم أمناء مفاتيح القيامة منذ عهد صلاح الدين (١١٨٧) وأن آل نسيبة يقومون بمهمة الفتح منذ ذلك العهد أيضاً . وأن السبب الذي حدا بصلاح الدين لعمله ذاك أنه ، بعد أن سمح للصليبيين أن يغادروا المدينة بعد دفع الفدية المتفق عليها . خشي أن يعودوا فيتسربوا إليها بثياب الحجاج والرهبان! وأن يصبحوا ، مع الزمن ، من الكثرة بحيث يتكتلون ويؤلفون قوة تهدده وجنده في المدينة . وكان للكنيسة يومئذ مدخلان كبيران فأغلق السلطان أحدهما وأبقى الثاني» .

وتوارث آل جودة ، وكانوا قبلاً يدعون (آل غضية) ، هذه الوظيفة عن آبائهم وأجدادهم .

هناك قول ثالث : «أن هذه المهمة في يد المسلمين منذ عهد المماليك» .

فقد أطلعني الأب كرياكوس ، رئيس كنيسة القيامة ، على تقرير وضع في عهد الانتداب البريطاني (١٩١٧-١٩٤٧) ، ويظهر أن واضعه من كبار موظفي حكومة فلسطين ، وقد جاء فيه أن تلك العادة (أي عادة احتفاظ المسلمين بمفاتيح القيامة وفتحها) وضعها المماليك سنة (١٢٨٩م) .

وعندما قرأت هذا التقرير رجعت إلى التاريخ فوجدت فيه أنه كان على كرسي السلطنة يومئذ السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون . وقد عقد هذا السلطان مع

الفرنج هدنة (١٢٨٣م) جعلت جميع الديار المصرية والحجازية والشامية والأردن وفلسطين -بما فيها القدس- تابعة له . وبعد ذلك بسنتين (١٢٨٥م) أصدر السلطان مرسوماً يقضي بألاّ يستخدم في وظائف الدولة أحد من أهل الذمة -اليهود والنصارى- في وظائف الدولة . هذا ما ذكره المؤرخون . ولعل تسليم مفاتيح القيامة للمسلمين جاء في أعقاب ذلك المرسوم الذي أشار إليه الطبري في الصفحة (١١٨) من الجزء الرابع عشر من كتابه (تاريخ الدول والملوك) والدكتور محمد جمال الدين سرور في الصفحة (٢٣٣) من كتابه (دولة ابن قلاوون في مصر) .

وهناك من يقول إن السلطان سليمان القانوني (١٥٤٠) هو الذي عهد إلى المسلمين بتلك المهمة . وأن إبراهيم باشا عندما هبط القدس (١٨٤٠) أيدها .

ولم أعثر إلى الآن على أية وثيقة تاريخية تحدد بالضبط التاريخ الذي تسلم فيه المسلمون مفاتيح القيامة . وكل ما أستطيع أن أقوله بعد أن درست الموضوع من جميع وجوهه واطلعت على البراءات والفرمانات السلطانية التي بيد الفريقين ، هو : أن آل جودة هم الأمناء لمفاتيح الكنيسة ، وأن آل نسيبة هم الذين يقومون بمهمة الفتح ، وأن هذه المهمة تقوم بها هاتان العائلتان الإسلاميتان العريقتان منذ مدة لا تقل عن ثمانية قرون . وفوق كل ذي علم عليم .

درب الآلام :

وهناك درب الآلام وهي مقدسة في نظر المسيحيين لاعتقادهم بأن السيد المسيح سلكها حاملاً صليبه يوم ساقه جند الرومان للصلب ، بعد أن حكم عليه الوالي الروماني بالموت .

إن هذه الدرب التي نسميها اليوم درب الآلام ويسميها الفرنجة Via Dolorosa عبارة عن أربع عشرة مرحلة : تسع منها خارج كنيسة القيامة وخمس في داخلها .

أما المرحلة الأولى فإنها تبدأ في الموضع الذي اتخذه الوالي الروماني تيطس مقراً له ، يوم أصدر حكمه بموت السيد المسيح . ويعتقد معظم المؤرخين أن ذلك الوالي كان يقيم في مكان ما . . في البقعة التي تقوم عليها الآن مدرسة (الروضة) ومدرسة راهبات صهيون وما بينهما من بقاع . وأنه هنا تم تتويج المسيح بإكليل من الشوك .

وفي المرحلة الثانية وهي القريبة من المكان المتقدم ذكره ، طلب الجند من المسيح أن يحمل صليبه فحمله . هنا على مقربة من هذا المكان قوس يسمونه Ecce Homo .

إنه الآن جزء من العمارة التي تملكها راهبات صهيون . ويعتقد المسيحيون أن الوالي الروماني خاطب اليهود الذين كانوا مجتمعين في هذا المكان ليروا ما حل بالمسيح ؛ خاطبهم مشيراً بيده إلى المسيح ، قائلاً : Ecce Homo أي : هذا هو الرجل! .

وأما المرحلة الثالثة فإنها عند الزاوية القائمة على مفترق الطريقين : طريق الآلام والطريق التي تصل بين الواد وباب العمود . حيث يقوم دير الأرمن الكاثوليك والبولونيين . هنا وقع السيد المسيح على الأرض مغشياً عليه .

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي على بعد بضعة أمتار من الثالثة . هنا التقى المسيح بأمه مريم البتول .

والمرحلة الخامسة تراها عند الزاوية الكائنة عند ملتقى طريق الواد بألو العقبة المعروفة بـ(عقبة المفتي) . هنا شعر السيد المسيح بثقل الصليب الذي كان يحمله ، وكاد يسقط على الأرض . فجاء سمعان القيرواني وساعده في حمله .

وإذا ما سرت غرباً مررت بالمرحلة السادسة حيث ترى إلى يسارك معبداً للروم -الكاثوليك المعروفين بالملكيين . هنا في هذا المكان يقوم منزل القديسة فيرونيكا Veronica وقبرها . إنها هي التي مسحت عرق المسيح من على جبينه .

والمرحلة السابعة عند ملتقى درب الآلام بالطريق التي تربط باب خان الزيت بباب العمود . ويسميها الفرنجة Porta Judicaria . وفي قول أن السيد المسيح من هذا الموضع خرج من المدينة . وسقط على الأرض مغشياً عليه للمرة الثانية .

وأما المرحلة الثامنة فإنها واقعة في عقبة الخانقاه عند الدير المعروف بدير خار الامبوس للروم الأرثوذكس . وفي هذا الموضع خاطب السيد المسيح المرأة التي كانت تسير من خلفه باكية وفي قول : النسوة اللواتي كن يسرن من خلفه باكيات . فخاطبهن قائلاً : لا تبكين علي ، بل ابكين على بلدكن التي ستؤول إلى خراب! . .

وللمرحلة التاسعة عند جير الأقباط إلى الشرق من كنيسة القيامة ؛ حيث رزح المسيح تحت الصليب من الحمل وشدة التعب .

وأما المرحلة العاشرة فإنها في داخل الكنيسة . . عند الجلجثة . . وكذلك قل عن المراحل الثلاثة : (١١ و١٢ و١٣) . وأما المرحلة الرابعة عشرة والأخيرة فإنها عند القبر المقدس نفسه .

قبر البستان :

بعد أن حدثناك عن القيامة وعن درب الآلام -وهي الدرب التي سلكها السيد المسيح وهو ذاهب ليصلب- نرى من الفائدة أن نحدثك عن المكان المعروف بـ قبر البستان ويسميه الفرنجة : Garden Tomb .

اختلف المسيحيون في تعيين المكان الذي صلب فيه السيد المسيح : فمنهم من يقول ، ومعظم هؤلاء من الكاثوليك ومن أتباع الكنائس الشرقية ، إنه صلب في الموضع الذي اكتشفت فيه الملكه هيلانة خشبة الصليب . وهذا ما حدا بها لبناء كنيسة القيامة . وقولهم هذا أقدم عهداً وأكثر انتشاراً من غيره .

ومنهم من يقول ، وهؤلاء فئة قليلة من الإنكليز البروتستانت ، إنه صلب في الموضع الذي يقوم عليه قبر البستان . ويقع هذا شمالي المدينة وعلى بعد بضع مئات من الأمتار من سورها تجاه الباب المعروف بباب العمود . وهذا رأي حديث العهد .

وهناك كثيرون لا يزالون يترددون في قبول هذا الرأي أو ذاك ، لاعتقادهم بأن الدليل القاطع لم يقم بد ليقنعهم أي الرأيين أصح من الآخر .

ويقول هؤلاء إنه لم يرد في الإنجيل ما يشير بالضبط إلى موضع الصلب ، وإن جاء فيه ما يدل على أنه «صلب في موضع يقال له (الجمجمة) أو (الجلجثة)[1] ، وأن ذلك الموضع كان قريباً من المدينة[2] ، وأنه كان في الموضع الذي صلب فيه بستان وفي البستان ، قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط[3]» .

ولما كنا قد ذكرنا في الفصل السابق ما تيسر لنا جمعه عن الرأي الأول ، وهو القائل بأن السيد المسيح دفن في المكان الذي تقوم عليه كنيسة القيامة ، وذكرنا ما نعرفه عن تاريخ هذه الكنيسة ، وهي أقدس مكان في نظر المسيحيين ، فإنا نرى أن نذكر في السطور التالية ما نعرفه عن الموضع الآخر : وهو (قبر البستان) .

إن أول من قال بهذا الرأي ، وهو أن السيد المسيح صلب في هذا المكان وليس في المكان الذي تقوم عليه الآن كنيسة القيامة ، هو الجنرال غوردن الذي قتله الدراويش

---

(١) إنجيل متى الإصحاح (٢٧ العدد ٣٣) . وإنجيل يوحنا الإصحاح (١٩ العدد ١٧) . وإنجيل مرقس الإصحاح (١٥ العدد ٢٢) .

(٢) إنجيل يوحنا الإصحاح (١٩ العدد ٢٠) .

(٣) إنجيل يوحنا الإصحاح (١٩ العدد ٤١) .

في الخرطوم (١٨٣٤) . فقد كان هذا الجنرال -كلما زار القدس- يأتي إلى هذا المكان ، ويصلي فيه . وكلما صلى وأطال النظر فيما حوله كان يزداد اعتقاداً بأن السيد المسيح لا بد وأن يكون قد صلب ودفن في هذا المكان ، لوقوعه على مقربة من التل الذي كان اليهود يرجمون فيه المحكومين ويصلبونهم ويلقون بجثثهم في الوادي القريب منه . وكذلك كان يفعل الرومان .

فالقبر هنا محفور في الصخر . والصخر متصل بالسور . وهو (أي الصخر) محفور بشكل يشبه الجمجمة أو الجلجثة . وهذا ما حدا بغوردن إلى الاعتقاد بأن هذه الأوصاف مطابقة للأوصاف التي وردت في الإنجيل عن المكان الذي صلب فيه المسيح ودفن .

ولقد حذا نفر من أتباعه حذوه بعد حين . فراحوا يذيعون بين الملا أن المسيح صلب في هذا المكان ، وليس في المكان الذي بنيت فيه كنيسة القيامة متخذين الخريطة التي رسمها رسام الخرائط المعروف خريسنيانوس ادريخوم .
Christianus adrichom لمدينة القدس عام (١٥٨٤) ، وفيها يرى الناظر موضع الجلجثة ومكان القبر المقدس خارج الباب إلى الشمال من سور المدينة .

ويمضي مؤيدوا هذا الرأي في حججهم فيقولون إن مكان الكنيسة الحالي لم يكن يوم صلب السيد المسيح خارج السور . بل كان هذا (أي السور) يمتد إلى أبعد من ذلك . بدليل أن بركة حزقيا الواقعة على بعد بضعة أمتار من كنيسة القيامة من الجنوب الغربي والمعروفة في يومنا هذا : بـ(بركة حمام البطرك) كانت في زمن الرومان داخل السور ، ولم تكن خارجه . وقد حفرها حزقيا خصيصاً لتشرب المدينة من مائها أثناء الحصار .

وجدير بالذكر أيضاً أن القائلين بنظرية قبر البستان ، ينكرون الاتجاه الحالي لدرب الآلام ؛ فيقولون إنها تبدأ عند قصر بيلاطس (مكان الروضة) ثم تتجه نحو باب العمود ، وتنتهي عند الزاوية الأدهمية حيث مكان الجمجمة .

تأسست سنة (١٨٩٣) جمعية باسم (جمعية قبر البستان بالقدس) The Garden Tomb (Jerusalem) Association وهي خاضعة لكنيسة انكلترا Church of

(٤) هناك اعتقاد بأن التل هو الذي تقوم عليه الآن المقبرة المعروفة بباب الساهرة وهي للمسلمين .

England وهي التي تقوم على حراسة هذا المكان الذي تم شراؤه سنة (١٨٧٢) . .

إنه اليوم عبارة عن غرفة منقورة في الصخرة ، ارتفاعها ستة أقدام وسبع بوصات ، وعرضها أحد عشر قدماً وبوصتان . والغرفة مقسومة إلى قسمين : في القسم الشرقي منها ثلاث جور ، تتسع كل واحدة منها لجثة إنسان . واحدة منها تامة الصنع . والأخريان لم تتما . إحداهما تبدو كأنها أعدت لإنسان بالغ ، والأخرى لطفل .

وهناك بستان جنوبي القبر . يحده من الشمال والشرق تل مرتفع ، عليه مقبرة هي المعروفة بمقبرة الساهرة ، وهي بيد المسلمين .

والغريب في الأمر أن المستر ماي[١] R.S.W. May الموظف المشرف على قبر البستان في يومنا هذا (١٩٤٧) من الذين يشكون في صحة الرأي القائل إن السيد المسيح صلب أو دفن في هذا المكان! حتى أنه استقال من منصبه بسبب الشك الذي ساوره في هذا الصدد طوال السنين التي قضاها في هذا البلد .

الروم الأرثوذكس:

دياراتهم كثيرة نذكر منها :

دير أبينا إبراهيم في ساحة كنيسة القيامة في الناحية الشرقية إلى الجنوب . عمّرته الملكة هيلانة حوالي سنة (٣٣٥م) . وخربه الفرس (٦١٤م) . وظل موضعه خراباً إلى أن أخذه الروس من الأتراك (١٨٨٧م) . فأعطوا قسماً منه للروم ، حيث بنوا ديرهم هذا . وبنوا هم على القسم الآخر ديرهم القريب من باب خان الزيت والمعروف بـ(المسكوبية) .

١- فيه اليوم كنيستان : إحداهما صغيرة باسم (أبينا إبراهيم) . والأخرى كبيرة باسم (الرسل الاثني عشر) .

٢- دير مار يوحنا المعمدان : بين سويقة علون والشارع المؤدي إلى حارة النصارى . فيه كنيستان : واحدة تحت الأرض . . طرازها بيزنطي . . بنيت سنة (٤٥٠م) . والأخرى فوقها بنيت عام (١٠٤٨م) . عندما احتل الصليبيون القدس اتخذوا الدير والكنيستين مستشفى ومقراً لفرسان مار يوحنا (١٠٩٩م) . وعندما استرد صلاح الدين القدس أعاد البناء مع ما أعاده من الأبنية الأخرى إلى الروم

---

(١) إنه انكليزي الجنسية وبروتستاني المذهب .

(١١٨٧م) .

٣- كنيسة ستنا مريم : في وادي قدرون عند ملتقى الطرق المؤدية إلى باب الأسباط وسلوان وجبل الطور . بناها ماركيانوس إمبراطور بيزنطة (٤٥٠-٤٥٧م) . وفيها قبور يواكيم وحنة والدي مريم البتول ، وقبر مريم نفسها ويوسف النجار . إنها للأرمن والروم . وفيها حجرة يصلي فيها الأقباط والسريان .

٤- دير مار سابا : على مقربة من سلوان . بناه[1] القديس سابا حوالي (٤٨٤م) . فيه كنيسة أنشئت عام (٥٠٣م) ، وعمارات أضيفت إليه على عهد الإمبراطور جوستانيان (٥٢٧-٥٦٥م) . وفيه مكتبة فيها ثلاثة آلاف مجلد . ولا يجوز دخول النساء لهذا الدير عملاً بوصية القديس سابا الذي لم يسمح حتى لأمه بدخوله .

٥- دير العذراء : ويسمونه دير ستنا مريم . واقع إلى الجنوب من كنيسة القيامة ، بينها وبين المسجد العمري . إنه دير بيزنطي قديم . بني في عهد البطريرك إلياس الأول (٤٩٤م) .

٦- الدير الكبير : ويعرف بدير قسطنطين . ويسميه اليونان (كندركسون مناستيون) أي الدير المركزي . واقع إلى الجنوب من بطريركية الروم في حارة النصارى . بناه البطريرك إلياس الأول (إيليا) الذي تولى شؤون البطريركية سنة (٤٩٤) ميلادية . ويعتبر اليوم قاعدة أديار الروم في فلسطين . فيه ثلاث كنائس : (١) كنيسة القديسة هيلانة (٢) كنيسة القديسة تقلا (٣) كنيسة مار يعقوب . وفي هذه الكنيسة معبدان صغيران : واحد باسم (الشهداء الأربعين) . والثاني باسم (حاملات الطيب) .

٧- دير القديس تيؤدوسيوس : أنشىء في نفس التاريخ الذي أنشىء فيه دير مار سابا (٤٨٤م) . واقع بين بيت لحم ومار سابا . ويسميه العرب دير ابن عبيد . لأنه كائن في المنطقة التي تعيش فيها عشيرة العبيديين . ذكره ابن البطريق فقال : إنه دير الدواكس . وكان به مودسطس الراهب الذي عمر كنيسة القيامة بعد أن دمرها الفرس .

---

(١) (كلام في وصف الأرض المقدسة) لمؤلفه باسيلي نقولا خترفو . عربة عن الروسية حنا عيسى .

٨- دير المصلبة : في ظاهر القدس إلى الغرب . إنه دير قديم أنشأه[1] الأمير ماريام الكرجي أيام الملك قسطنطين حوالي سنة (٣٣٠) للميلاد . وفي قول آخر إن الذي بناه هو الإمبراطور يوستنيانوس ، وأن ذلك جرى بين عامي (٥٢٧ و٥٦٥) للميلاد . فيه كنيسة .

٩- دير البنات : مجاور لخان الأقباط من ناحية الشمال . بناه البطرك إلياس (٥٩٤) . فيه كنيستان : إحداهما أرضية باسم (القديسة ميلانيا) ، والأخرى فوقها باسم (مريم الكبيرة) أو (العذراء البكر) .

١٠- دير مار إلياس قبلي القدس ، على طريق بيت لحم . أنه دير قديم . أنشأه هرقل الملك خلال القرن السابع للميلاد (٦١٠م) ، فهدمه الفرس (٦١٤م) ، وأعيد بناؤه سنة (١١٦٥م) من لدن عمانوئيل قومنينوس . وتجدد في زمن البطريرك ذوستيوس سنة (١٦٧٨م) . فيه كنيسة .

١١- دير الجليل : فوق جبل الطور . فيه كنيسة قديمة يسميها الروم (غاليليا) والمقدسيون (إيليا) . يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح ظهر لتلاميذه بعد قيامه لأول مرة في هذا المكان . وقد بنوا في الموضع نفسه كنيسة أسموها : (كنيسة العذراء) .

١٢- دير القطمون : في الحي المعروف بالقطمون غربي القدس . كان بيد الكرج ، ثم صار إلى الروم . فيه كنيسة . وفي داخل الكنيسة قبر القدس سمعان . وكانوا يسمونه (دير سمعان) . إنه مقر الكرسي البطريركي في فصل الصيف . وكان الروم ينزلون فيه الحكام والمتصرفين .

١٣- وهناك ديارات نذكر منها : (حبس المسيح) على طريق الآلام . و(دير مارخو الأمبوس) بعيد الخانقاه الصلاحية من الجهة الشرقية . و(دير السيدة) على مقربة من الخانقاه المتقدم ذكرها . و(دير مار افتيموس) وهو ملاصق لدير السيدة من الشمال . و(دير العدس) ويسمونه دير مار نيكوديمس ، فوق حبس المسيح في حارة السعدية . و(دير صهيون) على جبل صهيون . و(دير مار جرجس) وهو ملاصق لدير اللاتين من الشرق . وهناك دير آخر بهذا الاسم إلى الشرق من دير

---

(١) هذا ما قاله المؤرخ اليوناني بنيامين يوانيدس في الصفحة (٢٦٤) من كتابه الذي طبعه في مطبعة دير الروم بالقدس سنة (١٨٧٧م) .

الأرمن . و(دير مار ميخائيل) مجاور لبطريركية الروم إلى الشمال . و(دير القديسة كاترين) في حارة النصارى بين الخانقاه الصلاحية ودير اللاتين . و(دير مار سبيريدون) في حارة الحدادين . و(دير مار ديمتري) في حارة النصارى على طريق الكازانوفا . و(دير كار تادرس) بجانب الدار الجديدة المعروفة بالكازانوفا . و(دير القديس انوفريوس) في الوادي الكائن بين جبل صهيون وجبل أبي ثور . و(دير أبي ثور) على جبل المكبر . و(دير العازر) في العيزرية على مقبرة من القدس إلى الشرق . وفي كل واحد من هذه الأديرة معبد يعبدون الله فيه .

وللروم الأرثوذكس بطريرك هو اليوم (تيموثيوس) . وقد تولى البطريركية قبله خمسة وتسعون بطريركا . أولهم الأسقف (يوفيناليوس) هو أول من سمي بطريركا لاورشليم . وقد تم ذلك سنة ٤٥١ ميلادية . وهو الذي أقر الاحتفاء بعيد الميلاد في اليوم الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) .

ومن بطاركة الروم الذين اشتهروا في عهدهم إلياس (إليا) ٤٩٤م . وكان هذا عربي الأصل من نجد . وله آثار في القدس منها دير قسطنطين . ومنهم صفرونيوس الأول (٦٣٤م) . وعلى عهده فتح المسلمون بيت المقدس . وصفرونيوس هذا عربي الأصل ، وإن كان اسمه يونانياً (معناه العفيف أو ذو العقل السليم) ، ذلك لأن البطاركة درجوا على عادة تسميتهم بالأسماء اليونانية .

وعندما احتل الصليبيون البلاد (١٠٩٩م) ، ساد فيها حكم الكنيسة الغربية . وعندما انهزم الصليبيون على يد صلاح الدين تنفس الروم الصعداء . وكان جميع البطاركة الأورشليميين (من سنة ١٢٩١ إلى سنة ١٥٢٥) عرباً . أي أن الأساقفة العرب انفردوا في إدارة شؤون الكنيسة الأورشليمية مدة ٢٣٤ سنة .

على عهد البطريرك داميانوس الأول (١٨٩٧م) اشتد الخلاف بين طائفة الروم من أبناء البلاد ورجال الأكليروس اليونانيين . وقد حاول أبناء البلاد ولا يزالون يحاولون التخلص من سيطرة رجال الدين الأجانب .

الروم الكاثوليك:

في القدس أبرشية للروم الكاثوليك ، أنشأها البطريرك مكسيمون مظلوم سنة(١٨٤٨م) . تقوم هذه الأبرشية في يومنا هذا في حارة الموارنة . وفيها نائب بطريركي هو الأرشمندريت جبرائيل أبو سعدى . يرجع في أموره إلى بطريرك الروم

الكاثوليك في دمشق . وهو اليوم (١٩٤٧) مكسيموس الرابع صايغ بطريرك انطاكية وسائر المشرق والإسكندرية وأورشليم .

وللروم الكاثوليك في القدس كنائس وأديرة نذكر منها :

١- **كنيسة القديسة حنه** : بين باب حطه وباب الأسباط ، إلى الشمال من الحرم القدسي . يعتقد المسيحيون ، أنه هنا في هذا المكان كان فيما فرط من الأيام مسكن يواكيم وحنه والدي مريم البتول . وفي هذا المكان بركة حسدا حيث أتى السيد المسيح بإحدى معجزاته . وفيه بني في القرن الرابع للميلاد معبد كما بنيت كنيسة باسم مريم البتول في سنة ٥٣٠م . ويظهر أن هذه الكنيسة احترقت مع من احترق من كنائس النصارى على يد الفرس عام ٦١٤م . فأعاد الصليبيون بناءها عندما فتحوا القدس ١٠٩٩م . وكانت تدعى كنيسة القديسة حنه . وجعل صلاح الدين هذه الكنيسة رباطاً للصالحين ومدرسة للفقهاء الشافعيين سنة ١١٨٨م . وكانت هذه تعرف فيما مضى بـ (صند حنه) . وسميت بعد الفتح الصلاحي بالصلاحية . وحدث زلزال خلال المدة الواقعة بين (١٨٢١و١٨٤٢م) ، هدمت على أثره جدران الدير . فنقلت الحكومة العثمانية حجارته وبنت بها الثكنة العسكرية المجاورة له .

وعندما انتهت حرب القرم بانتصار تركيا (١٨٥٥م) سلم السلطان عبد المجيد هذا المكان إلى نابليون الثالث اعترافاً بفضله . ذلك لأن فرنسا عاضدت تركيا في حربها مع الروس . وسلمه المتصرف كامل باشا إلى الفرنسيين (١٨٥٦م) . فأنشئت فيه مدرسة (١٨٧٨م) . وانقلبت هذه إلى كلية إكليركية (١٨٨٢م) . وفي الحرب الكونية الأولى (١٩١٤م) احتلها الجيش التركي ، وحولها القائد التركي جمال باشا إلى كلية إسلامية أسماها : (كلية صلاح الدين) . وأما الكنيسة فلم يمسها ضرر . ولمّا احتل الإنكليز القدس (١٩١٧م) أعادوا العمارة إلى الآباء البيض . فأنشأ هؤلاء فيها مكتبة ومتحفاً .

٢- **وللروم الكاثوليك في القدس دار يسمونها : (دار القديسة فيرونكا) .** واقعة في عقبة المفتى ، على درب الآلام . بنيت في المكان الذي مسحت فيه هذه القديسة وجه السيد المسيح وهو مار من هناك حاملاً صليبه . وكانت الأرض ملكاً لمسلم من سكان القدس هو (عبد الرحمن حدوثة العلم) ، فباعها بثلاثة آلاف ليرة فرنسية ذهباً . وحصل الروم الكاثوليك على فرمان من السلطان

بتاريخ (١٨٩٤م) فأنشأوا فوقها كنيسة باسم القديسة فيرونيكا .

الإرساليات الكاثوليكية وبطاركة اللاتين:

عندما أنشأ البابا بيوس التاسع عشر بطريركية اللاتين في أورشليم (١٨٤٧) نشأ خلاف بين البطريرك (يوسف فاليركا) الذي أقامه قداسة البابا وبين الآباء الفرنسيين . إذا اعتقد هؤلاء انهم أحق من غيرهم في إدارة الأماكن اللاتينية . وانقسم اللاتين إلى فئتين : فئة تؤيد البابا ومندوبه البطريرك . وأخرى تعضد الآباء الفرنسيين . وراح البطريرك يحث الرهبان في القارة الأوروبية على المجيء إلى فلسطين . ومما شجع هؤلاء على المجيء إلى هذه الديار الضغط الذي ألم بالجمعيات الدينية بفرنسا ، والتشريعات الجديدة التي سنت فيها لمطاردة الرهبان بإيعاز من المحافل الماسونية ، وقال المطران مكسيموس مظلوم في الصفحة ٣٧١ من كتاب (تاريخ الحرب المقدسة في الشرق) . ذلك الكتاب الذي ترجمه عن الفرنسية لمؤلفه (مكسيموس مونروند) إن المسيحيين راحوا يزورون القدس في الجيل السادس عشر وما بعده بكثرة ؛ لا بقصد العبادة فحسب ، بل وحماية الأماكن المقدسة بالطرق السلمية ؛ إذ كان المسلمون يومئذ أقوياء ، وما كان من السهل إشهار حرب صليبية عليهم كالحرب التي قامت في القرن الحادي عشر . ومن الرهبنات التي تأسست في القدس :

الآباء الفرنسيسيون : ويلقبهم المقدسيون بـ (رهبان أبي حبلة) . عهد إليهم البابا غريغوريوس التاسع بخدمة كنيسة القيامة عام (١٢٣٦م) . وتزعموا حراسة الأماكن اللاتينية المقدسة من سنة (١٢٩١ إلى سنة ١٨٤٧م) . وبيدهم فرامانات من المماليك والأتراك . ومن أملاكهم في القدس :

١- دير المخلص : ويعرف بدير اللاتين . واقع في الجهة الغربية الشمالية من حارة النصارى . ابتاعوه من الكرج سنة (١٥٥٩م) . فيه مكتبة قيمة وفيه مدرسة وكنيسة وميتم وصيدلية ومطبعة وفرن ومطحنة وعدة معامل .

٢- الكازانوفا : يسمونها الدار الجديدة . واقعة بين الباب الجديد ودير الإفرنج ومعدة لنزول الحجاج والزوار المسيحيين .

٣- دار البطريركية : على مقربة من الكازانوفا ودير المخلص . أنشأها البطريرك يوسف فاليركا سنة (١٨٦٣م) . فيها يقيم بطريرك اللاتين . وفيها مدرسة إكليركية وكنسية باسم يسوع .

٤- الجسمانية : كنيسة جميلة واقعة في وادي قدرون عند ملتقى الطرق بين القدس والطور وسلوان . بنيت سنة ١٩٢٤ . واشترك في بنائها جميع اللاتين في العالم . والمعتقد أن رئيس كهنة اليهود وجنده ألقوا القبض على السيد المسيح بدلالة يهوذا الأسخريوطي في هذا المكان .

٥- كنيسة مار فرنسيس : واقعة إلى الشمال من مقام النبي داود . بنيت فوق أرض كانت في الأصل ملكاً لجماعة من آل الدجاني . وقد ابتاعها الآباء الفرنسيسيون حوالي عام (١٩٣٠) .

٦- حبس المسيح : واقع إلى الشمال من القشلة القديمة ، أمام الروضة ، وعلى مقربة من الطريق المؤدية إلى باب الأسباط . يعتقد اللاتين أن السيد المسيح جلد وأهين في هذا المكان من قبل جند الرومان .

٧- الآباء الدومينكيون : ومن أسمائهم (رهبان مار عبد الأحد) . جاءوا إلى القدس عام (١٨٨١م) . ولهم فيها دير وكتدرائية تدعى (سانت أتيان) أو (كنيسة القدس أسطفان) . بنيت في عهد البطريرك جوفينال (٤٢٨-٤٥٨) إنها واقعة على بعد نصف كيلو متر من باب العمود إلى الشمال . خربها الفرس عام (٦١٤م) . وبنى على أنقاضها البطريرك صفرونيوس (٦٣٨م) معبداً صغيراً باسم القديس أسطفان . خربه الصليبيون خشية أن يلجأ إليه المسلمون الذين جاءوا يومئذ (١١٨٧) لحصار بيت المقدس . والكنيسة الحالية بنيت عام (١٨٩٨م) . وسميت الكنيسة الملوكية الصغرى .

٨- الآباء الكرمليون : هبطوا البلاد عام (١٦٣٦م) . لهم في حيفا وعلى جبل الكرمل كنائس وأديار . وأما في القدس فليس لهم سوى دير صغير في الطالبية ، ومعبد صغير باسم (القديسة تريزا) .

٩- راهبات مار يوسف : هبطن القدس عام (١٨٤٨م) . ولهن فيها (مستشفى القديس لويس) تجاه السور من الشمال وعلى بعد خطوات من الباب الجديد . بني عام (١٨٨٠م) .

١٠- دير مار يوسف : في حارة الموارنة على مقربة من بطريركية الروم الكاثوليك . أنشىء عام (١٨٥٠) . وتم تجديده في (١٩٣٠م) . فيه كنيسة وفيه مدرسة للبنات . ولراهبات مار يوسف مدرسة ثانوية للبنات خارج السور . وميتم على مقربة المدرسة المذكورة .

١١- راهبات صهيون : جئن إلى القدس عام (١٨٥٦م) . لهن فيها دير على طريق الآلام ، فيه مدرسة وكنيسة وميتم .
١٢- رهبان صهيون : جاءوا إلى القدس عام (١٨٧٣) . ولهم فيها مدرسة هي التي عرفت بالراتزبون ، وتعرف أيضاً بمدرسة القديس بطرس . وهي مدرسة صناعية واقعة على بعد بضعة أمتار من مقبرة ماملا . وفيها كنيسة .
١٣- الترل النمساوي : ويسمونه هوسبيس النمسا . واقع في حارة الواد على طريق الآلام . بني عام(١٧٥٦م) . وبات فيه إمبراطور النمسا فرنسوا جوزيف ليلة عندما زار القدس (١٨٦٩) وفيه كنيسة .
١٤- راهبات الكرمل : جئن إلى القدس عام(١٨٧٣) . وشيدن على جبل الزيتون ديراً يعرف باسمهن . إنهن لا يظهرن على أحد من الناس طوال حياتهن .
١٥- الفرير : ويسمونهم إخوة المدارس المسيحية . جاءوا إلى هذه البلاد عام (١٨٧٦م) . ولهم في حارة الجوالدة من حارات القدس دير وكنيسة ومدرسة كبيرة .
١٦- الآباء البيض : جاءوا إلى القدس عام (١٨٧٨م) . وأسسوا فيها كنيسة القديسة حنة المعروفة في يومنا هذا بالإصلاحية . ذكرنا عنهم الشئ الكثير في الفصل الذي خصصناه للروم والكاثوليك .
١٧- الراهبات الوردية : ينتمين إلى رهبنة أسسها الأب يوسف طنوس الناصري عام (١٧٧٩م) . لهن في القدس مدرسة للبنات أنشئت عام (١٨٨٣م) . ومستوصف وديران : واحد بجوار بطركية اللاتين والآخر إلى الجنوب من مقبرة ماملا . وفي كلا الديرين كنيسة .
١٨- رهبان مار يوسف : جاءوا إلى القدس عام (١٨٧٩م) . فأسسوا مستشفاهم الكائن في الطنطور بين القدس وبيت لحم . وفي داخل المستشفى كنيسة .
١٩- آباء القلب المقدس : جاءوا عام (١٨٧٩) وأنشأوا ديرهم القريب من بيت لحم . كانت لهم مدرسة إكليركية . إلا أنهم في هذه السنة (١٩٤٧) نقلوها إلى فرنسا . ولهم في داخل ديرهم كنيسة .
٢٠- راهبات مار فرنسيس : ويعرفن بالفرنسيسيات الثالثيات . جئن إلى القدس عام (١٨٨٤م) . وأنشأن ديرهن الكائن في حارة النصارى إلى الشمال الشرقي من دير اللاتين . فيه كنيسة ، وفيه مدرسة داخلية تعرف ببيت اليتامى .

٢١- راهبات مار كلارا : جئن إلى هذه البلاد عام (١٨٨٤م) . وأسس ديراً على جبل المكبر في الطريق المؤدية إلى الكلية العربية . لا يختلطن بأحد من الناس ، وفي ديرهن كنيسة .

٢٢- راهبات المحبة : ويعرفن براهبات مار منصور . جئن إلى القدس عام (١٨٨٦م) ، لهن معهد واقع على طريق ماملا . فيه عدد كبير من الأطفال والأيتام والعجزه والمعتوهين والعميان . وهناك كنيسة في داخل المعهد .

٢٣- الآباء الانتقاليون : ويسمونهم الرهبان الأغسطونيين وهناك من يسميهم غلطاً بالصعوديين . جاءوا إلى القدس عام (١٧٨٧م) . وأسسوا فيها نزلاً هو المعروف بـ (نوتردام دو فرانس) . إنه عبارة عن عمارة ضخمة ، لا تبعد إلا بضعة أمتار عن الباب الجديد ، من أبواب السور الشمالية . بني عام (١٨٩٩م) ، بقصد إيواء الحجاج الفرنسيين ونشر الدعاية لفرنسا . فيه كنيستان : واحدة كبيرة والأخرى صغيرة . وفيه متحف ومكتبة ومدرسة إكليركية . وهو مشرف على المدينة إشرافاً تاماً .

٢٤- راهبات السجود : ويسمونهم راهبات القربان . جئن إلى القدس عام (١٨٨٨م) . وأسسن فيها ديراً هو الذي نراه أمام المستشفى الفرنسي على طريق سليمان . وفي الدير معبد باسم القربان المقدس ترى أمامه ، في أي وقت دخلته راهبتين ساجدتين . ويتبادل الراهبات السجود مرة في كل ساعة .

٢٥- الآباء العازريون : هبطوا هذه البلاد عام (١٨٩٠م) . لهم في القدس العمارة الكائنة بباب العمود ، التي اتخذت في أوائل الاحتلال البريطاني مقراً لحاكم القدس . ولهم فيها أيضاً دير إلى الجنوب من مقبرة ماملا . وفي كلا الديرين معبد .

٢٦- الآباء الترابيون : جاءوا حوالي عام (١٨٩١م) . وأسسوا ديرهم الشهير في اللطرون . عددهم أربعون يعيشون في صمت تام . وهم ماهرون بزراعة الكرمة وصناعة الألبان والخمور .

٢٧- راهبات مريم الفرنسيسيات المرسلات : جئن إلى القدس عام (١٩١٨م) . ويسمين الراهبات البيض . لهن دير بباب العمود تجاه نزل القدس بولس للألمان الكاثوليك . بني هذا الدير عام (١٩٣٣) وفيه كنيسة ومصنع للتصوير والخياطة وميتم .

٢٨- الآباء الكبوشيون : جاءوا سنة (١٩٣٥) ولهم في الطالبية دير ومدرسة

وكنيسة .

٢٩- الجزويت : ويقال لهم الآباء اليسوعيون . لهم في القدس (المعهد البابوي الأثري) في حي النيقوفورية . أسس عام (١٩٢٧م) . ومهمتة دراسة الآثار القيمة بفلسطين .

٣٠- وهناك الرهبان السالزيون والراهبات السالزيات في حي المصرارة . والرهبان البندكتيون والراهبات البندكتيات على جبل صهيون وراهبات الجلجثة والآباء المعزون وغيرهم كثيرون .

تلك هي الإرساليات الكاثوليكية في القدس . وهي خاضعة للبابا في روما . وفي القدس بطريرك ينتدبه البابا ، لإدارة شؤون الطائفة اللاتينية . وفيما يلي أسماء البطاركة الذين تسلموا كرسي البطريركية : يوسف فاليركا (١٨٤٧) ، فنسان براكو (١٨٧٣) ، لودفيكو بيافي (١٨٨٩) ، فيلبس كمساتي (١٩٠٦) ، لويجي برلاسينا (١٩٢٠) ، منصور جلاد (وكيل بطريرك) (١٩٤٨) ، ألبرتوغوري (١٩٥٠) .

الأرمن:

في القدس اليوم (١٩٤٧) خمسة آلاف أرمني . وهم فئتان : فئة قديمة في دير مار آركانجل شرقي مار يعقوب . وأخرى حديثة العهد هبطت القدس يوم غضب الأتراك على الأرمن في بلادهم فذبحوهم (١٩١٤م) . وتعيش هذه الفئة في دير مار يعقوب .

وللأرمن في القدس ممتلكات -نذكر منها :

١- دير مار يعقوب : ويسمونه دير القديس جيمس الكبير واقع بين قشلاق البوليس وباب النبي داود . فيه دار البطريركية ، ومدرسة للاهوت ، ومطبعة ، ومكتبة فيها أربعة آلاف مخطوط وثلاثون ألف كتاب مطبوع . كان في هذا الدير كنيسة قديمة هدمها الفرس عام (٦١٤م) . ثم أعيد بناؤها في أواسط القرن الثاني عشر . وقال بعض المؤرخين[1] إن هذا الدير كان في الأصل للكرج ، ثم صار للروم ، وكان

---

(١) عن مخطوط عثر عليه في برلين (ص٤٤) لمؤلفه الخوري ميخائيل بريك الدمشقي . وقد اطلعت عليه في مكتبة الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف بزحلة .

يدعى فيما مضى دير القديس يعقوب الزبدي . ثم أخذه الأرمن من الروم بالأجرة ، فصار لهم .

٢- دير الزيتونة : ويسمونه دير مار آركانجل . واقع خلف دير مار يعقوب من الشرق . فيه مدسة للبنات وكنيسة .

٣- حبس المسيح : دير للأرمن واقع في حي النبي داود على جبل صهيون . فيه كنيسة صغيرة . وفي ساحته عدد من قبور بطاركة الأرمن وأسافقتهم المتأخرين .

٤- وللأرمن في كنيسة القيامة كنائس منها : الجلجلة الثاني وهي أمام القبر المقدس . وكنيسة مار كريكورلوسا موريتش ويسمونها كنيسة القديسة هيلانة . وكنيسة المريمات أمام قبر المسيح . وكنيسة مار يوحنا في ساحة القيامة .

٥- ولهم جانب، من كنيسة ستنا مريم عند مفترق الطرق المؤدية إلى القدس وسلوان وجبل الزيتون .

وللأرمن في القدس بطريركية يقوم عليها في يومنا هذا كوريخ الثاني واسمه إسرائيليان نور شوغايتسي وهو الرابع والتسعون بين البطاركة الذين تولوا رعاية الكنيسة والطائفة الأرمنية .

٦- والأرمن أيضاً ، من حيث العقيدة ، فئتان : أرمن أرثوذكس . وأرمن كاثوليك . وللأرمن بطريركية أنشأها النائب البطريركي (أنطون يواكيم توماريان) وكان ذلك سنة (١٨٨٦م) . ولهم دير بني في الموضع الذي التقت فيه مريم العذراء بالسيد المسيح وهو ذاهب للصلب . وكنيسة أسموها : أوجاع العذراء .

الأقباط:

هبطت أول قافلة قبطية مدينة القدس بقصد الاشتراك في تدشين القيامة . وكان ذلك في أواسط القرن الرابع للميلاد . وجاءت بعد ذلك قافلة أكبر من الأولى ، وكان ذلك على عهد صلاح الدين ، وكان الأقباط له مخلصين . فأراد أن يكافئهم على إخلاصهم ، فرد إليهم أملاكهم التي اغتصبها منهم الصليبيون .

إن أول مطران قبطي رسم على القدس هو الأنبا باسيليوس (١٢٣٦م) . وجاء من بعده سبعة عشر مطراناً . آخرهم المطران الحالي الأنبا ياكوبس (١٩٤٦م) .

في القدس اليوم زهاء خمسمئة قبطي . وللقبط فيها أملاك نذكر منها :

١- دير السلطان : وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الشرقية . وفيه

كنيستان : كنيسة الملاك وكنيسة الحيوانات الأربعة . اغتصبه الصليبيون من الأقباط ، ورده إليهم صلاح الدين . ولهذا أسموه دير السلطان .

٢- دير مار أنطونيوس : يعرف بالدير الكبير . وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الشمالية الشرقية وفيه كنيستان : كنيسة القديس أنطونيوس وكنيسة الملكة هيلانة . وفيه أيضاً دار الأسقفية .

٣- دير مار جرجس : في حارة الموارنة على مقربة من باب الخليل .

٤- خان القبط : في حارة النصارى بين باب الخليل وكنيسة القيامة . بناه المطران الأنبا إبراهيم عام (١٨٣٩م) .

٥- وللأقباط كنيسة السيدة في الجسمانية ، وهيكل على جبل الزيتون ، وكنيسة مار يوحنا خارج القيامة ، ومقبرة على جبل صهيون ، يدفن موتاهم فيها أيضاً السريان والأرمن والأحباش . وللأقباط في كنيسة القيامة أيضاً كنيسة صغيرة ملاصقة للقبر المقدس من الغرب .

الأحباش:

تنصروا خلال القرن الرابع ، وهبطوا القدس بعد ذلك التاريخ . وكان لهم فيها كنائس وأديار[1] . إلا أنهم أضاعوا أكثرها مع الزمن . فلم يبق بأيديهم منها سوى :

١- دير الحبش : ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب . وقيل إنه جزء من دير السلطان للأقباط ، ذلك الدير الذي لم ينقطع الخلاف حوله بين الأقباط والأحباش منذ سنين .

٢- كنيسة الحبش : في ظاهر المدينة خارج السور ، وإلى الشمال الغربي من المسكوبية . ثم بناؤها حوالي عام (١٨٩٠م) . وإلى جانب هذه الكنيسة يقوم دير يسميه الأحباش : دير الجنة .

٣- وللأحباش عمارات كبيرة شيدها الأب جرجس سيمايت باسم الملكة (تايتو[2]) وينفق ريعها على الرهبان . هذا بالإضافة إلى المبلغ الذي تبرع به إمبراطور

---

(١) Enrico Cerulli كتاب وضعه باللاتينية Ethopi In Palesine وضع في روما سنة (١٩٤٣) .

(٢) (المرسليات اللاتينية) لألفونس والونصو (ج٢ ص١٠٧) .

الحبشة منليك سنة (١٩٠٥م) . وقدره مئتا ألف تاليرا[١] .

وكان لهم فيما مضى حق التقدم على الطوائف المسيحية الأخرى[٢] . ولكنهم ضعفوا مع تقادم العهد وراحت الطوائف الأخرى تنازعهم في هذا الحق . وساءت حالتهم في أوائل القرن التاسع عشر ، وتناقص عددهم ، فلم يبق في القدس منهم في يومنا هذا أكثر من سبعين نسمة . كلهم ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية . يعيشون في ديرهم عيشة الفقر والمسكنة .

السريان:

هبطت أول قافلة منهم في القرن الأول للميلاد ، وكانت قليلة العدد ، إلا أن معظمهم جاءوا إلى القدس مع الصليبيين . ولما احتل القدس صلاح الدين ، ورحل هؤلاء ، رحلوا معهم فلم يبق منهم في القدس سوى عدد قليل .

واليوم هم فئتان : أرثوذكس وكاثوليك . أما الأرثوذكس فإن عددهم في القدس اليوم (١٩٤٧) ألفان . وأما السريان الكاثوليك فإنهم أربعمئة . جاء أكثرهم من شمال العراق والبلاد الواقعة شرقي ماردين .

وللأرثوذكس في فلسطين أبرشية مركزهما القدس . وعليها الآن نائب بطريركي يرجع في أموره إلى البطريرك الأنطاكي . ولهم في القدس اليوم ممتلكات نذكر منها :

١- دير مار مرقش : في حارة الجواعنة بين حارة الأرمن واليهود . وفي الدير كنيسة بيزنطية باسم العذراء ، ودار للأسقفية . ولقد خربت الكنيسة البيزنطية على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي (١٠٠٩م) . وهجر الدير في غضون الحكم التركي . ولكن السريان عادوا إليه وعمروه سنة (١٨٥٥م) . ثم وسعوه سنة (١٨٨٠م) .

٢- دير العدس : شمال القوس المعروف بـ(أيكوهومو) على درب الآلام . عمروه بتاريخ (١٥٧١م) .

٣- دير مار توما : في الشارع المؤدي إلى حي النبي داود .

٤- معبد صغير : في كنيسة القيامة باسم يوسف ونقوديموس .

---

(١) عملة ألمانية تساوي (٣,٧٠ فرنك بالوجه التقريبي) .

(٢) سجل المحكمة الشرعية بالقدس ذو التاريخ (١٩ من ذي الحجة ٩٤٩هـ-١٥٤٢م) .

٥- معبد بالمنيسة المعروفة بستنا مريم على مقربة من الجسمانية .
٦- معبد على جبل الزيتون .

وللسريان الأرثوذكس في القدس جمعيتان :

١ . جمعية مار مرقص . ولها مدرسة في شارع الأنبياء ومطبعة ومكتبة .
٢ . وجمعية الشبان السريان .

٧- وأما السريان الكاثوليك فلهم دير سليمان بين باب العمود والنوتردام على بعد خمسين متراً من السور الشمالي . بني هذا الدير حوالي سنة (١٠٩١م) . وفيه كنيسة صغيرة .
٨- ولهم دير يدعى دير مار مبارك أنشىء سنة (١٩٠٣م) . وهو واقع في باطن الهواء إلى الشرق من سلوان . فيه كنيسة ، ومدرسة يديرها الآباء البندكتيون .

الموارنة:

لا نعرف متى هبطوا القدس . وإن كنا نعرف أنهم ينتمون إلى مار مارون الذي عاش في لبنان حوالي القرن الرابع للميلاد .

كانت لهم ، فيما مضى ، مكانة مرموقة في القدس . وكانوا في القرنين السابع والثامن للميلاد يأتون بعد الفرنجة من حيث الأهمية . وأما اليوم ، فإنهم قلة بين الطوائف المسيحية التي تعيش في القدس . وليس لهم فيها سوى دير الموارنة الذي يعيشون فيه . وهو واقع في الحي المعروف بحي الموارنة ، بين سويقة علون وحارة الأمن . ولقد بني هذا الدير في (٦ أيار ١٨٩٥) .

الروس:

للروس مكان واسع الإرجاء يعرف بالمسكوبية . وهو خارج السور . إنهم أول من شيد بناء خارج السور . وكان ذلك حوالي سنة (١٨٥٦م) . والمكان المذكور واقع على طريق يافا على بعد كيلومتر من باب الخليل إلى الغرب . يحيط به سور غير مرتفع . وفيه دار للأسقفية الروسية ، وأخرى للقنصلية ، ومستشفى ، وكنيستان . . إحداهما كبيرة تسمى كنيسة الثالوث الأقدس ولها سبع قباب مصفحة بالرصاص . والأخرى صغيرة بنيت على اسم القديس إسكندر نيفسكي ، ومنازل عديدة لنزول الحجاج من الروس . الأول مخصص لنزول الأشراف الروسيين ، والثاني للكهنة المرسلين وفيه

عدد من القسوس . والثالث للنساء ويستوعب زهاء ألفي امرأة ، والرابع لطبقات الشعب الأخرى ، وهذا يتسع لألف وخمسمئة شخص .

وهناك دار للقنصلية وأخرى للقنصل وعائلته . كما أن هناك منازل أخرى للكتبة والحجاب وسائر المستخدمين . ولقد قامت معظم هذه المباني حوالي سنة (١٨٦٠) للميلاد . وفي عام (١٨٨٧) شيد نزل آخر على نفقة الجمعية الفلسطينية الروسية التي يرأسها شقيق الإمبراطور إسكندر الثالث قيصر روسيا . واستعملت أبنية المسكوبية وعماراتها المختلفة في عهد الاحتلال البريطاني (١٩١٧-١٩٤٧م) لإدارة بعض المصالح الحكومية (كالبوليس والعدلية) واستعمل بعضها كمستشفى حكومي .

وللروس دير يعرف بالمسكوبية أيضاً . وهو قريب من باب خان الزيت وإلى الشرق من كنيسة القيامة .

ولهم كنيسة باسم القديسة مريم المجدلية على مقربة من الجسمانية ومنها إلى الشرق على سفح جبل الزيتون من الغرب أنشئت هذه الكنيسة على نفقة العائلة المالكة تخليداً لذكرى والدة القيصر . وكان ذلك عام(١٨٨٩م) .

ولهم أيضاً كنيسة الصعود على جبل الزيتون . ولهذه الكنيسة جرسية مرتفعة ، هي أعلى بناء في القدس على الإطلاق .

الألمان:

هبط القدس عدد من الألمان بقصد الزيارة بين القرن الثالث عشر والقرن السادس عشر . وقد استوطنها عدد قليل منهم في أواخر القرن الثامن عشر . ووطدت الإرسالية الألمانية أقدامها سنة (١٨٣٥) عندما أسس (فريدريخ أدولف شتراوس) جمعية بالقدس أسماها (جيروزاليم فيراين) .

وفي القدس الآن (١٩٤٧) جالية ألمانية هي من حيث العنصر والوطنية واحدة ومن حيث الدين فئتان : واحدة بروتستانتية والأخرى كاثوليكية . وللألمان حي يعرف بالكولونية الألمانية قريب من المحطة إلى الجنوب من المدينة .

أما الألمان البروتستانت فلهم ممتلكات نذكر منها :

١- مدرسة شنلر ويسمونها دار الأيتام السورية : أسسها يوحنا لودفيغ شنلر عام (١٨٦٠) ، واقعة في ظاهر المدينة إلى الشمال الغربي . لها فروع للتعليم والصناعة والتبشير .

٢- مدرسة طاليتا قومي ويسمونها شرلوطة . في ظاهر المدينة من الغرب على طريق الملك جورج . بنيت عام (١٨٧١م) . وهي واقعة إلى الغرب من بركة ماملا . وفيها كنيسة .
٣- مدرسة ترازيا : أسستها ترازيا سكس الألمانية حوالي عام (١٨٧١م) . وهي واقعة إلى الغرب من بركة ماملا . وفيها كنيسة .
٤- كنيسة المخلص وتعرف بكنيسة الدباغة ذلك لأنها واقعة في شارع يطلق عليه هذا الاسم على مقربة من كنيسة القيامة إلى الشرق القبلي . بنيت على أرض كانت في الأصل تؤلف قسماً من المرستان الصلاحي . وقد أهداها السلطان عبدالعزيز إلى والي عهد بروسيا البرنس فردريك ويلهلم (تسلم عرش الإمبراطورية فيما بعد) . ولقد جرى تدشينها بحضور الإمبراطور غليوم الثاني عام (١٨٩٨م) .
٥- نزل أوغوستا فكتوريا على جبل الزيتون ويسميه العرب (أم الطلعة) والمطلع بناه الألمان سنة (١٩٠٥م) . وأهدوه للإمبراطور والإمبراطورة تذكاراً لعيد زواجهما الفضي . وقد اتخذه الإنكليز في أوائل الاحتلال مقراً للحكم (١٩١٨م) . وكان يقيم فيه المندوب السامي . وفي هذا المنزل الكبير كنيسة واسعة .

وأما أملاك الألمان الكاثوليك فهي :
٦- دير القديس شارل بروميوس تأسس عام (١٨٨٧م) . وهو مخصص لنزول الحجاج الألمان الكاثوليكيين . كان في بادئ الأمر واقعاً إلى الغرب من مقبرة ماملا . ثم انتقل إلى حي الألمان في البقعة . وفي داخله كنيسة .
٧- نزل القديس بولس على بعد مئة متر من باب العمود إلى الشمال . بني عام (١٩٠٨م) . واحتلته حكومة فلسطين عام (١٩١٧) . فاتخذته مقراً لحاكم القدس . وفي داخله كنيسة .
٨- كنيسة نياحة العذراء ويسمونها باللاتينية (دورميثيو) وبالألمانية (دورميثيون) Dormition : واقعة على جبل صهيون ، إلى الغرب من مقام النبي داود ، يفصل بينهما زقاق ضيق مرصوف ، وإلى الجنوب من السور ، على بعد بضعة أمتار من الباب المعروف بباب النبي داود .
إنها من أملاك الألمان الكاثوليك . بنيت فوق أرض أهداهم إياها السلطان عبدالحميد .

وقد اشتراها هذا من رجل من الدواهدة يدعى الشيخ سعيد وهبه الداودي .

يعتقد المسيحيون أن المكان الذي تناول فيه السيد المسيح عشاءة الأخير وغسل أقدام تلاميذه والذي سمي فيما بعد (علية صهيون) ، كان إما في الموضع الذي تقوم عليه كنيسة نياحة العذراء هذه أو بالقرب منه . ويعتقدون أن في هذا المكان نفسه كان يقوم البيت الذي عاش فيه مار يوحنا ، والتجأت إليه مريم العذراء بعد صلب المسيح . ويقولون إن العذراء قضت نحبها فيه . ولكنها دفنت في المكان الذي تقوم عليه الآن الكنيسة المعروفة بـ(كنيسة ستنا سريم) عند مفترق الطرق التي تربط القدس بسلوان والطور .

وأما كنيسة نياحة العذراء هذه فقد شرعوا في بنائها سنة (١٩٠٠) وأتموها سنة (١٩١٠) ودشنوهما بحضور البرنس ايتل فريدريك .

لها قبة مزينة بالفسيفساء ، وجرسية يصعد إليها في (١٩٨) درجة ، وهي تشرف على أكثر أنحاء المدينة . تحتها مغارة هي ، في نظر المسيحيين أصل البيت الذي كان يعيش فيه مار يوحنا . وفي المغارة اثنا عشر عموداً من الرخام الغليظ .

وفي وسطها تمثال يمثل العذراء وهي نائمة على فراش الموت . وحول التمثال ستة أعمدة من الرخام المشبك . وعلى بعد بضعة أمتار من التمثال وإلى الجنوب منه أسطوانة حجرية لا يزيد ارتفاعها على متر واحد هي من بقايا الكنيسة القديمة التي يقال إنها أنشئت هناك في أواخر القرن الرابع للميلاد .

وللألمان في القدس الجديدة خارج السور حي مبني على الطراز الحديث ، يعرف بـ(الكولونية الألمانية) . وهو واقع بين محطة السكة الحديدية والحي المعروف بالبقعة . إنه عبارة عن مدينة ألمانية صغيرة . فيها منازلهم وحوانيتهم ومصانعهم ومدارسهم وملاعبهم ومكاتبهم . وهناك كنيسة صغيرة ودار للسينما والتمثيل . كان حتى الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩) عامراً بأصحابه من الألمان الهيكليين . ولكنهم أبعدوا عنه بسبب الحرب . ولم يعودوا إليه .

الإرسالية الإنجيلية لطائفة البروتستانت : إن حركة التبشير للدين المسيحي من ناحية البروتستانت تبدأ في القدس سنة (١٨٢٢م) . وكان يتزعم هذه الحركة يهودي تنصر اسمه يوسف وولف . ولم تكن نقمة المسلمين على هذا الرجل بأقل من نقمة اليهود أنفسهم وحاخاميهم . وكذلك قل عن اللاتين ورهبانهم . وانتعشت حركة التبشير على عهد المطران نقولا يسون سنة (١٨٣٣م) . والمطران ميخائيل سولومون

الكسندر الذي تولى رعاية الكنيسة الإنجيليكانية (كنيسة مار يعقوب) بالقدس عام (١٨٤١م) . وهذا أيضاً يهودي تنصر وكان في إنكلترا حاخاماً . وأراد الإنكليز أن يستخدموه لبث الدعاية بين أبناء قومه اليهود في القدس . وعلى عهده بنيت (كنيسة يسوع) تجاه القلعة . تم بناء هذه الكنيسة سنة (١٨٤٩) . ولم يكن للبروتستانت حتى ذلك التاريخ أية كنيسة . وقد بنوها فوق أرض شروها من دار الديسي الكائنة قبالة القلعة عند باب الخليل وكانت تلك البقعة من الأرض تعرف قبلاً بـ(اليعقوبية) . وهناك اليوم في القطعة نفسها وإلى جانب الكنيسة دار للقس وبناء اتخذوه مدرسة خلال المئة عام المنصرمة .

وفي (٢٥ آذار ١٨٨٧) عُين المطران جورج فرنسيس بوبهام بلايث George Francis Popham Blyth وفي زمنه أنشئت الكنيسة المعروفة بـ(كتدرائية القديس جورج) St. George's Cathedral ويسمونها أيضاً : (كنيسة القديس جورج) . إن هذه الكنيسة القائمة على بعد ميل واحد من باب العمود إلى الشمال بنيت سنة (١٨٩٨) . وبني على مقربة منها عمارات كثيرة أعدت لسكن المطارنة والقسس ، وأخرى لنزول الزائرين ومدرسة هي الآن من أكبر المدارس الأجنبية الكائنة في المدينة وتعرف بـ(مدرسة سان جورج) .

وهناك (الكنيسة الاسكتلندية) وهي من الكنائس الإنجيلية بالقدس . تقوم على التل الكائن بين محطة السكة الحديدية ومستشفى العيون ، على بعد ميل واحد من باب الخليل إلى الغرب . إنها كنيسة مستقلة ، ولها راع مستقل .

الطائفة الإنجيلية الأسقفية العربية.

ولنبحث الآن عن الطائفة الإنجيلية الأسقفية العربية المشتركة في العقيدة مع الكنيسة الإنجليكانية .

يرجع تأسيس الطائفة الإنجيلية الأسقفية العربية في مدينة القدس إلى سنة (١٨٤٦) وكانت المدينة يومئذ صغيرة ومحصورة ضمن الأسوار .

وفي سنة (١٨٧٤) بنيت الكنيسة المعروفة باسم كنيسة القديس بولس . إنها واقعة في الشارع الذي أطلق عليه فيما بعد «شارع القديس بولس» والذي يتفرع عنه شارع ملكة الحبشة مليسندا بجوار أرض المسكوب . ومنذ بدء تأسيسها أخذت الطائفة تهتم بإنشاء الأوقاف لكي تؤمن إيراداً يضمن نموها وتوسيعها .

يدير هذا المجمع في المملكة كلها عدداً من المدارس للذكور والإناث ، وله عشرون كنيسة يزيد عدد أعضائها على (٦٠٠٠ نفس) ، وله مستشفى كبير .

كان أول رئيس وطني لهذا المجمع القس الكنن إبراهيم بازحداد (١٩٠٨) . ثم تتابع الرؤساء ، فجاء القس الكنن صالح سابا (١٩١٣) فالقس بطرس ناصر (١٩١٤) فالقس يوسف فليحان (١٩٢٦) فالقس الكنن أسعد منصور (١٩٢٧) فالقس بطرس ناصر (١٩٣١) فالقس الكنن أسعد منصور (١٩٣٢) فالقس الكنن إلياس مرمورة (١٩٣٤) فالقس الكنن نجيب قبعين (١٩٤٣) .

الجالية الأميركية:

في (٢ حزيران ١٨٥٧م) تأسست أول علاقة بين أميركا وهذه البلاد ، يوم أنشأ الأميركيون قنصلية لهم بالقدس . والقنصل الأميركي الأول هو الدكتور جون وارن غورهام Dr. J. W. Gorham وفي سنة (١٨٦٦) حاول أعضاء ثلاث أسر أميركية المجيء إلى القدس ، إلا أنهم ما كادوا يصلون إلى يافا حتى سمعوا بهياج المسلمين الذين كانوا يتوجسون خيفة من مجيئهم ، فارتدوا على أعقابهم . . . وفي سنة (١٨٨١) تأمرك[١] عدد من يهود القدس بقصد أن تحميهم أميركا وتأخذ بيدهم . . وهبطت القدس بعد قليل ، وفي السنة نفسها (١٨٨١) ، عائلة أميركية مؤلفة من أربعة أشخاص . هم : المستر هوارتيو سبافورد[٢] وقرينته وبنتاهما : برتا[٣] وغريس[٤] . ومع هذه العائلة تسعة أشخاص ، كلهم من المتدينين الذين يؤمنون بالإنجيل ، وبرجوع المسيح المنتظر . فعاشوا كلهم معاً عيشة اشتراكية في أكلهم وشغلهم وصلاتهم . وكانوا النواة الأولى التي تكونت منها ما نسميه اليوم بـ (الكولونية الأميركية) . والجالية الأميركية التي تعيش في القدس في يومنا هذا لا يزيد عددها على ثلاثين شخصاً . لهم كنيسة واقعة في شارع الأنبياء . ويصلون أيضاً في (كتدرائية القديس جورج) الإنكليزية .

الجالية البولونية:

---

(١) بمعنى صاروا أميركيين أو تجنسوا بالجنسية الأميركية .

(٢) Horatio G. Spafford كان من المحامين ومن كبار الملاكين في شيكاغو .

(٣) إنها المسز فيستر رئيسة الجالية الأميركية في يومنا هذا .

(٤) إنها المسز وايتنغ امرأة المستر وايتنغ . وهو بحاثة أميركي ومستشرق معروف .

لم يكن في القدس ، في أواخر القرن التاسع عشر ، جالية بولونية مسيحية بالمعنى الصحيح . ولم يكن فيها يومئذ سوى عشرين بولونياً . يقابلهم مثل هذا العدد ، أو أكثر منه بقليل ، في أنحاء فلسطين الأخرى .

ظل الحال كذلك حتى سنة (١٩٠٨) حيث هبط القدس راهب بولوني يدعى (مارتين بنشوريك ليبوفسكي) وانتسب إلى بطريركية اللاتين . فشرى في حارة النصارى داراً كانت لعائلة البواب . واتخذها ديراً . وأسماها (دوم بولسكي) . واتبعها بإحدى الرهبنات في بولونيا . ولما توفي (١٩٢٨) أرسل القائمون على شؤون تلك الرهبنة ثلاثاً من الراهبات المنتميات إليها ، فأقمن في هذا الدير . ورحن يعنين بالمرضى والبؤساء . وبالرغم من جميع تلك المساعي لم يزد عدد البولونيين في هذه البلاد زيادة تستحق التدوين .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) وكانت وبالاً على بولونيا ، إذ أضحت نهباً مقسماً بين الروس والألمان ، غادرها عدد كبير منهم . فعبروا الحدود ، وهبطوا سوريا (١٩٤٠) . ثم لجأوا إلى الحكومة البريطانية ، فسمحت لهم هذه بالنزول في فلسطين (١٩٤٠) . وكان عددهم يومئذ كبيراً . ثم غادر معظمهم البلاد . فلم يبق منهم في القدس سوى عدد لا يتجاوز الخمسين .

لهم في القدس ، بالإضافة إلى (دوم بولسكي) المتقدم ذكره ، معبد عند المرحلة الثالثة ، وآخر عند الرابعة . ولقد تم الاتفاق بينهم وبين الأرمن الكاثوليك بالقدس على استعمال المعابد القائمة في هاتين المرحلتين لعشرين سنة ، يمكن تجديدها باتفاق الفريقين .

كبير البولونيين ، في يومنا هذا ، هو المونسنيور (اسطفان بتروشكا) . إنه بولوني الأصل ، تابع للكنيسة اللاتينية .

المقابر المسيحية:

للمسيحيين في القدس مقابر عديدة ، معظمها على جبل صهيون . وإنا لذاكرون منها :

(مقبرة الروم الأرثوذكس) إلى الجنوب من مقبرة الأرمن والسريان ، يفصل بينهما زقاق ضيق يؤدي إلى مدرسة صهيون . تلك المدرسة المعروفة بمدرسة المطران غوبات .

و(مقبرة الاتين) إلى الشرق من مقام النبي داود .

و(مقبرة البروتستانت) ملاصقة لمدرسة صهيون .

و(مقبرة الأرمن) إلى الغرب من كنيسة نياحة العذراء المعروفة بالدور ميثيون ، يفصل بينهما زقاق ضيق مرصوف . ويشترك السريان والأقباط والأحباش في استعمال هذه المقبرة لدفن موتاهم ، وهي على جبل صهيون .

ويستعمل الإنكليز مقبرة البروتستانت من نصارى بيت المقدس لدفن موتاهم .

واشتركت الكنيسة الإنجيلية مع الطائفة الإنجيلية الألمانية في المقبرة المعروفة بالمقبرة الإنجليزية الألمانية ، الواقعة على سفح جبل صهيون الجنوبي . وقد دشنت هذه سنة ١٨٦٩ . ولما كانت هذه المقبرة قد امتلأت في أواخر عهد الانتداب ، فقد أعدت الترتيبات لاستعمال مقبرة جديدة تشترك بها الكنائس الإنجليكانيه الإنجيلية الألمانية والمسيحية بقرب بيت جالا .

وأما الأميركيون فلهم مقبرتان : واحدة : على سفح جبل الزيتون وإلى الغرب من الجامعة العبرية . اشترى أرضها رجال الكولونية الأميركية سنة (١٨٩٨م) . واتخذوها مقبرة لدفن موتاهم . والثانية اشتراها المبشرون بعد ذلك بقليل . واستعملوها لدفن الأميركيين ممن لا ينتمون للكولونية المتقدم ذكرها . وهي واقعة عند مفترق الطرق المؤدية إلى البقعتين الفوقا والتحتا وإلى النمامرة والقطعون .

ويبدو أنه كان للأميركان بالقدس أرض طولها (٣٢) ذراعاً وعرضها (١٥) ذراعاً وثلث ذراع . وكانت هذه قريبة من زاوية النبي داود ، تبعد عنها مسافة (٢٤) ذراعاً بذراع العمل . وأن الأميركيين أرادا إنشاء مقبرة لموتاهم على تلك الأرض . فقدم المستر (قليدون) قونسلوس الأميركان في القدس طلباً إلى الخديوي ، وأحال الخديوي طلبه إلى (كتخداه) في هذه البلاد محمد شريف باشا . واستشار الباشا قاضي القدس في الطلب ؛ وكان جواب القاضي أن الشرع لا يجيز إحداث بيعة أو كنيسة صومعة أو مقبرة أو بيت نار أو صنم في مثل هذا الموضع . فرفض الطلب .

و (للروس) مقبرتان : إحداهما على جبل الزيتون . وهي واقعة بجانب كنيسة الصعود . وأخرى على جبل صهيون . في الثانية يدفن الرجال . وفي الأولى تدفن الراهبات فقط .

وهناك مقبرة إنكليزية واقعة في شمال المدينة بين تل سكوبس وجبل الزيتون . إنها مقبرة حربية . أنشئت فور احتلال الإنكليز للمدينة (١٩١٧) . وهي تضم رفاق الجنود والضباط من رجال الجيش البريطاني الذين لاقوا حتفهم في القدس وفي ما

حولها من البلدان خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٧) .

مساحتها ستة فدادين وثلاثة أرباع الفدان . يحيط بها سور حجري . إلا من ناحيتها الجنوبية التي ترى المدينة منها ، فإنه لا سور هناك . دفن الإنكليز فيها ، بادئ ذي بدء ، (٢٧٠) رجلاً . ثم اتسعت فنقلوا إليها قبور الأشخاص الذين كانوا في المقابر الأخرى [١] .

فيها اليوم (١٩٤٧) ألفان وخمسمئة وخمسة عشر قبرا . منهم (٢١٨٠) رجلا من أبناء المملكة و (١٤٣) أوستراليون و(٥١) أفريقيون و(٤١) هنود و(٣٤) نيوزلنديون و (٦٦) لم تعرف هويتهم . وهناك (١٦) ألمانيا و(٣) أتراك ماتوا وهم في الأسر ، فدفنوا فيها .

وفي المقبرة نصب تذكاري ، نصب لتخليد ذكرى الضباط والجنود الذين لاقوا حتفهم في المعارك نفسها ، ولكن السلطة لم توفق في العثور على قبورهم . وعددهم (٣,٣٥٤) : -منهم (٣٠٤٩) من أبناء المملكة المتحدة و(٢٤٢) أوستراليا و(٦٠) نيوزلانديا وثلاثةٌ أفريقيون .

أن الموظف المسؤول عن مقبرة القدس وهو بريطاني يعمل تحت إمرة ناظر المقابر المقيم في القدس والمسؤول عن جميع مقابر الحرب في سورية وفلسطين . وهذا أيضاً يعمل تحت إمرة المراقب العام لمقابر الشرق ومنها -عدا سورية وفلسطين- مصر والعراق وتركيا وإيران والجزر الواقعة في بحر إيجة والدردنيل . وهذا يسير في أعماله بإرشاد عاصمة الإمبراطورية لندن .

هذا ما حضرنا من المعلومات في صدد مقابر الحرب الإنجليزية . ومن شاء المزيد فعليه أن يرجع إلى التقارير [٢] التي نشرت في هذا الموضوع .

---

(١) الوثيقة ذات الرقم (٢٠) من مجموعة أسطفان .

(٢) (٦٦) منهم كانوا في مقبرة الألمان على جبل الزيتون و(١١٤) في مقبرة البروتستانت على جبل صهيون وواحد في مقبرة الألمان ببيت لحم و(١٠٥) في المقبرة الكائنة على الطريق بين البيرة وجفنا و(٢٠) في مقبرة رام الله و(١٥٤) في المقبرتين الحربيتين بأريحا .

Bu The Imperial war Graves Commission', The war Graves of the British Empire" (١)
London, 8291

ليس لليهود في القدس سوى بضع كنس حديثة العهد وبعض القبور . وسنأتي على ذكرها في السطور التالية :

وأما (حائط المبكى) فقد حدثناك عنه في موضع آخر من هذا الكتاب (١) . ويتلخص قولنا في الاعتقاد السائد بأنه بقية من سور أورشليم القديم ، وأنه الحائط الخارجي للهيكل الذي رممه هيرودس (١٨ ق .م) ودمر جانباً منه تيطس (٧٠م) وأتى على ما تبقى منه أدريانوس (١٣٥م) ، وقلنا إن اليهود يزورونه بين كل آونة وأخرى ، ولا سيما في تسعة آب ؛ وكلما زاروه تذكروا مجدهم الضائع ، وبكوا . .

وذكرنا أيضاً في الفصول السابقة الخلافات التي قامت بين المسلمين واليهود حوله ، واللجان التي انتدبت للتحقيق في مصيره . وقد انتهينا عند حد القول : إنه ليس لليهود سوى الدنو من الحائط والبكاء عنده ، دون أن يحملوا معهم أية أداة من أدوات الجلوس والعبادة .

وأما المقبرة التي يدفن اليهود فيها موتاهم في يومنا هذا (١٩٤٧) ، وهي الواقعة على طريق القدس - أريحا بين سلوان والطور ، فإن أرضها من الأوقاف الإسلامية . وقد أذن لهم المسلمون باستعمالها لقاء جعل معين يدفعونه في كل سنة لمتولي الوقف . فقد اطلعت في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على سجل (٢) وقعه قاضي الشرع ، وقد جاء فيه أن ممثل الطائفة اليهودية أنقد أصحاب الوقف بحضوره (أي بحضور القاضي) مئتي دينار ذهباً ، لقاء استعمال الطائفة أرض الوقف لدفن موتاهم . وذلك عن سنتي (٩٦٨ و٩٦٩) للهجرة (أي ١٥٦٠ و١٥٦١ م) .

وتمتد هذه المقبرة من وادي قدرون حتى رأس العمود والسفح القبلي لجبل الزيتون . وفيها أربعة قبور ضخمة ، يقصدها اليهود في أيام معينة . هي :

قبر أبشالوم : ويسميه المقادسة (طنطور فرعون) . واقع شرقي المدينة . أقامه أبشالوم ، الابن الثالث لداود الملك ، الذي ثار ضد أبيه وحاول إسقاطه عن عرشه . أقامه قبل موته . إذ لم يكن له ولد ، وقد أراد تخليد ذكره . يعتقد قوندران ألكسندر

---

(١) الصفحة (٥٩٤) .

(٢) السجل (٤٤) الصفحة (٥٧٤) .

يانوس المكابي مدفون فيه . إنه بناء ضخم ، مربع الشكل ، في كل ركن من أركانه الأربعة أربعة أعمدة . يعلوه إفريز يوناني . فوقه قبة هرمية الشكل . علوه سبعة أمتار .

قبر يهوشافاط : يحمل هذا الاسم لوقوعه في وادي يهوشافاط وهو أحد أسماء وادي قدرون . لم يجزم المؤرخون في معرفة أسماء المدفونين فيه ، ويرجح الأستاذ رئيف ميخائيل ساعاتي[1] أن يهوشافاط نفسه دفن مع لآبائه في مدينة داود على جبل صهيون .

قبر يعقوب : مدفن إسرائيلي ضخم . ويعتقد المسيحيون أن القديس يعقوب الصغير وهو أحد الاثني عشر رسولاً قد توارى فيه بعد صلب المسيح . ويزعم بعضهم أنه بعد موته دفن فيه .

قبر النبي زكريا : يشبه ، من بعض النواحي ، قبر يهوشافاط . وينسبه اليهود إلى زكريا بن يهوياراع . ويقول بعضهم إنه قبر حفيده الذي كان هنا أيام أحاذيا ويهوآش . وقد مات رجماً بالحجارة وبأمر من الملك .

وأما كنسهم[1] فإنها كلها حديثة العهد ، ليس بينها ما يرجع إلى عهد يسبق القرن الثامن عشر . جلها -إن لم نقل كلها- واقعة في الحي القديم بالبلدة القديمة . وهو الحي الذي نسميه : حارة اليهود وإليك أسماءها :

قدس الأقداس : مخصص لصلاة الطائفة المسماة بـ : (السكناج) . ويطلقون على أنفسهم (اشكنازيم) . إنه على ما نعلم ، أكبر الكنس اليهودية الكائنة في القدس . وهو أقدمها . بني عام (١٧٠١) للميلاد . ومن أسمائه : (بيت يعقوب) ويسمونه أيضاً : (حوروا) . واقع في وسط الحي القديم وعلى بعد خمسين متراً من مسجد المسلمين إلى الشمال .

طبرت إسرائيل : إلى الشرق من قدس الأقداس ، وعلى بعد ستين متراً منه .

طابيلا : إلى الشمال الشرقي من طبرت إسرائيل . ويسميه المقدسيون : (المطبل) .

مدراش بورات يوسف : في أقصى الحي اليهودي بالبلدة القديمة من الشرق . وهو مطل على حي المغاربة وعلى الحرم .

مزغاب لادخ : وهذا أيضاً واقع في أقصى الحي من الشرق إلى الجنوب .

---

(١) مجلة (الراعي الصالح) (ج٤ ص٧٢ سنة ١٩٤١) .

الاستانبولي : كنيس واقع في طريق الساحة .

الياهانافي : ومن أسمائه : (الخضر) . إنه الكنيس المعروف بالاستانبولي .

يوحنان زكاي : قبلي الاستانبولي و الياهانافي .

كنيس المغاربة : عند الدرج المعروف بـ (درج الطابون) قبالة خان السلطان .

توماتوراة : ملاصق لكنيس المغاربة .

بيت إيل : في طريق الساحة . قائم وسط بناية تخص آل الداودي .

بيت الدين : في جنوب الحي .

كوليل سفاراديم : أيضاً في جنوب الحي .

واين غارتن : في غرب الحي .

وهناك كنيس تحت الأرض ، مخصص لصلاة القرائيين . وهو واقع بين المطبل وطبرت إسرائيل . وفي قول أن عدد الكنس الكائنة في الحي اليهودي بالبلدة القديمة ثلاثة وعشرون . وأن بعضها وهو الذي ذكرناه في السطور المتقدمة كبير . والبعض الآخر عبارة عن غرف صغيرة أعدت للصلاة . ولكن ليس بينهما ماله قيمة تاريخية أو أثرية .

تشتت اليهود

قد يتساءل المرء : كيف؟ وما الذي جرى؟ ولماذا لا نرى لليهود في القدس مقدسات كثيرة؟ وهم القائلون : إنها مدينة يهودية! على مر الدهور . فإنا إذا ما أعدنا نظرنا إلى تاريخهم القديم علمنا السبب : فقد تشتت اليهود تحت كل كوكب بعد أن ضربهم الرومان تينك الضربتين : الأولى على يد تيطس (٧٠م) يوم احتل هذا أورشليم بعد أن ذاقت من جراء حصاره الأمرين . والثانية على عهد ادريانوس (١٣٥م) يوم دكها دكا وجعل عاليها سافلها . وقتل خمسمئة وثمانين ألفاً من سكانها . فحقت عليهم نبوءة أرميا النبي إذ قال : «الذين للموت فإلى الموت ، والذين للسيف فإلى السيف ، والذين للجوع فإلى الجوع ، والذين للسبي فإلى السبي» .

ولم نعد نسمع عن يهود القدس شيئاً قروناً عديدة . حتى أن السائح اليهودي (بتاحيا) الذي زار القدس خلال القرن الثاني عشر للميلاد لم يجد فيها سوى يهودي واحد .

والسائح اليهودي (موسى بن نحمان جيروندي) الذي هبطها بعد ذلك بقرن

واحد لم يجد فيها سوى عائلتين يهوديتين .

وأحصي يهود القدس سنة (١٧٥٢م) ، فثبت لمجلس الشرع الشريف أنه كان يعيش فيها يومئذ (١١٥) نفراً منهم (٥٥) في جهة الحرم والباقون وقدرهم (٦٠) في غيرها من الجهات . وقرأت أسماءهم في السجل (٥٥) الصفحة (٢٠٧) من سجلات المحكمة الشرعية في القدس . وكان هؤلاء يعيشون عيشة الفقر والذل والحرمان . حتى أنهم عجزوا عن دفع دينهم الذي بلغ عام (١٦٦٢م) ألف قرش أسدي . فأمر قاضي المسلمين بتأجيل الدفع سنة كاملة ، ورضى الدائنون وهم من المسلمين بهذا التأجيل ، شريطة أن يضع اليهود بيدهم رهناً . فرهنوا كنيسهم الكبير الكائن بحوش السيرجاني بحارة اليهود .

ونرى بعد ذلك بست سنين (١٦٨٨م) أن عدد اليهود لم يكن سوى مئة وخمسين .

المسألة الشرقية وبعث فكرة إسرائيل:

الحركة الصهيونية:

وفي تلك الحقبة من الدهر وضعت النواة الأولى للحركة اليهودية التي عرفت بعدئذ بالصهيونية .

وجاء بعد قليل (١٨٩٥) الدكتور ثيودر هرتزل ، من يهود النمسا ، فقلبها من حركة ثقافية دينية إلى حركة سياسية (١٨٩٧م) . وأنشأ جمعية أسماها : (الجمعية الصهيونية) .

ولما أعلنت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤) راح الأتراك يطاردون الصهيونيين ، وأصدر جمال باشا بوصفه القائد الأعلى للجيش الرابع المرابط في فلسطين أمراً منع فيه رفع العلم الصهيوني في أي لافتة تكتب باللغة العبرية . وصادر جميع الطوابع والأوراق المالية التي تخص الحركة الصهيونية . وألغى جميع المؤسسات اليهودية التي تكونت في فلسطين بعد أن دخلتها خفية . وجاء في البيان الذي صدر يومئذ (٢٥ كانون الثاني ١٩١٥) أن الحكومة فعلت ذلك بناء على ما لديها من معلومات تثبت أن بعض العناصر تتآمر باسم الصهيونية لإقامة مملكة يهودية في فلسطين .

وعد بلفور:

وقد تزعم الحركة الصهيونية بعد موت هرتزل الدكتور حاييم وايزمن . ولهذا يعود الفضل الأكبر في الحصول على وعد بلفور . . . وزير خارجية بريطانيا . . ذلك الوعد الذي ذكرناه وما أحدثه من قلاقل وثورات في القدس وفي سائر أنحاء فلسطين في موضع آخر من هذا الكتاب . ونريد أن نكتفي هنا بالإشارة إلى أن عدد اليهود في القدس أصبح في نهاية عهد الانتداب مئة ألف وفي فلسطين كلها ستمئة ألف ، وأن هذا العدد الذي دخل بفضل الحراب الإنجليزية بلغ من الجرأة حداً جعله لا يكتفي بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ، بل راح يعمل على تأسيس دولة إسرائيل . وكان له -بفضل تعضيد دول الغرب- ما يشاء وهذا ما أوضحناه لك في كتابنا : (النكبة [1]) .

---

(١) جمع (كنيس) وهو -على ما في (البستان)- المكان الذي يتعبد فيه اليهود . وأما (الكنيسة) فإنها المكان الذي يتعبد فيه المسيحيون . وجمعها كنائس .

مصادر الكتاب

هذه هي الكتب التي تتبعتها باحثاً مستقصياً أخبار هذه المدينة . ذكرتها وذكرت ما أعرفه عنها وعن مؤلفيها وعن الأسباب والظروف التي أدت إلى وضعها . . فإذا كان الكتاب الذي رجعت إليه مطبوعاً ، ذكرت المطبعة التي طبع فيها وتاريخ طبعه . . وإذا كان لا يزال مخطوطاً ولم يطبع بعد ، فأين يمكن العثور عليه . . لاعتقادي بأن ذكر المصادر على هذا النمط ، يفيد القارئ إذا ما أراد استقصاء الحقائق والتعمق في دراسة تاريخ هذه المدينة بأسلوب علمي واضح . أضف إلى ذلك أن هذا الأسلوب في ذكر المصادر هو ، في حد ذاته ، تأريخ للكتب التي بحثت تاريخ هذه المدينة ، ولآبائنا الذين حفظوا لنا أخبارنا ونقلوها بأمانة وإخلاص . فمن حقهم علينا أن نذكرهم ، وأن نذكر كتبهم ومؤلفاتهم . بالشكر والتقدير :

١- (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) لشمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الملقب بالمقدسي . ولد بالقدس سنة (٣٣٦هـ-٩٤٦م) . وهو ينتمي إلى أسرة البشاري التي استوطنت القدس منذ الفتح الإسلامي . كان ضليعاً في العلوم الدينية والقضائية وفي الجغرافيا والشؤون الاقتصادية . وقد حج إلى البيت الله الحرام . وكتابه هذا بزّ به من تقدمه من الجغرافيين العرب .

٢- (أخبار مصر) لمحمد بن علي بن يوسف بن جلب المعروف بابن الميسر . توفي بالقاهرة (٦٧٧هـ-١٢٧٨م) ودفن في المقطم . له تصانيف مفيدة . وهو مصنف تاريخ القضاة . وله تاريخ كبير . وكتابه هذا طبع في المعهد العلمي الإفرنسي بمصر (١٩١٩) . وقد اطلعت على جزئه الثاني فقط .

٣- (أسباب الانقلاب العثماني) لمحمد روحي الخالدي . من الأسرة الخالدية . ولد في القدس عام (١٨٦٤م) . وارتقى في مناصب الدولة العثمانية . وانتدب لتمثيل بلده القدس في أول مجلس للمبعوثين . كما انتدبته الحكومة الإفرنسية للتعليم في مدرسة اللغات الأجنبية في باريس . وكان عضواً في جمعية المستشرقين بباريس سنة (١٨٩٧) . توفي بالآستانة سنة ١٩١٣م . وكتابه هذا يصف فيه الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش . فصححه حسين وصفي رضا ، وطبعه في مطبعة المنار بمصر (١٣٢٦هـ-١٩٠٨م) .

٤- (أسفار العهد القديم) .
(الإشارات في معرفة الزيارات) لعلي بن الحسن بن محمد الهروي . ولد سنة نيف وخمسين وستماية للهجرة . ومات في حلب سنة (٧٢٢هـ-١٣٢٢م) . زار القدس سنة (٦٧٢هـ-١٢٧٣م) . وألف كتابه حوالي ذلك التاريخ وهو لا يزال مخطوطاً .
اطلعت على نسخة مصورة لهذا المخطوط في مكتبة المتحف الفلسطيني . وقد أخذتها المطبعة السلفية بمصر سنة (١٩٤١م) عن أصلها الذي كان محفوظا في المكتبة التيمورية .
٥-(أشهر مشاهير الإسلام) في الحرب والسياسة لمؤلفه رفيق بن محمود العظم . عالم بحاث من رجال النهضة الفكرية في سوريه . ولد بدمشق سنة (١٢٨٢هـ-١٨٦٥م) وتوفي سنة (١٣٤٣هـ) . وكتابه هذا جاء في أربعة أجزاء . طبع في مطبعة هندية سنة (١٩٠٧م) .
٦-(الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا) تولى جمعها وضبط قراءتها ووضع فهارسها الدكتور أسد رستم أحد أساتذة التاريخ في جامعة بيروت الأميركية . طبع في المطبعة الأميركية ببيروت سنة (١٩٣٠م) .
٧-(الأعلاق النفيسة) لأبى علي أحمد بن عمر المكني ابن رسته . ألف كتابه هذا في أصفهان سنة (٢٩٠هـ-٩٠٢م) . وهو كتاب كبير في تقويم البلدان . طبع في ليدن سنة (١٨٩٢م) .
٨-(الإفادة والاعتبار) للشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد علي بن سعد البغدادي المعروف بابن اللباد . ويعرف أيضاً بعبد اللطيف البغدادي . ولد ببغداد سنة (٥٥٧هـ-١١٦١م) . وقضى ردحاً من الزمن في مصر والشام . وحذق في علم الكلام والطب . وكتب كتابه هذا فوصف فيه الأمور التي شاهدها بأرض مصر . طبع في توبخة سنه (١٧٨٩م) وفي باريس (١٨١٠) وفي مطبعة وادي النيل بمصر (١٢٨٦هـ-١٨٦٩م) وهذه الطبعة هي التي طالعتها من أجل كتابي .
٩-(الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) للقاضي مجير الدين أبي اليمن عبدالرحمن العلم الفخري الحنبلي . ولد بالقدس في ليلة الأحد (١٣) ذي القعدة سنة (٨٦٠هـ-١٤٥٥م) وتوفي فيها سنة (٩٢٧هـ-١٥٢٠م) . وقبره ظاهر

فيها ، إلى الشرق من سور المدينة ، بين باب الأسباط وجبل الطور ، عند مفترق الطرق المؤدية إلى الطور وسلوان والقدس وعمان .

شرع في وضع كتابه في اليوم الخامس عشر من ذي الحجة سنة (٩٠٠هـ-١٤٩٤م) وفرغ منه في أقل من أربعة شهور كما قال في آخر الجزء الثاني من كتابه . وقد ظل مخطوطاً حتى جمادى الأول من سنة (١٢٨٣هـ-١٨٦٦م) فتم طبعه عامئذ بالمطبعة الوهبية بمصر .

ورد ذكر هذا الكتاب في فهرس المكتبة الخديوية بمصر ، فقيل غلطاً : (الأنيس الجليل بتاريخ القدس والخليل) . وقد ترجمه إلى اللغة الأفرنسية هنري سوفار . وطبعه في أوروبا .

١٠-(الأنس في فضائل القدس) للقاضي أمين الدين أحمد بن محمد بن الحسن ابن هبة الله الشافعي من أهل القرن السابع للهجرة . وقد اعتمد في كتابه هذا على الجامع المستقصي . ورأى الإمام السيوطي نسخة منه في جامع دمشق مقروءة على مؤلفها بتاريخ (٦٠٣هـ-١٢٠٦م) .

١١-(أهل العلم) بين مصر وفلسطين . بقلم أحمد سامح الخالدي . طبع في المطبعة العصرية بالقدس (١٩٤٧م) .

١٢-(باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس) للشيخ برهان الدين إبراهيم بن إسحق بن تاج الدين عبدالله بن عبد الرحمن الشافعي الفزاري المعروف بابن الفركاح وبابن قاضي الصلت المتوفي سنة (٧٢٩هـ-١٣٢٨م) . أخذ الكثير من كلامه عن الجامع المستقصي لابن عساكر .

١٣-(البطل الفاتح إبراهيم) وفتحه الشام لداود بركات . طبع في المطبعة الرحمانية بمصر .

١٤-(بلدانية فلسطين العربية) للأب أ .س . مرمرجي الدومنكي أستاذ المعهد الكتابي والآثاري في القدس وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق . طبع في مطبعة جان دارك ببيروت سنة (١٩٤٨م) . وقد وصف فيه مدن فلسطين التاريخية ، وما جاء عن هذه المدن في مؤلفات البلدانيين العرب .

١٥-(تاريخ الأمم والملوك) : المشهور بتاريخ الطبري . للإمام أبي جعفر محمد بن جرير ابن يزيد بن خالد الطبري . ولد بآمل (طبرستان) سنة (٢٢٤هـ-٨٣٨م) وتوفي ببغداد سنة (٣هـ-٩٢٢م) ودرس في مصر والشام والعراق . وجمع من العلوم ما

لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره . له مؤلفات كثيرة . منها هذا الكتاب الذي طبع في ليدن سنة (١٨٧٦م) في (١٣) جزء . يتلوها كتاب (صلة تاريخ الطبري) لعريب بن سعد الكاتب بجزء واحد طبع سنة (١٨٩٨م) . وطبع أيضاً في مطبعة الاستقامة بمصر سنة (١٣٥٨هـ-١٩٣٩م) . وهذه هي الطبعة التي اعتمدتها .

١٦-(تاريخ ابن خلدون) ويعرف بـ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن ذرى السلطان الأكبر) لأبي زيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون التونسي الحضرمي الإشبيلي المالكي . ولد بتونس في غرة رمضان سنة (٧٣٢هـ-١٣٣١م) وربى في حجر والده إلى أن أينع وقرأ القرآن ودرس كتباً جمة . وتعلم صناعة العربية وحفظ الشعر . ودخل في خدمة أمير تونس . واستقر في تلمسان حيث شرع في تأليف تاريخه . ونزل مصر فعينه السلطان برقوق قاضياً لقضاة المالكية . وسافر إلى الشام مع السلطان فرج الملك الناصر . ولما فتح تيمورلنك الشام أخذه معه إلى سمرقند أسيراً . ثم رجع إلى القاهرة حيث فرغ من تدوين تاريخه (٧٩٧هـ-١٣٩٤م) وتوفي بعدئذ (٨٠٨هـ-١٤٠٥م) ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر . ولقد طبع بعض أجزاء هذا الكتاب في باريس (١٨٤١) وبعضها الآخر في دار الطباعة السلطانية بالجزائر (١٨٤٧) .

وطبعت (مقدمة ابن خلدون) بالقاهرة مراراً وهي الجزء الأول من كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر .

١٧-(تاريخ أورشليم) لخليل بن خطار سركيس . ولد في عبية عام (١٨٤٢م) . وتعلم في المدرسة الأميركية ببيروت . وأتقن فن الطباعة وأنشأ (مطبعة المعارف) كما انشأ جريدة (لسان الحال) ومجلة (المشكاة) . وكتابه هذا في تاريخ أورشليم طبع ببيروت سنه (١٨٧٤م) . وله مؤلفات أخرى .

١٨-(تاريخ البيمارستانات في الإسلام) للدكتور أحمد عيسى . طبع بدمشق (١٣٥٧هـ-١٩٣٩م) .

١٩-(تاريخ الحروب المقدسة في المشرق) المعروفة بحرب الصليب . لمكسيموس مظلوم البطريرك الأنطاكي لطائفة الروم الملكيين . ولد في حلب (١٧٧٩م) وسيم شماساً ثم خورياً على كنيسة حلب (١٨٠٦م) ثم أسقفاً (١٨١٠م) . وكان في الوقت نفسه رئيساً لمدرسة عين تراز . هبط روما ودرس فيها اللغات اللاتينية

والإيتالية واليونانية . وهبط أيضاً فينا وباريس ومرسيليا وأنشأ في الأخيرة كنيسة لطائفته . ثم عاد إلى روما حيث قضى ثماني سنين في المطالعة والتأليف . وقد انتخب بطريركاً للروم الملكيين خلفاً للبطريرك أغنتيوس ، وسعى لدى السلطان فاعترف بطائفته مستقلة عن طائفة الروم الأرثوذكسيين . توفي بالإسكندرية سنة (١٨٥٥م) .

وكتابه هذا في تاريخ الحروب المقدسة معرب عن كتاب باللغة الفرنسية لمكسيموس موند . طبع في أورشليم سنة (١٨٦٥م) ، وله مؤلفات أخرى .

٢٠-(تاريخ سورية) : للمطران يوسف الدبس . ولد سنة (١٨٣٣) في كفر زيتا من أعمال طرابلس الشام . ودرس علوم المنطق واللاهوت . وعين أسقفاً لأبرشية بيروت . أنشأ مدرسة الحكمة فيها . وله مؤلفات عديدة منها : (تاريخ سورية) وقد جاء في ثمانية أجزاء طبع في بيروت (١٨٩٣-١٩٠٢) . و(الموجز في تاريخ سورية) طبعه بعد ذلك بخمس سنين . وهو مختصر تاريخه الكبير . وله كتب أخرى في الفلسفة والدين .

٢١-(تاريخ شرقي الأردن وقبائلها) للفتننت كولونيل فريدريك ج . بيك باشا رئيس أركان حرب الجيش العربي . وضعه في عمان باللغة الإنجليزية . وعرّبة بهاء الدين طوقان . وطبعه في مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية بالقدس (١٩٣٤م) .

٢٢-(تاريخ فلسطين) لعمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح . طبع في مطبعة (بيت المقدس) (١٩٢٣م) .

٢٣-(تاريخ فلسطين) عنيت بنشره مكتبة بيت المقدس (١٩٣٤م) .

٢٤-(تاريخ القدس) لخليل طوطح وبولس شحاده .

٢٥-(تاريخ الكوسي الأورشليمي للأقباط الأرثوذكس) تأليف الشماس كامل صالح نخلة الإسكندري ، عضو لجنة التاريخ القبطي والمفتش بوزارة المعارف المصرية . مخطوط خطه صاحبه بيده سنة (١٩٤٧م) وأطلق عليه الصديق الابنا ياكوبدس مطران الأقباط في القدس (١٩٤٩) .

٢٦-(تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية) لشحاده خوري ونقولا خوري . طبع في مطبعة (بيت المقدس) سنة (١٩٢٥م) .

٢٧-(تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية) لخليل إبراهيم قزاقيا .

٢٨-(تاريخ مصر) لأبي البركات محمد بن أحمد بن إياس . ويعرف بتاريخ ابن إياس . ولد في مصر سنة (١٤٤٨م-٨٥٢هـ) وتوفي سنة (١٥٣٣م-٩٣٠هـ) . أنه أحد تلامذة جلال الدين السيوطي . وكتابه هذا يصف فيه مصر وأخبار الفتح الإسلامي وما توالى عليها من الدول . طبع في مطبعة بولاق بمصر (١٣١١هـ-١٨٩٣م) .

ومن ومؤلفات ابن إياس : (بدائع الزهور في وقائع الدهور) . وقيل أن هذا هو الاسم الآخر لتاريخ مصر . كما قيل أنه منسوب وهماً إلى ابن إياس ، وهو في الحقيقة لأستاذه جلال الدين السيوطي .

٢٩-(تاريخ مصر الحديث) لجرجي زيدان . ولد ببيروت (١٨٦١م) . وتوفي في القاهرة (١٩١٤م) . درس اللغات العربية والعبرانية والسريانية . واشتغل بالصحابة والأدب . انشأ مجلة الهلال سنة (١٨٩٢م) وانقطع إلى التأليف . فألف كتابه هذا في تاريخ مصر الحديث . كما وألف (العرب قبل الإسلام) و (تاريخ التمدن الإسلامي) والتاريخ العام منذ الخليفة إلى الآن وكتباً كثيرة أخرى .

٣٠-(تاريخ اليعقوبي) لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي . وكتابه هذا يعرف أيضاً بـ (تاريخ ابن واضح) . أنه جزءان : الأول يبحث عن تاريخ ما قبل الإسلام . والثاني فيما بعده إلى سنة (٢٥٢هـ-١١٥٧م) . وقد طبع باعتناء الأستاذ هوتسما بليدن سنة (١٨٨٣) .

ساح اليعقوبي في بلاد الإسلام شرقاً وغرباً فألف في سياحته كتباً كثيرة . وهو شيعي المذهب . من موالي بني هاشم . توفي سنة (٢٨٤هـ-٨٩٧م) . وله تصانيف كثيرة . منها هذا الكتاب و (كتاب البلدان) .

٣١-(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة . أنه شرف الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي . ويعرف بابن بطوطة . ولد في طنجة (٧٠٣هـ-١٣٠٣م) . وغادر مسقط رأسه سنة (٧٢٥هـ-١٣٢٤م) . فساح في بلاد العراق ومصر والشام واليمن والهند والصين وبلاد التتر والسودان وأواسط أفريقيا والأندلس . ودون أخبار رحلته في كتابه بتشويق من السلطان أبي عنان من ملوك بني مدين بالمغرب . ويعرف كتابه هذا بـ (رحلة ابن بطوطة) .

طبعت بعض أجزائها في باريس (١٨٥٣) والأجزاء الأخرى في مصر (١٩٠٤) .

٣٢-(تحليل أسماء الأعلام) مخطوط لم يطبع بعد . ألفه الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف (١٩٠٣م) . وقد اطلعت عليه في مكتبته بزحلة .

٣٣-(التلبية والأشراف) لأبي الحسن علي بن علي المسعودي المؤرخ الشهير . نشأ في بغداد . وساح في مصر وفارس وكرمان والهند وسيلان والصين وعمان وجرجان وأذربيجان وفلسطين والشام . وتوفي سنة (٣٤٥هـ-٩٥٦م) . وله مؤلفات أخرى . وكتابه هذا طبع باعتناء المستشرق دي غوية في ليدن سنة (١٨٩٣) ونقله إلى الأفرنسية كارا دي فر وعنوانه هكذا (التنبيه والإشراق) . أما أنا فقد اطلعت على النسخة المطبوعة في دار الصاوي بشارع درب الجماميز بالقاهرة وقد عني بتصحيحها عبدالله إسماعيل الصاري سنة (١٥٣٧هـ-١٩٣٨م) . وقد عنونت هكذا : التنبيه ، والأشراف .

٣٤-(الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى) لبهاء الدين أبي محمد القاسم ابن الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر المتوفي سنة (٥١٧هـ-١١٢٣م) . منه نسخة في المكتبة التيمورية بالقاهرة . وقد ذكره السيوطي بين المخطوطات التي أخذ عنها في كتابه أتخاف الأخصا .

٣٥-(الحاكم بأمر الله) لمحمد عبدالله عنان .

٣٦-(الحروب الصليبية في الآثار السريانية) للقس إسحق أرملة السرياني الكاثوليكي . ولد في ماردين سنة (١٨٧٩) تلقى دروسه في دير الشرفه بلبنان وسيم كاهناً . ثم هبط بيروت . وراح يدرس في مدارس الطائفه السريانية . اطلعت على كتابه هذا في بطريركية السريان بالقدس (١٩٤٦) ومن مؤلفاته (القصارى في نكبات النصارى) و(الزهرة الزكية في البطريركية السريانية) .

٣٧-(الحضرة الإنسية في الرحلة القدسية) للشيخ عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني ابن إسماعيل النابلسي . ويعرف أيضاً بالجماعينى ولد بدمشق سنة (١٠٥٠هـ-١٦٤٠م) وأتقن علم الحديث واللغة والفقه والنحو والمعاني والبيان . وأخذ الطريقة القادرية الصوفية . زار البقاع ولبنان ومصر والحجاز ، كما زار فلسطين . وقضى فترة من الزمن في بيت المقدس . ثم رجع إلى دمشق . وتوفي بها سنة (١١٤٣هـ-١٧٣٠م) .

وكتابه هذا جزء من رحلته المخطوطة . فرغ من تصنيفها سنة (١١٠١هـ-١٦٨٩م) . وقف على طبعها ديمتري نقولا صاحب مجلة الفكاهة وطبعها في مطبعة الإخلاص بمصر سنة (١٩٠٢م) ومنها نسخ مخطوطة في القدس ودمشق وبرلين . وله أيضاً مصنفات أخرى .

٣٨-(الحوادث المدينة بدمشق) للخوري ميخائيل بريك الدمشقي . مخطو اطلعت على نسخته الفوتوغرافيه في المكتبة الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف بزحلة . وهي مأخوذة عن الأصل الذي خطه المؤلف بيده ، وهو محفوظ في دار الكتب ببرلين .

٣٩-(حياة المسيح) لجيوفاني بابيني . طبع في (مطبعة العرب) بمصر (١٩٢٩م) .

٤٠-(حياة يسوع) للدكتور بترس سمت . تعريب حبيب سعيد .

٤١-(خطط الشام) لمحمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق . أصله من السليمانية من الأكراد الأيوبية . ولد في دمشق في أواخر صفر سنة (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) من أب كردي وأم شركسية . وأتم دراسته فيها ، شاعر واسع الاطلاع في الأدب والتاريخ والفلسفة والاجتماع ، يعرف من اللغات العربية والتركية والفارسية والأفرنسية .

كان مولعاً بالصحافة ، وله جريدة (المقتبس) . وكتب في صحف عديدة في مصر وسوريا ، وله مؤلفات كثيرة .

وكتابه هذا (خطط الشام) ، وهو الذي أخذت عنه ، فقد قضى في تأليفه خمساً وعشرين سنة . وقد جاء في ستة أجزاء ؛ طبع الجزءان الأول والثاني منها في المطبعة الحديثة بدمشق سنة (١٣٤٣هـ-١٩٢٥م) ، والثالث في مطبعة الترقي بدمشق سنة (١٣٤٣هـ-١٩٢٥م) ، والرابع في مطبعة الترقي أيضاً سنة (١٣٤٥هـ-١٩٢٦م) ، والخامس في المطبعة نفسها سنة (١٣٤٦هـ-١٩٢٧م) ، والسادس في مطبعة المفيد بدمشق سنة (١٣٤٧هـ-١٩٢٨م) .

٤٢-(خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) لمحمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد محب الدين بن أبي بكر تقي الدين بن داود المعروف بالمحبي ، ولد بدمشق (١٠٦١هـ) . وتوفي بها (١١١١هـ) واشتهر بتاريخه هذا الذي جمع فيه تراجم (١٢٧٩) فاضلاً وأميراً من مشاهير القرن الحادي عشر . طبع في المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة (١٢٨٤هـ) .

٤٣-(دائرة معارف البستان) للمعلم بطرس بن بولس بن عبدالله بن كرم بن شديد بن أبي شديد بن محفوظ البستاني . من الدبية من أعمال الخروب في جبل لبنان . ولد سنة (١٨١٩م) وتوفي سنة (١٨٨٧) ودرس العلوم الأكليريكية في مدارس لبنان . ثم تبع دعاة البروتستالتية . واشتغل في العلم والتأليف . وأعانه الخديوي إسماعيل والحكومة المصرية في تأليف كتابه هذا . وقد ظهر منه على يده ويد أبنائه أحد عشر جزءاً (١٨٧٦-١٩٠٠م) . وله مؤلفات أخرى .

٤٤-(دائرة معارف وجدي) لمحمد فريد وجدي بن مصطفى بن علي رشاد . ولد بالاسنكدرية سنة (١٨٧٥) . وألف معلمته هذه في مصر وطبعها في مطبعة دائرة المعارف سنة (١٩٢٣) فجاءت في عشرة أجزاء ، وقد أسماها (دائرة معارف القرن الرابع عشر هجري-العشرين ميلادي) . ومن مؤلفاته (الإسلام في عصر العلم) و(تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية) و(الحديقة الفكرية في إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية) و(صفوة العرفان) و(على أطلال المذهب المادي) و(الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان) و(كتاب المعلمين) و(كنز العلوم واللغة) و(مجموعة الرسائل الفلسفية) و(المدينة ولإسلام) و(المرأة المسلمة) و(الوجديات) .

٤٥-(دليل قلعة القدس) لمؤلفه س .ن . جونس مساعد مدير الآثار بحكومة فلسطين . طبع (١٩٤٤م) .

٤٦-(دولة بني قلاوون في مصر) للدكتور محمد جمال الدين سرور . مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول بمصر . طبع في مصر سنة (١٩٤٧م) .

٤٧-(الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية) لإبراهيم الأسود صاحب جريدة لبنان ومدير معارف متصرفية الجبل في العهد التركي . وكتابه هذا طبع في بعبدا سنة (١٨٩٨) وقد وصف فيه رحلة الإمبراطور غليوم الثاني والإمبراطور اوغستا فكتوريا في استانبول وسويا وفلسطين .

٤٨-(رحلة الأمير يشبك الظاهري) رحلة قام بها الأمير يشبك الظاهري من القاهرة إلى بر الشام . دامت رحلته من سنة (٨٧٥هـ-١٤٧٠م) إلى سنة (٨٧٧هـ-١٤٧٢م) . وقد عهد إليه يومئذ الملك الأشرف قايتباي بإدارة المملكة الشامية من العريش إلى الفرات . فقام بمهمته ودون رحلته . وقد اطلعت في دار

الكتب المصرية بالقاهرة (رقم ٢٥٩٢) على نسخة أُخذت بالفوتوغراف عن الأصل الذي خطه بيده .

٤٩-(رحلة قايتباي) أو (القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف) تتضمن وصف الرحلة التي قام بها سيف الدين أبو النصر قايتباي بن عبدالله الظاهري الذي حكم مصر سنة (٨٣٨هـ-١٤٣٤م) ونوفي سنة (٩٠١هـ-١٤٠٥م) . وقد قام برحلته هذه سنة (٨٨٢هـ-١٤٧٧م) إلى فلسطين والشام . فوصف عادات تلك الأيام وشؤون أهلها . لمؤلفها أبي البقاء بن يحيى بن الجيعان المتوفي سنة (٩٠٠هـ-١٤٩٤م) . ورأيت نسختها المخطوطة في المكتبة الخديوية . وقد طبعت في تورينو بإيطاليا سنة (١٨٧٨م) باسم (تاريخ قايتباي) وذلك بعناية لانزوني .

٥٠-(رسائل بيلاطس البنطي) إلى صديقه سنيكا في روما . بقلم و . ب . كروزير أستاذ كلية ترينتي في جامعة أوكسفورد . تعريب جريدة فلسطين . وطبعت في (مطبعة جريدة فلسطين) بيافا سنة (١٩٤٥) .

٥١-(سجلات المحكمة الشرعية بالقدس) أتيح لي الإطلاع على هذه السجلات المحفوظة في خزائن المحكمة الشرعية بإذن خاص من المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى . وهي تحتوي على جميع الحوادث التي جرت بالقدس خلال القرون الأربعة الأخيرة . وفيها الشيء الكثير من الأخبار والمعلومات القيمة عن القدس وعما جرى فيها من أحداث .

٥٢-(سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر) لشيخ الإسلام أبي الفضل محمد خليل ابن علي بهاء الدين محمد البخاري المعروف بالمرادي . مفتي السادة الحنفية بدمشق . توفي سنة (١٢٠٦هـ-١٧٩١م) . وكتابه هذا جمعه في رحلاته الكثيرة . وهو يتضمن كما بفهم من التسمية -تراجم الأعيان في القرن الثاني عشر . طبع الجزء الأول إلى الثالث في الآستانة سنة (١٢٩١هـ-١٨٧٤م) والجزء الرابع في بولاق بمصر (١٣٠١هـ-١٨٨٣م) .

٥٣-(السلوك لمعرفة دول الملوك) لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسن بن عبد الصمد بن تميم ، الشهير بالمقريزي . أقام بمكة حتى سنة (٨٣٩هـ-١٤٣٥م) . وتوفي بالقاهرة سنة (٨٤٥هـ-١٤٤١م) . وقد صحح الكتاب ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ التاريخ بكلية الآداب بالجامعة المصرية سنة (١٩٣٤) . وهو

الذي اعتمدت عليه في كتابي هذا .

٥٤-(سؤال وجواب عن بيت المقدس) من مجاميع المكتبة الخالدية عدد (٤٧) .

٥٥-(سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس) لمصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي المتوفي سنة (١١٧٨هـ-١٧٦٤م) وصف فيه رحلته من دمياط إلى القدس في ستة شهور . أنه مخطوط اطلعت على نسخة من في مكتبة الصديق المرحوم السيد رشيد مكي بجورة عسقلان من أعمال المجدل . وهناك نسخة عنه في برلين .

٥٦-(سياحات ومشاهدات) لجرجي الخوري المقدسي . طبع في مطبعة الوفاء ببيروت (١٩٣٤م) .

٥٧-(السير السليم في يافا والرملة وأورشليم) للآباء الفرنسيسيين . طبع في مطبعتهم بالقدس (١٨٩٠م) .

٥٨-(شذرات الذهب في أخبار من ذهب) لأبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد المعروف بابن العماد البكري الدمشقي الحنبلي . وهو تاريخ جامع للحوادث والتراجم من الهجرة إلى سنة ألف . ولد بدمشق سنة (١٠٣٢هـ) . وتوفي بمكة سنة (١٠٨٩هـ-١٦٧٨م) . والطبعة التي اعتمدتها في كتابي هذا طبعت سنة (١٣٥٠هـ-١٩٣١م) . وهي مأخوذة عن نسخة المصنف الأصلية المحفوظة في دار الكتب المصرية وعن نسخة الأمير عبد القادر الجزائري في خزانة الكتب الظاهرية بدمشق .

٥٩-(صبحي الأعشى) لأحمد بن علي بن أحمد عبدالله الشهاب بن الجمال بن أبي اليمن القلقشندي . سمي كذلك نسبة إلى (قلقشندة) من أعمال القليوبية بمصر . وكتابه هذا في صناعة الإنشاء جاء في أربعة عشر مجلداً . فرغ من تأليفه سنة (٨٦٤هـ) . وقد طبع في مطبعة دار الكتب المصرية (١٩١٣-١٩٢٠) .

٦٠-(الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) لشمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد البخاري . ولد في القاهرة سنة (٨٣١هـ) ودرس وبرع في الفقه والعربية والحديث . وقد أكب على التاريخ حتى أفنى فيه عمره . ومن مشايخه الحافظ بن حجر العسقلاني . وأخذ عنه أكثر تصانيفه . وجاب البلاد ؛ فدخل فيما دخل بيت المقدس . وتوفي في المدينة (٩٠٢هـ) ودفن بالبقيع بجوار مشهد الإمام مالك . وألف كتباً كثيرة منها هذا

الكتاب وقد جاء في اثني عشر جزءاً ، عنيت بنشره مكتبة القدسي بمصر . وله مصنفات أخرى .

٦١-(عجائب الآثار في التراجم والأخبار) للشيخ عبدالرحمن بن حسن الجبرتي . أصله من بلاد الجبرت من أعمال الحبشة . ولد سنة (١١٦٧هـ) . ودرس في الأزهر . وتوفي مخنوقاً بطريق شبرا مصر سنة (١٢٤٠هـ) . وكتابه هذا ويعرف بتاريخ الجبرتي جمع فيه حوادث آخر القرن الثاني عشر للهجرة . وأوائل القرن الثالث عشر . طبعه في مطبعة بولاق بمصر (١٢٩٧هـ) وفي المطبعة الشرقية (١٣٢٣هـ) والطبعة الأخيرة هذه هي التي اطلعت عليها وأخذت منها .

٦٢-(عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) لبدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد ابن حسين بن يوسف بن محمود المعروف بالعيني . ولد بعينتاب من أعمال حلب سنة (٧٦٢ه) وتوفي بالقاهرة سنة (٨٥٥هـ) . وزار دمشق والقاهرة وبيت المقدس . وولى القضاء في مصر . وكانت له منزلة عند الملك الأشرف برسباي وله مصنفات عديدة منها كتاب عقد الجمان هذا ، وقد جاء في تسعة عشر مجلداً لا ندري إذا كان قد تم طبعها كلها ، وإن جاء في (معجم المطبوعات العربية والمصرية) لجامعة يوسف آليان سركيس (١٣٤٧هـ-١٩٢٩م) أن هناك بعض أجزاء مخطوطة في دار الكتب المصرية ، ونسخة في (٢٤) جزءاً في مكتبة بايزيد بالقسطنطينية . وقد اطلعت على نبذ منه في (مجموعة الحروب الصليبية) في الخزانة الظاهرية بدمشق .

٦٣-(فتوح البلدان) للإمام أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري . نشأ في بغداد وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز . وكان شاعراً وعالماً وأديباً ونسابا . نقل الفارسية إلى العربية . شرب تمر البلاذر على غير معرفة . ومنه اسمه . فوسوس في آخر أيامه وأخذ إلى البيمارستان ومات سنة (٢٧٩هـ) . وكتابه هذا الذي كتبه قبل مرضه . اجمع كتب الفتوح وأصحها . طبع باعتناء الموسيو دي غويه في ثلاثة أجزاء (١٨٦٣م) ، وجزء منه باعتناء اهلورد (١٨٨٣م) .

ومن مؤلفاته (أنساب الأشراف وأخبارهم) وفيه كثير من أخبار بني أمية في زمن عبد الملك والوليد .

٦٤-(فتوح الشام) لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد المعروف بالواقدي . مولى بني هاشم . ولد بالمدينة سنة (١٣٠هـ) وتوفي ببغداد سنه سبع ومائتين . ودفن

بمقابر الخيزران . كان قاضياً ببغداد . ويعتبر من اقدم مؤرخي الإسلام . استقضاه الرشيد والمأمون . طبع كتابه هذا في جزئين بكلكتة (١٨٥٤م) . وله مؤلفات أخرى مثيرة . وقد ذكره البلاذري والمسعودي وابن خلكان .

٦٥-(فضائل بيت المقدس والشام) لأبي المعالي المشرف بن المرجى بن إبراهيم المقدسي . أنه مخطوط . منه نسخة في دار الكتب المصرية تاريخها (١٢٤٩هـ-١٩٣٢م) .

٦٦-(فلسطين الدامية) لمحمد تيسير ظبيان الكيلاني . طبع في (مطبعة الاعتدال) بدمشق (١٩٣٧م) .

٦٧-(القرآن الكريم) .

٦٨-(القضية الفلسطينية) لأكرم زعيتر . أخرجته دار المعارف بمصر عام (١٩٥٥) . والأستاذ زعيتر من الكتاب المبرزين . وكتابه هذا من أحسن الكتب التي وضعت في قضية فلسطين .

٦٩-(القول الحق) في تاريخ سورية وفلسطين والعراق . لمؤلفه ج . دي . ف . لورد . ومعربه نزيه المؤيد العظم . طبع بالمطبعة الحديثة بدمشق (١٣٤٣هـ-١٩٢٥م) .

٧٠-(الكامل في التاريخ) لأبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني الملقب عز الدين . ويسمونه أيضاً : ابن الأثير الجزري . ولد بجزيرة عمر على دجلة قريبا من الموصل . وكان ذلك سنة (٥٥٥) للهجرة . وقام برحلات عديدة في شبابه بين بغداد ودمشق والقدس . ولما عاد إلى الموصل انزوى في منزله منكباً على التصنيف . وكان إماماً حافظاً للتواريخ خبيراً بأنساب العرب .

وكتابه هذا طبع في ليدن (١٨٧١-١٨٧٦) وفي مصر (١٣٠٢هـ) .

وله كتابان آخران : أحدهما (أسد الغابة في معرفة الصحابة) والثاني (اللباب في معرفة الأنساب) .

٧١-(الكتاب الأبيض) رقم (٣٢٢٩) (سنة ١٩٢٨) .

٧٢-(الكتاب الأبيض) رقم (٣٥٣٠) (سنة ١٩٣٠) .

٧٣-(كتاب الاعتبار) لأبي المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني . ومن ألقابه محب الدين ومؤيد الدولة . أنه من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر من أعمال حماة .

ولد سنة (٤٨٨هـ-١٠٩٥م) واستدعاه صلاح الدين إلى دمشق سنة (٥٧٠هـ-١١٧٤م) . وكان قد جاوز الثمانين . كان قويافي نثره ونظمه . وله تصانيف عديدة : منها كتابه هذا . وقد سجل فيه سيرة حياته ورحلاته . ولما نزل القدس وصف الصليبيين وما فعلوه فيها . عني بنشره الأستاذ هرتويك ديرنبرج (١٨٨٩م) . وقد ترجم إلى اللغتين : الأفرنسية والألمانية .

٧٤-(كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) لشهاب الدين بن محمد عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المعروف بابن شامة . سميكذلك لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر .

ولد بدمشق (٥٩٦هـ-١١٩٩م) وقرأ القرآن وسافر إلى الإسكندرية حيث أتقن الفقه ودرس وأفتى . وبرع في العربية . وأختصر تاريخ دمشق لابن عساكر . وتوفي بدمشق (٦٦٥هـ-١٢٦٦م) .

والمقصود بالدولتين : النووية والصلاحية . طبع في مطبعة وادي النيل (١٨٩٢م) بتصحيح أبي السعود المترجم بقلم الترجمة بديوان عموم المدارس المصرية . وطبع منتخبات منه مع ترجمة فرنسية في باريس سنة (١٨٨٨م) .

٧٥-(كنيسة القيامة) للخوري ثاوفانس شار . طبع في مطبعة الأباء الفرنسيسيين بالقدس (١٩١٨) .

٧٦-(مثير الغرام بفضائل القدس والشام) تأليف الأمام أبي محمود أحمد بن إبراهيم ابن هلال بن تميم بن سرور المقدسي الشافعي . رأيت نسخة مصورة بالفوتوغراف في مكتبة المتحف الفلسطيني . ومنها يفهم أن مؤلفه ولد سنة (٧١٤هـ-١٣١٤م) وتوفي سنة (٧٦٥هـ-١٣٦٣م) وإنه فرغ من تأليفه في شعبان سنة (٧٥٧هـ-١٣٥٦م) .

واطلعت على نسخة أخرى منه في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وقد خطب بتاريخ (٩٩٨هـ-١٥٩٠م) .

وهناك مخطوط آخر بهذا الاسم في المكتبة الخالدية بالقدس تاريخه (٩٨٧هـ-١٥٧٩م) . صححه وشرحه وعلق عليه مدير الكلية العربية الأستاذ أحمد سامح الخالدي سنة (١٣٦٥هـ-١٩٤٦م) ويوجد أيضاً نسختان أخريان : واحدة في دار الكتب المصرية والثانية في برلين . وقد اختصره ابن عمار في كتاب سماه : (منتهى المرام في تحصيل مثير الغرام) .

٧٧-(مجموعة الحروب الصليبية) حوت ما كتبه المؤرخون الشرقيون عن الحروب الصليبية . اعتنى بجمعها ونشرها مترجمة إلى اللغة الفرنسية مجمع الآثار والفنون الفرنساوي . تتألف من ثلاثة أجزاء طبعت في باريس : الأول سنة (١٨٧٢م) والثاني سنة (١٨٧٦م) والثلث سنة (١٨٨٤م) . وفيها مقتطفات من تاريخ أبي الفداء ، ومن كامل التواريخ لابن الأثير ، ومن ابن خلكان ، ومن كتاب عبد اللطيف البغدادي ، ومن رحلة ابن جبير ، وابن ميسر ، ومرآة الزمان ، والنجوم الزاهرة ، ومن معجم كمال الدين .

ولقد اطلعت على هذه المجموعة في المكتبة الظاهرية بدمشق .

٧٨-(مجموعة مراسلات للقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن بصاقة) مخطوطة اطلعت عليها في مكتبة المرحوم الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف بزحلة . ويرجع تاريخ هذه المخطوطة إلى سنة (٦٤٤هـ-١٢٤٦م) .

٧٩-(مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي) لسيد أمير علي العضو في المجلس شورى الملك بإنكلترا . وهو كتاب يبحث في نهضة المسلمين وتدهور سلطانهم وتطور المناحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في الأمة العربية من أقدم العصور حتى أغارة التتر على بغداد . وضعه المؤلف باللغة الإنكليزية بعنوان A Short History of the Saracens ونقله إلى العربية رياض رأفت ، وطبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة (١٩٣٨م) .

وللمؤلف كتب أخرى منها : (روح الإسلام) و(القانون الإسلامي) .

٨٠-(المختصر في تاريخ البشر) للسلطان الأمام والملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه . صاحب حماه ، المعروف بأبي الفداء . ولد سنة (٦٧٢هـ-١٢٧٣م) . وكان بارعاً في الفقه والطب والأصول العربية والتاريخ والأدب . وكان أميراً ثم صار في زمن الملك الناصر محمد قلاون سلطاناً على حماه . ولقب بالملك الصالح . ثم غير السلطان لقبه ولقبه بالملك المؤيد .

ألف كتابه هذا (المختصر في أخبار البشر) ويعرف بتاريخ أبي الفداء ، آخذاً بعضه أو جله من الكامل لابن الأثير . ولقد طبع هذا في المطبعة الحسينية بمصر (١٣٢٥هـ-١٩٠٧م) ومعه تتمة للشيخ عمر بن المظفر المعروف بابن الوردي .

ومن مؤلفاته (تقويم البلدان) جمع فيه ما تفوق في الكتب التي الفت في البلاد

لابن حوقل والشريف الإدريسي وابن خرداذبة والسمعاني وياقوت وغيرهم من الكتاب .

٨١-(تتمة لمختصر في أخبار البشر) لابن حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر ابن محمد بن أبي الفوارس بن علي الشهير بابن الوردي . ولد في معرة النعمان (٦٨٩هـ-١٢٩٠م) . وكان شاعراً وكان إماماً بارعاً في اللغة والفقه والنحو والأدب . له تصانيف كثيرة . منها هذا الكتاب ويعرف بتاريخ ابن الوردي . اختصر فيه كتاب (المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء ، وذيله من سنة (٧٢٩هـ) إلى سنة (٧٤٩هـ) . ولقد طبعت تتمة المختصر في الآستانة بذيل تاريخ أبي الفداء المطبوع سنة (١٢٨٦) في أربعة أجزاء . وعليه طبع الكتاب نفسه في مصر بأربعة أجزاء سنة (١٣٢٥هـ-١٩٠٧م) وله مؤلفات كثيرة أخرى .

٨٢-(مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) لأبي المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي ابن عبدالله المعروف بسبط ابن الجوزي .

ولد ببغداد سنة (٥٧٢هـ-١١٧٦م) . ورحل في العراق والشام . وتفقه على عدد من العلماء . وكان مفرطاً في الذكاء . توفي ودفن في دمشق .

طبع من هذا التاريخ بالفوتوغراف الجزء الثامن فقط في شيكاغو سنة (١٩٠٧م) . وطبع منه منتخبات مع ترجمة فرنساوية للأستاذ باربيه دي منيار في باريس سنة (١٨٧٢م) . وأدخلت تلك المنتخبات مع ترجمتها في الجزء الثالث من مجموعة تاريخ الحروب الصليبية .

٨٣-(المرسليات اللاتينية وامتيازات الأجانب) لالفونس دالونصو .

٨٤-(مرشد الطالبين إلى الآثار المقدسة في فلسطين) ليوحنا الخوري جرجس سكسك المقدسي . وهو مخطوط في أجزاء عديدة اطلعت عليها في خزانة ولده جرجس سكسك بالقدس .

٨٥-(مرشد الطلاب إلى جغرافية الكتاب) للقس أسعد منصور .

٨٦-(مالك الأبصار في ممالك الأمصار) للقاضي شهاب الدين أبي العباس أحمد المعروف بابن فضل الله العمري . ولد سنة (٧٠٠هـ-١٣٠٠م) . وتوفي سنة (٧٥٥هـ-١٣٥٤م) . وقد وصف المسجد الأقصى كما كان سنة (٧٤٣هـ-١٣٤٢م) آخذاً أكثره عن (سلسلة العسجد في صفة الصخرة والمسجد) للصاحب تاج الدين أبي الفضائل أحمد بن أمين الملك . وقد حقق كتابه هذا

وطبعه هذا وطبعه بمصر شيخ العروبة أحمد زكي باشا . وكان ذلك بتاريخ (١٣٤٣هـ-١٩٢٤م) .

٨٧-(المسالك والممالك) لأبي القاسم عبيد الله بن عبدالله بن أحمد المعروف بابن خرداذبة الخراساني . ولد سنة (٢١١هـ٨٢٦م) وتوفي سنة (٣٠٠هـ-٩١٢م) . كان مجوسياً ، فاسلم على يد البرامكة . ونادم المتعمد . وكتابه هذا يبحث عن شؤون الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث للهجرة . طبع في ليدن سنة (١٨٨٩) للميلاد باعتناء الأستاذ دي غويه .

٨٨-(المستقصى في فضائل المسجد الأقصى) لنضير الدين الرومي الحلبي المتوفي سنة (٩٤٨هـ-١٥١م) .

٨٩-(المعاهد المصرية) في بيت المقدس . بقلم أحمد سامح الخالدي المقدسي .

٩٠-(معجم البلدان) لياقوت الحموي . أنه أبو عبدالله ياقوت بن عبيدالله الرومي الجنس الحموي المولد البغدادي الدار . ولد في بلاد الروم . وأسر صغيراً . وابتاعه رجل تاجر ببغداد . ولما كبر شغله مولاه بالأسفار . وكثيراً ما نزل الشام . وأعتقه مولاه سنة (٥٩٦هـ-١١٩٩م) . وقام برحلات عديدة بين الشام والعراق . وجمع في أسفاره الشيء الكثير من الأخبار لكتابه الذي أسماه : (معجم البلدان) . وفي حلب أتمه بمساعدة جمال الدين القفطي . وكان ذلك في سنة (٦٢١هـ-١٢٢٤م) . وتوفي في حلب .

وأما كتابه هذا فقد طبع باعتناء وستنفلد في ستة أجزاء . طبع في ليبسيك (١٨٦٦) وفي مصر بمطبعة السعادة (١٣٢٣هـ١٩٠٥م) .

وله أربعة كتب أخرى . أهمها كتاب (معجم الأدباء) .

٩١-(مكاتب الأسر العربية بالقدس) لأسطفان حنا اسطفان البحالي المقدسي . ولد في بيت جالا . وتوفي في لبنان (١٩٤٩ه) عن عمر يناهز الخمسين . وكتابه هذا مخطوط أطلعني عليه يوم كان أميناً لخزانة المتحف الفلسطيني . وله مصنف آخر في (قضاة القدس) أطلعني عليه . وهذا أيضاً مخطوط . وقد أخذه عن شذرات الذهب والأنس الجليل والضوء اللامع ووفيات الأعيان وفوات الوفيات والرحلة القدسية والشقائق النعمانية والمحبي والمرادي .

٩٢-(النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة) للأمير جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي . ولد بالقاهرة سنة (٨١٣هـ-١٤١٠م) . كان والده مملوكاً تركياً

اشتراه الملك الظاهر برقوق وسماه أميراً على حلب . وأما هو فقد رباه زوج أخته قاضي القضاة ناصر الدين ابن العديم الحنفي قد لازم مؤرخي عصره كالعيني والمقريزي . فمهر وكتب وصنف وألف . ومن مؤلفاته هذا الكتاب . وقد ذكر فيه من ولي مصر من السلاطين والنواب من الفتح العمري إلى زمانه . طبعت بعض أجزائه في ليدن (١٨٥٥م) باعتناء المستشرق الهولندي جوينبول والأستاذ ماتس . وطبع بعضها الأستاذ وليم بوبر من كلية كاليفورنيا بين سنتي (١٩٠٩-١٩٢٣) . ثم جاءت دار الكتب المصرية فطبعت في مطبعتها تسعة أجزاء بين (١٣٥٠هـ-١٩٣١م و١٣٦١هـ-١٩٤٢م) . وهي التي راجعتها من أجل كتابي هذا .

٩٣-(النظام الاقتصادي في فلسطين) لسعيد حماده أستاذ الاقتصاد العملي في جامعة بيروت الأميركية . طبع في المطبعة الأميركانية في بيروت سنة (١٩٣٩م) . وله أيضاً (النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان) و (النظام الاقتصادي في العراق) .

٩٤- (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) : لأبي المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي ، المعروف بابن شداد بهاء الدين . ولد بالموصل (٥٣٩هـ-١١٤٤م) وتوفى في حلب (٦٣٢هـ-١٢٣٤م) وتفقه على يد رهط من علماء عصره . واتصل بصلاح الدين . فصاحبه هو والقاضي الفاضل في كثير من غزواته . وكان قاضياً لعسكره . وقد حرر وقائعه فجاءت في كتاب اسماه : (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وهي تشمل على سيرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين . طبع في ليدن سنة (١٧٣٢و١٧٥٥) مع ترجمة إلى اللغة اللاتينية للأستاذ شلتنس A. Schultens . وطبع أيضاً في مطبعة المؤيد بمصر (١٣١٧ه) . وطبع في لندن (١٨٩٧) مع مقدمة باللغة الإنكليزية للمستر ويلسون Ch.Wilson وقد اطلعت على الأصل والترجمة الافرنسية في مجموعة الحروب الصليبية بمكتبة الظاهر بدمشق . ومنها جاء ما اقتبسنا .

٩٥-(هيكل سليمان) : أو الوطن القومي لليهود لمؤلفه يوسف الحاج . طبع في بيروت سنة (١٩٣٤م) .

٩٦-(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) : لقاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان . ولد باربل من أعمال

العراق قرب الموصل سنة (٦٠٨هـ-١٢١١م) وانتقل بعد موت أبيه إلى الموصل. ثم سافر إلى حلب. وتتلمذ على القاضي بهاء الدين بن شداد. واجتمع بعز الدين بن الأثير المؤرخ المشهور. ودخل مصر. ثم قدم الشام وولي فيها القضاء. وكان عالماً بارعاً ملماً بالشعر. توفي سنة (٦٨١هـ-١٢٨٢م) وكتابه هذا يشتمل على (٨٦٤) ترجمة. طبع في ثلاثة عشر جزءاً بعناية المستشرق وستنفلد عوطا (١٨٣٥) وطبع في أوروبا بتواريخ مختلفة تراجم بعض الأعيان مستخرجة من الكتاب المذكور. والطبعة التي اعتمدتها في كتابي هذا هي الأخيرة التي طبعت بإشراف وزارة المعارف العمومية المصرية بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر (١٣٥٥هـ-١٩٣٦م).

كتب تركية

صايي	كتابك اسمي	مؤلفي
١	أوليا جلبي سياحتنامه سي	أوليا جلبي
٢	بيروت ولايتي	محمد رفيق ومحمد بهجت
٣	تاريخ جودت	جودت
٤	تاريخ لطفي	احمد لطفي
٥	تاريخ نعيما	نعيما
٦	سالنامهء دولة عثمانية	عثمانلي حكومتي
٧	سفرنامة	ناصري خسرو
٨	عثمانلي تاريخي	احمد راسم
٩	عثمانلي تاريخي	احمد رفيق
١٠	فلسطين جبهه سي	حربية نظارتي
١١	نوسال عثماني	أكرم رشاد وعثمان فريد

كتب انكليزية English Books

S.No.	Name of The Book	Name of The Author
1.	The Ancient Topography of Jerusalem	James Fergusson
2.	Annals of Palestine	Monk Neophytos of Cyprus
3.	The Antiquities of the Jews	Flavius Josephus
4.	Bibleical Resarches	Dr. Robinson
5.	Church of the Holy Sepulchre	William harvey
6.	The Decline & Fallot the Roman Empire	Gibbon
7.	The Desert ot the Exodees	E. H. Palmer
8	The Dome of the Rock	E. T. Richmond
9.	Early Muslim Architectue	K. A. C. Creswell

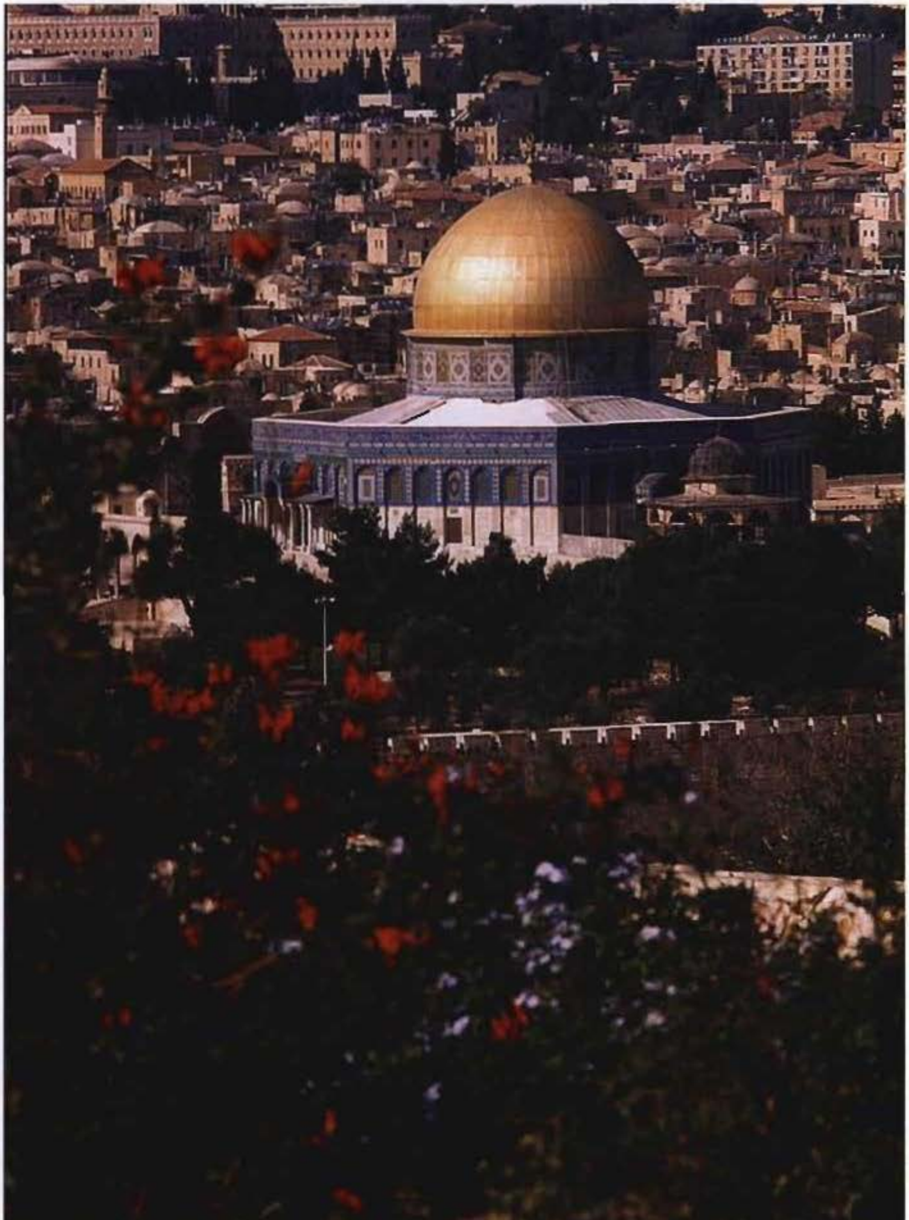
10.	Encyclopaedia Britannica	
11.	The Fall of the Lattin Kingdom of Jerusalem	Shukri Muhtadi
12.	The First Crusade	August C. Krey
13.	Folklore of the Holy Land	J. E. Hanauer
14.	Guide to Beithlehem	R. W. Hamilton
15.	Guide to the Citadel of Jerusalem	C. N. Johns
16.	Guide to the Holy Land	Fransiscan Press
17.	New Guide to the Holy City	B. Meistermann
18.	Handbook of he Anglican Bishopric in Jerusalem and the East	
19.	Handbook of Palestine & Trans-Jordan	Luke and Keith-Roach
20.	A History of the Ancient Egyptians	James H. Breasted
21.	History of the Arabs	Philip K. Hitti
22.	The Historical Geography of the Holy Land	G. A. Smith
23.	The Holy Places of Jerusalem	Hayter Lewis
24.	Jerusalem	G.A. Smith
25.	Jerusalem	Lionel Cust
26.	Jerusalem, The City of Herod and Saladin	W. Besant & H. Palmer
27.	Ancient Jerusalem	Selah Merrill
28.	The City of Jerusalem	C.R. Conder
29.	The Recovery of Jerusalem	Captain Wilson & Captain
Warren		
30.	The Story of Jerusalem	Col. Sir C. M. Watson
31.	To Jerusalem	Count Folke Bernadotte
32.	Our Jerusalem	Bertha Spafford Vester

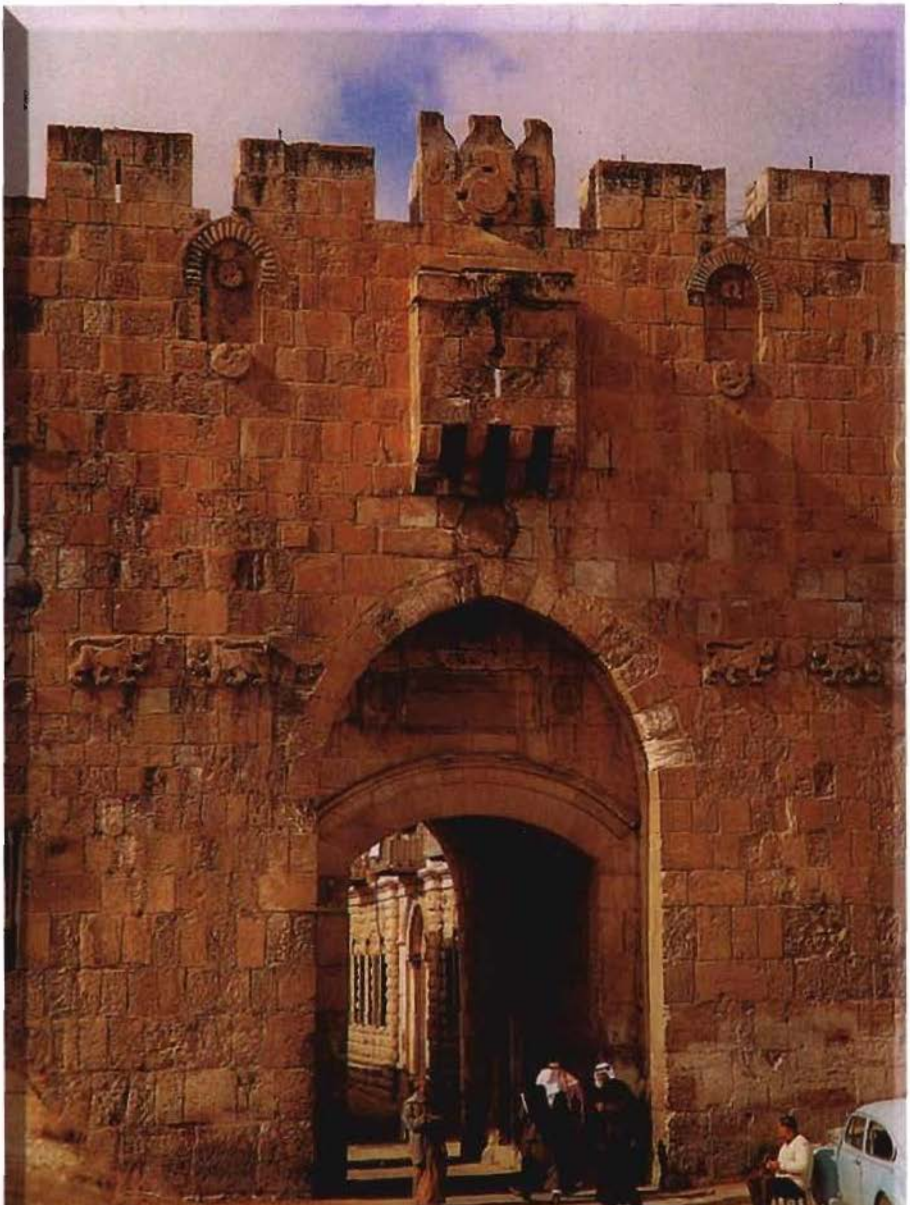
33.	Six Months in Jerusalem	Charles Biggs
34.	Underground Jerusalem	Charles Warren
35.	Jerusalem City Plan	Henry Kendall
36.	Jerusalem's Water Supply Bulletin No. 180 (June, 1938) Engine Company Ashton-Under-Lyne, England	The National Gas & Oil
37	The Knights of St. John	E.J. King
38.	Memorandum of the water resources of Palestine	The Government of Palestine
39.	The Moder Wall of Jerusalem	Hinckely G. Mitchell
40.	The Order of the Hospital of St. John of Jerusalem	H.W. Fincham
41.	The Origin of The Plan of the Dome of the Rock	K. A. C. Creswell
42.	Palestine	W.H. Boulton
43.	Palesine, Past and Present	L. Valentine
44.	Palestine Under The Moslems	Guy Le Strange
45.	A Palestine Notebook	C.R. Ashbee
46.	Ancient & Modern Palestine	Translated by Mary B.
Ro	thier. From French by	
Lie	vin De Hamme	
47.	Palestine in the earliest Historical Period (J. P. O. S. Vol. xv, p. 218.	W. F. Albright
48.	The Palestine Campakgns	Col. A. P. Wavell
49.	Notes compiled for the information ot the United Nations Special Committee on palestine, 1947	
50.	A Pilgrimage to Palestine	H.E. Fosdick

51	Pilgrimage of Arculfus in the Holy Land	James Rose Macpherson.
52.	The Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land	Col. Sir C. M. Wilson
53.	Prophets, Priests & Patriarchs	Harry Charles Luke
54.	Saewulf	The Lord Bishop of Clifton
55.	A Short History of the Saracens into Arabic: Riyad Rafat	Sayed Amir Ali, Translated
56.	Stirring Times	James Finn,
57.	Story of the Tabernacle of Jerusalem Jerusalem	The American Colony
58.	Syrian Orthodox Convent of St. Mark in Jerusalem	J. Stephan
59.	The Tell Amarna Tablets	C. R. Conder
60.	The Third Wall of Jerusalem	E.L. Sukenick, L. A. Mayer
61.	Through The Holy Land	Leonard T. Pearson
62.	Visit to Alexandria, Damascus and Jerusalem	E. Hogg
63.	Walks About Jerusalem	J.E. Hanauer
64.	With the Russian Pilgrims to Jerusalem	Stephan Graham.
65.	The War Graves of the Bri-	Imperial War Graves Commi

Deutsche Bücher كتب المانية

R.F	Name Des Buches	Name Des Vrfassers
1.	Die El-Amarna Taieln	J.A. Knudtson
2.	Die Arabischen Nachrichten sur Geschichte der Harambauten	Gildmester
3.	Der Felsendom in Jerusalem und seine Geschichte	R. Hartmann

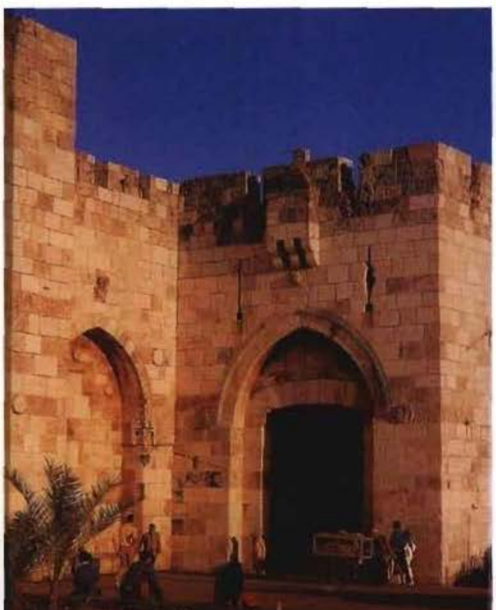


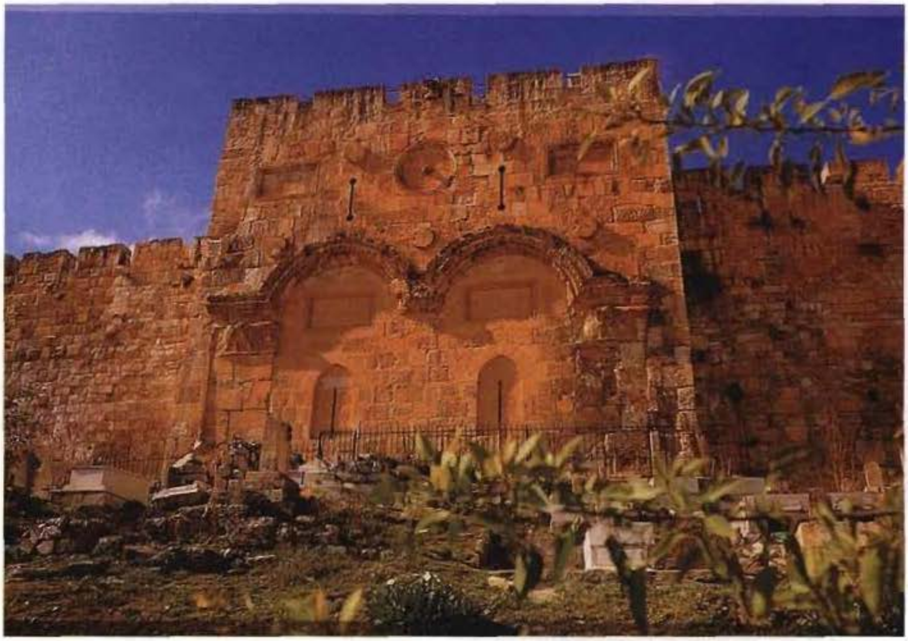






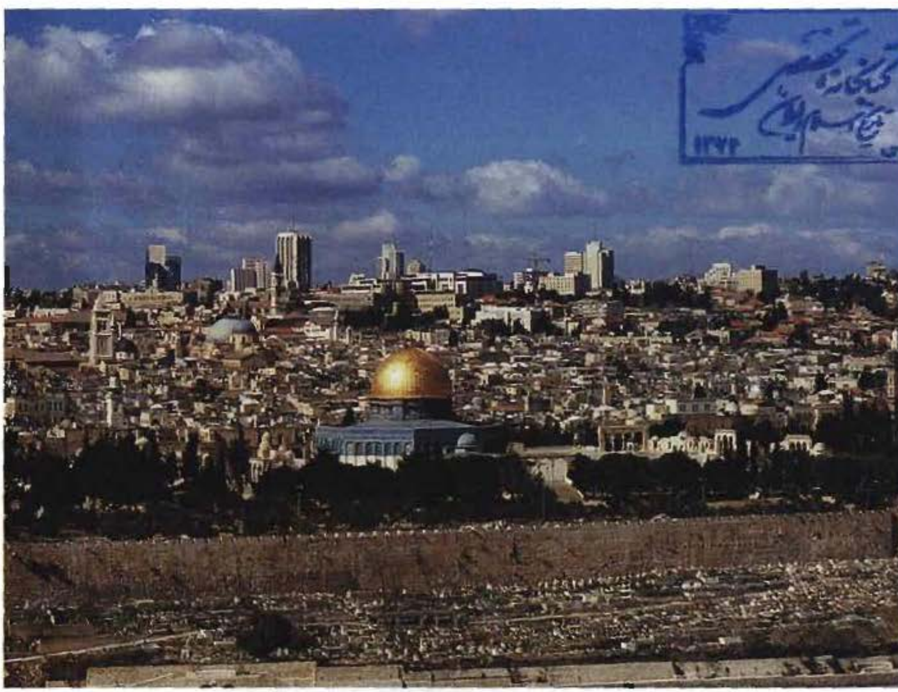




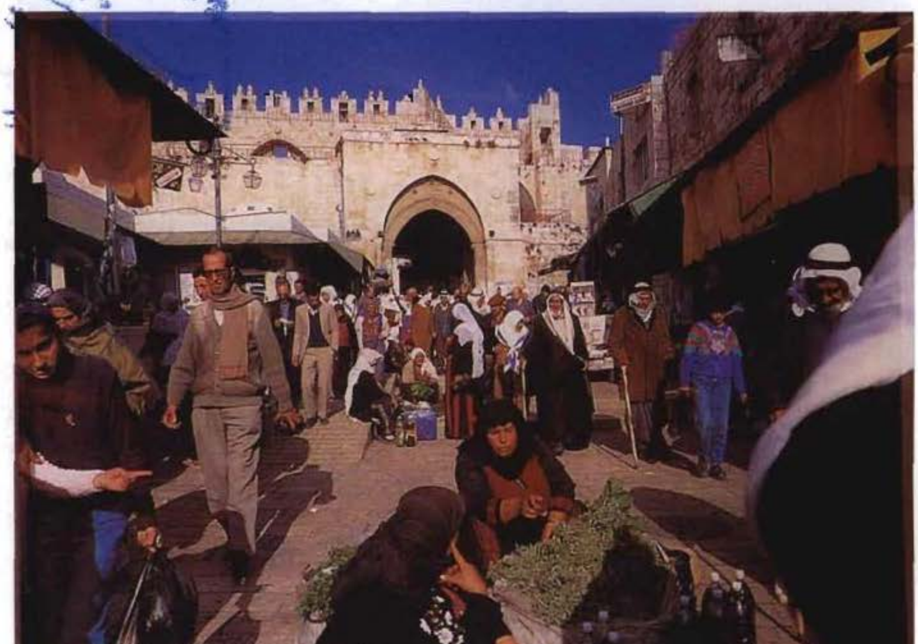


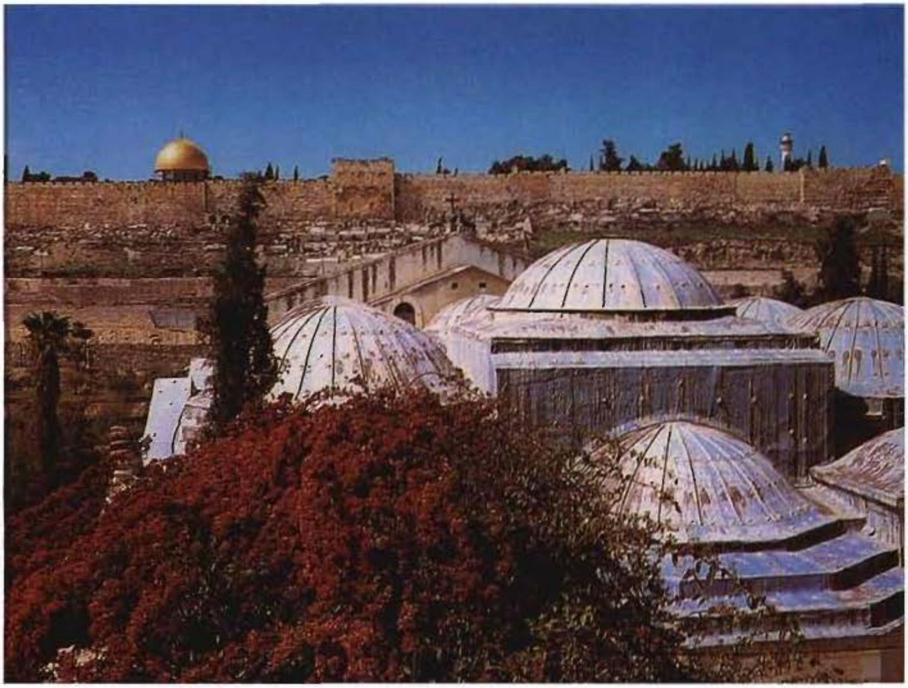














A L - M O F A S S A L
HISTORY OF JERUSALIM

تاريخ مدن
CITIES - HISTORY

المفصّل في تاريخ القدس

كان (العارف) مؤرّخاً ذا رسالة وطنيّة ظاهرة ، فقد ندب نفسه لتجلية التاريخ الفلسطينيّ ونخله من الأضاليل ، ففي حديثه عن بناء مدينة القدس مثلاً ، يقول : « *اليبوسيّون بناة القدس الأوّلون ، وكانت على عهدهم تدعى (يبوس) . إنّهم بطن من بطون العرب الأوائل ، نشأوا في قلب الجزيرة العربيّة ، وترعرعوا في أرجائها ، ثمّ نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانيّة ، وإلى هذه القبائل ينتمون . إنّهم أوّل من استوطن هذه الديار ، وهم أوّل من صنع لبنة في بناء القدس ، وكان ذلك حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م ، وعندما رحل الكنعانيّون عن الجزيرة رحلوا جماعات منفصلة ، بعضهم حطّ رحله هنا في هذه البقعة من الأرض ، وقد سمّيت بعدئذ باسمهم ، فراحت تدعى (أرض كنعان) ، والبعض الآخر نزل ما بين النهرين وهم البابليّون .* »

ويذكر عارف العارف من مدن الكنعانيّين :

يبوس : القدس

شكيم : نابلس

بيت شان : بيسان

مجدّو : تلّ المتسلّم

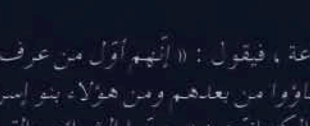
بيت إيل : بيتين

أشقلون : عسقلان

ثمّ يتحدّث عن شهرتهم في الزراعة ، فيقول : « *إنّهم أوّل من عرف زراعة الزيتون في هذه البلاد ، حتّى أنّهم علّموا الأقوام الّذين جاؤوا من بعدهم ومن هؤلاء بنو إسرائيل هذا النوع من الزراعة* » ، ثمّ يتحدّث العارف عن حضارة الكنعانيّين : « *وسنّوا الشرائع والقوانين ، ولمّا جاء بنو إسرائيل من بعدهم أخذوا الشيء الكثير من سننهم ومن أفكارهم ومبادئهم وحضارتهم .* »

هكذا أثبت (العارف) ، بما لا يقبل الشكّ ، أنّ الكنعانيّين العرب هم أوّل من سكن فلسطين فمنحوها اسمهم .

ISBN 9953-36-750-7



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥٢٣٠٨/٧٥١٤٣٨